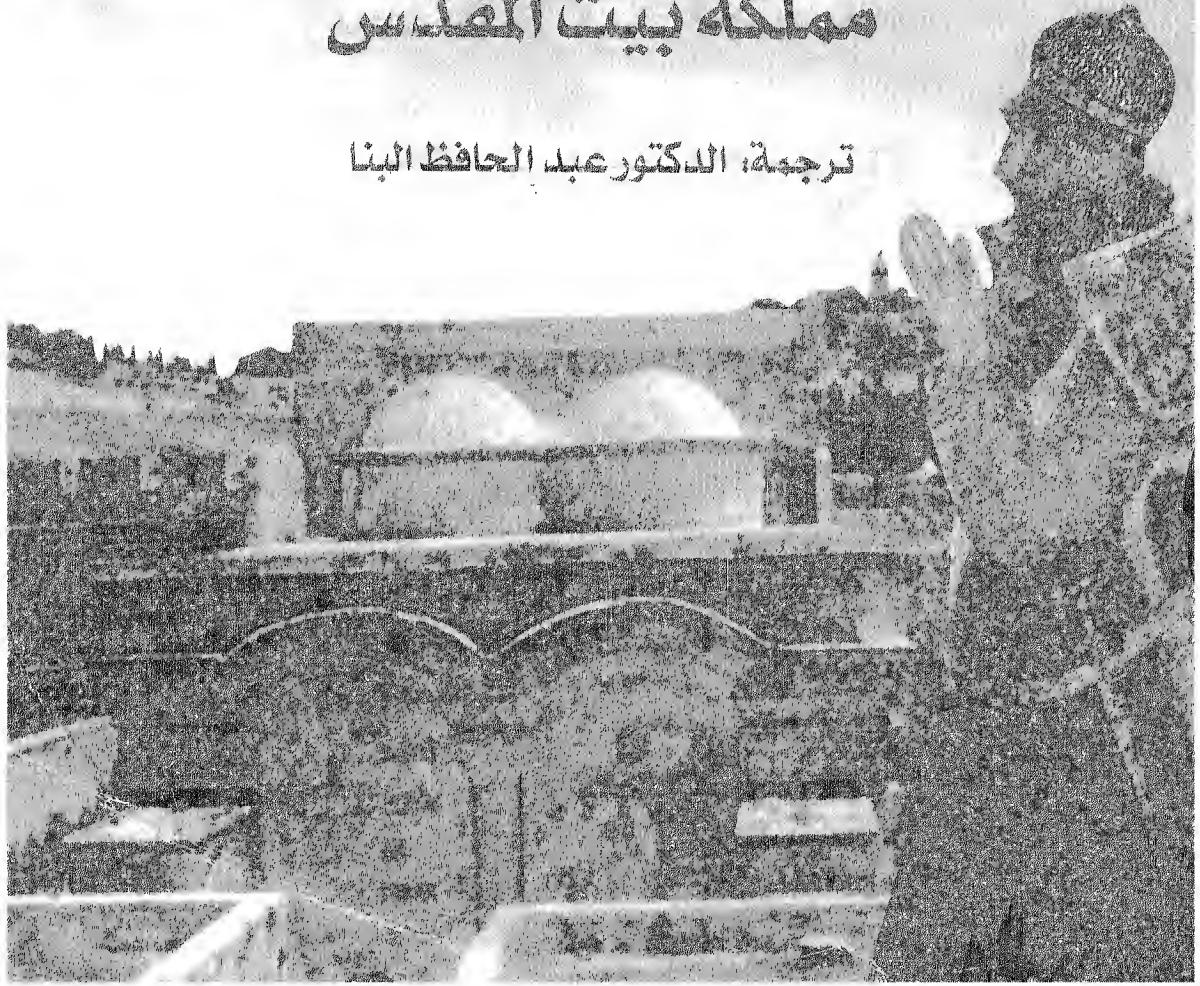


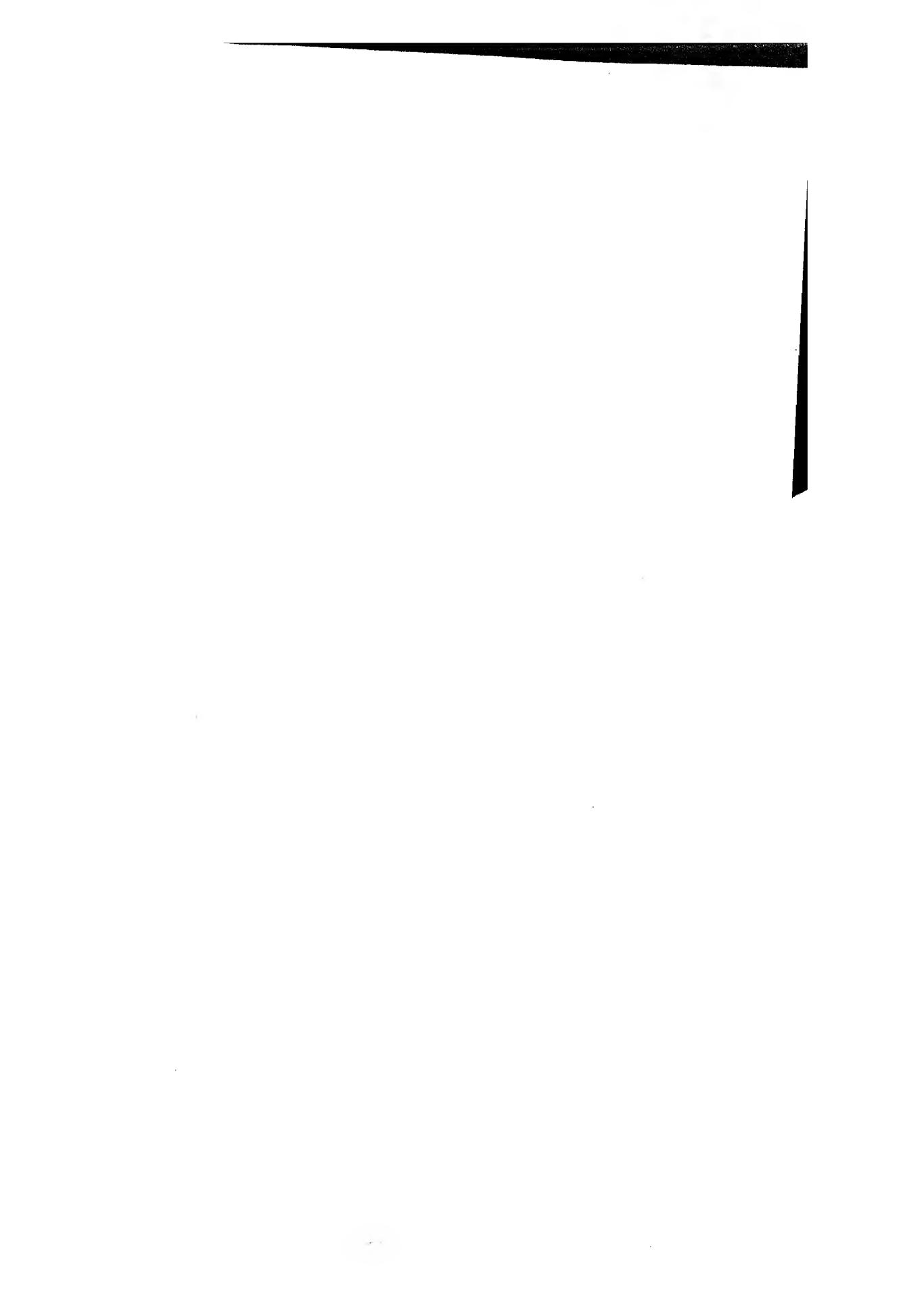
يوشنج بيراور



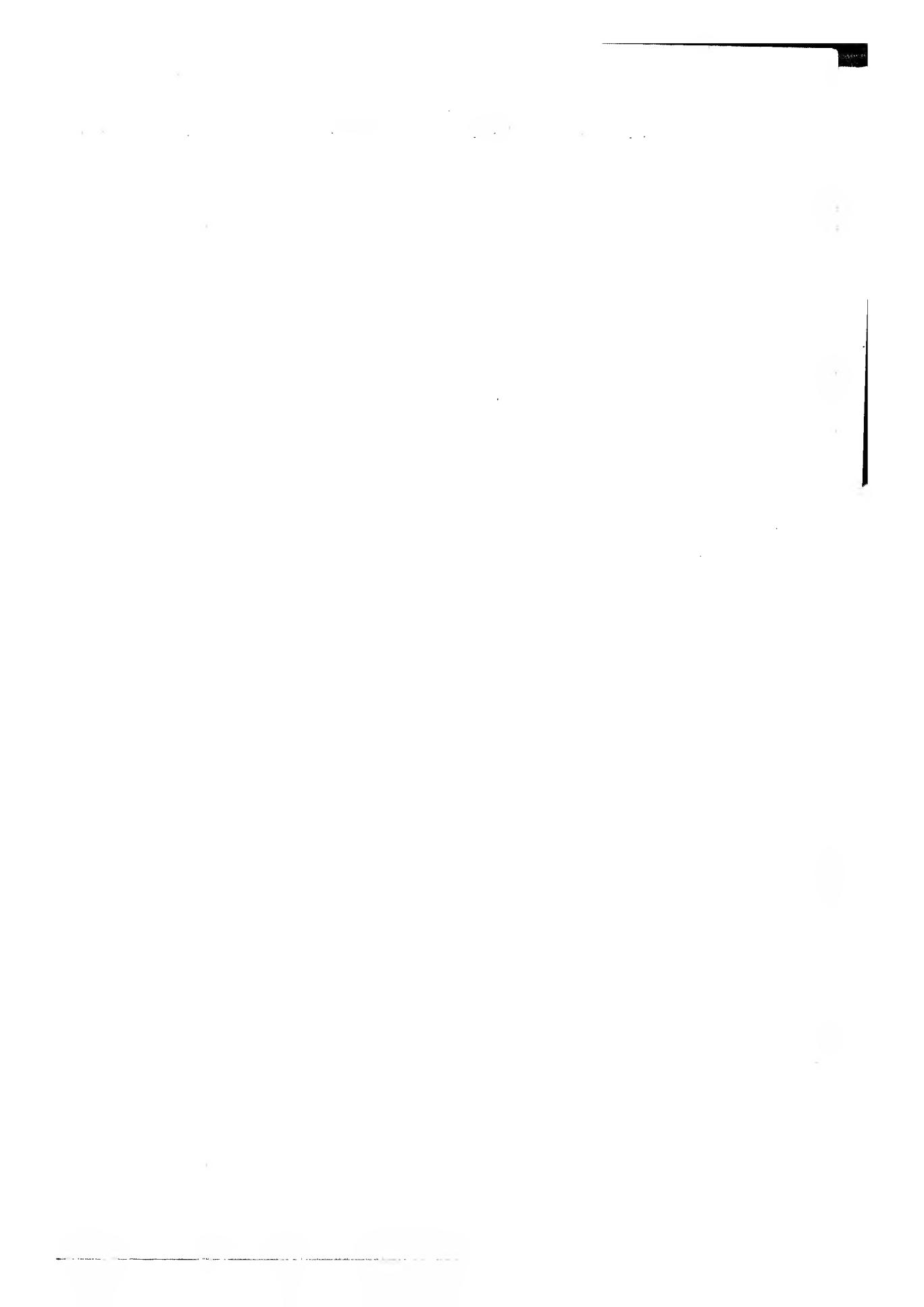
الاستعمار الصليبي في فلسطين مملكة بيت المقدس

ترجمة الدكتور عبد الحافظ البنا





الاستيطان الصليبي في فلسطين
مملكة بيت المقدس اللاتينية



BIBLIOTHECA ALIUS/ELVINA
مكتبة الاعلام والنشر

يوشع براور

الاستيطان الصليبي في فلسطين

مملكة بيت المقدس اللاتينية

ترجمة

دكتور عبد الحافظ عبد الخالق البنا

كلية الآداب - جامعة الزقازيق

الطبعة الأولى

٢٠٠١ م



عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية

EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

٧٠٩٧٧

هذه ترجمة كتاب:

Prawer , Yoshua, The Latin Kingdom of Jerusalem
European Colonialism in the Middle Ages London , 1973 ,

الشرف العام د. قاسم عبد قاسم

المستشارون

د . أـحمد إـبراهـيم الـهـوارـى
د . شـوقـى عـبـدـالـقـوى حـبـيبـىـبـ
د . عـلـى السـيـىـدـعـالـىـ
د . قـاسـم عـبـدـقـاسـ

مـلـيـرـالـنـشـرـ: مـحـمـدـعـبـالـرـحـمـنـعـفـيـفـىـ

تصـيـيمـالـغـلـافـ: مـحـمـدـأـبـوـطـالـبـ

الناشر : عـينـلـلـدـرـاسـاتـوـالـجـوـثـإـلـسـانـيـةـوـالـاجـتـمـاعـيـةـ
٥ـشـارـعـتـرـعـةـالـمـريـوطـيـةــ الـهـارـمــ جـمـعــ تـلـيفـونــ فـاـكـســ ٣٨٧١٦٩٣ـ

Publisher: EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES
5, Maryoutia St., Alharam - A.R.E. Tel : 3871693

محتويات الكتاب

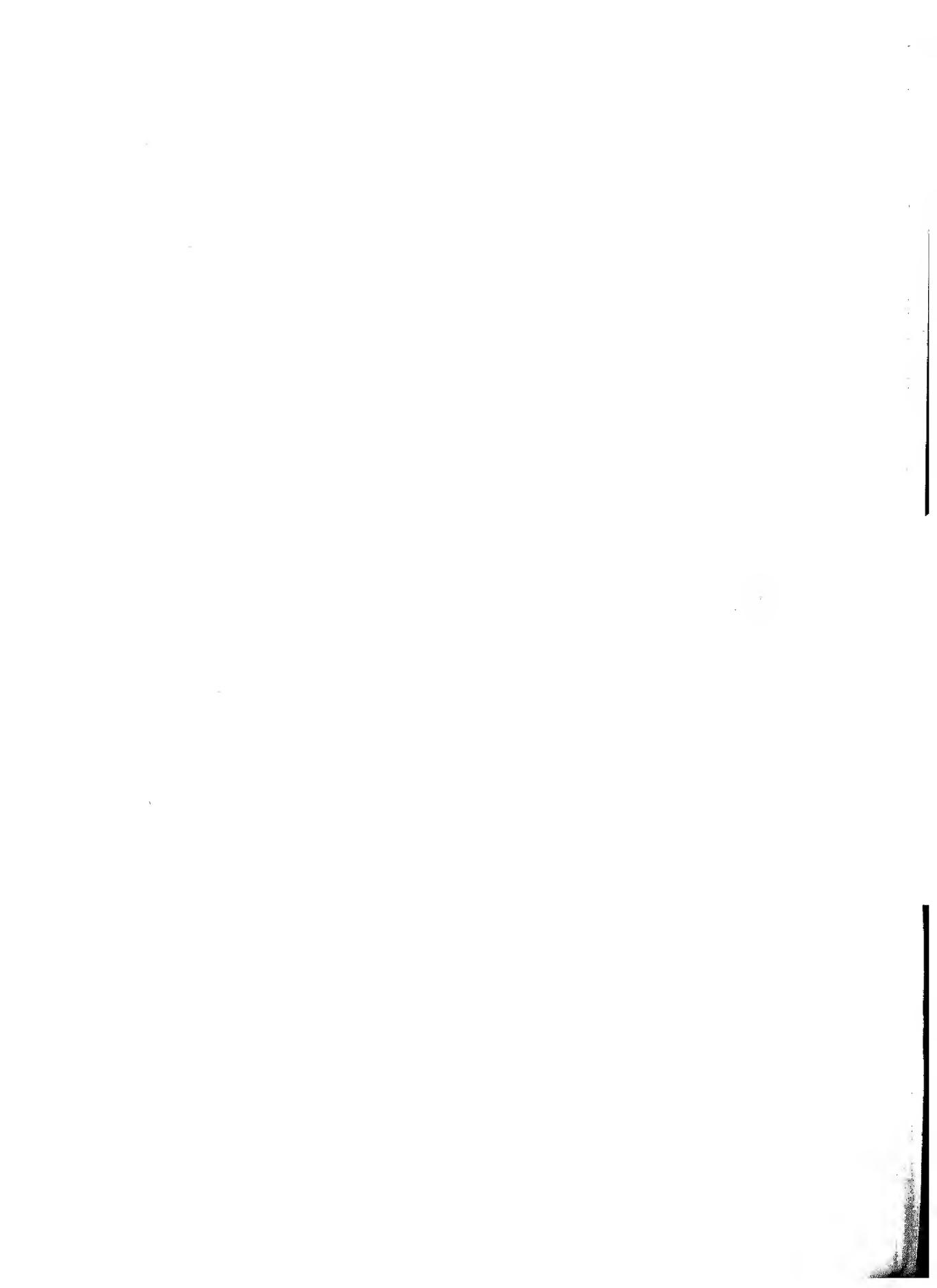
صفحة

٥	مقدمة
الفصل الأول	
٩	عشية الحروب الصليبية
الفصل الثاني	
١٣	الحملة الصليبية الأولى ...
الفصل الثالث	
٢٩	الغزو الصليبي وتأسيس الكيان الصليبي
الفصل الرابع	
٥٣	ملكة بيت المقدس الصليبية - طبيعتها واتجاهاتها
الفصل الخامس	
٦٧	الشعوب التي سكنت المناطق الصليبية في بلاد الشام وفلسطين
الفصل السادس	
٨٣	الغزاة الصليبيون والتقسيم الطبقي للمجتمع الصليبي
الفصل السابع	
١٢١	النار الملكي وسلطة الملك الصليبي
الفصل الثامن	
١٣٧	آلية الحكومة الصليبية

الفصل العاشر	
الادارة الصليبية المحلية	١٠٥
الفصل العاشر	
الكنيسة	١٩٣
الفصل الحادى عشر	
أعمال الحج والحجاج والمزارات المقدسة فى فلسطين	٢٣١
الفصل الثانى عشر	
الكنائس الشرقية	٢٥٩
الفصل الثالث عشر	
اليهود	٢٨١
الفصل الرابع عشر	
الهيئات الدينية العسكرية (الاستبارية - الداوية- التيوتون)	٣٠٥
الفصل الخامس عشر	
أسلحة الحرب والتحصينيات الصليبية	٣٣٩
الفصل السادس عشر	
الحياة الاقتصادية والتجارة	٤١٩
الفصل السابع عشر	
الفنون الصليبية	٤٩٧
الفصل الثامن عشر	
تراث الفترة الصليبية (الحصاد)	٥٥٩

إهداه

إلى محمد الدرة ...
شهيداً وشاهدأ



مقدمة المترجم

الحمد لله رب العالمين والصلوة والسلام على خير خلق الله أجمعين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين إلى يوم الدين.

الواقع إنه لا يزال موضوع الحروب الصليبية من الموضوعات التاريخية التي تحظى باهتمام المؤرخين حتى الآن في كل من أوروبا وأمريكا والعالم العربي الإسلامي. ويرجع سبب هذا الاهتمام إلى أن هذه الحقبة الصليبية بأحداثها ونتائجها تعتبر مجالاً رحباً للبحث والدراسة. وحقيقة الأمر أن هذه الحروب الصليبية التي شنتها الغرب الأوروبي الكاثوليكي ضد منطقة الشرق العربي الإسلامي في العصور الوسطى كانت بمثابة حروب استيطانية استعمارية، تسرّبت براءة الدين زوراً وبهتاناً، حيث رفع المغاربة الأوروبيون الصليب شعاراً لهم في أثناء رحفلهم صوب فلسطين وببلاد الشام.

لقد كان الصراع الإسلامي الصليبي صراعاً حضارياً في جوهره، وسياسيًا وعسكرياً في ظاهره، صراعاً بين حضاراتي الحضارة العربية الإسلامية التي كانت لا تزال تحتفظ ببعض مقومات قوتها والحضارة الأوروبية التي انطلقت من عقالها تشق طريقها صوب القوة والتتوسيع الخارجي في أواخر القرن الحادى عشر الميلادى، فأرادت أوروبا الكاثوليكية التوسيع الخارجي على حساب القوى العربية الإسلامية المعاصرة التي كانت تعانى وقتئذ من حالة التشريد السياسي. ونبع الصليبيون في النهاية في تأسيس كيانات صليبية لهم على التراب العربي، وأسسوا مملكة لاتينية في فلسطين وببلاد الشام عاشت قرابة قرنين من الزمان. وقد ترك هذا الوجود الصليبي في المنطقة العربية تأثيرات سلبية على جميع المستويات والأصعدة. ويفيتنا أن فهمنا لطبيعة التحدى الذي فرضه الوجود الصليبي في المنطقة العربية يجعلنا أكثر حيطة وحذرًا في كيفية مواجهة التحديات التي تواجه أمتنا العربية الإسلامية في الوقت الحالى. ولذا فإن موضوع الحروب الصليبية بهم كل مثقف وقاريء عربي الآن.

وإذا كان المؤرخون الأوروبيون والأمريكيون في العصر الحديث قد ساهموا بقسط كبير في مجال الدراسات المتعلقة بالحروب الصليبية، فإن المؤرخين اليهود من أمثال البروفيسور يوشع براور وأشتور وينتفنستى وغيرهم قد اهتموا أيضاً بهذا النمط من الدراسات وحرص هؤلاء المؤرخون اليهود على دراسة هذه التجربة الاستيطانية الصليبية في فلسطين وببلاد الشام،

والتعرف على طبيعتها ومعوقات نجاحها ، والمعضلات التي وقفت حجر عثرة أمام تطور المؤسسات الصليبية في الأرض العربية، وذلك لتوظيف خبرة هذه التجربة في خدمة الأغراض الاستيطانية الإسرائيلية في فلسطين في الوقت الحالي.

والكتاب الذي نقدمه اليوم للقارئ، والثقف العربي في أمتنا العربية الإسلامية نقلًا عن اللغة الإنجليزية يعتبر واحداً من هذه الدراسات الشاملة المتعلقة بالحروب الصليبية والتجربة الاستيطانية الاستعمارية الصليبية في منطقة الشرق العربي الإسلامي في العصور الوسطى، مؤلف هذا الكتاب هو البروفيسور اليهودي الإسرائيلي يوش براور أستاذ تاريخ العصور الوسطى والحروب الصليبية بالجامعة العبرية بالقدس سابقاً. ولاشك في أن هذا المؤلف صاحب دراسات متعددة وجادة في تاريخ المؤسسات الصليبية التي أسسها الصليبيون في فلسطين وببلاد الشام، خلال فترة الوجود الصليبي في المنطقة العربية التي استمرت ما يقرب من قرنين من الزمان. ولم يكن هذا الكتاب الذي قمنا بترجمته للمؤرخ يوش براور هو الكتاب الأول، ولكن سبقنا في هذا المجال أحد أساتذتنا الأجلاء البارزين في تاريخ العصور الوسطى والحروب الصليبية في مصر والعالم العربي وهو الأستاذ الدكتور قاسم عبد قاسم الذي ترجم كتاباً للمؤلف يوش براور بعنوان «عالم الصليبيين» وذلك منذ ما يقرب من عشرين عاماً مضت.

ويحمل الكتاب الذي قمنا بترجمته إلى لغة الضاد عنوان «الاستيطان الصليبي في فلسطين وببلاد الشام. الملكة اللاتينية في بيت المقدس»، وهذا الكتاب يعالج في فصوله الشمانية عشر مجلماً تاريخ الحركة الصليبية ، وقصة الاستيطان الصليبي في الأرض العربية، وطبيعة المؤسسات الصليبية التي شيدها الصليبيون في هذه المناطق العربية وقد التزم المؤلف بال الموضوعية التاريخية خلال معظم فصول كتابه ماعدا الفصل الخاص باليهود ، فقد حاول المؤلف أن يجنب بال موضوعية التاريخية كثيراً حين أراد أن ييرز دوراً لليهود خلال حقبة الصراع الإسلامي الصليبي، الأمر الذي يجافي الواقع التاريخي، ولاشك أن غرض المؤلف من وراء ذلك هو خدمة الأهداف الصهيونية الاستيطانية في إثبات فرية الوطن القومي لليهود في فلسطين. وكان لزاماً على المترجم أن يدون تعليقاته في الهوامش للرد على هذه الآراء ووجهات النظر المفعمة بالتعصب ولـي عنق الحقيقة التاريخية.

وينبغي أن أشير إلى أننى قد حرصت في الترجمة على الأسلوب العربي قدر الإمكان ، وفي نفس الوقت قد راعيت حرفية النص الإنجليزى ، وإن كنت أحياناً ألجأ إلى استخدام

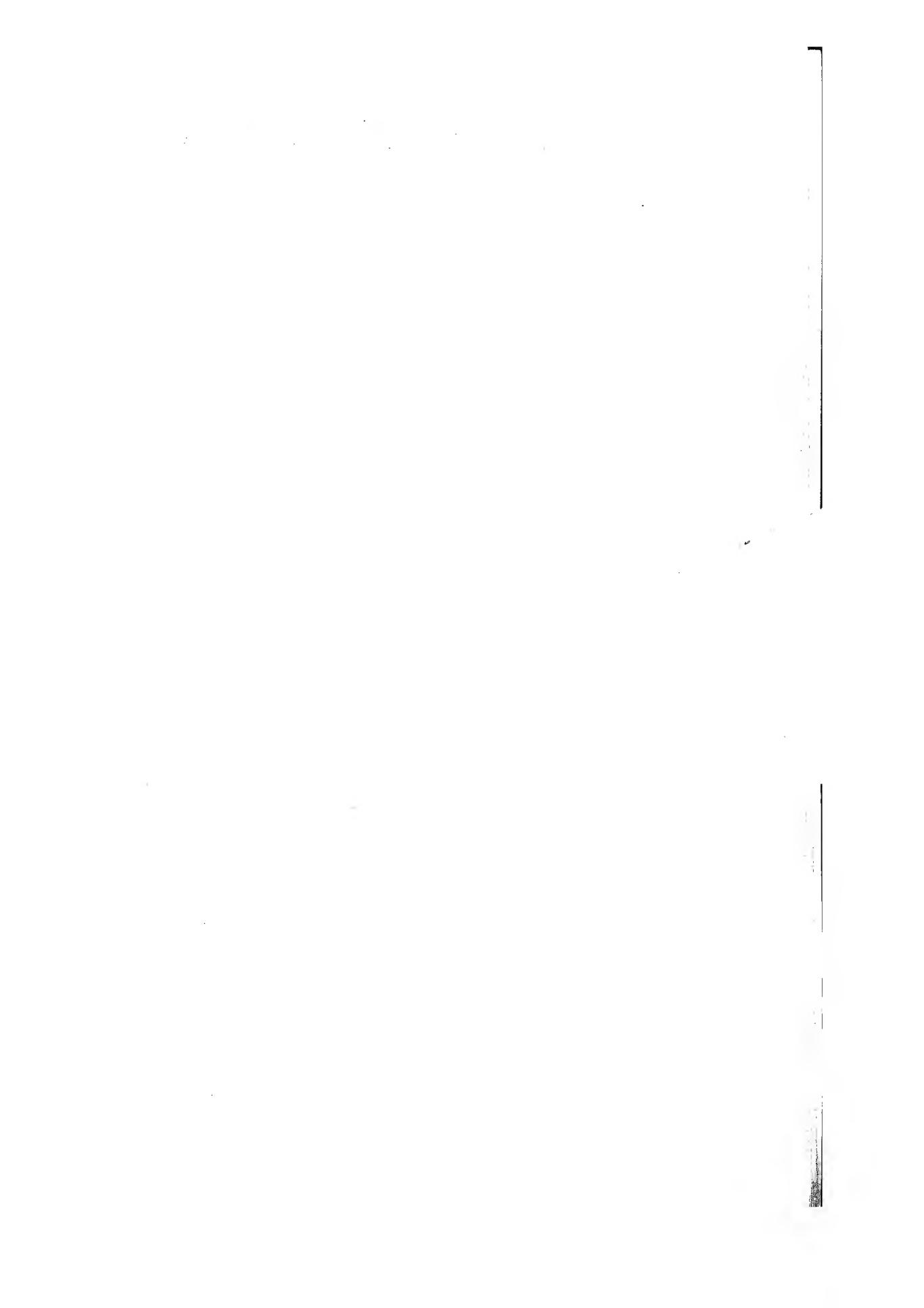
مفردات عربية في بعض الموضع تخدم السياق العام. وقد حرصت أيضا على تدوين التعليلات في الهوامش كلما تطلب الأمر ذلك. وأعترف في هذا المقام بأن عملية الترجمة من المهام الشاقة، وإنني أرى هذا العناء أمراً عادياً وأترك للقاريء والمشفف العربي الفرصة للتعرف على محتويات هذا الكتاب وهذا السفر المهم.

وأرجو أن أكون قد حالفني توفيق الله تعالى في تقديم هذا العمل ، وإنني لا أبغى من ورائه سوى رضوان الله وتقديم النفع للدارسين في حقل و مجال الدراسات التاريخية عامة وتاريخ الحروب الصليبية بشكل خاص.

فإن أصبت فمن الله وإن أخطأت فمن نفسي

دكتور / عبد الحافظ عبد الخالق الينا

تبوك في يناير ٢٠٠٠ م



مقدمة المؤلف

لا تعتبر هذه الدراسة تاريخاً جديداً للحروب الصليبية وإقامة الكيان الصليبي في منطقة الشرق العربي، وإنما هي بثابة محاولة لوصف وتحليل بنية المجتمع الصليبي الأوروبي الذي انتقل إلى منطقة شرق البحر المتوسط، والذي احتفظ بأنمط حياته الاجتماعية والثقافية الأوروبية في هذه المناطق الجديدة في الشرق والتي تقع جغرافيا خارج حدود أوروبا. وإذا كانت ظاهرة الاستيطان ليست جديدة في التاريخ الأوروبي، فإنه منذ الحروب الصليبية فقط أصبحت هناك أصول أولى تربط بين الحركات الاستعمارية الأوروبية. ومنذ ذلك التاريخ، استمرت ظاهرة الاستعمار بثابة عامل رئيسي في التاريخ الأوروبي وغير الأوروبي.

وتعريف الحروب الصليبية بأنها حركة استيطانية استعمارية لم يستخدم بشكل واضح خلال قرون عديدة انقضت، وخلال هذه الفترة لم تحمل الدلالة اللغوية لمصطلح الحروب الصليبية أى معنى يحمل في طياته الإزدرااء والبغض. ولم تكتسب الحروب الصليبية معناها الذميم إلا في القرن الثامن عشر من الميلاد وأصبحت منذ ذلك التاريخ مصطلحاً ذمياً مقوتاً، ولاسيما في أثناء الطور الأخير من مراحل الحركة الاستعمارية في فترة ما قبل الحرب العالمية الأولى، واستمرت هكذا حتى أيامنا هذه.

وعلى أي حال، فإنه لم يتم تصنيف الحروب الصليبية في معظم الدراسات على أنها حركة استعمارية باكرة، وكذلك لم يتم تحليل ودراسة إقامة الكيان الصليبي في منطقة الشرق العربي من وجهة النظر هذه. والتعريف المنطقى للحركة الصليبية يرى أن الحروب الصليبية وتأسيس الكيان الصليبي في منطقة الشرق العربي الإسلامي (في بيت المقدس) يعتبر ارهاصاً لحركة التوسيع الاستعماري الأوروبي، دون التوقف ملياً لتفصير جوهر وطبيعة هذا التوسيع والمدى الاستعماري. ولم تحظ الحروب الصليبية وتأسيس المملكة اللاتينية في بيت المقدس بتصنيف مناسب في الدراسات الخاصة بتاريخ الحركة الاستعمارية. والواقع أن معظم المؤرخين قد أشاروا إلى الحروب الصليبية عند تعليقاتهم الافتتاحية عن حركة الاستعمار الأوروبي وكان هؤلاء المؤرخون يطرحون أسئلة قليلة تدور حول ماهية وطبيعة هذه الحركة بغية الوصول إلى تأكيد حقيقة أن حركة الاستعمار الأوروبي قد بدأت بشكل فعلى منذ سبعة قرون مضت، ولم تكن وليدة القرن الثامن عشر أو التاسع من الميلاد.

ولاشك فإن المقدمات المنطقية والخلفية الأيديولوجية للحركة الصليبية واقامة الكيان الصليبي في منطقة الشرق العربي بمؤسساته وانجازاته من الموضوعات الرئيسية التي سوف تعالجها هذه الدراسة. ونأمل من وراء هذه الدراسة أن تكون قد ساهمنا في دراسة تاريخ العصور الوسطى، وكذلك في تاريخ الحركات الاستيطانية الاستعمارية.

وتولدت فكرة تأليف هذا الكتاب بعد خمسة وعشرين عاماً أو ينيف قصيتها في دراسة الحروب الصليبية وحياة الصليبيين في المناطق الجديدة في بلاد الشام وفلسطين. واقتضت فكرة تأليف هذا الكتاب مناقشة العديد من الاشكاليات المتعلقة بموضوع الدراسة مع أحد الزملاء في الجامعة العبرية بالقدس، وهو الدكتور يونيينا تالمون Yonina Talmon أستاذ علم الاجتماع. وكانت وفاته المفاجئة تعد خسارة فادحة وفجيعة لجميع أصدقائه وللجامعة أيضاً. واستغرق إعداد هذا البحث سنتين عدداً. وعندما اكتمل هذا العمل أقحمت ناشري مؤلفاتي في امتحان عسير. وأود في هذا المقام أن أقدم شكري لمجموع الناشرين لمساعدتهم لي وجميل صبرهم ورفقهم بي. ودعني أيضاً أعبر عن جزيل شكري وعرفاني للسيد سيريوت وزوجته في باريس حيث كتبت الشطر الأعظم من هذا المؤلف في منزلهما بباريس. وأنني مدين بالعرفان والجميل للسيد بن ياكوف Ben Yakov بجهوده المخلصة التي أنفقها بصدر رحب في إعداد مسودة هذا المؤلف للنشر.

وفي النهاية ، يسعدني أن أقدم شكري لأصدقائي المقربين وهم البروفيسور س. ن. ايسينسنستاد Eisen Stadt ، والبروفيسور ج. ب. تالمون J. B. Talmon الذي تجشم عنا ، قراءة النسخة المطبوعة على الآلة الكاتبة ، وقد استفدت شخصياً من نصائحه العديدة ومن علمه الغزير ، وكذلك البروفيسور م. باراش M. Barash الذي قرأ الفصل الخاص بالفنون ، والدكتور بـ - كدار B. Kedar للاحظاته ونقده الموضوعي القيم ، والسيدة س. شайн S. Schein سكريبتيرتي ، التي رتبت وأعدت الفهرس ، وأدين بالعرفان والشكر الجزيل لبعض المؤرخين الآخرين الذين أقرروا صحة قائمة المصادر والمراجع والهؤامش. وفي هذا المقام أيضاً اعترف بشكل خاص بأنني مدين بالجميل والعرفان لأصدقائي ، ومنهم كلود كاهين C. Cahen من السوريون ، وجان ريتشارد Richard J. الأستاذ بجامعة ديجون Dijon ، وهانز ماير H. Mayer الأستاذ بجامعة كييل الألمانية ، وذلك لدراساتهم ومؤلفاتهم التي فتحت ويسرت لي آفاق البحث ، ومن بين أجنبتها تم تأليف هذا الكتاب.

بوضع برادر
جامعة العبرية - القدس
أغسطس ١٩٧٢

يقول فوشيه الشارترى :

«..... وعندما كنت أصلى للرب جال بخاطرى وفكرت ملياً فى كيف أن الرب فى أيامنا هذه قد حول الغرب إلى شرق ، فالذين كانوا بالأمس غريبين أصبحوا الآن شرقين. ومن كان من البيزنطيين أو من الفرنج أصبح الآن من الجليل أو من سكان فلسطين. والذين كانوا من مواطنى وأبناء ريس أو شarter أصبحوا الآن مواطنين من مواطنى صور أو أنطاكية . لقد نسينا الأوطان التى ولدنا فيها ، وأصبحنا الآن نجهل أوطاننا ، أو على الأقل لم نعد نذكرها . وبعض الفرنج تزوجوا سوريات أو أرمنيات، أو حتى من المسلمات اللاتى ظفرت بنعمة التعميد وتحولن إلى المسيحية . ويسبب هذه المصاهرة والتزاوج، أصبح بعض الفرنج حماة أو حمى، أو زوجة ابن، أو ابن الزوجة، أو زوجاً للأم. وكان هناك أحفاد . والآن تعددت اللغات واللهجات ، وأصبحت هذه اللغات معروفة لدى كل الأجناس والجماعات الدينية المتعددة، الذين انحدروا من مناطق أجنبية والذين كانوا أجانب أصبحوا الآن وطنيين، والذى كان يقيم فى هذه المناطق مؤقتاً أصبح الآن يقيم بشكل دائم. ومن وقت آخر، يأتي أقارينا لكي يلتحقوا بنا، ويتركون كل أملاكهم فى أوربا. ولهذا فإنك ترى أن هذا الذى يحدث بمثابة معجزة عظيمة وكيف لا يدهش المرء بشكل كبير من كل ما يحدث فى هذا العالم. ومن ذا الذى سمع أو رأى أى شىء مثل هذا ؟



الفصل الأول

عشية الحملة الصليبية الأولى

تقى أراضي منطقة الـليفانت (الشرق) على طول الساحل الشرقي للبحر المتوسط في شكل خط مستقيم مباشر. واستقرت الشعوب القديمة في هذه المنطقة في السهول والتلال الواقعة بين التلال الرملية غرباً وبين الصحراء القاحلة شرقاً، وشهدت هذه المناطق تدفق موجات عديدة من عمليات الغزو والغزارة. وكانت الشعوب القوية القاطنة في المنطقة الواقعة بين الهلال الخصيب شمالاً ووادي نهر النيل جنوباً تقوم باغارات دورية من أجل تطريق وحصار الإقليم الشاسع من امبراطوريتهم وأحكام سيطرتهم المستمرة على أعدائهم حكام بلاد الشام وكعنان وخلق منطقة حاجزة حول مناطق سيادتهم.

وتعتبر مراكز الثقافة القديمة في هذه المناطق موطنًا ومهدًا للديانات التوحيدية - اليهودية والمسيحية - والتي اعتمقتها جماعات كبيرة في الامبراطورية الرومانية ، وخضعت هذه المراكز في العصر القديم لسلطة قوية موحدة. وفي النهاية استطاعت القوى الروحية وديانات هذه الشعوب التي كانت خاضعة للأمبراطورية الرومانية من التغلغل والانتشار داخل الامبراطورية، وفرضت عقائدها وقوانينها الأخلاقية في كل مكان من إقليم الامبراطورية الشاسعة.

وعاش سكان فلسطين* حياتهم الخاصة تحت نير الحكم الروماني ، غير أن هذه المناطق التي شهدت ميلاد الديانات السماوية قد ساهمت بقسط كبير في العلوم الفلسفية والمجدل اللاهوتي والهرطقة الدينية. فمنذ ظهور الهرطقات الفتنوية** في القرن الثاني الميلادي وحتى نهاية

* لم يذكر المؤلف كلمة فلسطين بشكل مباشر بل حورها إلى كلمة موطن العقيدة والقوانين الأخلاقية *The birth of Religion and ethics* ، ويمكن تفسير هذا الموقف من جانب المؤلف في ضوء الصراع العربي الإسرائيلي (المترجم).

** الفتنوية : هي أحدى الفرق التي ظهرت في المسيحية في قرونها الأولى، وهي تعتمد على المعرفة (gnosis) أساساً ، لا الإيمان ، طريق الخلاص . وإن كان الإنسان بنفسه عاجزاً عن ادراك أسمى مراتب المعرفة. ولكنها مع ذلك تصل إليه بواسطة كائن يأبهه من العالم العلوى، وقد أنكرت الفتنوية ما أحاط بشخص المسيح وأعماله من معجزات وتناثلت حياته الذاتية كنتيجة لفيض أو اثنان من الكائن الأعلى (راجع ، رأفت عبد الحميد : الدولة والكنيسة ، ج ٣ ، ص ٢١).

القرن السابع الميلادى، حيث تبلورت الديانة المسيحية، استطاعت بلاد الشام وفلسطين أن تلعب دوراً حاسماً في تشكيل بناء الديانة المسيحية باحكام واتقان.

وعندما أقرت حكومة الامبراطورية الرومانية حرية ممارسة العقائد والديانات المقبولة بموجب المرسوم الامبراطوري تحولت بلاد الشام وفلسطين والمناطق الواقعة في الشرق من السيطرة الرومانية المباشرة وأصبحت موطنًا للهيرطقات. وامتنج سكان هذه المناطق من الساميين والفينيقيين واليهود مع البيزنطيين والسكان الرومان وفي أعقاب الخلافات الدينية المستعمرة انقسم هؤلاء السكان إلى طوائف وجماعات جديدة.

وفي الربع الثاني من القرن السابع الميلادى انتشرت رياضات الاسلام وارتفعت فرق الطوائف المسيحية المتصارعة . فقد كان الاسلام متسامحاً مع المسيحيين الشرقيين الذين يقطنون بلاد الشام أو فلسطين، ولكن الكنيسة البيزنطية كانت أكثر تعسفاً مع هؤلاء المسيحيين الشرقيين في الأرض المقدسة، بالإضافة إلى باقي سكان هذه المناطق من السامرة واليهود. وأدى ظهور قوة الاسلام الجديدة في القرن السابع الميلادى إلى تزييق أوصال حدود الامبراطورية البيزنطية واخلال التوازن في هذه الحدود واضطراها ولاسيما المناطق من الفرات إلى دلتا النيل التي دخلت في الاسلام. واندفع الفرسان المسلمين يحملون رماحهم وأسلحتهم من منطقة شبه الجزيرة العربية صوب الشمال ، وخلال جيل واحد استطاعت الجيوش الاسلامية الوصول إلى مصر وببلاد العراق. وبعد جيلين ، وفي بداية القرن الثامن الميلادى استطاعت الجيوش العربية الاسلامية مواصلة الفتوحات حتى اقتربت من بوابات القدسية ، في حين كانت طبول الحرب تقرع لختها الحزين لهزيمة أسبانيا المسيحية على يد المسلمين عند اكسيرز Xerez من فرونTiera عام ٧١١م. وامتدت التقويات الاسلامية لتشمل المنطقة الواقعة بين جبال البراتس شمالاً ، وهي شمال أفريقيا ، وفلسطين ، وبلاط الشام، وأسيا الصغرى. ووصل المسلمين إلى معظم بلاد الهند، وأصبحت الملايين من شعوب هذه المناطق تيمم وجروها صوب مكة بفعل قوة المسلمين* .

وفي بداية القرن الثامن الميلادى استطاع الشكل السياسي الجديد المتمثل في القوة الاسلامية الجديدة أن يحدد مصير كل منطقة الشرق العربي وأوروبا. وهكذا شهدت منطقة البحر

* هنا يؤكد المؤلف على فرية طالما رددها المؤرخون الغربيون وهي انتشار الاسلام بحد السيف وهذا قول يجافي الواقع التاريخي ، والدليل هو بقاء عدد كبير من أهل الذمة - اليهود والنصاري - على دياناتهم ولم يجرروا أحد على اعتناق الاسلام مقابل دفع ضريبة بسيطة هي الجزية (المترجم) .

المتوسط ثلث قوى عالمية متصارعة. وباتت إمبراطورية الفرنجية الجermanية القرية فى مواجهة الإسلام والمسلمين فى منطقة شبه الجزيرة الإيبيرية فى أسبانيا وعلى امتداد الشواطئ، الشمالية للبحر المتوسط . ودخلت الإمبراطورية فى نزاع مع القوة الإسلامية الفتية فى المنطقة الممتدة من شاطئ الادرياتيك إلى جبال طوروس بالإضافة إلى الأودية الخصبة لمنطقة العراق والجزيرة. وأصبح البحر المتوسط -والذى كان فى وقت ما بحيرة داخلية للامبراطورية الرومانية- يشكل خطراً حيث كان يضم القوى الإسلامية المناوئة للامبراطورية . وهكذا اقطعت من أوريا الجديدة أغنى أقاليمها الاقتصادية والثقافية فى شمال أفريقيا وأسيا، وخصصت هذه الأقاليم للسيادة الإسلامية .

وعندما فقدت الإمبراطورية البيزنطية أقاليمها الجنوبية بدأت فى ترتيب قواتها الباقيه فى منطقة البلقان وفي آسيا الصغرى من جديد. وباتت هذه الإمبراطورية فى موقف دفاعي عن أراضيها بشكل أكبر عن ذى قبل.

وكانت القوى الإسلامية جهودها فى غزو أراضى واسعة جديدة، ونشر الإسلام بين سكان هذه الأقاليم. ولم تختفظ الدولة الإسلامية بفتحاتها الأولى تحت حكم الأمراء وبحلول منتصف القرن الثامن الميلادى تأسست خلافة أموية مستقلة فى بلاد الأندلس ، وفي بداية القرن التاسع الميلادى عانت الخلافة العباسية فى بغداد من منافسة الفاطميين الشيعة الهراطقة فى القاهرة . وعلى أثر هذا التمزق السياسى للدولة الإسلامية ضفت الخلافة العباسية وخارت قواها . وفي بداية القرن الحادى عشر الميلادى، وجد الخليفة العباسى أنه محروم من بسط سيادته السياسية على أقرب منطقة من عاصمة ملكه فى بغداد . وعلى الرغم من اعتناق الأقاليم التى فتحتها المسلمين الدين الإسلامى، فإن هذه الأقاليم استردت هويتها العرقية والثقافية على يد الأسرات المحاكمة المحلية. واعترف الأمراء المحليون بسيادة الخليفة العباسى وحرصوا على ذكر اسمه والدعا له فى خطبة الجمعة على الرغم من قمع هؤلاء الأمراء المحليين بالقدر الأكبر من الاستقلال الفعلى داخل إطار الخلافة العباسية الضعيفة.

وفى منتصف القرن الحادى عشر الميلادى توقف التفسخ والضعف الذى أصاب الخلافة العباسية وذلك بفضل ظهور قوة الأتراك السلاجقة، تلك القبائل التركية التى اعتنقـت الإسلام. وقد اندفعـت قبائل الأتراك السلاجقة من منطقة الاسپتس فى وسط آسيا الصغرى وتحركـت صوب بلاد الهند وايران ومنطقة العراق، واستطاعـ السلاجقة تقديم العون العسكري والسياسي

للحلافة العباسية المتهاوية . وأعلن السلاجقة في بغداد أنهم الذراع الطولي للخليفة العباسى، الأمر الذى جعل الخليفة العباسى ينعم على قائدتهم طغرل بك فى عام ١٠٥٦ بلقب سلطان الذى يعني «الحاكم المخلص» في الحلافة العباسية وفي كل الأقطار التي ستفتح في المستقبل. اتجهت توسعات الأتراك السلاجقة صوب الغرب، وألحقوا هزيمة منكرة بالجيش البيزنطي في موقعة ملاذكرد في عام ١٠٧١ * واستولوا على معظم آسيا الصغرى وواصل السلاجقة الزحف حتى أصبغوا على مقرية من بوابات القدسية . وتحولوا في غزوهم جهة الجنوب ، واستطاعت أحد جيوشهم اجتياح بلاد الشام وفلسطين وتحطيم قوة المصريين الفاطميين، وهي القوة التي احتفظت فقط بالمدن الساحلية.

وتركت مناطق الغزو السلاجقى في إيران ، واتخذ السلطان السلاجقى من مدينة الري Reyy القريبة من طهران مستقراً ومقاماً . واستمرت الدولة السلاجقية في الوجود لمدة جيل واحد فقط وبصعوبة. وعلى الرغم من ذلك فإن أقاليم الحلافة العباسية أعلنت أن خليفة بغداد العباسى هو المحاكم الشرعى فقط وأن السلطان السلاجقى هو حاكمهم المierz ، وسرعاً انقسمت الدولة السلاجقية إلى ولايات مستقلة ، واستمر النزاع قائماً بين الإمارات السلاجقية في آسيا الصغرى ، وفي بلاد الشام وفلسطين وفي تلك الآثناء ، وصلت جيوش الحملة الصليبية الأولى إلى آسيا الصغرى ، وبعد أن أحرزت النصر على الأتراك السلاجقة في ضوريوم (اسكي شهر) **، وصلت الجيوش الصليبية زحفها إلى بلاد الشام وفلسطين.

* موقعة ملاذكرد : من أشهر المعارك العسكرية التي دارت رحاها بين المسلمين السلاجقة وبين الجيش البيزنطي ، حيث استطاعت قوات السلاجقة بقيادة ألب أرسلان أن تلحق الهزيمة المرة بالجيش البيزنطي بقيادة الإمبراطور رومانوس الرابع الذي وقع أسيراً بيد السلاجقة . (الترجم).

** موقعة ضوريوم (اسكي شهر) : هي الموقعة والمعركة الشهيرة في تاريخ الزحف الصليبي صوب المنطقة العربية ، ففي أول يوليه سنة ١٠٩٧م أحرز الجيش الصليبي انتصاراً حاسماً ضد الأتراك السلاجقة ، وفتم الصليبيون كميات ضخمة من المzon والغنائم . (الترجم).

الفصل الثاني

الحملة الصليبية الأولى

كان المؤرخون اللاتين يطلقون على الحروب الصليبية أسماءً عديدة منها الحج، والحملة العسكرية، والحرب المقدسة، وحرب الاستيطان ، وحركة الهجرة الكبيرة، وكانت كل هذه المسمايات تتفق تماماً مع طبيعة ومزاج هؤلاء المؤرخين ومع مناخ الرأى العام الذى كان سائداً وقت تدوين قصة هذه الحروب. وسواء مدح هؤلاء المؤرخون هذه الحروب أو لاقت منهم القدر والذم، فإن الحروب الصليبية كانت بثابة مؤامرة بابوية شريرة، وقناع يستتر وراءه مظاهر الجشع الدنيوي المادى، كما كانت هذه الحروب تمثل نذيرًا بالحركة الاستعمارية، أو الاضطراب الفعلى للجموع البشرية التى أصابها الهوس وأصبحت مسورة، بل كانت أيضاً تمثل مشروعًا ضخماً لتحقيق مثل رفيعة وسامية، وتعبيرًا واضحًا للأسف الجماعى نتيجة الانحراف عن مبادئ الحركة المسيحية ، تلك الحركة التى كانت من المفروض أن تقود البشر إلى يوم الدينونة، وأن تصل بهم إلى المملكة السماوية حيث عرش الرب.

ولم تكن وجهات النظر هذه جديدة. وعندما تجمعت جيوش الحملة الصليبية الأولى (١٠٩٥-١٠٩٩م) عبر المؤرخون الاتين عن ذعرهم ورعبهم. وبعد خمسين عاماً وفي أثناء الحملة الصليبية الثانية (١١٤٧-١١٥٠م) وخاصة بعد فشلها- ارتفع أكثر من صوت يشير الشكوك حول الخطبة الملة والمقدسة لهذه الحرب وعدم جدواها. وتعرضت الحملة الصليبية الثالثة (١١٨٧-١١٩٠م) للنقد المثير اللاذع لأنها كانت تناقض التعاليم المسيحية الرئيسة . وكانت الحملة الصليبية الرابعة (١٢٠٢-١٢٠٤م) والتى انتهت باخضاع ونهب مدينة القدسية المسيحية واستباحتها لأعمال السلب والحرق- بثابة فضيحة وخزي مبين الحق بالديانة المسيحية. وفي أثناء القرن الثالث عشر الميلادى هبت رياح المعارضة بشدة فى وجه الحركة الصليبية، وتعالت صيحات الاحتجاج والمعارضين، وجاءت الانتقادات المبررة القاسية من كل صوب وحصب ومن جميع العناصر اللاهوتية والعلمانية ، والتروبادور، ورجال الدولة، والمبشرين ، والتجار وأرباب المصالح التجارية ، ومن الرهبان الدومينيكان

والفرنسيسكان*. وانتاب الخوف والقلق أحد الرهبان الدومينيكان ويدعى هيمبرت الرومانسي *Hambert de Romans* وأبدى تخوفه من توسيع المسلمين في أوروبا (وهو الشعور الذي تحقق بعد مائة عام من هذا التاريخ بظهور الدولة العثمانية)، وقد أجاب خصوم الحركة الصليبية ومعارضيها بغضب بأن «الكنيسة تهدف من وراء هذه الحرب الصليبية ملأ الأرض بالشهداء، وإنما الهدف الحقيقي الذي يباركه الله هو ملأ السماء بهؤلاء الشهداء». ولم تتردد البابوية في تنفيذ هذا المشروع الصليبي فقط، بل كانت من أقوى المروجين للفكرة والدعابة الصليبية وظلت تؤازر هذه الفكرة طيلة قرنين من الزمان.

وتحت أشكاليات صعبة تواجه البحث التاريخي ومن أهمها الأسئلة الخاصة بداعي الحرب الصليبية، وكذلك كيف تطورت الفكرة الصليبية وخرجت إلى الواقع. ويبدو أنه من غير المؤكد أن نعزّز بداية الحركة الصليبية إلى شخص أو فرد، أو إلى مؤسسة أو إلى أيديولوجية، فقد تعددت الأحداث في مجالات الحياة المختلفة وفي فترات مختلفة، وفي أقطار مختلفة، وكانت هذه الأحداث بثابة مرحلة إعداد المسيحية الكاثوليكية الأوروبية لتنفيذ الحملة الصليبية الأولى. واستطاعت السياسة البابوية صهر هذه العوامل في بوتقة واحدة، لكن تتبّنى حركة محددة الهدف ، ومحددة الزمان والمكان.

ومن المؤكد أن الظروف المادية والحياتية التي شهدتها المجتمع الأوربي في فترة ما قبل الحرب الصليبية هي التي مهدت التربة لخارج هذه الحرب إلى حيز التنفيذ . وحتى وقت الحرب الصليبية لم تكن حركة الهجرة على أي نطاق معروفة في التاريخ الأوروبي منذ المعجزة التي يصعب تصديقها *Völker Wanderung* ولم يكن لدى أوروبا مستودع للقوة البشرية يمكن الاستفادة منه في نهاية القرن الحادى عشر الميلادى وكذلك خلال المائتين عاماً التالية. ومع ذلك، فإن الآراء التي تعزو الحرب الصليبية إلى الانفجار السكاني أو على الأقل النمو السكاني في أوروبا والذي لم يسبق له مثيل خلال القرن الحادى عشر الميلادى غير مقنعة لتفسير الأسباب الدوافع. وتحت قليل من السك حول مصداقية هذه الحقيقة. لقد وجدت هذه

* الدومينيكان والفرنسيسكان : من أشهر التنظيمات الدينية الديرية التي ظهرت في أوروبا في القرن الثالث عشر الميلادي، وكان رهبان هذين التنظيمين انعكاساً لحالة الزهد الجديدة التي باركتها بابوية أنوسنت الثالث ، والذين قدموا خدمة للبابوية في تعزيز نفوذها ، حيث الجهود التنصيرية التي قاموا بها وكذلك الوعظ الديني في أرجاء الكاتolis في أوروبا . (المترجم) .

الزيادة السكانية في عدد الفلاحين في أوروبا في القرن الحادى عشر الميلادى منفذا لها ومتنفساً من خلال الموجة الكبيرة من حركة الاستيطان الداخلى. وعلى مدى قرنين من الزمان في أوروبا، تم إزالة الغابات وتخفيف المستنقعات ، وتأسيس آلاف من القرى الجديدة. واقتربت الزراعة الكثيفة بعملية إعادة تقسم وحدات الأراضي الزراعية الخاصة بالأسرة من أجل استثمارها . وقد ذكر الراهب الفرنسي راؤول جلابير قبل منتصف القرن الحادى عشر الميلادى أن أوروبا شهدت تشييد عدد كبير من الكنائس والأديرة الجديدة، وأن هذه الفترة أيضاً شهدت كثافة سكانية كبيرة في أوروبا. وساهمت الأعداد الكبيرة من السكان في تأسيس واقامة المدن وخلق الشورة الحضرية في القرن الثاني عشر الميلادى. وكان فائض انتاج الأرض من المحاصيل يوفر الطعام لجميع السكان، واستطاعت الزراعة الكثيفة تلبية حاجة كل الذين لا يعملون بالزراعة كالصناع والتجار من الطعام.

وفي بعض المناطق ساهمت حركة الاستيطان الداخلية هذه في خدمة أغراض أخرى بالإضافة إلى أغراض الاقتصادية . فاستيطان البرمن في الأراضي السلافية كان يحمل معنى سياسياً والاتجاه الاقتصادي صوب الشرق والذي مهد الطريق لحركة التوسع في المستقبل. ووفرة القوى البشرية وزيادة عدد السكان في أوروبا هو الذي جعل من الممكن حدوث الحروب الصليبية، وإن كانت هذه الزيادة البشرية غير مسؤولة عن حدوثها مثل هذه الحروب.

لم يكن تطور طبقة النبلاء المحاربين في أوروبا وليد القرن الحادى عشر الميلادى. إذ ترجع أصول هذا التطور إلى الفترة الكارولنجية الباكرة، حيث ظهر نمط جديد من التماسك الاجتماعي - احداث نوع من العلاقات المباشرة والقوية بين السيد الاقطاعي وبين فصله أو تابعيه- هذا النظام الذي ظهر نتيجة عدم الاستقرار والاضطراب الأمني داخل المجتمع الأوروبي في أعقاب انهيار الادارة الرومانية وعدم فعاليتها وتفسخ العرف البرمني القبلي الباكر. وفضلاً عن التقسيم الطبقي داخل المجتمع الأوروبي ظهر طبقة من المحاربين المحترفين ضمن طبقات المجتمع. ويبدو أن طبقة النبلاء الوراثية قد وجدت في القرن الحادى عشر الميلادى. ولم تدون مبادئه وقواعد السلوك والتصرفات التي كانت تميز طبقة المحاربين من النبلاء . ومع عملية التطور الاجتماعي هذه، حظيت مبادئه وقواعد السلوك لطبقة النبلاء المحاربين باعتراف واقرار الكنيسة، وكان هذا الاعتراف الكنسي بثابة مرحلة مهمة من مراحل تطور هذه الطبقة . فقد كانت الكنيسة تعارض من حيث المبدأ القتل وسفك الدماء، ولم تبارك الحروب

الأهلية الداخلية التي كانت تشن وفق مثل أعلى معينة. ولكن يصبح المحارب جديراً بمكانته كان عليه أن يتطلع إلى مهنة تجعل منه جندياً من جنود المسيح. وفي إطار هذه المهمة والوظيفة الجديدة للفارس كانت المزايا التي يتمتع بها المحارب البرماني من فنون الحرب والشجاعة في ساحات الرغى والأخلاق تتفق تماماً مع تعاليم الأنجليل التي تحث على الدفاع عن الضعيف والمظلوم والمذود عن حياد الكنيسة لقد ولدت فكرة الفروسية المسيحية. فقد كان طقس الاحتفال القديم المصاحب لتدشين الفارس عبارة عن منح هذا الفارس الأسلحة التي يستخدمها في الحرب، ولكن منذ الآن فصاعداً أصبح هذا الاحتفال الخاص بتدشين الفارس يتم في رحاب الكنيسة. وكانت أداء صلوات المساء في الكنيسة تصاحب عملية اعداد وتدشين حامل دروع الفارس Square الصغير وتجهيزه لمسؤولياته المستقبلية. وكان أحد القساوسة يبارك الأسلحة التي يتسللها هذا الفتى الصغير الذي سيصبح فارساً، ويعلن أنه قد أصبح بركته الخاصة على هذا الفارس المرتقب. وأصبح الطقس المصاحب لتدشين الفارس بمثابة التعميد الثاني للنبيل البالغ الذي شب عن الطوق.

لقد كانت طبقة النبلاء المحاربين المشاغبين في مملكة آل كابيه في فرنسا وهي الطبقة التي استطاعت الكنيسة كبح جماح تجاوزاتها من خلال حركتي سلام الرب وهدفه الرب * (في النصف الأول من القرن الحادى عشر الميلادى) قتله الدعامة الرئيسية للمجتمع عشية الحروب الصليبية . وكان من المتوقع أن يصبح أفراد هذه الطبقة المحاربة العماد الرئيسي للأمن الداخلى في المجتمع. واشتهرت الكنيسة والسلطة الملكية والرأى العام في شجب الحروب الأهلية الاقطاعية التي كانت تتشعب بين الأخوة ، ووضع حد لهذه الحروب التي عصفت بالمجتمع والتي كان يقتل فيها الأخ أخاه، ووجدت الطاقات الزائدة والتقاليد الفروسية لأفراد هذه الطبقة متنفساً لها من خلال المشاركة الفعلية في الحروب الصليبية. فالآن يستطيع الفرسان النبلاء قتال المسلمين (الهراطقة)** بموافقة كاملة من الكنيسة ومبركتها.

* سلام الرب وهدنه الرب : ظهرت حركة سلام الرب وهدنه الرب في المجتمع الأوروبي في القرنين العاشر والحادي عشر من الميلادى بهدف تقييد الحروب الاقطاعية في أيام معينة لتحديد نطاقها ومحاصرة أضرارها، وكانت هذه الحركة تهدف إلى حماية أملاك التجار وال فلاحين ورجال الدين من الحرب وأضرارها. وقد تولت الكنيسة الكاثوليكية دوراً مهماً في حركة السلام هذه استخدمتها موسيلة لزيادة سلطانها ونفوذها (المترجم).

** اعتادت البابوية الكاثوليكية أن تصنف المسلمين بالهراطقة في إطار الدعاية المسعورة الكاذبة وفي إطار التغصّب الديني المقيت ضد الأديان الساوية الأخرى غير المسيحية، وذلك لاقناع البسطاء من الأوروبيين للاشتراك في الحرب ضد المسلمين . (المترجم).

وبينما كانت طبقة النبلاء تخضع للتغير الاجتماعي العميق وهو التغير الذي كان العمام الرئيسي في الحرب ضد المسلمين، اتجه البعض الآخر صوب الديانة المسيحية حيث أعمال الرهبنة في أحد الأديرة. وفي الفالب لم تكن كل مظاهر التزعة الدينية لأفراد هذه الطبقة المحاربة ترتبط بحركة الاصلاح الكلورية الكبيرة للديبرية الغريبة وحركة الاصلاح البابوية وهي الحركات الاصلاحية وثيقة الصلة بوضع الدراسة بشكل مباشر. وبالرغم من ذلك فإن هذه الحركات الاصلاحية بشكل عام قد هيأت المناخ الملائم لنضج الايديولوجية الصليبية.

وكانت ممارسة الحج على نطاق واسع تعبيراً مهماً عن حالة التجديد والإحياء الكنسي والروحي الاصلاحي الذي قامت به الأديرة الكلورية . وكان الحج يعتبر بمثابة عمل تكفيري يعقب حالة شعور بالندم والأسف لارتكاب الذنوب والآثام ، وأصبح الحج ممارسة يحظى صاحبها الاحترام والتقدير الاجتماعي ووسيلة لإظهار التدين وتوبية للخاطئين . وظهرت بدعة جديدة في القرن الحادى عشر الميلادى ، ومن أبرز سمات هذه البدعة هو اعتبار الحج إلى المزارات المقدسة بمثابة وسيلة للتکفير الجساعي. فقد انقضى الألف عام الأولى من تاريخ المسيحية ، وتوقع كثير من الناس أن عام ١٠٠٠ م هو الألف الأولى بعد صلب المسيح في حين اعتقاد آخرون أن عام ١٠٣٣ هو الألف الأولى بعد صلب المسيح وكان انتقامه عام ١٠٠٠ م، أو عام ١٠٣٣ ينذر بقرب دخول العالم عصر جديد. وتتوقع البعض بقرب يوم الدينونة والمجيء الثاني للمسيح. ومرت السنون والأعوام دون تغير منظور ، ولكن هذه الفكرة العاطفية ظلت متربطة في الوجدان المسيحي في أوروبا. وشعر الناس في أوروبا شعوراً عميقاً بوطأة الذنوب والخطايا التي اقترفوها في حياتهم الدنيوية. ويبدو أن الكوارث الطبيعية التي حلت بأوروبا آنذاك كانت كثيرة ومتعددة (أو أن مؤرخي القرن الحادى عشر الميلادى كانوا يفضلون ذكر تفاصيل هذه الأوبئة والكوارث الطبيعية التي حلت بأوروبا باسهاب شديد). وازداد شعور الناس بالضيق والضجر والحزن من جراء انتشار المجاعات والفيضانات والأوبئة ، وقد فسر الناس هذه الكوارث الطبيعية على أنها نذير بقرب يوم الدينونة وجمع الناس للحساب . وكانت المجاهدة الدرامية الكبيرة بين البابوية وبين الامبراطورية إبان فترة الصراع حول التقليد العلماني بمثابة مكيدة ضد المسيح. فقد اعتزل كثير من الناس الحياة العامة ويهوا وجههم شطر الأديرة بحثاً عن خلاص أرواحهم ، وأذعن الآخرون لدعوة المبشرین العجيبة من أجل التوبة. بالرجوع إلى حياة الفقر الحواري، وهي الحياة الزاهدة التي كان يعيشها الحواريون

الأوائل. وفي ظل هذا الجو المحموم بالخوف من اقتراب يوم الدينونة بفعل الأفكار الألفية، أصبحت التوبية والتکفير تعبيراً عاماً عن مشاعر التدين. وتحول الحج إلى المزارات المقدسة من ممارسة للتدين الفردي إلى نوع من العمل التکفيري الجماعي. واحتشدت أعداد كبيرة من الناس من كل الطبقات ، من رجال الدين ومن العامة من أجل القيام برحلات الحج الجماعي، واتجه بعضهم صوب الأرض المقدسة في بلاد الشام. ولم تستطع هذه التطورات المختلفة الاندماج في حركة كبيرة واسعة. واستطاعت احدى الأحداث السياسية * وكذلك عقرية البابا من احضار هذه الجماعات الغفيرة معا إلى الأرض المقدسة في بلاد الشام وفلسطين . فقبيل بدء الحرب الصليبية عشر سنوات، يم الإمبراطور البيزنطي شطر الغرب الأوروبي يطلب منه المساعدة، ونظراً للتهديدات المستمرة من جراء الفزوالت السلاجوقية للإمارات البيزنطية في آسيا الصغرى ، قام الإمبراطور البيزنطي بالبحث عن المساعدة العسكرية عند روبرت كونت الفلاندرز . واستجابة لطلب الإمبراطور أرسل بعض الفرسان الأوروبيين إلى القدسية. ومن المحتمل أن هذه التجربة قد كتب لها النجاح ، وذلك لأنه في عام ١٠٩٥ ، كرر الإمبراطور البيزنطي نفس المطلب. وفي تلك الآونة أيضاً أرسل الإمبراطور البيزنطي سفراً إلى المجمع الكنسى الذى كان يعقد برئاسة البابا في بياكنا . وشرح أعضاء السفاراة البيزنطية مدى الخطر الذي تتعرض له المسيحية الشرقية ، والكارثة التي يمكن أن تحدث إذا سقطت الكنيسة الشرقية ومسيحيوها في يد المسلمين إذا احتاج المسلمون الإمبراطورية البيزنطية وقهروها. وعلى الرغم من موضوعية هذا الكلام وهذا الادعاء ، فإن الموقف العسكري البيزنطي في ذلك الوقت لم يكن حرجاً بل كان مستقراً بصورة أفضل عن الوضع الذي كان عليه قبل جيل مضى - وما يذكر أن تصميم السفارة البيزنطية والحاهمهم في طلب المساعدة من الغرب الأوروبي ومن البابوية هو الذي أوجى بالصورة القائمة لوضع الإمبراطورية البيزنطية.

ورحب البابا اريان الثاني بطلب الإمبراطور البيزنطي واستجاب له. ولم يكن هناك ما يشير الشك حول مدى اهتمام البابا المخلص بالمسيحيين الشرقيين في الشرق البيزنطي ، بالرغم من أن البابوية كانت تسعى من وراء هذه الاستجابة تحقيق هدف شخص لها. فقد تسببت القطيعة

* المقصود بالحدث السياسي هو هزيمة الجيش البيزنطي أمام الجيش الإسلامي السلاجوقى في موقعة ملاذكـرـة سنة ١٠٧١ م . (المترجم) .

الكبيرى عام ١٠٥٤ * فى احداث الانقسام بين الكنائس الشرقية والكنائس الغربية. وكانت ثمة اختلافات بسيطة بين الكنيستين فى المسائل المتعلقة بالعقيدة، وأيضا فى الطقوس والمارسات الدينية. وقامت المشكلة الكبرى فى الخلاف بين الكنيستين الشرقية والقريبة فى عدم اعتراف البطريرك البيزنطى فى القسطنطينية بسيادة البابوية وكنيسة روما اللاتينية . وانقطعت العلاقات بين روما وبين القسطنطينية منذ بابوية ليو التاسع والبطريرك البيزنطى ميخائيل كريولاوس (١٠٥٤م) فقد رأى البابا اريان الثانى فى المطلب الامبراطورى فرصة عظيمة لتوحيد الكنيستين واعادة تأكيد سيادة بابوات روما. ولم تكن هذه فكرة جديدة. فقد اقترحها البابا جرجورى السابع قبل جيل مضى. ففى أحد الخطابات التى أرسلها البابا جرجورى السابع إلى الامبراطورى هنرى الرابع فى عام ١٠٧٤ يعلن تصميمه من أجل تنظيم واعداد جيش غربى أوروبى يتعرّك صوب القسطنطينية . وبالإضافة إلى ذلك ، فإن البابا اعتمد قيادة هذا الجيش بنفسه والوصول به إلى كنيسة أيا صوفيا. وهكذا يمكن انقاداً بيزنطية من الخطر الإسلامى، وتندلل جراح القطيعة بين الكنيستين ، ويتم الاعتراف بالسلطة العليا للبابا على جميع العالم المسيحي. وهكذا فإن هذه الاستجابة لمطلب الامبراطور البيزنطى ستكون بشارة انتصار عظيم يتعدد صداؤها فى الغرب الأوروبى. فقد كانت المهمة التقليدية للأباطرة الرومان -حماية المسيحية- وهى فكرة تطورت فى بلاط شارلمان وتوارثها خلفاؤه من الأباطرة، وسوف تتضطلع البابوية بهذه المهمة . وتلك خطوة مهمة ومذلة سوف تقلب ميزان القوى لصالح البابا فى صراعه مع السلطة العلمانية، وهو الصراع الذى عرف باسم الصراع حول التقليد العلمانى والذى نشب بين الدولة والكنيسة ، وساهم فى تزييق أوروبا وانقسامها**.

* قطيعة فوشيوس ١٠٥٤ : عرفت هذه الحادثة فى تاريخ الكنيسة العالمية المسيحية باسم الانشقاق الأعظم بين الكنيستين الكاثوليكية فى روما والارثوذكسية فى القسطنطينية فقد تم الانفصال نهائياً بين هاتين الكنيستين فى أعقاب زيارة مندوب البابا لكنيسة القسطنطينية فى عام ١٠٥٤ ورفض البطريرك البيزنطى لطلاب المنصب البابوى. وترك هذه الحادثة نتائجها السلبية على الإمبراطورية البيزنطية داخلياً وخارجياً .

** الصراع حول التقليد العلمانى بين الدولة والكنيسة: وهو الصراع الذى نشب فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر الميلادى، بين البابا جرجورى السابع (الشيطان المقدس) وبين أكبر عاهل أوروبى وهو الامبراطور الألمانى هنرى الرابع، وكان البابا يهدف من هذا الصراع تأكيد زعامة البابوية على العالم الأوروبى، وقد تعددت مراحل هذا الصراع وترك تأثيرات سلبية على الأوضاع الأوروبية فى العصور الوسطى (المترجم) .

غادر البابا اريان الثاني ايطاليا إلى فرنسا وهو يحمل في ذهنه بعض الأفكار. وواصل رحلته ببطء إلى الأقاليم المجنوية، وهنا دعا إلى عقد مجمع كنسي في كليرمون في إقليم برجاندي عام ١٠٩٥م. وكانت المهمة الرئيسة لهذا المجمع الكنسي اصلاح الكنيسة الفرنسية، وحل المشكلة الشائكة المتعلقة بالملك الفرنسي فيليب الأول الذي تعرض لعقوبة الحرمان الكنسي لارتكابه جريمة الزنا مع احدى عشيقاته.

وواصل البابا رحلته عبر مناطق وأراضٍ كانت على اتصال مباشر بعض الوقت بأسبانيا المسيحية . وفي تلك الآونة. تم اثاره الشعور بالخطر الإسلامي في أسبانيا المسيحية وضرورة الاستعداد لحرب مقدسة ضد المسلمين . ووجدت حركة الاسترداد الأسبانية ضد المسلمين في الأندلسى نصيراً لها في فرنسا ، وشارك الفرسان والنبلاء الفرنسيون من إقليم لانجدوك في بعض الحملات العسكرية ضد المسلمين في أسبانيا . ومن المحتمل أن البابا اريان الثاني كان يحمل أفكاراً محددة وهو في طريقه إلى كليرمون لحضور المجمع ولاسيما بعد مقابلته للمبعوثين والسفراء البيزنطيين في بياكزرا . وشهد المجمع بعض الأساقفة الفرنسيين وبعض النبلاء المحليين . ومنع الملك الفرنسي فيليب الأول من آل كابيه أساقفته من الحضور إلى مجمع كليرمون . وفي اليوم الأخير من انعقاد المجمع وهو يوم ٢٧ نوفمبر ١٠٩٥ أُعلن البابا اريان الثاني الدعوة للحروب الصليبية ومن سخرية الأقدار التاريخية أن الخطاب الذي القاه البابا في مجمع كليرمون لم يدون وقت القائه، الأمر الذي جعلنا نستقي نص هذا الخطاب من عدة روايات دونت في فترة متأخرة من القائه ، ودونت بعض هذه الروايات في أثناء أحداث الحرب الصليبية الأولى*. لقد وجه البابا دعوته إلى كل الفرسان الغربيين وخاصة الفرسان الفرنسيين للاشتراك في حملة عسكرية تتوجه صوب الشرق . وظل البابا يؤكّد في خطابه على مدى خطر المسلمين الذي بات يهدّد المسيحيين الشرقيين . وناشد كل المقاتلين الأقورياء في الغرب الأوروبي لاسراع الخطي صوب الشرق لإنقاذ إخوانهم في الدين . ولكن البابا عند هذه النقطة بانقاذ المسيحيين الشرقيين ينكمث بوعده الذي قطعه على نفسه بخصوص تلبية مطلب الامبراطور البيزنطي، فلم تعد القسطنطينية هي الهدف الرئيسي، بل كان الهدف الأسمى هو تحرير

* الرواية التي دونت في أثناء الحملة الصليبية الأولى هي رواية المؤرخ اللاتيني فوشيه الشاترزي الذي عاصر أحداث هذه الحملة (المترجم).

الأراضي المقدسة ، وتخليص القبر المقدس من نير المسلمين الهراتقة*. وأصبح هذا الهدف الرئيسي الجديد يمثل نقطة تحول مهمة في تاريخ أوروبا. ولم تجد الدعوة لمساعدة القسطنطينية أو المسيحيين الشرقيين آذانا صاغية في الغرب الأوروبي، ومن ثم لم تحظ هذه الدعوة بالاستجابة الضخمة التي ولدتها دعوة البابا في مجمع كليرمون. وكان القليل من الذين حضروا المجمع يعرفون بعض الشيء عن الظروف التي تر بها الإمبراطورية البيزنطية، وأقل القليل من هؤلاء الحضور كانوا يهتمون بهذه الظروف . في حين كانت أسماء مثل مدينة القدس والضريح المقدس تتردد صداها وتحمّل في كل كنيسة صغيرة وكبيرة ودير في الغرب الأوروبي. وكانت كلمات مثل القدس والضريح المقدس تتردد في كل صلاة يؤديها المسيحيون الأوروبيون، وهكذا كانت هذه الأسماء واقعاً حياً. فقد كان الأوروبي الكاثوليكي لا يعرف اسم الأقليم المجاور للإقليم الذي يقطنه، ولكنه كان يعرف مدنًا مثل بيت المقدس وبيت لحم والناصرة ، والتي كانت مثل جزءاً رئيساً من عقيدته وتراثه الديني.

لقد كانت الاستجابة القوية لدعوة البابا التي أطلقها في مجمع كليرمون أمراً غير متوقع وإنهارت الحواجز العاطفية، وتدفع طوفان قوى من المشاعر الدينية الحماسية المتاججة لدى الجموع الأوروبية ذوي الأرواح الظامنة إلى الخلاص . وبدأ المبشرون الجوالون الكثيرون وغير الكثيرون يطوفون القرى والمدن الأوروبية والقلاع الاقطاعية يستحقون الأهالي من أجل المشاركة في تحرير الأرض المقدسة في فلسطين. ولم تقتصر دعوة الوعاظ الجوالين على تحرير الضريح القدس الذي دنسه الحكام المسلمين (الكافرة) فحسب، بل تضمنت دعوتهم أيضاً تحرير وفك أسر المسيح نفسه وانقاده من يد المسلمين وإعادته إلى المجد.

ووصلت دعوة البابا اريان الثاني التي أطلقها في مجمع كليرمون إلى الأديرة الصامدة والكنائس الكبرى الشهيرة. وإلى كبار السادة الاقطاعيين في قلاعهم ، وكذلك إلى المجموع البائسة من الفلاحين . واستجاب عشرة آلاف محارب لدعوة البابا. واختلفت دوافع الذين استجابوا لدعوة البابا من شخص إلى شخص . ومن طبقة إلى طبقة . فقد رأت طبقة النبلاء المعادية في المشاركة في الحرب الصليبية متتنفساً لإظهار قوتهم ومهاراتهم العسكرية. ولم تكن

* ليس بالأمر الغريب أن يصف الصليبيون المسلمين بلغتهم الكفار والهراتقة، وهذا شيء عادي في ضوء العداء والصراع العسكري بينهما في تلك الفترة (المترجم).

الحرب ضد الكفار عملاً كريماً ويارزا فقط، بل كانت هذه الحرب يباركها الله ويأمر بها. وشعر رجال الدين من طبقة النبلاء أن الاشتراك في الحرب الصليبية هو الطريق إلى الخلاص . ووعد البابا اريان الثاني كل المشاركين في الحرب الصليبية والذين يحملون الصليب بغفران جزئي للذنوبهم الدينية. وأصبح الصليب -أداة تعذيب وألام المسيح- رمزاً وشعاراً لجنود المسيح، الذين عقدوا العزم على تحرير قبر المخلص ، وتحرير الأرض التي ستشهد الظهور الثاني للمسيح وكان الزحف صوب مدينة القدس يُعد حجاً مسلحاً ، وعملاً تكفيرياً تطهرياً لجميع المشاركين في هذا الزحف سواء الذين وصلوا رحلتهم ووصلوا إلى هذا المدينة، أو الذين نالوا مجده الاستشهاد على الطريق المقدس أثناء مرحلة الذهاب إلى القدس . وكانت الحروب الصليبية بالنسبة للطبقات المحبطبة البائسة بثابة طريق الأمل لمستقبل أفضل للحياة والتخلص من أسر الفقر. وكان النبلاء يحدوهم الأمل من درء الاشتراك في الحرب الصليبية والاستجابة للدعوة البابا في تأسيس إمارات لهم خارج أوروبا ، والحصول على القلاع والضياع والغنائم والأسلاب من الفلاحين. وبالإضافة إلى ذلك ، فإن الفلاحين الذين لحقوا بالجيوش الصليبية كانوا يطمحون من وراء ذلك التخلص من نير العبودية والقنية، والحصول على الحرية لكي يصبحوا أحراراً .

ولم تقتصر الحماسة الدينية على الطبقات العليا في المجتمع الأوروبي، ولكن الحقيقة أن عدداً كبيراً من المسيحيين الغربيين قد أظهروا نوبة مستمرة من الحماس الديني بلغت الذروة . وبعد عام من انعقاد مجمع كليرمون وقبل أن تتحرك الحملة الصليبية المنظمة، انطلقت جيوش الفلاحين غير المنظمة من كل أنحاء فرنسا ، وتحركت صوب أودية نهرى الراين والدانوب. وأحياناً كانت بعض جموع الفلاحين تنضوى تحت لواء الفرسان المحليين، إذ كان الكثير من جماعات الفلاحين والجيوش الشعبية تنتخب سادتهم المباشرين لقيادتهم . واتبع أحد هذه الجيوش الشعبية بطة في سيره صوب الأرض المقدسة اعتقاداً في أن هذه البطة تلهما الروح القدسية، وكانت البطة رمزاً للسحر في العصور الوسطى. وافتقرت هذه الحملة الشعبية لقيادة المنظمة ، واعتتقدت الجموع الشعبية في عدم جدوى القيادة المنظمة. ولأن الله يريد هذه الحرب (تحت قيادة الله)، تحركت جموع الدهماء بنسائهم وأطفالهم يركبون عرباتهم الثقيلة ويحملون معهم أمتعتهم الهزيلة . وسرعاً تحركت هذه الجموع الشعبية واجتازت الأقاليم المجاورة المعروفة، وكذلك الأقاليم التي لم يعرفوها من قبل ، وعندما كانوا يقتربون من كل مدينة جديدة يسألون هل هذه هي مدينة بيت المقدس السماوية.

لقد ازدهرت المسيحية في العصر القديم، على الرغم من انتشار الفقر المسيحي الحواري في المجتمع المسيحي الجديد في مدينة بيت المقدس . وتأثر المجتمع المسيحي في الفترة الباكرة بتعاليم المبشرين الصوفيين الذين كانوا يتوقون إلى إنقاذ الأرواح وصلاح العالم، وكان هؤلاء المبشرون يشبهون الحواريين الذين هجروا الحياة الدنيا لكي يعيشوا في فقر قثلاً بحياة المسيح، وأكد الحواريون أن الفقير فقط هو الذي سيدخل مملكة الله . وكان الفقر فقط هو الذي يحظى بقبول ورضا هذا المجتمع، إذ كان كل مسيحي يذكر في صلاته مقولة «يا رب دع ملكتك تأتي».

كانت الدوافع التي حركت الجموع الصليبية للمشاركة في الحملة الشعبية خليطاً من حب المغامرة والجشع الديني ، والتقوى، وحب النساء والرغبة الجنسية . وعندما احتشدت الجموع الأولى من العامة وبدأت في تحركها صوب الشرق، تزايدت هذه الجموع من مجموعات صغيرة إلى فيالق كبيرة العدد، ويمكن أن نعزّز ذلك إلى الظروف الاجتماعية المحبطية السائنة التي كانت يعيشها أفراد هذه الطبقة الشعبية ، وأيضاً بسبب حالة التعصّب الديني المستمر التي كانت تحكم طبقات العامة في المجتمع الاقطاعي الأوروبي آنذاك . وكما ذكرنا آنفاً كان الفلاحون هم الذين تحركوا أولاً . وتحركت جموع الحملة الشعبية عبر الراين وعلى امتداد نهر الدانوب وفي أثناء الزحف ارتكب الصليبيون أبشع أنواع الجرائم والاضطهادات ضد اليهود من مذابح مريرة لم يشهدها التاريخ الأوروبي من قبل ، وليس لها نظير في وقتنا الحاضر . فقد أبىـت وبقسوة الجماعات اليهودية التي كانت تسكن أراضي الراين منذ زمن الرومان ، وقبل أن تستقر القبائل الجرمانية في هذه المناطق . وحاول الأساقفة في كل الأقاليم الأوروبية حماية الجماعات اليهودية من موجة الاعتداءات والاضطهادات الصليبية* وذلك من خلال إدانة هذه الممارسات الصليبية تارة، وتارة أخرى من خلال الرشوة التي كان يقدمها اليهود لرجال الدين اللاتين ، ومع بعض الاستثناءات ، لم تكن هذه الوسيلة ذات جدوى لأنحسار موجة الاضطهادات الصليبية ضد

* الاضطهادات الصليبية لليهود : لمعرفة المزيد عن هذا الموضوع انظر د. قاسم عبده قاسم الاضطهادات يشير المؤلف إلى الاضطهاد النازي لليهود في العصر الحديث وأعدام اليهود حرقاً . وحركة معاداة السامية وقد أكدت بعض الأبحاث التاريخية الموضوعية زيف هذا التهم (المترجم) .

وللحروف على تفاصيل أحداث الاضطهادات الصليبية لليهود أوربا انظر : قاسم عبده قاسم : «الاضطهادات الصليبية لليهود أوربا» ندوة التاريخ الإسلامي الوسيط ، ١٩٨٣ ، ص ١٢٥ .

اليهود . وكانت الطريقة الوحيدة التي تكفل توفير الحماية لليهود هي اشتراك اليهود في قتال المسلمين خارج أوروبا ، وعندئذ كان يتعتمد على هذا المحارب ترك أملاكه ومنزله تحت حماية رجال الكنيسة ، وأصبح أمام الجماعات اليهودية أحد الاختيارين إما الارتداد عن العقيدة اليهودية apostasy أو الموت . وتم تعويض بعض اليهود عنوة ؛ وتبل آخرون - تحت التهديد بالقتل - أن يرموا بالماء المقدس ؛ واختار البعض الاستشهاد ، يستمدون الإلهام من قصة هنا وأولادها السبعة المكابيون (7) Macc أو استلهمان من المقاومة البطولية الأخيرة للنبي إسرائيل ضد رومي Rome عند ماسادا Masada ، وشهد عصرنا الحالي أيضاً اعدام ملايين من اليهود حرثاً ، وتذكر ذلك الحوليات العبرية المعاصرة* . واستكمالاً لقص الاستشهاد والتضحية الذي مارسه بعض اليهود ، قام الآباء بقتل زوجاتهم وأطفالهم وقتل أنفسهم زيفاً في شكل طقس قربان للهروب من تدنيس وفساد ساداتهم المسيحيين . لقد كانت المذبح الضخمة التي تعرض لها اليهود والتي دمرت مراكز التعليم وكل الجماعات اليهودية علاماً لبداية ألف عام من المأساة التي ألّمت باليهود في الفترة التالية.

لقد كانت المذابح التي تعرض اليهود على يد الصليبيين بمثابة دينونة عام ١٠٩٦ ، كما أن هذه المذبحة عرفت في المصادر التاريخية اليهودية بالحادثة المروعة التي لم تنساها الأمة اليهودية ، وهي الجريمة التي ارتكبها أولئك الذين ادعوا ملكية الأرض المقدسة وفقاً لما ذكرته الكتب المقدسة اليهودية ، وهم الصليبيون الذين ذهبوا إلى هناك لتحرير ضريح الرب المحب وارساء دعائم السلام الشامل.

وانتهت المذلة الشعبية بكارثة . فقد عانت هذه الجموع الصليبية الشعبية من نقص المؤن عندما وصلت إلى بلاد بوهيميا (براغ) وبدأت هذه الجموع في أعمال السلب والنهب . وقتل عدد كبير منهم على يد المقاومة المحلية في بلاد هنغاريا (المجر) وفي مناطق البلقان البيزنطية . وأخيراً وصلت أعداد صغيرة من أفراد الحملة الشعبية إلى شواطئ البوسفور . ويعتبر مؤرخ بوهيميا المعاصر للأحداث كوزماس من براغ Cosmas of Prague الابادة والفناء التي تعرض لها أفراد الحملة الشعبية هي من قبيل عدالة الرب . وعقاب إلهي لما اقترفته هذه الجموع من مذابح ضد اليهود .

* يقصد المؤلف هنا ما تعرض له اليهود من اضطهاد على يد النازية ، ويبالغ في وصف هذه الاضطهادات النازية ضد اليهود ، وقد أثبتت بعض الدراسات التاريخية زيف هذا الاتهام اليهودي للنازية . (المترجم).

وفي تلك الأثناء احتشدت أربعة جيوش كبيرة في فرنسا: كان الجيش الأول يضم النورمان والأنجلو نورمان بقيادة الدوق روبرت النورماندي ، والفلمنكيين بقيادة روبرت الفلاندرز وستيفن كونت بلوا؛ والجيش الثالث كان يضم فرسانا من شمال وغرب فرنسا بقيادة جودفري البويوني، وكان الجيش الرابع يضم البروفنسال تحت قيادة ريموند السانجبيلي كونت تولوز، وكان الجيش النورماني من إيطاليا بقيادة بوهمند وتندكرد وكان المندوب البابوي أديمار أسقف لي بو مارس نوعاً من القيادة العليا. سلك جيش جودفري البويوني نفس الطريق البري الذي سلكته من قبل جيوش الحملة الشعبية؛ سلك جيش ريموند السانجبيلي طريق الليريا أو عبر الأدرياتيك إلى البلقان. ويحلول ربيع عام ١٠٩٧ وصل هذان الجيشان إلى مدينة القدس.

لم يطمئن البيزنطيون لوصول الجيوش الصليبية التي جاءت لمساعدتهم . ففي بياكنزا كان السفرا البيزنطيون يطلبون من البابا إمداد بيزنطة بفرسان محاربين أوربيين بشكل مؤقت . وهكذا قدر للإمبراطورية البيزنطية أن تستقبل جيشاً ضخماً قام بسلب ونهب الأقاليم التي مر بها وهو في طريقة إلى القدسية ، ويحرق المنازل والأحياء في المدن، ويظهر غطرسة وكبرى ، ويتوّق إلى جمع الفنائيم والأسلاب بغير حق . ولم يغفل البيزنطيون حقيقة أن من بين الجيوش الصليبية التي وصلت إلى القدسية كان جيش النورمان الإيطالي الذي حاول منذ عدة سنوات مضت الاعتداء على الأقاليم البيزنطية في منطقة البلقان.

وعندما وصلت هذه الجيوش الصليبية إلى القدسية بدأت سلسلة من المفاوضات بين الإمبراطور البيزنطي وبين قادة الجيوش الصليبية . وإذا كانت القيادة لهذه الجيوش لم تكن من نصيب الإمبراطور، فإنه على الأقل أراد التأكد من أن هذه الجيوش المحاربة سوف تخوض القتال من أجل تحقيق منافع ومكاسب خاصة بهم. وكانت الظروف الراهنة تعضد رغبة الإمبراطور وذلك من خلال حاجة الجيوش الصليبية إلى أدلة ومرشدين ومؤمن لعبور آسيا الصغرى- وهو الأقليم الذي كان تابعاً للسيادة البيزنطية منذ جيل مضى، والآن أصبح هذا الأقليم خاضعاً للسيادة السلجوقية- ومن آسيا الصغرى تتحرك الجيوش الصليبية إلى بلاد الشام والأراضي المقدسة.

وبعد مفاوضات طويلة ومتعددة، وعد قادة الجيوش الصليبية بتأدية قسم الولاء والأخلاص فقد أدى بعض القادة الصليبيين قسم الولاد الاقطاعي للإمبراطور البيزنطي ، وأدى البعض الآخر ميّن التبعية الاقطاعية. وهكذا تأكّدت الادعاءات البيزنطية في ملكيّة الأرض التي

سيتم احتلالها على يد الجيوش الصليبية في المستقبل. وتعهد الإمبراطور بترزيد الجيوش الصليبية بالمرشدين والمؤن. ولم يف أى جانب بوعده ، وسادت روح الشك وعدم الثقة بين الطرفين البيزنطي والصليبي. وفي ظل هذه الظروف المشترمة عبرت القوات الصليبية مضيق البوسفور إلى آسيا الصغرى . وعندئذ تنفس الإمبراطور البيزنطي الصعداء وأخيراً تقابل الصليبيون وجهاً لوجه مع الأتراك السلاجقة . وفي أحدى المعارك البارزة وهي معركة ضورليوم (اسكي شهر) الآن في يولية ١٠٩٧ م ألحق الجيش الصليبي بالسلاجقة هزيمة منكرة وخارط قوتهم وأصبحت الأراضي التي كان يعتلها السلاجقة من قبل في آسيا الصغرى فريسة سهلة وغنية يسيرة للصلبيين .

وشهد الزحف الصليبي الطويل خلال قفار وصحاري آسيا الصغرى سقوط الكثير من القتلى من صفة المقاتلين الصليبيين بالإضافة إلى الأهوال والمعاناة الرهيبة التي تعرض لها الجيش الصليبي. وبعد عبور جبال طروس انقسم الجيش الصليبي ووصل جيش ريموند الساحلي إلى قليقية. وتحرك جيش بلدوين البوهوني بسرعة صوب الشرق إلى الفرات - حيث طلب الأرمن المسيحيون المقيمين داخل وخارج الراها العون والممساعدة من جيش بلدوين - وتحركت أعداد كبيرة من الجيش الصليبي جهة الجنوب بمحاذاة الساحل الشامي.

وعندما انتشرت أنباء الزحف الصليبي أغلقت المدن الساحلية في بلاد الشام بواباتها ، ولكن الحملة الصليبية لم تلق مقاومة قوية حتى وصلت إلى مدينة أنطاكية . وبعد فترة الحصار الطويل والمضني لمدينة أنطاكية تم احتلالها في يونيو عام ١٠٩٨ م بسبب خيانة أحد قادة حاميتها. وكان هذا الاحتلال الصليبي لأنطاكية بشابة معجزة لأن جيشاً سلجوقياً كبيراً كان قد تحرك صوب أنطاكية لانتقادها بعد أيام قليلة من سقوطها. وما فتى، الصليبيون الذين كانوا يحاصرون أنطاكية بالأمس أن وجدوا أنفسهم محاصرين في المدينة التي احتلوها . فقد نفذت المؤن والطعام أثناء فترة الحصار السابقة، وانتشرت المجاعة والأمراض بين صفة الجيش الصليبي خلال تراجدهم في أنطاكية . وبات موقف الصليبيين حرجاً، وحفر الصليبيون قبورهم بأيديهم في أنطاكية لعراضهم للهلاك والإبادة وفي أثناء لحظة اليأس العام الذي خيم على الصليبيين المحاصرين في أنطاكية ظهرت معجزة اكتشاف الحرية المقدسة ، التي يرجع تاريخها إلى ألف عام قبل الحرب الصليبية ، والتي يدعى أنها اخترقت جسد المسيح أثناء الصلب، وكان اكتشاف هذه الحرية بشابة معجزة . وساهمت فكرة اكتشاف الحرية المقدسة في رفع معنويات المقاتلين الصليبيين وشحذ هممهم، واحتشدت القوات الصليبية واستطاعت الحاق

الهزيمة بالقوات الإسلامية السلجوقية التي جاءت لإنقاذ أنطاكية . وعندئذ انتهى الحصار السلاجوقى، وسقطت أنطاكية في يد الصليبيين وبات الطريق مهاداً للزحف صوب القدس.

وعند هذه المرحلة، أصبح كل الذين يكتمون الطموح والغيرة الدينية من الصليبيين يمثلون تهديداً يعادل الخطر الإسلامي . ارتكب أفراد الجيش الصليبي الكثير من الأفعال الشائنة التي تعبّر عن مظاهر الاقلاق الایدولوجي والفساد الأخلاقي . وترك القادة الصليبيون مدينة أنطاكية من أجل غزو الأقاليم الإسلامية في بلاد الشام ، وحاول كل قائد الحصول على منطقة نفوذ له خارج أنطاكية . ونجح بعض هؤلاء القادة في تحقيق هذا المأرب في حين أصيب الكثير منهم بالاحباط بسبب تعنت الصديق أو مقاومة العدو . ومع هذا كانت الجموع الصليبية المحاربة تتلألأ وتتطيل المناقشة بشأن الزحف إلى الأرض المقدسة وببلاد الشام . فقد ظهرت الأرض المقدسة على ساحل نهر العاصي (الأورنث) وليس في جبال يهودا (القدس) . وهي الجبال التي شهدت الرؤى المقدسة والتي توحى بالأمل من أجل تشييد مملكة جديدة للرب . وتخلى القادة الصليبيون عن المثل والأفكار الصليبية وتحجّلت الأهداف والرغبات الدينوية الأساسية خلال مسيرتهم، وأصبح لها القدر المعلى في تاريخ المسيرة الصليبية . ويسبب هذا الموقف التخاذل للقادة الصليبيين الذين تقاعسوا عن المسير صوب الأرض المقدسة ظهر رد الفعل من جانب صغار المحاربين ومن الفلاحين الفقراء الذين كانوا ضمن الجموع الصليبية المحاربة والتي كانت أعدادهم كبيرة في الجيش البروفنسال . وتطور الأمر إلى حدوث تذمر وثورة شعبية قام بها هؤلاء المتحمسون لاكمال المسيرة إلى القدس وأصبحت هذه الحركة تهدّد القادة الصليبيين وفي الحال ضغط المتزمرون على قادتهم من أجل مغادرة أنطاكية ومواصلة الزحف صوب مدينة القدس ، وهددوا بتدمير أسوار أنطاكية واحتلال النار فيها إذا لم يذعن قادتهم لطليفهم هذا . وتعتبر هذه الحادثة بمثابة صوت جديد للحركة الصليبية، هذا الصوت الذي أحدث الارتباك والتتشوش في عقول الكثيرين من الصليبيين ، وأصبح من الصعب على هؤلاء التمييز بين مدينة بيت المقدس السماوية وبين القدس الأرضية أي أنهم خلطوا بين المدينتين . وكان هؤلاء الأشرار يقودون مجموعة من المتعصبين عرّفوا باسم « طافور »، هذه المجموعة التي كانت تحارب متراجلة دون استخدام الترس أو أي من أدوات الحماية اعتقاداً منهم أن العناية الإلهية هي التي ستحفظ لهم حياتهم وتقيمهم من الردى . ولم تقتصر الأفعال الشائنة لأفراد هذه المجموعة الصليبية المتعصبة على قتل المسلمين بقسوة فحسب، بل أيضاً كانوا يأكلون لحوم القتلى من المسلمين . واستطاع هذا العنصر الشعبي من المتعصبين اضرام نار الحماسة الصليبية .

لقد كانت هذه التهديدات والانذرات التي أطلقها صغار المحاربين والمجموعات الصليبية الشعبية المتأججة بنار التعصب المقيت السبب في استجابة القادة الصليبيين لطلابهم فاندفع الجيش الصليبي جهة الجنوب، وتوقف فقط عند طرابلس ولم يكن من اليسير احتلال المدن اللبنانيّة. ومن هذه المناطق واصلت الجيوش الصليبيّة زحفها صوب مدينة القدس. وابتعدت الجيوش الصليبيّة عن المدن الساحليّة اللبنانيّة والفلسطينيّة الواقعة تحت السيادة المصريّة الفاطميه، وسارت هذه الجيوش على الطريق البري بين قيسارية وبافا، وتوقفت عند رام الله، التي هجرها سكانها المسلمين ، وفي منتصف شهر يونيو عام ١٠٩٩ م عبر الصليبيون الجبال، وعندئذ صافحت أعينهم أسوار مدينة القدس.

الفصل الثالث

الغزو الصليبي وتأسيس المملكة اللاتينية

والواقع أنه قبل أن يهاجم الصليبيون أسوار مدينة بيت المقدس غداة الحملة الصليبية الأولى كانت قد تشكلت خريطة سياسية جديدة لمنطقة الشرق العربي. فقد استطاع الزحف الصليبي المظفر أن يطوي أمامه بعض أقاليم آسيا الصغرى وأن يدمر قوة الأتراك السلاجقة التي كانت تهدد باستمرار مدينة القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية . وبعد انتصارات الصليبيين أصبحت الإمبراطورية البيزنطية قادرة على استرداد أملاكها وأقاليمها التي فقدتها من قبل واستطاعت كذلك توسيع حدودها ومناطق نفوذها إلى ساحل بحر ايجه وإلى حدود جبال طوروس .

لقد كانت الجماعات الأرمنية المسيحية التي تعيش عند جبال طوروس في مأمن من المطر الإسلامي، وكانت هذه الجماعات الأرمنية تتوق إلى تثبيت حدود مملكتهم المرتفعة وهي مملكة أرمينية الصغرى .

واستطاع الصليبيون تأسيس إمارة صليبية في بلاد الشام وهي إمارة أنطاكية فيما وراء الحاجز الجبلي، وإلى الشرق من هذه الإمارة، استطاع بلدوين الشرى أصبح فيما بعد ملك بيت المقدس الصليبي تأسيس إمارة الراها في منطقة الفرات والتي كانت خاضعة للحكم الأرمني.

وفي أقصى الجنوب، وعلى ساحل لبنان، أسس الجيش الصليبي رأس جسر ليكون نقطة انطلاق لاحتلال طرابلس في المستقبل . وأخيرا ، وفي الخامس عشر من شهر يوليه عام ١٠٩٩م وبعد حصار دام خمسة أسابيع، استطاع الصليبيون احتلال مدينة القدس من حاميتها المصرية. وأعقب هذا الغزو استباحة مدينة القدس مدة ثلاثة أيام، أعمل الصليبيون خلالها سيف القتل والذبح للمدافعين عن هذه المدينة من المسلمين واليهود*، وقتل الجيش الصليبي ما

* يذكر المؤلف أن اليهود قد شاركوا في الدفاع عن مدينة القدس ضد الغزو الصليبي، وهذا يجافي الواقع التاريخي، فلم يحدث أن شارك أهل الذمة في الجيش الإسلامي، والمؤلف هنا يخلق دوراً لليهود في الصراع الإسلامي الصليبي .

يقرب من عشرين أو ثلاثين ألفا من سكان المدينة، وهكذا ارتكب جيش الرب أبشع مذبحة في المدينة المقدسة. وبعد هذه المذبحة المروعة لسكان القدس، ذهب الصليبيون الملطخة أيديهم بدم الضحايا إلى الضريح المقدس يؤدون صلاة الشكر، وظللت جثث القتلى ملقاة في شوارع القدس مدة ثلاثة أيام تفوح منها الرائحة الكريهة بسبب تعفن هذه الجثث الآدمية، وأضمر الصليبيون النار في المسجد والمعابد اليهودية، والمنازل الموجودة في بيت المقدس، وأتت النيران على كل هذا وأحرقته.

لقد كان احتلال مدينة القدس نهاية وخاتمة الحملة الصليبية الأولى التي ظلت ثلاثة سنوات. وبلغ الجيش الصليبي المنتصر هدفه المعلن: وهو تحرير القبر المقدس من يد المسلمين. وأصبح للصليبيين عاصمة، وتأسست المملكة اللاتينية في بيت المقدس. وكان المسلمون يحيطون بالملكة الصليبية، إذ أن مصير هذه المملكة الصليبية الجديدة كان ما زال يكتنفه حالة عدم الاستقرار. وكان بمقدور أي قوة عسكرية متحدة أن تضع نهاية لهذا الاستيطان اللاتيني المتقلقل غير المستقر في منطقة الشرق العربي.

وعلى أية حال ، فإن المسلمين في هذه اللحظة العصيبة كانوا عاجزين عن تنسيق جهودهم وتوحيد كلمتهم. فقد كان التشرذم السياسي والصراع الشديد بين الحكام المسلمين في كل من دمشق والقاهرة هو السبب في تعطيل وشل حركة أي هجوم إسلامي فعال وقوى على المستوطنات الصليبية ، كما أن إيران، مركز القوة السلجوقية كانت عاجزة أيضا لفرض سيطرتها الفعالة والقوية على الإمارات السلجوقية التابعة لها في بلاد الشام.

واستفاد الصليبيون من حالة التشرذم السياسي والشلل التام الذي أصاب القوة الإسلامية الذي أعقب صدمة الغزو في تحقيق النجاح في إضافة مملكة قوية قاماً إلى عاصمتها في مدينة القدس في أقل من عشر سنوات. ولم تستطع مدينة بيت المقدس الواقعة في قلب جبال يهودا أن تتوقع مساعدة من الحصون والإمارات الصليبية الموجودة في الشمال ، والتي تبعد عنها بئنات الأميال . فالمستعمرات الصليبية الجديدة والناشئة في أنطاكية وفي الرها كانت مشغولة بأمر الدفاع عن نفسها وعن وجودها ، ولم تستطع توفير الرجال أو السلاح للملكة اللاتينية في بيت المقدس. وبات بقاء مملكة بيت المقدس اللاتينية يعتمد على احتلال المدن الساحلية والموانئ المهمة على البحر المتوسط وعلى إقامة خط اتصال مباشر مع أوروبا ومع الأساطيل المسيحية .

وفي الطريق من بيت المقدس، تحركت الجيوش الصليبية بـًا من مدينة قيسارية نحو رام الله. وعندما ظهر الجيش الصليبي، أصيب المسلمين بالذعر وتركوا يافا والرملة، التي احتلها الصليبيون على الفور. وأقام الصليبيون حاميات عسكرية صغيرة في هاتين المنطقتين الاستراتيجيتين لتأمين خطوط الاتصال بين القدس وبين الساحل . وظل الطريق إلى الرملة من يافا والذي يسير بمحاذاة سهل شارون الخصيب غير آمن لمدة تزيد عن عقد من الزمان، وكان الطريق المار بشعباب جبل يهودا والذي يبدأ من الرملة عبر جبل النبي صامويل (جبل السعادة للصليبيين) يصعب اجتيازه بدون حراسة مسلحة، على الرغم من عدم وجود حصن عسكري إسلامي على امتداد هذا الطريق العام*. ولم يستطع التجار أو الحجاج اجتياز هذا الطريق من إلى مدينة القدس بدون حراسة مسلحة. وفي فترة متأخرة أدرك المصريون والدماشقية أهمية الطريق الذي يربط بين مدينة القدس وبين يافا، ولكن بعد قوات الأوان. وخلال الأعوام الستة التي تلت الغزو الصليبي (١٠٩٩-١١٥٠م) تعددت الهجمات الإسلامية السنوية ضد الرملة ومحاجمة المناطق الريفية المحيطة بها ولم تسفر هذه الهجمات عن أكثر من تخريب مدينة الرملة. وفي تلك الأثناء، استمر تدفق الإمدادات العسكرية من أوروبا إلى الصليبيين في بلاد الشام. وكانت أعداد الصليبيين في بلاد الشام أقل من المتوقع، غير أن هذا كان كافياً للحفاظ على المنشآت الصليبية، وبكفل لها وجودها وعدم القضاء عليها .

ويبدو أن الساحل الفلسطيني والمدن الساحلية الواقعة عليه كانت محصنة عشية الغزو الصليبي. بالإضافة إلى بعض القلاع والمحصون التي تحمى الطريق العام من دمشق إلى معان Moab وايدوميا Edumaea ، الذي يرتبط بطريق الحجاز إلى مكة وطريق الصحراء عبر سيناء. كانت المناطق الفلسطينية الداخلية جبلية وكثيرة التلال وتضم يهودا (القدس) والسامرة (نابلس) والجليل ، وكانت هذه المناطق خالية من القلاع والتحصينات العسكرية.

ومن المحقق أن المناطق الداخلية الفلسطينية كانت ضعيفة التحصين، ولذا اندفع تانكرد جهة الجنوب لكنه يستولى على نابلس وبيسان ، حيث يتقطع نهر الأردن مع وادي جزriel Jezrel . وفي أقصى الشمال، استولى تانكرد على طبرية الواقعة على شاطئ بحيرة طبرية. وهكذا وبضربة واحدة استطاع تانكرد أن يضم حيفا (وكان ميناً صغيراً لبناء وتشييد السفن

* كان هنا الطريق يفتقر إلى الأمان بسبب قطاع الطرق والمحصون الذين انتشروا على امتداد هذا الطريق يسلبون القوافل التجارية، وقد ذكر الرحالة الأجانب الذين زاروا الأماكن المقدسة نشاط هؤلاء المحصون (المترجم) .

الفاطمية) ، لكي يضمن لامارته الجديدة التي ظفر بها منفذًا بحريًا وتحطمت طموحات تانكرد على يد الملك الصليبي بلدوبين الأول، الذي أقطع حيفا إلى أحد أفراده الاقطاعيين في عام ١١٠٠م. وعندما أحبطت محاولات تانكرد للتوسيع جهة الشرق، أراد أن يحصل على تعويض مناسب من الأقاليم الشرقية. وحضر قائد نورمانى جسورة من صقلية يقود عدًّا من الفرسان يزيد عددهم عن الثمانية ، وعبر بهم نهر الأردن، واخترق السهل المرتفع الخصيب الواقع عند القمة الجنوبية لسلسلة جبال لبنان. ومن هذا الموقع شن القائد النورمانى سلسلة من هجمات الغزو والنهب، وظفر بمنطقة دمشق الجنوبيَّة الفنية بانتاج القمح والحنطة. فقد تم سلب ونهب المناطق الريفية عديمة التحضر والفنية بانتاج المحاصيل الزراعية والمداعن بشكل منتظم . وارتقت أسعار المواد الغذائية في مدينة دمشق وظهرت البوادر الأولى لندرة الطعام هناك. وفي ساحة القتال هذه، ظفر تانكرد بمكانة سياسية بارزة ، على الرغم من أنه لم يحقق نصراً عسكرياً. فقد أجبر حكام دمشق على الاعتراف بظهور قوة جديدة في الشرق الأوسط وهي القوة التي عقدت العزم على الاستمرار والبقاء . وأجبر هؤلاء الحكام على التفاوض مع الفرنجة واقرار وجود الكيان الصليبي القريب. هذا الاتجار الذي بمقتضاه تتولى الجبلolan وهي الأرضي الواقعه شرق بحيرة طبرية والواقعة جنوب دمشق خاضعة لسيادة مشتركة بين المسلمين والصلبيين ولم يوافق الطرفان الإسلامي والصلبي على تحصين هذه المنطقة . ولكنهم وافقوا على اقتسام انتاجها ومواردها فيما بينهما وتكون القسمة كالتالي: ثلث الانتاج للحكام المسلمين في دمشق والثلث الثاني للسلطات الصليبية، وينبع الثلث الأخير للفلاحين المسلمين الذين يزرعون الأرض ويملحونها ، على الرغم من أن الدماشقة قد خرقوا هذه الاتفاقية عدة مرات وهم الذين حاولوا احتلال معان Edumeaq Moab *، فإن الدماشقة أقرروا معظم الاتفاقيات السابقة التي عقدوها مع الصليبيين. واكتشفت دمشق في الأوقات التالية أن الجيران الصليبيين أكثر أمناً وأخف وطأة من القوة الإسلامية التي حاولت إنقاذ دمشق من الخطر الصليبي وضمها للسيادة الإسلامية الموحدة. وهكذا فإنه في العقد الثاني من عمر المملكة الصليبية - وتحت الإكراه والتهديد- تم اقرار معاهدة الصلح بين الفرنجة وبين

* إدوميا Edumeaq : ضاحية في فلسطين تقع على المحدود بين منطقة يهودا (القدس) ومنطقة البتاء العربية (المترجم) .

حكام دمشق وأصبحت هذه الاتفاقية حجر الزاوية في سياسة حكام دمشق. ومن الغريب أن هذه المعاهدة قد ظلت سارية المفعول ومعمولًا بها حتى بعد سقوط دمشق في قبضة نور الدين محمود، وأصبحت ضمن سياسة الوحدة العربية التي تبناها نور الدين محمود، وظلت هذه المعاهدة كذلك حتى حدوث هزيمة الصليبيين التكراء في موقعة حطين الشهيرة في عام ١١٨٧ م. وكان تأسيس إمارة الجليل الصليبية نتيجة مغامرة فردية وسرعنة استطاع الملك بلدوبين الأول ضم إمارة الجليل ، وذلك عندما غادر تاتكرد الإمارة في طريقه إلى أنطاكية لكي يتولى حكم إمارة أنطاكية الصليبية التي أسسها بوهمند من قبل.

وفي تلك الأثناء ، قام الصليبيون بمحاولات متكررة للاستيلاء على الواقع المتقدمة ورؤس الجسور المتعددة على ساحل البحر المتوسط. وباعتلاه، الملك الصليبي بلدوبين الأول عرش المملكة اللاتينية في عام ١١٠١ م خضعت يافا وحيفا تحت السيادة الصليبية. وكان الساحل تنتشر على امتداده مدن بعضها لم يزد أهميتها عن كونها موانئ ، لصيد الأسماك مثل أرسوف ؛ والبعض الآخر كانت قد فقدت شهرتها ومجدها القديم مثل مدينة قيسارية ، في حين كانت بعض المدن الساحلية ما زالت تحتفظ بأهميتها الاستراتيجية مثل مدینتی صور وعكا بموانئها المصطنعة التي شيدت في القرن التاسع الميلادي إبان العصر الطولوني . وكان الخليج الطبيعي لمينا عكا يوفر الأمان للسفن التي ترسو فيه، وهذا ما كانت تفتقر إليه الموانئ الأخرى المتعددة على ساحل البحر المتوسط. ويقع مينا عكا عند نقطة تلاقى الطريق الساحلي المتعدد من الجنوب إلى الشمال والطريق المستعرض الواصل إلى سهل جزيرك وإلى الجليل وما وراء نهر الأردن.

وقد ثبت أن استيلاء الصليبيين على الساحل الشرقي للبحر المتوسط على يد الفرسان الراكبة والمشاة كان من المهام الصعبة الواقعة على عاتق المملكة اللاتينية، وقد كلفها ذلك من أمرها عُسراً . فمن الناحية العملية كان من المستحيل فرض الحصار على مثل هذه المدن الساحلية، التي كانت تصلها الإمدادات والقوات العسكرية بحراً من مصر أو صور ، ولم تتوقف هذه المساعدات والإمدادات لهذه المدن الساحلية برغم ظهور القوى البحرية الإيطالية النشطة . وكان لبعض هذه القوى البحرية الإيطالية مثل أمالقى صلاتها وعلاقاتها التجارية مع مناطق شرق البحر المتوسط منذ فترة طويلة مضت . وكان التجار الأمالفيون يرتادون ميناء الاسكندرية وأسواقها بشكل مستمر ، واستطاع هؤلاء التجار أيضاً ارتياح أسواق مدينة

القدس ويسوسوا لأنفسهم كنيسة ودار ضيافة في مدينة القدس في الربع الآخر من القرن الحادى عشر الميلادى. ولكن قوة أمالقى كانت قد أصابها الضعف والخور بشكل عملى منذ أن استولى عليها النورمان. وبدأت المدن الإيطالية الفتية الأخرى مثل البندقية تحتل الريادة التجارية في هذه المنطقة ، وحتى ذلك الوقت لم يكن للبندقية اتصالات تجارية مع منطقة الشرق العربي. فقد كانت البندقية نصف حليف ونصف منافس للفلسطينيين ، وكان التاجر البندقى الذى اعتاد الذهاب إلى أسواق الاسكندرية يتربدد كثيراً قبل أن يرتدى لباس الحرب ضد المسلمين ، وهى الحرب التى ستلحق الضرر بالتجارة المربحة مع المسلمين فى منطقة الشرق العربى؛ ولكن جنوا وبيزا، أصحاب السفن التى كانت ترتاد شواطئ، غرب إيطاليا وجنوب فرنسا أدارت وجهها بشغف صوب منطقة الشرق العربى بقصد الحصول على أسواق جديدة وموارد مالية وفيرة . وأحياناً كانت المشروعات التجارية للأفراد المتحجحة صوب أسواق الشرق مزودة بسفن تجارية ؛ وكان الأسطول التجارى البندقى أكثر قوة وتجهيزاً للمشاركة فى تجارة القوميين ، وخضع هذا الأسطول التجارى البندقى لقيادة أحد الحكام العلمانيين أو الكنيسين البندقتة . وما يذكر أن العاطفة الدينية المسيحية ، وحب المغامرة والرغبة فى الشراء، كل هذه العوامل أدت إلى انطلاق الأساطيل الأولية الضخمة بقواتها صوب الأراضى المقدسة. وقد أبرمت اتفاقيات بين المملكة اللاتينية وبين البيازنة والجنوية، ويفتضى هذه التفاقيات حصل الآخرين على الفنائيم والأسلاب الوفيرة والامتيازات التجارية الواسعة فى كل المناطق التى سيتم احتلالها على يد الصليبيين. وبعد وقت قصير، أصبحت البندقية تملك أقوى أسطول وربطت قدرها ومصيرها بمصيرها الوجود الصليبي فى الإمارات اللاتينية الجديدة. وكانت مدينة القديس مارك St. Mark (البندقية) أكثر حساسية تجاه الكسب المالى وأكثر حباً للمارك الفضى.

وحشدت الأساطيل الإيطالية قواتها وتعارضت فيما بينها لتقديم العون العسكري والمالي للصليبيين، وتحول ميزان القوى لصالح الصليبيين. فلم تستطع الأساطيل المصرية التى حاربت الأوليين بنجاح فى البحار المعروفة من قبل السيطرة على سواحل هذه البحار والموانئ، القرية منها بسهولة إبان فترة الصراع الإسلامى الص资料ي. وكان الظهور المتقطع للأساطيل المصرية يدل دالة واضحة على مدى الضعف والتقوير الذى لحق بها، وانتهت المعارك البحرية القليلة بين الصليبيين وبين المسلمين بانسحاب الأسطول المصرى إلى قاعده الرئستة فى عسقلان. وكان

فشل الأسطول المصري في اعتراض السفن الصليبية بثابة الاحتفاق والاحباط العسكري الرئيسي الذي أدى إلى فقدان المسلمين كل مدن الساحل الشرقي للبحر المتوسط سهل إقامة الكيان الصليبي النهائي.

وتععددت رحلات الأساطيل الإيطالية من أوروبا إلى منطقة الشرق العربي كل عام، وذلك في فترة ما بين عيد الفصح وأواخر الخريف (إذ كان الشتاء ما يزال يمثل خطرًا على البحارة والسفن)، وقامت الجيوش الصليبية بهاجمة بعض الموانئ والمدن الساحلية الإسلامية الواقعة على البحر المتوسط، في حين فرضت السفن الإيطالية الحصار البحري عليها. وبعد حصار عنيف وقوى دام أسبوعين قليلة تم احتلال الصليبيين ميناء يافا. وقام الصليبيون بنهب وسلب هذه المدن وذبح أهلها. وفي العقد الثاني من عمر المملكة اللاتينية، كان ثمة تحول ملحوظ في هذه السياسة التعسفية. ففي تلك الأثناء، حاول أفراد طبقة النبلاء الصليبيين منع عملية نهب وسلب وذبح أهالي المدن الجديدة التي يستولى عليها الصليبيون من يد المسلمين، وذلك بغية الحصول على هذه المدن في شكل اقطاعات. ومن الواقع أن أفراد طبقة النبلاء الصليبيين كانوا يفضلون استلام هذه المدن بأسواقها التجارية وورشها الصناعية سليمة دون أن يلحقها الدمار، وليست كرمات من الأطلال.

وحوالى عام ١١١٠م، سقطت كل المدن الساحلية في يد الصليبيين باستثناء مدینتين. ففي الشمال، ظلت مدينة صور بمعianها الجميل خارج نطاق السيطرة الصليبية حتى عام ١١٢٤م. وفي الجنوب، حول المصريون مدينة عسقلان إلى حصن منيع ذلك الحصن الذي ظل يهدد الصليبيين في مدينة القدس، ورما الله ويافا. وظلت عسقلان تحت سيادة المسلمين حتى عام ١١٥٣م.

وفي منتصف عشرينيات القرن الثاني عشر الميلادي، جدد الصليبيون أهدافهم العسكرية وسياستهم الاستراتيجية التوسعية وتحقيق التوسيع للحدود الطبيعية لملكهم. لم تكن الأنهر الفلسطينية تستخدم كحدود. وكان من اليسير العبور إلى الأردن عن طريق اجتياز المخاضات الضحلة لنهر الأردن، وكانت الشمس تسلط حرارتها على معظم المناطق الجنوبية والجنوبية الشرقية من الأردن والخالية من الأنهر على الإطلاق. واتخذ الصليبيون من الصحراء حدًا طبيعياً لملكهم. إلا أنه في الشمال الغربي، حيث الطريق بين البحر وبين جبال لبنان والذي كان يربط مملكة بيت المقدس اللاتينية بamarة طرابلس، وفي الغرب كان البحر يحمي الملكة،

وهكذا أقام الصليبيون حدود مملكتهم في خط محصور بين مناطق آهله بالسكان وصالحة للزراعة وبين الصحراء . وكما ذكرنا آنفا ، فإن الأرضي الواقعة بين بحيرة طبرية ودمشق ، وهي الجولان التورانية ، وباشان Bashan ظلت منطقة تخضع للإدارة المدنية وغير محصنة تحت السيادة المشتركة للصلبيين والدماشقة وفي الجنوب ، وجد الصليبيون حلفاء لهم من بين السيادة المحليين (الموارنة - السوريان - الأرمن) ووضعوا أساس قيام امارة صلبيّة في هذه المنطقة ، وهي امارة ما وراء نهر الأردن . وقام الصليبيون بتنمية وتحصين الواقع والأماكن القديمة وشيدوا تحصينات جديدة قرب الينابيع على امتداد الطريق الشهير ، وخضعت كل المناطق الواقعة بين عمان والعقبة تحت السيادة الصلبيّة . وأصبح أي تقارب بين دمشق ومصر مصدر خطر وازعاج للصلبيين ، الأمر الذي جعل الصليبيين يعملون على تعطيل هذا التقارب ، حتى تنفص عن الاتصالات المباشرة بين مصر وبين بلاد الشام . وفي نفس الوقت ، أصبحت القلاع الصلبيّة الجديدة بمثابة الشرايين الرئيسيّة للمرور والتجارة في العالم الإسلامي .

وتحركت حدود مناطق السيادة الصلبيّة في بلاد الشام إلى مقربة من حافة الصحراء ، وذلك بعد أن أسس الصليبيون مناطق سيادة لهم في منطقة ما وراء نهر الأردن ، وقد أعادت هذه الحدود حركة تمركز القوات المصرية والهجوم على المناطق الصلبيّة من جهة الشرق . وابتكر الصليبيون نظاماً متقدماً في بناء القلاع والخانات العسكرية في هذه المناطق الشرقيّة ، وكانوا يهدفون من وراء ذلك حماية الحد الشرقي لمناطق نفوذهم من أيّة محاولة لهجوم عدائى ضد الصليبيين من جهة الشرق . وبمرور الوقت ، تم تأسيس نظام مناطق المقاسمات الغريب ، وأصبحت مناطق المقاسمات هذه تخضع للسيادة المشتركة الصلبيّة والإسلاميّة في الشرق . ولم تكن في نية الصليبيين عرقلة وتعطيل حركة التجارة أو الحج . بل كانوا يكفلون الأمان لمرور القوافل التجارية الإسلاميّة إلى الأسواق الصلبيّة حتى يجنوا الأرباح من رسوم وجمارك هذا المرور ، وفي سبيل تحقيق ذلك أعد الصليبيون حاميات عسكريّة مسلحة ترافق هذه القوافل التجارية وقناع ابتسار التجار وتحمي أموالهم .

وما يذكر أن الحدود الشرقيّة للمناطق الصلبيّة في بلاد الشام كانت تشهد استقراراً نسبياً وذلك لأنّه لم تكن هناك قوة عسكريّة مناوئة تجدد هذا الاستقرار ، ولكن وضع الحدود الجنوبيّة لهذه المناطق كان مختلفاً تماماً . فمنذ رحيل البيزنطيين زحفت الكثبان الرملية من المناطق التي

تقع جنوب يافا والتى تقتد على الساحل إلى المناطق الداخلية. ولذا لم يكن هناك مناطق للاستيطان ذات أهمية. وفي أقصى جنوب الساحل كانت ما تزال توجد المدن القديمة مثل عسقلان وغزة ورفح، واعتمد سكان هذه المدن في حياتهم على شريط ضيق من الأرض الخصبة التي تقع خلف الكثبان الرملية، كما اعتمدوا على التجارة الساحلية ومن مرور القوافل التجارية التي كانت تتردد على الأسواق المصرية عبر الطريق الجنوبي الذي يمر بسيناء. وبعد شهر من احتلال الصليبيين مدينة القدس كاد الصليبيون يحتلون مدينة عسقلان فقد بث الجيش الصليبي الرعب في أوصال أهل عسقلان ، واقتربت لحظة استسلام المدينة، وتردد أهل عسقلان في تسليم مدينتهم، وازدادوا قوة واصراراً للدفاع عنها عندما علموا بأخبار المنازعات التي نشببت بين القادة الصليبيين. وهذا النزاع المتكرر بين قادة الصليبيين كلفهم خمسين عاماً من العنت والنضال للاستيلاء على عسقلان. وظلت عسقلان مدة جيلين كاملين من الزمان قشلة شوكة في جسد المملكة الصليبية . وأدرك المصريون الأهمية الحقيقة لمدينة عسقلان باعتبارها مدينة آهلة بالسكان ومحصنة جيداً غير صحراء سينا، واستخدموها المصريون كنقطة انطلاق للهجوم ضد المملكة الصليبية. وكانت مدينة عسقلان بثابة المستودع الرئيسي للمؤمن والمعدات العسكرية الإسلامية، ومكان إقامة الحامية العسكرية، وكان ميناؤها مركزاً لانطلاق الأسطول المصري، الأمر الذي جعلها منيعة ومحصنة أمام القوات الصليبية الهزيلة. وبذل المصريون قصارى جهدهم في سبيل الاحتفاظ بعسقلان ، إذ كانوا يقومون بتعزيز وتقوية الحامية العسكرية في عسقلان ثلاث أو أربع مرات في العام. وعندما كان يولد أى طفل في عسقلان كان يدرج اسمه في جدول رواتب الجندي حتى يضمن الاستقرار لسكان المدينة. وبالإضافة إلى ذلك، فإن مصر كانت ترسل الإمدادات والمؤن كل يوم إلى عسقلان ، وذلك عندما كانت الغارات الصليبية تتسبب في اتلاف الزراعة. وأخفقت معظم الهجمات الصليبية ضد عسقلان بالرغم من هجر المسلمين مدينتي غزة ورفح.

وضاق أهل عسقلان ذرعاً بسبب الوجود الإسلامي بها. فقد تعرضت حبرون وبيت لحم في الجنوب لخطر الهجوم الإسلامي المستمر، وأصبح سهل الرملة الواقع على الطريق من القدس إلى يافا ميداناً سنوياً للحرب بين حامية عسقلان وبين الفرنج واستطاع المصريون خوض هذه المعارك بسهولة. وكانت هزيمة أحد الطرفين تعنى سقوط عدد كبير من القتلى بين صفوف الجيش. وفي كل معركة كان الصليبيون يشركون فيها معظم قواتهم البشرية المتاحة، ويتركون مدينة بيت

المقدس خالية من القوات المدافعة عنها يدير شئونها أحد رجال الدين الكاثوليك . وكانت أية هزيمة تلحق بالجيش الصليبي تهدد بقاء المملكة الصليبية.

وخلال فترة الصراع بين الصليبيين وال المسلمين من أجل الاستيلاء على عسقلان طور الصليبيون استراتيجية جديدة . فقد تسببت الهجمات الصليبية المستمرة على عسقلان في تدمير المناطق الزراعية الريفية المحيطة بها ، بيد أن هذه الهجمات الصليبية المستمرة على عسقلان لم تستطع حتى المدينة على الاستسلام ، ولم يجعل الجيش المصري بسرع الخطى لايقاف هذه الهجمات . وهكذا طور الصليبيون استراتيجية جديدة للهجوم على عسقلان ، وكانت هذه الاستراتيجية ذات فعالية . فقد كان هدفهم الأول من وراء هذه الاستراتيجية هو وقف غارات المسلمين الخطيرة على الأقاليم الصليبية . ولكن يحقق الصليبيون هذا الهدف قاموا بسد كل الطرق الرئيسية الممتدة من عسقلان إلى الشمال وإلى الشرق . وشيدوا مجموعة من القلاع تحيط بالمدينة . وفي عام ١١٣٠ . أقام الصليبيون قلعة صغيرة على موقع مدينة الشيروبوليس القديمة وهي مدينة بيت جبريل التلمودية (بيت جورفين) ، والتي كانت تقع على الطريق الواسع من عسقلان إلى حبرون وبيت لحم . وعندئذ اتبع الصليبيون تحصينات يابنه * Yabneh التلمودي الشهير ، وعرف أبلين في الفرنسيّة العامة عام ١١٤١ باسم يابنه التلمودي الذي حاز شهرة واسعة في إقامة التحصينات . وكانت هذه القلاع والتحصينات الصليبية تقع على الطريق الذي يربط عسقلان بسهل الرملة ويافا . وفي العام التالي ، واصل الصليبيون تشييد القلاع والخصون . ففي عام ١١٤٢ م ، شيدوا قلعة عند تل الصافي ، وعرفت هذه القلعة مرة أخرى باسم الحارس الأبيض . وكانت هذه القلعة تعترض الطريق الآخر المؤدي من عسقلان إلى معظم المناطق الشمالية . وساهمت المدن المحسنة مثل يافا ، واللد ، والرملة . وكذلك القلاع الصغيرة مثل قلعة ماين Maen (بيت داجان) ، وقلعة السهول (يازور Yazour) الواقعة بين الرملة ويافا ، في حماية المملكة الصليبية من الجهة الجنوبية الغربية ، وكانت هذه القلاع والمدن المحسنة بمثابة طوق حجري محكم حول عسقلان .

* يابنه التلمودي Yabneh : منطقة في فلسطين اشتهرت في العصر القديم بتحصيناتها ويرى ياقوت الحموي أنها بلدة قرب الرملة، وبها قبر أبي هريرة (ياقوت ، معجم البلدان ، ج٤ ، ١٠٧) .

وعلى أية حال ، فإن تشييد القلاع المعزولة المتفرقة في قطر مهجور فقر قد أحدث صعوبات ومشكلات تتعلق بنقل الجنود وقوتهم وإيوائهم . وتغلب الصليبيون على هذه المشاكل ببراعة ومهارة، وذلك عن طريق استقرار الفلاحين الصليبيين في قرى أقيمت بجوار هذه التحصينات والقلاع الجديدة. وزرع الفلاحون الصليبيون هذه الأرضي ، الأمر الذي كفل توفير المؤن الغذائية لأفراد حامية القلعة؛ وفي نفس الوقت كان الفلاحون الصليبيون يؤدون التزامات عسكرية ووعدهم السلطات الصليبية باقتسام الغنائم التي سيتم الاستيلاء عليها من المسلمين . وهكذا أصبحت القرى المحصنة بثابة وحدات مستقلة تتمتع بالاكتفاء الذاتي ، وتحمي حدود المملكة من الأخطار، كما كانت أيضاً تزود المملكة بقوات بقوات بقدرات عسكرية جاهزة لغزو الأقطار الإسلامية.

ويبدو أن سقوط مدينة عسقلان أصبح مسألة وقت فقط، وقد حانت الفرصة في أعقاب الصراع الداخلي في مصر، الذي وقف حجر عثرة في وجه كل محاولات إنقاذ المدينة. وفرض الصليبيون الحصار على عسقلان مدة ثمانية أشهر وأخيراً سقطت المدينة في عام ١١٥٣ م مع مراعاة منع حامتها وسكانها حرية مغادرة المدينة. وبسقوط عسقلان فقدت مصر مركزها المتقدم لواجهة الصليبيين، وأصبحت الصحراء تفصل المملكة اللاتينية عن مصر. وما يذكر أن الصليبيين في فترة باكرة قاموا بتنمية وتعزيز التحصينات على الحدود التي تفصل المملكة اللاتينية عن مصر، وذلك بتشييد قلعة عام ١١٤٩ م في الموقع القديم لمدينة غزة المهجورة، حيث استقر بعض السكان الصليبيين داخل أسوار هذه المدينة الخالية . وبعد ذلك، وفي عام ١١٦٨ م شيد الصليبيون قلعة على حافة الصحراء عند الداروم (دير البلح) . والتي أصبحت نقطة الحدود الجنوبي للملكة اللاتينية . واستطاعت الحامية الصليبية والموظفوون الصليبيون حراسة هذه المناطق الحدودية. وقامت السلطات الصليبية بتحصين الرسوم الجمركية من القوافل التجارية التي تأتي من مصر إلى الأسواق الصليبية في بلاد الشام. وتعددت مغامرات الصليبيين داخل الصحراء ودمروا مدينة العريش الواقعة على الطريق إلى مصر. وشيدت هذه المدينة مرة ثانية ولكنها لم تحصن ، وظلت هذه المدينة مهجورة بلا سكان تفصل بين المسيحية وبين الإسلام. وكانت صحراء البيرة الواسعة أو منطقة الصحراء كما كان يسميها الصليبيون تفصل بين غزة وبين الكعبة في بلاد الحجاز ، وظلت هذه المنطقة بثابة المارس القوى للحدود الجنوبي للملكة اللاتينية، مثلما كانت الصحراء الواقعة شرق طريق الحجاج في منطقة ما وراء نهر الأردن.

ومن المحقق أن الفوز الصليبي لعسقلان والتوسيع الصليبي لحدود المملكة اللاتينية الجنوبيّة الغربيّة وامتداد هذه الحدود حتى حافة الصحراء، لم يميز فقط النهاية المحددة لفترة الغزو الصليبي، وإنما كان يمثل ذروة التوسيع الإقليمي للملكة اللاتينية على حساب المسلمين.

وانقضى خمسون عاماً ما بين سقوط مدينة القدس وسقوط عسقلان (١١٥٣-١٠٩٩) وكان سقوط عسقلان تحت السيادة الصليبية في منتصف القرن الثاني عشر الميلادي مهمًا في حد ذاته، ولكنه حدث متأخرًا . وترسخت أقدام الكيان الصليبي بقوة على تراب الشرق العربي في بلاد الشام وفلسطين، وتحدد البناء الاجتماعي لهذا الكيان بشكل تام، وبلغت ملكتهم اللاتينية مرحلة النضج السياسي. وكان بدلوين الثالث، الملك الرابع للملكة اللاتينية في بيت المقدس (١١٦٢-١١٤٣) ينظر بعين الرضا إلى حدود مملكته التي تضم المنطقة الصالحة للزراعة في الأرضي المقدسة. وكانت الصحراء الواقعة فيما وراء هذه الحدود تمثل صمام الأمان لكل هذه الحدود .

وعلى الجانب الآخر من الحاجز الصحراوي الذي يفصل بين الصليبيين وبين المسلمين وإبان الفترة التي وصلت المملكة الصليبية فيها إلى أوج توسعها وقوتها، تعالت أصوات جديدة في المعسكر الإسلامي . وعلى الرغم من الاستقرار المؤقت الذي شهدته المملكة اللاتينية ، فإن العاصمة الإسلامية العاتية التي هبت في الفترة الأخيرة من الوجود الصليبي كانت نذيرًا بقرب سقوط المملكة اللاتينية .

لم يكن الهدف الرئيسي من هذه الدراسة هو سرد قصة الحروب الصليبية. وسوف توضح الصفحات التالية بایجاز الأحداث الرئيسة في تاريخ المملكة الصليبية، وتكون هذه الأحداث بمثابة الإطار التاريخي للهدف الرئيسي لهذه الدراسة، وهو وصف وتحليل المجتمع الصليبي، ومؤسساته الاقتصادية والثقافية .

ولبلغت المملكة الصليبية أوج توسعها الإقليمي خلال فترة حكم الملك الصليبي بدلوين الثالث . وفي نفس الوقت ، بدأت الوحدة الإسلامية تجمع قوتها العسكرية الواقعة في الشمال وبدأت هذه القوة الإسلامية المتحدة تهدد حدود المملكة الصليبية وأخيراً استطاعت هذه القوة الإسلامية تهديد الوجود الصليبي في منطقة الشرق.

وبعد مدة جيلين من الشجار والخصام ، اكتملت الوحدة الإسلامية تحت راية المقاومة، وأعلنت حركة المقاومة الحرب المقدسة ضد المسيحيين الهرطقة. فقد كانت هناك ثمة محاولات كثيرة في

الفترة الباكرة لتوحيد الجبهة العربية الإسلامية ، وشجع خلفاء بغداد بعض محاولات الوحدة الإسلامية ، بيد أن معظم هذه المحاولات لتوحيد الجبهة الإسلامية قام بها الأمراء السلاجقة في إمارة الموصل. ولم تنجح هذه الجهود بشكل كامل في توحيد الإمارات الإسلامية السلجوقية في العراق وفي بلاد الشام، وكانت هذه المحاولات ضعيفة وفاترة في إحداث جبهة إسلامية متحدة عامة في الشمال وانتهت كل محاولات الفاطميين في مصر في هذا الصدد بالاخفاق. وفي إطار التشرذم السياسي الإسلامي كان الكثير من الأمراء المسلمين يعتبرون الحملات العسكرية ضد الصليبيين والتي تشن تحت شعار الحرب المقدسة والجهاد الإسلامي أكثر ضرراً وخطرًا على استقلالهم الذاتي بغض النظر عن كونها محاولة لتدمير الوجود الصليبي والقضاء عليه.

لقد تعطل استخدام مبدأ الجهاد الإسلامي بشكل مؤقت لعدة أجيال قبل أحداث الحملة الصليبية الأولى ، وكان أحياناً فكرة الجهاد الإسلامي يتطلب الاحياء الدينى والفكري والإعداد الروحى لدى المسلمين حتى تكون هذه الفكرة أكثر تأثيراً وفعالية. ووضع عماد الدين زنكي أمير الموصل للبنات الأولى لحركة الجهاد الإسلامي وتوحيد الجبهة الإسلامية بيد أن ابنه وخليفته نور الدين محمود هو فقط الذى جنى القطرف الدانية لهذا الاحياء .

واغتييل عماد الدين زنكي في عام ١١٤٦م بعد أن نجح في بسط سيرته على بعض إمارات أعلى العراق بالقوة تارةً، أو بالخداع أو الاقناع تارةً أخرى، وعندئذ انتقل إلى الإمارات التي توجد في النجد السوري التي تواجه الإمارات الصليبية في الشمال. وفتحت مدن حلب وحمص، وحماء أبوابها أمام قوة الزنكيين وبعد سلسلة من الانتصارات أحرزها الزنكيون اندفع الصليبيون إلى الضفة الغربية لنهر الأورنت (العاصي) . ومن الآن فصاعدًا، أصبحت الموصل وحلب مركزين مهمين للنضال والمقاومة ضد الوجود الصليبي. ولم تنضوي كل المناطق والأقاليم الإسلامية في بلاد الشام تحت لواء الزنكيين. فقد قاوم حكام دمشق انتصارات وتقدم عماد الزنكي . وفضل حكام دمشق التحالف مع الصليبيين حرصاً على استقلالهم ولم يفضلوا التحرر على يد زنكي . ولدمة جيل كامل (١١٥٤-١١٣٠م) ، وقفت دمشق حجر عشرة أمام مشروع توحيد الجبهة الإسلامية الذي تبناه عماد الدين زنكي وقاومته دمشق بكل عناد وخبث. وتسبب موقف حكام دمشق المتخاذل في منع حدوث المواجهة المباشرة مع الصليبيين في الجنوب، بيد أن هذا لم يعطلي الهجوم الذي قاده عماد الدين زنكي ضد الصليبيين في الراها في

عام ١١٤٤م واستردادها ، وهى أول إمارة صليبية تأسست على تراب الشرق قبل وصول الحملة الصليبية إلى القدس . وفشلت محاولة الصليبيين فى إعادة احتلال الراها فى عام ١١٤٦م ، واستطاع نور الدين محمود الدين ابن عماد الدين زنكي وخليفته تكثيف هجومه على الحدود الشرقية لمارتى أنطاكيه وطرابلس الصليبيتين . ولم تتحقق الحملة الصليبية الثانية (١١٤٧-١١٤٩م) التى قادها الملك الفرنسي لويس السابع والأمبراطور الألمانى كونراد الثالث هدفها فى استعادة إمارة الراها فقط ، بل تسببت هذه الحملة فى احداث التمزق فى الجسد الصليبي واحتلال محظوظ للتوازن السياسى الذى كان راسخاً خلال الخمسين عام الأولى من الوجود الصليبي . وأدى الهجوم الطائش للحملة الصليبية الثانية ضد دمشق فى عام ١١٤٨م والخليف الإسلامى الوحيد للصليبيين إلى اندفاع دمشق نحو ذراعى نور الدين محمود ، الذى عزز موقفه ، ووحد الجبهة الإسلامية الممتدة من منطقة العراق عبر بلاد الشام إلى المناطق الجنوبيّة القريبة من لبنان ، وهى المناطق التى كانت تشكل الحدود الشمالية للملكة اللاتينية .

وعلى الرغم من التقلص الإقليمي الذى عانت منه المملكة اللاتينية فقد هاجرت الخليفة المهم مثلاً في إمارة دمشق ، فإن الكيانات الصليبية في منطقة الشرق العربي لم تصل إلى درجة ومرحلة الضعف الخطير . وواقع الأمر ، أن وضع الامارات الصليبية الشمالية بات محفوفاً بالأخطر وعدم الاستقرار ، إذ تدخل الامبراطور البيزنطي مانويل كومنين في شتون هذه الإمارات وأجبرت هذه الامارات الصليبية على التبعية والخضوع للسيادة البيزنطية لفترة قصيرة ، وفي تلك الفترة وقعت أحداث في الجنوب كانت غير متوقعة ، فقد كانت سيطرة الصليبيين على عسقلان تعنى أكثر من تدمير معلم مصرى محصن في الأرض المقدسة ، فقد أصبحت مصر ضعيفة بسبب الصراعات المحلية مما جعلها فريسة سهلة لجيرانها الصليبيين والمسلمين (الزنكيين) . ففى أثناء فترة حكم الملك الصليبي عموري الأول أمايليك (١١٦٣-١١٧٤م) طلب الوزير الفاطمى شاور من الصليبيين غزو مصر خمس مرات . ولم يخسر المصريون معركة بل خسرو الحرب . فقد ارتفعت البيارق والرايات الصليبية فوق الأرض المصرية في عام ١١٦٤م وقامت السلطات الصليبية بتحصيل الضرائب والتعويضات من المصريين بيد أن هذه المغامرة انتهت بكارثة حلت بالصليبيين . وعندما قام أحد المنافسين في مصر (ضرغام) باستدعاء نور الدين محمود للحضور بقواته إلى مصر لطرد الصليبيين وافق نور الدين محمود على الفور على الاشتراك في هذا الصراع العسكري على أرض مصر

وأن كان قد تردد قليلاً قبل استجابة هذا المطلب . وتلقى الصليبيون المساعدة والتأييد من أحد الأحزاب المصرية المتصارعة، في حين حصل الزنكيون على المساعدة والمأزورة من الحزب السياسي الآخر، وتنافس الفريقان الزنكي والصليبي من أجل تحرير مصر*. وكان نتاج هذا الصراع السياسي والعسكري واضحًا. فقد استطاع الصليبيون حكم مصر بشكل مؤقت، وتكتلت قوتهم عندما حاولوا غزوها . ولم يكفل النصر الحاسم الذي أحرزه الصليبيون في مصر بقاء السيادة اللاتينية في منطقة وادي النيل.

وهكذا أصبحت النتيجة التي تخضت عنها المعاملات الصليبية المشئومة والفاشلة لغزو مصر بمثابة نقطة تحول في تاريخ الشرق العربي. وأدت مغامرات الملك الصليبي أمالريك لاحتلال مصر إلى الحق الضعف بالملكة الصليبية، التي فقدت حيويتها ونشاطها ، فقدت كذلك روح المبادرة السياسية والعسكرية .

وبالإضافة إلى ذلك ، فقد وقعت أحداث سياسية ودينية جديدة في منطقة الشرق العربي. إذ أصبح الشوام الذين خلصوا مصر من الوجود الصليبي سادة وحكاماً مصر. واستطاع صلاح الدين الأيوبي الذي كان قائداً كردياً في جيش نور الدين محمود خلال الصراع العسكري مع الصليبيين على أرض مصر، أن يضع نهاية للخلافة الفاطمية الشيعية ويسقطها في عام (١١٧١م) ، وأصبحت مصر منذ ذلك الحين تابعة للخلافة العباسية في بغداد. لقد كان تحول مسرح الأحداث السياسية والعسكرية للصراع الإسلامي الصليبي من بلاد الشام إلى مصر ذات أهمية بالغة. فقد تحمل صلاح الدين الأيوبي وعلى مضض خضوعه لسيادة نور الدين محمود ونتائج عن هذا توتر في العلاقات بينهما ووحشة بين الاثنين وتمثل هذا التوتر في تقاعس وفتور صلاح الدين الأيوبي في تنفيذ أوامر نور الدين بشأن الاشتراك في الهجوم المزدوج ضد الصليبيين من مصر والشام بشكل متزامن . وجاءت وفاة نور الدين محمود في عام ١١٧٤م لتشعب نشوب الخلافات بين السيد الأعلى في بلاد الشام (نور الدين محمود) وبين تابعه القوي في مصر (صلاح الدين الأيوبي). وسار صلاح الدين بجيشه من مصر إلى بلاد الشام لكي يؤكد سلطنته وذلك عين طريق إبعاد أقارب وأتباع الزنكيين عن الحكم . وبعد عشر سنوات

* كان الصراع بن شاور وضرغام على كرسى الوزارة في حكومة الخليفة الفاطمي المعتضدارهاصا لسقوط الخلافة الفاطمية في مصر وقيام الدولة الأيوبيه بقيادة صلاح الدين الأيوبي الذي كان افرازاً لمرحلة الصراع العسكري الإسلامي الصليبي . (المترجم) .

استطاع أمراء البيت الأيوبى السيطرة بلاد الشام، فقد استطاع الأيوبيون السيطرة على دمشق وضمنها لدولتهم فى بواكير عام ١١٧٤م، وظلت حلب خارج السيادة الأيوبية حتى عام ١١٨٣م.

تولى صلاح الدين الأيوبى حكم مصر فى عام ١١٦٩م، فى أعقاب محاولات الصليبيين المتقطعة والعايرة للهجوم على مصر، تلك المحاولات التى كانت بفرض الدعاية ليست مشروعًا عسكريًا. فقد فرض الأيوبيون حصارًا قصير الأمد على القلاع الصليبية فى منطقة ما وراء نهر الأردن، كما اشتبأ غارات صغيرة ضد الملكة الصليبية. وفشل الهجوم الخطر الذى شنه صلاح الدين الأيوبى ضد الصليبيين فى عام ١١٧٧م عند منطقة جبل جيزارد-Mont gisard ، وهكذا فإن صلاح الدين كان قائداً متوفقاً البراعة والمقدرة العسكرية. وتتجلى عظمة وقحة صلاح الدين فى قيادته العليا للقلوب والقدرة على استقطابها واحلاص رجاله له*.

لقد كان الوقت خيراً عون لصلاح الدين. فقد استطاع ثبيت حكمه فى أقطار كثيرة فى العراق، ومصر ، وببلاد الشام، وفي أقصى السودان واليمن، الأمر الذى جعل تحت تصرفه جيوش ضخمة ، استخدمها بالتناوب من وقت لآخر فى الحروب ضد الصليبيين. وعلى الجانب الآخر، فإن الهجرة إلى المملكة اللاتينية تباطأ إيقاعها بعد انتهاء أحداث الحملة الصليبية الثانية، وعانت المملكة اللاتينية من النقص السكاني الحاد، وكان التراجع فى عدد السكان شيئاً متوقعاً وأمراً مسلماً به. فقد كان يصاحب كل حملة عسكرية تحرك عدد من القوات المهمة والمتاحة ، وكانت المعركة الخاسرة للصلبيين تسفر عن سقوط عدد كبير من القتلى وسط الجيش الصليبي ، وتلحق التدمير والخراب بالملكة اللاتينية.

ومع ذلك، فإنه لا يجب أن نبالغ فى حجم الأخطار التى كانت تهدد المملكة اللاتينية . وذلك لأنه على الرغم من المساعدات التى تلقاها صلاح الدين من الجماعات الدينية ومن كافة الأقطار الإسلامية، فإنه لم يستطع السيطرة الكاملة على الموارد المالية والمادية للعالم الإسلامي. ولم تكن الدفوعات والتخصيبات التى أعدها صلاح الدين بالأمر العسير لاخترافها. وقد تأكّدت هذه الحقيقة من خلال محاولات الصليبيين الناجحة لاجتياز سيناء وغزو الحدود الشرقية لمصر، أو من خلال المغامرات العسكرية الطائشة التى قام بها الأمير الصليبي رينو دي شايتون (أرناط) حاكم الكرك فى البحر الأحمر عام ١١٨٣م بقصد الوصول إلى مكة

* حول القدرة العسكرية لصلاح الدين انظر : (ابن شداد : التوادر ، ص ١٢٥) . (المترجم) .

والمدينة ونهب هذه الأماكن المقدسة في بلاد الحجاز . وفي تلك الفترة شهدت المملكة اللاتينية اضطرابات داخلية أصبح من الضروري التدخل لتسويتها . فمنذ عام ١١٨٣ م تزايدت حدة الصراعات المحلية بين الجماعات الصليبية وتناحرت هذه الأحزاب الصليبية ، الأمر الذي أدى إلى إضعاف الحكومة المركزية ، وعند ذلك كشف صلاح الدين هجماته وضغطه على الصليبيين حتى وقعت معركة حطين الخامسة في شهر يولية ١١٨٧ م.

فقد اكتملت كل الاستعدادات الالزامية لهذه المعركة الشهيرة . واحتشدت القوات الإسلامية كثيرة العدد بقيادة صلاح الدين ، وقاد الملك الصليبي جاي لوزجانان الجيش الصليبي . وتعجلت الخطة الاستراتيجية المتألقة التي وضعها صلاح الدين في عبور الأردن ومحاجمة طبرية وإحراق المدينة والمناطق الريفية المحيطة بها . وعندئذ تحرك الجيش الصليبي في مناورة تجعله في وضع يسمح لقواته الضاربة من الفرسان الثقيلة بالهجوم المباشر ضد قوات صلاح الدين . أو ينشروا حشود قواتهم لبادرة الجيش الإسلامي أو إجباره على التق佛 ، وذلك لصعوبة ظروف الحرب . حيث وعورة الطريق وقلة الماء وحرارة الجو القائمة في شهر يولية ، حيث لا يستطيع أي محارب الاستمرار في ميدان المعركة فترة طويلة . وفي بداية معركة حطين قرر الجيش الصليبي تنفيذ الخطة العسكرية السابقة ، بيد أن القادة الصليبيين عملوا بنصيحة مضللة فزحف الجيش الصليبي صوب طبرية لتخلصها من يد المسلمين . وفي أثناء هذا الزحف وقع الجيش الصليبي في مصيدة وشرك معركة انتهت ببادرة وتدمير هذا الجيش . وتم قتل وأسر ما يقرب من ١٢٠٠ فارس ، ١٥٠٠ جندي مشاة من الصليبيين ولم يكتب للجيش الصليبي البقاء وباتت المملكة الصليبية مهددة بالانهيار والسقوط .

كانت تعبئة الجنود الصليبيين كاملة عشية معركة حطين ، ومن الناحية الواقعية لم تترك قوة عسكرية صليبية تحمى المدن والقلاع الصليبية . وعندما قرر صلاح الدين الاتجاه صوب المناطق الخاضعة للصليبيين لاستردادها ، فتحت معظم هذه المدن والقلاع أبوابها أمام الجيش الإسلامي المنتصر دون مقاومة ، وبعض هذه المدن استسلمت بعد مقاومة بسيطة . واستولى صلاح الدين على مدينة بيت المقدس في ٢ أكتوبر عام ١١٨٧ م بعد ثمانية وثمانين عاماً من الاحتلال الصليبي لها في عام ١٠٩٩ م . واستمرت بعض الجيوش العسكرية الصليبية الصغيرة تقاوم صلاح الدين في الجليل ، ولكن ما لبث أن اختفت هذه المقاومة تدريجياً وفقدت المملكة الصليبية معظم أقاليمها بنهاية عام ١١٨٩ م ماعدا مدينة صور . وانحصر الوجود الصليبي في الأماكن الداخلية في شمال أنطاكية ، وطرابلس ، والمرقب داخل المحيط الإسلامي .

وجاءت الحملة الصليبية الثالثة (١١٩٢-١١٨٩) لكي تعيد تأسيس المملكة الصليبية. فقد أدى سقوط بيت المقدس في يد المسلمين إلى ردود فعل عنيفة في في أوروبا، وبدأت الدعوة لحملة صليبية جديدة لتحرير القبر المقدس. وتحركت ثلاثة جيوش من فرنسا والمملكتا وألمانيا بقيادة فيليب الثاني ملك فرنسا، وريشارد قلب الأسد ملك إنجلترا، وفريدريك الأول الأول الإمبراطور الألماني ، بالإضافة إلى بعض القوات الصغيرة التي أتت من أقاليم أخرى من أوروبا ، وأبحرت هذه الجيوش من أوروبا ووصلت إلى مدينة صور ثم بعد ذلك إلى ميناء عكا. وضعف قوة هذه الجيوش عندما زحف الجيش الألماني عن طريق البحر إلى آسيا الصغرى، وتعرض الإمبراطور الألماني المسمى للفرق في أحد أنهار آسيا الصغرى وتشتت قواته وتحالفت القوات العسكرية الصغيرة التي جاءت من أوروبا مع الملك الصليبي جيGuy de لوزجيان Lusignan الذي أطلق صلاح الدين سراحه من الأسر، وفرض الصليبيون الحصار على عكا مدة ثلاث سنوات (١١٩٢-١١٨٩) وأصبحت مدينة عكا مركزاً مهمّاً للنشاط الصليبي في منطقة الشرق العربي وكذلك مركزاً مهمّاً للنشاط الأوروبي. واستلمت مدينة عكا من جراء قسوة الحصار الصليبي الذي أنهك حاميتها الإسلامية ، واستولى عليها الصليبيون وواصل ريشارد قلب الأسد زحفه صوب الجنوب بثانية وشجاعة واستطاع إعادة بعض المدن الساحلية للصليبيين. ورغم الظرف المترافق الإسلامي والصليبي في إقرار السلام بينهما ولذا عقدت معاهدة الرملة بينهما في ٢ سبتمبر ١١٩٢ م . وأصبحت المملكة اللاتينية الجديدة المتقلقة تنحصر في شريط ساحلي ضيق يمتد من صور شمالي حتى يافا جنوبياً .

كان حصاد الحملة الصليبية الثالثة هزيلًا ومخيباً للأمال إذا ما قورن بالجهود الأوروبي الضخم فلم تستطع هذه الحملة تحقيق الهدف الذي جاءت من أجله. وبالإضافة إلى ذلك، فإنه لم يحدث التدفق الكبير المتوقع للمهاجرين الأوروبيين على المملكة الصليبية للاستقرار فيها وأخفقت الحملة الثالثة في تحقيق ذلك، ولم تكن المشكلة الرئيسة لوجود وبقاء المملكة الصليبية تنحصر فقط في حجم القوة العسكرية التي تدافع عنها ضد أعدائها والخاق الهزئة بأعدائها في أي موقعة عسكرية (فشل الصليبيون في تحقيق ذلك إلى أقصى حد) ، ولكن أيضاً في حجم القوى البشرية المتاحة والقدرة على الاستقرار وتشييـت جذورهم في المناطق التي احتلها الصليبيون مرة ثانية وفي الأقاليم التي سيتم احتلالها في المستقبل . والواقع أن هذا أصبح أمراً غير عملي في مواجهة التغير الرئيسي في الاستراتيجية الإسلامية. وخلال الحملة الصليبية الثالثة اتبع صلاح الدين سياسة الأرض المحرقة تلك السياسة التي مارسها خلفاؤه في دمشق وفي مصر بشكل مستمر. فقد تم تدمير كل القلاع والمدن التي استولى عليها من

يد الصليبيين بانتظام. وأصبح الصليبيون في حاجة إلى المال والوقت لإعادة تشييد القلاع والدفوعات التي كانت تنهيدها الهجمات الإسلامية المستمرة. ومن ناحية أخرى، فإن تجديد عملية الهجرة بأعداد كبيرة إلى المملكة الصليبية كانت هي الوسيلة الوحيدة لملء المدن والقلاع بالسكان وتعويض الخسارة البشرية التي تكبدتها الصليبيون في معركة حطين وفي أحداث الحملة الصليبية الثالثة. بيد أن الهجرة الأولى إلى المملكة الصليبية لم تكن تعتمد على أوضاع الصليبيين في الشرق العربي، إذ كانت هذه الهجرة والنزوح إلى المناطق الصليبية في الشرق يعتمد على الظروف الديموغرافية (السكانية) والاقتصادية التي تربّى بها أوروبا بصورة أكبر من اعتمادها على الروابط والعلاقات الروحية والعاطفية التي تربط المسيحية بتراثها ويعوطها الأول في الأراضي المقدسة.

وكانت كل حملة صليبية تالية بعد الحملة الصليبية الثالثة تسعى إلى استعادة بعض الأراضي التي فقدتها الصليبيون. وعلى الرغم من توسيع هذه الجهود الصليبية وضآلتها هذه في الغزوات ، فإن المملكة الصليبية استطاعت استعادة بعض الأجزاء التي فقدتها في أثناء حروبها مع المسلمين. وهكذا فإن الحملة الصليبية في عام ١١٩٧ استطاعت احتلال بيروت، وبذلك اتصل الساحل الجنوبي بكونتية طرابلس الصليبية؛ واستطاعت الحملة الصليبية الرابعة في عام ١٢٠٤ ضم صيدا في الشمال، وكذلك ثبتت ملكية الصليبية الكاملة لمدينتي الرملة واللد، وهما المدينتان اللتان كانتا حتى ذلك الوقت ضمن أراضي المقاومات بين المسلمين وبين الفرنجة.

وافتقرت النتائج المخيبة للأمال للحملات الصليبية بصعوبات في احراز موطن، قدم ثابت للصليبيين في المناطق الداخلية في بلاد الشام وفلسطين ، وهذا يفسر انحراف وتحول الحملة الصليبية الرابعة من الأراضي المقدسة وهجومها المباشر على مصر، التي كانت قلقل القوة الرئيسية في منطقة الشرق العربي. وثمة محاولاتان قام بها الصليبيون من أجل السيطرة على مصر، كانت المحاولة الأولى عام ١٢١٨-١٢٢١م، والثانية كانت بقيادة الملك الفرنسي لويس التاسع في عام ١٢٤٨-١٢٥٠م (وهو الملك الذي مكث في الأرض المقدسة أربع سنوات حتى عام ١٢٥٤م)، وجاءت هاتان الحملتان لاستعادة الصليبيين للأراضي المقدسة مرة ثانية واستعادة مملكتهم السابقة من خلال ميادين الحرب على أرض مصر. وابتسم الحظ مرتين للصليبيين وظهرت بوادر النصر للصليبيين على أرض مصر خلال حملة عام ١٢٢١-١٢٢٨م ضد دمياط. وابان تلك الظروف المحرجة التي مربها الجيش المصري، قدم الحكماء المصريون

(الكامل الأيوبي) عرضًا سخياً على الصليبيين ، عبارة عن التنازل عن كل المناطق السابقة التي فقدتها المملكة الصليبية (باستثناء ما وراء نهر الأردن) ، مقابل رفع الحصار عن دمياط والجلاء عن مصر.

ولعبت الظروف السياسية المناسبة دوراً كبيراً في تحقيق الصليبيين لبعض المكاسب، تلك المكاسب التي لم يستطع الصليبيون تحقيقها في ميدان القتال: فقد انهارت الدولة الأيوبية وتفسخت بعد وفاة موسى صلاح الدين في عام ١١٩٣م. وأعقبت وفاته استئناف الصراعات المحلية بين أمراء البيت الأيوبي في الأقاليم الإسلامية التي كانت خاضعة اسماً لسلطة سلطان مصر الأيوبي. وبخطوة ماكرة من التهديدات والتحالفات استطاعت المملكة الصليبية مرتين استعادة بعض أملاكها السابقة، وإن كانت لم تسترد حدودها السابقة.

وعلى الرغم من أن البعض أنكر الحملة الشهيرة التي جاءت بقيادة فردريك الثاني الهوهنشتاوفن، ولم تحظ هذه الحملة بالاسم المجل للحملات وهو «الصليبية» فإنها انتهت بعقد معاهدة بين الطرفين الإسلامي والصليبي في تلك العجلة وبيفا عام ١٢٢٩م. واتسعت أملاك المملكة اللاتينية بشكل واضح وذلك بضم الناصرة وجزء من بيت المقدس وأيضاً بضم منطقتين ضيقتين من الأرض ، والتي تصل شاطئ البحر بالأملاك التي اكتسبها الصليبيون في الجليل ويهودا (القدس) . وأصبحت مدينة بيت المقدس مسيحية مرة ثانية، على الرغم من أن هذه المدينة لم تستمر كذلك أكثر من خمسة عشر عاماً حتى استردتها قوات الخوارزمية في عام ١٢٤٤م، وعادت هذه المدينة إلى السيادة الأيوية في مصر.

وخرج الفرنجة من مدينة بيت المقدس وبشكل محدد في عام ١٢٤٤م ولم تخضع هذه المدينة المقدسة للسلطة المسيحية حتى دخول النبي لها بعد هزيمة الأتراك في عام ١٩١٧م . وبعد ثلاثين عاماً وفي عام ١٩٤٧م أصبح شطر هذه المدينة المقدسة عاصمة لإسرائيل الوليدة و وسيطر الملك عبدالله ملك الأردن على الشطر الثاني من القدس. وبعد عشرين عاماً من هذا التاريخ، وفي أعقاب حرب الأيام الستة في يونيو ١٩٦٧م، قامت إسرائيل بتوحيد شطري المدينة وضمها تحت سيادتها.

لقد اتسعت حدود المملكة الصليبية على يد الامبراطور فردريك الثاني في عام ١٢٢٩م، واتسعت مرة ثانية في عام ١٢٤٠-١٢٤١م، في أعقاب الحروب الصليبية التي شنها ثيوبوت Thibaut كونت شامبانيا، وريتشارد إيريل كورنيل وأخر ملك المجرلا هنري الثالث. وبشكل

متخاذل عقد الأخير معااهدة مع دمشق التي كانت في حاجة إلى تحالف مع الصليبيين ضد مصر. ويقتضى معااهدة الدفاع والتحالف التي أبرمت بيت الدمشقة وبين الصليبيين احتفظ الصليبيون بمدينتي صيدا وبيوفورت ، بالإضافة إلى نوع من السيادة المشتركة الإسلامية الصليبية في الجليل مع عاصمتها طبرية. واتسعت حدود هذه الأماكن الصليبية المكتسبة بعد عام وذلك في أثناء حملة ريتشارد كورنول (١٢٤١-١٢٤٠ م)، حيث أقرت معااهدة السلام التي أبرمت بين الصليبيين وبين حكام مصر من الأيوبيين الأماكن الصليبية المكتسبة السابقة وأضافت إليها أملاكاً جديدة. فقد تم التنازل للصليبيين عن كل منطقة الجليل، وأيضاً مدينة بيت المقدس ، وبيت لحم وقطعة أرض ضيقة تمر عبر الرملة واللد إلى يافا. بالإضافة إلى مقاطعة متصلة ممتدة لتشمل بيت جبرين في الداخل وعسقلان على الساحل . وكانت الحدود الجديدة للملكة اللاتينية هي أقصى ما وصلت إليه هذه المملكة في القرن الثالث عشر الميلادي. وإذا ما قارنا بين المملكة الصليبية الثانية والملكة الصليبية الأولى نلاحظ أن المملكة الثانية قد فقدت منطقة ما وراء نهر الأردن، والجلolan، وجنوب يهودا (القدس) ، والسامرة، التي ظلت تحت الحكم الإسلامي.

كانت الحدود الجديدة للملكة اللاتينية تضمن الأساس الإقليمي الذي يقوم عليه الوجود الصليبي والملكة اللاتينية، بيد أن هذه الحدود المميزة لم تعد كافية للحفاظ على كيان وجود المملكة الصليبية، إذ كان وجود هذه المملكة يعتمد في المقام الأول على القوة البشرية التي ترغب في الاستقرار وغرس جذورها في هذه المناطق التي اكتسبها الصليبيون من جديد. وبذلت بعض الجهود من أجل الحفاظ على الوجود الصليبي ، وعلى سبيل المثال، بذلت الهيئات الدينية العسكرية (الداوية - الاستبارية - التيرتون) بعض الجهود لكي يستردوا ممتلكاتهم السابقة . ولكن المرء يستطيع أن يقرأ وصفاً مفصلاً لتحقیقات صفد في عام ١٢٤٠ م لكي يعرف مدى حجم المبالغ المالية اللازمة لعملية استعادة الأماكن الصليبية وإعادة تعميرها وتحصينها . فقد كانت الأرضي التي استردها الصليبيون مهجورة وخربة، مدمرة القلاع ، وكانت موجات الهجرة المطردة من أوروبا هي السبيل الوحيد لتحقيق احياء المملكة الصليبية. بيد أنه لم يكن هناك أمل في تدفق مثل هذه الموجات من الهجرة الأوروپية إلى الشرق . وفي أحسن الأحوال ، انطلقت الحملات الصليبية بقيادة القدس لويس (لويس التاسع ملك فرنسا) أو الأمير ادوارد (الملك ادوارد الأول فيما بعد) من إنجلترا، بيد أن هذه الحملات العسكرية لم تجلب معها ، سوى عدد ضئيل من القوة البشرية الإضافية.

وعندما وصلت القوات الخوارزمية استجابة لدعوة السلطان الأيوبي في مصر، استطاعت هذه القوات الخوارزمية استرداد مدينة بيت المقدس من الصليبيين في عام ١٢٤٤ م. وكانت هذه الحادثة بشارة النكبة الأولى في قائمة النكبات والمصائب الطويلة التي عصفت بالملكة الصليبية. فقد تعثرت حملة لويس التاسع الكبيرة في أوحال الدلتا، وفضح عنها نتيجة منطقية: ظل الملك الفرنسي لويس التاسع في عكا أربع سنوات، يعمل جاهدًا في تحصين الساحل الصليبي أو يقدم المؤن للمدن المحسنة، وأصبحت هذه التحصينات فقط هي مراكز الانطلاق لعملية الاسترداد الحقيقة والتي سوف يقوم بها الغرب الأوروبي استجابة للمطالب اللازمة للصليبيين في الشرق.

واستطاع الصليبيون إعادة تحصين المدن الساحلية والقلاع بسهولة بسبب أحاديث الضعف والتراخي المتكررة التي مرت بها مصر نتيجة الخلافات الداخلية بين أمراء البيت الأيوبي، وهي فترة المخاض والتكرير التي مرت بها الدولة المملوكية والتي تولت السلطة من الدولة الأيوبية الضعيفة في عام ١٢٥٠ م. بالإضافة إلى ذلك، فإن الغزوات المغولية كانت أحدى الكوارث والنكبات الرئيسية في آسيا الصغرى وفي التاريخ الأوروبي، ووصلت هذه الغزوات المدمرة إلى منطقة الشرق العربي الإسلامي بعد جيل واحد من قيادة جنكيز خان، وشكلت هذه الغزوات إطاراً جديداً للعلاقات السياسية، فقد استطاع المغول غزو بلاد فارس وتلي هذا الغزو تهديد مغولي لبلاد العراق وبلاد الشام ولم يتحدى التهديد المغولي سيطرة مصر في الشرق العربي فقط، بل كان أيضاً تهديداً للإسلام.

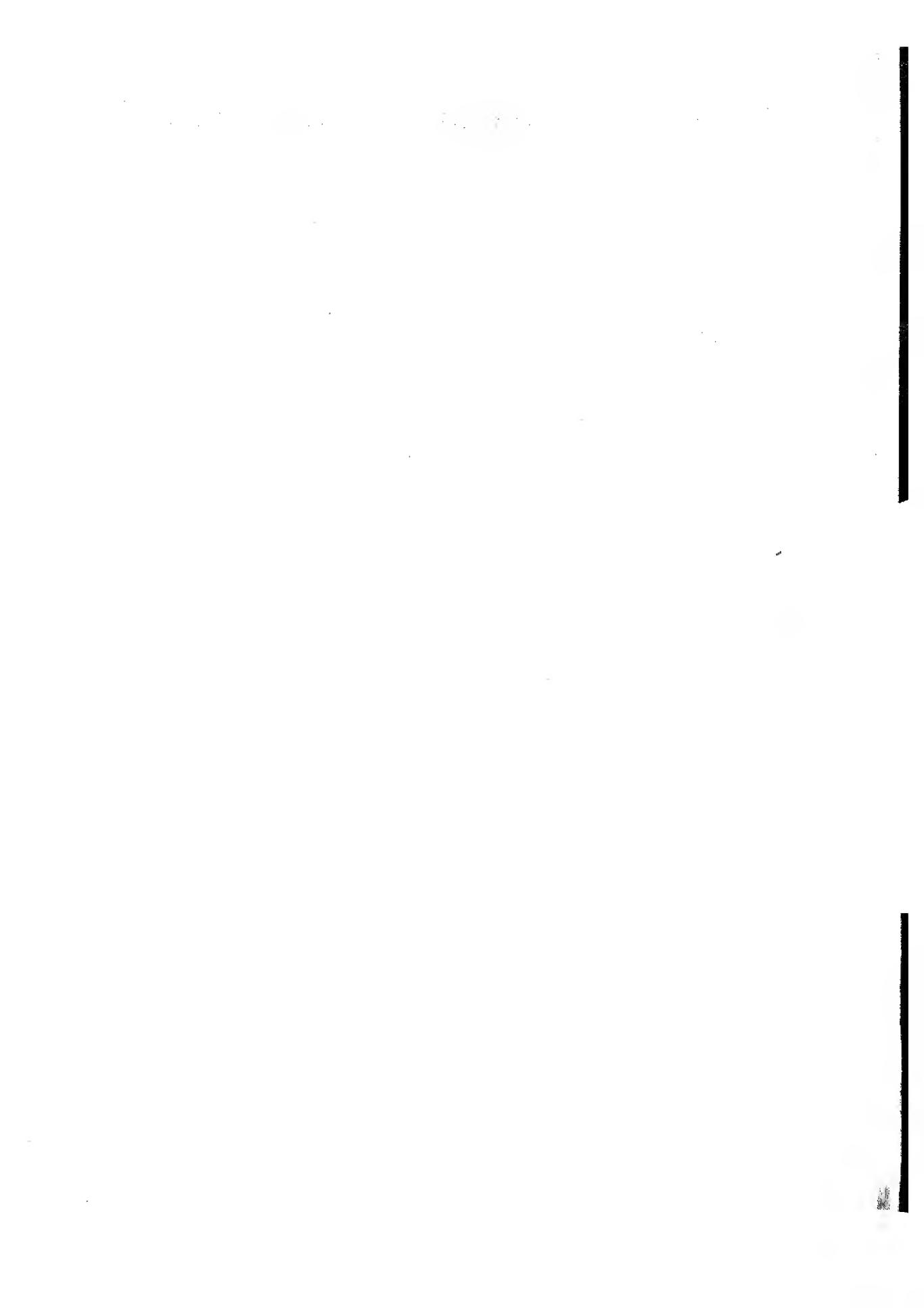
تطلع لويس التاسع والصليبيون إلى إمكانية التحالف مع هذه القوة المغولية الجديدة وراودهم الأمل في تحقيق هذا التحالف الصليبي المغولي وتوجيهه ضد المسلمين. فقد كانت هناك قبائل مسيحية ضمن الجيش المغولي، نتيجة أعمال وجهود المبشرين النساطرة^{*}، في منطقة وسط آسيا. وبدأ الهجوم المغولي على الخلافة العباسية في بغداد وأذفت ساعة الصدام المباشر بين المغول وبين القوة الإسلامية الرئيسة.

وفي القرن الثالث عشر الميلادي، لم تعد كلمة الجهاد تعنى الحرب ضد شرذم المسيحيين الصليبيين، ولكنها كانت تعنى الحرب المقدسة ضد قوة المغول المدمرة. وأخفقت محاولات

* النساطرة: احدى الطوائف المسيحية: تنسب هذه الطائفة إلى رجل دين مسيحي يدعى نسطور وهو من رجال ومن كنيسة القسطنطينية، وقد كان له رأي في تفسير طبيعة المسيح (المترجم).

الصلبيين للتحالف مع المغول^{*}، وخلال فترة الصدام الخامس بين المغول وبين المسلمين، وقف الصليبيون موقف المتفرج فقط على الأحداث التي قررت مصير ومستقبل منطقة الشرق العربي. ويعتبر السلطان المملوكي الظاهر بيبرس هو قائد حركة الجهاد الإسلامي ضد المغول، وهو الذي قرر مصير الإسلام. وأظهر قدرات عسكرية بارزة في التصدى لهذا الغزو، وكان من الشخصيات الحاكمة البارزة في منطقة الشرق العربي خلال القرن الثالث عشر الميلادي. فقد حقق نصراً عسكرياً حاسماً على المغول في موقعة عين جالوت عام ١٢٦٠م، وخاض معارك تالية ضد المغول في بلاد الشام، وتوفي بيبرس في عام ١٢٧٧م، واستطاع الظاهر بيبرس أيضاً تدمير الكيانات الصليبية في بلاد الشام وفلسطين. وفي غضون ثلاث سنوات (١٢٦٣ - ١٢٦٦م) وفي فترة الحملات العسكرية المتعددة والرئيسة، استطاع بيبرس القضاء على السيادة الصليبية في الجليل، وبعد ذلك وجده هجومه ضد المدن والقلاع الصليبية المحصنة المتدة على الساحل. وتم تدمير هذه المدن والقلاع الصليبية التي استولى عليها الظاهر بيبرس، حتى يمنع عملية احياء السيادة الصليبية، أو حرمان الصليبيين الأوروبيين من الحصول على موطن، قدم لهم في المستقبل، وهي المدن والقلاع التي كانت ما زالت مصدر ذعر رهيب للحكام المسلمين. وأصبح سقوط باقي التحصينات الصليبية مسألة وقت فقط. ففي عام ١٢٩١م قام السلطان المملوكي الأشرف خليل بن قلاوون بمحاصرة عكا من ٥ أبريل - ٨ مايو) وسقطت المدينة بعد دفاع شرس استمر أربع وأربعين يوماً. وهجر السكان مدینتى صور وصيدا ، وكذلك بيروت ، وحيفا . وفي ١٤ أغسطس ١٢٩١م قام فرسان الداوية بأخلاء قلعة بلبيرين "Pêlerin" آخر العاقل الصليبية في الأرض المقدسة ويمروا وجواهم شطر قبرص للاستقرار فيها.

* لم تنجع محاولات التحالف الصليبي المغولي ضد المسلمين لأسباب عديدة للوقوف على تفاصيل هذا الموضوع انظر: عادل اسماعيل هلال: العلاقات بين المغول وأوروبا (عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، الطبعة الأولى، ١٩٩٧)، ص ٩٥-١٢٠.



الفصل الرابع

ملكة بيت المقدس

وربما تنبأ الطالب المعاصر الدهشة إذا علم أنه عندما تحركت جيوش الحملة الصليبية الأولى صوب منطقة الشرق العربي لتقديم العون للمسيحيين الشرقيين وتخلص الضريح المقدس من السيطرة الإسلامية لم يشر أى أحد من الصليبيين -سواء كان البابا أو أى أمير صليبي علمنى- إلى مصير المناطق والأقاليم التي سيتم احتلالها في المستقبل ، أى أن الصليبيين لم يكن لديهم أى تصور لنظام الحكم والإدارة في هذه المناطق الجديدة . وثمة سؤال يطرح نفسه وهو ماذا حدث في الأراضي والمناطق التي احتلها الصليبيون بعد تحريرهم القبر المقدس من نير الحكم الإسلامي المصحف *؟ والحقيقة أن البابا اريان الثاني Urban II بشر كل الصليبيين الذين سيشترون في الحملة المقدسة إلى الشرف بالشراء والغنوة ولوح لهم بهذا الأمل (وإن كنا لافقك دليلاً مباشراً لهذا) ، وبيدو أن هذه البشرة البابوية كانت تعنى حصول المشاركين الصليبيين على الفنان وأسلاب في المناطق التي تخضع لسيطرتهم بصورة أكبر عن شكل السيادة الصليبية في هذه المناطق . وكان ريموند الساخيلي قائداً الجيش البرونوفسالي هو الوحيد من بين كبار القادة الصليبيين الذين عقدوا العزم على البقاء في الشرق . وأعد بعض القادة الصليبيين الآخرين الترتيبات لحكم مناطق نفوذهم في الشرق في غيابهم توقعًا لعودتهم إلى أوطانهم آجلاً أو عاجلاً .

وخلال فترة الزحف الصليبي صوب الشرق التي استمرت ثلاث سنوات بدأت تتضح بعض الأفكار الخاصة بمستقبل المناطق والأقاليم التي سيتم غزوها ، وساهمت بعض الحوادث المفاجئة غير المتوقعة في فرض الأمر الواقع ، ذلك الأمر الذي لم تستطع خطة أو أيديولوجية التنبيه به ، وكان نورمان صقلية عديمي الضمير والأكثر افلاماً وتقلباً أول من أدرك أبعاد الظروف الجديدة والأحداث المحتملة في المنطقة . فقد كان بوهمند Bohemond يطمح في أن يكون مملاً للإمبراطور البيزنطي في الاشتراك مع الجيوش الصليبية المتجهة صوب الشرق ، وحاول ابن

* هذا القول تردد المصادر اللاتينية ، وهذا أمر عادي في ضوء العداء بين المسلمين وبين الصليبيين ، وإن كان هذا القول يجافي الحقيقة التاريخية ، فلم يكن الحكم الإسلامي في بلاد الشام وفلسطين مجحفاً (الترجم).

أخته تانكرد Tancred فرض سيادته على بعض المدن في سهل قلبيقة، حتى قبل أن يصل الجيش الصليبي إلى شمال بلاد الشام. وأعاد بهمتد الكرّة واستطاع الحصول على منطقة نفوذ له ، فانتزع أنطاكيّة من ريموند السالجقيّي بعد احتلال الصليبيّين لها وطرد الأتراك السلاجقة . وجاء بعده بلد़وين آخر جودفري البوبيوني ، ذلك القائد الذي تلقى دعوةً من الحاكم الأرمني في الراها لتقديم العون للأرمن وحمايتهم من خطر جيرانهم المسلمين ، وبعد وقت قصير نجح القائد الصليبي (بلدوين البوبيوني) في إثارة فتنة وحركة تمرد ضد الحاكم الأرمني المحلي للإطاحة بهذا الحاكم ونجحت الفتنة في ابعاد الحاكم الأرمني وخلفه بلدُوين في حكم إمارة الراها.

وبعد استيلاء الصليبيّين على أنطاكيّة أرسلوا إلى البابا خطابات ينادونه ويطلبون منه الالتحاق بهم لكي يقود الجيوش الصليبيّة. ورها لو استجاب البابا لهذا المطلب الصليبي لتغيير تاريخ الشرق الأوسط تماماً. بيد أن البابا لم تطأ قدمه أراضي الأقاليم الصليبيّة الجديدة في الشرق (وراقع الأمر أن البابا لم يظهر للعيان في الأرضي المقدسة في فلسطين حتى عصرنا الحاضر) على الرغم من أن عددًا من البابوات قد تم انتخابهم من بين أساقفة الشرق اللاتيني .

ولم يكن هناك أخلاقي من جانب البابا وأية ذلك أنه لم يستجب لمناشدة الصليبيّين له في أنطاكيّة . ولذا لم يطلب الصليبيّون منه مرة ثانية قيادة جيوشهم . وبالإضافة إلى ذلك ، وكما ذكرنا آنفاً، حاول الصليبيّون وقادتهم عند أنطاكيّة اكتساب أمارات ومناطق نفوذ لهم.

وهكذا لم يتحدد شكل المستقبل بعد، بيد أن الدرس الذي تلقاه الصليبيّون عند أنطاكيّة والراها لم ينس بعد. ومن الواضح أن أحدي هاتين المدينتين (الراها) قد سقطت بسرعة في يد الصليبيّين، وتم تعيين حاكم صليبي لها، واقامة نوع من النظام الإداري. ووقع الصدام والنزاع الأيديولوجي الأول بين الصليبيّين والمتعلّق بمستقبل المناطق التي احتلها الصليبيّون في أثناء حصار مدينة بيت المقدس . وهذا النزاع المبكر الذي وقع بين الصليبيّين في أثناء حصار مدينة القدس يبرز المفاهيم والأفكار السياسية للصليبيّين التي تبلورت خلال السنوات الثلاث التي استغرقتها ملحمة الحملة الصليبيّة الأولى.

كان من الطبيعي أن تقترب القيادة العلمانية التي تضم الدوقات والكونتات والنبلاء والذين قادوا الجيوش من أوروبا وأتوا إلى مدينة القدس، انتخاب واختيار حاكم صليبي بشكل عاجل. وعندئذ قرر عدد كبير من الصليبيّين الذين شاركوا في الحملة الصليبيّة الأولى العودة إلى أوطنهم في أوروبا عقب الاستيلاء على مدينة بيت المقدس وتحرير قبر المسيح ولاسيما بعد الوفاء بتذرّهم الذي قطعوه على أنفسهم في بداية الحملة الصليبيّة. وكان لدى كبار القادة

الصلبيين الخيرة الادارية الواسعة التي اكتسبوها من خلال حكمهم لأقطارهم . وقد رأى هؤلاء القادة أن اختيار حاكم علماني سوف يحفظ للصلبيين مكاسب وثمار الحملة الصليبية تلك الحملة التي كلفتهم المزيد من الأرواح والأموال . وتمثلت الصعوبة في اختيار حاكم مناسب، وليس في شكل الحكومة.

وعارضت جماعة من الصلبيين هذا الرأي بشكل مباشر، وهي الجماعة التي كانت تشن الحركة الشعبية العاطفية المتحمسة والتي أدت تقريرًا إلى إحداث الشغب ضد كبار القادة الصلبيين في أنطاكية . بيد أننا لا نعرف الأشخاص الذين تحدثوا بلسان هذه الحركة الشعبية العاطفية . ومن المحتمل أن عدًّا من صغار رجال الدين قد قدموا اقتراحاتهم بهذا الخصوص . لقد كانت الحروب الصليبية في بدايتها ما تزال تصطبغ بالقوة المسيحية والحماسة الدينية، ولذا رفض رجال الدين تعيين أي حاكم علماني مهما كان شخص هذا الحاكم . وفسر رجال الدين النبوة في كتاب دانيال تفسيرًا غريباً، فادعوا أن المسيح كان أميناً وقربياً من الرب، وعندما جاء المسيح انقطعت وتلاشت كل أعمال التكريس*. وكان هؤلاء الذين غادروا أوروبا تحت قيادة رجال الدين، أو الذين كانوا ينضوون تحت قيادة بطة تلهمها الروح القدس والذين امتلأت بهم الطرق في فرنسا وألمانيا في مسيرتهم صوب الشرق يسألون عند كل قرية تصافح أعينهم خلال المسيرة هل هذه هي أورشليم (القدس) ، ويبعدوا أن فكرة إنشاء دولة طبيعية يحكمها حاكم علماني، وتنظمها قوانين ومؤسسات كالتي كانت موجودة في أقطارهم الأوروبية، أصبحت من قبيل خيانة القضية الصليبية والاتحراف عن أهدافها . ألم يقل أريجو Jericho في نصوصه التورائية المقدسة «إن أسوار مدينة بيت المقدس لم تسقط إلا إذا سار إليها جيش تائب حافي الأقدام وسط نفير الحرب الذي يطلقه أريجو Jericho ، وأحسست هذه الجموع الصليبية بالرغبة في النقاء والتطهر من الأدران والذنوب ، وأنهم على استعداد للعمل من أجل مملكة السماء» وفي تلك الظروف ، باتت فكرة تشييد دولة أرضية دينية وحاكم علماني عملاً منافيًّا للعقل والطبيعة.

* كان المتحدث بلسان هذا الفريق من رجال الدين هو المؤرخ البروفنسالي ريموند الأجوبليري Raymond of Aquitiers ، فهو يشير إلى كتاب دانيال ٢٤-٩ حيث يقول «لقد قضينا بسبعين أسبوعاً من الدهر لصلحة شعبك ومدينتك المقدسة لتنتهي الخطيئة ، وتضع نهاية للأثم، ولتکفر عن الخطيئة ، ولكنك تحيل الاستقامة الأبدية السرمدية ، ولكنك تدرك الرؤية المقدسة والنبي ولكنك تسع بالزينة كل القديسين (قديس القديسين) .

ولم تناقش المجموعة الصليبية التي انضمت تحت قيادة بعض الأساقفة مسألة ضرورة تعيين حاكم عثماني قوى يدافع ويندد عن حياض المدينة المقدسة.. وادعوا بأن اختيار البطريرك يجب أن يسبق انتخاب المحاكم العثمانية . وما فتئ الصليبيون يتجادلون حول أسبقية النظر في الأمور الروحية السرمندية عن الأمور الدنيوية الفانية ، ولذا يجب اختياره وتعيين الرئيس الروحي (البطريرك) قبل اختيار الحاكم الديني (الملك). لم يكن البروتوكول أو المسودة الأصلية لتعيين الحاكم هي المشكلة الرئيسة التي تواجه الصليبيين . فقد حضر الصليبيون إلى منطقة الشرق العربي استجابة لدعوة البابا ، ولم يشترك ملك أوربي في هذه الحملة الصليبية الأولى. ولذا أليس من الطبيعي أن تعرف المناطق التي احتلها الصليبيون منذ قليل بالسيادة البابوية؟ ومن المحقق أنه حتى هذه المرحلة لم تكن هناك خطة تنادي باقامة دولة بابوية ، وسلطة القديس بطرس في الأرض التي شهدت ميلاده . وبعد شهور قليلة قام البطريرك البيزى العدوانى دايمبرت Diambert باحضار القادة الصليبيين الثلاثة الموجودين في الشرق اللاتيني وهم جيوفرى البويونى Godfrey de Bouillon ، ويلدون أمير الرها- Baldwin of Edes- sa ، وبوهمند سيد أنطاكية Bohemond of Antioch لكي يقدموا إليه قسم الولاء الاقطاعى ، ووعد جوتفري البويونى بأن يتنازل عن المدينة المقدسة للبطريرك دايميرت.

وعندما بدأ الهجوم الصليبي على مدينة القدس بتسييد القذائف الحجرية ضد استحكامات المدينة توقفت الآراء الصليبية المتعارضة حول اختيار الحاكم والبطريرك اللاتيني ، فقد طال أمد النقاش حول هذا الخصوص واستمر بعد احتلال الصليبيين لمدينة القدس . وأعقب سقوط مدينة القدس قيام الصليبيين بأعمال السلب والنهب وإعمال السيف في رقاب سكان المدينة المقدسة وقتل عدد كبير منهم ، وتم الصفع عن عدد قليل من أسرى المسلمين مقابل تأدبة الفدية المناسبة ، وبعد ذلك عقد القادة الصليبيون اجتماعاً في كنيسة الضريح المقدس . وفي هذا الاجتماع انتصرت ارادة ورغبة القادة الصليبيين برفض ترشيح القائد الصليبي المغوار ريموند السالجيلى ، واستقر رأيهم على اختيار جوتفري البويونى كأول حاكم صليبي لمدينة بيت المقدس.

ووفقاً لأسطورة دينية مسيحية رفض جوتفري البويونى لقب ملك ورفض أن يتوج ملكاً في المكان الذي ارتدى فيه المسيح تاجاً من الشوك . ورضى بلقب متكافئ وهو لقب «حامى القبر المقدس» ، على الرغم من أن هذا اللقب مضلل بشكل مفروض . فقد كان لقب «حامى أو المدافع

عن» advocate عادة يعني أحد النبلاء الذي يمثل المؤسسة الكنسية (كنيسة أو دير) في تأدية واجباتها العامة باعتبار الكنيسة سيداً إقطاعياً . وفي نفس الوقت، كان .. الحامى أو المحامى advocate يؤدى قسم الولاء الإقطاعى لأسقف الكنيسة ، ويتسليم به أرضاً إقطاعية، ومن الناحية النظرية كان هذا النبيل يلتزم بالدفاع عن هذه المؤسسة سواء كانت كنيسة أو دير . ومن المحتمل أن اللقب الغريب الذى اتخذه جودفري البويونى كان يعني اعترافه إلى حد ما بنوع من السيادة الكنسية، وإن كان المعنى العملى لهذا الاعتراف ظل غامضاً وغير محدد على أرض الواقع . وبعد عام من سقوط مدينة بيت المقدس أى عام ١١٠٠ م ظل جودفري وعلى مضض وفيما بولاته الإقطاعي ووعوده للبطريرك دائيرت ، وكان هذا الولاء يشير إلى نفس الاتجاه السابق*، أى الاعتراف بالسيادة الكنسية . بيد أن جودفري البويونى كان أول وأخر حاكم صليبي يعترف بتبعيته للبابا أو البطريرك اللاتينى . فقد أعلن بلدوبن الأول الذى خلف أخيه فى وراثة عرش الملكة اللاتينية فى بيت المقدس بوضوح أنه حصل على هذا العرش «بنعمت من الرب» دون الاعتماد على أية واسطة . وكان اختياره لبيت لحم مكاناً لتتويجه بدلاً من بيت المقدس يفصح بطريقة ما عن رغبته فى تحدي وتجاهل المزاعم والدعوى الكنسية وعدم الاعتراف بها ، على الرغم من أنه أكد بشدة دعواه باعتباره وريثاً للملك داود وذلك بتكرر سمه ومسحه بالزيت المقدس فى كنيسة بيت لحم . وكان نقش صورة الضريح المقدس على العملات والمسكوكات الصليبية وعلى الأختام الملكية مجرد اشارة فقط لتلك العلاقة الروحية التى تربط بين ملوك بيت المقدس الصليبيين وبين الضريح المقدس . كما أن العملات والأختام الصليبية نقش عليها أيضاً صورة مسجد عمر (قبة الصخرة) ، والذى تحول إلى كنيسة للصليبيين ، وكذلك صورة برج داود وقلعة المدينة المقدسة ، كل هذا يدل على أن الملكة الصليبية فى بيت المقدس لم تكن لها سمة وميزة دينية . فقد كان الضريح المقدس بمثابة نقطة تحول أخرى تماماً ، إذ كان الضريح المقدس أكثر الأماكن المقدسة شهرة وتبجيلاً فى مدينة بيت المقدس وفي أرجاء الملكة اللاتينية قاطبة، بيد أنه لم يكن يمثل ادعاءً كنسياً بالسيادة .

* ذكر فوشيه الشارترى بين الولاء الإقطاعى الذى قدمه الحاكم الصليبيون الثلاثة (جودفري البويونى ، وريوند السانججىلى ، ويوهيمند) إلى البطريرك فى نهاية عام ١٠٩٦ م . وفي الرسالة التى بعث بها البطريرك دائيرت إلى بوهمند تم تدوين نص قسم الولاء الإقطاعى الذى قدمه جودفري البويونى فى أثناء عبد الفصح فى عام ١١٠٠ م ، وكذلك الوعد الذى قطعه جودفري على نفسه وهو على سرير الموت . وهناك بعض الشكوك حول مصداقية هذا الخطاب. (William of Tyre, vol., 1, p. 515).

وهكذا أصبحت المملكة اللاتينية في بيت المقدس دولة علمانية ، يحكمها ملوك علمانيون ونبلاء . ولكن قوة وتأثير التقليد وال تعاليم الدينية لم تتلاشى قطعاً ، إذ تركت آثاراً عميقه في البنية السياسية لهذه المملكة الوليدة .

وعندما نلقى نظرة سريعة على خريطة الكيانات الصليبية التي تأسست في منطقة الشرق العربي ، نجد أن هذه الكيانات كانت تقتد في شكل شريط طويق وضيق من الأرض من قلبيقة إلى العقبة على البحر الأحمر بطول ٥٠٠ ميل . وعلى هذه الخريطة يتضح شكل المملكة الصليبية في بيت المقدس وحدودها ، والتي كانت تقتد من بيروت حتى البحر الأحمر بطول (٣٠٠ ميل) ، وتوضح لنا الخريطة أيضاً الوضع الشاذ لموقع مدينة بيت المقدس عاصمة المملكة الصليبية . ولاشك أن المركز الجغرافي لهذه الأملاك الصليبية يجب أن يكون حول مدينة طرابلس اللبنانيّة؛ وفي المملكة الصليبية كان من المناسب أن تكون رام الله أو عكا هي العاصمة ، ومع ذلك أصبحت مدينة القدس عاصمة لهذه المملكة . فمدينة بيت المقدس التي تقع في أقصى الجنوب من حدود الأملاك الصليبية قد أعطيت اسمها لهذه المملكة الوليدة . بيد أن المواقع الجغرافية الشاذ لعاصمة المملكة التي تم اختيارها لم يكن هو الشيء الغريب فقط . فقد كان هناك عدد من المدن الصليبية أفضل وأكبير من مدينة القدس حجماً وأكثر سكاناً وثروة . ولاشك أن مدینتي عكا وصرور كانتا مركزيّن أكثر أهمية من مدينة بيت المقدس ، وكانت أنطاكية أيضاً أكثر المدن الصليبية سكاناً وأوّل لهم ثروة . ونظرًا لأن مدينة القدس مدينة داخلية فإنها لم تحظ بالأهمية التجارية ، كما أنها لم ترتبط بطرق المرور التجارية العالمية الرئيسة . ومن الناحيتين الاقتصادية والاستراتيجية ، كانت مدينة القدس تثل عائقاً أمام مزايا هاتين الناحيتين فلم تكن مصدراً من مصادر القوة والثروة ، وبالرغم من ذلك كله ، تم اختيارها عاصمة للمملكة اللاتينية ، وقبلت الجيوش الصليبية هذا الاختيار كأمر واقع ، وأطلق على حكامهم اسم «ملوك بيت المقدس» . وتحول اسم المملكة الصليبية ما بين «ملكة بيت المقدس» و«ملكة داود» . وكانت هذه التسميات تشير بشكل أكثر إلى ارتباط هذه المدينة الوثيق بالتاريخ المقدس التوراتي . ووفقاً للكتاب المقدس والحقيقة التاريخية كانت العقيدة المسيحية التقليدية وريثاً لعقيدةبني إسرائيل المبارك (اليهودية) ، والذين فقدوا امتيازاتهم باعتبارهم شعب الله المختار بسبب عدم إيمانهم واعترافهم بيسوع المسيح .

كان القانون غير المدون (الأعراف والتقاليد) هو الذي يحكم أقدار وشئون المملكة اللاتينية

في بيت المقدس. فمنذ أن أعلن داود ملك بنى إسرائيل أن بيت المقدس هو «معبد الملك» وعاصمة مملكة (عاموس ١٣-٧) الأصل العبرى للعهد القديم) وافقت كل الأمم والأجناس على أن الانجيل كتاب مقدس ، أو جزء من تراثهم الروحى الدينى ، واختاروا مدينة القدس عاصمة لهم. وهكذا أصبحت هذه المدينة عاصمة في عصر مملكة يهودا أو إسرائيل ، وكذلك في عصر ملوك الأردن الهاشميين ، وأيضا في الفترة الثانية من فترات الكومتوث في أثناء فترة الانتداب البريطاني على فلسطين ، وأصبحت القدس في الوقت الحاضر عاصمة لإسرائيل.*. ولم تخضع مدينة بيت المقدس طوال تاريخها الذي يمتد إلى فترة أربعة آلاف سنة إلى سيطرة المصريين ، أو الفرس ، أو الروم ، أو البيزنطيين ، أو العرب ، أو الترك ، وهي الأقوام التي حكمت الأرض المقدسة في فترات مختلفة في الأربعة آلاف عام من تاريخ المدينة ، الأمر الذي جعلها مكان الاجلال والشرف والرفعة. وكانت مدينة قيسارية ، ورام الله ، وغزة وصفد من المدن الرئيسية. وبالإضافة إلى ذلك ، فقد كانت مدينة القدس عاصمة فقط عندما كانت الأرض المقدسة تتمتع بالحكم الذاتي. وعندما كانت إقليماً أو ولاية في الشرق حُرمت هذه المدينة من المكانة السامية التي كانت تتمتع بها أيام عاصمة.

وهكذا ، وعلى الرغم من كل هذه العوائق والعيوب الجغرافية والاقتصادية ، أعلنت مدينة القدس عاصمة للملكة الصليبية ، وكان الاسم التاريخي لهذه المدينة يرفع مكانتها إلى عليين ، تلك المكانة التي تفوق وتبيّن أيام عيوب اقتصادية أو استراتيجية لهذه المدينة.

ومنذ أن أصبحت مدينة القدس عاصمة للملكة اللاتينية ، قام الحكام الصليبيون الأوائل باعادة تعمير المدينة بالسكان ، وذلك بسبب سقوط عدد كبير من سكانها المحليين قتلى خلال الهجوم الصليبي ضد المدينة. وفي البداية ، كانت المناطق السكنية في المدينة لا تزيد عن حى واحد ، وهو الحى الذى كان على مقرية من الضريح المقدس وبرج داود ، بالرغم من أن بعض المساجد كمسجد عمر المقام على مكان المعبد أصبح كنيسة ، وأصبح المسجد الأقصى قسراً ملكياً للحاكم الصليبي. وأظهر هذا العدد القليل من السكان في بيت المقدس النية والضرر

* يؤكد المؤرخ على موضوع القدس باعتبارها عاصمة أبدية لإسرائيل ، وهذا الواقع ينبيء عن تحيز واضح من جانب المؤلف وطمس لحقيقة التاريخ ، فهو يؤكد الحقائق لإسرائيل في هذه المدينة ، ولا زالت المفاوضات حول هذا الموضوع بين العرب وإسرائيل عصيرة وشاقة (المترجم).

على ترك المدينة والذهاب إلى المدن الساحلية، حيث سهولة اكتساب الرزق، ووفرة فرص العمل والكسب. وفي تلك الأثناء ، صدر مرسوم ملكي صليبي يهدد كل سادة الأرض الغائبين (كبار السادة الاقطاعيين) بفقد أملاكهم، وإذا لم يحضروا إلى المناطق الصليبية في نهاية العام، سوف يفقدون كل أملاكهم الاقطاعية ومساكنهم. وصدر مرسوم آخر بفرض تشجيع الاقامة والسكنى في مدينة القدس، وكان هذا المرسوم يقضي بالغاء الرسوم والضرائب على كل أنواع المواد الغذائية التي تدخل المدينة عبر بواباتها. وأخيراً جأ الحكماء الصليبيون في بيت المقدس إلى نظام لإعادة تزويد مدينة بيت المقدس بالسكان. ففي العقد الثاني من عمر المملكة الصليبية في عام (١١١٥م) نظم الحكماء الصليبيون عملية هجرة المسيحيين الشرقيين إلى القدس من منطقة ما وراء نهر الأردن، ومنح الحكماء الصليبيون لهؤلاء المهاجرين المنطقة الشمالية الشرقية من المدينة والتي كانت من قبل حبا لليهود، وما زال هذا الحي يعرف باسم الحي اليهودي . وبمرور الوقت نفست المدينة عن كاهلها آثار الخراب والتدمير الذي أحدثته جحافل الحملة الصليبية الأولى. واستقر بها القادمون الجدد من الأوربيين وكذلك المسيحيون الشرقيون وحرّم على المسلمين واليهود سكناً هذه المدينة. وكان تدفق تيار الحج المستمر على مدينة بيت المقدس بمثابة التعريض المجزئ لقلة امكانياتها التجارية. وعلاوة على ذلك ، كانت مدينة القدس مركزاً رئيساً للإدارة والحكومة الملكية حيث مقر الملك ومقر البطريرك اللاتيني، كما كانت مركزاً للهيئات الدينية العسكرية (الداوية- الاستبارية- التيوتون) ، ومقرًا لعدد كبير من الكنائس والأديرة ، الأمر الذي ساعد على ازدهارها الاقتصادي ، على الرغم من أن صادرات هذه المدينة كانت لا تزيد عن الذخائر المقدسة الوفيرة التي كانت تباع للحجاج الأوربيين في أثناء موسم الحج والذين كانوا ينقلونها بدورهم إلى الكنائس والمزارات المقدسة في الغرب الأوروبي.

ويرجع فضل أهمية مدينة بيت المقدس إلى وجود الحكماء الصليبيين بها والذي كان يحمل لقباً ملكياً. فقد كانت أنطاكية إمارة صليبية ، وكان سادة الرها وطرابلس يحملون لقب كونت. وخلال فترة قصيرة من القرن الثاني عشر الميلادي، استطاعت الدولة الأرمنية في آسيا الصغرى تجديد قوتها فتواحت حاكمها لقباً ملكياً. واستطاع الحكماء الفرنجة في قبرص من آل لوزجنان احتلال مملكة أرمينية في آسيا الصغرى وذلك خلال أحداث الحملة الصليبية الثالثة، وحصل آل لوزجنان على اللقب الملكي. ويعتبر الاحتلال الصليبي لملكة أرمينية في تلك الفترة المتأخرة من الحروب الصليبية بمنأى عن الدوافع الأولى لهذه الحروب .

كان اللقب الملكي وأيضاً اسم مملكة بيت المقدس ذا معنى مزدوج . وكانت هذه الألقاب تعنى السلطة العامة التي يارسها ملك بيت المقدس على كل الامارات الصليبية، وفي بعض الأحيان كانت تتأكد سيادة الملك الصليبي على هذه الامارات من خلال تقديم الأمراء الصليبيين الولاء الاقطاعى له. وبالإضافة إلى ذلك، فإنه في أوقات الاضطراب السياسي الذي كانت تشهده هذه الامارات الصليبية الشمالية والذي كان يتمثل في الوظائف السياسية الشاغرة بسبب موت الحاكم ووجود وريث قاصر أو بسبب أسر الأمير، كان الملوك الصليبيون في بيت المقدس يارسون السيادة العليا الاسمية في تلك الامارات. ولم يكن الوضع السياسي الخاص الذي تقع به الملك الصليبيون في بيت المقدس يستند إلى تشريع أو قانون رسمي، وإنما كان بثابة اتفاق عام، وذلك بسبب حقيقة أن الملك الصليبي كان يحكم مدينة القدس ، تلك المدينة التي تعتبر مركزاً رئيساً ومسرحاً لأحداث التاريخ المقدس.

ومن ناحية أخرى ، كان لقب «ملك بيت المقدس»، واسم «ملكة بيت المقدس» يستخدمان بمعنى أكثر تحديداً وهو حاكم المملكة الصليبية ومعظم الامارات الصليبية الواقعة جنوباً والتي كانت ضمن الكيانات اللاتينية في الشرق، وإبان فترة التوسيع العظيم للملكة الصليبية امتدت حدودها حتى وصلت إلى مقرية من حدود كونتيه طرابلس في الشمال. وكان الحد الأدنى والعادى للملكة الصليبية يتد شمال بيروت بمسافة عدة أميال على امتداد نهر المعلمتان - El Mu'amltaiin . وأنشى هذا لاحقاً مصادفة . وفي عام ١١٠٣ سقطت مدينة بيروت في يد ملك بيت المقدس الصليبي، كما أن جبيل (بيبلوس القديمة) التي تتقاطع مع النهر كانت قد سقطت في عام ١١٠٣ في يد ريموند السانجيلى، مؤسس الأسرة الفرنجية الحاكمة في كونتيه طرابلس. وعندما سقطت مدينة طرابلس في عام ١١٠٩ في يد الصليبيين خضعت كل المنطقة الواقعة شمال النهر الصغير لحكم كونتات طرابلس البروفنساليين. وكان هذا فقط حداً مشتركاً بين المملكة الاتينية وبين أي كيان صليبي آخر، ومناسبًا وإن كان طوله بضعة أميال. وفي أقصى الشرق، امتدت حدود المملكة الصليبية إلى جبال لبنان، وإن كان من الصعب تعين هذه الحدود. وفي المناطق الواقعة إلى الشرق مباشرةً من بيروت، في جبال الغرب، تقع السكان المسلمين بدرجة كبيرة من الحكم الذاتي، على الرغم من اعترافهم بسيادة حكام بيروت الصليبيين . وتحفظ لنا بعض الوثائق الصليبية المهمة حادثة وقعت في تلك الفترة، وهي قيام الحكام الصليبيين بنع الشیوخ المحليين في المناطق التي ذكرناها آنفاً القرى والأراضي الزراعية في شكل اقطاعات. وبالإضافة إلى ذلك ، فإن المارون وهم المسيحيون المحليون في لبنان قد

سكنوا هذا المنطقة أيضًا. وارتبط سكان القرى الجبلية الأشداء بعلاقات ودية مع الفرنجة واعترفوا بشكل نهائى بسيادة كنيسة روما. وكان حد المملكة الصليبية ينحدر من سلاسل جبال لبنان ناحية الجنوب. ويبدو أن التخوم الصليبية كانت تتدلى خط موازٍ لنهر الليطاني فى طريقها المتدلى من الشمال إلى الجنوب بمستوى المنحنى الغربى الحاد القريب من قلعة الشقيف ، وهى القلعة التى عرفها الصليبيون باسم بيوفورت Beaufort . وفي المنخفض الواسع والخاصيب الواقع شرق نهر الليطاني والذى يعرف باسم مرج عيون (سهل البنابيع) كان الصليبيون يستخدمونه فى التعميد ولاسيما وادى جيرمين وفى أقصى الشرق كان يوجد وادى الطعيم Wadi al- Taim الذى كان يستخدم كمراح للبدو والتركمان، وكان هذا الوادى خارج نطاق السيادة الصليبية. والواقع أن الصليبيين غالباً ما كانوا يقومون بغزو هذه الأرضى والاغارة عليها، بهدف الحصول على قطعان الماشية والأسلاب والفنائمة. وأجبر البدو على دفع اتاوات وجزية للحكام الصليبيين . وباستثناء قلعة بيوفورت أو الشقيف ، لم يحاول الصليبيون احتلال ولا تحصين أراضى المراعلى هذه (باستثناء قلعة حصبة fort of Hashbiyah) الواقعه إلى الشرق من وادى الطعيم، وهى القلعة التى يمكن مطابقتها مع قلعة الصبيبة التى ذكرتها المصادر الصليبية.

وعند نقطة التحول الحادة والشهيرة لنهر الليطاني كان حد المملكة الصليبية يتوجه إلى الشرق. ويترك خلقه قمة جل لبنان ، ويعبر روافد نهر الأردن لكي يصل إلى قمة جبل حرمون Hermon الجنوبي المكسوة بالجليد. وتقع قلعة الصبيبة (التي تعرف اليوم باسم قلعة النمرود) على إحدى السلاسل الجبلية لجبل حرمون Hermon وهي القلعة التى كانت تطل على بانياس وتحدد معظم الأملاك الصليبية الواقعة جهة الشمال الشرقي * . وعند هذه النقطة، لم يكن هناك حد حقيقي أو رسمي يفصل المملكة اللاتينية عن القطر الإسلامي الجنوبي المجاور لها وهو مدينة دمشق.

وكانت روافد نهر الأردن والأنهار الصغيرة التى تقع فى أقصى الجنوب والتى أصبحت قتل منطقة الأردن توجد داخل حدود المملكة اللاتينية ، بيد أن منطقة الجولان والكثير من أراضى السواد التى تقع عند بحيرة طبرية كانت أراضى مقاسمات تخضع للسيادة المشتركة الإسلامية

* والرأى المتداول هو أن قلعة الصبيبة لم تكن هي قلعة بانياس ، ولذا فإن تاريخ المكان إبان فترة الوجود الصليبي يحتاج إلى إعادة كتابة صحيحة (المؤلف) .

والصلبية، أى ما بين حكام دمشق وبين الحكام الصليبيين . وكانت كل المنطقة الواقعة جنوب نهر اليرموك تدفع ضريبة ثقيلة الوطأة لأمراء الجليل الصليبيين، على الرغم من أن هذه المنطقة كانت تعتمد على دمشق من الناحية السياسية. ويبدو أن التحصينات التي كانت توجد في هذه المنطقة اقتصرت على قلعتين صغيرتين على الجانب الشرقي من بحيرة طبرية ، وهما قلعتا العال وقصر بلدويين (قلعة بلدويين). ولم يُعرف تاريخ بناء هاتين القلعتين ولا الشخص الذي قام ببنائهما.

وب مجرد عبور نهر اليرموك إلى شاطئه الجنوبي تصافح أعيننا حسناً قريباً ، وكان هذا الحصن المجوف القريب يعرف باللغة العربية باسم حصن حابس Habis أو حابس جلداق- Jal-dak ، وعرفه الصليبيون باسم كهف السواد أو (قلعة السواد). واستطاع الصليبيون احتلال هذا الحصن الطبيعي في أثناء فترة القوة الصليبية في القرن الثاني عشر الميلادي، على الرغم من أن هذه القلعة كانت أحياناً تنتقل من السيطرة الصليبية إلى سيطرة حكام دمشق.

وانشترط الملاعى الواسعة الغنية على طول الطريق المتعد من قلعة حابس جلداق إلى روافد نهر اليرموك ، وكانت هذه الملاعى محصورة بين منطقة موزرب Mazerib وبين درعا ، وعرفت هذه المنطقة باسم سهل الميدان *. وتغلغل الصليبيون في هذه المنطقة، وأصبحوا سادة درعا ومنتسبون هذه المنطقة في شكل اقطاعه لأحد النبلاء الفرنجية الذي حضر من مدينة بالقرب من باريس تعرف مدينة برنارد الایتمبيه City of Bernard de Etampes ويبدو أن فترة السيادة الصليبية في المنطقة كانت قصيرة الأمد. وحقيقة الأمر، أن الصليبيين قد تخلوا عن فكرة احتلال هذه المناطق لعدم وجود قوات عسكرية كافية لديهم لبسط سيطرتهم.

وكانت مدن مثل بصرى وصلخد تقع في أقصى شرق حدود المملكة الصليبية. وكان حكام دمشق يقومون بتعيين قادة هذه الأماكن. بيد أن انعزال هذه المدن وكونها نائية عن دمشق وقربها من الفرنج الذين أتوا إلى هذه المناطق في أثناء القرن الثاني عشر الميلادي ويتربصون من المسلمين، على الرغم من كراهية المسلمين لهم فقد أجبر المسلمون على التحالف مع الصليبيين-

* من المحتمل أن كلمة الميدان تعنى المكان الراحب الواسع، أو أنها مشتقة من ما، الميدان احدى فروع نهر اليرموك (Würzbuyg, Descriptian of the Holy Land, p. 6, No.3;

قد تسبّب في حدوث مناورات سياسية غريبة أحياناً. وفي منتصف القرن الثاني عشر الميلادي، ظهرت الإمارات الإسلامية المستقلة في بصرى وفي صلخد ، وذلك بايعاز من الفرجنة . وكانت هذه النزعات الانفصالية في الإمارات الإسلامية في صالح الفرجنة تماماً وذلك لأنهم كانوا في وضع لا يسمح لهم بالاقتراب من هذه المراكز الإسلامية الثانية أو احتلالها، ولكن الفرجنة استفادوا من اعتماد هذه الإمارات الإسلامية التي تطمح في الاستقلال السياسي على الرضا الصليبي والتأييد الفرنجي. بيد أن الفرجنة قد بالغت في تأكيد قوّة هذه الإمارات ، إذ تلاشت الإمارات المستقلة واختفت بعد فترة الوجود القصيرة والمضطربة.

إلى الجنوب من نهر اليرموك كان يوجد السهل الواسع المرتفع الذي يعرف باسم سهل جليعاد القديم ancient Gile'ad (جبل عوف) ، وفي الجزء الجنوبي من جبل عوف توجد مدينة عجلون مع منخفض الأردن العميق، والغور ، ولم تخضع المناطق الواقعة غرب جبل عوف للسيطرة الصليبية ، على الرغم من وصول أحدى الحملات العسكرية الصليبية- إليها، ووصولها أيضاً إلى منطقة جرش التي دمرها الصليبيون. وفي القرن الثاني عشر الميلادي، شيد المسلمون قلعة بالقرب من عجلون ، عرفت باسم قلعة الرياض Qal at al-Rabad ، وتلك شهادة وحيدة على بسط المسلمين سيادتهم في هذه المنطقة المعزولة.

وأصبحت السيادة الصليبية أمراً واقعاً في الأراضي القديمة في عمان وفي مُعَان الواقعتين جنوب نهر الزرقاء . وكانت هذه المنطقة الواسعة تقتد جنوباً حتى البحر الأحمر، وأصبحت تمثل منطقة النفوذ الصليبي فيما وراء نهر الأردن.

وهكذا كانت التخوم الصليبية تحبط منطقة آهلة بالسكان وأراضي زراعية خصبة. وكانت الصحراء الأردنية تقع شرق حدود المملكة الصليبية ، تلك الحدود التي كانت تتغير بشكل ضئيل في الجنوب حول معان Ma'an ، الواقعة على الطريق إلى بلاد الحجاز وإلى شبه جزيرة سيناء إلى الصحراء العربية. ويبعد أن الحدود الصليبية قد أنشئت على أساس الاعتماد على الطريق الكبير الذي يصل إلى شاطئ البحر الأحمر عند العقبة. ففي وقت مبكر من فترة الوجود الصليبي (عام ١١١٥م) تقدم الصليبيون من مكان في الشمال إلى الجنوب واستولوا على قرية صيد الأسماك دون مقاومة . وهناك شيد الصليبيون قلعة صغيرة ، وفرت الحماية للمنفذ الذي يصل إلى البحر الأحمر، والطريق المار بالعقبة إلى شبه جزيرة سيناء ومصر في الغرب والصحراء العربية في الجنوب.

وعند هذه النقطة الحدودية تلائت حدود المملكة الصليبية مرة ثانية في رمال الصحراء. ومنذ فترة السيادة البيزنطية أصبحت منطقة النقب خالية من السكان وطمرت الرمال مدتها. وكانت هذه المنطقة تعرف باسم الصحراء الكبرى، وهي نفس التسمية التي أطلقها الصليبيون على صحراء جنوب وغرب فلسطين . فلم تكن هناك حدود معينة في الصحراء ، والتي امتدت جهة الغرب إلى سيناء . ولكن بالنسبة للواحات القليلة التي تقع على الطريق الرئيسي الذي يخترق سيناء ، فإنها كانت خالية من السكان وفي فترة باكرة من الوجود الصليبي وفي أثناء احتلال العقبة وصل بدوين الأول إلى دير سانت كاترين الواقع على سفح جبل سيناء . وطلب منه رهبان الدير من البيزنطيين أن يتترك لهم مكان هذا الدير مقابل عدم احتفاظهم بعلاقات ودية مع المسلمين الذين كانوا إما من القبائل البدوية أو من الموظفين المصريين.

وكان حصن الداروم أو دير البلح الواقع على حافة الصحراء يمثل نقطة حدود الأملك الصليبية على الطريق الساحلي الشمالي للبحر المتوسط والذي يربط مصر بفلسطين.

وظل هذا الطريق أكثر أماناً للصليبيين على امتداد ساحل البحر المتوسط.

الفصل الخامس

الأراضي المحتلة وشعبها

وخلال خمسين عاماً (١١٥٣-١٠٩٩م) استطاعت مملكة بيت المقدس اللاتينية وبدون انقطاع توسيع حدودها تجاه حواط الصحراء ، وتأسست نواة الامارات الصليبية إبان الحملة الصليبية الأولى، وبلغت هذه الامارات أيضاً أوج توسعها. وأخيراً امتدت الكيانات الصليبية في بلاد الشام على الساحل من خليج الاسكندرية في الشمال حتى العقبة على البحر الأحمر.

كانت العالم الطبيعي تقسيم الإقليم الصليبي، وبلغ طول هذا القطر الصليبي حوالي ٦٠٠ ميل، وامتد هذا الطول من الجزء الغربي على ساحل البحر المتوسط حتى الجزء الشرقي الواقع على حدود الصحراء. وكان خط التقسيم عبارة عن وادٍ شديد الانحدار ، وهو ذلك المنخفض الجيولوجي الذي يقطع السهل الجبلي الواسع المرتفع. فقد كانت سلاسل جبال طوروس بمثابة بداية وعلامة الطرق الجنوبية لأناضوليا Anatolia ، وكانت هذه الطرق تندمج قرب بلاد الشام إلى سلسلة جبال عمان. وعند أنطاكيه ظفر الصليبيون بالمنطقة الواقعة بين جبال النصيرية في الغرب وبين سهل حلب المرتفع في الشرق، وكذلك بالمنطقة التي تليها والممتدة من لبنان وسلامل جبال الجليل في الغرب إلى سهل الجولان المرتفع وباشان* في الشرق.

وكان الجزء الرئيسي من سلسلة هذه الجبال من السهل اختراقها . وكانت الأودية المستعرضة لمنطقة السواد وهي أودية نهرى أفرن Afrin والعاصى Orontes تقطع الممر الواصل بين جبل عمان وجبل النصيرية. ويرتبط وادي البقاع بدمينتى حمص وطرابلس، وكان وادى حزriel-Jezrel يسمح بحرية المرور بين الجليل والسامرة Samaria) والقدس (يهودا Judea).

* باشان Bashan : تقع منطقة «باشان» شرقى الأردن فيما بين جبل «جرونون» و«جلعاد» . ويوجد هناك جبل يعرف بجبل باشان، ولا نعرف أيهما هو الذى خلع على الناحية اسمه الجليل أم البلد وقد جاء فى مزامير داود ٦٨ / ١٥ «جبل الله» جبل باشان ». وقد أشار اليعقوبى إلى أذرعة «التي هي» أذرعان «وقال أنها قصبة ولادة «البشتنة» (أنظر : حسن جبلى : الحروب الصليبية الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٥)، ج٤، ص ٣٦٧-٣٦٨ .

وقد أثرت هذه المعالم الطبيعية الرئيسة لهذه المناطق في مصير الأقاليم التي احتلها الصليبيون . واحتل الصليبيون المناطق الساحلية والموانئ في محاولة لتوسيع أقاليمهم بعد حدودها جهة الشرق، بيد أن النجاحات التي أحرزوها في هذا المجال كانت متواضعة. وفقط كانت كونية الراها الصليبية تخترق أودية الفرات ودجلة، ولم تخضع الأقاليم الواقعة إلى الشرق من المنخفض الشمالي الجنوبي العظيم لحكم الأمراء الصليبيين في الإمارات الصليبية بشكل فعلى باستثناء فترات قصيرة جداً. ومن وقت لآخر، كانت الجيوش الصليبية تنفذ إلى عمق هذا القطر الإسلامي وفي بعض الأوقات وصلت منطقة النفوذ الصليبي إلى اعتاب مدينة حلب، بيد أن هذه الجيوش الصليبية انسحبت ، وترك القلاع، وتوترت العلاقات بين المسلمين وبين الصليبيين على هذه الحدود، التي كانت قد أنشئت على امتداد الوادي العظيم. وثمة استثناء غريب وشاذ وهو أن الكيانات الصليبية الواقعة جهة الجنوب والتي كانت تابعة للملكة اللاتينية ظلت تبسط سيادتها على الأراضي الواقعة بين شرق الأردن حتى ميناء العقبة.

وهكذا كانت الأقاليم الصليبية في بلاد الشام تغطي طويلاً ضيقاً من الأرض ينحصر بين البحر المتوسط وبين الوادي الكبير والفسيح جهة الشرق. وانحصرت هذه الأقاليم وسط محيط واسع من الأقطار والأراضي التاريخية الشهيرة والتي كانت تضم خليطاً من الأجناس والديانات وأنواعاً مختلفة من السكان .

لقد كان الإسلام الدين الرسمي للأقطار التي احتلها الصليبيون في بلاد الشام، وفي تلك الآونة كان العالم الإسلامي تتقاسم خلافتان متناحرتان، الخلافة العباسية ذات المذهب السنى في بغداد، والخلافة الفاطمية ذات المذهب الشيعي في القاهرة. ولم يكن هذا التقسيم تعبيراً عن التنافس بين الخلافتين من أجل الهيمنة الدينية وإثبات الشرعية الإسلامية لهذا المذهب أو ذاك فقط، بل كان بمثابة صراع محتم بين اثنين من القوى السياسية الرئيسة من أجل السيطرة على جموع المسلمين . وكانت الانتصارات العسكرية التي تحرزها أحدي الخلافتين المتناحرتين تعنى أيضاً انتصارات في المجال السياسي وأيضاً في المجال الديني. واعتاد السكان المحليون المسلمين تغيير ولاهم لهذه الخلافة أو تلك، وغالباً ما كانوا يعتقدون المذهب الذي يحقق الانتصار على المذهب الآخر . وعشية تأسيس المملكة اللاتينية ، كانت فلسطين ولبنان - ذات المصير التاريخي التعارضي - منطقة صراع بين الخلافتين المتناحرتين، الخلافة العباسية في الشمال، والخلافة الفاطمية في الجنوب . ووجدت الخلافة العباسية السنوية الضعيفة في بغداد

قوة فتية تدافع عنها هي قوة الأتراك السلاجقة ، فقد استطاع السلاجقة اجتياح بلاد الشام ولبنان وفلسطين، في حين اندرت كل البقايا الأخيرة للحكم البيزنطي حول أنطاكية. واستطاع السلاجقة طرد المصريين الفاطميين من القلاع والتحصينات ، وابعدوا عن البلاد إلى ما وراء صحراء سيناء. واحتل السكان الأتراك والحاميات العسكرية السلجوقية المدن، وفرضوا سيطرتهم على تلك الأقاليم المحتلة بطريقة جديدة. وعلى أي حال، فإن الأمراء المحليين كانوا أحياناً يهربون الفرصة التي تسعن لهم من جراء الاضطرابات السياسية لكي يقيموا إمارات تتمتع بالحكم الذاتي على الساحل الشامي والفينيقي. وكانت مصر التي فقدت أقاليمها في فلسطين نتيجة الغزو السلجوقي في الربع الأخير من القرن الحادى عشر الميلادي ما تزال تسيطر على بعض المدن الساحلية. وقبل ظهور الفرنج بأشهر قليلة، نجح المصريون في طرد السلاجقة واستعادة مدينة القدس في عام (٩٨١م) .

والواقع أن الغزوات والغزوات المضادة التي شنها المصريون والأتراك السلاجقة على فلسطين وببلاد الشام لم تؤثر البتة على التركيب العرقي (الاثني) لسكان هذه المناطق . وكانت السلالة الرئيسية للسكان تتكون من الشعوب السامية القديمة ، ثم بعد ذلك الشعوب الهللينية، والرومانية ، واليسوعية ، ثم في النهاية الشعوب التي اعتنقت الإسلام، على الرغم من احتفاظ أقلية من السكان بعقيدة أسلافهم وأجدادهم. لقد كان تأثير الغزو على هذه المناطق في إحداث تدفق سكان جدد عليها بسيطاً دائماً. وكان بعض أفراد الحاميات العسكرية البطلمية والسلجوقية، والرومانية أو الكلت الرومان، أو الجerman، والذين حكموا هذه المناطق من وقت آخر في الزمن الماضي ، يتراوجون مع السكان المحليين. وربما كانت القبائل العربية البدوية في ترحالها ترك بعض الآثار، بيد أن هذه الإضافات التي كانت تتركها هذه القبائل الرحل لم تكن ذات أهمية. وحدث نفس التنازع بين أفراد الحاميات العسكرية السلجوقية الجديدة وبين السكان المحليين في المدن والقلاع، وقد سهل الدين الإسلامي الذي اعتنقه السلاجقة والسكان المحليون إحداث مثل هذا الاندماج الاجتماعي بينهما .

وفي أثناء الغزو الصليبي، كان غالبية السكان المحليين في منطقة الشرق العربي من المسلمين السنة . واعتاد المسلمون من السنة والشيعة ذكر اسم خليفتهم في خطبة الجمعة في المساجد. إذ كان هذا يمثل انحيازاً سياسياً أكثر من كونه انحيازاً دينياً ، وذلك لأن ذكر اسم الخليفة في خطبة الجمعة والدعاة له كان يعبر عن ولاء الحاكم المحلي لذلك الشخص الذي

يحكم باسمه وهو الخليفة. ولم يستطع السكان المحليون البت في هذا الموضوع. وأعلن قادة الحاميات العسكرية المصرية في أية مدينة ساحلية اسم الخليفة الفاطمي، في حين كان القائد السلجوقي في القلعة الداخلية المجاورة يفعل نفس الشيء، وينادي باسم خليفة بغداد.

ويذكر أحد الجغرافيين العرب الذين ولدوا في بيت المقدس (المقدس) أنه في نهاية القرن العاشر الميلادي كانت الأغلبية الساحقة للمسلمين في بلاد الشام وفلسطين من السنة، في حين كان سكان المناطق الشرقية والجنوبية لهذا القطر، في طبرية، وكادش Kadesh (الجليل)، ونابلس، وعمان في منطقة ما وراء نهر الأردن من المسلمين الشيعة. وعشية الحروب الصليبية، وحينما كان المصريون يسيطرؤن على ساحل البحر المتوسط، يمكن أن نفترض أن الشيعة قد انتشروا في هذه الأجزاء، القريبة من هذا القطر.

ولما كان معظم المسلمين يعيشون في مدن وقرى، فإن البعض كانوا ما يزالون قبائل بدوية رحل. وأطلقت عليهم المصادر العربية اسم البدو، وهم الذين كانوا في ترحال باستمرار، بحثاً عن المراعي والكلأ، يتحركون يقطعنهم بين مناطق الفرات والنيل. وكان إقامة المملكة اللاتينية في بيت المقدس ستعرض لفترة قصيرة مع تحوال البدو المعتمد، بيد أن الصليبيين أدركوا بسرعة مدى الخدمات التي يمكن أن يقدمها لهم هؤلاء البدو، الأمر الذي جعلهم يرتبطون بعلاقات ودية مع سكان الصحراء من البدو.

فقد كانت قبيلة ثعلبة البدوية الكبيرة بقريتها الرئيسين - بنو ضرغام وبنو زريق والذى كانت تقيم على حدود مصر - تتعاون مع الفرنج، الأمر الذي جلب عليهم السخط والغضب من جانب أخوانهم المسلمين. وكان أقاربهم من بنى طيء والذى كانت تعرف باسم قبيلة جارم قضاة Jarm Qudaah يتلذذون مراء كثيرة على حواف الصحراء، بين غزة وبين بلدة حبرون كثيرة التلال. وإلى الجنوب من غزة، حول الداروم (دير البلح)، كانت هناك فروع أخرى من نفس القبيلة وهم بنو غور وبنو بعید . وتحركت قبائل بدوية أخرى من واحدة إلى واحدة بين مصر وببلاد الشام وهى قبائل بنو صدر، وبنو حايد Hal'aid وبنو أبيي*. ووجدت فى هذه المنطقة أيضاً قبائل بدوية نزحت من مصر ومن جنوب ما وراء نهر الأردن. ومنها قبيلة بنو كنانة

* عرفت هذه القبيلة بأكل الماشى الميتة، وعاش أفرادها فى الحضر وفى منطقة الحسماء، وأيضاً فى صحراء سيناء وجنوب منطقة ما وراء النهر (انظر اسامة بن منقذ، الاعتبار، ص ١٥).

المولعة بالحرب وينو حوير Haubar، وينو خالد. وفي المنطقة التي تقع جنوب ما وراء نهر الأردن حول قلعتي الكرك والشويك (التي عرفها الصليبيون باسم مونتريال) كانت هناك قبائل بدوية مثل قبيلة عقبة وبني زهير. وفي أقصى الشمال حول عجلون كانت هناك قبيلة بني عوف، والذي عرف جبل عوف باسمها . وكانت منطقة نفوذ قبيلة بني ربيعة الكبيرة، والتي كانت احدى فروع قبيلة بني طيء، تقع جهة الشمال، شمال دمشق وحبرون. وعشية الحملة الصليبية الأولى، كان أفراد قبيلة بني ربيعة هم سادة- رام الله التي كانت عاصمة للقطر، واعترف الحكام الفاطميون في مصر بسيادة هذه القبيلة. وفي ما بعد وجدت هذه القبائل البدوية على الحدود الشمالية الشرقية للملكة اللاتينية. ووُجِد أيضًا في أقصى الغرب في وادي الطعيم ، وهو وادي يتصعد بجنوب لبنان وفلسطين سكان من البدو، للاستفادة من الماء الراغب المنتشرة في هذه المناطق.

ويبدو أن عدًّا قليلاً جدًّا من القبائل البدوية قد عاش داخل حدود المملكة اللاتينية. وعرفنا بعض هذه القبائل البدوية التي كانت تسكن على مقربة من مدينة نابلس، حيث كانت هذه القبائل تدفع الضرائب لملك بيت المقدس الصليبي، بيد أن هذا الوضع المتعلق بدفع الضرائب لم ينطبق على القبائل البدوية المتحالفه مع الصليبيين. فقبيلة بني عميلا Amila العربية التي استقرت في الجليل بعد الفتح الإسلامي لهذه المنطقة في القرن السابع الميلادي، هي تركت اسمها ليطلق على جبل عميلا في شمال فلسطين. ولم تترك هذه القبيلة أية أثار وراءها في هذه المنطقة، ومن المحتمل أن هذه القبيلة قد هاجرت في وقت غير محدد إلى سوريا، بين حمص ودمشق.

وعاشت القبائل البدوية التركية التي تنحدر من أصل مختلف نفس نطف الحياة الذي عاشته القبائل البدوية العربية. وخلال القرن الثاني عشر الميلادي، عرفت أغلبية هذه القبائل العربية البدوية حياة الاستقرار وعدم الترحال، واستمر البعض في ترحالها بحثًا عن المرعى والكلأ . وعرفت المصادر العربية وأيضاً اللاتينية هذه القبائل التركية المترحلة باسم التركمان ، قييزاً لهم عن القبائل السلجوقية المستقرة والتي حكمت هذه المنطقة.

ويسط الملوك الصليبيون سيطرتهم على كل القبائل البدوية التي عبرت الحدود إلى المملكة اللاتينية. والتزمت هذه القبائل بدفع رسوم مالية مقابل حرية استخدامهم المراعي، ومقابل ترحالهم داخل حدود المملكة وحق العبور. ولسوء الحظ، فإن الفرسان الصليبيين كانت تحركهم

شهرة الطمع عندما كانت تقع أبصارهم على قطعان الخيول الكثيرة التي كان يسوقها أفراد القبائل البدوية، وعندئذ كانوا يهاجمون مخيمات هذه القبائل لنهب وسلب هذه الخيول على الرغم من الاتفاقيات المبرمة بين هذه القبائل وبين الحكام الصليبيين. ومن الجدير بالذكر، أن الملك بلهوين الرابع منع امتيازا لفرسان القدس يوحنا في بلفوا Belvoir (الجليل)، بضم مائة خيمة (عائلة) من قبائل البدو إلى منطقة نفوذه الجديدة، شريطة ألا تكون هذه العائلات من اللاتي تنتمي من قبل للملك بيت المقدس الصليبي.

وبين السنة في الشمال والشيعة في الجنوب ، كان هناك الدروز الذين عاشوا في أماكن منعزلة وغرة في لبنان. وتأسست طائفة الدروز في العقد الثالث من القرن الحادى عشر الميلادى، وذلك فى أعقاب وفاة الخليفة الفاطمى نصف المخلوب الحاكم بأمر الله فى عام ١٠٢١ وتخلى عقيدة أفراد هذه الطائفة فى أن الحاكم بأمر الله هو التجسد الأخير للألوهية «انتشر هذا التجسد فيما وراء حدود مملكته فى مصر إلى الجبال والأودية فى لبنان» . ومنذ وقت مبكر، كانت هذه المناطق المنعزلة في لبنان ملادةً لطائف اسلامية هرطقية أخرى. وكان بعض الطوائف الهرطقية يعتقدون في التجسد الإلهي، وهكذا بدأ الدرزي والتى عرفت الطائفة باسمه ينتشر دعوته في أرض خصبة. ومن الغريب تماماً أن المؤسس الحقيقي لطائفة الدروز هو حمزة بن على الداعى الأخير للتعاليم الدرزية الهرطقية، بيد أن المعلم الأول وهو الدرزي ظل يطلق على هذه الطائفة وحالت اسمه، وفي كل الاحتمالات، وكما كان يحدث في هذه المنطقة، فإن جماعة عرقية تبنت تعاليم التجسد وأصبحت عقيدتها الرسمية ، في المنطقة القريبة من قلعة الشقيف وبانياس وأراضي المراعي المجاورة لوادى الطعيم. ويصف المؤرخ المسلم (ابن الأثير) هذه المنطقة بأنها كانت نقطة تمركز طائفة النصيرية، والدروز ، والزرادشتين ، وطوائف أخرى.

ويعتبر المؤرخ اليهودي الأسباني بنiamin التطيلي أول من سجل بقلمه وصفاً لطائفة الدروز، فيذكر أن أرض الدروز كانت تقتد من جبل حرمون إلى شاطئ صيدا . وقد اتضح من وصف بنiamin التطيلي لطائفة الدروز أنه يفتقر إلى معرفة فقط حياة ونظام هذه الطائفة. فيقول «على مقرية من صيدا وعلى بعد عشرة أميال منها توجد أمة في حالة حرب مع هؤلاء الذين يملكون صيدا (الفرنج) . وهذه الأمة تعرف بالدروز وهم هراطقة ليست لهم عقيدة . ويسكن الدروز الجبال العالية والأماكن الصخرية ، ولم تخضع هذه الطائفة لسيطرة ملك أو قاض . وامتدت منطقة الدروز إلى جبل حرمون Hermon ، على مسيرة ثلاثة أيام». وإذا كان وصف

بنيامين التطيلي لطائف الدروز دقيقاً، وهو عادة مؤرخ ثقة ، فإنه يمكن القول أن شيخوخ وادي الطعيم في شرق صيدا ، والذين ذكرتهم المصادر الصليبية، كانوا من الدروز . وفي القرن الثالث عشر الميلادي، احتفظ سادة صيدا الصليبيين ، بعلاقات ودية مع سكان منطقة الجبل إلى الشرق من صيدا وبيروت ، وفي المنطقة التي تعرف باسم الغرب والشوف . ومن الممكن فعلاً أن يكون هؤلاء السكان من الدروز .

لم يكن بنيامين التطيلي الوحيد الذي لم يستطع تصنيف الدروز بعد جبلين، يقول جاك الفيترى أسقف عكا والمبشر القداح ذو النزعة العدائية ضد كل الطوائف الهراتية الذين يشيرون الرعب : «ويوجد هناك مسلمون آخرون يعتقدون عقيدة سرية. لم يفصحوا عن عقيدتهم. ولم يطلعوا عليها أحداً ، ولكنهم يعلمونها لأولادهم عندما يشبون عن الطوق».

وعشية الحروب الصليبية، كانت الأغلبية السائدة من السكان المحليين في بلاد الشام وفلسطين من المسلمين . وحتى ذلك الوقت لم يكن الشرق الأوسط كله يعتنق الدين الإسلامي . وكان المسيحيون من الأصل السامي يرفضون الإذعان لسلطة الحكم الإسلامي في هذه المناطق . واستقر السكان الأرمن الأصليون في مناطق واسعة في آسيا الصغرى في جبال طوروس وعلى امتداد التحدرات الجنوبية لهذه الجبال ، وكان ولازهم لكتسيتهم الرئيسة . وخلال القرن الثاني عشر الميلادي، استطاعت الأسر المحكمة الأرمنية تأسيس مملكة مسيحية عرفت باسم مملكة أرمينية الصغرى، وتحمل هذه المملكة ذكرى «أرمينية العظمى» حول بحيرة فان، والتي ضاعت في أثناء موجات الفتح الإسلامي .

ولما كانت الأجزاء الشرقية في آسيا الصغرى والمناطق الجنوبية لجبال طوروس خالية من السكان المسلمين ، فإن الوضع قد اختلف في الغرب على امتداد الساحل حتى أنطاكيه . ويبدو أن سكان هذه المنطقة قد ظلوا مسيحيين ، وكانوا في الأصل أرثوذكسين . ومن المحقق أن أنطاكيه خضعت للحكم الإسلامي ما يقرب من أكثر من ثلاثة عشر عام (٩٦٩-١٠٨٤م) . بيد أن البيزنطيين استطاعوا بسط سيطرتهم عليها بعد طرد المسلمين منها لمدة مائة عام أخرى (١٠٨٤-٩٦٩م) . وظلت أنطاكيه تحت السيطرة البيزنطية قبل الحملة الصليبية الأولى بجيء واحد . وكان الفتح الإسلامي لأنطاكيه في عام ١٠٨٤ ، أي قبل خمسة عشر عاماً من ظهور الحملة الصليبية الأولى في عام ١٠٩٨م ، ولم يستطع الوجود الإسلامي في هذه المدينة أن يحدث تغييراً أساسياً في التركيب الديني العرقي لسكانها . ولم يستطع الغزو الصليبي أيضاً

إحداث شيء أكثر من اضافة طبقة حاكمة للعاصمة القديمة لبلاد الشام (أنطاكية) . وظل سكان أنطاكية بيزنطيين بشكل رئيسي ، واعتبر الامبراطور البيزنطي نفسه مستولاً عن حمايتهم ، وهي تلك المهمة التي كان يمارسها الامبراطور البيزنطي بموافقة السلطات الإسلامية في كل مكان في منطقة الشرق العربي قبل ظهور الأفرنج .

وعلاوة على ذلك ، فإن الطوائف المسيحية في هذا الإقليم لم تقتصر فقط على البيزنطيين الأرثوذكس . فقد كان هناك السوريان ، وهو الاسم العرقي الذي كانت تطلقه المصادر اللاتينية على كل الطوائف المسيحية غير الرومانية ، وهي الطوائف التي عرفت في هذه المصادر باسم المسيحيين الشرقيين أو السوريان ، تمييزاً لهم عن المسيحيين الفرنجة . وكان اسم «السريان» يطلق من قبل على المسيحيين الشرقيين الذين اتبعوا المذهب الأرثوذكسي ، واستخدمو اللغة اليونانية في طقوسهم الدينية واللغة العربية في حياتهم اليومية . وما زال هذا المصطلح «السوريان» يطلق على المسيحيين اليعاقبة . وترجع أصول كنيسة اليعاقبة إلى الجدل اللاهوتي المتعلق بطبيعة المسيح والذي تسبب في حدوث انقسام في الكنيسة المسيحية في القرن الخامس الميلادي . فقد أقر مجمع خلقدونية الذي عقد في عام ٤٥١م العقيدة الأرثوذكسيّة ونادى بوجود طبعتين للمسيح ، طبعة الهبة وأخرى بشريّة . وأدان المجمع أتباع الطبيعة الواحدة وهي الطبيعة الإلهية فقط . وهكذا عُرف أتباع الطبيعة الواحدة باسم «المونوفيزيتين» واعتبرهم المجمع هراطقة . وخلال القرن السادس الميلادي ، تأسست ثلاثة كنائس للمونوفيزيتين : الكنيسة القبطية في مصر والحبشة ، والكنيسة القومية الأرمنية ، والكنيسة اليعقوبية في بلاد الشام وفلسطين . واشتقت اسم «اليعاقبة» من اسم يعقوب البرادعي مؤسس الكنيسة اليعقوبية في بلاد الشام في القرن السادس الميلادي . وكان لليعاقبة في أنطاكية بطريركهم الخاص ، وهو البطريرك الذي لم يسمح له بالإقامة في هذه المدينة إبان فترة السيطرة البيزنطية ، ومع الفتح الإسلامي لمنطقة الشرق العربي ، تنفس اليعاقبة الصعداء ، وأحس اليعاقبة أنهم في وضع أفضل عن ذلك ، ولاسيما بعد أن انتهت فترة اضطهادهم على يد البيزنطيين وفي الغالب كانت السلطات البيزنطية وكذلك الإسلامية تتوجس خيفة من سلوك اليعاقبة ، ومن المحتمل أن السلطات الإسلامية كانت ترتتاب قاماً في كل الذين كانوا يدينون بالولاء للبيزنطيين من قبل . وفضل اليعاقبة حكم المسلمين السلاجقة عن حكم البيزنطيين المسيحيين ، وشيدت كنائس جديدة لليعاقبة في مدينة أنطاكية بعد سقوطها في يد الأتراك

السلاجقة . وكانت الآرامية هي اللغة المحلية لليعاقبة، وقبل اليعاقبة سيادة الغزاة الجدد وقتل هذا القبول في اقرارهم للغة العربية والتحدث بها واعتبارها لغة محلية لهم ، بيد أنهم ظلوا يستخدمون «اللغة السريانية» - ذات اللهجة الآرامية الغربية- في طقوسهم وشعائرهم الدينية . واستمرت الكراهية المقيدة بين البيزنطيين وبين اليعاقبة مائلة للعيان طوال فترة التغييرات والثورات السياسية . خلال فترة الحكم الصليبي فيربع الأخير من القرن الثاني عشر الميلادي، لم يتوان ميخائيل السورياني Michael the Syrian ، بطريرك اليعاقبة في أنطاكية عن انتهاز الفرصة لتلطيخ سمعة البيزنطيين.

ولم يكن للكنائس المونوفيزية الأخرى في مصر وفي أرمينيا أية أهمية كبرى داخل تلك الأقطار . وبالإضافة إلى ذلك، فإن جاذبية المدينة المقدسة (بيت المقدس) كانت طاغية وعظيمة، وتطلع اليعاقبة إلى امتلاك كنيسة أو دير في هذه المدينة المقدسة وفي أي مكان في الأرض المقدسة . فقد شيدت كنيسة ماري المجدلية القبطية في مدينة بيت المقدس بعد غزو الأتراك السلجوقية للمدينة مباشرة.

وما يذكر أن وضع الكنائس المونوفيزية لم يتغير عن وضع كنيسة وطنية أخرى، فقد كان لسيحيي جورجيا (الذين عرفوا باسم أببيريا) في القوقاز ملاذ مقدس خارج حدود مملكتهم المحلية، وقتل هذا الملاذ المقدس في امتلاكهم دير الصليب المقدس في مدينة بيت المقدس، والذي شيد في المكان التقليدي الذي شهد شجرة الصليب المقدس والتي اجتشت من فوق هذه الأرض بعد ذلك . وارتبط هذا الدير بعلاقات قوية وودية مع مملكة جورجيا التي تبعد كثيراً عن الأرض المقدسة . وقتل هذه العلاقات الودية في تلقي الدير الهبات والنعم السخية من أمراء وملوك هذه المملكة، وكانت الملكة تamarar من أشهر الملوك الذين أغدقوا الهبات بسخاء على هذا الدير.

وكان للنساطرة كنيسة خاصة بهم، وهي الطائفة التي ظهرت في أعقاب الجول اللاهوتي حول طبيعة المسيح . ففي مجمع أفسوس الذي عقد في عام ٤٣١ أقرت التعاليم الأرثوذكسية مبدأ اتحاد الطبيعتين الإلهية والبشرية في شخص المسيح، في حين رأى النساطرة أن للمسيح طبيعتين منفصلتين ، الأولى إلهية، والأخرى بشرية . وهكذا عارضت الطوائف المسيحية المنشقة لقب «أم المسيح» الذي أطلق على القديسة مريم، وهو اللقب الذي كان يعني أن المسيح قد ولد من أم بشرية هي السيدة مريم . وكان المركز الرئيسي للنساطرة الشرقيين

يوجد في بلاد فارس ، وفي كونتية الرها وفي العراق. وأصبحت بغداد مقراً للبطريرك النسطوري. وانطلقت من هذه المناطق البعثات التبشيرية ووصلت إلى وسط وشرق آسيا ، واستطاعت تعميد السكان هناك، وكان عدد أفراد طائفة النساطرة ضئيلاً في الأقطار التي احتلها الصليبيون. وعلاوة على ذلك ، فقد وجدت جماعات نسطورية صغيرة في مدينة بيت المقدس إبان فترة الوجود الصليبي.

ويعتبر «المارون» في لبنان آخر طائفة مسيحية يمكن ذكرها ضمن الطوائف المسيحية ، وهي الطائفة التي لعبت دوراً كبيراً في تاريخ المملكة اللاتينية، وأثرت على مصائر هذه المملكة. وعلى الرغم من الجهد المتواصلة التي بذلها المارون لإثبات مؤازرتهم للأرثوذكسيّة باستمرار، فإن ثمة دليل واضح يؤكد أنهم اتبعوا عقيدة الإرادة الواحدة في طبيعة المسيح. والواقع أن اللاهوتيين المحترفين هم فقط الذين أدركوا وفهموا الجدل اللاهوتي حول المذهب التوحيدى. وأصبح هذا المذهب التوحيدى عقيدة مميزة للمسيحيين اللبنانيين بعد الفتح الإسلامي وقطع خط الاتصال مع الكنيسة البيزنطية. وينسب اسم «المارونيّين» إلى أحد أعضاء الطائفة وهو جون مارو John Maro ، الذي أدعى أنه تولى منصب البطريرك في أنطاكيّة في نهاية القرن السابع الميلادي. وعلى أي حال، فإنه في هذا الوقت لم يكن اسم «المارونيّين» معروفاً وسط بطاركة أنطاكيّة. فقد عاش مارو Maro في القرن الخامس الميلادي، وأن دير القديس مارو St. Maro المقام على نهر العاصي في بلاد الشام كان يصلح للحياة المسيحية التأملية، بيد أن نشأة هذا الدير ترجع إلى تواريخ مختلفة في القرن السابع الميلادي. وكان «المارون» مثل جيرانهم «الدروز»، يعيشون في مناطق لبنان الجبلية وقطعوا بقطступ معقول من الحكم الذاتي تحت الحكم الإسلامي. وكان المارون مقاتلين أشاوس ورماء سهام مهرة، الأمر الذي جعل الصليبيين ينشدون ودهم . وفي عام ١١٨٢م، نجح أماليك Amelric البطريرك اللاتيني في أنطاكيّة في اقناع المارون للدخول في علاقات ودية وحميمة مع بابوية روما. ووفقاً لرواية المؤرخ اللاتيني وليام الصوري William of Tyre فإن أربعين ألفاً من الشعب الماروني ارتدوا عن عقيدة التوحيد واعتنقوا المذهب الكاثوليكي. وعلى الرغم من الأحداث المختلفة التي أعقبت الجهد الكبير الذي بذلته البابوية في القرن السادس عشر الميلادي، فإن طائفة المارون ما زالت توجد حتى يومنا هذا .

إلى الشرق من أنطاكيّة ، وعبر دجلة والفرات ، كان ما يزال يوجد هناك سكان مسيحيون، وخاصة الأرمن وجماعات صغيرة من السوريان، وكان هناك كنائس لليعقوبة

والنمساوية . وكانت هذه المناطق التي تحيط بـتل باشر والرها ، والتي كانت تابعة للإمبراطورية البيزنطية حتى منتصف القرن الحادى عشر الميلادى ، قد استعادت حكمها الذاتى وهويتها المسيحية تحت السيادة الصليبية الجديدة فى امارة الرها .

وفى مكان ما بين أنطاكية وطرابلس أصبح عدد السكان المسيحيين قليلاً . وفي القرن السابع الميلادى ، اقتطعت جنوب بلاد الشام ، ولبنان ، وفلسطين من أسلاك الإمبراطورية البيزنطية . وعلى الرغم من نجاح حركة الاسترداد البيزنطية لهذه المناطق فى القرن العاشر الميلادى فإن السكان المسيحيين اندفعوا جنوباً إلى وادى جزيرل وقيسارية على الساحل الفلسطينى ، وكانت المكاسب التى جنوها عابرة وزائلة .

وخلال الأربعمائة عام من الانفصال عن السيادة البيزنطية ، اعتنقت هذه الأقاليم بشكل كامل الدين الإسلامى . ومن سوء الحظ أن قلة المصادر التاريخية تجعل من المستحيل فعلاً وصف عملية انتشار الإسلام فى هذه الأقاليم . ومن الجائز أن نزعم بأن تحول هذه الأقاليم إلى الدين الإسلامى كان بطبيعته إلى حد ما ، والسبب أن هذه الأقاليم وخاصة فلسطين ومعظم الأقاليم الجنوبيه لم يستقر بها الفاتحون العرب المسلمين ، وأن عدداً قليلاً نسبياً من القبائل العربية قد تأصلت جذورهم واستقرروا فى شريط ضيق من الأرض على امتداد الساحل . وعلى أي حال ، ففى بداية القرن الحادى عشر الميلادى ، كان الدين الإسلامى عقيدة الحكم وأغلبية سكان هذه الأقاليم فى جنوب لبنان . وبالإضافة إلى ذلك ، فإن بعض المناطق فى جنوب لبنان ظلت ذات أغلبية مسيحية ويعينا إن الاماكن المقدسة المسيحية مثل الناصرة ، وبيت لحم كانت ذات أغلبية مسيحية ، بيد أن مدينة بيت المقدس كانت أيضاً ذات أغلبية مسيحية (على حد قول أحد الجغرافيين المسلمين الذين ولدوا فى هذه المدينة وهو المقدسى) . وتغير هذا الوضع بعد هذه النترة ، على الرغم من أن بعض السكان من المسيحيين كانوا ما يزالون يقطنون أحد أحيا ، المدينة ، وهو الحي الشمالي الغربى حول الضريح المقدس فى منتصف القرن الحادى عشر الميلادى . فقد أبرمت اتفاقية بين الإمبراطور البيزنطى وبين الحكام الفاطميين فى مصر حصل الإمبراطور بمقتضاها على حق اعادة تشييد كنيسة الضريح المقدس التى كانت قد دمرت ، وأن يتجمع كل المسيحيين فى مساكن لهم حول هذه الكنيسة فى بيت المقدس .

وانتشرت جماعات مسيحية فى مقاطعات وأقاليم ريفية خارج المدن . وانتشرت القرى المسيحية أيضاً فى كل المنطقة الريفية المحصورة بين بيت لحم ومدينة بيت المقدس ، وكذلك فى

المنطقة المحصورة بين مدينة بيت المقدس وبين رام الله على الطريق الرئيسي المزدئ إلى نابلس ، وحول غزة في جهة الجنوب، وعلى مقربة من جبل طابور في الجليل في الشمال.

ومن المدهش إلى حد ما هو بقاء الجماعات المسيحية الريفية في فلسطين بعد أربعينية عام من الحكم الإسلامي واستمرارية عملية التحول إلى الإسلام في هذه المناطق. وكما ذكرنا آنفا فإننا في الحقيقة لا نعرف سوى القليل عن عملية التحول إلى الإسلام، وأن مانقدمه من تفسير لهذه الظاهرة هو من قبيل الافتراض تماماً.

ومن ناحية أخرى، فإن عملية التحول إلى الإسلام في هذه المناطق لم يصاحبها ضغط عدائي واكراه من جانب المسلمين ضد غير المسلمين باستثناء فترات قصيرة جداً، الأمر الذي سهل عملية بقاء الجماعات المسيحية في الوجود في هذه المناطق . وعلى الجانب الآخر، يجب أن نتذكر أن الكنيسة البيزنطية كانت من كبار ملاك الأرض وظلت كذلك حتى الغزو الصليبي على الرغم من حالات المصادر التي قام بها الحكام المسلمين لبعض هذه الأراضي. وكانت الكنيسة البيزنطية أيضاً تتدخل لتسوية أي شقاق يقع بين الموظفين المسلمين وبين فلاحي القرى المسيحية. وهكذا فإن الضياع الكنيسة لم تشهد نزاعاً بين مثل هذه السلطات الإسلامية أو كبار ملاك الأرض وبين المزارعين الذين خفت عنهم وطأة الضغوط بسبب مثل هذه الاتصالات التي قامت بها الكنيسة مع الموظفين المسلمين. وكان يجب أن تكون عمليات التحول إلى الإسلام أكثر سرعة وأكثر تغللاً في المدن، حيث كان الحضور اليومي للسلطات الإسلامية في هذه المدن، والمزايا التي كان يتمتع بها الموظفون المسلمين تحت الآخرين للتتحول إلى الدين الإسلامي. وعرفت المدن أيضاً اصدار تشريعات ضد المسيحيين واليهود، وفرضت على هاتين الجماعتين بعض القيود كارتفاع نوع ولون محدد من الملابس للحط من قدر غير المسلم. وكان هذا سبباً جوهرياً في حث غير المسلمين لاعتناق الدين الإسلامي.*

وخلال القرن السابع الميلادي - وبشكل بطيء - حلت اللغة العربية محل اللغة اليونانية كلغة رسمية، بيد أن هذه اللغة أصبحت اللغة العالمية المحلية بعد قرنين من الزمان فقط، أى حوالي عام ٨٠٠ م تقريباً. ولم تستطع اللغة العربية أن تحل محل اليونانية أو الآرامية قاماً في الشمال أو أن تحل محل العبرية في الجنوب .

*الحقيقة أن هذه القيود على أهل الذمة من قبل بعض الحكام المسلمين كانت قصيرة الأمد، وسرعان ما كانت تعود روح التسامح مع أهل الذمة ، ولم تكن هذه القيود قتلة ظاهرة، حيث كان أهل الذمة من اليهود والنصارى يتمتعون بحرية ممارسة العقيدة.
المترجم .

وهكذا فإن عمليات احلال اللغة العربية محل اليونانية أو الأرامية أو العبرية لم تكن كاملة. فقد كانت ترجمات الكتاب المقدس، ونصوص سير القديسين ، والانتاج الأدبي هي أولى النصوص المسيحية والعربية التي ظهرت في بلاد الشام وفلسطين ، واستمرت هذه النصوص تدون باللغة اليونانية والأبجدية الآرامية، واستمر اليهود لفترات طويلة يكتبون مؤلفاتهم بلغة عربية بحروف عربية. وبالإضافة إلى ذلك، فإن اللغات الوطنية استمرت في الوجود وأزدهرت كأداة عادية لنقل الأفكار ووسيلة من وسائل الاتصال بين العلماء. ولذا فإن عمليات التعرّب باتت حقيقة مهمة في تاريخ منطقة الشرق العربي في القرن التاسع الميلادي، وتباطأً إيقاع عملية التحول إلى الإسلام ولم يستطع القضاء المبرم على الأديان الباكرة لهذه المنطقة.

وتشبت اليهود بوطنهم القديم، ووجدت الجماعات اليهودية بأعداد كبيرة في فلسطين وفي الأقطار المجاورة*. فقد رأى اليهود في الفتح الإسلامي لهذه المناطق في القرن السابع الميلادي بارقة الأمل لتحريرهم من الاضطهاد والانحلال الخلقي البيزنطي. فقد ألغى الحكام المسلمين ذلك الحظر البيزنطي الذي كان قد فرض على اليهود بعدم الاقامة في مدينة بيت المقدس على الرغم من اصرار بطريرك مدينة القدس - الذي استسلم للفاتحين المسلمين - لكي يبقى المسلمين على شكل التشريع الراهن الخاص بالحظر على اليهود التواجد في مدينة القدس. وبعد الفتح الإسلامي، استقرت جماعة يهودية رئيسة في مدينة القدس بالقرب من منطقة الهيكل القديم، وبعد فترة ، استقر اليهود في الجزء الشرقي من المدينة إلى الشرق من الحي المسيحي حول الضريح المقدس. وفي مكان ما تواجدت أكبر الجماعات اليهودية . وكانت مدينة رام الله من أهم المدن التي شيدها المسلمون حديثاً كعاصمة لهم في جنوب فلسطين ، وهي المدينة التي حلّت محل طبرية كمركز للحياة اليهودية في الأرض المقدسة. وحيث أن الجماعات اليهودية في مناطق يهودا (بيت المقدس) وفي السهل الساحلي كانت توجد في مدن، فإن وجودهم في الجليل يقدم لنا صورة مختلفة. فقد عاش اليهود هناك في قرى على الرغم من أن هذه القرى لم تقتصر على السكان اليهود فقط بل كانت أيضاً تضم خليطاً من السكان . ومن المحتمل أن

* يؤكد المؤلف على قرية حق اليهود في فلسطين منذ القدم. ويستخدم المؤلف التاريخ في خدمة الأغراض السياسية الصهيونية. (المترجم).

بعض الجماعات اليهودية التي عاشت في الجليل كانوا من اليهود المحليين الذين عادوا إلى المعبد الثاني واستقلال إسرائيل. ومن المعروف أن مدينة بيت المقدس عانت الكثير من الخراب بعد انتصار الرومان النهائي ، ومن ثم أصبح الوضع في الجليل أكثر ملائمة للإقامة والسكنى. وتؤيد المصادر اليهودية الأدبية والأثرية بشكل كامل فكرةبقاء السكان اليهود بكثافة كبيرة في الشمال، بعد مئات السنين من تدمير الهيكل على يد الرومان.

وبعد الفتح الإسلامي مباشرةً أصبحت طبرية مركزاً رئيساً لتجتمع اليهود. فقد ظلت أكاديمية ياشيفا Yeshiva والمقر الرئيسي للأخبار الربانية اليهود في طبرية لعدة أجيال حتى سُنحت الظروف بنقلها إلى مدينة بيت المقدس. ولكن عشرات القرى اليهودية كانت تنتشر في إقليم الجليل الجبلي.

ومن وقت آخر، كانت الجماعة اليهودية في فلسطين قوية وذات نفوذ، بسبب هجرة اليهود من الخارج. فقد حضر الحجاج المستوطنون اليهود من منطقة العراق المجاورة (الميزوراتاميا) ، ومن مصر ومن بيزنطة التي تبعد كثيراً عن فلسطين، ومن روسيا ومن أوروبا الغربية المسيحية. فقد كان الحكم المصري الفاطمي في فلسطين وببلاد الشام يؤيد وجود الجماعات اليهودية في هذه المناطق، وذلك لأن رجال الدين اليهود ذوي التأثير واقترابهم من الخلفاء والحكام الفاطميين يمكن أن يخدم مصالح هؤلاء الحكام، وأن يکبح جماح الاستبداد المتزايد للموظفين الذين يمثلون السلطة الفاطمية في هذه المناطق.

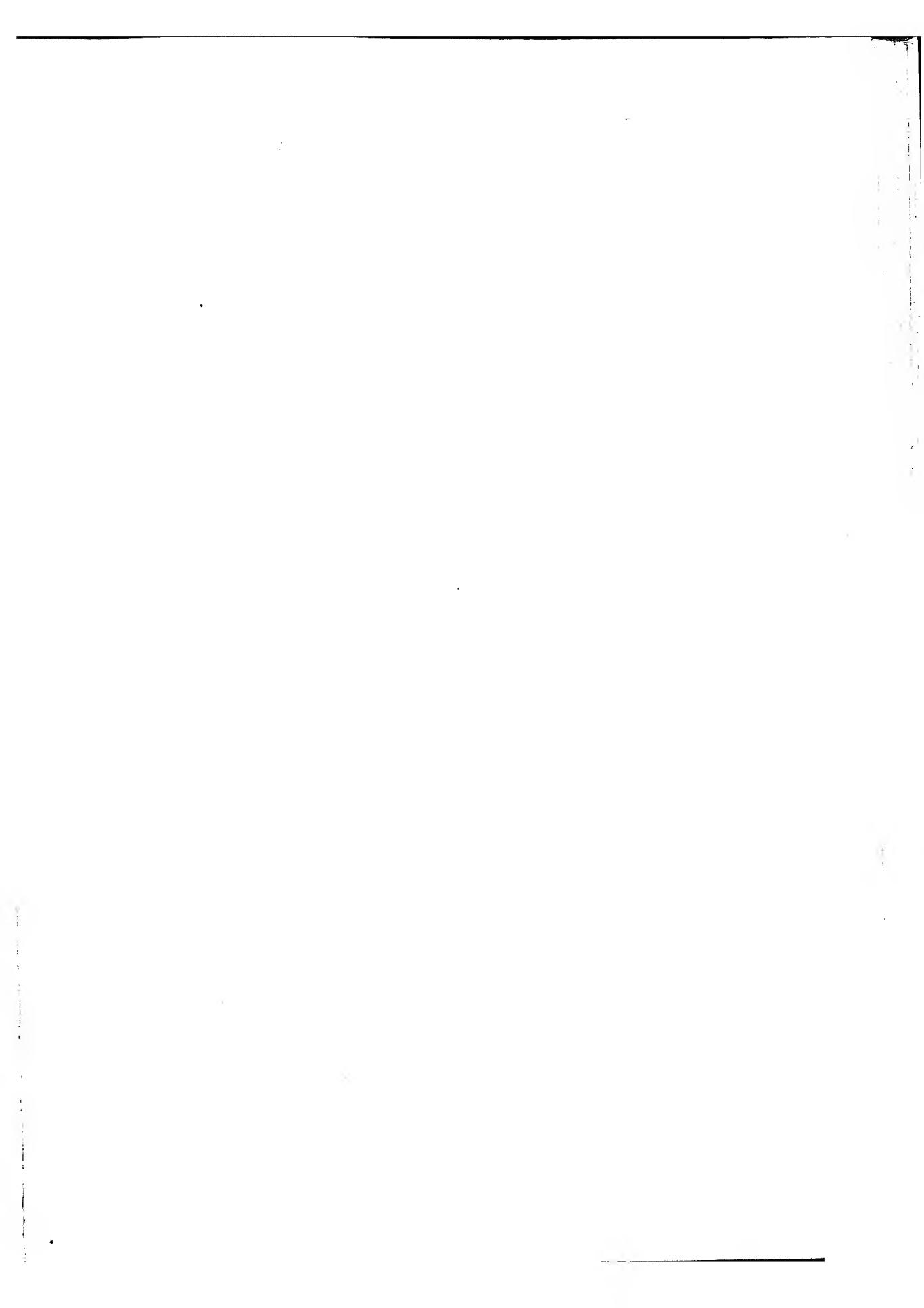
والواقع أن ثمة دافع قوية وراء حركة الهجرة اليهودية من منطقة غير متوقعة إلى حد ما إلى الأرض المقدسة في القرن العاشر الميلادي. فقد كان القراءون أحد طوائف اليهود، وهي الطائفة التي تنفصل عن طائفة الربانيين اليهودية ، وهو الاسم الذي كان يطلق عليها في القرن الثامن الميلادي. فقد ناشد بعض زعماء طائفة الربانيين في الأرض المقدسة أبناء طائفتهم أن يتركوا أوطانهم في الشتات (الدياسيورا) ويسرعون الخطى إلى تلك الأرضي للاستقرار فيها، وخاصة في مدينة بيت المقدس. ولم تكن أعداد طائفة القرائين اليهود كبيرة، بيد أن كل فرد من هذه الطائفة كان حريصاً على اظهار نجاحه وازدهاره إلى حد ما وفي الغالب كانت تشهد مدينة رام الله، العاصمة الإسلامية لهذا القطر، العديد من النزاعات والصدامات بين طائفة القرائين وبين طوائف اليهود الأخرى.

وفي منتصف القرن الحادى عشر الميلادى، وصلت الجماعات اليهودية إلى ذروة ازدهارها وقوتها، وقد عرفنا هذا من خلال المراسلات المتبادلة الوفيرة فى تلك الفترة ، بيد أنه بعد جيل من الزمان، استطاع الفزور السلاجوقى فى سبعينيات القرن الحادى عشر الميلادى أن يلحق الضعف والخور بوضع اليهود.

لقد أعقبت المروب التى شنها الغزا السلاجقة نشوب العديد من النزاعات بين القادة المحليين، وجلبت هذه النزاعات المحلية الدمار وعدم الأمن والذى انعكس أثراها السلبى على الجماعات اليهودية. وانتقلت قيادة الجماعة اليهودية ، والتى كانت تمثل فى المباونات - Gao mate، والأكاديمية The academy والمحكمة The Court من مدينة رام الله إلى صيدا ثم أخيراً استقرت هذه القيادة اليهودية فى دمشق ، وخضعت هذه القيادة لسيادة التركية التى كانت تبسط سيطرتها على الأراضى المقدسة باستثناء المدن البحرية . وفي نفس الوقت استقر جزء آخر من الجماعة اليهودية فى الفسطاط (القاهرة القديمة) فى مصر.

وكان طائفة السامرة من الطوائف اليهودية، وظلت هذه الطائفة فى منطقة نابلس الجبلية، وهى منطقة سيخيم القديمة The Ancient Sichem وكانت الجماعات اليهودية تلقى من الحكم البيزنطى الااضطهادات والمضايقات تارة، والتسامح واللين تارة أخرى، وقتعت هذه الجماعات بقدر كبير من الأمان والاستقرار تحت الحكم الإسلامى. فقد كان التقليد الخاص بطقس التضحية السرمدى على جبل جرزيم Gerizim فى يوم عيد الفصح لليهود Passover خير شاهد على تلك العقيدة القديمة التى ترجع إلى عدة قرون قبل انهيار الدولة العثمانية Hosmonean، وما يذكر أن الكاهن الأكبر والطبقة الكهنوتية اليهودية التى قادت الجماعة اليهودية، وحولياتها القديمة التى كان يدون فيها قائمة كبار الكهنة الذين تولوا هذا المنصب من جيل إلى جيل لم تقدم لنا سوى التزير اليسير من المعلومات الخاصة بالاضطهادات والمصائب والنكسات التى تعرضت لها الجماعات اليهودية.

ويذكرنا وضع الجماعات العرقية والدينية المتعددة والمختلفة بجانب بعضها البعض بقائمة الأمم التوراتية، فقد استطاعت كل جماعة عرقية وكل عقيدة أن تساهم فى تحضر العالم، واستقرت كل هذه الجماعات منذ القدم فى هذه الأراضى التوراتية المقدسة، وخصوصاً فى مدينة بيت المقدس.



الفصل السادس

الغزاة الصليبيون

أ- طبقة البلاء

لقد كان استيطان اللاتين في منطقة الشرق العربي بمثابة أولى المحاولات الأوروبية التي تهدف إلى تأسيس مملكة استيطانية في هذه المنطقة. فقد نشأت معظم مجتمعات العصور الوسطى عن طريق الغزو كما نشأت هذه المجتمعات على أساس العزلة التامة والصارمة بين الغزاة وبين الشعوب المقهورة ، بيد أن مثل هذا التقسيم لم يستمر إلا بصعوبة خلال فترة الوجود الصليبي في المنطقة العربية والتي استمرت ما يقرب من مائتين عام. فلم يحاول الصليبيون طرد السكان المحليين، وأيضا لم يحاولوا الاندماج الاجتماعي مع هؤلاء السكان عن طريق تحويلهم إلى الديانة الكاثوليكية . ويمكن تفسير ذلك في ضوء حقيقة أنه كان من المناسب للصليبيين البقاء على هؤلاء السكان المحليين باعتبارهم مصدرًا رئيسًا من مصادر توفير العيش والطعام لهؤلاء الصليبيين، وكان نفس السبب أيضًا يقف حجر عثرة في وجه سياسة تحول السكان المحليين إلى الديانة المسيحية الكاثوليكية وبالتالي لم يجر أحد منهم على مثل هذا التحول الديني.

كان المجتمع الفرنجي بمثابة أقلية أجنبية حاكمة يخضع لها الأغلبية من سكان منطقة الشرق العربي. واحتفظ هذا المجتمع بوجوده وينتظم حياته وذلك عن طريق تدفق أعداد كبيرة من الحجاج والمستوطنين الأوروبيين خلال القرن الثاني عشر الميلادي، وأيضاً بسبب خلق حواجز بين هذا المجتمع الصليبي وبين السكان المحليين الذين ظلوا في علاقات مع الصليبيين. وسرعا تم احتلال الصليبيين لفلسطين ، وأصبحت وطنًا لهؤلاء الغزاة وخلفائهم ، ووفقًا للخطط التي وضعها الصليبيون قدر لهم تأسيس مملكة مسيحية استيطانية على حدود الأقطار الإسلامية. ولما كانت الحرب والغزو ليست بالظاهرة الجديدة، فإن إدارة هذه المناطق الصليبية الاستيطانية لم تكن سابقة جديدة أيضًا في التجربة الأوروبية في العصور الوسطى. وكانت التجارب الجديدة تتمثل في شكل المجتمع الفرنجي، وأنماط التقسيم الطبقي ، والروابط التي

ترتبط هؤلاء الغزاة الصليبيين بأوطانهم في أوروبا وعلاقتهم مع السكان المحليين. وكان يمكن ادراك بعض التأثيرات الناتجة عن هذا الاستيطان ، على الرغم من أن معظم هذه التجارب والخبرات قد تطورت بفعل ظروف وأحوال منطقة الشرق العربي. وقد استخدمت بعض هذه الخبرات في فترة متأخرة عندما تعامل الأوروبيون مع ظاهرة استعمارية مشابهة في منطقة البحر المتوسط في العصر الحديث. ويقترح أحد المؤرخين المحدثين بأنه يمكن ادراك تأثير هذه الخبرات الأوروبية الاستيطانية خلال فترة التوسيع الأوروبي العظيم في جزر كناري وفي أمريكا الشمالية.

ويبدو أن أي أوربي في منتصف القرن الثاني عشر الميلادي كان ينظر إلى نبلاء المملكة اللاتينية في بيت المقدس باحترام لأنهم كانوا يجسدون المثل العليا للفروسية . فقد كانت جسارتهم وشجاعتهم وارتباطهم بالأرض المقدسة وتعلقهم بها وبالتالي حمايتهم للضريح المقدس والذود عنه وعن المسيحية، كل هذا كان ينسب إلى أسلافهم وأجدادهم الذين قادوا الحملة الصليبية الأولى والذين رسخوا فكرتهم هذه تمثلاً بما فعله القديس المحارب جورج الذي يعتبر من أكثر القديسين شعبية وتمجيلاً . فهو القديس الذي كان يرتدي لباس الحرب ويعتلي صهوة جواده، ويعمل القتل بسيفه البثار في ذلك التنين الرهيب وقد سجلت هذه الحادثة على عدد كبير من أعمال التصوير الجصي على الجدران أو السقوف (أعمال الفرسك) وعلى الرسوم التي كانت تزين النوافذ الزجاجية الملونة وأعمال النحت التي تزين نوافذ وأبراج وأعمدة المئات من الكنائس.

ولم تكن هذه الفكرة المثالية دائمًا بعيدة عن الواقع، إذ كان الصليبيون حقيقة مشهورين بالشجاعة ، وقوة التحمل والبسارة في ساحة الوفى . بيد أن أي مجتمع محارب لا يستطيع أن يعيش بالسيف فقط. ومع ذلك فإنه من الناحية التاريخية لم تكن الحرب بين الصليبيين وبين المسلمين مستمرة بلا انقطاع ، وأن هؤلاء المحاربين الأشاوس الذين كانوا يلحقون الرعب والهلع بمنطقة الشرق الإسلامي، قد تمتعوا بفترة طويلة من السلام - يربون خلالها حياة أسرهم ويدبرون أملاكهم وإدارة الحياة العادلة للطبقة الحاكمة الاستيطانية. وقد خصصنا فصلاً في هذا الكتاب يعالج الحروب، وخصص الفصل الذي يليه لمناقشة المجتمع الصليبي، من حيث تأسيسه وبنائه وتطوره خلال فترة الوجود الصليبي الذي استمر ما يقرب من قرنين من الزمان.

وقد تطورت جموع الحملة الصليبية الأولى التي كانت تشكل أساس وقواعد كل الطبقات الاجتماعية في المملكة اللاتينية . فقد خضعت الأعداد الكبيرة من الفرسان وفي العامة

لسيطرة طبقة النبلاء الفرنجية ، ولسيطرة بعض الجموع من الألمان ، والنورمان الذين جاءوا من جنوب إيطاليا ، وكانت هذه الطبقة الحاكمة تشكل نواة ومستقبل المجتمع الصليبي. وإلى حد ما أصبحت الحرب الصليبية عاملًا من عوامل تطور هذا المجتمع الصليبي. وظل العشرات أو حتى المئات الذين انضموا في الزحف الصليبي إلى منطقة الشرق العربي مغمورين ومجهولين.

ولم يترك المؤرخ في العصور الوسطى نفسه في أن يسجل أصول هؤلاء الذين انضموا إلى صفوف الحملة الصليبية الأولى أو بنيتهم الاجتماعية. ونستطيع أن نحدد فقط كبار القادة. وفي بعض الأحيان حصلنا على معرفة طفيفة لبعض أفراد حاشية كبار القادة ، والذين كانوا من الفرسان أصحاب الأعمال البطولية الجديرة بالاحترام والذكر، بيد أن هؤلاء الفرسان كانوا يحظون باشارات عابرة فقط في المصادر التاريخية. فقد أهمل ذكر الرجال الذين أتوا من الغرب الأوروبي يمتنون صهوة خيولهم وكذلك الآلاف من عائلات الفلاحين الذين زحفوا برفقة هؤلاء الفرسان في مسيرتهم البطيئة صوب الشرق العربي، واختفوا في ضبابية الماضي وعتمته.

وتضمنت الوثائق الباكرة في المملكة اللاتينية قائمة بأسماء حائزى الاقطاعات الأول من النبلاء في هذه المملكة ، ومن الصعب التأكيد على أن هذه الاقطاعات كانت ضمن أملاك البيونات النبيلة الأوروبية، أو حتى تتعلق بصفار النبلاء، وذلك إذا تجاوزنا عن ذكر البيوتات والعائلات الكبيرة في الغرب الأوروبي. وهذا يقودنا إلى استنتاج هام متواه أنه باستثناء عدد قليل من بيوت النساء (مثل أسرة جودفري البويوني ، وبوهمند من أونزانتو Otranto ، وابن أخيه تانكред وريموند السانجيوني) لم تكن هناك بيوت نبيلة تنسب إلى نبالة المملكة اللاتينية في مرحلة تكوينها. فقد كان معظم حائزى الاقطاعات في المملكة اللاتينية في الربع الأول من القرن الثاني عشر الميلادي من الرجال الجدد Homines Novi الذين بدأوا في إدارة هذه الأماكن وتحقيق النجاح في الأرضي المقدسة. وكان بعض هؤلاء الرجال الصليبيين الجدد الذين نزحوا إلى المناطق الصليبية ينتمون إلى الأعداد الكبيرة من الفرسان الأتباع الذين كانوا يعملون في أوطانهم في خدمة الحاشية الملكية أو في خدمة أحد البيوت النبيلة المحلية. ومن المحتمل أن البعض الآخر كانوا من الفرسان الذين كانوا يعيشون في ضياع متواضعة في أوطانهم ، ويعيشون حياة فائل تلك الحياة التي كان تحياها طبقة الفلاحين الأغنياء في قراهم. ولم يكن هؤلاء الفرسان من الرجال ذوى المراكز المرموقة اجتماعيًا أو اقتصاديًا. وكان من

الطبعى بالنسبة لكتير من هؤلاء الفرسان أن يلتحقوا بأقرب أسرة اقطاعية كبيرة. وقد أدرج عدد كبير من هؤلاء الفرسان ضمن حاشية هذه الأسرة، فى حين بدأ البعض الآخر من هؤلاء الفرسان فى العمل بشكل مستقل بعيداً عن الحاشية . بيد أنه فى خلال الزحف الصليبي الطويل صوب الشرق تضائل المؤون وشعت الأقوات التى كانت بحوزة هؤلاء الفرسان المستقلين ، الأمر الذى جعلهم يصبحون أقصالاً لأحد القادة يؤدون له قسم الولاء والتبعية الاقطاعية. ومن الآن فصاعداً ، استطاع هذا القائد أو السيد الاقطاعى أن يكفل لهم القوت والطعام، ومن ثم يضمن ولاء أقصاله الذين سيقاتلون إلى جانبه من أجل رفع شأنه وتحقيق متفعة له .

لقد كانت هذه الجماعات والفرق الصليبية الإقليمية تقلل عدماً كبيراً من من الأصول العرقية (الاثنى) واللغوية - فقد تحدث معظم أتباع الكونت روبرت الفلاندرز اللغة الفلمنكية، على الرغم من أن قادتهم كانوا يتحدثون اللغة الفرنسية، والتحق النورمان الذين كانوا تحت قيادة روبرت النورمانى ببعض الفرسان من نورمان إنجلترا ؛ ومن المحتمل أن المجموع الصليبية الذى كانت تحت قيادة الدوق جودفري من اللورين Godfrey of Lorraine كانت تتحدث لغة مزيجاً من الألمانية والفرنسية (واليمون تدعى كل من فرنسا وإنجلترا أن هذه المجموع كانت تنتمى إلى هذه الأمة أو تلك ، على الرغم من أن الكونت البلجيكى كان نفسه من بين أبطال هذه الجموع)، وكانت المجموع الصليبية من لانجدورك تضم البروفنسال وربما كان الفرسان الذين تحت قيادة ريموند السانجىلى يتحدثون اللغة القطلونية، وكان الغزاوة الصلي比ون الذين أتوا من جنوب إيطاليا وصقلية والذين عملوا تحت قيادة بوهمند وتانكرد يتحدثون اللغة الفرانكونية .

والواقع أن التقسيم القومى الظاهرى للجماعات الصليبية كان له تأثيره الحاسم على شخصية ومستقبل الأرضى التى احتلها الصليبيون فى الشرق العربى. فقد قام قادة الحملة الصليبية والذين أصبحوا حكامًا للإمارات الصليبية الجديدة بمنع الاقطاعات والإيرادات لأتباعهم وهكذا أصبحت إمارة أنطاكية الصليبية التى حكمها بوهمند ذات سمة نورمانية فى عاداتها وسماتها ، وأصبحت كونتية طرابلس التى أسسها ريموند السانجىلى بروفنسالية الطابع، فى حين كانت السمة المميزة لمملكة بيت المقدس اللاتينية تقترب من الشمال资料ى، وكانت كونتية الرها تختلف فى سماتها عن بداية نشأتها ، فلم يحل الغزاوة الصليبيون محل

سكانها المحليين من الأرمن (وأيضاً من اليوناكيّة) . والواقع أن الاستيطان الصليبي في إمارة الراها كان قصير الأمد إلى حد ما . وعلى الرغم من أن هذه الكونتية قد حكمها أفراد من أسرة بويون الفرنسية Bouillons ، ثم أفراد أسرة كورتيشاري بعد ذلك ، فإن طبقة الحكام المحليين من الأرمن ظلت تمارس وظيفتها في الإدارة في ظل السيادة الصليبية . وسواء كانت الإمارة الصليبية قد اصطبغت بالصبغة النورمانية أو الفرنكية أو البروفنسالية ، فإن هذه الإمارات قد استطاعت خلق طبقة نبلاء ، فيها من لاشي . وكانت عملية ظهور العائلات الجديدة في قطر في حالة حرب مستمرة تستغرق زمناً طويلاً ، حيث كان يتعرض عدد كبير من أفراد هذه العائلات للهلاك والقتل في هذه الحروب على يد الأعداء ، أو أن قسوة المناخ وانتشار بعض الأوبئة المهدّلة كانت تساعد أيضاً في هلاك بعض أفراد هذه العائلات . وكانت طبقة النبلاء تتكون ذاتياً من رجال وفرسان اعتمدوا مهنتهم ونشاطهم على الشجاعة الفردية لهؤلاء .

ووفقاً لما يذكره المؤرخون أن كثيراً من الصليبيين المفلسين أصبحوا أثرياء خلال فترة الحرب ، بسبب حصولهم على أملاك مكتسبة في المدن التي تم احتلالها ، وكانت هذه الأماكن هي أول الممتلكات الحقيقة التي تم اكتسابها في الأراضي المقدسة بشكل قانوني وشرعى وذلك بوجوب «قانون الغزو» الغريب والذي سنه الحكام الصليبيون خلال الحملة الصليبية الأولى . واستطاع الفارس والعامي غرس جذورهم الاقتصادية في هذه المناطق الجديدة التي استوطنوها في منطقة الشرق العربي .

ويبدو أن «قانون الغزو» هذا قد طبق على الممتلكات والأملاك الريفية ، وتذكر المصادر التاريخية أن كثيراً من القرى المجاورة لمدينة بيت المقدس لم تعد تذكر باسمها القديم العبرى ، أو اليونانى ، أو العربى ، بل أصبحت هذه القرى تعرف باسم المحارب الصليبيين الذى امتلكها . وفي الفترة الباكرة من تاريخ المملكة اللاتينية أدعى الفرسان الصليبيون ملكية عدد كبير من القرى بقوة القانون الذى كان يعرف باسم «قانون الغزو Law of Conquest .»

وفي بعض الحالات ، كان لانتزاع مثل هذه الأراضي نتائج سياسية مهمة . وعندما احتل تانكرد مدن نابلس ، وبيسان ، وطبرية وجبل طابور ، لم يكن الهدف من وراء هذا الاحتلال اكتساب أملاك بسيطة ، بل كان يهدف إلى تأسيس إمارة مستقلة . وكانت مناشدة أهل أنطاكية لتانكرد واستدعاؤه ليحكم مدinetهم في أثناء غياب بوهمند هي فقط التي حالت دون تأسيس دولة لاتينية إضافية في منطقة الشرق . بيد أن هذا كان بثانية حالة استثنائية تأكّدت

من خلل وضع ومكانة الحاكم النورمانى فى أنطاكية . ولم يفكر صغار الفرسان الذين اشتراكوا فى الحملة الصليبية الأولى فى مثل هذه العلاقات المتبدلة بينهم وبين السكان الوطنيين . فقد كانوا يتطلعون إلى امتلاك الضياع الريفية أو امتلاك مدينة لكي يعززوا وضعهم ومكانتهم فى المجتمع الجديد . ويعكّننا الاعتقاد بأن صغار الفرسان الصليبيين كانوا يقحمون أنفسهم فى مغامرات خطيرة قتلت فى الاعتداء على الريف المحيط بمدينة بيت المقدس ، حيث كان الأتراك السلاجقة الذين اعتادوا الاغارة وأعمال السلب والنهب ، وقبائل البدو ، والفلاحون ، ينصبون لهم الكمائن للايقاع بهم والقضاء المبرم عليهم . ولم تكن القرى محصنة ولم يستطع القرويون الهجوم على أى فرنجى خوفاً من انتقام الجيش الصليبي . وربما كان بعض الفرسان ورفاقهم يحتلون قرية ويدعون ملكيتهم لها . وقد حدث مثل هذا قبل وقت قليل من بسط الادارة الملكية البدائية سيطرتها على الريف الذى خضع لهؤلاء ، الفرسان الصليبيين . وكانت هذه القرى المحتلة تمنع لهؤلاء ، الغزاة الصليبيين فى صورة اقطاعات أو أراضي مستأجرة ، وكان يتم التصديق على هذا الوضع وإقراره من خلال قيام هؤلاء الملوك بتأدية يمين الولاء والتبعية الاقطاعية للملك الصليبي .

كان الملك الصليبي هو السيد الاقطاعى الأعلى للغزاة . إذ كان يقوم بتنظيم وقيادة كل حملة عسكرية مهمة ، ويوقع المعاهدات مع الإيطاليين من أجل مشاركة الأساطيل الإيطالية فى مساعدة الصليبيين فى فرض الحصار على المدن الساحلية . ولم تقطع المدن فور سقوطها مباشرة لأحد من القادة الصليبيين سواء فى عهد جودفرى أو فى عهد الملك بلدوبن الأول وانتهت الملوك الصليبيون سياسة حكمة وحذر ، وكانتا يهدفون من وراء هذه السياسة تأسيس منطقة نفوذ ملكية (دونين ملكى) مهمة قبل منح الاقطاعات لأقصالهم وأتباعهم . وفي العادة كانت المدينة المحتلة تستقبل حاكما ملكيا وحامية عسكرية ملكية أيضاً . وكان يخصص نسبة من ايرادات هذه المدينة من الضرائب ورسوم الجمارك للاتفاق منها على اعاشه هذا الحاكم وأفراد الحامية العسكرية ، ولم ينزع الملك الصليبي الاقطاعات السيادية الحقيقة لأقصاله من الفرسان إلا فى نهاية العقد الأول من القرن الثاني عشر الميلادى . فقد كانت الاقطاعات من القرى المحتلة ، والأملاك المصادر فى المدينة المحتلة أيضاً والموارد المحلية كالضرائب المخصصة للصليبيين قتل العماد الاقتصادى الباكر لطبقة الفرسان . وكان عدد كبير من الفرسان يتقاضون مرتبات نقدية من الملك بشكل مباشر . الواقع أن هؤلاء الفرسان كانوا مجرد طبقة من

المحاربين المأجورين يتتقاضون رواتب نقدية فقط، على الرغم من أنهم كانوا يؤدون ميكن الولاء والتبعية الاقطاعية للملك الصليبي .

وظهر النموذج الباكر للنظام الاداري الصليبي في نهاية العقد الثاني من فترة الوجود الصليبي وهي الفترة التي كانت تزامن تقريباً مع احتلال الصليبيين لكل المنطقة في عام (١١٢٠م) . وعلى الرغم من أن الدومني الملكي كان ما يزال شيئاً جوهرياً وأساسياً تماماً ، فإن شطراً كبيراً من الأرض قد قسم إلى اقطاعات ومقاطعات يتلوكها سادة اقطاعيون . ومن المرجح أن عملية منع الاقطاعات للسادة اقطاعيون قد تضمنت أن السيد الاقطاعي الجديد يمكن أن يقطع جزءاً من أملاكه الاقطاعية لأحد أنصاله مقابل تأدية الفصل الخدمة العسكرية لهذا السيد . بيد أن حائزى الاقطاعات المهمة والتي حصلوا عليها من التاج الملكي انتهجوا السياسة الملكية في عدم الميل إلى تقسيم الأراضى التي اكتسبوها حديثاً . ومن أبرز السمات المميزة للتنظيم الاقطاعي الصليبي في المملكة اللاتينية في بيت المقدس هو أن الاقطاعات التي يمكن منحها للغير لتجاوز اقطاع فارس أوى الاقطاعات التي تكفى لتجهيز فارس واحد فقط . كما كانت تعرف في المصادر اللاتينية ، وأيضاً في أوروبا في العصور الوسطى . وكان يحدث في بعض الحالات الاستثنائية فقط أن ينبع اقطاع كبير لأحد الحائزين ، بحيث يستطيع هذا الحائز أن يقطع بعض اقطاعاته لأنصاله الفرسان . وثمة سمة أخرى كانت تميز النظام الاقطاعي الصليبي وهي وجود الاقطاع النقدي كبدائل لاقطاع الأرض ، وكان هذا الاقطاع النقدي عبارة عن حق تحصيل إيجارات مرافق في مدينة مثلاً أو أية أملاك فيها . ولم يعرف الاقطاع النقدي أو اقطاع البيزنط Fieg de Sesant في أوروبا في حين كان الاقطاع الأوروبي يعرف طريقة استثنائية لتعويض الخدمة العسكرية وكبدائل عنها وهي الخدمة التي كان على الفصل تأديتها وتقديها لسيده الاقطاعي . وكانت هذه السمات الاقطاعية مألوفة وشائعة تماماً في المناطق الصليبية في بلاد الشام ، ولم يقتصر تطبيق هذه النظم والقوانين الاقطاعية على صغار الفرسان فحسب ، بل طبق على كبار السادة اقطاعيين . ويمكن أن نغزو هذا التطور المهم للنظام الاقطاعي في المناطق الصليبية إلى سببين رئيسيين: ويرجع السبب الأول إلى أن الاقطاعات الصليبية كانت صغيرة نسبياً ، ولذا أدرك حائز هذه الاقطاعات أنه لم يجن أية مكاسب إدارية أو مكاسب أخرى من وراء تقسيم اقطاعاته ومنطقة نفوذه . وكان حائز الاقطاع يفضل منح جزء من إقطاعاته لأنصاره المباشرين لكنه يضمن الحصول على الخدمات العسكرية

التي يقدمها له صغار الفرسان من أقصائه دون وساطات وتدخل من النبلاء أو من كبار الفرسان . والسبب الثاني يرجع إلى التأثير المباشر للظروف المحلية للمنطقة التي عاش فيها الصليبيون في الشرق العربي . ومن المحتمل أن الصليبيين قد شادوا مجتمعًا اقتصاديًّا في ظل ظروف منطقة تعرف نظامًا اقتصاديًّا نقدًّا متطرًّا . فلم تكن فلسطين ولاد الشام، وأيضاً أقطار الشرق الإسلامي، تعتمد في اقتصادها على الاقتصاد الطبيعي على وجه الحصر، الذي يقترن باستخدام محدود جدًّا للنقد . فقد كانت العملات الإسلامية من الدنانير الذهبية، والهبيرون الذهبية البيزنطية والدرهم الفضة الإسلامية، وهي العملات التي كان يضرب معظمها من الذهب الخالص والفضة المخلوطة بعدان خسيرة، بتشابه الأدوات المستخدمة في التداول التجاري والتبادل التجاري العالمي، وتبني الصليبيون هذا النظام من الاقتصاد النقدي، لأنه لم يكن هناك اختيار آخر أسهل من هذا النظام في منطقة الشرق العربي .

وهكذا أدخل الصليبيون استخدام النقد حتى في نظامهم الاقتصادي . فقد كانت ضرائب السوق درسم البوابات ، والرسوم الجمركية في الموانئ ، والضرائب المدية التي تفرض على الضياع الحقيقة، وكذلك رسوم تجارة الصادرات ، تدفع نقدًّا وكان من الطبيعي أن يخصص السيد الاقتصادي بعض هذه الموارد المالية لأقصائه . وساد الاقتصاد النقدي، ووجد صغار الفرسان أنه من المناسب لهم أن يحصلوا على دخلهم الاقتصادي نقدًّا بدلاً من الحصول على اقطاع الأرض . وهكذا أصبح الاقطاع النقدي سمة سائدة في النظام الاقتصادي في المملكة الصليبية في بيت المقدس .

وكان لتطور النظام الاقتصادي الصليبي تأثير كبير على بنية المجتمع الغربي . ومقارنة هذا النظام الاقتصادي الصليبي بالنظام الاقتصادي الأوروبي الذي كان معاصرًّا له، نجد أن روابط التبعية في الاقطاع الصليبي اتسمت بالبساطة، بيد أنها في نفس الوقت تسببت في إحداث استقطاب سريع داخل طبقة النبلاء ، والواقع أن روابط التبعية الاقتصادية قد شطرت طبقة النبلاء إلى مجموعة من كبار النبلاء وكبار ملوك الأرض، وإلى عدد كبير من الأتباع من صغار الفرسان . ولم يكن صغار الفرسان في الغالب أكثر من أتباع وراثيين يتلقون مرتبات مالية . ولم نجد شيئاً يذكرنا بطبقة حاملة الدروع الأوروبية كثيرة العدد . وكان عدد قليل من أفراد هذه الطبقة يتلذون القرى، ونادرًا ما كان أفراد هذه الطبقة يعيشون في ضيعة ريفية كبيرة الحجم . ولم يكن أفراد هذه الطبقة على اتصال مع المناطق الريفية، الأمر الذي جعلهم

يحملون سمة شريف المدينة الرومانية في المدن. لقد كانت الأرض المقدسة منطقة متحضرة بشكل متزاً. فقد ورث الحكام المسلمين التقليد الهلنلسي والروماني والبيزنطي الخاص بتنظيم الوحدات الإدارية ومركزها في المدن ، والإقامة في المدن مركز الحكم ومقر السلطة ، ولم يجد الحكام المسلمين مبرراً لتغيير هذا النظام الإداري السابق. وتواهم الصليبيون مع هذه الحقائق وجعلوا نظامهم الاقطاعي يتواهم ويتكيف مع ظروف المنطقة التي يعيشون فيها . وبالإضافة إلى ذلك، فإن حكام المدن كانوا أيضاً يسطرون سيطرتهم على المناطق الريفية غير المحسنة. وكان تحصين المناطق الريفية في منطقة الشرق العربي ابتكاراً صليبياً إلى حد كبير، بيد أن هذه القلاع التي بناها الصليبيون بطريقة حديثة- حتى زصغر القلاع- كانت تحبس بتكلات حضرية من السكان أو كانت تحبط بأحياء محسنة ومن ثم أصبحت هذه القلاع بثابة مدينة جديدة.*.

ولم تعرف أوروبا مثل هذا النمط من الاستيطان في ذلك الوقت ، وبرزت شخصية الفارس الفرنجي أكثر ابتداءً . فقد كان فصلاً (تابعًا) اقطاعياً، يقسم بين الولا ، والتبعة الاقطاعية ، وبؤده لسيده الالتزامات الاقطاعية العادلة مثل المشورة وضربية الاعانة aid؛ بيد أن خزانة السيد الاقطاعي أو أى فرع من فروعها كانت تدفع له راتبه نقداً ، وأحياناً كان يحصل على جزء منه عيناً: في صورة قمح وشعير، وزيت ، وعلف للماشية. وعلى الرغم من أن الدفع العيني كان نجاح ذريعة أو حيلة ، فإنه كان يمارس في بعض الجيوش الإسلامية. وعلى سبيل المثال، فإن الدفع العيني كان نظاماً مألوفاً ومتداولاً كوسيلة من وسائل الدفع بين المالك في مصر في القرن الثالث عشر الميلادي، ولذا لم يكن مستحيلاً أن يتأثر الصليبيون بغير أنهم المسلمين.

ويمكن التأكيد بأن الملوك الصليبيين الأوائل للقطاعات، كانوا من محدثي النعمة. وعلاوة على ذلك، فإن هؤلاء الملوك الأول كانوا باستمرار عنصراً متغيراً لمدة تزيد عن جيل. فقد كان ملوك بيت المقدس ينحون اقطاعاً لشخص ثم بعد فترة ينحوه لشخص آخر وبعد سنوات قليلة يقول هذا القطاع مرة ثانية لملك بيت المقدس الصطيبي، لكي ينحه ويقطعه لأى سيد اقطاعي

* لمعرفة المزيد عن شكل المدينة الصليبية والتغيرات المعمارية والتخطيطية التي طرأة عليها والتي دخلها الصليبيون. انظر عبد الحافظ عبد الخالق البنا الأسواني في المناطق الصليبية في بلاد الشام ، (رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب ، جامعة الزقازيق ، ١٩٨٩).

آخر. وكان حدوث مثل هذا لا يعني أن قانون الوراثة قد أصبح موضوعاً للمناقشة والجدل. وبقدر ما نرى ، فإن «قانون الوراثة» قد وجود منذ البداية كتقليد وعرف شرع في أوروبا في القرن الحادى عشر الميلادى. وكانت بنية المجتمع الصليبي فى الفترة الباكرة هي السبب المباشر فى حدوث عمليات الاستيراث escheats الدائمة للاقطاعات، أى أليلولة هذه الاقطاعات للسلطة الملكية بعد وفاة صاحبها . فقد كان الكثير من النبلاء الذين انضموا إلى الحملة الصليبية الأولى من المتزوجين ، الذين تركوا عائلاتهم خلفهم في أوروبا . وكانت الغالية العظمى من الجموع الصليبية من الصبية ومن الفرسان حديث السن ومن الفرسان الكبار ، كما ضمت هذه الجموع أيضاً عدداً قليلاً من النساء . وقد تأكّد ذلك جيداً من خلال حالات التزاوج بين الصليبيين وبين السكان المحليين؛ وننبع عن هذا التزاوج جيل جديد عرف باسم البولان*. وكانت كلمة بولان Pullan الصليبية تعنى «الفتية» ، وأطلق هذا الاسم على الأبناء الذين يولدون نتيجة التزاوج المختلط بين الرجال الصليبيين وبين النساء الشوام ، وهذه الكلمة مشتقة من أبو لياس Apulia الواقع جنوب إيطاليا . وهكذا كان اسم بولان يطلق على الأبناء الذين يولدون من أب صليبي ومن أم من بلاد الشام ، فكانت أمهاتهم تلدّهم وتربّيهن ولم يختلف وضع هؤلاء الأمهات عن وضع نساء لاروشيل La Rochelle ولـى هاقر Le Havre اللاتي أرسلن إلى كندا في القرن السابع عشر الميلادي .

لقد كان غياب الروابط والالتزامات الأسرية السبب الرئيسي في عدم استقرار طبقة كبار النبلاء الحاكمة. وكانت وفاة أي نبيل صليبي تعني أن اقطاعه ومنطقته نفوذه أصبح شاغراً ، ونادرًا ما كان يوجد ولد أو قريب لهذا الفصل المتوفى يطالب بوراثة هذا القطاع. ولذا كان هذا القطاع الشاغر ترول وراثته إلى الناج الملكي ، وعندئذ يصبح الملك الصليبي حرّاً في أن يعيد منح هذا القطاع لأى فارس من أتباع الملك يكون جديراً بهذا القطاع. بيد أن هذا القطاع الذي كان يتركه صاحبه المتوفى كان في الغالب ينبع إلى أحد النازحين الصليبيين الجدد الذي يقرر الاستقرار والإقامة في منطقة الشرق.

* البولانى Pullan : تطلق كلمة بولان على هؤلاء الذين ولدوا في الأراضي المقدسة من الصليبيين ويرى دي فيترى أن سبب التسمية إما لأنهم من المواليد الجدد في هذه الأرض المقدسة مثلاً يحدث في حالة الفروخ الصغيرة التي تخرج إلى الحياة Pullets أو أن هذه التسمية ترجع إلى أن معظم أمهات هؤلاء البولان كانوا من مملكة أبوليا حيث تم استقدامهن إلى الأرض المقدسة وزواجهن بالصليبيين الذين استقروا بعد الحالة الأولى . (De vitry , the History of Jerusalem, p. 58)

وبعد جيل من تأسيس المملكة الصليبية أمكننا أن نتبين أصول ملاك الأقطاعات من الصليبيين بشكل أكثر وضوحاً عن ذى قبل وظهرت خلال هذه الفترة أيضاً عملية انتقال وراثة الأقطاعات بشكل منظم . وفي تلك الفترة أيضاً تأسست البيوتات والأسر الصليبية الحاكمة والتي عرفت باسم عائلات ما وراء البحار، والتي حظيت بالتمجيد والتقدير في الكتابات التاريخية والأسطورية والأدبية لما تتمتع به من فضيلة الفروسية والشجاعة والبسالة.

وعلى الرغم من ذلك، كان المجتمع الصليبي ما يزال هشاً غير متancock وغير مستقر . وكانت المشكلة الرئيسة التي أقامت مضجع هذا المجتمع تمثل في انتشاره المزمن للقوة البشرية المناسبة ، التي يحتاج إليها الوجود الصليبي بشكل ملح من أجل الدفاع عن المملكة وتوسيع حدودها . وكانت كل القوانين التي صورت وأعلنت في هذه الفترة الباكرة تعكس مجدهاً صليبياً كبيراً وواعياً من أجل جذب الفرسان الأوروبيين إلى المناطق الصليبية في بلاد الشام. فقد كانت القوانين الاقطاعية الباكرة تقضي بمنع اقطاع الشخص بعد وفاته لورثته المباشرين فقط ، ولكن بعد ذلك أصبحت الاقطاعات الجديدة تمنع للشخص وبعد وفاته تصير حتى لكل أقاربه المباشرين وغير المباشرين وساهم القانون الاقطاعي السابق في تقوية وتعزيز أساس الأسرة الحاكمة وفي نفس الوقت جعل الاستيطان الصليبي أكثر جاذبية. وأقر القانون الاقطاعي في المملكة الصليبية مبدأ حق أبناء الفصل المتوفر من الإناث في وراثة الأقطاع ، وهو القانون الذي لم تعرفه أوروبا كلها في تلك الفترة . بيد أن التشريع الملكي الصليبي استطاع كبح جماح النبلاء. فقد كان القانون الاقطاعي الصليبي الباكر يمنع تركيز ملكية الأقطاعات للعائز في منطقة واحدة فقط. فكان على حائز الأقطاع أن يتتجنب ويفادي عملية توريث أقطاعه لقريبه البعيد ولكن كان يجب عليه أن يورث أقطاعه لقريبه المعدم الذي لا يمتلك أرضاً . وكان مثل هذا التشريع يهتم بتوظيف الأرض والموارد المالية للمملكة الصليبية بأسلوب اقتصادي إلى حد بعيد . فقد شجع هذا التشريع عملية هجرة الأوروبيين إلى هذه المنطقة الصليبية والاستيطان فيها وذلك بأن كفل لهؤلاء الذين سيهاجرون في المستقبل حيازة الأملاك الاقطاعية .

وتحفيز نزعة المساواة التي كان يتضمنها التشريع الصليبي الباكر بشكل قوى في الربع الثاني من القرن الثاني عشر الميلادي. فقد أصبحت الأسرة الحاكمة أكثر قوة وذلك لأن أقطاعاتها كانت تنتقل إلى عائلات هذه البيوتات الحاكمة ، وأصبحت هذه الأسر الحاكمة أيضاً

أكثر ثراءً بفضل الاستقرار السياسي الذي عاشته المملكة اللاتينية بعض الوقت، ووُجد فائض الانتاج الزراعي طريقه إلى منافذ جديدة في المراكز والمدن التي استقر فيها الصليبيون حديثاً، وساهم عائد التجارة - وخاصة في المدن البحرية - في تقوية نفوذ طبقة النبلاء وأحدث طابعاً مختلفاً في العلاقات بين الملك الصليبي وبين النبلاء.

ولا نجافي الحقيقة إذا قلنا إن الربع الثاني من القرن الثاني عشر الميلادي هو بشارة فترة تشكلت فيها وخلالها طبقة كبار النبلاء. فقد ألغيت قوانين المساواة الصليبية الباكرة التي كانت تعارض تراكم الاقطاعات وتحميها في يد شخص واحد. ومن الآن فصاعداً ، تغير مستقبل وشكل سلوك طبقة كبار النبلاء، بسبب قانون وراثة وانتقال الاقطاعات والدوقات الاقطاعية. وأصبحت طبقة كبار النبلاء منغلقة على نفسها فقط لم يدخلها أحد. وكان أي نبيل صليبي يستطيع أن يكفل لأبنائه من الإناث (بناته) مركزاً اقتصادياً واجتماعياً مستقراً من خلال تزويجهن من رجال ذوى مرموق . وقد أدى هذا إلى خلق دائرة مغلقة من العائلات الغنية من ملاك الأرض، وهي العائلات التي ارتبطت فيما بينها بأواصر المصاهرة وروابط القرابة التي ترجع إلى الأسلام والأجداد . ويسبب التزاوج المتكرر بين هذه العائلات أصبح عدد أفرادها قليلاً *، في حين تنامت وكثرت ممتلكاتهم باستمرار .

وبنهاية فترة المملكة الصليبية الأولى لم يكن هناك أكثر من ست أو عشر عائلات تنتسب إلى طبقة كبار النبلاء. ووصلت طموحات وادعاءات أفراد هذه الطبقة إلى أرج ذروتها . فقد كانوا يتوقعون إلى وقف التدخل الملكي في إقام عقود الزواج وذلك من خلال اصرارهم على تأكيد أهمية موافقتهم على زواج وريثات الاقطاعات ، وكان الهدف من وراء ذلك منع عملية التزاوج غير المتكافئ mesalliances بين تلك الوراثات وبين أولئك الرجال والأزواج الذين يختارهم الملك. وفي تلك الفترة حدث تزاوج بين أفراد طبقة كبار النبلاء وبين الأسرة الملكية في بيت المقدس وفي النهاية تزوج أفراد طبقة النبلاء من البيت الحاكم في أرمينية ، ومن الأسر البيزنطية في القسطنطينية. وكان أي نبيل في المملكة اللاتينية في مدينة القدس يستطيع أن يكف عن التقدم والطموح اقتناعاً بثروات عائلته تلك العائلات التي ظهرت إلى الوجود من خلال جماعات الفرسان المغدورين والمفلسين الذين هاجروا إلى الشرق . وبعد جيلين استطاع

* يمكن تفسير مثل هذه الظاهرة في ضوء النتائج التي تترتب عن زواج الأقارب والأخطار الصحية التي تصاحبه. .
المترجم).

خلفاء طبقة النبلاء كبار النبلاء الادعاء بأنهم يعتبرون من أشهر العائلات المسيحية. ومثل هذا التمجيد الذاتي للفرد لم يكن معروفاً في تلك الفترة، وبذل بعض أفراد هذه الطبقة قصارى جهدهم لكي يمحو التذكر بأصولهم المتواضعة . ولم يستطع كل فرد من هذه الطبقة الادعاء بأنه ينحدر من أصل عريق مثل جودفري البويوني ، على الرغم من أن هذا الشخص كان يستطيع أن يتباهى ويشتارخ بوالديه اللذين ينحدران من نسب شارلماן. وحاول بعض أفراد هذه الطبقة على الأقل أن ينسبوا عائلاتهم إلى النبلاء الأوربيين وقت الحملة الصليبية الأولى.

وكانت أسرة ابلين Ibelin من أشهر العائلات الفرنجية النبيلة التي ظهرت في منطقة الشرق العربي. وعلى الرغم من أن تقاليد أسرة ابلين تعزو نسبهم إلى فيكونت مدينة شاتر، فإن هناك احتمالاً قوياً يؤكد أنهم ينحدرون من سلالة أحد التجار البيازنة ، أو من طبقة صغار الفرسان النورمان في صقلية، وهذا الرأي هو نتاج جدل ونقاش طويل قام به بعض الباحثين في العصر الحديث. وفي نهاية المملكة الصليبية الأولى وفي أثناء المملكة الصليبية الثانية في عكا حدث تزاوج وعلاقات مصاهرة بين أسرة ابلين وبين كل العائلات النبيلة التي تشمل الأسرة الحاكمة في أنطاكية وطرابلس، والعائلة الملكية في بيت المقدس وأسرة لوزجنان الحاكمة في قبرص.

وكان انغلاق دائرة طبقة كبار النبلاء وانتصارها عليهم فقط يؤدى في الغالب إلى التصادم مع السياسات الملكية الصليبية ولم تكن دائماً تخدمصالح العام. ولما كان الجبل الأول وبعض فترة الجيل الثاني من طبقة النبلاء الفرنجية يستقبل بالترحاب أولئك القادمين الجدد من الأوربيين إلى المناطق الصليبية بشكل تلقائي، فإنه بحلول منتصف القرن الثاني عشر الميلادي طرأ تحول وتغير في موقفهم هذا . ففي هذه الفترة تغيرت نظرية أفراد طبقة النبلاء الفرنجية تجاه القادمين الجدد من الأوربيين، واعتبروهم منافسين لهم، ومتطفلين. وتجلى هذا الموقف العدائي تجاه القادمين الجدد في وقوف النبلاء الفرنجية المحليين في وجه ثيري الفلاندرز Thierry of flander الذي قام بأربع رحلات حج إلى الأرض المقدسة وجد مثل هذه المعارضة والتنور، حيث فضل هؤلاء النبلاء المحليون التفاوض مع المسلمين المحاصرين في شيزر وفك هذا الحصار في عام ١١٥٧م لكنى لا يروا مدينة شيزر تخضع لسيطرة أحد القادمين الأوربيين الجدد.

ولاشك أن مثل هذه المواقف المتطرفة للنبلاء الصليبيين المحليين أحياناً كانت تتعارض مع خفقان قلب بعض الوراثيات الصليبيات ، وتمثلت هذه المواقف المتطرفة في حالة الفارس المفلس

رينو شاتيون Renaud de Chatillon (القريبة من باريس) الذي جاء إلى الأرض المقدسة في صحبة حاشية الملك الفرنسي لويس السابع. فقد قرر رينو دي شاتيون (أرنانط) أن يمكث في الأرض المقدسة بعد العودة المتھورة والسرعة لسيده الملك الفرنسي، الذي أخفق في حصاره لمدينة دمشق بسبب خيانة وغدر الفرنجة المحليين ويسبب تلك الشكوك التي ساورته حول الانحراف الأخلاقي والخيانة الزوجية من جانب زوجته الشهيرة اليانور من إكيوتين Eleanor of Aquitaine.

والتتحقق رينو دي شاتيون (أرنانط) ذلك الفارس الشاب الأثيق بالمجموعة الأساسية الذي تنافس أفرادها من أجل الزواج بأرملية حاكم أنطاكية. وتفوق ذلك الشاب المغامر على كل منافسيه وظفر بحب وقلب هذه الأميرة بسبب جمال وسحر مُحِيَّاه، بيد أن موافقة الملك الصليبي على اقام مثل هذا الزواج كانت ما تزال ذات أهمية وضرورة وترك رينو دي شاتيون حصار قلب تلك الأرملية وكسب فؤادها لكي يحاصر مدينة عسقلان في عام (١١٥٣م) ولكي يلاقى ملك بيت المقدس الصليبي على غير توقع. فقد خشي رينو دي شاتيون الشائعات الشائنة والكريهة التي أطلقت على تلك الأميرة الفتاة ، وكانت الأميرة سعيدة لاتمام مثل هذا الزواج منه. وكان اختيار الأميرة موفقاً ومتزاماً . فقد نجح رينو دي شاتيون في الدفاع عن إمارته ونشر الهمج والخوف في قلوب جيرانه من المسلمين. ولكن سوء حظه العاشر ساقه إلى غياه السجن والأسر مدة أربعة عشر عاماً في أحد السجون في حلب وذلك بعد أن قبض عليه المسلمون في كمين نصب له، وخلال فترة الأسر استطاع رينو دي شاتيون تعلم اللغة العربية واللغة التركية وأتقنهما حديثاً وكتابة . وعندما تحرر من الأسر وجد نفسه أرملاً قد ماتت زوجته ووجد إمارته تحت حكم ابن زوجته من زوجها الأول. ورغم ذلك كانت هناك ممتلكات جديدة قريبة المنال وهيكن الحصول عليها. فقد توفى الحاكم الصليبي لمنطقة ما وراء نهر الأردن تاركاً وريثة أثني هى ابنته اشيف دي ميللي Eschive de Milly وعلى الفور تقدم رينو دي شاتيون للزواج من هذه الوريثة ودفع الدوحة المناسبة ، وبعد عدة سنوات حاول رينو دي شاتيون احتلال مكة والمدينة بمساعدة أعيانه وأصدقائه من البدو. فقد بني السفن في قلعة مونتيروال في منطقة ما وراء نهر الأردن ، ونقلها تدريجياً إلى العقبة وانطلق بهاذا الأسطول في البحر الأحمر، يزرع الرعب في قلوب حكام القاهرة وحكام جهة في محاولة للابحار إلى مضيق باب المندب لكي يصل إلى الطريق التجاري المؤدي إلى بلاد الهند. بيد أن هذا المغامر الصليبي قد لقى حتفه على يد صلاح الدين الأيوبي الذي أطاح رأسه بالسيف .

لقد كانت قصص المغامرات الصليبية الحقيقة مثل قصة المغامر رينو دي شاتيون تحكى حول القلاع الأوروبية على أسماء الناس لكي تثير خيال وتلهب عاطفة صغار الفرسان ، و يجعلهم يتعلمون بالذهاب إلى الأرض المقدسة الموعودة في فلسطين . ومن سوء الحظ أن الواقع كان مختلفاً عن الحلم ، إذ نقص عدد الوريثات ، وتزوجن من النبلاء المحليين، وأرادت طبقة النبلاء المحليين تزويج أحد أفرادها وهو بدلوين من رام الله من سيبيلا Cibylle وريثة العرش الملكي (بعد وفاة أخيها بدلوين الرابع الذي لم ينجُب أطفالاً) . وتزوجت سيبيلا من من أحد القادة في الجند الأوروبيين وهو وليام Longsword William وبعد وفاته تزوجت من جائ لوزجنان Guy de Lusignan الشجاع (ومن سوء الحظ كان هذا الزوج يفتقر إلى الحنكة السياسية والعسكرية) . وهكذا انتزعت أثمن هدية من يد النبلاء المحليين . وأشار هذا استيا وسخط واحد من أقوى أعضائهم الشجعان هو ريموند من طرابلس Raymond of Tripoli (سيد الجليل عن طريق الزواج) ، وأسفر هذا الحدث عن الحق التفكك والانقسام في وحدة المملكة الصليبية عشية موقعة حطين الشهيرة.

وأستطيع كبار الأعيان من النبلاء أن يجمعوا بين امتلاك الأقطاعات وبين تولي الوظائف في الإدارة الملكية الصليبية، واحتكروا السلطة الحقيقة في المملكة اللاتينية ، في الوقت الذي ضعفت فيه السلطة الملكية وأصبحت ظلاماً مجده غابر. ووفقاً للنظرية الاجتماعية في العصر الوسطي، كان كل الأعيان وكل الفرسان ينتسبون إلى طبقة النبلاء . وكان معدل ثراء الفارس أقل من معدل ثراء التاجر في أي مدينة من المدن البحرية، بيد أن الفوارق الطبقية كانت أكثر وضوحاً وكان من العسير الانتقال إلى طبقة عليا فقد كان الحراك الطبقي الاجتماعي بطيناً للغاية. وتقىز صغار الفرسان المفلسين الذين ينتسبون إلى طبقة النبلاء بنظام تربية مختلف وغطّ حياة وأفكار مختلفة أيضاً . وقد اعتبرهم القانون والتشريع الملكي الصليبي من طبقة النبلاء . على الرغم من أنهم كانوا يمثلون أحدى شرائح طبقة النبلاء ، ولم يكن هناك تجانس بين هذه الشرائح الثلاث لطبقة النبلاء ، وهي الطبقة التي انقسمت إلى ثلاث شرائح: الأعيان (الرجال الأغنياء) ، والبارونات ، وصغرى الفرسان Lesser knights ، ولم يكن هناك تمايز طبقي أو قانوني بين هذه الشرائح الثلاث التي انقسمت إليها طبقة النبلاء.

وعلى الرغم من مواطن الضعف في المصادر التاريخية ، فإنه يمكن تكوين صورة واضحة لهذه الطبقة. فقد كان في مقدور المملكة اللاتينية وحدها أن تجند جيشاً (من غير قوات

الهيئات الدينية العسكرية وقوات المرتزقة) يقدر بستمائة فارس. ففي الاشتباكات والمعارك الصغيرة التي ذكرتها المصادر التاريخية نادرًا ما كان يصل عدد المعارضين المشتركين إلى أكثر من هذا العدد الضخم وحتى في أكثر المغامرات والمحروbs العسكرية مثل هجوم الملك الصليبي عموري الأول على مصر لم يصل عدد المعارضين في هذه المعركة إلى أكثر من ثلاثة مائة فارس (وهو العدد الذي ذكرته احدى المصادر التاريخية المعاصرة).

وفي العادة كان صغار الفرسان يعيشون في المدينة، حيث كانوا يعملون إما أعضاءً وأفراداً في الحامية العسكرية لهذه المدينة أو كانوا ضمن الحاشية التي تعمل يومياً لدى حاكم المدينة، وفي كل الاحتمالات كان الفرسان يتناوبون العمل في مهام الحامية العسكرية في القلعة أو في أحد القلاع الصغيرة التي كانت تقع على امتداد كل الطرق الرئيسية للملكة اللاتينية. وكانت الحamiات العسكرية توجد في القلاع الكبيرة والأمامية مثل قلاع منطقة ما وراء نهر الأردن تؤدي مهام الحراسة المسلحة بلا انقطاع.

وكما كان الوضع في كل النظم الاقطاعية فإن الفارس اعتمد على سيده الاقطاعي بشكل مباشر. بيد أنه في المملكة اللاتينية، ولأسباب سوف نفسرها ونذكرها، كان هذا السيد الاقطاعي هو الحاكم الأعلى المطلق للمدينة التي كانت عاصمة لامارته ومنطقة نفوذه (الدومين) دون أي شركاء أو وسطاء . وتسبب هذا في تقوية الرابطة بين السيد وبين فصله، وأصبحت هذه الرابطة الاقطاعية أكثر قوة وقادسًا . وتأكدت روابط التبعية الاقطاعية من خلالحقيقة أن مثل هذا الفارس كان تحت الإشراف المباشر لسيده، وبالإضافة إلى ذلك ، فإن هذا الفارس كان يعتمد في حياته على الاقطاع التقدي دون أن يمتلك أرضاً زراعية ، ونادرًا ما كان مثل هذا الفارس يمثل نموذجاً للنبييل الأوربي الذي حده المؤرخ الاقتصادي الشهير مارك بللوك بأنه كان يمتلك حق القيادة "The Right to command" . والحقيقة أن المجموعة الصغيرة من الفرسان كانت في وضع أفضل. فقد كان النبييل الذي يؤدى خدمة عسكرية للملك الصليبي تقدر بسبعة فرسان يعتبر من كبار النبيلاه المرموقين . وكان النبييل الذي يعمل في حاشية الملك الصليبي مثل فيليب دي نوفار Phillip de Novare الشهير (الذي عاش في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي) والذي كان يلازم أسرة ابلين صاحبة التنفيذ والسيادة في المملكة اللاتينية قد أصبح ذا نفوذ في هذه المملكة اللاتينية. فقد عمل فيليب دي نوفار في وظائف عديدة، فعمل كاتباً ، وشاعراً ، ومحامياً ، ومستشاراً ، و وسيطاً ، وكان مولده ذات

الأصل الاقطاعي السبب فى أنه تقع بمكانة سامية لدى أسرة ابلين ولدى الأسرة الملكية ، التي سددت عنه ديونه ، وكفلت له دخلاً وفيراً مناسباً.

وما يذكر أن عدداً قليلاً من الفرسان هم الذين وصلوا إلى هذه المكانة وهذا الروضه الرافقى. كانت الأغلبية الساحقة من الفرسان وخاصة صغار الفرسان المحاربين تتلقاضى مرتبات مالية. وكان الاقطاع العادى، سواء كان اقطاع أرض أو اقطاع نقدى يدر على صاحبه ايراداً مالياً يتراوح ما بين ٤٥ - ٥٠٠ بيزنط ذهبي، وهو ايراد معقول يعادل ايراد قرية في العام. فقد كان الفارس في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي ينفق بيزنطاً واحداً يومياً. وكان هذا يعني أن الأجر السنوى للفارس يكاد يكفى بالكاد توفير حياة ناعمة له، ولكننى إذا كان متزوجاً ويعول أسرة فإن هذا الدخل كان يكفى لاعاشة وحياة عادية للفارس وأسرته. ولاشك أن هذا الدخل البسيط نسبياً كان يحتم على الفارس الاعتماد على سيده المباشر.

بـ طبقة البرجوازية : Bourgesses

كانت الطبقة الأدنى من طبقة النبلاء، والتي كانت قتلها طبقة العامة من الصليبيين تشكل طبقة اجتماعية سائدة. فإذا كان المحاربون الراكبون (الفرسان) في الحملة الصليبية الأولى يمثلون نواة لطبقة الفرسان فإن المحاربين المشاة من غير النبلاء كانوا نواة للمستوطنين الصليبيين الذين سوف يستقرون في منطقة الشرق العربي في المستقبل. ونظراً لاختلاف عناصرهم العرقية (الاثنية) ، فإنهم اتبعوا أبناء بارونياتهم واستقروا مع قادتهم .

لقد كان استخدام الصليبيين لمصطلح البرجوازية Burgesses واطلاق هذا الاسم على طبقة العامة من الفرنجة أمراً مضللاً للغاية. فقد كان أى فرنجي من غير النبلاء ومن غير أبناء القوميونات الإيطالية يعتبر من البرجوازية هذا الاسم الذي انتشر في المصادر العربية المعاصرة آنذاك. وبإضافة إلى ذلك فإن أفراد هذه الطبقة (البرجوازية) كانوا قليلاً ما يدعون أنهم ينحدرون من أصول حضرية . ففي نهاية القرن الحادى عشر الميلادى لم يكن في أوروبا سوى عدد قليل من المدن صغيرة الحجم وقليلة السكان. وفضلاً عن ذلك ، فإن هذه المدن استمرت في الوجود وازداد عدد سكانها بسبب الهجرة المستمرة من المناطق الريفية. واستمرت هذه العملية من الهجرة الداخلية من الريف إلى المدن طوال فترة الوجود الصليبي في منطقة الشرق العربي والتي استمرت ما يقرب من قرنين من الزمان. ومع بعض الاستثناءات فإن هذه الهجرة

قد زودت المدن بمنافذ من السكان يمكن استخدامه كاحتياطي ومخزن بشري لعملية الهجرة إلى منطقة ما وراء البحار.

وهكذا فإن الأغلبية العظمى من طبقة العامة الفرنسية كانت من أصول ريفية من الفلاحين من شمال فرنسا، ومن ألمانيا، ومن إيطاليا. وربما شاركت بعض العناصر السكانية الحضرية من جنوب فرنسا في أحاديث الحملة الصليبية الأولى، وهي المنطقة التي كانت ما تزال تشهد بعض مظاهر الحياة الحضرية في الفترة الباكرة من العصور الوسطى. وكان هذا الوضع الحضري يشبه حالة منطقة مدن شمال إيطاليا ، بيد أن الإيطاليين كانوا ينتسبون إلى القوميون وليس إلى البرجوازية . ويبدو أن الهجرة الأوروبية المتأخرة في أثناء القرن الثاني عشر الميلادي لم تغير نمطها وشكلها الرئيسي. فقد ساهمت الزيادة السكانية الكبيرة في المناطق الريفية في أوروبا في القرن الحادى عشر الميلادي في إمداد المراكز الحضرية والمدن بعدد كبير من هؤلاء السكان الذين استقروا في هذه المراكز الحضرية، كما وفرت هذه الزيادة السكانية القوة البشرية الضرورية للقيام بهمة إزالة الغابات ، وتجفيف المستنقعات ، وإقامة عدد قليل من القرى خلال القرن الثاني عشر الميلادي . فقد كانت الحروب الصليبية والهجرة الأوروبية صوب الشرق متৎفساً ومنفذًا إضافيًّا لتصرف الزيادة السكانية في أوروبا في ذلك الوقت.

فلم يكن الفلاح الذي التحق بالحملة الصليبية يترك خلفه أرضه فقط، بل كان يترك وراءه أيضًا قيود وأصفاد العبودية والقنية. ولم يكن في مقدور سيده الاقطاعي أن يحول بينه وبين المشاركة في هذه الحرب ومجادرة القرية ولم يفرض على الجموع الصليبية المشاركة تأدبة أي نوع من التزامات وواجبات التبعية الاقطاعية لسادتهم. ويجبر اتفاق ضمني ويوجب العرف الذي أصبح قانونًا، اعتبر كل المشاركون في الحروب الصليبية من الرجال الأحرار. وسوف يؤدي إلى أن الحرية التي منحت لهؤلاء المشاركون الصليبيين حالاً لم تفقد وقت الاستيطان فالقون السابق أصبح الآن حراً لم يتقييد بأية روابط اقطاعية بأي سيد اقطاعي. وبالحظ استطاع الحصول على بعض الممتلكات في المدينة أو في أية منطقة ريفية مجاورة ومحيطة بها. وأصبح القادة من الجدد من الصليبيين والذين جاءوا متأخرين والقليلي المخط مستأجرين، بيد أن روابط العبودية ، والتبعية التي تربط الرجل بالأرض أو تفرض عليه تأدبة الالتزامات الاقطاعية والتي تتعارض مع وضعه باعتباره حرًا لم يعاد تشريعها . وكان ما تزال هناك التزامات عامة فقد كان الرجل الحر مسؤولاً عن تأدبة خدمة عسكرية حيث كان هناك ضريبة تسمى ضريبة

الصوبان alevee en masse . ولم تشمل هذه الضريبة فقط المشاركة في الدفاع عن هذه المدينة، بل كانت تشمل أيضاً المشاركة في الحملات العسكرية ولاسيما عندما يحدق الخطر بالملكة الصليبية. ومن ناحية أخرى، فإن الرجل الحر لم يكن مرتبطًا بالسيد الأعلى للمدينة برابطة أو علاقة اقطاعية . ولم يكن مدينتا بتادية خدمة عسكرية ما لم يبني هذا الالتزام على أساس اتفاق خاص بين الاثنين. فعلى سبيل المثال، كان الاتفاق المشروط يتضمن هذه الضريبة (ضريبة الصوبان) في شكل خدمة عسكرية Serviens- Serjants مقابل دفع مبلغ مالي متفق عليه سلفاً ومشروط . وهكذا ساهم وضع طبقة العامة من الفريجية في المملكة اللاتينية التي تم تأسيسها حديثاً في إحداث التغيير في الوضع القانوني والاقتصادي لهؤلاء العامة. وعلى الرغم من أنهم ليسوا من النبلاء ، ويتنمون إلى الغزاة الصليبيين والحكام ، فإنهم كانوا يتغذون مكانة على جموع الوطنيين المقهورين.

والواقع أن الدلالة الطبقية لكلمة «البرجوازية» Burgesses محيرة ومريبة إلى أقصى حد. ومن المحتمل أن هذه التسمية «البرجوازية» التي كانت تحمل محل الجندي المشاة "Foot soldier" في العقد الأول من عمر المملكة الصليبية. كانت قد أطلقت على هذه الطبقة في أوروبا. وكانت «البرجوازية» اسمًا جديداً ، وفي الشرق اللاتيني كانت هذه الكلمة تطلق على هؤلاء الأفراد الذين لا يتنمون إلى طبقة النبلاء ولم يكونوا أقناناً Serfs . واستطاعت كلمة برجوازية أن تصف وضع هؤلاء الأفراد، بيد أن هذه الكلمة «برجوازية» في أوروبا كانت مشتقة من الكلمة البرج Bourg أو الضاحية Suburb ، وهي الأبراج التي كانت تنتشر بالقرب من الأماكن المصننة في المناطق الجديدة التي احتلها الصليبيون في الشرق العربي، ولا يمكن تأصيل الكلمة «برجوازي» في ضوء العلاقة بينها وبين البرج أو الأسوار، بيد أنها ببساطة كانت تتضمن الوضع الاجتماعي الجديد والحر لل المستوطنين الصليبيين. وكان النظام النموذجي والمثالي لامتلاك أرض في المدينة، أو نموذج مستأجر الضاحية المسورة شائعاً في الغرب الأوروبي، ومن المحتمل أن هذا النظام قد ترك تأثيره على استخدام الكلمة برجوازي. وحقيقة الأمر أن الأموال الفعلية لطبقة العامة الفريجية كانت تعتبر أملاكاً برجوازية وكان يحظر على النبلاء ورجال الدين امتلاك مثل هذه الأموال البرجوازية . وظللت هذه الأموال امتيازاً وحكيماً قاصراً على طبقة البرجوازية الجديدة. ومع التوسع المهم في استخدام مثل هذا الحق، أصبح البرجوازيون يمتلكون الممتلكات من الأراضي الزراعية، ومعظم القرى، ولم تكن هذه الظاهرة معروفة، أو حتى على الأقل كانت حالة استثنائية جداً في الغرب الأوروبي. فقد

كان وضع الرجل ومكانته يتحدد من خلال حالة ووضع أملاكه البرجوازية . ففي العصر الوسطى كانت الأموال البرجوازية تصل إلى درجة الملكية الكاملة . وبصرف النظر عن الخدمة العسكرية ، كان دفع الإيجار الاسمي والضئيل لسيد المدينة هو الالتزام الفعلى فقط الواقع على عاتق البرجوازي . وكان البرجوازي يتمتع بحرية بيع أملاكه للغير ، أو تأجيرها ، أو تقسيمها ، أو استبدالها بأخرى . ومقابل هذه الحرية كان عليه أن يدفع بعض المبالغ الرمزية البسيطة للسيد الاقطاعي ، وهذا يذكرنا بالاتفاق والشرط الاقطاعي الذي فرض على بعض الأجيال الباكرة في أوروبا لدفع مثل هذا المبلغ للسيد الاقطاعي مقابل تحويل ملكية مثل هذه الممتلكات البرجوازية . وكانت ما تزال توجد بعض القيود والقوانين القديمة الخاصة بالمحافظة على حقوق الأقارب ، وهو قانون الحق الذي عرف باسم قانون حق الشفعة أو الأولوية في شراء هذه الممتلكات البرجوازية . وقد ثبت في بعض الأحيان أن هذه القوانين المقيدة للملكية وحرية التصرف فيها قد ألحقت الضرر والخسارة بالاقتصاد المتتطور لأوروبا . وهذا يفسر حقيقة أن مثل هذه القوانين المقيدة التي ترجع إلى عصر تقييد حقوق الملكية ، والتي كانت تعرف باسم قانون «حق الشفعة» أو تحديد النسب *retrait Lignage** ظلت سارية المفعول ، وقد اختصرت مدة فاعلية هذا القانون على نحو فريد في المملكة اللاتينية . ففي أوروبا العصور الوسطى كان أي شخص من أقاربه البائع له الحق في استخدام قانون حق الشفعة خلال سنة ويوم بعد تحرير عقد بيع الممتلكات وذلك من أجل استرداد هذا الجزء المباع من الأرض الزراعية ، وكان على هذا القريب دفع ثمن الشراء للمشتري ، وهكذا أصبح فسخ عقد البيع أو التخلص عن الوضع القانوني للأموال أمراً غير مستقر وغير مؤكد لفترة طويلة . ففي المملكة اللاتينية كان ادعاء حق الشفعة ساري المفعول لمدة لا تزيد عن أسبوع بعد إعلان عملية البيع . وهكذا فإن الحرية العامة وتأثير الأوضاع الاقتصادية كانت تتبع إلى حرية الممتلكات بشكل كامل وتتطلب مثل هذه المرونة في هذا الصدد .

ومنذ البداية تقريراً كان البرجوازية يخضعون لسيادة القانون العرفي ، وكان هذا القانون ملائماً للتطبيق عليهم وعلى ممتلكاتهم . وكان انتقام واحكام صياغة هذا القانون أمراً ممتعاً في حد ذاته . فقد كان المشاركون في الحملة الصليبية الأولى ، وما تلاها من موجات الهجرة من

* للوقوف على تفاصيل قانون حق الشفعة انظر : Lopping, the Assizes of Romania, p. 199.

أوريا إلى منطقة الشرق العربي من أصول متفايرة ومن أوطان مختلفة أيضاً. وقد بنيت أفكارهم القانونية على أساس القانون السائد في أوطانهم وعلى أساس أصلهم الاجتماعي. وفي العادة كان هذا يعني أن قانون الصناعة الذي كان سائداً في شمال فرنسا كان هو الأساس الذي بني عليه أفكارهم القانونية . ويرجع سبب عدم تطبيق الصليبيين نظام القانون الشخصي The System of Personal Law إلى أن هذا القانون كان تقريباً معطلًا مؤقتاً في الغرب الأوروبي في القرن الحادى عشر الميلادى ، وباتت مسألة صياغة قانون محلى لكل البرجوازيين حقيقة أساسية وملحة. وقلما كان قانون الضيافة يناسب الواقع الاجتماعى والاقتصادى الجديد للصليبيين. فلم يستطع الایقاع البطيء لحياة الضيافة أن يزود المجتمع الصليبي الجديد بالأدوات القانونية من أجل تحقيق اقتصاد مدنى متتطور. فقد كان السكان المحليون ، المسلمين، المسيحيون ، واليهود يستخدمون النظام القانونى الإسلامى (القضاء الإسلامى) والنظام القانونى البيزنطى السابق. ومن الواضح أن الصليبيين قد طبقوا القوانين السائدة فى جنوب فرنسا ، وهى المنطقة التى استمرت تحافظ على حياة المدينة التى ترجع إلى الفترة المتأخرة من الامبراطورية الرومانية. وكان هناك شكل من القانون الرومانى، هذا القانون الذى تم تعديله بموجب العرف المحلى، وكان سارى المفعول حتى الاحياء القانون الرومانى فى القرن الثانى عشر الميلادى. وتلامم هذا القانون مع المعطيات الاقتصادية الجديدة للملكة اللاتينية فى بيت المقدس. وبالإضافة إلى ذلك، فإن هذا القانون لم يكن مألوفاً لدى أبناء القوميات الإيطالية أو لدى السكان المحليين الوطنين. ومن سوء الحظ، لم نعرف القوانين الأصلية البرجوازية (الآسيز البرجوازية) فقد كان مؤلف ومصنف مجموعة القوانين والإجراءات المتبعة فى المحكمة البرجوازية فى القرن الثالث عشر الميلادى (وهي المجموعة القانونية التى عرفت باسم كتاب القوانين البرجوازية Livre des Assises des Bourgeois) يستخدم النموذج القانونى للقوانين البروفنسالية . وكان يضاف إلى القانون الرومانى التشريع الملكى المتعلق بالبرجوازية، وقد حفظت لنا هذه القوانين فى مجموعة القوانين البرجوازية التى ذكرناها آنفاً.

وكان النمط المألوف للأملاك البرجوازية يتمثل فى الضيافة الحقيقة المجاورة للمدينة، وكانت عبارة عن منزل مزود بحوش ، وبشر، وحديقة، ومزرعة كروم، ويستان أو حديقة حضروات بالقرب من المدينة، أو حتى داخل الأسوار. وحصل بعض البرجوازيين على ثرواتهم وأملاكهم فى وقت مبكر من تاريخ المملكة اللاتينية. فقد أعطى قانون الغزو-*Law of con-guest* الذى ذكرناه من قبل لعدد كبير من البرجوازية حرية الحصول على الممتلكات الحقيقة.

فلم تكن المشكلة التي عطلت عجلة تطور المملكة اللاتينية في طورها الباكر تنحصر في نقص أراضي المدن، وإنما كانت المشكلة الرئيسية تمثل في نقص القوى البشرية. وعلى سبيل المثال ، كان عدد سكان مدينة القدس في أثناء فترة الغزو الصليبي يبلغ عشرين ألف نسمة، ومع ذلك، نقص هذا العدد بعد عدة سنوات تالية إلى بضعة مئات فقط*. فقد كانت المنازل الخاوية من السكان في هذه المدينة تنبع من بنائها وتبعد عن ساكنيها ، وتركز السكان الصليبيون الجدد في مدينة القدس في المنطقة التي تحيط بالضريح المقدس خوفاً من خطر الاقامة في حي منعزل من المدينة . ونال بعض البرجوازيين المغامرين أيضاً ممتلكات خارج المدن، تصل إلى قرى كاملة. وقد شوهدت مثل هذه الحالات بالقرب من مدينة القدس. وأيضاً بالقرب من مدينة عكا. وكان ظهور مجموعة غنية من البرجوازيين يؤكّد حقيقة استيطانهم الباكر في المملكة اللاتينية. وتسلق البعض الآخر من البرجوازية درجات السلم الاجتماعي عبر مسالك مختلفة. لقد تسبّبت المروءة الصليبية الطويلة وتدفق موجات عديدة من المهاجرين الأوروبيين إلى منطقة الشرق العربي في احداث عملية الحراك الاجتماعي. فالفرسان الذين فقدوا خيولهم في الحرب، أو نفقت خيولهم وهلكت بسبب الجوع والعطش أصبح جميعهم أمام العيان فرساناً مشاة . وتلاشت الاختلافات والفرق الظاهري بين الفارس وبين أحد العامة . فقد ساهمت غنائم الحرب السخية وقانونها المزمن خلال العقد الأول من فترة الوجود الصليبي في التغلب على حواجز التمايز الطبقي . وهكذا فاننا نستطيع أن نحدد هوية بعض الأفراد الذين ينحدرون من الأصول البرجوازية الباكرة والذين ظهروا فجأة في الوثائق يحملون لقب الفرسان الجيد.

وببطء ظهرت طبقة شبه أرستقراطية من بين البرجوازية . بيد أن أفراد هذه الطبقة نادراً ما كانوا يتباهون بثرותهم الخرافيّة الضخمة ، أو أنهم نشأوا من طبقة عليا من البرجوازية . وكان أبناء القوميات التجارية الأوروبية الذين استقرّوا في المناطق الصليبية والذين تعمّوا بالامتيازات السخية هم الذين سيطروا على معظم الموارد المالية الربحية للمدينة . ومن ثم وبغض النظر عن اكتساب الأموال والممتلكات ، فإن البرجوازية نهضوا بأعمال بارزة في

* تناقص عدد سكان مدينة القدس بعد الغزو الصليبي لها في عام ١٠٩٩ م بسبب المذابح الجماعية التي اقترفتها أيدي المقاتلين الصليبيين ضد سكان هذه المدينة من مسلمين ومسيحيين ويهود ، وفرار أعداد كبيرة من السكان انقاذاً لحياتهم (المترجم) .

الادارة الصليبية ، او الاقطاعية ، او في وظائف الادارة الكنسية. ومن وقت لآخر لمجد بعض أفراد طبقة البرجوازية يوقعون ويعتمدون الوثائق الملكية او الكنسية ، تلك الوثائق التي كانت تتعلق بأمور الحياة اليومية ، او حتى التي كانت ذات مضمون ومحظوظ سياسياً. وبشكل تدريجي تقريباً تقلد بعض أفراد الطبقة الارستقراطية مناصب القضاة ، وأصبحوا أعضاءً في المحكمة البرجوازية ، وكان هؤلاء القضاة يحتلوا أعلى رتبة ومكانة في هيكلية هذه الطبقة البرجوازية. وأدت المشاركة المستمرة للبرجوازيين في وظائف الادارة والقضاء إلى خلق مجموعة من المشرعين القانونيين من بين طبقة البرجوازية، هؤلاء المشرعين الذين ذاعت شهرتهم ، والذين كان يتم استشارتهم في المسائل الخاصة بالقانون الاقطاعي . وكان يتم استدعاؤهم للحضور إلى المحكمة الاقطاعية، وكذلك إلى المحكمة الملكية التي كانت تعتبر أعلى محكمة في المملكة اللاتينية. وكان يتم استدعاًء بعض القضاة من البرجوازيين للقيام بخدمة خاصة ، ولاسيما عندما تقتضي الضرورة ذلك . فقد تحمل باليان الإبليني Balian d'Ibelin مسؤولية الدفاع عن مدينة بيت المقدس في أثناء حصار صلاح الدين لها ، وقد اختار مجموعة من الفرسان الصغار من البرجوازية الذين قام باعدادهم فرساناً ويعكس هذه الحالة الفريدة في ضوء خطر المسلمين المستمر على الوجود الصليبي في المنطقة العربية.

واستطاعت مجموعة مختارة واحدة فقط من البرجوازية واستطاعت ارتقاء مثل هذه المكانة الاجتماعية الراقية. ويفيتنا فإن الأغلبية العظمى من طبقة البرجوازية قد قتلت بمكانة اجتماعية عليا إذا ما قورنت بأصولهم. فقد كانت منازلهم المشيدة من الأحجار أرقى إذا ما قورنت بأكواخ الفلاحين الفقيرة البائسة في الغرب الأوروبي ، وكان طعامهم مختلفاً ومتعدد الأصناف ، وملابسهم أجمل لباس ، وأحياناً كانوا يرتدون ملابس حريرية . وبالرغم من ذلك ، فإن وضعهم في المجتمع الصليبي بشكل عام غير مبرر.

كانت طبقة البرجوازية تشكل حجماً كبيراً من سكان المدن في المملكة اللاتينية ، على الرغم من أن السكان البرجوازيين في مدینتي طرابلس وأنطاكية - باستثناء مدينة الرها - كانوا أقل عدداً من المسيحيين المحليين. وعمل البرجوازيون في كل المهن والحرف الخضرية ، فقد عملوا جزارين ، وصانعى أحذية ، ونجارين ، وخياطين ، وصائفيين ، وصانعى تروس وأسلحة. كما عملوا في دباغة الجلود ، وعملوا كخبازين ، وصانعى خمور brewers ، وطهاة (وهي مهنة جديدة ذات ضرورة ملحة في المدن التي شهدت تدفق أعداد كبيرة من الرجال غير المتزوجين

والمجاج)، وحلاقين barber ، وبائعى بهارات وعطور . وكان عدد كبير منهم من أصحاب المحلات التجارية يعيشون ويعملون فى حجرات صغيرة وهى الدكاكين التى كانت تقع فى مدخل الشارع مباشرة . وامتلك بعض البرجوازيين دكاكين خاصة بهم ، فى حين كان البعض الآخر منهم يستأجر الدكاكين من صاحب المدينة سوا ، كان الملك أو الكنيسة أو الديار . ففى سوق مدينة بيت المقدس يشاهد المرء بعض الدكاكين التى نقش على جدرانها الجروف Sc A. ANNE ، وهذا يشير إلى أن هذه الدكاكين كانت من أملاك كنيسة القديسة هنا . وكانت هذه الكنيسة تؤجر الدكاكين للبرجوازيين اللاتين ، ومن ناحية أخرى ، كان يوجد من بين طبقة البرجوازية بعض كبار التجار . وكان ذلك أمراً غريباً في المملكة اللاتينية ، حيث كانت التجارة الواسعة تتركز في أيدي أبناء الكوميونات الإيطالية والأوروبية الجنوبية صاحبة الامتيازات .

وقد تم الاستعانة بالبرجوازيين في الوظائف الإدارية ، مثل وكلاء الدومن ، والمحاسبين ، وجباة الضرائب ، وموظفي الجمارك ، ومشرفى الأسواق وشرطة المدن . وكان المحاربون المشاة ذوى الرواتب والذين كانوا يعرفون بالسرجندارية* أو رجال الحاشية الاقطاعية أو الفرق العسكرية المصاحبة للسيد الاقطاعى من البرجوازيين أيضاً .

وعلى الرغم من اقامة بعض البرجوازيين الآخرين في المدن ، فإنهم ظلوا يمارسون حرفهم القديمة كمزارعين في الريف المعيب بالمدينة ، وكان مثل هذا الوضع مألوفاً في أغلب مدن المملكة اللاتينية .

وكما ذكرنا آنفًا ، فإن معظم السكان الفرنجية تركزوا في ثلاث مدن كبرى وكانت مدينة بيت المقدس العاصمة الإدارية للمملكة أصغر هذه المدن الثلاث ، وكان يتراوح عدد سكانها ما بين ٣٠ - ٢ ألف نسمة . وكانت مدينة عكا أكثر أهمية خلال القرن الثاني عشر الميلادي . ففي القرن الثالث عشر الميلادي كان يصل عدد سكانها إلى ما يزيد على ٦٠ ألف نسمة ، وكانت مدينة صور هي المدينة التي تلى مدينة عكا . وثمة مدن أخرى ، كان بعضها مدناً بحرية مزودة بمباني وبالبعض الآخر مدنًا داخلية بعيدة عن الساحل ، وكانت هذه المدن صغيرة الحجم قليلة السكان . إذ كان يصل عدد سكان أحدى هذه المدن حوالي ٥٠٠٠ نسمة ، بيد أن هذا العدد رغم ضآلته كان يفوق عدد سكان المدن الأوروبية المعاصرة ، ويعتبر هذا العدد من السكان

* السرجندارية Serjants: هم المحاربون الصليبيون من المشاة وليس الفرسان (المترجم) .

ضئيلاً مقارنة بعدد سكان مدن الشرق العربي الإسلامي. وقد شملت الملكة اللاتينية ما يقرب من عشرين مدينة من هذا الحجم ، وشكل البرجوازيون أغلبية سكان هذه المدن.

وتحت وطه خاص لبعض البرجوازيين، وكان هذا الوضع يتمثل في ترك هذا البعض من البرجوازيين الاقامة في المدن واستحسان الاقامة في القرى الفرنجية الجديدة بشكل نهائى. فقد شجع ملوك بيت المقدس، وسادة المدن، والهيئات الدينية العسكرية (الاستبارية- الداوية- التيوتون) ، وبعض المؤسسات الكنسية الأخرى الاستيطان في المناطق التي حل بها الدمار والخراب في أثناء الحرب والقتال والمذابح في أعقاب الغزو الصليبي. فقد هجر عدد كبير من السكان المحليين المسلمين هذه المناطق التي استولى عليها الصليبيون، وفضلوا الارتحال إلى دمشق أو إلى مصر طلباً للنجاة ، وذلك خوفاً من الواقع في براثن غزاة غرباء ، وكان البرجوازيون بمثابة إضافة للعنصر البشري لتزويد المناطق الريفية المهجورة بالسكان الجدد. وقادت المؤسسات الدينية عملية الاستيطان ، ثم تولى الملوك الصليبيون القيادة بعد ذلك ، وشاركهم في تنظيم عملية الاستيطان أيضاً السادة العلمانيون الآخرون. وفي الغالب كان يتم تشييد معظم القرى بالقرب من مناطق الاستيطان القديمة في نفس مكان إقامة القرى المحلية التي هجرها سكانها والتي كانت تقع بالقرب من الأسوار والقرى أيضًا من مواد البناء التي تستخدم في بناء المنازل . وكانت هذه القرى الجديدة أكبر حجماً من نظيراتها المحلية. إذ كان عدد سكان القرية المحلية الفلسطينية لا يزيد عن اثنى عشرة عائلة، في حين كانت أعداد سكان القرية الفرنجية الجديدة يصل أحياناً إلى ما يقرب من مائة وخمسين أسرة، أي ما يعادل .. ٥ نسمة وكانت هذه الأعداد من السكان تخضع لاعتبارات الأمانة . وتقريراً كانت كل القرى الصليبية محصنة أو على الأقل مزودة ببرج لاستخدامه كنقطة مراقبة أو ملجاً وملاذاً لسكان القرية عندما يداهمها الخطر من العدو.

وبالقاء نظرة فاحصة نهائية على بعض هذه القرى الفرنجية الجديدة سوف يتبيّن لنا الصورة الإنشائية والبنائية لهذه القرى. ففي عام ١١٣٦ قام الملك الصليبي فولك بتحصين بيت جبرين الواقعة على الطريق بين عسقلان ومدينة بيت المقدس ومنعها لفرسان القديس جورج (الاستبارية) . وكانت أية منطقة استيطانية صليبية تحيط بها التحصينات والأسوار ، وبعد جيل وفي حوالي عام (١١٥٣م) كان عدد الأسر القاطنة في هذه المنطقة الاستيطانية في بيت جبرين يصل إلى اثنين وثلاثين أسرة أي حوالي ١٥٠ نسمة . وبغض النظر عن الفلاحين الذين كانوا يسكنون القرى الفرنجية، كان يوجد أيضاً في القرية الفرنجية خياط، ومجار، وجمال.

وذكر المؤرخ الأسپانى اليهودى بنiamين التطيلي ثلاثة عائلات يهودية كانت تعيش فى بيت حبرين ومن المحتمل أن هذه العائلات كانت تمارس أعمال الصياغة، وكان اثنان من المستوطنين اليهود قد أتوا من مدينة القدس، وحضر واحد من المستوطنين اليهود من الرها ، وواحد من حبرون ، ومستوطن يهودى واحد من رام الله. وكان القاطنون اليهود الآخرون يأتون من مناطق معروفة من الغرب الأوروبى : من أفيرج Auvergne ، ومن جاسكونى Gascony ، ومن لبارديا Lombardy ، ومن بواتييه Poitou ، وتسكالونيا ، ويرجاندى والفلاندرز ، وكاركاسونى Carcassonne ، وهذا ما ذكره بنiamين بشكل محدد. وكان كل مستوطن صليبي يستلم قطعة أرض مساحتها اثنان كارووكا Carrucae* وهو ما يعادل سبعين هكتار من الأرض. والتزم هؤلاء الحائزون بدفع إيجار نقدى مقابل استلامهم هذه الأرضى ، وكذلك تقديم عشر انتاج محصولاتهم وعشر انتاج الفواكه ماعدا الزيتون، ودفع نسبة مئوية من الفنائم التى يحصل عليها الفرنجى نتيجة الاغارات على أراضى المسلمين. وقنع المستوطن الفرنجى بحق التنازل عن أملاكه للغير. كما تمنع بحق الشفاعة بموجب القانون الخاص بذلك مقابل دفع مبلغ مالى بسيط.

وثمة مثال آخر فى المحمرة (البيرة) . ففى منتصف القرن الثانى عشر الميلادى استقر فى هذه القرية الجديدة (البيرة) تسعون أسرة ، وبعد فترة قصيرة استقر بها حوالي خمسون أسرة صليبية حول القلعة الصغيرة ، وكان يقدر عدد السكان الفرنجية فى هذه القرية الجديدة حوالي .. ٥٠٠ نسمة . وبالإضافة إلى ذلك ، فإن القرى الفرنجية كانت تضم سكاناً نزحوا من مناطق أوروبية مثل أفيرج auvergne ويروفاتس، ويرجاندى، وجاسكونى، وليموج، وبواتييه ، وتور، وبروج، وقطالونيا ولومباردى، بالإضافة إلى الفلسطينيين من بيت المقدس ، ونابلس، وسنجل، والنبي صموئيل، وبافا ، وكان بعض سكان القرى أيضاً من رجال الدين الرهبان (الأخوة الراهيان) ، بيد أن الأغلبية كانوا من العلمانيين . وعمل بعض سكان القرى فى حرف مثل حرف المداد ، والتجار، وصانع الأحذية ، والبناء والجناينى ، وهى الحرف التى ذكرناها آنفاً بشكل محدد ، ورغم ذلك ، فقد كانت الحرفة الرئيسية لسكان القرى الفرنجية هى الزراعة

* كارووكا Carrucae : أشار أحد المؤرخين المحدثين إلى أن الفدان العربى (الكاريووكا العربية) يساوى أربعين دونمات، وذلك تقييزاً للكاريوكا العربية عن الكاريوكا الصليبية الرسمية التى كانت تساوى خمسة وثلاثين هكتاراً أي ثلاثمائة وخمسين دونماً. (المترجم).

والفلاحة، وزراعة الكروم. وخضعت هذه القرى لسيادة رجال الدين الكاثوليك، بيد أن المستوطنين الصليبيين كانوا يخضعون لسيادة المحكمة البرجوازية وقضائها الخاص بها . فقد كان رجال الدين يصدرون على العقود المبرمة مع المستوطنين والتي تتعلق بنظام وأسلوب الزراعة ونظام الدفع، وفي العادة كان يستخدم نظام تقسيم نتاج الأرض من المحاصيل (تقسيم الانتاج بين الأطراف المتعاقدة) . وكان سادة القرى من رجال الدين يحتكرون حق اقامة الطاحونة ، والفرن، والتزم الفلاحون في القرى بطحن غلالهم في هذه الطاحونة ، وصنع خبزهم في الفرن الخاص بصاحب القرية.

ومن المستحيل تقييم وتقدير حجم هذه الحركة الاستيطانية . ولاشك أن هذه الحركة الاستيطانية كانت أكثر نشاطاً وحيوية في القرن الثاني عشر الميلادي، وحقيقة الأمر أنها عرفنا ستة قوانين عرفية مختلفة للمستوطنين استخدمتها السلطات الصليبية في مناطق الاستيطان ، ولاشك أن هذه الأعراف والعادات انتقلت من منطقة لأخرى. وتلك دلالة على حيوية هذه الحركة الاستيطانية، بيد أننا لن نتمكن من تقدير حجمها.

وعلى أي حال ، فإن البرجوازيين هم الذين اضططعوا بهمة هذه الحركة الاستيطانية وجعلوها ممكنة. فقد كان البرجوازيون ينحدرون من أصول فقيرة . ويشير أحد المؤرخين اللاتين أن هؤلاء السكان الذين استقروا خارج المدن كانوا من الرجال الذين لم يتمكنوا من العيش داخلها. وببساطة استأنف عدد كبير من النازحين الأوروبيين حرفتهم ومهنتهم السابقة ، وهي المهن التي كانوا يمارسونها في أوطنهم قبل أن تطا أقدامهم أرض العسل واللبن في منطقة الشرق العربي.

وعلى أي حال، فإن القاسم الفرعي الجديد إلى بلاد الشام كان يعتبر برجوازياً حراً. وهذا ما كان يميز وضعه الاجتماعي ومستواه الاقتصادي. وكانت كل واجباته عبارة عن التزامات عامة. فقد كانت الالتزامات المالية تفرض على البرجوازي وفقاً لمهنته وعائدها الاقتصادي وليس وفقاً لتبعيته الشخصية . ولم يخضع البرجوازي لمحكمة القرية ، بل كان يخضع لأحكام المحكمة البرجوازية ولم يخضع المستوطن الصليبي البرجوازي لقوانين استبدادية تحكمية . ولا عجب فقد ذهب أحد المؤرخين المعاصرین في تفسير أحد الكلمات الغريبة في العصور الوسطى وهي كلمة «الفرنجية» فقال أن الصليبيين كانوا يعرفون باسم «الفرنجية» لأنهم كانوا أصحاب امتيازات Franches . وكانوا رجالاً أحراراً.

جـ- الكوميونات الوطنية الأوربية :

كان وجود طبقة مميزة من أبناء الكوميونات الوطنية من السمات المميزة للتصنيف الظبيقي للمجتمع الصليبي في المملكة اللاتينية. وكانت هذه الكوميونات تشمل الإيطاليين ، والبروفنساليين ، والأنسبان ويعكس الوضع القانوني والاجتماعي لأبناء هؤلاء الكوميونات الروح الاستعمارية والاستيطانية التي تغلغلت في بنية المؤسسات في منطقة الشرق العربي. وجاء اسم الكوميون من إيطاليا ، وهي تلك الكلمة التي كانت تستخدم لكي تصف المراكز الحضرية الكبيرة والتي حصلت على استقلالها الذاتي في فترة ما بين القرن العاشر والقرن الثاني عشر من الميلاد . ومع انتشار مصطلح «الكوميون» أصبح يرمز إلى مجتمع أبناء هذه الكوميونات الذين استقروا في المملكة اللاتينية . وعلى الرغم من اعتناق أبناء هذه الكوميونات المذهب الكاثوليكي الأوربي ، وهو نفس مذهب الحكام الصليبيين فإن أبناء هذه الكوميونات لم يعتبروا نبلاء أو برجوازيين بل كانوا يشكلون طبقة مستقلة تتمتع بوضع وامتيازات مختلفة عن كل من النبلاء والبرجوازية، وإذا كانت مجموعة الفريجية قتل الأقلية المحاكمة التي أسست المملكة الاستيطانية في بيت المقدس ، فإن الكوميونات كانت التعبير المبكر لهذا النمط من الروح الاستعمارية، حيث استطاعت هذه الكوميونات تأسيس شركات تجارية في إنجلترا وفرنسا وألمانيا قبل الفترة الصليبية بقرون بسيطة . بيد أن هذه الشركات التجارية كانت قتل المادة التي تشكلت منها القوى الاستيطانية الاستعمارية، وكانت الكوميونات في المملكة الصليبية بمثابة تنظيمات وهيئات رابحة عاشت فوق تربة غريبة اكتسبت قوتها ونفوذها وتبذر ذلك في ضوء حقيقة أن أعضاء هذه الكوميونات لم يصبحوا مواطنين في هذه المملكة. فلم يطبق عليهم القانون العام للملكة ، كما أنهم نجحوا تدريجياً في خلق نفوذ مستقل لهم واستقلال ذاتي ، وكانوا بمثابة دولة داخل الدولة . وتقدرياً تقع أبناء الكوميونات بالحكم الذاتي السياسي، وناضلوا من أجل تحقيق أهدافهم، إذ كانوا أكثر ارتباطاً بأوطانهم وأقطارهم الأصلية من ارتباطهم بأوطانهم الجديدة، وإلى حد ما لم يكن مواطنو الكوميونات يستقرن في منطقة الشرق العربي بصفة دائمة. إذ كانوا أكثر تقبلاً وأكثر حرضاً على المال والربح من أي طبقة في المجتمع الصليبي لأنها جاءت تحقق الكسب والربح وتعود إلى الغرب الأوروبي بمال الوفير. بيد أن الذين مكثوا من أبناء الكوميونات في المناطق الصليبية في بلاد الشام لم يعتبروا أنفسهم مواطنين . وإذا كانت المملكة اللاتينية قد اعتبرتهم

بشابة مستوطنة ومستعمرة أوربية قامت على تراب الشرق، فإن أبناء هذه الكوميونات قد استوطنوا هذه المستعمرة.

واحتكرت الكوميونات الإيطالية والأوربية التجارة الخارجية الواسعة للملكة الصليبية ، كما احتكرت تقريباً أيضاً كل الأنشطة المصرفية وأعمال الشحن والتغليف البحري، وبالرغم من ذلك ، فإن المهام الاقتصادية التي قامت بها الكوميونات التجارية، لم تستطع وحدها أن تقرر أو تحدد وضعها المتميز وامتيازاتها * . وثمة قائمة طويلة من المعاهدات والاتفاقيات الدولية عقدت بين ملوك بيت المقدس الصليبية (وبعد ذلك كانت هذه المعاهدات تعقد مع سادة المدن الصليبية البحرية المستقلين) وبين المدن الإيطالية، وبموجب هذه المعاهدات تحدد الوضع الاجتماعي لأبناء هذه الكوميونات الإيطالية . وحصل الإيطاليون على هذه الامتيازات بسبب مشاركتهم في الغزو . فكانت جنوا أولى المدن الإيطالية التي قدمت العون العسكري للصليبيين ، والتي أرسلت سفنها إلى الشرق، وشارك البيازنة والبنادقة في هذا الغزو الصليبي أيضاً بتقديم المساعدات للصليبيين ، وكانت هذه المساعدات الإيطالية ذات أهمية قصوى في الاستيلاء على المدن الساحلية في بلاد الشام وفلسطين ولو لم تكن هذه المساعدات الإيطالية لما استطاع الصليبيون احتلال المدن الساحلية، ولاستغرقت عملية هذا الاحتلال وقتاً طويلاً، ورغم ما ينبع الصليبيون في تحقيق هذا الهدف بدون المساعدة الإيطالية.

وما يذكر أن هذه المدن الإيطالية (جنوا - بيزا - البندقية) قد طلبت من الصليبيين مكافأة نظير هذه الخدمات والمساعدات التي قدمتها لهم. وعلى الرغم من أن هذا المطلب قد تسبب في حدوث وظهور أصوات متعددة للجشح ، وهي الأصوات التي كانت تتعارض مع مجهد ونشاط الفروسية للمسيحية ، فإن الظروف التي كانت ير بها الصليبيون كانت حرجة ، وأصبحت الخدمات والمساعدات الإيطالية أمراً ضروريًا لا يمكن الاستعاضة عنها، وأعلن البنادقة بغير أنهم حضروا للحرب من أجل تحرير الأرض المقدسة، بيد أن هذا لم يمنع الدواع

* كانت ظروف المواجهة السياسية والعسكرية بين الصليبيين وبين المسلمين هي التي تقرر الامتيازات السخية التي كان يحصل عليها أبناء الكوميونات ، وذلك لحاجة الصليبيين إلى مساعدة هذه الكوميونات العسكرية والمالية، ومقابل تقديم هذه المساعدات كانت الكوميونات تحصل على الامتيازات المتعددة السخية (المترجم).

البندقى الذى شارك الصليبيين فى حصار مدينة صور (١١٢٤م) من انتزاع ثلث المدينة المحالة وثلث الأقاليم التابعة لها، بالإضافة إلى الإعفاء من الضرائب والجمارك ، والحصول على الامتيازات الواسعة التى جعلت من البناية قوة عظمى تعادل قوة الملك الصليبيى فى هذا المينا، الشمالي (ميناء صور) . ولم يغفل الدور الذى قام به دايميرت رئيس أساقفة بيزا فقد قاد الأسطول البيزاوى الذى شارك فى حصار مدينة يافا فى عام ١١٠٠م ، وكذلك لم يغفل دور أسرة أمبرياتش الجنوبية التى شاركت فى حصار مدينة بيت المقدس، وحصل هؤلاً، المشاركون على امتيازات سياسية واقتصادية. الواقع أن الصليبيين كانوا توافقين لاحتلال الموانئ البحرية لكي يجعلوا من المناطق التى احتلوها فى بلاد الشام أكثر سكاناً وأكثر ازدهاراً اقتصادياً ، واعتبروا هذه الحاجات الملحة الباهظة بشارة مصدر من مصادر الربح والكسب فى المستقبل. وكانت مصلحة الصليبيين تقتضى جذب التاجر الإيطالى ، الذى كان يمثل الشكل المألوف فى الاقتصاد الأوروبي ولذا حرص الصليبيون على احضار هذا التاجر إلى أسواق الملكة الصليبية الوليدة فى بيت المقدس. وعلى الرغم من أن البناية قد مارسوا حقهم الكامل فى التمتع بالامتيازات السخية التى حصلوا عليها من السلطات الصليبية، فإن عدداً قليلاً جداً من المدن ظل تحت سيادة الحكم المستوطنين الصليبيين الجدد، وكانت منحة الحمى تعتبر ملكية كاملة تقريباً ، إذ كان الحمى البندقى يتمتع بحق الحكم الذاتى الكامل. ويدرجات مختلفة ظلت منحة الحمى مظهراً ثابتاً من مظاهر الامتيازات التى حصلت عليها الكوميونات التجارية فى المناطق الصليبية فى بلاد الشام، ومن المستحيل القول أن تضمنات مثل هذا الكلام العام الذى ورد بالوثائق كان يلقى الاهتمام من جانب المانعين ، أو أن مثل هذه البنود التى وردت فى الاتفاقيات بين الكوميونات الإيطالية وبين الصليبيين الخاصة بالامتيازات كانت ذات اجراءات شكلية فقط. وتظل الحقيقة التى ترى أن هذه الامتيازات ومضمونها ظلت مدونة فى الكتب القانونية للملكة الصليبية فى بيت المقدس.

ومن وجهة نظر الكوميونات الإيطالية كانت مطالبهم الضرورية وامتيازاتهم أكثر الحاجة بقدر جشعهم وجهلهم. وفي هذه المراحل الباكرة بات من الصعب معرفة المناطق التى سوف تزدهر اقتصادياً والتى تناسب التطور التجارى أو المناطق التى لا تتلاءم مع هذا التطور ، وببساطة شديدة ، أصبح هناك حاجة ملحة لكي تطلب الكوميونات الإيطالية الامتيازات فى كل مكان من أرجاء المملكة الصليبية .

وكانت التجربة خير معلم للإيطاليين، فقد ثبت أن مدينة مهمة مثل بيت المقدس تفتقر إلى الأهمية الاقتصادية وليست لها أهمية تجارية حقيقة. وعلى الرغم من أن هذه المدينة كانت مركزاً للإدارة المدنية والكنسية ، ومكاناً لتدفق أعداء الحاجاج الأوروبيين النازحين إليها ، فإن كل هذا لم يجعل منها سوقاً عالمياً ، ذلك السوق الذي يتطلب النشاط التجاري الواسع للتجار الإيطاليين . فلم تكن مدينة القدس أكثر من مدينة داخلية صغيرة مثل مدينة طبرية أو نابلس، فقد كانت أسواقها المحلية تلبى الحاجات اليومية للسكان المحليين ولم يكن لهذه الأسواق أية ميزة للتجار الكبار . بيد أن التجار الإيطاليين وجدوا فرصاً أرحب للنشاط التجاري المزدهر في بعض المدن الساحلية. فقد أصبح مينا ، عكا الراشد وميناء صور الذي يقع في الشمال من القواعد البحرية المميزة للملكة الصليبية. وتحت ضغط ووطأة نفس الظروف السياسية لعبت مدينة بيروت أيضاً دوراً مهماً في تجارة الملكة الصليبية. وأصبحت عواصم الأقاليم مثل مدينة طرابلس ومن قبلها أنطاكية مراكز تجارية رئيسية. فلم تستطع مدن مثل يافا تلك المنفذ الطبيعي لمدينة القدس، وحيفا ، وقيسارية، وصیدا وهى المدن التي احتلها الصليبيون بمساعدة الإيطاليين- أن تحذب التجار الإيطاليين إليها . وعلى الرغم من الامتيازات التي منحت للتجار الإيطاليين- أن تحذب التجار الإيطاليين إليها . وعلى الرغم من الامتيازات التي منحت للتجار الإيطاليين، والتي كفلت لهم الأموال والاعفاءات الجمركية ، فإن هؤلاء التجار لم يفضلوا الاقامة في تلك الموانئ الثانوية .

ومهما كانت توقعات المحکام الأول للملکة اللاتینیة والتجار الإيطاليين ، فإنه بعد جيل واحد من الغزو الصليبي بات من الواضح أن الأرض المقدسة لم تستطع أن تحل محل القسطنطینیة أو الإسكندرية كمركز تجاري رئیسی من مراكز التجارة في منطقة شرق البحر المتوسط. فقد كانت الموانئ الكبرى في الملكة الصليبية بمثابة أسواق لبيع السلع والبضائع ، بيد أنها كانت ذات أهمية ثانوية. لقد أدى وجود دولة مسيحية صديقة للإيطاليين في منطقة الشرق العربي مثلثة في الملكة اللاتینیة إلى حصول التجار الإيطاليين على الامتيازات والتعويضات . وكانت الممارسات القمعية مثل القتل المنظم والنفي والأبعاد ومصادرة الممتلكات معروفة في الإمبراطورية البيزنطية وفي مصر، بيد أن مثل هذه الممارسات القمعية لم تهدد التجار الإيطاليين في مدينة عكا. فقد كانت الأحياء الإيطالية التي قتلت بالحكم الذاتي في المناطق الصليبية في بلاد الشام في مأمن تماماً من العدو والصديق ، وتأثر

المستوطنون الإيطاليون بالتطور بشكل كبير. ففي الفترة المبكرة من الوجود الصليبي، كانت الأحياء الإيطالية الممتدة بالحكم الذاتي في المدن الساحلية ، وفي أماكن الأسواق لم تزد عن كونها قواعده مؤقتة للنشاط الاقتصادي، ومراكز تجارية أكثر من كونها مناطق للاستيطان الدائم والمستمر. وتقريباً أصبحت هذه المناطق نواة لاستقرار السكان الإيطاليين بصفة دائمة، وكانت مقرًا للموظفين الذين يعهد إليهم مهمة إدارة أملاك الكوميون والكنائس، وعاش التجار الإيطاليون في أحياء مستقلة خاصة بهم، بيد أن التاجر الإيطالي كان في المتوسط يقضى من ثلاثة إلى ستة أشهر في موسم الابحار (من أوائل الربيع إلى نهاية الخريف) على متن السفينة التجارية، يرتد خلالها أسواق مصر، والقدسية ، وأسواق الأقطار المجاورة لها. وكان يستبدل عمالاته الذهبية والفضة بشراء سلع وبضائع لكي يتاجر فيها ويبيعها في أثناء رحلته أو يبيعها بعد ذلك في أسواق أوروبا. وأحياناً كان التاجر الإيطالي يتوقف في أحد الموانئ الصليبية لقضاء فصل الشتاء، ثم بعد ذلك يعود إلى مدينته ووطنه في أوائل فصل الربيع يحمل معه سلعه وبضائعه.

واستمر هذا النمط من النشاط التجاري طوال القرنين الثاني عشر والثالث عشر من الميلاد. وتسجل قائمة جرد السلع والبضائع البندقية والجنوبية في عكا وصور المستودعات والمخازن والمنازل ذات الحجرات التي ظلت خالية معظم فترات العام، بيد أن هذه المنازل كانت تؤجر للتجار القادمين عند وصول الأساطيل التجارية طوال مدة الموسم التجاري. ولكن الحى الإيطالي استطاع بالتدريج أن يغير من صفتة المميزة.

ويمكن أن نطلق على الفترة الباكرة للاستيطان الإيطالي في المناطق الصليبية اسم «فترة الاستقرار الشتوية» وبيطء، أفسح مجال لظهور نمط مختلف من أنماط الاستيطان الإيطالي. وفي النصف الثاني من القرن الثاني عشر الميلادي تحول الاستقرار المؤقت للإيطاليين في المناطق الصليبية إلى استقرار واستيطان دائم. وعلى سبيل المثال كانت مدينة صور تشهد مثل هذا الوضع من الاستقرار الدائم للتجار الإيطاليين . ووفقاً لمعاهدة عقدت بين البطريريك اللاتيني وارمند Warmund في عام ١١٢٣م (في أثناء غياب الملك بلدوبين الثاني الذي كان قد وقع في الأسر) وبين الدوّاق البندقى تم التنازل لكوميون البندقية عن ثلث مدينة صور وثلث مناطقها الريفية . وقد لوحظ أن هذه المعاهدة كانت تشير الشكوك والوساوس ، وأصبح ثلث كل القرى في هذه الامارة تابعة للبنادقة ، وأيضاً أقام البنادقة حيًّا لهم في الجزء الشمالي من

مدينة صور. بالقرب من مينائها (وتروج الشهرة القديمة للمينا الجنوبي إلى امتلاكه بالغرين) ومنحت بعض هذه القرى للبنادقة في شكل اقطاعيات مقابل خدمات اقطاعية (وتلك كانت حالة استثنائية) يؤديها البنادقة للملكة الصليبية. وهكذا فإن مجموعة ملاك الأراضي من المستوطنين البنادقة مكتشا في مدينة صور، وتعزز وضع السكان المحليين الإيطاليين هناك . وما يذكر أيضا أن بعض الإيطاليين الآخرين استأجروا من سلطات الكوميون ساحات الدور وأراضي الفضاء ، ومزارع الكروم ، والأكشاك الخشبية الالزمة لعرض السلع والبضائع في الأسواق ، وكذلك المقاعد الخشبية والدكك، وهكذا أصبح الإيطاليون سكانا مستقرين حقيقيين. وعمل الإيطاليون في مهنة السمسرة والوساطات المنتظمة بين ملاك السفن القادمة والتجار وبين أرباب المصالح التجارية المحلية. وأطال التجار الإيطاليون مدة إقامتهم الشتوية واستقروا بشكل دائم في منطقة الشرق العربي. وتأسست وكالات تجارية لكبار التجار، وكانت هذه المؤسسات تشبه تماماً الشركات التجارية.

واعتاد بعض التجار الاقامة في المدن الساحلية في المملكة الصليبية ، وهم المثلثون التجاريون الذين كانت تعينهم حكومات الكوميونات للعمل كمندوبي لها في منطقة الشرق اللاتيني. وكانت مدة وظيفتهم قصيرة ، لم تزد في الغالب عن عام أو عامين فقط . وحمل هؤلاء الموظفون ألقاب مثل «قنصل» أو «فيكونت» وتولوا السلطة في الأحياء ، الخاصة بكوميونهم . وبعد سقوط المملكة الصليبية الأولى في عام ١١٨٧ ، وفي أثناء فترة استعداد الصليبيين لاسترداد ملكتهم تبنت كل الكوميونات الإيطالية الرئيسة نظاماً أكثر مركزية وترامن هذا النظام المركزي مع عام ١١٩٢. ومن الآن فصاعداً أصبح البيللي bailli حاكماً عاماً في مدينة عكا ومثلاً للبنادقة، ويُخضع لسلطته كل الإيطاليين البنادقة في منطقة الشرق اللاتيني. وفي نفس الوقت قامت جنوا بتعيين قنصل عام لها في بلاد الشام، في حين كانت مدينة بيزا في البداية تعين اثنين من القناصل العموم، وأنقصت عددهم إلى قنصل واحد، وهو القنصل البيزاوى العام الذي كان له السلطة العليا على كل الموظفين المحليين من البيازنة.

وفى الفترة الباكرة كان يتم تعيين الموظفين من بين التجار المحليين، مع مشاركة الإيطاليين؛ وبعد ذلك ، كان الموظفون يحضورون مباشرة من المدينة الأم (بيزا - جنوا - البنادقة) . وعلى أي حال ، فإنه كان يتم تعيين هؤلاء الموظفين من لديهم المعرفة والخبرة بظروف منطقة الشرق

العربي. ولذا ليس غريباً أن يتم اختيارهم من بين التجار الشرقيين أيضاً بالإضافة إلى التجار الإيطاليين.

وهكذا فإن هذا النوع من المشاركة المحلية الإيطالية والتي وجدت الثروة والقوة السياسية قد بدأت تتطور في المملكة الصليبية ، وذلك لأن الموظفين الإيطاليين كان يتم اختيارهم من التجار الأثرياء ذوي النفوذ ، وكانت أعدادهم تزداد بفضل حضور أقاربهم من المدن الإيطالية الأم إلى الأراضي والمناطق الصليبية. وظل بعض أعضاء هذه المجموعة الشرقية من التجار يقيمون في منطقة الشرق بصفة دائمة. وفي الغالب كان أبناءهم يعودون إلى إيطاليا للبحث عن فتيات يتزوجون منها، وكانت مهور ودودطات هؤلاء الزوجات تدفع في صورة متاجر أو استثمارات ، وبعد إقام الزواج، كان الأبناء يعودون إلى عكا أو إلى ميناء من موانئ المملكة الصليبية . وهكذا تأسس التوسيع البندقى والجنوى البيضاوى في منطقة الشرق . وفي أثناء القرن الثالث عشر الميلادى استقر عدد من العائلات الجنوية الشهيرة ذات الأصول البibleلة الراقية في منطقة الشرق . ووجد أيضاً في المناطق الصليبية في بلاد الشام عدد من كبار العائلات البندقية وهي العائلات التي كانت تزود المدينة بالدوخات والقادة العسكريين، والقناصل وأعضاء السناتو. وعكينا تتبع تاريخ بعض هذه العائلات البندقية أو الجنوية مدة ثلاثة أجيال في المملكة الصليبية.

وكانت امتيازات الكوميونات وراثية. وظل أعضاء هذه الكوميونات لعدة أجيال يطالبون بالامتيازات والاعفاءات التي منحت لأجدادهم منذ أكثر من قرن من الزمان مضى، وقت الحملة الصليبية الأولى. وكان هذا ذاتاً أهمية في المحافظة على الهوية الذاتية لأبناء القرميون . وكان استقلال الإيطاليين والامتيازات التجارية التي حصل عليها التجار الإيطاليون تكفل لهم مزايا واسعة تفوق كل المزايا التي يتمتع بها التجار الفرنجة المعلقين وكان من الطبيعي للملوك مملكة بيت المقدس الصليبية في منتصف القرن الثاني عشر الميلادي فقط أن يحاولوا كبح وضبط هذه الامتيازات المفرطة. بيد أن هذه المحاولات لم تتحقق سوى نجاحاً جزئياً فقط. وكانت الكنيسة اللاتينية بجعلها وسموها أيضاً تطلب لرجالها الامتيازات من الملك الصليبي مثلما كانت تفعل كل من جنوا وبيزا تباعاً. وبشكل يفتقر إلى البراعة واللباقة قام الجنوية باقامة نصب تذكاري مطلى بالذهب في كنيسة الضرع المقدس في مدينة القدس دونرا على هذا النصب قائمة الامتيازات التي حصلوا عليها من الملك الصليبي ! وهكذا بات من الصعب طرد التجار

الإيطاليين من معبد الضريح المقدس وأحياناً كان الملوك الصليبيون يلجأون إلى تقليلص
الامتيازات المنوحة للتجار الإيطاليين متذرعين في ذلك بأسباب سياسية أو أمنية . وعلى
سبيل المثال ، حدد هنري الشامبى عدد العائلات البيزantine التي يسمح لها بالاقامة في مدينة
عكا بثلاثين عائلة فقط . ومن ناحية أخرى ، وفي أوقات الخطر كان يتم تجديد الامتيازات
القديمة للتجار الإيطاليين وتتسع هذه الامتيازات . وهكذا فإن كونراد مونتفرات عندما حاصر
مدينة صور عام ١١٩٠ قام بتأكيد الامتيازات القديمة للقوميون الإيطالية وزاد من هذه
الامتيازات المنوحة لهم واتبع الملك الصليبي البائس جي لوزجان نفس الاجراء في تأكيد نفس
الامتيازات القديمة لهذه القوميون ، وعندما وصل الملك الفرنسي لويس التاسع إلى المناطق
الصلبية قامت القوميون التجارية بنسخ امتيازاتها بشكل حرفي وطلبت هذه القوميون
تجديد التصديق الملكي على هذه الامتيازات .

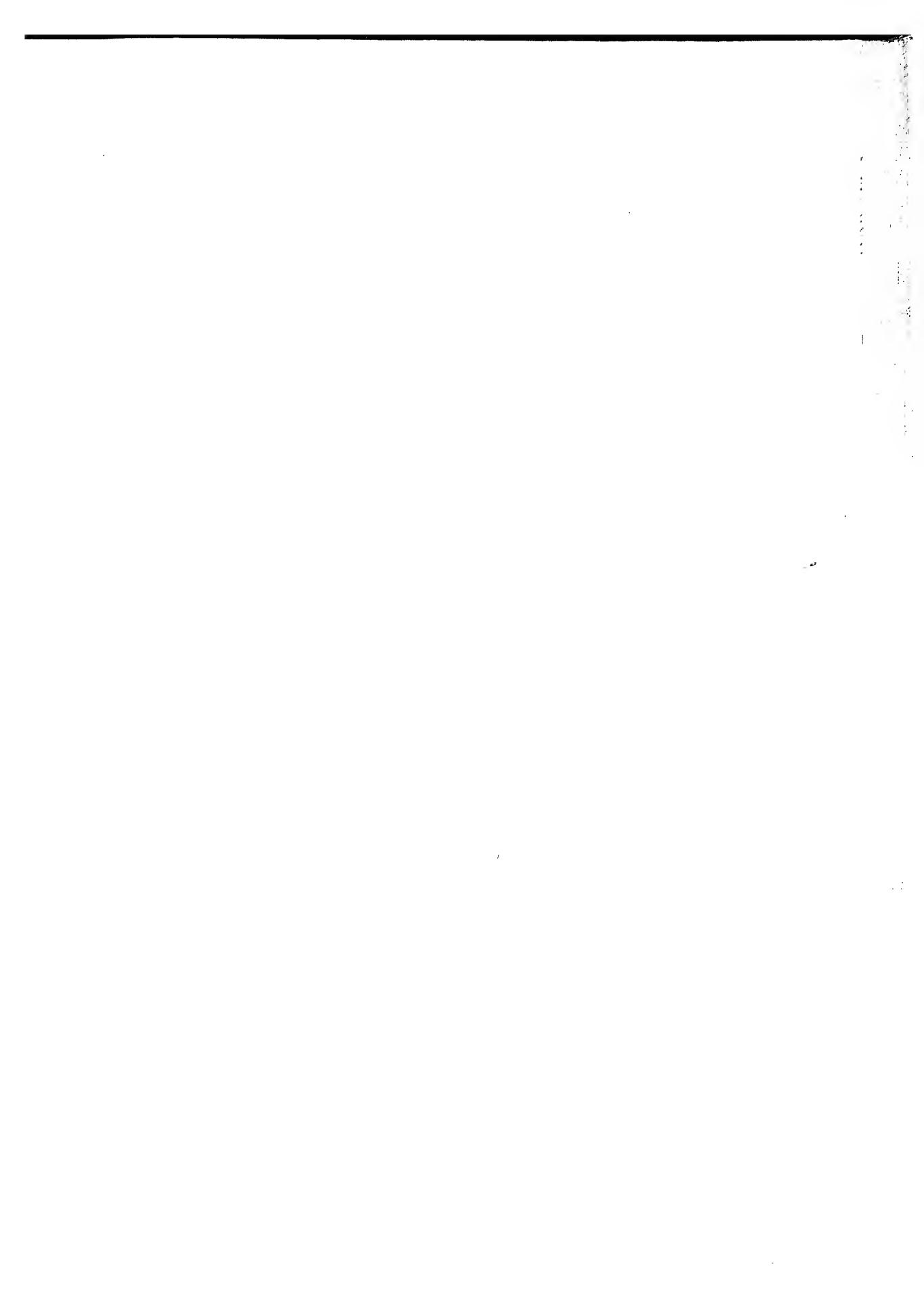
ولم يستطع الملوك الصليبيون الغاء هذه الامتيازات أو قهر واحضان هذه القوميون ، بيد
أن هؤلاء الملوك حاولوا منع القوميون من سوء استخدام امتيازاتهم الواسعة . وعلى الرغم
من أن القانون كان يحظر على أبناء القوميون حيازة الأقطاعات والأملاك البرجوازية
كمالازل والأملاك المقولنة ، فإن أبناء هذه القوميون قد حازوا الأقطاعات والأملاك البرجوازية
بسبب الزواج من بعض الورثيات ، أو عن طريق الميراث ، أو عن طريق الصفقات التجارية التي
كان يحصل أبناء القوميون من خلالها على الأرض والمنازل التي تنتمي إلى الأملاك المحظوظ
حيائزها التي تقع خارج أحيا ، هذه القوميون . وهكذا عاش عدد كبير من البنادقة والجنوية
والبيازنة حياة زاهية كرمه . فقد حصلوا على أملاك وامتيازات محلية ، بحيث لا تخضع هذه
الأملاك لممتلكات القوميون وفي نفس الوقت تقع أبناء القوميون بالاعفاءات المالية . والواقع
أن الغرض العام والابهام الذي كان يتعلق بمسألة حقوق الامتياز في العصور الوسطى ،
وارتباط هذه الحقوق بالمكانة الشخصية للفرد ، والذي كان يرتبط في هذه الحالة بالوضع
السياسي والاقتصادي للقوميون ، قد أحدث وضعاً معقداً إلى درجة كبيرة . وغالباً كان هذا
يؤدي إلى نشوب صراعات ومعارك ، ليس فقط بين أبناء القوميون وبين السلطات
الصلبية ، ولكن أيضاً بين هذه القوميون المتنافرة بعضها مع بعض . وتوضح بعض القضايا
ذات الإجراءات الطويلة والتي كانت تنظر أمام المحكمة حقيقة أن المحامين كانوا يستغرقون
يوماً كاملاً في مناقشة أفضل قرارات المحكمة العليا . ومهما كانت القضية ، فإن مثل هذه

التعقيدات القانونية كانت تعنى أن سيد المدينة سواه ، كان سيد اقطاعى أو ملك سوف يفقد الضرائب المستحقة للمدينة أو يفقد حق تحصيل الالتزامات والحقوق الاقطاعية . واتبع الملك الصليبي النظام البيزنطي الذى يعود إلى ما قبل منتصف القرن الثانى عشر الميلادى ، هذا النظام الذى كان يؤكد على حرمان القوميون التجارية من امتيازاتها الجديدة ، ويلزمهم بدفع الضرائب العتادة ، أو يتخلون عن امتيازاتهم الإقليمية ويصبحون مواطنين . ولم تحل هذه المشكلة بشكل مرضى . وفي فترة متأخرة من القرن الرابع عشر الميلادى ، وبعد سقوط الملكة الصليبية ، كان الملوك الصليبيون فى قبرص ما يزالون فى صراع من أجل حل هذه المشكلة الشائكة .

وتجمع حول القوميون الإيطالية الثلاث الكبيرة - البندقية ، وجنوا وبيزا عدد كبير من الإيطاليين الآخرين . وكان التجار الذين جاءوا من كل أنحاء تسكانيا يتطلعون إلى التمتع بالامتيازات البيزاوية ، وأعلنوا أنهم بيازنة ، وحصلوا على اعتراف القنصل البيزاوى ، وعندئذ قطع هؤلاء التجار بامتيازات القوميون البيزاوى . ومقابل ذلك اعترف تجار تسكانيا بالحقوق القانونية والقضائية لقوميون بيزا عليهم وعلى ممتلكاتهم طوال فترة إقامتهم فى منطقة الشرق العربى . ومن الطبيعي أن مثل هذه الأحداث لم تكن مقصورة فقط على قوميون بيزا .

بيد أنه فى تلك الأثناء ظهر شركاء جدد فى تجارة الشرق . إذ كان تجار مرسيليا أحد هؤلاء الشركاء ، وكان هؤلاء التجار من مواطنى مرسيليا ويرتبطون بعلاقات مع تجار مونبيليه وتجار من مدن البروفانس الأخرى . وحصل تجار مرسيليا على امتيازات قليلة إذا ما قورنت بالامتيازات الواسعة التى تتمتع بها التجار الإيطاليون وبسبب الامتيازات الواسعة للإيطاليين أصبحت السلطات الصليبية تعى الدرس جيداً وباتت أكثر حذراً واحتراساً فى منح الامتيازات التى تعود إلى منتصف القرن الثانى عشر الميلادى . وكان القطالونيون من برشلونة آخر القوميون التى حصلت على امتيازات تجارية فقط ولمدة طويلة لم يحاول التجار القطالونيون إقامة أحياء إقليمية لهم فى المناطق الصليبية . ولم تحظ قوميون مرسيليا وبرشلونة بأهمية كبيرة وتوضح قوانين مرسيليا البحرية الشهيرة التى تم تصنيفها وتحجيمها فى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى قدم نشأة المستعمرة الشرقية ، وهى أحياء لذكرى المستعمرات الإيطالية التى تسبق هذه التجربة الاستعمارية فى الفترة الصليبية عائنة عام على الأقل وكان فندق تجار مرسيليا صغيراً ولم يزيد عن كونه أكثر محطة توقف ومركز متقدم لتجار يمارسون النشاط التجارى فى الشرق .

ومن الصعب تقدير عدد أبناء القوميونات الإيطالية التجارية في المملكة الصليبية . وإذا اعتمدنا على الفهارس الطبوغرافية وقوائم جرد الممتلكات ، فإنه يمكننا القول إن أعدادهم عادة كانت قليلة، لاتزيد عن بضعة مئات على أكثر تقدير. بيد أن قوتهم ونفوذهم لم تعتمد على أعدادهم، بل كان هذا النفوذ يعتمد في المقام الأول على وضعهم الاقتصادي. وكانت المستعمرات التي أسستها الكوميونات الإيطالية في الشرق ترجع إلى قرة المدن الأم الكبرى. فكانت المدينة الأم (البندقية - جنوا - بيزا) ترسل أساطيلها وسفن التجار في أوقات السلم، وترسل السفن الحربية في أوقات الحرب. وبشكل غير متوقع ، أصبحت القوميونات الإيطالية في الشرق في حالة قتال وصراع فيما بينها، حيث كانت القرى الإيطالية تحارب خارج حدود أوطانها واصطدام الصراع الاستعماري بينهما- وتعددت جبهات الصراع ، فهناك متناسرون في منطقة كورسيكا وتنافس بينهم في القسطنطينية ، ومعارك عسكرية طاحنة في منطقة بحر ايجة ، وبلغت هذه الصراعات بين هذه الكوميونات بعضها وبعض الذروة في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي، حيث أصبحت مدينة عكا ساحة للقتال والمعارك الدامية بين أبناء الكوميونات الإيطالية المتناحرة . وشارك الإيطاليون المحليون في هذه المعارك، وتزايدت أعدادهم بسبب وصول البحارة والمحاربين من أوروبا. وكانت الأحياء الإيطالية في المناطق الصليبية محصنة، تقسم مدينة عكا إلى جمهوريات صغيرة تحبطة بها الأسوار والأبراج، وكانت المعارك تنشب بين هذه الأحياء المجاورة وتؤدي إلى الحاق الخراب والدمار بمدينة عكا. وفي تلك الآونة كان قادة القوميونات حكامًا مستقلين، وقلما اعترفوا بوجود المملكة الصليبية.



الفصل السابع

التاج الملكي الصليبي

لقد حكم المملكة الصليبية الأولى في بيت المقدس (١١٨٧-١١٩٩) خمسة من الملوك الذين حملوا اسم بدلوين^{*}، ويبدو أن الفرجنة في منطقة الشرق العربي كانوا أكثر ولعاً بهذا الاسم - وكذا فإن علماء النُّمَيَّات (المسكوكات والنقوش القديمة) ومسجل الأختام في العصر الحديث يجدون صعوبة في أن ينسبوا بدقة النقود أو الأختام الملكية إلى أي ملك صليبي يحمل اسم بدلوين. وقد أمكن فقط تحديد هوية العملات والأختام التي ترجع إلى عصر الملك الصليبي عموري الأول في القرن الثاني عشر الميلادي بكل دقة . ولم تختلف أشكال وتصميمات هذه النقود وهذه الأختام عن العملات الصليبية الأخرى. وبشكل عام كانت هذه النقود والأختام الصليبية تحمل على أحد أوجهها صورة أو أكثر للمعانى الرئيسة في مدينة بيت المقدس. فقد تُثْنَى على بعض هذه العملات والأختام الصليبية الجيدة (والتي كانت ترمز إلى فترة الازدهار الاقتصادي للملكة الصليبية) تصميمات ونقوش تشمل المعالم الرئيسة لمدينة القدس والتي تشمل: برج الميدان، والبرابات المزدوجة المرصعة بالسامير والتي يعلوها الجدار العلوي للحصن، وقبتين مشيدتين على أبراج صغيرة تمثل القلعة التي كانت تعرف باسم برج داود. ويجوار هذه النقوش والرسومات نقشت صورة قصر الملك الصليبي في الحافة الأخيرة من قطعة العملة. وكان الرسم الهندسي الذي يعلو قمة الأعمدة والذي كان عبارة عن قمة مخروطية مزودة بفتحة مستديرة يتوسطها صورة ميدان صغير يمثل كنيسة الضريح المقدس. وأخيراً كانت القبة الجميلة التي يعلوها عدد كبير من الصليبان مثل «قبر الضريح المقدس» مسجد عمر سابقاً . وكان يرسم على ظهر الأختام الصليبية بانتظام صورة ملك بيت المقدس الصليبي وهو يرتدي عادة التاج الملكي المستدير ، وأحياناً كان يرتدي لباساً ينتهي بنطاق في الأسفل. ومن المحتمل أن القلادات التي كانت تزين جانبي رأس الملك الصليبي قد زينت بالأحجار الكريمة. فكان الملك يرتدي سترة قصيرة فضفاضة مزودة بطبعات واسعة ، ومزودة في أحد أطرافها بكرة سلطانية ، وفي الطرف الآخر بصولجان أو صليب .

* حكم الملك بدلوين الأول المملكة الصليبية من عام ١١٩٦-١١٨٧ م. (المترجم)

وبهذه الصورة لا يمكن التمييز بين ملك صليبي في مملكة بيت المقدس وبين أي ملك مسيحي في الغرب الأوروبي. ونظراً لأن صانعى الأختام الصليبية كانوا من الأوروبيين فإنهم اتبعوا في صناعتهم لهذه الأختام النماذج التقليدية السائدة في أوروبا، أو لأن الملوك الصليبيين في الشرق العربي أرادوا خداع وتضليل معاصرיהם من الأوروبيين الغربيين باتباع النماذج التقليدية في صنع الأختام.

ففي كل مكان من أوروبا كان حفل التتويج الملكي بمثابة فاتحة وبداية لعصر جديد تندمج فيه كل العناصر المادية والروحية. وكان هذا يعبر عن وضع الملك باعتباره وريثاً شرعياً أو حاكماً منتخبًا - وأيضاً سيداً مُسح بالزيت المقدس يحكم مملكة مسيحية بنعمة الله، بيد أن المسح بالزيت المقدس والتتويج الذي كان يتم عادة في مدينة بيت المقدس (وكان الحال الاستثنائية فقط خلال المملكة الصليبية الأولى هي تتويج الملك الصليبي بدلوين الأول الذي توج في مدينة بيت لحم على غير العادة) كان يرمي إلى ذكريات تاريخية ودينية لاظهار لها في العالم المسيحي. ومن اللافت للنظر أن كل العناصر الدينية في طقس حفل التتويج كانت تتناقض بشدة مع سمة الوقار والقدسية التي تميز بها العقيدة المسيحية، إذ كانت تتجاوز كل هذه السمات. ولم يكن الغرض الرئيسي من حفل التتويج ترسير وتبني الشرعية فقط بل كان أيضاً يقصد تجديد العهد والميثاق بين الملك وبين فرسانه الذين اختاروه وانتخبوه مليكاً لهم - مثلما ادعى أن مثل هذا قد حدث في نهاية الحملة الصليبية الأولى.

وكان اعتلاء العرش الملكي الصليبي في معظم فترات القرن الثاني عشر الميلادي يتذبذب ما بين الانتخاب تارة وبين الوراثة تارة أخرى. وعلى الرغم من أن الملكية الإنجليزية حيث أسرة بلا نتاجت وملكية الفرنسية حيث ملوك آل كابيه كانت وراثية لأغراض عملية ، فإن هاتين الملكتين كانتا مازلاً تحتفظان بأشكال العناصر الانتخابية الصريحة لاختيار الملك أهميتها الحقيقة ، وهي طريقة التصويت الانفعالي عن طريق هتاف أو تصفيق النبلاء بدلاً من احصاء الأصوات المؤيدة. وفي أثناء الأزمة فقط ، والتي كانت تحدث بسبب غياب الورثة المباشرين ، كانت تمارس الطريقة الانتخابية القديمة القاصرة على النبلاء من أجل اختيار ملك من بين أعضاء الأسرة الحاكمة.

وكانت الملكة اللاتينية في بيت المقدس ما تزال تحتفظ بكثير من أشكال الممارسات الانتخابية القديمة حيث كانت طريقة وراثة العرش نظاماً مقبولاً ومتفلغ الجذور. وثمة عوامل

عديدة ساهمت في احتفاظ الملكة اللاتينية بهذا الشكل الانتخابي الفريد . وكان انتخاب جودفري البوسونى من أهم العمليات الانتخابية الباكرة، فقد بدأ تاريخ الملكة اللاتينية بانتخاب «حامى الضريح المقدس Advocate of The Holy Sepulchre» وكانت الأسطورة التي نسجت حول انتخاب «المتواضع» جودفري معروفة لدى الجميع. فقد بقيت بالكاد الدعاوى لوراثة العرش الملكى الصليبى لكل من الملوكين الصليبيين وهما الملك بلدوبن الأول (١١١٨-١١٠٠م) وبلدوبن الثانى (١١١٨م - ١١٣١م) وفي المقام الأول كان فضل اعتلاء الملك بلدوبن الثانى عرش الملكة الصليبية يرجع إلى النبلاء الصليبيين، الذين عارضوا الدعوى التى أقامتها يوستاس من بولون Eustace of Boulogne أخت بلدوبن الأول ووريثته الشرعية من أجل الظفر بعرش الملكة الصليبية. وببساطة فإن ذكريات الانتخابات الحقيقية قد طواها النسيان حالياً. وهكذا فإن المبدأ الوراثى لاعتلاء العرش الملكى لم يترسخ عملياً حتى عام ١١٣١م، حيث تبحث الملكة ميليسندا Melissande فى وراثة عرش والدها فى حكم الملكة الصليبية.

بيد أن أهمية المبدأ الانتخابى فى حفل التتويج لم يرجع فقط إلى العرف والتقليد بل كان يرجع إلى صيغة وديباجة القسم الشكلى ، هذا القسم الذى لم يلزم الملك أن يحكم بالعدل فقط، بل كان يلزم به ضرورة احترام الأعراف والقوانين الخاصة بالملكة. ومن الصعب أن تحدد بالضبط تاريخ ادخال هذا القسم المفصل فى مراسم حفل التتويج والذى كان بشارة «ميثاق أو عقد اجتماعى Social Contract» وأقدم سجل باق يتعلق بمراسم حفل التتويج الخاصة بالملك بلدوبن الأول يتضمن صيغة غامضة لهذا القسم وكان مفاد هذا القسم أن يلتزم الملك بأنه سوف يحكم بالعدل ، وأن يحافظ على حقوق الكنيسة اللاتينية فى الملكة الصليبية. وبعد متصف القرن الثانى عشر الميلادى ، وفي عصر الملك الصليبى عموري الأول (١١٦٢-١١٧٤م)، وهى الفترة التى شهدت نضال الأعيان والنبلاء الصليبيين من أجل مساواتهم بالملك فى حكم المملكة، تم ادخال صيغة للقسم أكثر صرامة وحدة.

وعندئذ انتشر هذا التشريع الخاص بالقسم الذى يؤدىه الملك الصليبى فترة تزيد عن نصف قرن وترامت الأحداث، وبدأت هذا القسم يلعب دور الانجيل والكتاب المقدس فى النظرية السياسية والممارسة العملية للملكة الصليبية . لقد تحدد الوضع المستقبلى لكل من الملك الصليبى والنبلاء بشكل متزايد فى ضوء الامتيازات المقدسة التى تقع بها النبلاء على حساب

السلطة الملكية. وكانت المحريات والاعفاءات أهم ما يميز امتيازات النبلاء الأوروبيين ، وأصبحت هذه الامتيازات بشارة حجر الزاوية في الفكر السياسي ، واحتفظ هؤلاء النبلاء بهذه الامتيازات التي قدر لها أن تلعب دوراً رئيساً في بقاء المملكة الصليبية واستمرارها وجودها. وفي تلك الأثناء ، بربت أسطورة جودفري البويوني التي تذكر أنه «واهب القانون». فقد تم انتخاب جودفري البويوني على يد زملائه من قادة ونبلاء الحملة الصليبية الأولى وساهم في وضع وتأسيس قوانين هذه المملكة. وساعد هذا المظهر المزدوج لتنويع أول ملك صليبي في تأكيد فكرة «عقد اجتماعي» بين الملك الصليبي والبارونات ومن الآن فصاعداً سوف يتلزم ملوك بيت المقدس باحترام قوانين وأعراف المملكة والمحريات والامتيازات التي تمنح للنبلاء وهي الالتزامات التي أصبحت شرطاً أساسياً لقبولهم لتنويع الملك. ومن المرجح أن مثل هذا قد حدث في عصر الملك الصليبي عموري (أمالريك) ، حيث كان النبلاء لديهم من القوة الكافية لاجبار الملك على طلاق زوجته قبل اعترافهم بدعوه لاعتلاء عرش المملكة الصليبية وأصبحت مثل هذه الصيغة الصارمة والدقيقة للقسم الذي يؤديه الملك ملزمة وفعالة. ومن الجدير بالذكر أن آخر قسم يؤديه ملوك بيت المقدس اللاتين كان يتضمن بوضوح التزام الملك بالمحافظة واحترام قوانين الملك عموري وابنه بدلوين ... الخ. وقد أشار بدلوين الرابع (١١٨٥-١١٧٤م) إلى أن النبلاء تنامت قوتهم بسبب اتقانهم لعملية التشريع والحكم في أثناء تلك الفترة. وهكذا ولد الناج الملكي بيت المقدس، ومنذ منتصف القرن الثاني عشر الميلادي على الأقل، تضمنت مراسيم التنويع اثنان من المسؤوليات القانونية ، وهما الوضع الخاص للبطريرك اللاتيني في بيت المقدس، والالتزامات الملكية تجاه النبلاء الصليبيين. وكان اليوم العظيم للتنويع يبدأ عادة بالاستعدادات في المباني الرئيسية للعاصمة (بيت المقدس) : وكان القصر الملكي متاخماً للقلعة (برج داود) ، ومجاوراً أيضاً لكنيسة الضريح المقدس، وكذلك «لقبير السيد المسيح» ولأحياء الداوية (هيكل سليمان المسجد الأقصى). وفي تلك المناسبة كانت شوارع المدينة تأخذ زيتها في شكل بهيج يسر الناظرين ؛ حيث كانت شرفات المنازل المسقوفة متألقة ولا معة بالبساط الشرقي المزین، ويسود المدينة جو من الاحتفال والابتهاج والفرح . وكان الفرسان والنبلاء من جميع أنحاء المملكة الصليبية يشاركون في هذه المناسبة وهذا الاحتفال المهيّب. وفي مثل هذه المناسبات كان كبار موظفي الدولة يؤدون الالتزامات التي ترجع أصولها إلى فترة العصر الكارولنجي. فقد كان كل موظف من الموظفين الأربع الكبار في المملكة وهم القهرمان *Seneschal* ، والكونستابل *Constable* والمارشال *Marshal* والحاچب أو الياور *Chamberlain* مسؤولاً عن جزء مختلف من مراسيم هذه الاحتفالات ، إذ

كان هؤلاء الموظفين الأربع يشكلون يشكلون رمزاً كل موظفي الدولة الكبار والصغرى في هذا الاحتفال.

وكان القهرمان أكثر الرجال نشاطاً وحركة في يوم الاحتفال بالتنور، إذ كان يؤدي التزامات وواجبات وظيفية باعتباره كبير الخدم في القصر الملكي، فكان مسؤولاً عن مراسم الاحتفال، كما كان يتعهد بالأشراف على زملائه وعلى عدد كبير من الخدم والأتباع والنساخ. وكان الملك المزمع تنوره يرتدي في حفل التنور الملابس الخاصة بهذه المناسبة في القصر، ويساعده الياور أو الحاجب في ارتداء هذه الملابس، وهو الموظف الذي كان مسؤولاً عن غرفة ملابس الملك. وعندما يبدأ حفل التنور كان الملك يرتدي ملابسه المعدة لهذه المناسبة الجليلة المهمة، ويغادر غرفته، يحيط به أفراد عائلته وموظفوه ويظهر أمام القصر الملكي في حلته. وكان المارشال يمشي بجوار الملك في حين كان الكونستابل ينتظر خارج القصر يحمل معه البيرق الملكي. وكان ينصب هذا البيرق في أحد جنبات الميدان، وهذا البيرق كان عبارة عن قماش أبيض منقوش عليه صليب أحمر في كل ركن من أركانه والصليب الخامس منقوش في الوسط، أحياً لذكرى مذبح الكنيسة المزود بخمسة من الصليان التي تقتل جروح المسيح في أثناء الصلب. وفي هذه المناسبة كان الملك يمتطي صهوة جواده، الذي تكسوه الزينة، وينبذ الموكب الاحتفالي تحت اشراف الحاجب، الذي يشير إلى طريق سير الموكب بالسيف الملكي الذي يحمله. ويسير خلفه مباشرة القهرمان الذي يحمل الصوبجان، ويتبعه بعد ذلك الكونستابل الذي كان يحمل البيرق الملكي حتى يصل الموكب إلى كنيسة الضريح المقدس. وعند هذا المكان كان الملك ينزل من على جواده، ويقبض الكونستابل على اللجام ويرفع بيدهيه البيرق الملكي لكي يسلمه إلى المارشال. وينبذ أن الملك لم يمتطي جواده إلى ضاحية الضريح المقدس، بل كان متراجلاً حتى آخر الطريق. وعند الدخول العظيمة لكنيسة الضريح المقدس كان بطريرك بيت المقدس والقساوسة وعدد كبير من رجال الدين يقفون لاستقبال الملك.

كان الملك هو الذي يرتدي ملابس التنور التقليدية - تلك الملابس غالبة الشعن المطرزة ، وربما كان هذا الشياط طويلاً فضلاً يجر على الأرض مثل الملابس التي يرتديها كبار الموظفين الذين كانوا يمشون خلف البطريرك الذي يؤم جموع المصليين. وكانت هذه المراسم بشابة مقدمة مميزة لحفل التنور الملكية.

وبناءً على مطلب البطريرك اللاتيني، كان الملك الصليبي المتوج يؤدي قسم التنور. ولم يختلف الجزء الأول من هذا القسم عن القسم المشابه له الذي كان يؤديه الملوك والحكام في

أوريا في تلك الفترة، وكان الملك يتعهد بالمحافظة، على أملاك الكنيسة وحقوقها وحماية امتيازاتها وامتيازات رجال الدين الكاثوليك، ويزعزع قسمه بأن يسبغ رعايته على الأراضي والأيتام في أنحاء المملكة الصليبية. بالإضافة إلى ذلك، كان الملك يؤذى قسماً خاصاً للبطريرك يقول فيه، «إنني منذ الآن فصاعداً سوف أكون خيراً عن مخلص لك وسوف أدفع عنك ضد كل من ينادي العدا في أنحاء المملكة الصليبية». وكان هذا بثابة اقرار لأملاك الكنيسة التي حصلت عليها منذ بداية تأسيس المملكة. وعلى الرغم من أن هذا القسم لم يكن قسماً بالطبعية الاقطاعية، فإنه كان يشبه إلى حد ما قسم الولاء والاخلاص الذي يؤذيه الفصل الاقطاعي لسيده. ومع أن هذا القسم كان ينطوي على المفارقة التاريخية بحلول النصف الثاني من القرن الثاني عشر الميلادي إلا أنه ظل مصوناً وباقياً لاحقاً ذكرى قدمة، فقد اعترف البطريرك اللاتيني في بيت المقدس من قبل بسيادة جودفري البيزنطي أول حاكم صليبي للملكة اللاتينية.

وما يذكر أن الشطر الأول من القسم الذي كان يؤذيه الملك في أثناء حفل التتويج لم يكن موجهاً للجميع، بل كان خاصاً للبطريرك والكنيسة. وكان يلى هذه الجزء من القسم الجزء الذي كان يعرف باسم تجديد العهد أو الميثاق. بينما كان قسم التتويج في كل العمالق الأوربية يتضمن وعداً بالمحافظة على حقوق ومتلكات وامتيازات أبناء الشعب، فإن مثل هذا لم يتضمنه القسم الذي كان يؤذيه ملوك بيت المقدس الصليبيين، إذا كان نص القسم الذي يؤذيه الملوك الصليبيون هو: «إنني سوف أحترم قوانين المملكة وأصون قوانين هؤلاً، الملوك الصليبيين السابقين، الذين هم أجداد ذوى الذكرى الخالدة والباركة، وأن أحترم قوانين الملك أمالريك (عموري) وأبنه الملك بلدرين، وأن أحترم الأعراف والتقاليد القدمة وقوانين مملكة بيت المقدس». ولم يقتصر فحوى هذا القسم على تقديم صورة أكثر صرامة من صورة وصيغة القسم المناظر له في أوريا فقط، بل أيضاً كان هذا القسم بثابة أسلوب للحكم والإدارة في المملكة الصليبية. وعندما تم الاتفاق على اختيار هيبر الثالث لوزجنان Hugh III de Lusignan ملكاً لبيت المقدس قام جاك فيدال Jacques Vidal المتحدث باسم أهالي المملكة باحضار النسخة المدون بها في نص القسم إلى الملك وقال له لقد اعتاد ملوك بيت المقدس والتزموا بأن يؤذوا هذا القسم المدون في هذه النسخة. وبعد أن أدى الملك هذا القسم قام السادة الاقطاعيون في المملكة الصليبية الذين حضروا مراسم التتويج على الفور بتقديم قسم التبعية الاقطاعية للملك.

لقد كان قسم التتويج الذي يؤديه الملك الصليبي بثابة عقد ثانى بين الملك الصليبي وبين نبلائه .

وبعد أن يؤدى الملك الصليبي القسم، كان البطريرك يصافح الملك مسّاً بيده اليمنى وبعده قائلاً له: «بأنه سوف يحافظ على سلامة الناج الملكي والدفاع عنه، وأن يصون حقوق كنيسة روما (أو القانون الديرى إذا كان البطريرك راهباً) وعندهذا كان البطريرك اللاتيني يطبع قبلة على جبين الملك، ثم بعد ذلك يلتفت إلى المجتمعين من الفرسان ورجال الدين الكاثوليك والبرجوازية يدعوهما شفهياً بأن هذا الشخص (الملك) هو الوريث الشرعى لعرش المملكة الصليبية». وبعد ثلاث عظات كانت الجموع المحتشدة تهتف من حناجرها قائلاً نعم هذا هو الملك. كانت الجموع المحتشدة فى الفناء التى تستمع وتنصت إلى ذلك القسم الذى يؤدىه الملك الصليبي تنادى به ملكاً شرعياً لهم، وعندهذا كانت جوقة المنشدين تجتمع لكي تبدأ فى ترديد أغنية مدح الرب. وكانت خزانة كنيسة الضريح المقدس والتى يحمل مفاتيحها فرسان الاستمارية والداوية تفتح أمام الملك وزوجته الملكة ، وكان كبار النبلاء يحصلون هذه المفاتيح .

وعندئذ كان الملك يجلس على مقعد خشبي بالقرب من مذبح الكنيسة فى حين كانت أغنية «الرب» يتتردد صداها فى أرجاء الكنيسة وفى الختام كان البطريرك يوم مجرورة المصلين، ويتم تتويج الملك فى مواجهة كنيسة الضريح المقدس. وكانت أعمال القدس تتلى، وبعد قراءة وتلاوة الرسالة الانجليotic وترانيم القدس، كان الملك يعود إلى مقعده المواجه للذبح الكنيسة وعندهذا كان البطريرك يعلن قرار التتويج، ويبدأ عملية مسح الملك بالزيت المقدس إذ كان يوجد وعاء (كالذى يظهر فى كل الصور المعاصرة) يحتوى على الزيت المقدس الذى يستخدم البطريرك فى مسح رأس الملك وكتميه . وبعد ذلك يضع البطريرك خاتماً فى اصبع الملك رمزاً لللولا ، والاخلاص ، ويقلده سيف الفروسية رمز وشعار العدالة والقوة والدفاع عن العقيدة، وفي النهاية كان الملك الصليبي يضع الناج فوق رأسه ويمسك بالصوongan فى يده اليمنى كرمز لفرض العقوبة على مرتكبى الأشارى الدينية. وفي يده اليسرى كان يمسك الكرة السلطانية Orb التي يعلوها صليب والتى ترمز إلى السلطة والعدالة الملكية . وبعد الدعاء للملك باللغة اللاتينية ثلاث مرات بطول العمر وا زدهار فترة حكمه ، كان الملك يقوم بتقبيل الأساقفة ، ويعود إلى عرشه ، وقد انتهى القدس بتلاوة الأنجليل وعندهذا كان الملك يتناول العشاء الريانى ، وتنتهى مراسم التتويج بعد أن يقوم البطريرك بمبارة البيرق الملكى ، ذلك البيرق الذى يعيده الملك إلى الكونستابل .

وكان الموكب الملكي يغادر كنيسة الضريح المقدس، يشق طريقه عبر شوارع ضيقة إلى «هيكل السيد» حيث يضع الملك تاجه على المذبح، أحياً لذكرى تجلّى السيد المسيح (عليه السلام) لسيمون في الهيكل. ومن هنا كانت الحاشية الملكية تشق طريقها إلى هيكل سليمان (المسجد الأقصى) لاعداد مأدبة الطعام الملكية التي تقام في القصر الملكي المقام في هذا المكان، حيث كان الملك الصليبي يتخد من هذا الهيكل قصراً ملكياً له.

وما يذكر أن سبعة فقط من الملوك الصليبيين التسعة الذين حكموا المملكة الصليبية الأولى قد تم تتوبيهم بشكل فعلى في مدينة بيت المقدس ، عاصمة المملكة. فجود فري البريوني لم يتزوج ملكاً كما أن بدلوين الأول تزوج في مدينة بيت لحم. وتم تتوبيح ملك صليبي واحد فقط للملكة الصليبية الثانية في مدينة بيت المقدس فقد تزوج الامبراطور الألماني فردرريك الثاني الوهنشارفن المحروم كنسياً من قبل البابا والبطيريك في مذبح كنيسة الضريح المقدس وارتدى التاج الملكي فوق رأسه في عام ١٢٢٩ م. وقد تزوج باقي الملوك الصليبيين الآخرين في مدينة صور، ثاني أهم مدينة في المملكة الصليبية. وفي أثناء غياب البطيريك ، كان رئيس أساقفة صور (الذي كان يعتبر الرجل الثاني بعد البطيريك في الرتبة الكنسية) يقوم باجراء هذه المراسم الخاصة بالتوبيخ. بيد أن مراسيم التتويج هذه كانت تتم في صمت في مدينة صور، وكان الاحتفال الرئيسي لهذه المناسبة يجري في مدينة عكا عاصمة المملكة الصليبية الثانية.

لقد كان تقييد الملك الصليبي والنبلاء على السواء بالقانون بثابة حجر الزاوية في النظام الدستوري للمملكة الصليبية. فقد كانت قوة الملوك الصليبيين مثل معظم الحكام في العصور الوسطى ذات سمات اقطاعية وسيادية . وكانت السمة الاقطاعية تشكل قوة ونفوذ الملك الرسمية الحقيقة. ومن الجدير بالذكر أن الملوك الصليبيين كانوا يستخدمون في وثائقهم الرسمية لقب ملك Rex. Rei (ظهر هذا اللقب في القراءتين الفرنسيتين المدونة منذ عام ١٢١١م)، في حين كانت الكتب والرسائل القانونية عادة تستخدم مصطلح كبير السادة Chief Seigneurs ولم يكن هذا المصطلح يقلل من قدر الملك الصليبي، بل كان ببساطة يوضح حقيقة أن الملك الصليبي كان يمارس نفوذه وأمتيازاته على كل الأعمال التجارية اليومية في المملكة باعتباره يمثل قمة الهرم الاقطاعي. لقد كانت شبكة العلاقات والإمارات الاقطاعية تشكل إطار الدولة والمجتمع ، وكان حق الملك الصليبي في الحكم والسلطة يمثل دعامة قوته الحقيقة.

وهكذا لم تكن السلطة التي يارسها الملك الصليبي مطلقة أو استبدادية . إذ كانت هذه السلطة تعتمد على امكانية احداث نوع من التوافق بشكل طبيعي بين المصالح المتعارضة لكل من الملك وأفصاله . وكان باستطاعة الأداة القانونية إما أن تحدث هذا التعاون بين الملك وأفصاله أو تعرض للخطر سياسات الملك التي كانت تطرح أمام كل من الملك وأفصاله المباشرين وكبار السادة الاقطاعيين خلال اجتماعهم في محكمة الملك، والتي كانت تعرف باسم المحكمة العليا . ووفقاً للقانون الاقطاعي، كانت روابط التبعية الاقطاعية تنتهي باختفاء أحد الأطراف المتعاقدة (في حالة وفاة الملك) وكان يتم إعادة هذه الروابط بتقديم قسم الولاء والتبعية الاقطاعية للملك الجديد . وفي بعض الحالات الاستثنائية من حالات النزاع حول اعتلاء العرش الملكي كانت المحكمة العليا تعقد جلساتها وتشار في مسألة التتويج، وفي النهاية كانت تعلن قرارها بخصوص قانونية وأحقية أي من المطالبين بوراثة العرش .

وكانت البداية الفعلية لفترة حكم جديدة تتميز بتقديم قسم الولاء، الاقطاعي للملك الصليبي الجديد بعد اجراء مراسم التتويج . فقد كان البلاه من جميع الرتب يعيشون أيام الملك، يقسمون له بين الولاء والتبعية الاقطاعية . ويعلن كل نبيل أنه أصبح تابعاً للملك مقابل تشبثه في ملكية الاقطاعية . وعندئذ كان يعقب ذلك تأدية القسم الفعلي بالولاء، والاخلاص . وفي نهاية القرن الثالث عشر الميلادي أصبحت الاختلافات بين قسم الولاء، الاقطاعي وقسم التبعية الاقطاعية غير واضحة ومبهمة . فقد كان قسم الولاء، والاخلاص الاقطاعي *fealty* يتم من خلال الحلف على الأنجليل ولم يتضمن هذا القسم أي وعد متبادل يقدمه الملك، كما كان شأن قسم التبعية الاقطاعية *homage* . وكان قسم التبعية الاقطاعية ذات سمة عامة ، ويتضمن التزامات من جانب واحد .

ففى أعقاب حفل التتويج، كان موظفو الدولة، والبلاه، وكبار السادة الاقطاعيين، وفرسان الدومنين الملكي، يزدون جميعاً بين التبعية الاقطاعية . وبظل الملك الصليبي مشغولاً تماماً خلال فترة الأربعين يوماً التالية لحفل التتويج . ومنذ الربع الأخير من القرن الثاني عشر الميلادي أصبح لزاماً على كل حائز الاقطاعات (باستثناء حائز الاقطاعات الأقويا، ذوى النفوذ) تأدية قسم الولاء، والتبعية الاقطاعية لكن يحصلوا على اترار بتشبيث أملاكهم خلال فترة الأربعين يوماً هذه، وإذا لم يفعلوا ذلك سوف يفقدون أملاكهم الاقطاعية . وخلال فترة حكم الملك عموري (أمالريك) وبموجب قانونه الاقطاعي الشهير الذي صدر في عام ١١٧٠ لم

يقتصر تأدية يمين الولاء والتبعية الاقطاعية على كبار السادة الاقطاعيين فقط ، بل أصبح زاماً على كل حائز اقطاعى فى المملكة والأوصال التابعين ، وكل الحائزين من مختلف الرتب تأدية مثل هذا القسم. وكان هذا يعني على الأقل أن ستمائة فرد سوف يؤدون يمين التبعية الاقطاعية (وهو جملة عدد الفرسان الذين يتزمون بتأدية خدمة عسكرية) ، وربما كان هذا العدد يزيد عن ذلك . وكان القهرمان Seneschal يحل محل الملك فى تلقى مثل هذا القسم الذى يؤديه صغار الأوصال الاقطاعيين.

وفي بعض الحالات، وحيثما يرتاب الملك فى أخلاقه وولاء بعض نبلائه كان يطلب من سكان المدن التى تقع فى مناطق نفوذه هؤلاء النبلاء تأدية قسم إضافى له. ومن الصعب الاعتقاد فى أن أهل هذه المدن كانوا يؤدون مثل هذا القسم الإضافى بشكل فردى، إذ كان قضاة المحكمة البرجوازية يقدمون يمين الولاء والتبعية الاقطاعية للملك أو لنائبه ، من أجل تأكيد أخلاق كل سكان المدينة.

وفي فترة متأخرة ، وفي خلال النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادى ، كانت المحكمة العليا تعقد جلساتها الطويلة والتى كان يحضرها كبار الأساقفة ومقدمو الهيئات الدينية العسكرية، والساسة اللاتين، وبعض الأفراد الجدد وهم جماعات البرجوازية التى نالت الشهرة خلال فترة الفوضى والاضطراب السياسى التى مرت بها المملكة اللاتينية فى أعقاب الحملة الصليبية التى قام بها الامبراطور فردرريك الثانى. ففى تلك الأثناء ، تخلى هؤلاء جميعاً عن موقفهم السلبى، وقاموا بشكل مباشر بتأدية قسم الولاء الاقطاعى للحاكم الجديد. وكان لهذا القسم بعض القيمة والأهمية العملية فى وقت ضعفت فيه الروابط الاقطاعية واتجهت فيه بنية الدولة والمجتمع صوب الانهيار والتفسخ والانحلال. بيد أن هذا أيضاً كان نذيرًا بقرب انهيار النظام الاقطاعى.

ومر الناج الملكى الصليبي الذى استمر ما يقرب من قرنين من الزمان بمعظم أشكال التطور المتميزة. ومقارنة هذا النظام الملكى الصليبي بالأنظمة الملكية المتطرفة المعاصرة فى أوروبا ، نجد أن وضع الناج الملكى الصليبي كان يسلك طريقاً مضاداً. فقد كانت الملكيات الأوروبية عشية الحملة الصليبية الأولى تحرص منذ البداية فقط على وضع أسس قوتها ونفوذها المستقبلية . فكان الملك الفرنسي لويس السادس يعاني من صعوبات الترحال والسفر المستمر داخل الحدود الضيقة لمملكته. فقد كان ملوك بيت المقدس يتمتعون بنفوذ كبير على الصعيدين النظري

والعلى العكس ، فبحلول منتصف القرن الثالث عشر الميلادي ، والذى شهد الغرب الأوروبي خالله حكامًا من أمثال فردريك الثاني إمبراطور ألمانيا والملك الفرنسي لويس التاسع واينرول الأول ، أصبح التاج الملكي الصليبي فى بيت المقدس صورة باهته لمجد غابر.

وعلى الرغم من أن أول حاكم صليبي للملكة اللاتينية فى بيت المقدس قد اتخذ لنفسه لقباً متواضعاً وهو «حامى الضريح المقدس Advocate of the Holy Sepulchre» فإن هذه الفترة الباكرة من عمر المملكة لم تشهد أى مظاهر الضعف والتى تتৎقص من السلطة الملكية. فقد كان البناء الاجتماعى لطبقة المحاربين والذى ظل بعد أحداث الحملة الصليبية الأولى يدعم وجود ملكية قوية. ولم يتعرض البيت الملكى فى بيت المقدس لأية منافسة من أحد على مدى أكثر من جيل كامل ، ويمكن أن نعزى ذلك إلى أن أى نبيل صليبي لم يستطع فى تلك الفترة أن يختال غروراً بأصله الشهير وعراقة أصله بشكل كاف ، كما أن القوى المستقلة لم تستطع الوقوف فى وجه السلطة الملكية أو تحديها. ونظراً لأن مصير طبقة المحاربين كان يعتمد على السخاء والكرم الملكي الصليبي فى صورة منح اقطاعية وامتيازات ، فإن ولاء وخلاص هؤلاء المحاربين للملك الصليبي بات أمراً مؤكداً. ومع ذلك ، فإن غياب وعدم وجود ارستقراطية قوية لم يكن فقط السبب فى تدعيم وضع ملوك بيت المقدس الصليبيين. وعلاوة على ذلك ، فإن بقاء الدولة الجديدة كان يستلزم بالضرورة وجود حاكم قوى. وتتطبق هذه الحقيقة على المملكة الانجليزية الاقطاعية المركزية التى استندت قوتها على يد اثنين من الغزاة ، الغزو النورمانى بقيادة روللو Rollo (سنة ٩١١) والغزو النورمانى لإنجلترا فى عام ٦٦١م). وإلى حد ما كان هذا الوضع يمثل حقيقة المملكة اللاتينية. فقد ظلت المملكة ولدة عشر سنوات بعد الغزو الصليبي فى حالة حرب مستمرة ومتقطعة ، وكان الملك الصليبي هو القائد العسكري الأول للجسou الصليبية المحارية. وكانت كل واجبات واحتياصات الملك الصليبي الأخرى تساعد على تحقيق هذه المهمة الرئيسة وهى الدفاع عن المملكة الجديدة. وببساطة لم تسمح مثل هذه الظروف بتقسيم السلطة. وبالإضافة إلى ذلك ، فإنه فى أثناء فترة تبلور البنية الاقطاعية للمملكة سلك الملوك الصليبيون سياسة داخلية حذرة للغاية ، وكان التعبير الجزئى عن هذه السياسة الحذرية التى اتباعها الملوك الصليبيون هو نفورهم من منح أراض اقطاعية وامارات لقادة الغزو. فقد كان جودفري البويونى يخصص لفرسانه موارد مالية من ايرادات المدينة بشكل أكثر من تخصيص اقطاعات لهم ، واتبع الملك الصليبي بلد貌ين الأول نفس هذه السياسة. فلم يستطع أى من كبار النبلاء الادعاء بأحقية نصيب من أسلاب

وغنائم الغزو يعادل نصيب الملك، ولم تلق هذه السياسة التي اتبعها الملوك الصليبيون الأول أية معارضة. بيد أن الافتقار إلى الجهاز الإداري الذي يستطيع تدعيم فعالية الحكومة المحلية قد أدى في النهاية إلى اتباع سياسة منح الاقطاعات وخلق طبقة من السادة الاقطاعيين.

وفي خلال النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادي، كانت منطقة نفوذ الملك الصليبي (الدومين الملكي) ذات أهمية كبيرة. فقد كانت معظم مناطق القدس القديمة التي تضم القدس القديمة ونابلس بالإضافة إلى المناطق الساحلية الممتدة من يافا حتى عسقلان تشكل مناطق النفوذ الملكية والاقطاعات المخصصة للأسرة الملكية. وكانت الموانئ الرئيسية في المملكة مثل ميناء عكا وصور تابعة للسلطة الملكية، كما انتشرت الممتلكات الملكية والقلائع حول أراضي التاج الملكي. وخلال فترات الحكم الخمس المتعاقبة من جودفري حتى الملك بلدرين الثالث، ظلت أملاك التاج الملكي واسعة وأكثر ثراءً من كل اقطاعات جميع السادة الصليبيين. وعلاوة على ذلك فإنه طوال جيل بعد الغزو الصليبي، كان حائزو الاقطاعات النبلاء نادراً ما يحولوا ملكية اقطاعاتهم إلى خلفائهم، إذ كانت اقطاعاتهم تعود إلى ملكية التاج الملكي بعد وفاة أصحابها من النبلاء.

ويبدأ هذا الوضع الذي يتسم باعتدائه التاج الملكي على حقوق الآخرين يتغير ببطء في الربع الثاني من القرن الثاني عشر الميلادي. فقد استطاع بعض النبلاء الاقطاعيين تأسيس أسر بارونية حاكمة وراثية. وبإضافة إلى ذلك، فإن إدارة الأملاك النبلائية، مثل منطقة وامارة ما وراء نهر الأردن الكبيرة (التي تم غزوها في عام ١١١٥م) ومنحت كاقطاع في عام ١١٤٠م)، قد غيرت ميزان القوى بين الحائزين الاقطاعيين وأملاك التاج الملكي. بيد أنه في أثناء فترة التغيير، ظلت السلطة الملكية قوية بشكل مميز. وثمة قانون يرجع إلى عصر الملك بلدرين الثالث (١١٦٢-١١٤٣م) والذي نادراً ما أحدث تحديدات في هذا المجال، قد أكد حق الملك في مصادرة اقطاعات كبار أوصيال الاقطاعيين بدون محاكمة ولأسباب مختلفة. وبعض هذه الأسباب مثل تحريض الفلاحين وإثارة حفيظتهم ضد الملك، أو الهجوم على عائلة الملك أو على الملك شخصياً، وكانت هذه الجرائم تنظر أمام أية محكمة اقطاعية. غير أن الأعمال والاساءات الأخرى التي يجرمها القانون كانت تؤكد قوة السلطة الملكية في منتصف القرن الثاني عشر الميلادي. وثمة جرائم أخرى كانت تعرض مرتكبيها لنفس العقاب بدون قرار من المحكمة، وأهم هذه الجرائم التخلص من مينا بحرى للعدو؛ وإقامة طريق تجاري إلى الأقطار الإسلامية، وسك النقود أو تزييف العملات الصليبية الملكية. إذ كانت كل هذه الأمور جميعاً

تدخل في نطاق الامتيازات والاحتكرات الملكية، تلك الامتيازات والاحتكرات التي يجع^ل الملك الصليبي في الاحتفاظ بها على الرغم من وجود الأمراء المستقلين. وعلاوة على ذلك ، فإنه حتى إلى فترة متأخرة من القرن الثاني عشر الميلادي، كان باستطاعة التاج الملكي الصليبي حماية حقوقه في الإشراف على الإمارات الصليبية المختلفة. وعلى الرغم من أن هذه الحقوق الملكية كانت تشمل مجال القضاء ، فإن هذه الحقوق الملكية أيضاً شملت مجالات أخرى، بحيث لم يكن السادة الاقطاعيون أحراً بشكل كامل من النفوذ والسلطة الملكية. ويتمثل هذا الوضع في ضوء حقيقة أن حضور الملك الصليبي إلى إيدى إمارة صليبية أو إلى إيدى محكمة توجد في الإمارة يجعلها على الفور «ملكية». ويمكن تفسير تفوق السلطة الملكية في ضوء حقيقة أن المعاهدات التي كانت تعقد بين الملك الصليبي والكوميونات الإيطالية اعتبرت المدن الواقعة داخل الإمارات الصليبية تابعة لسيادة التاج الملكي.

وامتدت السلطة الملكية بدرجة كبيرة لتشمل الكنيسة. وأخفقت المحاولات الباكرة في تحويل المملكة الصليبية إلى دولة دينية، وحتى دعاوى ومطالب البطريرك من أجل فرض سلطته العلمانية في مدينة القدس و耶افا - والتي منحها له جودفري البوسوني - لم تخرج إلى حيز التنفيذ العملي. وتجدد نفس المطلب في عصر الملك بلدرين الأول، ولم تلق آذاناً صاغية أيضاً. بيد أن مثل هذه الدعاوى والمطالب المتكررة من جانب البطريرك اللاتيني لم تسفر إلا عن تأسيس حى للبطريرك في مدينة بيت المقدس حول كنيسة الاضريح المقدس فقط. وثمة حقيقة متناقضة ظاهرياً إلى حد كبير وهي أن الكنيسة لم تستطع تحقيق أية سلطة سياسية في «ملكة الصليب» فالصراع حول التقليد العلائى الذى أقضى مضاجع المسيحية فى أوروبا لم تعرفه المملكة اللاتينية. وحقيقة الأمر، أن الملك الصليبي كان يمارس نفوذه بقوة فى عملية الانتخابات الكنسية واختيار رجال الدين اللاتين فى كنيسة بيت المقدس، على الرغم من أن هذه الكنيسة كانت تلجأ إلى كنيسة روما من أجل مناقشة عملية الانتخابات الكنسية، أو للنظر فى بعض الخلافات التى تتشعب داخل الكنيسة بسبب السيمونية* (بيع الوظائف الدينية)

* السيمونية: تعنى المتجارة بالأشياء المقدسة، وهى نسبة إلى سيمون الساحر، وهو شخص سامى الأصل، ماهر فى فن السحر، تنصر وأراد أن يشتري من بطرس الرسول سلطان وضع الأيدي وصنع المعجزات ، فرفض بطرس وويخه ، (قاسم عبد تاسم، ماهية الحروب الصليبية، دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية)، القاهرة ، ١٩٩٣ ، ص ٨١ .

وكان العرف الذى دون فى منتصف القرن الثانى عشر الميلادى يجيز للملك الصليبي أن يختار أىًّا من بين المرشحين الثلاثة التى تختارهم جماعة من رجال الكنيسة. وعلى أية حال، فقد كان الملك الصليبي فى مناسبات عديدة يمارس نفوذه وسلطته بشكل مباشر لاختيار أحد المرشحين ويعارض ضغوطه على الناخبين من أجل اختيار المرشح الذى يفضل.

وفي منتصف القرن الثانى عشر الميلادى اكتسب النبلاء نفوذاً سياسياً على حساب السلطة الملكية. وتجلى هذا على الفور فى التشريع الجديد، الذى ساعد على فو البارونيات وتقوية سلطة الحكم الذاتى بها. وعندما بلغ بلدوبن الثالث سن الرشد نشب خلاف حول وراثة العرش، مما أدى إلى نشوب حرب أهلية قصيرة فى عام ١١٥٢ ضد الملكة الأرمدة ميلسند-*Mc lissande* المتعطشة للسلطة. واستطاع هذا الخلاف والبیضال حول وراثة العرش أن يجد حلأً وسطاً لموقف ووضع التاج الملكى، وذلك لأن طرف النزاع كانا فى حاجة إلى مساعدة النبلاء. وبعد جيل نشب نزاع آخر حول وراثة العرش فى أعقاب وفاة الملك المجنون الشجاع بلدوبن الرابع فى عام ١١٨٥، وشهدت المملكة فى تلك الآونة أزمة سياسية جديدة. فقد كان الحزب الملكى بقيادة ملكة أخرى هي أختي من كورتنارى *Anges of Courtenoy* وابنتها سيبيلا *Sibylle* التى تزوجت مرات كثيرة ، فى صراع مع حزب آل لوزجانان الذى لقى معارضة من جانب النبلاء المحليين، وكان يتزعم هذا الحزب المعارض لآل لوزجانان ريموند الثالث من طرابلس وأمير الجليل عن طريق الزواج . وعلى الرغم من أن هذا الصراع قد انتهى وحسم لصالح الحزب الملكى، فإن الملك الجديد جى لوزجانان *Gay de housignan* (١١٩٠-١١٨٦) زوج سيبيلا وخليفة الملك الطفل بلدوبن الخامس (١١٨٦-١١٨٥) لم يستطع كبح جماح نبلاته أو يظفر باحترامهم ، ولم يستطع أيضاً أن يسترد هيبة ومكانة التاج الملكى التى فقدت.

لقد شهدت الفترة التى سبقت موقعة حطين مباشرة منعطفاً جديداً فى العلاقات بين الملك الصليبي والنبلاء. فقد نهج الإثنان من كبار الأمراء الصليبيين وهما رينو دى شاتيون (أرناط) حاكم ما وراء نهر الأردن الصليبية وريموند الثالث من طرابلس وأمير الجليل سلوكاً فردياً ينم عن استقلالهما الذاتى عن السلطة الملكية، إذ اتبع كل أمير منها سياسة غريبة متميزة واضحة وهكذا قام رينو دى شاتيون (أرناط) بخرق معاهدة السلام مع المسلمين التى كانت تكفل حق وحرية مرور القوافل التجارية من مصر إلى دمشق ، وسعى ريموند الثالث للمحاربين المسلمين بالاغارة على أراضى الملكة الصليبية عبر أقليم الجليل الذى يسيطر عليه. لقد كانت موقعة حطين الخامسة تمثل علامات ضعف السلطة الملكية، وكانت قوة النبلاء الصليبيين هي القادة على ملاهـا الفراغ الذى حدث نتيجة ضعف السلطة الملكية.

وخير مثال على تردى وضع السلطة الملكية الصليبية: فـي بيت المقدس هو ما قام به قادة الحملة الصليبية الثالثة وهم ريتشارد قلب الأسد وفيليب الثاني أغسطس من اتفاق على تقسيم الأرضى التى سيتم غزوها، وتجاهل وجود السلطة السياسية والشرعية للملك الصليبي فى المملكة اللاتينية. وثمة مثال آخر يدلل على ضعف السلطة الملكية الصليبية ، وهو أن الملوك الأوروبيين قد أستدوا الأعمال التجارية فى أرجاء المملكة الصليبية إلى كل من كونراد مونتفرات (١١٩٠-١١٩٢م) وهنرى كونت شامبانيا (١١٩٢-١١٩٧م) على التوالى.

وباعتلاء جان دى بيرن (١٢١٠-١٢٢٥م) عرش المملكة الصليبية، كانت هذه المملكة قد فقدت خمس حدودها السابقة، وأخيراً دخلت المملكة فترة من الاستقرار . بيد أنه قبل الحملة الصليبية الخامسة التى تحركت صوب ديمياط بوقت طويل كان بلاجيوس النائب البابوى يؤكّد أن الأرضى التى سيتم احتلالها فى مصر لم تخصل المملكة اللاتينية. وفى أعقاب نشل الحملة الصليبية الخامسة حاول الملك جان دى بيرن أن يقنع البابا بمسألة الحفاظ على وجود المملكة ضد أي غزو متوقع عن طريق اعداد الغرب الأوروبي لحملة صليبية فى المستقبل.

وكان اعتلاء فردرىك الثانى الهohenstaufen عرش المملكة الصليبية (١٢٤٣-١٢٤٥) بمثابة اشارة للأفول والانهيار النهائى للسلطة الملكية. ومن بين العديد من الألقاب والتيجان كان فردرىك الثانى يحمل لقب «امبراطور الرومان» ، و«ملك البرمان» ، و«ملك صقلية» - وكان لقب ملك بيت المقدس مجيداً ، ولكنـه غير مفيد . فقد كان هذا الامبراطور الهohenstaufenى وفتى البرجماتى على استعداد دائماً لمارسة واستخدام امتيازاته باعتباره قائداً صليبياً ، بيد أنه لم يف بالتزاماته وتعهداته التالية بشكل جدى أيضاً . وكانت دعامتـه الأساسية تنحصر فى ميراثه وحقوقـه فى ألمانيا وإيطاليا ، ولم تعد الأرض المقدسة فى بلاد الشام تشكل أهمية كبيرة فى خططـه ومشاريعـه . فقد نجحت حملـته الصليبية الشهـيرة (الحملـة الصليـبية السادـسة) لـجاحـاً باهـراً ، ومن الشـئ المؤسف والمـخزى للـمسيحـية أن يـقوم قـائد صـليـبيـ مثل فـرـدرـىـكـ الثـانـىـ محـرومـ كـنـسـياًـ بـتـتوـيجـ نـفـسـهـ مـلـكاـ فـيـ كـنـيـسـةـ الضـرـبـ المـقـدـسـ ، فـيـ الـوقـتـ الذـىـ كـانـتـ فـيـهـ مـدـيـنـةـ القدسـ تحتـ طـائـلـةـ عـقـرـيـةـ الـحـرـمـانـ الـكـنـسـيـ excommunicationـ . لقد سـاـهـمـتـ كـلـ هـذـهـ الأـحـدـاثـ جـمـيعـهـاـ فـيـ الـحـاقـ الـضـعـفـ وـالـانـهـيـارـ بـالـسـلـطـةـ الـمـلـكـيـةـ ، التـىـ كـانـتـ تـعـانـىـ مـنـ التـفـسـخـ وـالـانـهـيـارـ . وـسـاـهـمـ رـحـيلـ الـامـپـرـاطـورـ فـرـدرـىـكـ الثـانـىـ مـنـ الـأـرـضـ الـمـقـدـسـ فـيـ بـلـادـ الشـامـ فـيـ عـامـ ١٢٢٩ـ فـيـ خـلـقـ وـضـعـ مـلـكـيـ رـائـعـ ، هـذـاـ الرـوـضـ الذـىـ أـسـتـطـاعـ أـنـ يـضـعـ نـهاـيـةـ لـتـمرـدـ اـبـنـهـ العـاقـ وـالـقـضاـءـ عـلـىـ مـلـكـةـ هـذـاـ الـابـنـ كـونـرـادـ (١٢٤٣-١٢٥٤ـمـ)ـ ، وـالـذـىـ لـمـ يـزـرـ الـأـرـضـ الـمـقـدـسـ . وـتـلاـشتـ آـثـارـ

السلطة المركزية في المملكة اللاتينية قاماً وتركزت قيادة هذه المملكة في أيدي النبلاء وكبار التجار، والهيئات الدينية العسكرية (الداوية- الاستبارية - التيوتون) ، والكوميونات الإيطالية. ولم تسفر مهزلة قبول دعاوى ومطالب الأميرة أليس Alice (حفيدة الملك أمالريك) وزوجها راؤول من سواسون Raoul de Soissons في عام ١٢٤٣ لحكم المملكة الصليبية إلا عن لقب غامض خاوي الوفاض مجرد من أي معنى أو سلطة. وقد تجادل النبلاء حول هذا الموضوع واعتبروا أن ما حدث كان في إطار الشرعية من أجل الحفاظ وحماية حقوق كونراد ابن الأميرة الفرنسية إيزابيلا (أخت جان دي برين) ، وابن император التكبير فردرريك الثاني، والذي كان آخر سلسلة الملوك الأبطال في أوروبا .

كان ملوك أسرة لوزجنان في قبرص هم آخر ملوك المملكة الصليبية، وأصبحوا ملوكاً لبيت المقدس من خلال الميراث . فقد كانت جهود كل من الملوك الصليبيين هيوا الثالث Hugh III (١٢٨٤-١٢٦٨) ، وجان الأول Jean (١٢٨٤-١٢٨٥) وهنري الثاني Henri II (١٢٩١-١٢٨٥) والمتوفى (١٣٢٤) من أجل الحفاظ على الأقاليم الرئيسة للملكة الصليبية، تلك المناطق والأقاليم التي كانت في ذلك الوقت لا تضم أكثر من عدد قليل من المدن الساحلية، وهي المدن التي كساها الحزن ولفها الخراب وأصبحت عديمة النفع فقد تورط ملوك أسرة لوزجنان في أعباء مالية وعسكرية في جزيرة قبرص، تلك الجزر التي لم تكن بمنأى عن أخطار التدخل الأوروبي ، والتي كانت يحدوها الأمل لاسترداد أقاليمها التي فقدتها من قبل. ومن اللافت للنظر، أن بيع تاج ملكة بيت المقدس الصليبية في عام ١٢٧٧م إلى شارل الأنجو (هذا البيع الذي أقره بابا روما) كان بعيداً عن الصواب والحكمة. فقد كان غياب المطالب بالعرش من أسرة لوزجنان السبب في حرمان هذه الأسرة من حكم المملكة الصليبية لبعض الوقت، بيد أن شارل الأنجو لم يحكم هذه المملكة . ومن ناحية أخرى، فإن أسرة لوزجنان في النهاية استطاعت أن تثبت حقها في حكم مملكة بيت المقدس الصليبية ومارسة هذا الحق وذلك بفضل مؤازرة وعنون الهيئات الدينية العسكرية (الاستبارية - الداوية- التيوتون) . والكوميونات التجارية ، التي كانت تقدم المساعدة والنجدة للملك الصليبي في ضوء المصلحة والفائدة التي يجذبها من وراء هذه المساعدات . وعندما استبسلت مدينة عكا في حصارها الأخير في عام ١٢٩١م ، ظهر ملك بيت المقدس وقبرص في المدينة يدافع عنها بشجاعة نادرة حتى خارت قواه وفقد كل الأمال من أجل إنقاذهما من يد المسلمين الماليك. وعندئذ هرب الملك الصليبي وسقط آخر معلم صليبي في الأرض المقدسة، وقفل راجعاً إلى مملكة قبرص.

الفصل الثامن

آلية الحكومة الصليبية

لقد خضع نظام الحكم الملكي الصليبي في بيت المقدس للعديد من التغييرات الإيجابية منذ أن اختار المحاربون الصليبيون المتعبدون في الحملة الصليبية الأولى أول حاكم لهم في كنيسة الضربي المقدس. وكان الأزدهار الاقتصادي المستدام للمملكة الصليبية في القرن الثاني عشر الميلادي يتحقق بالنموذج الشرقي الخرافي من حيث نظم الحكم، والمناخ ، والطعام ، والملابس ، وقد أثر كل هذا على الملكية الفرنجية في منطقة الشرق العربي. فقد تركت إحدى السفارات التي أرسلت من المملكة اللاتينية في بيت المقدس إلى بلاط ملوك غرب أوروبا انطباعاً بأن الأوروبيين النعميين الذين يعيشون في هذه المملكة الصليبية أصبحوا مختفين من فرط انفاسهم في النعيم، ويسبب افراطهم في ارتداء الملابس الأثثقة، واستخدام العطور الشذوذ، وتزيينهم بالحللي الذهبية الرائعة . وكان أعظماً هذه السفارة من رجال الدين الذين جاؤوا إلى الغرب الأوروبي يتلمسون المساعدات المالية؛ إذ أن من السلم به أن البلاط الملكي في بيت المقدس لم يقل تألفاً وبهاءً عن أعظمه، سفارته الكنسين.

كان أول قصر للملك بيت المقدس الصليبيين يقع مكان منطقة المسجد الأقصى الفخمة ، وهنا كانت حدود الهيكل * الشرق تواجه الأسوار الجنوبيّة لمدينة بيت المقدس . وكان القصر الملكي يطل على مدينة داود القديمة حيث وادي كدرون Kedron الواقع في المنطقة المنخفضة وجبل الزيتون في المنطقة العليا. وقد تلاشت فخامة وعظمة المسجد الأقصى بشكل كبير في أعقاب استيلاء تانكرد عليه في أثناء الغزو الصليبي لمدينة القدس، فقد رفع تانكرد بيرقد على القبة وواصل أعماله التخريبية فأخذ يدمر اللمسات الذهبية التي كانت تزين المسجد وينهب كنوزه وثرواته. بيد أن المحاربين الفرنجية الأشواوس كانوا ينظرون إلى كل هذه الفخامة والأبهة الشرقية بانبهار باعتبارها خرافة الشرق العجيب الذي أتوا إليه من أوروبا.

* يؤكد المزلف على قرية طالما رددتها المؤذخون اليهود وهي أن منطقة المسجد الأقصى تقع على أطلال هيكل داود . (الترجم) .

وقد سكن هذا القصر الملكي كل من جودفري البويونى ، وبلدوين الأول، وبلدوين الثاني. ويبعد أن القصر الملكي قد انتقل خلال فترة حكم الملك بلدوين الثاني من المسجد الأقصى (والذى كان من أبرز عيوبه موقعه المنعزل عن المدينة وافتقاره إلى السكان) إلى الجزء الغربى من العاصمة. ولم يتضح ما إذا كان المبنى الجديد للقصر قد شيد فعلاً أو كان مبنياً قدماً ، وربما أصبح مكان إقامة قائد الحامية الفاطمية المصرية قصراً ملكياً صليبياً. وما نعرفه أن هذا القصر كان على مقربة من القلعة التى كانت تعرف باسم «برج داود» ، وكان ملاصقاً لها. وكانت القلعة تقع شمال القصر، وفي جهة الغرب كان القصر يطل على الخندق العميق الذى يفصل مدينة بيت المقدس عن السهل المحيط بها ، والذى يمتد حتى جبانة ما ميلاد City of Mamilla . وكانت هذه الجبانة المكان المألف لدفن موتى المدينة وفي أثناء فترة الوجود الصليبي أصبحت هذه الجبانة مخصصة لدفن موتى رجال الدين التابعين لكنيسة القصر الملكي يطل على دير القديس ساباس St. Sabas البيزنطى ودير القديس جيمس St. James الأرمنى.

ولم نعرف شيئاً عن الشكل المعماري للقصر الملكي الصليبي، إذ لم نجد أوصافاً معاصرة أو حفائر أثرية لهذا القصر تشبه تلك التى عثر عليها فى المنطقة الغربية من برج داود ، تلك الحفائر الأثرية التى تم العثور عليها والكشف عنها والتى أظهرت التأثير السابق لهذه العمارة. وفي خريطة لمدينة القدس ترجع إلى القرن الثانى عشر الميلادى يتضح من خلالها أن القصر الملكي كان عبارة عن مبنى مكون من ثلاثة أو أربعة طوابق ، يحيط به سور ومزود بحاصرة عبارة عن برجين مشيدتين فى كل ركن من أركان السور. وكانت الطوابق السفلية للقصر غير مرئية ، إذ كانت تحجب أسفل أحد الأسوار، بينما كان الطابق العلوى للقصر عبارة عن بهو معدن مفتوح من خلال سلسلة من الأروقة المتناظرة تجاه المدينة. ولم يكن سقف القصر مسطحاً مثل النمط الشرقي، بل كان على الطراز الغربى الأوروبي، أى كان ذا سطح جملونى مغطى بالأجر (القرميد) أو مكسو بصفائح معدنية ذات شكل زخرفى.

وخارج مدينة القدس كان يوجد قصور ملكية فى مدینتى عكا وصوصور، فقد كان القصر الملكي فى مدينة عكا يقع فى القلعة فى وسط السور الشمالي الخارجى، وفي كل الاحتمالات، كان هذا القصر يقع فى أضعف نقطة من نقاط دفاعات المدينة. وفي فترة متاخرة ، فقد التصر جزئياً ميزته العسكرية، وذلك لأنه تم تحسين صاحبة جديدة فى أثناء القرن الثالث عشر

الميلادى بواسطه حزام قوى من الأسوار. وهكذا كان القصر والقلعة تقربياً في وسط العاصمة. وفي العادة كانت القلعة مكاناً لإقامة محافظ القلعة The Castellan ، بيد أنه في أثناء زيارة الملك ، ثم بعد ذلك في أثناء إقامته المستمرة (ولاسيما بعد أن أصبحت مدينة عكا عاصمة الملكة الصليبية في عمرها الثاني) أصبحت القلعة مكان اقامة الملك الصليبي.

لقد كان بلاط الملك الصليبي مركز الحكومة كما كان الوضع في كل أنحاء الغرب الأوروبي المسيحي. ومن المحتمل أن غواص الحكومة الصليبية في منطقة الشرق العربي كان على غرار النمط الفرنسي ، ويمكن تفسير هذه الحقيقة بسهولة في ضوء أصل وجنور الطبقة الصليبية الحاكمة وطبقة المحاربين في المملكة اللاتينية . والحقيقة أنه في أواخر القرن الحادى عشر الميلادى لم تكن هناك اختلافات جوهرية بين نظم الحكم الملكية في أوروبا. فقد كان بلاط الملك الصليبي في بيت المقدس يأثر بلاط الملك النورمانى في الجلترا ، والملك الفرنسي من آل كابيه أو دوقات نورماندي. وثمة سند قوى من الحقيقة يؤكّد القول بأن بلاط الملك الصليبي في بيت المقدس كان يشبه بلاط دوقات نورماندي . إذ كان أهم ما يميز بلاط بيت المقدس هو الطبيعة المحافظة على القديم. وانطلاقاً من ظروف مائلة، فإن الملكيات الأوروبية في أثناء القرن الثاني عشر الميلادى استطاعت تطوير آلية الحكومة تلك الآلية التي تكيفت بسهولة وتأقلمت مع الاتجاهات المركزية للنظام الملكي، وكذلك مع حقائق التطور الاقتصادي الجديدة في أوروبا. ومن خلال عملية مفاضلة أو تبديل فإن الملكيات الأوروبية، أصبحت موطن نشوء التقسيمات الكبيرة في الآلية الحكومية : الادارة والسلطان القضائي، والتشريع . هذا الأمر الذي لم يحدث على الاطلاق في المملكة اللاتينية في بيت المقدس. فقد تحجرت الآلية الحكومية المركزية في المملكة الصليبية حوالي عام ١١٢٥ م تقربياً ، بعد جيل من الغزو الصليبي ، وظلت هذه الآلية الحكومية دون تغيير جوهري حتى سقوط المملكة اللاتينية النهائي في عام ١٢٩١ م. وفي نهاية المملكة الصليبية الأولى عام ١١٨٧ م، كانت هذه الآلية الحكومية تعيش في زمن غير زمانها وفي أثناء فترة المملكة الصليبية الثانية ثبت باليقين أن هذه الآلية الحكومية قد أصبحت جثة هامدة تماماً.

وليس بالأمر اليسير تفسير أسباب عدم ملامحة التطور الحكومي أو عدم الملامحة بالنسبة للآلية الحكومية الصليبية. و يبدو أن ثمة عوامل ثلاثة رئيسة قد تجمعـت وحددت شكل هذا النمط الحكومي الصليبي. ففي المقام الأول اقتضـت حالة الحرب المزمنة والطويلة بين المسلمين

والصلبيين في أثناء الجيل الأول من فترة الوجود الصليبي أن تخضع كل مهام وأعمال الحكومة لواجهة واجبات الحرب الأكثر خطورة وأهمية ، سواء من أجل التوسيع أو من أجل الدفاع عن الكيان الصليبي . وإذا تجاوزنا عن ذكر تطور نظام الآلية الإدارية ، فإنه بلاشك تصبح أعمال وجهود أية حكومة مركزية قليلة الأهمية في هذه المرحلة ، إذ كان التركيز ينصب على المتطلبات العسكرية وعلى حكومة فعالة وقوية على المستوى المحلي : لكي تزود الملك الصليبي والنبلاء بمقومات وسبل الوجود ، وكان التنسيق بين الملك وبين نبلائه أمراً له أهميته . فقد عاش الملك الصليبي وأفصاله الاقطاعيون عيشة الكفاف .

والعامل الثاني الذي يفسر التطور الخاص بالملكة اللاتينية يتعلق بالنظام الاقطاعي الصليبي باعتباره نظام حكم . هذا النظام الذي كان يهدف إلى تأسيس ملكية قوية ونبلاء تابعين . ولما كان الغرب الأوروبي في أثناء القرن الثاني عشر الميلادي يشهد غلو السلطة الملكية ، وكبح جماح النزاعات الاستقلالية الاقطاعية وأخيراً دمج الكيانات السياسية التي كانت تتمتع بالحكم الذاتي داخل جسد الملكة ، فإن المملكة اللاتينية في بيت المقدس قد تطورت في اتجاه مضاد لهذا الخط الأوروبي . وبعد منتصف القرن الثاني الميلادي ، أصبح النبلاء أو على وجه الدقة كبار الأعيان عنصراً مهماً في حكومة المملكة اللاتينية . فقد ألغيت الامتيازات الملكية بشكل ضمني ، وكانت الحكومة ذات الفعالية تارس عملها على المستوى المحلي . وهكذا كانت المهام الرئيسية للحكومة ذات الفعالية تارس عملها على المستوى المحلي . أي أن المهام الرئيسية للحكومة كانت تارس داخل التقسيمات الاقطاعية ، تلك التقسيمات التي كانت تعارض تدخل السلطة المركزية الصليبية ، وكانت لديها من القوة ما يجعلها قادرة على منع من هذا التدخل تماماً ، الأمر الذي أعاد تطور الإدارة المركزية وترك لها مجالاً ضيقاً لاحادات مثل هذا التطور .

وأخيراً نستطيع أن نتبين النتيجة الطبيعية للتطور السابق وأعني فعالية الحكومة الصليبية على المستوى المحلي فقط ، وإلى حد ما كان هذا ظهراً مختلفاً لنفس الشيء الذي يجب أن نعتبره كعامل ثالث له تأثير على تطور المملكة اللاتينية وكان هذا العامل الثالث هو المحكمة العليا التي كانت المقر التقليدي لاجتماع الملك وكبار أتباعه الاقطاعيين ، والتي تأسست تعبيراً عن تطبيق التنظيم الاقطاعي في المملكة اللاتينية ، وكانت على غرار النمط البطريركي من حيث استخدام المشورة العائلية وتقديم المساعدة والمشورة للملك . بيد أنه في المملكة اللاتينية

أصبح التزام الفصل بتقديم المساعدة والمشورة لسيده الاقطاعي امتيازاً، ذلك الامتياز الذي تحول بسرعة إلى مجموعة من القوانين التي لم تجبر الملك فقط على طلب المشورة من كبار أوصاله الاقطاعيين، بل أكره الملك أيضاً بوجوب هذه القوانين الاقطاعية على العمل بهذه المشورة وتنفيذها . وأصبحت شرعية القرارات الملكية تعتمد تدريجياً على موافقة أعضاء المحكمة العليا، وهكذا استطاعت المحكمة العليا بنفوذها أن تفل يد الملك في تنفيذ خططه وسياساته . وباتت المحكمة العليا بثابة دولاب الآلية الحكومية المركزية ، وذات مجال ضيق للحكومة الملكية الحقيقة وللمؤسسات المتخصصة المتطورة.

ونتيجة لهذا تطور الآلية الحكومية الملكية، بيد أن هذا التطور كان شيئاً . وظلت الوظائف الرسمية الحكومية الصليبية تقليداً لتلك الوظائف التي ترجع إلى فترة الحكم الكارولنجي في أوروبا بصورة أكبر عن كونها ميراثاً ملكياً . وفي الوقت الذي كانت فيه الملكيات الأوروبية تتاجع نشطاً وقامت بالغاء بعض هذه الوظائف أو حولتها إلى وظائف شرفية، ظلت الملكة اللاتينية تبقى على مثل هذه الوظائف واعتبرتها أدوات تنفيذية مركبة طوال فترة الوجود الصليبي التي استمرت ما يقرب من مائة عام.

لقد تطورت المحكمة العليا التي كانت ت Miz الملكة الصليبية بصورة أكبر عن آية مؤسسة أخرى. فكانت المحكمة العليا تعرف في اللاتينية باسم المحكمة العامة Curia generalis ، وأحياناً عرفت في الفرنسية المحلية باسم البرلمان Parlement . بيد أن الكتب والرسائل القانونية هي فقط التي تشير إلى هذه المحكمة باسم المحكمة العليا Haute Cour . ومن القرن الثاني عشر حتى منتصف القرن الثالث عشر الميلادي ظلت عضوية هذه المحكمة قاصرة على السادة الاقطاعيين ، أي أن تكوينها خلال هذه الفترة كان اقطاعياً . وإن كانت عضوية هذه المحكمة امتدت لتشمل بعض الأعضاء غير الاقطاعيين. وفي المحكمة العليا كان الملك يجتمع بكلار السادة الاقطاعيين الذين تسلموا اقطاعاتهم (سواء كانوا من صغار الأوصال أو من كبار الأوصال أو كانوا من أصحاب الاقطاعات النقدية) منه بشكل مباشر، وكان منح الملك هذه الاقطاعات لأوصاله وتقديم هؤلاء الأوصال له يمين الولاء والتبعية الاقطاعية بشكل رابطة اقطاعية قانونية بين الملك وبين أوصاله المباشرين . ومن الناحية النظرية، كانت اجتماعات المحكمة العليا يحضرها صنفان من النبلاء: كلار السادة الذين يحكمون البارونيات (البارونات) والأوصال المباشرين للodomين الملكي - هؤلاء الأوصال مقابل تقديم خدمات

عسكرية - مباشرة إلى الملك. ومن بين الأوصال المباشرين للدومين الملكي (أوصال الملك المباشرين) نجد أيضًا عدًّا من الفرسان العاديين الذين يعيشون في القصر الملكي. ومن الناحية العملية كانت اجتماعات المحكمة العليا تشهد حضور كبار السادة الاقطاعيين «وأعيان» المملكة الصليبية. وما يذكر أن فترة العصور الوسطى كانت فترة غير ديمقراطية إذ كانت الأصوات في أي اقتراح لا تخضع للعدد والاحصاء، بل كانت تخضع للتقييم. فقد كان حضور ورأى صغار الأوصال في جلسات المحكمة العليا من قبيل الزينة فقط - ولاسيما إذا كان هؤلاء الأوصال من لم يلقوا قبولاً لدى الملك ولم يكونوا من المقربين إليه.

وريًا كانت اجتماعات المحكمة العليا يحضرها أربعون من النبلاء (وكان هذا هو عدد كبار السادة الاقطاعيين تقريبًا). ومن الناحية القانونية ، كان الملك وثلاثة من كبار السادة الاقطاعيين الأعضاء في المحكمة العليا يشكلون نصاباً قانونياً لعقد جلسة المحكمة ، بيد أن أية جلسة من جلسات المحكمة الخامسة كانت تتطلب بالضرورة حضور عدد مناسب من الأعضاء ذوي الخبرة القانونية واشتراكهم في هذه الجلسة المصيرية.

وفي فترة حكم الملك الصليبي أمالريك (عموري) حوالي عام ١١٦٢م، خضعت عملية ترکيب وتكوين المحكمة العليا لتغيير رئيس غير عملی. فالتشريع الشهير الذي عرف باسم «قانون التبعية الاقطاعية The Assises sur la Ligece» والذى كان ذا تأثير محسوس في كل فرع من فروع الحياة العامة، يقر «أنه منذ الآن فصاعداً يجب على كل حائز الاقطاعات في المملكة اللاتينية (كبار الأوصال وصغر الأوصال) أن يقدم كل حائز منهم قسماً مباشراً بالولاء والتبعية الاقطاعية للملك الصليبي. وهكذا أصبح هؤلاء الأوصال أقراناً لبعضهم البعض وأصبحوا مرتبطين اقطاعياً بالملك بشكل مباشر. وأصبح لكل منهم الحق في حضور جلسات المحكمة العليا والمشاركة فيها. وبموجب هذا القانون ازداد عدد المشاركين في عضوية المحكمة حيث كان يوجد أكثر من ستمائة حائز اقطاعي في المملكة الصليبية. وعلى أي حال، فإنه من الناحية العملية كان صغار الحائزين الاقطاعيين يحضرون جلسة المحكمة العليا التي تتناظر مع إعداد حملة عسكرية أو مع حدث غير عادي، ولدينا معرفة بمعظم هذه الحالات والظروف ، والواقع أن الفرسان المحليين كانوا يحضرون جلسات المحكمة العليا في بيت المقدس أو في مدينة عكا وهي الجلسات التي كانت تناقش الأمور الخاصة باعداد حملة عسكرية أو الأمور غير العادية ، وقلما كان هؤلاء الفرسان في استطاعتهم تغيير صفة هذه الجلسة أو التأثير على فعالية قراراته. وكان الأعيان دائمًا يسيطرون على المحكمة العليا بشكل أساسى.

وغير تركيب وتكون المحكمة العليا مرة ثانية حوالي عام ١٢٢٣ م ، حيث أدت الحركة الثورية والمعارضة التي قادها كبار البلا ، من أسرة ابلين Ibelin ضد الإمبراطور الألماني فرديريك الثاني الهوهنشاون إلى خلق مؤسسة جديدة حل محل المحكمة العليا واضطاعت هذه المؤسسة الجديدة بعدها هذه المحكمة مدة اثنى عشر عاماً . وعرفت هذه المؤسسة الجديدة باسم حكومة أو برلان عكا Commune of Acre وكان بشارة مكان لاجتماع سادة الامارات والضياع الصليبية الذين يمثلون مجتمع مملكة بيت المقدس . واستخدم هذا البرلان الصليبي الجديد في عكا نفس اطار الهيئة الدينية العسكرية التي كرست أعمالها لصالح القديس أندرؤ St. Andrew ، تلك الهيئة التي تأسست باعتبارها جماعة ثورية شرعية وكانت حكومة عكا توافق إلى ضمان المعاشرة والتأييد الشعبي القوى لها ، ولذا فتحت أبوابها واسعة أمام الفرسان والنبلاء وبرجوازية المدينة لكي يقسموا أغلال اليمان من أجل الأمان المتبادل ومن أجل انتخاب موظفي الحكومة الصليبية في عكا .

لقد كانت هذه التجربة قصيرة العمر ، ومع انتهاء خطر الهوهنشتاون الذي كان يهدد القانون (قانون الامتيازات والاعفاءات التجارية) بشكل مزعوم ، كانت حكومة عكا قد أصابها الاعياء والنصب وتلاشت وبدأت المحكمة العليا تستعيد مكانتها السابقة . بيد أن هذه الحادثة قد تركت آثاراً ملموسة . فعلى سبيل المثال ، كانت هناك محاولة لتغيير بعض الاجراءات القضائية للمحكمة العليا ، وذلك بادخال الشهادة المدونة في أية قضائية واعتبارها ملزمة وشرعية وتدوينها في السجل الرسمي لما دالت المحكمة وقراراتها وهذا على عكس ما كان معمولاً به في سجل المحكمة العليا في الفترة الباكرة من الوجود الصليبي ، وقد عرف هذا السجل باسم «ذاكرة المحكمة» . وحدثت هذه المحاولة في عام ١٢٥٠ م في أثناء فترة اقامة الملك الفرنسي لويس التاسع في المحكمة الصليبية في عكا ، فقد قرر الملك الفرنسي عقد اجتماع عام للمحكمة العليا والمحكمة البرجوازية ، وكانت المحكمة البرجوازية مثل طبقة البرجوازية . وفشل الاصلاح المقترن في هذا الاجتماع بيد أن اجراء المداولات العامة كان في حقيقته أمراً غير عادي . وفي فترة متأخرة لم تكن هناك اجتماعات عامة للمحكمتين العليا والبرجوازية ويرغم ذلك فإن طريقة عقد بعض اجتماعات المحكمة العليا قد تغيرت إلى طريقة وأسلوب فريد . ففي وقت مبكر من القرن الثاني عشر الميلادي ، كان يقدموا الهيئات الدينية العسكرية (الاستبارية - الداوية- التيوتون) بشاركون في اجتماعات المحكمة العليا ، على الرغم من أنهم لم يكونوا أوصياءً للملك بالمعنى العادي للكلمة . وعلى الرغم من أن حضورهم

كان يبرره الأعداد الكبيرة من الاقطاعات التي كانت بحوزتهم ، فإن السبب الحقيقي وراء مشاركتهم في أعمال المحكمة العليا يمكن في حقيقة أن فرسان هذه الهيئات الدينية العسكرية كانوا الدعامة العسكرية الأساسية للملكة الصليبية. وإذا كان حضور كبار رجال الدين اجتماعات المحكمة العليا يمكن تفسيره في ضوء ملكيتهم لبعض الاقطاعات فالحقيقة أن هذه المشاركة تعكس الوضع التقليدي لكتار رجال الدين في المجتمع المسيحي. وبنهاية القرن الثاني عشر الميلادي ، كان النبلاء والأساقفة ، ومقدموا الهيئات الدينية العسكرية يتحالفون مع عناصر جديدة ، تلك العناصر التي كانت انعكاساً لوجود مجموعة سياسية جديدة ومتألفة في المملكة الصليبية ، وكانت الكوميونات الإيطالية التي تعمت بالحكم الذاتي أكثر هذه العناصر الجديدة أهمية. وإذا كان أبناء هذه الكوميونات الإيطالية يعتبرون من كبار السادة الاقطاعيين الشرعيين ، فإنهم ضمنوا لأنفسهم مكاناً في المملكة الصليبية بفضل قوتهم البحرية ، وثروتهم وقواتها العسكرية أيضاً . وهكذا فإن مثلى البندقية ، وجنوا وبيزا قد شاركوا في كل الجلسات المهمة للمحكمة العليا.

وجاء انضمام أبناء الكوميونات الإيطالية إلى المحكمة العليا بعد منتصف القرن الثالث عشر الميلادي ، بعد انضمام كبار البرجوازية ومقدمي الهيئات الدينية العسكرية. وإنه لمن قبيل الحدّس إلى حد بعيد القول بأن مقدمي الهيئات الدينية العسكرية قد شاركوا في اجتماعات المحكمة العليا وذلك لأنه كان يوجد عرف جديد يقضي بتقديم قسم الولاء الاقطاعي إلى سيدتهم الاقطاعي - أو أن هؤلاء قد قدموا هذا القسم استناداً إلى المشاركة في تلك المحكمة الاقطاعية بشكل أساسي. وتبقى حقيقة مؤداها أن مقدمي الهيئات الدينية العسكرية قد شاركوا في أعمال المداولة وتبادل الرأي وصنع القرار في المحكمة العليا في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي.

وهكذا فإن المحكمة الملكية الاقطاعية في المملكة الصليبية في النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادي قد تعرضت لتغيير بشكل بطيء واندمج في عضويتها عناصر أخرى. بيد أنها لم تصبح برلماناً أو مجلساً عاماً لللامارات ، ولم تطور أي قانون للتمثيل التمثيلي. وفي نهاية القرن الثالث عشر الميلادي ، أصبحت المحكمة العليا مكاناً لاجتماع مختلف عناصر القرى في المجتمع ، وجمعية تشريعية تضم كل أصحاب النفوذ الحقيقي في المملكة الصليبية. وخلال فترة طويلة ومستقرة من حياة المملكة الصليبية استطاعت أن تنشىء المؤسسة التي

تسير صوب خط التطور المعاصر تجاه نظام التمثيل النيابي، على الرغم من أن هذه العملية كانت تستلزم تغييرات واسعة في البنية الكلية للمملكة الصليبية.

وكانت هذه التغييرات في تكوينها يصاحبها تطور في اختصاصات ومهام المحكمة العليا. وأنكر مشرعوا المملكة الصليبية في القرن الثالث عشر الميلادي بشدة هذا التطور في اختصاصات المحكمة العليا، وأصرّوا على عدم الاعتراف بأى شيء في هذاخصوص بيد أنهم اعترفوا فقط بتلك المؤسسات الثابتة التي يرجع تأسيسها زيفاً إلى الملك الصليبي المجل جيودفري البيووني. وكانت العلل والأسباب التي تذرعوا بها تتلاءم تماماً مع ظروف العصور الوسطى التي كانت تنفر وتشتمز من أحداث أي نوع من التجديد والابتكار. ومع ذلك، تقدمت المحكمة العليا خطوة صوب التطور، وقتل هذا التطور في انتقالها من الوضع الاستشاري إلى التنفيذي للسلطة الحكومية في المملكة. وعلى الرغم من أن قائمة اختصاصات المحكمة العليا ربما تمثل صعوبة في ترتيب هذه الاختصاصات فإن المحكمة العليا قد شاركت بشكل فعال في كل مظاهر الحكم التي يمارسها الملك الصليبي. وبالإضافة إلى ذلك، فقد كانت المحكمة العليا الأداة الحكومية من خلال عملها معًا مع كبار موظفي الدولة. ومارس الملك الصليبي اختصاصه باعتباره يمثل قمة الهرم الاقطاعي في الرتبة والمكانة. ولم يكن التمييز بين سلطة الملك الصليبي وبين سلطة السيد الاقطاعي الأعلى واضحًا دائمًا لدى عقول المعاصرين ، ومع ذلك فإن مثل هذا التمييز كان موجودًا بالفعل وكان للمحكمة العليا وضعًا مختلفًا في هذه الأمور.

وياعتبر الملك الصليبي رئيس الدولة وقائد عام الجيوش ، فإنه كان يقرر الأمور السياسية، التي تتضمن العلاقات الدولية الخارجية والمعاهدات وقرار إعلان الحرب . وعقد معاهدات السلام. وقلما كانت القرارات الملكية استبدادية في كل الأمور التي ذكرناها آنفًا. واتباعًا للعرف والعادات والأسلوب النفعي ، فإن مثل هذه القرارات الخطيرة كانت تصدر بعد مداولة قانونية ومطابقة للعرف، مع مراعاة الأخذ بنصيحة المحكمة العليا. وأصبح الكثير من حالات الزواج الملكية- والتي كانت تعنى في العادة مصادرة سياسية- أيضاً موضوعاً من موضوعات النقاش والجدل والوصول إلى قرار بشأنها . وغالباً ما تسمح عن انقسام في التداول والتشاور بين أعضاء المحكمة (معارضة داخل المحكمة العليا) ، وهذا الانقسام والاختلاف في الرأى يؤكّد أن مثل المداولات والمشاورات التي كانت تجري داخل أروقة المحكمة العليا وتحت قبتها كانت حقيقة. وعلى سبيل المثال، ففي أحدى مرات التداول والتشاور في المحكمة العليا،

والتي كانت تتعلق باتخاذ قرار مصيرى وصعب حول ما إذا كان الحصار الصليبي يجحب أن يفرض على مدينة عسقلان أو على مدينة صور وذلك فى عام ١١٢٣م، فقد طأ المشاورون إلى تطبيق الحكم الإلهى في هذه الحالة وذلك بترك صبي يسحب أحد الورقتين المدون عليهما اسمى المدينين وهذا أشبه بالقرعة لاتخاذ القرار النهائي. بيد أنه من أبرز سمات وخصائص هذه المشاورات والمداولات التي كانت تجرى في المحكمة العليا هي أن أعضاءها كانوا يسدون النصيحة فقط. وكان القرار النهائي بيد الملك . وعلى الرغم من أنه يمكن التسليم بأن ثمة تعاون منسجم كان بين أعضاء المحكمة والملك بشكل عام، فإن قرار الملك ، كان هو القرار النهائي.

وفي النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادى، استطاعت المحكمة الملكية أن تتجاوز الوظائف الاستشارية لثل هذه المحاكم. وكانت مثل هذه الحالة تتجلى كما رأينا في تسوية المشاكل والمنازعات التي تتعلق بوراثة العرش الملكي الصليبي، ولاسيما عندما يظهر أحد المطالبين بالحق الوراثى في اعتلاء العرش، بيد أن المحكمة العليا لم تسن تشريعًا بخصوص الحق الشرعى في العرش الملكى. فقد أدت وفاة جودفري البويونى إلى استدعاء أخيه بلدوين الأول لكي يخلف أخيه في حكم المملكة اللاتينية في عام ١١٠٠م، على الرغم من معارضة كل من تانكرد والبطريك ، وقامت المحكمة العليا أيضًا باستدعاء ابن عم الملك بلدوين الأول المدعو بلدوين الثانى من الرها على الرغم من الدعوى الشرعية التي أقامها الأخ الغائب المدعو ايستاس البولونى Eustace of Boulogne وقامت المحكمة العليا باجبار أمالريك (عموري) لكي يلتق زوجته في عام ١١٦٢م قبل الاعتراف به وريثًا شرعياً لأخيه بلدوين الثالث. وهكذا كانت المحكمة العليا تلعب دوراً حاسماً في حسم القضايا المتعلقة بوراثة العرش، وكانت تتصرف باعتبارها سلطة تشريعية رسمية تفوق الصفة والسمة الاستشارية لثل هذه المحكمة . ومع ذلك ، فإنه في فترة متأخرة من عام ١١٧٦م تجاهل الملك بلدوين الرابع المعارضة البارونية ووافق على زواج ابنته ووريثته الحقيقة (ايزابيلا) من وليام لونجسورد- William Longs word ، والزواج من جى لوزجتان في عام ١١٨٠م.

وكان الوضع مختلفاً في الأمور الخاصة بالسلام، وال الحرب والاتفاقيات الدولية. وعلى الرغم من أن صوت الملك كان حاسماً في هذه الأمور، فإنه كان من المناسب أن ينشد الملك تعاون البارونات والفرسان معه ، وكانت آراؤهم ذات قيمة وأهمية في هذه الأمور وجدية بالاعتبار.

وفي أوقات الأزمات كانت المحكمة العليا تؤدي مهمتها بقوة. ففي المعاهدة المشهورة التي أبرمها البطريرك وارمند Warmund مع البناية في عام ١١٢٣ في أثناء أسر الملك الصليبي بلدون الثاني نجد الدعوة من جراء قيام النبلاء بالموافقة على اجراء الملك لكي يتلزم ببنود الاتفاقية التي عقدت من أجل ذلك أسره، وإن كانوا سوف لا يعترضون به حاكما شرعيا لهم.

ومن الصعب أن نقرر ما إذا كانت اختصاصات الملك الأخرى تتعلق بالسيادة العليا والهيمنة على كل الأجهزة الحكومية . ويمكننا أن نعتبر المداولات والمشاورات البارونية بخصوص زواج ابنة الملك الصليبي كانت من قبيل التزام هؤلاء البارونات بتقديم المشورة للملك باعتبارهم أنصاصا له. وكانت مثل هذه الاجراءات مألوفة في كل محكمة اقطاعية حيث كان الأوصال يناقشون الأمور الخاصة بأسرة سيدتهم الاقطاعي . فقد كان أي زواج يتم داخل الأسرة الملكية من شأنه يهم مصالح أكثر من أسرة وأكثر من ضيعة اقطاعية أو قلعة*. وكانت حالة الزواج المهمة تعنى تقريراً مصاورة سياسية وغالباً ما كانت تتضمن أيضاً بعض المظاهر الاقتصادية أو العسكرية الجوهرية. وحينما كان يتم التشاور بشأن أهمية هذه الأمور المتعلقة بالمصاورة السياسية داخل أروقة المحكمة العليا ، فإن هذه المحكمة كانت في الواقع تناقش أمور السياسة الخارجية للملكة الصليبية.

وكانت سلطة فرض الضرائب غير الاقطاعية من اختصاصات الملك باعتباره السيد الاقطاعي الأعلى ، وطالما كانت الموارد المالية للخزانة الملكية تجلب من المصادر الاقطاعية الأخرى ، فإنه ليس هناك ثمة حاجة لقرارات أو اتفاقيات خاصة ، وذلك لأن هذا كله كان يخضع للنظام المأثور والعرف السائد. وعلى أي حال ، لم يلغا الملك الصليبي إلى فرض وجوبية ضريبة استثنائية غير مألوفة . وهكذا فإنه في عام ١١٦٦م ، وقبل موعد انطلاق احدى الحملات الصليبية ضد مصر ، دعا الملك أمالريك (عموري) إلى عقد اجتماع للمحكمة العليا في نابلس ، وقررت المحكمة العليا في هذه الجلسة (ويبدو أن البرجوازية قد شاركوا في هذه

* لاشك أن الزواج داخل الأسرة الملكية كان يؤثر بدوره على شئون الأسر الأخرى والضياع الاقطاعية الأخرى بسبب مسألة الميراث ونقل الميراث إلى سيد اقطاعي آخر ، وكان هذا يؤثر في كل العمليات الاقطاعية الأخرى . (المترجم) .

المملكة) بأن العشور الكنسية سوف تفرض على كل الأموال المتنولة في كل أنحاء المملكة الصليبية. وثمة ضريبة غير اقطاعية أخرى ترجع إلى عام ١١٨٣م، وهي تلك الضريبة التي قضت بها جلسة المحكمة العليا في بيت المقدس، وفرضت على كل الأموال الشابة والمتنولة الخاصة بكل سكان المملكة الصليبية دون تفرقة بين جنس أو عقيدة . وكانت السمة الاستثنائية لهذه الضريبة تستلزم موافقة كل الذين يهتمهم الأمر (أعني دافعي الضرائب) ، أو الذين كانوا يمثلون مجتمع المملكة الصليبية في المحكمة العليا.

وكان من أهم اختصاصات المحكمة العليا القيام والشراف على معظم الأعمال التجارية، وقد استمدت المحكمة العليا هذا الحق لكونها مكاناً لاجتماع الملك مع أفساليه. لقد كانت المحكمة Curia في أحد معاناتها المحددة تعنى أداة لإقامة العدالة. ولكن تتحقق هذه المهمة كانت المحكمة العليا، أو النصاب القانوني لعدد أعضاء المحكمة (كان النصاب القانوني لعدد الأعضاء يضم ثلاثة من العلمانيين بالإضافة إلى الملك) في حالة انعقاد مستمرة، وكان للمحكمة العليا مجال أوسع للفصل في القضايا والمنازعات في العصور الوسطى عن الوقت الحاضر. فكانت تفصل في الخلافات التي تنشب بين أفسالي الملك، وال المتعلقة بالاقطاعات التي يحوزتهم وشملت اختصاصات المحكمة العليا أيضاً حق الفصل في القضايا الجنائية والمدنية. إذ كانت جرائم القتل والاغتيال، والسلب والاغتصاب، والخيانة العظمى تعتبر من جرائم خرق القانون الاقطاعي أو جرائم كبرى - وكان الملك والمحكمة العليا يفصلان في هذه الجرائم . ومن ناحية أخرى، فإن كل القضايا الخاصة بالأراضي الاقطاعية، والميراث ، والوصاية، والالتزامات الاقطاعية (الخدمات الاقطاعية) كانت تنظر أمام المحكمة العليا. وبالإضافة إلى ذلك ، فإن المحكمة العليا كانت تنظر في القضايا المتعلقة بتحويل ملكية الاقطاعات ، سواء كان بالبيع، أو بالايجار . إذ كان تأجير الاقطاعات يتم من خلال المحكمة العليا فقط. ففي حالة تأجير الاقطاعات لم يكن قرار المحكمة ملزماً فقط في هذا الخصوص بل كانت آراء أصحابها التي تعلن في جلسة المحكمة بمثابة ضمان لحقوق مالك الاقطاعات التي تم تأجيرها . ولم يزد عقد البيع أو تحويل الملكية المدون عن كونه بمثابة مفكرة ولم يكن اثباتاً قانونياً ملزماً . ولم تقصر اختصاصات المحكمة العليا فقط على إقامة العدالة بين أفسالي الملك ، بل كانت لها حق الفصل في القضايا بين الملك وأفساليه أيضاً . وكان هذا يمثل لب فكرة النظام الاقطاعي الحالى كما أوضحته وذكره المشرعون الصليبيون . والواقع أننا لم نجد مثل هذه المحاكمة وهذه

القضايا بين الملك وأفصاله في تاريخ المملكة اللاتينية. وما يذكر أن الملكة ميلسندـ M. lissandeـ استطاعت أن تفصل في الدعوى التي أقامها دير القديسة ماري المجدلية St. Mary of Josaphat ضد التاج الملكي في احدى جلسات المحكمة العليا. ولسوء الحظ لم توضع الوثيقة أو البراءة الملكية الموجودة حالياً طريقة تسوية هذه القضية التي رفعها رهبان الدير ضد التاج الملكي، سواء كانت هذه التسوية في شكل قرار أصدرته المحكمة العليا أو اتفاق توصل إليه طرفا النزاع (المملكة ورهبان الدير) وتدوين هذا الاتفاق (كانت القضية تتعلق بنقل ملكية أرض) في سجلات المحكمة.

وفي نهاية القرن الثاني عشر الميلادي، وفي الوقت الذي تطورت فيه قوانين وموظفي كل المحاكم الملكية في الغرب الأوروبي للتعامل مع مختلف القضايا التي تنظر أمامها ، ظلت المحاكم في المملكة الصليبية دون تطور أو تغيير يذكر. فلم يحدث تغيير في بنية وشكل المحكمة الملكية في هذه المملكة طوال فترة الوجود الصليبي في المنطقة العربية التي استمرت ما يقرب من قرنين من الزمان.

كانت السلطة القضائية تستند إلى تشريع. وفي الغالب كان النفور والاشمئزاز من التجديد الذي كان سمة من سمات العصور الوسطى يؤدى إلى تخيل قانون قديم «أوفكرة اكتشاف القانون» فلم يكن هناك شيء مبتكر، وكان القانون المعمول به يمكن تفسيره ببساطة أو اقراره والتصرّح به. وبالرغم من ذلك ، فإن الصليبيين من هذه الناحية كانوا أقل محافظة على القديم من معاصرיהם الأوروبيين والحقيقة أن المملكة اللاتينية الوليدة في بيت المقدس كانت في خصام ونفور مع نظرية التشريع وسن القوانين التقليدية . وبصراحة يمكن وصف القوانين الجديدة التي تم سنها. وعلى الرغم من كثرة عدد القوانين العرفية فإنه كان هناك القوانين المستمرة من القوانين السابقة Case Law . فقد كانت قرارات المحكمة العليا تحسي قوانين شرعية سابقة؛ إذ كان اصدارها حكم قضائي بمثابة تشريع وقانون . وهكذا كانت المحكمة العليا بمثابة محكمة لاقامة العدالة كما كانت أيضاً في نفس الوقت أداة لسن القوانين الحكومية.

وعلى الرغم من تعاظم حجم اجراءات القوانين العرفية كما أوضحتها لنا المشرعان الصليبيان الشهيران فيليب دي نوفارa Philippe de Novara وجان دي ابلين Jean d'Ibelin سيد يافا في القرن الثالث عشر الميلادي فإن هذه القوانين كانت مستمدّة من القوانين السابقة، وسلك التشريع أيضاً اتجاهها آخرًا. وكان هناك جهدًا ملحوظاً قام به الملك الصليبي والنبلاء من أجل

سن قوانين جديدة، لمواجهة المتطلبات الجديدة التي فرضتها قضايا جديدة وملحة عجز القانون المعرفي عن مواجهتها ومعالجتها . وببساطة استطاع الملك الصليبي أن يصدر قوانين ادارية محلية وفرض عقوبة اللعنة على من يخالفها . بيد أن هذا الوضع واجهته بعض المعارضة . فقد شهدت احدى هذه الحالات الغريبة معارضة وذلك حينما أصدر أحد الملوك الصليبيين الذين يحملون اسم بلدوبن أمراً بتنظيف شوارع مدينة القدس وفرض عقوبة الغرامات المالية ضد من يخالف تنفيذ هذا الأمر . ومن الواقع أن المحكمة البرجوازية قد استاءت من جراء فرض هذا القانون المفید للمدينة بالقوة، ومتندرعة بأن هذا القرار قد صدر دون موافقتها ، ومن ناحية أخرى ، فإن المحكمة العليا تغاضت عن هذا القانون المهم . وإذا ألقينا نظرة على الأعراف والتقاليد الصليبية في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي، فإننا نستطيع الاعتقاد بأن الملك الصليبي في السنوات الباكرة من تأسيس المملكة اللاتينية في بيت المقدس قد شكل لجنة لترتيب وتصنيف القوانين، التي أصبحت تشكل المجموعة القانونية المقترحة للملكة الصليبية، وذلك بعد العديد من التمحيص والاستفسارات عن مسائل قانونية أخرى، وبعد العديد من المشاورات والمداولات القانونية المناسبة . وإلى حد ما فإن مثل هذه السياسة التي ترجع إلى بداية القرن الثاني عشر الميلادي كانت ذات فعالية وصائب، ويمكننا الظن بأن هذه السياسة كانت تحبى ذكرى الأساطير اليونانية والرومانية المرتبطة بأرباب القوانين والحكمة العظام . ومن ناحية أخرى، فإنه ليس هناك شك في أن هذه القوانين كان يتم اقتراحها في محكمة الملك، ثم تناقش وتصنف وتصاغ بشكل متفق عليه في شكل نسخ مدونة يتم ايداعها في أعظم حرم مقس في المملكة الصليبية باعتبارها «رسائل الضريح المقدس» وكانت هذه القوانين تعرف باسم «الآسيز Assises» وكانت تحمل نفس المعنى الذي تحمله مجموعة القوانين والآسيز في نورماندي وفي إنجلترا . وكانت هذه المجموعة القانونية تضم القوانين الخاصة بالجرائم الجنائية، والقضايا الاقطاعية، وكذلك قوانين مدينة ، وكانت أيضاً تضم مراحل عديدة من الإجراءات القضائية وكان مثل هذا النشاط التشريعي شاملاً وواسعاً في القرن الثاني عشر الميلادي، بيد أن هذا النشاط التشريعي بدأ يتضاءل ويضعف في أثناء القرن الثالث عشر الميلادي . لقد كان تشريع القرن الثاني عشر الميلادي والقوانين المتراكمة السابقة التي ترجع إلى قرن مضى قبل القرن الثاني عشر الميلادي كافية لمواجهة المتطلبات القضائية للملكة الصليبية خلال هذا القرن، بيد أننا نستطيع أن نقرر بأن الجرأة على تجديد قوانين قد تضائلت مع غلو ارتباط طبقة النبلاء بالقانون القديم ، الذي أصبح مقدساً إلى حد بعيد . كانت المحكمة العليا تعلن القوانين وكانت

أحكامها القضائية هي قانون البلاد. وعلى الرغم من أن المحكمة العليا باستطاعتها استحداث قوانين جديدة، فإنها كانت أيضاً بثابة مخزن ومستودع القوانين والمدافع عن القوانين القديمة والأعراف والامتيازات والاعفاءات.

والأهمية العظمى للمحكمة العليا الصليبية كعامل مهمين في الحكومة يفسر لنا الدور المساعد الذي تقوم به هذه المحكمة ومساعدة الآلية التنفيذية الحكومية ممثلة في الوظائف الكبرى وكبار الموظفين في المملكة اللاتينية. فقد كانت المحكمة العليا تتضطلع بكثير من المهام والاختصاصات الملكية، بينما كانت بعض الاختصاصات الأخرى تتضطلع بهامحاكم الامارات الصليبية التي تتمتع بالحكم الذاتي. وهذا من شأنه لم يترك للإدارة الملكية مجالاً كبيراً، كما أن هذا يفسر لنا حقيقة مؤداها أنها لم نعرف أية محاولات قامت بها المحكمة العليا للسيطرة على كبار الموظفين ، كما حدث على سبيل المثال في الجلترة في ما كان يعرف باسم دستور ١٢٤٤م أو ما جاء في هذا الخصوص في اتفاقيات وعقود اكسفورد في عام ١٢٥٨م. ونظراً لأن هذه القوانين كانت غير مهمة فإن المحكمة العليا التواقة والمعطشة إلى السلطة لم تنتبه إليها ، ولم تلقى لها بالأ. ولنفس السبب ، لم يستطع النبلاء المحليون المطالبة بالوظائف الكبرى كامتيازات وراثية . وهكذا فاننا نجد العائلات النبيلة الكبرى في المملكة الصليبية قد استطاعت شغل الوظائف الكبرى في كل جيل، بيد أن هذا الوضع يمكن اعتباره حالة عادلة للنبيل الذي يدخل ويحافظ على مصالحه في المستقبل في أي مكان ، في المحكمة العليا وفي إدارة أملاكه الخاصة . ومن ثم كان للملك حرية إسناد بعض هذه الوظائف إلى من يحب ، حتى ولو كان الذي يفضلهم من النبلاء الذين ليسوا من مواطني المملكة .

وفي إطار هذه الظروف، لم تكن الوظائف الكبرى في المملكة اللاتينية قائلة أو تطابق مثيلتها العاصرة في الغرب الأوروبي. وبخصوص هذه الناحية ، فإنه عندما أصبحت لوظيفة القهرمان Seneschal سلطة حقيقة في الغرب الأوروبي، قام الملك الفرنسي فيليب الثاني أوجسطس بالتخلّي عن هذه الوظيفة وجعلها شاغرة وساهم بالتالي في تدهورها ، ولم يحدث هذا الشيء في المملكة الصليبية في بيت المقدس.

وهنا كانت وظيفة الكونستابل Constable تعتبر أكثر أهمية ، على الرغم من أن القهرمان كان يتمتع بنوع من الأسبقية التشريفية، والسبب الرئيسي لهذا الاختلاف إذا ما قررنا بالوضع في الغرب الأوروبي يمكن تفسيره في ضوء حقيقة أن الكونستابل قائد الجيوش لم

يقتصر دوره على المجاز مهمة رئيسة في مجال الحرب فقط بل كان يمارس نفوذه في مجال آخر بحيث لا يستطيع أن يتحدى سلطة الملك ومركزه وكان القهرمان *Seneschal* يترأس المحكمة العليا في أثناء غياب الملك (باستثناء، القضايا الجنائية والقضايا المتعلقة بالاقطاعات، وهي القضايا التي كانت تناقش في حضور الملك)، ويتمتع بالأسبقية ، بيد أن سلطته لم تكن أعظم من سلطة الملك، الذي لم يزد عن كونه الأول بين أقرانه *Primus inter pares* حيث كان يترأس المحكمة العليا .

وكان القهرمان *Senschal* ، باعتباره مثلاً للملك، يستطيع أن يترأس جلسات المحكمة العليا في أوقات السلم. وفي العادة كان يقود الجيش الملكي وقت الحرب. وبخصوص المهام الأخرى، كان القهرمان يشرف على إدارة الأمور المالية في المملكة. ولم تصل الخزانة والإدارة المالية في المملكة اللاتينية إلى مستوى الإدارة المالية التورمانية ، بيد أن الأشراف على إدارة قسم السكرتارية (وهو القسم الذي ورد ذكره في المصادر الصليبية في ملكتي بيت المقدس وقبص الصليبيين) كان من أهم الوظائف والمهام التي يقوم بها القهرمان . وقد تضمنت هذه المهمة تعيين النساخ والكتبة، والوكلاء *Steward baillis* ، وأيضاً جباة الضرائب الملكية أو الذي يقوم ببيع المحاصيل الملكية بأعلى الأسعار والاشراف عليهم جميعاً . وفي إطار مهمة القهرمان في الإشراف على الأمور المالية في المملكة ، كان أيضاً مسؤولاً عن المحافظة على القلاع الملكية، وامداد حامية القلعة بالمؤن، على الرغم من أنه لم يكن قائداً أو محافظاً لهذه القلعة الملكية، كما أنه لم يتدخل في الأمور العسكرية لهذه القلعة .

وكما ذكرنا آنفاً ، كانت إدارة الحرب تدخل في نطاق سيادة الكونستابل ، بوصفه القائد العسكري الثاني بعد المارشال . وكانت هناك علاقة خاصة ودقيقة بين الاثنين، إذ كان على المارشال تقديم يمين التبعية الاقطاعية للكونستابل مقابل تسلمه لوظيفته ويبدو أن مثل هذا القسم والتبعية كان ميزة وخصوصية انفردت بها المملكة اللاتينية في بيت المقدس. ويمكن تفسير حدوث مثل هذه الممارسة في ضوء حقيقة أن الكونستابل كان يتسلم اقطاعاً من الملك مقابل تسلمه لوظيفته ، ومن ثم كان الكونستابل يقطع جزءاً من اقطاعاته للمارشال باعتباره المساعد الرئيسي له. ومن مهام الكونستابل الرئيسة الإشراف على أفراد الجيش ، وهذه المهمة تشمل الإشراف على القوات والفرق العسكرية والمعدات ، وأيضاً المهام القيادية الأخرى . وكان الكونستابل يقوم بمراجعة وفحص نسبة الخدمة العسكرية المستحقة على كبار الأفواض

الاقطاعيين التابعين للملك، وكان مسؤولاً عن معدات هؤلاء الفرسان وفي أثناء الحملات العسكرية كان الكونستابل يقوم بمهمة قاضي قضاة العسكر بموجب القانون العسكري، على الرغم من أن السلطة القضائية الفعلية كانت بيد كبار السادة الاقطاعيين. وكان هذا دليلاً يمثل مشكلة شائكة وسط جيش يتكون من كبار النبلاء بيد أن الجيش الاقطاعي كان يمثل جزءاً فقط من أجزاء الجيش الملكي. وفي أوقات الخطر أو الطوارئ ، كان الملك الصليبي والنبلاء على السواء يقومون باستئجار فرسان ومحاربين مشاة Sergeants ، وحاملي الدروع Squires ، وكان الكونستابل مسؤولاً مسؤولية مباشرة عن اعاشة هؤلاء المحاربين ورفاهيتهم ولاسيما تدبير وصرف مرتباتهم ومستحقاتهم المالية، إذ كان عليه توضيب مطالب هؤلاء المحاربين المستأجرين (المرتزقة) ، وفي بعض المناسبات كانت مطالباتهم ترفع أمام المحكمة العليا. ويبدو أن الكونستابل في مثل هذه الحالات كان يترأس المحكمة العليا في أثناء غياب الملك. وكان للmarschal مهمة خاصة هي الاشراف على الخيول ، وعلى عملية تقسيم الغنائم، ولاسيما الخيول. إذ كان مسؤولاً عن تزويد المحاربين بالخيول بدلاً من التي قتلت في ساحة المعركة أو نفقت . ولم تجلب هذه الوظيفة لصاحبها أية أهمية حقيقة.

وظل الحاجب أو الياور Chamberlain مرتبطاً ارتباطاً شخصياً بالملك أكثر من أي موظف آخر من كبار الموظفين، واحتفظت هذه الوظيفة بشكل أكبر بسماتها وخصائصها المألوفة السابقة. وعلى الأقل في القرن الثاني عشر الميلادي، كان صاحب هذه الوظيفة (الحاجب) يحصل على اقطاع يقدر بخمس قرى تدر دخلاً يقدر بمبلغ ٧٥٠٠ بيزنطاً سنوياً. وإذا كانت هذه الوظيفة تحلى وتدر على صاحبها دخلاً سنوياً يقدر بحوالي ١٠٠٠ بيزنط (كان هذا الدخل يعادل $\frac{1}{25}$ من موارد مدينة بيت المقدس) فإن هذا يعني أن دخل الحاجب السنوي كان يعادل دخل اقطاعات اثنين من الفرسان. وكان الحاجب يشرف على عملية تقديم قسم التعبية الاقطاعية الذي يؤديه كبار الأنصار للملك الصليبي. وكان مسؤولاً عن الاشراف على المصاريف المنزلية الملكية ، والاشراف على خدام وموظفي القصر الملكي.

وما يذكر أن الوضع المتحجر للآلية الحكومية المركزية كان بثابة دليل على عدم تطور المحكمة العليا. وفي الوقت الذي أصبحت فيه كل المحاكم الملكية في كل أنحاء أوروبا المكان الرئيسي للوظائف ، تتكيف مع مهام وواجبات هذه الوظائف بهدف تعزيز غير مسبوق للسلطة الملكية ، فإن المحكمة العليا في مملكة بيت المقدس الصليبية كانت قد أصابها الركود. وعلى

الرغم من أن وظيفة القاضي كانت دائماً بيد أحد الأساقفة وأحياناً كانت بيد أحد الشخصيات المهمة البارزة، فإن هذه الوظيفة لم يكن لها ثمة تأثير أو نفوذ على السياسات الملكية ، ولم تتطور أمانة سر المحكمة العليا. وأكثر من ذلك ، فإن القاضي لم يكتب بنفسه العقود أو يحررها وكان هذا النمط من العقود والحجج المحررة عبارة عن حجج منح اقطاعية فقط (على الرغم من أن العقود والحجج الباقية من هذه الفترة تعطينا فكرة مختلفة عن ذلك). ولم تتطور المحكمة العليا الوظائف القضائية ، ولم تنسق أو ترتيب الوظائف الأخرى، وظللت هذه المحكمة مسؤولة عن المراسلات والمكاتب الملكية ورعا عن السجلات الملكية .

لقد ذكرنا من قبل الأسباب التي وقفت حجر عثرة أمام تطور آلية الحكومة المركزية الصليبية ، ويسبب الاستقلال الذاتي المستفحلي للبارونيات الصليبية يجبر علينا أن نبحث عن المجموعة الكاملة للمؤسسات البدانية والجنينية للحكومة المركزية على المستوى المحلي. ومن هذا المنطلق ، يمكن القول أن السيادة الملكية الصليبية يمكن اعتبارها نوعاً من السيادة الاقطاعية ، أو على أكثر تقدير يمكن اعتبارها كمجموعة من أنواع السيادة المختلطة التي تتعلق بالتاج الملكي .

الفصل التاسع

مناطق السيادة الصليبية الحكومة الصليبية على المستوى المحلي

أ- الامارات الصليبية الصغيرة والخريطة الاقطاعية للملكة اللاتينية:

كان الساسة الصليبيون يعانون نوعاً من الفراغ المخيف. ففي الوقت الذي تقلصت فيه الامتيازات الملكية فقدت السلطة المركزية هيبتها وقوتها ، أفسح المجال أمام النبلاء وبدأوا يتحركون صوب ملأ هذا الفراغ السياسي . وهكذا فإنه في منتصف القرن الثاني عشر الميلادي باتت السلطة المركزية للملوك الصليبيين ضعيفة وغير فعالة ، وبدأت الحكومة تواصل عملها على المستوى المحلي في الإمارات الاقطاعية الصغيرة.

ومن يلاحظ أن التطور التاريخي للإمارات الاقطاعية الصليبية في المنطقة العربية غامض ويشوهه الإبهام، ومتابعة هذا التطور ليس بالأمر البسيط. وكما ذكرنا آنفاً، فإنه على الأقل خلال فترة حكم الملوك الصليبيين الأولين جيودفري البويوني وأخيه بلدويين الأول كان ثمة امتعاض ملحوظ من قبل السلطة الملكية من جهة منح البارونيات لرفقاء الملك في السلاح. وربما كان اتباع الملوك الصليبيين مثل هذه السياسة التي تمنع منح الأملك للنبلاء يرجع إلى فقر الملكة والخشية من تعاظم نفوذ هؤلاء البارونات على حساب السلطة الملكية ومنافستها ، ولم تعرف أوروبا في تلك الفترة مثل هذه السياسة التي سلكها الملوك الصليبيين. وخصص ملوك بيت المقدس لنبلاهم إقطاعات نقدية بدلاً من امتلاك الأراضي الزراعية مقابل الخدمات التي يقدمها هؤلاء النبلاء ولضمان الحفاظ مثل هذه الخدمات في المستقبل ومن الطبيعي أن مثل هذا كان أكثر ملائمة للملكة الصليبية، واستمر الصليبيون في تقليد نظام الاقتصاد النقدي وممارسة هذا الاقتصاد الذي عرفته منطقة الشرق العربي حتى بعد احتلال الصليبيين لها . وهكذا كانت الإقطاعات النقدية مثل النمط الأول للإقطاعات مع أن هذا النمط من الإقطاعات في فترة متأخرة من الوجود الصليبي لم يعد النمط الشائع، وعرف الإقطاع النقدي وقتئذ باسم

اقطاعات البيزنط، وفي بداية فترة الوجود الصليبي كان اجمال الدخل ينبع في صورة اقطاع ، ولم تتحدد قيمة الاقطاع النقدي المنزح. وعلى سبيل المثال، كان الاقطاع النقدي عبارة عن اجمالي دخل مدينة أو احتكار ملكي لمدينة . وإذا ما تتبعنا هذه السياسة الصليبية لتبين لنا أنها خلقت دولة اقطاعية ظاهرياً وأوجدت طبقة من النبلاء يتتقاضون الرواتب ، تؤدي وظيفة بiero-قراطية ، أو أن هذه السياسة اتبعت نظاماً متطرفاً كالذى كان سائداً في الأقطار الإسلامية المجاورة. فقد عرفت هذه الأقطار الإسلامية النظام الاقطاعي ، وكان هذا النظام على الأقل بتشابه خط مشابه لهذا التطور الذي كان عليه الاقطاع في هذه الأقطار الإسلامية. وكانت الاسترقاطية في الأقطار الإسلامية تعتمد في كسب رزقها واعالتها على المخصصات المالية من خزانة الدولة.

وعلى أي حال، فإن سياسة عدم خلق سادة اقطاعيين من النبلاء، الصليبيين لم يكتب لها البقاء خلال فترة الملوك الصليبيين الأولين (جيوفري البويوني - بدلوين الأول) . فقد حدث استثناء خلال فترة حكم جيوفري البويوني وعلى مضض منه، وذلك عندما ظهرت اماراة الجليل وعاصمتها طبرية في شكل اماراة صليبية كبيرة قوية. ومن المحتمل أن تانكرد أمير الجليل لم يكن في نيته أن يحكم اقطاعاً تابعاً للناظر الملكي في بيت المقدس بل كان يتوى الحصول على اماراة مستقلة في شمال المملكة الصليبية ، وكان من المفترض أن تضم إماراة الجليل مدينة طبرية ، مع بحيرة الجليل باعتبارها المركز الجغرافي للإماراة ، وتشمل أيضاً كل الأراضي الواقعة عبر نهر الأردن حتى حدود دمشق في الشرق والشمال ونهر اليرموك في الجنوب. وفي حين كان الحد الغربي لامارة الجليل يصل إلى البحر المتوسط، فإن هذه الإماراة كانت تضم وتشمل كل الجليل. وقدر لمدينة حيفا التي ادعى تانكرد ملكيتها عقب وفاة جيوفري البويوني في عام ١١٠٠ أن تصبح منفذًا على البحر. ولقب تانكرد بلقب أمير الجليل، والذي لم يكن فصلاً ملكياً، بل كان (يحمل لقباً يشبه لقب أمير أنطاكية) حاكماً مستقلاً. ويسبب الظروف السياسية اضطر تانكرد إلى أن يغادر إقليم الجليل إلى أنطاكية. وهكذا تمكن الملك الصليبي بدلوين الأول من ادماج هذه الإماراة المنشقة مع بنية المملكة الصليبية . وتم منح هذه المنطقة الواسعة التي كانت ضمن حدود إقليم الجليل سابقاً إلى أحد نبلاء المملكة في شكل اقطاع. واتخذ حاكم الليل (والذي كان واحداً فقط من بين أنصاف المملكة الصليبية) لنفسه لقب «أمير» هذا اللقب الذي يحيى ذكرى طموحات تانكرد.

لقد كان تأسيس امارة الجليل الصليبية بثابة استثناء في أكثر من ناحية. وعادة كان الربع الأول من القرن الثاني عشر الميلادي بثابة الفترة الرئيسة لتأسيس ونشأة الامارات الاقطاعية الصليبية. وفي السنوات الأخيرة من حكم الملك الصليبي بلدوين الأول وفي أثناء حكم خليفةه الملك بلدوين الثاني (١١١٨-١١٣١م) تشكلت الخطوط العريضة للخريطة الاقطاعية على الرغم من أن هذه العملية استمرت بشكل متقطع في الربع الثالث من القرن الثاني الميلادي.

لقد كان العامل الأساسي في خلق كيانات وامارات صليبية هو حالة العجز والضعف الذي آلت إليه المملكة الصليبية، تلك الحالة التي تأصلت في كل التنظيمات الاقطاعية ، وكانت الخدمة العسكرية الاقطاعية ضرورة ملحة ولها القدر المعلى في مساعدة السلطات الصليبية في ادارة أملاك شاسعة بحزم وفعالية والاضطلاع بهام ووظائف عامة. ففي أوروبا التي سادها نظام الاقتصاد الطبيعي نتيجة الغزوات البرمانية، انقسمت مالك أوروبا في العصور الوسطى الباكرة نسبياً إلى وحدات صغيرة شبه مستقلة، واعتمدبقاء هذه المالك على مصادر الثروة المتاحة والتي تشتت في ملكية الأراضي التي كانت مصدر الثروة والسلطة في العصور الوسطى ولم يكن هذا هو الحال في المملكة الصليبية في بيت المقدس. فقد كانت منطقة الشرق العربي الإسلامي تعرف الاقتصاد النقدي قبل الغزو الصليبي لها وبدأت الكيانات الصليبية في هذه المناطق تستخدم من جديد النقود في التعامل التجاري. وأدى هذا النمط من الاقتصاد النقدي إلى خلق حكومة يعتمد دولاب العمل فيها على عدد كبير من الموظفين البيروقراطيين يتتقاضون مرتبات وكذلك على جيش ومحاربين يتتقاضون رواتب أيضاً. وهكذا فإن طبيعة الدولة التي ظهرت للوجود أخيراً لم تحكمها الظروف الاقتصادية ، وأية ذلك، تفوق وسيادة نفط من الاقتصاد الريفي الذي يتميز بالمقايضة . ويمكن أن نعزز جزئياً تطبيق التنظيم الاقطاعي في الامارات الصليبية إلى السنة العسكرية لهذه الامارات بيد أن السبب الرئيسي يرجع إلى عقلية النبلاء والفرسان الأوروبيين التي تشبث بالأفاط التقليدية للتماسك والوقار الاجتماعي. لقد كانت الممارسة الاقطاعية عبارة عن مجموعة قانونية يعرفها الأوروبيون، وهذه الحقيقة هي التي حددت الاطار العام للتنظيم الاقطاعي الذي انتقل إلى المملكة الصليبية الجديدة.

وبينما يمكن تفسير تطبيق التنظيم الاقطاعي في المملكة الصليبية على أساس الخبرة التي يتمتع بها الأوروبيون في هذا المجال وملامنة هذا النظام لظروفهم في الفترة الباكرة من وجودهم في المنطقة العربية ، فإن قسوة وصرامة هذا النظام الاقطاعي التي لم تتغير تؤكد تؤكّد الروح

الاستعمارية للملكة الصليبية ، وفي هذه الحالة كانت المملكة تتثبت بالماضي بشكل أعمى، هذا الماضي الذي لم يصبح في نظرهم مجيداً فقط ، بل كان مقدساً . وهكذا عاشت روح فرنسا القرن الحادى عشر الميلادى فى المملكة الصليبية حتى نهاية القرن الثالث عشر الميلادى، وظللت هذه الروح طويلاً بعد تغير موقف فرنسا وعدم اعترافها بالكيانات الصليبية.

وما يذكر أن المحاولة لتقيد عملية إنشاء وتأسيس امارات اقطاعية صغيرة قد أدت إلى تراجع وانهيار نماذج الوطن. فقد توقع رفقاء جودفري البويونى وبلدوين الأول، والفرسان الذين تقاطروا على المملكة الصليبية حديثاً والذين قدموا الخدمة العسكرية خلال فترة حكم الملك بaldoين الثانى الحصول على اقطاعات حربية تضمن لهم مستوى اجتماعى راق وكوسيلة من وسائل العيش وكسب الرزق. ولم تؤدى مطالب هؤلاء جمیعاً إلى اثارة غضب الملك الصليبي أو ضعف السلطة الملكية. ولم يرغب أى حاكم فى العصور الوسطى أن يكون ملكاً للفقراء المعدمين أو للأتباع المأجورين . وعلاوة على ذلك ، فإن سياسة الاستيطان الفعالة وأيضاً الحكومة والإدارة القرية الفعالة تتطلب بالضرورة منع اقطاعات لطبقة الفرسان المحاربين.

ولم تنصع المصادر التاريخية التي بين أيدينا عن طبيعة عملية تقسيم ومنح الاقطاعات الصليبية في منطقة الشرق العربي الإسلامي في الفترة الباكرة. ولا نعرف لماذا أصبحت بعض الاقطاعات امارات وتابعة للodomين الملكي. ومن الجائز أن حجم الاقطاع أو رتبة النبيل ومكانته أو درجة قرباته من الملك الصليبي هي المعايير التي كانت تحدد موقعه ووضعه في الهيكلية الاقطاعية (الدرجة الاقطاعية) . وربما كان هذا بثابة اجراء باكر في المملكة الصليبية ، بيد أن وجود اقطاعات صغيرة مستقلة تتكون من فصلين أو ثلاثة أقسام (وكان الكثير من الاقطاعات الصليبية من هذا النوع) قلما يؤكد ويبرهن على وجهة النظر هذه . . ومهما كان التفسير فإنه يجب أن نفترض بأن عملية تقسيم الاقطاعات الباكرة قد حدّدت مستقبل الوضع القانوني الاقطاعي للإمارة الاقطاعية ، وكان هذا التقسيم الاقطاعي يتطلب مبدئياً تقديم مين الولاء والتبعية الاقطاعية. ففي البداية ، كانت المنح الاقطاعية من الأرض الزراعية بسيطة، ثم تحولت هذه المنح بعد ذلك إلى امارات اقطاعية مستقلة وفي الغالب كانت القلعة أو المدينة هي مركز الاقطاعية. ولا ينافي الحقيقة إذا افترضنا أن حالات اغتصاب الحكم كانت النغمة الدالة في معظم الأقطار الاقطاعية في الغرب الأوروبي والتي تأسست بشكل شرعى.

ومن الملاحظ أن الامارة الاقطاعية الصغيرة لم تحرز درجة من الحكم الذاتي . وفي وقت متاخر حدد القانون الاقطاعى الصليبي الامارة الاقطاعية وحجم حقوقها وأوضح أن الامارة الاقطاعية تتمتع بحقوق قضائية ، وحق سك النقود ، وإقامة العدالة... الخ. ولأميرها الحق في امتلاك محكمة، وحق البيع، وحق النظر في القضايا الصغرى والقضايا الجنائية الكبرى. وكانت المحكمة الاقطاعية في الامارة والتي ذكرناها آنفاً يتكون أعضاؤها من أوصال الأمير الاقطاعي، وكان عدد ثلاثة أوصال يشكل النصاب القانوني لانعقاد هذه المحكمة. وإذا كانت الامارة الإقطاعية لا تضم مثل هذا العدد من الأوصال ، فإن السيد الاقطاعي للامارة يصبح ملزمًا بتزويد المحكمة بعدد من أتباعه وحاشيته وكان الامتياز الثاني الذي تمت به السيد الاقطاعي في امارته هو حق (والذي كان يصنع عادة من الشمع) حمل الخاتم الذي يصادق به رسمياً على الوثائق. وثالث هذه الامتيازات التي كان يتمتع بها السيد الاقطاعي في امارته حق الفصل في القضايا والمنازعات التي تنشب بين سكان امارته ، وذلك أمام المحكمة البرجوازية في المدن، أو أمام المحاكم الاقليمية الصغيرة في المناطق الريفية.

ومما يذكر أن أية إمارة اقطاعية قد تأسست حالاً لا يمكن الغاء وجودها . فإذا تغير سادتها، وانقرضت الأسرة الحاكمة في هذه الامارة ، فإنه في هذه الحالة يجب الحاق هذه الامارة بامارة أخرى تابعة لنفس السيد الاقطاعي لهذه الامارة من خلال الزواج، أو الميراث أو الاكتساب، بيد أنه على الرغم من كل هذه التغيرات فإن الامارة الاقطاعية تظل تحفظ بيهويتها الذاتية، وكان البارونون الاقطاعي يدير كل المقاطعات العديدة المجاورة التي يسيطر عليهما كوحدة مستقلة . وكانت المحكمة الاقطاعية تعتقد فقط في الامارة الاقطاعية . وهكذا فإن قانون حق الشفعة الاقطاعي أو تحديد النسب Lignage ، والذي كان يشمل أفراد عائلة وأوصالها قد روئى بشدة في التطبيق الإداري. والحقيقة أن المحكمة الاقطاعية للإمارة قد طبقت مثل هذا القانون في محكمتها البرجوازية والتي كانت من المحتل تتبع أنفوج وفقط المؤسسة الاقطاعية، ولم يكن للمحكمة البرجوازية في أية مدينة من مدن الامارة صلات بأية محكمة أخرى غير تابعة للإمارة .^١

والحقيقة أن المقاطعات الصليبية لم تنشأ وفقاً لخطبة رئيسة، وقلما كان يخطط لها على الاطلاق. فإن فكرة جودفري البويني أو بلدوين الأول عن تقسيم الملكة الصليبية في بيت المقدس إلى امارات ومقاطعات ، يشبه إلى حد ما ما ذكر في العصور الوسطى من أن موسى عليه السلام قد وعد بتقسيم أرض الميعاد على قبائل بنى اسرائيل ، وسوف يبعدها ذلك إلى

ملكة الأساطير ، وتلك كانت أحدى الاشارات الكثيرة التي ذكرها المشرعون الصليبيون في القرن الثالث عشر الميلادي.

لقد ساهمت ثروات وغنائم الحرب والغزو التي جناها الصليبيون، وضغط النبلاء والفرسان الصليبيين ، وكذلك المتطلبات الاستراتيجية في رسم حدود الامارات الاقطاعية . وعلى سبيل المثال، فإن حالة إمارة الجليل تعتبر حالة فوذجية ، إذ أن خطة تانكرد الحمقاء لم تأت بشئ . وثمة سؤال وهو ماذا حدث لتلك الامارة ؟ لقد تم احتلال حيفا في عام ١١٠٠ م وبعد هذا أصبح هذا المرفأ مقاطعة مستقلة صغيرة . وقسم كل الجزء الغربي لامارة الجليل إلى مقاطعات وامارات مستقلة . وخضعت بعض هذه المقاطعات لسلطة الملك مباشرة، في حين كانت المقاطعات الأخرى بثابة اقطاعات تابعة لامارة الجليل الصليبية، بيد أن كل أصحاب هذه المقاطعات أصبحوا بسرعة مستقلين وأفصلًا مباشرين للملك الصليبي . وفي محاولة لتجنب مواجهة السيد الاقطاعي المباشر (أمير الجليل) قام سادة هذه المقاطعات ينشدون ود الملك الصليبي ، الذي كان سعيداً لأن يرى البارونيات الاقطاعية الكبرى تفقد بعض أقاليمها ، في حين ظفر بأفعال مباشرين على حساب هذه البارونيات . وهكذا ، وعلى سبيل المثال، قام أمير الجليل بتشييد قلعتين، هما تورون (تبين) وقلعة نيف Neuf (هونين) ، اللتين أصبحتا مستقلتين، وأصبح سيد هاتين القلعتين فصلاً مباشراً للملك . ومن ناحية أخرى، فإن بعض الاقطاعات في منطقة النفوذ الملكي (الدومين الملكي) أصبحت مستقلة، فقد الملك الصليبي أقاليم ومقاطعات اقطاعية ، فقد خسر الدومين الملكي مقاطعة اسكندرونة الصغيرة الواقعة إلى الجنوب من مدينة صور الملكية .

وما يذكر أن إمارة الجليل وما وراء نهر الأردن كانتا من أهم امارات المملكة الصليبية . وأخيراً في الربع الثاني من القرن الثاني عشر الميلادي لم تضم إمارة الجليل أكثر من الأقليم الجبلي والتلال في هذه المنطقة . وفي الشرق كانت الامارة تضم بحيرة طبرية وخضعت لارتفاعات الجولان السورية والتي تقدر إلى حدود دمشق لسيطرة مشتركة بين الصليبيين وبين الحكم المسلمين في دمشق . ومنذ أن وقعت معااهدة هذه السيادة المشتركة على الجولان بين الصليبيين (سادة الجليل) وبين حكام دمشق المسلمين لم يتم أي طرف من طرف الاتفاق بتحصينها ، ومن الناحية السياسية ، فإن الادعاء بالسيادة على الجولان كان في الغالب اسميًا . وعلى الرغم

من ذلك ، فإن أمراء الجليل الصليبيين ظلوا يحصلون على مورد ودخل أساسى من هذه الأقاليم حتى حلت بالصليبيين هزيمة حطين فى عام ١١٨٧ م . وفي جهة الغرب فقدت امارة الجليل ساحلها الذى يفصل بين الأرضى التابعة للناظر الملكى وبين الامارات المستقلة.

وامتدت امارة ما وراء نهر الأردن الواسعة من نهر اليرموك (أو رفاند الزرقا ، وهو نهر ينبع التوراتى) في الشمال إلى مينا العقبة الصليبى على البحر الأحمر في الجنوب . وكان هذا الموقع الاستراتيجى لهذه الإمارة بثابة فاصل بين مصر الإسلامية وبين بلاد الشام ، الأمر الذى كان له أعظم الأهمية فى الدفاع عن المملكة الصليبية . وكانت هذه المنطقة واسعة ، حيث تم تشييد قلعتين عظيمتين بها هما قلعة مونتريال وقلعة الكرك (الشوبك) فى عامى ١١١٦ م و ١١٤٢ م على التوالى ، وخضعت هاتان القلعتان لسلطة الملك الصليبى . بيد أنه فى حوالي عام ١١٦١ م أصبحت هذه الإمارة مستقلة . ومن هنا ألقى عبد الدفاع عن حدود هذه الإمارة الواسعة على عاتق سادتها . وكان سادة هذه الإمارة الواسعة من عائلة ميللى (Milly) ثم بعد ذلك أصبح رينو دي شايتون (أرناط) سيداً لهذه الإمارة ! ولا يمكن مقارنة أى حاكم آخر لهذه الإمارة بهذين الحاكمين.

وإذا ألقينا نظرة عامة على الامارات الصليبية الأخرى فسوف يتبين لنا تفسير البنية الاقطاعية لمجتمع المملكة الصليبية . فقد كانت امارة بيروت تقع على الساحل في الشمال الغربى على نهر المعلمتين Mu'am altain الصغير . وكان النهر يشكل حد المملكة وعبر هذا النهر وجهة الشمال كانت توجد كونتية طرابلس . وبعد غزو بيروت عام ١١٠ م منحت كاقطاع لأسرة دي جينس de Guines ، أقارب الملك بلدوبن الأول . وبعد ذلك استولى عليها الناظر الملكى الصليبى فى عهد الملك أمالريك الأول (عموري الأول) ، ثم انتهى بها المطاف ليحصل عليها أحد فروع أسرة إبلين Ibelin كاقطاع . وإلى الجنوب من امارة بيروت كانت توجد امارة صيدا . واشتقاقاً من اسمها العربى سعيدة أطلق الصليبيون عليها اسم سعيتا Saitette أو ساجيتسa Sagitta وكان السهم arrow هو شعار المدينة . وقام بحكم امارة صيدا أحد أفراد عائلة جرينيه Grenier وهى أحدى العائلات الصليبية القديمة فى المملكة الصليبية (وكان الفرع الثانى لهذه العائلة سادة قيسارية) . وإلى الشرق من صيدا كانت توجد امارة بانياس (باينس paneas القديمة) وأطلق الصليبيون عليها اسم بليناس Belinas ، وهى الإمارة التى منحت لأفراد عائلة بروس Bruce الإنجليزية ، ثم بعد ذلك خضعت لسيطرة وحكم سادة تورون.

وفي عام ١١٥٧م امتلك فرسان القديس يوحنا (الاستبارية) نصف هذه الامارة، وفي عام ١١٦٤ فقد الصليبيون هذه المدينة وخضعت للسيادة الإسلامية. وفي هذه المنطقة أيضاً كانت توجد امارتان صغيرتان هما مورون وتورون (تبنين). وكانت تبنين مركزاً لقلعة شiedha أمراء الجليل في مواجهة المسلمين في مدينة صور. وحوالي عام ١١٠٧م أصبحت تبنين امارة مستقلة وعهد حكمها إلى أفراد الأسر الحاكمة الشهيرة في المملكة، وكانت مقاطعة الاسكندرية التي تواجه مسلمي مدينة صور تعتمد بشكل مباشر على الناج الملكي الصليبي.

وعلى امتداد الساحل، وإلى الجنوب من مدينة عكا الملكية واماًرتى حيفا وقيمونت (تيمون أو يوقنام Yaqna'am)، كانت توجد امارة واقطاع قيسارية الفنية التي خضعت لسيطرة أسرة جربينيه. وكان يعودها من الجنوب مقاطعة أرسوف (أبو للوينا القديمة ancient Apollonia) والتي تعمقت بالحكم الذاتي على اعتاب منتصف القرن الثاني عشر الميلادي، وفي بداية القرن الثالث عشر الميلادي انتقل حكم اقطاع أرسوف إلى جان الإبليني الشهير عن طريق الزواج. وفي عام ١٢٦١ بيعت لفرسان القديس چون (الاستبارية) وبعد أربع سنوات فقط من هذا التاريخ خضعت هذه الاقطاعات للسيادة الإسلامية حيث استردتها السلطان المملوكي الظاهر بيبرس. وإلى الجنوب من أرسوف، كانت توجد كونتية يافا وعسقلان الملكية وأخيراً وعلى امتداد ساحل البحر المتوسط جنوب عسقلان، كان يوجد اقطاع غزة التابع للداوية وهي المدينة المحدودة للملكة الصليبية وحصن الداروم.

وفي المنطقة التي تقع بين المقاطعات الصليبية الساحلية وبين الأراضي التالية للدولتين الملكي في القدس وجبال نابلس كانت توجد اقطاعات صغيرة قدر لها أن تلعب دوراً حاسماً في حياة المملكة الصليبية. ففي عام ١١٤١م أصدر الملك الصليبي فولك الأنجوي أمراً بتشييد قلعة صغيرة إلى الجنوب الشرقي من يافا لصد الهجمات المستمرة على الممتلكات الصليبية من جانب الخامية المصرية في عسقلان (وهي المدينة التي احتلها الصليبيون بشكل نهائي في عام ١١٥٣م). وقد شيدت هذه القلعة على أطلال مدينة قديمة تعرف باسم يبنه العالية-Yabneh (والتي تعرف في اللغة العربية بمدينة يبني Yibne). وهي المدينة التي كانت لها سمة بارزة في تاريخ اليهود قبل الغزو الصليبي بآلاف السنين ولاسيما بعد تدمير مملكة بني إسرائيل الثانية. وكانت هذه القلعة تابعة لكونت يافا. وبعد قليل خضعت لسلطة باليان الإبليني. و تكونت ثروة عائلة إبلين Ibelin من خلال الأموال المكتسبة التي حصل عليها

أفرادها نتيجة الزواج السياسي. ويحلول منتصف القرن الثاني عشر الميلادي، تم ضم أقطاع رام الله إلى ممتلكات واقطعات أسرة ابلين. وبهذه الطريقة، استطاع مؤسس أسرة ابلين الكبيرة أن يقيم الأساس الإقليمي لمستقبل نفوذ سلطة عائلته. وساعد ثراء وغنى مؤسس أسرة ابلين في زواج أبنائه من الوراثات الأثرياء ، وجلب هذا الزواج لأسرة ابلين الكثير من الامارات والاقطعات. وفي النهاية ، أصبحت هذه الأسرة من الأسر الرئيسية والمهمة في المملكة الصليبية، وأصبح أفرادها رجال دولة ذوي نفوذ كبير في تنصيب الملوك الصليبيين عروشهم.

وكان السهل الساحلي المركزي الذي يشمل يافا وعسقلان والذي كان يمتد إلى الجنوب ليشمل غزة (والذي شيد مرة ثانية في أعوام ١١٤٩ - ١١٥٠) يعطي الشهرة لفلسطين. وكان هذا السهل تابعاً أيضاً للملك الصليبي، بيد أن الداوية أسسو حصوناً في هذا السهل . وشيد الداوية أيضاً قلعة الداروم (دير البلح) على حافة صحراء سيناء. وشيدت الكثير من القلاع في المناطق الداخلية، مثل قلعة بلانش جارد Blanquegarde (قلعة تل الصانى) التي شيدتها الملك الصليبي في عام ١١٤٢م، وقد ألحقتأخيراً بكونتية يافا، وذلك حينما قام الملك المرتب أمالريك (عموري) باستلام يافا كاقطاعه . وبعد اعتلاء عرش المملكة الصليبية ، أصبحت قلعة تل الصانى اقطاعاً مستقلاً ومنحت لجواتيه Gautier، سيد بيروت. وشمة اقطاعان مستقلاً، اقطاع الناصرة واقطاع اللد، ويجدر الاشارة إليهما فقط على أنهما اقطاعات كنسية في المملكة الصليبية.

كان الدومني الملكي يتوازن مع العدد الكبير للاقطعات الكبرى والصغرى. ويحلول منتصف القرن الثاني عشر الميلادي، وبعد جيلين من الغزو الصليبي، كانت عملية توسيع الأرضية التابعة للملك الصليبي ما تزال جديرة بالاعتبار وذات أهمية . وتركت نواة الدومني الملكي في الأقاليم المهمة حول مدينة بيت المقدس. ويمكن القول أن الدومني الملكي كان يمتد ليشمل كل المنطقة الجبلية، من حول حبرون ويستلهم في الجنوب خلال القدس، بالإضافة إلى مدينة القدس في مركزها إلى السامرة، مع نابلس (مدينة سيخيم القديمة) وسبسطية Sebastie (مدينة السامرة القديمة Samariq). وحوالي عام ١١٧٤م قام الملك أمالريك (عموري) بتقديم مدينة نابلس في صورة مهر لزواجه من ماريا كومينين ويسحب زواج الملك من هذه الأرملة، ظهر بالبيان الثاني الابليني على مسرح الأحداث. وكانت حبرون تقع في الجزء الجنوبي من الدومني الملكي ، وأصبحت مقاطعة تتبع بالاستقلال الذاتي منذ وقت مبكر من الوجود الصليبي وفي عام ١١٦١م ضمت هذه المقاطعة إلى إمارة ما وراء نهر الأردن.

وفي كل الاحتمالات ، كانت هذه الأقاليم الواسعة الواقعة في المناطق الداخلية للملكة الصليبية أقل أهمية اقتصادية من بعض المناطق الساحلية التابعة للملك الصليبي. وهنا كان الدومنين الملكي يتتألف من السهل الساحلي الجنوبي والرئيسي ، بالإضافة إلى مينا ، يافا . وكان اقطاع يافا في البداية يضم - بالإضافة إلى مدينة يافا البحرية - جزءاً إضافياً من السهل جهة الشرق ، وأيضاً منطقة داخلية خصبة ، والتي كانت تتألف من ميرابل Merabel (مجدل يابا) في الشمال ، ورام الله ، واللد في وسطها ، وأملاك أسرته بلاط حارد وابلن في الجنوب. وظلت يافا لفترة قصيرة تابعة للملك الصليبي ، ومنذ بداية عام ١١٢٠م ، أصبحت خاضعة لسيطرة أسرة بيوسيه Puiset . وفي أعقاب التمرد والثورة التي قام بها أحد أفراد أسرة بيوسيه في عام ١١٣١م ضد الملك الصليبي قتلت مصادرة اقطاع يافا وانتقلت ملكيته إلى الملك الصليبي . وبعد جيل وفي عام ١١٥١م ، أصبح اقطاع يافا ضمن أملاك الملك أمالريك (عمرى) ، آخر الملك بدوين الثالث ، والذي سيطر على مدينة عسقلان بعد سقوطها في يد الصليبيين . وهكذا دخلت كونته يافا وعسقلان في حوزة الملك أمالريك . وامتدت هذه الكونتية على طول الساحل حتى مدينة غزة التي تم بناؤها من جديد في عام ١١٥٠م . وباعتله ، الملك أمالريك (عمرى) عرش المملكة الصليبية عادت هذه الكونتية إلى سيادة الملك الصليبي ، وكانت تشكل المهر والدودة الاقطاعية للأرمدة سيبيلا ، اخت الملك ، وعندما تولى زوجها الثاني جي لوزجان العرش الملكي في عام ١١٨٦م عادت هذه الكونتية إلى السلطة الملكية.

وفي أقصى الشمال كان الملك الصليبي يسيطر على ميناءين من الموانئ الكبيرة في المملكة الصليبية ، هما مينائي عكا وصور . وظلت مدينة عكا المدينة الملكية في القرن الثالث عشر الميلادي وعاصمة للمملكة الصليبية . ومن ناحية أخرى ، فإن مدينة صور هي المدينة الوحيدة التي لم يستردتها المسلمون حتى سقطت المملكة الصليبية ، وأصبحت في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي اقطاعاً مستقلاً تحت حوزة أسرة مونتفرت ، على الرغم من أن هذا الاقطاع لم يخرج عن حوزة الدومنين الملكي بشكل نهائي .

والواقع أن وصف الخريطة الاقطاعية للمملكة الصليبية لا يكتمل دون الأخذ في الاعتبار وضع الهيئات الدينية العسكرية (الداوية- الإستفارية- التيوتون) وحول منتصف القرن الثاني عشر الميلادي نشأت ظاهرة جديدة وهي الاقطاعات التي حازتها الهيئات الدينية العسكرية في

الملكة الصليبية. ونظراً لظروف الحرب المستمرة ضد المسلمين وحاجة الصليبيين الملحة إلى المال من أجل تمويل الحملات العسكرية، فإنه ليس غريباً أن يتحمل فرسان الهيئات الدينية العسكرية عبء الدفاع عن المملكة الصليبية. وقبيل منتصف القرن الثاني عشر الميلادي سيطر فرسان الهيئات الدينية العسكرية على المصنون والقلاع الواقعة على حدود المملكة الصليبية وبسرعة حصلت الهيئات الدينية العسكرية على قطع كبيرة من الأرض الزراعية في كل المناطق الاقليمية في المملكة. ولم يكن الوضع القانوني لهذه الأقاليم التي حصل عليها فرسان الهيئات الدينية واضحاً؛ وجزئياً يمكن أن نعزز هذا إلىحقيقة مؤداها أن الهيئات الدينية العسكرية نالت هذه الأرض بشروط مختلفة (أراض مستأجرة - أو اقطاعات). وبالإضافة إلى ذلك ، فإن ثمة حقيقة أخرى وهي أن الهيئات الدينية العسكرية كانت مؤسسات دينية تغنى بإحداث تشوش بين الوضع القانوني لأراضيهم وبين الوضع الاقليمي المتفوق الذي يتمتع به حائزو هذه الأرض . وفي الوقت المناسب ، تأسس نوع من الاقطاعات لفرسان هذه الهيئات الدينية العسكرية ، وتلك ممارسة سوف تقرر فيها بعد مصر تأسيس بروسيا كدولة مستقلة خاضعة لفرسان التيوتون . وبلغت هذه الممارسة ذروتها في منطقة الشرق العربي الإسلامي في كونتية طرابلس، حيث كانت أملاك وممتلكات فرسان القدس يوحنا (الاستبارية) في بواكير عام ١١٤٢ م تشكل تقريراً إمارة مستقلة. وكذلك هيمن فرسان الاستبارية على الخدمات الاقطاعية التي يؤديها أوصال الكونتية ، ونالت هذه الهيئة أيضاً حق إقامة العدالة في البارونية . ويبدو أن فرسان الهيئات الدينية العسكرية الأخرى قد اكتسبت وضعًا مشابهًا لم تنته في أي مكان آخر، حيث ضمت أملاكهم مناطق واسعة جديدة. وهكذا ، وعلى سبيل المثال، وجد فرسان التيوتون حول اقطاعات قلعة الملك (المعلية Milyah) ومنتفرت (قلعة سورين Qurein) في الجليل وكانت هذه الاقطاعات تزيد عن خمس عشرة قرية (وذلك في الفترة ما بين أعوام ١٢١٨ و ١٢٢٠ م) . بيد أنه لم يتضح ما إذا كان فرسان التيوتون قد مارسوا حق الفصل في القضايا الاقطاعية ، ومارسة حقوق السيادة الاقطاعية القانونية. وثمة حالة أخرى وهي أن اقطاع أرسوف كان من أملاك هيئة الاستبارية (في عام ١٢٦١ م) . وهنا يبدو أن فرسان هيئة الاستبارية قد تعمدوا بالحقوق التي يتمتع بها صاحب أرسوف، لفترة قصيرة جداً أصبحوا من كبار السادة الاقطاعيين التابعين مباشرةً للملك الصليبي .

ويبدو أن تتبع ثروات مختلف الإمارات الاقطاعية في أثناء القرن الثالث عشر الميلادي أمر

غير ذى جدوى . فقد حاولت الحملات الصليبية الكبرى التى شنها الصليبيون فى هذا القرن أن تعيد الحياة مرة ثانية فى أوصال الملكة الصليبية وتنعشها بعد كارثة حطين التى حلت بها . وحقيقة الأمر أن هذه الحملات لم يكتب لها النجاح فى تحقيق هذا سوى ترسير وتوطيد الوجود الصليبي فى شريط ساحلى ضيق على البحر المتوسط . ويفيتنا فإنه فى عام ١٢٤٠ م (فى أثناء الحملة الصليبية التى قادها ريتشارد من كورنوال) ، نجحت الملكة الصليبية فى إحداث الواقعة بين القاهرة ودمشق مما أدى إلى حصول الملكة على أجزاء ، كبيرة من منطقة القدس وكذلك فى الجليل . وكان استيلاء الصليبيين على هذه المناطق قصير الأمد ، إذ أن منطقة السيادة الصليبية فى بيت المقدس (فى الفترة من عام ١٢٢٩-١٢٤٤ م) قد تقلصت وأصابها الضعف والذبول وانحصرت هذه المناطق الصليبية فى شريط ساحلى ضيق بعد جيل من التاريخ السابق . وفي الربع الأخير من القرن الثالث عشر الميلادى كان هذا الجزء من الملكة الصليبية قلماً كان يخضع للسيطرة الصليبية الحقيقة .

وكان النتيجة غير المباشرة لتنامي سلطة النبلاء ، والتى ستناقشها فى سياق آخر ، يمكن الشعور بها من خلال الوضع العام للامارات الاقطاعية الصليبية داخل الملكة . وإذا ما قارنا هذه الأوضاع فى بداية القرن الثاني عشر الميلادى وفى نهاية هذا القرن لتتبين لنا أن ثمة تغييرات مهمة قد ظهرت . وعلى سبيل المثال ، فإنه من الجدير باللاحظة أن الملك الصليبي فى أواخر عام ١١٢٠ م (وهو الوقت الذى انعقد فيه مؤتمر نابلس الصليبي) كانت لديه قوة كافية للحفاظ على حقوقه فى الاشتراك فى اقامة العدالة فى المحاكم الاقطاعية ، وخلال الأجيال الصليبية الثلاثة الأخيرة ، تعرض هذا الاجراء المتمثل فى تدخل الملك الصليبي فى القضاء الاقطاعى للانتقاد بقسوة وأصبح اجراء غير قانونى . وحرم الملك الصليبي من ممارسة حقه فى المشاركة فى القضاء الاقطاعى المحلى ، ولم يعد للأمر الملكى فعالية فى القضاء الاقطاعى المحلى . وكان ذلك بشارة خطيرة مهمة على الطريق تفسح المجال أمام الامارات الاقطاعية للاستقلال الذاتى .

وثمة تطور آخر كان يسير فى نفس الاتجاه ، فقد عقد حكام مملكة بيت المقدس الصليبية المعاهدات مع أبناء الكوميونات التجارية الإيطالية ، تلك المعاهدات التى منحتهم الامتيازات المالية والقضائية . وكانت هذه الامتيازات نتيجة وجودهم فى المناطق الصليبية فى بلاد الشام ، وهذا يعنى أن الامتيازات التى كانت فى العادة تفتح لأبناء الكوميونات التجارية الإيطالية قد

عادت عليهم بالأرباح الوفيرة في المدن التي يحتلها الصليبيون، وهكذا، فإن الأقاليم المحتلة عندما تم منحها في صورة اقطاعات للنبلاء الصليبيين كانت مشقة بعه، رهن الامتيازات للكوميونات الإيطالية. وعندما حان الوقت المناسب تغير الوضع. فلم يعد الملوك الصليبيون ينحون الامتيازات للكوميونات التجارية الإيطالية ولم يعقدوا المعاهدات معهم، وأصبح كبار السادة الاقطاعيين وسادة المدن يقظون بمنح هذه الامتيازات وعقد المعاهدات مع أبناء الكوميونات أي حل كبار السادة الاقطاعيين محل الملوك الصليبيين في هذا الخصوص. وهذا التغيير حدث تقربياً في الفترة التي أعقبت هزيمة حطين ، وما يذكر أن استرداد الملك الصليبي سلطنته في القرن الثالث عشر الميلادي لم يستطع وضع حد لهذا النوع من اغتصاب السلطة، والذي أصبح مألوفاً واستمر حتى سقوط المملكة الصليبية نهائياً في عام ١٢٩١ م . وقد ساهم هذا في تعزيز النزعة الفردية الاستقلالية للبارونات الصليبيين، والذين أصبحوا الآن ينحون الامتيازات ويعقدون المعاهدات مع القوى الأجنبية كما لو كانوا حكامًا مستقلين*.

وثمة دليل آخر يشير إلى تسامي النزعة الاستقلالية في الامارات الصليبية ألا وهو ظهور دور ضرب العملات والمسكوكات البارونية. فقد كان القانون الملكي الذي ينسب إلى بدلوين الثاني، أو ربما ينسب إلى بدلوين الثالث (١١٤٣-١١٦٢) ما يزال يقرر ويؤكد أن حق سك العملات والنقود وإنشاء دور الضرب يعد امتيازاً واحتكاراً ملكياً. وكانت عقوبة خرق هذا القانون مصادرة اقطاع الفصل. وعلى الرغم من ذلك، أظهرت الحفائر الأثرية وكشفت عن وجود دور ضرب العملات والمسكوكات البارونية . وحتى الرسائل والكتب القانونية التي دونها نبلاء المملكة الصليبية والتي ذكرت وسردت امتيازات هؤلاء النبلاء بعناية وحرص ، لم تشر إلى تغيير في القانون الخاص بالاحتكار الملكي الخاص بإنشاء دور ضرب العملات والمسكوكات. وبساطة استطاع البارونات الصليبيون اغتصاب هذا الامتياز الملكي . ولاشك أن مثل هذا الاغتصاب قد حقق مكاسب للبارونات ، بيد أنه لا يجب أن نبالغ في الأهمية المادية لاغتصاب البارونات حق سك العملات وامتلاك دور الضرب . فقد اعتادت التجارة العالمية الواسعة استخدام وتداول العملات الصليبية الذهبية التي كانت تضرب في دور الضرب

* في عام ١٢٢١ منع جان الابلينى سيد بيروت امتيازات للبنادقة في مدینته وكان الجنوية يتمتعون بنفس هذه الامتيازات في بيروت .
المؤلف .

الملكية، وكان تداول النقود المحلية يشمل مختلف النقود الملكية الصليبية والاسلامية، وانحصر استخدام وتداول النقود البارونية في مناطق صغيرة، ولم تستطع هذه السياسة البارونية تحقيق مكاسب وأرباح كبيرة. ويبدو أن سك العملات البارونية كان من قبيل اعلان البارون استقلال بارونيته. وعلى المستوى المعلى، فإن تخلص السلطة الملكية في مجال القضاء وخرق القانون الملكي الخاص باحتكار تملك دور ضرب سك العملات يبرز لنا بوضوح بزوع نزعة الاستقلال الذاتي للبارونيات الصليبية. وهذا يقدم لنا صورة مثيرة لتفجير ميزان القوى بين الملك الصليبي والنبلاء على المستوى الدستوري والتشريعي.

بـ- أسلوب عمل الحكومة المحلية

كانت الامارة الاقطاعية في المملكة الصليبية، وكما كانت في كل الأقطار الأوربية الاقطاعية في العصور الوسطى، بمثابة الوحدة الأساسية للنظام السياسي والاجتماعي. وعلى أي حال ، فإن الاقطاعة Fief في المناطق الأوربية الاقطاعية ، حتى ولو كانت صغيرة ، قد لعبت دوراً متوازناً في التماسك الاجتماعي .

وإذا كانت الامارة الاقطاعية الصغيرة تضم أولاً وفي المقام الأول مجموعة الأنصار ، فإن مجتمع القرية الأوربية كان يجد مساسه الاجتماعي في الضيعة وفي كلتا الحالتين، أي في الامارة الاقطاعية الصغيرة وأيضا في الضيعة، كان يوجد فقط من الجماعية الذي يتعلق بنفس النمط الشفافي ونفس النمط الديني. وقلما كانت العناصر الغربية غير المتجانسة تتعارض مع البنية المتمسكة لهذه الكيانات الاجتماعية.

وتمثل المملكة اللاتينية من الناحية السياسية، أكثر من الناحية الاجتماعية بنية مجتمع مختلف عن المجتمعات الأوربية. فلم تكن الامارة الاقطاعية الصغيرة Lordship تشمل فقط مجموعة الأنصار، بل كانت أيضا تشمل مجموعة غزاة ، يختلفون في اللغة والثقافة والدين عن أبناء المناطق العربية التي خضعت لسيطرتهم . وعلى مستوى الضيعة، لم يوجد هناك تقريراً اتصال بين صاحب الأرض وفلاجيده، وذلك لأن البناء الاجتماعي في الضيعة الصليبية لم يكن يتطلب اتصال الفلاحين بصاحب الأرض، ولا حتى اندماجهم سوياً في مجتمع واحد.

وكان الغرض من وجود الامارة الاقطاعية الصغيرة Lordship هو بسط سيطرتها على رعاياها ، مثلما كانت الضيعة تكفل الحماية الطبيعية للفرنجية . وكان كل من الامارة

الاقطاعية الصغيرة والضيعة بثابة أدوات أساسية للأآلية الحكومية الاستعمارية من أجل حكم الأرض المحتلة ووسط السيطرة الصليبية على السكان الغربياء في هذه المناطق المحتلة.

وما يلاحظ أن الصليبيين كانوا يفتقرن إلى الخبرة الادارية في الفترة الباكرة (وأعني فترة الخبرة الادارية في القرن الحادى عشر الميلادى) وهي الخبرة التي كانت تساعدهم في القيام بهذه المهمة أو ترشدهم إلى تأسيس هيكل المؤسسة الادارية الصليبية الخاصة بهم. لقد شهدت المناطق الأوربية المسيحية بسكانها المتجانسين الكثير من الحروب وحالات الغزو. ورغم أن نورمان صقلية فقط لديهم بعض هذه المشكلة المتعلقة بالتورط في الحروب المحلية الأوربية، ومن المحتمل أن الأسبان كانوا يشاركونهم هموم هذه المشكلة، بيد أن النورمان لم يسبقوا غيرهم في السير صوب مدينة بيت المقدس إبان الحملة الصليبية الأولى (على الرغم من أن النورمان كانوا يسرعون الخطى صوب امارة أنطاكية النورمانية) ولم يشارك عدد كبير من الأسبان في الحملة الصليبية الأولى. وهكذا استطاع الصليبيون خلق نوع جديد من المؤسسة الادارية والتنظيم الاداري. وكان يوجد عدد قليل جداً من القوانين التشريعية لهذه المؤسسة الادارية، ولم تزد هذه المؤسسة عن كونها عملية تجريبية استمرت حتى وصلت إلى نظام متسلق ثابت ومتقن . وثمة أشياء ثلاثة رئيسة كان يسترشد بها الصليبيون ، وكانت هذه الأشياء تعكس التزعنة الاستعمارية لهؤلاء الغزاة. وكان أول هذه الأشياء هو العزلة المطلقة بين الغزاة الصليبيين وبين السكان المحليين المقهورين، والأمر الثاني هو إعادة خلق التقاليد والأعراف الأوربية المحلية في تلك المنطقة العربية الغربية، على الرغم من أن هذه المنطقة التي احتلتها الصليبيون قد قدمت الكثير من مختلف الامكانيات الجديدة، وثالث هذه الأشياء هو تكيف الصليبيين مع المؤسسات المحلية مع عدم التدخل من جانب الغزاة .

لقد كان السيد الاقطاعى وأفصاله وبرجوانته يشكلون مجموعة منغلقة من الغزاة. وكان من العسير على غير الأفرنجى الالتحاق بهذه المجموعة مهما كانت مواهبه وجدرانه أو مكانته. وكانت المؤسسات السياسية للإمارة الاقطاعية الصغيرة تتجسد في المحكمة الاقطاعية ، والمحكمة البرجوازية، ولم تكن هاتان المحكمتان جزءاً من الآلية الادارية للمملكة والإمارة الاقطاعية فقط، بل كانتا في نفس الوقت رمزاً قانونياً لوضع الطبقة الاجتماعية المحاكمية . والحقيقة أن الطبقة المحاكمية كانت تتمتع بامتياز حق اقامة العدالة في المحكمة الاقطاعية وكذلك في المحكمة البرجوازية. وكان هذا المعتقد قوياً لدرجة أنه تغلب على المفاهيم القديمة،

مثل الوضع المهين والمتدى لبعض المهن والحرف . وعلى سبيل المثال ، فإن الفرنجي الذى كان فلاحاً لا يعتبر فلاحاً ولا ينتمى إلى طبقة الفلاحين ، بل كان يعتبر برجوازياً ، وكان الفرنجية يعتبرون الرجل الحر الذى ليس من أصل أوربى أدنى درجة فى السلم الاجتماعى.

وكان قيام الصليبيين بتطبيق النظم المؤسسات الوطنية الأوربية ونقلها إلى المناطق الصليبية فى بلاد الشام أمراً جديراً باللاحظة وسمة مميزة لهذا المجتمع الاستيطانى الصليبي . وإذا كان الإطار الاقتصادي للملكة الصليبية قد ساعد الصليبيين على نقل تلك المؤسسات الوطنية الأوربية إلى المنطقة العربية فلماذا لم تتحول هذه المملكة الصليبية إلى دولة بيروقراطية ، أو على الأقل إلى دولة تستخدم موظفين يتقاضون مرتبات وكذلك تستخدم جندواً يتقاضون أجوراً أيضاً (مثلاً ما حدث في أوروبا في نهاية القرن الثالث عشر الميلادي) . واستمرت المملكة الصليبية في ممارسة الأعراف والتقاليد التي جاء بها الصليبيون من أوروبا ولاسيما الأعراف والقوانين التي كانت سائدة في فرنسا والتي كانت لها التفوق والرجحان في مجال التطبيق في ريع المملكة الصليبية . وعلى سبيل المثال ، كان التنظيم القطاعي ، باعتباره نظام حكم وإدارة - والذي كان يشمل كبار موظفي التاج الملكي مروراً بكبار السادة القطاعيين والأقصال ، وكذلك المحكمة البرجوازية كمحكمة للأماراة القطاعية الصغيرة (وليس محكمة المدينة) ، وحتى نظام الصناعة - كان كل هذا نسخة وتقليداً للتنظيم القطاعي الفرنسي السائد في القرن الحادى عشر الميلادى . والشيء الذي يوضح ذلك بشكل أفضل هو أن الفارس المأجور كان يطالب براتبه وعرف هذا الراتب باسم اقطاع الأجر Fief de Soudée وكانت هناك ثمة اختلافات عن النظام القطاعي المأثور والسايد في أوروبا ، وقتل هذا الاختلاف في المركز القوى للملك الصليبي ، ونظام الصناعة بدون وجود مالك مباشر للأرض ، وحدثت هذه التغييرات بسبب الظروف الخاصة بالمنطقة العربية .

وخارج نطاق المهام الدقيقة للمؤسسات الصليبية كان يقع على عاتقها مهمة حكم المناطق المحتلة وضمان حماية الغزاة الصليبيين . لقد أعقب الفزو الصليبي مقاومة إسلامية ضعيفة . ومن ناحية الأعراف والتقاليد يمكن القول أنه لم يستحدث شيء جديد . إذ أن السكان المحليين قد هجروا أقاليمهم بارادتهم فراراً من همجية الزحف الصليبي الكاسح . واستمرت المحاكم المعروفة التي وجدت في الأقاليم والمناطق الإسلامية التي خضعت للصليبيين تؤدي وظيفتها باعتبارها مؤسسات قانونية رئيسية . وتدخل الصليبيون فقط في احداث اتصالات بين الغزاة والسكان المحليين . فقد كانت "العنابا المختلطة والتي طرفاها من الفرنجية ومن السكان

الوطنيين تنظر أمام محكمة مختلطة ، حيث كان يحضر الشهود من أنصاره لتبرئته ساحتده من التهمة الموجهة إليه. ويمكن تفسير دقة عمل وانضباط هذه المؤسسات القانونية في ضوء حقيقة أن الجرائم الجنائية التي كانت عقوبتها القتل أو قطع الأعضاء ، وكذلك القضايا المدنية التي يزيد قيمتها عن مبلغ محدد من المال (أكبر من مارك فضي واحد) كانت هذه القضايا تنظر أمام محكمة صليبية. وبالنسبة لباقي القضايا ، فإن السكان المحليين كانوا بمعزل عن العالم ، وكانتوا ذا أهمية لأنهم كانوا يمثلون القوة الانتاجية التي تعود على الصليبيين بالأرباح والكسب ، بيد أن هؤلاء السكان المحليين كانوا دائماً موضع شك لدى السلطات الصليبية لأنهم كانوا مثار تهديد يمكن ومحتمل.

ولم يكن النمو العضوي للمؤسسات السياسية الصليبية المختلفة والمتحدة ينتمي إلى قطر واحد ، بل كانت هذه المؤسسات تتألف من أجزاء ، تختلف في أصولها ، وترجع إلى الماضي ، وقد انصهرت هذه الأجزاء ، في شكل هيكل سياسي واحد وذلك وفقاً لظروف الفزو وال الحاجة الملحة التي طلبتها الظروف الجديدة للصليبيين. وأثبتت التجربة أن هذه الآلة الحكومية الإدارية قد مارست عملها بشكل سلس وتواكبت جيداً مع المهام المنوطة بها. بيد أن النازحين الصليبيين الجدد إلى المملكة الصليبية كانوا يفتقرن إلى الكفاءة الإدارية ، حيث أنهم انكبوا على تحقيق المصلحة الذاتية المباشرة دون اعتبار لصلاحة المملكة الصليبية الواسعة.

لقد كان معدل حجم الإمارة الاقطاعية الصليبية متوسطاً أو صغيراً تقريباً إذ كان معدل مساحة الإمارة حوالي .٥ كم٢ . وكانت إمارة الجليل استثناءً حيث أن إمارة ما وراء نهر الأردن الكبيرة وكوتية يافا وعسقلان قد قسمت إلى اقطاعات صغيرة (وليس بالضرورة تقسيمها إلى اقطاعات ثانية) تلك الاقطاعات التي ظهرت في شكل وحدات إدارية مستقلة. وكان المجمـع الصغير لإمارة الاقطاعية الصليبية في بلاد الشام يساعد الصليبيين في الإدارة والحكم على الرغم من قصر المدة التي قضوها في المنطقة. وعلى المستوى المحلي كانت الإدارة الملكية وإدارة البلاء في الإمارات الصغيرة متشابهة وأكثر قائلةً وتطابقاً. ويمكن أن نعزّز هذا جزئياً إلى أن بعض الاقطاعات كانت ملكية قبل أن تُمنح للبناء في شكل اقطاعات، وأيضاً إلى تقليد إمارات البلاء، للنموذج الإداري الملكي.

ويقيناً أن الأغلبية الساحقة من الإمارات الصليبية المهمة كانت لها عاصمتها والضواحي الحضرية المحسنة، إذ كانت القلعة الاقطاعية بمثابة مركز الاقطاع ومقر السيد الاقطاعي في

الامارات الصغيرة أو في مناطق المحدود. وفي مثل هذه الحالات كانت القلعة تعتبر أكبر من حصن وفي الغالب كانت مقرًا لإقامة السيد الاقطاعي ومركزًا لإداراته الحكومية. وكانت هذه السمة في بداية القرن الثاني عشر الميلادي تشكل ذلك الاختلاف المهم بين التنظيم الاقطاعي الأولي والتنظيم الاقطاعي في المملكة الصليبية في بيت المقدس. فقد كانت الظروف المحلية في الأرض المقدسة في بلاد الشام، وجود المدن وأعرا其ها المحلية تؤثر في مؤسسة الدولة ونظامها ، وفرضت عليها بنية الإمارات الاقطاعية الصليبية.

وكان عدم التجانس بين الأنماط السكانية الثلاثة ، في القرية وفي المدينة والقلعة يتطلب مهام مختلفة وصعبة تقوم بها الادارة البارونية ومرة ثانية، فإن ظروف المنطقة العربية قبل وبعد الغزو الصليبي قد خللت وضعًا وإن لم يكن غير معروف ، ولاشك في أنه كان وضعًا غير مأمول في أوروبا. فلم تكن هناك علاقة مباشرة بين مكان السكنى (قرية مدينة- قلعة) وبين المستوى الاجتماعي القانوني لسكان هذه الأماكن . وكان يخضع لادارة العاصمة الحضرية كل من النبلاء، الفرنجية ، والفرسان، والبرجوازية ، وأيضا سكان المدينة من غير الفرنجية . وكانت المناطق الريفية يقطنها الفلاحون المسلمين والفلاحون المسيحيين الشرقيين. وفي نفس الوقت استقر الفرنجية في بعض القرى وتمتعوا بالوضع والامتياز الذي كان يتمتع به البرجوازية.

كانت محكمة السيد الاقطاعي الأداة الادارية الرئيسة ، وكانت تشيد قاماً المحكمة العليا الملكية. وكانت محكمة السيد الاقطاعي يتألف أعضاؤها من أوصال هذا السيد. وهذا يعني أن كل المائزين الاقطاعيين سواء كانوا يحوزون اقطاعات من الأرض الزراعية أو اقطاعات نقدية أو سواء كانوا يجمعون بين النوعين من الاقطاعات ، كانوا يمتلكون محاكم اقطاعية*. وكانت الإمارات الصليبية الصغيرة تتلزم بتقديم خدمة عسكرية للملك الصليبي، فكانت اماراة

* وعلى سبيل المثال فإن أوصال مقاطعة أرسوف الصليبية في عام ١٢٦١ ، كانوا عبارة عن ٦ من الفرسان و ٢١ من المعاربين السرجندارية (المشاة أو الراكبة) . وكان هناك فصل واحد فقط يمتلك اقطاعاً من الأرض الزراعية. وباقى الأوصال الآخرين يمتلكون اقطاعات نقدية أو عينية من انتاج الأرض الزراعية. وكانت الأعباء والالتزامات الاقطاعية المستحقة على الامارة عبارة عن ٢٤٤٨ بيزنت ، ١٣٧ مكيال من القمح ، ١٤٥ مكيال من الشعير ، ٢٢ مكيال من الخضروات . (المؤلف).

الجليل، وأماراة يافا وعسقلان، وأماراة صيدا تقدم خدمة عسكرية تتراوح من سبعين إلى ثمانين فارساً، وكان باقي الامارات الصليبية الصغيرة التابعة للملك الصليبي تقدم خدمة عسكرية تتراوح من ٥ إلى ٧ فرسان أو أقل من هذا العدد. ويصبح اجتماع المحكمة اجتماعاً قانونياً إذا حضر ثلاثة من أعضائها . ولم يكن هذا مبدأ قانونياً دقيقاً وواقع الأمر أن السيد الاقطاعي الأعلى كان ملزماً تزويده المحكمة عند الانعقاد بعدد من الأعضاء حتى يكتمل النصاب القانوني لعدد الأعضاء الحضور في هذا الاجتماع. وقد أحصى لنا المشرع الصليبي الشهير جان الإبلين Jean Ibelin عدد اثنين وعشرين محكمة اقطاعية للامارات الصليبية الصغيرة أو المقاطعات.

وقامت بعض الامارات الصليبية - بسبب حجمها الكبير - بانشاء وظائف عليا، تمثل تلك الوظائف التي كانت توجد في المحكمة العليا الملكية. وفي أصغر الامارات الاقطاعية الصليبية لم يكن هناك مبرر لوجود نفط اداري معقد، يتمثل في شكل محكمة، مع أن هذا النمط الاداري الذي تمثله المحكمة كان يقوم به القيسис الخاص بالسيد الاقطاعي، وبالتالي أكدت هذه الوظيفة الادارية التي يقوم بها قيسيس السيد الاقطاعي ذات صفة قانونية . وعلى الرغم من معرفتنا بتفاصيل اختصاصات المحكمة العليا الملكية من خلال ما ذكرته لنا الرسائل القانونية التي دونها المشرعون الصلي比ون ، فإن بعض المصادر المتعلقة بالمحاكم الاقطاعية لم تقدم لنا شيئاً في هذا الخصوص . والافتراض البديهي للمشرعين الصليبيين هو أن المحكمة الاقطاعية في أية اماراة اقطاعية صليبية تتمثل في كل السمات المميزة للمحكمة الملكية العليا للملكة الصليبية، ومع ذلك فإن الحدود والاختلافات المحسوسة بين هذا النوع من المحاكم وبين المحكمة الملكية العليا كانت واضحة ولذا ليس من السهل أن نقبل مثل هذا الافتراض القانوني وذلك لأنه لا يزيد عن كونه أكثر من بيان لمبدأ قانوني.

والواقع ، أن ثمة اختلافات جوهرية بين المحكمة الملكية العليا وبين المحاكم الاقطاعية الصغرى ، ويكون سبب هذه الاختلافات في أن وضع ومكانة الفارس الذي من صغار الأقصاد كان إلى حد ما يشبه وضع أحد كبار السادة الاقطاعيين. ومن ناحية أخرى فإن علاقات السيد الاقطاعي بالبطريك اللاتيني كانت تعُضَّ نزعات الحكم الفردي المطلق لهذا السيد، وبشكل عام كانت هذه النزعات للحكم الفردي المطلق للسيد الاقطاعي تخترق كل مظاهر التنظيم الاقطاعي وإدارته وكانت هذه النزعات أكثر فعالية في المحاكم الاقطاعية الصغرى عنها في المحكمة العليا.

ولم نعرف ما إذا كانت هناك مواعيد محددة لعقد جلسات المحكمة العليا. وكانت اجتماعات المحكمة العليا تزامن مع أيام العطلات الكبيرة التي توافق مواعيد الأعياد المسيحية بيد أن هذا يبدو أمراً مثار شك وربة . ففي بعض المناسبات ، كان السيد الاقطاعي الأعلى وكبار السادة الاقطاعيين يحضورون جلسات اجتماعات المحكمة الملكية العليا في مدينة بيت المقدس، من أجل الوفاء بالتزاماتهم الاقطاعية المستحقة عليهم للملك الصليبي، وأيضاً للاشتراك في الاحتفالات الدينية. ونظرًا لصغر حجم مملكة بيت المقدس الصليبية، فإنه ليس هناك مبرر لتقاعس السيد الاقطاعي عن حضور اجتماعات المحكمة العليا الملكية، إذ كان هذا المبرر موجوداً في أوروبا، فقد كان السيد الاقطاعي يكث في منطقة نفوذه ، ولديه محكمته الخاصة . وهكذا فإن على المرء أن يفترض بأنه كانت هناك جلسات كثيرة متفرقة للمحكمة الاقطاعية العليا ، وفقاً للمتطلبات الملحة والمحددة.

وفي المناسبات الجليلة المقدسة، كانت محكمة السيد الاقطاعي تعقد جلساتها لكي يقدم الأوصال الاعتراف الرسمي للسيد الاقطاعي الجديد. وفي تلك المناسبة كان الأوصال يؤدون عين الولاء والتبعية الاقطاعية لهذا السيد الجديد. وفي مثل هذه المناسبات أيضاً كان على البرجوازية الصليبية المقيمين في كافة المدن الصليبية الحضور لتقديم عين الولاء للحاكم الجديد. وهكذا تأسس مجتمع صليبي منظم كما ينبغي ، وظل بقاء هذا المجتمع في إطار الإمارة الاقطاعية. وفي نفس الوقت ، كانت الجماعة الصليبية الأكثر قرباً هي تلك التي تنشأ من سلسلة النسب الاقطاعي والقرابة الاقطاعية ، والتي تعتمد على الالتحام القوى للسيد الاقطاعي برجاته وأوصاله ، وفقاً لروح العصر الاقطاعي.

كانت محكمة السيد الاقطاعي من الناحية النظرية على الأقل مكاناً لاجتماع أوصاله الذين يطرحون آرائهم في المسائل المتعلقة بزواج احدى بنات السيد الاقطاعي أو أقاربه . بيد أنها نشأ كثيراً في ممارسة مثل هذا الإجراء في الظروف التي عاشها الصليبيون في الأرض الفلسطينية. ومن الطبيعي أن مثل هذا الإجراء ومارسته كان يعتمد بدرجة أكبر على شخصية السيد الاقطاعي، وتجدر الإشارة أيضاً إلى أن السيد الاقطاعي الذي ينتهي إلى طبقة صغار الأعيان كان يخضع لسيادة الملك الصليبي، حيث كانت المحكمة الملكية تنظر كل هذه المشكلات المتعلقة بزواج أقارب هذه السيد، وقد تحددت بعض هذه الالتزامات والواجبات من

بنية التنظيم الاقطاعي ، والتى كانت تعرف باسم التزام الحضور إلى محكمة السيد عند الاستدعاء ، وكان على الأफصال تأدبة هذا الالتزام والحضور إلى محكمة السيد الاقطاعي وذلك عندما تتعقد المحكمة العليا لكي تقضى بالتبعة العامة وقت الحرب، أو لكي تقرر فرض ضريبة جديدة، أو عندما يقع السيد الاقطاعي في الأسر، وهنا كان على أفضاله الالتزام بجمع الفدية الالزمة لفك أسر سيدهم.

وكانت مثل هذه المشكلات الخطيرة التى تتعقد من أجلها المحكمة العليا استثناءً . وفي العادة كانت المحكمة تنظر الأمور المثلة، والتي كان يعتبرها المعاصرون من قبيل الاثارة والاستفزاز، وكانت ممارسة الأعمال التجارية الكبرى الرئيسة تخضع للقانون المقدس الذى كان يرى أية مسألة تتعلق بالأملاك الاقطاعية أو بالعلاقات بين السيد الاقطاعي وأفضاله يجب أن تنظر أمام محكمة السيد الاقطاعي فقط. وهكذا فإن أية منحة اقطاعية من أي نوع يقدمها السيد الاقطاعي كانت تفتح لصاحبها وتدون هذه المنحة في سجلات المحكمة . وكان على متلقى هذه المنحة أن يؤدى أمام المحكمة بين الولاء والتبوعية الاقطاعية للسيد الاقطاعي المانع، وعندئذ كان على السيد أن يصدق على هذه المنحة بتوقيعه ، ويشهد بعض أعضاء المحكمة على هذه المنحة بتوقيعاتهم. وفي بعض المناسبات الأخرى ، كانت المحكمة تدعى إلى عقد اجتماع من أجل النظر في الدعاوى القضائية التي يرفعها أحد أبناء الفصل الاقطاعي المتوفى أو أحد أقاربه المباشرين بشأن وراثة اقطاع هذا الفصل، وكان السيد يقلد الاقطاع لهذا الابن في حضور أعضاء المحكمة.

لقد كانت محكمة الامارة الاقطاعية بمثابة مكتب للتسجيل ، وساحة لإقامة العدالة، كما كانت أيضاً تشهد كل عمليات نقل الأملاك الاقطاعية داخل حدود هذه الامارة الاقطاعية ، وكانت كل أثواب التنازل عن الملكية للغير، سواء بالبيع، أو بالرهن ، أو بالتقسيم، أو بالتبادل، تحتاج جميعاً إلى عقد انعقاد المحكمة لكي تصبح كل هذه العمليات جميعاً قانونية ونافذة المفعول ، وذلك لأن موافقة السيد الاقطاعي وتصديقه على صحة هذه العمليات كانت أمراً مهماً ومطلوباً . وفي مثل هذا المناسبة كانت موافقة السيد وتسجيل هذه الحالات في سجل المحكمة أمراً مهماً أيضاً ، وكان كلاً الطرفان المتنازعان حريصاً ومهتماً على أن تكون موافقة أعضاء المحكمة علانية. ولم يوجد في المحاكم الاقطاعية مسجل معاشر الجلسات ، وحتى المحكمة العليا لم يكن لها مسجل لمعاشر الجلسات حتى منتصف القرن الثالث عشر

الميلادي* ، وحتى هذه الفترة يكمن الشك في أن المحاكم الامارة الاقطاعية كانت تضم بين صفوف موظفيها مسجل محاضر الجلسات ، فقد كانت شهادة الشهود هي أفضل ضمان لما تحتويه محاضر الجلسات من صفات تجارية. وكانت سجلات الأموال الزراعية تحفظ في كتب في أرشيف الخزانة الملكية، والتي كانت تعرف باسم السكرتارية Secrétarie . وقد عرفنا أن كل امارة كانت لديها سكرتارية لحفظ وثائقها الخاصة، وكان يتم مراجعة هذه الوثائق عند الفصل في المنازعات .

وكانت مثل هذه المحكمة الاقطاعية تفصل في الكثير من القضايا المدنية والجنائية. ولم يكن معمولاً في هذه المحاكم الاقطاعية في الامارات الصليبية بالقانون والإجراءات القانونية الخاصة بالملكة الصليبية، بل كان لهذه المحاكم قانونها الخاص بها. وكانت الأحكام القضائية التي تصدرها المحكمة الاقطاعية في الامارة الصليبية بخصوص القضايا المدنية والجنائية نهائية، ولا يمكن استئنافها أمام أية محكمة أخرى في المملكة . ففي حالة القضية الخاصة باتهام الفصل لسيده بأنه ارتكب فعلًا غير شرعى أو أنه خرق قانون العلاقة الاقطاعية ، فإن هذه القضية لا يمكن أن تنظر أمام محكمة السيد الاقطاعي المتهم. وعندئذ كان يحق للفصل في الحالة الأولى رفع اتهامه لسيده أمام المحكمة العليا وذلك ووفقاً لقانون التبعية الاقطاعية الذي سنه الملك عموري ، وكان أقران هذا الفصل يحضرون للفصل في هذا النزاع القائم بين الفصل وسيده. وفي الحالة الثانية الخاصة يخرق القانون الاقطاعي من جانب السيد الاقطاعي يستطيع الفصل أن يرفع دعواه أمام محكمة السيد الاقطاعي الأعلى لسيده لكي تفصل في هذا النزاع. بيد أن ثمة حالة واحدة فقط يستطيع الفصل خلالها استئناف الحكم، وهي إذا وجد اتهاماً مباشراً ضد قضاة المحكمة يفيد تعزيزهم لصالح خصمه عن عدم، وكان مثل هذا الاتهام يفتح طريقاً واسعاً أمام اجراء الدفاع القانونية وبشكل فردي، وكان كل عضو من أعضاء المحكمة يجلس على منصة القضاء .

* الواقع أن ظهور وظيفة مسجل محاضر جلسات المحكمة العليا والمحكمة البرجوازية في عكا جاء على أثر مبادرة من جان الابليني سيد أرسوف في فبراير عام ١٢٥٠م، وذلك في احدى الجلسات العامة للممكينين العليا والبرجوازية . (المؤلف) .

وكان ابرام الصفقات التجارية يتم أيضا داخل جنبات المحكمة. إذ كانت المحكمة تعين موظفين للقيام بهذه المهمة مثل وظيفة الكتبة Scribanagiam والترجمان والمشرف على السلع التجارية drugemanagiun (وفي العادة كان هؤلاء الموظفون يحوزون اقطاعات) ، وثمة حقيقة لا يرقى إليها الشك وهي أن الامارة الصليبية أو المقاطعة كانت تضم عدداً من الموظفين الآخرين، سواء كانوا اقطاعيين أو غير اقطاعيين.

وهكذا كانت المحكمة الاقطاعية في الامارة الصليبية مؤسسة قضائية وإدارية عليا لهذه الوحدة الإقليمية الأساسية. فقد كانت هذه المحكمة تنظر كل الأمور المهمة للامارة ، وكل مشكلات الحياة اليومية للسكان الفرنجية من الفرسان . وكان الوضع الاجتماعي للمحكمة الاقطاعية لا يسمح لها بالتعامل مع اقام ونجاز حجم كبير من الأعمال التجارية. وإلى جانب عدد قليل من العائلات الفرنجية النبيلة، كان يوجد آلاف من البرجوازية الفرنجية تعيش في المدن وضواحيها التابعة لهذه الامارات الصليبية.

وكانت المحكمة البرجوازية تنظر في الأمور الادارية والقضايا المتعلقة بطبقة البرجوازية الفرنجية (وهي المحكمة التي رعاها يرجع تأسيسها إلى السنوات الأولى من النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي). وعرفت هذه المحكمة باسم المحكمة الصفرى. ومن الواضح أن هذا الاسم كان متداولاً في مدينة ملكية، وهي مدينة عكا ، وهي قائل المحكمة العليا للبلاء، (ولم تعرف محكمة الامارة الاقطاعية باسم المحكمة العليا). وكانت اختصاصات المحكمة البرجوازية تتعلق بالنظر في أمور البرجوازيين القاطنين في المدن وفي ضواحيها. وهكذا وجدت المحكمة البرجوازية في كل مدينة أو ضاحية يقطنها سكان فرنجية من البرجوازيين. ولم يكن هناك روابط أو صلات بين هذه المحاكم البرجوازية ، ويمكن القول أن المحكمة البرجوازية ، لم تعرف الهيكلية القانونية . ويشير المشرعون الصليبيون إلى أن طريقة المحاكمة التي ظهرت وسجلت في احدى المحاكم البرجوازية لا يمكن قبولها (أو على الأقل لم تكن شيئاً ضرورياً) لدى محكمة برجوازية أخرى، حتى ولو كانت هذه المحكمة في نفس الامارة الصليبية. وبينما كانت المحكمة الاقطاعية بؤرة لنشاط السكان الفرنجية من الفرسان القاطنين في الامارة ، فإن مثل هذه المؤسسة المركزية المتمثلة في المحكمة الاقطاعية لم توجد لدى البرجوازية. وكان اختصاص المحاكم البرجوازية الفردية النظر في القضايا والمنازعات التي تتشعب بين السكان البرجوازية القاطنين في احدى مدن أو مناطق الامارة. لقد كانت المحكمة البرجوازية قارس مهام حكومية

على المستوى المحلي وحق الفصل في القضايا الناشئة بين أفراد طبقة محددة قانوناً ومتلكاتها الخاصة بها.

وقد ذكر لنا المشروع الصليبي الشهير جان الابليني Jean d'Ibelin قائمة باثنين وعشرين إمارة اقطاعية في نهاية القرن الثاني عشر الميلادي وكانت هذه الإمارات تضم ثمانية وثلاثين محكمة برجوازية. بيد أن العدد الحقيقي لهذه المحاكم كان أكثر من ذلك. وتشير بعض الوثائق التاريخية المعاصرة إلى وجود عدد من المحاكم البرجوازية في المناطق الصليبية في بلاد الشام يصل إلى اثنين وأربعين محكمة وربما كان أكثر من هذا العدد*. وبالإضافة إلى ذلك، لم يشر هنا الابليني إلى وجودمحاكم برجوازية في القرى التي يقطنها الصليبيون. ومن الصعب التأكد من عدد الأماكن والمستوطنات التي كان يسكنها البرجوازية. بيد أننا نعرف على الأقل أسماء اثنين عشرة مستوطنة لإقامة هؤلاء البرجوازية. ومن الناحية القانونية يمكن القول، إن محاكم القرية ربما كانت تشبه محاكم الضيعة. إذ كانت تؤدي نفس المهام التي كانت تؤديها محاكم الضيعة في أوروبا ، فقد كان رئيس القرية الحق في إقامة العدالة بين أهالي القرية وكان رئيس القرية فصلاً تابعاً للسيد الاقطاعي أو تابعاً لمؤسسة دينية ، ولم تكن السلطة القضائية بالضرورة بيد السيد الاقطاعي . وحقيقة الأمر، أنه يمكن أن نبرهن على هذا من خلال أمثلة عديدة . وعلى الرغم من ذلك ، فإنه يصعب تصنيف مثل هذه المحكمة (محكمة القرية)، على أنها محكمة ضيعة. فقد كان قضاة هذه المحكمة ورعاياها من البرجوازية الفرنجية، وكان القانون العرفي الذي طبقته هذه المحكمة هو نفس قانون مدن المملكة الصليبية ويمكن أن نقول ، إنه في هذه الحالة كان المستوطن الفرنجي يتمتع بنفس الامتيازات التي يتمتع بها أفراد الطبقة البرجوازية التي تعيش في المراكز الحضرية على الرغم من أن هذا المستوطن الفرنجي كان يعيش خارج أسوار المدن.

* والقائمة التي دونها جان الابليني بخصوص أ حصاء عدد المحاكم البرجوازية تضم مناطق عديدة هي: مدينة القدس، ونابلس، وعكا ، والداروم، وبافا، وعسقلان، ورام الله، وابلين، وطبرية ، وصفد ، وصدا ، وبیروفورت، قلعة شقيف ، قيسارية، بیسان ، موتريال، والكرك، وجبرون ، بيت لحم، بین جبرین، واللد، وغزة وسبسطية ، وميرل ، وأريحا ، وعثليت ، وحيفا وکیمونت Cymont ، والناصرة ، وقلعة الملك ، والاسكتدرونة، وصور ، وتورون، بانياس ، وسوپيت ، وبیروت، وقلعة أرنات (المؤلف).

كانت المحكمة البرجوازية تتألف من اثنى عشر عضواً بالإضافة إلى رئيسها ، وكان السيد الاقطاعي للمدينة يقوم بتعيين كل هؤلاء . وكان رئيس المحكمة البرجوازية يحمل لقب «فيكونت» Viscount . ولم تكن هذه الوظيفة وراثية، وظل الفيكونت موظفاً يتلقى راتبه من سيد المدينة، وفي العادة كان رئيس هذه المحكمة من بين طبقة الفرسان في الإمارة، وتصل فترة رئاسته إلى عدة سنوات ويعتبر أوضاعه فاما فكره عن مهمة الفيكونت إذ كان بشابة حاكم للمدينة. إذ كان الفيكونت يمثل السيد في كل تعاملاته وعلاقاته مع كل سكان المدينة من غير الفرقجة من غير النبلاء . وكان يرأس الشرطة المحلية ويقود كتيبة وفرقة من الشرطة السرجندارية (المشاة أو الراكيه) . ومن المهام المنوط بها أيضاً مهمة إرسال الدوريات الليلية بالتناوب لحفظ الأمن في الشوارع ، ويساعده في ذلك موظف يعرف باسم «المحتسب» (أو المشرف على الأسواق) . فقد كان المحتسب مسؤولاً عن توفير الأمن لأهل المدينة وحماية ممتلكاتهم . وكان يشرف على الأسواق ، ويراقب الموزين والمكاييل وأسعار السلع والبضائع المتداولة في السوق . وفي نفس الوقت كان الفيكونت أيضاً مسؤولاً عن تحصيل العوائد والتحصيلات المستحقة على أهل المدينة للسيد الاقطاعي، سواء كانت إيجارات ، أو ضرائب مبيعات أو عوائد مالية من احتكارات المرافق ، وباعتبار الفيكونت رئيساً للمحكمة البرجوازية، فإنه كان مسؤولاً عن تحصيل الغرامات المالية التي كانت تفرض على المتخاصمين وكذلك الالتزامات المالية التي تفرض عليهم أيضاً . ولذا كان لدى الفيكونت مجموعة من موظفي المحكمة يقومون بهذه المهمة.

ولما كان الفيكونت حاكماً للمدينة، فإنه كان مسؤولاً عن حفظ السلام والأمن ونشره في ربوع المدينة، فكانت مسؤوليته الخاصة هي اقرار الأمان بين السكان الفرجحة . بيد أن مهمته الكبرى هي رئاسة جلسات المحكمة البرجوازية ، والاشراف المباشر على أعمال هذه المحكمة، وتنفيذ قرارات المحكمة.

لقد كانت أصول اللقب والمهام المنوط بها الفيكونت الذي كان يمثل أهم شخصية إدارية في الجهاز الإداري للسيد الاقطاعي مبهماً . فقد عرفت وظيفة الفيكونت في الغرب الأوروبي خلال الفترة الكارولنجية ، حيث كان الفيكونت مسؤولاً عن جزء من كونتية، وظهرت هذه الوظيفة بشكل غير واضح وعلى استحياء في بداية القرن الحادى عشر الميلادى . ومع بداية القرن الثانى عشر الميلادى، انتشرت وظيفة الفيكونت في كل مكان ، وكانت هذه الوظيفة وراثية،

وكلما كان الفيكونتات يتطلعون إلى ادارة جزء من الكوتية. وعادة كان الفيكونت من كبار السادة وفاصلاً مباشراً للأمير الإقليمي أو للملك. وفي إقليم نورماندي فقط (وفي إنجلترا خلال فترة الأنجلوسكسون) كان الشريف يحمل لقباً جديداً هو لقب الفيكونت)، وفي الفلاندرز، نجد آثاراً لتلك المؤسسة الإدارية الباكرة كانت ما تزال باقية. ومن المنطقى الاعتقاد بأن وظيفة الفيكونت الصليبي كان اقتباساً لذلك النموذج الأصلى لهذه الوظيفة التي كانت موجودة في شمال فرنسا، على الرغم من أن عدد كبيراً من المستوطنين البرجوازيين من الصليبيين وكذلك قوانينهم ونظمهم كانوا ينتسبون في الأصل إلى جنوب فرنسا، وهذا في حد ذاته ليس بمستغرب، وخاصة إذا علمنا أن الطبقة الحاكمة من الصليبيين والأسرة الحاكمة كانت قد وقفت إلى المنطقة العربية من جنوب فرنسا بصحبة الحملات الصليبية.

كانت المحكمة البرجوازية تتالف من مجموعة من القضاة ، واشتق هؤلاء القضاة اسمهم من القسم الذى كانوا يؤدونه لسيد المدينة فى أثناء تعينهم. وفي العادة ، كانت هذه المحكمة دائمًا بشابة محكمة سيد المدينة. ولم تصبح هذه المحكمة أبداً أداة من أدوات الاستقلال الذاتى للمدينة، هذا الاستقلال الذاتى الذى لم تعرفه مدن المملكة الصليبية. ونظراً لأن المحكمة البرجوازية كانت المؤسسة الإدارية للمدينة فقط، فإنها في نفس الوقت كانت تمثل سكان المدينة من الصليبيين أمام السيد. فقد كانت كل الكتب القانونية الصليبية توصى السيد بأن يستشير سكان المدينة عند تعين الفيكونت . وقد علمنا أيضاً أن بعض القوانين المحلية والبلدية كانت تعلن بعد استشارة قضاة المحكمة البرجوازية.

لقد كانت المحكمة البرجوازية التى تتالف من اثنى عشر عضواً تتعقد للقضاء، ثلاثة أيام فى الأسبوع - أيام الاثنين ، والأربعاء ، والجمعة، باستثناء أيام الأعياد - وكان وقت الاجتماع يتد من شروق الشمس حتى الفروب، وكانت تنظر كل القضايا المتعلقة بالطبة البرجوازية وأملاكها فى المدينة . عموماً يمكن القول أن أملاك البرجوازية كانت عبارة عن أراض زراعية يحوزها هؤلاء البرجوازيون. وقد أدت بعض الظروف (كحالة الزواج أو التوريث) إلى نقل الأملاك البرجوازية من الأرض الزراعية إلى أيدي النبلاء. وظللت مثل هذه الأراضي الزراعية والأملاك البرجوازية داخل نطاق سلطة المحكمة البرجوازية وليست تحت سلطة المحكمة الاقطاعية للإماراة. وبجانب اختصاصات المحكمة البرجوازية فى نظر كل الدعاوى القضائية المدنية، فإن هذه الاختصاصات امتدت أيضاً لتشمل النظر فى القضايا الجنائية الخاصة بكل سكان المدينة من البرجوازية، باستثناء النبلاء من سكان هذه المدينة.

وتفتت المحكمة البرجوازية في كل مدينة تتمتع بالاستقلال الذاتي مثل أية محكمة اقتصادية ، وفي بعض النواحي كانت هذه المحكمة أكثر استقلالاً ، وأية ذلك أن قوانين هذه المحكمة البرجوازية تختلف عن قوانين المحكمة العليا المركزية الخاصة بالنبلاء، إذ كانت قرارات وأحكام المحكمة البرجوازية نهائية ولا يمكن استئنافها، باستثناء تهمة التحييز المتمددة في الحكم لمصلحة أحد المتخاصمين من قبل أعضاء المحكمة، وكان هذا الاتهام يلقى ظللاً من الشك حول نزاهة وعدالة أعضاء المحكمة . وكان هذا الاتهام يكلف المتهم حياته، ما لم يتدخل سيد المدينة ويبدي تسامحه وعفوه ويسمى أمر هذا الاتهام بعد أن يوجه التقرير والتوصييخ القاسي لهيئة المحكمة.

وكان ثمة تقليد ديني مبجل وهو أن جودفري البويوني ، أول حاكم صليبي للملكة اللاتينية قد أنشأ شعيتين قضائيتين رئسيتين ، أحدهما خاصة بفرسانه والنبلاء والأخرى لعامة الفرنجة من أتباعه. وكان علينا أن ننتظر مدة جيل كامل ، حتى الربع الثاني من القرن الثاني عشر الميلادي ، لكي نتلمس الظهور الشكلي لنطء المحكمة البرجوازية. بيد أن هذا التقليد الذي طبقة الحكام الصليبيون لم يكن يعوق إنشاء هذه المحكمة. ويمكن أن نعزز سبب قيام جودفري البويوني بإنشاء محكمة خاصة للبرجوازية في ضوء حقيقة أن فترة حكم هذا الحاكم الصليبي كانت قصيرة نسبياً وهى الفترة التي شهدت حروباً كثيرة بين الصليبيين والمسلمين. ومن المحتمل أن السلطات القضائية الصليبية المختلفة قد شهدت تطوراً خلال فترة حكم الملك الصليبي بدروين الأول، حيث ساهمت الأملاك المكتسبة التي حصل عليها الصليبيون في المنطقة العربية في خلق الفوارق الاجتماعية بين النبلاء وغير النبلاء من الغزاة الصليبيين. وكان من طبيعة المجتمع الاقطاعي أن تكون ملكية الأراضي الزراعية في المناطق والأقطار التي احتلها الصليبيون في شكل اقطاعات ، وهذا يعني أن النبلاء هم الذين يحوزون الاقطاعات في هذه المناطق الصليبية في بلاد الشام. واتسم وضع هؤلاء النبلاء الصليبيين في المدن المحتلة بالغموض . فقد أصبح الغزاة الصليبيون الذين طردوا السكان المحليين بين عشية وضحاها سادة هذه المناطق وملوكاً لكل المباني التي تقع داخل أسوار هذه المدن. وكان سيد المدينة صاحب السلطة العليا في مدينته، ولم يكن من حق أي شخص الادعاء بملكية هذه المدينة ، فلا يستطيع أحد أن ينزع عهدة السلطة، ومن المؤكد أن مثل هذا لم يكن محدوداً بشكل مباشر . وغالباً ما كانت المكانة الاجتماعية للشخص تقرر الوضع القانوني لأملاكه ، سواء

كان مالكاً اقطاعياً أو برجوازياً . وبمرور الوقت ، أصبح وجود المستأجرين الاقطاعيين في المدينة واقامتهم بها أمراً استثنائياً ، وفي الغالب كانت الاقامة في المدينة بمثابة امتياز خاص ينحدر السيد الاقطاعي لأحد أفراده . وأصبح نوذج المستأجر البرجوازي قاعدة في كل أراضي المدينة . وبالإضافة إلى ذلك ، فإن التشريع الصلبي الذي حرم البرجوازية من حيازة الاقطاعيات قد أدى إلى تكتل معظم أفراد هذه الطبقة من السكان الصليبيين في أن يتلوكوا أملائي برجوازية .

لقد تبلور التصنيف الطبقي وأيضاً الامتيازات القانونية لممتلكات الصليبيين من خلال البنية التشريعية للملكة الصليبية وقوانينها . إذ بات على أبناء الطبقة البرجوازية أن يسجلوا أسماءهم في المحكمة الملكية الصليبية في الفترة الباكرة من الوجود الصليبي . وقد أصبحت المحكمة الاقطاعية للنبلاء مكاناً لاجتماع أتباع وبطانة الحاكم الصليبي الأول جودفري البويوني والملك بلدوبن الأول . وبعد ذلك ، ظهرت المحاكم البرجوازية كمؤسسة قضائية جديدة ، وجاءت استجابة للاحتجاجات الضرورية المتطورة لجموع الفرجنة من غير النبلاء الذين يقطنون مدينة بيت المقدس .

لم تكن المحكمة الاقطاعية ، التي تختص بالنظر في قضايا طبقة النبلاء والفرسان بدعة ، بيد أنها كانت تفتقر إلى الخبرة عند التعامل مع القضايا الخاصة بالأفراد الذين لا ينتسبون إلى طبقة النبلاء أو الفلاحين أو الأقنان أي (البرجوازية) . وفي نهاية القرن الحادى عشر الميلادى كان ما يزال الاستقلال الذاتى الذى تتعى به السكان المحليون فى المناطق الحضرية ، وقلما كانت محاكمهم تصلح لأن تكون نوذجاً لحاكم الصليبيين الذين احتلوا هذه المناطق ، فقد جلب الصليبيون معهم من أوروبا بعض المبادىء القانونية الأساسية والإجراءات لكنى يشيدوا مؤسساتهم وفقاً للتغيرات والظروف الجديدة . لقد انقسم الصليبيون بشكل أساسى إلى فئتين : الفتاة الأولى كانت تسمى محاكتمتهم بواسطة القرآن ، والفتاة الثانية كانت تتطلب شهود الاتهام عند ابرام صفة تجارية أو انجاز صفقة بيع . وعلى الرغم من أن شهادة أقران الأطراف المتعاقدة لم تكن ضرورية فى ابرام هذه الصفقات التجارية ، فإن مثل هذه الشهادة كانت بلا ريب مفيدة وأمراً طبيعياً فى مثل هذه الحالة . ومن ثم ليس مستغرباً أن تجد أول اشارة وذكر للبرجوازية فى الوثائق الصليبية كانت تتعلق بالشهادة على صحة حجة البيع . وبعد ذلك بوقت قليل ، وجدنا شهادة البرجوازية على الصفقات التجارية ، وكانت أسماء هؤلاء الشهود تحمل ألقاباً

إضافية مثل «الشهدو الشرعيين» و«شهود جلالة الملك» ، وفي فترة متأخرة، عرف هؤلاء الشهود بلقب «المحكمين»، وعرفوا أخيرا باسم محكمة*. وتدل هذه الأسماء المتشابهة لأعضاء المحكمة البرجوازية التي دونت في كل الوثائق الصليبية على أنها يقصد بها نفس الجماعة والطبقة التي تعرف بطبقة البرجوازية ، ومن المنطقي الظن بأنه على الرغم من أن اسم المحكمة البرجوازية قد ظهر في فترة متأخرة من الوجود الصليبي ، فإن هؤلاء البرجوازيين الذين كانوا يشهدون على صحة ابرام الصفقات التجارية كانوا بثابة أعضاء لهذه المحكمة وكانت هذه الصفقات تسجل وتدون في سجل المحكمة. ويقى هذا الشكل صورة فوذجية للمحكمة البرجوازية. فقد كانت السلطة القضائية لهذه المحكمة في الفترة الباكرة من الوجود الصليبي بسيطة ، ثم ما لبثت أن أصبحت أكثر أهمية وقوة في فترة متأخرة ، فقد عرفت المحكمة البرجوازية طريقة التقاضي بواسطة الأقران، وكانت هذه المهمة، تسد إلى مجموعة من القضاة برئاسة الفيكونت ، هذا الفيكونت الذي كان فصلاً تابعاً لسيد المدينة.

ومن المفترض أن هذا التطور القضائي الذي شهدته مدينة بيت المقدس قد انتقل في فترة متأخرة إلى المدن الأخرى التابعة للمملكة الصليبية. ومن المحتمل أن مثل هذا قد تم بشكل جزئي ، ويمكن تفسير السبب في ضوء حقيقة أن معظم المراكز الحضرية التي كانت تحت يد المسلمين قد انتقلت إلى السيادة الصليبية بعد الغزو. وبات من الطبيعي أن يقوم الصليبيون بانشاء مؤسسة ادارية في كل مدينة تخضع لسيادتهم على غرار النظام الاداري المعمول به في مدينة القدس. وينتج المدينة لأحد النبلاء الصليبيين في صورة اقطاع ، ظلت المؤسسات الادارية، كما هي، إذ أن عملية انتقال السيادة على المدينة من الملك الصليبي إلى الأمير الصليبي أيضا لم تستلزم بالضرورة حدوث أية تعديلات لهذه المؤسسة .

كانت الادارة البرجوازية في المستوطنات الصليبية في القرى تعتمد بشكل أساسى على خبرة مكتسبة لادارة هذه القرى. إذ كان وضع هذه الطبقة البرجوازية يتحدد من خلال مؤسساتهم وأعرافهم وقوانينهم. وإلى حد ما كانت المحكمة البرجوازية تعبيراً عن الوحدة العضوية للسكان الذين ينتمون لأصل برجوازى والقاطنين خارج أسوار المدينة.

* لقد ظهر الاسم الكامل للمحكمة البرجوازية لأول مرة في مدينة بيت المقدس في عام ١١٤٩ م (المؤلف).

وتميز سكان المدن الصليبية بتجانس البناء العرقي، واستطاعت المحاكم الاقطاعية والمحاكم البرجوازية أن تُنفي بالأغراض القضائية والإدارية . بيد أن هذه ليست هي الحقيقة الواقعية . إذ كانت مدينة بيت المقدس منذ اليوم الأول للغزو خالية من سكانها المسلمين واليهود ، وكانت معظم المدن الصليبية في بلاد الشام تضم خليطاً متعددًا من السكان . فقد عادت فلول السكان المسلمين واليهود - الذين كانوا قد هربوا من مدنهم نتيجة الغزو الصليبي - مرة ثانية إلى هذه المدن، ووجدت جماعات من المسيحيين الشرقيين في كل مكان من المناطق الصليبية، وكان أكثرهم من السوريان واليعاقبة*، وقد قُمعت هذه الجماعات المسيحية الشرقية بالحكم الذاتي منذ فترة طويلة، والذى تطور خلال فترة السيادة الإسلامية في هذه المناطق والتي استمرت ما يقرب من أربعة قرون من الزمان أو ينيف . ولذلك تتفادى هذه الجماعات من المسيحيين الشرقيين التدخل الخارجي وبالتحديد تدخل العدو، قامت هذه الجماعات المسيحية بتطوير مؤسساتهم الخاصة، التي كانت تتعلق كثيراً بالعقيدة المسيحية كالمؤسسات الخيرية والقضائية . وقد طورت هذه الجماعات مؤسساتها القضائية ، وكان هذا التطوير ناتجاً طبيعياً للقانون المحلي، ولاسيما قانون العائلة والخلافة Family and Succession Law الذي كانت تطبقه وقارسه هذه الجماعات، وكان هذا القانون مقتبساً من التشريع الروماني والبيزنطي القديم، وهكذا اختلف هذا القانون عن قوانين الفاتحين المسلمين . ونظراً لأن هذه الجماعات المسيحية كانت محرومة من صفة الدولة (كما كان وضع جماعة اليهود) ، فإنهم وجدوا في مؤسساتهم الدينية بديلاً للدولة . فقد قامت الهيكلية الدينية لهذه الجماعات بتنظيم حياة أفراد هذه الجماعات واقامة العدالة بينهم . ففي القضايا والخلافات التي كانت تتشعب بين أعضاء هذه الجماعات ، كان المقصوم يرفعون الدعاوى القضائية أمام محاكمهم وقوانينهم الخاصة . وكانت عقوبة الهرطقة والالحاد (الأناثيم) التي يفرضها رجال الدين سلاحاً قوياً في الترسانة الروحية ، هذه العقوبة التي كانت تعرض صاحبها للنفي والابعاد عن جماعته

***اليعاقبة** : هم أتباع مذهب ديسقورس القائل بأن المسيح «جوهر من جواهرين، وأنثوم من أقثومين ، ومشية من مشيتين » وعرفوا باسم المزوفيزيين أي أتباع مذهب الطبيعة الواحدة، وينسب اليعاقبة إلى يعقوب الرادعى أحد زعمائهم ، وكان أتباع هذه الطائفة وما زالوا يمثلون أقباط مصر . (قاسم عبد قاسم : *أهل النمة في العصور الوسطى* ، دار المعارف ، ط . ١٩٧٧ ، ص ١٠٦) .

ونبذه بالإضافة إلى فقد موارده المالية أيضاً . وتحت ذريعة توفير الأمن والطمأنينة لهذه الجماعات المسيحية الشرقية ، كان أعضاؤها لا يطلبون على الاطلاق تدخل الدولة في شؤونهم الواقع أن السلطات الإسلامية كانت أكثر سعادة وارتيحاً ازاء ترك الحكومة الذاتية في أيدي أعضاء هذه الجماعات التي تعمت بالحكم الذاتي . وما زالت الظروف والأحوال التي شهدت تدخل السلطات الإسلامية في شؤون هذه الجماعات غير معروفة ومن الغريب أن ثمة تنافس كان يحدث بين أعضاء هذه الجماعات من أجل الوصول إلى مناصب عليا في الهيكلية الدينية . وأحياناً ، كانت السلطات المحلية تتدخل في إدارة أملاك الكنيسة .

وفي حين كان حق الفصل في القضايا المدنية لأعضاء هذه الجماعات من أبرز سمات الحكومة خلال فترة السيادة الإسلامية ، فإننا نفتقر إلى معرفة الكثير عن عملية التقاضي في الجرائم الجنائية . وهل كان النظر في هذه القضايا الجنائية من حق أعضاء الجماعات المسيحية أم كان من حق الحكومة ؟ وإننا نفتقر إلى معرفة ماهية الاجرامات التي تتبع في القضايا والخلافات المختلفة التي تتشعب بين أعضاء مختلف الجماعات غير الإسلامية . الأمر الذي يجعلنا نفترض أن الخصوم والأطراف المتنازعة كانوا يلجأون في التقاضي إلى المحاكم الحكومية عندما تفشل محكمة الجماعة في تسوية هذه الخلافات .

والواقع أن الغزو الصليبي لم يحدث تغييراً كبيراً في التنظيم الطائفى التقليدى للأقليات المسيحية . وساهم القانون الصليبي فى تحقيق ذلك ، إذ أن السوريان وهم من المسيحيين المحليين طلبوا من حكامهم الصليبيين الجدد أن يعترفوا لهم بمحاكمهم الخاصة والعمل بوجوب قوانينهم وأعرافهم الخاصة . وعلمنا أن الحكام الصليبيين استجابوا لهذا المطلب للسريان . وهذا يعني أن السوريان احتفظوا بوضعهم القديم . وتشابه وضع اليهود أيضاً مع واقع وضع المسيحيين المحليين ، فقد حصل اليهود على حق حرية التقاضي أمام محاكمهم فى المملكة اللاتينية فى بيت المقدس ، وذلك بوجوب صكوك مدونة والتى ما زالت موجودة حتى الآن .

كانت المحاكم الوطنية تتولى أمور السكان المحليين المقيمين فى مدن الامارة الصليبية ، وكذلك المقيمين فى القرى التابعة لهذه الامارة ، وذلك على أساس طائفى . فقد كانت المحكمة الدينية للطائفة هي السلطة المختصة بالنظر فى الأمور المدنية مثل الزواج ، أو الوصايا ، أو ما شابه ذلك . وفي حالات أخرى ، علمنا أن الرئيسى العلمانى لهذه الجماعة هو الذى كان يرأس المحكمة الأصلية الوطنية . ولا نستطيع أن نصف السلطة الدينية (سلطة رجال الدين) على أنها

جزء من ادارة الامارة الصليبية، غير أنها استطاعت سد فجوة كبيرة في أعمال هذه الادارة. فقد كانت السلطة الدينية، والمحاكم العلمانية للمسيحيين ب بشابة جزء من الآلية الحكومية والتي استطاعت أن تثبت دعائم الحكم والقضاء للسكان من غير الفرجحة على المستوى المحلى.

ومن المحتمل تماماً أن نموذج حكم المسيحيين الوطنيين الذي تمثل في المحاكم الوطنية قد وجد لأول مرة في عاصمة المملكة الصليبية ومن ثم تم تقليل هذا النموذج في المدن والمناطق الريفية الأخرى في ربيع المملكة اللاتينية . والحقيقة أن الملوك الصليبيين في بيت المقدس في عام ١١١٥ شجعوا عدداً كبيراً من الجماعات المسيحيين الشرقيين للاستقرار في مدينة القدس، وهي الجماعات التي وفت إلى المملكة من منطقة ما وراء نهر الأردن، وكان هذا قراراً أكثر عقلانية ومنطقية. ومن الطبيعي أن نفترض بأن مثل هذه الهجرة الداخلية قد حلت على التطور القانوني، أو على الأقل كانت عاملاً حافزاً لهذا التطور.

وفي ما يتعلق بالمحاكم الوطنية فإن ثمة تغير ملحوظ حدث في تاريخ غير محمد ابن القرن الثاني عشر الميلادي، بيد أن المصادر التاريخية لسوء الحظ لم تقدم لنا تفسيراً خاصاً لهذا التغير وشكله ، ولذا يجب علينا أن نقتصر بالمحسن والتخيين فقد كان هذا التغير عبارة عن اندماج قسمين مختلفين من أقسام السلطة القضائية في الامارة الصليبية، فقد وجدت محاكم المسيحيين الوطنيين الشرقيين ومحكمة خاصة في كل مراكز الاستيطان الصليبيي الحضرية الكبرى ، وعرفت هذه المحكمة باسم محكمة الفندق أو السوق Cour de la Fonde . إذ كان الفندق أحياناً يشير إلى مكان السوق أو إلى آية منطقة (سواء كانت ميداناً أو شارعاً) يمارس فيها النشاط التجاري، وكان مكان السوق ملكاً عاماً للصليبيين. وكان الفيكونت يعين موظفاً عرف باسم المحتسب ، يعهد إليه مهمة الالحاف على الأسواق في هذه المراكز الحضرية المردحمة والتي كانت تشهد نشاطاً تجاريًّا واسعاً . وإلى حد ما تطور نوع خاص من السلطة القضائية للسوق، تمثل في محكمة السوق، تمثل الآلية القضائية والإدارة الشكلية للمحكمة البرجوازية وذلك للنظر في المنازعات البسيطة والانتهاكات التي تحدث في السوق بين التجار وأصدار قرارات بخصوص هذه المنازعات والقضايا، تلك القرارات التي كانت معوقة أكثر منها مساعدة حل المشكلات . ولم نعرف التركيب الأصلي «لمحكمة السوق» ، بيد أن محكمة السوق كانت منذ بدايتها تتتألف من ستة أعضاء من الفرجحة والوطنيين الشاميين ، ولم تطبق هذه المحكمة المبدأ الرئيسي للمحاكمة وهو المحاكمة بواسطة القرآن، على الأقل في النزاعات

الشخصية. ولنا أن نتخيل الحجم الكبير في التعاملات في السوق بين المنتجين الوطنيين ، الفلاحين والحرفيين وصفار التجار، وزبائنهم من الفرنجية المستهلكين. وكانت محكمة السوق يرأسها أحد الفرنجية ، والذي كان يحمل لقب «البایل bailli». ولم يكن من اختصاص محكمة السوق النظير في الجرائم الجنائية التي تتطلب عقوبة الاعدام أو بتر الأعضاء . بل كان من اختصاصها النظري القضايا المدنية التي لا يزيد قيمتها المادية عن مارك فضي واحد. وكانت القضايا التي تتجاوز هذه القيمة تنظر أمام المحاكم البرجوازية حتى ولو كان أطراف الدعوى لا ينتميان إلى طبقة البرجوازية.

وبمرور الوقت، اتسعت اختصاصات «محكمة السوق» حيث ضمت إليها المحاكم الوطنية في القرى وهي المحاكم التي كانت تعرف باسم محكمة رئيس القرية. ويدعى المرء سواء كانت محكمة السوق تمثل خطورة متعددة تمت على يد الفرنجية، أو أن هذه الأمور قد تطورت بطريقة أو بأخرى في هذا الاتجاه . ومن المحتمل أن ظهور محكمة السوق وتطورها لم يحدث تغييراً كبيراً في الأمور القضائية . فالقضايا المختلفة (التي كان أطرافها تشمل الشوام والفرنجية لا يمكن أن تنظر أمام محكمة الرئيس الوطنية . وهكذا فإن اندماج المحاكم الوطنية (محكمة السوق ومحكمة الرئيس) أحدث تغييراً بسيطاً في الواقع المعاش للمجتمع. وكانت المشكلة تمثل في نشوب النزاعات بين الشاميين أنفسهم . وطالما وجدت السلطة القضائية الذاتية في المناطق الصليبية في بلاد الشام، فإن هذه القضايا والنزاعات التي كانت تنشب بين الشاميين كانت تنظر أمام المحاكم الوطنية التي يرأسها الرئيس؛ ومن ثم فإن المحكمة المختلفة المتمثلة في «محكمة السوق» كانت السلطة المختصة بالنظر في هذه القضايا. ومن المحتمل أن مثل هذا التطور كان بمثابة خطوة محددة أقل أهمية من الناحية العملية ، ومن الناحية النظرية لم يقبل السكان المحليون هذا التطور القانوني القضائي . وبالتشابه المجزئ لوضع الجماعات اليهودية في المجتمع الإسلامي والمجتمع المسيحي، نجد أن الاختصاصات الجديدة لمحكمة السوق لا ينبغي أن تلغى المؤسسات الوطنية الباكرة التي كانت تتمتع بالحكم والاستقلال الذاتي . ومن المحتمل أن هذه المؤسسات كانت تمارس نشاطها القضائي إذا دعت الضرورة ذلك، أو كان عملها يعتمد على رغبات الأطراف المتنازعة . ومن ثم كان الاحتفاظ بالمؤسسات المحلية يعتمد بشكل كبير على مجمل التماسك الكلى لمختلف الجماعات المحلية . وإذا علمنا أن جماعات الأقليات كانت أكثر حرضاً والحاها في المحافظة على حقوقها ومؤسساتها وقوانينها

فإننا على الفور ندرك أن محاكم الرئيس لم تفقد مكانتها ووضعها بشكل كامل، أو على الأقل لم تخفي هذه المحاكم الوطنية. وعلاوة على ذلك ، فسوف تذكر دائمًا أن سلطة النظر والفصل في القضايا المتعلقة بالزواج ظلت، كما كانت من قبل، بيد رجال الدين.

وهكذا ، فإن كلا من «محكمة القرية أو الرئيس» و«محكمة السوق» كانت تقيم العدالة على المستوى المحلي. وظل مجال هاتين المحكمتين محدودًا بالقيمة المالية للقضية التي تنظر أمامها ، أى لاتزيد قيمة القضية المنظورة أمامهما عن مارك فضي واحد ، وكذلك عدم نظر القضايا الجنائية أمامها. وكان نفس الشيء بالنسبة لأملاك الوطنين من الأرض الزراعية القريبة من المدينة ، إذ كانت المحكمة البرجوازية هي صاحبة السيادة القضائية عليها. وعلاوة على ذلك ، فإن المحكمة البرجوازية لم تكن محكمة استئناف . لقد كانت محكمة القرية أو «الرئيس» وأيضاً محكمة السوق محاكم تتمتع بالاستقلال الذاتي في إطار سلطاتها القضائية.

والآن دعنا نلقى نظرة على المدن الأخرى من مدن المملكة الصليبية، حيث أسفرت الاحتياجات والضرورات المهمة والطبقات الاجتماعية الخاصة عن خلق مؤسسات قضائية خاصة. ففي الربع الثاني من القرن الثاني عشر الميلادي وجدت في موانئ المملكة الصليبية محكمة خاصة تعامل مع تفاصيل القانون البحري. وعرفت هذه المحكمة باسم محكمة السلسلة، وأخذت هذه المحكمة اسمها من تلك السلسلة التي كانت تتدنى بين برجين مشيدتين على حواجز المياه، وكانت هذه السلسلة تغلق مدخل الميناء كل ليلة ، وأيضاً في أثناء فترات الحصار، حيث كانت قبعة وتعوق أساطيل العدو من الاقتراب إلى المدينة. وكانت محكمة السلسلة يتتألف أعضاؤها من التجار البحريين الذين اعتادوا تطبيق القانون التجاري. وكان الكثير من القضايا المهمة تنظر أمام محكمة السلسلة، وعندئذ تعرض هذه القضايا أمام المحكمة البرجوازية . ومن خلال القضية التي تنظر أمام المحكمة البرجوازية نكتشف بوضوح الوظيفة البيروفرطاطية التي تقوم بها هذه المحكمة البرجوازية، حيث كانت ترفع تقاريرها أمام المحكمة العليا من أجل اصدار قرار معين .

وكما كان الوضع تقريباً بالنسبة للمحاكم القضائية الأخرى، فإن محكمة السلسلة كانت تنظر الخلافات المالية والقضائية، ولم تقتصر مهمتها على تحصيل وجباية الغرامات المالية فحسب، بل كانت تقوم بمهام تحصيل الرسوم الجمركية الخاصة بالميناء . وفي القرن الثالث عشر

الميلادي سمعنا عن «فيكانت المينا» ذلك الموظف الذي كان من المحتمل رئيساً لمحكمة السلسلة والمسئول عن ادارة المينا . لقد كانت محكمة السلسلة محكمة تجارية فقط وليست محكمة لطبيعة قانونية محددة ، ولكنها كانت محكمة تنظر نفطاً محدوداً من القضايا التجارية . ولم تشهد فروع الادارة الصليبية الأخرى أى تطور لهذا النوع من المحاكم.

لقد كانت الادارة الملكية أو البارونية في المدن الرئيسة (كل المدن البحرية الساحلية) معقدة، أو إذا صع القول فإنها كانت متخصصة، وفقاً لأنظمة الادارية الذاتية للكوميونات الأوروبية . وكانت اختصاصات الادارة الذاتية للكوميونات الإيطالية يائلاً لاختصاصات المحكمة الاقطاعية أو المحكمة البرجوازية، الأمر الذي جعلها أكثر ملاءمة لأفراد الكوميونات التجارية الإيطالية . ومن ناحية أخرى ، فإن كل الكوميونات الأوروبية الرئيسة أصبحت تمتلك مناطق نفوذ في المملكة الصليبية، بالرغم من اختلاف درجة أهمية هذه الكوميونات، فقد امتلك بعض الكوميونات أحياءً في المدينة، في حين امتلك بعض الكوميونات أراض زراعية مهمة حول المدينة . وفي كلتا الحالتين قتع الممثل الاداري للكوميون بحقوق قضائية على السكان القاطنين في الأحياء والقرى التابعة للكوميون . ومن الطبيعي كان الفرسان مرتبطين بسيد مدینتهم برباط اقطاعي، وباستثناء هؤلاء الفرسان، كان البرجوازية (على الرغم من أنه كان هناك عدد قليل من حالات التقاضي في هذا الصدد)، وأفراد الكوميونات الأخرى الوطنية، سواء كانوا مسيحيين ، أو يهودا ، أو مسلمين ، والذين كانوا يقطنون هذه الأحياء أو في القرى التابعة للكوميونات ، فإنهم كانوا أحياناً يخضعون للسلطة القضائية والادارية للكوميون .

وخارج أسوار المدينة ، كانت الادارة المحلية تقيم العدالة عن طريق المحكمة البرجوازية في القرى والتي أسسها الفرنجة ، وكذلك عن طريق المحاكم الوطنية في القرى التي كان يرأسها أعمدة القرية . ولا نعرف الشيء الكثير عن عمل ونشاط هذه المؤسسات الوطنية . وعلى أي حال فإننا نعرف أن بعض الأماكن التي خضعت للسيادة الصليبية كان يوجد بها مساجد القاطنين في الأحياء الخاصة بهم . وكان رجال الدين المحليين، سواء كانوا من البيزنطيين، أو من اليهود يمارسون نفس السلطة القضائية على السكان المسيحيين في القرى، واستمرت أيضاً السلطة التقليدية المحلية في القرية في الوجود في ظل السيادة الصليبية . وكان يعهد إلى أعيان القرية مهمة القيام بهذه السلطة القضائية، هؤلاء الأعيان الذين واصلوا ممارسة اقامة العدالة بشكل تطوعي ، أو ربما بقيت سلطة كبير العائلة في القرية . لقد ظلت هذه المؤسسات التقليدية باقية

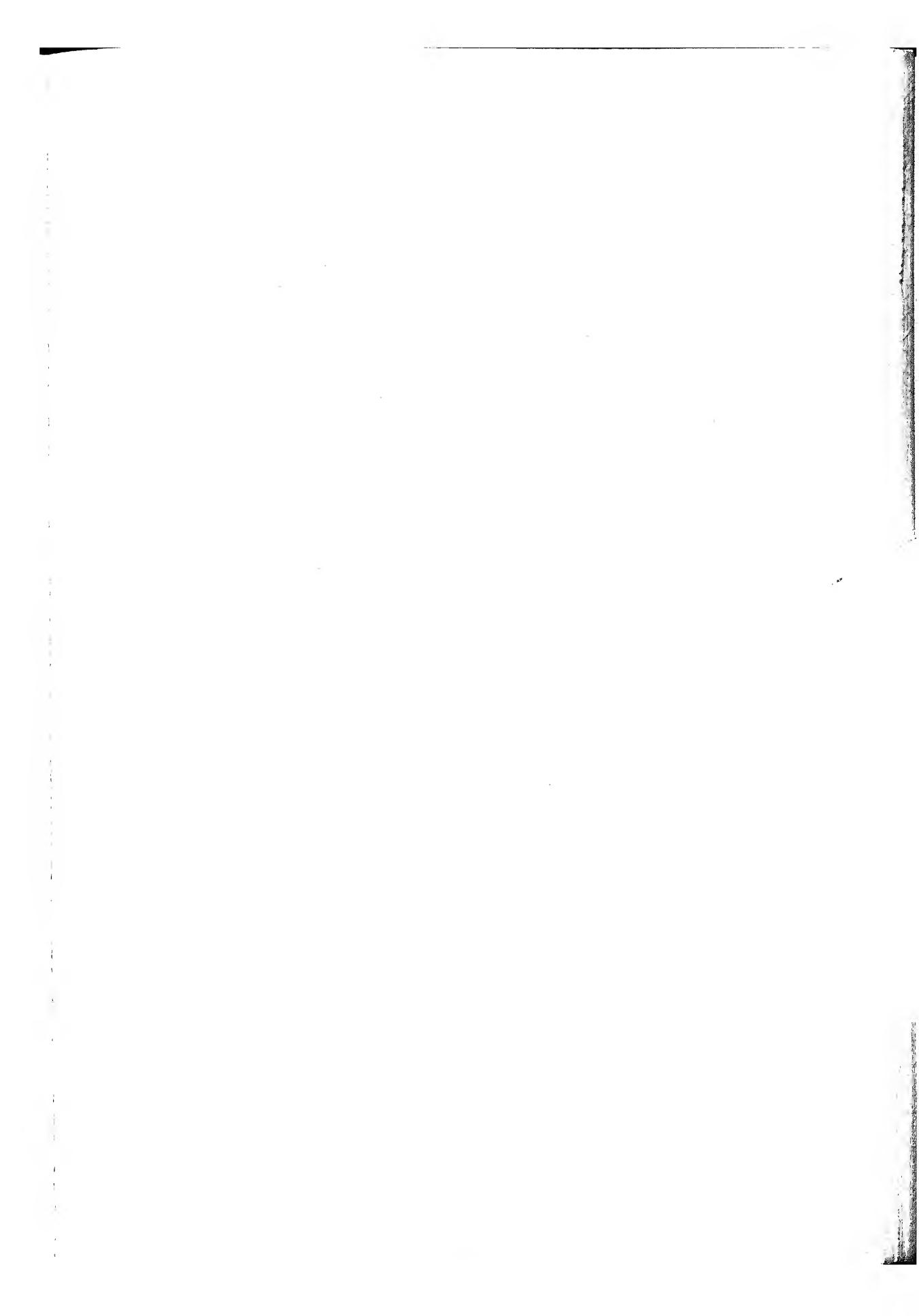
قارس عملها والذى يؤكد ذلك جيداً هو أنه، عندما كانت تخضع أية قرية لأحد السادة الفرنجية، فإنه كان يطلب من أعيان هذه القرية الوطنيين أو كبار العائلات فيها أن يقدموا إليه نوعاً من الولاء. واستمرت محاكم القرية المحلية (محكمة الرئيس) قارس مهامها وتؤدي دورها تحت سيطرة الحاكم الصليبي الجديد، وهى المهام التى كانت تؤديها فى نفس القرى منذ مئات السنين، مهما كان نوع الحكم أو الحاكم.

كانت ادارة القرية ذات فط بسيط. فلم تكن هناك ضياع فعلية، أو بمعنى أكثر وضوحاً لم تكن القرية تضم أملاكاً واسعة من الأراضي الزراعية، وانحصرت اهتمامات سيد القرية فىصالح المالية إلى حد بعيد. إذ كان هناك عدد من الموظفين يساعدونه في الادارة من أهمهم الترجمان ، والكاتب، وكانت مهمة هذا الموظف الحفاظ على متحصلات وريع أراضي السيد الاقطاعي . وكان هذا الموظف يظهر في القرية وقت موسم الحصاد والجنى لكي يقطع ثلث أو ربع المحصول وينقله بدوره إلى مخزن الغلال والشونة التابعة للسيد ، وكان يتبع نفس الاجراء عندما تنضج ثمار أشجار الفاكهة أو الزيتون ويحين جنبيها ، أو عندما يعين الوقت لجباية الضرائب العينية المألوفة أو بتعبير رقيق ولطيف «الاتاوة» التي كانت تتمثل في الشمع، وعسل النحل، وما شابه ذلك، والتي كانت تقدم للسيد الاقطاعي الأعلى.

ولاشك أن الأمور في القرى التابعة للمؤسسات الكنسية كانت مختلفة إلى حد ما . فقد كان يوجد في كل قرية من هذه القرى دير أو كنيسة وغالباً ما كان هذا الدير أو الكنيسة مزوداً بكوخ لإقامة راهب معين، وهو الراهب الذي كان مفوضاً لتأدية مهمة معينة في القرية، إذ كان الراهب يقيم في هذا الكوخ الملحق بالدير أو الكنيسة (ربما في أثناء موسم الحصاد والجنى فقط) ، ويشرف بدوره على عملية تحصيل الضرائب المستحقة لهذا الدير . وفي القرى التابعة للهيئات الدينية العسكرية (الداوية- الاسبتارية- التيوتون) ، كانت توجد مؤسسة وهيئة مركزية تشرف على تحصيل وجباية المتحصلات من الضياع المختلفة الخاصة بهذه الهيئات الدينية والعسكرية.

وفي ما يتعلق بالمعاملات والتعامل بين الأفراد في هذه الوحدات الإقليمية الصغيرة سواء كانت حضرية أو ريفية ، فإن الادارة الاقطاعية للملكة الصليبية استطاعت أن تتغلب بكلفة على مشكلات هذا التعامل بين الأفراد. ومن المؤكد أن تطبيق نظام الآلية الادارية الاقطاعية في المقاطعات الصليبية كانت أكثر كفاءة واقتدار عن استخدامها في المملكة الصليبية المرهقة.

والحقيقة أن الامارات الصليبية كانت صغيرة جداً ، وهذا يعني أن المعرفة الشخصية المباشرة والاتصالات المباشرة بين الأفراد كانت قوية بدرجة كافية لجعل الآلية الادارية البسيطة تعمل بسلامة ويسر. وربما يكون هذا سبباً من أسباب عدم تطور الادارة الصليبية وتجاوزها مرحلة التنظيم الاقطاعي الأوروبي الذي يرجع إلى القرن الحادى عشر الميلادى. فلم تكن هناك حاجة ملحة وضرورية لإحداث مثل هذا التغير والتتطور الادارى فى هذه الامارات الصغيرة . لكن هذه التغييرات والتتطورات فى الادارة كانت أكثر الحاجة ، وضرورة فى الآلية الادارية فى أرجاء المملكة الصليبية بشكل عام . بيد أنه عندما أصبحت هناك حاجة لمثل هذا التطور بعد منتصف القرن الثانى عشر الميلادى بوقت قليل، ضعفت قوة وسلطة الملك الصليبي وعانى الملك الصليبيون من ضغط النبلاء، عليهم، الأمر الذى أدى في النهاية إلى عرقلة أية محاولة للإصلاح الادارى .



الفصل العاشر

الكنيسة

أ- تنظيم وهيئة :

ثمة قضية جدلية في تاريخ الحروب الصليبية وهي أن البابا أريان الثاني سواه كان هو الذي أول من دعا إلى شن الحروب الصليبية أم لا فإنه هو الذي أراد غزو الأرضي الأراضي المقدسة في بلاد الشام وفلسطين كخطوة تمهيدية من أجل قيام دولة ثيوقراطية ، باعتبار هذه الأرضي المقدسة ميراثاً للقديس بطرس في هذه المناطق. وعلى أي حال ، فإنه كان من الواضح أن الحزب الديني القوي في جيوش الحملة الصليبية الأولى قد استحوذ على مكانة عليا ووضع ثابت في أعقاب الاحتلال الصليبي لمدينة القدس ، وذلك عندما نشب الخلاف والشقاق بين القادة الصليبيين حول انتخاب أول حاكم صليبي للملكة . ففي أثناء تلك العلاقات طالب الأساقفة أن يكون البطريرك اللاتيني هو الحاكم السياسي والديني للمملكة الوليدة وأن يكون انتخابه في هذا المنصب أسبق من أي شخص علماني آخر. ولاشك أن هذا المطلب كان يعكس روح الحملة الصليبية الأولى ، وتفق وفكرة العصور الوسطى حول تفوق وسمو الأمور الدينية على مثيلتها الدنيوية.

لقد تم احتلال الصليبيين مدينة بيت المقدس بعد سنوات أربع من بداية الحملة الصليبية الأولى والاعداد لها ، وانتشر المثال الصليبي الذي رفعه الصليبيون على نطاق واسع في أثناء زحفهم ومسيرتهم الطويلة والمضنية صوب منطقة الشرق العربي الإسلامي.

كانت الطبيعة والسمة الروحية غيز الحركة الصليبية ، بيد أنه في بعض المناسبات النادرة ولاسيما في أثناء الأزمات التي كان يمر بها الصليبيون كانت ترتفع درجة حرارة الوجد الصوفى والمشاعر الدينية ، ولكن هذه الحماسة الدينية المتأججة ، قد فترت في أثناء زحف الصليبيين في آسيا الصغرى. وبالإضافة إلى ذلك ، فإنه بوفاة المدحوب البابوى أديغار أستف لى بوى أمام أنطاكيه ، ضفت المطالب الأساسية لرجال الدين والمهم في هذا الموضوع ، هو أن قادة الجيوش الصليبية الذين قرروا البقاء في الشرق قد تصوروا أنفسهم ومستقبلهم حكاماً علمانيين لهذه الأقاليم التي احتلوها في منطقة الشرق العربي الإسلامي.

وعلى الرغم من ذلك ، فإن بعض مظاهر تأجع نار المشاعر الدينية الباكرة كانت ما تزال موجودة . لقد ساهمت الدعاوى والمطالب غير المحدودة للكرسى الرسولى المقدس فى مدينة القدس وال المتعلقة بكتاب رجال الدين اللاتين فى اختيار اللقب الذى تلقب به جودفرى البويونى وهو «حامى القبر المقدس» . ولفتره قصيرة كانت السمة المميزة لمستقبل الملكة اللاتينية قد تبلورت من خلال مرحلة التوازن بين القرى العلمانية والدينية وقدم جودفرى البويونى - أول حاكم صليبي للملكة الجديدة- والأمراء الصليبيون فى أنطاكية والرها ، يعنى الولا ، والتبعية الاقطاعية للبطريرك اللاتيني الجديد الذى تم انتخابه ، وهو البطريرك دايمبرت البيزاوى The Pisan Daimbert وأعلنوا أنهم أنصال اقطاعيون تابعون لكنيسة الضريح المقدس ، وبالإضافة إلى ذلك وعد جودفرى البويونى (حامى القبر والضريح المقدس) أن يتخلى عن مدينة بيت المقدس وبافا للبطريرك اللاتينى حالما تنسع حدود الملكة اللاتينية . وكان هذا يمثل ذروة مطالب رجال الدين اللاتين . وبعد أقل من عام من تأسيس الوجود الصليبي توفى جودفرى البويونى ، وخلفه آخره بلدوبن الأول ملكا صليبيا ، وبات لقب «حامى القبر المقدس» نسياً منسياً » وبعد بضع سنوات ، تولى البطريرك (ستيفن ١١١٨ - ١١٣٠) مقايد الكنيسة اللاتينية فى بيت المقدس ، وعندئذ حانت اللحظة المواتية لكي يجدد هذا البطريرك الجديد مطالبه غير الواقعية والمنطقية ، بيد أنه فى هذه المرة لم تلق هذه المطالب أية استجابة من الملك الصليبي وتجاهلها تماماً ، وشهدت فترات الوجود الصليبي بعض المشاحنات والشقاقات بين الملوك الصليبيين والبطاركة اللاتين ، بيد أنه بشكل عام ، ظل كتاب الأساقفة اللاتين رعايا لبني العريكة وطيعين بشكل ملحوظ.

وهكذا ساهمت الكنيسة اللاتينية فى بيت المقدس بدور كبير فى تشييد الهيكلية والرتب الكنسية والمحافظة عليها ، وهذه الهيكلية الكنسية لم يقدر لها أن تلعب أى دور حاسم فى تاريخ الملكة الصليبية ، وفي الوقت الذى كانت فيه الملكيات الأوروبية المعاصرة تكافد وتناضل بشكل يائس من أجل الحصول على حق تعيين رجال الدين فى المراكز الأسقفية ، كانت الملكة الصليبية فى بيت المقدس لها الدور الحاسم والفعال والقوى فى تعيين الأساقفة ورجال الدين فى الأسقفيات الشاغرة . ولم يقتصر حق الحكومة العلمانية الصليبية فى تعيين الأساقفة فقط ، بل امتد هذا الحق أيضاً ليشمل تعيين البطريرك اللاتينى فى بيت المقدس . وكان من المعتمد أن يسمح لكنيسة الضريح المقدس (التي أصبحت فى الفترة الأخيرة ملتقى الأساقفة) أن تقدم مرشحيها لشغل منصب البطريرك . وكانت أسماء هؤلاء المرشحين تعرض أمام الملك الصليبي ،

فيختار من بين هؤلاء المرشحين من يصلح لوظيفة البطريرك . وفي الغالب، كانت المحكمة الملكية الصليبية تتدخل حتى في اختيار المرشحين لشغل الوظائف الدينية في الكنائس الصغيرة والكبيرة. وقد تطور هذا الحق الملكي الصليبي في تعين رجال الدين في الكنيسة في نفس الفترة التي كانت فيها البابوية في أوروبا تشهد قوتها في وجه الإمبراطور والملك من أجل أن يكفل لها حرية تعين رجال الكنيسة في أوروبا دون تدخل من الإمبراطور والسلطة العلمانية. وكانت أوروبا في تلك الفترة تسم الممارسة الصليبية باسم العار والسيمونية. وعلى الرغم من البيان الدينى الذى صرخ به جان الإبلين Jean d'Ibelin سيد يافا ومؤلف مجموعة قوانين ملكية بيت المقدس الشهيرة (فى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى) والذى مفاده أن المملكة الصليبية كان على رأسها اثنان من السادة، أحدهما دينى روحي والأخر علمانى دنبوى- البطريرك والملك- فإن هذا كان مختلفاً على أرض الواقع بشكل كبير.

وفي ضوء مثل هذه العلاقات بين الدولة والكنيسة في المملكة الصليبية ، يجب أن نقرر حقيقة أن هذه العلاقات بين السلطتين العلمانية والدينية كانت ذات سمة وخصوصية أخرى. ففى كل أنحاء العالم المسيحى الأوروبى ، كانت الكنيسة تمارس السلطة القضائية على كل رجال الدين والعلمانيين فى القضايا المتعلقة بالزواج . والشرعية ، ووراثة العرش والهرطقة الدينية ، والانحرافات الجنسية والمفاسد الأخلاقية . ومن ناحية أخرى، فإن المملكة الصليبية، لم يوجد بها عدد كبير من الاقطاعات أو الامارات الكنسية ، مثلما كان الوضع فى أوروبا. واجمالاً فقد ضمت المملكة الصليبية فى بيت المقدس أربع امارات اقطاعية كنسية صغيرة جداً، وبحلول الربع الثانى من القرن الثانى عشر، تقلص عدد هذه الامارات الكنسية إلى ثلاثة فقط. وقد تخض مطلب البطريرك اللاتينى فى بيت المقدس عن حصول البطريركية على حى فى المدينة عرف باسم حى الضرير المقدس أو حى البطريرك ، وأصبح هذا الحى بمثابة مقاطعة دينية داخل العاصمة ، والتى كانت مقاطعة ملوكية. وقد أقر التقليد والقانون الصليبي ذلك من منطلق أن حى الضرير المقدس كان مخصصاً لإقامة المسيحيين فى منتصف القرن الحادى عشر الميلادى بموجب التنازل الذى قدمه حكام مصر الفاطميين ، وفي معاهدة أبرمت بين الحكام المسلمين الفاطميين وبين الإمبراطور البيزنطي، تم الاتفاق على أن تدفع الإمبراطورية البيزنطية مبلغاً من المال لقاء استرداد الحى المسيحى فى مدينة القدس للأسوار المجاورة له. سواء كان استقلال هذا الحى فى الواقع يرجع إلى القرن الحادى عشر الميلادى، أو أن وجوده

يرجع بصورة أكبر إلى التنظيم والترتيب الصليبيي الحديث ، فإن التتحقق من هذا يعد أمراً ليس يسيراً. ومهما يكن من أمر، فإن هذا الحق كان يخضع لادارة البطريرك ، إذ كان يمارس البطريرك سلطته الادارية والقضائية على كل سكان هذا الحق. وسواء ادعى الملك الصليبي بالسيادة على ذلك الشطر الديني من المدينة ، فإن هذا الادعاء لم يكن واضحاً ويكتنفه الغموض والشك. ومن المحتمل أن ترتيبات الأمن في هذا الحق والتي قامت على عاتق الحراس المذكورين قد أحدثت وأدت إلى تبعية هذا الحق للسلطة الملكية .

كانت اللد مقاطعة دينية أخرى من الاقطاعات الكنسية، وقد حازت اللد شهرتها بسبب ميلاد القديس جرجس بها، ذلك المحارب المسيحي الشهيد. فقد تأسست هذه المقاطعة في أثناء الزحف الصليبي في الحملة الصليبية الأولى لفرض الحصار على مدينة القدس. إذ توفر الجيش الصليبي عند مدينة رام الله المجاورة للد بعد أن هجرها سكانها من المسلمين، ونزل الصليبيون هذه المدينة للرب عرفانا بالجميل له على مؤازرته لهم في انتصاراتهم وكانت أسقفية اللد أول أسقفية يؤسسها الصليبيون في الأراضي المقدسة وأيضاً أول اقطاعية كنسية . كانت هذه الأسقفية الجديدة تضم رام الله والمناطق القريبة من اللد، وبعد فترة قليلة إلى حد ما (في عام ١١١٩م) وجدنا رام الله تخضع لسيطرة أحد السادة العلمانيين في حين كان المقر الأسقفي ومقر الحكم ينحصر داخل مدينة اللد الصغيرة.

وتعتبر مدينة الناصر ثالث الاقطاعات الكنسية وكانت نشأتها نشأة صلبيّة خالصة أى كانت وليدة الوجود الصليبي، وذلك لأن الأسقفية الأصلية كانت تقع في بيسان المهجورة المقفرة. ونقل الصليبيون مقر هذه الأسقفية إلى الناصرة في إقليم الجليل، وأصبح الأسقف سيداً للمدينة. وحدث نفس الشيء في مدينة بيت لحم الصغيرة التي ارتفت لتصل إلى درجة أسقفية، وأصبح أسقفها سيداً لهذا المكان.

وكما رأينا ، فإنه كان من الواضح أن القوة الإقليمية للكنيسة من حيث حجم مواردها الاقتصادية كانت ضئيلة إلى حد بعيد ، ولاشك أن هذا الضعف الاقتصادي للكنيسة قد ساهم في اضعاف نفوذ وأهمية رجال الدين اللاتين في المجال السياسي.

لقد تجلّى ضعف النفوذ السياسي لرجال الدين اللاتين في المملكة الصليبية من خلال إطار التنظيم الاقطاعي الصليبي، كما تجلّى واضحاً أيضاً من خلال التشريع القانوني للملكة ، الذي كان يحظر على المؤسسات الكنسية امتلاك وحيازة الاقطاعات. وقد صيغ هذا الحظر

والتحرر بشكل أساسى فى مختلف المجموعات والكتب القانونية للصلبيين وعلى الرغم من ذلك، فإنه عند قراءة بعض الوثائق الصليبية، يتبين لنا أن المؤسسات الكنسية قد حصلت على مئات من المنح الاقطاعية من الأراضى الزراعية . ومن الناحية القانونية ، فإن المنح الملكية لا تعتبر من الناحية العملية والفنية منحًا اقطاعية . وعلى أي حال ، فإن وجهة النظر القانونية هذه، قلما كانت تقد لتشمل وتصنف كل المنح التى تقدم لرجال الدين من السادة العلمانيين، أوصال الملك، أو أوصال الأوصال. فقد كان أوصال أوصال الملك يحوزون (باستثناء بعض الممتلكات غير الاقطاعية البسيطة) أراض اقطاعية، وكانت منح هذه الأراضى للكنيسة فى شكل هبة يعتبر تنازلاً عن الأملاك الاقطاعية ونقل ملكيتها للكنيسة ، وعندئذ يتم اعفاء الكنيسة من كافة التزامات الاقطاعية. وكانت الممتلكات الاقطاعية القريبة من المدينة، والممتلكات البرجوازية، يحظر نقل ملكيتها إلى الكنيسة. وسجل المشروعون الصلي比ون بوضوح هذا الحظر والتحرر ، بيد أن سجلات الكنيسة قد أظهرت أن الكنيسة كانت تحصل على كميات كبيرة من أملاك المدينة وتحتفظ بها ، وأخيراً، شهدت المملكة اللاتينية فى قبرص محاولة حقيقة من أجل جعل هذه القيود القانونية الخاصة بامتلاك الكنيسة لأملاك برجوازية أكثر قوة وتأثيراً .

وما يذكر أن الممتلكات الكنسية لم تعفى تماماً من تأدية التزامات الحكومية . وشة سجل للخدمات العسكرية الاقطاعية فى المملكة الصليبية دون في الربع الأخير من القرن الثاني عشر الميلادى وقد تضمن هذا السجل قائمة ببعض الظروف والأحوال الطارئة التى كان على الكنيسة تقديم الخدمات خلالها للملك الصليبي ، ومن الغريب أن الكنيسة لم تقدم للملك الصليبي خدمة عسكرية فى شكل فرسان ، بيد أنها كانت تضع تحت تصرف الملك الصليبي وأمرته عددًا من المحاربين من غير الفرسان وهم السرجندارية، وهم المقاتلين المشاة، أو الراكبة. وأحياناً كانت هذه الظروف الطارئة مهمة ، وهكذا ساهمت الأملاك الكنسية فى الدفاع عن المملكة . وعلى أي حال، فإن محاولة تقييم العلاقة بين موارد الكنيسة وبين مصروفات الدولة أمرًا غير ذى جدوى.

كان التنظيم الأساسى للكنيسة اللاتينية فى منطقة الشرق العربى يمثل مشكلة عويصة لم تجد حلًا مقنعًا . وتكمن الصعوبة فى ذلك التناقض بين الأعراف والتقاليد البيزنطية القديمة وبين النمط الجديد للاستيطان الصليبي. وكان الغزو الصليبي يعني قطع الصلات والعلاقات

بالماضى البيزنطى، على الرغم من أن الصليبيين كانت لديهم المبررات التى تتجاوز السمة الدينية لكي ينظروا إلى مذهبهم الكاثوليكى الذى أقاموه حديثاً كوريث شرعى للنظام الدينى البيزنطى الارثوذكسي السابق. وهكذا اضطر الصليبيون إلى احداث تكيف بين التقاليد الموجودة ومتطلبات وضرورات الفترة الجديدة لوجودهم .

لقد كان التغير فى تنظيم الكنيسة اللاتينية فى الأراضى المقدسة ثمرة الاحتياجات والضرورات السياسية بصورة أكثر من كونه ثمرة الاحتياجات الريفية البسيطة ، وكان هذا التغير يمثل حد التغير والاختلاف التقليدى بين بطريركتى أنطاكية وبيت المقدس الشرقيتين، فقد كانت بطريركية وكنيسة أنطاكية تضم منذ القدم أسقفية صور الكبيرة ، والمنطقة الممتدة من عكا فى الجنوب حتى طرطوسه فى الشمال بالإضافة إلى سبع من الأساقفة المساعدين. وهنا وجد التقليد الكنسى نفسه على خلاف مع الاطار السياسى الجديد للكيان الصليبي، وذلك لأن المملكة الصليبية كانت تضم مدينة صور. وتحت ضغط الملوك الصليبيين فى بيت المقدس - الذين أبوا أن يروا جزءاً من مملكتهم مهما، يضم ميناءين كبيرين هما عكا وصور، تخضع لإدارة وسيطرة البطريرك المقيم فى مدينة أنطاكية- تحتم على الكنيسة اللاتينية فى بيت المقدس أن تفرض سيادتها على حدود وتوخوم البطريركيات القريبة من حدود المملكة الصليبية. وهكذا كانت بطريركية القدس تضم أسقفية مدينة صور، بيد أن بطريركية القدس فقدت أسقفية صور فى اطار عملية انتقال الأسقف المساعد لهذه الأبرشية خارج حدود المملكة الصليبية. وأصبحت السياسة الرسمية فى كنيسة روما ترى أن أية أقاليم يحتلها الملوك الصليبيون يجب أن تخضع للسلطة القضائية للبطريرك اللاتينى فى بيت المقدس . وعلى الرغم من ذلك، فإنه لم يكن من اليسير استئصال واجتثاث جذور الأعراف والتقاليد العتيدة الضارة فى أعماق الزمن. وفي الغالب، كانت بطريركية أنطاكية تحدد مطالبه، وكان مطارنة صور يترددون ويتذبذبون فى ولائهم، وقد حسمت هذه القضية بشكل واضح لصالح كنيسة مدينة بيت المقدس، بعد ما يقرب من مائة عام بعد الغزو الصليبي للأراضى المقدسة، أى فى سنة

.١٢٠٦م.

والمظهر الآخر لتنظيم الكنيسة يتعلّق بالكنائس المطرانية الكبيرة والأسقفيات وفى بداية القرن الثالث عشر الميلادى يقول جاك دى فيترى:

«... ويوجد في الأرض الموعودة أيضاً الكثير من المدن الأخرى، وقبل الوجود اللاتيني في هذه المنطقة، كان على رأس الكنائس الأرمنية والبيزنطية في هذه المدن أساقفة ، ويسرب عدد هذه الكنائس الكبير وفقرها ، أخضع الصليبيون الكثير من هذه الكنائس وهذه المدن لسيطرة كاتدرائية مدينة واحدة، خشية أن يفقد الأسقف جلاله ووقاره» .

وهكذا أصبحت مدينة الناصرة، ذلك المكان الذي شهد البشارة المقدسة للسيدة مريم العذراء، أسقفية (في عام ١١٠٩) لكن تحمل محل بيسان (Scythopolis) ودير جبل طابور العتيق، الذي حاول رفع دعواه أمام الكنيسة اللاتينية في القدس. وفي عام ١١١٠، قامت كنيسة مدينة بيت لحم برفع دعواها أيضاً أمام الكنيسة اللاتينية في القدس. ومن الغريب، أن البيزنطيين لم يحافظوا على هذه الأماكن باعتبارها أسقفيات ، على الرغم من أن هاتين المدينتين (الناصرة - بيت لحم) كان يقطنها عدد كبير من السكان المسيحيين وبالطبع لم تفتقد هاتان المدينتان للوقار والجلال. ومن المحتمل أن قرب المدينتين من بعضهما البعض كان له أثر كبير في تقييم الصليبيين لأهمية الأماكن المقدسة بشكل مختلف، ومهما يكن من أمر، فقد كان من المحتوم أن يتعلق هؤلاء القادمون الجدد من الأوروبيين إلى الأراضي المقدسة بهذه الأماكن المقدسة مثل مدينة بيت لحم ومدينة الناصرة. وشعر الأوروبيون الغربيون بأنه من غير المناسب تجنب وإغفال المزارات المقدسة المسيحية المهمة في هذه المناطق والمدن الدينية. وبالرغم من هذه التغييرات في تنظيم الكنيسة ، فإن بعض هؤلاء الأوروبيين كانت تحثهم الاحتياجات السياسية إلى سكنى هذه المدن، وبعض الآخر كانت تحثهم الاحتياجات والمطالب الروحية والدينية، ومن الصعب القول أن تنظيم الكنيسة اللاتينية كان في الواقع انعكاساً لأولويات الملكة الصليبية. ولم تصبح مدينة مثل يافا أسقفية أو أبروشية ، وأيضاً مدينة نابلس. ومن ناحية أخرى ، فإن مدينة حبرون الصغيرة قد ارتفعت إلى أسقفية ، في حين لم ترقى أكبر مدينة صليبية، وهي مدينة عكا إلى مرتبة الأبرشية أو الأسقفية.

ومن الطبيعي أن أوروبا لم تعرف مثل هذه الظاهرة، حيث ساهمت دعاوى الأماكن المقدسة القدية في منع المراكز الحضرية الكبيرة الجديدة من المشاركة في المرتبة الكنسية. وعلى الرغم من ذلك ، فإن ثمة اختلاف أساسى بين أوروبا والملكة اللاتينية في بيت المقدس. فقد استطاعت أوروبا في العصور الوسطى ، والتي تشكلت بعد الغزوات germania أن تتتطور في شكل غواص وغط تقليدي دون أية اعاقات بارزة. ومع أن الصليبيين لم يتمحرروا تماماً من التأثير البيزنطي الباكر، فإنهم أحدثوا بعض التغييرات في البنية التنظيمية. فقد كانت أهمية

، يعرف والمصالح الدينية تقف حجر عثرة في وجه التكيف الشامل للمؤسسة الدينية مع الحقائق الديموجرافية (السكانية) للملكة الصليبية.

كانت الملكة الصليبية في بيت المقدس تتألف من أربع تقسيمات كنسية : أسقفية بيت المقدس التي يرأسها البطريرك وأربعة مراكز أسقفية ، هي قيسارية (Maritina) ، والناصرة ، وصور ، ويتراء ما وراء نهر الأردن (منذ عام ١١٦٨م) . وبالإضافة إلى الكنائس البروشية، فإن البطريرك كان يعاونه أساقفة مساعدون مباشرون في أسقفيات القدس جرج (اللد- الرملة) ، وبيت لحم وحبرون .

ويعتبر تاريخ أسقفيتي بيت لحم وحبرون أمراً ذا أهمية. فقد أصبحت مدينة بيت لحم بعد الغزو الصليبي ديراً لرهبان كنيسة الضريح المقدس، وأصبحت عسقلان معدة لأن تكون أسقفية. ولكن عسقلان لم تخضع للسيطرة الصليبية حتى عام ١١٥٣م ، وشعر الصليبيون أن بيت لحم، ببلادها المقدس، سوف تتحتل رتبة أعلى من الدير البسيط. وهكذا استقبلت مدينة بيت لحم أسقفها في عام ١١١٠م كأسقف مساعد للبطريرك . ولم تصل عسقلان التي خضعت للسيطرة الصليبية متأخراً إلى درجة الأسقفية واعتمدت على أسقف بيت لحم. وثمة تطور مشابه حدث في حبرون . ففي عام ١١٩١م، وعندما تم اكتشاف قبور البطاركة في حبرون ارتفعت مكانتها الكنسية من مجرد دير للرهبان إلى أسقفية. ومن الجدير بالذكر ، أن مدينة يافا لم تتلقى أسقفاً واعتمدت بشكل مباشر على كهنة الضريح المقدسي. وربما يرجع هذا إلى حقيقة أن الحكام الصليبيين قد وعدوا البطريرك اللاتيني أن تكون يافا ومدينة القدس أوقافاً كنسية تابعة له.

ولكي تكتمل صورة أسقفية مدينة بيت المقدس، يجب أن نشير إلى أن أساقفة كل من المعبد، وجبل صهيون، وجبل الزيتون كانوا جميعاً أساقفة مساعدين لبطريرك بيت المقدس اللاتيني، وهكذا فإنه من الناحية الجغرافية امتدت سلطة البطريرك القضائية لتشمل كل فلسطين القديمة ويهودا (بيت المقدس) حتى سلاسل جبال السامرة.

لقد كانت أسقفية قيسارية محصورة في تبعيتها بين بطريركية مدينة القدس وبين الكنسية المطرانية في الناصرة، بيد أن أسقف السامرة (نابلس) كان بشابة أسقف مساعد لأسقفية قيسارية. ومن الغريب قليلاً، أن حيفا التي كانت تلى مدينة عكا في الأهمية قد اعتمدت على أسقفية قيسارية، وإلى الشمال كانت تقع أسقفية الناصرة، التي أعلنت أنها كنيسة مطرانية بكل أقليم الجليل. لقد ظهرت أسقفية الناصرة إلى الوجود في عام ١١٠٨م لكي تحل

محل أسقفية بيسان القديمة، تلك المدينة التي فقدت أهميتها خلال فترة الوجود الصليبي، وانحدرت إلى مستوى مدينة صغيرة . وكما ذكرنا آنفا ، فإن أسقفية الناصرة قد ناضلت كثيرا من أجل حمل هذا اللقب ، بالإضافة إلى الدير المقام على جبل طابور. وعندما تحقق النصر لأسقفية الناصرة بشكل نهائي ، تنازلت عن نصف مواردها الكنسية لأبروشية دير التجلی على جبل طابور. وكان أسقف طبرية يعتبرأسقفاً مساعدًا لأسقف الناصرة. وكانت طبرية عاصمة إقليم الجليل، مع أنها لم تصبح المركز الديني لهذا الإقليم.

وكان أساقفة بيروت، وصيدا، وبانياس، وعكا بثابة أساقفة مساعدين لأسقفية صور.

وتعتبر أسقفية البنتاز ، في منطقة ما وراء نهر الأردن آخر الأسقفيات ومن الناحية الاسمية، كان أسقفها هو الأسقف البيزنطي لدير سانت كاترين في سينا . بيد أن هذا كان بثابة خيال، وذلك لأن الصليبيين نادراً ما كانوا يسيطرون على شبه جزيرة سينا .

ومن الجدير باللحظة أن الحجم الفعلى للأسقفيات كان صغيراً. ومن الواضح أن العدد الكبير من الأبروشيات كان انعكاساً للتقليد القديم (وتذكر احدى القوائم المدون بها أسماء الأساقفة أكثر من مائة أبروشية في المناطق التي احتلها الصليبيون)، بيد أنها كانت أيضاً تعكس صورة المجتمع الجديد. ونادرًا ما كانت واجبات راعي الأبروشية تمتد إلى خارج حدود المدن والقلاء، وذلك لأن الأغلبية العظمى من السكان الأوروبيين الصليبيين كانوا يعيشون داخل أسوار المدن. وهكذا فإن المحدودة الشكلية للأسقفيات كانت قليلة الأهمية. وتركزت الواجبات الرعوية لراعي الأبروشية بشكل أساسى في المدن ، وكان حجم هذه المدن وعدد سكانها هو الذي يقرر أهمية هذه الأبروشية. وكانت المناطق الريفية النائية التي يقطنها المسلمين والمسيحيون الشرقيون ذات أهمية ثانوية . وهكذا فإن حجم الأسقفية لم يكن دلالة حقيقة للوضع الاجتماعي أو الاقتصادي للأساقفة اللاتين. فقد كانت موارد الدخل الرئيسية للأسقف تأتى إليه من ريع الكنائس الأبروشية الصغيرة ، ومن الهبات والمنح التي يقدمها أفواج الحجاج التي تتدقق باستمرار إلى هذه المناطق المقدسة ، بالإضافة إلى أملاكه في المدينة، وممتلكاته من الأرض الزراعية، فقد كان النبلاء والأمراء الصليبيون يقدمون للأساقفة منحًا سخية في شكل قرى زراعية Casales* ومن المحتمل أن مثل هذه الموارد كانت من الناحية الفعلية أكثر أهمية من العشور الكنسية الريفية التي كان يدفعها السادة الصليبيون .

* Casales : وهذه الكلمة تعنى القرى الصغيرة (المترجم).

عاش المطرانة والأساقفة اللاتين في الكنائس الكبرى في مدنهم. وكانت موارد كل كنيسة تقسم بين الأسقف وبين باقي رجال الدين في الكاتدرائية، وفي الغالب كانت هذه هي الطريقة السائدة - كما كان الوضع في كنيسة الضريح المقدس - وذلك وفقاً لمعاهدة واتفاق أبرم بشأن طريقة التقسيم هذه ففي عام ١١١٤ ثم استطاع البطريرك المثير للجدل أرنولف Arnolf أن يفرض على رجال الدين اللاتين في كنيسة الضريح المقدس قانون القديس أوغسطين، هذا القانون الذي كان يرى :

«أن رجال الدين في كنيسة الضريح المقدس سوف يحصلون على نصف موارد الكنيسة، وأن الجزء الباقى من الموارد يرجع على النحو الحالى: يخصص جزءاً من هذه الموارد للأماكن والمزارات المقدسة في الكنيسة (مثل مكان صلب المسيح أو الجلجة- الخ) للاضافة الزيتية، ويخصص الجزء الثالث للبطريرك ، وسوف يحصل رجال الدين الذين يحرسون الصليب المقدس على كل القربان المقدس، ماعدا يوم الجمعة الطيبة، أو عندما يأخذ البطريرك الصليب المقدس (صليب الصلبوت) معه في أوقات الضرورة. ويقر القانون حصول رجال الدين على العشور الكنسية المفروضة على مدينة بيت المقدس بالكامل والأماكن القريبة منها ماعدا الأماكن التي تقام عليها الأسواق والتى كانت ملكاً للبطريرك ». .

كانت المدن الكبرى تضم عدداً كبيراً من الكنائس بجانب الكاتدرائيات ، بيد أن كثيراً من هذه الكنائس لم تكن كنائس أبوروشية بالمعنى الصحيح للكلمة. وكان الجزء الأكبر من الواجبات الرعوية الأبوروشية تقع على عاتق الأديرة وكنائس الهيئات الدينية العسكرية (الاسبارتارية - الداوية- التيوتون) ، أو الكنائس التابعة للأحياء الإيطالية في المدن الصليبية التي كانت تتمتع بالاستقلال الذاتي .

ويكفى أن نعيد النظر ونتأمل في كنيسة مدينة مثل عكا لكي نتصور وضع هذه الكنائس اللاتينية في المناطق الصليبية، فقد كانت كنيسة الصليب المقدس هي الكنيسة الرئيسة في عكا، والتي كانت مركزاً لأسقف عكا، ثم أصبحت بعد ذلك وخلال فترة وجود الملكة الصليبية الثانية، مقرًا ومركزاً للبطريرك اللاتيني، ولاسيما بعد أن أصبحت عكا عاصمة للملكة الصليبية، وكانت هناك كنائس للهيئات الدينية العسكرية مثل فرسان الاسبارتارية ، والدواية، والتيوتون ، وفرسان القديس لازاراس Lazaras ، وفرسان القديس مونتجو، والقديس توماس Thomas ، وكانت هذه الكنائس التابعة للهيئات الدينية العسكرية تتنافس

مع الكنائس الأبروشية في المناطق الصليبية. وكانت هناك ثلاث كنائس رئيسة تابعة للكوميونات الإيطالية، وهي كنيسة القديس مارك للبنادقة وكنيسة القديس بطرس للبيازنة ، وكنيسة القديس لورانت Loarant للجنبية. وفي القرن الثالث عشر الميلادي، كانت هناك كنيسة القديس مارتين للبريتون ، وكنيسة القديسة ماري للبروفنسال * . وقد تعمّت معظم هذه الكنائس تقرّباً بالاستقلال القضائي بعيداً عن السلطات المحلية، الأمر الذي أحقّ المساواة الفادحة والغم والضيق ب رجال الدين المحليين. وهذا الوضع يفسّر الانتقادات اللاذعة والحادية التي وجهها جاك الفيترى أسقف عكا لرجال الدين النظاميين يتهمهم فيها بالفساد قائلاً : «... وبعد أن أفسدتهم الثروة والغنى والتکاثر بدرجة قوية ، ونالوا الممتلكات الواسعة، بدأ رجال الدين يحتقرن زعماً لهم ، يحطّمون بذلك سلاسل القلوب الموحدة، ويقطّعون الوشائج والروابط التي كانت تربطهم بعضهم ببعض». .

ولكي تكتمل الصورة بوضوح للبنية الدينية للمملكة اللاتينية في بيت المقدس، فإنه يجب علينا أن نتناول بالدراسة المنشآت الدييرية في هذه المملكة الصليبية.

بـ- الأديرة Monasteries

كان رجال الدين النظاميون بكنائسهم وواجباتهم الرعوية الملقة على عاتقهم يمثلون أحد مظاهر المؤسسات الدينية. وكما كان الوضع في كل أنحاء العالم المسيحي آنذاك، كانت المؤسسات والهيئات الدييرية جزءاً متممًا لنظام رجال الدين النظاميين. ومن المعروف أن غط الحياة الدييرية، يرجع إلى فترة قديمة، وتستطيع مصر فقط أن تفخر بأنها احتضنت أقدم الجماعات الدييرية المسيحية **. وظلت آثار هذا التقليد الديري، ووُجد هذا النمط طريقه إلى

* تذكر الوثائق الصليبية أن مدينة عكا في القرن الثالث عشر الميلادي كان بها حوالي ٤ كنيسة، وكانت بعض هذه الكنائس أجزاءً من الأديرة (المؤلف) .

** الدييرية في مصر: تعتبر مصر الوسطى الموطن الأصلي للنظام الديري الذي عرفه العالم المسيحي منذ القرون الأولى للإسلام . ويرتبط هذا النظام بشخص القديس أنطون الذي كان أول شخص في مصر الوسطى يلجأ إلى الصحراء من أجل التنسك المسيحي. فقد ولد أنطون حوالي سنة ٢٥٠ م وكان سليل أسرة مصرية ثرية تقيم في إحدى قرى مصر الوسطى . واستطاع أنطون أن يضع الأسس الأولى لحياة التنسك الفردية. وفي القرن الرابع الميلادي استطاع أحد المصريين المسيحيين وهو باخوم أن ينسحب من الحياة ويمتزّل للتنسك والتأمل، وكان أول مسيحي يؤسس دير، وانتشر فوزج الدير بشكل كبير في مصر الوسطى والعليا وعرفت باسم الأديرة الباخومية ، ووضع باخوم قانوناً ونظماماً للحياة الدييرانية (المترجم) .

الأديرة والقلابات البيزنطية ، ووجد هذا النمط الديري في بلاد الشام بشكل غير مستقر عشية الغزو الصليبي ، وظهر هذا السلوك الديري أيضا من خلال حياة الناسك المتصوفين الذين كانوا يقيمون على الدوام في أماكن منعزلة ويحيطون بالقدسية منذ العصر القديم ، وعلى سبيل المثال ، كانت هذه الأماكن تشمل كهوف جبل كارمل أو كهوف وادي جوسفات Josephat والواقعة على منحدرات جبل الزيتون . وكان بعض هؤلاء الناسك من الأوربيين الذين حضروا إلى الأرض المقدسة بصحبة قوافل الحج واستقروا في هذه المناطق خلال فترة السيادة الإسلامية . واستمر نفوذ الناسك المتصوف في الوجود خلال فترة السيادة الصليبية ، ولم يختفي مثل هذا النمط ، وهكذا كان هذا النظام الديري إضافة للصورة البشرية الفسيفسائية في الأرض المقدسة في فلسطين . وكانت التقوى أو النزعة الفردية هي التي تحذب الناسك صوب الأرض المقدسة في الشرق ، مقتفيين قدوة ومثال القديس باخوم ، أو نموذج القديس هيلاري* ذات الشهرة القديمة . وقد ثبتت جذور الأديرة الغربية الأوروبية في الأرض المقدسة غداة وصول الصليبيين إليها . وعلى الرغم من أن بعض الأديرة الجديدة كانت تدعى وجودها الباكر في المنطقة ، فإنه لم يكن هناك ثمة دليل يؤكد حتى ارتباط هذه الأديرة بالمنشآت الديارية التي أقامها شارلمان ، وذلك إذا تجاوزنا عن ذكر الأديرة في عهد البابا جريجوري الأول أو حتى المنشآت الديارية الغربية الباكرة . ولا تزال ذكريات هذه الأديرة باقية ومائلة للعيان ، بيد أن هذه الذكريات ، أو النقوش الأساسية استطاعت أن تبرهن على وجود عدد من الأديرة الغربية في منطقة الشرق العربي والتي ترجع إلى فترة ما قبل الوجود الصليبي في هذه المنطقة كانت عبارة عن اثنين من الأديرة البندكتية ، تم تشييدهما في الحي المسيحي في مدينة القدس ، والذي كان يواجه الضريح المقدس . وكانت هذه الأديرة الأوروبية اللاتينية هي دير القديسة ماريا العظيمة المخصص للنسوة الراهبات ، وقام التجار الأمافيون بتأسيس هذا الدير بعد منتصف القرن الحادى عشر الميلادى وكان هذا الدير مرتبطاً بكنيسة نوتردام (كنيسة السيدة مريم العذراء) ، وقام تجار أمالفي أيضا بإنشاء نزل لاستقبال واستضافة الحجاج وكرست هذه النزل للقديس جون . ومع حدوث الحروب الصليبية بدأ فصل جديد في التاريخ الديري في الأرض المقدسة .

* القديس هيلاري: يعتبر القديس هيلاريوس من أشهر رجال الدين في الكنيسة الأوروبية الكاثوليكية في العصور الوسطى .
الترجمة .

وقد تشكلت المؤسسات الديدية الصليبية الباكرة من الرهبان ومن رجال الدين الذين رافقوا جيوش الحملة الصليبية الأولى، وخاصة من الذين جاؤوا بصحبة جردنفري البوبيوني. وبعد أن احتل الصليبيون مدينة القدس مباشرة قاموا بالاستيلاء على ثلاثة من الأماكن المقدسة القديمة في المدينة والتي لحق بها التدمير الجزئي على يد المسلمين وهي الأماكن التي هجرها رجال الدين البيزنطيون. وكان هذا هو بداية إنشاء الدير البندكتي للقديسة مريم في وادي جوسفات*، والذي أعيد بناؤه فوق القبر التقليدي للعذراء ، وأعيد تشييد دير وكنيسة الصعود على جبل الزيتون ، وكذلك دير جبل صهيون. وخلال حماسة واندفاع الغزاة الصليبيين وتراجع روح الأخوية العامة، اعترف رؤساء هذه الأديرة الجديدة بتبعيتهم المباشرة للبطريرك اللاتيني في بيت المقدس، وأيضاً لقديم الدير ورجال الدين في كنيسة الضريح المقدس. وقد ثبت أن هذه التبعية كانت محكمة بشكل غير عادي، وذلك لأن كبار رجال الدين المحليين كانوا يطالبون بحقوق خاصة تمثل في الاحتفال بالأعياد في أديرة الكنائس.

وفي حين تم تشييد الأديرة اللاتينية التي ذكرناها آنفاً في أماكن مقدسة بموجب العرف والتي ورثت المؤسسات البيزنطية ، فإن بعض الأديرة الجديدة تأسست أيضاً في مدينة القدس (العاصمة) . وكان أول هذه الأديرة دير معبد المسيح (Templum Domini)، الذي شيد على الجانب الشمالي من مسجد عمر السابق ، والذي لم يلحقه الاضطراب نتيجة تأسيس الداوية لديرهم على مقربة من المسجد الأقصى. وكان هناك دير آخر خارج أسوار مدينة القدس وهو دير القديس ستيفن St. Stephen الذي كان يواجه بوابة دمشق. وفي فترات مختلفة كان المكان المتحجر الذي شهد صلب المسيح (الشهيد الأول) يرى في أماكن مختلفة من بيت المقدس، بيد أن هذا الحجر (الجلجثة) استقر أخيراً في مكان دير القديس استيفن .

وفي خطوة مماثلة لإقامة أديرة للرهبان في مدينة بيت المقدس ، قام رجال الدين في كنيسة الضريح المقدس باتباع قانون القديس أوغسطين، وأسسوا أديرة للراهبات من النساء. ويعتبر دير الراهبات الإيطالي المعروف باسم دير القديسة مريم العظيمة والذي أسسه تجارت أمالفي

* وادي جوسفات: يمتد شرقى بيت المقدس بين جبل الزيتون شرقاً وجبل موريا غرباً، وأطلق عليه المؤرخون فى العصور الوسطى اسم وادى جهنم ويعتبر جزءاً من وادى قدرعون (المترجم) .

من الضرع المقدس من أقدم هذه الأديرة التي خصصت للراهبات من النساء*. وعلى أي حال ، فإن هذه المنشآت الدييرية أصبحت أكثر شهرة في الفترة الأخيرة ، وأسبغ الملك الصليبي عليها حمايته وتأييده ، مثل دير القديسة هنا . وشيد في حي السوريان في مدينة القدس القريب من بوابة يوسف ، دير الكنيسة الرمانية الجميلة والذي ما زال يمثل أمجاد العمارة الصليبية . وفي المكان الذي يتعلّق بشكل تقليدي ببركة السمك والذي ورد ذكره في العهد الجديد (الإنجيل) شيد فوقه كنيسة صغيرة (كنيسة مونستير Mounstier) وما يذكر أن هذه الكنيسة قد شيدت فوق أطلال منشآت بيزنطية رائعة** . ومن الأماكن الأكثر أهمية في هذه المناطق بيت القديسة هنا وبيت جوشيم Joachim ومكان ميلاد السيدة العذراء . وكان أفراد الأسرة الملكية الصليبية من السيدات والبنات يدخلن ويلتحقن بهذه الأديرة المخصصة للنساء ، وأحياناً كان يرغمن على الالتحاق بهاذا الدير المخصص للراهبات . وثمة دير آخر شهير للراهبات Lazaros Lazarus يقيت Yvette و كانت ابنة الملك الصليبي بلدوين الثاني ثانية مقدمة لهذا الدير .

وما يذكر أن معظم الأديرة اللاتينية في المناطق الصليبية كانت تخضع لقانون الدير البندكتي ، ومن الجدير باللحظة ، أن عدداً قليلاً جداً من الهيئات الدييرية الكبرى في أوروبا كانت ترسل ممثليها إلى المملكة الصليبية في بداية القرن الثاني عشر الميلادي . وعلى سبيل المثال ، كان اتجاه الرهبان المسترشيان مثلاً لهذا النشاط الديري الأوروبي في الأرض المقدسة . وعلى الرغم من ثقل الأعباء الملقاة على عاتق الملك الصليبي بلدوين الثاني ، فإنه قدم ومنح

* دير القديسة مريم لللاتين: هو أحد الأديرة البندكتية القائمة في بيت المقدس، وقد أسسه أهالي أماكن حوالى عام ١٠٧٠ م / ٤٦٢ هـ وقد كان مركزاً للحجاج اللاتين الذين يزورون الأرض المقدسة. كما كان ملجاً للحجاج اللاتين كانوا ينقدون نقودهم في أثناء السفر يصلون إلى الأرض المقدسة منهكين من مصاعب الطريق. وقد ألحق بهذا الدير مستشفى تطورت في عهد الملك الصليبي بلدوين الأول إلى مقر هيئة فرسان يوحنا . (المترجم) . Hamilton, the Latin Church, pp. 95-96.

** لم تنشر نتائج الحفائر الأثرية- التي أجرتها بيريه بلاتك خلال العقد الأخير في هذه المناطق، وهي الحفائر التي كشفت عن الكنيسة البيزنطية. (المؤلف) .

بسخاء الأموال الازمة لبناء دير في منطقة النبي صموئيل، ورفض الرهبان السترشيان اقامة دير لهم ، بيد أنهم أوصوا ببناء دير لمؤسسة رهبان برمونستراثيان Premonstratensian . فقد بنى هؤلاء الرهبان كنيسة كبيرة، وفي فترة متأخرة تحولت هذه الكنيسة إلى مسجد، وما زال هذا المسجد موجوداً في مدينة القدس حتى اليوم. وأطلق الصليبيون على هذه الكنيسة اسم كنيسة جبل السرور والابتهاج (Mons Gaudii . dontjoye) ، وترجع هذه التسمية إلى أن جموع الحملة الصليبية الأولى وأيضاً الحجاج الصليبيين في فترة متأخرة كانوا يأتون إلى المدينة المقدسة (القدس) لمشاهدتها ، فكانوا أول ما يشاهدونه في طريقهم إلى القدس هو موضع هذه الكنيسة. ويرتبط مكان هذه الكنيسة في الديانات التوحيدية الثلاث (اليهودية ، والمسيحية ، والاسلام) بالنبي صموئيل (وكان هذا المكان بشابة مكان ميتزبا Mitzpa الانجيلي أو راما Rama) . ويفسر لنا القديس برنارد الأسباب التي جعلت طائفة الرهبان السترشيان يرفضون الاستقرار في المناطق الصليبية في منطقة الشرق العربي وهي «أن رهبان السترشيان رفضوا الاستقرار في هذه المناطق الصليبية بسبب انتهاكات الوثنيين ومشكلات المناخ» . وقد أثيرت بعض الشكوك حول الدوافع الحقيقة لرفض السترشيان اقامة أديرة لهم في الأرض المقدسة ومن المحتمل أن السترشيان لم يقبلوا بكل جوارحهم الهيئة الطبيعية للأراضي المقدسة كقيمة دينية، ومن الملاحظ أن رهبان برمونستراثيان Premonstratensian الذين أقاموا ديراً في جينيس أو كينيس Zinis بالقرب من اللد للقديسين يوسف وأباكر الكانس Abacue de Cansu وتكرس هذا الدير لهذين القديسين لا يمكن تفسيره بسهولة- قد استقروا أيضاً في جبل السرور Montiyyoye .

وكانت الأديرة الكلونية التي ارتبطت بشكل أساسى بالحركة الصليبية قلماً ظهرت في الأرض المقدسة. فقد عرفنا أن ديراً بندكتا صغيراً فقط وجد في قرية بالمرى Palmarea الصليبية (القريبة من حيفا) وأن هذا الدير انتقل إلى الكلونيين (في عام ١١٧٠ م) ، وذلك عندما ظهرت بوادر فشل واخفاق المنشآت الديرية.

ويجدر أن ننوه بشكل خاص إلى الدير البندكتي المقام على جبل طابر Tabor **، وفي

* جينيس أو كينيس : المقصود بها كفر نعوم القرية من اللد (الترجم).

** جبل طابر: يقع في إقليم الجليل، جنوب شرق الناصرة، وعلى بعد تسعه كيلو مترات منها، ويسمى

نفس موضع أحد الأديرة البيزنطية الباكرة. وظل هذا الدير لمدة طويلة يطالب بأحقيته بكنيسة الجليل. وقد حصل دير جبل طابور على أوقاف ومنع سخية، وأصبح هذا الدير بثابة امارة أو مقاطعة دينية صغيرة . وعلى الرغم من أن هذا الدير الصليبي (دير جبل طابور) والذى يرجع تاريخ إنشائه إلى فترة الغزو الصليبي تحت قيادة تانكرد ، قد أصابه الدمار على يد المسلمين فى عام ١١١٣ م فإنه قد أعيد بناؤه مرة أخرى تحت اشراف الكلوبيين ، الذين استطاعوا تجميع الرهبان السابقين لهذا الدير . وكان على هذا الدير أن يقوم بوظيفة الدير ووظيفة الحصن، وخاصة خلال فترة القرن الثالث عشر الميلادى، حيث ظل هذا الدير قائماً على تخوم المملكة الصليبية المتقلصة. وفي ظل هذه الظروف المالية ، قام الرهبان ببيع كل ممتلكاتهم لفرسان القديس يوحنا (الاستمارية) الأكثر قوة ونفوذاً والذين أخذوا على عاتقهم مهمة الدفاع عن المملكة الصليبية والحفاظ على أمتها واستقرارها .

ومن خلال الوصف السريع والسطحي للأديرة لا يمكن بأى حال من الأحوال أن نتجاهل منشأة ديرية وجدت خلال فترة الوجود الصليبي وهى هيئة الكارمليين Carmelites فقد كانت الجماعات الديرية الأولى من الكارمليين تعمل تحت قيادة القديس بيرثولد Berthold ويرجع وجود هذه الجماعات الديرية الكارملية إلى منتصف القرن الثاني عشر الميلادى. ولم يظهر تنظيمهم وهياكلهم الديرية قبل بداية القرن الثالث عشر الميلادى، حيث التمس عدد من الرهبان الذين يعيشون على منحدرات جبل الكرمل العون فمنحهم البطريرك البرت (١٢٦٤-١٢١٦ م) قانونهم الأول، وبعد ذلك قام البابا هونريوس Honorius بتبنيه وتأكيد هذه المنحة. ولم يكن للكارمليين الذين استقروا في مدينة عكا أية أهمية في الأرضي المقدسة ، بيد أنهم جلبوا إلى أوروبا اسمهم المقدس والرفاق الذين ينتسبون إلى الأرضي المقدسة.

الواقع أن سقوط المملكة الصليبية لم يقف حجر عثرة في وجه تطور الحركة الديرية . وعلى النقيض ، فقد انتعشت هذه الحركة الديرية في القرن الثالث عشر الميلادى ، ويعkin القول إن هذا الانتعاش رعايا كان انطباعاً من خلال ما أشارت إليه المصادر التاريخية المتاحة لنا. ولاشك في أن سقوط المملكة الصليبية كان يعني انهيار الأساس الاقتصادي للحياة النسكية

= الآن باسم جبل الطور، ويشرف على سهل مرج بن عامر ، ويرتفع عن سطح البحر نحو خمسة وثمانين وثمانين مترا، وجوانب الجبل مكسوة بشجر السنديان والجوز وغيرها ، وترته خصبة . (مصطفى مراد الدياغ، بلادنا فلسطين، ج٧، ق٢، ص١٣) .

والقرية ، القن والفلاح، الحجاج والقاربين، كل هؤلاء جمیعاً لم تزد عن كونها مجرد ذكريات للماضي . فقد بقیت المنشآت الکنسیة فی المدن الساحلية فقط، وإن كانت هذه المنشآت قد أصبحت محدودة وضئيلة الموارد. كانت مدينة عكا ضمن المدن الساحلية التي حازت الأسبقية وحق الصدارة . فقد شهدت الفترة الباكرة من الوجود الصليبي، فی القرن الثاني عشر الميلادي، امتلاك بعض رؤساء الأساقفة والأساقفة ومقدمي الأديرة المنازل فی مدينة عكا. وكان من المناسب أن يتلک كل رجل من رجال الدين متزاًً فی مدينة عكا ، ذلك المیناء المهم فی المملكة الصليبية، ولم ترجع هذه الرغبة إلی أسباب مالية فقط، بل كانت أيضاً بسبب الأهمية التجارية لمدينة عكا على المستوى المحلي والمستوى العالمي. وعندما سقطت المملكة الصليبية فی عام ١١٨٧ م فی أعقاب موقعة حطین الشهیرة ، ثم تم استرداد هذه المملكة مرة أخرى بعد أحداث الحملة الصليبية الثالثة، هربت الجماعات الدينية وفرت إلی مدينة عكا. وتحولت الاقامة المؤقتة إلی دائمة ، وعاش السكان الصليبيون يحدوهم الأمل فی استرداد المملكة الصليبية، هذا الأمل الذي لم يتمتعق على أرض الواقع. وترك بعض الصليبيين مثلين ونواباً لهم فی عكا وقفلوا راجعين إلی أوطانهم فی أوروبا حيث أملاکهم وذويهم ، وعهدوا إلى مثليهم ونوابهم فی المناطق الصليبية مهمة حماية المزارات المقدسة فی فلسطين والاشراف علیها.

وتوضح احدى خرائط مدينة عكا والتي ترجع إلی القرن الثالث عشر الميلادي عدداً كبيراً من الكنائس والأديرة بشكل لافت للنظر. ومن الأهمية بمكان أن نشير إلی حقيقة مهمة مؤداها أنه بالإضافة إلى المنشآت الدينية القديمة، فإن قروع الهیئات الدیرية الأوروبية الجديدة قد استقرت في أماكن متفرقة غير معروفة في المملكة الصليبية. ومن الطبيعي أن معظم هذه الهیئات الدیرية كانوا من الرهبان الفرنسيسكان والدومنيكان *، الذين جاءوا إلى الأرض المقدسة في عام (١٢٣٠ م) وساهموا على الفور بفرقہ كبيرة في تشكيل الرتب الدينية الصغيرة في فلسطين .

* الفرنسيسكان - الدومنيكان : من أشهر الجماعات الدينية في أوروبا في العصور الوسطى. فقد ساهمت هاتان الجماعاتان في حركة التنصير في أوروبا وخارجها وقدمت العون للبابوية ولاسيما خلال بابوية انوسنت الثالث ، كما ساهمتا بقدر كبير في التعليم والنهضة التعليمية في الأقطار الأوروبية.

لمعرفة المزيد انظر (نورمان كاتنر : أوروبا العصور الوسطى) ترجمة د. قاسم عبد قاسم، الجزء الثاني،

وفي الغالب أصبحت بيوت هؤلاء الرهبان الدومينيكان والفرنسيسكان مراكز انطلاق للتنصير. وكانت هذه الطوائف الديبرية الجديدة تضم طائفة الروح القدس، وطائفة الثالوث المقدس (وهي طائفة عسكرية مميزة عن طائفة المستشفى التي كانت تحمل نفس الاسم). وتعتبر طائفة القديسة ماريا المجدلية أهم هذه الطوائف الديبرية، وهي الطائفة التي ضمت بين أعضائها النساء الساقطات والداعرات واللاتي رغبن في التوبة في هذه المدينة العالمية المقدسة (القدس). فقد كانت كل أديرة المؤسسات الدينية العسكرية القديمة، الإسبتارية الداوية، فرسان التيوتون ، مثل أديرة هيئة فرسان القديس لازاريوس المجنومين، وأديرة راهبات القدس لازاريوس Lazarus ، مرتبطة بنفس الهيئتين المؤسستين الديبريتين ، أو بنوع من فروع الدير المقام في منطقة بيت حنون Bethany القريبة من القدس. وبالإضافة إلى هذه الأديرة ، كان هناك هيئة القديس توماس من كاتريورى الإنجليزية، وهيئة ديرية جديدة هي هيئة القديس لورانس Lawrence (ومن المحتمل أن هذه الهيئة كانت لها علاقة بالجنبية) .

ويمكن أن نستنتج بسهولة أن الهيئات الدينية العسكرية والطوائف الراهباتية القديمة والجديدة قد اعتتقدت بأنها ملزمة تقريباً بأن يكون لها مثلكها ونوابها في الأرض المقدسة. وعلى سبيل المثال ، اتبع الدومينيكان العادة الباكرة للهيئات الدينية العسكرية فقررت (في ميتر سنة ١٢٥١م) بأن تقوم ببيوتاتهم في أوروبا بارسال مجموعة محددة من الأخوة الرهبان إلى الأرض المقدسة فقد رأت هذه الطوائف الدينية الديبرية في المملكة الصليبية على أنها حقل ومحاج للعمل والدعابة ، في حين الجذب الآخرون إلى هذه المملكة بقصد التأمل الروحي والديني ، وشعر البعض الآخر أنه من الضروري أن يكون لهم منشأة ديرية في الأماكن المقدسة في تلك المملكة التي أصابها التفسخ والانهيار بشكل سريع . وظلت هذه المنشآت الديبرية حتى سقوط مدينة عكا سنة ١٢٩١م في يد المسلمين ، وكانت هذه المنشآت الديبرية أيضاً علاماً بارزاً لنهاية المملكة الصليبية. وما يذكر أن الكنائس والمزارات المسيحية الصليبية التي كانت توجد

* بيت حنون Bethany: هي قرية العيزرية ، وتقع على ربوة جنوب شرقى جبل الزيتون ، وقد وصفها الحاج دانيال الروسي بأنها قرية صغيرة في واد خلف الجبال على نحو كيلو مترين جنوبي بيت المقدس ، وأضاف دانيال أنه يوجد في بيت حنون الحجرة التي مرض ومات فيها القديس العازر Daniel , Pilgrimage of the Russian Daniel in the holy Land , pp. 31-33)

عام ١١٨٧ م قد عادت مرة أخرى إلى أصحابها السابقين من البيزنطيين والسوريان. وتحولت بعض الأماكن المسيحية إلى مساجد ، وهكذا تم المحافظة على الوظيفة الدينية المستمرة للمساجد، وأصبحت هذه المساجد بمثابة ذكرى حية لعالم صليبي اندرس واحتفى من الوجود .

لقد كان وصول الفرنسيسكان إلى الأرض المقدسة متآخراً نسبياً ، وفي البداية استطاع الرهبان الفرنسيسكان التكيف مع الوضع الجديد. وكانوا الحراس الرسميين للأراضي المقدسة منذ بداية القرن الرابع عشر الميلادي ، ودعموا الوجود الصليبي في فلسطين وقد شهدت الظروف المواتية في القرنين التاسع عشر والعشرين من الميلاد انتعاش المؤسسات الدينية الأوروبية في الأماكن المقدسة وما حولها .

جو- أعياد الكنيسة والحياة الدينية في المملكة الصليبية :

ويصرف النظر عن المزارات المقدسة ، كانت الاحتفالات بالأعياد المسيحية أكثر جاذبية لأولئك الحجاج المسيحيين القادمين من أوروبا. وحالما ثبتت الجغرافية المقدسة لمدينة بيت المقدس لم يتم الاحتفال بالأعياد الدينية فقط، بل كان يتم أيضاً الاحتفال بأحداث القصة الانجيلية التي تتعلق بالوجود التاريخي للمسيحيين ، فقد كان الأساقفة يتصدرون المراكب الاحتفالية التي تخرج إلى مختلف كنائس المدينة والمناطق المحيطة بها ، ويظهرون لجموع المؤمنين بالعقيدة المسيحية عظمة وجلال هذه العقيدة ودراما قصة المسيح المخلص.

وبالإضافة إلى أيام الأعياد المسيحية الكبرى والمهمة التي كانت مألوفة في الأرض المقدسة وفي معظم أنحاء العالم المسيحي، كانت هناك بعض الأعياد المسيحية الخاصة بمدينة بيت المقدس. ففي الخامس عشر من يوليه من كل عام، كانت مدينة القدس تحتفل بحدثين بارزتين هما: الغزو الصليبي للمدينة في عام ١٠٩٩، وذكرى مرور خمسين عاماً على رسمة كاهن الضرير المقدس، ويتفق هذا التاريخ مع عام ١١٤٩.

كان الاحتفال السنوي بذكرى غزو الصليبيين لمدينة بيت المقدس يتم من خلال موكب ديني جليل. فقد كان البطريرك يقود هذا الموكب الاحتفالي في وقت مبكر من الصباح ، حيث يبدأ الموكب من كنيسة الضرير المقدس ويربعده وهيكل المسيح *Templum Domini* ، ومسجد عمر. وهنا كان الموكب يتوقف ويقوم المصلون بتأدبة الصلاة عند المدخل الجنوبي، في ذلك الجزء المستوى من أرض الهيكل والذي كان يواجه المسجد الأقصى . ومن هنا كان الموكب يشق

طريقه عبر أرض الهيكل إلى الجبانة الواقعة خارج أسوار المدينة. وهنا لم يكن الموكب بعيداً عن الجانب الشمالي الشرقي لأسوار المدينة التي سقطت في أثناء الغزو الصليبي. وعندئذ كان الموكب يقطع شارع يوسف لكي يتقدم إلى الجزء الشمالي من أسوار المدينة ، وهنا كان الموكب على مقرية من الجانب الشمالي الشرقي لأسوار المدينة، وكان هناك نصب على شكل صليب يميز هذه المنطقة ، وهو المكان الذي نفذ منه فرسان القائد الصليبي جودفري البويوني إلى داخل مدينة بيت المقدس في أثناء الغزو الصليبي لها. وفي هذا الموضع كان البطريرك يلقى خطبة وموعظة دينية على مسامع رجال الدين والجماهير المتحشدة من العامة، ويؤدي صلاة الشكر بمناسبة احياء ذكرى تأسيس الكيان الصليبي في الأراضي المقدسة.

وكانت مدينة بيت المقدس تحتفل بالأحداث المهمة للسنة المقدسة التي كانت مألوفة لدى كل العالم المسيحي وربما كانت لهذه الاحتفالات تأثير وقع كبير على جميع المشاركون ، الصليبيين والحجاج على السواء. وكانت المراكب الاحتفالية تبدأ من منطقة الضريح المقدس وتنتهي عند الأماكن التقليدية التي شهدت ذكريات الأحداث المقدسة التي يتم احياء ذكرها من خلال هذه المراكب، الواقع أن هذه المراكب والمهرجانات الدينية كانت تتخللها بعض أحداث الشغب والمشاجنة ، وذلك لأن الطوائف الدينية المختلفة لم تمتزج فيما بينها ولم تعرف الانسجام .

وما يذكر أن الكنيسة المجاورة للموكب كانت تدق أجراسها لكي تشوش على أعمال القدس الذي يقوم به الكاهن في أثناء الاحتفالات . وعلى سبيل المثال ، حدث مثل هذا الذي سبب الاشمئزاز للجماهير، وذلك عندما قرر الاستيارية ذات يوم أن يزعجوا المصلين في كنيسة الضريح المقدس . وأحياناً كان رئيس دير أحد أديرة مدينة بيت المقدس يحاول أن يكون كاهناً رسمياً دون أن يذعن لرئيس دير أو رجال الدين في كنيسة الضريح المقدس. وكانت مثل هذه المنازعات تنظر أمام محكمة دينية أو أمام هيئة تحكيم من كبار الأساقفة . وكان من الطبيعي أن يتم الاحتفال بعيد ميلاد المسيح في كنيسة المهد ببيت لحم ، وكان البطريرك يقود هذا الاحفال .

وفي يوم أربعاء الرماد (أول أيام الصيام الكبير)، كان البطريرك يلتقي برجال الدين والأخوة العلمانيين من جميع الطوائف في صحن الكنيسة . وفي وقت الظهيرة كانت تترعرع أحد الأجروس الضخمة لاستدعاه الناس إلى كنيسة الجلجلة الصغيرة (مكان صلب المسيح

وتعذيبه). وعلى بعد خطوات قليلة من هذا الجبل الرايع، كان البطريرك يلقى مواعظه دينية في الجمع المحتشد في فناه كنيسة الضريح المقدس وبعد اجراء طقس الاعتراف ، والغفران ومنح البركة، كان يتم نشر الرماد فوق رؤوس المؤمنين .

وثمة احتفال آخر من الاحتفالات المسيحية الرئيسة ، وهو الاحتفال بعيد «طهارة العذراء المباركة» وعيد «تجلى المسيح في الهيكل» ، وكان هذا الاحتفال يتم من خلال موكب تحمل فيه الشموع وتطلق فيه البخور، يأخذ الموكب طريقه من كنيسة الضريح المقدس إلى معب و هيكل المسيح.

وما يذكر أن الاحتفال بعيد «أحد السعف» كان يشهد مرکباً عظيماً . قبل شروق الشمس وحتى بعد انبلاج الصبح، كان رجال الدين في كنائس مدينة القدس، والبطريرك ورؤساء أديرة جبل صهيون وجبل الزيتون يذهبون جميعاً إلى دير بيت حنون Bethany القريب من مدينة القدس . وكان خازن كنيسة الضريح المقدس يحضر معه الصليب المقدس الذي يعتبر من أشهر الذخائر المقدسة على الاطلاق . وفي تلك الأثناء ، كان سكان مدينة القدس يحتشدون في ضاحية «هيكل السيد المسيح» *Hiculum Domini* معًا مع رجال الدين في كنيسة القيامة، ورهبان أديرة القديس جون John، ورهبان دير سانتا ماريا لاتينا، ورهبان دير جبل صهيون. وعلى الأرض المستوية لمنطقة الهيكل كان يقف أحد الأساقفة اللاتين لكنى يبارك سعف التخيل والزيتون، الذي كان يحمله الناس ، وكان هذا الأسقف يقود الموكب الذي يشق طريقه عبر بوابة يوسف إلى وادي جوسفات حتى يصل بالقرب من أسوار المدينة. وهنا كانوا يتلقون بالمركب المتوجه من بيت حنون Bethany والذي كان يقوده البطريرك شاهراً ورافعاً الصليب المقدس. وعندئذ كان المشاركون في هذا الموكب يتسلقون ربوة لمشاهدة الوادي ويزحفون إلى منطقة الهيكل خلال وعبر «البوابة الذهبية» (كانت هذه البوابة البداية تفتح أبوابها في هذه المناسبة بصفة خاصة) ووفقاً لل اعتقاد التوارث ، فإن هذه البوابة كانت تذكرة لمناسبة الدخول الظافر للسيد المسيح. وبعد أن استقر فرسان الداوية في منطقة «هيكل سليمان » (المسجد الأقصى)، كان هذا الموكب الاحتفالي ينتهي بتأدية الصلاة في ضاحية معبد السيد . وهكذا كان يتم الاحتفال بذكرى حادثة من أحداث العهد الجديد (الانجيل في موضعها الأصلي، وهي الحادثة التي كان يتم احياء ذكرها في أنحاء العالم المسيحي من خلال الصور الزيتية وأعمال النحت .

وفي عشية يوم الجمعة الطيبة، كان يحتفل بطقس غسل الأقدام في دير سانت ماري في جبل صهيون. ويعتمد وصفنا لهذه الطقوس والشعائر على ما ذكره لنا أحد مؤرخي القرن الثاني عشر الميلادي عن مجموعة الطقوس والشعائر في كنيسة الضربي المقدس، وأوضح لنا هذا المؤلف بيقين أن أقدام المدعين الفقراء كانت تغتسل بعد انتهاء مراسيم الاحتفال ، وذلك دراً وقاية من أخطار عدو الأقدام المصابة بالجذام والسرطان في أثناء الطقس . وقبل إجراء هذا الطقس، كان البطريرك يلقى موعدة كنسية، ثم يقوم بعد ذلك بعملية تكريس ورسامة رجال الدين بمسحهم بالزيت المقدس، وكان يوزع هذا الزيت على مختلف الطوائف والجماعات الدينية . وبعد ذلك، كان يأتي كبير كهنة كنيسة الضربي المقدس ومعه الأحواض والمناشف ، ويقوم بغسل رؤوس وأقدام الفقراء ، ويقبل أيديهم ويوزع عليهم الملابس والأحذية. وفي يوم الجمعة التالي ، كان يحمل الصليب المقدس من خزانة كنيسة الضربي المقدس ويعرضه في كنيسة الجلجة الصغيرة . ويؤدي رهبان دير كنيسة الضربي المقدس الصلوة وهم حفاة الأقدام، وكان يتم استدعاءهم لحضور هذه الطقوس الدينية الاحتفالية على الطريقة الشرقية وذلك بواسطة المقارع الخشبية وليس بواسطة قرع الأجراس .

كان الاحتفال بعيد «النار المقدسة» من الأعياد الشهيرة في مدينة بيت المقدس. ويرجع هذا الاحتفال بشكل واضح إلى فترة قديمة وطويلة (وإن كان لم يثبت وجود هذا الاحتفال قبل القرن التاسع الميلادي) ، واقتبس الصليبيون هذا الاحتفال وجعلوه في اليوم السابق لعيد الفصح إذ كان البيزنطيون يحتفلون بهذا العيد في كنيسة الضربي المقدس قبل الوجود الصليبي، أي أن الصليبيين أخذوا الاحتفال بهذا العيد عن البيزنطيين . وفي البداية كانت الاحتفالات بهذا العيد تحمل بعض تأثيرات ومظاهر الاحتفالات ذات الأصل البيزنطي، والتي اختفت بعد فترة. وعلى الرغم من أن الراهب الأرثوذكسي دانيال الروسي* الذي زار مدينة القدس في عام ١١٠٥ لم يكن عدواً للفرنجية فإنه قد أشار بسرور وارتياح إلى مشاركة الرهبان البيزنطيين من دير القديس سباس St. Sabas في هذه الاحتفالات بالأعياد الدينية. ويقول الراهب دانيال الروسي

* الراهب دانيال الروسي: ضمن الرحالة الذين زاروا الأرض المقدسة في بلاد الشام في أوائل فترة الوجود الصليبي وذلك في ١١٠٦-١١٠٧م) وقام بزيارة فلسطين والأردن ، ومعظم مدن بلاد الشام، واهتم بزيارة الأديرة والكنائس ، وسجل معلومات كثيرة خاصة بهذه الأماكن ، وأسهب في وصف هذه الأماكن الدينية» . (المترجم).

بارتياح واقتئاع أن اللعبات التي يضعها الرهبان البيزنطيون في كنيسة الضرع المقدس تعطى ضوءاً مختلفاً وأقوى من تلك التي يضعها الرهبان الفرنجية . بيد أنه بعد ذلك أصبحت الاحتفالات بهذا العيد ذات سمة صلبيّة بحتة .

لقد كان رجال الدين والمجاهير المحتشدة المشاركة في الاحتفالات بعيد «النار المقدسة» تملأ ساحة الكنيسة الكبيرة في مدينة القدس . وحرس الملك الصليبي وحراسة تنظيف واعداد الطريق الذي يمر خلال المدخل الغربي الصغير إلى أماكن اقامتهم المواجهة للقبر المقدس . وكانت هناك الضغوط والجهود المضنية والجبارية (والتي كانت في الغالب تنتهي باختناق عدد كبير من المشاركيين في هذه الاحتفالات من فرط الزحام) وتوقع الجميع ظهور معجزة النار المقدسة تسبب جوا من التوتر والأرق يشبه جو التوتر الذي سيحدثه المسيح الدجال، ومنذ قديم الزمان وحتى الآن ستظل مدينة القدس بالنسبة للمسيحيين المكان الوحيد في العالم الذي يشهد تحلي الرب بشكل واقعى ويشهد المعجزة الحقيقة للرب . ودائماً كان يوجد عدد من أولئك المتشككين في احداث هذه المعجزة ، وثمة مؤلف مجهول لمجموعة الطقوس والشعائر الكنسية قد أسدى نصيحته للبطيريك اللاتيني في بيت المقدس «أن يختار ثلاثة أو أربعة من الناس، ونفس العدد أيضاً من الحجاج إذا وجد هذا العدد من المعروفين بالتقى والورع والمحديرين بالمشاركة في مثل هذا السر المقدس، وذلك لدحض تحفظات وشكوك المتشككين في صحة ومصداقية العقيدة المسيحية». وسوف يذهب الجميع إلى هذا المكان الذي يوجد به الصليب المقدس . وفي هذا الموكب كان هناك أربعة من الرسل حفاة الأقدام يرفعون الصليب المقدس ويطوفون به حول القبر المقدس (الذي يعلوه تمثال نصفي للسيد المسيح)، وتحت القبة المفتوحة لأنفسطاس . وفي هذا الاحتفال كان يحتشد أعداد كبيرة من الناس من كل الجنسيات يؤدون الصلوات بأصوات عالية وحزينة ، ويتسلون إلى الرب باستمرار لكي يتقبل صلوات ودموع خدامه وأن يتطلف من أجل اسعاد شعبه بارسالهم إلى رؤية النار المقدسة المبهجة.

كان حاملوا الصليب المقدس بطوفون به حول القبر المقدس من ستة إلى سبعة أشواط وكان يصاحب هذا الطواف تعااظم تدريجي لأصوات المصلين وابتها لهم وأدعياتهم الدينية . وفي نهاية هذا الاحتفال ، كان يرى ضوء اعجازي يتوجه وينشق من أحدي اللعبات التي تعلو القبر المقدس . وعندئذ كان حامل الصليب المقدس يدخل المهجع بتوقير وارتجاف ويضع شمعة على النار المقدسة المعجزة والعجيبة . وكان الصليب المقدس يحمل إلى البطيريك الذي يرسله بدوره

إلى الملك الصليبي ورجال حرسه الذين كانوا يحضرون هذا الاحتفال . وكانت الكنيسة تشرع أجراسها الكبيرة فتحدث دويًا عاليًا خارج جنباتها، وعندئذ كانت توقد آلاف الشموع من تلك الشمعة الأصلية التي اتقدت من النار المقدسة العجيبة، وترتفع الأصوات عالية تمدح الرب وتمجده *Te Deum laudamus* . وكان هذا الاحتفال أكثر تأثيراً من أي احتفال آخر في العتقد الشعبي التقليدي للسكان الصليبيين وأيضاً للحجاج . بيد أن هذا الاحتيال والخداع الرائع باسم الدين لم يستمر بشكل غير محدد، إذ كانت هذه «المعجزة» تحدث فقط طوال فترة الوجود الصليبي خلال المملكة الصليبية الأولى أي حتى عام ١١٨٧م . وعندما استرد المسلمون مدينة القدس في عام ١١٨٧م بات من العسير الدعوة لمثل هذا الاحتفال، وفي عام ١٢٣٨م أصدر البابا جريجورى التاسع مرسومًا بابويًا يضع بهوجيه نهاية للطقس والشعائر اللاتينية (كانت مدينة القدس ولفترة قصيرة تحت السيادة الصليبية) . واستمرت الكنائس الشرقية تمارس طقوسها وشعائرها ، والوصف الذي تركه لنا السيد كرزون Curzin في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي يقدم لنا صورة واضحة العالم عن مظاهر الاحتفالات التي كان يقوم بها الصليبيون في المنطقة العربية في بلاد الشام وفلسطين ومنذ سبعة قرون انقضت .

ويعتبر عيد الفصح Easter من الأعياد الكنسية المهمة في المملكة الصليبية في بيت المقدس. إذ كان يتم الاحتفال بهذا العيد من خلال مهرجان وموكب عظيم . وكان الشطر الرئيسي من هذا الاحتفال يتمثل في زيارة كيسة الضريح المقدس ، وقد انتشر طقس هذا الاحتفال من مدينة بيت المقدس إلى كل أقطار العالم المسيحي منذ العصر القديم، وعاد هذا الطقس إلى مدينة القدس بشكله الأوربي على يد الصليبيين . ومن المعروف جيداً أن هذا الطقس كان السبب في أن تصبح رواية طقس عيد الفصح المقدس والجليل قابلة للتمثيل على خشبة المسرح . وعندما حان الوقت المناسب، ساهم هذا الطقس في تطور الدراما (فن المسرح) الدينية في العصور الوسطى . ومن المتوقع أن مدينة بيت المقدس قد ساهمت بدور فعال في هذا التطور، وذلك لأن الأماكن التاريخية لهذه الأحداث كانت متاحة وموجودة في هذه المدينة . كان هذا هو واقع الحال، بيد أنه في فترة متأخرة وفي تاريخ غير معروف كانت هذه البدايات قد قضى عليها في المهد . ودعنا نستمع إلى طقوس وشعائر الضريح المقدس القديمة . وذات مرة كان يقوم بتلاوة قداس متتصف الليل:

« ثلاثة من رجال الدين من الشباب يرتدون ثيابًا يشبه ثياب النساء ويقفون خلف المذبح

وفقاً لعادة القدماء ... ومن ذلك الوضع يتقدم هؤلاء الرجال ومعهم الشموع والبخور، ويحمل كل واحد منهم في يده إناه ذهبياً أو فضياً به بعض الزيت المقدس، وينشدون قائلين يا الهى ماذا تدبر لنا ؟ (=الرب، الذي سوف يدفعنا بعيداً عن حجر كنيسة الضريح المقدس- القديس مارك ١٦ / ٣) ، وعندما يقتربون من البوابات الذهبية لكنيسة الضريح المقدس، كان هناك اثنان من رجال الدين يقفان أمام مدخل هذه البوابات أو على مقربة منها يحملان في أيديهم الشموع ويرتدون قلنسواتهم، وينشدون قائلين: من ذا الذي يتطلع إليهم بالله. ويجيب النسوة: «مسيح الناصرة» وعندئذ تكون الإجابتان أنه ليس هنا ، وهو الذي يبعث حيّا . متى . ٦ / ٢٨) . ويظل هؤلاء ينشدون ويرتلون القدس حتى تدخل النسوة إلى القبر المقدس، حيث يؤذن صلاة قصيرة داخل حجرة القبر المقدس، ثم بعد ذلك يخرجن ليقفن وسط جوقة المرتلين الكنيسين. وينشدون وبعلون بصوت عال قائلين : «المسيح الإله الحي» "Alleluia, Re- surrexit Deminus"

وما يذكر أن مؤلف الطقوس والشعائر اللاتينية كان يقطع الكلام عند حديثه عن وصف لباس رجال الدين الذي كان يشتمل على لباس النساء بقوله : بيد أن مثل هذا لم يعد يحدث بسبب كثرة عدد الحجاج الذين يشاهدون هذا الاحتفال . وتصبح هذه الملاحظة محيرة ومركيه إذا أدركنا معناها بشكل حرفي ، بمعنى أن ضغط وزحام الناس المحتشدين لشاهد الاحتفال كان يعيق عملية تغيير الملابس وفيما يشكل أكثر إلى الاعتقاد بأن الحجاج (ولم يؤكّد مؤرخنا على الجماهير المحتشدة بشكل عام ، بل كان يؤكّد ويشير بشكل خاص إلى الحجاج) وجدوا في مثل هذا السلوك (على الرغم من أنه كان مألوفاً في أوروبا) تافهاً وغير مناسب لمدينة مقدسة مثل مدينة بيت المقدس . وحقيقة الأمر، أن الأوربيين الحجاج الذين أتوا إلى الأرض المقدسة لزيارتها كانوا أكثر تسامحاً مع مظاهر الطقوس الاحتفالية الكنيسة في أقطارهم وأكثر تشديداً مع نظيرها التي تمارس في الأراضي المقدسة.

ومن الطبيعي أن الاحتفال بعيد «يوم صعود المسيح Ascension» كان يتم من خلال موكب بهيج يشق طريقه إلى جبل الزيتون، وبعد تأدبة بعض الصلوات في كنيسة أبينا Paster Nos- Domini (المسيح) ، كان الموكب يشق طريقه أيضاً إلى كنيسة الصعود Ascension (صعود المسيح Ascencion Domini) ، حيث كانت بصمات وأثار أقدام المسيح واضحة وماثلة للعيان هناك.

وكان عيد «اكتشاف الحرية المقدسة» من الأعياد الكنسية المهمة التي كان يحتفل فيها في مدينة بيت المقدس، وكان هذا العيد أحياناً لذكرى الاكتشاف المقدس (٣ مايو ٣٢٦ م) للحرية المقدسة التي قامت به الإمبراطورة والقديسة هيلينا أم الإمبراطور الروماني قسطنطين العظيم، وكان يتم الاحتفال بهذا العيد داخل كنيسة الحرية المقدسة المكتشفة.

وعلى الرغم من أن كتاب الطقوس والشعائر اللاتينية لم يشر إلى التفاصيل فاننا يجب أن نفترض أن عيد العنصرة (أو عيد الحسين) وهبوط الروح القدس كان يتعلق بالزيارة المقدس في جبل صهيون . وهنا أيضاً كان يحتفل بعيد رفع السيدة مريم العذراء ، وكان المشاركون في هذا الاحتفال يتقدمون إلى كنيسة القديس المخلص St. Saviour (السيد المسيح) ، وبعد ذلك كان الموكب يشق طريقه إلى كنيسة القديسة مريم العذراء في وادي يوسف.

والواقع أن كتاب طقوس وشعائر كنيسة الضربي المقدس لا يمكن مقارنته ، إذ أنه حفظ لنا الطقوس والشعائر الخاصة التي كانت تمارس في الأماكن الواقعة خارج مدينة القدس . ومن الطبيعي أن هذا الكتاب أيضاً لا يمكن مقارنته بكتاب آخر ، إذ أنه يتفوق على جميع الكتب الخاصة بالطقوس والشعائر ، من حيث ذكره عدداً من الأماكن المقدسة البارزة والمهمة بالإضافة إلى مدينة بيت المقدس. ومع ذلك ، فإن أماكن مثل الناصرة ، وبيت لحم ، وجبل طابور ، ودير القديس يوحنا في الجبال (عين كارم) ، وكنيسة زيارة العذراء (٢ يوليه) ، وأيضاً مخاضة نهر الأردن (مكان تعميد السيد المسيح) ، لم تكن هذه الأماكن فقط هي أماكن الحج التي يتردد إليها الحجاج ، بل كانت أيضاً مراكز للاحتفالات بالأعياد المسيحية المحددة في التقويم الديني الكنسي. فقد كانت قصص الأنجليل مشيرة وذات جاذبية تتحت كلها من المسيحى الوطنى والحجاج الأوليين من الأتقياء ومحبى التعليم على التفكير والتأمل طوال العام ، وتدعى خيالهم باستمرار.

«تقديم أيها الهرطيق القديم ، وسوف تراني عندما تصون معظم ذخائرك المقدسة موضع الشك والريبة. وإذا لم تراني فسوف تتطلع إلى الموت بأمل ولهفة ». ولم تكن هذه العبارة مقتسبة من قصة القتل والرعد ، ولم تكن أيضاً مجرد حكاية ورواية منقحة للمعجزات والحوارق النسكية والرهيبانية وقد وصل إلينا هذا الاقتباس من السيرة الذاتية biography للراهب السرتشانى مارتين البارسى Martin of Paris والتي دونها الراهب جنثير Gunther- ٥٢ ، ووصف غزو ونهب الصليبيين لمدينة القدسية في عام ٤٠٢ م . ويخبرنا كاتب هذه

السيرة ويدرك لنا الأعمال الوحشية التي ارتكبها الصليبيون في أثناء نهب القدسية ، وكيف كان الصليبي مشغولاً بجمع الفنادم والأسلاك والبحث عنها في أي مكان في المدينة، ونهب الذخائر المقدسة الثمينة التي كانت تحتويها الكنائس والأديرة البيزنطية ، ونهب الذخائر المقدسة من أماكن الدفن ولاسيما المقبرة الخاصة بأم الامبراطور مانويل كومين (ومن المحتمل أن هذه المقبرة كانت توجد في كنيسة الأباطرة Pantocrator إذ كانت كنيسة الأباطرة الصغيرة التي ذكرتها السيرة الذاتية تحتوى على قائمة كاملة من الذخائر المقدسة التي انتقلت إلى أوروبا ، وأصبحت ثروة عظيمة لدير بيريس pairis في إقليمAlsac. وقد مَجَدَ كاتب السيرة دير بيريس بشكل دعائي ، وأوجز مناقب ومآثر هذا الدير في شكل تعبير بلينغ وعبارات فضفاضة قائلاً : « إنه حرم مقدس تعرض للتدنيس ».

لقد كان موضع الاعجاب بهذه الذخائر المقدسة وعبادتها وتقديسها يمثل مشكلة شائكة وعويصة في أثناء القرون الأولى للمسيحية ، وأصبحت هذه الذخائر المقدسة تقريباً تعبيراً جماهيرياً للتدليل الشعبي الجماعي في العصور الوسطى الباكرة . فالرجل الفقير في أوروبا العصور الوسطى لم ينتظر الآباء ورجال الالاهوت الكنسيين لكي يصل عن طريقهم إلى فكرة القدس المتعلقة ببقايا شهداء الكنيسة من أعضاء جسدية ومتصلقات دينية كالملاس وغيرها ، وذلك لأن الروح القدس قد احتلت بأحد المقابر الأرضية ، وهكذا استلهم الرجل البسيط في أوروبا العصور الوسطى فكرة القدس التي تحملها رفات الشهداء من التجربة السابقة للروح القدس . ففي الغرب الأوروبي كان الاعتقاد في معجزات وخوارق الذخائر المقدسة احدى الممارسات الدينية الشائعة هناك تقريباً. وأحياناً كانت هناك بعض المعجزات المتعلقة بهذه الذخائر المقدسة، بيد أن هذه المعجزات والخوارق كانت في الغالب ذات سمة اسطورية بعيدة عن التهذيب ؛ وإذا كان من المفترض أن تجلب هذه الذخائر المقدسة من الشرق الأسطوري فإن كل هذه الذخائر المقدسة تجلب من الشرق، إذ كانت هناك حالات من سرقات هذه الذخائر وتتمثل هذه الحالات في الذخائر المقدسة الشهيرة المتعلقة بجسمان القديس مارك الذي حضر إلى الغرب الأوروبي من الإسكندرية والذي كان رمزاً لانتصار البنديقية ، وكان هناك عدد قليل من الناس يتباهون فخراً بمعجزة نقل رفاة القديس جيمس St. James والذي وصل إلى كومبو ستلا في إسبانيا . وكانت الكنائس والأديرة تتوجه إلى أبناء الصفة الشرعية على الذخائر المقدسة الموجودة لديها لكي تعزز قداستها ومكانتها بين قريبتها من الذخائر المقدسة الأخرى. وفي

هذه الظروف ، أصبحت الأراضي المقدسة وبعض الأقطار المجاورة لها ، مثل مصر وبلاد الشام ، مصدراً غنياً للذخائر المقدسة التي تعبر عن التقى والورع . وظلت القسطنطينية التي كانت تختزن الكثير من الذخائر المقدسة منذ فترة قديمة من أعظم المصادر التي كانت تزود الغرب الأوروبي المسيحي بالاحتياجات الدينية ، حتى سقوطها في يد الصليبيين عام ١٢٠٤ في أعقاب الحملة الصليبية الرابعة . وتمحض عن حادث الغزو الصليبي للقسطنطينية تدفق أعداد كبيرة من الذخائر المقدسة على الغرب الأوروبي من العاصمة البيزنطية المنهوبة ، ومع ذلك فإن الأرضي المقدسة في فلسطين وبلاد الشام كانت أيضاً معيناً لا ينضب لهذه الذخائر المقدسة . فقد كانت المزارات المقدسة في فلسطين ، ولا سيما الموجودة في مدينة بيت المقدس ، وبيت لحم ، والناصرة ، تقدم للحجاج الكثير من الذخائر المقدسة المكتسبة والمكتسبة ، أو على الأقل تلك الذخائر التي ترتبط بذكريات مقدسة ، والتي كانت مدخلة بشكل ديني في كنائس وأديرة هذه المدن التي شهدت الذكريات المقدسة المرتبطة بهذه الذخائر .

ومن الصعب احصاء عدد الأماكن التي كان يجعل منها الأشيا ، المادة المقدسة إلى الغرب الأوروبي . وعلى سبيل المثال كانت هذه الأماكن تشمل الضريح المقدس ، وصخرة الصليب ، وأعمدة الصليب ، والزيت الذي كان يؤخذ من اللبمات المعلقات فوق القبر المقدس . وبشكل دقيق يمكن القول أن مثل هذه الشظايا الصخرية أو التراب المنقول في الزيت لم تكن ذخائر مقدسة ، بيد أن مثل هذه الأشياء يمكن أن تصنف على أنها «أشياء مقدسة» ، والتي تنعم على من يلمسها أو يلمس الذخائر المقدسة نوعاً من القداسة والطهارة . ومن الطبيعي أن الذخائر المقدسة الأصلية كانت قليلة؛ فقد كانت بقايا آثار القديس من شعر ، وأسنان ، وعظام من الذخائر المقدسة الأصلية ، بيد أن مثل هذه الذخائر المقدسة المتمثلة في بقايا آثار القديسين لا يمكن مقارنتها بشذرات الصليب الحقيقي ، الذي يعد من أعظم وأبرز المخلفات المقدسة للسيد المسيح . وكانت بعض هذه العينات ترسل إلى أوروبا ، مثل العينة المقدسة للقديس أنسيلم* إلى

* القديس أنسيلم : Anselm: ولد القديس أنسيلم في مدينة أوستا في شمال إيطاليا في أواخر ستة ١٣٠٣م ويعتير من أشهر فلاسفة القرن الحادى عشر الميلادى . وقصد وهو فى العشرين من عمره إلى فرنسا وقضى ثلاث سنوات يستمع إلى مشاهير الأساتذة فى مدنها المختلفة ثم دخل دير بك حيث كان يقوم بالتعليم فى هذا الدير مواطنه لاتران ، فتعلم على يديه ، وذاع صيته وجذب إليه الشبان من أنحاء فرنسا وإنجلترا ، وصار دير بك بفضلته معهما ممتازاً ، وفي سنة ١٠٩٣ عين رئيساً لأساقفة كانتربرى ، وظل يشغل هذا النصب حتى وفاته وينى مذهب الفلسفي على أساس «تعقل الإيمان» على عكس الجدليين (عبد الرحمن بدوى : فلسفة العصور الوسطى ، ص ٦٥؛ يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الأوروبية في العصر الوسيط ، ص ٨٤). (المترجم).

باريس والتي ظلت محظى بالقداسة طوال مئات من السنين حتى قيام الثورة الفرنسية في عام ١٧٨٩ . وأحياناً كانت مجموعة هذه الذخائر المقدسة وشظية الصليب المقدس مثل أداة مهمة من أدوات ووسائل الدعاية الصليبية في أوروبا . وفي الغالب كانت هناك بعض الأشياء التي تأتي من أوروبا إلى الأماكن المقدسة في فلسطين التماساً للبركة والقداسة، مثل خاتم الملك الفرنسي لويس السابع الذي عاد إلى فرنسا بعد أن لم يجد هذا الخاتم مختلف الأماكن المقدسة في فلسطين.

ومن المستحيل القول بأن عبادة وتقديس هذه الذخائر المقدسة كانت جزءاً من العقيدة الشعبية للصلبيين أنفسهم . ومهما يكن فإننا نعرف أن مثل هذه الذخائر المقدسة كانت تخضع للحجاج أو كانت تخضع لتشهيد الكنيسة في أوروبا . وربما كان موقف أولئك الذين يعيشون في اتصال مباشر مع الزيارات المقدسة أزاء الذخائر المقدسة يختلف عن موقف أولئك الذين كانوا يأتون من أقطار عديدة وبعيدة بحثاً عن مثل هذه الأشياء المقدسة . الواقع أن الصليبيين استطاعوا تبني رؤية أكثر رزانة واعتدالاً أزاء الذخائر والأشياء المقدسة ، والسبب في تبني هذه الرؤية المعتدلة أزاء الذخائر المقدسة لم يرجع إلى غش وتزيف هذه الأشياء المقدسة ، ولكن ببساطة يمكن أن يرجع السبب إلى أن هذه الذخائر المقدسة كانت أمراً مألوفاً لهم لأنهم يعيشون على مقربة منها باستمرار في حياتهم اليومية ، وما نعرفه عن ممارسة الصليبيين في عالم المعتقدات الدينية يحول دون الوصول إلى استنتاجات بقصد تزييفهم لهذه الذخائر المقدسة.

لقد زاحت المعتقدات الخرافية للصلبيين إلى معاصرיהם الأوربيين ، وغالباً ما زاحت هذه الخرافات الدينية الصليبية إلى المسيحيين الشرقيين وال المسلمين . فقد راج على نطاق واسع الاعتقاد بأن نزاب معمم Mamre القريبة من حبرون (والتي خلق منها آدم عليه السلام) دواء ناجح وفعال . كما أن هذا التراب كان علاجاً ضد لدغة الثعبان لأولئك الذين كانوا يمارسون الجنس بشكل مباشر . وكان «لين العذراء» (وهو عبارة عن قطعة من الصخر الأبيض يستخرج من كهف اللبن» من بيت لحم) والذى حمله معد أسقف بيت لحم Anschetus في أثناء معركة عسقلان (سنة ١١٢٣م) قد كفل النصر في هذه المعركة وفي إطار المعتقدات الخرافية الصليبية ، يأتى السهم الذى اخترق الدرع الواقى للسيد المسيح وانحرف صوب جسد المسيح الذى يحمل اسم سهم الرب . ومن خلال المصادر التاريخية الصليبية يمكننا التعرف على قائمة طويلة تضم مثل هذه المعتقدات الخرافية . ولم تكن مثل هذه المعتقدات قاصرة على

الأرض المقدسة، إذ أوضحت لنا مجموعة من المصادر التاريخية الأوربية بعض المعتقدات الخرافية المماثلة لتلك التي كانت منتشرة في الأرضي المقدسة. ومن ناحية أخرى، فإن الأشباح التي كانت تظهر في السماء، والفرسان بدروعهم المتألقة التي كانت تتجلّى في السماء لتقود الجيوش الصليبية، وجيوش الرب التي تحارب الكفار، والنساك الزاهدين الصامتين الذين يسدون نصائحهم للقادة العسكريين للخطط العسكرية، قد تضليلت كل هذه المعجزات والرؤى المقدسة مع كل حملة صليبية، أي بمرور الوقت ، فقدت كل هذه الرؤى الاعجازية قيمتها. الواقع أن الشخص قلما يجد أية أمثلة حقيقة وأصلية لهذه المعجزات المقدسة في المدونات التاريخية للملكة اللاتينية في بيت المقدس. وهذا في حد ذاته لا يمكن أن يبرهن على أن الصليبيين كانوا أكثر رزانة واعتدالاً وأقل ميلاً للاعتقاد في القوى الاعجازية الخارقة للنرميس الطبيعية، بل كان الصليبيون أكثر ميلاً إلى حالة النشوة المسيحية التي تتطلب استحضار القوة الإلهية لصالحهم في معاركهم والتي تشير حماستهم في الحرب. فقد كان الصليبيون في المملكة اللاتينية في كل يوم من حياتهم يتuwoslon إلى الرب ابتغا، عنده ومساعدته ، بيد أنهما كانوا يعتمدون على مواردهم الخاصة حتى ولو كان المسلم شيطاناً مبتدئاً.

وثمة ظاهرة كانت تيز الصليبيين وهي تمجيدهم وتوقيرهم للأماكن التي تتمتع بالقداسة لدى كل أصحاب الديانات الثلاث (اليهود - المسيحيون- المسلمين) فقد كان اليهود والمسلمون الصليبيون يبجلون أضرحة ومقابر البطاركة في حبرون ومبانيها التي ترجع إلى فترة الملك هيرود . واستطاع الصليبيون إعادة اكتشاف هذه المقابر في عام ١١٨م. فمنذ القرن الأول الميلادي، انتقل القبر التقليدي للملك داود من مكانة (القريب من بركة السيلو- Pool of si- loe إلى جبل صهيون والذي ما زال موجوداً حتى اليوم) ، وكان هذا القبر موضع احترام وتجليل أصحاب الديانات الثلاثة (اليهود - المسلمين- المسيحيون) . وبخيرنا الرحالة اليهود الشهير بنiamin التطيلي قصة أولئك المسيحيين الذين حاولوا أن ينفذوا إلى ضريح الملك داود، وكيف ابتلاهم الله بغضبه وانتقامه الشديد. وكان «كهف الأسد» الذي يقع عبر بوابة يافا إلى جبانة كهنة الضريح المقدس (الماميلاح Mamillah) يشير إلى ذلك المكان الذي أحرق فيه الشهداء المسيحيون على يد الفرس، وكان هذا المكان يعرسه أسد عجيب. واحسراته ، فإنه في القرن الثالث عشر الميلادي يروى لنا أحد تلاميذ ابن نحمان العظيم Nahmanid نفس القصة ، ولكن استبدل اليهود بدلاً من المسيحيين الذين اقتحموا ضريح داود، وكذلك استبدل الفرس

بالمسيحيين ، أى أن الشهداء كانوا من اليهود والذى قام بهذه الجريمة البشعة هم المسيحيين وليس الفرس . وكان المكان الذى يقع خارج مدينة عكا والذى شهد قيام آدم عليه السلام بعملية حرف الأرض القريبة فى «ينبع الثور Source of the Oxen (عين البقر) يحظى بالاحترام والتقدис من جانب أتباع الديانات الثلاث ، وأصبح المسجد الأخضر فى عسقلان كنيسة للقديسه ماريا الطاهرة وكان «كهف العليقة» Elijah الواقع على جبل الكرمل معروفا لدى المسيحيين ، وال المسلمين واليهود . ومن البديهي أن منطقة المعبد بقدساتها بالإضافة إلى جبل الزيتون ، كانت تحظى باحترام وتبجيل أتباع الديانات الثلاث أيضاً .

وعلى الرغم من أن هذه الأمثلة تقلل فقط عدداً قليلاً من أمثلة كثيرة فإنه لا يمكن أن نبرهن على وجود اتجاهات وميول توفيقية بيت الديانات الثلاث، أو وجود تسامح ديني. وبساطة فإن مثل هذه الممارسات والأعراف تعكس التاريخ المتشابك لذلك القطر الذى اتفق على أنه الموطن الأصلى للديانتين اليهودية والمسيحية. وعندما كانت هذه المنطقة خاضعة تحت السيادة الموحدة لليهود والمسيحيين ترسخت نفوذهم (اليهود والمسيحيين) حتى بعد الفتح الإسلامي لهذه المنطقة في هذا القطر وفي إطار الحكم الإسلامي . فقد تغيرت السيادة على المقدسات ما بين أتباع الديانات الثلاث . فقد قام المسيحيون بطرد اليهود من موطنهم الأصلى* وشيدوا كنائسهم وأديرتهم الخاصة بهم في نفس الأماكن التي طرد منها اليهود وإبان الحكم الإسلامي لهذه المنطقة في هذا القطر تحولت هذه الكنائس والأديرة إلى مساجد للمسلمين، وفي أثناء السيادة الصليبية، أعيدت هذه المساجد إلى كنائس مرة أخرى. وقام المسلمون بتدمير التماضيل والأيقونات، والصلبان وأعمال الفسيفساء (الموزايك Mosaic)، وأيضاً عندما استرد صلاح الدين مدينة بيت المقدس ، قام بتطهير القذارة المسيحية برش ماء الورد. إذ أن الصليبيين كانوا قد قاموا باغلاق المحراب الواقع في الجهة الجنوبية من المسجد وبنوا مذبحاً عند الحائط الشرقي للمسجد، وصبوا المعادن التي سلبوها وتحولوها إلى أجراس للكنائس. وظللت هذه الأماكن تحظى بالتبجيل والاحترام من جانب أحد أتباع الديانات الثلاث (المسيحيين الصليبيين)، وكذلك عندما هيمنت ديانة جديدة في هذه الأماكن المقدسة. لقد اقتبس المؤمنون

* ما زال المؤلف يؤكد على أحقيّة اليهود في وطن قومي لهم في فلسطين، من منطلق الحق التاريخي لهم في الأرض المقدسة منذ عصر مضت وتلك رؤية اسرائيلية للحروب الصليبية. (المترجم) .

الجدد من الكتب المقدسة الخاصة بالديانة الباكرة المسيحية، واستمرروا يؤدون الصلاة في نفس الأماكن ، والنظر إليها باعتبارها ميراثاً شرعياً لهم، يقيمون فيها الصلاة لنيل الخلاص النهائي من الخطيئة والتحرر من شرور الدنيا. وحتى مع معرفتنا التفصيلية لتنظيم ومؤسسة الكنيسة في المملكة اللاتينية في بيت المقدس، فإنه ليس بالأمر اليسير أن نحمل دور كبار رجال الدين الكنيسيين وأهمية الحياة الدينية في المملكة الصليبية. فقد كان هناك انتقام واضح بين الوضع الرسمي والوضع الفعلى الحقيقي لرجال الدين في الدولة والمجتمع . وعلى الرغم من أن التشريعات والقوانين الصليبية كانت تعتبر البطريرك اللاتيني من أحد كبار السادة الاثنين في المملكة الصليبية -والسيد الروحي للملكة- فإن الواقع كان عكس ذلك، إذ لم يستطع أى من رجال الدين اللاتين أن يلعب دوراً مؤثراً في الأمور السياسية للمملكة طوال فترة وجودها. إذ كان البطريرك ، كما كان الوضع في كل مكان في أوروبا المسيحية ، يتصدر قائمة الحاضرين في المجمع الكنسي ، وكذلك المراكب والاحتفالات الدينية، وأيضاً كان البطريرك من أول الموقعين على المعاهدات الدولية. بيد أن هذه الإيمان والإشارة السابقة الخاصة بتوقيع البطريرك على شروط المعاهدات الخارجية والتي تأسلت ورسخت في كل قطر أوربي في العصر الوسطى، كانت تعكس التصورات والمفاهيم العامة للنظام الاجتماعي ، ولم تكن هذه الإيمان السابقة أيضاً برهاناً للوضع الحقيقي لرجال الدين في المملكة اللاتينية.

ومن المحتمل أن الكنيسة اللاتينية في منطقة الشرق العربي منذ البداية كانت عاجزة عن تحقيق التفوق والسيادة في المملكة الصليبية إذا ما قورنت بالكنيسة اللاتينية في الغرب الأوروبي التي كانت قادرة بالفعل على أن تحرز لنفسها التفوق والسيادة . ومع ذلك، فإن مملكة مثل مملكة بيت المقدس الصليبية تأسست وظهرت للوجود بمبادرة البابوية ومبركتها ، تلك البابوية التي ظلت الداعمة الأساسية والمساعدة للمملكة طوال فترة وجودها التي استمرت ما يقرب من قرنين الزمان ، لم تصبح الكنيسة في هذه المملكة عاملاً مؤثراً ، ولم تمثل حزيناً ، أو أيديولوجية أو حتى مجموعة ضغط في حلبة التنافس بين الملك الصليبي وبين النبلاء الصليبيين . وهكذا ، فإنه يمكن القول أن المجتمع الصليبي كان أكثر نزوعاً إلى العلمانية ، أو كان أقل تدينًا من المجتمعات الأوروبية المعاصرة . وهذه السمة التي تميز بها المجتمع الصليبي تدعمها انطباعات مجموعة الحجاج الأوروبيين والرحالة الذين زاروا المناطق الصليبية في بلاد الشام، ويزكدها أيضاً التوبيخ والقذح القاسي الذي وجهه جاك الفيتري *Jacque de vitry*

أسقف عكا للمستوطنين الصليبيين بسبب فساد أخلاقهم . وعلى أي حال، فإن التحليل الواقعي والمترن لكتابات جاك الفيتري أسقف عكا الخاصة بانتقاد سلوك المستوطنين الصليبيين قلما تثبت أو تدحض هذا الموضوع الخاص بالانحلال الأخلاقي للمجتمع الصليبي في بلاد الشام . فلم يكن عدم التقوى والورع أو نقص التدين هو الذي حدد مصير ومستقبل مكانة الكنيسة اللاتينية في المجتمع الصليبي بشكل نهائي، بيد أن الأكثرا احتمالاً هو أن الأساقفة اللاتين الذين كانوا يمثلون الكنيسة ويدبرون شئونها هم الذين قرروا مصير ومكانة الكنيسة اللاتينية في بيت المقدس.

وباستثناء وليم الصوري ، رئيس أساقفة مدينة صور، لم يكن هناك شخصية بارزة من بين رجال الدين في فلسطين . وإذا عقدنا مقارنة بين الكنيسة اللاتينية في بيت المقدس وبين مثيلتها التي كانت موجودة في الأقطار الأوروبية مثل المجلترا ، أو فرنسا ، أو ألمانيا أو إيطاليا في نفس الفترة ، نجد أن الكنيسة اللاتينية في بيت المقدس لم تفرز لنا من بين رجالاتها كبار رجال دولة أو مفكرين ، أو علماء أو قادة وزعماء روحيين على غرار ما أفرزته الكنيسة اللاتينية في أوروبا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين . ويمكن تفسير ذلك إلى حد ما في ضوء الظروف غير المستقرة وغير الملائمة التي مرت بها المملكة الصليبية ، إذ كانت هذه المملكة باستمراراً في حالة حرب مع أعدائها من الأقطار الإسلامية المجاورة، ومع ذلك ، فإن هذا التفسير يبدو غير كاف.

وسمة طريقة أخرى لفهم هذا الموضوع، ربما تصل بنا إلى الوقوف على تفسير منطقي ومقبول. فلم يكن أحد من كبار الأساقفة اللاتين (باستثناء وليم الصوري رئيس أساقفة كنيسة صور كما ذكرنا من قبل) من أبناء ومواطني الأرض المقدسة من أقطارهم في فلسطين ، إذ كان كبار رجال الدين اللاتين الذين يحتلون أعلى الرتب الكنسية الصليبية من الأوروبيين الذين أتوا إلى الأرض المقدسة . منذ أصبح نواب البابا ورسله بطاركة ، وفي الغالب كان يتم انتخاب رجال الدين الأوروبيين الذين يزورون الأرض المقدسة كرؤساء أساقفة ومقدمي أديرة abbats . ولذا لم تفرز الأرض المقدسة في فلسطين زعماءها الروحيين .

لقد كان هذا الاعتماد الديني على أوروبا من أبرز السمات المميزة للمملكة اللاتينية في بيت المقدس . ومن المرجح ، أن الصليبيين قد اقتضتهم الظروف إلى أن يتطلعوا إلى أوروبا التماساً للعون والمساعدة المادية والعسكرية وأيضاً المشورة ، وقبلوا بمحض ارادتهم وطوعاً أن يجعلوا

دائما رجال دين من الخارج . وربما كان شعور الصليبيين هو الذى فرض عليهم الاعتماد على أوروبا فى المجال الدينى الكنسى . ولم يكن هناك نقص وندرة فى الفرص ، ولا نقص فى المصلحة الذاتية والمنفعة . وكان الكثير من الكنائس والأديرة ، والمزارات المقدسة ، والأماكن الجذابة فى الأراضي المقدسة بشكل عام تقرن بشروء المؤسسات والمنشآت الكنسية والتى كانت العوامل الراودة والمبشرة بالتجاح ، وبطريقة ما ، لم تستخدم مثل هذه العوامل الإيجابية كما ينبغي . ونسمع هنا وهناك أن معلماً كان يلقى الدروس لرجال الدين فى كنيسة الضريح المقدس وأحياناً ، كما نسمع عن أستاذ الراهب كان يمارس عمله فى مدينة عكا . وكانت مثل هذه الاشارات قليلة جداً وفي فترات متباude ، ويمكننا أن نعتبر أن مثل هذه الاشارات والتلميحات عن أعمال التدريس فى الكنائس والأديرة الصليبية من قبيل الاستثناءات اللافتة للنظر . ومن المحقق أن هذه المدارس قد وجدت فى الكنائس والأديرة ، لتقديم المعرفة لصفار رجال الدين ، ولم تصبح مدارس حقيقة بمعنى الكلمة كالتي كانت تعرفها العصور الوسطى ، فإذا كان الشخص ذا موهبة وأراد أن يتلقى قسطاً من التعليم ، فإنه كان عليه أن يتبع نفس الطريق الذى سلكه وليم الصورى الذى ذهب فى رحلته التعليمية إلى مدارس فرنسا وإيطاليا ليneathل من العلم هناك ، ومكث وليم الصورى فى رحلته هذه ما يقرب من عشرين عاماً . فلم تتوفر فى المملكة الصليبية مراكز فكرية ، وتعلمية ولم توفر مدرسة ذات شهرة . وفي محيط التطور الأوروبي . ظلت الدولة الصليبية ، مشورعاً استيطاناً استعمارياً ، تعتمد فى بقائها وجودها على القارة الأوروبية الوطن الأم ، وتعتمد على أوروبا أيضاً فى أعمق مظاهر الحياة الروحية .

ويمكن تفسير عدم الأهمية النسبية للكنيسة اللاتينية ورجال الدين اللاتين فى المملكة الصليبية فى بيت المقدس فى ضوء حقيقة صالة جودة الثقافة المحلية وضحتها ، وكذلك أن المملكة الصليبية لم تؤسس مدرسة ولم تفرز رجال دين . ولاشك أن مثل هذا يتناقض بشكل كبير مع ما كانت تتمتع به الكنيسة من ثروة فقد كانت قائمة جزء ممتلكات الكنيسة اللاتينية تشمل الملايين من القرى ، والمنازل والبساتين ، ودكك الأسواق ، والأفران ، والحمامات . وامتلايات خزائن الكنيسة من عوائد العشر الكنسية التى كان يدفعها السادة الاقطاعيون نقداً وعيناً ، وكذلك من الهبات والهدايا السخية التى كان يغدقها عليها الحجاج المسيحيون .

وعندما ننتقل فى حديثنا من الكلام عن رجال الدين إلى الحديث عن مؤسسات وتنظيم الكنيسة اللاتينية ، فإننا نواجه مرة أخرى انقساماً ما بينهما فمن ناحية ، كان رجال الدين

أغنياءً ، وعاش بعض ممثليهم ومندوبيهم حياة بعيدة عن شفط وقسوة أفراد الحملة الصليبية الأولى ، إذا تجاوزنا عن ذكر أية محاولة لتقليد الحياة الرسولية الزاهدة التي ازدهرت في الأرض المقدسة في فلسطين قبل ألف عام من بداية الوجود الصليبي ، أى في أيام المسيح عليه السلام . وتجدر الاشارة إلى أن أحد البطاركة اللاتين قد تزوج من امرأة كانت تعمل معلمة . وقد أطلق عليها المجتمع الصليبي في مدينة بيت المقدس لقب مدام البطريرك . وحتى لو قللنا من أهمية المبالغات التي ساقها لنا أحد المراقبين الأذكياء وهو الانجليزي رالف نيجر Ralph Niger فإنه يسهل علينا أن نسوق ونذكر وصفه للبطريرك اللاتيني هرقل Heraclius الذي حضر إلى الغرب الأوروبي عشية انهيار المملكة الصليبية الأولى بعد موقعة حطين يتلمس المساعدة المادية والعسكرية من الغرب الأوروبي فيقول رالف نيجر :

«لقد رأيت بطريرك بيت المقدس عندما حضر إلى الغرب الأوروبي لكنه يلتسم العون والمساعدة المادية . إذ جاء في حلته الأنثقة ولباسه الفخم ويصاحب موكب يزدان بالذهب والفضة يتم عن الشراء ، وعندما سمعت مطلب بشأن التماس المساعدة انتابتني حالة من الاشمئزاز وذلك بسبب ثرثرته المستمرة وصوته المنفر ويضاف إلى ذلك العديد من مختلف الروائح العطرية والبهارات التي تفوح من ملابس البعثة المرافقة للبطريرك والمشبعة بهذه الروائح والعطور النفاذة التي تجعلك تدبر رأسك من فرط قوة رائحتها . لقد رأيت جوقة الترتيل الخاصة بالبطريرك التي لم أشاهدها مثلها في حياتي . وبالتأكيد لم تكن هذه الجوقة مرتفعة التكلفة . ولكن نقرر حكما على هذا الوضع ، فإننا نقول أن أي بطريرك في الغرب الأوروبي لم يرتدي مثل هذا الملابس الأنثقة ولم يصاحب موكب في مثل هذه الأبهة والأناقة التي كان عليها موكب بطريرك بيت المقدس وإذا حكمنا على مظاهر الترف الأخرى في أرض فلسطين وفقا لما رأيته ، فإننا نستطيع أن نسلم بكل ثقة بأن أرض فلسطين يوجد بها مقدار كبير من الترف ببغضه الرب . وهؤلاء الذين حضروا من هذه البلاد وهذا القطر (فلسطين) يقصون علينا حكايات مهمة» .

ومن الطبيعي أن هذه الأوصاف التي ساقها لنا رالف نيجر كانت من قبيل المبالغة ، بيد أن الصورة الوصفية الكاملة لم تكن موضع ثقة .

وحتى عندما نشكك في جزء كبير من كلام جاك الفيتري أسقف عكا (وهو رجل أكثر تقوى من أي إنسان آخر) فإن المرء ينزع إلى قبول الوصف الذي ذكره جاك الفيتري بخصوص

ثرا، رجال الدين والكنيسة اللاتينية في مدينة بيت المقدس، وذلك لأننا لدينا الدليل الوثائقى الكافى. فقد كتب جاك الفيتري قائلاً:

«... وعندما وجد السبب، أصبحت من دافعى الجزية والضرائب لأساقفة الكنيسة والرهبان من خلال الصدقات ، والهبات ، والهدايا المختلفة ، لقد كان الراعى يبحث عن صوف ولين لرعايته (اسحق ٣٤-٣٨) ، يطعمهم ولكنها يتخلى عن القيام برعاية أرواحهم . لقد نقل الرعاة نماذج الخيانة هذه إلى رعاياهم .

لقد أصبحوا بمثابة أبقار تسمن على جبال السامرة ؛ وأصبحوا أغنياءً من فقر المسيح ، ومن تواضع المسيح أصبحوا متفطرسين ، وأصبحوا مستبدین ومتغطرسين من ميراث المسيح . وهذا يتناقض مع مقوله الرب لبطرس إذ قال الرب لبطرس «أطعم شعبي ورعى شعبي» (يوحنا ٢١-١٧) ولم يقل له «جز صوف شعبي ورعى شعبي» .

فقد كان بعض هؤلاء الأساقفة من المقربين للملك الصليبي، وقد وصل هؤلاء الأساقفة إلى أعلى المراتب الدينية باختيار ورغبة الملك الصليبي، وبهذا كان الأساقفة الآخرون من المتدربين ، وتعلم البعض، أو البعض الآخر لم يتلق تعليماً - ولم تكن قائمة هؤلاء الأساقفة مشتملة . وفي أفضل الحالات ، كان هؤلاء الأساقفة من الرجال متوسطي القدرات والموهاب ومن رجال الدين متواضعين القدرات. وكانوا غطاء من رجال الدين المستوطنين، فالرجال الذين جاءوا إلى الأرض المقدسة ارتفعوا إلى مراكز عالية ومكانته مرموقة بفضل ظروفهم الاجتماعية الخاصة وشهرة مزاراتهم المقدسة ، هذا الوضع وتلك المكانة التي لم يكن باستطاعتهم الوصول إليها من خلال كفافتهم أو جدارتهم .

وفي التنظيم الكنسي نواجه مرة أخرى انقساماً : فمن ناحية نجد أن الكنيسة اللاتينية الجديدة قد ازدهرت وتوسعت على نطاق واسع غير مسبوق . ونرتبك من جراء زيادة عدد الكنائس والأديرة التي شيدتها الصليبيون في منطقة صغيرة في الأرض المقدسة خلال فترة جيلين أو ثلاثة بعد الغزو الصليبي : لدرجة أن الناقد اللاذع جاك الفيتري ، الذي يتعنت بالروح الحماسية المتأججة عندما أظهر استياءه بسبب مظاهر الثراء التي يتمتع رجال الدين في المملكة اللاتينية (وهو الاستياء الذي لم يظهره أحد غيره) لم يستطع أن يخفى تأثيره واعجابه بسبب المنجزات الكثيرة للكنيسة اللاتينية في الشرق فيقول:

«لقد تم اصلاح وترميم الكنائس القديمة، وتم تشييد كنائس جديدة من عائد الأموال والهبات السخية التي قدمها الأمراء والصدقات التي قدمها المؤمنون ، وتم بناء الأديرة

للرهبان في الأماكن المناسبة وتم تعيين قساوسة الأبروشيات في كل مكان واعداد كل الأشياء الخاصة بتقديم العبادة إلى الرب بشكل لائق.

بيد أن نفس الدافع والحافز المهم للأفراد والمؤسسات من أجل الحصول على موطن، قدم في الأرض المقدسة قد تسبب في احداث عملية عدم اندماج اجتماعي قوية بين مختلف طبقات المجتمع الصليبي في المملكة اللاتينية في مدينة القدس. فقد كان بوسع أي صليبي أن يشارك في الطقوس الدينية على الرغم من قلة معرفته أو عدم معرفته باللغة اللاتينية، ولكن هذا الشخص في الوقت نفسه لا يمكن مطالبته بأن يتبع المعاуз الدينية التي تلقى بلغة غير معروفة. وهكذا كانت هناك تقاليد راسخة ومتصلة بشكل عميق تجذب وتستميل كل القادمين من أوروبا إلى المملكة الصليبية.

ولم تكن العلاقات بين أبناء المجالس الإيطالية من بنادقة وبيانة وجنبية طيبة، وإن كانوا في الواقع ليسوا في حالة حرب، فالتنافس التجاري كانت سمة تميز العلاقات فيما بينهم. فقد أحضر هؤلاء الإيطاليون (البنادقة - الجنوية - البيزنطية) رجال الدين إلى كنائسهم الخاصة بهم في المناطق الصليبية ، وشيدوا كنائسهم الأبرشية التي تعتمد على كنائسهم الكبرى في أوطانهم الأم. وأخيراً اغتصبت الأديرة والمؤسسات الدينية العسكرية (الاستبارية - الداوية - التيوتون) حق جمع الضرائب الكنسية وحصلوا على الامتيازات السخية من السلطات الصليبية. ويشكل رسمي أو غير رسمي حصل الإيطاليون على امتياز ديني وهو الاعفاء من سلطة رجال الدين المحليين، ولم يتجردوا مناقشة الدينية مع رجال الدين المحليين، إذ كانوا يفت Hwyون كنائسهم للتعميد أمام سكان المدينة الذين فرض عليهم عقوبة التحرير الكنسية ولم يرفضوا- على الرغم من المكافأة والمقابل المادي الأكيد- دفن الموتى المسيحيين في أثنااء الحرمان الكنسي، وكذلك الموتى المسيحيين الذين فرض عليهم عقوبة الحرمان الكنسي من جانب رجال الدين المحليين . وكان يتم الاحتفال بالزواج السري، واتمام حالات الزواج غير الشرعية في رحاب الكنائس الإيطالية في المملكة الصليبية. وفي الغالب، كانت هذه الاحتفالات يحرمنها رجال الدين والقانون الكنسي. كانت طبقة كبار رجال الدين من الأساقفة تفتقر إلى الشخصيات القوية، ولم يستطع أحد هؤلاء الأساقفة الكبار معارضة هذه القوى الإيطالية المتمتعة بالحكم الذاتي والتي كانت خارج سيادة السلطة المركزية الصليبية ، والتي كانت تتحدر من عناصر شتى من المهاجرين الأوروبيين.

وهكذا فان مثل هذه العلاقات داخل اطار المؤسسة الكنسية قتل نفس اتجاهات وأهداف القوى الايطالية المتمعة بالحكم الذاتي على المستوى السياسي، والتى كانت يمثلها جملة الاعفاءات والامتيازات التى حصل عليها أبناء هذه الكوميونات الايطالية والتى حصلت عليها كذلك الهيئات الدينية العسكرية (الاسبارتارية- الداوية- التيوتون) من السلطات الصليبية. وبشكل عام ، فإن هؤلاء الايطاليين كانوا يعكسون الحقيقة العرضية لدولة استيطانية صليبية لم تستطع هذه الدولة التغلب على مشكلة المؤسسات المتشابكة والمتنافسة، ووقدت هذه الدولة عاجزة أمام حل هذه المشكلة. لقد أخفقت الدولة والكيان الصليبي فى احداث نوع من الاندماج الاجتماعى بين عناصر سكانها الذين كانوا من أصول وجنسيات شتى، والذين كانوا أكثر ميلاً ورغبة فى الاحتفاظ بعاداتهم وأعرافهم وتشعبهم شيئاً حتى داخل وطن مشترك وفي اطار عقيدة رسمية مشتركة أيضاً. لقد كان المجتمع الصليبي بتركيبه الطبقي يحمل في طياته بذور الفناء والتحلل .

الفصل الحادى عشر

الحجاج وأعمال الحج والمعارف المقدسة فى فلسطين وبلاد الشام

من الحقائق المعروفة جيداً والمربكة أيضاً هي أن المصادر التاريخية اللاتينية الخاصة بفترة العصور الوسطى لم تتضمن مصطلحاً يائلاً مصطلح «الصلبية» Crusade . فمصطلح «صلبي» تعنى أن رجلاً علق شارة الصليب على ملابسه أو حمل الصليب شعاراً لمسيرته ، ييد أن عملية الذهاب الفعلية نفسها إلى الأرض المقدسة كانت توصف بمصطلحات تختلف عن مجموعة التجارب الدينية ، وعادة كان مصطلح «الصلبية» Crusade تعنى الطريق الطريق إلى بيت المقدس ، أو رحلة حج Peregrinatio وهذه الظاهرة الغربية لعلم دلالات الألفاظ وتطورها جعلت جمهة من العلماء يعتقدون أن الحروب الصليبية كانت بثابة توسيع لرحلة الحج المسلحة وتتطور لها . وعلى أي حال ، فإن رحلة الحج المسلحة كانت عبارة عن قافلة لم تصم حملة صلبيّة ، وأن عملية استبدال الرمح بدلاً من صوجان الأسقف لم تستطع أن تحول الحاج إلى صلبيّ محارب . وبالرغم من ذلك فإن الحروب الصليبية ورحلات الحج قد اشتراكاً في كثير من السمات البارزة والقوميات ، ولا سيما في المجال الديني والهدف ، ولم تكن الحروب الصليبية نتاجاً أساسياً للتطور رحلات الحج المسيحي ، على الرغم من أن هذه الرحلات قد ساهمت في تكوين وتشكيل هذه الحروب الصليبية*. وحينما اتجهت الحروب الصليبية لأن تصبح رحلات حج مسلحة أو مجرد رحلات حج (وهي الرحلات التي كان يدعى إليها سان برنار مقدم دير كليرقوري في فرنسا في منتصف القرن الثاني عشر الميلادي) فإنها بذلك قوضت أساس ومبرر وجود الحج . وعلى الرغم من أنها لا يمكن أن تتفق مع وجهة النظر القائلة أن الحروب الصليبية كانت بثابة فقط وفوذج من أفاط الحج ، فإنه ليس هناك شك في أن عدداً كبيراً من الآلاف الأوروبيين الذين تركوا ديارهم وأوطانهم للالتحاق بالجيوش الصليبية الضخمة قد اعتبروا الحملة الصليبية بثابة رحلة حج مسلحة وأن مشاركتهم هذه كانت بثابة العمل الذي

* لم يكن الحج المسيحي الرائد الأولي لفكرة الحروب الصليبية ، وإنما كان ضمن رواد ثلاث أممها على الإطلاق رائد الأفكار الألفية والأخوية ، ورائد الحرب المقدسة وال الحرب العادلة وارتباطها بالغفران الصليبي .

لمعرفة المزيد انظر : (قاسم عبده قاسم : ماهية الحروب الصليبية ، دار عين للدراسات الإنسانية (القاهرة ، ١٩٩٣) .

يضمن لهم الرعد بالخلاص الفردي والجماعي. وعندئذ سوف تكون الحروب الصليبية بشارة رحلات حج طالما أن الرجال المشاركون فيها كانوا يعتقدون قاماً أن ثمة اتصال وعلاقة بين الأمور الدينية والأمور الدنيوية ، وأن كل الأماكن ستكون متساوية ومتماثلة وفقاً للرؤية الدينية السرمدية ، فقد تعمقت بعض هذه الأماكن بقدسية خاصة لأنها شهدت وقوع بعض الأحداث والذكريات المقدسة، وكذلك لأن هذه الأماكن كانت تستدعي هذه الذكريات الدينية المقدسة التي تؤدي إلى تسامي الفكر الانساني وثبتت أركان العقيدة المسيحية وتجدد وتحفي المشاعر الروحية الدينية في نفوس أبنائهم .

وعلى الرغم من وجود علاقة بين «الصليبية» و«الحج» فإن هذا الموضوع سيظل دوماً مجالاً للجدال والخلاف بين العلماء والمؤرخين بعضهم البعض، ويتفق الجميع على أنه خلال المائتي عام التي استغرقتها الحروب الصليبية أصبحت رحلات الحج تقريباً واحدة من حيث التعبيرات والمظاهر الجلية للممارسة الدينية المسيحية والتي تختلف بشكل أساسى وفعال عن العملات العسكرية الكبيرة. فقد كانت مراكز الحج العظيمة والشهيرة توجد قبل الحروب الصليبية، وأصبح الحج المسيحي كممارسة دينية عشية الحروب الصليبية تقليداً مسيحياً يرجع إلى ألف عام قبل بداية هذه الحروب . ومع ذلك فإن الحروب الصليبية كانت حافزاً جيداً لرحلات الحج إلى الأرض المقدسة في فلسطين وبلاط الشام، كما أنها جعلت من الأرض المقدسة مكاناً محبياً وهدفاً تهفو لتحقيقه نفوس كل المعجاج خلال رحلاتهم، وإن كانت مثل هذه الرحلات إلى الأرض المقدسة في فلسطين لم تتكرر كثيراً إلى حد بعيد *.

فقد كانت هناك كل من روما التي تضم بين جنباتها مقابر الرسل المسيحيين، وسانтиاجو من كومبو ستلا Santiago of Compostolla (وذخائرها المقدسة التي ظهرت بشكل كبير في القرن الثاني عشر الميلادي وكذلك القسطنطينية التي كانت تحافظ على ذخائرها المقدسة الشهينة بحرث شديد وتزهو فخرًا بتقاليدها المقدسة ، وقديسها ، وتؤكد جيداً على المعجزات والخارق التي ظهرت على يد قديسها . وكان كل قطر واقليم وتقريباً كل كنيسة ودير يطبع ويتطلع إلى أن يصبح مراكزاً من مراكز الحج، غالباً ما كان يتم تزييف النثار المقدسة من أجل

* يرجع السبب في ذلك إلى وجود بعض المزارات المقدسة في أوروبا التي كان يقصدها المعجاج الأوربيون مثل المزارات سانتياجو في كومبو ستلا في إسبانيا، والمزارات المقدسة وقبور القديسين في روما، وكذلك المزارات المقدسة في القسطنطينية (المترجم) .

هذا الغرض ، وذلك عن طريق النقوش المصطنعة أو حتى عن طريق سرقة بعض أجزاء صغيرة من رفات القديسين والشهداء المسيحيين . وتعتبر عملية نقل رفات القديس مارك Mark من الاسكندرية إلى مدينة البندقية واحدة من الأعمال البطولية الشهيرة والمجدية التي قامت بها جمهورية البندقية ملكة منطقة الادرياتيك آنذا ، والتي ساهمت أعمال الفسيفساء الجميلة التي زينت وجهاً كنيستها في تخلیدها .

وكانت الأرض المقدسة وخاصة مدينة بيت المقدس بشكل محدد تعد من أقدم المزارات المقدسة التقليدية التي يفد إليها الحجاج ، وهي الأماكن التي يرجع تاريخها إلى فترة ابنايَّة الديانة المسيحية عن اليهودية ، والتي تتصل بالتقاليد الباكرة لبني إسرائيل في العصر القديم . واستمر الحج إلى مدينة بيت المقدس من الفرائض الدينية في العصر القديم . واستمر الحج إلى مدينة بيت المقدس من الفرائض الدينية التي يؤذن بها اليهود طالما كان الهيكل منتصباً . وفي المسيحية لم يكن الحج فريضة مهمة ولم يصل إلى أهمية الحج إلى المقدسات الإسلامية في مكة والمدينة وهي المدن الإسلامية التي ينذر إليها الحجاج المسلمين ، بيد أن الحج المسيحي بعد فترة من الوقت أصبح جزءاً مكملاً للممارسة المسيحية .

وخلال القرون الأولى للديانة المسيحية ظل التقليد اليهودي باقياً ، وكان يوجد قدر كبير من حب الاستطلاع العالمي والتوق إلى الماضي كل هذا أدى إلى حد واغراء بعض آباء الكنيسة المسيحية في الفترة الباكرة لزيارة الأرض المقدسة . بيد أن الحج المسيحي أصبح بشارة ممارسة يقوم بها أفراد الطبقات الارستقراطية في المجتمع في القرن الرابع الميلادي ، حيث أصبحت المسيحية ديانة رسمية معترف بها في أنحاء أقطار الإمبراطورية الرومانية ، وكذلك اتباعاً للنموذج الذي وضعته القدسية هيلانة أم الإمبراطور الروماني قسطنطين العظيم التي قامت بزيارة حج للأرض المقدسة في فلسطين*.

وما يذكر أن سقوط الإمبراطورية الرومانية في الغرب في القرن الخامس الميلادي والفتوحات الإسلامية الواسعة لبعض الأقطار في بلاد الشام وفلسطين لم تعطل حركة الحج المسيحي الأوروبي إلى الأرض المقدسة في فلسطين وبلاط الشام . ولم يستمر تدفق لرحلات

* قامت القدسية هيلانة أم الإمبراطور قسطنطين بزيارة حج إلى مدينة بيت المقدس في القرن الثالث الميلادي ، وقامت بتجديد بناء كنيسة الضريح المقدس . (المترجم) .

للمرور على تفاصيل هذا الموضوع انظر : اسحق عبيد : «القدسية هيلانة واكتشاف الحرم المقدسة» ، (المجلة المصرية للدراسات التأريخية ، العدد ١٧ ، ١٩٧٠ ، ص ١٥ ، ١٦) . (المترجم) .

الحج فقط، بل تشكلت فكرة جديدة للحج بفعل عوامل بعيدة تماماً عن التجربة والحياة الدينية. إذ كان الدافع الجديد يتمثل في ممارسة نفي المذنبين والآثمين إلى خارج الوطن، وهي العقوبة الكنسية التي ظهرت بشكل واضح في أيرلندا في نهاية القرن التاسع الميلادي. وفي العادة كان المذنب المطرود من وطنه يُغير بين اختيار أحد أمرئين إما أن يعيد الأشياء التي اغتصبها أو يدفع تعويضاً عن الخسائر الذي أحدها بجرينته. وفي الوقت المناسب ، اصطبغت عقوبة الأبعاد عن الوطن بأفكار جديدة. فقد كان الشخص المطرود والثانى يميل إلى التنسك وذلك لأن النفي خارج الوطن كان يفرض على ذلك الشخص المطرود نوعاً من حياة التقشف والحياة القاسية. وبالإضافة إلى ذلك، فإن الاعتقادات الشائعة التي كانت تعتبر وتقدر شفاعة القديسين أو الشهداء وجموع المصلين الاتقياء، في أماكن تقتعت بقداسة خاصة، بدأت تقنع وتحصل هذا النفي والبعد عن الوطن والثانى والمذنب إلى القيام برحلة حج إلى منطقة محددة جغرافياً من العالم وتكون هذه الرحلة ذات هدف روحي وديني. ويرجع جزء من هذا التحول إلى ارتكاب مجموعة من المشرين والأشقياء، الكثير من الجرائم، الأمر الذي جعل السلطات العلمانية والكنسية تصدر ضدهم عقوبات عما اقترفه أيديهم من ذنوب وتجاوز وأثام. بيد أن فكرة الحج كوسيلة للتوبة وكفир الذنوب كانت أكثر أهمية. فقد كان المذنب والمخطئ، يتعهد بالذهاب إلى رحلة حج إلى أحد المزارات المقدسة لكي يُكفر عن ذنبه. وهكذا كانت رحلة الحج المسيحي بمثابة عقاب جسدي وإصلاح روحي، وذلك لأن الصلاة والتراتيل التي يؤديها هذا المخطئ، سوف توقظ شفاعة القديسين. بيد أنه في فترات باكرة بشكل خاص، كانت رحلة الحج المفروضة على المذنب بمثابة جزء من التعريض الذي يقدمه عن الجريمة التي ارتكبها . فقد كان الحج والصلاه، مثل منح الصدقات ، ودفع الزكاة للفقراء، تؤدي من أجل إنقاذ روح مرتكب الجريمة .

وعلى الرغم من ادخال الحج المسيحي إلى شرائع ونصوص مجموعة القانون الجنائي في أثناء العصور الباكرة قد ساهم بقدر كبير في انتشار مثل هذه الممارسة، فإن ثمة عوامل أخرى ساهمت في الترويج لممارسة الحج المسيحي. فقد كان الاعتقاد الشائع يعتبر الحج عملاً دينياً جديراً بالتقدير والاحترام. وكما ذكرنا آنفاً، فإن مثل هذا قد بنى على أساس الاعتقاد بأن الصلاة في أماكن مقدسة وغنية بالذخائر المقدسة ذات فعالية تُعدّ أفضل فرصة للوصول إلى مملكة الله في السماء. ولم تلق مثل هذه الفكرة قبولاً كاملاً لدى آباء الكنيسة. وقد انتقد

بعض آباء الكنيسة ممارسة الحج. ومن ثم ، تطور اتجاه متناقض ، وتبادر هذا الاتجاه في موقف القديس جيروم، الذي استقر وعاش في الأرض المقدسة في فلسطين . وتسعى أكثر التفاسير الدينية وتفسيرات التعاليم المسيحية للقديس بولس إلى التأكيد بشدة على الاحتياجات الجسدية لعامة الناس ولصغار المؤمنين من أجل لمس آثار القدس الأرضية، بيد أنه في النهاية عرف الاعتقاد الشعبي طريقه إلى بلورة أهمية الأماكن المقدسة.

وكانت مدينة بيت المقدس من بين كل أماكن الحج، مكاناً مبجلاً ، والمكان الذي شهد زيارة الحج التي قامت بها القديسة والأمبراطورة هيلانة ، وهي الزيارة التي كانت لها أهمية بالغة في تشجيع رحلات الحج إلى بيت المقدس، والتي أصبحت بعدها أرضًا مقدسة. فقد كانت الأماكن التي ترتبط بالعهد القديم (التوراه) معروفة جيداً في أثناء فترة الإمبراطورة هيلينا، وهذا ما فهمناه من ملاحظات المؤرخ الكنسي يوساب القيساري عن الأماكن المقدسة. وكانت تعاليم العهد الجديد (الإنجيل) في مرحلة التكوين وأخيراً لم تتضمن الخريطة المقدسة المدن والقرى فحسب، بل اشتملت أيضاً على الشوارع والمنازل التي ترتبط بحياة المسيح في مدن بيت المقدس ، وبيت لحم والناصرة والمناطق والأماكن المحيطة بها. ومن الممكن تتبع التسلسل الطبوغرافي من مكان البشارة إلى مكان الصليب والقيام. وكانت هذه المقدسات مشيدة أحياءً لذكرى هذه الأحداث المسيحية ومن أجل تقديم السلوى للمسيحي التقى والرور.

لقد كانت ممارسة الحج تجسيداً للرغبة في تصور وتخيل الأحداث المقدسة التي شهدتها هذه المزارات ، وكانت هذه الرغبة تؤدي إلى تحديد هوية وموقع هذه الأماكن التي شهدت هذه الأحداث ، حتى أماكن الأحداث التي موضع شك والتي تعرف بالأبوكريفا Apocrypha . وهكذا فإنه بحلول فترة الحروب الصليبية أدرجت كل الأرض المقدسة على الخريطة المقدسة. وعندما تأسست المملكة الصليبية في بيت المقدس وفتحت قنوات منتظمة من الاتصال مع الغرب الأوروبي، أصبحت الأرض المقدسة في فلسطين الوجهة الأساسية للحج.

كانت السفن تقلع من موانئ أوروبا مرتين في العام ، وكانت الرحلة الأولى تبدأ في عيد الفصح ، والأخرى في منتصف الصيف ، إذ كانت تجتمع أعداد كبيرة من الأساطيل سوياً في موانئ جنوب أوروبا قبل الابحار إلى منطقة الشرق العربي الإسلامي. وكان الكثير من هذه السفن يتوجه صوب ميناء الإسكندرية أعظم ميناء على ساحل البحر المتوسط، وعندها كانت هذه السفن تتحرك صوب مينا، عكا وأنطاكية وتذهب إلى أبعد من ذلك إلى القسطنطينية

قبيل رحلة العودة إلى أوروبا. وكانت باقى السفن الأخرى تشق طريقها مباشرة صوب الأراضى المقدسة فى فلسطين وبلاد الشام، على الرغم من أن هذه السفن كانت ترتاد وتحبوب الموانئ المصرية، وموانئ قبرص ، وموانئ الامبراطورية البيزنطية قبل أن تعود إلى أوطانها. وما يذكر أن هذه السفن كانت تجارية بشكل أساسى، وكان معظمها يحمل نوعاً معيناً وثميناً من التاجر وهو الحجاج الصليبيين.

وتحرك مثل هذا العدد من الحجاج الأوروبيين إلى الأراضى المقدسة دون اعتبارات لاحزاز وجنى الكسب المالى، وكان نقل الحجاج إلى الأراضى المقدسة من أبرز سمات النقل والتجارة فى أوروبا. ومن وجهة النظر الاقتصادية البعثة كان حضور الحجاج الأوروبيين إلى الأراضى المقدسة فى الشرق على متن السفن له أهمية قصوى فى القرن الثانى عشر الميلادى، ويرجع ذلك لأن هذه السفن التى تحضر إلى الشرق والتى كانت تحمل على متنها هؤلاء الحجاج الأوروبيين كانت تحمل حمولات بسيطة، بينما فى رحلة العودة من الشرق إلى أوروبا كانت هذه السفن تحمل على متنها الكثير من الواردات من السلع والبضائع الأمر الذى كان يتطلب مساحة واسعة على متن هذه السفن. وهكذا لعب الحجاج دوراً فى احداث التوازن لعملية السفر إلى الشرق وجعل السفر البحري بواسطة السفن أمراً مربحاً وعملياً من الناحية التجارية. وأصبح هناك المئات بل الآلاف من المسافرين على متن السفن البحرية إلى الأراضى المقدسة بدلاً من العدد القليل من التجار الذين كانوا يحملون المعادن الثمينة من أوروبا إلى الشرق. فقد كان استخدام مجموعة القوانين البحرية القطلونية الشهيرة لكلمة الحاج "Pelegrí" الأسبانية لكي تكون مرادفاً لكلمة المسافر Passanger بغاية انعكاس لتلك الثورة التجارية التي شهدتها أوروبا في تلك الفترة.

وكان ثمة تمييز حاد بين الحاج وبين التاجر ، إذ أن الحاج لم يكن يحضر معه من الخارج سوى متعلقاته الشخصية فقط. ومن الطبيعي أن كان يتحول التاجر إلى حاج يزور الأماكن المقدسة، ثم بعد ذلك يمارس نشاطه التجارى، بيد أن مثل هذه التجارة مع الشرق أصبحت أكثر تخصصية ، بالنسبة للتجار الذين كانوا يقومون بالرحلات التجارية البحرية مراراً وتكراراً ، وكان عدداً قليلاً من هؤلاء التجار يقومون بأعمال الحج مرة ثانية.

وعلى الرغم من أن «موسم التجارة والحج» الرئيسي كان يبدأ بحلول عيد الفصح Easter فإن قادة السفن وملحبيها والذين كانوا فى نفس الوقت أصحابها كانوا يبدأون فى تأجير

سفنهم فى شهر ديسمبر. وكان التعاقد مع البحارة عادة يمثل مشكلة . إذ كانت السفن الكبيرة تتطلب فى تسبيحها عدداً من الملحقين يصل عددهم إلى المائة أو أكثر وتكررت باستمرار عملية حضور أرباب المهن من الأوربيين وعدد من المراكب الصغيرة إلى منطقة الشرق العربى. وفي العادة كان العقد البحري يغطى حوالي رحلة واحدة فقط، وكانت كل رحلة بحرية تتطلب مجهوداً جديداً من أجل التموين والتتجدد والاعداد. ولم تكن التجارة بالأمر اليسير أو الهين. فقد كانت أجور ملachi السفن مرتفعة، بيد أن حياة بحار السفينة كانت محفوفة بالأخطار والمصاعب. فمنذ اللحظة الأولى من التوقيع على عقد ايجار السفينة للرحلة البحرية التى كانت فى العادة تستغرق ما يقرب من ستة أشهر - يصبح الملاح عيداً وفقاً Servi discipline ireon هو لصاحب السفينة التى يعمل ضمن طاقمها. وكانت قاعدة ونظام ايرون discipline ireon هو القانون الذى تخضع له الرحلة البحرية، وقد حددت هذه القوانين العقوبات التى كانت تشمل قطع الأذن والقتل والتوبیخ بقصوة والجلد بالسياط. وكان الطعام المقدم للبحارة نادراً وقليلاً وفى العادة كان ردائياً. وكان البحارة يستحضرون دائماً أخطار البحر التى كانت تمثل فى تعرضهم للقتل على يد القراءنة المسلمين أو المسيحيين، أو وقوعهم فى الأسر وبيعهم فى أسواق النخاسة.

كان حب المغامرة من بين أسباب التحاق ملachi السفينة بالرحلات البحرية التجارية، بالإضافة إلى أن القانون كان يسمح لهؤلاء البحارة بزاولة النشاط التجارى فى أثناء هذه الرحلات. وفي العادة كان البحارة يحضرون معهم كمية فى المتاجر معفاة من أجر النقل، وهكذا ستحت لهم فرصة جيدة لممارسة التجارة واحضار رأسمال كاف معهم لكي يصبحوا تجاراً. وكانت غالبية هؤلاء البحارة الذين يعملون ضمن طاقم السفن البحرية المتوجهة صوب منطقة الشرق العربى من الشباب الذين يتحملون بجد مشاق السفر والذين لديهم قوة التحمل. وكانوا من المتزوجين الذين يتركون زوجاتهم وأطفالهم فى الوطن الأم على أمل أن يصبحوا من الأغنياء أو على الأقل كان يحدوهم الأمل فى ارتقاء مناصب جديدة وعليها فى سلسلة الوظائف البحرية . وفي تلك الأثناء كانت مهنة الملاح ويحار السفينة من المهن الجديرة بالتقدير والاحترام؛ وفي القرون المتأخرة أهدرت قيمة هذه المهنة، وذلك عندما كان يتم تقييد العبيد فى سلاسل فى مجاديف السفينة للعمل قسراً .

وما يذكر أن الموانئ الأوروبية الرئيسة التى كانت تقلع منها السفن إلى منطقة الشرق العربى كانت تشمل موانى مرسيليا ، وجنوا، وبيزا والبنديقية. وثمة موانى أخرى مثل برشلونة

وبعض مدن في إقليم بروفانس وفي جنوب إيطاليا ، وكانت السفن تقلع من هذه الموانئ إلى الشرق، على الرغم من أن القوى البحرية الكبيرة قد بذلك الجهد الكبير في سبيل احتكار عملية نقل التجار المريحة. وفي أثناء القرن الثاني عشر الميلادي ، قامت جنوا بشكل فعلى يمنع عملية نقل الحجاج الأوروبيين من مدن إقليم لانجودوك . وخلال فترة قصيرة من الزمن لجحت بيزا في أن تباغت جنوا وتهدها وتضطليع بدور قيادي في عملية نقل الحجاج ، بيد أنه في القرن الثالث عشر الميلادي كانت مونبيليه، ومرسيليا وسان جيل (ومن منتصف القرن الثاني عشر الميلادي تم تشييد ميناً جديداً هو ميناً أوجه مورتييه الملكي ^{Rayal Port of} Aigues Mortes) تتنافس مع القوى التجارية الإيطالية في مجال النشاط التجاري البحري. وكان كوميون مرسيليا يطلب بشكل رسمي من السفن الأجنبية التي تقلع من مينائه أن تتعهد بمحظ تأدية قسم مقدس لا تنتقل أي حاج أوربي من أي ميناً يقع على امتداد ساحل البحر المتوسط وأيضاً موناكو ! واتبعت مدن أخرى مثل هذه السياسة، بسبب النداءات العديدة التي تحدثت على اتباع هذه السياسة بغض النظر عن النتائج التي قد تتضمن عنها. وكان من الأفضل للأعمال التجارية للمسافر أن يتجنب حمى وصراع المنافسة التجارية. وذهبت المدن الأوروبية إلى أبعد من ذلك ، فقد كانت تحدد عدد سفن الحجاج المزودة بعدد من المقاتلين الصليبيين. وعلى سبيل المثال، كان فرسان الداوية والاستمارية يخصصون رحلة بحرية واحدة فقط سنويًا لنقل الحجاج الأوروبيين من مرسيليا إلى الأرض المقدسة.

فقد كانت الطرق التي تقع جنوب كل من إنجلترا وفرنسا ، وألمانيا ، والتي كانت تغطيها الشلوج الرائعة في أواخر الربيع وتغطيتها الأمطار في بداية هذا الفصل أيضاً تختلاً بالحجاج الذين كانوا يقصدون الأرض المقدسة. واعتاد الحجاج الأوروبيون من مناطق اسكندنافيا الذهاب إلى مدينة بيت المقدس، وكان بعض الحجاج الاسكندنافيون وخاصة حجاج-Yor salafari يشقون الطريق البري إلى روما، ثم بعد ذلك يقلون سفن الحجاج الرئيسية في أحد الموانئ الإيطالية، وكان الآخرون يسلكون الطريق البري عبر سهول روسيا الواسعة إلى مدينة Kiev ، ثم يسافرون إلى الأرض المقدسة عبر البحر الأسود والقدسية.

وما يذكر أن أفراد طاقم ملاحي السفينة كانوا من عناصر اجتماعية مختلفة متميزة . وعند المقارنة يكون حجاج شوسر Chauceris Pilgrims مجموعة مختارة إذ كان الحاج من النساء الذي يقصد الأرض المقدسة في بيت المقدس ترافقه حاشية مكونة من اثنين من الشباب

الرافقين وقطيع من الخيول، كما كانت الحاشية أيضاً تضم عدداً من الرهبان والقساؤسة أو عدداً من البرجوازية الأثرياء، وكان كل هؤلاء يذهبون إلى الأرضى المقدسة من أجل التطهر. وكان بعض الحجاج يحملون معهم النقود، فيحافظوا عليها بحرص شديد ، وكان الأغنياء منهم يستخدمون نظام الإيداع والائتمان وتحويل المال باللغة التقديمة إلى أحد البنوك فى إيطاليا، أو إيداع هذه النقود لدى أحد الصيارة المحليين من الداوية والاستبارية، ثم تعاد إليهم أموالهم مرة أخرى عند وصولهم إلى الأماكن التى يقصدونها، بيد أن بعض الحجاج كانوا يرفضون عمداً التزود بالمال والنقود خلال رحلة الحج، وكانوا يلجأون إلى التسول من أهالى المناطق والبلاد التى يرون عليها وذلك عملاً واقتفاءً بوصايا السيد المسيح الحواريه، فقد كانت الحقيبة الصغيرة Script والعكاز Staff وهى الأشياء التى كان يحملها الحاج معه فى أثناء سيره إلى الأرضى المقدسة، من أبرز السمات التى تيز الحاج المسيحي الذى يقصد مدينة بيت المقدس، إذ كانت عادة الحاج قبل الرحيل إلى الأرضى المقدسة أن يحصل من الأسقف المحلى للضياعة أو فى القرية أو من مقر الأبروشية على تلك الحقيبة الصغيرة والعكاز. وكان من أبرز السمات البارزة التى تيز الحجاج الأوروبيين الذين كانوا يقصدون الأماكن المقدسة فى سانتياجو من كومبو ستلا أو فى روما ارتدائهم عباءات أو قبعات مطرزة عليها أشكال وصور ورسومات صغيرة مصنوعة من الرصاص . وكان كل الحاج يخيطون صلباناً حمراً على قبعاتهم وعلى ردائهم الكهنوتى وملابسهم من الأمام والخلف. وكان بعض الحجاج يارسون حياة التقشف والتنسك . فيرتدون قمصاناً وبرية ويضعون سلاسل حديدية حول أجسامهم (وكان هذه السلال تصنع عادة من بقايا السيف التى تنكسر وقت حادث القتل والمعركة) ، كما أن اطلاق الحاج للحيته وعدم قص شعر رأسه وامعانه فى قذارة بدنـه كل هذا كان اعلاناً لتبوية هذا الحاج عن أوزاره وذنوبه.

وفي مينة القلاع كان الحاج يجد نفسه وسط مجموعة من الناس من بنى جلدته ، وإذا كان سعيد الحظ فإن إقامته ستكون مع بنى جلدته وذلك فى نزل محلى للمسافرين ، وهى النزل وأماكن الضيافة التى كان يقيمها الأمراء المسيحيون الأشخاص ، والأتقياء (ولم تكن هذه النزل كثيرة العدد) ، أو كان الحاج فى العادة يقيمون بشكل كبير وأساسى فى حانة محلية. واشتهرت الحانات التى كانت توجد فى الميناـء بسوء السمعة وقلما يمكن تبيـيزها عن بيوـت الدعاـرة والفسـقـ. وكانت أماكن النوم مشتركة، فقد كانت العادة المألوفـة للنومـ هي أن ينام اثنان

أو ثلاثة على سرير واحد ، الأمر الذي أدى إلى انحدار الأخلاقيات ونشر الرذيلة. وكان يحظر على النساء القيام ببرحلة الحج دون مرافق محرم، بيد أن مثل هذا المظاهر تم التغلب عليه وتخبيه حتى المرافق من الرجال لهذه السيدات اللاتي يرددن الحج لم يستطع ضمان الحماية المناسبة للنساء اللاتي يقمن ببرحلة الحج المسيحي. وفي ذلك يقول المثل الألماني : «يذهب حاجاً ويعود فاجراً» . "deparing as Pilgrim, Returning as whore"

وكان صوت الغناء عند سفر الحجاج إلى الشرق يتعالى أصداوه وسط ميدان عام وتنشر موجات الصخب والضجيج. ففي مدينة البندقية كان يتم توجيه التحية للحجاج عن طريق رفع أعلام السفن التي ستقل الحجاج إلى الأرض المقدسة وسط ميدان سان مارك المطل على مدخل القناة العظيمة. وتحت سارية كل علم من الأعلام والرايات المرفوعة وسط الميدان كان يجلس كاتب السفينة وقائدها وذلك لاغوا وتحت المسافرين المتوقع رحيلهم إلى الشرق . إذ كان كل من الكاتب وربان السفينة يعلنون عن المزايا الشخصية الفذة والبارزة لسفينتهم. وكانت بعض هذه المزايا ذات أهمية كبيرة ومنها أسماء هذه السفن مثل «الروح القدس» أو «جنات عدن» وما شابه ذلك. وفي إطار ذكر المزايا ، كان يعلن عن مدى مهارة قائد السفينة وطاقم البحارة، ومدى جودة الطعام الذي تقدمه السفينة للركاب، وأخيراً كانت مثل هذه الإعلانات الداعائية تساهم بقدر كبير في اقناع الحجاج لاختيار السفينة التي تنقلهم إلى الأرض المقدسة. وبعد الغناء كانت شروط عقد السفر تقتضي قيام قائد السفينة بدعاوة الركاب الجدد لتناول طعام العشاء على متن السفينة، فيقدم لهم وجبة هائلة من الطعام لم يسبق أن تناولوا مثلها من قبل ولم يتذوقوا مثلها حتى يرجعوا إلى أوطنهم . وفي النهاية كان الحاج يقتتنع بمستوى الخدمة التي تقدم له على متن هذه السفينة- مثل أي سائح في العصر الحالي- إذ أن هذا الحاج قد قررت بأفضل صفة مريحة وتناول وجبة طعام شهبة ذات نكهة لذيذة بالإضافة إلى شراب حلو الذي يلائم ذوق وتدوين أبناء الشمال الفرنسي ، الأمر الذي يؤودي إلى شعور هذا الحاج بالخلفة والنشاط والانتعاش وتوقع المباحث الروحية والدينوية التي تنتظره في منطقة الشرق الساحر.

وما يذكر أن الغش والاحتيال قد عرف طريقه إلى الأعمال التجارية؛ وكانت سلطات المدينة تتدخل لعلاج هذه المشكلة، ليس من أجل الحفاظ على الحاج فقط ، بل أيضاً من أجل المحافظة على سمعة المدينة، وضمان تردد القوافل التجارية إليها مرتين سنويًا . وكانت نسخة اتفاقية السفر البرمة بين صاحب السفينة وبين الحاج يتم إيداعها لدى سلطات المدينة، إذ كان يمكن

استخدام نسخة اتفاقية هذه في أثناء التقاضي أمام المحكمة. وكان بدون في عقود وشروط النقل والسفر البحري تكاليف نقل الحجاج، والالتزامات الملقاة على عاتق قائد السفينة، وحجم ومساحة المكان المخصص للحجاج على متن وظهر السفينة ، ونوع الطعام الذي يتم إعداده في مطبخ السفينة والطعام المسروج للحجاج حمله معه في أثناء رحلة السفر، والمدة التي يستغرقها الحاج في الأراضي المقدسة، وأحياناً (ولاسيما في الفترة المتأخرة) كان قائد السفينة يتلزم بأن يعتنى ويهتم بأماكن الإقامة التي ينزل بها الحجاج وتنظيم الجولة والزيارات التي يقوم بها الحاج في الأراضي المقدسة. وأخيراً وليس آخرًا كان الحاج يتعاقد على تفاصيل خدمة جنازته في حالة وفاته في أثناء رحلة السفر إلى الأراضي المقدسة.

وكان من المأثور أن يرافق السفن التجارية عدد من سفن الحراسة، بيد أنه أحياناً كانت المراكب الحربية السريعة التي تحرك بالمجاديف هي التي تقوم بحراسة سفن التجار، وكانت بعض مراكب النقل تحمل على متنها الخيول والعلف، وكانت تشبه مراكب إزال الجند والعتاد في الوقت الحالى. إذ كان جسم السفينة في القاع أى أسفل مؤخرة السفينة يتحول إلى استبل للخيول، وفي مؤخرة السفينة كان يوجد نوع من المحسن المتحرك لتسهيل عملية صعود ونزول هذه الماشي. وما يذكر أن مختلف الشرائع والقوانين البحرية في تلك الفترة قد ألزمت مشرفي الكومنيون الموجودين على متن السفينة وكذلك القنصل ذلك الموظف الرسمي القيام بمسؤولية حماية الركاب ، ووسط سيطرتهم على الركاب ، والتجار وطاقم ملاحي السفينة، وكان يطلب من الحجاج الأجانب تأدية قسم بالإخلاص والطاعة لسلطات المدينة التي تقلع منها السفينة طوال فترة استمرار الرحلة. لقد كان النشاط البحري في البحر المتوسط وريثاً للتقاليد الرومانية، بيد أن البحرية في البحر المتوسط قد تأثرت خلال فترة السيادة البيزنطية والإسلامية ، والمثير باللحظة أن السفن صمم شكلها من أجل تحقيق أغراض البيزنطيين وال المسلمين، وكان هناك نوع بسيط من مظاهر الترف على متن السفينة التي تقلع الحجاج، وكان الحاج يمارس هذه الرفاهية لأنه كان عاقد العزم على التويبة وطلب الصفح. وكان أكبر السفن يبلغ طولها حوالي ١١٠ قدم ، بيد أن معظم سفن هذه الفترة كان حجمها يصل إلى نصف هذا الحجم . وكان عرض أكبر السفن يبلغ ٤١ قدم عند النقطة التي تثل أقصى اتساع، وعمقها ٣٩ قدم وكان هذا النوع من السفن يستطيع حمل أكثر من ألف من الرجال الركاب بالإضافة إلى طاقم البحارة الذي كان يصل عدده ما بين ١٥٠ - ١٠٠ بحاراً ، وكانت حمولة السفينة تقدر بحوالي ٦٠٠ - ٥٠٠ طن .

وما يذكر أن معظم سفن نقل الحجاج وسفن النقل الكبيرة كانت تتحرك بواسطة الأشرعة التي تدفعها الرياح، كما كانت السفن الحربية أو سفن التجار الصغيرة تستخدم أيضاً المجاديف، إذ كان يتم تركيب صف من المقاعد على كل جانب من جانبي السفينة يجلس عليه الرجال الذين يقومون بعملية التجديف وكان يوجد مقعد مثبت يكفي لاثنين أو ثلاثة من المجدفين ليسمح بحرية الحركة، وكان كل مجذف يدفع ويجر مجدافاً مختلفاً في الطول. وأحياناً كان يستخدم عدد اثنين إلى خمسة مجدفين لتسخير ودفع مجداف ثقيل يصل طوله إلى ٤٠ قدم.

لقد كانت الرياح هي القوة الواقعة الرئيسية لتسخير السفن، إذ كان يثبت صاري كبير وسط السفينة يتقطيع مع دعامة خشبية أفقية بالقرب من قمة الصاري، وهو ذلك الهوائي الذي يحمل شراع السفينة. وكان شراع السفينة عادة على شكل مثلث ومصنوع من القماش القطني أو من قماش القنب المتن. وفي القرن الثاني عشر الميلادي، كانت السفن تستخدم نظام الصاري المنفرد الوحيد، بيد أنه في فترة متأخرة تطور هذا النظام واستخدم اثنين أو ثلاثة من ضباط القيادة في السفينة، وكانت حركة السفينة يديرها دفتا التوجيه، وأثنان من المجاديف الكبيرة على جانبي السفينة والتي كان يدفعها ويديرها عدد كبير من الرجال، وفي فترة متأخرة انتقلت دفنا السفينة إلى المؤخرة، وهي الدفتان اللتان ساهمنا بشكل كبير في تحسين السيطرة والتحكم في اتجاه السفينة.

وعندما تقتلا السفينة بالركاب كانت تبدأ الرحلة بعد تأدية الصلوات والتراطيل المقدسة، وفي بعض الأحيان كانت تبدأ بعد موكب مقدس. وكانت أغنية الحجاج مثل أغنية الألمان في قصص وروايات الأديب الألماني الشهير جوته إذ كانت كلماتها تقول «نحن مسافرون معًا إلى In Gottes Namen Fahren wir» وكانت هذه الأغانيات ترفع معنويات الحجاج المسافرين إلى الأرض المقدسة، هؤلاء الحجاج الذين لم يسبق لهم من قبل أن رأوا امتداد مثل هذا البحر الهائل، وكان عدد كبير من الحجاج ينذرون نذراً صامتاً ويؤدون صلوات خاصة للقديس بطرس أو للقديس نيكولاوس حماة ملاحى البحر، وهم القديسين الذين كانت رفاتهم تحفظ في مدينة باري.

ولايستطيع القارئ، في العصر الحديث تصور مدى الصعوبات والأخطار التي كانت تواجه الرحلات البحريّة في عرض البحر المتوسط في العصور الوسطى. وما يذكر أن مساحة الجزء

المخصص للحجاج في أسفل ظهر السفينة كان عبارة عن ٦ أقدام طولاً وأكثر من قدمين عرضاً دون وجود مكان للتهوية ، كما كان يخصص للحجاج مكان على سطح السفينة للتجلول والسير. وكان يتم المحافظة على هذا المكان المخصص للحجاج ضد اعتداء المجرمين (وفي العادة كان هذا المكان يميز ويحدد بخطوط طباشيرية) إذ كان الحاج يودع فيه صندوقه ومتعلقاته الشخصية الأخرى. ومن الناحية النظرية، كان الحاج يقضى طوال اليوم فوق ظهر السفينة وعندما يحين الليل كان جميع ركاب السفينة يخلدون إلى النوم لا يتحرك أحد منهم مهما كان الأمر. وكان يمتد صف طويل من فرش وحشيات النوم على جانبي السفينة من المقدمة إلى المؤخرة ، فقد كان هذا الصف من حشيات النوم يمتد من المعقل المشيد فوق سطح السفينة عند المقدمة حتى المعقل الموجود في مؤخرة السفينة ، وهو المكان الذي كان يفضله التجار في نومهم . وفي الغالب ، كانت الفرش والخشبات المخصصة لنوم الحجاج توضع كتواكب عند وفاة الحاج) ، وكانت تنظم وتصطف في خطوط متوازية ، وكانت أقدام الحاج النائم تلامس رأس الحاج النائم التالي له. ومن المفترض وجود ممر ضيق بين هذه الصفوف لكي توفر حرية الحركة بين صفوف هذه الفرش وأسرة النوم. بيد أن أمتعة الحاج كانت تسد هذه المرات الصغيرة وتتعوق الحركة بينها .

وكانت الفثاران توجد أينما وجدت السفن، ولذا كان قنصل البحر القطلوني يلزم قائداً أية سفينة أن يحتفظ بعدد من الققطط فوق ظهر السفينة حتى يتتجنب دفع التعويضات عن الخسائر والتلف الذي يلحق بالبضائع بسبب الفثاران بيد أن الفثاران لم تكن مصدراً للازعاج والضيق . وكان بعض الرحالات من الحجاج المتقشفين الناسكين ينذرروا للرب ألا يقصوا أو يصرروا شعورهم أو يغسلوا رؤوسهم طوال رحلة الحج. ومن المحتمل أن حالتهم من حيث النظافة كان شيئاً مقرزاً ومروعـاً ، حيث كان هؤلاء الحجاج يصلون إلى الأراضي المقدسة بعد رحلة مضنية تستغرق شهراً أو شهرين، ولاشك أن رحلة البحر كانت تزيد من تفاقم هذه الظروف الخاصة بنظافة أجسام وأبدان الحجاج. ولم تقتصر قذارة الأبدان على النساء. فقد كانت مجموعة التشریعات والقوانين البحرية القطلونية تفرض على بحارى وملاحى السفن ارتداء ثياباً نظيفاً طوال الرحلة البحرية ، ماعدا المدة والفترة التي ترتفق فيها السفينة في المينا. وإذا تجرأ أحد من ملاحى السفينة وارتدى ملابس غير نظيفة ، فإنه يجب على الغطس فى البحر عدة مرات أو كان يفقد راتبه .

وإذا انجل الصبح ووجد عدد من المجاج شاحبى الوجه يعانون من دوار البحر، فإنه فى هذه الحالة يتم استبقازهم على الأقل ويوفى لهم طعام السفينة الردىء . ولالقاء نظرة سريعة على مكونات وجبة طعام بحار السفينة فى أسطول منظم تنظيمًا جيداً (وهي القائمة التى أشار إليها مارينو سانودو فى بداية القرن الرابع عشر الميلادى من أجل استرداد الأرضى المقدسة) نجد مدى خشونة وقسوة المبة على متن السفن فى العصر الوسطى*، كان الطبق الرئيسى فى وجبة طعام بحار السفينة يشمل الخبز، والبسكويت ، الذى كان يتسلمه البحار يومياً بواقع واحد ونصف رطل . وكان البحار ينقع البسكويت فى عصير حلو (كانت القهوة تعد يومياً . ولم يعرف الشاي فى العصر الوسطى إذ أن اكتشافه يرجع إلى العصر الحديث)، وكذلك المشروب الأول فى الصباح وعند تناول الغذاء وكانت الوجبة تضم أيضاً أونس واحد (٥ . ٣١ جرام) من الجبن يومياً وحصة صغيرة من الفاكهة ، وفي الغالب كانت حصة الفاكهة تتكون من الموز أو من نباتات بقولية أخرى ، وكانت هذه النباتات أيضاً توزع فى صورة حচص يومياً . وكانت الوجبة أيضاً تشمل اللحوم - لحم الخنزير الملح- بواقع ثلاثة وربع رطل شهرياً وكان يتم طهي هذه الأطعمة مع الخضروات فى اليوم الثانى من أيام الأسبوع إذ كان يوم الأحد هو اليوم الذى يعد فيه أطباق اللحوم . وفي الأيام التالية كانت شوربة الخضار هي الطبق الرئيسى . وأحياناً كانت الأطعمة تتتنوع ما بين خضروات طازجة ، وفاكهـة ، وعديد من أنواع الخمور التى تتطلبها الرحلة البحرية التى تستغرق مدة تراوح ما بين ستة إلى ثمانية أسابيع . والحقيقة أن مثل هذه الظروف كانت تسـع للـحاج أن يهتم بنفسـه ، إذ كان يسمـح له أن يحضر معـه إلى السـفينة الخـضروـات، وـالفـاكـهـة ، وـالـخـمـر ، وـمعـظـمـ الأـشـيـاءـ المـهـمـةـ، وـالـدـجـاجـ الـحـىـ . وكانت بعض السـلالـ المـاـصـاصـ تـحتـوىـ عـلـىـ موـادـ تـموـينـيـةـ إذـ كانـ عـقـدـ النـقـلـ يـشـرـطـ عـلـىـ صـاحـبـ هـذـهـ المـوـادـ التـموـينـيـةـ اـسـتـخـدـامـ مـطـبـخـ السـفـينـةـ، وـفـىـ موـانـىـ الـاقـلاـعـ ظـهـرـتـ حـرـفـةـ جـديـدةـ، وـهـىـ حـرـفـةـ الشـحنـ، يـقـومـ بـهـاـ صـنـفـ مـنـ النـاسـ، يـزـوـدـونـ السـفـينـةـ وـالـرـكـابـ الـحجـاجـ بـالـمـؤـنـ وـفـقاـ لـبـنـدـ خـاصـةـ . وكانـ يـحـظرـ عـلـىـ أـقـرـبـ قـادـةـ هـذـهـ السـفـنـ وـرـبـانـتـهاـ مـارـسـةـ عـمـلـيـاتـ الشـحنـ وـتـزوـيدـ

* ذكر مارينو سانودو وصف تفصيلاً لقائمة طعام ملاحى السفينة فى أثناء الرحلة البحرية والتي كانت تم عن قسوة وخشنـة حـيـاةـ الـمـلاـحـ عـلـىـ ظـهـرـ السـفـينـةـ لمـعـرـفـةـ التـفـاصـيلـ انـظـرـ :

Sanudo, M., Description, p. 112 .

السفن والحجاج بالمؤن منعاً للفش والاحتكار . وعلى الرغم من كل هذه التسهيلات الجديدة ، فإنه من الواضح أن الرحلة البحرية للحجاج إلى الأرض المقدسة لم تكن سعيدة وممتعة وهكذا فإن أكثر من حاج كان يتوق إلى المجاز واتمام عملية التوبية الحقيقة، وربما كان بعض الحجاج يتعرضون للاستغلال والابتزاز، أو كانوا ينتظرون مثل هذا الاستغلال والابتزاز.

وكانت المجموعة الكبيرة غير المتوجهة من الحجاج تضم بين صفوفها عدداً ضئيلاً من المحتالين والداعزين وال fasidin أخلاقياً. وفي رحلة طويلة تستغرق ما يقرب من ستة أسابيع كان يمكن القضاء على الأرواح الشريرة العنيفة لهؤلاء الفاسدين من الحجاج واصلاح أخلاقهم. فلم تكن بلدية مرسيليا الوحيدة التي كانت تنشد القضاء على كل مظاهر الدعاارة والفساد الخلقي في هذه المدينة، بل على الأقل كانت هذه البلدية تحيل مهمة القضاء على الفساد الخلقي إلى المسؤولين عن أحياء المدينة. وكان من السهل على النساء الداعرات أن يظهرن في شكل رائع وجميل مؤثر إذا ارتدن ملابس فخمة غالية الثمن، الأمر الذي يجعل أي رجل طيب يظن أن هؤلاء النساء من السيدات الفضليات. وأصدرت بلدية مرسيليا تعليمات لقنصلتها المرجودين على متن سفن نقل الحجاج المتوجهة إلى الأرض المقدسة من أجل منع نقل الحجاج الفاسدين أخلاقياً ومنعهم بشكل خاص من الاقامة في المنازل التابعة للكومنيون أو في أحياء الكومنيون المارسيلى الموجودة في الأرض المقدسة في بلاد الشام وفلسطين . ولا نعرف إلى أي مدى كانت هذه التعليمات الصادرة من بلدية مرسيليا لقنصلتها تنفذ وتطاع . ففي منتصف القرن الثالث عشر الميلادى أرسل البابا خطاباً شديد اللهجة إلى رجال الدين الكاثوليك فى عكا بشأن انتقاد تأجير أملاك الكنيسة لهؤلاء الفاسدين أخلاقياً . بيد أن الاغراءات المادية التى قدمها هؤلاء من أجل تأجير هذه الأموال الكنسية كانت قوية، إذ كان هؤلاء الأشخاص الفاسدين أخلاقياً على استعداد لتقديم ودفع الإيجارات مقابل استخدام هذه الأموال والمنازل والأراضي التابعة للكنيسة الكاثوليكية في المملكة الصليبية في بيت المقدس . وفي القرن الثاني عشر الميلادى كانت السفن عادة تبحر على مقربة من الشاطئ، في رحلة قصيرة من جزيرة إلى جزيرة ، بيد أنه في القرن الثالث عشر الميلادى كانت السفن تغامر في رحلتها البحرية فتصل إلى أعلى البحر. وثمة بقية بسيطة للمعرفة الحقيقة للنشاط البحري في العصر القديم - نستقي بعضنا منها من الكتابات اليونانية والرومانية - إذ كانت السفن تطفو فوق سطح مياه أحدى برك الفولكلور الشعبي تلك التي كانت بثابة مادة ينسج البحارة منها

قصصاً وروايات كثيرة ملقة كان الغرض منها الماح الرعب ونشره وسط سكان المناطق الداخلية البعيدة عن ساحل البحر. وما يذكر أن حكايات حيوانات البحر الأسطورية المتنوعة والمخيفة هي التي خلقت أغنية رفقاء اللعب الأطهار من الكائنات الأسطورية اليونانية Siems التي كانت تسرع أعين الملاحين وتوردهم مورداً للهلاك. ووفقاً للأسطورة تحولت الحيتان الجميلة غير المؤذية إلى كائنات خرافية علقة giants وشريه تستطيع أن تجمد أي إنسان يجرؤ أن ينظر إلى أعينهم . وكيف لا تحكى لنا القصص والحكايات البحريّة الأسطوريّة عن ذلك الحوت الذي ضل طريقه بعض الوقت ثم بعد ذلك عرف طريقه إلى البحر المتوسط .

والواقع أن رؤية الحاج والركاب لسفينة أخرى تixer عباب البحر كان أمراً يبعث على الخوف ولا يجلب البهجة والسرور، فلم يستطع أي شخص توقيع ماذا يحدث أيضاً حتى يلوح في الأفق علم هذه السفينة ويدركه الحاج، وذلك لانتشار أعمال القرصنة البحريّة في تلك الفترة والتي كانت تمارس كمهنة وحافة ولم يتم القضاء عليها. وعندما استعر أوار الحرب بين الكوميونات الإيطالية في مدينة عكا في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي وخررت هذه المدينة وتطورت العداءات بسرعة بين أبناء هذه الكوميونات الإيطالية (البنادقة والجنوية والبيازنة) وكان يصاحبها رفع أعلام السفن الصديقة وتنكيس أعلام سفن الأعداء، لم تكن هناك حاججاً. وانتشرت أعمال القرصنة في أعلى البحار، وفي الموانئ المسيحية وفي مينا عكا التي كانت عاصمة للمملكة الصليبية في مرحلتها الثانية . لقد أصبح خطر القرصنة الذي يهدد السفن عظيماً يمثل الأخطار والأهوال الطبيعية كالعواصف وغيرها التي كانت تهدد أيضاً الرحلات البحريّة.

وكانت السواحل الرملية للأرض المقدسة تبرز للعيان بعد انقضاء ستة أو سبعة أسابيع وهي المدة التي تستغرقها السفينة في رحلتها، وعندئذ كانت الفرحة الكبيرة تغمر الحاج. وكان بيان السفينة يحرك سفينته على امتداد القمة الصخرية التي كانت في خط مواز للساحل غرب عكا. وعندما تدخل السفينة الخليج كان قائدتها يحركها ببطء إلى الغرب ويتحرك في اتجاهاته صوب الشمال تاركاً وراءه جبل الكرمل، ويتقدم إلى المينا مروراً بكنيسة القديس أندره. وعندئذ كان الحاج يؤدون صلاة الشكر للرب لسلامة الوصول وكانت أصوات تراتيل المصلين تختلط بأصوات أجراس كنائس المدينة التي كانت تقرع لكي تعلن عن وصول سفينة الحاج إلى مينا عكا.

وفي أثناء موسم النقل البحري الكبير، كانت السفن تلقى مراسيها وترسو خارج ميناء عكا الذي كان صغيراً نسبياً. بيد أن إجراءات التفريغ والرسوم الجمركية كانت تتم في الميناء. وكانت السفينة تمر بين اثنين من الأبراج المشيدة على حافة الحاجز المائية التي تحمى الميناء، إذ كان كل برج محاطاً بسور يحاذى التحصينيات البرية. وكانت هناك سلسلة حديدية مقندة بين هذه الأبراج ترفع في أثناء النهار لدخول السفن، وتقندة في الليل لغلق الميناء، وكانت الحاجز المائية التي تحمى المينا ترتبط بالبناء المعقود المشيد على الأرض لكي تتصل بالمدينة وبأسوار هذه الحاجز.

وكانت عملية التفريغ وانزال البضائع تتم على أكتاف الحمالين الموجودين في المينا، أو عن طريق دفع الصناديق والبلاطات bales على ألواح خشبية من السفينة إلى محطة الرسو. وبعد الخروج من بوابات الجمارك ، كان الحاج الذي غمرته السعادة وأرهقته رحلة السفر يعد العدة ويرتب أموره من أجل الاقامة والسكن فكان يشق طريقه إلى الكنيسة الكبرى في عكا أو إلى كنيسة الضريح المقدس أو إلى كنيسة الكوميون التابع له والتي كانت توجد في الحي المخصص لأبناء الكوميون في مدينة عكا حيث كان يجد مكان النوم المناسب له .

ومن عكا كان الحاج باستطاعته أن يختار من الطرق المألوفة أحد طرقين للوصول إلى الأرضي المقدسة في مدينة القدس . وكان الطريق الأول يؤدى إلى بحيرة طبرية ويستمر هذا الطريق عبر السامرة (نابلس) وبهود (القدس) إلى بيت المقدس، وكان الطريق الثاني يبدأ من عكا جنوباً على امتداد الساحل ثم إلى طريق برى حتى يصل إلى مدينة القدس. وكان استخدام الطريق الثاني مأولاً بشكل أكثر ولاسيما عندما استرد المسلمون جزءاً كبيراً من المناطق الصليبية، وذلك لأن هذا الطريق الثاني كان يمر خلال مناطق السيادة الصليبية . وفي منتصف القرن الثالث الميلادي كانت الجغرافية المقدسة والاسطورية للأراضي المقدسة في فلسطين وببلاد الشام قد ترسخت وتحددت بدقة حتى جاءت البحوث العلمية في العصر الحديث التي استطاعت أن تلعب دوراً في تدمير دقة هذه الصورة الساحرة والفاتنة لهذه الأرضي المقدسة . وتقدم لنا عملية ارشاد الحجاج المسيحيين في القرن الثالث عشر الميلادي التبصر إلى عالم يشهد احتكاكاً ومزجاً بين حقائق التاريخ والجغرافيا وبين التفسير التوراتي للكتاب المقدس في العصور الوسطى، والفولكلور Folklore (الأدب الشعبي) ومعظم الأماكن المحددة وغير المختملة.

كان الحاج المسيحي يشق طريقه من مدينة عكا على امتداد الخليج الذي يحمل اسم هذه المدينة، وهو ذلك الهلال الأصغر الذي كان يتقاطع هنا وهناك مع بستان نخيل حيث نهر النعمان أو نهر بيلوس Belus يصب مياهه البطيئة في البحر المتوسط. وعبر الخليج مباشرة كانت تظهر المنحدرات الخضراء الرفيعة لجبل الكرمل ، والتي كانت تحيط بالحافة الجنوبيّة لخليج عكا . وكان جبل الكرمل هذا هو جبل النبي إيليا (Eliyah) وكهف المشهور والذي كان محل تقدير وتبجيل من جانب أتباع الديانات الثلاث (اليهود - المسيحيين - المسلمين) على السواء حتى يومنا هذا، وكان هذا المكان يلقى التقدير والتجليل من جانب الصليبيين. لقد كان هذا الكهف مكان ميلاد ونشأة مؤسسة الكرمل الدييرية، والتي تأسست على يد القديس برشلونde St. Berthold في منتصف القرن الثاني عشر الميلادي وهو القديس الذي حضر بصحبة النساء الأتقياء، الذين عاشوا في كهوف عديدة من كهوف هذا الجبل. وفي هذا المكان شيد هؤلاء النساء والرهبان كنيستهم وكرسوها للسيدة مريم العذراء، وهو ذلك المكان الذي شهد مولد السيدة مريم العذراء على جبل الكرمل.

وبالقرب من كنيسة العذراء في جبل الكرمل كان يوجد دير القديسة مارجريت البيزنطي، وكان يوجد فضاء بين الدير اللاتيني والدير البيزنطي (ولما يُكَنْ تحديد مكان هذا الفضاء، وعرف هذا الفضاء باسم مكان القديسة «أنا Anne» الذي يدعى أن الشرقيين لهذا المكان يرجع إلى أن مسامير الصلب قد صنعت وتم تشكيلها في هذا المكان.

ومن القريب تماماً أن القديس دينيس Saunt of Gaul حامي سان جيل St. Denis عرف طريقه إلى جبل الكرمل. وفي قرية صليبية صغيرة كانت تعرف باسم قرية الفرنجة Fran و التي ربما كانت تقع مكان بالميرا Palmarea (والتي أصبحت مقرًا للسكنى في chevilla منتصف القرن الثاني عشر الميلادي بمبادرة سيد يافا الصليبي، وكان الحاج المسيحي يعتقد بيقين أنه في المكان الذي شهد مولد القديس ، وكان يرى حفرة البئر التي صنعتها يد القديس. ومن المحتمل أن الموقع المثير لمكان ميلاد القديس سان دينيس يتوقف على التحديد المخطئ، لهذا الموقع وهذا المكان الذي أشار إليه ديونيسيوس ايروباجيتا Dionysius Heropagita الذي يدعى أنه من أصل سوري. وفي نفس الوقت ، فإن الاسم الحقيقي لهذه القرية والمستوطنة الصليبية هو «قرية الفرنجة Village of the Frank (وهو في الواقع «قرية المزارات والامتيازات» .

وعند الهبوط من على جبل الكرمل كان الحاج يسير على امتداد الشاطئ، مارا بجانبه الأئم القديم الذى يعرف باسم شقمنا Shiqmouna ولسبب غريب كانت هذه المنطقة معروفة لدى المسيحيين واليهود على السواء مثل «كفر نعوم Capernaum» وهو المكان الذى استطاع الباحثون فى العصر الحديث تحديده بشكل دقيق لا يرقى إليه الشك.

إلى الجنوب بمسافة صغيرة كان الحاج يتوقف عند قرية تيرا Tira الصغيرة والتى كانت كنيستها مخصصة للقديس يوحنا St. John وكانت هذه الكنيسة خاصة برجال الدين البيزنطيين، ومن ثم فإن القرية كلها كانت تحمل اسم القديس جون تاير (أو صور). وكان الحاج يواصل سيره جنوباً ماراً بسهل شارون الخصيب، والذى كان يحيط به الكثبان الرملية التى تظهر للعيان من سلسلة التلال الصغيرة التى يدعى منذ أزمنة طويلة أنها المحجر، وكان الحاج بعد هناك كنيسة صغيرة تعرف باسم كنيسة بيرون Peroun، وهي المكان الذى يدعى أن السيد المسيح كان قد اتخذها محطة للراحة والاستجمام. وهنا كان يوجد ممر ضيق فى هذه السلسلة من التلال يفتح على النتوء الجبلي الداخل فى البحر والمشيد عليه قلعة الحاج Chastel Pêlerin . وعرف مكان هذه القلعة فى العصر القديم باسم «عشليت Athlit» أو قلعة ابن الرب». وكانت هذه القلعة تخضع لسيادة فرسان الداوية. ونظراً لأن مثل هذا الحصن قد شيد فى عام ١٢١٨ م فإنه من المتوقع ومن المحتمل أن هذا الحصن كان مرتبطاً بظروف الأماكن المقدسة. وعلى الرغم من ذلك فإنه بعد أقل من عقد من الزمان، أصبح هذا الحصن يشير إلى مكان استقرار وراحة القديس يوفيميا Euphemia . وما زالت حادثة استشهاد عذراء خلقدونية على يد الامبراطور الرومانى الشهير دقلديانوس Diocletian فى هذا المكان مسألة تحير وترتيل المعتقد الشعبي.

وكان الطريق الرئيسى للحجاج يمتد على خط مستقيم جهة الجنوب . وهنا كان يوجد حصن صغير يطل على خليج هادى، وهو قلعة دور Dor ذات الشهرة الكلاسيكية القديمة والتى تم تشييدها فى هذا المكان فى الفترة الماضية . وأطلق الصليبيون على هذا الحصن اسم قلعة ميرل Merle وتعنى كلمة ميرل الطائر الأسود ذلك المخلوق الذى كان يوجد بكثرة على جبل الكرمل وبصورة أكثر من السهل . ويعتقد أن مكان هذه القلعة هو مكان مولد القديسأندرو-An-drew وكان الكهف المجاور له يشير إلى ذلك المكان الذى اختبأت فيه السيدة مريم العذراء وابنها الطفل السيد المسيح.

وكانت التلال الرملية والهضاب الصغيرة الممتدة على الشاطئ، تتحول إلى طريق للسير يمتد جهة الجنوب لمسافة أربعة أميال. وما يذكر أن السيدة مريم العذراء التي وجدت لنفسها وظفلاها ملجأ مؤقتاً في ميرل Merle قد استقرت أيضاً في هذا المكان، ووجود كنيسة هناك وهي نوتردام أو سيدتنا العذراء Notre Dame of the Marches، تحيي ذكرى هذه الحادثة الأسطورية.

وبعد ذلك يستطيع الحاج مشاهدة قلاع وتحصينات قيسارية الفخمة التي شيدت حديثاً على يد الملك الفرنسي لويس التاسع في عام ١٢٥١م. وكان حجم القلاع والتحصينات المحيطة بمدينة قيسارية تعادل عشر حجم أعمدة عاصمة هيرود الشهيرة، حيث كانت تيجان الأعمدة والألواح الرخامية تكسو السهل. وخارج مدينة قيسارية كانت توجد كنيسة صغيرة تضم رفاة القائد الرومان الشهير كورنيليوس Cornelius، وهو القائد والنبيل الروماني الذي تم تعبيده على يد القديس بطرس في مدينة قيسارية.

وكان ميدان السباق (الهيبيدروم hippodrome) في عاصمة هيرود القدية (قيسارية) وكذلك المسلة الكبيرة الضخمة والتي كانت تشير إلى سباق الكثير من الأجناس البشرية في هذا الموضع مكان جذب للحجاج المسيحيين في العصور الوسطى كما هو الحال بالنسبة للسياح في العصر الحديث. وتكون الدلالة المقدسة لهذا الأثر الباقى (الهيبيدروم وأعمدته والمسلة الكبيرة) في أن مكان هذا الأثر أصبح بعد فترة وجيزة بثابة «ميدان المسيح» وأصبح العمودان الصغيران ذات الشكل المخروطى بثابة «شمع المسيح». وكان الحاج يشاهدون أيضاً قبر بنات الحوارى فيليب، الذى قام بعميد الخصى. والحقيقة أن بنات الحوارى فيليب أردن أن يحتفلن بالقوى الاعجازية النبوية لأبيهن فذهبن إلى بلاد الشام، بيد أن هؤلاء البنات فى أثناء رجوعهن وصلن إلى قيسارية وفي قيسارية عاجلتهن المنية وتم دفنهن هناك.

إلى الجنوب كان الحاج المسيحي يصادف طريقاً بالقرب من نهر التمساح Corcodile، وكانت هناك كنيسة صغيرة ذات شهرة بسيطة خصصت للقديسة ماري وكانت هذه الكنائس تعتبر مزاراً للحجاج في مناطق قيسارية. وثمة قرية أخرى كانت تحمل اسمًا محيراً وهو اسم «حزن وألم المفقود Peine Perdue» وكانت تعرف أيضاً باسم «برج القديس لازاريوس Tower of Saint lazarus».

عندئذ كان هذا الطريق يؤدى إلى مدينة ريشبون Rishpon السامية القدية - وتعرف

باليونانية باسم مدينة أبوليا Apollia وفى العربية تعرف باسم مدينة أرسوف Arsuf ، وغالباً كان الصليبيون يطلقون عليها اسم أسور Assur . وما يذكر أن المناطق القريبة من أرسوف كانت تمثل خطورة على الحاج الذى يسير بمفرده * . وكان الطريق الذى يشق فى الصخر يعرف باسم طريق الصخر المنحوت *Roché Taillé* (وكان هذا الطريق فى العصر القديم بثابة نفق صرف مياه نهر الفالق الرا ked) وكان هذا الطريق ردىء السمعة من الناحية الأمنية إذ كان مكاناً لتمرير كمائن اللصوص وقطاع الطرق المحليين .

ومن هذا الطريق (طريق الصخر المنحوت) كان الحاج يصل إلى مدينة يافا ومينائها غير الآمن . وما يذكر أن مدينة يافا كانت ترتبط بالنبي جوناح Jonah . وكان يوجد بها أيضاً كنيسة للقديس بطرس بالقرب من القلعة، التى كانت تبسيط سيادتها على الميناء، وقد استمدت هذه المدينة شهرتها ومجدها من امتلاكها للسلم الخارجى للقديس جاك Perron Saint Jacques الذى انتقل بواسطته جسمان هذا القديس بشكل اعجائزى إلى إسبانيا وهو الجسمان الذى كان وراء نجاح وازدهار المزار الدينى فى سانتياجو من كوميoste فى إسبانيا .

وفي أقصى الجنوب من يافا كان الحاج يدخل أرضاً خالية من الذكريات المقدسة . فمدينة عسقلان بمسجدها الأخضر ، الذى تحول إلى كنيسة للصلبيين ، لم تقدم للحجاج الذخائر المقدسة ولا الغفران الكنسى والتسهيلات . وتتباهى مدينة غزة بذكريات سامسون Samson ، بيد أنها لم تحظ بجاذبية خاصة لدى الحجاج المسيحيين .

وفي العادة كان الحاج يتحرك من يافا أو قيسارية صوب رام الله على مفترق الطرق إلى مدينة بيت المقدس . وفي مدينة اللد القريبة من رام الله كانت هناك كنيسة بيزنطية فخمة ، وفي رام الله (حيث الكاتدرائية الكبيرة التى بناها الصليبيون على الطراز الرومانسك) كان الحجاج يشاهدون مكان دفن القديس جورج St. George وهو القديس الحامى للفروسية الأوروبية . وغالباً ما كان هذا القديس يتجلى لمساعدة الصليبيين فى حروبهم ضد أعدائهم من المسلمين أو هكذا كانوا يعتقدون . ولاعجب فإن مدينة اللد ، وأحياناً مدينة رام الله (التي بنيت فى القرن الثامن الميلادى) كانت تعرف باسم مدينة القديس جورج .

* كانت هذه المناطق تضم العديد من اللصوص وقطاع الطرق الذين ينهبون أمتعة المارة وقد أشار الرحالة الذين زاروا الأرض المقدسة فى القرنين الثاني عشر والثانى عشر الميلادى إلى ذلك (المترجم) .

ومن رام الله كان الحاج يصل إلى بيت النبي * Biet Nuba ، ومع أنها كانت تقع إلى الجنوب وكانت أكثر من رائعة ، فإن الطريق إليها كان محفوفاً بالمخاطر ، وهو طريق قلعة تورون أوفرسان Toron Chevalier (اللاترن) الذي يائل كهف الخادم The latronum Spelanca و كان الحاج يسلك طريقاً عبر تلال يهودا (بيت المقدس) لكي يصل بشكل نهائي إلى قمة جبل تطل على مدينة بيت المقدس من جهة الشمال، حيث منطقة قبر النبي صموئيل . وكان أتباع الديانات الثلاث يبجلون قبر النبي صموئيل ويعرفونه باسم «جبل السعادة» وذلك لأن مكان هذا القبر كان أول شيء يشاهد الحاج وهو على مشارف المدينة المقدسة.

لقد كانت مدينة القدس الهدف الرئيسي للحروب الصليبية وكانت هدفاً أساسياً لكل الحجاج المسيحيين الذين كانوا يقصدونها ، إذ كانت تشير لديهم أعمق المشاعر والعواطف . وكان الحاج يجشو على ركبته عند جبل السعادة شاكراً للرب أنعمه الذي أسبغها عليه فإن لي طلبه ووقفه في الحضور إلى هذه الأماكن المقدسة. كان الحاج اليهودي يشاهد مدينة القدس من منطقة النبي صموئيل (وهذا يتطابق مع الراماثيم التوراتية biblical Ramatham أو من على جبل الزيتون - وذلك إذا جاء من جهة الغرب أو الجنوب- وكان هذا الحاج اليهودي يمزق ملابسه ويردئ صلاة ويتلذّل التراتيل المقدسة من أجل خلاص وتحرير صهيون الأسير من يد الحكم المسيحيين وال المسلمين ومن أجل إعادة إقامة «مدينة داود» المتألقة والرائعة . وفي ظل السيادة الصليبية لم يسمح لليهود أو للمسلمين الاقامة في مدينة بيت المقدس. وبعد استرداد صلاح الدين لمدينة بيت المقدس استقر بها بعض اليهود، وبعد وقت قصير أصبح لليهود حى في هذه المدينة ، واستمر الحى اليهودي في مدينة القدس قائماً حتى تدميره في حرب ١٩٤٨ على يد الجيوش العربية**.

ولاشك أن الضريح المقدس في مدينة بيت المقدس كان يعتبر من أهم المزارات المقدسة في

* بيت النبي: هي نوب الواردة في التوراة، ولا يمكن تعريفها على وجه التأكيد ، أما بيت النبي فيقول عنها ياقوت إنها بيت نوبة، موقع بجوار الرملة في غربها (المترجم).

** ما زال الحى اليهودي في مدينة القدس موجوداً حتى الآن، وذلك لأنه منذ عام ١٩٦٧ قد أعيد بناؤه وأعيد استيطانه مرة ثانية بأوامر السلطات المختصة الإسرائيلية (المؤلف).

هذه المدينة. فقد أعيد بناء كنيسة الضریح المقدس في النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادي (وقد كرست هذه الكنيسة في عام ١١٤٩م) وكانت تحيط ببقاها معظم المزارات البيزنطية التي استردها الصليبيون بشكل جزئي في نهاية القرن الحادى عشر الميلادي. وكان المهجع الرخامي الصغير للضریح المقدس الذي يقع أسفل قبة الكنيسة الكبيرة يعتبر قدس الأقدس، إذ كانت كل طائفة مسيحية تحاول أن تحصل على مكان بالقرب من هذا المهجع لفترة محددة من الوقت لكي تؤدي وتقدم الخدمة الدينية المقدسة.

ويأتي مكان صلب السيد المسيح Calvary وكنيسة القديسة هيلانة الصغيرة وعدد من الكنائس الصغيرة والتي كان بعضها كنائس بيزنطية وأخرى أرمنية ، أو تابعة للكنيسة اليعقوبية ، أو كنائس قبطية ، من المزارات المسيحية المهمة التي كان يرتادها الحجاج المسيحيون وينهبون إليها لزيارتها ، احياءً لذكرى الساعات الأخيرة في حياة المسيح، التي شهدت صلبه وقيامته، وهنا أيضاً كان يوجد حجاج فضوليون يتوقون لرؤية مركز العالم ، إذ كان الاعتقاد الديني السائد في العصور الوسطى يعتمد على التفسير الغريب لبعض أحداث الكتاب المقدس. ووفقاً لذلك فقد كان رساموا الخرائط في العصور الوسطى يخططون خرائطهم التي تصور مدينة بيت المقدس كنقطة التقاء مركزية لأوروبا، وآسيا، وأفريقيا ، أي كانت تظهر في « الخريطة على أنها مركز الأرض والعالم».

وعندما كان الحاج المسيحي يغادر كنيسة الضریح المقدس، كان يمر على أقدم دير لاتيني ودار ضيافة في مدينة بيت المقدس - والذي يرجع تأسيسه إلى فترة ما قبل الغزوات الصليبية - وهو دير سان ماري للاتين، المجاور للمكان الجديد لفرسان وهيئة الاستبارية ، والذي استمر بيشابة مستشفى خلال فترة السيادة الإسلامية على المدينة المقدسة بعد عام ١١٨٧م. وما يذكر أن مسجد عمر الموجود في الشارع المتعد عبر الأسواق المزدحمة والمؤدى إلى حي الداوية الكبير والفحش قد تحول إلى كنيسة لاتينية على يد الصليبيين . وعبر الأرض المنبسطة كان الحاج باستطاعته زيارة مراكز قيادة الداوية- المسجد الأقصى أو معبد سليمان - كما يسميه المسيحيون (ويسميه اليهود أكاديمية سليمان) .

ومن الأماكن المسيحية المقدسة أيضاً التي كان يزورها الحجاج «القبر المزعوم للملك داود وكنيسة» «هبوط الروح» وكنيسة «العشاء الرباني» على جبل صهيون . وكانت أعمال التقوى والتدين للحجاج تذهب إلى أبعد من ذلك لتحديد وتعيين مكان صياغ الديك الذي كان

شاهدًا على تردد القديس بطرس، إذ كانت كنيسة القديس بطرس في جاليقى Galicie تشرف على منحدرات التل وتزييه .

وبعد الانتهاء من زيارة هذا التل كان الحاج يقوم بزيارة «حقل الدم» Acheldem كما كان معروفاً. وحقل الدم هذا هو المكان الذي شهد اظهار المسيح، وقد استخدم هذا المكان الآن كمقبرة لدفن موتى الحجاج الفقراً. وكان الحاج ينهى جولته الدينية التقوية حول مدينة القدس بزيارة القلعة، التي ما تزال تعرف باسم «برج داود» . وبالإضافة إلى ذلك ، فإن الحاج كان يزور المقبرة اللاتينية التي تحيط ببركة معميلاح Mamillah pool ، وهي المقبرة التي كان المسيحيون واليهود على السواء يدعون بأنها مكان دفن شهدائهم، ومن الأمر العجيب، أن هذا المكان كان يحرسه أسد ضارٌ كاسر درأً لوقوعه في يد الأشرار غير الأتقياء . وأخيراً أصبحت مقبرة معميلاح مقبرة إسلامية (كما هي اليوم) وكان المحاربون (المسلمون - الصليبيون) من أجل امتلاك هذه المدينة المقدسة قد أرادوا أن تتحدد وتحتلل أجسادهم بعد الوفاة .

وعند الاتجاه صوب الغرب كان الحاج يصل إلى الوادي الرائع المعروف باسم «وادي الصليب» بكنистه وديره المورجانية القديمة، وكان هذا المكان مكاناً تقليدياً شهد قطع شجرة الصلب .

والحقيقة أن كل حادثة وردت في الأنجليل المقدسة ، وكل منطقة وطأتها قدم المسيح قد تحدثت وشيد فوقها مزاراً مسيحياً مقدساً، فقد كان طريق دولوروسا Via Dolorosa ، وكنيسة القدس أنا، وبيت بلاطة Pilate House وقبو هيكل (المسيح بالإضافة المتأخرة زمنياً)، وأماكن الصليب، كان كل هذا يمثل غاذج تشكل خريطة التاريخ المقدس*. بيده أن التجوال الكامل للحجاج المسيحيين كان يتم خارج المدينة ، حول الجثمانية Gethsemane (وهي الحديقة التي اعتقل فيها المسيح خارج مدينة القدس) ، وجبل الزيتون وقرية بشيانى للقديس لازاريوس .

وبعد زيارة الأماكن المقدسة داخل وخارج مدينة بيت المقدس كان الحاج يستعد للمسير صوب الشرق. وكانت هذه المنطقة مضطربة وغير آمنة ، إذ كان الحجاج عادة يصطحبون معهم

* الواقع أن عملية أن الإسهاب في ذكر مثل هذه المزارات والموضع المقدسة عملية مطولة لا تنتهي . فقد أضيفت بعض المزارات المقدسة في فلسطين في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي (المؤلف) .

حامية عسكرية لحمايتهم عند مرورهم بهذه المنطقة وهم في طريقهم صوب الأردن، وكانت أول محطة يمر بها الحجاج هي واحة زراعات النخيل عند أريحا Jericha ومن هذا المكان كان من البسيط على الحاج الوصول إلى أحد الأماكن الأكثر شهرة ألا وهو المكان التقليدي الذي عُمِّد فيه المسيح في نهر الأردن. وهنا ووسط احتفالات خاصة كان الحاج يستحم في مياه نهر الأردن، وكان هذا الاستحمام من أهم مظاهر أعمال الحج. ومن هذا المكان كان الحاج يحصل على سعف النخيل الذي يحمله معه إلى وطنه في أوروبا بعد انتهاء فترة الحج. وفي أوروبا كانت مثل هذه الأشياء التي يحملها معه الحاج من الأراضي المقدسة إلى وطنه تكسبه لقب «الحجاج المسعن» Palmer، وكان الحاج يحمل معه أيضا قارورة ملؤها بالماء من نهر الأردن. وأخيراً فإن هذا الماء الموجود في القوارير التي يحملها الحاج كان يجعل الشفagh والاضطراب مع بحارة السفينة، والسبب في ذلك هو أنه كان هناك اعتقاد سائد بأن مياه نهر الأردن كان لها تأثير كبير في ظروف الطقس وتغييره. وعندما كانت تهب عاصفة قوية جامحة كان الحاج يعبر على التنازل عن جزء من ثروته وكنزه التي يحملها معه ويلقى به في عرض البحر.

والواقع أن عدداً قليلاً من الحجاج كانت لديهم الجرأة لزيارة جبل صهيون ، وقبر القديسة كاترين، شهيدة الاسكندرية العذراء. إذ قام الامبراطور البيزنطي جستنيان في القرن السادس الميلادي ببناء دير سانت كاترين في قلب الصحراء . وظل هذا الدير بيد الرهبان البيزنطيين الذين نجحوا في التفاهم مع السلطات الإسلامية المصرية والقبائل البدوية المحلية قبل الوجود الصليبي بعدة قرون . وحوالي عام ١١١٥ م وصل الصليبيون إلى هذا المكان ، بيد أنهم غادروه، ولم يتعرض رهبان دير سانت كاترين لأى خطر. كان دير سانت كاترين مشهوراً، ويقيناً أن الحاج المسيحي الأوروبي كان يعرف شيئاً عن هذا الدير ، وفي فترة متأخرة تضمنت حكاية هذا الدير القبر الرخامي الشفاف الاعجاشي والزيت الأغجوي الذي يشفى العليل ويغذى حيوانات الصحراء الضاربة.

وفي العادة كان الحجاج يغادرون الأردن، ليعودوا إلى مدينة القدس حيث كانوا يزورون كنيسة الميلاد البيزنطية المتألقة في بيت ليم ، وهي الكنيسة التي استمر الأباطرة البيزنطيون في تزيينها حتى عندما خضعت هذه المنطقة للسيطرة الصليبية . وكان الطريق المار بقبر راشيل Rachel موضع اعتبار وتقدير لدى أتباع الديانات الثلاث (اليهود - المسيحيون - المسلمين) ، مع أن هذا المكان كان من الطبيعي أن يلقى أعظم الحماسة والاهتمام والتقدير من

جانب اليهود . وكانت بيت لحم والمناطق المجاورة لها تستدعي معظم قصص وحكايات العهد الجديد (الانجيل) وأهمها الحفرة التي سقط فيها الكوكب المرشد والهادى للملوك الثلاثة ، والمكان الذى شهد ذبح الأطهار المسيحيين بأوامر الملك هيرود Herod، والمكان الذى بشر فيه الملائكة الرعية ببلاد السيد المسيح والموضع الأخير لعملية الولادة نفسها.

ومن بيت لحم كان الحاج أحبانا يغامر بالذهاب إلى حبرون، مدينة البطاركة ، وكهفها المشهور باسم «الكهف المزدوج» وهو الكهف الذى أعيد اكتشافه بشكل اعجazi على يد السلطات الصليبية فى العقد الثانى من القرن الثانى عشر الميلادى. وكان هذا المكان موضع اعتبار وتقدير من جانب أصحاب وأتباع الديانات السماوية الثلاث ، وفي فترة متأخرة قامت السلطات الإسلامية بتخصيص وقف مالى لهذا المكان (كان هذا الوقف يعتبر وفقاً باكراً حدث بعد الفتح الإسلامي لهذا القطر بوقت قصير خلال القرن السابع الميلادى) . وكان هذا الوقف بمثابة مؤسسة ومنشأة دينية خيرية تقدّم الحاجاج المرهقين بالطعام والشراب المنعش . وكان الحاج المسيحي أكثر اعجاضاً بتلك الشجرة القديمة التى كانت تقع بالقرب من هذا المكان ، وهى الشجرة التى استظل عندها سيدنا إبراهيم عليه السلام والملائكة الثلاث والذين كانوا بمثابة التنبؤ بالثالوث المقدس وفقاً للتفسير المسيحي لهذه الحادثة.

وكان بعض الحاجاج يواصلون رحلتهم صوب الشمال، فكان الحاج يعود إلى مدينة القدس، وعندئذ كانت تأخذه الدهشة عند السير خارج هذه المدينة المقدسة عبر جبال هذه المنطقة صوب الشرق إلى السامرة (نابلس) . وفي نابلس كان الحاجاج يشاهدون ذلك المكان الذى شهد كلام السيد المسيح للمرأة السامرية الخاطئة وفي الكنيسة الجميلة عند سبسطية* كان الحاجاج يشاهدون المكان الذى شهد استشهاد القديس يوحنا John حيث ضرب عنقه . ثم بعد ذلك كان الحاجاج يواصلون رحلتهم إلى طريق جبل طابور للوصول إلى الجليل.

وفي القرن الثالث عشر الميلادى اعتاد الحاجاج عدم زيارة السامرة (نابلس) واستخدم الحاجاج من مدينة عكا أساساً لتجوالهم ورحلتهم . وكان الطريق الذى يسلكوه يمر بقلعة صليبية صغيرة عند شفراون Shafran والتي أطلق عليها الصليبيون اسم قلعة صافران Safran . وثمة

* سبسطية : هي اليوم قرية بسيطة تبعد نحو ثلاثة ميلات عن القدس إلى الشمال ، وتحوّست أميال عن الشمال الغربي نابلس . وهي قديمة العهد، وكانت تعرف بالسامرة . (بنيامين التطيلي : الرحلة، ص ٩٥ ، هامش ٤) (المترجم) .

تقليد حديث جدًا يربط هذا المكان بالقديس جيمس James والقديس يوحنا ، بيد أن كنيسة أخرى للقديس سافرون كانت توجد في هذه البقعة. ويقيناً أن هذا المكان كان يحمل اسم القديس سافرون، وربما كان القديس سفرونيوس. St. Saphronius. هذا هو بطريرك بيت المقدس الذي شهد سقوط مدinetته في يد المسلمين الفاتحين في عام (٦٣٨م) . ومن هنا وبعد زيارة القبر المزعوم للقديس نيكولاوس St. Nicholas ، كان الحاج يصل إلى صفورية حيث قلعتها الصغيرة الواقعة على التل وكنيستها الجميلة ذات الطراز الرومانسك الواقعه في الوادي، كما أن صفورية يقال إنها مكان ميلاد القديسة أنا St. Anne ، وما يذكر أيضاً أن الصليبيين بدأوا زحفهم الفعال إلى موقعة حطين الشهيره في منطقة قريبة من ينبوع وعين صفورية .

وكانت مدينة الناصرة مركزاً مهماً من المزارات المسيحية التي يند إليها الحجاج المسيحيون نظراً لما تحمله من ذكريات مقدسة تتعلق بفترة طفولة وشباب السيد المسيح. وكانت كنيسة البشارة في الناصرة من الأماكن الرئيسية في المدينة ، بيد أنه كان يوجد في المدينة أيضاً ورشة يوسف النجار، وبئر العذراء السيدة مريم وهو البشر الذي يقع في ضواحي المدينة. وكان هناك مكان مثير للعواطف واسترجاع الذكريات يعرف باسم مكان سيد الملح "Saltus Domini" وهو عبارة عن صخرة شديدة التحدّر تطل على الطريق الرئيسي الممتد من السهل إلى مدينة الناصرة كثيرة التلال. وبعد زيارة الناصرة، كان الحاج يتوجه إلى قانا Cana في الجليل، حيث كان يشاهد آثار وبقايا اثنين من الجرار كانتا مستخدمان في أثناء حفل الزواج الشهير.

ويعود ذلك كان الحاج يسلك الطريق الذي يمر عبر نعيم Naim ذلك المكان الذي شهد معجزة المسيح في إحياء ابن الأرملة، ثم يصل الحاج إلى بحيرة طبرية التي ترتبط بمعجزات الحواريين والسيد المسيح، وكان الحاج يشاهدون مكان ميلاد القديس بطرس والقديس أندرو ، وأيضاً كفر نعوم Capernaum ، ومائدة المسيح The Mensachristi ، حيث المكان الذي شهد معجزة الطعام عدد كبير من الناس وأشباعهم بخمس سمكates فقط ورغيفين من الخبز . وكان الحاج يرى أيضاً المكان الذي شهد القبض على السيد المسيح وسجنه حتى جاء القديس بطرس وأمسك بسكتة وفتحها فوجد داخلها ديناراً لكي يدفع ضريبة الرأس المقررة. لقد كانت بحيرة طبرية وكل ما تختويه من أسماك مكاناً يلقى التبجيل والدوقير.

وعند الرجوع من طبرية خلال جبال الجليل كان الحاج يشاهد القمة المرتفعة لقلعة صفد الضخمة، وهي القلعة التي يرجع تشييدها إلى منتصف القرن الثالث عشر الميلادي وذلك على

أثر مبادرة من بندكت الاليجتان Benedict d'Alignan ، الأسقف المارسيلي . وكان هذا المكان غير معروف في العصر القديم، بيد أنه نال قداسة وأصلاً مقدساً خلال فترة السيادة الصليبية ، وذلك لأن هذا المكان كان يضم كهف دفن طوبias Tobias .

وفي رحلة العودة كان الحاج يستطيع زيارة جبل طابور الفخم ، الذي يطل على وادي جزبيل ، وقد وصف هذا الجبل في الأوقات الحالية على أنه مدحٌّ من أجل رب تعجيناً وتشريناً . وكان طريق طرطوسية يؤدي إلى قمة هذا الجبل بيد أن الحاج كان يحظى بمكافأة عظيمة وهي الصلة في مكان تجلّى المسيح على الجبل وتلاوة القدس على جبل طابور (ويقال أيضاً أن هذا الجبل كان عبارة عن تل قرب من طبرية) .

وفي نهاية المطاف كان الحاج يصل إلى عكا مرة ثانية . وعلى الرغم من أن مدينة عكا كانت تفتقر كثيراً إلى الأحداث والذكريات المرتبطة بالكتاب المقدس (الإنجيل) ، فإن كل ما ذكر عن مثل هذه الذكريات المسيحية المرتبطة بمدينة عكا كانت زائفه وكاذبة . فاسم عكا Acco أو عكا كان يتطابق بشكل خاطئ مع اسمها التوراتي وهو اكرون Akron وهكذا تم الاعتراف بقدسية مدينة عكا من خلال هذه المطابقة الخطأ ، وظل اسمها (عكا) ينطق بشكل خطأ (واستخدم اسم عكا بهذا الشكل في جميع أنحاء العالم) . ومن هنا كانت عكا بشابة خطوة فقط نحو تحالف وتطابق البرج الرئيسي المشيد عند مدخل الميناء مع «برج الذباب» لمدينة اكرون Akron التوراتية . وهنا كان الوثنيون يؤمنون بأن يقدموا أضحياتهم وكانت دماء أضحياتهم من المواشى المذبوحة الطازج يجتذب ويستميل الذباب ، هذا الذباب الذي أعطى اسمه للبرج وأصبح برج الذباب ، ومع ذلك فإن مدينة عكا لم تزل كثيراً في مجال الذكريات والأحداث المقدسة . وكان العوض عن افتقارها لمثل هذه الذكريات والأحداث المقدسة هو تقديمها التسهيلات والترحاب لأولئك الحجاج الذين يأتون إليها لزيارتها . وتقربياً قامت كل كنيسة وكل دير بتقديم التسهيلات للحجاج لكي يؤودوا الصلة . وكان مينا عكا أيضاً يقدم للحجاج كافة سبل الراحة ويケفل لهم هذه التسهيلات مدة تصل إلى أربعة وأربعين يوماً . وثمة قائمة ترجع إلى أواخر القرن الثالث عشر الميلادي قد أحصت أكثر من ثلاثة عشر عام من التسهيلات التي قدمت للحجاج المسيحيين في مدينة عكا ومينائها .

الفصل الثاني عشر

الكنائس الشرقية

لقد كان الموضع الرئيسي للخطبة الشهيرة التي ألقاها البابا اريان الثاني Urban II في ختام المجمع الكنسي الذي عقد في مدينة كليرمن في جنوب فرنسا عام ١٠٩٥ هو مناشدة الغرب الأوربي من أجل إنقاذ المسيحيين الشرقيين في منطقة الشرق العربي من اضطهاد ومضائقته المسلمين لهم. ولذا فإننا ندهش ونعجب عندما نقرأ الرسالة التي بعث بها قادة الحملة الصليبية الأولى للبابا اريان الثاني في الثاني من سبتمبر ١٠٩٨م، بعد استيلاء الصليبيين على أنطاكية والتي جاء فيها:

«لقد قهرنا وغزونا الأتراك والوثنيين ، بيد أننا لم نستطع الماق الهزيمة بالهرطقة البيزنطيين والأرمن ، والسوريان واليعاقبة .. وعندما نناشدك أيها الأب الأحب ولنج في الرجاء أن تأتى إلينا ، لأنك أنت نائب القديس بطرس، وسوف تجلس في كنيسته (في أنطاكية) ، وسوف تكون لك أبناء ، مخلصين نقدم إليك الطاعة في كل الأمور العادلة ، وسوف تكون طوع أمرك ورهن اشارتك للقضاء ، على الهرطةة الوثنين».

والواقع أن مثل هذا الإعلان الغريب صدر عن قادة جيش صليبي تحشم عناه ووعثاء السفر من أجل إنقاذ المسيحيين الشرقيين ! وبينما كانت الطوائف المونوفيزيتية Monophysite مثل الهرطةة الرسمية ، فإن مثل هذه الهرطةة قلما كانت تنسب على كنيسة البيزنطيين الأرثوذكسية. وعلى الرغم من حدوث القطيعة الكبرى بين كنيستي روما والقسطنطينية منذ منتصف القرن الحادى عشر الميلادى وقطع العلاقات بينهما ، فإن الصليبيين الكاثوليك لم يعتبروا الكنيسة البيزنطية كنيسة هرطقة.

وعندما تأسست المملكة الصليبية في بيت المقدس باتت هناك مشكلة نقش مضاجع الغزاة الصليبيين وكانت هذه المشكلة تتمثل في نوع السياسة التي يطبقها هؤلاء الغزاة على المسيحيين المحليين. فقد كانت الكنيسة المسيحية (مثل المعبد اليهودي) من كل الأقطار التي خضعت للسيادة الإسلامية مركز الحياة الدينية وحياة الجماعات المسيحية. فقد كان رجال الدين

يبسطون سيادتهم على أفراد طائفتهم وكانوا بثابة المثلين الرسميين لهذه الطائفة . وهكذا فإن السياسة الكنسية كانت تعنى في الواقع سياسة عامة تجاه المسيحية الشرقية.

وعشية الحملة الصليبية الأولى والغزو الصليبي لمنطقة الشرق العربي الإسلامي كانت هناك هوة سحيقة تفصل بين المجموعة الرئيسة للحكام وبين المحكومين (الرعية) في الأراضي المقدسة ولا يمكن اجتياز هذه الهوة ، وهي الهوة السحيقة التي فصلت بين الإسلام والمسيحية ، إذ كانت الدعاية الصليبية تستخدم مفردات الإسلام والقانون الإسلامي * في اثارة وتحريض الغرب الأوروبي ضد المسلمين ، كما أن الدعاية الصليبية كانت تؤكد باستمرار على فكرة تحرير الضريح المقدس من يد المسلمين الهراطقة .

ولاشك أن الصدام مع الشرق المسيحي خارج حدود القسطنطينية ربما قد أحدث ارتباكاً شديداً للصليبيين ، لقد أثبتت المسيحية الشرقية أنها اختصار لظاهرة معقدة بشكل كبير ، وأنها كانت تغطي ستة مجتمعات تشتراك في اعتناق عقيدة شائعة .

لقد ساهمت الإشعاعات السريعة والمروجة التي سبقت اقتراب وصول جيوش الحملة الصليبية الأولى في تهيئة مناخ من التوتر المتوقع في منطقة الشرق ، ويظهر خطاب عبري معاصر في منطقة البلقان أنه كانت هناك حركة مسيحية في شبه جزيرة البلقان . ففي الأدب المسيحي الشرقي كان الأتراك في الغالب يمثلون ياجرج وأماجيج Gog and Magog ، كما أن الأدب المسيحي الشرقي يصور الصليبيين بأنهم جموع الهيبة جاءت على عجل لكي تشارك في قتل الشيطان في معركة فاصلة بين قوى الشر وقوى الخير . وكان المؤرخ الأرمني متى الراهوي يرى في الحركة الصليبية بأنها بثابة تحقيق للنبوءة التي تكهن بها البطريرك الأرمني المجل نارسيس :

«لقد كان الهدف من استخدام جيش الفرنجة هو أن الرب أراد أن يقاتل الفرس (الترك) ... كما أن الصليبيين جاءوا لتحطيم الأغلال والأصفاد التي تقيد المسيحيين وتكميلهم ، ولتحرير مدينة بيت المقدس من نير احتلال الهراطقة المسلمين ولخلص القبر المقدس من يد

* اقتبس دعاء الحركة الصليبية مبدأ الجهاد الإسلامي في الترويج لها ، كما اقتبسوا سمو الاستشهاد في الإسلام ، وأن الشهيد الذي يقتل في سبيل نصرة الدين يسبق غيره في دخول الجنة (المترجم) .

هؤلاء، الهرطقة ذلك القبر الذي استقبل الرب. «فالفرجية الذين عبروا البحر واجتمعوا ووعدوا رب، أنه إذا قيض لهم الدخول إلى مدينة القدس ، فإنهم سوف يعيشون في سلام مع كل معتقدى الديانة المسيحية، وأنهم سوف ينحون الكنائس والأديرة لكل الأمم التي تعرف بال المسيح وتؤمن به ».»

وما يذكر أن كلمة «تحرير أو تخلص Leberation قد وردت في مؤلفات الكتاب المسيحيين الشرقيين ، بيد أنه مهما أشار هؤلاء الكتاب في مؤلفاتهم إلى هذه الكلمة (تحرير أو تخلص) ، فإنه يقيناً أن هذه الكلمة لم تشر إلى فكرة خاصة بتحرير الشخص المسيحي. وكان بيزنطيو مدينة أنطاكية ما يزالون يعلمون باسترداد الامبراطورية البيزنطية لأملاكها التي فقدتها واسترداد مدينة أنطاكية التي سوف تسترد مكانتها السابقة كمركز للحكم في عاصمة بلاد الشام - وكان الأرمن في منطقة طوروس قليقية Cilicia يتطلعون إلى الحصول على حق الحكم الذاتي دون التعرض لاعتداءات وانتهاكات البيزنطيين أو الأتراك ، ومن الواضح أن مثل هذه التصورات والرغبات المكبوتة والدفينة لم تكن ترد على بال المسيحيين الشرقيين من اليعاقبة، والنساطرة ، والسوريان والأقباط . إذ لم تستطع الطوائف المسيحية الثلاث (اليعاقبة - النساطرة- السوريان) أن يلتفتوا بأفكارهم إلى آية تقاليد قديمة خاصة بحالة الاستقلال الذاتي. فلم يشهد أى وقت قائلات فيه عقائدهم مع عقائد أهل الأقليم الذي يقطنه أو مع آية مجموعة عرقية. لقد كانت عقائد هذه الطوائف الثلاث تختلف إلى حد ما عن عقائد أقباط مصر، بيد أنه مهما كانت مشاعرهم وشعورهم تجاه المسلمين فإن جيرانهم المسلمين كانوا ينظرون إليهم على أنهم أهل ذمة ورعايا يتمتعون بحماية الدولة الإسلامية. وكانت طائفة المارون اللبناني هي الطائفة المسيحية الوحيدة فقط التي تطورت ونشأت من جماعة إقليمية وعرقية وقامت بقوة عقيدتها وتقاسكمها ، ويرغم ذلك فإنهم كانوا موضع احترام وازدرا ، من جانب البيزنطيين الأرثوذكس وأيضا من جانب المونوفيزيتين على السواء .

لقد كانت الحرية بالنسبة للطوائف المسيحية الشرقية تعنى- في أفضل أحوالها - حرية العبادة هذه الحرية التي لم تتنزامل مع السيادة المسيحية في هذه المناطق ، فقد كان الحكم المسلمون أكثر سخاءً وتسامحاً بخصوص منح حرية العبادة لغير المسلمين من أهل الذمة . ويشير إلى ذلك ميخائيل السوريانى فيقول : «أن الحكم المسلمين لم يسألوا عن مهنة الشخص أو عقيدته ، ولم يظلموا أحد بسبب مهنته أو عقيدته مثلكما كان يفعل الهرطقة

البيزنطيون تلك الأمة الشريرة. ويقول ميخائيل السوريانى أيضاً «إن أبناء يأجوج ويقصد بهم الأتراك قد حكموا باذن الرب»، هذا الحكم الذى خيم بظلالة الكتبية من القلق والتوتر النفسي على الهرطقة الظالمين من البيزنطيين. وهكذا لم يقم الأتراك باجبار الأرثوذكسي (من العيادة) على الارتداد عن عقيدتهم مثلما فعل البيزنطيون معهم من فرض قانون صارم من أجل تحول وارتداد العيادة عن عقيدتهم وتحولهم إلى الهرطقة البيزنطية.

لقد ظلت نتائج مجمع خلقدنونية البغية* والخطرة على الكنيسة البيزنطية قتل فكرة مهيمنة ومتكررة في الرواية التاريخية الكبيرة التي سردها لنا ميخائيل السوريانى (في القرن الثاني عشر الميلادي). وظهرت نفس هذه الأفكار العاطفية في المصادر التاريخية الباكرة التي استقى منها ميخائيل السوريانى معلوماته. واعتمدت هذه المعلومات التاريخية التي ذكرها ميخائيل السوريانى على خطابات المؤرخ الشهير في القرن الثالث عشر الميلادي وهو أبو الفرج بن العبرى (باللغة العربية)، وهو المؤرخ المسيحي اليعقوبى والمرتد عن العقيدة اليهودية ولم ينس أرمن آسيا الصغرى وكذلك أقباط مصر الخوف والمضايقة الذى كان يسببه لهم البيزنطيون.

وما يذكر أن التجربة والخبرة التاريخية للأرمن والعيادة ، وأقباط مصر يمكن أن يفسر لنا جزئياً تردد المصادر التاريخية المسيحية الشرقية في ترحابها بقدوم ووصول جيوش الحملة الصليبية الأولى، فالمؤرخ القبطي السكندرى ساويروس بن المفع Sawirus Ibn al Mukaffa ذكر في تاريخه ومؤلفاته فقرة قصيرة يصف فيها هذه الأحداث فيقول : «في أيام الأب ميخائيل (بطريرك الاسكندرية القبطي) وصلت جيوش الرومان (الروم) والفرنجية من روما ومن أراضي الفرنجة إلى بلاد الشام في جموع عظيمة واستطاعت هذه الجيوش الاستيلاء على أنطاكية والأراضي المحيطة بها وعلى معظم أقطار بلاد الشام العليا... وعندئذ استطاعت هذه الجيوش الصليبية احتلال مدينة بيت المقدس المجيدة (القدس الشريف)... ونحن مجتمع المسيحيين العيادة والأقباط لم تستطع القيام برحلة الحج إلى مدينة بيت المقدس».

* مجمع خلقدنونية : أحد المجامع الكتبية الذي عقد في مدينة خلقدنونية في عام ٥٣٥ للناظر في مشروعية استخدام الصور في الكتابات وانتهى المجمع بتحريم هذه الأيقونات والصور وهد بتوقيع الحberman كل من يستخدم الصور والأيقونات . (المترجم).

ولأن حرية العقيدة والعبادة كانت الحلم العظيم الذي ترنسوا إليه كل الطوائف المسيحية في الشرق فإن هذا المعيار هو الذي حدد موقف الشرقي المسيحي تجاه القادمين الجدد من الصليبيين.

ومن هذا المشهد يتبعنا أن تحرير وتخلص مدينة بيت المقدس من يد المسلمين لم يكن يعني ذلك بالنسبة لعدد كبير من المسيحيين الشرقيين. إذ أن المسيحيين الشرقيين قلما كانوا يتوقعون سيادتهم على الأماكن المقدسة في ظل الحكم والسيطرة الصليبية، وفي أفضل الأحوال، كان المسيحيون الشرقيون يجنون بعض المكاسب على حساب الكنيسة البيزنطية. فقد كانت هناك أيضًا فرصة للمسيحيين الشرقيين من أجل التخلص من أعباء الابتزاز المالي والضرائب التي كانت تفرضها عليهم السلطات الإسلامية .

وبالإضافة إلى ذلك ، فإنه ربما كان من الصعب على طوائف المسيحيين الشرقيين زيارة ومشاهدة المزارات المسيحية في الأرض المقدسة. فقد كان الاحتفال بيوم «النار المقدسة» عيدها عاماً لكل المسيحيين الشرقيين، بيد أن مدينة بيت المقدس كانت غائبة بشكل واضح في الكتابات الغزيرة للبيعاقبة والأقباط . والأ Armen ، وأصبحت مدينة القدس هدفاً للطموحات الأوروبية وشعر الصليبيون بأنهم كانوا ينالون ميراثهم الشرعي وحقهم المسلوب ، وأطلقوا على ملكتهم اسم «ملكة داود» ولم يوجد مثل هذا الشعور بين طوائف المسيحيين الشرقيين. وأية ذلك أن ميخائيل السورياني كان يكتب عن صورة زائفة عن القديس العظيم للبيعاقبة - بار ساما Bar Sauma ولم يكتب عن الضريح المقدس. وكذلك لم ترتفع وترتقى كنيسة مدينة بيت المقدس إلى درجة البطريركية من وجهة نظر المسيحيين الشرقيين من أقباط وبيعاقبة وأرمن . ونادرًا ما كان هؤلاء المسيحيون الشرقيون يرفعونها إلى درجة أسقفية . وثمة عوامل مادية قد ساهمت في هذا الموقف والاتجاه من جانب هؤلاء ، ومن هذه العوامل عدم وجود مجتمع كبير لطوائف المسيحيين الشرقيين، بيد أن العلاقات فيما بينهم كانت تفتقر إلى الود والتفاهم إلى حد كبير. فقد كان الاختلاف في وجهة النظر بينهم وكذلك الاختلافات في المذهب أكثر حدة.

كان الأقباط والمسلمون يطلقون على مدينة بيت المقدس اسم القدس الشريف، وكان يتم تعيين وتكرис الأساقفة البيعاقبة والأقباط في مدينة بيت المقدس وذلك لإرسالهم إلى أماكن أخرى ، أو أن البطريرك الجديد كان يتم مسحه بالزيت المقدس لأول مرة في كنيسة مدينة القدس أيضًا، استشهاداً إلى ما ذكره المجييل لوقا (السفر السورياني ٢٤-٢٧) : «كل الناس يبدأون في بيت المقدس»، بيد أن مصالحهم في مكان آخر ، ويستطيع المرء أن

يقارن بين موقف هؤلاء الناس بما فعله اليهود في موقف سياسي مشابه ، لكن نتصور هذا الاختلاف في مذاهب المسيحيين الشرقيين واحتلال رؤيتهم لل زيارات المسيحية في الأرض المقدسة .

ومهما كانت توقعات طوائف المسيحيين الشرقيين ، فإن الواقع الفعلى أثبت أن هذه التوقعات المأموله والمرتفقه كانت ضارة وخطيرة . فقد كان الحكم الصليبي قاسياً منذ بداية فترة الوجود الصليبي . وكانت سنوات الغزو بشاعة فترة ألم وعذاب كبير . والحقيقة أن المسيحيين الشرقيين كانوا يتكلمون اللغة العربية ، ويطلقون اللعن ، ويلبسون الملابس ذات الطراز الإسلامي وهو الأمر الذي كان يجعلهم ضحايا للحرب التي كانت تتشعب بين المسلمين وبين الصليبيين وكانت يتعرضون لأعمال السلب والنهب . بيد أنه في الفترة المتأخرة من الوجود الصليبي ، وحينما استطاع الصليبيون التمييز بين المسيحيين الشرقيين وبين المسلمين ظل السوريان دائماً موضع شك وعدم ثقة من جانب الصليبيين .

ويكفي القول إن الاختبار والمحك الرئيس كان في مجال العبادة والعقيدة . ففى مجال المقدسات خسر الصليبيون صدامهم الأول مع المسيحية الشرقية ، وعلى الرغم من أن بعض الأخطاء قد تم تصويبها في فترة متأخرة ، فإن الأحداث الباكرة في تاريخ المسيحية لم تنس ولم تمحى من الذاكرة ، ويعتبر سجل المؤرخ الأرمني متى الراهوى أكثر توضيحاً وهو المؤرخ الذي كان مؤيداً للصليبيين مثل بنى جلدته من الأرمن . فهو يؤكّد أنه في عام ١١٠٢ م تدخل الرب مباشرة من أجل منع التهديد ضد الفرنجية . ولم تهبط النار المقدسة على قبر المسيح يوم السبت ، والمسيحيين من المؤمنين الحقيقيين (المونوفيزيتين) هم الذين جعلوا النار المقدسة لم تظهر أبداً على الرغم من مرور يوم ، ولم تظهر النار المقدسة على الاطلاق ويرجع السبب في ذلك إلى قيام الصليبيين بطرد الرهبان الأرمن والبيزنطيين ، والسوريان والجورجييان من أديرتهم . ويرغم ذلك فإنه بعد معجزة النار المقدسة ، كان الصليبيون يتأسفون ويزرفون دمع الندم على فعلتهم ضد الرهبان المسيحيين الشرقيين ويداؤوا يردون الأديرة إلى أصحابها من الرهبان الشرقيين . ويقول المؤرخ الجدلاني القبطي ساويروس ابن المقفع بوضوح إنه بعد استيلاء الصليبيين على بيت المقدس ، توقفت وتعطلت رحلات الحج التي كان يقوم بها الأقباط إلى الأرض المقدسة ، وذلك بسبب ما عرف عن كراهية الصليبيين للأقباط ، وأيضاً بسبب المعتقدات الزائفة للصليبيين وتعنتهم ضد الأتقياء المؤمنين من الأقباط .

لقد افتقد الصليبيون الفرصة الملائمة وضاعت منهم ولم يستطع الصليبيون كسب ود المسيحيين الشرقيين وجعلهم حليفا لهم ضد المسلمين . وأحياناً كانت بعض الطوائف المسيحية تؤيد الصليبيين، بيد أنه يشكل عام كانت هذه الطوائف المسيحية المحلية يتفادى الوقوع في منزلق هذه الورطة ، وما يذكر أن الصليبيين لم يعتبروا المسيحيين الشرقيين في وضع متكافئ، ومتساو مع السكان اللاتين المهاجرين ، وربما كان هؤلاء المسيحيون الشرقيون يلقون معاملة من الحكم الصليبيين أفضل من المسلمين ، بيد أن ذلك لم يكن ظاهراً بشكل واضح . وقد تبين لنا من الاستنتاجات التي استخلصناها من الكتب القانونية للملكة الصليبية أنه ليس هناك اختلاف كبير في موقف الصليبيين تجاه مختلف الطوائف المسيحية الشرقية؛ ومن الغريب تماماً أن موقف الصليبيين تجاه غير المسيحيين لم يختلف عن موقفهم تجاه المسيحيين الشرقيين: إذ كان كل من المسيحيين الشرقيين وغير المسيحيين سواء أمام القانون، يتمتعون بالحكم الذاتي الداخلي، وتكتفل لهم سلامتهم حياتهم، ومتلكاتهم . وعلى الرغم من أنه كانت هناك اختلافات في الوضع القانوني، فإن هذه الاختلافات لم تكن تتعلق بالجماعات العرقية أو الدينية . فقد كان يوجد مسلمون وأيضاً مسيحيون (من السوريان والبيزنطيين)، وفلاحون، وكان بعضهم يؤدى ضريبة الأرض الزراعية والبعض الآخر لا يؤدى مثل هذه الضريبة الزراعية . وفي نفس الوقت، كان أفراد كل هذه الطوائف المسيحية الشرقية (بالاضافة إلى المسلمين واليهود) يقطنون المدن، ويؤدون ضريبة الرأس Capitatio للسلطات الصليبية ، بيد أنهم كانوا يتمتعون بحرية الحركة ، على الرغم من أنهم لم ينتسوا إلى طبقة البرجوازية . وعلى الرغم من ذلك، فإنه بلاشك أن طوائف المسيحيين الشرقيين في المناطق الصليبية لم يكونوا أسوأ حالاً من رفاقهم في العقيدة الذين كانوا يخضعون للسيادة الإسلامية أو الذين كانوا يقطنون الأقاليم التي تخضع للحكم المسلمين، وكانت الألفة والانسجام بين أفراد هذه الطوائف المسيحية المحلية لم تزد عن كونها ألفة ظاهرية فقط . فقد كانت حادثة مثل استرداد المسلمين لمدينة مثل بيت المقدس أو طرابلس تجعل الأساقفة الشرقيين يقومون بكتابة ترنيمة جنائزية حزينة ، بيد أن الموضوع الرئيسي لكتابة رجال الدين الشرقيين كان يذكر حول انتهاء المقدسات المسيحية وهي المقدسات التي لم تفقد جاذبيتها المقدسة على يد الصليبيين .

وعلى المستوى السياسي كانت ثمة سياسة اتباعها الصليبيون تنتزع إلى المساواة تجاه جميع طوائف المسيحيين الشرقيين وحتى تجاه اليهود والمسلمين، ولم تقتد هذه السياسة إلى المجال الديني . وما يذكر أن العلمانيين من القادة الصليبيين هم الذين قرروا سياسة المساواة السابقة،

وهم الرجال الذين كانوا في جدال مع حقائق أوضاع الصليبيين وظروفهم، وساهمت الكنيسة اللاتينية في تعضيد نفوذ وسطوة الرجال العلمانيين ، حيث كانت المصالح الدينية والمادية من الأمور الحاسمة والمهمة في سياسة كنيسة الضربي المقدس في مدينة القدس.

كانت الكنيسة البيزنطية الأرثوذكسية أكثر الكنائس تأثيراً بالغزو الصليبي للمناطق العربية. ففي الأقاليم الشمالية من بلاد الشام كان يوجد عدد كبير من أتباع المذهب الأرثوذكس وكان هؤلاء من أصل بيزنطي ، بينما أن السوريان كانوا من أنصار الكنيسة البيزنطية الرئيسيين في المناطق الصليبية الواقعة جنوب المملكة اللاتينية. وكان يوجد مواطنون في الأرض المقدسة أو في الأقاليم المجاورة لها يتحدثون اللغة العربية ، بينما أنهم كانوا يتبعون الشعائر والطقوس الدينية البيزنطية. وما يذكر أن وجود البيزنطيين في بلاد الشام يرجع إلى ألف عام من التاريخ المرتبط بفترات المجد، حيث فترة الامبراطورية الرومانية المتأخرة ، وبعض الفترات الفاصلة المظلمة والعابسة في أثناء السيادة الإسلامية . بينما أن وضع الكنيسة البيزنطية كانت قوية ، إذ كانت تحوز أملاكاً واسعة في ظل الحكم الإسلامي، وكان هناك دائماً امكانية التدخل البيزنطي في المنازعات والمناقشات الخطيرة الخاصة بسياسة الحكام المسلمين. وبين عشية وضعها تغير هذا الوضع وهذا النفوذ الذي كان تتمتع به الكنيسة البيزنطية في المناطق العربية وذلك بحلول الغزو الصليبي لهذه المناطق . ويعkin أن نعزز ذلك جزئياً إلى العلاقات السيئة بين الصليبيين وبين الامبراطور البيزنطي ، والذي تخض عنها وبالتالي الوساوس والشكوك التي انتابت أتباع الكنيسة البيزنطية ازاء الغزو الصليبي والنفور منه وعدم الثقة في جدواه، كما أن الاختلافات المذهبية الدينية بين الصليبيين وبين البيزنطيين قد ساهمت هي الأخرى في احداث الموقف الرافض من جانب أتباع المذهب الأرثوذكس في الأراضي المقدسة ازاء الغزو الصليبي.

وعلى خلاف ذلك ، لم يكن اليعاقبة والنساطرة يعتبرون أتباع الكنيسة البيزنطية من الهرطقة، وعلى الرغم من أن الكنيسة الأرثوذكسية البيزنطية أحياناً كانت في حالة قطيعة مع كنيسة روما ، فإن ثمة حقيقة وهي أن طقوس وشعائر هاتين الكنيستين كانت تختلف في بعض الأمور إلى حد ما نتيجة الاختلاف المذهبي*. وهكذا حدث جدل وصراع بين الصليبيين وبين

* كانت ثمة اختلافات في الشعائر والطقوس الدينية بين كنيسة القسطنطينية وكنيسة روما ولاسيما في طقس العشاء الرباني أو التناول ، ونوع الخبز المقدم في هذا الطقس ، وكذلك اختلافات في ملابس وشكل رجال الدين في الكنيستين . (المترجم) .

البيزنطيين ، ولم يكن هناك سبيل أمام رجال الدين اللاتين سوى القضاء على رجال الدين البيزنطيين ليحل محلهم رجال الدين اللاتين ، فلم يكن هناك مكان لاثنين من البطاركة ، وهكذا حل رجال الدين اللاتين محل رجال الدين البيزنطيين ، وفقدت الكنيسة البيزنطية مكانها وتفوتها ، فقد رجال الدين البيزنطيين مكانهم وهبوا إلى مستوى أدنى وخضعوا لسيطرة رجال الدين اللاتين بشكل واضح.

وقد بدأت احداث الشطر الأول من مأساة رجال الدين البيزنطيين في مدينة بيت المقدس. حيث قام المسلمون بطرد البطريرك البيزنطي ، سيمون Simon أو هرب وقت اقتراب وصول الجيوش الصليبية ، ولم يتردد الغزاة الصليبيون في انتخاب واختيار بطريرك لاتيني ليحل محل البطريرك البيزنطي بعد غزو مدينة بيت المقدس. وقضى البطريرك البيزنطي المنفي سيمون سنوات حياته الباقية (توفي سنة ١١١٦) هائماً على وجهه متنقلًا ما بين قبرص والقسطنطينية ثم انتقل من القسطنطينية إلى مدينة بيت المقدس. وقد أخفقت مجهوداته في سبيل العودة إلى منصبه القديم كبطريرك للكنيسة الصریح المقدس في القدس، ووجد ذلك الرجل المسن متنفساً لشاعره من خلال كتابة مقالات ورسائل دينية ضد الخير الحالي من الخمسة في الشعائر الدينية اللاتينية (في طقس العشاء الرباني أو التناول).

وحدث نفس الشيء للبطريرك البيزنطي في بطريركية أنطاكية، فقد ترك البطريرك البيزنطي جوهانز Johannes كنيسة أنطاكية مدة عامين بعد الغزو الصليبي لمدينة أنطاكية واعتزل المنصب الديني واتخذ من القسطنطينية متسقراً ومقاماً له. وعندئذ قام الصليبيون بتعيين بطريرك لاتيني. وباتت المقاومة المحلية ضد التدخل الصليبي أمراً مستحيلاً ، وانتقمت الكنيسة البيزنطية وثارت لنفسها بواسطة استمرار تعينها البطاركة الرسميين لبيت المقدس وأنطاكية ، هؤلاء البطاركة الذين أقاموا في المنفى في القسطنطينية.

والحقيقة أنه لا يمكن إغفال الاختلاف بين كنيستي مدينة القدس وأنطاكية. ففي حين كان أغلب سكان مدينة القدس إبان فترة الحكم الصليبي يتألفون من المهاجرين الأوروبيين، كان الوضع في أنطاكية مختلفاً كاملاً . ففي أنطاكية بقى أغلبية السكان المحليين - كما كانوا من قبل - من البيزنطيين واليعاقبة. وهذا يفسر لنا جهود الأباطرة البيزنطيين المستمرة والقوية من أجل إعادة تنصيب بطريرك بيزنطى في أنطاكية . وفي الغالب، وعندئذ كانت الظروف السياسية مواتية ، كانت جهود الأباطرة البيزنطيين تكلل بالنجاح. وفي فترة ما وافق

أمير أنطاكية الصليبي على تعيين بطريرك بيزنطى . ولاشك أن حدوث مثل ذلك يجعلنا القول إن مدينة أنطاكية في تلك الآونة كانت تقع تحت طائلة عقوبة اللعنة الكنسية من جانب رجال الدين اللاتين ، وكانت كنيسة روما تعضد وتقر هذا الحرمان الكنسى المفروض على كنيسة أنطاكية بشكل مطلق .

وكانت عملية احتلال رجال الدين اللاتين محل رجال الدين البيزنطيين في الكنائس في المناطق الصليبية تصاحبها عملية سلب ونهب لمتلكاتها الكنائس الشرقية في هذه المناطق . وكانت هذه الكنائس تحفظ بحقها الشرعى من هذه الممتلكات وذلك لأن عملية السلب والنهب هذه لم تكن تعلن بشكل رسمي . وببساطة كان رجال الدين اللاتين يتولون أمر أملاك الكنيسة البيزنطية ئزملاك كنيسة منذ فترة باكرة من الوجود الصليبي . وهكذا عندما قام جودفري البويوني ويلدوين الأول بمنع رجال الدين اللاتين وكهنة الضرير المقدس ثلاثين قرية كاقطاعات وأملاك كنسية بالقرب من مدينة بيت المقدس ، أو عندما منع تانكره أملاكاً واسعة لرهبان جبل طابور على جابنى نهر الأردن ، كانت مثل هذه المنع بثابة تأكيد أحقيبة المؤسسات اللاتينية الدينية الجديدة لمتلكات أسلافهم من البيزنطيين . وعندما يشير الرحالة في العصور الوسطى ، والمؤرخون المحدثون إلى ممتلكات الكنيسة البيزنطية في المناطق التي خضعت للسيادة الصليبية ، فإنهم في حقيقة الأمر يسردون بقايا ممتلكات الكنائس البيزنطية الغنية منذ الفترة الباكرة .

في أثناء عملية الفزو الصليبي قام القادة الصليبيون العلمانيون بمصادرة ممتلكات الجماعات المسيحية الوطنية . ولم يكن النبلاء حريصين على الشكليات وعلى دقة تنفيذ الأوامر قدر حرصهم على حقوقهم إذ أنهم عاملوا المسيحيين الوطنيين باعتبارهم سكاناً مقهورين ، وقد تطلب ذلك من المسيحيين الوطنيين صبراً جميلاً ، وفي الغالب كان هؤلاء المقهورون يلجأون إلى تقديم الرشوة للملوك الصليبيين في بيت المقدس لاستجلاب ودهم ورضاهما ، ومن أجل إعادة بعض الأموال لأصحابها الشرعيين . وعلى سبيل المثال ، فقد حدث مثل هذا من استرداد الأموال لأصحابها الشرعيين بالنسبة لطائفة اليعاقبة التي كانت تقطن منطقة قريبة من مدينة بيت المقدس . إذ قام أحد الفرسان الصليبيين بالاستيلاء على أراضي اليعاقبة واغتصابها ، وظل يسيطر سعادته عليها مدة جيل كامل من التناقض أمام المحكمة إلى أن تم إعادة هذه الأرض إلى أصحابها من اليعاقبة ، وما يذكر أن استرداد اليعاقبة لأموالهم

وأرضهم المسلوبة لم تتم بوجب حكم قضائي، بل جاء من خلال تدخل وواسطة الملكة الصليبية مليسندرا Melissandra ، ابنة الأميرة الأرمنية مورفيا Morfia التي كانت أكثر تعاطفًا مع المونوفيزيين .

وعلى الرغم من أن التشريع والقانون الصليبي لم يقرر تمايزاً بين البيزنطيين والأرثوذكس وبين الجماعات المسيحية المحلية من اليعاقبة في المملكة اللاتينية في بيت المقدس، فإن هذه المنطقة شهدت تعصباً بشكل أكثر ضد اليعاقبة . ويف肯 القول بشكل عام إن اليعاقبة والأرمن لم يحظوا بمعاملة حسنة من جانب الصليبيين إذا ما قورنت بمعاملة الصليبيين للبيزنطيين التي كانت أفضل حالاً . فقد تسبب الغزو الصليبي في احداث تقدم وصعود بارز لوضع رجال الدين في هاتين الكنسيتين . وكان هذا الصعود البارز لوقف رجال الدين أكثر وضوحاً في الأقاليم الصليبية الشمالية، وهي الأقاليم التي كانت تخضع قبل وقت قصير من الوجود الصليبي لحكم امبراطورية بيزنطية (الأقاليم الجنوبية هي الرها، وأنطاكية وطرابلس)، بشكل أكثر عن الأقاليم الواقعة في الجنوب . ففي هذه الأقاليم السابقة، كان البيزنطيون ينتهجون سياسة قاسية لمضايقة الأقليات المسيحية من غير البيزنطيين وأحسوا هذه الأقليات المسيحية أن الغزو الصليبي الذي أضعف قوة الكنيسة البيزنطية كان بمثابة نوع من التحرر والخلاص من الهيمنة البيزنطية . ولم يكن التغير والتحول في المملكة اللاتينية تجولاً راديكالياً ، بيد أن أوضاع وظروف الامارات الصليبية الشمالية قد أثرت في مستقبل المملكة الصليبية قاماً .

كانت نقطة الضعف هي أيضاً نقطة القوة. إذ كان البيزنطيون دائمًا يتوقعون المساعدات السياسية والمالية من بيزنطة . وخلال الفترات التي شهدت علاقات ودية بين الامبراطورية البيزنطية وبين مملكة بيت المقدس الصليبية، كان الامبراطور البيزنطي يضطلع بهمة اصلاح وترميم الكنائس والأديرة البيزنطية في المملكة الصليبية. وهكذا فإن الامبراطور البيزنطي ماتوييل كومنين قام باصلاح وترميم وزخرفة كنيسة المهد في بيت لحم في عهد الملك الصليبي عموري (أمالريك Amalric) ، وأصلح كذلك الدير البيزنطي ... الخ. وأصلح أيضاً أديرة الجماعات الرهبانية التي كانت تعيش في قفار وصحراء مدينة القدس وعلى جانبي نهر الأردن وذلك في عام (١١٦٩م) ، وما تزال آثار هذه الاصلاحات والأعمال التي قام بها الامبراطور البيزنطى ماثلة للعيان حتى الآن في بيت لحم. وعلى الرغم من تلاش و اختفاء بعض هذه الاصلاحات فإن أعمال الفسيفساء في الجزء الأعلى من الصحن الرئيسي لكنيسة المهد في

بيت لم تصور وتميز الكنيسة الاقليمية ككنيسة المجامع، وتزين هذا الجزء بالنقوش اللاتينية والبيزنطية. وعلى أي حال، فإن مثل هذا التعاون بين الكنيستين الشرقية والغربية كان نادراً، وكان هذا التعاون يتعارض مع حالة التوتر الدائمة بين هاتين الكنيستين اللتين تقسمان العالم المسيحي.

وعلى الرغم من خضوع الكثير من الكنائس للسيادة اللاتينية ، فإن المؤسسات الدينية للمسيحيين المحليين لم تندثر بشكل نهائي. وعادة كانت المقدسات العظيمة وكنائس المدينة تستبدل رجالها برجال دين آخرين. وكانت الكنائس والأديرة في القرى التي يقطنها المسيحيون الشرقيون مزودة برجال دين محليين ، على الرغم من خضوع هذه الكنائس وهذه الأديرة للإشراف اللاتيني.

كان رجال الدين المحليين يواصلون عملهم في الكنائس الكبرى، وهي الكنائس التي كان العامة والجماهير يمارسون فيها طقوسهم الدينية البيزنطية التقليدية أو السريانية أيضا. وهكذا فإن رجال الدين من غير اللاتين قد احتفظوا بتأدية خدماتهم في كنيسة الضريح المقدس وأيضا في بعض الكنائس الصغيرة التابعة لها ومذابح الكنائس، وطبق نفس الوضع في كنيسة المهد في بيت لحم. واستطاع رجال الدين البيزنطيون في كل مكان الاحتفاظ بمناصبهم الدينية على الرغم من سلب ونهب الصليبيين للأملاك الكنسية البيزنطية . وهكذا وعلى النقيض استطاع الدير البندكتي الجديد على جبل طابور أن يحتفظ بدير القديس إلياس St. Elias .

ومن وجهة النظر الدينية الكاملة لا يمكن أن تتوقع وجود أساقفة بيزنطيين في الأراضي المقدسة. بيد أننا نسمع عن ميليشوس Melethos ، الذي كان يحمل لقب «رئيس أساقفة البيزنطيين والسوريان في غزة وبيت جبرين (١١٦٤م) . وكان هؤلاء الأساقفة السوريان يتبعون إلى المسيحيين المحليين الذين يتحدثون اللغة العربية ويستخدمون اليونانية في شعائرهم وطقوسهم الدينية، وكانوا يخضعون لرجال الدين البيزنطيين. وفي نفس الوقت سمعنا عن كنيسة بيزنطية فرعية تابعة لكنيسة الضريح المقدس (كنيسة أنسطراس)، وكان أعضاء هذه الكنيسة يحملون «اللقب» رئيس دير ، أو مقدم دير ، ورئيس شمامسة ، وشمامـ de avon . ومرة أخرى عرفنا أن دير القديس سابا البيزنطي في مدينة بيت المقدس كان بشاشة نزل ودار ضيافة للمسافرين والفقراء Hospice وارتقت مكانة هذا الدير بفضل النعم والهيئات التي أغدقتها عليه الملكة الصليبية ميليسندا melissande . وكانت مدينة القدس تضم أيضا نزا

بيزنطياً آخر للمسافرين والفقرا ، وهو نزل القديس موسى (١٢١٧م) ، والذي كان يخضع لإشراف رئيس دير جبل سينا*.

وكانت مدينة عكا الصليبية أيضا تضم كنائس وأديرة بيزنطية . فقد ذكر دير القديسة كاترين بهذا الاسم في عام (١٢١٧م) ، ومن المحقق أيضا أن عكا أيضا كانت تضم أديرة أخرى للسوريان الذين كانوا يقطنون بأعداد كبيرة مدينة عكا .

وخارج مدينة بيت المقدس وفي قرية بيت جبرين التي أصبحت في النهاية حصنا لفرسان الاستمارية كان يوجد دير بيزنطي هو دير القدس جورج St. George وهو القديس الذي ولد في مدينة اللد واغتصب الصليبيون هذا الدير البيزنطي، وتروي لنا الأسطورة البيزنطية ذلك المصير المروع الذي آل إليه هؤلاء الفرنجة الذين حاولوا اقتحام ودخول قبر هذا القديس . ولم يفلح البيزنطيون في الاحتفاظ به كأنهم في مدينة الناصرة والتي أصبحت كنيستها كنيسة لاتينية . بيد أنه في سبسطية Sabaste حيث ملاذ القديس يوحنا والذي أصبح مقرا لإقامة الأسقف اللاتيني، استطاع البيزنطيون تعزيز وضعهم وشيدوا ديراً عالى البناء وادعوا أن هذا الدير يضم رأس القديس يوحنا تلك الرأس التي جلبت للملك هيرود .

ويكenna الاعتقاد بأن القرى المسيحية أو القرى التي تضم مزيجاً من السكان المسيحيين والمسلمين والتي كانت تقع خارج المدن الصليبية الكبرى كانت لها كنائسها الخاصة بها . ومن سوء الحظ أنه لا يمكن التتحقق من نوع المذهب الديني الذي كان يعتنقه سكان هذه القرى .

* ثمة برهان يؤكد استمرار وجود كنائس غير لاتينية في المملكة الصليبية ، وقتل هذا البرهان في وجود انتاج أدبي حفظ في مكتبة البطريركية البيزنطية في بيت المقدس (على الرغم من أنها لا تستطيع التيقن من أن هذه الكتب قد دونت في الأرض المقدسة) . فهناك ١٤ مجلداً ترجع إلى القرن الثاني عشر، وأحد هذه المجلدات يحمل تاريخ عام ١١٨٢ وتتضمن مجموعة هاجيوس ستافروس Hagios Stavros احدى عشر مجلداً ترجع إلى القرن الثاني عشر الميلادي، ثلاثة منها تحمل تاريخ أعوام ١١٢٢، ١١٦٧، ١٢٠٢ م على التوالى . ويمكن أن نضيف إلى ذلك رسالة الجليلية ترجع إلى عام ١١٥٢ في عهد الإمبراطور البيزنطى انساطسيوس ، وأربعة مجلدات في عهد قوطيس . وأهم هذه المجلدات هي المجلدات الأربع المدونة باللغة العربية (اثنتان منها خاصة بعلم اللغة) مؤرخة عام ١٢٠١، ١٢٢٧، ١٢٠٧ ، وهي الفترة التي شهدت السيادة الإسلامية في مدينة القدس بعد استردادها . وتوجد ثلاثة مجلدات مدونة بالسريانية في عام ١٢٥١، ١٢٩١، ١٢٨٩ ، ١٢٨٩ (المؤلف) .

وغالباً ما تخلط المصادر التاريخية الصليبية خطأً بين السوريان الذين يستخدمون اللغة اليونانية في طقوسهم الدينية وبين أعدائهم اليعاقبة . وهكذا عاش السكان المسيحيون في قرى عديدة حول مدينة بيت المقدس مثل بيت لحم، والقرية من رام الله، واللد، والبيرة (رام الله) وبيت جبرين ، وغزة والناصرة، وطبرية وكذلك القرى الواقعة في منطقة ما وراء نهر الأردن، بيد أننا لا نعرف ما إذا كان هؤلاء المسيحيون من السوريان أو من اليعاقبة*.

وتعتبر معرفتنا ومعلوماتنا عن الأديرة أفضل . فقد وجدت أديرة بيزنطية حول بيت المقدس، وأريحا وعلى ضفتي نهر الأردن خلال فترة السيادة الإسلامية وكذلك خلال فترة السيادة الصليبية . وكانت بعض هذه الأديرة البيزنطية تدعى أنها ترجع إلى عصور موجلة في القدم، وكانت أغلب هذه الأديرة ترجع إلى الفترة الباكرة للحياة التنسكية والديرية التي عرفتها منطقة الشرق العربي في القرن الثالث الميلادي ، ومن الغريب إلى حد ما أن المصادر الصليبية نادراً ما كانت تذكر هذه الأديرة البيزنطية ، إذ كانت هذه الأديرة خارج الاهتمامات المباشرة لهذه المصادر التاريخية اللاتينية .

كان دير القديس إلياس البيزنطي يقع على الطريق الذي يربط بين مدينة القدس وبيت لحم، وقد دمر هذا الدير بفعل تأثير زلزال ، بيد أن الإمبراطور البيزنطي الجواه مانويل كومين قد أعاد تشييده . وفيما وراء بيت لحم وصوب أريحا كانت توجد أديرة القديس ثيودوسيوس Theodosius ، ودير القديس إيثيميوس Euthymius ، والدير الشهير المعروف باسم دير القديس سaba (مار سaba) . وهنا أيضاً كان يوجد دير سانت كاترين، وعلى مقربة منه كانت توجد قرية يقطنها مسلمون ومسيحيون (ربما كانت هذه القرية هي أناثوت Anathoth) وكان شيخ هذه القرية يتبعه بحماية الحجاج في أثناء طريقهم إلى الأردن وكان جسمان القديسة كاترين محفوظاً في مدينة القدس ، وتقييّد دير قلامون calamon بأنه المكان الأسطوري الذي استراحة عنده القديسة ماريا (العذراء) أم المسيح . وقد كان هناك أديرة مثل دير الروح

* السوريان : الواقع أننا لم نتبين تماماً ماذا كان السوريان كانوا ينتسبون إلى المذهب البيزنطي أن كانوا ينتسبون إلى المذهب اليعقوبي ، وقد ذكرت هذه الطائفة المسيحية في الأماكن الآتية (بالإضافة إلى المدن والأديرة الريفية) في المملكة الصليبية مثل: قرية البوه Album التالية من عكا في عام ١١٤٩ م، وبيت لحم في عام ١١٥٠)، وفي قلندرية Callandria التالية من بيت المقدس في عام ١١٥١ م. (المؤلف) .

القدس في خوزبها Khoziba والواقع في ممر ضيق عميق في وادي القلت Qatt ، ودير القديس جيراسيموس Gerasimus (قصر حجلة Qasr Hajla) سالف الذكر وأيضاً دير القديس يوحنا المعمدان الواقع على ضفتي نهر الأردن (قصر اليهود) ، وهو المكان الذي يفد إليه كثير من الحجاج المسيحيين للاستحمام في هذا النهر ، وكان المسيحيون الشرقيون يعمدون أطفالهم في مياه نهر الأردن. وما يذكر أن دير يوحنا المعمدان قد تعرض للدمار والتخرّب، وقام الامبراطور البيزنطي مانويل كومنين باعادة تشييده. ويدرك لنا الرحالة وال حاج البيزنطي فوقياس Phocas الذي زار الأرض المقدسة في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي (١١٨٥م) أن هذه الأديرة كانت محصنة ، وكانت مواقعها المنعزلة خطيرة للغاية . وضمت بعض هذه الأديرة جماعات بشرية تعمل بالانتاج وقد خلفت لنا هذه الأديرة نسخ من المخطوطات تنتمي إلى الفترة الصليبية ، وهذه المخطوطات بعشرة اليوم ومشتقة في مكتبات كثيرة. وفي العادة كانت الجماعات الرهبانية البيزنطية تعيش وفق النظام الديري الذي أسسه القديس باسل منذ فترة قديمة. وإننا نتوق إلى معرفة الكثير عن تاريخ جماعات الرهبان البيزنطيين ، بيد أن المصادر التاريخية المتاحة ضئيلة لا تتيح لنا استخلاص نتائج كثيرة في هذا الصدد.

لقد كانت العلاقات بين الكنائس المونوفيزية الثلاث، الأرمنية والقبطية ، واليعقوبية ودية بشكل عام . وكانت عملية انتخاب أحد البطاركة المونوفيزيين الثلاث يشارك فيها أتباع الكنيسة المونوفيزية التابعة لهذا البطريرك . لقد تعاون البطاركة المونوفيزيون في الهجوم على مبادئ الكنيسة البيزنطية وأحياناً كان البطريرك المونوفيزى يتدخل في عملية حكم وإدارة شئون أبناء كنيسته ورعاياها. وما يذكر أن هذه الكنائس المونوفيزية الثلاثة كانت تلقى التأييد والعطف من جانب الغرفة الصليبية بشكل أكبر من الكنائس البيزنطية أو السوريانية ، وهكذا كان موقفهم تجاه الصليبيين ذات أهمية بشكل عام.

- كان اليعاقبة في الأرض المقدسة في بلاد الشام يمثلون الجماعة والفرقة المونوفيزية ، على الرغم من أنهم كانوا يتمركرون بشكل أساسى في المنطقة الواقعة ما بين أنطاكية والرها . يمكن أن نقيس إلى أي مدى كان يعني الغزو الصليبي للمناطق العربية بالنسبة للمسيحيين الشرقيين وذلك من خلال حقيقة أن بطريرك اليعاقبة في أنطاكية لم يقطن في مدينة أنطاكية عاصمة الامارة منذ أن حصل على لقب البطريرك (باستثناء حالة واحدة فقط وهي حالة البطريرك اليعقوبى أجنس الثانى Ignace II ١٢٥٢-١٢٢٢م). إذ كان بطريرك اليعاقبة

يتخذ من الأديرة في المدن المختلفة (وفي الغالب كانت عميدا Amida) مقرا لاقامته، وحقيقة الأمر أنه في منتصف القرن الحادى عشر الميلادى، وخلال فترة السيادة البيزنطية ، قام البيزنطيون بطرد البطريرك اليعقوبى من مدينة أنطاكية الخاضعة لهم ، بيد أن الأمور تغيرت فى أثناء فترة السيادة الصليبية، إذ استطاع هذا البطريرك اليعقوبى أن يستقر ويسكن بسهولة في مدينة بيت المقدس، فقد كان البطريرك اليعقوبى يفضل الاقامة في الأقليم الإسلامي. والحقيقة أن اقامة الأغلبية الساحقة من اليعاقبة في الأقطار والأراضي الإسلامية قد أثرت بالتأكيد على قرار البطريرك اليعقوبى ، بيد أن سهولة انتقال البطاركة اليعاقبة وتحركهم من الأراضي الصليبية إلى الأراضي الإسلامية يدل على معارضتهم للاقامة بين المسلمين على وجه الخصـر. وظلت طائفة السوريان كما كانوا قبل الوجود الصليبي جماعة منتشرة في المناطق الواقعة ما بين جبال طوروس إلى مدينة بيت المقدس، ومن البحر المتوسط حتى منطقة الميزوبوتاميا Mesopotamia (العراق) ، وكانت طائفة السوريان هذه تخضع لسلطة البطريرك ، وفي الجزء الشرقي لمناطق وجودهم كانوا يخضعون لسيادة نائب حاكمهم الذى كان يعرف بالقائمقام أو المافريان Mephrian . ولم يهاجر اليعاقبة من مناطقهم للاستقرار وسط الصليبيين ، على الرغم من حسن العلاقات بينهم وبين الصليبيين . ولم يحدث أن قام الصليبيون من جانبهم يعمل شيء من شأنه جعل المسيحي الشرقي مواطنًا يتمتع بكل حقوق المواطنة أو أن يجعل منه شريكًا في ملكتهم الصليبية .

كانت مدينة بيت المقدس مركزا رئيسا لجمع اليعاقبة في المملكة اللاتينية، بالإضافة إلى عدة قرى كان يقطنها اليعاقبة. وهنا في حي السوريان في مدينة القدس والذي كان يقع بين بوابة دمشق وبواحة يوسف كانت توجد كنيستهم وديرهم ودار الضيافة الخاصة بهم، وقد كرس كل هذه المنشآت الدينية للقديسة ماريا المجدلية. ويبدو أن كنيسة السوريان قد تم تأسيسها على يد أحد الأقباط، ويدعى مكاريوس من نبروه Macarius of Nabruwah بطريق الاسكندرية أبا يعقوب Abba ya, aquib (٨١٠-٨٣٠م). وعندئذ أصبح الدير تابعا لليعاقبة أعيد بناؤه في أثناء الحكم السلجوقي المتسامح، وأسندت مهمة خدمة هذا الدير وإدارة شئونه إلى أحد المسيحيين اليعاقبة ويدعى منصور البلبيسي Balbayi (قراءة الاسم غير واضحة) . وفي عام ١٠٩٢ تم تعيين وترسيم كاهن للدير وذلك في حضور رسول ومبعوثي البطريرك القبطي كيرلس الثاني II Cyril . وكانت التعليم اليعقوبية تعتبر هذا الدير مشابة

بيت لسيمون المجنوم ويكتفى هذا المكان قداسته أنه قد شهد عرض خصلة من شعر القديسة ماريا المجدلية . وعاش الرهبان اليعاقبة في مدينة بيت المقدس مكان اقامة أسقفهم. (ولدينا قائمة كبيرة بأسماء الأساقفة اليعاقبة منذ عام ١٠٩٠م) وكان هذا المكان يستخدم أحياناً وفي بعض المناسبات لإقامة أحد البطاركة اليعاقبة الذين يأتون لزيارة المدينة المقدسة . وبالإضافة إلى الأساقفة اليعاقبة في بيت المقدس فأنتا نسمع أحياناً عن وجود أساقفة يعاقبة في مدینتي عكا وطرابلس في القرن الثالث عشر الميلادي .

وعلى الرغم من العلاقات الطيبة التي كانت تسود بين اليعاقبة وبين كل من الأرمن والقبط المونوفيزيتين ، فإن بعض الفترات قد شهدت نوعاً من التوتر والعداء بينهما . وكان النزاع والشجار الذي نشب بين اليعاقبة وبين الأقباط في مدينة بيت المقدس أحد الأحداث البارزة التي شهدتها علاقات التوتر بين الطرفين . وكما ذكرنا آنفًا ، فإن كنيسة مدينة بيت المقدس لم ترق إلى مرتبة بطريركية في نظر أية كنيسة من الكنائس المونوفيزيتية ، فقد كانت واحة العريش في سيناد تثل حداً لبطريركية أنطاكية (وهي البطريركية التي كان يتبعها الأسقف اليعقوبي في مدينة بيت المقدس) وبطريركية الاسكندرية ، أي كانت بثابة حد بين بطريركتي أنطاكية والاسكندرية . وبعد استرداد صلاح الدين مدينة بيت المقدس استدعى المسيحيون المصريون - الذين زاروا فلسطين وبلاط الشام - أحد أساقفتهم القبط ليكون أساقفاً للقبط في مدينة القدس . وفي عام ١٢٣٧م تم تعيين كيرلس الثالث من الاسكندرية أساقفاً مونوفيزيتاً وقام بتكريس نفسه ، ولم يتم هذا التكريس على يد البطريرك القبطي في أنطاكية كما هي العادة . وكان الأسقف القبطي الأول محرومًا كنسياً على يد بطريرك أنطاكيه اجنس الثاني - Ig nace II بعد أن الصليبيين الذين بسطوا سيادتهم على مدينة القدس مدة خمسة عشر عاماً بعد الحملة الصليبية التي قادها فردرريك الثاني ، وافقوا على تعيين هذا الأسقف القبطي الجديد على الرغم من احتجاجات اليعاقبة . وانتقم البطريرك اليعقوبي لنفسه بأن قام بتكريس أحد الزروج في منصب أسقف العباسية ، وكان مثل هذا التعيين دائماً من حق بطريرك كنيسة الاسكندرية .

وفي العادة كانت العلاقات ودية بين اليعاقبة وبين الصليبيين ، وظل هناك نوع من التلطف والتعاطف المعقول بين الاثنين طالما أن الصليبيين لم يحتقرروا اليعاقبة . ومن الناحية الرسمية ، كان أساقفة اليعاقبة والأرمن في بيت المقدس بثابة أساقفة مساعدين للبطريرك اللاتيني .

وتدخل البطريرك اللاتيني في شئون اليعاقبة بشكل سافر، وكان البذل والبرطلة والارشاء يلعب دوراً خسيساً في العلاقات بين الأساقفة المونوفيتين والبطريرك اللاتيني*. وبالإضافة إلى ذلك، فإن تدخل البطريرك اللاتيني لم يقتصر فقط في الأمور الكنسية المهمة. واقتبس الصليبيون التقليد الإسلامي في ثبيت البطاركة والأساقفة الشرقيين الذين تم انتخابهم لهذه المناصب الكنسية. ففي القرن الثاني عشر الميلادي لم يعد الخليفة المسلم هو الذي يصدر قرارات التعيين لأصحاب المناصب، بل كان الأئمّة هم الذين يقومون بهذه المهمة ، وهي القرارات الخاصة بتعيين حكام المدن والامارات. وظلّ الصليبيون يتبعون هذا التقليد الإسلامي، فقد قام الملك الصليبي أمالريك الأول (عموري الأول) بالتصديق على تعيين بطريرك يعقوبي على غرار ما فعله من قبله الملك الصليبي بلدوبن الرابع. وعلى أي حال ، فإن احتمالات مثل هذا التدخل من جانب الملوك الصليبيين كان أمراً عادياً، ويرجع ذلك إلى أنّ التاج الملكي الصليبي والملوك الصليبيين قد احتفظوا لأنفسهم بهذه الحقوق حتى في تعيين المناصب الدينية في الكنيسة اللاتينية .

لقد كان المسيحيون الشرقيون من الأرمن والجورجيّان والنساطرة أقل عدداً من السوريان واليعاقبة. فقد كان النساطرة أكثر انتشاراً وأهمية من منطقة العراق (الميزورياتاما) وفي الأقاليم الشرقية للخلافة العباسية . وظلت الجماعات الصغيرة من النساطرة تعيش في الإمارات الصليبية، وكان من المعتاد بالنسبة لكاثوليكيوس النسطوري Nestorian Ka- thelicas الأرمن والجورجيّان يمثلون كيانات دينية وعرقية وسياسية . وترجع علاقاتهم بمدينة بيت المقدس . وكان الأرمانيون يقيمون في بغداد أن يكون لهم مثل ومندوب في مدينة بيت المقدس . وكان إلى عصر الإمبراطورية الرومانية المتأخرة، وفي القرن السابع الميلادي كانت الكنائس والأديرة الأرمانية كثيرة العدد في الأراضي المقدسة في فلسطين . وخلال فترة الحكم الصليبي وجدت الجماعات الأرمانية في مدينتي بيت المقدس وعكا فقط، على الرغم من أن بعض الأرمن كانوا ضمن الأنصار الاقطاعيين التابعين للملكة الصليبية ، وكان المزار المقدس الرئيسي لهم هو مكان القديس جيمس James الواقع في شارع الأرمن بين برج داود وبواحة صهيون ، فقد اعتبر

* قام أحد الرهبان اليعاقبة ويدعى بار واهب Bar Wahbun بتقديم الرشوة للبطريرك اللاتيني في بيت المقدس من أجل تسلم دير ماريا المجدلية. (المؤلف) .

البطريرك الأرمنى نفسه بثابة خليفة ووريث للحوارى جيمس James الذى شيدت له فى عام ١١٦٥ كاتدرائية فخمة أجالاً وتقديرًا له.

وفي الغالب، كان الجورجيون يعرفون باسم «الإيبيريين Iberians» (ويرجع السبب فى هذه التسمية إلى أن بعض المؤرخين المحدثين قد خلطوا بينهم وبين الأسبان)، وكان لهم مزارهم المقدس العظيم في دير الصليب المقدس خارج أسوار مدينة القدس. ونظراً لأنهم كانوا يمثلون مملكة مسيحية هي مملكة جورجيا التي تقع في منطقة القوقاز البعيدة، فإنهم تمعنوا بعطف وتأييد اللاتين ومعونة الملوك الصليبيين الأتقياء. وخلال عهد الملكة تamarra Tamara (١١٨٤-١٢١١م) قدم إلى الأرض المقدسة شاعر جورجياني كبير يدعى شوئى راستافيلى Shothe Rustavili ، وكتب هذا الشاعر قصيدة شعرية ملحمية جورجيانية وطنية عرفت باسم (الرجل في جلد النسر Vapkiss Takossani). وفي عام ١٩٦٤ اكتشفت بعثة جورجانية حديثة لوحات جصية للفنان الجورجياني الموهوب ترجع إلى القرن الخامس عشر الميلادي وكذلك أعماله الفنية التي تزين الكنيسة الفخمة الوحيدة.

وإذا ما قارنا بين الأهداف والنتائج، فإنه يتبين لنا أن سياسة الصليبيين تجاه المسيحيين الشرقيين كانت في أجملها فاشلة. وثمة جماعة عرقية من جبل لبنان وهي طائفة المارون التي ظلت لعدة قرون بعيدة عن التطور الديني الواسع والمتبادل، واتحدت طائفة المارون مع كنيسة روما الكاثوليكية في عام ١١٨٢. وقد تحققت الوحدة مع روما، واعترف المارون بسيادة بابا روما والبطريرك اللاتيني. ولا يجب أن نقلل من أهمية هذه الوحدة بين المارون وبين كنيسة روما، وهي الوحدة التي كان لها تأثير دائم ومستمر على منطقة الشرق العربي في المجال السياسي والثقافي. ومع ذلك فإن هذه الوحدة بين الكنيسة المارونية وكنيسة روما قد ادخلت للمستقبل. وبعد ذلك لم يصبح المارون بثابة قنطرة للعبور إلى الشرق المسيحي، ولم يندمجوا مع الحكام الصليبيين.

وإذا كان هذا هو الوضع بالنسبة للمسيحيين الشرقيين الذين اعترفوا بسيادة كنيسة روما، فمن المحقق أن مثل هذه الوحدة كانت دعامة جيدة للبيزنطيين والسوريان واليعاقبة. وعلى الرغم من أن هذه الطوائف كانت تصنف نفسها بأنها أمم، فإن هؤلاء المسيحيين لم يطمحوا إلى نيل أي نوع من الحرية، باستثناء حرية العبادة التي كان يطمحون إلى نيلها. إذ لم يكن لديهم أي احساس بالحرية أو الابعاد، وذلك لأنهم كانوا سكان الأرض الأصليين. ومن ثم،

فإنهم لم يتورقا للعودة. ويمكن أن نرجع سبب شعور المسيحيين الشرقيين بالوحدة الطائفية إلى شدة الجدل المتعصب والمستمر فيما بينهما والمنافسة فيما بينهم، وأيضاً إلى كونهم يعيشون وسط محيط كبير من المسلمين. وكانت الدعامة التي تستند إليها الطائفة تمثل في أساقفتهم الكنسيين، وانتشارهم في الأقاليم الواقعة بين البحر المتوسط وجبال فارس . وما يذكر أن الوجود الصليبي لم يستطع أن يغير من هذا الوضع شيئاً على الرغم من أن هذا الوجود الصليبي استطاع في بعض الأحيان أن يضيف عنصراً جديداً لفنون الجدل اللاهوتي والمناظرة الدينية بين المسيحيين الشرقيين، وما يذكر أيضاً أن المؤنفيزيترين والخلقدونيين الذين تسابقوا فيما بينهم في الفترة السابقة في تدبيج الكتب والرسائل اللاهوتية من أجل تبيان كل واحد منهم أخطاء الآخر من الناحية المذهبية ، أصبحوا الآن يتخدون من المسيحية اللاتينية هدفاً لجدالهم ومناظراتهم الدينية. وهكذا فإن المسيحيين الشرقيين لم يجدوا في تحرير أرض فلسطين من الحكم الإسلامي على يد الصليبيين أية جدو في خلاصهم وتحررهم .

ولم يقم الصليبيون من جانبهم بعمل أي شيء من أجل تغيير الأطراف المستمرة والدائمة للمسيحية الشرقية، على الرغم من وجود بعض المحاولات المتفرقة والمعتدلة من أجل التحول إلى الدين المسيحي (التنصير) . ولاشك أن مثل هذه المحاولات قامت بها الكنيسة، أو الذي قام بها بشكل أكبرهم بعض الأساقفة الغيورين والمحتمسين للمسيحية، ولم يتردد أحد في أن يصف مثل هذه المحاولات الخاصة بالنشاط التنصيري على أنها عثابة برنامج ديني وإن كانت تحمل القليل من السمة السياسية. وبالإضافة إلى ذلك ، فإن المملكة الصليبية لم تكن منهكة بشكل واضح في مثل هذه المحاولات والمساعي الخاصة بالتنصير . وإذا ما تذكرنا في القرن الثالث عشر الميلادي ، فإننا نجد أن الكنيسة الأسبانية قد حثت الدولة على أن تجبر غير المسيحيين لحضور وسماع الموعظ الدينية الخاصة بالتحول إلى الدين الجديد (التنصير) ، وأصبح عدم اهتمام القوى العلمانية الصليبية بهذا الموضوع (التنصير) أمراً ذا معنى إذا ما قررنا بجهود رجال الدين في هذا الموضوع .

وتجدر الاشارة إلى أن ما سبق ذكره يكفى لكي يوضح أن الكنيسة والدولة في المملكة الصليبية في بيت المقدس اختلفتا في طريقة فهم مشكلة قضية المسيحي الوطني الشرقي. ومع ذلك، فإن عدم اهتمام الدولة الصليبية والسلطات الصليبية بعملية التنصير لا يمكن أن تعتبر مثل هذا السلوك نوعاً من التحررية السياسية أو نوعاً من التسامح الديني المقضي . إذ

كان يوجد هناك تسامح من الناحية العملية، وذلك من منطلق أن الدولة أدركت جدوى هذه السياسة وتسامحت مع الجماعات والطوائف الهراتقة غير الكاثوليكية . الواقع أنه كان يوجد تحررية، إذ كان لكل طائفة مسيحية حرية ممارسة شعائرها الدينية وعاداتها وتقاليدها الخاصة بها، بيد أن بواعث هذه السياسة لم ترتفع عن حدود التسامح الديني، وببساطة فإن هذه السياسة كانت أسهل وسيلة لمعالجة وضع معقد وذلك بتخليل واقرار النظام والقانون الذي كان موجوداً في هذه النطقة قبل مجبيه الصليبيين. فقد تواهم كل المسيحيين من غير الصليبيين مع نفس الوضع والنظام القانوني، ولم يحصلوا أو ينالوا حق المواطنـة . فأهل الذمة (اليهود والنصارى) الذين كانوا رعايا الدولة الإسلامية في الفترة السابقة أصبحوا أهل ذمة خلال فترة الحكم الصليبي.

وكانت جذور وأصول السياسة اللاتينية الرسمية التي تقر عدم الاعتراف برجال الدين البيزنطيين وآخضاع الفئات الدينية الأخرى للأساقفة ورجال الدين اللاتين تكمن في الوضع الديني لكنيسة روما . ويمكن تفسير موقف واتجاه السلطات الصليبية في ضوء الاستشراق العملى للأمور والمشاكل الاستعمارية (البرجماتية الاستعمارية)، هذه الذرائع الاستعمارية التي هيمنت على كل الطرق الممكنة، والتي اعترفت بوجود طبقة اجتماعية محلية دنيا . لقد كان المسيحي المحلي وطنياً أي مواطنـا ، وكان ينظر إلى الصليبي الغريب على أنه مواطن أيضا . وكانت عقيدة المسيحي الشرقي لاتلطف الوضع ، وقد تفتح بحرية دينية مثل اليهودي، أو السامرـي أو المسلم. بقدر بسيط وليس بدرجة كبيرة .

وبصطـلـحـات معاصرـة يـبدوـ أنـ هـذاـ الخـلـ كانـ أـكـثـرـ دـيقـراـطـيةـ وـتـحـرـرـيـةـ وـلـيـبرـالـيـةـ . ويـسـطـيعـ المرءـ القـوـلـ إنـ هـذاـ التـسـامـحـ كانـ أـهـمـ اختـيـارـ لـالتـسـامـحـ وـكـانـ نـفـسـ المـحـالـةـ وـالتـحـرـرـيـةـ الـدـينـيـةـ تـتـفـقـ معـ كـلـ مـسـيـحـيـينـ منـ غـيرـ الـلـاتـينـ . وـمـاـ يـذـكـرـ أنـ هـذـهـ الفـكـرـةـ مـضـلـلـةـ بـشـكـلـ طـبـيـعـيـ، وـذـكـرـ لـأـنـهـ تمـ تـجـاهـلـ وـاغـفـالـ حـقـيـقـةـ أـنـ كـلـ السـكـانـ فـيـ الـمـلـكـةـ الـصـلـيـبـيـةـ قـدـ انـقـسـمـواـ إـلـىـ طـبـقـةـ حـاكـمـةـ مـنـ الـمـوـاـطـنـيـنـ وـطـبـقـةـ دـنـيـاـ مـنـ غـيرـ الـمـوـاـطـنـيـنـ ، بـصـرـفـ النـظـرـ عـماـ إـذـاـ كـانـواـ يـعـتـبـرـونـ أـنـفـسـهـمـ مـوـاـطـنـيـنـ أـحـرـارـ أـمـ غـيرـ أـحـرـارـ وـمـقـهـورـيـنـ .

وببساطـةـ فـيـنـ مشـكـلـةـ وـقـضـيـةـ التـحـرـرـيـةـ وـالتـسـامـحـ لمـ تـظـهـرـ لـلـوـجـودـ وـقـدـ أـسـىـ استـخـدامـهـاـ إـذـاـ تـصـوـرـنـاـ مـثـلـ هـذـهـ الأـفـكـارـ الـخـاصـةـ بـالـمـجـتمـعـ الـأـدـرـيـيـ فـيـ الـقـرـنـ الثـانـيـ عـشـرـ المـيـلـادـيـ . لـقـدـ كـانـ الاـختـيـارـ الـحـقـيـقـيـ هـوـ مـدـىـ اـسـتـعـدـادـ الـأـقـلـيـاتـ الـمـسـيـحـيـةـ لـقـبـولـ الـانـدـمـاجـ فـيـ كـيـانـ سـيـاسـيـ وـاحـدـ .

هذه الوحدة التي لم تحدث على الإطلاق ولا يمكن تصور حدوثها . لقد جاء الصليبيون إلى المنطقة العربية كفزاة وظلوا كذلك في الأرض المقدسة، وكان كل خصومهم الهراتقة يتظمنون في قالب واحد وازدادت عزلتهم بسبب اختلافهم المذهبي .

لقد بدأت المغامرة الاستعمارية خارج أوروبا بأفكار مختلفة، بيد أنها انتهت هذه المغامرة بصياغة النظام الكلاسيكي للاستعمار: ولم يحدث احتلال وامتزاج على الإطلاق بين الصليبيين وبين الوطنيين .

الفصل الثالث عشر

اليهود

كان السكان من اليهود في المملكة اللاتينية يعيشون خارج نطاق المجتمع الصليبي ونطاق الطوائف المسيحية المحلية وال المسلمين . فقد عاشت الجماعات اليهودية في المملكة اللاتينية في بيت المقدس حياة غير مستقرة متسبعين بوطنهم القومي التاريخي*. ولا يمكن للأوضاع الاقتصادية أو المزايا الاجتماعية أن تفسر لنا سبببقاء الجماعات اليهودية وتصسيمها وعزمها على الإقامة في قطر يكيل لهم صنوف الاضطهادات والمضايقات حيث التعصب المسيحي أو الإسلامي ضدتهم، وتأججت نار هذا التعصب ضد اليهود في المناطق التربية من الأماكن المقدسة، الأمر الذي جعل حياتهم محفوفة بالمخاطر والأهوال وجعل حياة اليهود بمثابة تجربة خطيرة . وعلى الرغم من الاغراءات الكثيرة التي قدمتها لهم أقطار كثيرة مزدهرة، مثل مصر أو العراق ، فإن الجماعة اليهودية لم تهجر الأرض المقدسة في فلسطين .

ومن المرجح أن بعض الجماعات اليهودية في العصور الوسطى الباكرة كانوا من أهل البلد الأصليين ، ويرجع وجودهم في الأراضي المقدسة إلى فترة زمنية تسبق فترة السيادة الرومانية أو البيزنطية أو الإسلامية. فقد عاش بعض السكان اليهود الفقراء خلال فترة اثنين من الأباطرة الرومان وهما تيتوس وهادريان ، وخلال الفترة البيزنطية، وعاني اليهود خلال هذه الفترات الزمنية الكثير من المضايقات والاضطهادات. ومن المحتمل أن هؤلاء السكان اليهود قد عاشوا في إقليم الجليل. وكانت بعض هذه الجماعات اليهودية ذات أصل حديث جداً . فعلى سبيل المثال، كان اليهود في مدينة القدس من الذين عادوا إليها في أعقاب الفتح الإسلامي لفلسطين في عام (٦٣٨م) ، حيث وضع المسلمين الفاتحون نهاية للاضطهاد البيزنطي ، ووضعوا أيضاً نهاية للتعصب المسيحي البيزنطي ضد اليهود.

* ما زال المؤلف يؤكد ويكرر فرية طالما رددها المؤرخون اليهود وهي أن فلسطين هي الوطن القومي التاريخي لليهود، وتوظيف ما جاء في الكتب المقدسة في خدمة الأغراض السياسية الصهيونية. وثمة دراسة عن يهود بنى إسرائيل تفند وتنتفي هذه المزاعم. انظر : آرش كيسنر : القبيلة الثالثة عشرة، (ترجمة : أحمد نجيب هاشم ، الهيئة المصرية العامة ، ١٩٩١) .

وكان تدفق الحجاج والهجرة من أبرز سمات الجماعة اليهودية في الأرض المقدسة ، وهي العملية التي كانت تضمن استمرار حضور الجماعات اليهودية إلى الأرض المقدسة جيلاً بعد جيل . وربما كانت هذه الجماعات اليهودية تخفي من هذه المناطق المقدسة بسبب الاضطهادات التي كانت تتعرض لها من جانب السلطات الحاكمة أو بسبب الافقار والسلب والنهب الذي كان تتعرض له هذه الجماعات أيضاً ، بيد أنه بعد عدة أجيال وجدت جماعة يهودية جديدة نشأت من خلال استيطان عدد قليل من العائلات ، التي جذبتها رحلات الحج إلى الأماكن المقدسة والذين قرروا البقاء في هذه الأماكن المقدسة بشكل نهائي .

وما يذكر أن أماكن كثيرة في الأرض المقدسة كانت قد خربت ولم تعد تضر بالسكان مرة ثانية ، بيد أن التاريخ الفلسطيني في كل فتراته لم يكن يخلو من وجود الجماعات اليهودية في هذه المناطق الفلسطينية . وببدو أن اليهود استمرا في المطالبة بحقهم الشخصي في هذا القطر (فلسطين) وذلك عن طريق تدعيم الوجود والحضور الطبيعي المستمر للجماعات اليهودية . لقد كانت صلواتهم اليومية ودراسة التوراة تحفظ لهم عملية التذكر بالوعد الإلهي الذي منحه الله لأبائهم السابقين .

وبحلول منتصف القرن الحادى عشر الميلادى ، وقبل الغزو الصليبي بجيلىن تقرباً كانت مدينة رام الله تُعد من أهم المراكز اليهودية في الأرض المقدسة ، وهي المدينة التي كانت عاصمة لهذا القطر الذي كان يخضع للسيادة الإسلامية والدولة الفاطمية في مصر ، والتي تقع في منتصف الطريق بين يافا ومدينة بيت المقدس . وشهدت مدينة رام الله نزاعاً دائماً بين طائفتين القرائين اليهودية وبين طائفتي الريانياين اليهودية أيضاً ، إذ كانت رام الله مركزاً مهماً لهماين الطائفتين من اليهود . ودافعت كل الجماعات اليهودية عن مصالحها بحيوية ونشاطاً بما يتواافق مع مركزها الديني ومكانتها الروحية في مدينة بيت المقدس ، واحتفظوا بعلاقات حميمة مع عدد كبير من أخوانهم اليهود ذوى النفوذ في القاهرة ، ودمشق ، وحلب ، ويغداد وووجدت هذه الجماعات اليهودية في ثلاثين منطقة أخرى . وقد تفاص عن الغزو السلجوقي الذي حدث قبل الوجود الصليبي بجيلىن كامل نشوب الحروب وانتشار أعمال السلب والنهب ، ومن المحتمل أن مثل هذه الأحداث من العنف كان لها تأثيرها السلبي على السكان من غير المسلمين ، ومن المحتمل أيضاً أن حالة عدم الأمان والاستقرار التي شهدتها منطقة الشرق العربي نتيجة الغزو الصليبي انعكست أثراً على سكان المنطقة كلها ولا سيما غير المسلمين . وعلى أي حال ، فإن

الغزو السلاجقى قد تم بصورة سريعة جداً . وبذل الحكام السلاجقة جهداً كبيراً من أجل أن يحل ويعم الاستقرار والأمان أرجاء هذا القطر الذى دمرته الحرب وألحقت به الخراب . بيد أن فترة إعادة الاستقرار والأمان لم تستمر أكثر من مدة جيل.

لقد كانت الإشاعات والأراجيف التى تروج للحروب الصليبية تسبق زمنياً زحف الحملة الصليبية الأولى صوب منطقة الشرق العربى ، وقد أعقب هذا الزحف الصليبي توارد أخبار وتقارير حول المذابح الرهيبة التى ارتكبها المحاربون الصلي比ون فى عام ١٠٩٦م ، وهى المذابح التى ارتكبها الصليبيون من الفلاحين ضد اليهود فى كل من فرنسا وألمانيا ، وارتعدت فرائص الجماعات اليهودية فى منطقة الشرق العربى خوفاً ورعباً من جراء انتشار أخبار المذابح الصليبية ضد اليهود فى أوروبا . لقد كانت الحركات المسيحية ظاهرة متصلة ولازمة فى التاريخ اليهودي ، واستطاعت هذه الحركات والاتجاهات المسيحية أن تشير حركة الشتات اليهودي (الدياسپورا) . ففى منطقة البلقان كان المسيحيون واليهود على السواء يرون فى هذه الحركة الصليبية على أنها إحدى علامات اقتراب يوم الدينونة ، وجمع الناس للحساب . وبينما كان المسيحيين يتوقعون مجيئه المسيح الدجال ، كان اليهود يدركون أهواه وقرارات يأجروج وأماجروج ، وهى الأهواى التى حتى الآن حبيسة ومحتجزة فيما وراء « جبال الظلمات » . وفي أعقاب هذا الزلزال سوف يأتي المسيح « ابن يوسف » ، المسيح السابق ، « ابن داود » . وبعد وقت قصير ظهرت الجيوش الصليبية قبلة مدينة القدسية ، وبعد ذلك عبروا مضيق البوسفور إلى آسيا الصغرى ، ووصلوا بلاد الشام ، ودخلوا الأرض المقدسة.

وفى أعقاب ظهور الصليبيين على الساحل اللبناني عام ١٠٩٩م تجددت أهواى الحرب . ووصل خطاب من مدينة رفح الصغيرة القريبة من غزة بصحبة أحد سكانها من اليهود يطلب فيه من إخوته اليهود فى مدينة القدس أن يهربوا إلى مدينة عسقلان المجاورة والمحسنة درأ للمخطر الصليبي . وحتى قبل الغزو الصليبي الفعلى ، هجر السكان المسلمين واليهود الكثير من الأماكن وشاركهم فى ذلك السكان المسيحيون . وقد حدث فى يافا ورام الله ، وليس هناك شك فى أن السكان اليهود قد شاركوا فى عملية الهرب والتزوح العام للسكان .

والواقع أن الزحف الصليبي صوب الأرض المقدسة فى فلسطين لم تعترضه أية مقاومة حتى وصل الصليبيون إلى مدينة القدس هدفهم المنشود . فقد قام المصريون الفاطميين بطرد السلاجقة من مدينة القدس قبل الغزو الصليبي وكان المدافعون عن قلعة مدينة القدس عبارة

عن حامية مصرية وسودانية وكانت أسوار المدينة مزودة بالجند من بين سكان المدينة المحتشدين. وتعهد سكان كل حى بالدفاع عن السور الواقع فى قطاع حيهم، وكان اليهود والمسلمون (كان المسيحيون الشرقيون يعتبرون أشخاصاً خائنى أو طانهم) يدافعون عن الأسوار، فقد تعهد اليهود بالدفاع عن الحي الذى يقطنونه فى المدينة (وكانت منطقة حى اليهود فى بيت المقدس تقع بين بوابة دمشق فى الشمال وبين ما كان يسمى برج طيور الاستوركس Tower of the Storks فى الركن资料 from the Storls فى الركن الشمالي الشرقي من المدينة)، وهو الحي الذى عرف فى الفترة الصليبية باسم الحي اليهودي The Juivrie. كانت منطقة الحي اليهودي فى مدينة القدس تثل أضعف نقطة فى دفاعات المدينة، بسبب عدم وجود واد طبيعى يقطع المدينة هنا عن الأرض المحاطة بها، وكذلك لأن دفاعات المدينة اعتمدت كلية على مدى قوة ومتانة الأسوار.

وكان ياسطاعة الحامية المرابطة فى منطقة حى اليهود ملاحظة جيش القائد الصليبي جودفرى البريونى الذى يعبر الأسوار والختادق وذلك إذا نظروا من خلال الفتحات المزود بها سطح الحصن. وأخيراً اختار الجيش الصليبي المهاجم هذا القطاع والجزء من المدينة (الحي اليهودي) ليبدأ منه هجومهم الرئيسى والحادس على المدينة. وفي الخامس عشر من شهر يوليو عام ١٠٩٩م، شن جيش جودفرى البريونى هجوماً حاسماً على الأسوار القريبة من الحي اليهودي واندفعت القراء الصليبية بقوة داخل المدينة، وتلتها قوات تانكرد فى الجهة الشمالية الغربية وقوات ريموند السانجبيلى من جهة جبل صهيون فى الجنوب.

وتقهقر أفراد الحامية المصرية الفاطمية المدافعة عن المدينة صوب منطقة المعبد، واتسم أسلوب الغزو الصليبي لمدينة القدس بتاجع نار العداء والكراهية والتعصب ضد سكان هذه المدينة، فقام أفراد الجيش الصليبي بنهب وسلب المنازل وأضرموا فيها النار. وبأيأس اليهود من المقاومة، وبحثوا عن ملاذ لهم هرباً من الوحشية والبطش الصليبي فذهبوا إلى معابدهم فى المدينة للاحتماء فيها، ولكنهم تعرضوا لقسوة القتل دون رحمة كما تعرضوا لأعمال الحرق وهم أحياء على يد الصليبيين. وابتسم الحظ للقليل منهم فهربوا من هذه المذبحة الجماعية، بيد أن هذه القلة من الهاريين اليهود ساقهم بعد ذلك حظهم العاثر فوقعوا أسرى لدى القائد الصليبي تانكرد حيث بيعوا عبیداً فى أسواق النخاسة فى إيطاليا. ويقول المؤرخ اللاتينى بلدريك الدوللى Baldricus Dolensis والفرحة تغمر جوانحه أن الأسير اليهودى قد بيع بثلاثين قطعة

قضية، وأن هذا الأسر لليهود يعد بمثابة عمل تكفيiri خطيرة وخيانة يهودا الاسخريوطى*. وسيق البعض الآخر من لليهود إلى مدينة عسقلان زمراً على يد ريموند السالجىلى وتبعهم أيضاً قائد الحامية الفاطمية التي كانت تدافع عن مدينة القدس وقادت الجماعة اليهودية المحلية في عسقلان بتقديم العون ومساعدة أخوانهم اليهود المصريين الذين نزحوا إلى عسقلان بافتداهم. ولم يبق أى يهودى على قيد الحياة في مدينة بيت المقدس .

لقد كان اختفاء وعدم ظهور الجماعات اليهودية في يافا ورام الله والمذايغ التي تعرض لها اليهود في مدينة بيت المقدس يتبعه عملية ابادة وقتل للجماعات اليهودية الأخرى. ومرة ثانية نسمع أن اليهود وال المسلمين قد تكادفوا سوياً ضد الغزو الصليبي في أثناء حصار يافا في عام ١١٠٠ **، وهي الجماعة اليهودية التي كانت قد حصلت على امتيازات خاصة في مدينة يافا من المحكم الفاطميين في مصر. فقد كان البناية يحاصرها يافا من جهة البحر، والصلبيون يحاصروها من البر. وكان تانكرد على وشك رفع هذا الحصار، بيد أن بطريق بيت المقدس اللاتيني استحثنه على المعاشرة ومواصلة الحصار، وأشار إلى ذلك العار الذي سيلحق باسمه إذا أخفق في سحق مقاومة اليهود المدافعين عن المدينة.

وفي أثناء السنوات العشر التالية من الغزو الصليبي (١١٠٠-١١١٠م) ، تم ابادة وفناء أعداد كبيرة من المسلمين واليهود في كل مدينة احتلها الصليبيون . لقد كانت الهيمنة الصليبية على هذه المناطق بمثابة عودة إلى هيبة الإمبراطور الروماني تيتوس .

وتغير الوضع في العقد الثاني من القرن الثاني عشر الميلادي. وسلك الصليبيون الذين تخضب أيديهم بدماء اليهود خلال رحلة الزحف المقدس من أوروبا من قبل سياسة مختلفة حيث سمح لليهود بالإقامة والعيش في المملكة اللاتينية. ولم تشهد الأرض المقدسة المذابح

* يهودا الاسخريوطى : أحد تلاميذ السيد المسيح الائنى عشر الذى أعطاهم سلطة على الأرواح النجسة ليطردوها ، وزودهم بالمعجزات والخوارق كشفاء العلل والأمراض ، بيد أن يهودا الاسخريوطى هذا قد خان السيد المسيح. انظر : الخليل متى - الاصحاح ١٠ . (المترجم) .

** يؤكد المؤلف على ابراز دور لليهود في الدفاع عن المدن الإسلامية ضد الصليبيين وهذا يجاوز الحقيقة

الجماعية ضد اليهود خلال فترة السيادة الصليبية، بيد أن هذه المذابح والاضطهادات الصليبية ضد اليهود في أوروبا كانت تتكرر مع كل دعرة إلى حملة صلبيّة جديدة.*

رعلى أي حال ، فإن الحكماء الصليبيين لم يسلكوا سياسة محددة وثابتة أزاء اليهود . فقد تبنت سياسة عامة تجاه السكان الوطنيين، إذ سمحوا لكل السكان المحليين باختلاف طوائفهم بتطبيع قرانيتهم ونظمهم المحليّة التي كانت سائدة قبل الوجود الصليبي. ومن المعتمل أن مسألة الاجراءات القانونية والقضائية الذي يحفظه لنا «كتاب القرانين البرجوازية de Livre Assises de Bourgeois» سوف توضع هذه الممارسة فقد جاء فيه:

إنه إذا أقام بيزنطى دعوى قضائية ضد أحد السكان من اليهود ، وأنكر الأخير هذه التهمة الموجهة ضده، فإن القانون يلزم الشخص البيزنطي المدعى باحضار شهود من اليهود ، وسوف يؤدي هؤلاء الشهود قسماً طبقاً لعقيدتهم الدينية وقانونهم ، وتكون الدعوى صحيحة ومكتملة الأركان عندما يؤكد هؤلاء الشهود أنهم رأوا مرتكب الجريمة أو أنهم سمعوا ما تفوه به المدعى عليه (المتهم) من اساءة ضد المدعى . فإذا لم يوجد هناك شهود يصبح المدعى عليه حراً طليقاً. فقد كان الشخص اليهودي يقسم على التوراة، وكانت طائفة السامرة تقسم على أسفار موسى الخمسة Pentateuch وكان الشخص البيزنطي يقسم على الانجيل. وكان هذا القسم والقرانين المشابهة تظهر السياسة العامة للحكام الصليبيين تجاه السكان من غير الفرنجة. وكان التمايز واضحًا في قائمة العقوبات الجنائية فيما بين المسيحيين الكاثوليك وبين المسيحيين من غير الكاثوليك (الأرثوذكس والمذاهب الأخرى). فقد كانت دبة القتيل من غير الفرنج تعادل نصف دبة القتيل من الفرنج . ويمكن تلخيص هذا الوضع من خلال العبارة الآتية والمقتبسة من أحد الكتب القانونية الصليبية: «ولأن سكان المملكة اللاتينية من السوريان، والبيزنطيين، واليهود ، وأنباء طائفة السامرة، والنمساطرة أو المسلمين، هؤلاء جميعاً مثل الأفرنج عليهم أن يدفعوا ويؤدوا ما تفرضه عليهم المحكمة البرجوازية. وكانت هذه هي السياسة الرسمية بيد أنه في حالة المسيحيين الشرقيين، كانت هناك عوامل قوية في المملكة

* الواقع أن أسباب الاضطهادات الصليبية ضد اليهود في أوروبا في العصر الوسطي ترجع إلى أسباب اقتصادية واجتماعية في المقام الأول ولم يكن العامل الديني هو السبب . انظر : قاسم عبد قاسم «الاضطهادات الصليبية ضد اليهود في أوروبا» ندوة التاريخ الإسلامي والوسط، المجلد الأول، دار المعارف (المترجم) . ١٩٨٢ م.

اللاتينية فقط أدت إلى عدم اقرار مثل هذه السياسة. ونجد أن المؤرخ الصليبي الشهير وليم الصورى رئيس أساقفة مدينة صور (١١٨٠م) يشجب بعنف سلوك أولئك الأمراء المسيحيين الذين يفضلون الأطباء اليهود والعلاج عندهم . وثمة قصيدة شعرية كتبت فى مدينة القدس فى نهاية الحملة الصليبية الثالثة تدعى المسيحيين إلى طرد اليهود من مناطقهم التى يقطنوا . وهذا يتفق مع ما ذهب إليه أيضاً جاك الفيتري Jacques de Vitry أسقف مدينة عكا (١٢٢٠م) الذى صب جام غضبه وانفعاله على كل شيء وكل شخص صليبي ، فكتب مقالة قصيرة عن اليهود . وبدأ هذه المقالة بترديد وتكرار التعاليم الرسمية الكنسية التى تحرم عملية اجبار اليهود على التحول إلى المسيحية والارتداد عن اليهودية كما تحرم قتل اليهود ، وذلك لأنهم كانوا شهود التوراه، بيد أنه أدان اليهود للمصير الذى آلت إليه يوحنا المعمدان على يديهم ، وهو ذلك الرجل «الهائم الحالد» فقد قام هيرودوس ملك اليهود بقطع رأسه * . وعندئذ أضاف جاك الفيتري أسقف عكا فى روايته قائلاً : «لقد عاش اليهود بين ظهراني المسلمين محترقين ومكرهين . والآن سمح الأمراء المسيحيون الذين أعمتهم الجشع للبيهود بأن يستعبدوا المسيحيين وينهبو أموال المسيحيين بالربا المقيت والفاشش ، وفي ظل السيادة الإسلامية كان اليهود يعملون في حرف يدوية صعبة ومهن حقيرة . فقد عاش اليهود بعيداً مستذلين وسط المجتمع الإسلامي. وتسامح المسلمين الهراتقة معهم بأن وفروا لهم أدنى مستوى من المعيشة ، وكان هذا هو مظاهر التسامح فقط».

وما ذكرناه انفاً قلما يتطبق على اليهود الفلسطينيين ، وذلك لأن عملية الاقراض بالربا كان يمارسها التجار الإيطاليون وفرسان الهيئات الدينية العسكرية (الداوية - الاستبارية - التيوتون) ، دون خوف من منافسة اليهود لهم في هذا المجال. وعلى الرغم من مثل هذه الاستهلالات والدراسات الأدبية ، فإن الوضع العام للبيهود كان جيداً بدرجة كافية لتسهيل

* مقتل يوحنا المعمدان : يذكر الجبيل متى ١٤ أنه «في ذلك الوقت سمع هيرودوس حاكم الربع بأخبار يسوع . فقال لخدامه » هذا هو يوحنا المعمدان وقد قام من بين الأموات والذي تجري على يده المعجزات : « ولما كان هيرودوس يريد أن يقتل يوحنا خاف من الشعب ، لأنهم كانوا يعتبرون يوحنا نبياً وأرسل إلى السجن فقط رأس يوحنا . وجىء بالرأس». وما يذكر أن يوحنا المعمدان يعرف عند المسلمين باسم سيدنا يحيى بن زكريا (المترجم) .

رحلات الحج اليهودي إلى الأرض المقدسة ، وكان هذا الوضع يواكبه انتعاش وازدهار قصير الأمد للجماعة اليهودية.

وخلال فترة الحكم الصليبي ازدادت رحلات الحج اليهودية إلى الأرض المقدسة بشكل أكثر عن ذى قبل. ولم تقتصر رحلات الحج اليهودي إلى مدينة القدس على يهود الشرق الأدنى فقط. ولكن يهوداً من بيزنطة النائية ومن إسبانيا ، ومن فرنسا جاؤا لزيارة الأماكن المقدسة في فلسطين. ويمكن أن نعزّز ذلك جزئياً إلى سهولة وكثرة وسائل الاتصالات الجديدة في ذلك الوقت والتي ربطت المسيحية بالأرض المقدسة. ويمكن توضيح تنامي أحجام حركة الحج اليهودي بشكل جيد من خلال حقيقة مفادها أن المصادر اليهودية الربانية لتلك الفترة والتي كانت تعرف باسم «السوفسطائيات Tossafists »، وهي الكتب التي كانت ترى أحداث تغير في بعض النظم المتعلقة بقانون الزواج . فقد كان القانون التلمودي يلزم المرأة اليهودية تحت وطأة عقوبة الطلاق فقد الصداق ، أن تطيع زوجها إذا ما قرر الهجرة والاستقرار في الأرض المقدسة في فلسطين. وقام المفسرون وعلماء المدرسة التفسيرية للمشنا والتوراه بتعطيل مثل هذا القانون بشكل مؤقت ، اعتقاداً منهم بأن بداية نشأة الملكة اللاتينية كانت تدل خطاً على أولئك الذين يقطنونها ، وذلك لأن الأخطر كان تحدّق بهذه الملكة اللاتينية الوليدة من كل جانب . وبنهاية القرن الثاني عشر الميلادي، تغير هذا القانون ورجع إلى وضعه التلمودي.

ولاشك أن حركة الحج اليهودي الجديدة قد بعثت الروح والحيوية في المراكز اليهودية القديمة، كما جددت شباب الجماعات اليهودية التي نشأت منذ زمن قريب تحت الحكم الصليبي. ومن الطبيعي تماماً أن اليهود كانوا يستقرُون في هذه المناطق الصليبية معاً، وتشير المصادر الصليبية إلى «منازل أو منزل اليهود domus Judaeorum» وأيضاً إلى «شارع اليهود Ju- vua dacarum» في معظم مدن الملكة الصليبية . ونعرف أيضاً أن اليهود كانوا يختارون أماكن إقامتهم بحرية تامة، باستثناء الإقامة في مدينة بيت المقدس التي كان يحظر عليهم الإقامة بها. ونعرف أيضاً أن الصليبيين اعتقادوا بأن إقامة اليهود والمسلمين في مدينة القدس

* كتب السوفسطائية Tossafists : هي عبارة عن كتب وضعها المفسرون اليهود الذين أضافوا زيادات على معانى التلمود والمشنا . وهذا يعني المدرسة التفسيرية للمشنا والتلمود والتي ظهرت في فرنسا وألمانيا في الفترة من القرن ١١ - القرن ١٣ م (المؤلف) .

سوف يت eens مقدساتها . وتقريباً أعلن قانون الحظر هذا بعد الغزو الصليبي مباشرة ، بيد أن الملك الصليبي بلدوين الثاني (١١٢٠م) أراد أن يخفف من حدة هذا القانون ، فسمح لل المسلمين بأن يحضروا البضائع والمواد الغذائية للاتجار فيها في مدينة بيت المقدس . وفي فترة متأخرة وفي عام ١١٧٤م يذكر الرحالة الأسباني الشهير بنiamين التطيلي أنه شاهد في مدينة القدس بعض العائلات والأسر اليهودية التي تتحرف أعمال الصباغة ، وكانت هذه الأسر اليهودية تقيم قبلة برج داود الملكي . وعلى الرغم من ذلك ، فإنه لم تتأسس جماعة يهودية كبيرة في مدينة القدس في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي ، كالتى كانت موجودة في هذه المدينة قبل الحكم الإسلامي .

كانت أكبر الجماعات اليهودية في المملكة اللاتينية تقيم في مدن عسقلان وصور، وعكا . ومن الجلى أن الجماعات اليهودية في مدینتی عسقلان وصور لم تتعرض لأعمال الابادة والتقطيل على يد الصليبيين في بداية الغزو، وذلك لأن كلا المدينتين استسلمتا طوعاً للصليبيين ولم يتم احتلالهما عنوة . وظلت الجماعة اليهودية موجودة في عسقلان تحت الحكم الصليبي حتى عام ١١٩١م، حتى تم تدمير المدن الصليبية على يد صلاح الدين الأيوبي في أثناء الحملة الصليبية الثالثة . وقد هجر اليهود مدينة عسقلان مثلاً فعل باقي سكانها الآخرين، بيد أن اليهود تحركوا وسكنوا مدينة بيت المقدس في شكل مجموعة صغيرة *.

كانت الجماعة اليهودية في مدينة صور ذات أهمية كبيرة تفوق أهمية باقى الجماعات اليهودية الأخرى، وقد انضمت جماعة يهودية جديدة من أصل أوريسي إلى مجموعة اليهود الشرقيين القдامي الذي كان يرأسهم الخبر اليهودي افريم المصري The Egyptian Ephraim عام ١١٧٤م) وفي مدينة صور التقى بنiamين التطيلي مع الخبر اليهودي مير من كاركاسون Meir of Caracassine والخبر حباج Huyyah زعيم جماعة روش حاقال- Roch Ha-Qahal وتأكد الوثائق المعاصرة وجود علاقات واتصالات مباشرة بين هذه الجماعة اليهودية وبين الفيلسوف اليهودي بن ميمون** Maimonides الذي كان يعيش في القاهرة وخاطب بن ميمون أحد الزعماء الدينيين لهذه الجماعة قائلاً له من خلال رسالة بعث بها إليه :

* كان الشاعر الأسباني اليهودي والفيلسوف الحريزي ، الذي قام برحالة حج إلى مدينة القدس في عام ١٢١٦م ، يطلق على يهود عسقلان الذين سكنوا مدينة القدس اسم المسقلاتيين . (المؤلف).

** ابن ميمون أو «مايونايدس Maimonides» كما يطلق عليه الأوريبيان، هو الفيلسوف اليهودي =

«إنك حكيم من بين حكامه بنى إسرائيل، وانني دائمًا أقول لسكان أرض إسرائيل وسكان الأقطار المجاورة ، أنه بسبب اقامتك في هذا المكان فإن الرب يضمن لنا مخلصًا حتى اليوم».

وفي القرن الثاني عشر الميلادي كانت توجد جماعة يهودية كبيرة في مدينة عكا. فقد عرفنا من رسالة ابن ميمون أن هذه الجماعة اليهودية في عكا قد اتبعت فطاما من التنظيم التقليدي، إذ كان يوجد زعيم للجماعة ومحكمة ريانية.

ويع肯 أن نفترض وننزعم بأن استرداد صلاح الدين الأيوبي مدينة عكا من يد الصليبيين في عام ١١٨٧ لم يؤثر البال على مصير الجماعة اليهودية . وعلى أي حال ، فإن هذه الجماعة اليهودية ظهرت مرة أخرى تقربا بعد الغزو الصليبي لمدينة عكا مباشرة على يد قوات الحملة الصليبية الثالثة في عام (١١٩١م) ^٣ واختصاراً أصبحت عكا مركزاً مهمـاً لإقامة اليهود في هذا القطر. ومنذ فترة باكرة بعد الغزو الصليبي لمدينة عكا كان القانون المحلي الصليبي يقضى بـعد السماح لغير الأفرنج بالاقامة في المدينة (وهذا ما حدث في القرن الثاني عشر الميلادي) القديمة ، حيث عاد السكان الصليبيون السابقون إلى عكا وتسلّموا منازلهم في هذه المدينة.

وهكذا تم ابعاد الجماعة اليهودية إلى حـي مونتموزارد Quarter of Montmusard .

ومـا يذكر أن مهمة المحكمة الريانية اليهودية في عـكا لم تقتصر على النظر في القضايا التي تعرض أمامها فقط بل كان لها حق تشريع القوانين للجمـاعة اليهودـية . وأصبحت مثل هذه القوانـين المحلية (تاـقـانـوـث Taqqanoth) سـارـيـةـ المـفـعـولـ تخـضـعـ لـهـاـ الجـمـاعـةـ اليـهـودـيةـ المـحـلـيـةـ فـقـطـ . وكانت مثل هذه القوانـين تلقـىـ القـبـولـ وـالـمـوـافـقـةـ منـ جـانـبـ كـلـ الجـمـاعـاتـ اليـهـودـيةـ المـقـيـمةـ فـقـطـ . ولـدـيـنـاـ فـوـذـجـ جـيدـ لـشـلـ هـذـهـ التـشـرـيـعـاتـ وـالـقـوـانـينـ اليـهـودـيةـ يـرـجـعـ إـلـىـ

عام ١٢٣٤-١٢٣٥م فقد كانت بعض العائلات اليهودية تدعى أنها تنحدر من عائلة نسيم Nesiim اليهودية التي يرجع تاريخ وجودها في هذه المناطق إلى القرن الرابع الميلادي،

= موسى بن ميمون الذي عاش ما بين عامي ١١٣٥ و ١٢٠٤م والذى عنى بالتوفيق بين الفلسفة الأرسطية ومتضيـاتـ المقـيـدةـ الـديـنـيـةـ اليـهـودـيـةـ وـذـلـكـ مـنـ خـلـالـ تـفـسـيرـاتـ خـاصـةـ لـلـتـورـاةـ . وقد عنـىـ بنـ مـيمـونـ بـدـرـاسـةـ آـرـاءـ الـتـكـلـمـينـ حيثـ خـلـصـ إـلـىـ رـفـضـ مـنـهـجـهـمـ مـؤـكـداـ أـنـ الـفـلـسـفـةـ - لاـ عـلـمـ الـكـلـامـ - هـىـ الـتـيـ يـكـنـ أـنـ تـفـوـدـنـاـ إـلـىـ الـعـرـفـ بـالـذـاتـ الإـلـهـيـةـ وـيـحـقـيـقـةـ الـعـالـمـ . وـمـنـ أـهـمـ مـؤـلـفـاتـ مـوسـىـ بنـ مـيمـونـ كـتـابـ مـوـرـيـهـ نـيفـوخـيمـ (دلـلـةـ الـخـائـرـينـ) الـذـيـ ظـلـ الـفـلـاسـفـةـ الـمـدـرـسـيـوـنـ فـيـ الـعـصـورـ الـوـسـطـيـ مـنـ أـمـشـالـ توـمـاـ الـأـكـوـينـيـ يـدـرـسوـنـهـ (المـتـرـجـمـ) .

وهي العائلة التي كان أفرادها يمثلون أعيان يهود فلسطين في ظل سيادة الامبراطورية الرومانية المتأخرة . ومن ثم طالبت هذه العائلات بوضع متخصص وامتيازات خاصة، تشمل حقوقا قضائية ، وحقوق تقييم عقوبة اللعنة ، أي حقوقا مدنية وأخرى دينية . بيد أن هذا الادعاء لقى معارضة قوية من قبل السلطات الصليبية . وفي القرن الثالث عشر الميلادي لم تخضع الجماعات اليهودية لسيادة العائلات التقليدية ، ولكنها خضعت لسيادة زعماء منتخبين من بينهم ، حيث كان المستوى التعليمي والمركز الاجتماعي لهؤلاء الزعماء من العوامل الحاسمة والمهمة في اختيارهم في هذه الواقع القيادي . وكانت الجماعة اليهودية المصرية أول من قضت وقررت بأن عائلة نسيم اليهودية المعاصرة لم تكن تتمتع بأية امتيازات خاصة، وأن أعيان وقادة الجماعة اليهودية في كل مدينة كان يتم اعتناؤهم من الضرائب ومن عقوبة الحرم أو اللعنة (الأناثيما Anathema) . وطلت الجماعة اليهودية في عكا طالب بالحصول على الامتيازات الخاصة وذلك عن طريق تطبيق نفس القانون المحلي.

لقد كانت البنية المتفايرة في الخواص والعناصر (الاختلاف العرقي) من أبرز السمات المميزة للجماعة اليهودية في مدينة عكا الصليبية . فلم يقتصر التمايز بين اليهود الشرقيين وبين اليهود الغربيين فحسب ، بل كان هناك تمايز بين طوائف اليهود الغربيين فيما بينهم ، وخاصة بين اليهود الأسبان والبروفنسالي ، والفرنسيين والألمان . كان هذا التقسيم يمثل اتجاهين رئисيين ليهودية القرن الثالث عشر الميلادي . ومن ناحية فإن اليهود الأسبان والبروفنساليين كانوا عرضة للانفتاح على ثقافة الأقطار الإسلامية والمسيحية المجاورة لها ، وكانوا أكثر ميلا إلى الفلسفة ، والعقيدة ، والشعر الذي تعوزه الجودة ، وذلك في الوقت الذي كانت تنتشر نزعة التصوف الجديدة ، وهي القبالة Kabbala وهي تلك النزعة التي ظهرت في جنوب غرب أوروبا . في حين انصب اهتمام معظم اليهود الألمان والفرنسيين التقليديين على دراسة القانون (الحالاخا Halakha) وتفسيرات التلمود .

والحقيقة أن التصادم بين هذين الاتجاهين لليهودية في مدينة عكا لا يتفق ومقتضيات الظروف والأحوال . واستطاع اليهود ذوو الأصول المختلفة تخليل هويتهم الذاتية وذلك بتشييد معابد يهودية منعزلة لهم ، حيث استطاعوا ممارسة طقوسهم الدينية المحلية وعاداتهم المحلية أيضاً ، وتقريراً كان لكل الجماعات اليهودية في المملكة اللاتينية كلياتها ومدارسها التلمودية ، أو الأكاديميات الخاصة بهم (بيت ميدراش Biet Midrash) وهي الأماكن التي يتعلق فيها

الصبية والشباب التعليم، وكان يتردد على كل هذه المراكز التعليمية كل أفراد الجماعة اليهودية مهما كان مستواهم وحرفهم التي يزاولونها . واتبعت مثل هذه الكلمات أساليب ونظم التعليم والتفسير الخاص بها . وهكذا فان المدارس والنظم التعليمية الحالية هي التي اجتذبت الطلاب من أماكن كثيرة إليها . وقد تأسست احدى هذه الأكاديميات التعليمية في عكا على يد الحبر اليهودي يهيل الباريسى Yehiel of Paris ، وهو كبير الزعماء الدينيين اليهود الفرنسيين ، والذى أقام فى الأرض المقدسة فى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى. لقد كانت شهرة أكاديمية الحكما الجديدة فى عكا ذاتعة الصيت، وكتب الحبر اليهودي الأسباني شلوموس بن أدراط Shlomo Ben -Adrath يقول:

«ثمة عادة كانت سائدة وسط الحكماء فى الأراضى المقدسة، وفى مصر ، وهى إذا سألهم شخص مسألة ، فإنهم لم يجيبوا ، إذ كانوا يقولون دعنا نسترشد فى اجابة هذه المسألة بحكماء عكا ».»

ومن الطبيعي أن يؤدى اختلاف الاتجاهات والتزععات فى اليهودية إلى حدوث خلاف بين أنصار هذه الاتجاهات المختلفة . فقد حدث توتر وخلاف بين الحبر اليهودي الفرنسي سالomon القصیر Salomon he Petit وبين أحد زعماء الجماعة اليهودية بسبب تجدد الجدل القديم حول كتابات ابن ميمون الفلسفية ، وكان هذا الحبر يحذر من التأثير السلبي لهذه الكتابات على الشباب . ومن ثم فإنه حرم تدريس دراسة كتابات ابن ميمون الفلسفية ، وهى الكتابات التى محظورة دراستها وتدريسها فى المراكز التعليمية الأوروبية قبل هذه الفترة بخمسين عاماً. وكانت المصادر والمراجع الربانية تساعد فى معازرة هذا التحريم، وأعلن سالومون القصیر هذا التحريم على الملأ . وقد أعقب هذا التحريم رد فعل مباشر. إذ أن زعماء وقادة اليهود فى دمشق والموصى وبغداد أعلنا رسمياً لعنهم للحبر اليهودي- سالومون القصیر ومؤيديه، ونظموا رحلة حجج يهودية تكفيرية إلى قبر ابن ميمون فى طبرية.

كان حكماً عكا اليهود منقسمين فى آرائهم . فالجماعة اليهودية المتغيرة المخواص والعناصر (الاختلاف العرقى) لم تقف صفاً واحداً من أجل الدفاع عن أفكار ابن ميمون الفلسفية ، وقامت جماعة واحدة فقط من الأخبار اليهود بالمشاركة فى اعلان الحرم واللعنة (الأناثيما anathemy) وقد أدى هذا الجدل والخلاف الخزى إلى انقسام الجماعة اليهودية حتى تم احتلال مدينة عكا آخر المعاقل الصليبية على يد الملك فى عام ١٢٩١ م.

ووجدت جماعات يهودية صغيرة خارج مدینتی صور وعكا ، فی بيروت ، وصیدا ، وقیصریة ، واللد ، وبيت لحم ، وبيت نوبا ، وزارعين Zar'in وبيت حبرین ، وكان للجماعات اليهودیة فی الجلیل أهمیة خاصة . فقد كانت هناك جماعة يهودیة فی طبریة ، ادعى أحد أعضائها وهو الحبر ناھوریا Nahoria بأنه ينحدر من سلالة الحبر يهودا حاناس - Yehuda ha - Nassie (فی القرن الثانی المیلادی) وهو جامع تفسیرات المشنا*. وفي بداية القرن الثالث عشر المیلادی كان يوجد فی صفد أيضاً جماعة يهودیة وكان أحد أعضائها الذي ادعى لقب روش ياشیفات جاون يعقوف Rosh Yeshivath Gaon Ya'aqov رئيساً للأکادیمیة اليهودیة التي كانت توجد فی الأراضی المقدسة فی القرن الحادی عشر المیلادی، بيد أن رئيس الأکادیمیة هذا اختفى من على المسرح مع انتقال الأکادیمیة اليهودیة أولاً إلى صور ثم بعد ذلك إلى دمشق . وحول هذین المركزین الحضریین (طبریة وصفد) وجدنا يهوداً مقيمين فی مناطق ريفیة . وقد ذکر هؤلاً اليهود فی هذه المناطق الريفیة فی جیسكالا Giscalala جش حالاف - lav) ، وفي الماح Almah ، وربما أيضاً فی برام Bar'am وأموقا Amuqa وكفر حنانیا وكفر تانهوم ، ومیرون Meron ، ودالاثا Dalatha ، والبیرة والعوریة Awyah - Al - ویانیاس .

وكان الكثیر من هذه القری معروفة علی خریطة هذه المناطق منذ بوادر الفترة العریبة الإسلامیة، الأمر الذي يجعل من المنطقی أن نفترض أن هذه القری التي قطنها اليهود لم تعانی أو تقاسی کثیراً فی أثناء الغزو الصلیبی فقد تركزت المعارك العسكريّة التي خاصها الصلیبیین من أجل الغزو وحول المدن، ولذا لم تتأثر المناطق الريفیة بهذه المعارك بشكل مباشر . وبإضافة إلى ذلك، فإن الصلیبیین رأوا أن من مصلحتهم أن يعيدوا الأوضاع العادیة المألوفة فی هذه القری بسرعة قدر الامکان . وذلك لأن الوجود الصلیبی المادي كان يعتمد على استقرار سکان هذه القری تلك القوة المنتجة للمحاصلیں الغذائیة .

* المشنا : کلمة عریة تطلق (مشنة أو مشناء) وهو کتاب عری فقہی مبنیۃ التفسیر للتوراه ، ولكن للربانیین اعتقاد خاص فیه وهو أنه سنة عن موسی عليه السلام أوحی بها الله إلیه أثنا، الأيام الأربعين التي قضتها فی طور سیناء وأمره ألا يكتبها وأن يلتقطها شفیریا ، ولذا فھی تعرف بالتوراه الشفویة وقد سمیت المشنا بمعنى الثانية بالنسبة للتوراه المكتوبة . وقل ظل المشنا يتناقل شفیرها حتى عهد «يهودا الناس» الذي جمع المشنا وكتبھ خوفاً من النسیان أو التحریف ويقع المشنا فی أسفار ستة : الزراعة- الأعياد- النساء- ضمان الضرر - الوقف - الطهارات (انظر قاسم عبد قاسم : أهل الذمة ، ص ١٠٩) .

وكلما كانت توجد فترة في تاريخ اليهود تخلو من أسماء أولئك الذين قاموا بالسفر والترحال إلى الأرض المقدسة، ومن ثم كان هؤلاء يعرفون باسم الأورشليميين أو الذين زاروا مدينة القدس. وبحلول القرن الثاني عشر الميلادي (ومن المحتمل خلال الفترة التي كانت تخضع فيها المدينة للسيطرة الصليبية)، تطورت الأساليب والأعمال الأدبية الجديدة، وتطورت يوميات التجولين وكتابتها (المساعoth Masa'oth) ، ولفائض القبور المقدسة (قبور الأسلاف). وكان المبشرون المسيحيون يستخدمون أساليب الإثارة والهياج في دفع الرسائل والخطابات بهدف إثارة الرأي العام المسيحي للمشاركة في الحروب الصليبية . ومن بين الرسل والمبوعين اليهود الفلسطينيين كان شليهم Shlihim الذي قام بزيارة إلى الجماعات اليهودية الأوروبية والشرقية، يحمل معه قائمة بال زيارات المقدسة اليهودية، ويجمع الأموال لمساعدة الجماعات اليهودية في الأراضي المقدسة في فلسطين .

لقد كان الحج اليهودي إلى مدينة بيت المقدس الذي يتم خلال مناسبات كبيرة هي (عيد الفصح عند اليهود Passover، وعيد الحصاد Pentecost ، وعيد المعابد والهياكل) ، يعد مبدأ دينيا، هذا المبدأ الذي توارى وتعطل مع تخريب الهيكل . بيد أن ممارسة عادة الحج استمرت دون انقطاع لقرون عدة. ولم يصمد القانون الروماني والبيزنطي الذي كان يحرم إقامة اليهود في تلك المدينة المقدسة أمام قوة إيمان اليهود المتاجع ، إذ كان اليهود في وجود الحاجز الذي ينبعهم من دخول مدينة القدس يقفون على جبل صهيون يتأملون منطقة الهيكل بأعينهم ويحجون إليها بعواطفهم ومشاعرهم . ولما كانت مدينة القدس لدى اليهودي عسيرة المنال ولا يمكن الوصول إليها بسبب قرارات التحرير، فإن هذا الشخص اليهودي الذي كان يعيش في الشتات (الدياسيورا) قد راوه الأمل في أن يدفن ويوارى جسمانه في تراب هذه الأرض المقدسة. وكان اليهودي يحتاج فقط إلى زياره المقابر المحفورة تحت الأرض في بيت شعريم She'arim التي ترجع إلى فترة الامبراطورية الرومانية المتأخرة ، وذلك لكي يتصوروا موكب اليهود المتصل الذين أتوا إلى الأرض المقدسة من مناطق العراق (الميزوراتاميا) ، ومصر ، وإيطاليا، وأسبانيا . وحمل بعض اليهود معهم إلى الأرض المقدسة رفات أقاربهم، الذين كانوا قبل وفاتهم يتrocون إلى دفن ومواراة جسمانهم بعد وفاتهم في أرض إسرائيل، مثل يوسف النجار. وفي نهاية المملكة الصليبية الأولى وبداية المملكة الصليبية الثانية التي تأسست على يد قادة الحملة الصليبية الثالثة حدث تغير ملحوظ في حياة الجماعات اليهودية

وكذلك في اتجاه يهود الشتات صوب الأرض المقدسة. وباستثناء القرن السادس عشر الميلادي (الذى تبعه طرد اليهود فى أسبانيا) ، وفى أوقاتنا الحالية، لم تصل الهجرة اليهودية إلى الأرض المقدسة إلى مثل هذا الحجم الكبير فى أثناء القرن الثالث عشر الميلادي. وتنتقل لنا الوثائق المعاصرة انطباع تلك الأمة اليهودية التى عانت كثيراً وشوقها وحنينها الشديدين إلى الأرض المقدسة وتذكر هذه الوثائق أيضاً أن الاضطهاد ضد اليهود ظل مستمراً ، وتأججت العقيدة وقوى الاعيان - واستمرت الصلاة اليومية، وفجأة وجد اليهود منفذًا ومخرجاً فى حركة العودة. ولم يكن الحج ولا الهجرة اليهودية بالأمر الجديد، بيد أنه فى القرن الثالث عشر الميلادى اكتسب اليهود سمة فريدة ، تلك السمة التى تختلف كثيراً عن السمة السابقة التى كانت تميزهم من حيث الهدف والبيئة وأيضاً من حيث أهدافهم وبراعتهم .

وفى أثناء القرن الثالث عشر الميلادى، ظهرت عوامل جديدة غيرت صفة وميزة الحج والعبرة اليهودية، وغيرت بشكل أساسى شخصية وسمة الاستيطان اليهودي فى الأرض المقدسة. ومن المحتمل أن هذا التغير كان وليد فترة استيلاء صلاح الدين على المناطق الصليبية واستردادها . وعلى الرغم من أن صلاح الدين كان أقل تسامحاً من خلفائه وورثته فى الحكم من بعده، فإنه كان متسامحاً مع اليهود. فقد أراد صلاح الدين أن يستقطب قلوب اليهود ويحببهم إليه ليذكر اليهود أنه الحاكم المسلم الذى جأوا إليه لكي يسمع لهم بالإقامة فى المدينة المقدسة بعد تحريرها من يد الصليبيين. ويروى لنا الشاعر اليهودي الأسباني الشهير المريزى والذى سافر إلى مدينة القدس فى عام ١٢١٦ ما يأتى :

«... وأمر صلاح الدين بأن يعلن فى كل مدينة، وأن ينتشر هذا الإعلان ليعرفه الشيخ والشاب ونص هذا الإعلان هو : إننى أتحدث إلى قلب مدينة القدس (أورشليم) بأن تدع وترك أي شخص يهودي ينحدر من صلب إبراهيم Ephraim أن يأتي إليها .

وطبقاً لرواية الشاعر الشهير المريزى ، فإن تاريخ هذا الإعلان الجليل هو سنة ١١٨٧-١١٩٠م ، وذلك بعد سنتين أو ثلاثة من استرداد المسلمين لبيت المقدس فى عام ١١٨٧م. فقد ظهر صلاح الدين فى بيت المقدس لظهور القديس قيرس Cyrus ، وأصدر قرار عودة المنفيين من اليهود. الواقع أن قرона عديدة انقضت بعد صدور مثل هذا الإعلان الخاص بعودة اليهود من المنفى ، وهو الإعلان الذى أصدره نابليون فى أثناء الحملة الفرنسية على مصر وببلاد الشام. وعلى أية حال ، فإنه ليس هناك شك فى أن استيلاء المسلمين واستردادهم مدينة

بيت المقدس قد عطل قرار التحرير الصليبي الذي فرض على اليهود بشأن الاقامة في هذه المدينة المقدسة . واستقرت هناك جماعات يهودية كاملة . فقد جاء اليهود عسقلان إلى مدينة بيت المقدس بعد تدمير مدينتهم على يد صلاح الدين ، وفي عام ١١٩٨ م جاء اليهود من المغرب فراراً من اضطهاد المنصور أو من اضطهاد ابنه الناصر . وتدفقت موجة أخرى من المهاجرين اليهود من فرنسا إلى الأراضي المقدسة في عام ١٢١٠-١٢١١ م.

لقد اقتنى إعادة تأسيس الجماعة اليهودية في مدينة بيت المقدس بانتعاش الوسائل الدينية لليهود التي تربطهم بوطنهم القديم . وأدى انتصار صلاح الدين على الصليبيين في حطين إلى انتشار هذه الحركة ، بيد أن عاملاً مهماً كان يحدد وجهة نظر اليهود في المملكة الصليبية . فقد كان من النتائج الطبيعية للحملة الصليبية الأولى ، والثانية والثالثة وحملة الملك الفرنسي لويس التاسع أن أحس اليهود بدءاً من اضطهادات المعاناة التي تعرضوا لها خلال هذه المرحلة التاريخية من الصراع الإسلامي الصليبي : وأحس اليهود أن هذه الحروب الصليبية التي ت-shell لب الحركات المسيحية نذيرًا بقرب يوم القيمة . وكان هذا نفطاً من السلوك الفريد في تاريخ الجنس البشري ، فالآمة اليهودية التي لم تفقد هويتها ولم تفقد ذاكرتها الجامحة وما كان لهذه الأمة من مجد سابق قد قاومت هذا الاضطهاد التي تعرضت له في بيئته معادية لهم وقاومت القرارات المهمة للأحكام والتدابير المهمة . وفي أثناء تعرض اليهود للumas والمذايحة على يد الصليبيين في أوروبا ، انتابتهم حالة من الحنين والشوق المغارف إلى الوطن الأم ، والتيقن بقرب يوم خلاصهم من عسف وظلم هؤلاء الظالمين الذين تخضبت أيديهم بدماء الضحايا اليهود وبيات اليهود يعتقدون تماماً في الخلاص والتحرر والذي كان ثمنه سقوط عدد كبير من الشهداء ، اليهود الذين رفضوا الارتداد عن دينهم ودخول المسيحية . واستمرت المحن والبلاء التي تعرض لها اليهود ، بيد أن الأرض المقدسة قد شهدت وقوع أحداث جلل . فقد نشب الحرب بين المسلمين وبين الصليبيين من أجل السيطرة على الأراضي المقدسة . ورفع اليهود الدياسيورا (الشتات) دعواهم الخاصة بأنهم يفتقرون إلى الدولة والجماعات المنظمة ، تلك الدعوى التي اعتمدت على نبوءة العناية الإلهية . وتتدفق عشرة آلاف من اليهود الأوروبيين إلى قدرهم المشئوم في منطقة الشرق العربي ، حيث تبدلت أموال كثيرة ولحق الخراب والدمار بالمناطق الصليبية على يد المسلمين ، فقد تبني صلاح الدين الأيوبي في صراعة العسكري ضد الصليبيين سياسة الأرض المحروقة ، وذلك بتدمير المدن التي يستردها من يد الصليبيين وتخربيها حتى لا ينفك

الصلبيون فياحتلالها في المستقبل . فقد فشل الصليبيون فشلاً فاضحاً ، وتم تدمير المنشآت الصليبية . ففي وقت مبكر من الحملة الصليبية الأولى حاول اليهود بأنفسهم تفسير الطرق والسبل الغربية للعناية الإلهية . ومن خلال رسالة مكتوبة بعث بها يهود منطقة البلقان وقت اقتراب الم gioش الصليبية، نجد تفسيراً غريباً مؤداه أن العناية الإلهية هي التي قررت طرد ورحيل اليهود من أوروبا ، لكي يجتمع سوياً كل أولئك المضطهدون من اليهود في الأرض المقدسة، وعندئذ يطلب منهم ترديد كلمات النبي وهي:

«يا ابنة صهيون انهضي واجلدي»، بيد أن الحملة الصليبية الأولى حالتها النجاح والظفر وحكم المسيحيون الصليبيون الأرض المقدسة مدة مائة عام. وكانت النتائج المخيبة للأمال التي أفرزتها الحملة الصليبية الثانية والأخفافات الصليبية في القرن الثالث عشر الميلادي تشير فكرة جديدة لهذه الأحداث التاريخية الكبرى. وكان الأساس الأول لهذه الفكرة هو التأثير العظيم للיהودية في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي ، فنجد أن الحبر اليهودي الأسباني موسى بن نحمان Moses ben Nahman بعد أن شارك في المجالدي الذي دار حول ارتداد بابلو المسيحي Pablo أمام محكمة برشلونة في عام ١٢٦٣م، قرر هذا الحبر اليهودي مغادرة موطنها قطالونيا والهجرة إلى الأرض المقدسة. واستقر بن نحمان في مدينة بيت المقدس عام ١٢٦٧م ، حيث وفده كثير من الطلاب لتلقى العلم على يديه، وهنا استطاع هذا الحبر اليهودي أن ينجز تأليف تعليقاته على الأسفار الخمسة من العهد القديم. وقد شرح في هذا العمل آراءه ووجهة نظره في الأحداث المعاصرة، واستخلص نتائج واستنتاجات تتعلق بسائر الأرض المقدسة. وتعكس كتاباته وتعليقاته طريقة جديدة لفهم الأرض المقدسة وسكانها الأصليين الذين يرتبطون بها منذ القدم وكيف اندمج هؤلاء السكان الأصليين مع التقاليد والأعراف القديمة. وفي حين كانت التفسيرات التقليدية محصر نفسها في دائرة تفسير وتوضيح الخلق والوجود ، وكان هذا هو المحتوى المنطقي للكتب المقدسة، فإن تفسيرات بن نحمان Nahmanides توحى بالمشاهد والذكريات وأربح الأرض المقدسة. وتفسيره لسفر الخروج Exodus الذي يقول : «أرض طيبة وروحية ، إلى أرض تفيض باللبن والعسل » يفك مليا في هذه العبارة التي وردت في التوراه فيقول مفسراً :

إنها أرض طيبة الهواء وكل ما عليها ينبع صحة الإنسان، وتحوى هذه الأرض المقدسة كل شيء طيب... لأنها تضم الأرض الرحبة، وتضم الأرض الواسعة ، والوادي، والسهل، وكل هذه

الأشياء واسعة ومعتدلة ... والأرض المخصصة للماشية بها مزودة بمراع غنية خضراً . ويوجد في هذه الأرض المقدسة ماء عذب ، واللبن الغزير الذي تدره الأبقار - وفاكهتها كبيرة الحجم وحلوة المذاق ، وأن عسل النحل ينبعق من هذه الأرض المقدسة.

وعن سفر التثنية ٩-٨ والذى نصه : «أرض أحجارها تشبه الحديد ويوجد خارجها تل يحتوى فى باطنها على النحاس» . يقول ابن نحمان فى تفسيره وهناك فى الأرض المقدسة يمكن أن نجد محتجرات لأحجار كبيرة وضخمة ، وأحجار ثمينة ، وأحجار أخرى تستخدم فى بناء المنازل والأسوار والأبراج فى المدن ، وهناك أيضاً نجد مناجم النحاس والحديد ، الذى يلبى حاجة سكان هذه الأرضى ، وأنت فى هذه الأرضى المقدسة لا ينقصك شىء . ولم نشاهد مرة أخرى «أورشليم السماوية» ولا قصر ملكى يهبط من السماء يوم القيمة ، ولكننا نشاهد رمز الحقيقة ، والشكل والبناء ، والحرف والصناعة ، فى أرض تنتظر قاطنيها . وتعكس لنا هذه الواقعية الجديدة صورة التغير الذى حدث فى اتجاه الشعب اليهودى نحو الوطن الأم لهم عن مثاله الذى كان سائداً فى أثناء الأجيال السالفة .

ويبينما كانت المسيحية تتأمل خطورة الهزيمة ، فكان علماء اللاهوت يجهدون أنفسهم فى شرح وتفسير الأحداث التى يتعدى تفسيرها ، ووصلوا بعد يأس ونصب إلى استنتاج مؤداته أن الرموز والمعجزات رها يسا ، فهمها - أو الاعتماد على التفسير اليهودى التقليدى الذى يرى أن السبب الحقيقى للمصابى والبلايا التى حلت باليهود هو أخطاء وذنوب الجنس البشرى - وقدر اليهود حجم الهزيمة التى لحقت بالمسيحيين الصليبيين ، ويلخص ابن نحمات التجربة التاريخية العظيمة فى تعليقه على سفر ليفiticوس Leviticus فيقول :

«وأنا سوف أحضر إلى أرض مقفرة مهجورة وسوف يندesh أعداؤكم الذين يسكنون هذه الأرض». فهذه رسالة النبأ السعيد إلى كل أنحاء الأقطار التي طرد منها اليهود ، وأرضنا سوف تلفظ أعداءنا . وأنه لبرهان حاسم لنا ووعد من رب لكل سكان المعمورة بأنه لا يوجد أرض رحبة ومعتدلة المناخ، سكنت منذ وقت طويل خالدة مثل تلك الأرض المهجورة الآن. ولهذا السبب فإننا رحلنا إليها ، ولم تقبل هذه الأرض المقدسة أمة واحدة. وقد حاولت كل الأمم الاقامة فى الأرض المقدسة، بيد أن مثل هذا كان يفوق قدراتهم وطاقاتهم. وهكذا انتشر التفسير اليهودي الجديد للحملات الصليبية : لقد كانت هذه الحروب بشابة محاولة قام بها الصليبيون لاغتصاب وطن اليهود من اليهود (وليس من المسلمين) وكانت البهجة والأفراح

التي غمرت اليهود لانتصارات صلاح الدين الأيوبي أو الظاهر بيبرس على الصليبيين أمراً طارئاً فقط والشيء الأعظم أهمية في هذا التفسير اليهودي هو أنَّ الرب أكَّد لهم أنه لا توجد أمة تستطيع أن تسيطر على هذه الأرض المقدسة فترة طويلة، وذلك لأنَّ الرب قادر أن تكون هذه الأرض من نصيب شعب بنى إسرائيل وحتى أنَّ هجر وخراب هذه الأرض المقدسة كان أمراً مقدراً سلفاً لكي تمنع الآخرين من الاستيلاء على حق شعب بنى إسرائيل . وهذه الأرض تنتظر قدوم اليهود إليها وذلك لأنَّ «هجر هذه الأرض الرحبة أمر عظيم ، لأنَّ الذين هجروها غير جديرين بها ، ومن غير المناسب أن يهجرها اليهود لأنَّهم جديرون بها».

ويرى بن نحمان Nahmanids أن عودة الشعب اليهودي إلى الأرض المقدسة ضرورة تاريخية . وهكذا تفسيره لسفر تثنية الاشتراك (من أسفار التوراة) Deuteronomy ١٢-٥ : «ولكن المكان الذي سوف يختاره الرب سيكون بناءً عن قبائلكم لكنَّ يضع اسمه هناك، حتى مسكن الرب سوف تبحثون عنه، وسوف تأتون إليه الآن». ويفسر بن نحمان قائلاً: «أنكم سوف تحضارون إلى مكان الرب من أرض بعيدة وتبحثون عن ذلك الطريق المؤدي إلى بيت الرب، وسوف تتكلمون ويقول كل واحد للأخر : هلموا ودعونا نصعد إلى جبل الرب إلى بيت يعقوب»، وكما كتب في سفر جيرميا ٥-٥ : Jeremiah

«سوف يسألون عن الطريق المؤدي إلى صهيون بوجوههم المتوجهة إلى هناك» . وفي السفر أيضاً : «سوف تبحثون» بواسطةنبي وربما هذا يشير إلى أنكم سوف تتمهلون وتتلاؤن حتى يصدر النبي لكم الأوامر بالذهاب. بيد أن الكتاب المقدس يقول : «حتى مسكن الرب سوف تبحثون عنه وسوف تأتون إلى هناك » أي تبحثون عن مسكن الرب وسوف تجدونه وعندئذ يصدر لكم النبي الأمر بذلك . وفي نcede لابن ميمون صاحب «كتاب الوصايا» يقول : «لقد منعنا من أن نرث الأرض التي منحها لنا الرب - الذي بجله آباونا في الماضي ، إبراهيم ، واسحق ، ويعقوب ، وسوف لاتترك هذه الأرض لأية أمة من الأمم ، ولم تتركها مهجورة ، وذلك لأن الكتاب المقدس يقول : وإنكم سوف تطردون سكان هذه الأرض ، وسوف تقطنوها أنتم ». (أرقام ٣٣ ، ٥٣) وهذا يعني أنه في كل الأجيال كان يحظر علينا غزو هذه الأرض المقدسة ؛ وإنني أقول ، إن المبدأ الذي يضفي عليه الحكماء مثل هذه الأهمية العظمى ، هو أن الاقامة في أرض إسرائيل - والذي يعتبره الجميع مبدأ ايجابياً ، وإننا نطالب بأن نرث الأرض ونقطنها . ولهذا فإن هذا المبدأ الاجبائي أصبح الزامي على كل جيل ومسئوليته ، يتقييد به كل فرد منا حتى وقت الطرد . وعندئذ يواصل حديثه قائلاً :

«لكى نرث الأرض» يجب علينا لأندعاها في يد الآخرين، وأنهجرها لكي تصبح مقفرة ومهجورة ... ولا يجب أن يقودنا هذا الاعتقاد بشكل خاطئ، بأن هذا المبدأ الإيجابي (الإقامة في أرض إسرائيل) يخص لغرض الحرب المقدسة ضد الأمم السبعة (التي كانت تسكن أرض كنعان وقت الغزو العبراني) ... وكذلك فإن هذا المبدأ لم يكن كذلك، لأنه كان يحظر علينا تدمير هذه الأمم إذا ما شنت الحرب ضدها. بيد أنه إذا رغبت هذه الأمم في أن تجتمع للسلم، فإننا سوف نجتمع للسلم معها وندعهم يكثرون في هذه الأرض أوقاتاً محددة . بيد أننا سوف لأترك هذه الأرض في أيديهم وتحت سيطرتهم أو تحت سيطرة أمم أخرى في أي وقت على الأطلاق . والاستنتاج الذي توصلنا إليه هو أن استيطان اليهود للأرض المقدسة كان مبدأ إيجابياً ، طبق علمياً خلال جيل الحبر والفيلسوف اليهودي بن نحمان ، وينتقل ابن نحمان إلى فكرة عبر عنها وصاغها في شرح وتفسير أحد أسفار كتاب المدرashi Midrashic book وهو الكتاب التفسيري التقليدي للتوراه ، وكانت هذه الفكرة تفهم من خلال شعار : «الإقامة في أرض إسرائيل يتفق مع كل مبادئ ووصايا التوراه».

وما يذكر أن رأي بن نحمان Nahmanids يمثل التغيير والتحول الرئيسي في موقف اليهود من الأرض المقدسة (أرض إسرائيل) في القرن الثالث عشر الميلادي. فلم يعد هذا الموقف مجرد مسألة رحلة حج مقدسة يقوم بها الشخصي اليهودي أو مجرد مسألة عمل يحظى بالتقدير يقوم به الفرد ، ولا مجرد مسألة يهودي يؤدى صلاة من أجل «استرجاع اليهود للأيام الخواли القديمة» ، ولكن الموقف كان عبارة عن تصميم اليهود لغرس جذورهم في هذه الأرض المقدسة.

وقد وردت مثل هذه الآراء من خلال تفسير بن نحمان لسمات وحجم الهجرة اليهودية إلى الأرض المقدسة في القرن الثالث عشر الميلادي . ففي وقت مبكر من عام ١٢٠٩م وأيضاً في عام ١٢١١م هاجرت مجموعتان كبيرةتان من الجماعات اليهودية الأوروبية إلى الأرض المقدسة. وجاء هؤلاء المهاجرون من أقاليم بروفانس ولانجدون تحت قيادة الحبر اليهودي جوناثان ها كوهين Rabbi Jonothan ha - Cohen أحد المعجبين بفلسفة وأراء ابن ميمون ، وكان هذا الحبر القائد من لونيه Lunel . وجمعت جماعة من المهاجرين اليهود من أقليم نورماندي ، وربما جاءت جماعة يهودية أيضاً من الجبلترا تحت قيادة الآخرين باروخ Baruh ومير من كليسون Meirof Clisson . وكانت الشخصية البارزة في هذه الهجرة هو الحبر

سامسون من سين Samson of Sens ، وهو واحد من الفلاسفة السوفسطائيين البارزين في عصره. وبعد جيلين ، قرر الحبر اليهودي يهيل الباريسى Yehiel of Paris ، زعيم اليهود الفرنسيين وبطل المجد والمناظرة الدينية التي عقدت في باريس عام (١٢٤٠م) ضد دونين المرتد The Convert Donin مغادرة فرنسا والإقامة في الأرض المقدسة. ووفقاً للتقليد المحلي الذي حفظه لنا أول دارس معاصر للتاريخ الفلسطيني، وهو العالم آشتور حا بارحي Eshtori ha - Parhi (بداية من القرن الرابع عشر الميلادي) ، كان الحبر اليهودي الفرنسي يهيل الباريس يقترح تجديد طقس القربان والأضحيات في مدينة بيت المقدس، وتلك اشارة واضحة للاعتقاد بأن استرداد الهيكل بات أمراً قريباً المدوث. ووصل يهيل الباريسى Yehiel of Paris إلى الأرض المقدسة في عام ١٢٥٨م، ولكنه استقر في عكا. وفي عكا قام هذا الحبر اليهودي الفرنسي بإنشاء أكاديمية باريس "Yeshivq de Paris" وهي الأكاديمية التي كانت مبعوثيها ورسلها مسجلة بمجلد هزيل عرف باسم «قبور الأسلاف»، وتحجولت الجماعات اليهودية في أوروبا، وطافت كل الأقطار الأوروبية بقصد جمع المساعدات المالية لتشجيع أكاديميتهم في الأرض المقدسة . بيد أن اليهود الأوروبيين لم يكونوا هم فقط الذين أدركوا حركة الهجرة والتحقوا بها.

وفي السادس من ديسمبر سنة ١٢٨٦م، صدر مرسوم ذا تأثير قاس وصارم على اليهود المقيمين في منطقة النفوذ الملكية في الإمبراطورية الألمانية . وعندما اعتلى رادolf الهانسبيرج Radolf von Hansburg العرش الإمبراطوري الألماني أمر بمصادرة ممتلكات اليهود الذين غادروا ألمانيا . ويشير المرسوم الملكي السابق بشكل خاص إلى مصير اليهود الذين نزحوا إلى الشرق العربي (منطقة ما وراء البحار) ، وكان مصطلح ما وراء البحار يستخدم للإشارة إلى المملكة الصليبية . لقد كان هذا المرسوم لكي يتعلق أولاً بمتلكات اليهود الموجودة في منطقة النفوذ الإمبراطوري ، وكان هذا القرار والمرسوم أيضاً يتعلق بمتلكات اليهود في معظم المراكز اليهودية في الإمبراطورية الألمانية: في سبيي Speyer ، وورمز Worms ، ومينز Mainz ، وابنهايم Oppenheim ، وويترو Wetterau والجماعات اليهودية الكبيرة في حوض الرون .

و قبل ستة شهور من صدور هذا المرسوم الإمبراطوري ، وفي صيف عام ١٢٨٦م، بدأت هجرة اليهود من ألمانيا إلى الأرض المقدسة في فلسطين ، تحت قيادة حبر ألماني مشهور وهو مير من روتنبرج Meir of Rothenburg . وكان هذا الحبر اليهودي مثل سلفه بن نعام،

حيث بدأ كتاباته ونشاطه العلمي بتناول موضوع فشل الحملات الصليبية المشير. واستجابة لهذا الحدث كتب يقول:

«وكما جاء في الكتب المقدسة : «وأن أعداؤكم يسكنون هنا وسوف تندهمون من هذا ». وهذا يعني أن الأمم الوثنية غير اليهودية التي تقطن هذه الأرض لم تزدهر ولن تنفع وذلك لأنهم أشار آشمون . ولهذا فإن أرض إسرائيل الآن مهجورة ولم يكن لديها مدن مسورة ، وكذلك لم يقطنها أحد مثل باقي الأقطار الأخرى.

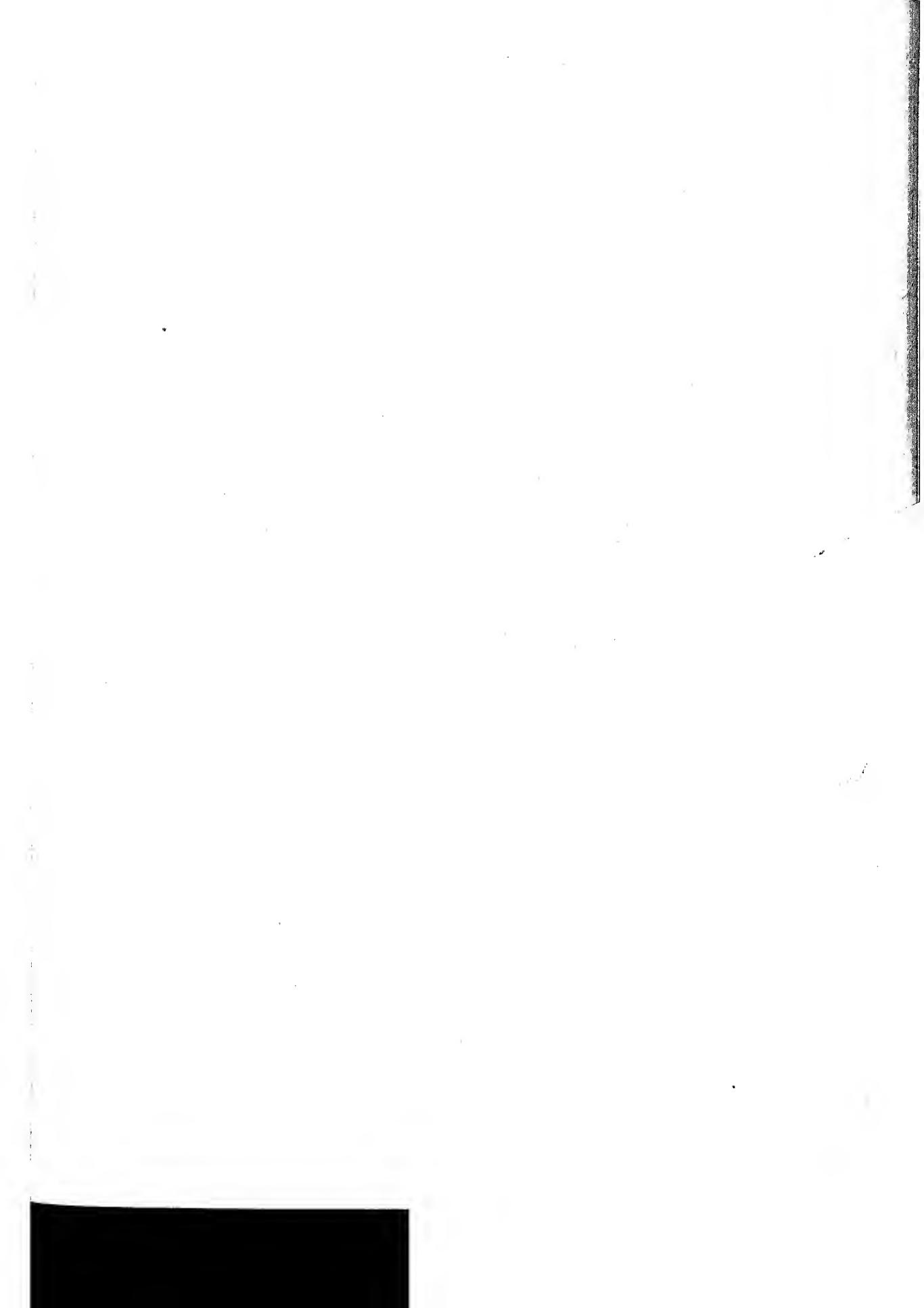
وقد حث هذا الحبر اليهودي على استيطان اليهود للأرض المقدسة وحذر من هجرة أناس غير قادرين على تحمل المسؤولية ، ينظرون إلى الوصايا الدينية باستخفاف وعدم اكتراث ، وطبق الحبر اليهودي مير Meir ما توصل إليه على المستوى العملي . يعتبر «كتاب عادات وأعراف الجماعة اليهودية في وورمز «المصدر التاريخي الذي يذكر لنا وصفاً بليفاً لتجوال رحلات الحبر اليهودي مير الروثنبرجي Meir of Rothenburg والمعاناة التي واجهها خلال رحلاته وتجواله وقد جاء في هذا المصدر التاريخي :

«لقد وصف معلمنا الحبر اليهودي مير من روتنبرج Meir of Rothenburg صاحب الذكريات المقدسة رحلة قام بها عبر البحر بصحبة أهل بيته ، ابنته ، وابن زوجته وكل ما يملك . وقدم هذا الحبر إلى مدينة تقع وسط جبال شاهقة ، تعرف باسم «جبال لومبارد» في ألمانيا ، حيث انتظر عند هذه المدينة حتى يلحق به كل أولئك الذين يرغبون الاشتراك في الرحلة والسفر معه ، وفجأة أبحر الأسقف الشرير باسل Basel من روما حيث وصل إلى نفس المدينة التي كان ينتظر عندها الحبر اليهودي مير الروثنبرجي ، وكان يرافقه كنبس المرتد apostate knipse الذي من المحتمل محيط ذكره ونسى اسمه - وقد تعرف هذا المرتد على معلمنا وقدم له تقريراً عن الأسقف الشرير باسل Basel ، وتسرب هذا المرتد في قيام الكونت مينهارت Meinhardt سيد المدينة في القبض على الأسقف باسل في الرابع من يولية تقوz من عام ٥٤٦ من خلق العالم ، وتسليمه للملك الألماني رادولف .

وهنا يمكننا أن نوجز من ناحية سبب اعتراف كنبس المرتد Knipse بالحبر اليهودي مير الروثنبرجي ، وكذلك سبب الهروب السري لليهود من ألمانيا تحت قيادة هذا الحبر اليهودي . فقد قام رفقاء الحبر مير باغفال السلطات البقظة في المدينة ونجحوا في شق طريقهم إلى لومباردي وهناك تقابلوا مع مجتمعات يهودية أخرى تتجه في رحلتها إلى الأرض المقدسة في

فلسطين وهو نفس المقصد الذى يريده الجميع من اليهود المهاجرين . وقبض الملك الألمانى رادولف على الخبر اليهودى مير Meir وأودعه سجن فى احدى القلاع حتى قضى نحبه فى السجن بعد سبع سنوات عجاف . وتم افتداء جسمان هذا الخبر اليهودى بدفع مبلغ من المال لكي يدفن ويوارى جسمانه فى تراب مدينة وورمز Warms الألمانية.

وفى هذا السياق ، يمكن بسهولة فهم الرواية التى ذكرها لنا أحد أتباع الخبر اليهودى بن نحمان المجهولين التى تعكس وتصور لنا فكر سيده . فقد كتب هذا المرید والذى كان يعيش فى عكا قبل سقوطها فى عام ١٢٩١ م يقول : «لاتدع انسانا يعتقد أن الملك المسيح سوف يظهر فى أرض غير طاهرة ولا تدعه ينخدع فى الاعتقاد بأن الملك المسيح سوف يظهر فى أرض بني اسرائيل وسط الوثنين غير اليهود». ومن الواضح أنه استخلص نتيجة طبيعية مؤداها أن استيطان اليهود فى الأرض المقدسة شرط أساسى لقرب مجىء المسيح مرة ثانية ، أو يقرر أن : «والآن ينهض كثير من الناس والأمم عن طيب خاطر للذهاب إلى أرض اسرائيل، واعتقد الكثير من الناس بأن قدومنا المخلص على وشك الحدوث، حيث يلاحظ هؤلاء الناس إلى أي مدى تعرض شعب بني اسرائيل للظلم الشديد الوطأة على أيدي الوثنين فى معظم الأماكن والأقطار، ويتجلى للناس أيضا ظهور علامات معروفة جيداً توحى بأن البقاء للأفضل ولشعب الله المختار من بني اسرائيل .



الفصل الرابع عشر

الهيئات الدينية العسكرية

لقد وجدت في المملكة اللاتينية في بيت المقدس مؤسسات كثيرة جديدة وكان ثمة عدد قليل من هذه المؤسسات يمتد جذوره في هذه المناطق قبل الوجود الصليبي. واستلمت المملكة اللاتينية مؤسساتها من التجربة والخبرة الأوروبية وفي حالات قليلة كانت هذه المملكة تتذكر بعض المؤسسات عندما كانت الظروف المحلية تقتضي ذلك. إذ كانت النزعة العقلانية من أجل تخليل ويقا، أعراف وتقالييد أهل البلاد الأصليين تساهم في عرقلة أية محاولة من أجل ابتكار مؤسسات جديدة. فلم يكن الصليبيون الأوربيون يفتقرن إلى الموهبة أو الكفاءة، بل كان المناخ الاجتماعي والفكري للمجتمع الصليبي هو الذي يعيق النمو الطبيعي لمثل هذا التجديد والابتكار المؤسستي.

وثرّة مجالان بارزان كانا استثناءً لهذه القاعدة العامة التي تقول أن الصليبيين كانوا أقل ميلاً للتجدد المؤسستي، وهذا المجالان هما ابتكار مؤسسة الهيئات الدينية العسكرية، والابتكار في مجال الحرب والتحصينات. والحقيقة أن الصليبيين قد وجدوا في الفروسيّة الدينية حيث هيئات الدينية العسكرية وال Herb حيث التحصينات والاستحكامات مجالاً مهماً وواضحاً للابتكار والتجدد. وكانت هذه الفروسيّة الدينية تعبر عن روح جديدة تأثرت بشكل ملحوظ بأيديولوجية الحركة الصليبية؛ وقد أثبتت الحرب أن الاستعداد العقلي والفكري محل المشكلات الحيوية والتكييف مع هذه المشكلات هي الضمان الأكيد للوجود الصليبي في الأرضيّة العربيّة. وكانت الفروسيّة الدينية تعبيراً لأيديولوجية مؤسستيه، في حين كانت تقنيات الحرب والتحصينات بمثابة درس عملٍ تعلمه الحكام الصليبيون الذين حكموا مملكة في حالة حرب مستمرة، أو على الأقل مملكة كانت تخضع لحصار كامل قوى من الداخل ومن الخارج.

كانت هيئة فرسان القديس جون (الاستبارية) أولى هيئات الدينية العسكرية التي تأسست في الأرضيّة المقدسة في فلسطين. ولم يعرف على وجه الدقة تاريخ تأسيس وإنشاء هذه الهيئة

الأمر الذي يؤكد دعوى أسبقية هذه الهيئة من حيث الأيديولوجية والتنظيم في الأرض المقدسة. وكان النشاط الباكر لهيئة فرسان القديس جون هو قيام أعضائها ب تقديم أنواع المساعدة والرعاية للمرضى والمحاجين من الحاج المسحيين . وكانت هذه الرعاية والخدمة تمثل دوراً مهماً وذات أهمية في حياة الملكة الصليبية في بواء وجودها ، بيد أن مثل هذا قلما كان بشكل أداة وابتكاراً جديداً ، وذلك لأن مثل هذه المؤسسات قد وجدت على طول طرق الحج في أوروبا قبل الوجود الصليبي بائنة عام . ولكن حتى هذه المرحلة كانت طائفه فرسان القديس جون في بيت المقدس تختلف عن الطوائف الدينية في أوروبا ، ولم تتماثل مع أية موسسة أوروبية معاصرة مشابهة . وكان الجديد هو ارتباط أعضاء هيئة فرسان الاستبارية بأعمال الخير - رعاية المرضى - وقيامهم بهذه الأعمال ، وهم الأعضاء الذين كانوا ينحدرون من طبقة الحكم والمحاربين الوراثية المتكبرة . ومع ذلك فإن أعمال الخير كان يشغل حيزاً كبيراً في مجموعة القوانين الأخلاقية المسيحية، وساهمت الظروف الاجتماعية في أن يجعل منه شيئاً إلزامياً على عاتق الغنى والقوى ، ولم تتجسد هذه الأفكار العاطفية المتعلقة بالكتاب المقدس في مؤسسة استقراطية . وكانت أعمال الخير تعنى إلى حد بعيد توزيع الصدقات بنوع من الكياسة والتلطف .

وثمة فكرة مختلفة قاماً التزمت بها مجموعة فرسان الصفيرة التي اجتمعت حول القديس جيرارد والتي وجدت في الأرض المقدسة بعد احتلال الصليبيين لمدينة بيت المقدس مباشرة تقريباً . إذ أعلن أعضاء هذه الجماعة القيام بأعمال الخير والإحسان واعتبروا هذا العمل أولى مهامهم والتزاماتهم . وهكذا انحصرت الفروسيّة في تلك الحقبة داخل النطاق الديني والديري ، ومن الأهمية بمكان أن نتأمل إلى أي مدى أثر هذا الابتكار الجديد (المثل في الهيئات الدينية العسكرية أو الفرسية الدينية والديريّة) في المواقف والاتجاهات الاجتماعية لمجتمع العصور الوسطى ، وتأثيرها على الأرض المقدسة وعلى طبقة النبلاء الأوروبية . لقد توقف تطور الأيديولوجية الأصلية لهيئة فرسان الاستبارية بعد جيل من تأسيسها ، وذلك حينما قامت رابطة جديدة من فرسان الرهبان بتنظيم وترتيب قواعد انشاء هيئة فرسان الداوية (فرسان المعبد) ، وأتت الداوية بأيديولوجية جديدة . وقد بلأت هذه الهيئة إلى القمة التنافسية ، التي كانت شديدة ، بالدرجة التي جعل أقدم مؤسسه وهيئه دينية تتبنى هذه الأيديولوجية الجديدة ، واستمرت الهيئات الدينية العسكرية تطبق مثلها وأفكارها ، وهكذا استطاعت هيئة فرسان

القديس جون (الاستبارية) في النهاية أن تجسد من خلال قوانينها تلك المثل والأفكار التي كانت مشتقة من شيئين مختلفين، وهما أيدиولوجية فروسية المستشفى وأيدиولوجية فروسية الديرية الجديدة. وقد أثبتت الأيام تعارض أيدиولوجية فروسية المستشفى وأيدиولوجية فروسية الديرية الأمر الذي أدى إلى حدوث الاختلاف العملي والوظيفي بينهما، هذا الاختلاف الذي نهل بشكل نهائى في التمييز الاجتماعي داخل الهيئة الدينية. وظللت رعاية المرضى من العجاج المسيحيين من المهام الرئيسة التي التزم بها هيئة فرسان الاستبارية . بيد أن الحياة اليومية- التي مارسها هؤلاء- أثبتت أن الأهداف والغايات العسكرية والفرسان المحاربين الذين يحققون هذه الأهداف والغايات أصبحت بثابة عامل مهم وذى تأثير في هذا التطور الذي شهدته الهيئات الدينية العسكرية.

وما يذكر أن الأيدلوجية الجديدة لهيئة فرسان الداوية (التي فت صياغتها بشكل نهائى في عام ١٢٢٨م) استطاعت أن تمزج اثنين من المثل التي كانت متداولة في مجتمع العصور الوسطى، وهو الفروسية، والديرية ، في شكل دستور لجماعة الرهبان المحاربين ، وكانت هذه الظاهرة الطبيعية جديدة في أوروبا، وإن كانت هذه الظاهر معروفة لدى حضارات أخرى.

لقد ظل التقليد المسيحي طوال ألف عام يعارض الحرب ويحرم سفك الدماء ، ومع ذلك فإن هذا التقليد كان أحياناً يتراجع عن هذا التحرير أمام الطبيعة والحقيقة البشرية. ولم تستطع التعليم الأخلاقية التي أعلنتها الكنيسة أن تضع حدًّا للعنف السائد في المجتمع أو تمنعه . ومع ذلك فإننا لا يمكن أن نقلل من تأثير هذه التعليم الأخلاقية في هذا المجتمع . فقد كان الفارس المحارب يعيش حياته وهو يشعر بالاثم، وعلى الرغم من أن طبقة المحاربين التي كان ينتمي إليها هذا الفارس المحارب كانت تعرف بأهمية مهنة الفارس من أجل استقرار وحياة المجتمع، فإن مهنة الحرب هذه التي كان يقوم بها الفارس وأبناء طبقته كانت تتطلب إضفاء الشرعية المسيحية حتى يتم اقرارها وقبولها لدى المجتمع ، وهنا كانت توبة النبلاء أمراً متكرراً ، وكان اهتداؤهم إلى الدين القويم وهم على فراش الموت ويتم من خلال تناولهم قربان الموتى تقليداً لعادة وسلوك الرهبان. وكانت الحروب الصليبية علامه مميزة للتقدم الأول صوب القبول الأخلاقي لطبقة المحاربين . الأمز الذى جعل فكرة الهيئة الدينية العسكرية شرعية وأمكن تحقيقها على أرض الواقع.

كانت الكنيسة تقوم بالتصديق على قرار الحروب الصليبية والقسم الصليبي وكان هذا

التصديق الكنسي دلالة على ذلك التوافق مع التعاليم الأخلاقية التقليدية. وقامت الكنيسة باضفاء الشرعية الدينية على مهنة الحرب وذلك بأن حددت أهداف هذه الحرب*. وعنئذ أصبحت طبقة المحاربين تتمتع ببراءة من الإثم أمام الله وأمام المجتمع . ومن الآن فصاعداً، حظيت مهنة طبقة المحاربين بشرعية اجتماعية وباركة الله والمجتمع، وأصبحت طبقة المحاربين بثابة هيئة وجماعة متحدة.

وفي العصور الوسطى كانت استخدام كلمة Order يعني أكثر من معنى هيئة أو جماعة متحدة، وذلك لأنها كانت تتضمن فكرة الوظيفة الاجتماعية العامة، فهو لاء الرجال الذين كانوا ينتسبون إلى طبقة المحاربين Order لم يخضعوا لقدرهم الشخصى فقط وهو مهنة الحرب، بل كانوا يحتلون مكاناً في الحكومة والنظام الكنسي . والآن أصبحت طبقة المحاربين بثابة طبقة اجتماعية تمثل جماعة متحدة Order ذات وظيفة اجتماعية وحكومية رسمية. وقد تم التأكيد على هذه الفكرة في البياجة القصيرة للقانون الباكر لهيئة فرسان الداوية. فقد ذكر القانون الباكر للدواية أن الفروسية قد انحرفت عن أهدافها .. «إذ أنها احترقت العدل، الذي يتعلق بوظيفتها ، ولم تفعل ما يجب أن يعمل ، وهو الدفاع عن الفقراء ، والأرامل ، والأيتام ، والكنيسة ، ولكنها بدلاً من أن تؤدي مثل هذه الأعمال الخيرية، راحت تتنافس في أعمال الاغتصاب للفتيات، والسلب والنهب والقتل». ولهذا فإن الهدف الأول لهذه الهيئة الجديدة (الدواية) كان يتمثل في العودة بطبقة الفرسان إلى نقاوتها وطهارتها. وكانت هذه الدعوى التي أعلنتها هيئة فرسان الداوية تغنى، «أن عقيدة هذه الرابطة العسكرية الجديدة ترى أن الفروسية قد ازدهرت وانتعشت ، ومن أجل ازدهار وانتعاش الفروسية يلجن أفراد وأعضاء هذه الرابطة العسكرية الجديدة (الدواية) إلى أولئك الذين تزعموا طبقة الفرسان العلمانيين أن يعملوا من أجل الله ، وأن ينبذوا الخلاف فيما بينهم ويتقبلوا تعاليم المسيح من أجل خير البشرية، وذلك لكي يتبعوا سبيل أولئك الذين شملهم الله برحمته واصطفاهم من بين الجماهير الذين تهافت أرواحهم في الهلاك (العصاة) وأمرهم بأن يذودوا عن حياض الكنيسة المقدسة.

* شروط الحرب العادلة أو المقدسة: الواقع أن القديس أوغسطين أشهَر آباء الكنيسة المسيحية في القرن السادس الميلادي هو الذي وضع مبادرات دينية للحرب التي يشنها المسيحي ، ووضع شروطاً ثلاثة للحرب العادلة التي تحظى بقبول الله، وهي أن تشن الحرب للدفاع عن الأموال والعرض ، وأن يتتوفر حسن القصد من هذه الحرب ، وأن تشن الحرب بناء على قرار يتخذه قائد عسكري أي سلطة علمانية. (المترجم).

وما يذكر أن فرودج الفرسية النقية الطاهرة قد وجدت كفكرة لبعض الوقت، بيد أنه بمرور الزمن أصابها الفساد ، وكان الداوية يرغبون في استعادة الفرسية لطهارتها الأصلية.

وثمة علاقة حميمة بين قانون هيئة فرسان الداوية وبين سان برنارد أسقف كليرفو^{*} ، إذ أن بعض الأفكار التي يتضمنها قانون الداوية سوف تكرر في رسالة سان برنارد الكبيرفو الشهيرة التي تعرف باسم «في تقييظ ومدح الفرسية الجديدة» (وسان برنارد الكبيرفو هذا هو الذي قاد الدعاية للحروب الصليبية طوال عشرين عاما حيث بشر بالحملة الصليبية الثانية، وعلى أية حال، فإن مثل هذه الأفكار كانت متداولة قاماً بعد سنوات قليلة من الغزو الصليبي لمدينة بيت المقدس. وقد رأى اثنان من المؤرخين اللاتين اللذين لم يشاركا في الحملة الصليبية الأولى هذه الحادثة (الغزو الصليبي لمدينة بيت المقدس) فرصة هيأتها إرادة الرب لكن نستعيد الفرسية سابق مجدها ومثلها العليا. فنجد المؤرخ الصليبي روبرت الترجنتي Ruibert de Nogent يعزز الرواية التالية وينسبها إلى البابا اريان الثاني الذي ألقى خطابه الشهير في مجمع كليرمون في السابع والعشرين من نوفمبر عام ١٠٩٥ م:

«وحتى الآن تخوضون غمار حروب غير ضرورية فيما بينكم ، وإنكم تطلقون السهام المسمومة في وجه بعضكم البعض في مذبحة متبادلة ولم يحفزكم إلى هذا العنف المتبادل سوى الجشع وحب المال، والغطسة والكربلاء، ولذا فانكم تستحقون الموت والهلاك واللعنة . والآن نقترح عليكم خوض حروب تجلب عليكم مكافأة الاستشهاد المجيد، تلك الحروب التي تؤكد للمحارب الحق الشرعي للمجد الدينى والأخرى معًا .».

ويعتبر المؤرخ اللاتيني بلديريك الدوللى أسقف دول (١١١٠م) أكثر صراحة ، إذ جاءت صياغته خطاب البابا اريان الثاني أكثر دقة واحكامًا ، وهى الصياغة التى بنى عليها سان برنار الكبيرفو أسقف كليرفو دعائى النزقة وتبشيره بالحملة الصليبية الثانية. ووفقاً لرواية بلديريك الدوللى الخاصة بخطاب البابا اريان فى مجمع كليرمون فإن البابا قال:

«إن الفرسية التى تبيد رعايا وشعب المسيح ليست فرسية السيد المسيح. لقد احتفظت الكنيسة المقدسة بفرسيتها وفرسانها الذين يدافعون عنها ... فإذا أردتم أيها السامعون أن

* سان برنار أسقف كليرفونا : هو أسقف كنيسة كليرفو فى فرنسا فى النصف الأول من القرن الثانى عشر البلادى، وقد قام بدور كبير فى الدعوة للحروب الصليبية من خلال خطبه ومواعظه الدينية لاقناع الرأى العام الأوروبى بفكرة الحروب الصليبية. (المترجم).

خدموا وتصنعوا أرواحكم من اللعنة، فأمامكم طريقان إما أن تنبذوا زنار هذه الفروسية، أو أن تواصلوا عملكم بجسارة كفرسان للمسيح وتشقوا طريقكم على وجه السرعة للدفاع عن الكنيسة الشرقية في فلسطين وبلاط الشام».

لقد كان السعي وراء اعتناق مثال الفروسية، التي تجعل من الفارس محارباً عالمياً باعتباره جندياً من جنود المسيح يمثل أحدى مظاهر أيديولوجية هيئة فرسان الداوية. واعتناق هذا المثال والتحول إلى أسلوب جديد في الحياة سوف يخدم الإنسان وتجعله يتبع عن أولئك الذين استحقوا عذاب جهنم وينسى المصير.

وفي الوقت الذي كان فيه قانون الداوية يفسر لنا معنى فروسية المسيح (الفروسية الدينية) فإنه لم يفسر لنا معنى الجماعة الدييرية الراهبانية . فالجماعة الدييرية النسائية كانت معروفة لدى الجميع في تلك الفترة ، وكان قانون الداوية أكثر اهتماماً بتنظيم حياة أولئك الأعضاء، الرهبان الذين ينتسبون إلى تلك الرابطة الدينية الجديدة بصورة أكثر من اهتمامه بتقديم واقتراح قواعد السلوك. وببساطة يمكن القول بأنه : «إذا أراد أي فارس علماني أو أي شخص آخر أن ينأى بنفسه عن هاوية الهالك الروحي فإن عليه أن يهجر العالم، ويختار لنفسه حياة اجتماعية بسيطة». ومرة ثانية يقول: «إنكم إذا استطعتم أن تنكرروا رغباتكم البشرية وأن تخدموا مملكة رب لفترة محددة فأنكم تصبحون فرساناً مسلحين من أجل إنقاذ أرواحكم». وكان هذا المعنى واضحاً يدركه كل المعاصرين. ولم ترتبط النذور الدييرية الراهبانية بقواعد الفروسية ، وغالباً ما يحدث جدل حول تغير جوهر الفروسية. فالفارس لم يصبح فارساً مسيحياً وإن كان راهباً، ولكن المعيار في ذلك هو أن يقوم بحياة المثل الأصيلة لهذه الفروسية. وكان القسم والنذر الدييري ينظم الفروسية المسيحية، واستطاع القسم الدييري الثلاثي الخاص بالبساطة، والطهارة، والطاعة أن يفرض هذا النمط من الحياة على الفرسان. وقد استطاعت نزعة التنظيم الأولية أن تقد عنصر التوحد النسكي، وقبل ستة قرون بالضبط، أي في القرن السادس الميلادي استطاع القديس بندكت النورس Benedict of Nursia أن يتحول حياة التنسك الفردية إلى حياة النظام الدييري الجماعي. وكانت مآثر وأعمال أي محارب تكسبه وتضفي عليه الشرف والسمعة الحسنة، بيد أن الأعمال التي يقوم بها أي جندي من جنود المسيح تكسبه مجد الرب وكان انكار الذات من الأعمال التي تمجدها وتحبّذها هيئة فرسان الداوية.

وفي وقت ما توقف سريان التحرير الكنسي لسفك الدماء ليخلق عقبة، فقد أصبحت الفروسية والدييرية يكمل بعضهما الآخر، وقد عبر قانون الداوية عن هذا التكامل ويشكل فظ

وورد فيه : «لقد نشأ هذا النمط الجديد من الترهب والدين، وأصبح الدين المسيحي يترى الفروسية ويعرف بها ، وهكذا فإن المسيحية المسلحة الممثلة في الفروسية سرف ترقى وتتقدم وتقتل العدو دون شعور بالاثم أو الذنب».

لقد ظهرت هيئة فرسان الداوية في شكل مجموعة صغيرة من الفرسان الرهبان بقيادة هوف البينزى Haugh de Payens وذلك في عام ١١٨١ لتصبح بعد ذلك هيئة عسكرية كبيرة بشكل مذهل . وكانت المهمة الرئيسة لفرسان الداوية في المناطق الصليبية في بلاد الشام تتمثل في قيامها بحماية الحجاج المسيحيين الذين يمرون في طريقهم من البحر المتوسط إلى القدس ، وتوفير الحماية للحجاج المسيحيين الذين يتحركون من بيت المقدس إلى الأماكن والمزارات المقدسة على ضفاف نهر الأردن ، وفي فترة لاحقة أُسندت إليهم مهام عسكرية رئيسية . وقد تضاعف أهمية الغرض الأصلي من إنشاء هيئة فرسان الداوية وذلك مع استقرار الأمن الداخلي وقوة الشرطة وقلما كان هذا الهدف الأصلي من إنشاء هذه الهيئة المثل في حماية الحجاج المسيحيين الوافدين إلى الأراضي المقدسة في فلسطين يتناسب مع هيئة دينية عسكرية كبيرة العدد والعدة . ومع تأسيس الهيئات الدينية العسكرية- باتت مهمة الدفاع عن المملكة الصليبية في بيت المقدس من المزايا المهمة وأصبحت هذه المهمة من مزايا ومناقب هيئة فرسان الداوية . لقد تحولت وظيفة الداوية من حماية الحجاج المسيحيين من أخطار الطريق إلى الدفاع عن حدود المملكة الصليبية وحمايتها . حيث كان الصليبيون يعتبرون أنفسهم حجاجاً .

وعلى الرغم من ذلك ، فإن نشأة الهيئات الدينية العسكرية لم تقم بها الدولة أو الكنيسة، ولم تساهم أية مؤسسة أخرى بصورة كبيرة في تعضد وضع وقوة هذه الهيئات الدينية العسكرية . وتمرر الوقت أصبحت هذه الهيئات الدينية العسكرية قوية على الرغم من أن الدولة والكنيسة قد استنزفتا هذه الهيئات الدينية والعسكرية في عملية تشيد وبناء مؤسسة الدولة والكنيسة ، وفي الوقت الذي فت فيه قوة هذه الهيئات أصبحت تمثل قوة تهديد لسلطة الدولة والكنيسة في المملكة اللاتينية في بعض الأحيان . فقد قدمت هذه الهيئات العسكرية العون والمساعدة للكنيسة ، بيد أن هذه الهيئات العسكرية كانت في حالة خصم وشقاق مع رجال الدين المحليين، وقد ساهمت هذه الهيئات الدينية العسكرية بشكل كبير في تعضيد قوة الدولة ولكنها لم تكن دائماً ضمن مؤسسات الدولة.

وكانت قائمة الأوامر البابوية الطويلة تضم باستمرار تلك الامتيازات الواسعة التي تتع بـها

أفراد الهيئات الدينية العسكرية. وكانت تشمل امتيازات قضائية واعفائهم من التقاضي أمام المحاكم الكنسية المحلية إذ كانوا يعتمدون بشكل مباشر على كنيسة روما ، الأمر الذي جعلهم لا يخضعون لطائلة العقوبات الكنسية والأناث فيما من جانب الأساقفة المحليين . وأخيراً كان يسمح لهم بفتح كنائسهم في أيام محددة عندما يفرض على المدينة عقوبة الحرمان واللعنة الكنسية. وهكذا فقد حرم رجال الدين المحليين من فرض أية وسائل تأدبية ضد أفراد الهيئات الدينية العسكرية.

لقد اصطدمت مصالح الهيئات الدينية العسكرية مع مصالح الهيئة الدينية المحلية. وعلى الرغم من المعارضة القوية من جانب رجال الدين المحليين ، فإن بعض كنائس الهيئات الدينية العسكرية ادعت لنفسها امتيازات أبروشية ، كان من شأنها أن تؤدي إلى تجريد الكنائس المحلية من موارد دخلها الكنسية . وكانت مقابر هيئة الاستبارية تتنافس مع مقابر الكنائس المحلية وجلبت هذه المقابر بعض الموارد الأساسية لخزانة الاستبارية . وفي نفس الوقت ، كانت عملية نو تملك الهيئات الدينية العسكرية للأراضي الزراعية تؤدي إلى انخفاض موارد الدخل المنتظمة للكنيسة اللاتينية * . ومن المحتمل أن السكان المسيحيين في المملكة الصليبية كانوا متزمنين بدفع العشر الكنسية منذ تأسيس هذه المملكة اللاتينية ، وعلى وجه الدقة منذ عقد مجمع نابلس في عام ١١٢٠ م. فقد أقر مجمع نابلس الذي عقده الصليبيون فرض ضريبة العشر الكنسية على الممتلكات العقارية من الأراضي الزراعية ، وفرضت ضريبة العشر على أسلاب ومقانيم الحرب. وكان الفلاح المسيحي المحلي يدفع ضريبة العشر الكنسية كما دفعها ملاك الأراضي من الفراغة ، إذ كانت هذه الضريبة تقطع من إيجارات وتحصيلات أراضيهم الزراعية. وهكذا كانت الأراضي الزراعية التابعة للهيئات الدينية العسكرية تثل مشكلة زراعية. وبالنسبة لمسألة ضريبة العشر، فإن رجال الدين المحليين كانت لهم اليد العليا ولم تحصل الهيئات الدينية العسكرية على اعفاء من دفع هذه الضريبة ما لم تتحرر على وجه الدقة من السلطات المحلية**. وبطريقة أو بأخرى أبرمت اتفاقيات رسمية، وأحياناً كانت ضريبة العشر تقسم بين الأطراف المتنافسة من الهيئات الدينية العسكرية. ومن الملاحظ أن الامتياز

* كان أول امتياز منح لفرسان هيئة الاستبارية هو ذلك الامتياز الذي منح لهم بطريرك مدينة بيت المقدس رئيس أساقفة تيسارية في عام ١١١٢ م. (المؤلف).

** ويرجع السبب في ذلك إلى أن أراضي الهيئات الدينية العسكرية كانت معفاة من تأدية الضرائب الدينية للكنيسة اللاتينية . (المؤلف).

البابوى الذى منح للهیئات الدينية (العسكرية والخاص باعفائهم من دفع ضريبة العشور على أراضيهم الزراعية (والذى كان له أهميته المالية بالنسبة لأملاك هذه الهیئات الدينية فى أوربا) قد فقد فعاليته وأهميته فى المملكة اللاتينية فى بيت المقدس. وكما أوضحتنا فى موضع آخر ، فإن النظام الريفى السائد للصلبيين كان يفتقر إلى نظام الضياعة ، وإلى غياب الأموال الخاصة من الأراضي الزراعية. ومن ثم ، فإن الهیئات الدينية العسكرية استفادت جزئياً فقط من الامتياز البابوى الذى منع لهم. وبموجب هذا الامتياز البابوى كان يتم اعفاء مزارع الكروم وحدائق الزيتون ومزارع قصب السكر التى كانت تستغلها الهیئات الدينية العسكرية بشكل مباشر من ضريبة العشور. وبالإضافة إلى ذلك، فقد حاولت هذه الهیئات الافلات والتهرب من دفع هذه الضريبة وذلك عن طريق تحويل أراضيها المزرعة بمحاصيل الغلال إلى مزارع من ذلك النوع السابق الذى يعفى من ضريبة العشور الكنسية (وهي مزارع الكروم وحدائق الزيتون ومزارع قصب السكر) ، وكانت محاولة التهرب هذه تعكر صفو العلاقات بينهم وبين رجال الدين المحليين وتشير فيما بينهم التزاعات، تلك التزاعات التى كان يبحث أسبابها والتوصل إلى اتفاقيات عسيرة ومعقدة من أجل تسوية هذه الخلافات بين الهیئات الدينية العسكرية وبين رجال الدين المحليين.

وعندما نعيد النظر في الامتيازات المختلفة العديدة التي تقتضي بها أفراد هذه الهیئات الدينية العسكرية في المملكة الصليبية في بيت المقدس، فإنه يتضح لنا تلك النزعة العدوانية لهذه الهیئات ومحاولاتها الدائبة من أجل سوء استغلال هذه الامتيازات المنوحة لهم. ويبدو أن هذا السلوك كان سمة تميز الكثير من الجماعات المتحدة، وهذا السلوك الجماعي يصعب التتحقق منه وفحصه إذا ما قورن بالسلوك الفردي الذي يسهل فحصه والتحقق منه. وحاوت الهیئات الدينية العسكرية (الاستبارية- الداوية- التيوتون) أن توسيع امتيازاتها وذلك بضمها مؤسسات علمانية فرعية تكون بمثابة مؤسسات دينية خيرية. ونظراً لأن مثل هذه المؤسسات الفرعية كانت تضم عدداً كبيراً من النبلاء المحليين، الذين كانوا يمثلون الشريحة الرئيسة من المحسنين على الكنيسة ، فإن التجربة أثبتت أن هذه المحاولة كانت هدامـة . وعند هذه المرحلة تعالت بسرعة شكايات رجال الدين المحليين مرة ثانية تطالب بوضع حد لطمع وشرامة هذه الهیئات الدينية العسكرية.

وتبرهن الشكايات والنزاعات المستمرة المدونة في عشرات الوثائق على أن هذه الهیئات الدينية العسكرية لم تحظ بالود والمحبة من جانب رجال الدين المحليين على الرغم من الخدمات

المهمة التي كانت تقدمها هذه الهيئات للملكة الصليبية. وحتى البطريرك اللاتيني في بيت المقدس الذي كان قد بارك الخطى لتأسيس هيئة فرسان الداوية واعتبرها بثابة دعامة أساسية يعهد بها مركزه ونفوذه في المملكة اللاتينية قد أصيب هو الآخر بخيبة أمل وذلك عندما رفضت هيئة الداوية وساطته ، وإن كان أفراد هذه الهيئة يقدمون له الطاعة في الشؤون الدينية، وعلى المستوى المحلي كانت كل هذه الاختلافات والنزاعات تقف حجر عثرة في وجه تحسين العلاقات مع بابوية روما.

لقد أدركت البابوية أن تطوير الهيئات الدينية العسكرية يرتبط بالقيام بأعمال الخير وتقديم الصدقات ويرتبط أيضاً بما يقدمه أفراد هذه الهيئات من عناء وخدمات كبيرة في أوجه الخير والاحسان. ففي القرن الثاني عشر الميلادي قامت الهيئات الدينية العسكرية في كل من شبه الجزيرة الإيبيرية (أسبانيا) والمناطق الصليبية في بلاد الشام وفلسطين بدور كبير في حماية المسيحية وامتداد نفوذها وسيادتها . ولم تتوان البابوية عن تقييم امكانيات حركة عالمية منظمة جيداً مثل هذه الحركة الدينية العسكرية المثلثة في الهيئات الدينية العسكرية ، يدين أفرادها بالطاعة المطلقة لرئيسها هذه الطاعة التي جعلت كل هيئة دينية عسكرية بثابة أداة فعالة في يد مقدم هذه الهيئة والرئيس الأعلى لها وأصبح هذا المقدم خادماً مباشراً لبابوية روما. لقد استطاعت الشبكة المتفرعة للهيئات الدينية العسكرية أن تكون في خدمة البابوية في فترة ما قبل تأسيس الهيئات الدينية المسولة وجماعة اليسوعيين التي تأسست في في عام ١٥٣٤ بزمن طويل*. ولم تكن بابوية روما شديدة البخل في منح الامتيازات لهذه الهيئات الدينية العسكرية، ولم تتقاعس عن الدفاع عنها . وكانت هذه الامتيازات السخية التي منحت للهيئات الدينية موضع انتقاد في مجمع اللاتيران الثالث الذي عقد برئاسة البابا أنوسنت الثالث عام ١٢١٥م، حيث كانت هناك بعض الأصوات تنادي بتقليص هذه الامتيازات والحد منها . وقد أعقب هذا المجمع بعض المحاولات الضعيفة من أجل وضع حد لهذه الامتيازات ، بيد أن هذه المحاولات لم تستطع أن تلغى الامتيازات الواسعة المنوحة لهذه الهيئات الدينية العسكرية.

* كانت تنظيمات الرهبان المسؤولين خاضعة للبابا أنوسنت الثالث في بداية القرن الثالث عشر الميلادي، وانتشر هذا النمط من الرهبان المسؤولين في كل أقاليم أوروبا من أجل الاصلاح الروحي والأخلاقي للمجتمع (المؤلف).

ومن سخرية الأقدار التاريخية في النهاية ، أن الشخصية العالمية للهيئات الدينية العسكرية وامتيازاتهم ، واعفاءاتهم ، واعتمادهم المباشر على بابوية روما قد سمحت للبابا ممارسة السلطة (وهي السلطة التي كان من الصعب على الملك الفرنسي ممارستها) في أن يلغى هيئة فرسان الداوية القرية وأن يحضر مقدم الداوية ورفاقه ليفرض عليهم عقوبة الاعدام حرقاً على خازوق .

ومع أن رجال الدين المحليين كانت لديهم من الأسباب في أن يروا في الهيئات الدينية العسكرية عنصراً عدائياً ومتهكماً للأعراف ، إلا أنهم لم يكن بقدورهم انتقاد سلوكيات أفراد هذه الهيئات الدينية ، وذلك لأنهم كانوا يدركون تماماً أهمية إسهامات هذه المؤسسات الدينية العسكرية في الدفاع عن الوجود الصليبي ، وفجعت كل هذه الهيئات الدينية العسكرية تقريباً بالاعفاءات والامتيازات الكنسية ، بيد أنه كان يوجد اختلاف وتفاوت واضح بينهم في الأوضاع السياسية والاقتصادية في الإمارات الصليبية المتعددة .

لقد حاز فرسان الإسبتارية في المملكة اللاتينية في بيت المقدس ممتلكات من الأراضي الزراعية أكثر من ممتلكات فرسان الداوية . والحقيقة أن الإسبتارية تسبق الداوية زمنياً من حيث النشأة في الأراضي المقدسة بجيء كامل من الزمان . ولاشك أن هذا التفاوت بين الإسبتارية والدواية في ملكية الأراضي الزراعية كان له تأثير إلى حد ما . بيد أن ثمة عامل إضافي يجب أن نلتمسه ونبحث عنه في ضوء حقيقة أن المنفعة والهبات التي كانت تقدم للهيئات الدينية العسكرية ، كانت تأتي إليهم في المقام الأول من أعمال الخير والاحسان ، ومن المحتمل أن النشاط العسكري للإسبتارية وارتباطها بالحرب كان يحتم عليهم طلب العوننة من المانحين . وكان من الأمور الخيرية في تلك الفترة أن تمنع ضيافة ل الهيئة دينية عسكرية تأخذ على عاتقها مهمة رعاية المرضى والمحاجين ومثل هذه الغايات النبيلة تتفق جيداً مع غط محدد من الهبة ، والتي كانت تعرف باسم « منحة الصدقات » ولم تكن هذه المنحة تشرط أن يقدم الملتقي مقابلها أية واجبات ، بصرف النظر عن الصلوات التي كانت تؤدي من أجل روح المحسن والمتصدق .

وتنامت ممتلكات الهيئات الدينية العسكرية من الأراضي الزراعية بشكل ملحوظ في أثناء القرن الثاني عشر الميلادي . ويتأسس هيئه فرسان التيوتون كهيئة دينية عسكرية مستقلة في أثناء الحملة الصليبية الثالثة ، أصبحت هذه الهيئات الدينية العسكرية قللاً قوة اقتصادية في

المملكة اللاتينية ، ومع ذلك، فإن أهميتها الحقيقة لم تكن مالية، وذلك لأن وضعهم كان قد تحدد بشكل نهائي، وتبلور هذا الوضع في قيامهم بدور مهم كدعاة عسكرية للمملكة الصليبية.

لقد شابكت عوامل عديدة لتخليق هذا الوضع وهذا الموقف. وباستثناء أسبانيا فإن عددًا قليلاً جدًا من الدول المعاصرة قد انشغلت ب مثل هذه الحرب المستمرة التي كانت سائدة في المملكة الصليبية. وحتى خلال السنوات القليلة التي لم تشهد حملات عسكرية رئيسة استمرت معارك الحدود بسبب عدم استقرار الأمن على طول الطرق في الريف الإسلامي، وكان هذا يتضمن ويستلزم عبئاً كبيراً من الاستعدادات العسكرية . وكما كان الوضع في الأقطار الأوروبية، كانت الجباية والضرائب الاقطاعية تمثل القوة الرئيسية للمملكة الصليبية. ومن المحتمل أن الجيش الصليبي كان أكثر كفاءة وأسهل في الحركة من نظيره في الغرب الأوروبي. بيد أن قلة عده كانت تمثل نقطة ضعف مزمنة للمملكة الصليبية. وكانت فاعليات وتأثير الجيش الصليبي تعتمد على الخدمة العسكرية الاقطاعية والتي لم يزد مجموعها في أنحاء المملكة الصليبية عن ٦٧٠ فارساً وعدةآلاف من المغاربين المشاة. وكان شطر من هذه القوة العسكرية ثابتاً لا يتحرك يعمل في حراسة القلاع، وأقل القليل من هذه القوة العسكرية الصليبية هو الذي كان يشارك في المعارك العسكرية . وهذا يفسر لنا أهمية الدور العسكري للهيئات الدينية العسكرية في الدفاع عن المملكة الصليبية .

لقد استطاعت الهيئات الدينية العسكرية أن تحشد جيشاً أكثر عددًا من جيش المملكة الصليبية. وعلى الرغم من عدم معرفة أعداد أفراد الجيش بالضبط، فإنه من المنطقى أن كل هيئة دينية عسكرية كانت تحتفظ لنفسها بجيش قوامه ٣٠٠ مقاتل في المملكة الصليبية . وهكذا فإن مجموع أعداد جيوش الاسبتارية والداوية كان يساوى ويعادل عدد القوات العسكرية الاقطاعية للمملكة الصليبية .

لم يكن أعداد الجيوش هو المعيار الوحيد . فقد كانت القوات العسكرية لهذه الهيئات الدينية في حالة تحرك باستمرار حيث كانت قوات المملكة الصليبية تحرك أيضاً لدرأ الخطر. وكانت القوات العسكرية التابعة للهيئات الدينية في حالة استعداد دائم، وذلك لأن وجود هذه القوات وهذه الهيئات الدينية كان يعتمد في المقام الأول على أساس منطقة الحرب. وكانت مهمة الحرب أو الحراسة يمثل أحد الأنماط العاديّة للحياة، والمشاركة في الحرب كان يعد التزاماً

مهما من التزامات هذه القوات التابعة للهيئات الدينية العسكرية ، وليس هناك شيء أكبر نظاظة من الاتتباس الآتي من قانون الداوية:

«أيها الأخوة المجلون ، إنَّ رَبَّ يُؤَازِرُ خَطَاكُمْ ، لَا تَكُمْ احْتَقْرَتُمْ هَذَا ذَلِكَ الْعَالَمَ وَالْدُّنْيَا
الْغَادِرَةَ وَزَهَدْتُمْ نَعِيمَهَا مِنْ أَجْلِ أَنْ تَنْتَالُوا حُبَّ الرَّبِّ الْأَبْدِيِّ وَأَنْ تَحْتَقِرُوا مَلَذَاتِ وَحْنِينِ الْجَسْدِ
الْمَادِيَّةِ ، وَأَنْ تَتَزَوَّدُوا بِزَادِ التَّقْوَى وَتَتَطَهَّرُوا مِنْ أَدْرَانِ الْخَطِيَّةِ عَنْ طَرِيقِ الْإِمْتَازَاجِ فِي جَسْدِ
الْمَسِيحِ بِتَنَاهُ طَقْسِ الْعَشَاءِ الرِّبَّانِيِّ ، وَأَنْ تَتَزَوَّدُوا بِالْحَكْمَةِ وَالْقُوَّةِ عَنْ طَرِيقِ التَّمْسِكِ بِوَصَابِيَا
الْرَّبِّ ، وَيَعْدُ أَنْ تَنْتَهُوا مِنْ تَقْدِيمِ الْمَحْدَةِ السَّمَاوِيَّةِ لِلرَّبِّ ، اذْهَبُوا إِلَى الْمَعرَكَةِ غَيْرَ هَيَابِينَ
وَلَوْجِينَ ، وَأَنْ تَكُونُوا عَلَى اسْتَعْدَادِ تَامٍ لِتَقْدِيمِ أَرْوَاحِكُمْ فَدَاءً لِلرَّبِّ وَعِنْدَئِذٍ تَنْالُونَ شَرْفَ
الْشَّهَادَةِ وَتَرْتَدُونَ تَاجَهَا الْعَظِيمِ».

وهكذا فإن قوانين الداوية لم تسهل فقط عملية تحرك القوات العسكرية الفوري والمعجل وقت الخطر بل كانت أيضا تؤكد على فاعليات وتأثيرات هذا التحرك العسكري. لقد كانت الهيئات الدينية العسكرية منذ بداية وجودها بثابة هيئات مسيحية عامة. وكان لها مراكز قيادة في الأراضي المقدسة في فلسطين وببلاد الشام، بيد أنهم كانوا يحصلون على المؤن العسكرية من أوروبا ، هذه المساعدات والامدادات التي وضعت تحت تصرفهم كانت عنوانا لهم في إنجاز مهامهم العسكرية في الأراضي المقدسة. وظل انتشار الهيئات الدينية العسكرية في أوروبا أمراً فريداً ومهماً حتى ظهور جماعة الرهبانية المتسللين التي ظهرت بعد مائة عام تقريباً، لقد وجهت هذه الهيئات الدينية في الأراضي المقدسة استجابةً للتهدى الداخلي الذي فرضه رجال الدين المحليين ، ويمكن أن نعزّز نجاحاتهم جزئياً فقط في أوروبا إلى هذا التهدى المحدد. والحقيقة أن الحفاظ على تحرير الضربي المقدس والدفاع عن المسيحيين في منطقة الشرق العربي ضد الهرطقة (المسلمين) كان عاملاً قرياً في تجنيد هؤلاء النبلاء الأوروبيين واشتراكهم في الحروب الصليبية ، بيد أن العامل الأقوى في تجنيد هؤلاء النبلاء الأوروبيين يمكن في الرسالة الروحية والاجتماعية لطبقة المحاربين وهي الطبقة التي كانت تبحث عن هويتها ومثلها لكي توكلها باعتبارها طبقة مميزة في المجتمع الأوروبي الاقطاعي.

وبحلول عام ١١١٣م كانت الاستبارية تقتل أملكًا وبيوتًا في منطقة سان جيل (في فرنسا) ، وفي استي Asti ، وبيزا وباري ، وأنزانتو وميسينا في إيطاليا . وفي عام ١١٣٤م ، أوصى الملك ألفونسو الأول Alphonso I حاكم أراغون ونافار بأن تقسم ملكته بالتساوي ومناصفة بين الاستبارية والدواية والضربي المقدس، وما يذكر أن وصف الثروة الضخمة للهيئات

الدينية العسكرية في أوروبا يتجاوز الهدف من هذه الدراسة . ويرى بعض مؤرخي القرن الثالث عشر من اللاتين أن هيئة الاستبارية وحدها قد امتلكت في أوروبا ما يقرب من تسع عشرة ألف ضيافة ، وليس من البسيط التأكيد من صحة هذه الحقائق والمعلومات الخاصة بعدد هذه الضيافة ، بيد أن مثل هذه الحقائق تعكس انطباع المؤرخين المعاصرین تجاه ثروة وأملاك فرسان الاستبارية في أوروبا . والذى يهمنا في هذا الموضوع الخاص بهذه الشروة هو أن ثلث موارد وثروات فرسان هيئة الاستبارية قد تحولت عاما بعد عام إلى مراكز وجودهم في المناطق الصليبية في بلاد الشام وفلسطين . وهذه الموارد قد استغلتها كل البيوتات المهمة لهيئة الاستبارية التي وجدت في المناطق الصليبية . وفي بعض الأحيان كانت الاحتياجات الخاصة للأرض المقدسة تجعل المقاطعة أو الأقليم الذي منع للاستبارية في أوروبا مستولاً عن تزويد وتدعمim الوطن الأم للاستبارية في منطقة الشرق العربي بالأثبات اليقينية الصحيحة . وعلى سبيل المثال ، ففي عام ١١٨٢م أصدرت الكنيسة العامة للاستبارية مرسوماً يقضى بأن يقوم رئيس دير فرنسا بإرسال مائة قطعة قضية وأن يقوم رئيس دير سان جيل هو الآخر ، وقد أرسلت أنطاكيه ألفين ذراعاً من الأقمشة القطنية ، وأرسل رؤساء أديرة إيطاليا التي تشمل أديرة بيزا والبنديقية ألفين ذراعاً من القماش القطني بألوانه المتعددة ، وأرسلت القدسية مائة قطعة من قماش اللباد ، وكانت المؤن والامدادات من السكر ترد من ضياع الاستبارية في طرابلس وطبرية . وكانت الموارد المحلية تغطي هذه النفقات العامة أو كان يتم تغطية مثل هذه النفقات من خلال الصدقات المحلية التي كان يتم تحصيلها . وبالإضافة إلى ذلك ، فإن هيئة الاستبارية كانت تملك سفنًا لنقل المؤن والامدادات التي كانت تجمع من أوروبا لإرسالها إلى الأرض المقدسة وقد شهدت هذه الفترة أحياناً تنافساً بين الاستبارية وبين المدن البحرية الإيطالية من أجل نقل الحجاج والمتجار من أوروبا إلى منطقة الشرق العربي ، وهكذا تولدت مصادر دخل إضافية لهيئة فرسان الاستبارية من عائد نقل الحجاج والمتجار إلى الشرق .

وما يذكر أيضاً أن فرسان الداوية كانوا يحوزون أملاكاً في أوروبا . وبالإضافة إلى الأموال الواسعة التي حازتها هيئة فرسان الداوية في أوروبا كما أنها أصبحوا من أشهر رجال البنوك والمال في أوروبا في تلك الفترة ، ومع انتشار البيوتات المالية التابعة للدواية في كل أنحاء أوروبا ازدادت قوتهم وقوى نفوذهم بسبب وضعهم الديني واستعدادهم المستمر كمدافعين عن المملكة الصليبية ، وكانت الداوية أسرع الهيئات الدينية العسكرية في دخول مجال النشاط المالي والمصرفي . فقد قام الداوية بأعمال الإيداعات ، والتحويلات وتحويل العملات ، وصلك الحالات ، وغيرها من الأعمال المالية ، وأخيراً قاموا بعملية اقراض المال ، بيد أن عملية

الاقراض هذه كانت تفوح منها رائحة الربا الذي كان موضع الشجب والانتقاد القاسي. وبحلول القرن الثالث عشر الميلادي، كان فرسان الداوية من الشخصيات البارزة في الوظائف المالية في الملكيات الأوروبية، كما أنهم ظلوا طويلاً يعملون في الوظائف المالية ويشاركون في المجالس المالية البابوية. وقد امتد نشاطهم الاقتصادي إلى أنحاء الغرب الأوروبي ، إذ كانوا يشاركون في أعمال التجارة الخارجية بين الشرق العربي والغرب الأوروبي. بيد أننا أيضاً نجد أن الداوية والاستمارية كانوا يتعرضون للأموال للحكام الصليبيين. ولاشك أن أفراد الهيئات الدينية العسكرية قد أصبحوا من كبار ملاك الأراضي الزراعية وсадة اقطاعيين في المناطق الصليبية وذلك عندما قام النبلاء المحليون برهن أراضيهم بسبب عجزهم عن الوفاء بدفع ديونهم . وعلى الرغم من ذلك ، فإن أفراد الهيئات الدينية العسكرية في الأراضي المقدسة في فلسطين كانوا من الدائنين الأكثر تسامحاً .

وكانت توجد هوة سحيقة واضحة بين المثال الواقع أي بين الذين اعترفوا بأنهم سيعملون حراساً وأمناء وأقنانا فقراءً للسيد المسيح أي أنهم سيكونوا بثابة جنود للمسيح ومعبد سليمان وبين وضعهم الفعلى من حيث كونهم أصبحوا يمتلكون الأراضي والقلاع وأصبحوا حكامًا للأقاليم ورجال بنوك ومال. وهذا لا يقتضي ضمًّاً أن أفراد الهيئات الدينية العسكرية قد تدثروا بعبادة الطهارة والعنف والقداسة لكي يخفوا تحتها مطاعهم ومكاسبهم الدينية . فقد كان فرسان الاستمارية يتلون طليعة الذين حضروا من أوروبا إلى الأراضي المقدسة في فلسطين للقيام بهمة رعاية المرضى والمجنومين الفقراء ، وعندئذ تحولوا فقط إلى هيئة مالية. وكان قيام الاستمارية برعاية المرضى مجرد احياء ذكرى لشن وقيم ارتبطت في ذلك الوقت برموز تتعلق بالملكة الصليبية التي تأسست في منطقة الشرق العربي، أو كانت هذه المهمة مجرد إيهامة كاذبة لكي تخفى وراءها المواهب الأساسية لهذه الهيئات الدينية العسكرية، ولم تستطع الهيئات الدينية العسكرية التخلص من غوذج سلوك الجماعات الذي يبحث عن تحقيق المصلحة الشخصية ، وليس السلوك الذي يميز الفقر الجماعي الحواري الذي كان يبحث عليه المسيح عليه السلام. وحتى الهيئات الرهانية المسؤولة الأكثر تدينًا لم تستطع أن تفلت من هذا التحول في السلوك، ولم تستطع التمسك كثيراً بأخلاقيات الفقر الحواري المثالى التي نذررت حياتها له. وليس مهمتنا أن نحكم على جشع أو ثراء الهيئات الدينية العسكرية، ولكن مهمتنا تدخل في نطاق تقييم الأساليب والطرق التي استخدموها في تكوين ثرواتهم ومواردهم المالية داخل إطار المثل التي أعلنها أفراد هذه الهيئات .

والحقيقة أنه لا يمكن إغفال اسهامات الهيئات الدينية العسكرية في رفاهة الملكة الصليبية في منطقة الشرق العربي، والعناية بالمرضى والدفاع عن هذه الملكة ضد أعدائها ، وهذه أمور لا يمكن أن يرقى إليها أدنى شك. وقد قبل إن هيئة فرسان المستشفى (الاسبتارية) في بيت المقدس قدمت الخدمة العلاجية لحوالى ألفين من المرضى في يوم واحد من أحد أيام السنة، وقدمت لهم كميات كبيرة من الطعام، والملابس ، وأنفقت عن سعة صدقات كبيرة في مدينة القدس وعكا الأمر الذي أثار دهشة وإعجاب الحاج المسيحيين واليهود، ومن ناحية أخرى كانت هذه التصرفات من الأنشطة الخيرية عرضة للنقد القاسي. ولم تعرف أوروبا مثل هذا المستوى من النشاط الخيري والاحسانى للاسبتارية ، ومع ذلك فإن غواصة هذا النشاط الخيري والاحسانى الذى قام به فرسان الاسبتارية قد عرفته من قبل الامبراطورية البيزنطية وكذلك مؤسسات الأوقاف الإسلامية في منطقة الشرق العربي، ومن المحتمل أن فرسان الاسبتارية كانوا يقلدون النماذج الإسلامية لأعمال الخير والاحسان.

وفي الفترة من عام ١١٣٠ حتى سقوط الملكة الصليبية في عام ١١٨٧م، قلما كانت تحدث حملة عسكرية كبيرة دون مشاركة حقيقة من جانب فرسان الهيئات الدينية العسكرية. فقد كانت شجاعتهم وجسارتهم مضرب الأمثال ، إذ كانت هذه الشجاعة سمة تميز طبقة المغاربة . وكانت الطاعة والنظام أيضا سمة تميز فرسان الهيئات الدينية العسكرية عن غيرهم من المغاربة الذين ينحدرون من طبقة النبلاء العادية. فقد كانت كل التشريعات والقوانين والأعراف الاقطاعية المدونة وغير المدونة تحرم عملية تخلٰى التابع الاقطاعي عن الدفاع عن سيده في أثناء المعركة، وتعتبر هذا السلوك جرمًا لا يمكن الصفع عنه، بيد أن الاستراتيجية والخطط العسكرية كانت تعتمد بشكل تام على الطاعة والنظام الذي يتمسك به مغاربو الهيئات الدينية العسكرية، وهذه السجايا والصفات لم تظهر بشكل كبير وسط الجيوش الاقطاعية، هذه الجيوش التي كانت تتتألف من أفراد لا يمكن كبح جماحهم. وكانت كل معركة تقريباً تفضي إلى حدوث مبارزة بين اثنين من الفرسان المغاربة . وكانت الطاعة المطلقة ، والنظام المتقن الذي التزم به فرسان الهيئات الدينية العسكرية بثابة العدو المروع للجيوش الإسلامية*. وبالإضافة إلى ذلك، فقد كان التدريب العسكري يشكل جزءاً رئيساً من برنامجهم

* لقد اكتسب فرسان الداوية الشهرة ونالوا اعجاب الجميع من المعاصرين وذلك بسبب ما قاموا به من أعمال بطولية في أثناء دفاعهم عن مؤخرة جيوش الحملة الصليبية الثانية في أثناء معركة كادموس (المؤلف).

اليومى وتحولت استمرارية وجودهم إلى مستودع للخبرة والأعراف العسكرية. ولم يستطع المغاربة فى أية حملة صليبية الاستفادة عن نصيحة الهيئات الدينية العسكرية. فقد كانت هذه الهيئات الدينية العسكرية أكثر دراية وخبرة بأحوال الشرق وأحوال الخصم الإسلامى ولاسيما مواطن قوته وضعفه.

ومن الملاحظ أن النصف الثانى من القرن الثانى عشر وكذلك القرن الثالث عشر قد شهد ازدياد وتنامى قوة فرسان الهيئات الدينية العسكرية من الداوية والاستبارية وهيئة الشيوتون، وهى الهيئة الدينية العسكرية التى تأسست أخيراً وأصبحت هذه الهيئات الدينية العسكرية الثلاث تثل حصنًا قويًا لتقديم السيادة الصليبية فى منطقة الشرق العربى وشيدوا القلاع والتحصينات القوية على الحدود وكذلك المحسون والقلاء الداخلية. وعندما بدأ الضغط الإسلامى على المناطق الصليبية، تقلصت حدود المملكة الصليبية وانكمشت هذه الحدود صوب الغرب وأصبحت القلاء الداخلية بثابة الحدود الأخيرة للملكة الصليبية وعندها شارك فرسان هذه الهيئات الدينية العسكرية فى الدفاع عن هذه الحدود والقلاء الداخلية.

ومن المستغرب حقاً ، أن الاستبارية هي أول هيئة دينية عسكرية تقوم بمهمة الدفاع عن هذه القلاع وليس هيئة الداوية . ففى وقت مبكر من عام ١١٣٧م، حصلت هيئة فرسان الاستبارية على قلعة جبرين (جبيل) من الملك الصليبي فولك الأنجوى ومنذ ذلك الوقت بدأت الاستبارية فى ممارسة نشاطها ومهامها العسكرية. وفى عام ١١٥٢م تسلمت هيئة الداوية مدينة غزة وقاموا بمهمة الدفاع عن قلعتهم الرئيسة عند عسقلان التى شيدوها على الحدود المصرية. وبعد سنوات خمس ، وفى عام ١١٥٧م، شارك الاستبارية مرة ثانية فى الدفاع عن القلعة الواقعة على حدود مدينة بانياس والتى فقدتها الصليبيون وأيضاً الدفاع عن قلعة بانياس وقلعة نوف Neuf على حدود دمشق . وثمة تقديرات حديثة توضح أن هيئة الاستبارية استطاعت السيطرة على ٧ أو ٨ قلاع حتى عام ١١٦٠ ، بالإضافة إلى احدى عشر أو اثننتي عشرة قلعة إضافية . وخلال عام ١١٦٠ ، استطاع فرسان الاستبارية الاستيلاء على ست قلاع أخرى. ويحلول عام ١١٨٠م أصبح للإسبدارية ٢٥ قلعة وفى عام ١٢٤٤ كان الإسبدارية يتذلون ٥٦ حصنًا وقلعة فلى فلسطين وببلاد الشام*. ولم يمتلك الداوية قلاعاً كثيرة أو أماكن محصنة فى منطقة الشرق

* ويبدو أن العدد الأخير وهو ٥٦ قلعة يعتبر عدداً أكبر من العدد الحقيقي لهذه القلاع الذى كان يمتلكها الإسبدارية فى عام ١٢٤٤ . وذلك لأن عام ١٢٤٤ قد شهد تقلصاً كبيراً لحدود المملكة الصليبية وأقاليمها إذ كانت المملكة الصليبية قد فقدت فى تلك السنة حوالي بربع أملاكها السابقة. (المؤلف).

العربي الإسلامي، وكان فرسان التيروتون - القادمون الجدد نسبياً إلى هذه المنطقة- يتلذّبون عدداً أقل من القلاع . وكان إجمالي عدد القلاع التي بحوزة الهيئات الدينية العسكرية تفوق عدد القلاع التي كانت تخضع لسيادة أي حاكم صليبي آخر، وتفوق أيضاً عدد القلاع التابعة للملك الصليبي نفسه. وتتضح هذه الحقيقة جلية من خلال الملاحظة التي أبدتها الملك الأرمني «ثوروس» الذي زار المملكة الصليبية في منتصف القرن الثاني عشر الميلادي للملك الصليبي حيث قال له : «عندما حضرت إلى مملكتك وسألت عن القلاع التي رأيتها قال لي البعض إن هذه القلاع من أملاك هيئة فرسان الداوية؛ وقال لي آخرون إن هذه القلاع من أملاك الاستبارية وبعض القلاع تابعة لدير جبل صهيون . وهكذا فإنني لم أجده أية قلاع، أو مدن كبيرة أو صغرى ملكاً للملك الصليبي باستثناء ثلاثة فقط، بيد أن جميع القلاع من ضمن أملاك الهيئة الدينية العسكرية».

وفي القرن الثاني عشر الميلادي ، كانت القلاع التي بحوزة الهيئات الدينية العسكرية تعتبر قلاعاً ملكية، بيد أن بعض النبلاء (مثل سيد بانياس) الذي كان عاجزاً عن حماية قلاعه قد أراد أن يستعين بقوة هذه الهيئات الدينية العسكرية من أجل الدفاع عن قلاعه وأن تقسم هذه المسؤولية مع هذه الهيئات الدينية العسكرية في شكل تحالف . وفي القرن الثالث عشر الميلادي أصبح وضع الصليبيين حرجاً ، حيث أُسفر عن فقد الصليبيين للمناطق الداخلية الشرقية في أعقاب موقعه حطين الشهيرة عام ١١٨٧م تقلص موارد النبلاء الصليبيين في المملكة الصليبية في بلاد الشام وفلسطين . ومن هؤلاء النبلاء أحد أفراد أسرة ابلين Ibelin وهو سيد بيروت الشهير، وأسرة ابلين هذه هي أحد الأسر الصليبية الشهيرة الحاكمة التي انفقت مواردها التي كانت تجنيها من قبرص لكي تدعم أملاكها ومناطق نفوذها في المملكة الصليبية . وكان نتيجة هذا التقلص في الموارد أن قام الأمراء المحليون الصليبيون بتسليم القلاع والمدن إلى الهيئات الدينية العسكرية. وحوالي عام ١٢٦٠م، استولى الاستبارية على أرسوف وفي عام ١٢٧٨م استولى فرسان الداوية على المدن الشمالية مثل بيروت وصيدا . ومن الطبيعي أن بعض الإمارات والبارونيات الصليبية في بلاد الشام قد خضعت هي الأخرى لسيطرة هذه الهيئات الدينية العسكرية وكان مصيرها مثل مصير القلاع والمدن التي خضعت لسيطرة هذه الهيئات الدينية العسكرية. ويمكن تفسير أسباب قيام هذه الهيئات الدينية العسكرية بتشييد كل التحصينات العسكرية الجديدة في المملكة الصليبية في القرن الثالث عشر الميلادي، وليس

الملك الصليبي أو النبلاء، في ضوء حقيقة أن هذه المملكة الصليبية كانت تعانى من الناقه والفقر فى تلك الفترة . وهكذا فإن قلعة عثليت (التي شيدت حوالي عام ١٢١٨) التي كانت تعتبر من أكبر القلاع فى منطقة الشرق العربي الإسلامي وكذلك قلعة صفد (التي شيدت عام ١٢٤٠) قد خضعتا لسيطرة فرسان الداوية، وسلمت قلعة مونتفورت (التي عرفت فى فترة متأخرة باسم قلعة قورين Qurein) لفرسان التيوتون . وبحلول منتصف القرن الثالث عشر الميلادى أصبحت قلعة طابور تمثل حدًّا يفصل بين المناطق الصليبية وبين الأقطار الإسلامية وخضعت هذه القلعة لفرسان الاستمارية .

وعلى الرغم من الدور الحاسم والحيوى الذى لعبه فرسان الهيئات الدينية العسكرية فى المملكة الصليبية، فإنهم لم يحرزوا مكانة مهمة فى الامارات الجنوبية مثل المكانة المرموقة التى أحرزواها لأنفسهم فى الامارات الصليبية فى الشمال مثل امارة طرابلس وامارة أنطاكية الصليبية . وفي فترة باكرة من عام ١١٤٤ تسلم الاستمارية من ريموند الثاني حاكم طرابلس مقاطعة كبيرة تقع على حدود كونتية طرابلس ، وبعد تلك الفترة ظهرت فى تلك المنطقة قلعة الكرك الضخمة (حصن الكرك - قلعة قردس Kurds) . وفي عام ١١٦٨ قام بوهمند الثالث أمير أنطاكية الصليبي يتسلىم المنطقة الشرقية من امارته المتاخمة لمنطقة أبياميا Apamea (فامييا Famiyah) التى كانت تحت السيطرة الإسلامية منذ عام ١١٤٠) لفرسان الاستمارية. ومع ذلك فإن هاتين المحتين اللتين قدمتا للاستمارية قد اختلفتا فى نواح عديدة، ويشكل عام ١١٧٥ فى الاستمارية كانوا يتكلون شيئاً واحداً . ولم يعترف الاستمارية فقط بأنهم بمثابة سيد اقطاعى للكونتية والامارة بل إنهم أيضاً كان يرون فى أنفسهم كياناً مستقلاً فى تحالف رخو ومفكك مع الامارات الصليبية. وفي كلتا الحالتين كانت هيئة الاستمارية تعتبر نفسها بمثابة سيد اقطاعى أعلى للمقاطعات التى خضعت لسيطرتها ولم يسمح لها فقط بممارسة سياسة خارجية مستقلة مع جيرانها من الأقطار الإسلامية، بل إن كلاً من كونت طرابلس وأمير أنطاكية الصليبي قد سمحا للاستمارية أن ينتهجوا لأنفسهم سياسة خاصة بهم. ففى أنطاكية ، وافق الأمير الصليبي على اعطى الاستمارية الحق فى ألا يلتزموا بأية اتفاقيات عقداها هذا الأمير دون موافقتهم.

والواقع أنه ليست هناك هيئة دينية عسكرية فى المملكة الصليبية تتعت بنفس الوضع المميز الذى تتعت به هيئة فرسان الاستمارية . ويمكن تفسير ذلك فى ضوء حقيقة أنه فى

أثناء القرن الثاني عشر الميلادي كانت المملكة الصليبية أكثر أماناً من الامارات الصليبية الشمالية التابعة لها . فقد كانت القلاع الصليبية فيما وراء نهر الأردن والتحصينات الصليبية التي شيدت على شريط ضيق حول غزة مثل ركيزة الدفاع الأساسية عن حدود المملكة الصليبية ضد الهجمات الإسلامية . فقد كانت هاتان المنطقتان (منطقة ما وراء نهر الأردن - منطقة غزة) تتميزان باتساع الصحراء بهما الأمر الذي قلل خطر الغزوات المفاجئة ، وهو الأمر الذي سمع للحاميات الصليبية سواء التي كانت تتبع الملك الصليبي أو تتبع الأمراء الصليبيين، بأن تضطلع بهمّة الدفاع المأثور عن هذه القلاع . وبالإضافة إلى ذلك ، فإن الملوك الصليبيين في بيت المقدس كانوا يتمتعون بمكانة أرقى من أي حاكم صليبي آخر في الامارات الشمالية وأن عملية خلق دولة شبه مستقلة في الأرض المقدسة في هذه الظروف كانت غير عملية وغير ملائمة من الناحية النفسية.

ومهما كان السبب ، فإن الهيئات الدينية العسكرية لم تستطع أن تحرز وضعاً وكياناً مستقلاً ، ولم تستطع أيضاً أن تتمتع بنفس الامتيازات التي قعّ بها البناية في مدينة صور . وليس هناك ما يؤكد أن أفراد هذه الهيئات الدينية العسكرية كانوا سادة مستقلين في أحيائهم الخاصة . ففي مدينة بيت المقدس العاصمة ، كان حتى الاستبارية الواسع نسبياً يتقطّع مع المدخل الجنوبي لكنيسة الضریح المقدس ويقطع تقريباً مع منطقة المورستان في الوقت الحاضر (المستشفى) وهي المنطقة التي أصبحت في بداية القرن العشرين مكاناً لإقامة سوق*. بيد أنه ليس هناك ثمة دليل يؤكد على أن الاستبارية تعمّدوا بزياراً وامتيازات قضائية في الحي الخاص بهم . وقد انطبق هذا الوضع أيضاً على الداوية الذين سكّنوا منطقة مسجد عمر والمسجد الأقصى . وعلى العكس ، فقد كان البطريريك اللاتيني يتمتع بحق اقامة العدالة بين السكان المقيمين في حي البطريريك في مدينة بيت المقدس ، وفي عكا (في المدينة القديمة) كان يوجد ثلاثة أحياe كبيرة للهيئات الدينية العسكرية الكبيرة ، بالإضافة إلى أحياe في ضاحية موزارد الجديدة . وفي القرن الثالث عشر الميلادي ، أصبحت هذه الأحياء الأخيرة الواقعة في ضاحية موزارد منغلقة بواسطة أسوار وكانت هذه الأحياء تشكل مدنًا مكتفية ذاتياً . وهكذا يمكن

* هذه المنطقة كانت ضمن أملاك البطريريك البيزنطي الأرثوذكسي ، وقد نقشت حروف مثل T. ph

(وهي كلمة Taphou التي تعنى على بوابة كنيسة الضریح المقدس (المؤلف) .

القول بأن سكان هذه الأحياء، كانوا من أفراد الهيئات الدينية العسكرية ومن الذين ينتسبون إلى هذه الهيئات الدينية إلى حد بعيد ، ولم يسمح لغيرهم أن يقطن هذه الأحياء الخاصة بهم. ولم تظهر مشكلة تتعلق بحق اقامة العدالة بين سكان هذه الأحياء ، وذلك لأن هذه الهيئات الدينية العسكرية كانت تتمتع بحق اقامة العدالة المطلقة بين أعضائها (أى كان لها محاكمها الخاصة برعاياها وسكان أحيائها).

ومن ناحية أخرى ، فليس هناك مجال للشك فى أن الهيئات الدينية العسكرية كانت تتمتع بسيادة القضاء فى ممتلكاتها الريفية ، أي كانت لها حقوق قضائية على البرجوازية التى تقطن القرى والمدن التى خضعت لسيادة هذه الهيئات الدينية العسكرية. ويمكن التثبت من هذه الحقيقة من خلال بعض الحالات القضائية فى مناطق مثل بيت جبرين أو فى أرسوف (وفى أرسوف كانت هناك سلطة قضائية بارونية) وذلك فى وقت تحول هذه المناطق لسيطرة الهيئات الدينية العسكرية.

ولاشك أن اكتساب الهيئات الدينية العسكرية للضياع والأقاليم قد أفرز مشاكل عسكرية وقانونية ، فمن المعروف أنه إذا اكتسبت أية هيئة دينية عسكرية أقليماً أو مقاطعة بات عليها أن تلتزم بتقديم الخدمات العسكرية المستحقة للملك الصليبي وهى الخدمات التى كان يلتزم بتقديمها أى سيد جديد بموجب النظام الاقطاعى وهذا يعني أن هذه الهيئة الدينية العسكرية سوف تزود هذه المقاطعة أو هذا الأقليم بالفرسان الذين يمثلون هذه الهيئة الدينية العسكرية. وفي بعض الحالات كان يتم المجاز هذه الخدمة العسكرية من خلال الأنصار الوراثيين السابقين، وفي حالات أخرى ربما كانت الهيئة الدينية العسكرية تزود المقاطعة التى أصبحت بحوزتها بعدد من المحاربين الذين يمثلون هذه الهيئة . وعلى أى حال، فإن جملة أعداد الفرسان المحاربين الذين قدمتهم الهيئات الدينية العسكرية للملك الصليبي كخدمة عسكرية اقطاعية لم تتناقص، على الرغم من أن فعالية الخدمة العسكرية الاقطاعية قد فقدت أهميتها مثل أى شيء آخر.

لقد كانت الصفة القانونية لأملاك هذه الهيئات الدينية العسكرية أكثر أهمية وذات معنى. إذ كانت السيادة التى تكتسبها أية هيئة دينية تعنى من الناحية النظرية أن هذه الهيئة قد حل محل سلطة وسيادة السيد الاقطاعى العلمانى الأعلى لهذه المقاطعة وهو السيد الاقطاعى الذى حصل على سيادته من وكيل الملك الصليبي وأيضاً حلت هذه الهيئة الدينية العسكرية

محل هذا السيد الاقطاعي السابق في كونها أصبحت أحد أعضاء المحكمة العليا للمملكة الصليبية. وثمة سؤال يطرح نفسه وهو هل هذا الاحلال كان يدل ضمناً على أن هذه الهيئة الدينية العسكرية قد أخذت وضعها وأصبحت سيداً اقطاعياً رسمياً تابعاً للملك الصليبي؟ وإننا نعرف أن هذا الموضوع لم يكن هو القضية . فمن الناحية القانونية لم تكن الهيئات الدينية العسكرية تدخل في علاقة تبعية اقطاعية مع الملك الصليبي. وحتى في حالة أرسوف أعنى الاستبارية من تقديم الخدمات والالتزامات التي كان يقدمها السيد الاقطاعي لأرسوف للملك الصليبي وهي الخدمة الشخصية Service de Corps (وهي الخدمة الشخصية التي كان على السيد الاقطاعي تقديمها للملك الصليبي) . ولا يمكن التثبت من أن مقدمي هذه الهيئات الدينية العسكرية كانوا يؤدون قسم التبعية الاقطاعية عند تسليمهم لأملاكهم الاقطاعية ، بيد أنه من المحق كانت تحدث عملية التقليد الاقطاعي وخلال هذه العملية كان متقلداً التقليد الجديد يقدم مين وقسم الولا ، والأخلاق الاقطاعي Fealty . ولم يكن أفراد الهيئات الدينية العسكرية أنصالاً اقطاعيين تابعين للملك الصليبي بالمعنى الاصطلاحي المعروف للنظام الاقطاعي ولم يكن مقدمو هذه الهيئات الدينية العسكرية أنصالاً اقطاعيين للملك الصليبي.

وأصبح قسم وين الطاعة والولا ، القديم الذي كان يقدمه الداوية للبطريرك اللاتيني في بيت المقدس غير ذي فعالية بشكل مؤقت ، ولم يكن هناك قسم خاص تقدمه الهيئات الدينية العسكرية للملك الصليبي. ولم توجد روابط رسمية أو شرعية تربط بين المملكة الصليبي وبين الهيئة الدينية العسكرية. ولا يمكن تفسير هذا على أنه دلالة على وجود توتر في العلاقات بين هذه الهيئات وبين الملك الصليبي. لقد ساهمت الهيئات الدينية العسكرية بشكل كبير في الحفاظ على وجود وتطور المملكة الصليبية ؛ وكان وضعهم الفريد فقط يؤكّد ويبشر أحدي السمات المميزة للمملكة الصليبية ، ولم يستطع الاطار الحر لهذه الهيئة وهذا التنظيم والمنشآت المتعددة أن تتكامل معًا في هيئة واحدة.

لقد تقع الاستبارية والدواية بوضع ميز إذا ما قورنت بوضع هيئة فرسان التيوتون التي أنشئت في الأراضي المقدسة (وهي هيئة فرسان القديسة مريم التيوتونية).

وترجع أولى المحاولات الباكرة لنشأة الرابطة التيوتونية داخل المجتمع الصليبي إلى فترة سابقة عن قيام المملكة الصليبية الأولى واتجاه المملكة الصليبية المؤقت جزئياً صوب الأقلية

اللغوية والثقافية والتي رأى كانت غير راغبة في اعتناق الثقافة الفرنسية المهيمنة للغزاة الصليبيين.

والواقع أن هيئة فرسان التيوتون لم تتأسس ولم يتم الاعتراف بها كهيئة دينية عسكرية قبل الحملة الصليبية الثالثة . واستمرت هذه الهيئة الدينية العسكرية قارس حيلة دينية ، فقد ادعت بأن لها أصلاً قدّيماً من خلال اتصال فرسان التيوتون بمستشفى قام الألمان بتشييده في مدينة بيت المقدس في أثناء النصف الأول من القرن الثاني عشر. ففي وقت مبكر من الوجود الصليبي وفي عصر الملك الصليبي بلدوين الأول (١١١٨) قام الألمان بأنشأء مستشفى ودار ضيافة وكنيسة للحجاج الأوربيين من الألمان. ولم تكن مثل هذه المنشآت العرقية أمراً استثنائياً بين الصليبيين الفرنجة ، فعلى سبيل المثال، وجدت في نفس الفترة دار ضيافة هنفارية (مجرية) في بيت المقدس، هذا فضلاً عن وجود دور ضيافة للمسيحيين الشرقيين، حيث كانت اللغة والشعائر الدينية هي التي تحدد المؤسسة الخيرية وعملاًها.

كانت الخدمات التي تقدمها المؤسسة الجديدة وهي هيئة فرسان التيوتون تمثل في الترحيب العظيم بالحجاج القادمين من وسط وشرق أوروبا من غير الفرنسيين ، ولم تكن العلاقات ودية بين التيوتون وبين الاستبارية .

ومن المحتمل أن هيئة الاستبارية قد قدمت في البداية يد العون والمساعدة لهيئة التيوتون الجديدة، أو أن هذه الهيئة الدينية العسكرية الجديدة كانت تبحث عن مثل هذه المساعدة . ويبدو أن مثل هذا النوع من المؤسسات الفرعية قد أنشئ بناءً على الخطاب والرسالة الحقيقة التي بعث بها البابا سيلستين الثاني Celestine II إلى المملكة الصليبية في عام ١١٤٣ . ويشير هذا الخطاب إلى محاولة الألمان لإقامة مؤسستهم لكي يؤكدوا استقلالهم الذاتي في الأرضي المقدسة. فقد منعهم البابا حكماً ذاتياً محدداً ، وتمثل هذا الحكم الذاتي في وجود رئيس دير للرهبان خاص بهم، داخل هيكل وبنية هذه الهيئة الدينية .

وكانت المنشأة الألمانية (هيئة التيوتون) تقع في أحد شوارع مدينة بيت المقدس والذي يتد من البوابة الجنوبية الغربية للمدينة من جبل صهيون إلى شارع العبد، والذي يقع قاماً بجوار المى الأرمني. وفي أثناء الفترة المملوكية أصبح هذا المى حىًّا يهودياً يقطنه يهود المدينة . وتلقى الحفائر الأثرية التي أجريت في عام ١٩٦٨ () وسط أطلال هذا المى الضوء على بقايا كنيسة صغيرة شيدت على النمط المعماري المعروف باسم الرومانسك، وهي الكنيسة التي

تستطيع القول بأنها كانت كنيسة القديسة ماري الخاصة بالتبيتون. وكانت المنشأة المخصصة للحجاج الألمان فقيرة وغير ملائمة ، وذلك لأنها كانت تعتمد على الاعانات والمساعدات التي يقدمها الحجاج الألمان فقط، ولم تصبح ألمانيا مركزاً للنشاط الصليبي أو الهجرة الصليبية .

ومن المستحيل القول بأن هذه المنشأة الألمانية الباكرة قد تطورت، وذلك لأن صلاح الدين الأيوبي استطاع بعد موقعة حطين أن يسترد مدينة بيت المقدس وبوضع حدًا لنهاية هذه المؤسسة الألمانية. وعلى أي حال ، فإن النزل المخصص للحجاج الألمان قد تأثر بالكرب والضيق الذي ألم بالمجتمع الصليبي ، هذا المجتمع الذي حاق به الخطر في أثناء الحملة الصليبية الثالثة. وعلى الرغم من غرق الامبراطور الألماني فردريك الأول باربا روسا أحد قادة جيوش الحملة الصليبية الثالثة فإن بعض قادة الجيش الألماني زحفوا بقواتهم عن طريق البر بقصد الوصول إلى مدينة بيت المقدس. لقد أصبحت حاجة الحجاج الألمان إلى مستشفى أمراً ضروريًا بشكل واضح. واقتبس الصليبيون الألمان التقليد الأوروبي الخاص بتشييد مستشفى الميدان ولاسيما من برلين ولوبيك Lübeck ، إذ كانوا يستخدمون الألواح الخشبية وأشرعة المراكب في تشييد مستشفى الميدان. ويسبب شعبية الأمراء الألمان ولاسيما فردريك السوابي وأخيه الملك هنري السادس ، فإن البابا كلمنت الثالث (١١٩١م) اعترف بهيئة الحجاج الألمان ، كما حصل الألمان التبيتون على امتيازات اضافية من البابا سيلستين الثالث Celestine (١١٩٦م). وبعد عام ١١٩٧ ، وعندما استقر عدد كبير في الألمان في الأرض المقدسة في فلسطين وبلاط الشام ومكثوا بها طويلاً ، لم تتحقق توقعات الملك الألماني هنري السادس في تحول هذه الرابطة الألمانية الجديدة إلى هيئة دينية عسكرية . وثمة وصف رائع لهذا الحدث ورد في الخلية التاريخية الباكرة لهيئة التبيتون وهي الخلية التي دونت بعد تأسيس هذه الهيئة ببعض سنوات، والتي عرفت باسم « قصة تأسيس هيئة فرسان التبيتون وأصولها ». وكان نص ما ذكرته الخلية:

« إنه من المفيد والأجدى لكثير من الأمراء الألمان أن يستخدموا قانون مستشفى هيئة فرسان الداوية المذكور آنفًا . ولهذا الفرض اجتمع الأساقفة والأمراء والبلاء الألمان في مقر الداوية (في عكا) وقد دعوا لحضور هذا المجمع المفید بعض أساقفة وبارونات الأرض المقدسة، وقرر كل الحاضرين بالإجماع أن المستشفى سوف يتبع قانون الفقير والمريض الخاص بمستشفى القديس جون في بيت المقدس (الاستبارية) والمعمول به حتى الآن، وفيما يتعلق برجال الدين، والأخوة الآخرين فإنه من الآن فصاعداً يجب عليهم اتباع قانون هيئة الداوية ... » وبعد أن تم

التوصل إلى هذا القرار قام الأساقفة ومقدمو الداوية باشهار واظهار هذه المؤسسة وهذه الهيئة الجديدة وهذا البيت الجديد وقتاً لقانون الداوية، وعندئذ قاموا بانتخاب أحد أعضاء هذه الهيئة وهو هنري الذي كان يعرف باسم هنري فولبوبتو Walpoto كمقدم لهيئة فرسان التيوتون... وقام مقدم الداوية بتسليم مقدم التيوتون قانون هيئة فرسان الداوية التي ستطبقه هيئة فرسان التيوتون من الآن فصاعداً.

ويحلول فبراير ١١٩٩م قام البابا أنونست الثالث بالتصديق على تأسيس هذه الهيئة الدينية العسكرية وهي هيئة التيوتون .

وما يذكر أن الصلة بين هيئة فرسان التيوتون وبين المنشأة الألمانية السابقة في مدينة بيت المقدس ما تزال محل جدل ونقاش طويل . وبعد المناقشات الخلافية الطويلة والكاملة حول نشأة هيئة فرسان التيوتون فإن الباحث يستطيع أن يضيف حقيقة مهمة مؤداتها أن هذه الهيئة الدينية العسكرية الجديدة (التيوتون) ظلت لفترة تزيد عن العشرين عاماً غير مرتبطة وليس لها صلة بالوثائق الصليبية الخاصة بمدينة بيت المقدس. وفي سنة ١٢٢٠م، وبعد جيل كامل من الاعتراف بهذه الهيئة كهيئة دينية عسكرية، وجدنا اسم «مستشفى القدس في عكا»؛ وكذلك إلى «بيت مستشفى التيوتون»؛ وكنيسة الألمان التي في مدينة عكا، «بيت الألمان في عكا».*. ومن الآن فصاعداً ، سوف لا يختفى اسم مدينة بيت المقدس من وثائق هيئة التيوتون . ويحلول عام ١٢٢٩ استطاع مقدم هيئة التيوتون الجديدة وهو هيرمان فون سالزا- Herman von Salza وهو أحد شخصياتهم المهمة أن يتسلم من الإمبراطور الألماني فردرريك الثاني الأماكن الخاصة بالمنشأة الألمانية الباكرة في مدينة بيت المقدس. ولقد نعمت هذه الهيئة الدينية

* ومن الأهمية يمكن أن اتصال هيئة التيوتون بمدينة بيت المقدس قد تأكّد خارج المملكة الصليبية، وقد ظهرت هذه الاتصالات في وثائق المملكة الصليبية بعد نشأة هذه الهيئة بجيء كامل . فقد ذكرت مدينة بيت المقدس في الامتيازات التي منحها لهيئة التيوتون كل من البابا أنونست الثالث في عام ١١١١ والبابا سيلستين الثالث في عام ١١٩٦م. وكانت بابوية روما تشير دون أن تعرف الظروف المعلبة . ولقد ظهر اسم مدينة القدس للمرة الأولى خلال حجة بيع أوتو، كونت هينبريج (١١٢٠م) . (المؤلف)

** وعلى هذا الأساس فإن ثمة افتراضات ثلاث واضحة ، وهي قوانين ثلاثة من الملوك الصليبيين وهم عموري الأول (١١٧٣ و ١١٧٧) ، وجاي لوزجتان (١١٨٠) والقوانين التي تنسب إلى فترة ما قبل عام ١١٢٠م .

العسكرية الجديدة (التييوتون) بشرف مدينة بيت المقدس ذات الهمة والاعتبار من خلالها اتصالها بالمنشأة الألمانية التي وجدت في مدينة بيت المقدس منذ فترة باكرة، ومن الواضح أن تلك خطوة تجعل المرء يعجب كثيراً من سبب تأخر قيام هذه الهيئة الدينية، ويحلول عام ١٢٢، كانت بقايا الجيل الذي عاش بعد نكبة حطين قد اختفت ومع اختفائهم اختفت عملية التذكر بوقائع الأحداث .

وتطورت هيئة فرسان التيوتون بشكل سريع نسبياً ، وذلك لأن هذه الهيئة الدينية العسكرية قد حصلت في بداية القرن الثالث عشر على امتيازات دينية بشكل منتظم . وعلى أي حال ، فإن هيئة التيوتون لم تتطور بنفس المستوى الذي وصلت إليه الهيئات الدينية العسكرية التي تأسست قبلها زمنياً (الإسبتارية الداوية) . وعلى الرغم من أن الممتلكات التي اكتسبتها هيئة فرسان التيوتون خارج الأراضي المقدسة كانت متفرقة في كل أنحاء أوروبا ، فإن الاتصال الخاص بين هذه الهيئة وبين الوطن الأم (ألمانيا) قد بدأ من الأراضي المقدسة في فلسطين وبلاط الشام. وقد ساعد هذا بشكل نهائي في تشكيل هذه الهيئة الدينية باعتبارها أداة رئيسة من أدوات التوسيع الألماني وبنفسها في أراضي السلاف المجاورة للإمبراطورية الألمانية . ويمكن اعتبار تطور هيئة فرسان التيوتون إلى حد ما أحدى الطموحات المستترة التي كانت ترنو إليها كل الهيئات الدينية العسكرية. فقد بدأت كل من الداوية الإسبتارية وغيرها وتطورها في مؤسسات الإمارات الصليبية الشمالية، وذلك عن طريق خلق كيانات شبه مستقلة في إماراتي أنطاكية وطرابلس الصليبيتين . وإذا كانت هيئة الداوية قد عجزت في أن تحصل على الاستقلال الذاتي في إسبانيا ويصبحوا سادة إسبانيا المستقلين، فإن الداوية استطاعوا لفترة قصيرة أن يصبحوا كبار سادة قبرص * . وبعد أقل من جيل من الزمان وفي عام ١٢١٠ حاول الفرسان التيوتون بعد جهد جهيد أن يحصلوا لأنفسهم على دولة مستقلة في منطقة بزرلاند في هنغاريا Bruzeland وقد جلب عليهم هذا النجاح الأول طردهم في عام ١٢٢٥ على يد الملك الهنغاري والارستقراطية المحلية. وبعد

* استطاع ريتشارد قلب الأسد الملك الانجليزي انتزاع جزيرة قبرص من يد البيزنطيين في أثناء الحملة الصليبية الثالثة. ومنحها لهيئة فرسان الداوية الذين تخلوا عنها في فترة متأخرة إلى حكام من أسرة آل لوزجانان (المؤلف) .

سنوات ست وفي عام (١٢٣١) استطاع كونراد من ماسوفيا Connard of masovia أن يفتح المناطق الشمالية من بولندا أمام هيئة فرسان التيوتون لكي تتأسس دولة الفرسان التيوتون على شاطئ البلطيق، هذه الدولة التي عرفت في المستقبل باسم دولة بروسيا (المسا).

ولم تكن الطموحات الخاصة بالاستقلال الذاتي بالأمر الغريب على الهيئات الدينية العسكرية - ولم تكن غريبة أيضا حتى بالنسبة للمؤسسات الصليبية في منطقة الشرق العربي الإسلامي - ويمكن التشبيه من ذلك من خلال السوابق التي حدثت في كونتية طرابلس، وأماراة أنطاكية الصليبية وقبرص. وإذا كانت النتائج لهذه المحاولات قد باعث بالفشل ومخيبة للأمال فإن هذا الفشل لا يمكن أن نعزوه إلى افتقار التيوتون إلى التصميم والعزم، ولكن يمكن أن نعزوه إلى الظروف السياسية. وعندما سُنحت الظروف السياسية زماناً ومكاناً وأصبحت مواتية نشطت فعالية هذه الهيئات الدينية. وقد عبرت هذه الفعالية عن نفسها في شكل تكوين دولة مستقلة. ولم تصل الداوية إلى مرحلة تكوين دولة مستقلة وذلك لأن وجودهم كان متقطعاً وفقاً لاستراتيجية الملك فيليب الجميل.

وعلى الرغم من أن هيئة فرسان التيوتون كانت مستقرة وتعمل وفقاً لقوانين هيئتها الداوية والابستاربة ، فإن تقدمها وفوها كان بطيئاً نسبياً . وكانت ممتلكات هذه الهيئة الدينية الأساسية وجهرية . بيد أن هذه الممتلكات لم تعادل ممتلكات الهيئات الدينية العسكرية الأخرى التي تأسست منذ فترة بعيدة . وحتى القلعة التي كان يسيطر عليها التيوتون وهي قلعة مونتفورت (قلعة القورين) ذات الشكل الهندسي الفقير لا يمكن مقارنتها بتلك القلاع الضخمة التي كانت تمتلكها الداوية مثل قلعة الحاج أو قلعة صفد . ومن المحتمل أن أحد الأسباب الذي أعاد عملية تطور هيئة فرسان التيوتون وتوسعها هو ضآلة وصغر حجم المملكة الصليبية في القرن الثالث عشر الميلادي . وحتى المناطق التي احتلها الصليبيون - مثل الجليل - لم تستمر تحت سيادتهم لفترة أكثر من جيل . ولم تكن هناك في هذه المناطق أرض دون صاحب . وكان ملاك الأرض الذين حازوا أملاكهم منذ فترة باكرة والذين يتبعون إلى الهيئات الدينية العسكرية التي تأسست منذ فترة باكرة في الأرض المقدسة - قد حصلوا على مطالبهم الثابتة بشكل جيد . وما سبق هو بثابة تفسير جزئي فقط وثمة سبب إضافي آخر يمكن أن يستخلصه من خلال القوائم المتصلة بجريدة ممتلكات هذه الهيئة الدينية العسكرية . وعندما نقارن بين هيئة

التيهون وبين هيئتي الداوية والسبارية ، يتضح لنا أن هيئة التيوتون كانت تتمتع بشعبية أقل من هاتين الهيئتين في المملكة الصليبية في بيت المقدس. فقد اشتهرت هيئة التيوتون معظم أملاكها القروية وحصلت على القليل من هذه الممتلكات عن طريق الهبات والإنعامات . وانتشرت الهبات الملكية هنا وهناك بيد أن هذه الهبات كانت تترك بشكل أساسى في ممتلكاتن المدينة. وعندما كانت هيئة التيوتون تصل إلى القرى كانت تقوم بشراء الأماكن القروية من الأرضى الزراعية. وكانت القرى الستون التي امتلكها فرسان هيئة التيوتون قد اشتروها من الملك الصليبي في بيت المقدس. وبالإضافة إلى ذلك، فإن الموارد المالية المتاحة لهيئة التيوتون لم تأتى من المملكة الصليبية نفسها، بل كانت هذه الموارد المالية تأتى من الحجاج الألمان أو من التبرعات المالية التي كانت تجمع لصالح هذه الهيئة الدينية العسكرية من المناطق والمقطاعات الألمانية المسيحية. وكانت هذه المبالغ المالية المحصلة لصالح التيوتون كبيرة بدرجة تجعل المرء يشعر بأن هذه الهيئة الدينية العسكرية كانت تحصل على اعانات مالية كافية ، على الرغم من أن هذه المبالغ المالية كانت تحصل من منطقة محددة في أوروبا . وهي المناطق الألمانية. وتدخلت البابوية بقوة من أجل تأييد التيوتون ، وكانت البابوية أحياناً تبالغ كثيراً في أعمال ومغامرات التيوتون ، كما في حالة مونتفرات ، وكان الإمبراطور الألماني هنري السادس وكذلك الإمبراطور الألماني فردريك الثاني الهو亨شاوفن من أبرز الأباطرة الألمان الذين أسبغوا نعمهم على هيئة فرسان التيوتون ، بيد أن هذين الإمبراطوريين قلماً كانوا يشان فكرة إمبراطورية مسيحية. وكان تدخل الملوك الألمان ينشأ في المقام الأول من كونهم وووضعهم كملوك وحكام ألمان يأخذون على عاتقهم مهمة الحفاظ على المصالح الألمانية، وأقر البابا عملية انتقال وراثة حكم المملكة الصليبية في بيت المقدس إلى الإمبراطور الألماني فردريك الثاني الوريث الشرعي لحكم المملكة الصليبية في بيت المقدس أكثر سخاءً على الفرسان التيوتون في هذه المملكة، بيد أن هؤلاء الفرسان بدأوا تحت رعايته في ممارسة مهامهم باعتبارهم المحافظين على المصالح الألمانية والمسيحية على طول شاطئ البلطيق .

* آل حكم مملكة بيت المقدس الصليبية إلى الإمبراطور الألماني فردريك الثاني الهو亨شاوفن بسبب زواجه من بولاند ابنة جان دي برين وريثة مملكة بيت المقدس الصليبية والتي تزوجها الإمبراطور سنة ١٢٢٥م (المترجم) .

وعلى الرغم من وجود منشأة التيوتون في بروسيا منذ وقت مبكر، فإن فرسان التيوتون لم يهجروا أبداً الأراضي المقدسة في فلسطين حتى السقوط النهائي للملكة الصليبية ، وقد وجدنا أن هيئة فرسان التيوتون كانت تشارك في كل الأحداث السياسية والعسكرية المهمة في القرن الثالث عشر الميلادي. لقد كانت هيئة التيوتون أصغر وأفقر الهيئات الدينية العسكرية في المملكة الصليبية، ولذا لم تجدها تلعب دوراً مهماً في تاريخ هذه المملكة الصليبية ولم تنهك هيئة التيوتون في السياسات المحلية، ولا في الشؤون الاستراتيجية في الشرق العربي ، ولا في المكائد الاستقراطية مثلما كانت تفعل الاستبارية والداوية.

ويمكن مقارنة هذا الجيل الأخير من الهيئات الدينية العسكرية بالقوميات الإيطالية ، إلى حد أنهم حاولوا المحافظة على هويتهم الثقافية واللغوية . وهنا ينتهي كل هذا التشابه ، وذلك لأن التجار الإيطاليين لم يخلقوا لأنفسهم مثلاً أعلى، ولم يريطوا أنفسهم بهيئة أو منظمة تتجاوز الأهداف المعتادة للرابطة القومية . لقد كان فرسان التيوتون يمثلون أقلية تحاول من أجل البقاء مثل كل الهيئات الدينية الأخرى على الرغم من أنهم كانوا سيندمجون في آية العمل داخل نطاق الدولة والمجتمع. وكان فشلهم واغراقهم يؤكّد أن فكرة مجتمع مكون من أجناس عديدة كانت بناءً عن أفكار وحقائق العصور الوسطى حتى ولو كان هذا المجتمع دولة استيطانية - هذه الفكرة التي كانت تُفشل بالتحديد الجهد المشترك لسيجية العصور الوسطى - ولم يستطع فرسان التيوتون أن يحددوا لأنفسهم مكاناً ملائماً في هذا المجتمع- ولم تكن الصفة المشتركة لهذه العقيدة قوية بالقدر الذي يكفي لاحداث اندماج لهذه الجماعة (التيوتون)، وعلى الرغم من قبول المجتمع لهيئة التيوتون في شكل مؤسسة في المجتمع فإنها كانت تُفشل عنصراً غريباً في المجتمع.

وعلى غرار الهيئات الدينية العسكرية الكبرى، ظهرت اتحادات أقل أهمية في الأراضي المقدسة في فلسطين في أثناء القرنين الثاني عشر والثالث عشر. وكانت الأهمية السياسية والعسكرية لهذه الاتحادات والجمعيات تافهاً، بيد أن أهميتهم كانت بثابة تعبر عن نفس الدوافع الاجتماعية والروحية التي أوجدت الهيئات الدينية العسكرية الكبرى.

ومن اللائق للنظر أن من بين الهيئات الدينية العسكرية الصفرى كانت هيئة الفرسان المجدومين أو «هيئة فرسان القديس لازاريوس» ويعتقد أن هذه الهيئة الدينية العسكرية قد تأسست في مدينة بيت المقدس في أثناء العقد الثاني من القرن الثاني عشر ، على الرغم من

أن أول امتياز تحصل عليه هيئة القديس لازاريوس يرجع تاريخه إلى فترة ما بعد تأسيس هذه الهيئة بجبل كامل (١١٣٠-١١٤٥) * . وبدأت هذه الرابطة كمؤسسة علاجية تعالج الكثير من المشردين الأشرار، والمذومين . وكان مقر هذه الرابطة هو «بيت المذومين» الواقع عند السور الشمالي لمدينة بيت المقدس، على مقرية من مرجانبي صغير والذي عرف باسم «باب المذومين» . ولم تعرف فترة العصور الوسطى علاجاً ناجعاً لمرضى الجذام وكانت مهمة هذه المؤسسة أن تضمن عزلة هؤلاء المرضى بعيداً عن باقي أفراد المجتمع تفادياً للعدوى . وكانت العالمة المميزة لهذه المؤسسة عبارة عن صورة مريض بالجذام ، ملامحه مشوهة بسبب المرض، يرتدي سترة ضيقة مفتوحة ويلبس فوق رأسه قلنسوة . وكانت احدى يديه مختفية داخل السترة، واليد الأخرى تحمل مطرقة . وكلما ترك فرسان هيئة القديس لازاريوس المستشفى الخاص بالمرضى المذومين وجب عليهم أن يحدروا الناس من الاقتراب من هؤلاء المرضى وذلك بتحريك المطارق وقمع الأجراس التي تحدث صوتاً تحذيرياً .

وخلال فترة قصيرة أصبح لدى هيئة المذومين (هيئة فرسان القديس لازاريوس) كنيسة ودير خاص بهم . وفي عام ١١٤٢ وفي منتصف القرن الأول عشر وفي عام ١١٤٧ سمعنا عن «أخوة بيت المقدس المذومين» . وبعد فترة قصيرة وفي عام (١١٥٧) تم انتخاب مقدم لهذه الهيئة . وعندئذ أصبح لهذه الهيئة بيوت في مدن مثل طبرية وعسقلان وأخيراً في مدينة عكا وربما في قيسارية (حيث امتلكت هيئة القديس لازاريوس أيضاً كنيسة لورانس بالقرب من قيسارية) وفي بيروت . وبحلول منتصف القرن الثاني عشر أصبحت مؤسسة وهيئة الاستشفاء الباكرة للمذومين هيئة دينية عسكرية تقع على عاتقها مهام متناسبة . وقد قيل إن مقدم هذه الهيئة كان مذوماً مثل باقي رفاقه في السلاح ، ومن المعروف أن الأخوة المذومين قد اشتركوا مع فرسان الهيئات الدينية العسكرية الكبرى في معركة حرية مشئومة في عام ١٢٤٤ ، حيث قتل منهم عدد كبير وتکبدوا خسائر فادحة في الأرواح . وفي عكا العاصمة الجديدة للملكة الصليبية، امتلك فرسان القديس لازاريوس برجاً عرف باسم «برج القديس لازاريوس» في ضاحية مونتسزارو الشمالية، وقد أسدلت إليهم مهمة الدفاع عن هذا البرج . وكان مقر هيئة المذومين (فرسان القديس لازاريوس) يقع بالقرب من البحر عند القمة

* حصل فرسان القديس لازاريوس على منحة صهريج من البطريرك اللاتيني وليام (المؤلف) .

الشمالية لمدينة عكا، وعلى خريطة لمدينة عكا معاصرة لهذه الفترة يظهر دير للراهبات المجدومات يقع بالقرب من الكاتدرائية . وفي عام ١٢٥٣ قامت هيئة القديس لازاريوس بغزوة فاشلة ضد المسلمين عند رام الله وقد نجت هذه الهيئة من الدمار والإبادة نتيجة وساطة قام بها الملك الفرنسي القديس لويس التاسع .

واثمة هيئات دينية عسكرية أقل أهمية وجدت في المملكة الصليبية في بيت المقدس. وكان من بين هذه الهيئات «قليلة الأهمية» «هيئة الثالوث المقدس» و«هيئة السيف» ، « وهيئة الروح المقدس» ، «وفرسان القديس لورانس» ، التي ظهرت في أثناء الحصار الأخير لعكا في عام ١٢٩١ ، وقد ظهرت هذه الهيئات الدينية الصغرى على خريطة لمدينة عكا معاصرة . وربما تطورت «هيئة الروح القدس» من جماعة أخرى دينية كانت تحمل نفس الاسم إلى أن أصبحت تشكل هيئات دينية عسكرية . وكانت «هيئة القديس لورانس Lawrence» عبارة عن هيئة خاصة من الفرسان من جنوا وكانت مدينة جنوا تعتبر القديس لورانس حامياً لها . وفي هذه الحالة يجب أن نفترض أن الدافع اللغوي وشبه القومية لقيام مثل هذه الهيئات يشيد دوافع قيام هيئة فرسان التيوتون ، والهيئة الإنجليزية المعروفة باسم هيئة القديس توماس من كانطريوري ، أو هيئة القديس جيمس الأسبانية، وكانت بعض هذه الهيئات الدينية العسكرية الصغرى السابقة قتلت مستشفيات خاصة وأيضا مقابر خاصة بها ، بيد أن هذه الهيئات الدينية العسكرية لم تحظ بالشهرة في المملكة الصليبية في بيت المقدس . ونظرا لأن هذه الهيئات الدينية العسكرية كانت عبارة عن اتحادات وجمعيات وطنية فإن اهتمامها كان ينحصر في المقام الأول في المحافظة على الوجود الصليبي في منطقة الشرق العربي ، وبقينا نحن هذه الهيئات الدينية العسكرية أكثر اهتماما بالأرض المقدسة في فلسطين وبلاط الشام وهي الأرض التي من أجلها جادوا بأنفسهم وحياتهم وثروتهم وتركوا من أجلها أوطانهم والنفس والنفيس - من الكوميونات الإيطالية . وبعد أن انقضت الفورة الأولى من الحماس الصليبي المتاجج الذي شهدته الربيع الأول من القرن الثاني عشر الميلادي كانت الكوميونات الإيطالية (جنوا - بيزا- البندقية) تعتبر الأراضي المقدسة في فلسطين وبلاط الشام بمثابة محطة تجارية حيث كانت الظروف أكثر ملائمة للنشاط التجاري ، وكانت مراكز هذه الكوميونات وحكوماتها موجودة في أوروبا، وكان رجال الدين الإيطاليين يأتون من أوطانهم وقد اعتمد كنائسهم في منطقة الشرق العربي الإسلامي على الكاتدرائية الموجودة

في المدينة الأم في أوروبا. وعلى العكس ، فقد كانت بيوتات وأبروشيات الهيئات الدينية العسكرية في أوروبا تهتم كثيراً من أجل تعزيز مراكزهم الرئيسية في الأرض المقدسة. وليس هناك أكثر أهمية من الكلمة التي كانت تتداولها الهيئات الدينية العسكرية وهي كلمة «ما وراء البحار Outremer» والتي كانت تستخدمها هذه الهيئات الدينية العسكرية في أثناء القرنين الثاني عشر والثالث عشر، وكانت هذه الكلمة تشير إلى الأرض المقدسة في منطقة الشرق العربي، وقد وردت كلمة «فيما وراء البحار» في القوانين والنظم السائدة في أوروبا. وكانت هذه الكلمة تعنى في نظر الأوروبيين الكاثوليك مدينة بيت المقدس التي هي مركز الأيديولوجية الصليبية.

لقد كانت الهيئات الدينية العسكرية بمثابة أدوات ووسائل لنقل الموارد والعتاد العسكري الأوروبي إلى منطقة الشرق العربي الإسلامي، وكانت هذه الوسائل تكملة للدور البابوي بشأن الدعوة للحروب الصليبية وهي الإعلانات البابوية المعتادة وغير المعتادة أو الاستثنائية . وكانت الحالة والوضع الدولي يتمثل في صورة جماعة أخوية رفاق في السلاح، وكانت هذه الهيئات أيضاً تمثل الطبيعة العالمية للمسيحية . وإذا كانت المملكة اللاتينية قد نشأت بجهد الأوروبي مشترك وإذا كانت الحروب الصليبية المتكررة تشكل استمراراً لهذا المجهد الأوروبي ، فإن هذه الهيئات الدينية العسكرية كانت تمثل مؤسسة لها أيديولوجيتها التي لا تتحيد عنها أبداً.

وعلى الرغم من تمسك هذه المؤسسة (الهيئات العسكرية الدينية) بالأيديولوجية الصليبية فإنها لم تستطع أن تقاوم ضغوط كل من الزمن والمجتمع . وقام أعضاء هذه الهيئات بالمجاز أعمال الخير والاحسان والمشاركة في حروب الدفاع عن الكيان الصليبي وحمايته ، وهكذا كانت هذه الهيئات الدينية العسكرية تؤدي المهمة المزدوجة لطبقة النبلاء كما فسرت منذ وقت مبكر (وهي الحرب وأعمال الاحسان) ، بيد أن هذه المهمة لم ينجزها كل أعضاء هذه الهيئة الدينية العسكرية . وهكذا فإن الهيئات الدينية العسكرية قد تكيفت مع البنية الاجتماعية للمجتمع ومع تقسيماتها السائدة في المناطق الصليبية في فلسطين وبلاد الشام. لقد ظلت مهمة العناية بالمرضى مهمة يومية يقوم بها أعضاء الجماعة الدينية العسكرية من غير النبلاء وأصبحت مهمة الحرب تقع على عاتق الفرسان من أعضاء هذه الجماعة . وكانت الحرب الوقائية والدفاعية تحظى باهتمام كل المتقين . الواقع أن الهيئات الدينية العسكرية قد ساهمت بقدر كبير في المجهود الحربي في المملكة الصليبية فكانت تزود قلاعها بالمحاربين الأشاوس من أجل

حماية هذه المملكة الصليبية وحماية المسيحية، وجاء حين من الدهر لم تعد الحرب التي تشن من أجل حماية المملكة حرّياً دفاعية وذلك عندما توترت حدود المملكة الصليبية وأصبحت هذه المملكة في حالة حصار دائم من جانب المسلمين.

ومن الجدير بالذكر أن قادة الهيئات الدينية العسكرية في الأرض المقدسة في فلسطين وبلاط الشام - مع بعض الاستثناء - لم ينتموا إلى طبقة كبار النبلاء الأوروبية ، على الرغم من أنهم كانوا ينتمون إلى أصول هذه الطبقة . وقد عرفت هذه المجموعة من النبلاء من خلال معرفتنا بطبقة النبلاء الصليبية في مرحلتها التكوينية . وكانت الهيئات الدينية العسكرية ، مثل المجتمع الصليبي في الفترة الباكرة ، يفتح أبواب الوظائف أمام أفراد من طبقة النبلاء الأوروبية، وهكذا أصبحت هذه الطبقة أداة للحركة الاجتماعي . ومن الطبيعي أن هذا الحراك الاجتماعي كان مقيداً بقوانين التبنت والعزوبة وذلك لأن هذا الحراك الاجتماعي لم يخلق بيوتات نبيلة ، كما أنه لم يهد الطريق أمام الأقارب. وكما كان الوضع عند الهيئات الدينية الدييرية ، كان أي فرد يستطيع أن يرتقى اجتماعياً فينتقل من طبقة وسطى أو من أصول اجتماعية دنيا غامضة إلى رتب قيادية لهذه الجماعة وهذه الهيئة الدينية الدييرية.

ولعل من المدهش غياب طبقة النبلاء الصليبيين قاماً من وسط الرتبة العليا للهيئات الدينية العسكرية. وهنا في المملكة الصليبية كانت الهيئات الدينية العسكرية مؤسسات غنية ومهمة تطبق مثال الفرسية هذا المثال الذي سوف يجذب إليه طبقة النبلاء المحليين. وعلاوة على ذلك فإن طبقة النبلاء المحليين لم تصل إلى الرتب العليا* للهيئات الدينية العسكرية . ولذا يجب أن نقرر بأن الارستقراطية الوطنية كانت تعتبر الهيئات الدينية العسكرية بمثابة عنصر أجنبي غريب. وقد كانت شهرة وقوة وقوانين الفرسية لهذه الهيئة الدينية العسكرية كافية بالقدر الذي يحفز عدداً كبيراً من النبلاء المحليين للانخراط في صفوفها والالتحاق ببعضيتها، بيد أن هذه العوامل السابقة التي بهرت النبلاء المحليين لم تكن قوية بالقدر الذي يجعلهم يتتحققون بعضوية هذه الهيئة الدينية العسكرية بصدق وإخلاص، وذلك لأنهم كانوا يعتبرون أنفسهم أهل مهنة واحدة ظهرت لتعمل كمجموعة حاكمة.

وكانت أحدى نتائج هذه الظاهرة هو أن هذه الهيئة الدينية العسكرية لم تلعب دوراً مؤثراً في السياسات المحلية - مع استثناء واحد - وهو مقدم الداوية جيرارد دي ريدفورت الذي كان

* وكان الاستثناء الوحيد هو مقدم الداوية فيليب ميللي Philip de Milly (١١٦٩) ومقدم الاستبارية جارير من نابلس (١١٩٠) وتجدر الإشارة إلى أن ميللي أيضاً كما تأثر من نابلس (المؤلف).

يحمل مشاعر الكراهة والخذد ضد ريموند أمير طرابلس والذي لعب دوراً بارزاً عشية موقعة حطين الشهيرة. وقد تركزت اهتمامات هذه الهيئات الدينية العسكرية في السياسات الدولية، حيث كانوا يمثلون السياسات الشرقية المختلفة والمعارضة ، وكانت الهيئات الدينية العسكرية تقوم بدور الوسطاء في السياسات المحلية دون المشاركة الفعلية في هذه السياسات. الواقع أن عزلتهم وانعزالهم قد جلب عليهم سخط ومعارضة مستمرة من جانب الارستقراطية المحلية. وظل أفراد هذه الطبقة الحاكمة من النبلاء المحليين والتي تفتقر إلى أواصر العلاقات الأسرية - حيث كانت هذه العلاقات وأهميتها الاقطاعية قليلة احدي عوامل القوة والسلطة الرئيسية في الدولة والمجتمع - خارج نطاق الرباط الاجتماعي المحكم الذي كان يميز طبقة النبلاء الصليبيين في المملكة اللاتينية .

الفصل الخامس عشر

الحرب والتحصينات الصليبية

الواقع أنه خلال فترة الثلاثة آلاف عام من تاريخ فلسطين وحتى قيام دولة إسرائيل في العصر الحديث لم تشهد هذه الفترة التاريخية الطويلة من تاريخ فلسطين فترة زمنية تطورت فيها عملية بناء المنشآت والتحصينات العسكرية مثل فترة الوجود الصليبي في هذه المنطقة التي استمرت ما يقرب من قرنين من الزمان . فقد اعتمدت المؤسسة العسكرية الصليبية على دعامتين أساستين هما: التحصينات والقلاع ثم قوات الجيش . إذ كانت التحصينات والقلاع قلش العنصر الاستراتيجي للدفاع والحكم ، في حين كان الجيش يمثل عنصر التحرك التكتيكي والتخطيط العسكري من أجل القيام بعملية الغزو والتوسيع الصليبي في المنطقة العربية . ومن المحتمل أن العمارة والمنشآت العسكرية الصليبية في منطقة الشرق العربي الإسلامي قد تأثرت في شكلها وتصميمها بالأصل الأوروبي أي كانت ذات سمة أوروبية . لقد كان قيام الصليبيين بتشييد تحصينات عسكرية وقلاع في مملكة يحاصرها الأعداء المحليين من كل جانب أمراً مهماً . ولاشك أن الصليبيين كانوا على استعداد للتعلم من البيزنطيين والمسلمين على حد سواء في مجال فنون العمارة العسكرية .

وتجدر الاشارة إلى أننا لانستطيع أن ننظر إلى التحصينات الصليبية كفرع فقط من فروع العمارة ، ولا يمكن اعتبارها ذات سمة عسكرية فحسب . وكانت طبيعة السيادة الصليبية تعتمد في المقام الأول على الوظائف التي تؤديها تحصيناتهم العسكرية بشكل أكثر من دور قوتهم العسكرية . ومنذ بداية الوجود الصليبي ، لم يقتصر دور القلاع التي شيدتها الصليبيون في منطقة الشرق العربي على حماية حدود المملكة اللاتينية فحسب ، بل كانت هذه القلاع أيضاً بمثابة مراكز للسيادة الصليبية حيث حكم وادارة قطر تم غزوه وقهره على أيديهم . وكان مثل هذا يتتفق تماماً مع التقليد الأوروبي عشية الحروب الصليبية حيث كانت القلاع في أوروبا مراكز للحكم والإدارة . فقد أصبحت القلاع في أوروبا مراكز إدارية ولاسيما خلال فترة الفوضى والاضطراب التي عمت المجتمع الأوروبي في أعقاب سقوط الإمبراطورية الكارولنجية .

وعلى أية حال ، فإن وضع القلاع الصليبية وأماكن تشبيدها في إطار أغراض الدفاع والحكم والإدارة لم يتقرر أو يتحدد من خلال انهيار حكومة مركبة كالذى حدث في أوريا بعد انهيار الإمبراطورية الكارولنجية وإنما توقف وضع هذه القلاع على عاملين اثنين : أولهما الحرب الفعلية التي قدر للملكة الصليبية أن تخوضها باستمرار والتى فرضتها ظروف وجودها ، وثانىهما الحاجة من أجل بسط السيادة الصليبية على سكان في حالة عداء دائم ضد الصليبيين ، وعندما أخفقت مؤسسة الحكم الصليبية في اكتساب شعبية سكان هذه المناطق التي خضعت لسيادتها أصبح الحكام الصليبيين بثابة أقلية حاكمة أصلية في نظر هؤلاء السكان المحليين ، وأصبحت الكلمة رمزا واقعيا للوجود والحكم الصليبي . وعندما نبحث في مسألة تحصينات الملكة الصليبية التي كانت تعانى الندرة السكانية ونقص القوة الديمografية ، فإنه من الضروري القول إن هذه الدفوعات لم تقتصر على المحسن أو القلاع الحقيقية ، بل كانت هذه الدفوعات أيضا قتد لتشمل المدن ، والقرى ، وحتى الكنائس والأديرة . ففي الوقت الذي كانت فيه الكنائس والأديرة الأوروبية ذات الطراز الرومانسك منتشرة ومتناشرة وحصونها التي كانت تتميز بالأناقة والاشراف ، فإن المبانى الدينية الصليبية هي الأخرى - حتى التي كانت داخل المدن - قد اتبعت الطراز الرومانسك الأوروبي بشكل كبير وهو الطراز المعاصر الذى يرجع إلى الفترة الباكرة من تاريخ أوريا . وقام الصليبيون بتشييد حصن خارج المنطقة المأهولة بالسكان .

لقد كان الأمن العسكري هو الباعث الموجه لحياة الصليبيين فيما وراء البحار (فلسطين وبلاط الشام) والضمآن الوحيد لاستمرارية وجودهم . فمنذ البداية ظل الصليبيون يمثلون أقلية حاكمة وظلوا كذلك طوال فترة وجودهم في المنطقة والتي استمرت ما يقرب من قرنين من الزمان . وهكذا بات على الملكة الصليبية في بيت المقدس أن تركز جهودها الكبيرة من أجل الحفاظ على أمن الصليبيين . وكان فقط الاستيطان الصليبي يمثل احدى ضرورات الأمن . وكما تفعل الأقلية دائما ، فإن الصليبيين كانوا أكثر ميلا إلى التركيز والإقامة في أماكن قليلة . وقد ساهم هذا في تقصير خطوطهم الدفاعية ونشر قواتهم العسكرية بأعداد كبيرة . وهكذا عاش السكان الصليبيون الذين كانوا يمثلون أقلية في مدن وقلائع قوية محصنة وحتى القرى . التي سكنوها في المناطق الريفية كانت محصنة أيضا .

وفي أثناء الغزو الصليبي، كان يوجد في فلسطين بعض المدن المسورة، وكانت معظم هذه المدن المسورة تطل على شاطئ البحر، وقد وجد عدد قليل جداً من القلاع في المناطق الداخلية. لقد استخدم الصليبيون كل التسهيلات المتاحة وال موجودة . بيد أنه استجابة لطلباتهم واحتياجاتهم الخاصة قاموا بهمة شاقة وخطيرة من أجل جعل مملكتهم حصينة ومنيعة، ففي مملكة كانت تعانى من ندرة ونقص فى القوة البشرية الضرورية لضمان وجودها كانت الأسوار الحجرية تلعب دوراً مهماً في عملية الدفاع الشاقة وأصبحت هذه الأسوار المنيعة تحل محل المحاربين في عملية الدفاع هذه فقد كان الصليبيون في. فلسطين يحصون مائة منطقة سكنية من كل مائة وعشرين منطقة.

أ- التحصينات والدفاعات الصليبية

الواقع أن التحصينات الصليبية لم تشيّد وفقاً لخطيط معماري رئيسي سابق، ولكن تصميم هذه التحصينات قد تطور تدريجياً لكي يؤدي وظيفة التوسيع قبل أن يبدأ الصليبيون في تأمين حدود مملكتهم . وقد شيدت القلاع الصليبية وتم تحصين القرى والمدن التي استولى عليها الصليبيون استجابة للتحديات التي كانت تواجههم بشكل مباشر . وهكذا قام الصليبيون بتشييد القلاع وتحصين المستوطنات في الربع الثاني من القرن الثاني عشر الميلادي حول قاعدة عسقلان المصرية المتقدمة بطرق من القلاع والخصون بهدف ضمان حياد هذه القاعدة. واستطاعت هذه التحصينات الصليبية عند قاعدة عسقلان أن تمنع المصريين من القيام بغزو المناطق الصليبية الممتدة من حبرون خلال مدينة بيت لحم، وبيت المقدس، وقلعة تورون ، إلى رام الله ويافا. فقد كانت هناك ثلاثة قلاع بارزة للعيان على امتداد الطريق من الشرق إلى الشمال وهذه القلاع هي قلعة ابلين Ibelin (قلعة ينبه القديمة Ancient Yabneh) وقلعة تل الصافي (التل الصافي Blanchegrad) وبيت جبرين (جبيل Gibelín)، وقد استطاع الصليبيون احتلال مدينة غزة القديمة وأعادوا تحصينها من جديد وذلك في عام (١١٤٩-١١٥٠م) واستطاعوا أن يفصلوا مدينة عسقلان عن الطرق البرية التي تصلها بمصر. وثمة وضع مشابه في الجزء الشمالي من المملكة الصليبية حيث وجدت مجموعة من الخصون حول مدينة صور التي كانت بيد المسلمين قبل سقوطها في يد الصليبيين عام ١١٢٤ . وثمة مجموعة من القلاع الصغيرة شيدتها الصليبيون مثل قلعة هونين (١١٠٦-١١٠٧)، وقلعة

تبين (تورون)*، وقلعة أخريف Akhziv (Casal Imbert)، وكانت هذه القلاع تحيط بدببة صور من ناحيتي الشرق والجنوب.

وتحته قلاع أخرى كانت تيز ايقاع التوسع والحكم الصليبي في المناطق العربية التي احتلها الصليبيون حديثاً. وهكذا فإن تشييد الصليبيين لقلعتين كبيرتين مثل قلعة مونتريال (١١١٥) وهي قلعة الشوبك . وقلعة الكرك (١١٤٢) - وهي قبر معان التوراتية ، على قطاع دائرة من طريق الحج (дорب الحج المؤدي إلى مكة والمدينة) يوضح بجلاء وتميز مدى التغلغل الصليبي في معان الواقعة على الطريق المؤدي إلى خليج العقبة على البحر الأحمر (وتم احتلال الصليبيين للعقبة في عام ١١١٦) وهي المنطقة الشمالية القريبة من بلاد المحاجز. واستطاعت هذه القلاع القرية الثلاث التي شيدت في أماكن مفتوحة واسعة تقرباً أن تسيطر على طريق مرور القواقل التجارية التي كانت تحتاج دائماً إلى أماكن وطرق يتوافر فيها الماء لكل من التجار والدواب، والحماية من اعتداءات البدو على هذه القواقل ، وإن كانت هذه الاغارات أقل فاعلية. وعلى أية حال فإن الصليبيين كلما كانوا يستطيعون منع غزو أي جيش إسلامي منظم سواء كان الجيش المصري أو جيش دمشق. ولكي يعزز الصليبيون حكمهم وسيطرتهم على المناطق العربية فإنهم واصلوا عملية بناء عدد من القلاع الصغيرة على امتداد الطريق الرئيسي العام . وأخيراً امتدت سبع قلاع من الشمال إلى الجنوب، وهي قلعة الكرك التي كانت تقع على ربوة تعلو سهل مرتفع ، هذا السهل الذي كانت إشاراته الضوئية ترى في مدينة بيت المقدس، وقلعة الطفيلة Tafilé التي تبعد عن الكرك جهة الجنوب بخمسة وعشرين ميلاً، ويقلوها جنوباً قلعة الشوبك التي تبعد عن الطفيلة باثنين وعشرين ميلاً، وإلى الجنوب من قلعة الشوبك كانت توجد قلعة هرمز Hormuz التي تبعد عن الشوبك بخمسة عشر ميلاً، ثم قلعة سيلا Sela، وقلعة النبي موسى (أو قلعة القرية) التي تبعد عن العقبة بستين ميلاً. وعلى الرغم من أن هذه المنطقة التي شيدت بها القلاع الصليبية كانت واسعة ويمكن الدفاع عنها وإدارتها بشكل فعال ، فإن قلة عدد سكان هذه المنطقة ونقص موارد الماء بها قد أدى إلى تحرك قوات العدو بها. وهكذا كانت التحصينات الحدودية الصليبية تثل عائقاً أمام تقدم قوات أعداء المملكة اللاتينية وخطر يهدده.

* يرى المؤرخ ابن الفرات أن تاريخ بناء وتشييد قلعتي هونين وتبين هو أعوام (١١٠٦-١١٠٧)، وهذه المسابات التاريخية تتفق جيداً مع التحصينات التي تنسب إلى هوف سانت أومير ، أمير أقليم الجليل الصليبي (المؤلف).

وبالنظر إلى الجهد الملموس والمقصود من أجل تحقيق تحصين الجزء الجنوبي الشرقي للملكة الصليبية ، فإن المرء يفترض أن ثمة تطور قد حدث في بناء هذه التحصينات الصليبية في الجزء الشمالي من المملكة. فقد شيد الصليبيون قلاعًا في الشمال وذلك لأن المستقر الرئيسي للقوى الإسلامية كان يوجد في دمشق القريبة من الحدود الشمالية للمملكة اللاتينية، في حين كان الجزء الجنوبي الشرقي للمملكة الصليبية بمنأى عن الخطر الإسلامي. إذ كانت مصر العدو الرئيسي للصليبيين تبعد عن الحدود الصليبية مقدار مسيرة أسبوعين عبر صحراء شبه جزيرة سيناء ومعان. ومن المدهش أن المنطقة الجنوبيّة لروافد نهر الأردن حتى القمة الجنوبيّة للبحر الميت كانت خاضعة قاماً لإدارة المدينة. وهذا مثال للعلاقة الواضحة وال مباشرة بين السياسات الصليبية وشنون الدفاع عن المملكة الصليبية . وقد شهدت الفترة الباكرة من المملكة الصليبية غارات صليبية متتالية ومستمرة على حدود دمشق- وقد توصل الطرفان الإسلامي والصليبي منذ عام (١١٠٨) إلى عقد معايدة شهيرة بينهما، أسفرت عن وجود نوع من السيادة المشتركة بينهما لهذه المنطقة وعرفت هذه المنطقة باسم أرض المقاومات*. وعلى الرغم من تعرض هذه المعايدة للاتهاك من جانب الطرفين الإسلامي والصليبي على حد سواء، فإن هذا الاتفاق الإسلامي الصليبي بشأن السيادة المشتركة- والذى لا يمكن تصديق ما ورد بها من شروط- ظلت سارية المفعول ومعمولًا بها مدة أجيال ثلاثة ، حتى عشيّة موقعة حطين الشهيرة في عام ١١٨٧ . ووفقاً لذلك، لم يحاول أي طرف من طرف المعايدة الإسلامي والصليبي أن يشيد تحصينات في أراضي ومناطق المقاومات التي تخضع لسيطرتهم المشتركة. وقد حاول الصليبيون بالحيلة والخداعة التخلص من المعايدة التي عقدوها مع حكام دمشق المسلمين وذلك بتشجيعهم لفكرة إنشاء إمارات إسلامية في بصرى وصلخد الواقعة شرق روافد نهر اليرموك ، وذلك لكي تكون بمثابة دويلات وأمارات حاجزة على الجانب الجنوبي الشرقي من

* أراضي المقاومات :

كانت هذه الأرض تقع على الحدود بين مناطق السيادة الإسلامية ومناطق السيادة الصليبية في بلاد الشام وفلسطين وكانت هذه الأرض تخضع للسيادة المشتركة الإسلامية والصليبية، وقد نظمت المعاهدات التي عقدت بين الطرفين الإسلامي والصليبي كيفية استثمار هذه الأرض وتوزيع عائدها ، بحيث كانت السلطات الإسلامية تحصل على ثلث ايراد هذه الأرض وتحصل السلطات الصليبية على الثلث الثاني، في حين يحصل الفلاحون الذين يفلحون هذه الأرض على الثلث الأخير من الانتاج (المترجم) .

دمشق . بيد أن هذا المشروع الصليبي الذى خطط له الصليبيون فى عام ١١٤٧ قد باه بالفشل . وثمة محاولات فاترة قام بها الصليبيون من أجل بسط سيادتهم على هذه المنطقة عن طريق انشاء مواقع متقدمة فى أماكن استراتيجية وأخفقت كل هذه المحاولات تمامًا . وهكذا كانت درعا الواقعه على نهر اليرموك خاضعة للسيطرة الصليبية بعض الوقت، وعلى أية حال، فقد استمرت السيادة الصليبية فى هذه المنطقة فترة قصيرة (١١١٨-١١٢٩)، ولم يترك الصليبيون فى هذه المدينة (درعا) سوى الاسم الصليبي لها وهو مدينة برنارد الأتمامي Cite Bernard d'Etampes اسماً بـ Etampes القريبة من باريس . وفي بعض الأحيان بسط الصليبيون سيادتهم على مدينة جرش Jerash (والاسم القديم لها هو جيراسا Gerasa) فى جيليد Gilead (وهي منطقة جبل عوف باللغة العربية) والتى احتلها الصليبيون فى عام ١١١٩ . وتشير احدى الموليات التاريخية الصليبية إلى أن هذا المكان (جرش) قد ناله التخريب والدمار بعد الغزو الصليبي وذلك لأن الصليبيين كانوا يفتقرن إلى القوة البشرية اللازمة للاستيلاء على هذه المنطقة النائية عن عاصمة المملكة اللاتينية فى بيت المقدس، وكان تحرك الصليبيين من مراكزهم البعيدة عن هذه المنطقة أمراً غير ذى جدوى . لقد كان الضعف الصليبي المزمن يتمثل فى الافتقار إلى القوة البشرية إذ كانت تعانى من قلة عدد السكان، وتبليور هذا النقص الذى كانت تعانى منه المملكة اللاتينية فى ضوء حقيقة أن عدداً من المحسون التى احتلوها أو شيدوها فى هذه المنطقة لم تظل تحت سيطرتهم مدة كبيرة .

كانت مدينة بانياس المحصنة تمثل حصنًا صليبياً رئيسياً على الحدود مع دمشق ، ونظراً لوفرة الماء بمدينة بانياس الذى يأتي إليها من روافد نهر الأردن، فإنها سيطرت على الطريق الممتد من دمشق على الجانب الشرقي والجنوبى والذى يصل إلى جبل حرمون * . وعلى امتداد طوبل جهة الجنوب كانت توجد قلعة صليبية، وهى قلعة بلدوبين، القريبة من قرية العال، وقد استمرت هذه القلعة اسمها الغرى من اسم مؤسسها الصليبي . وكانت هذه القلعة تقع على طريق الغزو المعتمد الممتد من دمشق . وفي العادة كانت القوات الصليبية تتركز جنوب دمشق

* وعلى سبيل المثال أيضاً ، فإنه فى يونيو عام ١١٨٧ ، وقبل موقعة حطين كانت الجيوش الصليبية تتمرّك فى هذا المكان . ويشكل مشابه، فإن الحملة الصليبية الخامسة فى عام ١٢١٧ قد عبرت نهر الأردن، وواصلت سيرها عبر فيق Fiq وخبصين Khisfin (المؤلف) .

على روافد رأس الماء ثم تواصل زحفها صوب خيصفين Khisfin وفيفي Fiq على سهل الجرلان المرتفع (أرض السواد) ووادي البطيعة على الشاطئ الشرقي لبحيرة طبرية*. وثمة مكان آخر تجدر الاشارة إليه هنا وهو حصن حابس جلداع القوى والمنبع القريب من نهر اليرموك وسهل الميدان ذات الأهمية التجارية (وهو القريب من متزارب). ولم يختلف مصير هذه التحصينات والقلاع الصليبية عن مصير التحصينات الأخرى في هذه المنطقة^(١).

وتنتقل لنا إحدى خرائط الملكة الصليبية انطباعاً بأن القلعة العشر** الممتدة من جبل حرمون حتى العقبة قد قامت بهمة الدفاع الخارجي لحدود الملكة الصليبية . وكما أسلفنا القول، فإن تحطيم التحصينات الصليبية عموماً لم يتوقف على ظروف سياسية محددة . وعلاوة على ذلك فإنه لا يجب أن نبالغ في الأهمية الحربية لهذه التحصينات الصليبية في عصر الفروسية المتحركة.

وكانت القلعة والمحصنون الصليبيون الواقعة على الطريق الرئيسي لمنطقة ما وراء نهر الأردن تقع على خط يوازي ذلك الخط الذي يفصل الصحراء عن الأراضي المنزرعة الواقعة على نهر الأردن والبحر الميت والصحراء الجنوبية ، المعروفة باسم صحراء التبراء الكبيرة. وكان هذا الخط

١- قام الصليبيون باحتلال هذه المنطقة مكان هذه القلعة خلال العشر سنوات الأولى من الوجود الصليبي في المنطقة العربية . وفي عام ١١١١ قام حكام دمشق باسترداد هذه المنطقة ، بيد أن الصليبيين احتلوا هذا المكان في عام ١١٨٦ . وظلت تحت السيطرة الصليبية حتى عام ١١٨٢ ، حيث استطاع فاروخ شاه بعد ذلك احتلال هذه المنطقة . ولكن في نهاية عام ١١٨٢ أعاد الصليبيون احتلالها ، ومن المحتمل أن الصليبيين ظلوا يحتلون هذا المكان حتى هزيمتهم في عام ١١٨٧ (المؤلف) .

* تسلم الصليبيون مدينة بانياس من زعيم طائفة الأسماعيلية في عام ١٢٢٩ ، مقابل تعهد الصليبيين بحماية طائفة الأسماعيلية (الشاشين) من حكام دمشق المسلمين . وفي عام ١٢٣٢ سقطت قلعة بانياس في يد حكام دمشق ، بيد أنه في عام ١٢٤٠ تسلم الصليبيون هذه القلعة مرة أخرى بعد تحالفهم الجديد مع حاكم دمشق معين الدين أثر، وذلك مقابل تقديمهم المساعدة له في مواجهة عماد الدين زنكي . وأخيراً سقطت المدينة والقلعة في عام ١٢٦٤ في يد نور الدين محمود . وكانت قلعة الصبيبة (قلعة التمود) تعتبر في العادة بثابة قلعة بانياس ، ولدينا تحفظات خطيرة حول علاقات هذه القلعة مع الصليبيين (المؤلف) .

** وكانت القلعة العشر هي (قلعة الشريك ، والطنبيلة Tafilé والكرك ، والسلط ، الشقيف Blevoir ، وحابس جلداع ، وقصر بلدرين ، وقلعة الصبيبة ، وقلعة صند ، وقلعة تورون) (الترجم) .

بباتبة خط دفاع ثان، وكان باستطاعة من يعبر نهر الأردن، أن يصل إلى أماكن عديدة ، بيد أن مخاضات النهر Fords التي تتصل بطرق المرور من الشرق إلى الغرب كانت ذات أهمية استراتيجية . إذ كانت توجد ثلاث مخاضات رئيسة على نهر الأردن في جهة الشمال. وكانت جيروش الغزو تستطيع العبور بالقرب من روافد وينابيع نهر الأردن حول بانياس ، عند مدخل وادي الطعيم وعلى طول الممر الأكثـر صعوبة فوق نهر اللبناني. ومرة أخرى جهة الجنوب كانت توجد مخاضة تاريخية لعبور نهر الأردن وكانت هذه المخاضة توجد جنوب بحيرة الجولـة عن طريق جسر نبات يعقوب . وعندئذ كانت الجيروش تصل في زحفها إلى المخاضة عند المنفذ الجنوبي لبحيرة طبرية عند سن النبرة والتي يتفرع منها الطرق المؤدية إلى طبرية والناصرة. ومن المخاضات الأقل أهمية الآن هي المخاضات التي تيزـها جسور المعجمي Ma'agami وجسر الملك حسين، وداميا Damiya ، ومخاضة القديس يوحنا الـضـحـلـة وكانت مخاضة القديس يوحنا في نهر الأردن مكان تعـمـيد المسيح عليه السلام، تحـميـها قـلـعة صـغـيرـة لـفـرـسان الدـارـوـيـة ، وكانت مخاضة جـسـرـ نـباتـ يـعـقـوبـ تحـميـها مـنـذـ وقتـ مـتأـخرـ منـ عـامـ ١١٧٨ـ قـلـعةـ العـطـرـةـ Al. Atraـ المـحـصـنةـ ، والتـابـعـةـ لـلـدـارـوـيـةـ أـيـضاـ. وكانتـ المـخـاضـاتـ الأـخـرىـ غـيرـ مـحـصـنةـ وـعـلـىـ أـيـةـ حـالـ ، فـإـنـ مـجـمـوعـةـ الـقـلـاعـ الـصـلـيـبـيـةـ الـقـرـيـةـ الـتـيـ شـيـدـتـ فـيـ مـنـاطـقـ اـسـتـراتـاـجـيـعـةـ مـعـتـازـةـ قدـ اـمـتدـتـ عـلـىـ الشـاطـئـ الـفـرـيـيـ لـنـهـرـ الـأـرـدـنـ عـلـىـ طـوـلـ حـافـةـ جـبـلـ الجـلـيلـ .

ومـاـ يـذـكـرـ أـنـ قـلـعةـ بـانـيـاسـ كـانـ تـحـمـيـ الـطـرـقـ الشـمـالـيـةـ لـلـمـلـكـةـ الـصـلـيـبـيـةـ وـكـانـ اـسـتـيـلاءـ الـمـسـلـمـينـ عـلـيـهاـ فـيـ عـامـ ١١٦٤ـ يـمـثـلـ لـطـمـةـ قـاسـيـةـ لـأـمـنـ الـمـلـكـةـ الـصـلـيـبـيـةـ . وـكـانـ هـوـنـينـ تـعـرـضـ أـوـدـيـةـ وـادـيـ الطـعـيمـ وـمـرـجـ عـيـونـ فـيـ الـجـنـوبـ . وـكـانـ هـذـهـ الـمـنـطـقـةـ تـحـمـيـهاـ قـلـعةـ الشـقـيفـ الرـائـعـةـ الـوـاقـعـةـ عـنـدـ الـانـحـنـاءـ الـفـرـيـيـ لـنـهـرـ الـلـبـانـيـ . وـكـانـ مـخـاضـةـ سنـ النـبـرـةـ الـمـهـمـةـ لـلـعـبـورـ،ـ حيثـ عـانـىـ عـنـدـ هـذـهـ الـصـلـيـبـيـوـنـ هـزـةـ منـكـرـةـ فـيـ عـامـ ١١١٣ـ عـلـىـ يـدـ الـقـوـاتـ إـسـلـامـيـةـ،ـ تخـضـعـ لـحـمـاـيـةـ قـلـعةـ كـوـكـبـ الـهـواـ Blevoirـ التـابـعـةـ لـهـيـثـةـ فـرـسانـ الـاسـبـتـارـيـةـ.ـ وـكـانـ قـلـعةـ كـوـكـبـ الـهـواـ Blevoirـ تـكـشـفـ كـلـ وـادـيـ نـهـرـ الـأـرـدـنـ الـمـتـنـدـ منـ الـقـمـةـ الـجـنـوـبـيـةـ لـبـحـيـرـةـ طـبـرـيـةـ حـتـىـ مـدـخلـ وـادـيـ بـيـسـانـ،ـ وـلـمـ تـحـظـ أـيـةـ قـلـعةـ أـخـرىـ بـمـوـقـعـ مـعـتـازـ أـفـضـلـ مـنـهـاـ.

لـقـدـ كـانـ الدـفـاعـاتـ وـالـتـحـقـيقـاتـ الـصـلـيـبـيـةـ فـيـ مـنـطـقـةـ وـسـطـ وـجـنـوبـ نـهـرـ الـأـرـدـنـ ضـعـيفـةـ .ـ وـكـانـ الـخـطـرـ الـمـحـدـقـ بـالـصـلـيـبـيـيـنـ فـيـ هـذـهـ الـمـنـاطـقـ بـسـيـطـاـ نـسـبـيـاـ،ـ وـذـلـكـ لـأـنـ النـهـرـ كـانـ يـواجهـ سـهـلـ الجـلـيلـ،ـ وـهـىـ الـمـنـطـقـةـ الـتـىـ كـانـ يـقطـنـهـاـ عـدـدـ قـلـيلـ جـداـ مـنـ السـكـانـ .ـ وـكـماـ ذـكـرـنـاـ آـنـاـ،ـ فـقـدـ

خربت مدينة جرش على يد الصليبيين في عام ١١٩٦ . وحتى تشييد عجلون على يد أحد أمراء صلاح الدين في عام ١١٨٤ ، لم يكن هناك موطئ قدم للأعداء الملعين أو لقوات إسلامية من دمشق البعيدة عن هذه المدينة (جرش) . وعلاوة على ذلك ، فإن المنطقة المحيطة بيسان كانت منطقة مستنقعات ، وقلما كانت قوات الغزو تستخدمها . إذ كانت القوات العسكرية تسلك الطريق إلى وادي جزيريل ذات الأهمية العسكرية فقط للمملكة الصليبية ، وهو الطريق الذي يلتقي مع الطرق المتعددة من طبرية والجليل ، بالقرب من رواند وبناجع عين جالوت . وعلى أية حال ، فإنه قد شيدت قلعة صغيرة عند يسان ، وكانت هذه القلعة مكاناً للإيواء ، أفضل من كونها قلعة ملائمة للأغراض العسكرية .

وكانت المخاضات الأخرى لنهر الأردن ، وهي مخاضة جسر الدامية ومخاضة القدس يوحنا أقل أهمية من الناحية الاستراتيجية من بيسان . ولم تصل المنطقة عبر الأردن وهي منطقة جيلعان Gilead وبلقا Balqa أى تهديد عسكري ضد المملكة الصليبية . إذ كانت هذه المنطقة تقع على بعد ١٨٠ ميلاً من دمشق ولذا لم تكن من الناحية العملية منطقة لشد القوات العسكرية من أجل الغزو . وكانت توجد الكثير من الأديرة في أريحا وحولها - وبشكل أساسى الأديرة البيزنطية الأثرية الكسيبة . ومن الصعب بمكان معرفة مؤسس هذه الأديرة . وعلى الرغم من أن منطقة أريحا كانت محصنة من أجل مقاومة اعتمادات اللصوص والبدو فإن هذه المدينة المحصنة لم تستطع أن تعرقل هجوم الجيش الإسلامي . وفي الجنوب ، كانت صحراء سينا ، وامتدادها الشمالي الشرقي - خالية لمدة أربعة قرون منذ الفتح الإسلامي لها - بثابة حصن متاز في مواجهة غزو الجيش المصري .

لقد كانت مجموعة القلاع الصليبية المنتشرة شرق وغرب نهر الأردن على شكل رقعة الشطرنج للدفاع عن الحدود يظهر على هذه الرقعة مناطق داخلية محصنة بشكل قوى . وتعجلى العبرية الصليبية بشكل كبير في حسن اختيارهم للمواقع الاستراتيجية لبناء قلاعهم ومحصونهم . وما يذكر أن هذه المناطق لم تكن محصنة في أثناء الغزو الصليبي ، وقد تركت لنا فترة الثلاثة آلاف عمر التي انقضت منذ تأسيس مملكة إسرائيل في هذه المناطق آثاراً ملموسة . فقد كانت التحصينات العربية في هذه المناطق تتركز بشكل رئيسي في المدن الساحلية ، حيث استطاع الصليبيون الاستيلاء على هذه التحصينات سوا ، التي شيدتها العرب أو التي استردوها من البيزنطيين بعد فتحهم لهذه المناطق . وكان الوضع مختلفاً بشكل عام في المناطق

الداخلية إذ كانت هذه المناطق غير محصنة وكذلك المناطق الواقعة على الحدود الشرقية للسلالة الصليبية لم تكن محصنة أيضاً. وقد شيد الصليبيون تحصيناتهم وقلاعهم على خط التحصينات البيزنطية وتحصينات بني إسرائيل القديمة، وكان الفرض الأساسي من إنشاء التحصينات القلاع الصليبية في المناطق الداخلية هو تدعيم الحكم والأمن في هذه المناطق، وعندما تسامي الخطر الإسلامي ضد الصليبيين أصبحت هذه التحصينات والقلاع بمثابة مهارات وموائع عسكرية متقدمة للصلبيين على الحدود. وبالإضافة إلى ذلك ، فإن عدداً كبيراً من نقاط المراقبة العسكرية المحصنة قد تجمع حول المدن الساحلية المهمة والمحصنة جيداً. واستخدم الصليبيون هذه النقاط كملاجىء للسكان المحليين يلجأون إليها وقت الهجوم المفاجئ للعدو ، كما استخدمت هذه النقاط أيضاً كمحطات إنذار عند اقتراب قوات العدو .

والحقيقة أن المدن الصليبية الشمالية لم تتمتع بمثل هذه التحصينات والدفاعات السابقة. إذ كانت مدنًا مثل بيروت وصيدا تصعب عملية الهجوم عليها من جهة دمشق، وكانت كونتية طرابلس الصليبية تستطيع الدفاع عن الحدود الشمالية لمدينتي بيروت وصيدا. وكانت هناك قلاع وتحصينات صليبية على مقربة من هذه المدن الصليبية الشمالية ذكرت نادراً وأهمها: دير القلعة في جبال الغرب شرق بيروت (وهي المنطقة التي كان يسكنها المسلمون الدروز الذين اعترفوا بالسيادة الصليبية على هذه المناطق ومقابل هذا الاعتراف منحتهم السلطات الصليبية حق الحكم الذاتي في مناطقهم) ، قلعة صغيرة ، تعرف باسم قلعة أحمد في الجنوب الشرقي من دير القلعة على نهر الدامور ، ومرة ثانية كانت توجد قلعة أبو الحازم الصغيرة إلى الجنوب من مدينة صيدا وكان الصليبيون يتقدمون بطقس التعميد عندها. ومن المحتمل أن هذه الأماكن كانت محصنة خلال السيادة الإسلامية، إذ كان المسلمون يستخدمون هذه القلاع لنفس الأغراض التي كان الصليبيون يستخدمونها من أجلها .

ومن أهم القلاع وأكثرها لفتاً للنظر، تأتي قلعة الكهف الحجري التي تأسست عند توروں النحا Tirun el Niha وهي القلعة التي أطلق عليها الصليبيون اسم كهف توروں ، والتي تقع في منتصف الطريق بين صيدا ونهر الليطاني. فقد كان يصعب دخولها من أحد ثنيات الجبل، وكان جنود الدورية في هذه القلعة باستطاعتهم مراقبة أو وضع كمائن في أماكن مناسبة ، من أجل القضاء وصد أي هجوم إسلامي ضد صيدا . لقد كانت قلعة توروں صغيرة ومزودة بحماية عسكرية محددة ، يصعب دخولها أو الخروج منها.

وهكذا كانت هناك تحصينات صليبية كثيرة في المناطق الجنوبيّة المحتلة والأهله بالسكان، حيث كانت هناك شبكة طرق جيدة ساهمت بقدر كبير في تسهيل عملية الاتصالات.

وكان الطريق الأكثـر أهمية هو الطريق المستعرض ، وهو الطريق القديم المتـد من دمشق إلى صور. وكان هذا الطريق يـتـد إلى الجنـوب من جـبل حـرـمـون المـكـسـو بالـجـلـيـل ولـبـنـانـ، حتى يصل إلى الطريق المتـد من وادـي الأـرـدن وفـروعـه فـى وادـي الطـعـيم وـبـرـوتـ، وكانت قـلـاعـ بـاـنيـاسـ وـهـونـينـ سـالـفةـ الذـكـرـ عـلـى مـقـرـبـةـ مـن رـوـافـدـ نـهـرـ الأـرـدنـ تـكـتمـلـ مـن خـلـالـ اـضـافـةـ قـلـعـةـ تـبـنـينـ (ـتـورـونـ)ـ ،ـ التـىـ كـانـتـ تـقـعـ فـي مـنـتـصـفـ الطـرـيقـ بـيـنـ بـاـنيـاسـ وـصـورـ.

إلى أقصى الجنوب ، كان يوجد طريقان يتجهان من دمشق صوب عكا إلى الشمال والجنوب من بحيرة طبرية. وكان الطريق الشمالي يـؤـدىـ من عـكـاـ إـلـىـ الأـرـدنـ مـرـورـاـ بـقـلـعـةـ صـفـيرـةـ Chastellet على الضـفـةـ الشـرـقـيـةـ لـنـهـرـ الأـرـدنـ وـهـىـ قـلـعـةـ التـىـ عـمـرـتـ فـتـرـةـ قـلـيلـةـ ،ـ وـيـعـدـ أـنـ يـسـلـكـ الطـرـيقـ الجـانـبـيـ لـقـلـعـةـ صـفـدـ (ـوـرـيـماـ شـيـدـ هـذـهـ قـلـعـةـ فـيـ عـامـ ١١٠٢ـ)ـ ،ـ وـمـنـ المـزـكـدـ أـنـهـ شـيـدـ فـيـ عـامـ ١١٤٢ـ)ـ .ـ وـقـدـ تـمـتـعـتـ قـلـعـةـ صـفـدـ بـأـهـمـيـةـ كـبـيرـةـ فـيـ النـصـفـ الثـانـىـ مـنـ الـقـرـنـ الثـانـىـ عـشـرـ (ـوـقـدـ أـعـيـدـ بـنـاؤـهـ بـعـدـ عـامـ ١٢٤٠ـ)ـ وـكـانـتـ قـلـعـةـ صـفـدـ مـنـ أـعـظـمـ وـأـقـوىـ الـقـلـاعـ التـىـ شـيـدـهـ الصـلـيبـيـوـنـ فـيـ مـنـطـقـةـ الشـرـقـ الـعـرـبـ.

وكان الطريق الجنوبي المتـفـرعـ منـ الطـرـيقـ الجـانـبـيـ لـقـلـعـةـ صـفـدـ يـعـبرـ الأـرـدنـ عـنـ جـسـرـ الصـنـابـرةـ Senabra ،ـ حيثـ كـانـتـ أـرـضـ الـمـسـتـنـقـعـاتـ لـهـذـاـ الـوـادـيـ تـعـوقـ تـشـيـيدـ وـبـنـاءـ التـحـصـيـنـاتـ وـالـدـفـاعـاتـ الـقـرـيـةـ .ـ وـكـانـتـ الطـرـيقـ الـمـسـتـعـرـضـ لـاقـلـيمـ الـجـلـيـلـ الـأـدـنـىـ تـحـمـيـلـهـ عـدـدـ كـبـيرـ منـ الـأـبـرـاجـ وـالـخـصـونـ الصـفـيرـةـ .ـ وـكـانـ جـبـلـ طـابـورـ هوـ الـاـسـتـثـنـاءـ الـوـحـيدـ .ـ وـفـيـ الـقـرـنـ الثـالـثـ عـشـرـ الـمـيـلـادـيـ أـصـبـعـ الدـيـرـ الـمـحـصـنـ الـوـاقـعـ عـلـىـ جـبـلـ طـابـورـ حـصـنـاـ قـرـيـاـ ذاتـ أـهـمـيـةـ ،ـ فـيـ حـينـ كـانـتـ قـمـةـ هـذـاـ جـبـلـ يـحـيـطـ بـهـاـ اـثـنـانـ مـنـ الـأـسـوـارـ الـجـدـيـدـةـ ،ـ وـخـندـقـ صـنـاعـيـ ،ـ بـالـإـضـافـةـ إـلـىـ دـفـاعـاتـ طـبـيعـيـةـ تـتـمـثـلـ فـيـ الـمـنـحدـرـ الـعـالـىـ لـلـجـبـلـ وـمـاـ يـذـكـرـ أـنـ قـرـيـةـ Daburia الـصـلـيبـيـةـ (ـبـوـرـيـاـ Buriqـ)ـ ،ـ وـكـنـيـسـةـ الـبـشـارـةـ الـمـحـصـنـةـ فـيـ النـاصـرـةـ ،ـ وـالـبـرـجـ الصـفـيرـ الـذـيـ يـحـمـيـ مـوـارـدـ الـمـيـاهـ الـمـهـمـةـ عـنـ صـفـوريـةـ ،ـ وـأـشـيـاءـ كـثـيرـ فـيـ جـهـةـ الـغـربـ وـفـيـهاـ بـرـجـ فـرـسانـ الـدـاوـيـةـ فـيـ الـصـفـرانـ Le.Saffranـ ،ـ كـانـتـ كـلـ هـذـهـ الـأـمـاـكـنـ السـابـقـةـ تـحـتـلـ أـهـمـيـةـ ثـانـويـةـ لـدـيـ الـصـلـيبـيـنـ .ـ وـنـفـسـ الـأـهـمـيـةـ ثـانـويـةـ بـالـسـبـبـ لـبـرـجـ الغـولـةـ al Fulaـ الـذـيـ يـقـعـ وـسـطـ وـادـيـ جـزـرـيلـ ،ـ وـالـذـيـ لـمـ يـحظـ بـأـهـمـيـةـ كـبـيرـةـ كـطـرـيـقـ مـسـتـعـرـضـ رـئـيـسـيـ عـامـ لـلـأـرـضـ الـقـدـسـةـ .ـ وـكـانـتـ الـمـرـاتـ وـالـطـرـقـ الـشـرـقـيـةـ

تحميها حصون بلاعيم Bel'ame الصغيرة وأماكن توراتية وأماكن ما بعد التوراة شهيرة مثل جينين Jenin (جيرين Gerin) ، وذرعين Zar'in (جيرين الكبرى La Grand Gerin) ، وفي جهة الغرب كانت توجد قلعة عرعرة Ar ara .

وكان الطريق الذي يبدأ عبر نهر الأردن عند جسر الدامايا والذي يؤدي إلى قيسارية على الساحل عبر نابلس خالياً من أية دفاعات وحصون، باستثناء مدن مثل نابلس وسيباسط Se- baste . وكانت خربت النيرب (Khirbet el Neiraba)* قاعدة عسكرية متقدمة عديمة الأهمية . بيد أن قلعة قاقيون Kakun الواقعة عند مفترق الطرق بالقرب من مدينة قيسارية قد لعبت دوراً مهماً في التاريخ العسكري للملكة الصليبية في عام ١٢٧١ .

ويشكل عام يمكن القول بأن المناطق الجنوبيّة للملكة الصليبيّة كانت أكثر تحصيناً من المناطق الشماليّة وقد وجد بها عدد كبير من القلاع والتحصينات . وقد نقع في منزلة الخطأ إذا استنتجنا من ذلك أن الجنوب كان أكثر عرضة للخطر من جانب المسلمين من الجزء الشمالي للملكة . ففي جهة الجنوب كان التهديد الحقيقي للملكة الصليبيّة يأتي من مصر، التي تبعد عن الحدود الجنوبيّة للملكة مسيرة من عشرة إلى أربعة عشر يوماً . وكان أية غزوة صليبيّة تبدأ وتنطلق من هذه المجهة الجنوبيّة تستلزم إعداداً عسكرياً باهظاً التكاليف ويطلب أيضاً صعوبة ومشقة في عملية نقل الجنود ومؤويتهم . وقد أصبحت شبكة التحصينات والقلاع الصليبيّة أكثر وضوحاً وذلك إذا ما نظرنا إليها على أنها قلاع صغيرة لضمان الأمن للطرق العامّة والراكيز الإداريّة والضياع وليس كقلاع وحصون كبيرة، أو كقواعد ومراكز عسكريّة كبيرة . والحقيقة أن هذه التحصينات والقلاع الصليبيّة كانت توجد على امتداد الطرق، وقد امتدت بعض هذه الطرق إلى ما وراء نهر الأردن ، وهذا لم يقلل من أهمية التفسير الذي أوضحناه آنفاً والخاص بوظيفة هذه التحصينات الصليبيّة . لقد كانت الطرق الحربيّة التي تستخدمها الجيوش الصليبيّة والإسلاميّة هي نفس الطرق التجارية والتى يقع على امتدادها أيضاً المراكز الإداريّة، وكانت هذه المقصون والقلاع تطل على طرق التجارة المحليّة .

* خربت النيربا: تعرف باسم خرب الفندق وهي قرية تقع شرق نابلس ويحدها من الجنوب قرية عسكر (عبدالله البيشاوى ، الأموال الكنسية، ص ١٥٨ هامش ١)

وما يذكر أن بعض هذه المقصون الصليبية كانت قليلة الأهمية الاستراتيجية وكانت أسماءها الصليبية غير معروفة لدرجة أنه كان يصعب التعرف على أصل هذه المقصون والقلاع إلا من خلال شكلها المعماري، ومن هذه القلاع والمقصون الصليبية قليلة الأهمية الاستراتيجية ، ذلك الحصن القريب من قرية سالمجبل الواقع عند المدخل الضيق للوادي الشمالي في نجد السامرية (نابلس) ، وكذلك برج بردويل (حصن بلدوين) الواقع في نفس المكان . وعلى مقربة من هذه الحصون الصليبية، كان توجد بعض المقصون الصغيرة مثل حصن الطيبة Teyibe (عفرون- Efraon) وحصن بيتيين Bietin (Belhel) . وقد عرف الصليبيون هذا الوادي باسم وادى الغارات Vallis de Cursu وهو الاسم الذى يطابق التسمية العربية وهو وادى الحرامية أو اللصوص ! وبالقرب من مدينة بيت المقدس ، وعلى نفس الطريق ، كان يوجد حصنان صغيران عند البيرة (المحمرة الكبيرة) وعند رام الله وهذان الحصنان كان يحميان أملاك كهنة كنيسة الضرع المقدس والقرى الصليبية التى تأسست فى هذا المكان حديثاً .

وقد وجد خط من الكنائس والأديرة المحصنة يحيط بمدينة بيت المقدس، وإن كانت هذه الكنائس والأديرة الصليبية أقل تحصيناً من الأديرة البيزنطية القريبة من أريحا Jericha والبحر الميت . وكانت هذه الأديرة الصليبية المحصنة تشمل أديرة القديس جيورج من خوذيا Khoziba ، وكارتين القريبة من مدينة بيت المقدس ودير القديس سaba St. Sabbas فى وادى كدرون القريب من البحر الميت ، وهذه الأديرة تذكرنا بتلك الأديرة الصليبية الغربية التى كانت تقع على جبل آнос الثاني .

وكان الشخص الذى ير على الطريق الواصل من أريحا إلى مدينة القدس يرى حصوناً وقلاءً صليبيّة تقع في مكان ممتاز عند المرتفع الملتوى لجبل المعلى صعد فيم (طلعة الدم) ، على الطريق المؤدى إلى حصن بيت حنون الصغير والقريب من دير النسوة ، وذلك قبل الوصول إلى مدينة بيت المقدس المحصنة جيداً . وإلى الشمال من مدينة بيت المقدس ، وعلى الطريق المأثور المتداة من المدينة إلى الساحل ، كانت تقع قلعة دير النبي صموئيل (برج السعادة) . وعلى مقربة من مدينة بيت المقدس كان يوجد الدير الجورجياني المhausen الخاص بكنيسة الصليب المقدس.

وما يذكر أن الطريق المأثور من مدينة القدس إلى بارونية حبرون (الخليل) التي تقع في جنوب الملكة الصليبية (باستثناء منطقة العقبة) كان يضم منطقة محصنة . وكان هذا الطريق

يصل إلى حصن كنيسة الميلاد في بيت لحم، وكانت هذه المنطقة المحصنة بثابة نقاط ومحطات بوليسية عند برج السور وكانت تشبه تلك التحصينات الواقعة عند الكرمل ، حيث البركة والمستودع المائي القديم الذي يرجع إلى الأزمنة التوراتية والذي ما زال موجوداً ، وعند دير القديس صموئيل، كان يوجد طريق يؤدي إلى واحات سيجور (الميرا) عند القمة الجنوبيّة للبحر الميت ومن هنا كان يمكن الوصول إلى ما وراء نهر الأردن.

لقد كان الغرض من تشييد مثل هذه القلاع والتحصينات الصليبية الكثيرة والتي انتشرت على امتداد الطريقين الرئيسيين والمتوازيين والممتدتين من مدينة القدس إلى رام الله - اللد وإلى طريق الزوجين Via maris القريب من يافا هو ضمان الأمن للملكة الصليبية واستخدامها كمراكز للحكم والإدارة الصليبية وكان يقع على امتداد الطريق العلوي الشمالي، وهو طريق جبل السعادة، برج ممحن عن منطقة الكوبيدا (المحمري الصغرى) ، وقد استقر به عدد من الصليبيين ، وعلى مسافة بعيدة من هذا البرج كانت توجد قلعة صغيرة عند قلعة هيرنوت ، وقد ذكر أن هذه القلعة كانت توفر الأمان والحماية للمحجاج المسيحيين الذين يأتون إلى القدس عن طريق الساحل، وأخيراً وفي النهاية كان يمكن الوصول إلى بيت نوب التوراتي (بيت النبي)، والبرج ، وكاتدرائية القديس جورج المحصنة ، وكانت توجد قلعتان صغيرتان على الطريق الجنوبي، وكانتا بثابة نقاط استطلاعية ممتازة عند قلعة يلفوا وعنده قلعة سابا (بلمونت) على القسم الأولى عند الطرق الفريدة المؤدية إلى مدينة بيت المقدس. وهناك كانت توجد مستوطنتان صليبيتان عند اقبالا Iqbala Aqua Bella ودير للنسوة شبه محسن ، وعند منطقة (أبروجوش) ، والتي لم تكن محصنة . وأخيراً كان للداوية قلعة اللاtern (فرسان تورون) ، وكانت قلعة الداوية السابقة تقع في مفترق الطرق التي تؤدي من الجنوب إلى الشمال ومن يهودا (القدس) إلى ساحل البحر. وكان لهذه القلعة أهمية استراتيجية وذلك نظراً لأنها كانت تحمى المدخل الممتد من السهل إلى جبال مدينة القدس .

وكانت التلال تعين حدود شيفيلا Shefela نفسها من جهة الشرق، وهي التلال التي تبرز من سلاسل جبال يهودا (القدس) والسامرة (نابلس) ، وكانت الكثبان الرملية الساحلية تحيط بها من جهة الغرب ويمكن احتياز هذه الكثبان الرملية عن طريق استخدام سلك الطريق الرئيسي القديم الممتد من مصر إلى الشمال ، وهنا كان السير على هذا الطريق أيسر من الاحتياز والسير في الكثبان الرملية المتحركة والسير في أراضي المستنقعات على امتداد الساحل. وعلى بعد سبعة أميال من هذا الطريق الرئيسي، كان يمتد الطريق الساحلي المناسب.

وكانت هذه الطرق المتوازية تواصل امتدادها حتى تتلاقى في وادي جزريل وتتقاطع مع خليج عكا. وفي أقصى الشمال كان يوجد طريق ساحلي واحد فقط.

لقد كانت كل المدن الساحلية محصنة جيداً، وكانت معظم تحصينات دفاعات هذه المدن ذات أصل عربي أكثر من الأصل البيزنطي أو اليوناني ويمكن أن نتتبع آثار الكثير من هذه التحصينات في أي مكان، وهي التحصينات والقلاء التي كانت تطرق منطقة أكثر اتساعاً عن تلك المنطقة التي كانت تغطيها وتطرقها القلاع خلال فترة الوجود الصليبي. ويمكن أن نعزّز هذا إلى الانهيار الاقتصادي والديموغرافي (السكاني) الذي أعقب اسقاط العرب المسلمين للحكم البيزنطي في هذه المدينة. وقام الصليبيين تدريجاً بينما بعض التحصينات الساحلية من جديد، وشيدت هذه التحصينات في نفس مواقعها القديمة.

وما يذكر أن الصليبيين قاموا باحتلال المدن الساحلية القديمة والتي كانت تحمل أسماء شهيرة خلال فترة التاريخ الفينيقي، والعبرى ، والفلسطينى . وبعد الاحتلال مباشرة، بدأ الصليبيون فى ترميم وتجديد دفاعات وتحصينات هذه المدن وتقوية هذه الدفاعات. وكانت المدن الصليبية الرئيسية في الشمال تشمل مدن بيروت ، وصيدا وصور . وفي منتصف القرن الثالث عشر استطاعت صيدا أن تستفيد من حضور الملك الفرنسي لويس التاسع على رأس الحملة الصليبية ، حيث قام بتشييد «قلعة البحر» والجسر الذي ربط القلعة بالتحصينات المقامه في المناطق الداخلية . وكانت مدينة صور بأسوارها الثلاثة ناحية البر، وأسوارها الثانية على طول البحر ويرزخها الضيق (ومنذ أيام الاسكندر الأكبر كان هذا البرزخ يربط الجزيرة بالبر) ، لديها حصن بعيد على الطريق من تبنيں Tibnin وسط بساتين المدينة الشهيرة ، وهو برج فرسان وهيئة ال拉斯بارية (برج الشمالى La Tor de L'Opital).

وعلى الطريق الساحلى الضيق بين رأس الأبيض ورأس النقيره كانت تقع قلعة اسكنداليو (Scandalion) ، والتي شيدت في عام ١١١٦ لكي تحمى مدينة صور ضد الاعتداء الخارجى، واستطاعت هذه القلعة السيطرة على الطريق الساحلى المهم، وأن تلعب دوراً مهماً في التاريخ العسكري للمملكة الصليبية في عام (١٢٣٢) وذلك في أثناء حرب الأخوة اللومبارديين (المدن الإيطالية) .

والواقع أن مجموعة القلاع الواقعة على امتداد الطرق الشمالية والشمالية الشرقية لم تقترب من عكا ، بل على العكس، فقد شيدت بعض التحصينات للدفاع عن هذه المدينة

الصلبية الكبيرة ..، فكانت قلعة أخزيف Akhziv (قلعة اببرت Casal Imbert) الواقعة على الساحل ، وقلعة ماناوات Manawat البرية . وقلعة الراهب ، وقلعة جدين Judyn وقلعة الملك Chastiou dou Roi هذه القلاع التي ذكرت قد وفرت الحماية لمدينة عكا ذات الأهمية . ولم تزد هذه الأماكن المحسنة (القلاع) عن كونها أماكن لإقامة الأمراء الصليبيين ، ومراكل تحصيل الضرائب ومراكل إدارية . وكان قرب هذه القلاع من مدينة عكا (كانت هذه القلاع في شكل نصف دائرة نصف قطرها ٩ أميال) يأتي وفقاً لرغبة بعض النبلاء الصليبيين ، الذين اعتادوا الاقامة في عكا ، لقضاء شطر من وقتهم في ضياعهم الواقع في هذا القطر.

وعلى مقربة من هذه القلاع (وفي خط مستقيم طوله ١٢ ميلاً شمال شرق عكا) ، كانت توجد قلعة قورين التي شيدت في القرن الثالث عشر الميلادي . ومن الخطأ الشائع أن ينسب إلى هذه القلعة أية أهمية استراتيجية . وعلى الرغم من أن البابا جريجوريوس التاسع Gregory IX قد وصفها بأنها حصن مسيحي ، فإن المرء يرى أن اهتمام البابا بهذه القلعة كان يهدف إلى تسهيل مهمة مناشدة الغرب الأوروبي من أجل جمع أموال كثيرة لبناء هذه القلعة . وبالإضافة إلى الأهمية العسكرية والاستراتيجية المتواضعة لهذه القلعة ، فإن موقعها كان بعيداً عن أي طريق رئيسي ، وكانت هذه القلعة تناسب القيام بوظيفة الملاذ والملجأ الذي يحتمي فيه الجنود وقت التقى والانسحاب من المعركة أكثر من كونها مكاناً استراتيجياً . وظلت هذه القلعة مخفية عن الأنظار حتى قام أحد الذين حاصروا سلسلة الجبال وعبرها ، وكان يمكن أن ينظر إلى جزء صغير من هذه القلعة ، بصرف النظر عن المنظر الفاتن والرائع للأوهية العميقه والمنحدرات الحادة التي تخيط بهذه القلعة والتي تكسوها النباتات الكثيفة . وكانت قلعة مونتفرات مكان التجاء واعتزال يجتمع فيه مقدم فرسان التيوتون مع رجاله وأعضاء هيئته ، أو ربما كان التيوتون يستخدموا هذه القلعة كمكان لحفظ الدفاتر والخزانة خارج مدينة عكا التي كانت تعج بالاضطرابات والقلق والمؤامرات ، بيد أن هذه القلعة لم تكن منشأة عسكرية أساسية .

لقد كانت قوة ومناعة مدينة عكا تتمثل في دفاعاتها وتحصيناتها الضخمة والمروعة . فقد كان المينا محصناً ، بيد أن المدينة كانت خالية من الأسوار جهة البحر* ، حيث كانت سلاسل

* من الخطأ الشائع أن تنسى أسوار مدينة عكا من جهة البحر إلى الصليبيين . فقد كتب مارينو ساتورو وصفاً تفصيلاً لهذه الأسوار ، كما زودنا أيضاً بخرائط لمدينة عكا ، لم تحمل أية شكوك في هذا الصدد . (المؤلف) .

الصخور الناشئة والبارزة تميز الساحل، وتجعل من الصعب بل ومن المستحيل لأى شخص أن يقترب من الساحل حتى ولو كان البحر هادئاً . وفي القرن الثالث عشر الميلادي أضيف صف ثان من الأسوار حول عكا ، هذا الصف الذى كان يطوق ضاحية مونتمزارد الشمالية. ومنذ إنشاء هذه الأسوار تعددت عمليات الترميم والتتجديد لها وذلك على يد الملك الفرنسي لويس التاسع وبعض الأمراء الأوروبيين الصليبيين ، وهكذا كانت عكا أفضل مدن الشرق اللاتيني قوة وتحصيناً.

وكان الخط الساحلى المتند من جنوب عكا حتى السلالس الجبلية المباشرة جهة الشرق يشمل ويضم أماكن كثيرة محصنة . وكانت هذه الأماكن وال نقاط المحصنة تضم مدنًا مثل حيفا، وقيسارية ، وأرسوف ، وبافا ، وعسقلان ، وغزة . وكانت هناك مستوطنان. صليبية اقطاعية محصنة تضم سكان مسيحيين وبهوداً مثل كفر نعوم ، وكفر لام والبرج ، وخربتا الشمالية ، وأم خالد الواقعة بين يافا وحيفا على الساحل وكانت هناك بعض المقاطعات الصليبية تقع فى خط مواز جبهة الشرق وتشمل قيمون Kaimun ، وقاقون ، وخربت البرج (البرج الاحمر) وقلسوه Kalasua ، ومجدل يابا Yaba Magdal و قوله Qula.

وأيضاً كان يوجد بين هذه الحصون الصغيرة حصنًا وقلعة قوية ، وهى قلعة الحاج القوية (عشليت ، قلعة الحج) . وكان تشييدها وبناؤها يمثل فطا محدداً من العمارة العسكرية فى تاريخ المملكة الصليبية. وكانت نقطة المراقبة الصغيرة التى تطل على الطريق الرئيسى معروفة فى القرن الثاني عشر وهى قلعة المقاطعة أو قلعة الضاحية Districtum، وقد شيدت هذه القلعة على أحدى سلاسل الجبال وكان يمر بها طريق ضيق يصل إلى ساحل البحر. وفي الغالب كان يقال إن المكان الخاص بالدواية والذى كان يتحكم جيداً فى أحد أودية مداخل جبل الكرمل كان بشاشة ملجاً وملذاً يختبئ به اللصوص وقطعان الطرق. وطالما كانت حدود المملكة الصليبية تمتد عبر نهر الأردن فإنه لم تكن هناك حاجة لتحسينات ودعامات إضافية . وتغيرت الأمور والظروف بعد أحداث الحملة الصليبية الثالثة، حيث انحصرت بقية المملكة الصليبية على امتداد شريط ساحلى ضيق . وفي تلك الظروف تم تشييد قلعة الحج. وظهر حصن قوى إلى أبعد حد (بدأ تشييده فى عام ١٢١٨) فى الجانب الآخر من قلعة المقاطعة على قمة الجبل الناشئة والداخلة فى البحر والذى كانت تقع عليه قلعة صغيرة محصنة أو مدينة متطرفة. وكانت قلعة الداوية القوية قادرة على التصدى والصمود فى وجه هجمات الأعداء ولم تسقط

قلعة الداوية هذه بالقرة أبداً. وبعد سقوط عكا في عام (١٢٩١) ترك الداوية هذه القلعة وتخلى عنها ولووا الأدبار صوب قبرص.

وكان يوجد جنوب يافا مدینتان مهصنتان جيداً، هما عسقلان وغزة. وكانت الأمانة الصغيرة المحسنة مثل منعة القلعة Minat al Qala (قلعة بيروردي Caslellum Beroardi) التي خربت وتحولت إلى اطلال من التراب تشبه شبع قلعة - وقلعة دير البلح (الداروم) الواقعة على الطريق إلى مصر، وهي القلعة التي ظلت على التوالى مقرّاً لإقامة السيد الاقطاعي ومركتاً رئيساً لتحصيل الجمارك في الطريق الحالى من السكان وواحات صحراء العريش.

٢- القلاء الصليبية :

من الملاحظ أن الموقع الجغرافي لمكان تشييد التحصينات والقلاء الصليبية في منطقة الشرق العربي في بلاد الشام وفلسطين يشير إلى حقيقة مهمة مؤداها أن المستوى الفذ والفرد كان من أبرز السمات التي ميزت هذه التحصينات والقلاء التي شيدتها الصليبيون في مملكتهم. فلم يشيد الصليبيون قلاعهم وفقاً لخطيط معماري عام، بل كانت كل قلعة تبني من أجل تأدية وظيفة و مهمة محددة وفقاً للأخطار التي كانت تواجههم في المنطقة العربية ، وكانت القلعة تتأثر بظروف الزمان والمكان . وعلى الرغم من أن الصليبيين كانوا ينتسبون إلى أصل أوربي غربي مشترك ، فإنهم قاموا بتعديل التقليد الغربي في العمارة الخرية وذلك عن طريق اقتباس التقنيات المعمارية البيزنطية والاسلامية على السواء .

ويتمثل بعض الجدال والنقاش الذي يدور بين العلماء بشأن القلاء الصليبية في درجة التأثير الشرقي على بناء وتصميم هذه القلاء، ومن المحتمل أن هذه الاشكالية لم تجد حلها مقنعاً لدى أي طرف من أطراف النقاش والمجال، ويمكن أن نعزّز ذلك إلى أن المصادر التاريخية المدونة (المؤرخات) لم توضح مدى هذا التأثير الشرقي على العمارة الخرية الصليبية بشكل كاف. ويرفض المؤرخون المحدثون ما ذهب إليه مؤرخو القرن التاسع عشر الميلادي ، الذين كانوا يرون أن الشرق العربي كان بمثابة مدرسة للأوربيين الصليبيين نهلوا منها فنون العمارة الخرية ، ونحن نعرف أن أوروبا في النصف الثاني من القرن الحادى عشر - وقبل جيل أو جيلين من الغزو الصليبي للمنطقة العربية- كانت تشهد تطوراً سريعاً في فن التحصين والعمارة الخرية. وهكذا فإن الصليبيين كانوا في بداية القرن الثاني عشر، يفهمون أكثر عن القلعة

المسورة والمحصنة والتي كانت تشييد من الطوب اللبن أو من الأخشاب . ومن ناحية أخرى ، فإن الصليبيين قد ورثوا الاحتكاك المباشر مع فن التحصينات ، والذى كان فى الغالب ذا أصل بيزنطى ، وهو الفن المعمارى الحجرى الذى حافظ عليه المسلمون ، وتكيف الصليبيون مع هذا الفن ودعموه فى وقت مبكر من الحملة الصليبية الأولى والفترة الباكرة من الوجود الصليبي . ومن الضروري أن يؤثر هذا فى التخطيط الصليبي للعمارة الحربية ويتطور هذا التخطيط . ومن الصعوبة يمكن أن تقدر الأهمية النسبية لهذه العاملين فى تطور العمارة الحربية الصليبية . وفى الغالب كان يتضمن التخطيط الشرقي فى العمارة الصليبية الحربية وكان يتبلور هذا فى شكل وضع الموقع الطبيعي لانشاء هذه القلاع والتحصينات الصليبية ، حيث غابت بعض ملامح العمارة الحربية الأوروبية . ويمكن أن نعزز ذلك إلى الظروف المحلية للمنطقة العربية التي احتلها الصليبيون ، وعلى سبيل المثال ، فإن صهاريج المياه فى القلاع الكبيرة كانت تصمم وفق الظروف المناخية فى الأرض المقدسة فى بلاد الشام وفلسطين ، ولذلك كان تشييدها وتصميمها يتم وفقاً للمناخ والظروف المحلية . ومن ناحية أخرى ، فإن الخندق الذى كان يحيط بالقلعة والمحصن الصليبي والذى كان يخلو من الماء هو نتيجة مباشرة لحقيقة أن الأرض المقدسة على الرغم من أن الرب قد باركها وذكرها بأنها أرض تفيض باللبن والعسل ، فإنه لم يتتوفر بها الماء الكافى لكي يتتدفق فى هذه الخنادق . وكان نفس الشئ ، أيضاً بالنسبة لشكل الأسوار والأبراج التى شيدتها الصليبيون ، فقد شيدوها أيضاً وفقاً للظروف المحلية للمنطقة العربية المحتلة . وقد حاول بعض العلماء أن يكتشفوا نظماً متطرورة للعمارة الحربية الصليبية يشير إلى درجة تأثير النسطورى الغرى وذلك فى الأبراج الدائرية والملبعة التى كانت تزود بها القلاع الصليبية . وهذا من شأنه أن يؤكّد الفكرة المضللة التى ترى أن المحصن المطوق باثنين من الأسوار كان مستعاراً ولفتره طويلاً من الأنماط الشرقيه للمحصون . وفي كلتا الحالتين كان موقع الأرض الذى يبني فوقه المحصن أو القلعة هو الذى يحدد التصميم الدائري أو الرباعي للقلعة كما كان هذا الموقع يحدد أيضاً شكل المحصن سواء كان أحادى السور أو مزدوج الأسوار .

ويُمكن أن نفترض بشكل آمن أن الصليبيين الأوائل قد جلبوا معهم قدرًا كبيرًا من المعرفة بفنون التحصين والدفاع . وخلال فترة الوجود الصليبي فى المنطقة العربية التى استمرت ما يقرب من قرنين من الزمان ازدهرت العمارة الحربية فى كل من أوروبا وفى منطقة الشرق العربى

الإسلامي. وهكذا كان المعماريون الصليبيون في ظروف ملائمة وجيدة لكي يقتبسوا من كلا النمطين الغربي والشرقي وفقاً لاحتياجاتهم المحددة ، في حين ساهموا بخبرتهم الخاصة في العمليات الدفاعية.

ومن الناحية الكمية، كان البرج يمثل فطا من البناء الأبسط شكلاً والأكثر شيوعاً وانتشاراً. وفي العادة كان البرج عبارة عن بناء صغير مربع الشكل ، تقيم فيه حامية عسكرية صغيرة من أجل حراسة الطريق، بالإضافة إلى قوة من الشرطة كجهاز اداري للملك أو للسيد الاقطاعي. وعلى الرغم من أن البرج قد استخدم كملاذ يلجأ إليه السكان المحليون الفارون من أمام زحف العدو، فإنه كان صغيراً بحيث لا يتسع لاحتواه ممتلكات ودواب ومواشى الفلاحين ولم يستطع الصمود أمام أي حصار . وكانت وظائف البرج دفاعية بحتة ، كما كان بمثابة ملتجأً وملاذاً مؤقتاً ، حتى تراجعت اغارات السلب والنهب بعيداً عنه . ومثل هذه الأبراج الصغيرة لم يدقق أو يمعن في اختيارها كما لم يدقق كثيراً في مواقعها ، وكان من الطبيعي أن يقام البرج على ربوة عالية يسهل الوصول إليها، بيد أنه في الغالب كان البرج يقام على أرض مستوية ومسطحة. ففي رسم تخطيطي لبني مكون من طابقين يتبين لنا أنه مزود بنقطة ملاحظة ممتازة ، يستطيع المرء من خلالها أن ينظر إلى فضاءه فسيح بحيث يستطيع أن يراقب باللحظة دائرة نصف قطرها عدة أميال. وكان البرج يقوم من خلال حمايته بعملية الدفاع من خلال إطلاق النار من فتحاته أو من جداره المزود بفتحات ، وكان هذا يكفي لمقاومة وصد أي غارة تقوم بها القوات الراكبة من رماة السهام، بيد أن البرج كان يصبح غير ملائم للدفاع في حالة ما إذا قرر المهاجمون قصف المكان أو فرض حصار طويل من أجل تجويع الحامية المكلفة بالدفاع عن البرج أو الحصن وذلك بمنع تزويد البرج بالمؤن والغذاء . ومن غير المجدى أن نفك أو نتأمل في الاشكالية الخاصة بالمنطقة التي نقل الصليبيون منها فقط تحصيناتهم الدفاعية. ومن المحتمل أن الصليبيين قد احتفظوا بالنموج الأصلى الأوروبى للبرج أو احتفظوا ونقلوا كثيراً عن البرج الإسلامي الصغير وربما نقلوا أيضاً واقتبسوا فن التحصينات عن البرج البيزنطي الذى كان يميز حدود الريف البيزنطي في الفترة السابقة للوجود الصليبي.

وكانت القلاع الصغيرة التي شيدها الصليبيون في منتصف القرن الثاني عشر والتي كانت تيز حدود المملكة الصليبية وتدافع عن الريف الصليبي المعرض للخطر من جانب الجيران المسلمين ذات شكل مختلف . وعلى الرغم من أن هذه القلاع كانت مجهزة وتلامى بشكل

أساسى غرض الدفاع والحماية للمناطق الصليبية، فإن الصليبيين كانت لديهم حاميات دائمة استخدمت ك نقاط لانطلاق الغزو الصليبي وشن الغارات ضد الأقطار الإسلامية وأتى حين من الوقت أصبحت فيه هذه القلاع الصليبية المعزلة بشاشة مراكز للاستيطان وجزء من المحيط الصليبي. وأصبحت الأبراج قلاعاً للقرى أو للمدن وقد شيدت هذه الأبراج بصورة تلازم هذه المدن وهذه القرى.

لقد شاع وانتشر هذا النمط من القلاع الصغيرة في جنوب المملكة الصليبية ، وعلى الرغم من صعوبة وصف مفصل لها بسبب ندرة وافتقار الآثار الباقية لهذه القلاع ، فإن المصادر التاريخية المعاصرة تزودنا بصورة واضحة لهذه القلاع من حيث شكلها وبنائها. فقد وصف قلعة بيت جبرين (التي يرجع تأسيسها منذ فترة باكرة من عام ١١٣٦) بأنها كانت حصنًا قويًا ومنبعًا يحيط به سور منيع مزود بأبراج، وأسوار خارجة وخندق . وثمة وصف تفصيلي لقلعة ابلين، التي شيدت مكان قلعة يبنيه Yabneh التلمودية الباكرة وكانت هذه القلعة مزودة بمبان حجرية وأبار قديمة مزودة بالماء . ويقول مؤرخ معاصر أن الصليبيين شيدوا حصن ابلين «إذ كان حصنًا قويًا مزودًا بأربعة أبراج مشيدة فوق تل عال ملحق بهذه القلعة وهذا الحصن، وكان الحصن أيضًا مزودًا بمبان و์منشآت خفية وعميقة تحت سطح الأرض . وفي النهاية كانت قلعة تل الصافي عبارة عن حصن مشيد من الأحجار المنحوتة يستند على منشآت متينة قوية ومزود بأربعة أبراج تقع على ربوة مناسبة.

وقد تم دراسة هذه التطورات المعمارية للقلاء والتحصينات الصليبية بشكل جيد من خلال الحصون والقلاء الصليبية التي وجدت في مكان مدينة غزة القديمة. فقد كانت القلعة التي شيدت في عام ١١٤٩ صغيرة جدًا ويقول أحد المؤرخين الصليبيين المعاصرین أن هذه القلعة كانت تقع «على تل بارز بشكل غير متقن وكانت عبارة عن فضاء مغلق تحيط به الأسوار . وقد رأى شعبنا أن طاقاتهم غير كافية بشكل مؤقت لإعادة تشييد القلاء في المنطقة كلها، فاحتلوا جزءاً من التل فقط ، وبعد أن ربوا الأساسات في موضع عميق مناسب قاموا بتشييد وبناء القلعة والسور والأبراج . وبعد بضع سنين نشأت مدينة صغيرة هنا . وكما قلنا من قبل ، فإن هذه القلعة (تل الصافي) لم تستطع أن تشغّل كل التل الذي نشأت فوقه هذه المدينة، بيد أن الشعب الصليبي استطاع أن يتجمع هناك للإقامة والسكنى في هذا المكان ، واستطاعوا أيضاً الاقامة والعيش في أمن وطمأنينة ، وذلك لأنهم قاموا بتحصين باقي منطقة الهضبة عن طريق بوابات وسور، على الرغم من أن هذه التحصينات كانت متواضعة ويسقطة وضعيفة».

وقد نقلت إلينا صورة مشابهة عن طريق قلعة الداروم (دير البلح) التي شيدت في عام ١١٧. ويقول أحد المؤرخين المعاصرين ، أن من ينظر إلى هذا الحصن يجده مربع الشكل تماماً، كما أن امتداده على مدى مرمي حجر . وكانت قلعة الداروم لديها برج في كل ركن من أركانها الأربع، بيد أنها لم تكن مزودة بخندق أو أسوار خارجية . وكان أحد هذه الأبراج الأربع أكثر ضخامة وقوة وأفضل تحصيناً من باقي الأبراج الأخرى. وحول هذه القلعة نشأت مستوطنة صليبية وكنيسة . وبعد جيل، وفي أثناء الحملة الصليبية الثالثة، كانت هذه المستوطنة الصليبية محصنة ، فإذا صدقنا ما ذكره أمبرواز Ambroise شاعر التروييادور الأنجلو نورمانى عن هذه القلعة فإنها كانت مزودة بسبعة عشر برجاً كبيراً وصغيراً ، وكانت قلعة جميلة وقوية، وكانت لديها برج أكثر قوة ومتانة يعلو باقي الأبراج الأخرى، وكان يحيط القلعة من الخارج خندق عميق مكسواً بالأحجار في أحد جانبيه ، والجانب الآخر كان مكسواً بالصخور الطبيعية.

ولسوء الحظ فإن ما بقى من هذه الأماكن والقلاء الصليبية كان شيئاً قليلاً الأمر الذي يجعلنا نتحفظ في حديثنا وظننا بخصوص الشكل المعماري لهذه التحصينات الصليبية . ومن الواضح أنه كان يوجد فنطان معماريان للقلاء والتحصينات الصليبية: كان النمط الأول عبارة عن القلاء مربعة الشكل، والنمط الثاني عبارة عن القلاء الصغيرة المزودة بأبراج في أركانها الأربع (مثل قلعة ابلين Ibelin، وقلعة تل الصافى، وقلعة غزة التي شيدت في موقع مدينة غزة القديمة) مع اختلاف في حالة قلعة (الداروم) التي كانت مزودة ببرج أقوى من الأبراج الأخرى؛ إذ كان البرج مثل القلعة فكان مزوداً بصف اضافي من الأسوار وخندق مبطن ومكسوا بالأحجار والصخور (مثل قلعة بيت حرين وقلعة (الداروم) . وكانت القلعة من النوع السابق تقوم بعمل البرج المحصن بشكل مناسب ، وكان هذا النمط المعماري عنصراً مميزاً في القلاء الأوروبية في القرنين الحادى عشر والثانى عشر من الميلاد.

وقد ظهر نمط معماري مختلف للتحصينات الصليبية في النصف الثاني من القرن الثاني عشر، وهو النمط الذي يمكن أن يوصف بأنه كان مقرراً للسيد الاقطاعي. وما تزال بعض بقايا

* أمبرواز Ambroise: من أشهر شعراء الترويياد في أوروبا في العصور الوسطى، وقد صاغ أحداث الحملة الصليبية الثالثة التي جاءت بقيادة ريتشارد قلب الأسد الملك الانجليزي إلى المنطقة العربية شعراً (الترجم).

حطام هذا النمط من القلاع موجوداً وقائماً في المناطق الريفية في بلاد الشام وفلسطين : وذلك في قرية مانعوات Manawat القريبة من عكا ، وفي جودين وسميرية Summeyrich القريبتين من عكا أيضاً ، وقلعة كفر لام الرائعة القريبة من قيسارية وقلعة بيروردي Castrum Beroadi (منعة القلعة Minat al Qala) في منطقة الكثبان الرملية الواقعة بين أشدود وعسقلان * . وكانت كل هذه القلاع صغيرة الحجم ذات شكل مستطيل . ويشهد بناء وأحجار بعض هذه القلاع مدى المجهود الذي بذل من أجل اقامة هذه القلاع . وكانت الأبراج تحيط بالقلعة من الخارج في كل من أركانها ، مثلما كان الحال في قلعة كفر لام إذ كان يوجد فناء صغير مسورة يضم مخازن ومستودعات ذات قباب ، وذات سراديب وباباً أنيقة في السور الخارجي المنخفض . وفي بعض القلاع الأخرى مثل قلعة بيروردي Beroardi ، كان يوجد مبني مستطيل فقط وأبراج مشيدة في أركان القلعة ، وكان موقع هذه القلاع في منطقة كثبان رملية قائمة على الساحل يدل على أن هذه القلاع كانت بثابة قاعدة عسكرية بشكل أكثر عن كونها مقراً لضيعة اقطاعية . ففي قلعة كفر لام وقلعة بيروردي Castrum Beroardi كانت تظهر أبراج دائرة ساحرة في كل ركن من أركان هذه القلاع ، وكانت هذه الأبراج مدهشة ولائنة للنظر . فقد كانت القلاع السابقة تضم منحدرات خفيفة دائرة تشبه نقاط انطلاق . ولا يمكن أن تنسب هذه القلاع إلى سنوات متأخرة في القرن الثالث عشر الميلادي ، وذلك لأن كفر لام على الرغم من أنها ظلت خاضعة تحت السيادة الصليبية في أثناء المملكة الصليبية الثانية ، فإن قلعة بيروردي فقدت الصليبيون بشكل محدد في زمن صلاح الدين الأيوبي .

وشاهد القرن الثاني عشر تشييد قلعة كبيرة ، وهي القلاع التي ساهمت الحفائر الأثرية الحديثة لها في تغيير رؤيتنا تجاه تطور المفاهيم والتقنيات الصليبية بشأن العمارة الحربية . فقد شيدت معظم القلاع المهمة والبارزة في القرن الثاني عشر وأهم هذه القلاع : قلعة كرك معاب في منطقة ما وراء نهر الأردن ، وقلعة صغيرة (وهي قلعة قصر الأثرا Qasr-dAtra) ، وقلعة بلفوا Belvoir (كوكب الهواء) في الجليل ، ومن القلاع التي شيدت في القرن الثالث عشر تأتي قلعة مونتفورت Montfort ، وقلعة صفد Saphet في الجليل ، وقلعة الحاج على .

* أضاف المؤرخ بنسنستي Benvenisti إن هذه القائمة كثيرة من المباني ذات الأصل الصليبي ولم تذكرها المصادر التاريخية الأدبية . وهذا الفتح لنا مجالاً جديداً للدراسات المعمارية (المؤلف) .

ومن الملاحظ أن التتابع الزمني لا يمثل بالضرورة فترتين متميزتين ويبعد أن هاتين الفترتين (فترة القرن الثاني عشر وفترة القرن الثالث عشر من الميلاد) لم يكن لهما أهمية كبيرة في تطور العمارة الحربية الصليبية . وتوضح معظم الحفائر الأثرية الحديثة التي قمت في الفترة من (١٩٦٤-١٩٦٨) والتي أجريت في مكان قلعة بلغوا - وهي القلعة التي يرجع تاريخ تشبيدها الدقيق إلى أعوام (١١٨٧-١١٦٨) لنا عن عمل وتخطيط متقن تماماً لهذه القلعة ويتسم هذا التخطيط والتصميم بالكمال ، ويضم هذا التخطيط أيضاً عناصر معمارية ، تلك العناصر التي يرجعها بعض العلماء إلى ابتكارات القرن الثالث عشر الميلادي.

وما يذكر أن إطار هذه الدراسة لم يستطع أن يشمل كل الآثار الحربية الصليبية الباقية في الأرض المقدسة في فلسطين وبلاط الشام . وهكذا فسوف تركز على النماذج والأطر المعمارية الباقية بشكل جيد ، وهي النماذج والأطر التي تمثل أنماطاً مختلفة للعمارة الحربية الصليبية.

قلعة بلغوا (كوكب الهواء)

كانت قلعة بلغوا Belvoir (والتي كانت تعرف بالأramaic والعبرية باسم قحافة ، وعرفت في العبرية باسم قلعة كوكب الهواء ، وأطلق عليها الصليبيون اسم قلعة إعداد الطعام Coquetum) والتي شيدت في النصف الثاني من القرن الثاني عشر الميلادي ، أحدى أعظم المنشآت الصليبية . إذ كانت أصغر حجماً من قلعة كرك الفرسان الضخمة في بلاد الشام (والتي كانت مساحتها $6,5$ أكر، والأخر = $4,000$ متر مربع) ، وأصغر أيضاً من مساحة قلعة صند الصخمة والتي كانت تبلغ مساحتها $10,000$ متر مربع وكانت مساحة قلعة بلغوا يبلغ (3 أكرات = $2,000$ متر مربع) ، فكان طولها 112 م وعرضها 100 م . ولم تكن عمارتها بصورة تفوق أية قلعة أخرى . فقد تقرر فيما مضى قبل الوجود الصليبي بناء قلعة على حافة النجد الجليلي (ذلك السهل الواسع المرتفع) فيما وراء نهر الأردن لكي يستخدم هذا الوادي الطبيعي كحد شمالي لها ، وقد سمح لصموئيل المجهول الاسم والذي أشرف على تصميم وتنفيذ بناء هذه القلعة استطاع اختيار موقع القلعة واستطاع أن يحقق أفكاره من خلال ابتكار شكل وحجم مناسب لهذه القلعة ، في ضوء قوة العمل والمأهال المتاح لعملية البناء (ويبدو أن هذه القلعة لم تكن أقل ارتفاعاً من القلاع الأخرى) . وعلى الرغم من أن بعض العلماء يساورهم الشك حول استخدام الصليبيين للتحصينات والدفاعات المترابطة والكثيرة في وقت مبكر من

القرن الثاني عشر ، فإنه من الواضح تماماً أن قلعة بلفوا (كوكب الهواء) كانت تتميز بأسلوب ونظام دفاعي إذا كانت مطروقة باثنين من الأسوار منذ بداية نشأتها .

لقد اعتمد تخطيط هذه القلعة أساساً على ثلاث وحدات معمارية متميزة وواضحة ، لكل وحدة معمارية وظائفها الخاصة . وكانت الوحدات المعمارية الأساسية تشمل : القلعة الداخلية؛ والسور الخارجي - الذي يشمل الستار والخندق ، وكانت الوحدة الثالثة تشمل البرج الشرقي القوي . وكان معظم الجزء الداخلي للقلعة مبنياً من الجص ، وكان مربع الشكل طول ضلعه ٥٠ متر، في حين كان السور الغربي للقلعة محصنًا ببرج إضافي وذلك في منتصف السور للدفاع عن البوابة الرئيسية، تلك البوابة التي كانت تؤدي إلى الفناء الخارجي المطوق بالسور . وكانت توجد بوابة واحدة فقط مفتوحة بدرجة أكثر في هذا الجزء، الداخلي المربع الشكل والم الحكم، وكان يوجد باب خلفي ضيق ومنخفض في السور الشرقي، يغلق من أعلى بواسطة بلاطة ضخمة من الحجر . وكانت الأبراج الأربع المشيدة في أركان القلعة قوية ومتراسكة ومبنية بشكل يشير لاعجاب ، بيد أنها لم تكن عالية (كان ارتفاعها حوالي ٢٠ متر) وذات انحدار خفيف ، ومكسوة بنحط معماري جميل وهو (السرة) والتي كانت عبارة عن مجموعة من الأحجار في شكل حلبة معمارية ناتئة ، وكانت هذه الأحجار مشطوفة وناتئة ومستوية للأركان ، وكانت هذه الأبراج ذات الشكل الرباعي تشيد فوق هذا المنحدر الخفيف، وكان ارتفاع البرج يصل إلى طابقين . وقد وجد في كل برج من الداخل سلم يؤدي إلى الطوابق العلوية . وكان الغرض من هذه الأبراج البارزة تقوية الأسوار (وتلك كانت ميزة إضافية لهذه الأبراج)، بصورة أكثر عن كونها وحدات دفاعية مستقلة، وبواسطة هذه الأبراج الناشئة والتي كانت على مسافة قصيرة من بعضها البعض (كانت المسافة بين كل برج وأخر حوالي ٣٥ متراً) استطاع الصليبيون أن يجدوا جانباً لاطلاق قذائفهم وسهامهم على الأعداء، الذين يهاجمون القلعة الداخلية . وعلى الرغم من ذلك، فإن ثمة شك حول ما إذا كانت الأسطح المريعة للأبراج (كانت مساحة سطح البرج ٤ م × ٤ متر) قادرة على أن تفسح مجالاً كافياً لاطلاق القذائف الصليبية الثقيلة.

كانت الأسوار السميكة للقلعة الداخلية المركزية (كان سمك السور ٣ متر) يطوق الفنانة الداخلية للقلعة (وكان طول ضلع الفنانة المربع الشكل حوالي ٢٢ متر) . ولم تستطع صروف الزمن أن تقضى على جمال هذه القلعة وهدوئها الساحر . وثمة حقيقة ذكرناها آنفاً وهي أن سكان هذه القلعة لم يرتدوا لباس الحرب أربعاً وعشرين ساعة في اليوم . وكان الفنانة الداخلية

للقلعة يفتح من ناحيتي الشمال والجنوب، وذلك من خلال البوابات الثلاث الموجودة في كل جانب ، وكان الفناء يفتح على الحجرات الداخلية للقلعة. وما يذكر أن هذا المكان كان مطروقاً بأسوار طويلة وضيقة مستطيلة الشكل ($٤\text{ متر} \times ٣,٥ \text{ متر} \times ١٠ \text{ متر}$) ، وقد اشتمل مبني القلعة على مخازن واسطبلات وحجرات خدمة . وكان المطبخ يقع في الجزء الجنوبي من القلعة ، بالقرب من الباب الخلفي الصغير. وكانت هناك ثلاثة أفران متفرحة كبيرة تتصل بحجرة الطعام القريبة ، وكان الطهاة يحصلون على المياه الازمة للطهي من صهريج يوجد في السور الداخلي للقلعة.

ومن المحتمل أن حجرات إقامة فرسان القديس جون (الإسبتارية) كانت فوق الدور الأرضي. في الجزء الغربي من السور الداخلي للقلعة تحول مبني كبير إلى غرفة فناء متناسق ، وفي الركن الجنوبي الغربي أضيفت حجرة كبيرة، مزودة بأحجار مصقوله بشكل جميل الأمر الذي يجعلنا نعتقد بأن هذه الحجرة ربما كانت حجرة طعام، أو كانت مبني ملحق بكاتدرائية أو مقر الكنيسة الصغيرة للقلعة أو دير، بالإضافة إلى مبني مستودعين مدعماً بثلاثة أقبية وقنطر على امتداد عرض الفناء . وكانت القنطرة المركزية الكبيرة تؤدي إلى البرج الغربي حتى البوابة الرئيسية وكانت هناك مجموعة متراصلة من درجات سلم داخلي تؤدي من الفناء إلى الطابق العلوي للقلعة. ومن المحتمل كانت توجد هنا المكاتب الرئيسية للقلعة وربما أماكن إقامة محافظ القلعة. وكانت توجد هنا أيضاً بقايا كنيسة صغيرة Chapel . وكان يوجد أيضاً نقش ضئيل البروز للقديس المحب متى وأجزاء يظنهما المشاهد أنها لدخل رئيسي فخم.

وما يذكر أن القلعة الداخلية ، ببوابتها الفريدة الوحيدة، لم تشمل منافذ وفتحات أخرى، بيد أن فتحات رمي السهام كانت توجد في جدار الطوابق الأرضية والعلوية للقلعة . وكانت شبابيك حجرات الاقامة والنوم والمخازن تفتح على الفناء ذات الطراز الشرقي. وما أن تقف خارج القلعة الداخلية تستطيع أن تصلك سيراً على الأقدام إلى السور الخارجي للقلعة، حيث الفضاء المستطيل الشكل (وكانت أبعاد هذا الفضاء $١٤ \text{ متر} \times ١٦ \text{ متر}$) والذى كان يقع بين القلعة الداخلية وحجرات المخزن المقببة وبين المباني الأخرى المعدة للاستعمال ، والتي كانت جزءاً من التحصينات الخارجية . وفي حين كان السور الداخلي للقلعة مبلطاً ومرصوفاً بال أحجار ، فإن السور الخارجي لم يكن كذلك. وفي كل جهة من الجهات الأربع ماعدا جهة الشرق كانت توجد ثلاث بوابات مقببة أي على شكل قبو أو قنطرة تفتح على حجرات المخازن ذات الشكل المعقود أو المنظر والتي تنتهي إلى خط الدفاعات الخارجية .

لقد كان مبني القلعة ذا شكل خماسي، وذلك لأن سورها الشرقي كان يضم جزأين متقاطعين متساوين. وكانت الزاوية البارزة للبني قند للأمام عن طريق البرج الشرقي الكبير. وكان الجدار بين البرجين يشمل أبراجاً رباعية الأضلاع في كل ركن وبرج اضافي في مركز ووسط كل جانب . وكانت دعامة السور تظهر مكسوة بالأحجار من جميع جهاتها وتتجلى جودة الصنعة في هذه التكسية. وكانت عملية التكسية بالأحجار هذه أساسية في منحدرات كل الأبراج ، كانت تستخدم الأحجار في بناء القلاع. وكانت ثلاثة من الأبراج السبعة (والتي كانت تقع في الجنوب والغرب) لديها أبواب ومرات خلفية سرية تفضي وتؤدي من الخندق خلال سلم على شكل حرف L إلى مستوى حجرات المخازن والمستودعات . وكان تشيد هذه الأبواب ممتازاً : إذ كان منحدر البرج يخفى الفتحات الضيقة وكان ظل هذه الفتحات الضيقة يحجب المدخل بشكل كامل. وكانت هذه الأبواب المخصصة للهجوم تواجه جزءاً من السهل الواسع المرتفع وعند هذا الجزء كانت تستخدم أدوات الحصار ضد القلعة، وهكذا كان باستطاعة المدافعين عن القلعة أن يستولوا في الوقت المناسب على أدوات الحصار وأن يدمروا القوات المحاصرة .

وكان منحدر الأبراج يصل إلى مستوى سطح أرض التحصينات الخارجية . ومن هنا كان يظهر ويبرز جزء من جدار بين برجين والبرج في شكل عمودي . وكان عمق الخندق يتراوح ما بين ١٢-١٠ متر وينبغي أن نضيف الائتمان عشر متراً هذا إلى ارتفاع الأسوار. الخ إذا كان ارتفاع السور الحجري يزيد عن عشرين متراً ويبرز من قاع الخندق إلى جدار البرج المزود بفتحات لاطلاق السهام، مع إضافة ٤-٢ متر للقمة ومتراس جانب الأبراج .

وكانت الأسوار الخارجية وأبراجها تطل على الخليج الحالى من الماء للقلعة، وكان عمق هذا الخندق يتراوح ما بين ١٢-١٠ مترًا واتساعه حوالي ٢٠ متراً وكان السهل الواسع المرتفع منحوتاً من الصخر البازلت ، وهو عمل هندسى مهم فى حد ذاته، وكانت هذه الأحجار الصخرية البازلتية تستخدم عادة في بناء القلعة. وقد أظهر اتقان صنعة جدار الخندق الخارجي مهارة البناءين . وكان الخندق يتقاطع في موضعين فقط، ويمكن الدفاع عنهم بشكل جيد. وفي جهة الغرب كان يمتد جسر فوق الخندق ، وذلك على مقربة من مركز البرج القائم في الركن الجنوبي الغربي والبرج القائم في منتصف الجانب الغربي . ومن المرجح أن الجسر لم يكن بناء دائمًا ، بل كان عبارة عن بناء على شكل دعامات أنقبة خشبية يمكن حرقها أو تحريكتها وقت

الخطر. وهنا كان اتساع الخندق حوالي ٢٠ مترا، ومن الواضح أنه كانت توجد هناك دعامة أو مبني مشابه في وسط الخندق لكي تحمل الجسر أو القنطرة ، وكان يمكن الدفاع عن هذه القنطرة بسهولة وذلك من كل الأبراج المجانبية والفتحات المخصصة لرمي القذائف وهي الفتحات الموجودة على جانبي القنطرة ، وعلى أحد جانبي القلعة كانت القنطرة تفضي مباشرة خلال بوابة ضيقة إلى الحجرات المقببة الواقعة في الستر الخارجي ومن هنا كانت تفضي إلى السور الخارجي للقلعة .

وكان البرج العظيم يمثل الوحدة المعمارية الثالثة من وحدات بناء القلعة ، حيث كان يقع في الجزء الشرقي من القلعة ، وكان يعتبر من الناحية الطبيعية أقوى نقطة في القلعة حيث يطل على المنحدر شديد الانحدار ووادي نهر الأردن الذي ينخفض عن سطح البحر بحوالي ٤٥ مترا، وقد اختار الصليبيون الحافة الشرقية للسهل الواسع المرتفع (Plateau) وكانت هذه الحافة الشرقية للسهل أقوى جزء في تحصيناتهم ودفاعاتهم . ويبدو أن هذا غريبا حتى نعرف أن هذا البرج قلما كان يؤدي وظيفته بسبب الطبيعة وكانت الأشياء المحيطة به محكمة الاغلاق عن طريق المنحدر الشديد الصناعي ، الأمر الذي جعل منه مشابهة مكان آخر وملاذ . وكان البرج العظيم يستطيع أن يقاوم الحصار طويلاً الأمد، حتى ولو سقطت الأجزاء ، الأخرى من القلعة . ومن الناحية الوظيفية كان هذا البرج العظيم يعتبر برجاً حصيناً يتحرك من المكان التقليدي عند مركز القلعة أو عند جانبها الأضعف الواقع خلف خط الأسوار الخارجية ؛ ويستطيع المرء أن يقارن بين هذا البرج وبين برج حصين يرجع إلى عصر سابق عن الوجود الصليبي ، وكان هذا البرج متصلاً بالتحصينات الخارجية برباط غير محكم ولسوء الحظ فإن هذا الجزء من التحصينات قد أصابه الدمار بشكل كامل، ويستطيع المرء أن يحدس فقط بالمكان الأصلي لهذه التحصينات ولكن نقيم الوظائف الحرية لهذه التحصينات بشكل صحيح فإنه يجب علينا تتبع ارتباط البرج العظيم بالتحصينات الشرقية للقلعة ، وعلى الرغم من وجود مثل هذه الرابطة وهذا الارتباط بشكل واضح، فإن هذا البرج العظيم كان تقريباً وحدة دفاعية مستقلة بذاتها . وبينها كانت عملية الاختراق من خلال الأسوار الخارجية للقلعة تؤدي بالعدو إلى الظهور المفاجيء، أمام القلعة الداخلية مباشرة، ويستطيع هذا العدو المهاجم أن يستقطع القلعة الخارجية والداخلية فإن البرج العظيم خلال تلك الظروف يظل سليماً لا يصاب بسوء من جراء هذا الهجوم المفاجيء ضد القلعة. وعلى الجانب الآخر، فإنه من المستحيل أن نرى أي دور

دافعاً للبرج العظيم. إذ كان سطح البرج العظيم أقل ارتفاعاً من أسوار القلعة ، ومثل هذا يعتبر موضع شك ، وهكذا فإن هذا البرج لا يمكن اعتباره بمنابعه مبني قدر له أن يقوى ويؤازر الجانب الأضعف من القلعة ، ولكن هذا البرج كان بمنابعه الملاذ والملتجأ الأخير لحماية القلعة في حالة سقوطها بيد العدو المهاجم .

لقد شيد الجزء الشرقي من القلعة على شكل أخدود طبيعي منحدر ، بيد أن سطحها المستوى عند القمة كان يشيد لكي يشكل فضاء عند مركزها إلى مسافة معينة من البرج . وكان البرج الضخم عبارة عن صندوق كبير مستطيل الشكل (طوله ٣٠ مترًا × عرض ١٨ مترًا) ويفتح خاليًا من التعبير المعماري في الجهة الرئيسية إلى الشرق ، ولكن يلاحظ على كل طابق من طوابقه وجود فتحات على جدران هذه الطوابق لاطلاق القذائف والسهام على العدو. وكان هناك باب خلفي صغير في شطره الجنوبي يؤدي إلى فضاء مفتوح حول البرج. وكان البرج يتصل بالقلعة الرئيسية من جهة الركن الشمالي الشرقي ، حيث كان يوجد سلم على شكل حرف L يقود خلال غرفة معقود (مقنطر Vaulted) بين الأسوار إلى الركن الشمالي الشرقي وأبراجه المزدوجة . وكان يمكن إغلاق هذا المرفى أوقات الخطر ، وهكذا كان يمكن عزل وفصل البرج بشكل كامل.

كان اتساع الطابق الأرضي للبرج العظيم ، يزداد عن ٥٠٠ مترًا مربعاً ، إذ كان الطابق الأرضي للبرج عبارة عن صالة ضخمة كبيرة تنقسم إلى صحنين بواسطة صف من الأعمدة القائمة . ومن الممكن أن تخيل أن مبني البرج المكون من طابقين كان ارتفاع الطابق الأسفل منه يعادل ضعف ارتفاع الطابق الأعلى ، وبقيتاً كانت فتحات الرمي الموجودة على جانبي طوابق المبني أقل أهمية من تلك الفتحات الموجودة على سطح البرج ، هذه الفتحات التي كانت تفسح مجالاً واسعاً للعمل أمام رماة السهام والمنجنيق والمدافعين عن القلعة . فإذا أقام أي عدو معسكره أسفل هذا المنحدر للبرج العظيم فإنه يصبح هدفاً سهلاً أمام القذائف الصليبية ، حيث كان من السهل اتخاذ موقع دفاعي في المنطقة المحيطة بالبرج وفي المداخل الشرقية للقلعة (وهي التي تبعد عن البرج بحوالي ٤٠ مترًا) .

ففي الجهة الشرقية من البرج كان يوجد نظام متقن ومحكم من المداخل المؤدية إلى القلعة. وفي الجهة الجنوبية الشرقية كان يمكن الدفاع عن فرقة من الجيش الخماسي وذلك عن طريق خط ثلاثي من الدفاعات والتحصينات المشيدة ، وكانت الجهة الخارجية عبارة عن سور مصمت ،

وبليه وعلى مسافات متساوية (٥ أمتار) صفان متوازيان من الأسوار المزودة بفتحات لاطلاق القذائف ، وكان هذان الخطان من الأسوار يتصلان وبتقسيمان في الجنوب عن طريق مدخل البرج القوي المشيد في أحد زوايا القلعة . ومن هنا كان يوجد بمر بؤدي إلى بئر صغير، يقع إلى الجنوب من القلعة بحوالي ٥٠٠ متر . وعلى الأرجح فإن هذا المر كان يؤدي أيضا إلى وادي نهر الأردن وإلى جبل عوف عبر الأردن . وهنا كان يقام جسر فوق الخندق أسفل البرج القوي المشيد في الجهة الجنوبية الغربية . وكان هناك سلم صغير على شكل حرف L يصل بالشخص من خلال منعطف إلى بrama قنطرية الشكل . هذه البوابة التي كانت تغلق بواسطة اثنين من الأبراب (وكانت هذه البوابة تحفظ جيداً بفتحات للمحاربين وثقوب مفتوحة لرمي القذائف) ، بيد أن كل هذه الفتحات والثقوب كانت تغلق أيضاً بواسطة شعرية حديدية (كانت تحكم مدخل الحصن من الداخل) وهي الشعرية التي كانت تنحدر إلى ثلمات (أخدود) من برج الهجوم المربع الذي يعلو البوابة . وكانت البوابة تؤدي إلى الحجرات المقibia داخل أسوار القلعة أو إلى فضاء يتصل بالسور الخارجي للقصر . ويبعد أن المدخل المؤدي إلى بوابة الأسوار الواقعة في الركن الشرقي من القلعة كان متقناً ومحكماً . وكان هناك باب خلفي أو بوابة صغيرة وسلم على شكل حرف Z يؤدي إلى القلعة الداخلية بين الأبراج المزدوجة . وعند هذه النقطة الأساسية، فإننا نتردد في أن نعزّو وظيفة أو مهمة محددة لهذا المدخل إلا إذا سلمنا بوجود قنطرة أخرى عبر خندق أو وجود طريق يؤدي من وادي الأردن إلى القلعة . فإذا كان المدخل الرئيسي يستخدم لغرض معين فإنه يمكن أن نفترض هنا أن المدخل الرئيسي المؤدي للقلعة كان أكثر أهمية من ذلك المدخل المرجور في الجهة الأخرى من القلعة وذلك إذا كان هذا المدخل الرئيسي قد خصص لغرض معين . وكانت الطرق والبوابات المؤدية إلى هذه المداخل توجد في موقع بحيث تكون القلعة على يمين أي شخص يدخلها (وتعتبر قلعة مونتفورت خير مثال لذلك) وهذا الموقع خلق عقبة وعائقاً أمام العدو المهاجم الذي يهاجم القلعة من الجهة اليمنى .

قلعة مونتفورت Montfort

قتل قلعة مونتفورت فنودجاً جيداً من أنفاس التحسينات والدعوات الصليبية حيث ساهمت

* مونتفورت : جاء، أول وصف علمي دقيق لهذه القلعة على يد أمين متحف الفن بنودورك ، وذلك بعد أعمال الحفائر الأثرية التي أجريت في مكان القلعة في عام ١٩٢٦ .

الطبيعة كثيراً في تقويتها . وإذا كان المعماري الذي صمم ونفذ قلعة بلفوا Belvoir قد مارس عمله هذا بحرية مطلقة من حيث تصميم المبني، وتحديد شكل وحجم مبني القلعة، فإنه من المؤكد أن الحال قد اختلف بالنسبة لتصميم قلعة فرسان التيوتون في مونتفورت . وببداية يمكن القول أن موقع قلعة مونتفورت قد اختير بشكل لا يتفق أو يتناسب مع الأهمية الاستراتيجية لهذه القلعة، إذ أن هذا الموقع لم يجعل منها حامية عسكرية كبيرة، ولم يجعل منها أيضاً قلعة تتحمل حصاراً طويلاً الأمد . فقد حصل فرسان التيوتون على هذه القلعة التي كانت تقع في مكان منعزل عن مدينة عكا . إذ كانت هذه القلعة تقع وسط عدد من الاقطاعات والضياع في تلك المنطقة القريبة من المقر أو البيت المحمص عند معلية Chateau de Mililay (قلعة الملك Roi) وهي القلعة التي اختير موقعها بشكل فعال . وأخيراً فإن موقع قلعة مونتفورت هو الذي حدد مصيرها .

ومن الوادي العميق عند سفح هذه القلعة يستطيع المرء أن يصبح في مواجهة مقدم سفينة عملاقة تخر عباب النهر خلال تلال الجليل الخضراء . وكان هناك منحدر شديد يربز من قاع نهر قورين Qurein فوق مستوى سطح البحر بحوالي ١٨٠ متر ، وكان هذان الواديان يتقاطعان عند النهاية الغربية الضيقة لهذا الوادي الواقع عند سفح قلعة مونتفورت ويغلقان أنف الجبل في الشمال والجنوب . وقد بدأ فرسان التيوتون تشييد قلعتهم هذه (مونتفورت Montfort على هذه السلسلة من التلال والجبال وذلك في الفترة من ١٢٢٦ إلى ١٢٢٩ م.

لقد جاء التصميم المعماري لهذه القلعة لكي يتغلب على تلك المشكلة العريضة المتعلقة بتزويد مبانيها ببناء على قمة الجبل . ويبدو أن الأموال الازمة للبناء لم تكن وفيرة . لقد كان هناك العديد من المباني الصليبية التي شيدت من الأحجار الفقيرة واستخدم الجير في طلاء الأجزاء الداخلية الخشنة منها وكانت قلعة مونتفورت نموذجاً لهذه المباني الحجرية الصليبية الفقيرة . وأن ما حدث بشأن تعديل التصميم المعماري الباكر لهذه القلعة والذي كان الغرض منه مواجهة المتطلبات الجديدة كان أكثر تهراً ولا يتفق جيداً مع التقليد الألماني . ومن اللافت للنظر أن امكانيات قلعة مونتفورت كانت مترابطة تماماً إذا ما قورنت «قلعة الحاج» الضخمة وهي القلعة المعاصرة لها . ومع ذلك ، فإن بعض أجزاء قلعة مونتفورت قد شيدت من الأحجار الجيدة ، الخ . وكانت القلعة تقع في أقصى الشرق وكانت الأجزاء المكسوة بالأسمنت تقع على المنحدر الجنوبي، وربما عانى القائمون على تشييد هذه القلعة من نقص في الأموال الازمة

للبناء، أو أن الأجزاء المعرضة للهجوم من هذه القلعة لم تجد الاهتمام اللازم مثل باقي أجزاء المبنى.

كان موقع قلعة مونتفرت منفصلًا عن أنف الجبل، وإلى الشرق من هذا الموقع كان يوجد خندق عميق واسع ينقطع مع الجبل. وهكذا كانت قمة الجبل معزولة ومنفصلة ومبتدة ذات انحصار بسيط، وكان طول هذه القمة حوالي ١١٠ متر وعرضها ٢٠ مترًا × ٣٠ مترًا . ولم يستطع فرسان التيوتون أن يشيدوا قلعتهم في قمة سلسلة الجبال الأمر الذي جعل قلعتهم تعوزها القدرة على الدفاع مثل أي حصن قوي.

وهكذا فإن الميزات الطبيعية هي التي اضطاعت بشكل فعال بهمة الدفاع عن هذا المكان . إذا كان الخندق الضخم الموجود أسفل الحصن يقوم بحماية الجزء الشرقي من القلعة . وإضافة إلى ذلك ، فإن حجم العمل الضخم قد شارك في تقوية المنحدرات الجنوبيّة والشماليّة للهضبة . وقد استخدم فقط معماريّ جيد في عملية تكسيرها بالحجارة ؛ إذ كانت الأحجار المستخدمة في التكسير ذات «أحجام كبيرة ومحدية الشكل لكي تعرق عملية التسلق والصعود إلى القلعة . وكان الآجر (الترميم) الذي يغطي سقف القلعة متداخلاً لكي يصعب عملية تسلق القلعة . وكان يوجد بقايا سور وسط هذا المنحدر ، بيد أن ثمة شك حول ما إذا كان هذا السور قد طوق كل الهضبة وأن الوظائف والمهام الدفاعية لهذا السور غير واضحة . واننا غييل إلى الاعتقاد بأن دفاعات هذه القلعة كانت تعتمد على الساتر والغطاء الذي توفره أسوارها .

لقد كان مبني الحصن يعلو الطابق الأرضي للقلعة بـ ٤ أمتار وكان يمكن الوصول من المدخل إلى داخل القلعة بواسطة سلم قصير . وعلى الرغم من المنظر الرائع للقلعة ، حيث أحجارها الرائعة وشبابيكها المستنة المحددة ، فإن الوظيفة الحربية فقط للقلعة كانت تنحصر في حماية وحراسة جسر متحرك فوق الخندق الصناعي . ولم يكن لهذه القلعة وهذا الحصن أهمية دفاعية . وذات مرة سقطت القلعة في يد العدو ، وتجمع أفراد الحامية وتكدسوا داخل الفناء الضيق للبرج (١٣ متر × ١٠ أمتار) وأصبح من السهل أن يموت أفراد الحامية من الجروح .

وبجانب الحصن ، فإن مبني القلعة كان يشمل ثلاثة أو أربعة أجزاء ، رئيسة ، وذلك إذا ما أضفنا الطابق العلوي الذي ثبت وجوده عن طريق بقايا السلم . وعلى الأرجح فإن الطابق الثاني لمبني القلعة كان يستخدم أماكن للسكنى والمبيت وأيضاً مكاتب إدارية لحامية القلعة . وكان التحرك من الغرب إلى الشرق يعني التحرك من شفا الكارثة (جرف) إلى الحصن ، وكان أول

ما يصادفنا خلال التحرك هي «الصالات الكبرى» وكانت هذه الصالة الكبرى أهم الأجزاء المعمارية في القلعة . وكان اتحدار قمة التل أو الهضبة عند نقطة تشكل أساساً قوياً وهو الشيء الذي تحتاج إليه القلعة من الناحية الاستراتيجية : إذ كان هناك اثنان من المجرات المقببة ذات المنظر البشع المروع، وكان سقف هاتين الحجرتين يبدأ من الطابق الأرضي للصالات . لقد كانت «الصالات الكبرى» أجمل جزء في القلعة، إذ كانت عالية البنية واتساعتها يبلغ (١٧ متر × ١٧ متر) وبتوسطها عمود مشمن الأضلاع يبلغ ارتفاعه ٣ أمتار . ومن هنا كانت الدعامات المستندة والبواں والقناطر الواقعة بين أقواسها تخرج ، وتتقاطع عند قمة العمود (١٨ متر) ، وينحدر نحو أعمدة ثلاثة مشيدة في الأركان وفي وسط كل حائط . وكانت الصالة الشامخة ، والعمود المشمن الأضلاع الضخم القائم في وسطها والقناطر الواقعة بين أقواسها مثيراً للعجب ، وكانت نسخة مطابقة لوادي القورين الشهير من الناحية المعمارية . وكان هناك باب في الحائط الشرقي للصالات الكبرى يؤدي إلى الحجرة التالية لها ، ومن المحتمل أن هذه الحجرة كانت تستخدم كمصلى أو كنيسة خصوصية صغيرة . وكانت هذه الكنيسة الخصوصية واسعة إذ كان اتساعها (طولها ٢١ متراً وعرضها ١٥ متراً) وكان لديها صحنان ، ينفصلان عن بعضهما بواسطة خط واحد من الأعمدة الصليبية الشكل . وهنا يمكن القول بأن نوعية الصناعة والعمل في هذه العمارة كان أقل جودة ، إذ أن نصف أعمدة خط التقسيم الذي يفصل بين صحن الكنيسة لم تكن تدخل في الحائط ولكنها كانت تقف حرمة بعيدة عن الحائط بطريقة غريبة ، كما أنه لم تستخدم هذه الأعمدة في تقوية حائط الطوابق السفلية من المبني ولا في تقوية الأسوار الشرقية والغربية المتوازية . ومن ثم فإن الكنيسة كانت على شكل شبه منحرف .

لقد صمم الجزء الثالث من القلعة لكي يكون بمثابة كنيسة صغيرة The Chapel ومن ثم فإن هذا الجزء كان مقسماً إلى حجرات صغيرة مبنية بشكل غير متقن ، وكان التصميم الأصلي لهذا الجزء يجعل السور الجنوبي للقلعة بمثابة السور الداخلي للحجرات وأيضاً بمثابة سور موازي لذلك السور المшиيد ناحية الشمال . وكانت مساحة سقف هذه الساحة الرباعية للكنيسة (٢٣ متراً × ٧ أمتار) ، وقد ارتكزت هذه الساحة الرباعية للكنيسة على أقواس معمارية مستندة وركائز تقام على أربعة أعمدة عليها حروف مسمارية في وسط سقف هذه الساحة الرباعية الروايا ، بالإضافة إلى أربعة أعمدة نصف متداخلة على امتداد الأسوار .

وهكذا كانت القلعة مكونة من ثلاثة وحدات معمارية رئيسية، وكانت هذه الوحدات والأجزاء منقسمة، ولاشك أن هذا الانقسام كان بفعل الظروف الاقتصادية. وكانت هذه الأجزاء، الرئيسية لمبني القلعة مطروقة بالأسوار، وكانت الحاجز الحجري تقسم اثنين من الوحدات الرئيسية لمبني القلعة إلى خمس حجرات صغيرة وهي الحجرات التي كانت تستخدم في الإقامة والمبني . ومن المحتمل أن الحجرة الشرقية التي احتفظت بحجمها الأصلي قد استخدمت كمطبخ للقلعة . وكان الجزء الشمالي لمنطقة القلعة يؤدى مهمة الاتصال بين شرق القلعة وغرتها بالإضافة إلى القيام ببعض المهام اليومية والحياتية لسكان القلعة . ويعkin التثبت من هذا من خلال البثر الذي كان يحتفظ بعوضين لعصر الزيتون، وقد كشفت الخفائر الأثرية التي أجريت في الجهة التي كان يوجد بها مطبخ القلعة عن وجود ورشة للحدادة.

وكان يوجد وراء منطقة القلعة هذه نوع من المدخل المستوف والمبلط ويتصل سلم يؤدى إلى المصن . وقد اكتشف أن الطرف الجنوبي لهذا المدخل المستوف كان يحتوى على بوابة تؤدى إلى المنحدر الجنوبي للقلعة وريا إلى المعر الذى ينحدر من القلعة إلى أسفل الوادى.

قلعة الحاج

لقد قام فرسان الداوية - وبمساعدة مواطنיהם القادمين - ببناء قلعة عند منطقة عثليت، وذلك قبل أن يبدأ فرسان التيوتون فى بناه، قلعتهم عند موئذنة بـ عشر سنوات، وكانت قلعة الداوية عبارة عن نتوء جبلى بارز داخل البحر يقع بين حيفا ويافا، وهنا استطاع فرسان الداوية أن يشيدوا قلعة من أعظم وأهم القلاع التى شيدتها الصليبيون فى منطقة الشرق العربى الإسلامى، وقد عرفت هذه القلعة باسم قلعة الحاج، وهو الاسم الذى يدل على تفوق وكمال بناء هذه القلعة. وكان بناه هذه القلعة يتافق تماماً مع الفترة التى شاهدت تنامى الضغط الإسلامى على امتداد الحدود المنكمشة والتقلص للملكية الصليبية الثانية والتى اعتمد وجودها وبقاوها بشكل أساسى على المدن الساحلية المحسنة . ويحلول عام ١٢٥٢ م حاول الملك الفرنسي لويس التاسع تحصين المدن والقلاع الصليبية على ساحل البحر من صيدا فى الشمال إلى يافا فى الجنوب، وذلك بواسطة حزام ونطاق من الأسوار الحجرية.

وما يذكر أن طريقة حل المفصلات المعمارية والعسكرية فى تشييد قلعة الحاج يكشف عن براعة وموهبة الصليبيين المعمارية فى أعلى ذراها، ويشهد على ذلك الأطلال والبقايا المعمارية

لهذه القلعة - والتي أصبحت علامة حدود لسهل شارون - والتي تؤكد براعة الصليبيين في مجال الحسارة العسكرية، وهي المهارة والبراعة التي تتفوق على مالدي الآخرين . ويمكن مقارنة القلعة الكبيرة للداوية عند صفد والتي شيدتها فرسان الداوية قبل جبل من بناء قلعة الحاج بقلعة الحاج . بيد أنه من المؤسف أن قلعة صفد قد اختفت تحت بنايات وانشآت قلعة الحاج وقد كشفت الحفائر الأثرية التي أجريت في موضع هذه القلعة عن مقارنة فقط بين البقايا المادية لقلعة السابقة (قلعة صفد) والأوصاف التي ذكرتها المصادر التاريخية الأدبية لقلعة اللاحقة (قلعة الحاج) .

وقد تحدد شكل معظم بناء قلعة الحاج من خلال وجود نتوء جبلي داخل البحر مربع الشكل يحيط البحر من ثلاثة جوانب ماعدا جهة الشرق، وتحكم فيها هضبة صغيرة دائرية تقع في وسطها، وكان طول هذا النتوء الجبلي حوالي ٢٨٠ مترًا وعرضه حوالي ١٦٨ مترًا (وهي الأبعاد القصوى) وكان ارتفاع الهضبة حوالي ستة عشر متراً . وقد تم بناء كل هذا المنطقة (والتي يبلغ مساحتها حوالي ١٢ أكر أي ٤٨ ألف متر مربع) في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي، على الرغم من أنه في البداية كان من المتصور أنه لا يمكن تشيد أكثر من ربع أو ثلث مساحة هذه المنطقة التي شيدت بها قلعة . وثمة شك حول ما إذا كان التصميم الأصلى لهذه القلعة مزوداً بحصن مطوق لسور مزدوج . وقد شيد الخط الثاني من خطوط الدفاعات (ماعدا الجهة الشرقية) بعد بناء القلعة ، ولم يكن الغرض من بناء هذا الخط العسكري ، ولكن بسبب الحاجة الملحة لمكان اضافي للإعاشة والسكنى وقد أصبح هذا مطلبًا ملحًا ولاسيما عندما تقلصت حدود المملكة الصليبية الثانية حوالي عام ١٢٥٠ . وعندئذ أصبحت الحياة والأمن شيتين متزادتين وقد وضعت حلول لهاتين المفصلتين بشكل متزامن.

ويكفي مناقشة النظام الدفاعي لهذه القلعة من خلال ثلاثة أوجه : الأول وهو الدفاع عن الجزء الشرقي المعرض للخطر ، والثانى هو الدفاع عن الجناح الداخلى ، وأخيراً الدفاع عن الانشاءات والبنيات الداخلية الإضافية والمقاومة حول خط الأسوار الخارجية لقلعة.

وكما ذكرنا آنفاً، فإن كل مهارة وبراعة المعماريين من الداوية قد ترکت في الجزء الشرقي من القلعة . وهنا لم تبرز الأرض المسطحة ولم تظهر فوق مستوى سفح البحر القريب والمجاور . وهكذا فإن المشكلة والمعضلة العسكرية الرئيسة كانت تمثل في كيفية وامكانية إغلاق قمة الجبل الداخلة في البحر عن المنطقة المحيطة بها . ومن الواضح أن خندقًا صغيرًا لم يكن

كافيًا ، وذلك لأن السهل المفتوح الواقع وراء القلعة وخلفها كان يمثل خطرا على القلعة إذ كان مكانا استراتيجياً ممتازا للعدو - على الرغم من أن خندقاً جيداً كان كافياً لإعاقة هجوم العدو المباشر على الأسوار بواسطة الكباش التي تدك الأسوار . وهكذا فإن الدفاعات والاستحكامات كانت تعمل بنجاح متمثلة في أدوات مثل الخندق ، والأسوار القوية ، وخط البرج الذي كان يمكن المدافعين من استخدام كل الواجهة والجهة المتعددة والطويلة (والتي طولها حوالي ٢٠٠ مترًا) كقاعدة متعددة الصور لاطلاق السهام والمنجنيق . وهكذا فإن خط الأسوار الثاني في الجهة الشرقية كان يقوم بمهمة مزدوجة : الأولى كانت تقوية خط النار الأول ، والمهمة الثانية هي أن يصبح حصناً رئيسياً للدفاع في حالة سقوط خط الدفاع الأول في يد الأعداء .

وفي المنطقة المغلقة والواقعة بين جدار الخندق الخارجي المكسو بالأحجار والسور الأول ، كان يوجد خندق يمتد من الشمال إلى الشاطئ الجنوبي بمسافة تصل تقريرًا إلى ٢٠٠ مترًا . وكان جدار الخندق الخارجي يتصل بالبحر عند كل من الحافتين الشمالية والجنوبية ، وهكذا ساهم هذا الخندق في منع وعاقة قوات العدو من اجتياح القلعة خلال المياه الضحلة وخط الدفاعات الرئيسي والقريب والذي لا يمكن اختراقه .

وكانت هناك بروابitan معقودتان (على شكل قوس ⚜) في الجدار الخارجي للخندق تؤديان إلى مدينة صغيرة نشأت عند سفح القلعة وذلك خلال مر ضيق .

وكان اتساع الخندق ١٨ مترًا ، ومن المؤكد أنه كان جافاً خالياً من الماء (مع أنه في موقف مشابه في مدینتي صور وقيسارية ، كان ماء البحر يستخدم في تزويد الخندق بالماء) وكان هذا الخندق يمتد إلى حائط السور إذ كانت الأبراج تبرز مباشرة من قاعدتها . وكان الشكل غير المألوف والأكثر غرابة في التحصينات والدفاعات الصليبية هو أن السور والبرج كانوا لا يحتويان على منحدر . ونظراً لأن «قلعة الحاج» قد شيدت فوق أرض مسطحة قريبة من البحر ، فإن العدو كان يستطيع أن يهاجمها من ناحية البحر مباشرة وهكذا فإنه لم يكن هناك حاجة لوجود منحدر ، وكان الحجم والضخم للأسوار الخارجية والأبراج يجعل من عملية إحداث خفر تحت أساسات هذه الأسوار لتقويضها غير ذات جدوى .

ولم توجد قنطرة فوق الخندق وكان حرس القلعة وحراسيتها يرصدون بأعينهم حركة أي شخص يتتحرك صوب الخندق أو من يتحرك خارجه ، أو أي شخص يتتحرك صوب إحدى البوابات الثلاث للأبراج المقاومة في السور الخارجي وكان هذا السور مشيداً من أحجار معدة

بشكل جميل . وبعض هذه الأحجار ذات أحجام ضخمة مثل بناء معبد هيرودس في مدينة بيت المقدس . وكان هذا السور يمتد على طول امتداد شقة الأرض الضيقة . وكان ارتفاع كل برج من الأبراج الثلاثة ١٦ متراً ، وهي الأبراج التي كانت تقع على امتداد الحصن بشكل متناسق ، ومثل هذه الأسوار الخارجية كانت تعمل كمراكز أمامية لمقاومة العدو وصده . وكانت المداخل المزدوجة تقع داخل الأسوار رباعية الزوايا والأبراج الثالثة . وكانت الفتحات الأمامية المنتشرة على الأسوار بثابة فتحات وثقوب متقدمة لاطلاق السهام والقذائف على العدو، إذ كان يوجد عشرون فتحة على كل شرفة خارجية للجدار من الشرفتين التي تعلو بعضهما الأخرى والمركبتين فوق بعضهما . وكانت هذه الفتحة (الكرة) الموجودة في جدار الحصن تتسع لاثنين من المحاربين يعملان في وقت واحد ، بحيث يستطيع أحد المحاربين أن يطلق سهمه في حين كان المحارب الآخر يعد القذيفة الأخرى ويصبح جاهزاً لاطلاق سهمه هو الآخر وهكذا كان في الامكان اطلاق أربعين قذيفة في وقت واحد من الخط المزدوج للأسوار والأبراج . وكانت المسافة بين وسط القلعة وبين خط الأبراج تبلغ تقرباً ٤٦ متراً، الأمر الذي كان يضمن فعالية القذائف التي تنطلق من الفتحات المزودة بها الأبراج ومن الفتحات الموجودة على سطح الحصن. لقد كان من الصعب الدفاع عن البوابات المستنة للأبراج . إذ كان يمكن رفع وخفض الأبراج المزدوجة وكذلك الشعرية الحديدية التي تحمى مدخل الحصن وذلك بواسطة رافع توجد في الطابق الثاني للقلعة، وعندئذ يصبح المدخل مكشوفاً وتصبح أرض المعركة المواجهة للبوابات مكشوفة أمام فتحات القذف الموجودة في الطابق الأول ، وأحياناً كانت هذه الفتحات في شكل كسوات حجرية ناتئة من جدار الحصن . وهكذا فإنه من السهل أن تتيقن تماماً من حقيقة أن معماري هذه الفترة كانت لديهم المعرفة الكاملة بجيبل وخدع المعركة وال الحرب، وذلك من خلال التصميم المعاصري الذي لم يلبِ حاجة ترتيبات واستعدادات المعركة .

ويستطيع المحارب بعد أن يجتاز منعطافاً حاداً على شكل حرف "L" من جهة بوابة البرج أن يظهر للعيان إلى خارج الفناء الخارجي المسور للقلعة وذلك بعد أن يجتاز زقاقاً طويلاً وواسعاً (طوله ١٨ متر وعرضه ١٠ أمتار في مواجهة الأبراج الكبيرة) عبر شقة الأرض الضيقة . وكان الخط الثاني من الأسوار أقل ارتفاعاً بنسبة بسيطة من أسوار الخط الثاني، وذلك بسبب قنة الجبل الضيقة . وعلى النقيض ، فإن الجزء المركزي للسور بين الأبراج الكبرى كان أكثر سماكاً من السور الخارجي، وكان هناك ثغر في داخل الأسوار يسمح بحرية الحركة للفارس من خلال نفق طويل معقود ومكشوف .

لقد كان الخط المزدوج من الأبراج الضخمة يعتبر جزءاً متمماً لدعائات القلعة، وبالإضافة إلى ذلك فقد كانت هذه الأبراج تستخدم كاماكن اقامة للسادة الاقطاعيين. وكانت المنطقة الواقعة خارج الطابق الأرضي خالية وكان الطابق الأول مزوداً بشقوب وفتحات لاطلاق القذائف على العدو وكانت هذه التقويب تغطي السور الخارجي للقلعة . وكان الطابق الثاني للقلعة يبدأ عند مستوى ارتفاع السور الخارجي لها ، وقد تميز بأنه بناء معماري ضخم . ومن هنا كانت الأسوار تبرز بارتفاع ١٦ متراً ، وكانت قمتها المسطحة تستند على دعامات معقودة تبدأ من عمود قوي يوجد في وسط المكان. وكانت دعامات العقود والأضلاع المساعدة تستند على أعمدة تستخدم كحواميل في الأسوار. وقد بنيت هذه الأعمدة (الحواميل) في البرج الشمالي الكبير وكانت هذه الحواميل تنحني مع مقدمات وقمن أحاديث توجد على الجوانب وكانت توجد ثلاثة أعمدة حاملة في الوسط. وبيانياً أن هذه الحجرات الفخمة كانت تستخدم في عقد الاجتماعات الخاصة بالمحفلات والمواعظ الدينية وفي حالات الاستقبال . وكان يعلو هذه الحجرات شرفة مزودة بفتحات لاطلاق القذائف على العدو وذلك لحماية رماة السهام والمجنحين. ولما كان ارتفاع قمة الأبراج والسور المتصل بها يبلغ حوالي (٣٤ متراً) وكان هذا الارتفاع يعلو السور الأول الخارجي بستة عشر متراً، فإن أفراد حامية السور الثاني كان في استطاعتهم أن يطلقوا سهامهم بحرية تامة في وضع أعلى من رؤوس أفراد حامية السور الأول دون أن يصاب أحد من زملائهم . وبالإضافة إلى ذلك ، فإن الأبراج الكبيرة كانت منتظمة في سلسلة بين ثلاث بوابات خارجية لهذه الأبراج ، هذه البوابات التي كانت تكفل غطاء المنطقة الواقعة أمام القلعة ببابل من القذائف على العدو المهاجم .

وكان يوجد خلف هذه الدعائات المحكمة تل أو هضبة ذات ارتفاع منخفض يبلغ ارتفاعها حوالي ١٦ متراً، وكانت هذه الهضبة بثابة منطقة حماية داخلية للقلعة . وعلى الرغم من ارتفاع الطابق الأول للأبراج الكبرى ، فإن هذا الطابق كان عبارة عن ساحة فسيحة رباعية الزوايا أبعادها (١٢٨ × ٦٢ متراً) . وفي الأصل كان للطابق الأول للأبراج الكبيرة أيضا خط من الأسوار يطرق الجهات الثلاث الباقية ، ومن المحتمل أن خط الأسوار هذا كان يبطّق الأبراج الواقعة في أركان القلعة . بيد أن السور والأبراج أحسّنا أشياءً غير ضرورة، ولا سيما عندما تم إنشاء مبانٍ إضافية وراء منطقة الحماية الداخلية للقلعة . ويرغم ذلك، فإن السور القديم لم يدمّر بشكل كامل، وفي بعض الأماكن كان هذا السور يعتبر مكملاً للسور الخارجي

للانفاق الطويلة والضخمة التي كانت تحت الأرض والتي كانت تستخدم بثابة مستودعات ومخازن للمصون والعتاد . وكان الدخول إلى هذه المخازن والمستودعات عن طريق درجات متراصة من درجات سلم تنحدر من الطابق الأرضي للأبراج الكبيرة . وما يذكر أن هذه المخازن والمستودعات كانت عبارة عن حجرات تحت الأرض يبلغ ارتفاعها ١٦ متراً ، وطولها ٦٧ متراً، وعرضها ١٠ أمتار . وكان يمكن تخزين مئون لانتهاد ولا تنقض في هذه المستودعات والمخازن . وكانت عملية نقل المؤن والعتاد المخزونة من القبور الموجودة تحت سطح الأرض تتم عن طريق الفتحات الموجدة في السقوف المعقودة للمخازن وذات الشكل الاسطواني .

وكان يوجد سرداً صغير عند الحافة الغربية لمنطقة الحماية الداخلية للقلعة . وقد تم تشيد هذا المبني الطويل قليلاً والمتقوس بشكل يدل على الاهمال والتهاون ، وكذلك فإن الأسرار الشمالية والغربية لم تكن على خط مستقيم . بيد أنها كانت على شكل مثلث على نحو روى . . ويمكن أن نعزّز هذا في ضوء حقيقة أن استخدام أي سور لم يكن يتلاءم مع المتطلبات الجديدة . وكانت الدعامات التي تستند عليها ملتقي العقود المتقاء تتلاقى مع زهرة أحجار العقود المنحوتة وتنحدر إلى قدر يشبه الدعامات المثلثة الشكل وهو ذلك النوع من الداعم الذي كان موجوداً في عكا في ذلك الوقت . وكان هذا يشكل حجرة صغيرة للاحتجامات .

وكانت الكنيسة المتعددة الأضلاع تعتبر من الأبنية الرائعة الموجودة في نقطة الحماية الداخلية للقلعة ، وقد جاء النمط المعماري لهذه الكنيسة تقليداً لكنائس فرسان الداوية ، والتي كانت كنائسهم في داخل الأراضي المقدسة وخارجها تقليداً للنمط المعماري لكتسيهم التي شيدوها في نفس مكان مسجد عمر بن الخطاب في مدينة بيت المقدس في بداية الوجود الصليبي .

وكم ذكرنا آنفاً منذ قليل ، فإنه أحياناً في أثناء منتصف القرن الثالث عشر الميلادي أصبحت وسائل الدفاعات الصليبية الأصلية زائدة وغير ضرورية وذلك بسبب المباني الإضافية الجديدة . ففي منطقة شبه دائرة ممتدة من الجنوب عبر الغرب إلى الشمال ، قد شيد بها ثمانى بنايات ضخمة ، وهي البناءات التي أعطت انطباعاً بوجود خط إضافي للدفاع متعدد المركز . وهكذا كانت الدفاعات والتحصينات الصليبية تزحف صوب حافة اليابسة على شاطئ البحر . وبسبب الطبيعة الصخرية للساحل ، فإن الاعتبارات العسكرية قلماً كانت حاسمة ، ومن المحتمل أن زيادة سكان القلعة قد شجع على هذا التطور . وبهذا الخصوص فأننا سوف نذكر

بأن مدينة صغيرة قد نشأت عند سفح القلعة يسكنها العاملون في هذه القلعة وأيضا الدواجن والمواشي.

وقد نشأ عن المباني الإضافية عدداً من الأفنية والساحات الخارجية المسورة والتي كانت تتنقسم بواسطة الممرات الضيقة والميادين، ويحيط بها منطقة الحماية الداخلية للقلعة والمباني الجديدة. وعلى سبيل المثال، فإنه رأينا كان المجاز الضيق الطويل (الزنقة) القريب من القبور الشمالي يستخدم كسوقية واسطبل للخيول. وثمة منطقة مشابهة (بالرغم من أنها كانت موجودة منذ فترة باكرة) كانت قريبة من سرداد يقع عند الحافة الجنوبيّة لقنة الجبل . وهنا كان يوجد فناء مطوق بسور يتصل مباشرة بحاجز الماء الذي يحمي ميناد القلعة الصغير. وكانت منطقة المبناه منفلقة من الداخل بواسطة سور أحد المباني الكبيرة الجديدة- وهو الرواق أو القصر الجنوبي - والذي كان عبارة عن مبني ضخم مستطيل الشكل (أبعاده ٥٨ متراً × ٣٢ متراً) ، وكان ينقسم إلى صحنون ثلاثة متساوية بواسطة صفين من الأعمدة . ومن المحتمل أن هذه الصالة الواسعة (القصر الجنوبي) كانت تستخدم مكاناً لعقد الاجتماعات الدينية لرجال الدين من الرهبان والكهنة كما كانت المباني القريبة والتي تقع في الغرب والجنوب تستخدم أيضاً كحجارات للطعام مخصصة للرهبان والكهنة . وكان هناك اثنان من الأفران الضخمة بالقرب من هذه الحجارات تستخدم كمطابخ لاعداد الطعام.

لقد ساهمت الجسور الممتدة فوق الطابق الأول والممتدة فوق منطقة الحماية الداخلية وفرق بعض هذه المباني الجديدة عند الجهة الغربية الضيقة في تسهيل الاتصالات بين هذه المباني الجديدة وبين منطقة الحماية الداخلية وكانت هذه الجسور ترتفع عن سطح الأرض بعدها أميال . وما يذكر أن قلعة الحج لم تسقط على أثر هجوم عاصف، ولكنها سقطت في يد المسلمين بعد أن سقطت عكا في عام ١٢٩١ ، وفار حاميتها الصليبيين إلى قبرص .

٣- تحصينات واستحكامات المدينة

كان المفكرون الرومانسيون في القرن التاسع عشر يتصورون أن الفرسان المحاربين الصليبيين كانوا يحاربون المسلمين من خلف قلاع جبليّة مرتفعة، شاهقة مثل أوكران النسور. هذه الفكرة المشيرة الأخاذة لم تكن بأي حال مطابقة للواقع والحقيقة التاريخية . إذ أن الأرضي المقدسة في فلسطين تضم عدداً قليلاً من الجبال الوعرة التي يصعب الوصول إليها، وفي الغالب كانت

القلاع اصلية تشيد في مناطق السهول والأودية، حيث كانت هضبة متوسطة الارتفاع تعطي أهمية استراتيجية لهذه القلاع الصليبية.

لقد كان هذا هو الواقع الفعلى للمدن الصليبية . فلم تكن المدن الصليبية مدناً برجوازية بشكل مطلق، بل كانت مدناً يقطنها طبقة النبلاء الصليبيين العاديين ، وكذلك البرجوازية والتجار الإيطاليون والبروفنسال . ويعيناً كانت هذه المدن الصليبية بشابة مراكز تجارية مهمة، بيد أنها كانت في نفس الوقت مستودعاً رئيسياً للقوة البشرية، وفي نفس الوقت كانت هذه المدن الصليبية ذات أهمية عسكرية واستراتيجية لاتقل عن أهمية القلاع . وأصبحت القيمة العسكرية الملزمة للمدينة الصليبية- والتي كانت ذات أهمية في القرن الثاني عشر- أعظم أهمية في القرن الثالث عشر ولاسيما عندما سقطت القلاع والتحصينات الصليبية في يد المسلمين وتقلص الوجود الصليبي وانحصرت السيادة الصليبية في المنطقة العربية في شريط ساحلي ضيق ومحدد على ساحل البحر المتوسط.

ولهذا فإنه كان من الطبيعي أن يسعى الصليبيون من أجل تحصين مدنهم . وكانت هذه المهمة سهلة، لأن هذه المدن الساحلية كانت محصنة منذ عصر الامبراطورية الرومانية المتأخرة (الامبراطورية البيزنطية)*، إذ كان يوجد في بعض المناطق الداخلية - باستثناء مدينة بيت المقدس- بعض المدن المحصنة مثل مدينة نابلس في إقليم السامرة وطبرية . ويبدو أن دفاعات واستحكامات هذه المدن لم تكن قوية . وعلى العكس، فإن كل المدن الساحلية كانت محصنة تحصيناً قوياً . واليوم، ومع استثناء مدینتي يافا وغزة ، فإن بقايا واطلال التحصينات التي اكتشفت من خلال الحفائر الأثرية التي أجريت في القرن الماضي قد أثبتت أن كل المنطقة الساحلية الممتدة من عسقلان في الجنوب إلى بيروت في الشمال كانت توجد بها تحصينات واستحكامات دفاعية صلبيّة . واعتقد أن الوصف المفصل لتحصينات المدينة الصليبية في المنطقة العربية لا يقع في نطاق هذه الدراسة.

لقد كانت الأرض المستوية والقرب من البحر من العوامل الخامسة في تشكيل تحصينات واستحكامات المدينة الصليبية. إذ كان يوجد في عدد قليل من المدن والأماكن هضبة صغيرة

* يعتبر المؤرخون الفترة من القرن الرابع إلى القرن السابع بشابة عصر روماني متاخر أو عصر بيزنطى باكر وذلك في ضوء ظروف هذه الفترة الانتقالية ومظاهر التحول خلال هذه الفترة الانتقالية (المترجم) .

أو سلسلة تلال تطل على البحر. وعلى سبيل المثال ، فإن مدينة أرسوف، التي كانت تعرف باسم أبولونيا في العصر الكلاسيكي القديم، قد شيدت على تل يرتفع عن سطح البحر بستة وخمسين قدمًا . في حين كانت مدن مثل عسقلان ، ويافا ، وقيسارية ، وعكا ، وصور ، وصيدا ، وبيروت ، وهي المراكز الرئيسية التي ذكرناها آنفًا ، كانت كل هذه المدن تقع على السهل الساحلي للبحر.

وكان الموقع البحري لهذه المدن يفرض هذا النمط من التحصينات . إذ كانت الدعامات والاستحكامات الرئيسية تتوجه جهة اليابسة ، مع اتجاه قليل صوب البحر. وكانت الحواجز المائية للمدينة بأسوارها وأبراجها تحمل سلاسل حديدية ضخمة (المأcher) متدرية وهي الماء الذي كانت تغلق مداخل الميناء ليلاً. وكانت مثل هذه الدعامات والاستحكامات الصليبية توجد في مدينة عكا ، وفي مينا أرسوف الصغير، حيث ما زالت بقايا السور مائلة للعيان عند الحواجز المائية لحماية الميناء التي تغمرها المياه الآن. وكانت مدينة أرسوف تتمتع بوضع استثنائي، إذ كانت محصنة من ناحية البحر والبر. وكان كل انحدار السلسة الجبلية شديدة التحدّر التي تقع عليها المدينة تستخدم كمنحدر طبيعي حقيقي مكسواً ببني حجري متاز. وكانت أسوار المدينة تبرز من هذا المنحدر الطبيعي - الاصطناعي. حيث كان العمارة الصليبية يزيل الصخور من على امتداد المنحدر لأنّه من الناحية الطبيعية لم تكن هناك حاجة ملحة لتكسيات حجرية إضافية.

لقد وجد في كل مدينة صليبية وحدتان من الوحدات الدفاعية : الأول هو خط الأسوار الذي يطوق المدينة ، والوحدة الثانية هي القلعة الداخلية وكانت معظم المدن الصليبية لديها خط واحداً من الأسوار ، وهو الخط الذي شكله على تضاريس الأرض. فقد كانت مدينة عسقلان تستخدم أجزاءً من قمة جبل شديد التحدّر ويطوّقها خط من الأسوار على شكل قوس، بحيث يشكل مع الساحل خطًا منحنىً، ولما كانت التضاريس تفرض شكل التحصينات ، فإن تحصينات مدينة قيسارية كانت على شكل شبه منحرف وكانت تحصينات مدينة عكا في القرن الثاني عشر على شكل مربع. ففي مدينة صور كانت الجزيرة القديمة تتصل باليابسة بشكل ثابت ، وذلك منذ أن قام الاسكندر الأكبر المقدوني ببناء طريق بعيداً قبل الوجود الصليبي بأربعة عشر قرناً من الزمان. وقد شكلت الرمال المتراكمة برزحاً وكان شكل الجزيرة يقضي بوجود أسوار لمدينة صور، وذكرت المصادر التاريخية المعاصرة أن مدينة صور كانت تتباهى فخراً

بما كان لديها من الخط المزدوج من الأسوار جهة البحر وكذلك الخط الثالث من الأسوار جهة اليابسة*. ففي نهاية القرن الثاني عشر، تغير شكل خط أسوار مدينة صور وأصبح السور الجنوبي الذي أضيف ذا شكلاً رباعياً وكان هذا هو الشكل والنحوذ الأصلي، وكان هذا السور يربط بين حافة التحصينيات الباكرة لساحل البحر، وقد نشأ عن هذا ضاحية مونتماراد الجديدة المميزة والتي كانت على شكل ثلث .

لقد كانت تقنية دفاعات المدينة الصليبية تختلف في الهدف والغرض فقط عن تقنيات دفاعات القلعة الصليبية، وكانت المقومات الأساسية لتحصينات المدينة تمثل في وجود خندق للحماية يقع خارج أسوار المدينة، بالإضافة إلى منحدر خفيف ونتوء بارز من خط دفاعي، وتقربياً كانت كل هذه الأشياء تتوفّر في الأبراج رباعية الزوايا**. وما يذكر أن جدار الخندق كان قوياً، وقد زود هذا الخندق بتحدر مكسو بالأحجار ومبلط وزود أيضاً بسور عموري (مثلاً كان الحال في قيسارية)، أو كان جدار الخندق طبيعياً حيث كانت تصاريض الأرض صخرية . وقلما كان يحدث تسرب أو ارتشاح للماء في هذا الخندق ، وذلك لأن تحدّر الأسوار كان يمنع مثل هذا الارتشاح . كان اتساع الخندق يصل ما بين ٢٠ - ١٥ متراً مع بعض الاختلاف من خندق إلى آخر، بيد أن عمق الخندق كان يلامِقاً تماماً مهمّة الدفاع والحماية، وكان الخندق دائماً جافاً (مثلاً كان الوضع في القلعة) . ولم يكن قاع الخندق مبلطاً ، وذلك لأن ماء المطر يمكن أن يجف في الأرض الرملية . وما يذكر أن خندق قلعة الحجاج كانت تغمره مياه البحر ، مع أن هذه المياه لم تتدفق إلى خندق المدينة . وثمة استثناء، وحيد فقط بالنسبة لمدينة صور ، حيث كان خندق المدينة يمتد عبر البرزخ أو المضيق وكان يمكن أن يلأ بماء البحر*** .

* يذكر أحد الرحالة اللاتين الذين زاروا الأرض المقدسة خلال المحبقة الصليبية وهو بوركارد من جيل صهيون أن أسوار مدينة صور التي تقع جهة اليابسة كانت سماكتها ٢٥ قدماً وكانت مزودة باثنى عشر برجاً.

لمعرفة المزيد انظر : . Burchard, Description of the Holy land , p. 16 .

** لقد عرفت الأبراج المستديرة في أسوار مدينة عكا التي شيدت في الفترة الأخيرة من الوجود الصليبي (في النصف الثاني من القرن الثالث عشر) (المؤلف) .

*** يذكر ابن الأثير في كتابه الكامل في التاريخ وصفاً لهذا الخندق . لمعرفة المزيد انظر ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج. ١ ، ص ١٧١ .

لقد كانت أسوار المدينة تظهر للعيان من المنحدر الخفيف، وكان خط هذه الأسوار يتقاطع مع الأبراج البارزة والانحدار الخفيف البارز. لقد كانت الأبراج عبارة عن مكان واسع منغلق تماماً، وكان يمكن لوابل السهام المنطلقة من هذه الأبراج القريبة أن تملأ منطقة الخندق المواجهة لهذه الأبراج. ويبدو أن الأبراج كانت أعلى قليلاً في الارتفاع من الأسوار. وهكذا فإن الفتحات الموجودة على جدار الأبراج والأسوار لاطلاق السهام كانت تشكل خطًا مستمراً واحداً.

وإذا كانت المدينة لديها أكثر من خط من الأسوار فإن النمط العام للتحصينات كان مختلفاً في حالة مدينة عكا وصور في منتصف القرن الثالث عشر. ونظراً لقلة الموجودات الأثرية فإننا يمكن أن نحدس من خلال اعتمادنا على المصادر التاريخية الأدبية لهذه الفترة أن تحصينات المدينة قد اتبعت نفس نمط تحصينات القلاع. وكان السور المزدوج يعني أن السور الداخلي يجب أن يكون أعلى من السور الخارجي، مع وجود مسافة محددة بين خطى الأسوار. وقد استطاع البيزنطيون أن يجدوا حلّاً لهذه المعضلات ، وذلك بأن جعلوا المسافة بين السورين حوالي ربع ارتفاع السور الداخلي الأعلى . وهكذا فإن السورين الذي كان أعلى ارتفاعاً لأحدهما هو ٩٨ قدماً يجب أن تكون المسافة بينهما هو ٢٦ قدماً . وبالإضافة إلى ذلك ؛ فإن ارتفاع الأسوار الداخلية كان يعادل ضعف ارتفاع الأسوار الخارجية (إذا ما استخدمنا التناسب بين ارتفاع أسوار قلعة الحاج) . إذ كانت ارتفاع الأسوار الداخلية ٣٤ متراً في مقابل ١٦ متراً هو ارتفاع الأسوار الخارجية . وأخيراً، كانت الأبراج منتظمة في شكل سلسلة متداولة، إذ كانت قطاعات السور الخارجي الداخلية من الأبراج تغطيها أبراج خط الأسوار الثاني.

ومن الصعب التثبت من أن الصليبيين قد اتبعوا كل تفاصيل هذا النمط المعماري في بناء التحصينات والدفاعات العسكرية. وقد عرفنا فطا مختلطاً بشكل بسيط وذلك من خلال الخرائط الموضحة لمدينة عكا والتي ترجع إلى القرن الثالث عشر. والأسباب واضحة . فقد أضيف حول المدينة القديمة صف بارز من الأسوار يكون بمثابة خط دفاعي خارجي وقد شيده المهندسون المعماريون لكي يتفق والظروف التي كان يمر بها الصليبيون. ويمكن القول أن ضاحية مونتزا رد الجديدة هي المنطقة التي شهدت بناء مجموعة من التحصينات الجديدة دون اعتبار لمباني التحصينات التي شيدت في فترة باكرة .

ففي مدينة عكا كانت المسافة بين السورين تشبه فناً ضيقاً داخلياً . تحيط به أسوار المدينة من كل جهة وكانت الطرق المتعددة من أبراج الأسوار الداخلية والتي تؤدي إلى أبراج الأسوار

الخارجية ، تتقاطع مع سور القصر. وعلى الأرجح كان يوجد أيضاً طريق دائري بين صفي الأسوار على امتداد كل المنطقة المطروقة.

وعندما ساد الأمن ، قام الصليبيون بانتهاص عدد بوابات مدنهم في منطقة الشرق العربي ، وإن كان هذا النقص في عدد البوابات لم يتجاوز الحد المعمول به . إذ كان لمدينة عسقلان ، وهي مدينة كبيرة إلى حد ما ، ثلاثة بوابات وكان لمدينة بيت المقدس أربع أو خمس بوابات بالإضافة إلى عدد من الأبواب الخلفية ، ويدو أن قيسارية لم يكن لديها أكثر من ثلاثة بوابات ، في حين كان لمدينة صور بوابة واحدة فقط. وما يذكر أن هذه البوابات جميعاً كانت مزودة بوسائل دفاعية متقدمة بشكل جيد.

إذا أراد العدو المهاجم الوصول إلى بوابات المدينة فإن عليه أولاً أن يعبر الخندق ، المزود بعدد من الدعامات الخارجية بصرف النظر عن جدار الخندق ، وكانت هذه الدعامات تمثل في الحصون الأمامية (وهي الحصون التي ذكرت في أثناء حصار عكا في عام ١٢٩١ كحصون أمامية للدفاع عن المدينة) وبعد اجتياز هذه الدعامات الخارجية كان على العدو أن يعبر خندقاً تعلوه قنطرة . وكانت مثل هذه القناطر والجسور معروفة جيداً في مدينة عكا وقد عشر على بقايا أثرية لبئر في مدينة قيسارية ، وكان هذا البئر مصنوعاً كلياً أو جزئياً من الخشب ، وكان هذا البئر ينشأ عن جزء خشبي بارز مثل البروزات التي كانت توجد في المنحدر الخفيف - gla-cis. وفي منتصف الطريق عبر الخندق كانت هذه البروزات مدعمة بواسطة قبور ومشيدة على عمود حجري يقع وسط الخندق . ومن هنا كانت توجد قنطرة مصنوعة من ألواح خشبية يمكن تدميرها بسهولة في حالة هجوم العدو - وتصل إلى البوابة الخاصة بشكل كامل .

لقد كانت معظم بوابات المدن الصليبية على شكل حرف L وهو نفس شكل بوابات التحصينات العربية ، ولهذا فإنه لم يكن عبورها واجتيازها يتم بشكل مباشر. ففي مدينة صور كان يوجد ثلاثة أسوار ، وكان لكل سور بواباته الخاصة ، وكانت هذه البوابات تشكل شبكة من المرات المعقّدة المحيّرة (المتاحات) . ولكن يحتاز المرء بوابة أحد الأسوار التي كانت على شكل حرف L ، فإن عليه أن يعبر فناءً مطوقاً بسور لكي يلتجئ إلى بrama أخرى ويكرر هذه العملية حتى يصل إلى السور الثالث.*

* للوقوف على تفاصيل شكل بوابات مدينة صور ، انظر ابن جبير : الرحلة ، ص ٢١٢ ، وأيضاً Bur-chard A.M.t. sion , p.

كانت المدينة الصليبية مزودة ببوابات مزدوجة ضخمة ، تدور حول محاور ومرتكزات عند كل حافة وكانت تعلق بواسطة عارضة خشبية ضخمة تدخل في تجويف عن كل جانب من جانبي السور. وكان وجود الثلمات Grooves على كل جانب من جوانب إطار مكان الباب يشير إلى استخدام الشعيرية الحديدية التي كانت تعمل بواسطة مرفاع يوجد في الطابق الثاني. وكانت البوابة الرئيسية المدينة قيسارية توجد في الطابق الثاني مع وجود بهو معد يواجه البوابة من الداخل ويمكن الدفاع عن هذه البوابة حتى ولو استطاع العدو المحاصر أن يدمر البوابة الخارجية.

وتجدر الاشارة إلى أن البوابة كانت تحميها أبراج مشيدة في كل جانب من جانبيها وكانت هذه الأبراج التي تحمى البوابة أكثر ارتفاعاً من الأسوار الباقية. وكانت الأختام الصليبية تحمل رسماً للبرجين المترفعين اللذين يوجدان على جانبي القلعة.

ويبدو أن مدينة عكا كان لديها الكثير من البوابات ، وقد لاحظ المؤرخون المسلمين أنه في أثناء الحصار الإسلامي الأخير لمدينة عكا استمر الصليبيون في الدفاع عن بوابات المدينة المفتوحة*. وذلك لأنهم لم يستطعوا تحمل الهجوم المbagt من جانب المسلمين على بواباتهم المفتوحة وكان لهم عذرهم ومنطقهم ، لأنهم أجبروا تحت وطأة هجوم عدوهم أن يقوموا بالدفاع عن كل حدود المدينة ، ولم يتوقعوا المكان أو البوابة التي سيأتى منها هجوم العدو المحاصر للسيطرة على المدينة. فقد نفذت القوات الإسلامية المحاصرة هجومين ضد عكا : وفشل الهجوم الإسلامي الأول عندما دخلت الخيول الصليبية في تشابك مع القوات الإسلامية ، وفشل الهجوم الثاني أيضاً والذي تم تحت جنح الظلام عندما أضاء المسلمين المواقد في معسراً لهم .

والمتأمل في بعض تحصينات مدينة عكا ، والتي تشتمل تحصينات مدينة عسقلان أو في الحفائر الأثرية الحديثة لتحصينات مدينة قيسارية لابد أن يفتتن كثير بجمال وروعة أعمال البناء لهذه التحصينات ، كما أنه سيتولد لديه شعور بأن هذه التحصينات كانت غير كافية ل توفير الأمن والحماية للوجود الصليبي . إذ كان خط الأسوار طويلاً تماماً أيضاً ويمكن الدفاع

* يذكر أبو الفدا في كتابه المختصر في أخبار البشر أحد أحداث حصار المسلمين لمدينة عكا في عام ١٢٩١ وسقوطها في يد السلطان المملوكي الأشرف خليل بن قلاون (أبو الفدا : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣١٢) .

عنه بشكل فعال لوقت طويل . وإننا نفتقد معرفة مشاعر أولئك الذين تجمعوا من القوات وتلاقوا في صدام مسلح مع بعضهم البعض في قلاع صليبية . ولذا فمن الطبيعي الاعتقاد بأن هذه المدن الصليبية كانت تمثل وحدة دفاع ثانية : بعد القلعة . إذ كانت القلعة وحدة دفاع ذاتية قائمة بنفسها ، وكان يمكن رؤيتها من على امتداد هذه الأسوار . واختلف وضع القلعة من مدينة إلى أخرى .. الخ فقد كانت قلعة مدينة عكا فيما مضى توجد في وسط الجزء الشمالي المكشوف من السور - وعندما أضيفت تحصينات مونتزاره الجديدة وجدت القلعة نفسها في مركز الخط الداخلي من الأسوار . وفي مدينة بيت المقدس ، اتخذت القلعة لنفسها اسمًا وهو اسم لأحد أبراج هيرودس القديمة والمعروف منذ العصور الوسطى وحتى الآن باسم «برج داود» *.

لقد كانت القلعة في الأصل وأساساً مركزاً للحكم ومقرًا للحاكم ، ولم يقتصر وجود حامية عسكرية محلية بها فحسب، بل كانت بشارة مدينة عسكرية مستقلة . وهكذا يمكن مقارنة موقعها بموقع الحصن في آية قلعة . ومع ذلك، فإن معظم القلاع والمحصون لم تشيد على يد الصليبيين، ولكنها كانت مشيدة من ترااث فترات اليهود ، والرومانيين ، والبيزنطيين ، والعرب . ففي مدينة بيت المقدس ، كانت قلعتها القريبة من القصر الملكي مقراً لاقامة الحاكم الذي يهيمن على المدينة لمدة ألف عام قبل الوجود الصليبي ، وقد اضطاعت هذه القلعة بنفس المهام التي كانت منوطـة القيام بها في الفترات السابقة . إذ كانت قلعة مدينة بيت المقدس على شكل مطلع غير منتظم مساحته (٢٧٥ × ٣٥) متراً ، وقد تسبـب موقع القلعة هذه في أن جعلها البرج إلى ثلاثة أو أربعة طوابق (حوالـي ٣٥ متراً) ، وقد تسبـب موقع القلعة هذه في أن جعلها تستقل عن المدينة تماماً . وبإضافة إلى ذلك فإـنه في حالة الخطر كان يمكن إجلاء حامية القلعة عن طريق البحر . وما يذكر أن البقايا القليلة من أطلال هذه القرية لا يمكن إعادة تشييدها بشكل كامل ، بيد أن الأوصاف المعاصرة لهذه القلعة توضح لنا شكل دفاعاتها . وكان ميناً مدينة قيسارية خلال فترة السيادة الصليبية ذات أهمية ثانوية ، ومن الصعب مقارنة أهميته خلال الحقبة الصليبية بعظمته وأهميته القصوى خلال العصر الهيرودي - حيث وصفه المؤرخ

* والقول الصحيح هو أن اسم «برج داود» سوف ينطبق على ذلك البرج الواقع في أقصى الشمال والذي يطل مباشرة على بوابة يافا (المؤلف) .

اليهودي الشهير يوسيفوس فلافيوس Jasephas Flavius بأنه أضخم من مينا بيروس -Pi-raceus، مينا، أثينا القديم. وكان الحاجز الواقى للمينا من جهة الشمال يعتبر أقوى وأضخم من المباني والتى ليس لها نظير فى أى مكان ، وكان عبارة عن ستين عموداً ضخماً من الجرانيت ذات الأصل الحصيري وفى وقد امتدت هذه الأعمدة الستين فى مياه خندق . وكان الحاجز الواقى للمينا، جهة الجنوب يستخدم مثل هذه الأعمدة الرخامية السابقة، ولكن مع تبليط الأجزاء العليا من هذه الأعمدة . وعلى هذا المكان شيدت القلعة . وكان يوجد خندق يفصل القلعة عن المدينة، وكان يلاً باء البحر (أو على الأقل كان يمكن التحكم فى مياه البحر من خلال بوابات ملحقة به) محولاً القلعة إلى جزيرة صغيرة . وكان هناك سور قوى يوجد على جانبيه اثنان من الأبراج الضخمة مثبتة بالمدخل الموجود خلف الخندق المغسورة بالماء . ويعتبر مبني قلعة مدينة قيسارية من أقوى المباني الصليبية التى شيدت فى أى مكان آخر (باستثناء قلعة مدينة بيت المقدس) وكانت صفو المباني التى ترجع إلى العصر الهيرودى والمباني الصليبية الجديدة تشكل هيكل واطار مبني خارجى غير كامل ولم يتم للمنشآت ذات الانحدار الخفيف والأسوار، وقد امتلأت هذه المباني بعدد كبير من قطع الأحجار غير المصقوله والمستوية والملاط . وبالإضافة إلى ذلك فإن الأعمدة الرخامية القصيرة التى ترجع إلى عصر هيرودوس وكذلك الجرانيت كانت متداخلة على نحو مستعرض فى حالة بناء المنشآت والأسوار، وقد ساهمت هذه الأعمدة فى تقوية الأسوار وجعلها منيعة ومحصنة .

وما يذكر أن قلعة أرسوف كانت تحظى بأهمية خاصة. فقد كانت المدينة تقع على حافة عالية تحكم فى الشاطئ . وهكذا فإنه لم يوجد مكان على ساحل البحر صالحًا لإقامة وتشييد القلعة، ومن الناحية العملية لم يكن من الملائم تشييد هذه القلعة فوق اليابسة الموجودة فى الجزء الشرقي من المدينة حيث تفقد الدفاعات الطبيعية فعاليتها ولا يمكن الاستفادة من هذه الدفاعات الطبيعية. ولهذا شيد الصليبيون هذه القلعة (قلعة أرسوف) فى الجهة الشمالية من المدينة على نفس الحافة، بيد أنهم استخدموه وادياً طبيعياً صغيراً ضيقاً شديد الانحدار وهو الوادى الذى كان يتقاطع مع الحافة وكان يشكل خندقاً بين المدينة والقلعة. وكان الوادى الضيق ينحدر من الحافة إلى مستوى سطح البحر، وينخفض عن سطح البحر ب نحو ثلاثة مترًّا وكان متسعًا لكي يوفر الأمان والحماية للقلعة. ومن هذا المنحدر الممتد من الشرق والشمال، قام الصليبيون بحفر خندق رياضي الروايا، وكانت أسوار القلعة تقع خلف هذا الخندق

تماماً . وقد وجد سلم طويل ، يقطع هذا المتجأ (الوادي الضيق) ويؤدي إلى الميناء الصغير المطل على الساحل وذلك خلف أسوار القلعة.

وكما ذكرنا آنفا ، فإن قلعة عكا كانت تقع في الجزء الداخلي من المدينة ، وذلك في أثناء القرن الثالث عشر . ولم يكن وجه الاستغراب في قلعة عكا يتمثل في موقعها غير الجوهرى - والذى جعلها تفقد خندقها تماماً ، ولكن حقيقة الأمر هي أن الظروف الداخلية للملكة الصليبية قد تطلب أن يكون لمدينة عكا أكثر من قلعة . ولن نشير إلى الأماكن والأبراج المحصنة الكثيرة التي كانت تضمها أحياء المدن الإيطالية (أحياء البنادقة والجنوبية والبيازنة) صاحبة الامتيازات في مدينة عكا ، ولكننا بصدق الإشارة إلى التحصينات المعمارية ، وأهمها قلاع وتحصينات فرسان القديس يوحنا (الداوية) ، والتي كانت تضم حجرة طعام ذات نفط معماري رائع وعجب . ويمكن تخيل صورة هذه العمارة الرائعة من خلال وصف القصر المحسن للداوية الذي ذكره أحد أعضاء هيئة فرسان الداوية والذي قال: «لقد كان المكان المخصص لهيئة فرسان الداوية في مدينة عكا من أقوى الأماكن المحصنة في المدينة ، وامتدت مبانى الداوية على طول الساحل ، وكانت بشابة قلعة وحصن منيع . وكان مدخل حى الداوية في عكا عبارة عن قلعة مرتفعة عن الأسوار قوية التحصين وذات أسوار سميكه ، يصل س מק الكتلة الحجرية للسور حوالي ٢٨ قدمًا . وكان يوجد برج صغير عند كل جانب من جوانب الحصن وعند كل جانب أيضا كان يوجد تمثال ضخم لشكل أسد وآخر لشكل ثور ، وكانت هذه التماثيل مغطاه بالذهب . وكان ثمن تكلفة هذه التماثيل الأربعه من الناحية المادية، يبلغ حوالي ١٥٠٠ من البيزنطيات الإسلامية (الدينار الإسلامي) . وقد كان منظر هذه التماثيل رائعًا ومدهشًا . وكان يوجد برج آخر قبالة حى البيازنة على مقربة من شارع القديسة هنا ، وكان هذا البرج هو مقر مقدم هيئة فرسان الداوية . وعلى مقربة من دير القديسة هنا ، كان يوجد برج ضخم بالإضافة إلى كنيسة عالية رائعة مزودة بأجراس . وبالإضافة إلى ذلك كان يوجد برج على شاطئ البحر . وكان هذا برجا قديماً ، بنى منذ مائة عام مضت إذ شيده القائد المسلم صلاح الدين الأيوبى . وكان هذا البرج يضم خزانة هيئة الداوية . وكان على مقربة من الساحل وتغسله أمواج البحر . وقد ضم حى الداوية عدداً آخر من الأماكن السكنية الجميلة وهى الأماكن التي سوف نكتف عن ذكرها » .

بـ- الجيوش الصليبية

من المعروف أن الجيوش طوال الحقب والعصور التاريخية التي انقضت وحتى الآن يقع على عاتقها مهمة توفير الأمن للمجتمع، ويعتبر هذا انعكاساً لاتجاه عناصر المجتمع السكانية ، والطبقية، والأخلاقية صوب الحرب. ولا يمكن استثناء الجيوش الأوروبية في العصور الوسطى أو الجيوش الإسلامية من هذه المهمة . لقد أظهرت هذه الجيوش الأوروبية والإسلامية تقاليدها السياسية، والاجتماعية ، والعرقية الخاصة بها ، واحتفظت جيوش الطرفين المتصارعين الإسلامي والصليبي باحترام تقاليد غير عادية وهي التقاليد التي انبثقت من تصوراتهم للحرب خلال الصراع العسكري المستمر الذي دار بينهما خلال قرنين من الزمان. وإلى حد ما كان هذا نتيجة التوقف التكنولوجي (التوقف التام للتقنية العسكرية) العسكري كما أن هذا يمكن تفسيره أيضاً في ضوء حقيقة أنه حتى نهاية القرن الثاني عشر كان يوجد عدد قليل من الجيوش المحترفة والدائمة . وحدثت بعض التغييرات والتحولات، بيد أن هذه التغييرات كانت قليلة وبطيئة نسبياً - وفي العادة كانت هذه التغييرات استجابة لتغير ظاهري مثل النمط المختلف للأسلحة والتسلیح أو أسلوب حرب غير المتوقعة.

لقد كان التقليد العسكري للمملكة الصليبية في بيت المقدس ذا طابع أوربي وظل كذلك طوال فترة الوجود الصليبي، على الرغم من أن الظروف المحلية كان لها تأثيرها على أشكال ومظاهر الحرب. ولم يكن غط التسلیح الأوروبي الغربي بالضرورة ناتجاً لشدة احترام التقاليد المتأصلة بشدة، ولكنه أيضاً نتيجة لعوامل إضافية أخرى منها تكيف غط الحرب الأوروبية مع التغييرات في الظروف المحلية والعلاقة المستمرة والارتباط مع نظام النبلاء العسكرية الأوروبية، والتي شاركت بدور كبير في الحروب الصليبية الكبرى.

ومن الملاحظ أن المجتمع الصليبي وغط السيادة الصليبية في إطار الجغرافية السياسية لمنطقة الشرق العربي الإسلامي كانت من العوامل الخامسة التي شكلت بنية الجيوش الصليبية . وكان البناء الاجتماعي يفترض وجود طبقة وراثية من المحاربين – الفرسان النبلاء – وكان غط السيادة الصليبية يفرض القيام بهمة مزدوجة وهي التوسيع والدفاع ، وقد قامت بهذه المهمة كل من التحصينات والقلاع ثم الجيش الصليبي المتحرك والواحد . وأخيراً استطاعت التقاليد الاثنية (العرقية) للحرب أن تحدث تغييرات عملية في الاستراتيجية والخطط العسكرية وقد وجدت هذه التغييرات العملية استجابة قوية لدى الصليبيين.

كان المحاربون الاقطاعيون يمثلون العمود الفقري للجيش الصليبي ، وكان هؤلاء المحاربون عبارة عن الفرسان الذين يؤدون خدمة عسكرية اقطاعية مقابل حصولهم على منع من أراضي الملك الصليبي. ومن حسن الحظ ، أن المشرع الصليبي الشهير جان الإبليني Jean d'Ibelin كونت يافا قد حفظ لنا في كتابة القانوني الذي وضعه قائمة تفصيلية توضح الخدمة العسكرية الاقطاعية في المملكة الصليبية في بيت المقدس كما أنها تلقى نظرة عامة على وضع هذه المملكة الصليبية حوالي عام ١١٧٠ م. وقد أوضحت قوائم الخدمة العسكرية التي شملها كتاب يوحنا الإبليني أن القوة العسكرية لهذه المملكة كانت تتراوح ما بين ٦٤٧ إلى ٦٧٥ فارساً . ويعتبر هذا العدد قليلاً نوعاً ما بالمقاييس الحديثة. وبالرغم من ذلك فإن المعارك الشهيرة التي وقعت في أوروبا في تلك الآونة كانت تضم عدداً أقل من هذا من المحاربين. كما أن الحملات الصليبية الكبرى، كالتي وقعت في مصر من أجل غزوها لم تضم عدداً من المحاربين أكبر من عدد المشاركين في أية حرب تشن في أوروبا.

والواقع أن ثمة تباين بين أفكار العصر الوسطى وأفكار العصور الحديثة في طريقة فهم موضوع حجم الجيوش ولم يقم هذا التباين على أساس زيادة السكان المطردة فحسب بل كان يبني على أساس تقييم دور الفرد المحارب . لقد استخدمنا نظريات تتعلق بالوحدات المنتظمة للجيش وعمل الجيش والخوازه المهام القتالية كوحدة واحدة، وكان هذا يفرض على المحارب بذلك بعض الجهد لكي يحصل لنفسه على مكانة ووضع جيد وسط الوحدة العسكرية التي يعمل تحت لوائه. كان التسليح الثقيل في العصور الوسطى يتمثل في الفارس الذي كان يقاتل كعضو محارب ضمن أعضاء وحدة عسكرية وذلك في المراحل الأولى فقط من مراحل المعركة ، وبعد الصدام الأول كان الفارس يحارب ويقاتل دفاعاً عن نفسه ، وكان ميدان المعركة يخصص وقتاً للمبارزات بين هؤلاء الفرسان. يمكن مقارنة قوة الفارس في العصور الوسطى بقوة الدبابة في العصر الحديث، الأمر الذي يمكن أن يطرح لنا فهماً جيداً لحقائق العصور الوسطى.

ومن المحمى أن عدد الفرسان الاقطاعيين العاملين في جيش مملكة بيت المقدس الصليبية كان أكثر من ذلك العدد المدون في قائمة الخدمة العسكرية التي ذكرناها آنفاً والذي تضمنها كتاب جان الإبليني . وكان هذا الوضع مشابهاً لما كان موجوداً في أوروبا في تلك الملحقة، حيث كانت القائمة المفصلة للخدمة العسكرية الملكية تتضمن فقط الخدمة العسكرية المستحقة للتأجير الملكي الصليبي فقط. إذ كان كل سيد اقطاعي كبير في المملكة الصليبية يتلذ عدداً من

الفرسان المحاربين، وحملة الدروع والمرافقين للفارس والذين يعملون تحت إمرته وينفذون أوامره. وبشكل طبيعي ، فإن فرسان البارونية لم يخدموا العاج الملكي ، بيد أنه في أوقات الحاجة والمرحلة كان هؤلاء الفرسان يشتركون في الحرب مع سيدهم الاقطاعي المباشر .

وبإضافة إلى المحاربين الاقطاعيين ، فإن وجود القوات المستأجرة التي كانت تتلقى رواتب نقدية كانت من أبرز السمات السائدة للجيوش الصليبية. ومن الأفضل أن نطلق على هذه القوات المستأجرة اسم القوات المرتزقة ، وذلك لأنه لا يوجد ما يؤكد أو يبرهن على وجود محاربين محترفين عاطلين وقت السلم. وفي العادة كان هؤلاء المحاربون المستأجرة (المرتزقة) يأتون من بين جموع الحجاج الذين أدوا الشعائر الخاصة بالحج، والذين كانوا يبقون في المناطق الصليبية. ففي القرن الثالث عشر- حيث أصبحت عملية كسب الرزق أمراً عسيراً بسبب تقلص حدود المملكة الصليبية - وجدنا مدنًا بحرية مثل عكا وصور تضم من بين سكانها أناساً يرغبون في الالتحاق بالخدمة العسكرية . وكانت عملية التوسيع في استخدام القوات المرتزقة في الجيوش الصليبية يعتمد على امكانيات ووفرة الموارد المالية للعاج الملكي والبرون الصليبي. ولم تكن هذه الموارد المالية وفيرة وفي العادة كانا نسمع عن عملية تزويد الجيوش بقوات مرتزقة ينفق عليها من الهبات الخاصة التي كانت ترد إلى المملكة الصليبية من حكام أوروبا، أو من باباوات روما. وخير مثال لذلك ما فعله ملوك أوروبا من تقديم العون المالي للوجود الصليبي ، مثل الملك الانجليزي هنري الثاني، وفيليب الثاني ملك فرنسا ، ولويس التاسع ملك فرنسا. ففي مجمع ليون الثاني (١٢٧٤) كان من المستحيل أن يقوم سادة أوروبا بتحديد رواتب الفرسان المحاربين في المناطق الصليبية في بلاد الشام وفلسطين وتدوين هذه المخصص في جداول الرواتب الخاصة بهؤلاء السادة الأوروبيين. وكان من الطبيعي أن تعتمد عملية تزويد الجيش الصليبي بالمقاتلين على المنح المالية المؤقتة التي كانت تأتي من الخارج والتي لم تكن عملية مرضية على الاطلاق. بيد أن بعض الأموال التي كانت ترد إلى المملكة الصليبية من البابوية -- والتي كانت تحبس باستهوار من الحكام الأوروبيين المسيحيين-- كانت هي الأخرى تعتمد بقدر أو باخر على الدخل الثابت للبابوية من الموارد الخارجية.

وكان الجيش الاقطاعي يتكون بشكل أساسى من المحاربين الراكبة، والذي كان من بينهم عدد كبير من المحاربين المرتزقة . وبإضافة إلى ذلك ، فإن جيش المملكة الصليبية كان يضم أيضاً عدداً من المحاربين المشاة وعدداً من المحاربين الراكبة الذين لم ينتموا إلى طبقة النبلاء.

لقد كانت قوات المشاة المتأخة قتل عماداً مهمّاً ورئيسيّاً في الجيوش الصليبية. وكانت المصادر التاريخية الصليبية في العادة تطلق على الفارس خفيف السلاح والمقاتل المشاة تعبير جندي أو سرجندار Sergant . ويمكن أن نقرر من خلال تعبير الجندي الفارسي Serjant a' Cheval أنه كان يوجد أيضاً مهارين فرسان من أصول غير نبيلة، بيد أن اسم سرجندار Serjant وحده لا يشير بوضوح إلى طريقة محددة للحرب والقتال.

وكان يتم تعبئة السرجندارية ، المشاه أو الراكيبة على أساس اقطاعي، على الرغم من أن الفموض يكتفى آلية تزويد الجيوش الصليبية بهذه القوات . وتذكر لنا قوائم الخدمة العسكرية التي تضمنها كتاب المشرع الصليبي يوحنا الأبليني Jean d'Ibelin عدداً ضخماً من السرجندارية بقدر بـ ٥٠٢٥ جندي يؤدون خدمة عسكرية للملك الصليبي ، وهذا العدد من المحاربين من المنشآت الكنسية ومن مدن المملكة الصليبية. ومن المستغرب حقاً أن الوثائق الصليبية لم تشر على الإطلاق إلى غط هذا الالتزام العسكري مما يجعل المرء يفترض أن هذا الالتزام من الخدمة العسكرية كان شيئاً مألوفاً ومعتاداً ، وقد بنى هذا الالتزام العسكري على أساس تقييم الموارد المالية للمدن وللمنشآت الدينية الكنسية. وكان هذا يلقى القبول من جانب المؤسسات الكنسية، والبطريرك ورؤساء الأساقفة ، والأساقفة، إذ كان رجال الدين بشكل عام يحوزون أملاكهم من عائد الصدقات ... الخ . وكانت هذه الممتلكات تعتبر اقطاعات غير عسكرية أي لا يؤدي عنها خدمة عسكرية. ولم نجد أى تفسير قانوني مرضى يتعلق بسادة المدينة الاقطاعيين .

وأخيراً ، فإن المملكة الصليبية في بيت المقدس كانت حريصة على إعداد مصدر اضافي للقوة البشرية يستخدم في مجال التعبئة العامة، وهي القوات التي يتم استدعاؤها بشكل عام بناءً على طلب الملك الصليبي ولاسيما في أوقات الخطر المرتقب. ففي مثل هذه الظروف الحرجية التي تمر بها المملكة الصليبية كان على كل الأوصال ، حتى الذين لم يستحقوا عليهم تقديم خدمات عسكرية للملك الصليبي ، وأيضاً الأوصال الذين لم يخضعوا لالتزام تقديم الخدمة العسكرية لبارون السادة الاقطاعيين، أن يشتراكوا في الجيش الصليبي للدفاع عن المملكة . وكان نفس هذا الالتزام العسكري ينطبق على كل فرنجى قادر على حمل السلاح في أرجاء المملكة الصليبية. ومن الطبيعي ، أن القوة الضاربة لقوات التعبئة العامة (قوات الاحتياط) لم تكن ذات كفاءة عالية. بيد أنه في أوقات الخطر كانت هذه القوات (الاحتياط) تستطيع أن

تلعب دوراً مهماً في ساحة الوفى ، ولاسيما أن هذه القوات كانت بمثابة ميليشيا للمدينة وذلك عندما كانت حامية المدينة تغادر مكانها للاشتراك في الحرب خارج المدينة.

وفي هذا السياق يجب علينا أن نعود مرة ثانية إلى الهيئات الدينية العسكرية التي ناقشنا دورها من قبل. فمنذ ثلاثينيات القرن الثاني عشر استطاع كل من الداوية والاسبارارية أن تلعب دوراً عسكرياً مهماً في المملكة الصليبية . وقد تسامي اعتماد المملكة الصليبية على الهيئات الدينية العسكرية باعتبارهم قوة دافعة عن حدود المملكة وخاصة باعتبارهم سادة القلاع الواقعة على الحدود - وكانوا مسئولين عن تزويد هذه القلاع بالقوات والمؤن- الأمر الذي جعلهم يمثلون عاملأً مهماً في حماية المملكة . وفي النهاية ، فإن قدرة وامكانية الهيئات الدينية العسكرية في تزويد المملكة الصليبية بقوات عسكرية في وقت قصير والقدرة على تقليل الخسائر في الأرواح في أثناء الحرب عن طريق الاعتماد على الموارد المالية والبشرية مما جعلهم عنصراً أساسياً من عناصر الوجود الصليبي.

ومن الصعوبة يمكن أن نقيم ونقدر القوة العسكرية الضاربة للهيئات الدينية العسكرية. ففي أحدى الأحداث الرئيسية، مثل حملة الملك الصليبي عموري على مصر، سمعنا أن الاسبارارية قد زودت جيش الملك الصليبي بخمسة من الفرسان المحاربين وخمسة من المشاة (التركمانية) . وكان من الصعب على المملكة الصليبية أن تعبيء مثل هذا العدد من المحاربين من كل مصادرها الاقطاعية . وتلك كانت حالة استثنائية ، إذ كانت القوة العسكرية العادلة لأية هيئة دينية عسكرية تصل إلى ثلاثة فارس، ولم تجافي الحقيقة إذا قلنا أن الداوية والاسبارارية قد امتلكتا قوة عسكرية من الأفراد المحاربين تعادل قوة المملكة الصليبية.

وما يذكر أن محاربي الهيئات الدينية العسكرية لا يمكن تصنيفهم ببساطة مثلما الحال بالنسبة لمحاربي المملكة الصليبية، وذلك لأن مقدمي هذه الهيئات ورجال الدين هم الذين يقررون الأمور السياسية الخاصة بهم بشكل أساسى ومطلق . ولأنه إذا افترضنا أن هذه الهيئات الدينية العسكرية قد رفضت تقديم الخدمة للملك الصليبي. إذ أن قوتهم كانت أحياناً تسمح لهم أن يقرروا السياسة الخاصة بهم ويعملونها على الملك الصليبي واجباره على قبول نصائحهم ، وفي أثناء مجالس الحرب كان صوتهم السياسي المعنوي مسموعاً ويلقي الاحترام من جانب القادة والملك الصليبي .

لقد كان إجمالي القوة العسكرية للملكة الصليبية يبلغ حوالي ١٢٠٠ فارس وأكثر من

...، ١٠٠ محارب مشاه من السرجندارية Sergeants ، وكانت هذه القوة غير قادرة وغير كافية للدفاع عن هذه المملكة أو توسيع حدودها على حساب جيرانها من الأقطار الإسلامية . والحقيقة أن نقص عدد القادمين من أوروبا إلى المملكة الصليبية (النعش الديموغرافي) كان السبب الرئيسي في عرقلة عملية التوسيع وتحديد نط الدفاع ولم يكن الضعف العسكري لهذه المملكة هو المسؤول عن عرقلة عملية التوسيع . وكانت عمليات الغزو التي قام بها الصليبيون معقولة - وهذا ما تأكّد خلال بعض الوقت وتكرر ثانية - ليس فقط في الأقاليم القريبة من منطقة ما وراء نهر الأردن أو دمشق ، بل أيضاً في مصر ، عبر شبه جزيرة سيناء الواسعة.

وكانت هذه المناطق التي احتلها الصليبيون في هذه الأقاليم سريعة الزوال ، إذ أن الصليبيين كانوا يفتقرن إلى قوة عسكرية تستطيع أن تحفظ بالهيمنة العسكرية على هذه المناطق المحتلة لوقت طويل ، بغض النظر عن محاولة الاستيطان الصليبي لإقليم محتل .

وثمة ما يدل على أن هذه المشكلة الخاصة بنقص عدد الأفراد المقاتلين في الجيوش الصليبية تختلف عن هدف وغرض الدفاع عن المملكة. إذ أن كلمة «دفاع» في أضيق وأدق معنى لها قلماً كانت تعالج الظروف التي كان يمر بها الصليبيون . فلم تكن كلمة «دفاع» تعنى فقط حماية حدود المملكة الصليبية - وهي المهمة التي كانت شاقة في مناطق ما وراء نهر الأردن المفتوحة - ولكن أيضاً كانت تعنى حكم وإدارة المناطق والأقاليم الداخلية في المملكة الصليبية.

لقد استطاعت القوات الصليبية منع الغزو والتوسيع الإسلامي ، وعندما كان المسلمين يعجزون عن خوض الحرب ضد الصليبيين فإنهم كانوا يقومون باتلاف المحاصيل الزراعية والممتلكات الصليبية وتقويض الدعامات المادية للوجود الصليبي ، وعلى العكس فإنه آية غزوة كان يمكن أن تؤدي إلى حرب واسعة بين الطرفين الإسلامي والصليبي.

وفي كلتا الحالتين ، كانت القلاع والمدن المحصنة تلعب دوراً رئيساً في الفكر العسكري الصليبي. فإن آية هجمة إسلامية - حتى لو استطاعت تدمير مناطق صليبية واسعة - لم تكن في استطاعتها تهديد السيادة الصليبية وطالما أن الغزاة لم يستطعوا استعادة السيطرة على هذا القطر عن طريق احتلال القلاع والمدن ، فإن هؤلاء الغزاة كانوا يلجأون إلى الانسحاب والتقهقر آجلاً أو عاجلاً . وعلى الرغم من تعرض المناطق الصليبية للتخرّب والخسائر المادية

الفادحة ، فإن السيادة الصليبية لم تتأثر ، وذلك لأن مراكز الحكم والسيادة الصليبية في المناطق العربية وهي القلاع والمدن المحسنة لم تصب بسوء .

واستطاعت هذه العوامل تشكيل العقيدة العسكرية للصلبيين . وعندما كانت المناطق الصليبية تتعرض للهجوم من جانب المسلمين كانت القوات الصليبية تنسحب من مواقعها في القلاع والمدن للاقاء ومواجهة العدو المهاجم . وفي الغالب كان الصليبيون يتربكون حامية رمزية للدفاع عن المدينة أو القلعة . وفي حالة الدفاع لم يغادر أحد من المحاربين الصليبيين للدفاع عن الاستحكامات والمحصون . وكانت مرحلة حطين الشهيرة النموذج الكلاسيكي للمعارك العسكرية التي خاضها الصليبيون ، فقد حلت الكارثة بالصلبيين على يد قوات القائد المسلم صلاح الدين الأيوبي ، حيث استسلمت المدن الصليبية التي عجزت عن الدفاع عن نفسها وفتحت أبوابها أمام الجيوش الإسلامية الظافرة .

وهكذا ، فإن الصليبيين عندما كانوا يتعرضون لغزو من جانب المسلمين فإنهم في الغالب كانوا يتزدون ما بين الاشتراك في حملة عسكرية خطيرة أو التبطل الأكثر جذراً . ولم يرجع هذا التردد إلى نقص وخلل في التخطيط العسكري الصليبي أو إلى سياسة متقلبة ، أو إلى رغبة الصليبيين في تحولهم من موقف صعب إلى آخر سهل ، ولكن على العكس ، كان تردد الصليبيين وتراثهم يرجع أساساً إلى تقييم وتقدير المخاطر المحتملة من وراء خوض الحرب وكذلك تقييم وتحديد الفرص الممكنة لمواجهة أخطار الحرب . وكان هذا التردد والتراث الصليبي أيضاً يأخذ في حسابه الظروف المحلية ، وأيضاً غط القوات والجيوش الإسلامية المعادية وخططهم العسكرية .

وعلى الرغم من الكثرة العددية الضخمة للقوات الإسلامية ، فإن الصليبيين كانوا يتمتعون بزيارة كبيرة ومهمة . وعندما كان يظهر الجيش الصليبي كانت القوات العسكرية المحلية الإسلامية تبادر على الفور في التحرك إما في مصر أو دمشق . وكانت القوات الإسلامية التي تختشد في دمشق تضم بين صفوفها عناصر من أهل دمشق بالإضافة إلى قوات من خارج دمشق وخاصة من المدن السورية الشمالية مثل (مدینتى حلب وحمص) وكذلك من منطقة ما بين النهرين (الميزوبوتاميا) . وكان تماسك هذه القوات الإسلامية (حتى منتصف القرن ١٣) حيث عصر السلطان المملوكي الظاهر بيبرس) دائماً يتعرض للضعف مع بعض الاستثناءات القليلة وذلك لأن هذه القوات الإسلامية كانت تقاتل في ميدان المعركة مدة طويلة تصل إلى

عدة شهور. وكان الوقت المألف للحملات العسكرية هو بداية فصل الصيف ونهايته... الخ . أى ما بين موعد البذر والمحصاد . الواقع ، أن الحملة الإسلامية ضد الصليبيين لم تكن تستغرق أكثر من بضعة أسابيع ، وكانت تتجاوز هذه المدة إذا كان هناك أسلاب وغناائم وفيرة تستطيع هذه القوات اكتسابها ولاسيما إذا كسبت هذه القوات الحرب . وقد تكيفت الهروب الصليبية مع هذا النمط . وعندما كانت كفة التفوق العددي في صالح المسلمين كانت القوات الصليبية تتجنب خوض المعركة ضد الجيش الإسلامي وتنتظر حتى يتفسخ هذا الجيش الإسلامي . ويتمثل النموذج الكلاسيكي القديم لهذه الحرب في تلك الحملة التي قام بها الصليبيون وأخفقوا فيها وهي معركة سن النبرة Sinn al nabra والتى وقعت في يونيو عام ١١١٣ . ففي هذه المعركة استطاع الجيش الصليبي الهروب بصعوبة بالغة إلى حافة الجبل الذي يطل على طبرية ، وكانت هذه المنطقة تحيط بها قوات إسلامية كثيرة العدد والعتاد ، مؤلفة من قوات من الدمشقة وقوات من أهل الموصب ومardin . ومن الملاحظ أن معركة سن النبرة كانت بشابة نكبة حللت بالقوات الصليبية ، وذلك لأن المناطق الريفية في فلسطين قد أعلنت ثورتها وتمردها ضد السلطات الصليبية . وظل وضع الصليبيين محفوفاً بالمخاطر طوال ستة وعشرين يوماً؛ فلم يجرؤ المسلمون على الهجوم المباشر ، بل قاموا باتلاف المزارع والحقول وتخريبها وتشتت قواتهم بعد أسبوع ثلاثة . وكانت مثل الخطط والتكتيكات العسكرية قادرة على منع كارثة خطير . فقد كان ريموند أمير طرابلس الصليبي يؤيد مثل هذا التكتيك العسكري عشية موقعة خطين ، وكان الملك الصليبي جي لوزجان يشاطره الرأى - بيد أن هذا التكتيك والخططة العسكرية قد تغيرت بسبب ضغط الحزب المنافس*.

وثمة ما يشير إلى أن الأجيال الأربع من المحاربين المسلمين تقريراً كانت ترى أن تحطيم المدن الصليبية المحصنة بالأسوار هو الذي سوف يضع نهاية للوجود والسيطرة الصليبية في المنطقة العربية . وكان صلاح الدين الأيوبي أول قائد عسكري مسلم يطبق مبدأ عسكرياً متقدماً، بيد أن أحد خلفائه وهو الملك العزيز حاكم دمشق قد اتبع هذه الاستراتيجية بشكل منتظم.

* الواقع أن القيادة الصليبية قد اختلفوا فيما بينهم بشأن الخطط العسكرية الصليبية في أثناة، موقعة خطين، وكان هناك حربيان متنافسين في هذا الصدد ولعرفة المزيد انظر : ابن شداد : النادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص ٥٨-٦٠ (المترجم) .

ففي أثناء المحادثات التمهيدية بشأن عقد السلام بين صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد في مدينة رام الله، كان صلاح الدين يرى أن النقاط والواقع الصليبي القوية التي دمرتها الحرب يمكن أن تصبح في المستقبل مصدر تهديد وخطر على المسلمين. وظلت هذه الرؤية السياسية السابقة لمدة جيل آخر بعد وفاة صلاح الدين، مما جعل الصليبيين في حالة تحفظ دائمة. وكانت الغزوات والمعارك الصليبية الظافرة غير ذات جدوى، وذلك لأن الصليبيين لم يجدوا المال الكافي واللازم ل إعادة بناء القلائع التي تهدمت في أثناء الحرب أو إعادة تزويد هذه القلاع بالجنود والخاتمة العسكرية . ولم يكن لدى الصليبيين القوة الكافية القادرة على تحصين أنفسهم في المدن الساحلية . فقد قضى الملك الفرنسي لويس التاسع أربع سنوات (١٢٥٤-١٢٥٠) في تحصين المدن الصليبية الساحلية، بيد أن السلطان المملوكي الظاهر بيبرس استطاع أن يعزل هذه المدن الصليبية الساحلية، ويستردّها الواحدة تلو الأخرى. لقد استطاع الظاهر بيبرس أن يقوم بأكبر عملية عسكرية لتدمير وتخرير المدن الصليبية الساحلية، وتحطيم تحصيناتها ، على الرغم من الخسائر المادية التي تكبدها الجيش الإسلامي بقيادة بيبرس من جراء تدميره وتخرير مدن السهل الساحلي. ولاشك أن الهدف الرئيسي من تدمير هذه المدن البحرية الصليبية هو منع الصليبيين من العودة إليها وإعادة استخدامها كرؤوس جسر لغزوة صليبية جديدة.

ونما يذكر أن التغير والتحول الرئيسي في الاستراتيجية العسكرية الإسلامية قد أدى إلى انقلاب في السياسة الصليبية في القرن الثالث عشر الميلادي . فلم يكن السبب في تحول اتجاه الصليبيين من الأرض المقدسة في فلسطين وببلاد الشام صوب مصر هو الارتفاع المفاجئ للشوفينية (الغلو في الوطنية) لدى الصليبيين، أو بسبب نزعتهم الاستعمارية ، ولكن هذا التحول كان ضرورة ملحة للصليبيين ، وكان يمثل المحاولة والمجهود الأخير من أجل إنقاذ الوجود الصليبي ولذا بات على الصليبيين اعتناق مبدأ عسكرياً جديداً واستراتيجية جديدة. لقد كان الهدف من هذا التحول الاستراتيجي الصليبي هو القضاء على قوة مصر واستعادة الأرض التي فقدوها في فلسطين وببلاد الشام، وذلك من خلال الحملة الصليبية الخامسة في دمياط والقاهرة . إذ كان الانتصار الصليبي على مصر يعني انهيار القوى الإسلامية في بلاد الشام وفلسطين . لقد كان الصليبيون يهددون من وراء السيطرة على مصر إلى تعزيز وترسيخ وجودهم من جديد في فلسطين وببلاد الشام وضمان أمنهم في هذه المناطق . وما يذكر

أن الصليبيين قد أخفقوا في حملتين عسكريتين ضد مصر وهي الحملة الصليبية الخامسة (١٢٤٨-١٢٥٠ م)، والحملة الصليبية السابعة التي قادها الملك الفرنسي لويس التاسع (١٢١٧-١٢٢١ م) ويمكن أن نعزّز هذا الافتراق الصليبي إلى سوء القيادة العامة وعمق الدبلوماسية الصليبية.

وقد فقدت المملكة الصليبية في بيت المقدس زمام المبادرة العسكرية والسياسية في أعقاب إخفاق وفشل الحملة الصليبية السابعة ضد مصر . وكان أفضل شيء هو أن تقوم المملكة بالدفاع عن نفسها فقط . وكانت البقايا الهزلة للملكة الصليبية والتي كانت تقع على امتداد شريط ساحلي ضيق تعمق خناقها وتقوى أسوارها . وحصن الصليبيين هذه المناطق الساحلية لواجهة العدو الإسلامي المتحرك دائمًا من أجل الانقضاض عليها . وانتظروا هجوماً إسلامياً ضارباً واسعاً ومن ثم أغلقوا أمامه أبواب مدنهم المعزولة . ولم يكن المسلمون في حاجة إلى خطين جديدين ، لأنهم استطاعوا استعادة واسترداد مدينة تلو الأخرى . واستطاع المسلمون استقطاع واسترداد أحدي المدن بعد مدة قصيرة من الحصار . وكانت عكا آخر مدينة صليبية يستردها المسلمون في عام ١٢٩١ م ، ويمكن القول إن هذه المدينة كانت آخر قلاع المجد الفابر للملكة الصليبية.

• الأسلحة والتسلیح عند الصليبيين

لقد كانت الأسلحة والتسلیح الصليبي في الأساس ذا طابع أوربي . وكثيراً ما قرأتنا أن الأمير الصليبي تانكرد Tancred قد ظهر على أحد وجهي العملة التي ضربها في إمارته وهو يرتدي نوعاً من الكوفية العربية ... الخ وكانت الكوفية عبارة عن قطعة من القماش فوق خوذته . وهذا لا يثبت الاستشراق بين الصليبيين ، بيد أنه ببساطة يجب أن تشير إلى أن تانكرد قد تبني النموذج النورمانى في اتخاذ واختيار غطاء الرأس الذي كان يستخدمه المسلمون من أجل حماية الرأس من حرارة شمس الشرق (وربما كان النورمان يتخدون غطاء الرأس هذا في جنوب إيطاليا أو في صقلية) .

ولدينا القليل من أوصاف الأسلحة والتسلیح الصليبي ، بيد أنها يمكن زن نيلور فكرة جيدة عن السلاح الذي كان يستخدمه الفرسان الصليبيون في أثناء الحملة الصليبية الأولى ، ويرجع هذا إلى أن هؤلاء الفرسان فقط كانوا معاصرين لفرسان ولIAM الفاتح ، والتي حفظت أسلحتهم

في شكل صور ورسومات ازدانت بها نسيج ولوحة بابيde Bayeux ، كانت التغيرات اللاحقة في الأسلحة الصليبية تتم من خلال الأصول الأوروبية للأسلحة . وقد اعتمدت الدراسة الجديدة والمنفصلة للأسلحة الأوروبية في العصور الوسطى على النقوش التي وجدت على الأختام الأوروبية المعاصرة وكان عدد كبير من هذه الأختام يخص النبلاء الأوربيين الذين شاركوا في الحروب الصليبية في القرنين الثاني عشر والثالث من الميلاد . وبالإضافة إلى ذلك ، فإن صور أسلحة النبلاء الصليبيين كانت تظهر في شكل نقوش على الأختام الصليبية الفعلية . وإلى حد ما يمكن التعرف أيضاً على وصف الأسلحة والتسلیح الصليبي من خلال المخطوطات الصليبية التي تزینها زخارف حتى المخطوطات التي ترتبط بالموضوعات الدينية الخاصة بالكتاب المقدس (الإنجيل) ، إذ تصور لنا هذه المخطوطات نوع التسلیح الشخصي للمقاتل الصليبي والأسلحة الصليبية المعاصرة.

وإذا اتخذنا من لوحة النسيج المصوّر عليها الرسوم والأشكال والتي تعرف باسم لوحة بابيde Bayeux Tapestry النموذج الأساسي ، فإنه يمكننا فهم وادران أن التسلیح الصليبي كان فعالاً وعملياً تماماً . إذ كانت الدروع التي يرتديها المقاتل الصليبي غير مريحة وغير آمنة وكانت وظيفتها حماية هذا المقاتل من خطر كل أنواع الأسلحة المستخدمة في الحرب مثل: السهم والرمح (وأحياناً المقذوف) ، والفأس axe ، والقضيب الخاص بتكسير الدروع mace ، والسيف والمنجر dagger . وفي نفس الوقت كان هذا التسلیح يفرض على المقاتل الصليبي الذي يرتدي دروع الحماية أن يستعمل أسلحته الشخصية.

وكانت الأجزاء الرئيسية للتسلیح الشخصي تشمل الخوذة وكساء يغطي كل جسم الفارس دون أن يعيق حركته، وبالإضافة إلى القميص الخفيف الطويل كان الفارس يرتدي بدلة (التنك) سميكة ومحشوة ومصنوعة من القماش أو الجلد متعددة الطبقات وكانت هذه البدلة عبارة عن سترة مثبت عليها باحكام صفائح معدنية رقيقة للحماية . وكانت هذه السترة الواقية الطويلة والخارجية والمثبت عليها صفائح رقيقة تصل إلى أسفل ركبة الفارس وقد عرفت هذه السترة باسم broigne أو byrnie . وكانت هذه السترة مشقوقة من الأمام والخلف لكي يسهل على الفارس امتطاء فرسه . وكان الفارس أيضاً يرتدي في رجليه جوربًا مصنوعاً من مادة معدنية . وقد اعتمدت فعالية وقوة هذه السترة المدرعة الواقية للفارس على كثافة ونوعية هذه الصفائح المعدنية الرقيقة أو الحلقات الحديدية .

لقد كان الأعيان والوجهاء أول من استخدمو نوعاً مختلفاً من هذه السترة الواقية ، بيد أنه في فترة متأخرة عرف الفرسان استخدام هذا النوع من السترات (وكانت هذه السترة في الأصل تحمي عنق الفارس) ، حيث كانت الصفائح المعدنية يحل محلها ذرديات مصنوعة يدوياً وكانت هذه الذرديات عبارة عن حلقات معدنية متاشابكة ومشببة باحكام وكانت هذه الحلقات والذرديات المعدنية في النهاية تصبح جزءاً معزولاً عن البدلة العسكرية (التنك) المصنوعة من الجلد أو القماش وهي البدلة التي كانت تحت السترة المدرعة. وكانت الملابس الداخلية التي يرتديها الفارس تعرف باسم gambeson . وفي القرن الثالث عشر الميلادي زودت السترة الواقية hauberk بأغطية للذراع أو أكمام تنتهي بقفازات طويلة لحماية الذراعين واليدين . ومع أن الذردية أو الدرع كان أكثر مرنة وليونة ، إلا أن السترة الواقية broigne أو hauberk أصبحت أكثر سخونة على الجسم من جراء حرارة الشمس القائمة . وكذلك كانت البدلة الطويلة والمخفيفة ذات القماش الأبيض ، وكذلك المعطف الذي يرتديه الفارس فوق دروعه تسبب سخونة للجسم وذلك عندما يلبسها الفارس فوق السترة المدرعة . وفي أثناء القرن الثالث عشر كانت بدلة الفارس تحمل شعارات النبالة والرتبة العسكرية به على ذراعه . وكان شعار النبالة يتكرر وجوده على الزخارف الموجودة على أغطية سرج الفرس.

وكانت الخوذة habmet تعتبر من أدوات التسلیح الرئيسية الأخرى ، وقد عدل تصميمها بشكل أساسى في الفترة ما بين الحملة الصليبية الأولى وبين سقوط عكا في يد المسلمين عام ١٢٩١ . فقد كان فرسان الحملة الصليبية الأولى يرتدون خوذات حديدية ، ذات شكل مخروطي يرتكز على قاعدة دائيرية، ويتدلى من قمة الخوذة شرائط معدنية . وكانت السيور الجلدية تغطي العنق . وبالإضافة إلى هذا النمط السائد من الخوذات كانت توجد قطعة تغطي الأنف والوجه ، وهذه القطعة كانت تغطي وجه الفارس فقط . ولم يكن مألوفاً لدى الصليبيين عادة تزيين الخوذة بعمامة من القماش الأبيض كما كانت عادة المحاربين والفرسان في منطقة الشرق العربي.

وفي الربع الأخير من القرن الثاني عشر فقدت الخوذة شكلها المخروطي وأصبحت ذات شكل أسطواني مع قمة دائيرية أو مسطحة . وظل هذا الشكل من الخوذات منتشرًا حتى القرن الثالث عشر الميلادي، بيد أنه في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي تغير شكل قمة الخوذة ، حيث اتسعت القمة الاسطوانية للخوذة ، وأصبحت ذات شكل بصلٍ متتفاخ . ومن الواضح أن

واقى الوجه لم يكن كافيا لحماية الوجه ، ولذا حل محله قناع للوجه مزود بخطين أو صفين من الفتحات للتنفس . وكانت الخوذة فى شكلها النهائى تعرف بالخوذة الكبرى ، وقبعة القديس لويس أو خوذة الصليبيين. وكان ثقل وزن مثل هذه الخوذة يجعل من غير العملى ارتданها إلى آخر لحظة فى المعركة. وهكذا فإن الفارس كان فى الغالب يرتدى خوذة أصغر ، تعرف باسم قبعة الحرب أو السيف Chapeasn de per منحنية.

لقد كان التسلیح الشخصی الخاص بالفارس يكتمل بالترس Shield . إذ كان فرسان الحملة الصليبية الأولى يحملون تروساً على شكل طائرة ورقية كبيرة، دائرة عند القمة ومستنة ومحددة عند الأطراف أى مستدق الرأس ، وكان هذا النوع من التروس مألوفاً ومنتشرًا من خلال ما زورتنا به لوحة بابيه Bayeux Tapestry وكان وزنها ثقيلاً لأنها كانت تصنع من المثب ، ومحشوة من الداخل وبفطتها الجلد من الخارج . وتصميم هذه التروس كان يشبه رياض شكل شمس باشعتها وكانت الأربطة المعدنية تقوى الترس وكانت هذه الأربطة تتركز عند مركز الترس في عقدة الدرع .

وكان هذا الترس الثقيل يتتدلى من الكتف بواسطة رباط جلد وذلك عندما كان الفارس يمتهن حصانه ويقود بجام الحصان بشماله . وعندما يكون الفارس واقفاً فإن الترس كان يغطي الفارس من عنقه حتى رجليه وتتوفر له الحماية في وقت يكون التسلیح الشخصی وأدواته غير كافية وغير ملائمة لتوفير الحماية الكاملة للفارس .

وفي أثناء وأحداث الحملة الصليبية الأولى التقى الفرنجة مصادفة بالترس الدائري الذى كان سائداً في منطقة الشرق العربي الإسلامي، وهو الترس الذى كان جيد الاستخدام من الناحية العملية في مجال الفروسية ، بيد أنه كان غير ملائم في الحرب التي تعتمد على المحاربين المشاة. ومن المحتمل أن الصليبيين قد تأثروا بهذا الترس الشرقي منذ وقت مبكر. وعلى أية حال ، فإن التطورات الأولى في مجال التسلیح قد سارت في نفس الاتجاه ، على الرغم من أن الترس الدائري لم يصبح مقعداً.

وفي النصف الثاني من القرن الثاني عشر الميلادي، ومع تطور الشبكة المتراپطة المدرعة، أصبح الترس القديم مهجوراً وتخلى الفرسان عن استخدامه . إذ كان الترس الجديد قصيراً ، بحيث يغطي صدر ويطي الفارس ويعطى حرية حركة لهذا الفارس الذى يستخدمه في أثناء

الحرب . وكان شكل الترس الجديد دائرياً أو مثلث الشكل قصيراً وغليظاً ، وظل هذا الشكل من الترس طوال القرن الثالث عشر . ومع تطور شعار النبالة للفروسية في العصور الوسطى، أصبح الترس مزخرفاً بهذا الشعار . وهكذا تكررت أنماط من الترس ، وأنماط من المدفع الذي يرتديه الفرسان وال ZX الفارس تزيين سرج الحصان .

وكانت الأسلحة الرئيسية للفارس المحارب تشمل ، الرمح ، والسيف ، وقضيب تكسير الدروع mace وفأس المعركة battle axe (الطبر) . وأصبحت فأس المعركة (الطبر) بالإضافة إلى الراية المثلثة التي تعلق في رأس الرمح علامة بارزة وميزة للفارس في العصور الوسطى . وكان الفارس عندما يمتهن صهوة جواده يعلق الرمح في ذراعه الأيمن ويستخدمه في أعمال الطعن ، وكان يمكن للفارس أيضاً أن يقذف هذا الرمح في وجه الأعداء . وما يذكر أن قصبة الرمح كانت تصنع من خشب الدردار ash وينتهي طرفه برأس حديدي ، وقد اختلف شكل هذه الرأس من رمح إلى آخر . وإذا اضطرت الظروف للفارس أن يحارب على الأقدام فإنه كان يستطيع أن يستخدم رأس الرمح في طعن الأعداء ، على الرغم من أن حدة وقوه رأس الرمح لم تكن ملائمة لهذا الغرض * . وأخيراً كان يوجد السيف ضمن الأسلحة التي يستخدمها الفارس في الحرب . وفي القرن الثاني عشر كان النمط السائد للسيوف هو السياف القصير ، وكان يشبه السيف الروماني . وكان السيف ذا حدين ينتهي بطرف على شكل مثلث ، وكان النمط الثاني للسيوف أكثر أناقة وروعة ، وكان أضيق إلى الحافة . وفي العادة كان مقبض السيف دائرياً ومسطحاً ، مع أن الأشكال الأخرى للسيوف كانت شائعة بشكل واضح . وكان غمد السيف مصنوعاً من الجلد ومدعماً بالقراب المعدنية ذي الحلقة التي تعلقه بالمزرام achape وتركيبات معدنية أخرى ، وكان يعلق في العنق أو الكتف ، وأخيراً كان يعلق في خصر الفارس . وفي أثناء القرن الثالث عشر الميلادي ، أصبح السيف أكبر حجماً ، وأثقل وزناً ، وأكثر حدة ومضاءً . وأصبح ذا فعالية عالية في مواجهة التسلية الشخصي الأكثر تطوراً . وبالإضافة إلى ذلك ، فإننا أحياناً نسمع عن القصبان التي كانت تستخدم في تكسير الدروع axes والمفتوش maces كعناصر أساسية من عدة الفارس وأسلحته . لقد كانت عملية إعداد

* لقد ظهرت صور الرماح على معظم أختام الحكام الصليبيين ، وكان النمط المألوف والشائع لهذه الرماح المقدمة عبارة عن فارس يعود بفرسه بسرعة حاماً ومحماً ، ونادرًا ما كانت السيوف تصور على الأختام الصليبية (المؤلف) .

الفارس وتسلیحه أمر باهظ التکالیف. ففى القرن الثالث عشر كان الاسبیاریة يقدرون تکلفة تسلیح الفارس ببلغ يتراوح من ١٥٠٠ - ٢٠٠٠ دینار فضی من الدنانیر التورونیة، وكان البند الأساسي للاتفاق يتمثل فى شراء الحصان.

وعلى الجانب الآخر، فإن تجهیز واعداد المحارب المشاه كان أقل تکلفة من الفارس . ولاشك أن المرء يستطيع تصوّر وتخیل مستوى التسلیح من خلال الوصف الذى ذكره «قانون الجیوش» Assize of Arms الذى دون فى عهد الملك الانجليزی فى عام (١١٨٤م)* . وفي العادة كان المؤرخون اللاتین يصفون المحارب المشاه بأنه أقل تسلیحًا من الفارس الراكب . وجاء وصف المحارب المشاه جيد التسلیح على لسان شاعر الترويادور الشهير امبرواز Ambroise وذلك في أثناء الحملة الصلیبية الثالثة حيث قال : لقد كان الجنود المشاه في الحملة الصلیبية الثالثة يلبسون الخوذات فوق رؤسهم ، ويلبسون الدروع ، والرماح، ويحملون القپبان الحديدیة الخاصة بتکسیر الدروع Armes do Coife , de haubere, de Parpoint a meintbel mere. والترجمة التوضیحیة لهذه الفقرة اللاتینیة هي: أن المحارب المشاه كان جيد التسلیح تماما طبقا لعادة المحارب المشاه، إذ كان يرتدى فوق رأسه غطاً حديدياً (خوذة) لحماية رأسه ، ومزوداً بدروع hauberk، وبدلة کتابية سبیكة (التنک Tunic) يصعب اختراقها بواسطة السهام، وكانت خیاطتها ذات شکل ساذج . ومن ثم كانت تعرف في اللغة العامیة باسم سترة رجالیة apourpoint . وكانت ملابس ومعدات الحماية أقل اتقانًا ، وكانت هذه المعدات تشمل، القبعة الحديدیة وواقی الصدر المصنوع من الجلد أو الكتان السمیك والمبطن ، والرمح ، والقوس ، وأحيانا النشابیة Crossbour ، والخنجر adgger .

* يحدد قانون الجیوش The Assize of Arms الصادر في عام ١١٨١ أسلحة الفارس وكانت تشمل القميص المزدوج الدرع ، والخوذة ، والترس Shield ، والرمح Rance . وكانت أسلحة المحارب المشاه من العلمانيين الفقراء، تشمل السترة الواقية، والقبعة الحديدیة Iron cap، والرمح . وكانت أسلحة المحارب الذى ينتمى إلى طبقة البرجوازیة الأحرار تشمل : السترة الواقية ، وقبعة حديديه، وبعد مائة عام أمكن احصاء أسلحة المحاربين الأنثرباء وذلك من خلال قمثال الملك ادوارد الأول في مانشستر في عام (١٢٨٥) وكانت هذه الأسلحة تشمل : سترة واقية ، قبعة حديديه، سيف ، سکین، حصان . وكانت أسلحة المحاربين الأقل ثراءً تشمل : نفس الأسلحة السابقة ماعدا الحصان . وكانت أسلحة المحاربين من عامة الناس تشمل : سترة رجالیة Pourpoint ، وقبعة حديديه ، وسيف ، وسکین ، وقوس ، وسهام (المؤلف).

هـ - المغرب

وفي مجال الحرب كان على الصليبيين أن يتعاملوا مع جيوش لم يعرفها الغرب الأوروبي وهى الجيوش الإسلامية ، وكان البيزنطيون على دراية بهذه الجيوش الإسلامية من خلال التلاقي بينهما في مجال الحرب . وفي القرن الثاني عشر الميلادي ، كان يوجد اختلاف واضح بين الجيوش المصرية والجيوش الإسلامية الأخرى في بلاد الشام والعراق . فقد كان الفارس المصري يحارب بالسيف والرمح ، مثل المحاربين الصليبيين ، بالرغم من أن هذا التسلیح كان خفيفاً . ولم يغفل الصليبيون قيمة مكانة مصر العسكرية . وكان الخطر الحقيقي المحدق بالصليبيين يأتي من الجيوش الإسلامية المرابطة في الشمال . وهنا استطاع الغزو السلاجوقى أن يدخل مبدأ ابتزاز المال والسلب والنهب إلى الفروسية الإسلامية ، وقد استمر هذا المبدأ تقليداً في العسكرية العربية الإسلامية ، وقتل النمط الجديد للمحارب والخطط العسكرية الجديدة في المحارب التركى السلاجوقى الراكب الذى يرمى السهام .

كان القوس والنشابية من الأسلحة المعروفة لدى كل من الجيوش في منطقة الشرق العربي الإسلامي والغرب الأوروبي على السواء . وحتى في أوروبا لم يستخدم القوس مدة طويلة قبل القرن الثاني عشر الميلادي وكانت فروسية العصور الوسطى الأوروبية تزدري استخدام القوس في الحرب . ومن الناحية الفعلية كان استخدام القوس يجعل على المحارب مزيداً من الخزي والحط من قدرة أولئك الذين يستخدمونه من المحاربين من غير طبقة البلاء . فقد كان البلاء يستخدمون القوس في الصيد ، بيد أن اطلاق السهام أو السهام القصيرة في المعركة كان يعتبر بالتحديد شكلاً مألوفاً من أشكال القتال وال الحرب في العصور الوسطى . وببدو أن تطوراً متوازناً لاستخدام القوس وإطلاق السهام قد حدث لدى الجيوش الإسلامية ، فعلى سبيل المثال كان رماة السهام في الجيش المصري من المشاة وكان يتم تجنيدهم من الجنود السودان .

وقد تم هذا التغير والتحول في استخدام القوس على يد الأتراك السلاجقة . فقد كان السلاجقة الأتراك قبل مجئتهم إلى منطقة الشرق العربي الإسلامي يعيشون حياة قبلية في منطقة آسيا الصغرى وعندما حضروا إلى المنطقة العربية جلبوا معهم تقنيات جديدة للحرب تتمثلت في رماة السهام الراكيبين الفرسان الذين يتحركون في خفة وسرعة . وهكذا أصبح القوس سلاحاً حاسماً في المراحل الأولى من أية معركة (وأحياناً كان القوس أداة من أدوات النصر والظفر في المعركة) ، ثم يتبعه القتال باستخدام الرمح ، والسيف ، وقضيب تكسير الدروع ،

والفالس (الطبر) ، والمنجور. وكانت مزايا هذا الخطط العسكرية (التكلبات) واضحة عند استخدامها ضد عدو لم يألف مثل هذا النمط من القتال .

وكان تحرك الجيوش هو العامل الحاسم في المعركة. فقد كان ثقل وزن العتاد العسكري والتسلیح الصليبي يفرض عليهم استخدام خيول ضخمة وقوية ، ومن الطبيعي أن تكون حركة هذه الخيول الضخمة بطيئة ، ولذا كان الجيش الصليبي في أثناء الزحف يتکبد الخسائر. وتوضّح لنا الكثير من أوصاف المعارك هذه الحقيقة ، إذ كانت سرايا الخيالة المسلمين من رماة السهام تصل إلى طابور المغاربة الصليبيين بسرعة مذهلة تصل إلى ٨٠-٥ ميل في الساعة، حيث كانت قطع الجيش الصليبي بوايل من السهام، ثم تختفى هذه القوات الخفيفة والسريعة الحركة بنفس السرعة التي أتت بها ، وبعد مدة قصيرة تكرر الهجوم على الجيش الصليبي مرة أخرى*. وما يذكر أن هذه الهجمات المتكررة كانت توجه ضد مؤخرة الجيش الصليبي وأطرافه دون القلب . وثمة عدد من المؤرخين المعاصرین تركوا لنا وصفاً حياً لبعض الأحداث لهذه المعارك التي دارت رحاها بين الجيش الإسلامي والجيش الصليبي ، فقد وصف هؤلاء المؤرخون الجيش الإسلامي بالنحل الذي يحوم حول الجيش الصليبي بسبب سرعة وخفة الحركة.

وجلب هذا الأسلوب من القتال على المغاربة الصليبيين الكثير من الخسائر والأضرار المروعة . فلم يكن السيف ، أو الرمح ، ولا الرماح الطويلة ذات تأثير حاسم في مواجهة رماة السهام الراكبة المسلمين الذين كانوا يهاجمون مؤخرة الجيش الصليبي من وراء خطوطها . بيد أن العتاد العسكري الصليبي الشقيق كان يقدّره أن يوفر الحماية لهذه القوات الصليبية والصمود في مواجهة السهام المنهرة ، وفي بعض الأحيان كان المؤرخون المعاصرین يصفون الترسos الواقية shields الصليبية والسترات الواقية Coats بعد هجوم رماة السهام المسلمين بأنها مثل القرارض Porcupine . فإذا فشل الدرع الواقى للفارس الصليبي mail في حمايته فإنه يصبح عرضة للإصابة والمجروح . وعلاوة على ذلك ، فإن الجيش الإسلامي قد استفادت

* يمكن القول في هذا الصدد أن هذه القوات الإسلامية الخفيفة كانت تتبع طريقة الكر والفر ، وهي الطريقة التي عرفتها الجيوش الإسلامية منذ عهد الرسول عليه الصلاة والسلام ، ولم تكن هذه الطريقة من ابداع العقلية العسكرية السلجوقيّة ، ولكنها خطّة مقتبسة عرفتها الجيوش الإسلامية قبل الصراع الإسلامي الصليبي بوقت طويل (المترجم) .

من حقيقة أنه في القرنين الثاني عشر والثالث عشر من الميلاد لم يعد من الممكن حماية الخيول من السهام والحراب المصوبة ضدها في ميدان المعركة. ومن ثم، فإنه أصبح من السهل انزال الفارس عن سرجه بعد أن يقتل حصانه ، وبعد أن يتراجل الفارس يصبح محدود الحركة وقلما كان يستطيع الصمود أمام هجوم أي محارب راكم (فارس) من الأعداء .

لقد كان نمط وأسلوب الحرب السلجوقية التركية يمثل تحدياً للعسكرية الأوروبية الغربية في العصور الوسطى. فقد جلب الأتراك السلاجقة معهم اثنين من الحلول العسكرية : الأول هو نمط جديد من المحاربين ، وهم التركبولي *Turcoples* * ، والثاني هو تطور خططهم العسكرية لمواجهة الخطر ، فقد كان التركبولي بمثابة سرايا خيالة من الأتراك تحارب من فوق ظهور الخيول ، بيد أننا عندما نتفحص النصوص بدقة نجد أنها تشير إلى مسألة القوات التركبولي بشكل أكثر تعقيداً . فاسم التركبولي في حد ذاته يعني «أبناء الترك»، وتصفهم المصادر التاريخية اللاتينية بأنهم قوات من المولددين أي من نسل مختلط وهم الذين ينحدرون من أب تركي أو عربي وأم بيزنطية . وكان هؤلاء التركبولي يتم تجنيدهم داخل المملكة الصليبية نفسها ، على الرغم من أن بعضهم ربما كانوا من المهاجرين الجدد الذين نزحوا من شمال المملكة الصليبية. وفي وقت ما تغير التركيب الثاني (العرقي) لهذه القوات التي كانت تعرف باسم التركبولي ، وأصبح التركبولي *Turcopole* ينطبق على هذا النمط المهم من المحاربين بغض النظر عن الأصل العرقي أو العنصري .

وتخبرنا إحدى روايات الترويادور الشهير أمبرواز Ambroise الذي شارك في أحداث الحملة الصليبية الثالثة أن قوات التركبولي كانت لهم ملابس خاصة وقد أمروا أن يلتزموا الصمت ولم يظهر أنهم كانوا يتحدثون اللغة العربية. وفي فترة متأخرة ، كان يتم تجنيدهم من بين السكان المحليين الصليبيين. وهكذا وصف التركبولي بأنهم فرسان (أو خيالة) مزودين بأسلحة خفيفة ، على الرغم من أنه لم يكن هناك ما يؤكّد أنهم كانوا يحاربون كرامة للسهام

* التركبولي *turcoples*

كلمة محرفة من *Turcopole* وهم الجنود المجنون الذين كانوا في خدمة الأفرنج ، فكان آباءهم من الأتراك أو العرب وأمهاتهم بيزنطيات وكانت رمأة الأفرنج . وقد ورد ذكرهم كثيراً في تاريخ العصر انظر: العمامي الاصفهاني : الفتح القدس ، ص ٤٢٥ (المترجم) .

الراكبة على وجه الخصر . ومن الواضح أن بعض التركبولي قد استخدمو القوس Bow، بيد أنهم بشكل عام لم يصبحوا نسخة صليبية لنموذج المحاربين السلاجقة من رماة السهام الراكبة*. ومن المحتمل أن قوات التركبولي قد استمرت كقوات خفيفة حتى في أثناء القرن الثالث عشر عندما أصبح السلاح أثقل بشكل تصاعدي . وهكذا استخدمت التركبولية خيراً أسرع من خيول الفرسان وتم استخدامهم في مهام الاستطلاع وكطليعة للجيش ، وكذلك في عمليات الغزو والسلب والنهب . وأصبح التركبولي جزءاً وقساً مكملاً للجيوش الصليبية ، ويُخضعون لقيادة مارشال الملكة الصليبية، حيث كان المارشال يصدر أوامره العسكرية لهذه القوات من التركبولي وكان عليها تنفيذ هذه الأوامر بكل دقة.

لقد كانت قوات التركبولي Turcoples الصليبية أفضل مظهر للتحدي العسكري الذي فرضه الأتراك السلاجقة في منطقة الشرق العربي الإسلامي. فلم تستطع الفروسية الصليبية أن تتكيف مع أسلوب وطريقة الحرب التركية السلجوقية، وذلك لأن مثل هذا التكيف كان يتطلب جرعة كبيرة من التدريب المتكرر على الخطط العسكرية الجديدة . وكانت الاستجابة العسكرية تتمثل في استخدام رماة السهام archers وحملة الأقواس رماة السهام المشاة . فلم يستطع المشاه الأوروبيون الذين من الفلاحين أن يهجروا أبداً استخدام القوس (النشاب) والذي كان يشمل الرمح Pike والترس Shield ، وظل القوس السلاح الرئيسي للمحاربين الفلاحين في أوروبا العصور الوسطى . ففي أوروبا لم يكن برماء السهام المساعدين أية أهمية حتى مجىء القوس الطويل إلى أوروبا في القرنين الثالث عشر والرابع عشر من الميلاد . وقد تطورت خطط العسكرية في الشرق بشكل مختلف ووجد الصليبيون في استعدادات المحاربين من رماة السهام . استجابة عسكرية للتحدي التركي السلجوقي الذي فرض نفسه في ذلك الوقت . فقد كانت وحدات حاملة الأقواس ورماء السهام تقف أمام سرايا الفرسان الراكبة . وكانت سهامهم وحرابهم يجعل رماة السهام الراكبة للعدو يبقون عند مسافة مناسبة من الجيش الرئيسي وتحمي الفرسان الصليبيين . وكان تبادل اطلاق القذائف والسهام بين رماة وحاملة السهام الصليبيين وبين رماة السهام السلاجقة الراكبة يستمر لوقت طويل ينتظر خلالها الفرسان . وعندئذ وفي

* كان العرب يعرفون اسم «التركبولي»، وقد حدد أسامة بن منقذ «التركبولي» بأنهم رماة السهام من الفرسنة . وهذا النص يتعلّق بamarة طرابلس الصليبية (المؤلف) .

اللحظة المناسبة تبدأ قوات المشاة المشاركة في المعركة وينقض الفرسان الصليبيون على أعدائهم بكثافة عالية وقوة كبيرة.

ولاشك أن مزايا استخدام الجيش لرماة السهام المشاة كانت واضحة ، بيد أنه كان يوجد أيضًا بعض عمليات التقهقر والتردد . وكانت مثل هذه الخطط والتكتيكات العسكرية أكثر ملاءمة للمعارك الضاربة التي تشهد التحام الجيوش وجهاً لوجه من تلك المعارك التي كانت تتم في صورة مناورات متقلقة من مكان إلى آخر. وكان التحرك البطيء لقوات المشاة يساهم في سرعة تقدم القوات الأخرى . وهكذا كان يمكن كبح جماع الخيالة السريعة. وهذا ينسن لنا قيام الأتراك السلاغقة بنصب دائرة حول الجيش الصليبي. ومرة ثانية عندما كانت الحملة العسكرية تجمع ما بين التقدم والتوقف ، فإن أمان الجيش الصليبي كان يعتمد على التحام وقاسك كل قواته ، هذا الالتحام والتماسك الذي لم يكن من السهل المحافظة عليه. بالإضافة إلى ذلك ، فإنه كان من السهل على القوات الإسلامية من الأتراك السلاغقة اطلاق القذائف والسهام المنهمرة على الجيوش الصليبية التي كانت مؤلفة من وحدات مدمجة ومتراصة مكشوفة واضحة ، وذلك عند نجاحهم في الاقتراب من الوصول إلى الجيش الصليبي إلى داخل منطقة مرمى اطلاق القذائف . وهكذا فإن قوات صلاح الدين الأيوبي ، تحركت من فوق تل جبلي مرتفع في الجهة اليسرى من الجيش الصليبي عندما زحف الملك ريتشارد قلب الأسد من عكا إلى يافا ، واستطاع صلاح الدين شن غارات متكررة لعدة أيام ضد الجيش الصليبي ولم يتکبد جيش صلاح الدين أية خسائر.

لقد كان نجاح الجيش الصليبي في معاركة ضد المسلمين يعتمد بشكل كبير على نظامه الداخلي ، وخاصة التزام الفرسان من عدمأخذ المبادرة والاختراق خلال قواتهم من المشاة ، تلك القوات التي كانت توفر للفرسان الحماية. ولاشك أن عملية قتل عدد من الشباب المحاربين في أي جيش من الجيوش الصليبية أو الجيوش الإسلامية كانت مشكلة لدى كلا من الجيشين على السواء ، بيد أنه في العصور الوسطى عندما كان النزال والصراع الفردي يمثل أعلى وأرقى امتحان يخوضه أي فارس ولاسيما إذا كان هذا الفارس جاء بصحبة قوات (في الحملة الصليبية الثالثة) من كل أنحاء أوروبا لمحاربة المسلمين الهراطقة ، فإن مثل هذه الخطط العسكرية الدقيقة تبدو وكأنها من قبيل التسويف وليس لها علاقة بالفروسيّة . وعلى ضوء هذا يمكن تفسير نجاح استراتيجية المحاربين الراكيبة السلو gioque أو المغولية ضد الصليبيين

والتي كانت تمثل في شن حرب كاذبة صورية ثم يتبعها التفاف وحصار مفاجئ ضد جيش الأعداء الصليبيين. وكان يعقب ذلك انهيار معنويات الأعداء ويفتقد كل محارب صليبي ويشعر بأن قوات جيشه قد أصابها الانهيار والتفسخ؛ والأكثر أهمية هو أن الفارس الراكب قد أصبح منفصلاً عن رماة السهام المشاة ولذا أصبح هذا الفارس الراكب أكثر عرضة للقذائف رامي السهام الراكب المسلم والذى لم يستطع أن يلتقط مع الفارس الصليبي بالسيف أو الرمح. وما كان يحدث لسرايا خيالة مستقلة وقائمة بذاتها في تعقب ومطاردة قوات العدو يتظاهر بالانسحاب والهروب كان يمكن أن يحدث لكل الجيش وذلك في حالة نجاح العدو في فصل وعزل الفرسان عن قوات المشاة. وقد حدث مثل هذا على أرض الواقع في أثناء موقعة خطين الشهيرة، حيث استطاع الجيش الإسلامي بقيادة صلاح الدين فصل الفرسان الصليبيين عن قوات الصليبيين المشاة.

وما يذكر أن جاك الفيتري *Jacque de Vitry* أسقف عكا الصليبي قد وصف بوضوح أحد أحداث احدى العمليات العسكرية في أثناء حصار دمياط في إطار الحملة الصليبية الخامسة فقال:

«لقد استطاع المحاربون المصريون آسر عدد من فرساننا وقواتنا المشاه (التركمانية) بعد أن جرحت خيولهم، ويرجع سبب هذا الأسر إلى ذهاب الفرسان الصليبيين إلى جمع الخشب أو من أجل جمع الحبوب، أو أنها ضلت الطريق بعيداً عن الجيش، ولم يستطع فرساننا تأجيل عملية الاشتباك العسكري حتى يجتمع شمل جيشه وتتكتل قواته. وأحياناً سقطت بعض قواتنا في الأسر، وهي القوات التي كانت تتبع قوات المسلمين المصريين التي كانت تتظاهر بالانسحاب والهروب».

وفي إحدى خطابات جاك الفيتري أسقف عكا يقول: «وسبب حلول ويقظة المسلمين، لم يجرؤوا على دخول معركة ضدنا إلا إذا كانوا أكبر عدداً وأكثروا عدته وتفوق عسكري، ولذا فإنهم استطاعوا أن يأسروا من قواتنا عدداً يزيد عن الثلاثة آلاف، في حين إننا لم نستطع آسر عدد من المسلمين أكثر من ألف محارب. كان الاختلاف بين الجيوش الإسلامية والجيوش الصليبية في الخطط العسكرية ذات تأثير واضح وكبير في كيفية اختيار كلاهما لأرض المعركة. فقد كان المسلمون أكثر اهتماماً باختيار أرض وغارة مكشوفة، وهي الأرض التي كانت تمنع فرسانهم المحاربين سرعة المناورة وخففة الحركة. بالإضافة إلى أن الأرض الوعرة كانت تعوق

الخطط العسكرية الصليبية المزعجة والتي كانت تمثل في هجوم الخيالة الصليبية الشقيقة المباشر والباغت والذي يحتاج إلى أرض مستوية دون عوائق.

كان هجوم الجيش الصليبي المتحرك والقاذف التي يطلقها من مسافة بعيدة ، يعد من المزايا التي تستفيد منها الجيوش الإسلامية ، وظلت قوة الاصطدام بشابة القوة الرئيسية للجيوش الصليبية. حيث كان الهجوم المفاجيء للفرسان الصليبيين الراكيبة عن طريق تحرك عدد كبير من الفرسان المزودين بزرديات يعطون صهوة جيادهم الشقيقة ، ويحصلون الرماح التي تستخدم في الطعن، ومزودين بترس من العنق إلى الفخذ ، ينهيهم قوة دافعة إلى أن تبدأ اللحظة الخامسة للمعركة . وكان الهدف من هذه التظاهرة العسكرية هو تزيف قوات العدو وتحطيمها ، واختراقها وتحطيم خيالاتها الخفيفة والسيطرة على زمام المعركة وحسمها . وإذا لم يكن الصدام الأول حاسماً في المعركة ، فإن العدو يستطيع أن يستخدم أجنحة جيشه للهجوم من أحد الجانبين - وذلك إذا القلب هو هدف الهجوم - أو إذا كان لديه الوقت الكافي لاحضار قواته الاحتياطية للاشتراك في المعركة . وهكذا فإن القوة العسكرية والوقت الصحيح المناسب لبدء الهجوم الأول المفاجيء كانا يلعبان دوراً مهماً ورئيسياً في حسم الصراع العسكري لصالح أي من القوتين المتصارعتين الإسلامية والصليبية . ولكن عادة لم يكن الهجوم الصليبي ضد القوات الإسلامية ناجحاً وذلك لأن الصليبيين لم تكون لديهم القوة الكافية لهذا الهجوم العسكري والكافية أيضاً للصمود والمقاومة ، ولذا كان الصليبيون ينذرون من أجل استقدام أكبر عدد من قوات المسلمين إلى داخل نطاق هجومهم الباغت . وهذا يعني أن المناورة كانت من أجل استقدام قوات العدو ومواجهتها مباشرة والالتحام معها مباشرة فوق أرض مكشوفة مستوية خلفها التلال والعوائق الطبيعية الأخرى التي تعوق تشتت قوات العدو في أثناء لحظة الهجوم الصليبي الباغت . وفي حالة الهجوم الصليبي الباغت كان من الممكن أن يحرزوا النصر ضد قوات المسلمين ، ومع ذلك فإن قوات المسلمين كانت في العادة تستطيع أن تدرك هذه المناورة وتعترف بالهزيمة ولكن بعد فوات الأوان بوقت قليل .

لقد كانت الاستجابة الإسلامية العسكرية لهذا الهجوم الصليبي الباغت والتي أثبتت جدواها خلال الصراع الإسلامي الصليبي وبعده . تتمثل في فتح الجبهات والثغرات في لحظة الهجوم العنيف . فقد كانت القوات الإسلامية قبل المعركة مباشرة تكشف عن قواتها وتتنقض على القوات الصليبية مثل الاعصار المدمر. وما يذكر أن معظم خطط وعمليات الهجوم

الصليبي المفاجىء، كانت من تخطيط القائد الصليبي ريموند أمير طرابلس في موقعة حطين. فقد انتشرت القوات الإسلامية بقيادة صلاح الدين وبدأ الفرسان المسلمين في التحرك في السهل خلال معركة حطين وعندئذ تحركوا خلال وادي إلى بحيرة طبرية، وكان انفصال وانحسار القوات الصليبية خدمة لهذه القوات الصليبية، بيد أنها لم تستطع أن تلعن الضرر بالقوات الإسلامية. وظل الملك الصليبي جي لوزجان بصحبة جيش ضعيف، وبعد أن فقد الأمل في النصر ذهب إلى ملجأ مؤقت يعصمه من الموت، في مرتفع بين قمتين، وهو تل قرون حطين.

أدوات وتقنيات الحصار

وعلى الرغم من أن فن الحصار العسكري في الغرب الأوروبي كان يفتقر إلى الحذق والبراعة، فإن الصليبيين قد واجهتهم مشكلات جديدة من جراء العمارة الحربية التي وجدوها في منطقة الشرق العربي الإسلامي. الواقع أن المدن والقلاع في منطقة الشرق العربي الإسلامي قد شيدت من الأحجار، في الوقت الذي كان استخدام الأحجار في بناء المدن والقلاع الأوروبية نادراً بشكل عام، الأمر الذي يرهن على عدم الوصول واختراق هذه المدن والقلاع في المنطقة العربية من خلال عمليات الحصار العادي. لقد كان العائق والصعوبة التي تقف في وجه الخبرة الصليبية يكمن في أبعاد وحجم هذه التحصينات والقلاع العربية وقوتها، وتراجع قوة وصلابة هذه التحصينات والقلاع في المنطقة العربية إلى عاملين، هما قوة مواد البناء المستخدمة في تشييد هذه القلاع والمحصون وحجمها الكبير، ولذا صمدت طويلاً أمام قوة الغزاة الصليبيين المحاصرين، ومن قبل فرضت هذه التحصينات على البيزنطيين ثم المسلمين بعد ذلك تطوير أدوات الحصار من خلال تكتيكات استحدثها الخبراء العسكريون في الجيوش البيزنطية والإسلامية. وما يذكر أن جيوش الحملة الصليبية لم تضم بين أفرادها أي خبير في أعمال الحصار العسكري. فقد سقطت المدن والقلاع التي حاصرها الصليبيون عن طريق وسائلين كانتا معروفتين في أوروبا آنذاك: وهما الحصار المحكم، الذي يؤدي إلى قطع الإمداد والمؤن عن القلعة أو المحصن والقضاء المبرم على أفراد гарمة العسكرية بفعل الجوع أو الموت جوعاً بسبب الحصار، والوسيلة الثانية هي الهجوم المباشر على الأسوار بواسطة السلاسل أو بواسطة الأبراج المتحركة المزودة ببرؤوس جسر متعددة للصعود والتسلق إلى أسطح المحصون. وثمة حادثة في قصة حصار الصليبيين لمدينة بيت المقدس في عام ١٠٩٩ تصوّر لنا هذه الطريقة من

الحصار . وكان حصار المدينة الكبيرة من جانب الصليبيين يستغرق وقتاً طويلاً، وذلك لأن محاولات الهجوم المفاجئ ، ضد هذه المدينة كانت عادة تنتهي بالاخفاق والفشل . فقد ساهم الأسطول الجنوبي مساهمة كبيرة في نجاح الحصار الصليبي على يافا ثم سقوطها في يد الصليبيين. حيث قام بحارة السفن الجنوية بتفكيك سفنهم وتحركوا عبر فلسطين والقدس يحملون معهم صوارى المراكب وأخشابها وعوارضها التي استخدموها في بناء الأبراج المتحركة التي سهلت لهم حصار المدينة واحتلالها . وكان من الواضح أن الجيوش الصليبية كانت تفتقر إلى مهندسين وخبراء متخصصين في أعمال الحصار.

ولاشك أن الصليبيين قد تعلموا من الحصار من المسلمين والبيزنطيين . وبعد أحداث الحملة الصليبية ببعض سنين استطاع الصليبيون ممارسة واستخدام تقنيات جديدة في فن الحصار . ويكمننا أن نزعم بيقين أن الصليبيين قد اكتسبوا هذه التقنيات من خلال اتصالاتهم وعلاقتهم الطيبة مع الجانب البيزنطي أوالأرمني أو من خلال حروفهم ضد أعدائهم المسلمين . ولم تستطع هذه التقنيات الجديدة في فن الحصار أن تحمل محل التقاليد القديمة تماماً . ولم يصبح فن الحصار الصليبي ممارسة جديدة ، بل كان مزيجاً من التقاليد القديمة والمتحدة استخدم وقت الحاجة.

ومن الملاحظ ، أن فن الحصار يعني استخدام كل الوسائل من أجل اسقاط القلعة أو المحسن ، سواء بواسطة الهجوم المباشر أو المباغت أو بواسطة زرع الألغام أو أحداث نفق تحت أساسات القلعة أو المحسن ، أو عن طريق أحداث مجاعة مهلكة لأفراد الحامية العسكرية . ومنع المؤن والمداد عن هؤلاء الأفراد ، ولاسيما أن أفراد الحامية في القلائع في منطقة الشرق العربي كانت تخزن المؤن والأمدادات التموينية في القلعة والتي كانت تكفي أفراد الحامية من الطعام والشراب لمدة أربعة أيام . وباستثناء بعض الظروف الخاصة لم يستطع الجيش الصليبي أن يفرض حصاراً طويلاً الأمد . وهكذا قلماً كان قطع المؤن والأمدادات التموينية عن أفراد الحامية العسكرية للحصون من الوسائل والسبل الملائمة لاحتلال مدينة . وبالإضافة إلى ذلك ، فإن الجيوش الصليبية صغيرة العدد كانت غير قادرة على فرض الحصار المحكم على بعض المدن الكبيرة . ففي الحملة الصليبية الثالثة استطاع الصليبيون احكام حصارهم لمدينة عكا ذات المساحة الصغيرة نسبياً.

وهكذا كان أمام الصليبيين اختيار واحد فقط وهو احتلال المدينة بواسطة الهجوم المباغت والمفاجئ . ويرجع السبب في ذلك إلى قلة عدد الجيوش الصليبية والتي لم تكن آلية مقبولة.

لاستخدامها في الحصار . وما يذكر أن الطريقة الفنية للحصار ترجع إلى العصر القديم ، وقد اشتقت طريقة الحصار الصليبي من خلال الخبرات اليونانية ، والرومانية ، والبيزنطية ، وتأثرت هذه الخبرات السابقة بفن الحصار الآشوري ، والمصري ، والبابلية ، والفارسي . واستفادت الأقطار الإسلامية بالخالي من هذه الخبرات السابقة في مجال فن الحصار العسكري ، كما استفادت أيضاً من التأثيرات المتراكمة من الخبرة الصليبية في هذا المجال .

وكانت هناك ثلاثة طرق ووسائل لحصار أسوار المصنون أو القلعة: وهي تسلق هذه الأسوار بواسطة سلام ، واستخدام الأبراج المتحركة التي لم يقتصر دورها فقط على منع إطلاق القذائف من داخل المصنون بل كانت أيضاً تتحرك هذه الأبراج الحربية تجاه أسوار المصنون ويمتد منها قناطر وجسور متحركة على سطح المصنون أو القلعة . وكانت وسيلة الحصار الثالثة تتمثل في إحداث ثغرات في الأسوار أو الأبراج بواسطة إطلاق قذائف المجنح بقوة وعنف أو تفريض أساسات مبني المصنون أو القلعة بواسطة آلة حربية تعرف باسم «الكباش» وهي الآلات الحربية التي كانت تستخدم لهدم الأسوار في أثناء الحصار .

وكان كل أسلوب من أساليب الحصار الثلاثة (تسلق الأسوار بواسطة سلام- الأبراج المتحركة- إحداث ثغرات وهدم الأسوار بواسطة المجنح وآلة الكباش) يهدف أولاً إلى عبور المندق المائي المحيط بالقلعة والذي كان اتساعه يتراوح ما بين ٢٢-١٥ ياردة . وقد ذكرت مثل الخنادق المملوءة بالماء والمحاطة بالقلعة خلال فترة الحروب الصليبية . وكان يتم تفضيل قوات المشاة في الخواص مثل هذه المهمة، بيد أنه في حالة الطوارئ، كان الفرسان أيضاً يشاركون في هذه المهمة البسيطة . ويستطيع المرء أن يقف على حقيقة مشاعر أولئك الفرسان الذين أعلنوا في «قانون بلبيس Assise of Belbeis» أن الفارس غير ملزم بالنزول من على فرسه في أوقات الحصار .

ولم تكن هذه الخنادق المائية تشكل عقبة وعائقاً أمام المحاصرين فقط، بل كانت أيضاً خطيرة . وكان كل المحاربين المدافعين عن القلعة يهددون إلى بسط سيطرتهم على المنطقة الواقعة أمام المندق وهي المنطقة التي كان العدو حريضاً على أن يحلق حولها ويتركز بها وحول المندق نفسه . وكان المدافعون يطلقون وأبلاً من القذائف والسهام صوب قادة الجيش المعتمد والمحاصر، ولم تكن الترسوس كافية لحماية المحاربين المحاصرين، وذلك لأن هذه القذائف المنهمرة كانت تعوق عمل قوات الحصار، وكانت هذه القذائف تنهمر بقوة وباستمرار على رؤوس قوات

الحصار. وفي العادة كانت قوات الحصار تحاول أن تربيع من أمامها رماة السهام الذين كانوا يأخذون مواقعهم في شرفات على الأسوار، وكانت تستخدم الجدر المخارجية المتحركة من أجل حماية المغاربين الذين يطوقون الخندق . وسرعه كان يتم عمل غر فوقي الخندق وعندئذ كانت قوات الحصار تعد نفسها من أجل بدء وتنفيذ الهجوم المباشر على الأسوار. ويحاول المغاربون المثابرون تسلق السور بواسطة الجبال المزرودة بكلابات ، وقد سمعنا أنه في أحدى حالات الحصار كانت قوات الحصار تستخدم عدة وأدوات الحرب الخاصة بالحصان في تسلق الأسوار*. وسرعه كانت قوات الحصار تصل إلى أسطح الحصن، وكان يتم القاء سلام من جبال من أجل تسلق أجزاء من هذا السور أو رفع سلام للتسلق من خارج هذه الأسوار وعندئذ كانت القوات المهاجمة تتحرك مباشرة للوصول إلى بوابات الحصن وفتحها أمام باقي القوات المهاجمة . وكانت القوات الموجودة داخل الحصن والمدافعة عن نصب الماء المغلى والنفط، والقار، والشمع المنصهر على رؤوس قوات العدو التي تتسلق الأسوار. وقد تطلب عملية استقطاع القلعة أو الحصن المزيد من التوفيق ، وشجاعة وجرأة القوات التي تقوم بالحصار، فإن كانت الميائة من جانب بعض أفراد الحامية قد ساهمت بقدر كبير في استقطاع بعض القلاع والمدن في يد الصليبيين .

لقد شهدت معظم عمليات الحصار استخدام القوات المحاصرة المهاجمة لأنواع شتى من أدوات الحصار. إذ كان البرج المتحرك من أهم الحيل والوسائل المخربية وقد عرف باسم برج المجرس (في الكنيسة) becfry، وكان هذا البرج متعدد الطوابق ومزوداً بمواقع لرمادة السهام. ووُجد في كل طابق عدد من رماة النشاب . وكانت بعض هذه الشرفات أو المنصات كبيرة تكفي لإطلاق وابل من قذائف المنجنيق على الأسوار من جانب موقع القوات المهاجمة . وما يذكر أن المنصة العليا للبرج المتحرك كانت أعلى من الأسوار، وأيضاً كان يمكن إنزال جسر أو قنطرة متحركة على الجدار الموجود على سطح الحصن وعندئذ كان العدو المهاجم يستطيع أن يقتتحم جزءاً من أسوار المدينة . وكان هذا البرج يتحرك على بكرات أو يتحرك حول جزع شجرة وأحياناً على عجلات.

وحاول المحاصرون الموجودون داخل القلعة أو الحصن تدمير هذا البرج المتحرك becfry بواسطة القاء الأحجار الضخمة عليه، أو بواسطة اشعال النار فيه. وكانت الحامية المدافعة

* استخدمت مثل هذه الأدوات في أثناء حصار الظاهر بيبرس لمدينة قيسارية (المولف).

عن القلعة تحاول تدمير طابق البرج المتحرك واسقاطه وتدمير جزء منه. كما كانت القذائف المتهبة تطلق من داخل المدينة المحاصرة. حيث السهام المتهبة ، والسهام القصيرة المتهبة ، وأشعال النار التي كانت تعرف باسم النار الاغريقية . وكانت هذه النار الاغريقية خليطاً من مادة كيماوية ، وكبريت ، ونفط ، وقار ، وزيت ، وأحياناً كانت هذه النار تحتوى على خشب الصنوبر والبخور، إذ كانت هذه المواد تتوضع في فخار قابل للكسر، ولا يمكن اطفاء هذه النار بالماء. وقد وصف لنا المؤرخ اللاتيني جوانفييل مؤرخ سيرة الملك الفرنسي لويس التاسع النار الاغريقية في أثناء الحملة الصليبية السابعة على مصر فقال «... وكانت النار الاغريقية في الظاهر تشبه برمبل عصير الحصرم الضخم ، ذات ذيل مشتعل طويل يعادل طول سيف طويل. وكانت تحدث دويًا هائلاً وصوتاً يشبه الرعد، إذ كانت تبدو للناظرين كأنها تنين عنيف يشق طريقه في الفضاء . ولها ضوء عظيم، يحول الليل إلى نهار». وكانت مثل هذه القذائف النارية تطلق من المنجنيق، ومن أدوات آلية ، ذات رؤوس محرقة تطلق من خلال النشابات ولقاومة ومواجهة مثل هذه القذائف المحرقة كان يتم تغطية البرج المتحرك بجلود الحيوانات المذبوحة حديثاً أو بواسطة اللباد المنقوع في الخل أو في ماء البول.

وما يذكر أن هذه الأبراج المتحركة لم تكون ذات تأثير عملي من الناحية الحرية وذلك لأن قوات الحصار كانت تستغرق وقتاً طويلاً في اختراق أسوار المدينة المحاصرة. ومرة ثانية يمكنه أن نزعم بيقين بأن الصليبيين قد تعلموا في الحصار العسكري من حلفائهم وأعدائهم في منطقة الشرق العربي الإسلامي. لقد تطورت الخطط العسكرية المعاصرة على يد المسلمين وهي الخطط والتكتيكات التي يرجع أصولها إلى الممارسات العسكرية في العصر الرومانى المتأخر أو العصر البيزنطي. وعلى الرغم من أن المصادر التاريخية الإسلامية تطلق على بعض هذه الخطط والخدع العسكرية اسم التكتيك التركى Turkish أو الفارس ، فإن الحقيقة أن أصل هذه الخطط والخيل العسكرية ترجع إلى العصر القديم.

ويعiken تقسيم أدوات الحرب خلال الفترة الصليبية إلى نوعين طبقاً لفاعليتها العسكرية الضاربة وهي آلات حرية متحركة وألات حرية قوية مفتولة. وكانت آلات الحصار من النوع المتحرك الذي يستخدم البندول الشقيق الوزن. وكانت آلات النوع الثاني تستخدم عنصر الجهد الرئيسي. وكانت آلة اطلاق المنجنيق أهم الآلات الحرية التي تستخدم البندول للتحرك عليها. وكانت هذه الآلة من الآلات الحرية القديمة (والتي وجدت في العصور التاريخية التالية).

ويذكر لنا أسقف بيسانكون The bishop of Besancon وصفاً ممتازاً لآلية قذف المجنحني خلال أحداث الحملة الصليبية الثالثة فيقول:

«كانت هذه الآلة الحربية تعرف عادة باسم آلة المجنحني أو الكباش، وهي إحدى الآلات التي كانت تستخدم في هدم الأسوار في أثناء الحصار، وكانت هذه الآلة تساهم في الهجوم المتكرر على الحصون والأسوار». فقد أمر هذا الأسقف الصليبيين أن يستخدموا هذه الآلة الحربية والتي كانت مغطاه من جميع جهاتها بقطعة حديدية قوية تستخدم في تدمير الأسوار. وقد جلب هذا الأسقف معه هذه الآلة الحربية المعروفة باسم الكبش أو المدك والتي كانت معروفة في أوروبا آنذاك. وكانت هذه الآلة الحربية تشبه منزلًا معموداً ، لاختراق وهم الأسوار وكانت مزودة بسارية ضخمة لها رأس مزودة بقطعة حديدية حادة . وكانت آلة دك الأسوار (الكبش) تدفع بواسطة عدد كبير من الرجال صوب السور، إذ كانت تدفع من الخلف لكي تصطدم بقوة عظيمة بالسور المراد هدمه وتدميره . ومع تكرار عملية الهجوم هذه ضد الأسوار كان يتم احداث تجويف داخل جدار السور أو هدمه واختراقه . وما يذكر أن الرجال الذين كانوا يعملون داخل هذه الآلة الحربية (الكبش) لدفعها صور السور باستمرار كانوا في مأمن من الأخطار التي كان يمكن أن تصل إليهم من أعلىها . لقد عرفت هذه الآلة الحربية الصليبية التي استخدمت في دك الأسوار في المصادر العربية باسم «الكبش» Kabsh ، والتي تعنى المدك Ram . وثمة مصدر تاريخي عربي يصف هذه الآلة الحربية (الكبش) بأنها كانت ذات قرنين من الحديد ، مثل حربتين طوليتين أو عمودين سميكين قويين*. وكانت العارضة الخشبية المتحركة لهذه الآلة تتخلل من إطار خشبي بواسطة حبال أو سلاسل حديدية . ولمواجهة الهجوم المضاد ضد مثل هذه الآلات الحربية كان الصليبيون يستخدمون كلامات حديدة أو يجعلونها تقضى إلى أربطة أو أماكن قوية ولوازم وتركيبات مبانיהם .

وكانت آلة «الكبش» مغطاه بطبقة سميكة من البناء لحماية المحاربين العاملين داخلها ضد القذائف التي تطلقها القوات المدافعة عن الحصن، وقد أطلق المؤرخون المسلمين على هذه الآلة اسم المنزل. وكانت هذه الطبقة السميكة عبارة عن سقف متحرك، له سطح على شكل مثلث

* عماد الدين الأصفهاني نقلًا عن أبي شامة: ذكر العماد الأصفهاني وصفاً دقيناً لآلية الحصار هذه . انظر

(العماد الأصفهاني ، الفتح القسي ، ص ٢٩٥). (المترجم) .

(جملون) لكي تتحرف عنده القذائف بسهولة . ومن المحتمل أن الاسم العربي لهذه الآلة وهو «الدبابة» كان يعني الآلة التي تسبب الخوف والذعر عند الحصار . وأحياناً كانت هذه المنازل المتحركة أو الدبابات (الكباش) تعرف باسم «القطط»، وتعرفها أحد المصادر التاريخية العربية باسم «السينورا» (القط أو النمر الأسود) ، وتصف هذه الكباش بأنها كانت مزودة برأس حادة تشبه شفرة محراج . وكانت بعض هذه الكباش متقدمة الصنع ، مثل تلك التي بناها الملك الفرنسي لويس التاسع في المنصورة خلال أحداث الحملة الصليبية السابعة . وقد وجدت أبراج عند نهايات هذه الكباش الخربية عرفت باسم القطط الفرنسية.

وثمة شكل مختلف لآلة دك الأسوار (الكبش)، وكانت عبارة عن آلة مزودة برأس حديدية مائلة، والتي كانت تستخدم في الهجوم على سور التحصينات لتدميره وإحداث تجويفات داخله . وقد سميت هذه الآلة باسم «الخنزير ذي المنقار» وقد وجدت هذه الآلة في منطقة الشرق العربي الإسلامي.

كان النمط الثاني للآلات الخربية خلال الفترة الصليبية يتمثل في قاذفات كل أنواع القذائف . وكان اسمها آلة قذف الأحجار ، وهي آلة المجنحية التي كانت تستخدم في قذف الأحجار على الأسوار والتحصينات . وما يذكر أن مفردات اللغة المستخدمة في تسمية هاتين الآلتين (آلة دك الأسوار أو الكباش وآلة قذف الأحجار) تتسم بعدم الدقة إذ يوجد اختلاف واضح بين هذين النمطين من آلات الحصار الخربية . فقد كانت آلة المجنحية التي تقدّف السهام والقذائف الأخرى تستخدم جيلاً مشدوداً يرجع إلى الوراء آلياً وكان هذا الجبل على شكل قوس ينطلق منه السهام، وعند ارتداد هذا الجبل إلى الوراء كان يقذف الأحجار بقوة على امتداد البكرة التي تدور عليها مدفع الاطلاق (آلة المجنحية) . كانت آلة المجنحية تتكون من عارضة خشبية بها تجويف في أحد جهاتها يحمل حجراً أو أية قذيفة أخرى (وأحياناً كانت تحمل رؤوس القتلى من الأسرى) . وعندما كان يرتد جبل الاطلاق إلى الخلف بطريقة آلية كانت القذائف تنطلق من هذه الدعامة القوية إلى أعلى في مدار بيضي الشكل ضد أسوار القلعة المحاصرة.

لقد كان هدف هذه القذائف التي تنطلق من المجنحية هو هدم وتقويض الأسوار . وعندما جاء الصليبيون إلى المنطقة العربية، أصبح فن تقويض وهدم أسوار القلاع والتحصينات جزءاً أساسياً من فن الحصار المحلي . فقد كان عدد من المتخصصين في فن الحصار من السكان

المحلين، ولاسيما بعض أهالي مدينة حلب الذين حازوا شهرة واسعة في هذا الفن، ولذا نجد الصليبيين يمنعون مكافآت سخية لبعض الأسرى من أهالي مدينة حلب للعمل في المعسكر الصليبي في أعمال الحصار الصليبي ضد المعاقل العربية الإسلامية.

وما يذكر أن الأسوار كانت تتهدّم بسبب شق نفق تحتها. وعندما كانت الدعامات الخشبية لهذه الأسوار تنهار بفعل النيران أو جرها بواسطة الحبال ، فإن جزء من السور أو البرج كان يصل إلى حد الضعف والانهيار. وقد وجدت بعض القلاع في أماكن مرتفعة بعيدة عن مرمى هذه القذائف . ونفس الشيء كان بالنسبة للحصون والقلاء القريبة من سطح البحر. فقد كان عمل نفق في الكثبان الرملية يؤدي بشكل مباشر إلى صنع مجاري مائية تتدفق فيه المياه فيضلاً ، ولذا لم يكن فعالاً من الناحية العسكرية. أما في المناطق الداخلية الحاجة ، فقد كان عمل نفق تحت الأسوار فعالاً من الناحية العسكرية ، وكذلك في المناطق المرتفعة أو في السلال الجبلية حتى القريبة من سطح البحر.

كانت التقنية العاديّة في فن الحصار تمثل في فتح برج على مقربة من المصنّع والواقع خلف المخندق ، وعندئذ يتم حفر حفرة نفق تجاه الأسوار . وهذا بدوره يهدى السبيل لكي يبدأ العمل في شق نفق خلف مرمى قذائف العدو المؤثرة ... الخ وكان هذا النفق يبعد عن الأسوار بحوالى ٢٠٠ - ١٠٠ متر. بيد أن هذا الحفر كان يتضمن نفقاً متداً طويلاً. ومن ناحية أخرى، بعد النفق عن الأسوار والأبراج كان بمقدور حماية آلات الحصار من قذائف الحامية المدافعة، وكان يتم حماية الأسوار والأبراج بواسطة ستائر خشبية أو ستائر مصنوعة من أماليد المستخدم في صناعة السلال، وكانت هذه الستائر توقف وتعطل وصول القذائف الصغيرة. غالباً ما كانت تستخدم تقنية مختلفة في هذا المجال. فقد كان تراب الحفرة يكون رابية عالية تحجب وراءها المخبراء العسكريين الذين يعملون في شق النفق بعيداً عن أعين العدو. وكانت هذه التقنية العسكرية تستخدم في حالة ما إذا قرر المخبراء والمهندسين العسكريين عمل وشق هذا النفق قريباً من المخندق واستخدام هذا المخندق كمبرأة لهذا النفق. وفي هذه الحالة يكون طول النفق بحوالى ٣٠ - ٢٠ متراً وعمقه بحوالى ٢٠ متراً . وعندئذ كانت بينها دعامات سور كما أسلفنا القول، ومن الناحية النظرية ، سوف يتمكن المحاصرون من الهجوم المباشر على المدينة من خلال الأجزاء التي هدمها في جدار السور.

وكانت ثمة تقييمات خاصة في العمارة الحربية والدفاع لمواجهة عملية حفر الأنفاق والمخنادق.

لقد كان حفر المخندق خطيراً وصعباً بسبب كثرة استخدام المنحدرات والأساسات المنحدرة المائلة الموجودة على أسطح التحصينات الصليبية. وكان هذا الانحدار يشبه الهرم، الذي يتوجه بشكل مائل نحو خط الأسوار العمودي والذي كانت قاعدته العريضة ترتكز على قاعدة المخندق المائل الذي يحيط بالحصن ، والذي يجعل من الصعب الوصول إلى سطح الحصن إلا بعد مشقة وطول عنااء. وللتقوية هذه المنحدرات وجعلها أكثر فعالية وتأثيراً وقوة كانت توضع أحجار ثقيلة بين السور وبين جداره الخارجي وهكذا فإن أي نفق تحت قاعدة الحصن كان يمكن أن يتغلب على مثل هذه الصعاب وذلك عن طريق الضغط الثابت من أعلى هذا الهرم حتى قبل الوصول إلى الأسوار. ولم يكن تسلق الأسوار أمراً سهلاً، وذلك لأن سمك التحصينات الصليبية كان يتراوح ما بين ١٧-٢٠ قدماً . ولم تشييد هذه التحصينات الصليبية دائمًا من الأحجار الضخمة، بل كانت تشييد في الغالب وفق تقنية المنحدرات التي كانت شائعة الاستخدام آنذاك . وهذا يعني أن خطى الأسوار الخارجي ذات البناء الجيد كان يبتلا بالحجارة المكسورة غير المقصولة والفعار المكسور (وهو الطين النضيج) أو التيراكوتا في قيسارية). والطين والملاط. ومن الناحية الاصطناعية لم تضف هذه الأشياء وهذه المواد شيئاً إلى سمك هذه الأسوار، ولكنها كانت تزيد من حجمها ومن الواقع أن الأسوار العالية الملتحقة بالمنشآت المعقّدة والضغوط والأثقال الكبيرة لهذه المباني كانت تجعل من الصعب شق أنفاق تحت الحصن الصليبي.

وعلى الجانب الآخر، فقد كان يستخدم الأنفاق المضادة . إذ كانت المدينة المحاصرة تفتح برجاً داخل حصنها وتشق نفقاً في اتجاه المخندق العميق الضيق الذي كان يصنعه المحاصرون للمدينة. وسرعاً كانت تفتح الأنفاق الأرضية، وتبدأ الحامية العسكرية للحصن في قتال الخبراء العسكريين وتدمير ما يقومون به من أعمال . وكان انهيار جزء من النفق يجعل من الصعب استخدامه في المستقبل.

ففي بعض حالات الحصار كانت القوات المدافعة عن المدينة المحاصرة تعجل في تلفيم أسوارها وذلك عن طريق بناء سور ثان يكون بديلاً بشكل مؤقت خلف الجزء الذي كان يهدده العدو في زمن قياس وسريع .

الفصل السادس عشر

الحياة الاقتصادية والتجارة

- مدخل - الزراعة - العمليات والتقويد - التجارة العالمية -

المبناء التجارى - الأسواق المحلية والعالمية

مدخل :

الواقع أن الغزو الصليبي للمنطقة العربية وتأسيس الامارات الصليبية شرق البحر المتوسط في بلاد الشام وفلسطين لم يفصل الأقطار الإسلامية عن منافذها البحرية المؤدية إلى الغرب الأوروبي فحسب، بل أيضاً ساهم هذا الغزو الصليبي في عرقلة حركة التدفق التجارى على الطريق البري الممتد من الشمال إلى الجنوب والذي كان يربط منطقة بلاد ما بين النهرين (الميزوروباتانيا) وببلاد الشام بالماراكز الحضرية المهمة المنتشرة على امتداد نهر النيل وדלתاه، وفي نفس الوقت، ظهر نشاط اقتصادي جديد في الامارات الصليبية هذا النشاط الذي امتد على الساحل الشرقي للبحر المتوسط من آسيا الصغرى إلى خليج العقبة.

وعلى الرغم من عداء وكراهية الأقطار الإسلامية للوجود الصليبي المجاور فإن المستعمرات الصليبية لم تتخلى عن نظام الحكم المطلق. وقد ظلت الأقطار الإسلامية المجاورة لهذه الامارات الصليبية تفتح أبوابها جزئياً أمام التجارة، وظلت المدن الساحلية أيضاً تقوم بدورها الباكر باعتبارها منافذ بحرية للأقطار الإسلامية الداخلية، وبالإضافة إلى ذلك، فقد ازداد النشاط الاقتصادي والتجاري قوة وانتشاراً في الأراضي المقدسة في فلسطين وببلاد الشام بدرجة لم تشهدها من قبل منذ العصر البيزنطي وذلك بسبب وجود شبكة جديدة من العلاقات التجارية مع أوروبا. فقد أعقب قيام العلاقات التجارية مع موانئ جنوب أوروبا فتح أسواق تجارية في الأقطار الإسلامية الداخلية أمام التغلغل التجارى الأوروبي، وبشكل عكسي، تدفقت السلع والبضائع الشرقية إلى الأسواق والمتأجر الأوروبي عبر مدينة حلب . وحصل سماسترة ووسطاء العصور الوسطى من المسلمين والمسيحيين واليهود على أموال طائلة من عائد التجارة الدولية التي قام بها التجار الأوروبيون الذين اندفعوا صوب مراكز الانتاج في منطقة

الشرق العربي. وازداد تدفق المعادن الشمينة من الغرب الأوروبي إلى منطقة الشرق العربي بما يعادل حجم الواردات الأوروبية من السلع الشرقية والتي وصلت إلى حجم لم يسبق له مثيل في وقت حصلت فيه الصادرات الأوروبية على موطنها، قدم في الشرق. ولم تكن المهمة الرئيسية للحروب الصليبية تقوية العلاقات التجارية بين أوروبا وبين منطقة الشرق العربي الإسلامي في القرنين الثاني عشر والثالث عشر من الميلاد، بيد أن هذه الحروب الصليبية قد صاحبها نهضة أوروبية عامة تمثلت في زيادة سكانية، وزيادة الشروق والفن، وظهور طبقة اجتماعية من المستهلكين لمنتجات مدنهم الجديدة وأيضاً للبضائع والمنتجات المستوردة من الشرق. ويعتقد بعض المؤرخين أن مثل هذا التطور التجارى كان أمراً حتمياً وكان لا بد أن يحدث حتى ولو لم يحدث أو تتشعب الحروب الصليبية؛ وأن التطور الداخلى الذى شهدته أوروبا آنذاك كان بشارة عملية دفع قوية أدت إلى قيام علاقات تجارية بين الغرب الأوروبي وبين أقطار شرق البحر المتوسط. ومن المحتمل أن يكون هذا الرأى الذى طرحته هؤلاء المؤرخون صحيحاً، حيث أن الحروب الصليبية حتى ولو كانت مسنونة جزئياً فقط عن احداث النهضة الاقتصادية فى أوروبا، فإن ثمة قليلاً من الشك حول دور هذه الحرب فى خلق روح المبادرة، واتساع وتقوية اليقظة الأوروبية للأهمية الاقتصادية للأقاليم الشرقية فى كل من منطقة الشرق العربي ومنطقة الشرق البيزنطى^٤ ويجب ألا نغفل العامل النفسي عند الحديث عن الظاهرة الاقتصادية ، فالحقيقة أن الحجم الصغير للإمارات الصليبية فى منطقة الشرق العربي إذا ما قورن بحجم الأقطار فى الشرق الإسلامية أو فى الشرق البيزنطى لا يمكن أن يقلل من دورها فى تنشيط التجارة بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى. الواقع أن ثمة عوامل اقتصادية أثرت فىجرى العلاقات التجارية العالمية، بيد أن بداية هذه العلاقات التجارية العالمية والولوج إلى ميدان ونطاق مصالح الأقطار الأوروبية تدين بالكثير إلى الحروب الصليبية . وعلاوة على ذلك ، فإن ظاهرة مثل غزو وتطور الأساطيل التجارية الأوروبية ، وظهور أنفاس جديدة من السفن وتحسين حركة الملاحة البحرية العالمية لا يمكن أن تكون بمعزل عن الحروب الصليبية . إذ كان الكثير من السفن الأوروبية تخر عباب البحر إلى الشرق ولا تتحمل على متنهما حمولات سوى كتل الذهب والفضة المصبوبة والحجاج الذين يدفعون أجور نقلهم إلى منطقة الشرق ، وكانت ربحية الرحلة البحرية للسفينة تمثل فىأجرة نقل الحجاج وأجرة نقل الحمولات السابقة، وربما تطورت كل هذه الأرباح والحمولات فى جميع المجالات ولكن فى موعد غير محدد. وقد حدث مثل هذا التطور بدقة فى القرن الثاني عشر الميلادى بسبب التأثير الروحى والمادى للحروب الصليبية.

لقد كانت العلاقة الخاصة بين الوظيفة الاقتصادية والوضع الاجتماعي من أبرز سمات الحياة الاقتصادية للمملكة الصليبية في بيت المقدس. وقد تبلورت بعض هذه المظاهر والسمات تقريباً في شكل نظام اجتماعي طبقي. إذ كان المجتمع الصليبي ينقسم إلى أربع طبقات رئيسة تطابق التقسيمات الاقتصادية الأربع الكبرى مع عدم السماح بالحرارك الطبقي داخل هذا المجتمع . وكان الأفراد يمارسون سلطة أبناء طبقتهم ويعتلون نفس المراكز والمناصب الحكومية التي يتقلدها أبناء طبقتهم أيضاً . وكان القانون الصليبي يمنع الحراك الاجتماعي في بعض الحالات على الرغم من أن هذا القانون والتقاليد الصليبي كان يتسبب في خلق عقبات صعبة ، كما أن المعاهدات السياسية قد خلقت حالة من الاحتكارات للوظائف والمراكز والنشاط الاقتصادي . لقد استطاع البناء الطبقي الجامد للمجتمع الصليبي في المملكة اللاتينية في بيت المقدس أن يتحول الوظائف الاقتصادية إلى شكل من الوضع الاجتماعي لا يمكن نقل ملكيته لأحد، أي ارتبطت الوظيفة الاقتصادية بالوضع الاجتماعي للشخص الذي يتقلد هذه الوظيفة.

ويمكن أن نتصور بأن كل سكان مملكة بيت المقدس الصليبية كانوا يشتغلون في نمط اقتصادي معاصر ، فقد كانت كل طبقة من طبقات المجتمع يعهد إليها تأدية مهام اقتصادية ، وهي المهام التي كانت تتتكامل مع بعضها البعض وتشكل نوعاً من التوافق، على الرغم من أن كل هذه المهام كانت غير قابلة للتطبيق . ويتبين البناء الاجتماعي الأساسي في الوضع المميز لبعض الطبقات الاجتماعية في المجتمع الصليبي وهي الطبقات التي تتمتع بالامتيازات وكذلك في القيود التي فرضت على الطبقات الاجتماعية الأخرى .

وما يذكر أن الزراعة ظلت مجالاً كبيراً لعمل السكان المحليين من المسلمين والمسيحيين . ولم يستطع النشاط الزراعي القوى في المناطق الصليبية في فلسطين وبلاد الشام في القرن الثاني عشر الميلادي (والذي أصبح عديم الأهمية في القرن الثالث عشر الميلادي) أن يحدث تغييرًا في النمط الاقتصادي العام لهذه المناطق المحتلة. وعندما نذكر الزراعة فإننا نعني الانتاج الذي يقوم به السكان المحليون، والذي كان يعيش عليه أفراد طبقة النبلاء الصليبيين صاحبة الامتيازات .

وعند الانتقال من الزراعة إلى التجارة الواسعة والتبادل التجاري العالمي والذي يشمل : شحن السفن ، والوردات وال الصادرات ، وتجارة العبور (الترانسيت) ، والأنشطة المصرفية

والبنية المالية ، فإننا نصل إلى وسط اجتماعي مختلف تماماً . فقد كان التجار الإيطاليون يحتكرون التجارة المحلية والعالمية ، وظهر في هذا المجال أيضاً تجار من فلورنسا ومن قطالونيا . ولم يحظر القانون الصليبي على السكان الأصليين المحليين ممارسة هذه الأنشطة التجارية المربحة . وكانت الامتيازات التجارية والإقليمية الواسعة التي تتمتع بها تجار القوميات التجارية الإيطالية (البندقية - بيزا - جنوا) والتي تشتهر في اعفاءات جمركية أو تخفيضها وغيرها تجعل من منافسة التجار الآخرين لهم أمراً غير ذي جدوى وتجعل المنافسة غير متكافئة . والأمر الذي عزز وضع التجار الإيطاليين أصحاب الامتيازات هو وجودهم في الموانئ البحرية المعدة لاستقبال البضائع التي ترد إليهم من مدنهم الأم من أوروبا ، وكانت المدن الإيطالية التجارية تحظر على تجارها المشاركة في استيراد البضائع من الشرق .

ويقع بين قطبي الزراعة والتجارة منطقة تضم طوائف الحرف المحلية والتجارة ، وهي المنطقة التي يلتقي عندها كل من السكان المحليين والمستوطنين الصليبيين . فقد تنافس التجار المسلمين واليهود والمسيحيين الشرقيين فيما بينهم في الأسواق وتنافسوا أيضاً في فن بيع وعرض المنتجات والبضائع في المحلات التجارية في المدن الصليبية وقلما كانت المنافسة على أساس متساو، وإلى حد ما كانت هذه المنافسة في صالح البرجوازية الصليبية .

وبالإضافة إلى الأقسام الرئيسية الثلاث للاقتصاد ، وهي الزراعة والتجارة العالمية والصناعة والتجارة المحلية ، تأتي طبقة النبلاء الصليبيين العلمانيين ومؤسساتهم الدينية ، وهي الطبقة التي كانت تمتلك الضياع الزراعية ، والتي اكتسب أفرادها مواردهم المالية من عائد هذه الضياع ، ومن امتياز حق تحصيل ضرائب السوق في المدينة وتحصيل الرسوم الجمركية المفروضة على التجارة العالمية* .

أ- الزراعة

لقد تأسست مملكة بيت المقدس الصليبية في أقدم منطقة في العالم المعمر . وتطور سكان هذه المنطقة من حياة البداوة إلى حياة الزراعة والاستقرار وذلك قبل فترة طويلة من دخول القبائل العربية إلى أرض كنعان في ألف الثاني قبل ميلاد المسيح . وشهدت هذه

* كان امتياز حق تحصيل ضرائب السوق ورسوم البوابات، ورسوم مقابل استخدام المراعلى والأقران، ينبع بعض النبلاء الصليبيين، وكان هذا ضرباً من ضروب الاقطاع التقدي . (المترجم) .

المنطقة (فلسطين) منذ قديم الأزمنة حكامًا وغزة جاؤ إليها وذهبوا عنها. ووُجِدَتْ في هذه المنطقة أيضًا نباتات جديدة وتقنيات زراعية جديدة استطاعت أن تغير نمط الحياة الزراعية، وتدخلت السلطات الحاكمة في توزيع السكان في هذه المناطق ، كما تدخلت في نظم الضرائب وتحديد نوع المحاصيل الزراعية، بيد أن نوعية التربة الزراعية ، والظروف المناخية ظلت ثابتة. وتلت هذه الحقبة الزمنية (حقبة ما قبل الميلاد) حقبة زمنية أخرى شهدت فيها هذه المنطقة أعمال السلب والنهب والتدمير والتخريب (وذلك في القرن الأول الميلادي) ، وبعد ذلك أصيّبت منطقة فلسطين بنكبة اقتصادية وسكانية بسبب الفتح الإسلامي لهاً القطر وتخلصها من يد البيزنطيين*. وإذا ما تفحصنا سریعاً خريطة الأرض المقدسة خلال حقب تاريخية مثل العهد التلمودي ، والعصر البيزنطي (٦٣٨-٣٣٠ م) ، وعصر السيادة الإسلامية العربية (٦٣٨-٩٩٠ م) ، وعصر السيادة الصليبية (٩٩١-١٢٩١ م) يتبيّن لنا بشكل مؤكّد أن ثمة تغيير رئيسي لنمط الاستيطان واستغلال الأرض في هذه المنطقة ، والظاهرة اللافتة للنظر بشكل كبير هي أن المناطق الجنوبيّة لهذا القطر (فلسطين) مجدهاً ومقفرة تماماً . ففي الجنوب كان يوجد شق من الأرض يمتد من غزة في الغرب، عبر حبرون في الوسط إلى القمة الشماليّة للبحر الميت في الشرق وقد أصبحت كل هذه المنطقة صحراء قاحلة . وفي وقت ما شهدت هذه المنطقة استقراراً سكانياً كثيفاً على امتداد الطرق العامة الحربيّة والتجاريّة ، وانتشرت الآبار والعيون حيث مصادر المياه في القرى الواقعه في غرب هذه المنطقة الجنوبيّة ، كما استطاعت مهارة الإنسان والصناعة أن تعوض ما بخلت به الطبيعة على هذه المناطق وذلك عن طريق إقامة وتشييد أدوات وتركيبات رائعة (صهاريج) لحفظ المياه الأمر الذي جعل الحياة والاستقرار في هذه المناطق أمراً ممكناً بالرغم من هذه الظروف الصحراوية التي ذكرناها آنفاً. وقد غطت الكثبان الرملية الآن المستوطنات القديمة في هذه المناطق الجنوبيّة لإقليم فلسطين وزحفت الرمال لتتملاً وتغمر الآبار وقنوات الري ، واستطاعت أعمال الحفائر الأثرية في العصر

* هذا قول يجافي الواقع التاريخي ، فلم يكن الفتح الإسلامي لبلاد الشام وفلسطين نكبة اقتصادية وسكانية كما يشير المؤلف ، ولكن الفتح الإسلامي لهذه المناطق أعقّبَه نوع من الاستقرار الاجتماعي وسكانية كما يشير المؤلف ، ولكن الفتح الإسلامي لهذه المناطق أعقّبَه نوع من الاستقرار الاجتماعي والاقتصادي (المترجم) .

الحدث أن تكشف لنا عن موجودات وأثار يدهش لها العالم الأخرى والزائر *. وتشهد هذه الأيام موجة جديدة تتمثل في دعوة من الناس المتحمسين تنادي من أجل إعادة تعمير وتجديد هذه المناطق الصحراوية القاحلة في جنوب فلسطين .

لقد أدى نزوح الناس إلى شمال هذا القطر (فلسطين) للسكنى والاستقرار به إلى خلق حد جنوبى صحراؤى ، يكون بمثابة قلعة محصنة على الحدود مزودة بقليل من موارد المياه توجد على امتداد طرق القوافل والأماكن الخالية من السكان . والواقع أن هجر سكنى المنطقة الجنوبيّة من فلسطين لم يكن هو فقط التغيير الرئيسي لحركة الاستيطان والاستقرار السكاني في هذا القطر بين حقبتين زمنيتين حقبة الحكم البيزنطي وحقبة السيادة الصليبية ، ففي العصر القديم كان الشطر الجنوبي من فلسطين الواقع على ساحل البحر وكذلك مدينة القدس التي تقع في الداخل أقل كثافة سكانية من حقبة العصر البيزنطي . وعلى الرغم من أن اقليم الجليل والسهول الساحلية لشارون وفينيقيا Phoenicia ظلت أماكن سكنى جيدة فإنها كانت تعيد بشكل ضعيف مجد العصور القديمة . ويبدو أن المناطق الداخلية في هذا القطر (فلسطين) ، والتي تشمل المناطق الجبلية الواقعة شمال مدینتی القدس ونابلس وكذلك الأجزاء الشرقية من الجليل كانت غير آهلة بالسكان إذا ما قورنت بالمناطق الساحلية ، التي كانت تضم السهل الضيق والمناطق الكثيرة التلال المتدة حتى جهة الشرق . ومن الصعوبة بكلّ أن نحدد تاريخياً دقائعاً لهذا التغيير ، بيد أن هذا الانفصال السكاني كان من النتائج المترابطة لأحداث التخريب والدمار لهذه المناطق خلال العصر الروماني ، وخلال الفتح العربي الإسلامي لها هذا القطر (فلسطين) .

وما يذكر أن الصورة العامة والوصف الكامل لهذا القطر (فلسطين) كانت إلى حد ما انعكاساً لما أوضحته لنا المصادر التاريخية التي بين أيدينا . وما يذكر أن القوميات التجارية الإيطالية لم يكن لها أية مصلحة حقيقة في تلك الضياع الزراعية المنتشرة خارج منطقة أحياهم في المدن . ومن ناحية أخرى ، فإن أملاك الكنيسة كانت في العادة تنتشر حول المراكز الكنسية ، وهي المراكز التي كانت تحتل نفس الأماكن المقدسة التقليدية ، مثل القدس ، وجبل طابور ، وبيت لم ، ومن ثم فإن المستوطنات الزراعية الصليبية في الأرض المقدسة كانت

* ومن أهم المستوطنات المزدهرة القديمة التي وجدت في منطقة الصحراء ، جنوب فلسطين والتي كشفت عنها الحفائر الأثرية حديثاً هي مدينة عبدات Habdah وسيطها Sheita وصحراء النقب (المؤلف) .

بالقرب من المدن الساحلية والمراكز الكنسية. وكما أسلفنا القول، فإن هذا يجب أن يؤثر في تلك الصورة التي رسمناها لهذه المستوطنات الصليبية، بيد أنه يجب ألا يبالغ في مقدار الخطأ.

وقد عرفنا من خلال الحقائق التاريخية الباقيه أن عدد القرى التي تأسست في المملكة الصليبية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر من الميلاد قد وصل إلى ألف ومائتين قرية (١٢٠٠ قرية). ومن خلال الدراسات الجغرافية استطاع دارسو هذه الفترة الصليبية أن يحددوا ٦٠٠ اسمًا لأماكن ، وهذه الأسماء تؤكد أن الصورة الكلية لهذه المناطق المحlette باعتبارها مناطق أعيد تشييدها والتي رسمتها لنا هيئات علمية معاصرة كانت صحيحة ومضبوطة ، وأن عدد القرى التي تأسست في فلسطين وبلاط الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر من الميلاد تكفي تماماً لكي تذكرنا بعد المستوطنات التي احتلها الرومان في هذا القطر في أثناء حكم الامبراطور الروماني هادريان في أثناء ثورة البرقسبا* Bar-Kochba* في بداية القرن الثاني الميلادي، ويدرك المؤرخ ديو كاسيوس Dio Cassius ، أن الرومان دمروا خمسين مستوطنة كبيرة في فلسطين كما دمروا ٩٨ قرية، وهذا العدد من القرى يكاد يقترب من عدد القرى التي أنشئت خلال فترة الوجود الصليبي. ويجب ألا يقودنا هذا إلى الاستنتاج بأن هذا القطر كان يشهد نهضة زراعية خلال حقبة السيادة الرومانية ولا يجب أن نستنتج أيضاً من خلال تطابق أسماء القرى الصليبية في فلسطين لأسماء بعض الأماكن الحالية المعاصرة في هذا القطر أن هذا التطابق يدل على التطور الزراعي المستمر لهذا الإقليم. وسوف نشير إلى أن دراسة الواقع الجغرافي الصليبي في فلسطين هو اتهام واضح يكشف حالة التدمير التي أصابت المناطق الريفية في فلسطين خلال هذه المقدمة التاريخية. فقد ظهر حوالي ألف اسم من أسماء القرى والأماكن السكنية على خريطة الأرض المقدسة خلال فترة السيادة الصليبية . والمطلع على هذه الأسماء يدرك للوهلة الأولى أنها أسماء فرنسيّة . إذ كان أسماء بعض هذه الأماكن فرنسيّة ، بيد أن الأغلبية العظمى لهذه الأماكن كانت ذات أسماء ترجع إلى الأصل السامي: وهي الأسماء الكنعانية القديمة ، والأسماء العربية أو الآرامية . وكان أسماء بعض هذه الأماكن أسماءً حديثة، وهذه الأسماء الحديثة تشير في العادة إلى منطقة ذات سمة

* ثورة البرقسبا : من أهم الشورات التي قامت في وجه السيادة الرومانية في فلسطين وبلاط الشام خلال حكم الامبراطور الروماني تراجان ومن بعده الامبراطور هادريان ، وتم قمعها على يد الجيش الروماني (المترجم).

طبعية محددة، وهذه الأسماء ذات أصل عربى، وعلى أي حال ، فإن كل هذه الأسماء كانت تحمل الشكل العربى فى هجاء المزوف (الكتابة) وطريقة التلفظ بها (القراءة والنطق) خلال فترة السيادة الصليبية. كانت المستوطنات والقرى الريفية الفلسطينية تحمل أسماء عربية، كما أن اللغة العربية كانت لغة الحديث والتفاهم لدى كل السكان الوطنيين المحليين، المسلمين ، والسيحيين، والمسيحيين، والمسيحيين، والمسيحيين أو السامرة . ومن الواضح أن التسمية الفرنسية لهذه الأماكن والواقع الجغرافية فى فلسطين كانت نتيجة الادارة الصليبية لهذه الأماكن ، وقد دوّنت هذه الأسماء المحلية فى شكل حروف لاتينية. وبهذه العملية تعرض عدد كبير من هذه الأسماء لعملية التحرير والنحو المشوش ، واكتسبت بعض الأماكن الأخرى تسميات فرنسية الأصل ، فقد كان الحصن الرائع الذى يطل على وادى نهر الأردن يسمى حصن بلفوا Belvoir أي جميل المشهد ، وكان موقعه الرائع جديراً بهذه التسمية . كما أطلق على هذا الحصن أيضاً اسم المثائق Coquet أو ذو المنظر الظريف Coquetum ، بيد أن هذه التسمية السابقة لم تتفق على الاسم الفرنسي لهذا الحصن وهو اسم بلفوا Belvoir . وقد حرف هذا الاسم إلى اللغة العربية وعرف باسم حصن «كوكب الهواء» (كوكب الرياح) وحروف إلى اسم عبرانى أو آرامى قديم «قحافة». وفي هذه الحالة استعملت التسمية الأجنبية الفرنسية واللاتينية لهذه المواقع الجغرافية ذات الأصل السامي القديم بيد أنه فى نهاية القرن الثالث عشر الميلادى ومع نهاية الوجود الصليبي فى المنطقة العربية، اختفت هذه التسميات الفرنسية للقرى والمستوطنات الفلسطينية . لقد كانت ظاهرة التسمية الأجنبية لها الأماكن والقرى الفلسطينية متواترة ومتكررة خلال التاريخ الطويل لإقليم فلسطين. وثمة عدد قليل من الواقع والقلاع المحصنة كانت تحمل أسماء فرنسية حقيقة . ووجود هذه التسمية الفرنسية لمناطق الريفية يؤكّد حقيقة أن هذه المناطق الريفية فى فلسطين لم تكن خاضعة لسيادة الصليبيّة بشكل حقيقي.

وحتى الآن، تساهم الأرض المقدسة فى فلسطين فى إنتاج محاصيل زراعية رئيسة مع كل أنحاء عالم البحر المتوسط وأهمها : القمح ، والزيتون ، والكروم . وظللت الخيرات التوراتية لهذه المناطق الفلسطينية تحت يد واستخدام الصليبيين وهى منطقة كنعان والتى هي: «أرض حنطة وشعير وكروم وتين ورمان ، أرض زيتون زيت وعسل (سفر التثنية - الاصحاح ٩، ٨)*.

* يذكر سفر التثنية فى فضل أرض فلسطين وخيراتها فيذكر أنها ، أرض جيدة أرض أنهار من عيون وغمار تنبغ فى البقاع والجلبال ، أرض حنطة وشعير وكروم وتين ورمان . أرض زيتون وعسل ، أرض ليس بالمسكنة تأكل فيها خبزاً ولا يمزوك فيها شيء . أرض حجارتها حديد ومن جبالها تحفر نحاساً . (سفر التثنية - الاصحاح ٨).

إذ كان الحاج المسيحي الذى يأتى إلى مدينة بيت المقدس خلال المحبقة الصليبية يستخدم نبات الجاودار *(yucca)* والخبز الأسود ، والنبيذ ، ومنتجات الألبان ، وأرغفة العيش المصنوعة من قمح منطقة الشرق العربى ، وكذلك الكروم الظازحة ، والزيتون وزيت الزيتون الذى تشتهر به الأرضى المقدسة فى فلسطين وببلاد الشام وهى الخيرات التى تؤكد صدق وعد رب لرعيته فى هذه المناطق المقدسة . فقد ورد مراراً فى يوميات الرحالة بأن هذه الأرض تفيس باللبن والعسل ، وقد حفظها الرب بشكل رائع لكي تزود القادمين إليها بالتسليمة والمرح والتهذيب . ولم يحجم أى زائر لهذه الأرضى سواء كان ناقداً لاذعاً أو حاجاً عاقلاً عن أن يملا تقريره بالألفاظ التوراتية التى وردت فى الكتاب المقدس (العهد القديم والعهد الجديد) والخاصة بفضل هذه المناطق . فقد ذكر لنا أحد الرحالة الألمان الذين زاروا هذه المناطق الصليبية فى أواخر القرن الثالث عشر (١٢٨٠ م) وهو بوركارد Burchard رئيس دير جبل صهيون وصفاً مفصلاً عن أنواع النباتات والحيوانات التى شاهدها فى هذه المناطق فقال:

«... وكأمر واقع ، فإنك ترى كل الأرضى المقدسة كانت وما تزال حتى الآن من أفضل بلاد وأراضي العالم قاطبة ، وإن كان بعض الذين لا يراغون الدقة فى القول يرون عكس ذلك ، إنها أرض تنتج الحبوب والحنطة ، وهذه الأرض تعطى محصولاً وفيراً بأقل مجهد يبذل .»
ونعجب قليلاً إذا عرفنا أن علماء أواخر القرن الثامن عشر قد ناقشوا بجدية قضية عنقود العنب الثقيل الذى كان يحمله بصعوبة اثنان من الرجال على كتفيهما وعندئذ يعجب علينا أن نفحص ما ذكره الراهب الروسي دانيال Danial الذى زار الأرضى المقدسة فى بداية الوجود الصليبى (١١٠٦-١١٠٧) والذى كتب يقول : «أنه إذ بذرت بذوراً مقدارها بوشل واحد (البوشل = ٨ غالون أو ٣١ لترا) من القمح فى أرض هذه المناطق المقدسة ، فإنه بعد نضج المحصول يمكن أن تحصل على ثمانين أو مائة قدر من هذه الكمية أى أن المحصول الناتج يتضاعف كثيراً من فرط البركة والنماء الذى أغدقها رب على أهل هذه المناطق . ألم يغدق رب خيراته وأنعمه على الأرض المقدسة؟

ولاشك أن الخبز الأبيض الذى كان يستخدم فى الأكل والطعام فى الأرضى المقدسة كان من أهم الأشياء البارزة واللافتة للنظر لأى قادم أو روى جديد إلى هذه المناطق ، سواء كان هذا الخبز من صنع المستوطنين الصليبيين أو من صنع السكان المحليين الذين كانوا يصنعونه فى الأفران الوطنية وكان يصنع على هيئة فطائر مسطحة . وكان هذا النوع من الفطائر يصنع من نغالة

القمح ، هذا القمح الذى يعد من أهم الحبوب فى منطقة الشرق العربى الإسلامى. وعلى الرغم من أن القمح الجيد يزرع الآن فى التربة الثقيلة للمناطق الساحلية، وفى المناطق المنخفضة لوادى جزريك ووادى نهر الأردن، فإن منطقة زراعة الحبوب فى الحقبة الصليبية كانت توجد فى مكان آخر.

كانت الأراضى الزراعية الواقعة شرق نهر الأردن وكذلك الواقعة شمال شرق بحيرة طبرية من أعظم مناطق انتاج الحبوب والغلال فى المملكة الصليبية وفى منطقة دمشق الإسلامية؛ ففى الشمال حيث أرض السواد أو «الأرض السوداء» ، والتى كان يعرفها الصليبيون باسم «أرض العرق Terre de Souda» ، التى كانت تقتد عير بحيرة طبرية؛ وفى منطقة الجولان القديمة والأراضى الممتدة بشكل أكثر صوب الشرق فى حوران. وكانت هذه المناطق أيضاً تضم المراعى القديمة لهذا القطر. وكانت مراكز الانتاج الزراعى الوفير فى هذه المنطقة تتركز حول Nawa إلى الشرق والقريبة من أودية بانياس الخصبة وذات الأهمية الاستراتيجية فى جهة الغرب ، والممتدة إلى أودية الجليل الغربية حول تبنين (هورون) .

وانتشرت مزارع القمح الكثيفة والواسعة فى الجزء الغربى من فلسطين. وكان أجود أنواع القمح ينمو فى منطقة شيفيلا التاريخية ، والأرض المنخفضة كثيرة التلال الواقعة بين السهل الساحلى والسلالى الرئيسية بجبل مدينة القدس، ومنطقة بانياس (السامرة) والجليل، وقد اشتهر الجزء الجنوبي من فلسطين بانتاج أجود أنواع القمح. وكانت منطقة الانتاج تبدأ من المدخل الغربى وتقتد إلى وادى جزريك ، عند مرتفعات قيسارية على الساحل والمستمرة فى الامتداد صوب الجنوب إلى رام الله عند تقاطع الطريق المؤدى إلى مدينة القدس، وتقتد منطقة انتاج القمح بشكل أكثر إلى الجنوب خلال عقير Akur إلى بيت جبرين . واشتهرت كل من قيسارية ، وبيت لحم، وعقير Akir بخبزها الأبيض. فكان القمح يزرع حول قيسارية فى السهل الساحلى الملائم لزراعة هذا المحصول ، وثمة منطقة زراعية كانت تقتد حتى الجنوب حول غزة، وتقتد مناطق الانتاج حتى تصل إلى رمال الداروم (دير البلح). وكان قمح وغلال المنطقة الجنوبي يصدر إلى مدينة القدس قبل الوجود الصليبي، بيد أنه بعد الغزو الصليبي تعرضت هذه المنطقة الجنوبيه للدمار والخراب. فقد أصبحت بيت جبرين وتل الصافى من المستوطنات الصليبية حوالي عام ١١٤٠م، وبعدها بخمسة عشر عاماً سقطت عسقلان فى يد الصليبيين وأصبحت مدينة مسيحية صليبية . وتشير المصادر التاريخية الصليبية إلى خصوبة سهل

عسقلان ، والذى لم يزرع خلال مدة الحرب والتى استمرت ما يقرب من خمسة عشر عاماً ولكنه بعد سقوط عسقلان أصبح هذا السهل الساحلى يجلب الخير الرفير للمستوطنين الصليبيين الجدد . وعلى الرغم من تفوق محصول القمح على سائر المحاصيل الأخرى ، فإن بعض المناطق كانت تزرع بمحصول الشعير وكانت مساحات هذه الزراعات أقل من المطلوب . وتركزت مناطق انتاج الشعير حول حبرون ، ومن حبرون كانت تقتد منطقة زراعة لشعير إلى القرى البعيدة لمنطقة الكرمل ومنطقة صمويل على حافة الصحراء الجنوبية الكبرى وإلى الشمال صوب مدينة بيت لحم.

وخلال فترة السيادة الصليبية أصبحت منطقة جبال مدينة القدس والممتدة من بيت لحم إلى القدس ورام الله أماكن لسكنى المستوطنين الصليبيين . وعلى الرغم من ندرة الآبار والعيون اللازمة للرى فى هذه المنطقة فإن محاصيل هذه المنطقة كانت غنية الانتاج كما ذكر الرحالة الروس الراهب دانيال والذى كان قوى الوجد الصوفى لنعمة الرب التى أسبغها على أهالى هذه المنطقة . وقد سمعنا أنه فى منتصف القرن الثانى عشر الميلادى كانت أراضى هذه المنطقة صعبة التملك نظراً لارتفاع ثمنها . ويفيتنا أن ارتفاع ثمن بيع هذه الأراضى يرجع إلى المد الاستيطانى الصليبي . ففى المنطقة الممتدة من بيت لحم جهة الشمال إلى البيرة (المعمرية) ورام الله - على الطريق الرئيسى المؤدى إلى بانياس (السامرة) كانت توجد أراضى الدومين الملكى (منطقة النفوذ الملكي) ، ومتلكات الهيئات الدينية العسكرية (الداوية - الاستبارية - التيوتون) ، وأراضى الكنائس والأديرة وقد تنوّعت الزراعات فى كل هذه الأراضى ، على الرغم من أن أهميتها الرئيسية لم تنحصر فى انتاج القمح والحبوب فقط ، بل أيضاً فى انتاج الكروم .

لقد كان الكثير من الفلاحين فى جبال القدس ينسلون الأودية الضيقة ويزورثون هضبة الجبل واعدادها للزراعة . ولم تكن الزراعة فى هذه المنطقة أمراً ميسوراً ، حيث كانت الأراضى شبه المستوية القديمة الموجودة على المنحدرات تتطلب مجهوداً بشرياً ضخماً لفلاحتها وزراعتها . ويذكر الجغرافى العربى ياقوت الحموى ، فى بداية القرن الثالث عشر الميلادى ، أن الشكل الجبلى لطبيعة المنطقة يعيق استخدام الدواب والماشى فى أعمال الحرش ، ولذا أصبح لزاماً على فلاхи هذه المنطقة استخدام المجرافات والفالوس فى حرش الأرض الزراعية وإعدادها للزراعة .

وبالإضافة إلى القمح والشعير ، واللذين كانوا يعتبران من الحبوب والغلال الرئيسية، كانت توجد أنواع أخرى من الحبوب تنتجه الأراضي المقدسة في فلسطين لاستخدام الإنسان والحيوان وهما حبة الدخن millet ، والشوفان Oats ، والحنطة Spelt . وتذكر احدى الوثائق الصليبية المهمة والتي ترجع إلى منتصف القرن الثالث عشر الميلادي، أن الذرة أو الحبة الهندية كان من بين الحبوب التي تزرع في أقليم الجليل. وإذا كانت ترجمتنا لكلمة الحبة الهندية صائبة وصحيحة، فإن ذلك يعتبر دليلاً إضافياً ويرهاناً يؤكد أن الذرة ذات أصل آسيوي وليس أمريكي الأصل.

وبالإضافة إلى الحبوب مثل القمح والشعير والشوفان والحنطة فإن الأرض المقدسة في فلسطين كانت تنتج النباتات البقولية والخضروات. وقد ذكر أن الفول كان من النباتات البقلية، ذات الأهمية الغذائية للإنسان، وأيضاً كعلف للماشية ولم تذكر قيمته كعنصر من عناصر تزويد الأرض بسماد النترات ، الذي يخصب الأرض ويزيد الانتاج المحصولي، وقد أطلق اسم الفول على قلعة في وادي جزيريل وعرفت باسم «قلعة الفول Castrum Fabae ». كما كانت توجد أنواع أخرى من البقليات مثل البسلة، والعدس والفاصوليا .

وقد ذكر أيضاً ضمن منتجات الأرض الزراعية في فلسطين الخيار والبطاطس الأحمر والشمام الأصفر . ولم نعرف ما إذا كان البصل الفلسطيني الذي ينتج في عسقلان كان ما يزال يزرع هناك أم لا . بيد أن الموائد الصليبية كانت تشمل ضمن محりاتها كلًا من البصل والثوم ونبات الخردل . وكانت هناك نباتات برية تنمو بمفردها وقد استخدمت كتناول وبهارات . ومن بين النباتات التي ذكرت بشكل خاص نبات الشمار، ونبات القصعين، ونبات السذاب والتي كانت تستخدم في الأغراض الطبية، ومن المحتمل أيضًا أن نبات الخباز mallow كان يزرع أيضاً . وكانت قرية العناب القرية من مدينة القدس تشتهر بانتاج نبات السذاب الطبيعي Rue.

وتشتهر فلسطين منذ العصر القديم بأشجار الفاكهة ، وتعتبر أشجار الزيتون من أهم هذه الأشجار . وكانت أشجار الزيتون تنمو في الجبال، وفي السهول، وفي الأودية، بيد أن أهم مناطق زراعته في فلسطين تتركز في الجزء الجنوبي. ففي وقت مبكر من القرن الثاني عشر الميلادي كان الحجاج يجدون أشجار الزيتون في نابلس في شكل غابة كثيفة تشبه البساتين، وقبل ذلك بائنة عام أشار أحد الجغرافيين المسلمين إلى وجود أشجار الزيتون في هذه المنطقة ، وكانت جبال القدس وأيضاً منطقة حبرون تباهي بانتاج الزيتون ذكي الراحة. وقبل الحروب

الصلبية كان زيت الزيتون المنتج في هذه المنطقة يصدر إلى الأقطار المجاورة. فقد كانت المناطق القريبة من حبرون أو بيت المقدس ونابلس تعتبر مراكز كبيرة لانتاج الزيتون. ومن الغريب حقاً أن أشجار الزيتون فلما كانت تذكر في اقليم الجليل. ومن المحتمل أن يكون هذا الاغفال من قبيل المصادفة ، وهذا الاغفال يمكن أن يعكس لنا حقيقة تاريخ العصر الوسطى. ومن ناحية أخرى فإن أشجار الزيتون كانت تغطي كل المدن الساحلية ، من عسقلان في الجنوب ، مروراً ببيافا ، وأرسوف ، وقيسارية وعكا حتى الوصول إلى مدينة عكا. ولم يغفل المؤرخون الذين وصفوا تفصيلات الحصار الصليبي للمدن العربية في فلسطين وبلاط الشام ذكر حدائق الزيتون وبساتين الفاكهة لذيدة الطعام حول المدينة المحاصرة . فقد كانت بساتين الزيتون القريبة من مدينة صور تستغل استغلالاً تجاريًّا ووُجد في كل قرية معصرة لعصير زيت الزيتون، كما كانت العادة في العصور الوسطى ، وعلى الرغم من أن كثيراً من هذه المعاصر كانت تدار بواسطة إنسان أو حيوان- فمن المحتمل أن هذه المعاصر الخاصة بزيت الزيتون في تلك الحقبة الزمنية كانت أعمق من مشيلتها في العصر القديم.

وكان السمسم مصدراً للزيت وهو محصول يزرع في فصل الصيف ، وكان من المحاصيل المتوازنة ربيعاً ومن المحاصيل المساعدة للدورة الزراعية للمحاصيل . وكان يستخرج منه زيت السمسم ذي النكهة الخاصة والذي كان يلقى رواجاً واسعاً في الاستهلاك لدى سكان منطقة الشرق العربي الإسلامي.

وكان العنبر أو الكروم من أنواع الفاكهة البارزة التي كانت تنمو في مناطق فلسطين بشكل طبيعي ، وذلك في شكل عناقيد العنبر والذي كان يصنع منه النبيذ. وقد تحدث الرحالة الروس دانيال والذي زار هذه المناطق المقدسة في بداية القرن الثاني عشر عن العنبر والكروم الذي يزرع في هذه المناطق فقال «إن هذا العنبر الذي ينمو في الأرض المقدسة هو أجود أنواع الكروم الذي يزرع في العالم- وأفضل فاكهة تخرجها الأرض- ويمكن مقارنته بالكروم التي تنمو في المملكة السماوية مذاقاً وطعمًا وحلوة» ومن المنطقى الاعتقاد بأن التوسع في زراعات الكروم وصناعة النبيذ جاء تلبية لحاجة السكان الصليبيين وكان نتاجاً للغزو والاستيطان الصليبي في بلاد الشام وفلسطين. فالمعروف أن الدين الإسلامي قد حرم شرب الخمر ولذا تحددت مساحة الأراضي التي كانت تزرع الكروم على الرغم من أن المسيحيين الوطنيين كانوا يصنعون النبيذ خلال فترة السيادة الإسلامية وقد ازدهرت سوق تجارة النبيذ

وازدهرت زراعات الكروم لتلبية احتياجات كبار الملك الصليبيين وسكان المدن من النبيذ الذي كان المشروب المفضل لديهم. وكانت مزارع الكروم تحيط بكل المدن الساحلية، بيد أن هذه الزراعات من الكروم قد وجدت بوفرة في الأراضي والمناطق الداخلية كثيرة التلال والجبال في فلسطين . فانتشرت زراعات الكروم شمال مدينة صيدا على ساحل البحر، وفي إقليم الجليل حول طبرية والناصرة، وعلى امتداد الطريق من نابلس إلى مدينة القدس، حول نابلس ، ورام الله، وبيت المقدس، وبيت لحم، وأيضاً حبرون في الجنوب . ففي نهاية القرن العاشر الميلادي، كان هناك نوعان من الكروم تنتشر زراعتهما حول مدينة القدس: وهذا النوعان هما العنب الجاف (الزيبيب) أو البناتي والعنب العناني، وكان هذان النوعان ذا شهرة واسعة في مجال التصدير إلى الأقطار المجاورة. وكما هو المتوقع، فقد اهتمت المؤسسات الكنسية الصليبية التي حازت أملكـاً من الأراضي الزراعية اهتماماً كبيراً بزراعة الكروم. ظهرت زراعات الكروم في القرى التي استوطنها رهبان كنيسة الضربي المقدس وهي القرى الواقعة على الطريق الممتد من بيت المقدس إلى رام الله. ومن خلال المصادر التاريخية عرفنا أنه في بعض المناطق الأخرى الخاضعة لادارة الهيئات الدينية العسكرية تحولت زراعات الذرة إلى مزارع الكروم . وقد حدث مثل هذا من أجل تلبية احتياجات أفراد الهيئات الدينية العسكرية (الاسپيقارية - الداوية - التبيوتون) من النبيذ ، ولاشك في أن زراعة الكروم كانت أكثر ربحية من زراعة الذرة .

وبالإضافة إلى المنتجات الرئيسية الثلاث والتي تشمل: القمح، والزيتون ، والعنب، فإن منطقة فلسطين قد اشتهرت أيضاً بأنواع ممتازة من الفاكهة . وعلى الرغم من أن المناطق الشمالية من فلسطين كانت تفتقر في انتاجها الطبيعي من التفاح والكمثرى ، والبندق ، وشمار الكرز Cherries ، فإن الزائر لهذه المناطق كان يجد وفرة من الفاكهة الجديدة والغريبة في اللون والطعم ، فكانت أشجار التفاح تنتشر بكثرة حول مدينة القدس ، عند زعـار Zo;ar الواقعة جنوب البحر الميت وفي بيسان، وكانت هناك أعداد بسيطة من أشجار البندق في إقليم نابلس (السامرة). ووُجـدت أشجار التخـيل المشـمرة بالبلـح ذـي الطـعم العـجـيب فـي المناـطق الشـمالـية من فـلـسـطـين، فـقد زـرـعت أشـجارـ التـخـيلـ فـي هـذـهـ المناـطقـ شـبـهـ الاستـوـائـيـةـ حولـ بـيـسانـ، وـعـلـىـ اـمـتـدـادـ نـهـرـ الـأـرـدـنـ، وـأـيـضاـ فـيـ شـمـالـ مـسـتـنقـعـاتـ الـحـوـلـةـ، وـفـيـ وـاحـاتـ أـرـيـحاـ المشـهـورـ، وـعـنـدـ الحـافـةـ الجـنـوـبـيـةـ لـلـبـحـرـ الـمـيـتـ فـيـ زـعـارـ Zo;ar ، وـالـتـيـ كـانـ يـعـرـفـهـاـ الصـلـيـبـيـوـنـ وكـذـلـكـ

القدماء باسم «مدينة النخيل». وقد عرف انتاج هذه المنطقة من البلح باسم بلح «انقيلا- kila» وكان هذا النوع من البلح يصدر إلى الخارج خلال فترة السيادة العربية الإسلامية. ووُجِدَت أشجار النخيل أيضًا حول المدن الساحلية. وهي الأشجار التي كانت تضيف إلى بنية هذه المدن جمالاً ورونقًا وفخامة. وقد اقتبس الصليبيون اسم القرية التي أسسواها حديثاً وهي قرية «بالميرا Palmarea» من بستان النخيل الشهير والذي كان يقع بين حيفا وعكا . وكان البلح يؤكل طازجاً أو جافاً كما كان تخشى به الفطائر . وبالإضافة إلى ذلك ، كان يستخرج من البلح عصير حلو المذاق وهو العسل الشهير الذي ورد ذكره في التوراة والأناجيل المقدسة (أرض يفيض باللبن والعسل) ومن المحتمل أن كلمة العسل المذكورة في الكتب المقدسة تشير إلى ذلك العسل المستخرج من هذا البلح) .

ومن المعروف أن بيسان تقع في مكان المرور من وادي جزريل إلى منخفض الأردن . وبالرغم من انحدار هذه المنطقة الشديد ، وارتفاع نسبة الرطوبة بها ، وانتشار المستنقعات بها أيضاً، إلا أنها كانت تحتوى على كميات من المياه المجهولة لم تشهد مثلها مناطق أخرى من فلسطين ، وكانت مستنبطاً لزراعة الفواكه والنباتات الاستوائية ، والتي كانت تشبه مثيلتها في منطقة أريحا فقط. وقد وجدت بعض هذه الفواكه الاستوائية أيضاً في وادي نهر الأردن بالقرب من بحيرة طبرية وفي أراضي المستنقعات (السبخ) في منطقة الحولة وبصورة أكبر حول بيسان في فترة ما قبل الوجود الصليبي. ونادرًا ما كانت المصادر الصليبية تذكر ذلك . ومن المحتمل أن انتاج هذه المناطق من الأرز قد انخفض ، ويمكن أن نعزّز ذلك إلى أن السكان الصليبيين لم يعتادوا أكل الأرز. وخلال العصر المملوكي ذكرت زراعة الأرز مرة ثانية في مناطق بالقرب من بانياس .

وبالإضافة إلى أشجار النخيل ، ظهر نبات غريب ذي أهمية كبيرة، ويبدو من أوصافه البهيج أنه يتعلّق بالأصل السماري المقدس، وكان هذا النبات هو قصب السكر. وكانت سيقانه الطويلة يستخرج منها عصير حلو المذاق يتناوله الأطفال والكبار على السواء ، فيقومون بمضغ هذا القصب . وقد ذكرت زراعات قصب السكر قبل الوجود الصليبي حول مدينة صيدا ، وفي قرية قابول Kabul ، وفي وادي نهر الأردن عند منطقة قراوة- Ka rawa ، وكان قصب السكر يزرع بشكل رئيسي حول مدينة صور. وأدرك الصليبيون أهمية هذا النبات بالنسبة لأوروبا ، وكان الصليبيون يستخدمون عسل القصب وعصير الفواكه في صناعة

الحلويات الرئيسة. ولهذا احتفظ الصليبيون براكز الانتاج القديمة وتوسعوا في هذه الصناعة في كل مكان. وتركز مركز الانتاج الرئيسي لقصب السكر وصناعة العسل بالقرب من مدينة صور، حيث كانت مياه رأس العين الوفيرة تروي زراعات قصب السكر الممتدة بطول ميل من الأمتار. وعلى امتداد الساحل في الشمال، كان يزرع قصب السكر في صيدا وفي عكا، حيث أنشئ معمل لتكرير سكر القصب. وما يذكر أن الماء الوفير كان من أهم عوامل قيام زراعة قصب السكر، إذ كان هذا النبات ينمو في المناطق الغنية بالماء... الخ. وقام فرسان هيئة الاستبارية بزراعة ما يلزمهم من قصب السكر بالقرب من طبرية، وفي وادي أريحا حيث توجد ينابيع المياه الوفيرة، وكذلك بالقرب من نابلس وبالقرب من المقر الاقطاعي للأمير الصليبي مانيوثر أمير الجليل، حيث كان يوجد نظام محكم ودقيق لحفظ المياه والرى، الأمر الذي سهل زراعة هذا المحصول الترفى.

وكان الليمون أحدى أنواع الفواكه التي تزرع في فلسطين. إذ كان الليمون محظوظاً بإعجاب القائد الأوروبي الجديد إلى الأراضي المقدسة. كما حظى هذا الليمون والبرتقال (والذى عرفه العرب باسم النارنج) بطعمه الحامض الحلو ورائحته العطرية القرية باعجاب الأوروبيين القادمين إلى هذه المناطق المقدسة. فكان يصنع من الليمون عصير وشراب مسكر، بيد أن الليمون (النارنج) كان بشابة نوع مهم من البهارات الغربية، وكانت الأطعمة الشهيبة تحتوى على الليمون والبهارات والتراويل، حيث كانت تضاف إلى الدجاج والسمك، وذكرت المصادر الصليبية هذا الليمون واعتبرته مثل هذه التراويل والبهارات كما اعتبرت هذا الليمون أحدى عجائب الدنيا الجديدة. وانتشرت زراعة أشجار الليمون (الأرجواني والليمون والبرتقال) على امتداد الساحل بالقرب من قيسارية، وفي المناطق الداخلية حول قلعة مونتفرت وفي الشمال بالقرب من بانياس. ولم يكن الموز أقل أهمية من البرتقال، إذ وصفه الحاج الصليبيون بالضبط واطلقوا عليه اسم «تفاح الجنة» وعرف في اللغة العربية والعبرية باسم الموز. وانتشرت أشجار الموز على طول نهر الأردن في الأودية المستوية والرطبة الواقعة في الضفة الغربية لنهر الأردن. وثمة نوع آخر من الفاكهة كان يحظى بالاعجاب والتقدير العظيم وهو التين بجميع أصنافه، وكان هذا التين المنتج، في فلسطين ينافس كل أنواع التين الذي تنتجه منطقة دمشق، إذ كان يؤكل طازجاً أو جافاً ويستخدم في حشو الفطائر. ويبدو أن أشجار التين كانت أكثر انتشاراً في منطقة الجبال الداخلية، وذكر الحاج الصليبيون أن أشجار التين كانت

منتشرة في المنطقة الممتدة من حبرون إلى نابلس ، وأيضاً في رام الله، وفي يعبد وقيسارية، ولسبب ما لم تشر المصادر الصليبية إلى وجود أشجار التين في الجليل .

وكان الرمان Pomegranates يمثل مفخرة الذكريات القديمة لإقليم فلسطين ، هذه الذكريات التي قلما كانت تذكر الأختام والعملات. وقد عرفنا أن الرمان كان ينتشر في منطقة أريحا Jericha ، وبالقرب من نابلس ، وفي منطقة ما وراء نهر الأردن، بيد أن المصادر الصليبية قد أغفلت هذا.

وتعتبر أشجار الجميز من الأشجار المشمرة في المناطق الصليبية في فلسطين وبلاط الشام، وإن كان ثمارها أقل درجة في المذاق من ثمار التين. واستخدمت أشجار الجميز في أغراض البناء حيث أخشاب الجميز. وكانت ثمرة الجميز الصغيرة تنمو بسرعة عجيبة في ساق الشجرة، وكانت هذه الأشجار تنمو حول عسقلان وحبرون . وكانت شجرة الجميز تمثل أهمية في اقتصاد هذا القطر ولم تلعب مثل هذا الدور الاقتصادي المهم خلال فترة السيادة الصليبية.

ففي الأوقات العصبية كانت شجرة المخروب تلعب دوراً مهماً . فقد ذكرت هذه الشجرة بأنها هدية المنطقة الجبلية في القدس ونابلس (يهودا والسامرة) إذ أن هذه الشجرة كانت تمثل مصدراً من مصادر الطعام لجيوش الحملة الصليبية الثالثة، ولاسيما في أثناء حصار الصليبيين لمدينة عكا. وتعتبر القائمة الكاملة لأشجار الفاكهة والنباتات المشمرة التي كانت تزرع في الأرض المقدسة قائمة طويلة . ويذكر المغرافي المسلم المقدسى الذى ولد في مدينة القدس (فى القرن العاشر الميلادى) أنواعاً كثيرة من الفواكه ، يصل عددها إلى ثمانية وأربعين نوعاً . وهذه الأنواع تشمل السفرجل وحبوب الصنوبر ، والعنب أو الزبيب الأسود ، وأنواعاً معينة ومحددة من جوز الهند ، والليمون والهليون ، والخرشوف ، والخس.

والجدير باللحظة أن منطقة صغيرة نسبياً قد شهدت زراعة محاصيل مختلفة وكانت هذه المنطقة عبارة عن شريط ضيق من الأرض يقع بين البحر المتوسط والصحراء ، ويبعد أن الزراعة قد ازدهرت الأمر الذي لفت انتباه الحجاج الأوروبيين في العصور الوسطى، كما يلفت نظر القاريء في الوقت الحالى. وعلى الرغم من المبالغة التي تتسم بها أوصاف المعاصرين فإن هذا لا يجعلنا أن نقلل من مصداقية هذا الوصف ولكنه يحمل شيئاً من المحقيقة إلى حد ما . بيد أن المنتجات الزراعية المختلفة في حد ذاتها تعتبر بثابة مؤشر ودلالة ضعيفة جداً لل الاقتصاد الريفي الزراعي. فلم تكن الواحات الخصبة فقيرة الانتاج مثل الصحراء. ويمكن أن ننظر إلى

الزراعة الصليبية من منظور صحيح من خلال التعرف على الخلفية الزراعية لإقليم فلسطين بوجه عام. وثمة سؤال يطرح نفسه وهو ماذا كان شكل وفط الزراعة الفلسطينية منذ سبعة قرون مضت؟ وما هو غط الاستيطان الزراعي الصليبي؟ والحقيقة أننا عرفنا شيئاً عن مثل هذه الأمور من خلال وجهة نظر المصادر الصليبية الأوروبية ، ومن خلال حياة الصليبيين في هذه المناطق ، ومن المصطلحات الفرنسية . وقلما كانت المصادر العربية تزودنا بالحقائق عن هذه الأمور . فقد تبلورت مفردات حقائق هذه الأمور الخاصة بنمط الزراعة والاستيطان الزراعي الصليبي في ظل ظروف مختلفة للوجود الصليبي في هذه المناطق العربية المحتلة وتبني المؤرخون هذه الحقائق في العصر الحالي. وفي الغالب لم تكن مثل هذه المسلمات والحقائق تبرز بنجاح حقائق الظروف الفلسطينية خلال العصر الصليبي.

لقد كانت القرية منذ قديم الزمان هي الوحدة الأساسية لحياة الفلسطينيين ومعيشتهم. وأطلق الصليبيون في القرن الثاني عشر الميلادي على القرية اسم ضيعة ، مثل الضيعة الرومانية في العصر القديم والتي لم تصل إلى مستوى وحجم المدينة. وفي العادة كانت القرية في فلسطين في العصر الصليبي تعرف باسم Casale (والتي جمعها Casiaux أو Casal). وقد ظهر هذا الاسم في أوروبا في العصور الوسطى الباكرة وفي الأصل كانت كلمة Casal تعنى ضيعة ريفية. فالقطع الأول من الكلمة Casal وهو Casa تعنى منزلًا سكنياً أو مزرعة سكنية . وهكذا فإن كلمة Casale تعنى كتلة متراصة من المنازل السكنية ذات سمة ريفية بارزة وتحمل خصائص الريف .

وفي الغالب كانت منازل القرية تشيّد من الأحجار ، وذلك لسهولة الحصول على أحجار البناء في الأرض المقدسة فقد كانت الأحجار أقل تكلفة من الأخشاب . وعلى أي حال فإن كثيراً من المنازل والبيوت كانت تبني بأقل تكلفة من الأخشاب . وهكذا فإن كثيراً من المنازل والبيوت كانت تبني بأقل تكلفة وذلك من خليط من الطين والقش، وكانت منازل القرية مكونة من طابق واحد مزودة بأسقف مسطحة مفتوحة، يضع الفلاحون فوقها أدواتهم الزراعية كالفالس والمحراث كما كانت أسقف المنازل تستخدم كمستودع لتخزين الحبوب في صوامع فوق أسطح المنازل، كما كان سطح المنزل يستخدم للنوم فوقه في أثناء ليالي وأيام الصيف الحارة. وكان المنزل في القرية مزوداً بشبابيك صغيرة توفر درجة معتدلة من البرودة وتتوفر الحماية للسكان من حرارة الشمس، ومن خلال الخبرة الطويلة تعلم البناء تصميم المنازل في القرى بشكل يوفر

نسيم الليل البارد للمنزل . ونادرًا ما كانت أسطح المنازل في القرى مبلطة إذ كانت الأسف تصنع من الطين ، الذي يحتفظ بالبرودة والرطوبة في الصيف بيد أن هذه الأسقف الطينية للمنازل كانت تجعل المنازل أكثر برودة خلال الفصل المطير من العام .

كانت القرية في العادة عبارة عن تكتل مركب من المنازل الصغيرة ، وتحول منعزلة أو مساكن كانت مجهولة تقريبًا . وتمثل الاستثناء الوحيد لهذا الوضع في وجود أرض يسكنها أفراد بشكل مؤقت تقع خارج الحدود الطبيعية للقرية وكانت المنازل المزرودة بالشبابيك الصغيرة تطل على الفنا ، وكانت واجهات مبني المنزل يقطعه باب واحد ، وقد وجدت مرات ترابية ملتوية بين المنازل . وقد زودت بعض المنازل في القرية بقبوام تحت الأرض استخدمت لتخزين الحبوب . وزود المنزل في القرية أيضا بفرن لاعداد وصناعة الخبز وكان الوقود اللازم لهذا الفرن يصنع من روث الحيوانات المجافة والخطب من أغصان الأشجار المجافة والنباتات الشوكية المجافة ، وهو الخطب الذي كانت تجمعه النساء . وفي العادة أيضا كان البئر الخاص بالقرية يوجد بالقرب منها ، وظلت القرية كما كانت في العصور التوراتية مركزا للتسلية والسمسر الليلي ، وكانت الجرار الطويلة الفخارية المسامية تستخدمها نساء القرية في نقل الماء من بئر القرية إلى المنازل .

وما يذكر أن منازل القرية كانت تشييد من أحجار ، إذ كانت توجد أماكن كثيرة في فلسطين لاستخراج الأحجار ، بيد أنه كان من السهل الحصول على مواد البناء من بقايا اطلال المدن القديمة العديدة ومن بقايا اطلال القرى التي تقع في المناطق الريفية . وانتقلت بقايا الأبهة والفاخمة المعمارية القديمة من أعمدة رخامية وتيجان أعمدة إلى القرى وأعيد استخدامها في بناء البيوت الصغيرة لل فلاحين ، وتحولت بعض المراكز الحضرية القديمة إلى منطقة جاهزة لاستخراج الأحجار الازمة للبناء . وهكذا استغلت مناطق عسقلان وقيسارية القديمة ولأنزال هذه المناطق تستغل في استخراج الحجارة حتى الوقت الحالى . وقد استخدمت بقايا هذه المناطق من الأحجار في بناء مدينة قيسارية الصليبية الصغيرة أو في تشييد بناء مدينة عكا الجديدة في نهاية القرن الثامن عشر الميلادي .

وكان يوجد في القرية الصليبية في فلسطين منزل أو منزلان أكثر اتساعا عن باقي منازل الفلاحين ، وكان منزل رئيس القرية أحد هذين المزيلين ، وفي العادة لم يزد رئيس القرية عن كونه رئيس أكبر عشيرة في القرية ، وربما تدل كلمة عشيرة على أن سكان القرية كانوا من

عشيرة واحدة، مع أنه أحياناً كانت القرية الواحدة تسكنها عائلتان أو أكثر. والجدير بالذكر أن السيد الاقطاعي الصليبي هو الذي كان يعين رئيس القرية، وكان منزل رئيس القرية مزوداً بكل وسائل الراحة التي تناسب استقبال أي زائر محلى أو أجنبي يجد كل الترحاب ، وأحياناً كانت الحجرة الواسعة المخصصة للمسافرين والتي تعرف باسم المضيفة تخصص لهذا الغرض.

ولم يكن رئيس القرية كما كانت تعرفه الوثائق الصليبية قائداً تقليدياً للقرية فحسب ، بل كان أيضاً الممثل الحكومي والرسمي لقريته أمام السلطات الصليبية وتقع على عاتقه مسؤوليات مهمة مثل حفظ الأمن في القرية ، وتحصيل الضرائب الحكومية من أهل القرية. فقد كانت الضرائب الزراعية المفروضة على فلاحي القرية تدفع عيناً من نوع محصول الموسم الزراعي وترسل هذه الضرائب إلى مقر السيد الاقطاعي الصليبي. وفي أحوال كثيرة كانت المراكز الإدارية الاقطاعية توجد في المدن الساحلية، أو في قلعة أو في برج محصن في المناطق الداخلية وعادة كان لقرية رئيس واحد، بيد أنه في بعض الأماكن كان يرأس القرية اثنان من الرؤساء أو أكثر يعينهم السيد الاقطاعي الصليبي لهذا المنصب . ومن المحتمل أن تعدد رؤساء القرية كان يعتمد في المقام الأول على عدد العائلات التي تقطن القرية .

كان رئيس القرية يشارك في شن الت Shivars والقوانين يضعه في ذلك التقاليد ومؤازرة سيد الصليبي ، وأهم القوانين التي كان يشارك رئيس القرية في سنه قانون نقل الملكية من شخص إلى آخر من أهالي القرية. ويوجب القانون الاقطاعي كان رئيس القرية يعتبر من صغار الأفصال الاقطاعيين، أو كان بمثابة فصل يمثل سلطة الحكومة في تحصيل الضرائب الزراعية المفروضة على فلاحي القرية للسيد الاقطاعي . ففي إحدى المناسبات سمعنا أن هيئة فرسان الاستبارية منحت رئيس القرية المدعو عبيد ملكية عدد من القرى لفلاحتها وحماية الأمن بها طالما أن مثل هذا الاجراء سيلقى السرور والرضا من جانب مقدم هيئة الاستبارية وأعضائها ولم تكن هذه الحالة استثناءً بل كانت متكررة.

لقد فرض على رئيس القرية ومجلس الأعيان بها أن يقرروا خضوعهم للسيد الاقطاعي الصليبي ، وأن يتتعهدوا بتقديم الطعام له ولخاشته في حالة زيارته للقرية ، ويشكّل رمزي وونقاً لما تملّيه علاقه الاعتزاز بين قلوب رجالات العصور الوسطى فإن على مجلس أعيان القرية رئيسها أن يفتحوا بالحب ذراعيهم لاستقبال السيد الاقطاعي الصليبي بترحاب في أثناء

زيارتة للقرية وأن يزودوه بكلمات من النقود الفضية ، ويزودوه ببعض مكاييل القمح أو الزيتون . وعندما تنتقل ملكية القرية إلى سيد اقطاعى آخر فإن الرئيس ومجلس أعيان هذه القرية يجب عليهم أن يقدموا الولاء والاخلاص الاقطاعى لهذا السيد الجديد . ومن اللافت للنظر أن هذا القسم الاقطاعى بين السيد والفصل كان يتم صياغته فى مصطلحات اقطاعية حيث كان رئيس القرية ومجلس أعيانها يقسمون على سيف مسلول وفقاً لعادتهم وكان الترجمان يترجم هذا القسم الذى يتضمن تقديم الولاء والتبعية الاقطاعية للسيد الاقطاعى الصليبي ، الذى يتسلم منهم هذا القسم له وأخواته من أفراد وأعضاء هيئة الاستمارية .

وفي حين كان رئيس القرية يظهر باستمرار ويدرك فى الوثائق الصليبية وفي الكتب القانونية ، فإنه في بعض الحالات نجد موظفين آخرين يؤدون نفس المهام التي كاد يؤديها رئيس القرية . وقام فرسان هيئة التيروتون بتعيين بايل Abaillus من أجل حماية حقوقهم فى قرية عربة الواقعة فى إقليم الجليل . وثمة وثيقة رسمية تؤكد أن وظيفة «البايل» قد وجدت ضمن الوظائف فى الجهاز الإداري لأسقفية الناصرة (وعلى الرغم من أنه فى هذه الحالة قد ذكرت فقرة بايل صورية nostne bai de Saphorie وربما تكون هذه القراءة خاطئة لعبارة رئيس صورية) . وكان بعض هؤلاء الموظفين يحملون أسماءً شرقية مثل يوحنا سمس (شمس) وبابنه بطرس (بيتر Peter) الذين التحقوا بالجهاز الإداري لأسقفية فى الناصرة . ومن المحتمل أن هؤلاء الموظفين كانوا من مواطنى الناصرة المحليين ، بيد أن بعض القرى التابعة للبنادقة بالقرب من مدينة صور كان يرأسها هذا النوع من الموظفين المشرفين فى حين كانت بعض القرى الأخرى يرأسها رئيس القرية .

وتحت اثنان من الموظفين الآخرين كانوا يقرمان بالاشراف على الضياع القروية ، أحدهما الترجمان والثانى كاتب القرية . ومن الواضح أن مهام وظيفة الترجمان ومهام كاتب القرية كانت بسيطة جداً مثل ألقابهم الأصلية . ومن المحتمل أن الترجمان بدأ وظيفته كمترجم بين السكان العرب الوطنيين الذين يتحدثون اللغة العربية وبين السيد الاقطاعى الأعلى الصليبي . وأصبحت وظيفة الترجمان ذات أهمية حكومية تدر على صاحبها دخلاً مرتفعاً . وقد عرفنا أن مستحقات الترجمان فى ثلاثة من القرى التابعة للاستمارية فى إقليم الجليل كانت على النحو

التالى:

يلتزم كل فلاح من فلاحي هذه القرى أن يدفع للترجمان مكيالاً واحداً (مقداره مود = ١٩٠ لتر) من القمح ومكيالاً من الشعير عن كل كاريوكا * من الأرض الزراعية التي يتلوكها كل فلاح، بالإضافة إلى أن الترجمان كان يتلقى نسبة من المحصول العادى من كل من السيد الاقطاعى وال فلاحين على السواء وذلك بواقع حفنين من القمح من الشعير (manipuli) بالإضافة إلى أنه كان يفرض على الفلاحين فى القرية توفير الطعام اللازم للترجمان وكذلك العلف اللازم لراحتته، بالإضافة إلى أن الترجمان كان يحصل على نسبة ٦٪ من الانتاج المحصولى الموسمى المخصص لكل من السيد الاقطاعى وال فلاحين . وتجدر الاشارة إلى أن وظيفة الترجمان كانت تباع مثل أية اقطاعية وذلك فى المحكمة العليا لقاء مبلغ يقدر بـ ٢٥٠ بيزنت . ونحن لسنا بصدده تقييم الاختلاف بين وظيفتي الكاتب والترجمان، فقد تطورت هاتان الوظيفتان بسبب المتطلبات العملية التى كانت تحتاج إليها الادارة الصليبية وأيضاً بسبب عملية متصلة فى النظام الاقطاعى وهى العملية التى وصلت ببطء إلى وضع الأوقاف الكنسية أو الاقطاعات وملوكها من الأنصار الذين لم ينتموا إلى طبقة النبلاء . وثمة شك حول وجهة النظر التى ترى أن الترجمان الصليبي والذى أصبحت وظيفته وراثية ظل يؤدى مهمته كمترجم بين السكان الوطنين المحليين وبين السيد الاقطاعى الصليبي ، وكان المسيحي الشامي الذى يعرف اللغة الفرنسية والذى اكتسبها فى مدينة من المدن يناسب القيام بهمة الترجمة، وكان هذا المسيحي يعمل ترجماناً للقرية .

وعندما يأتي وقت الحصاد وجنى المحصول كانت أجران القرية تعج بالحركة والنشاط كما كانت أجران القرية تشهد مساومة مستمرة بين الفلاحين وبين محصلى الضرائب الزراعية الحكوميين الصليبيين ، إذ كان وكيل الأمير الاقطاعى الصليبي يراقب عملية درس المحصول من الغلال والخنطة لكي يحصل على الحصة المقررة للسيد الاقطاعى من هذا الانتاج المحصولى . وفي الغالب كانت عملية تقدير الضرائب الزراعية العينية عملية معقدة من الناحية الواقعية ، فلم تكن القرى بأكملها ملكاً لسيد اقطاعى واحد، بل كانت هذه القرى مقسمة بين اثنين أو أكثر من الاقطاعات . ولا يمكن تخيل أي نوع من الحدود بين هذه الاقطاعات . ويبدو أن تقسيم الممتلكات الاقطاعية كان يقتربن باثنين من الاجراءات . ونشأ أحد هذين الاجراءين

* الكاريوكا : عبارة عن قطعة صغيرة من الأرض ، يمكن لزوج من الشيران حراستها فى يوم واحد، واستخدمت هذه الوحدة للمساحة الزراعية خلال الفترة الصليبية (الترجم) .

من الوضع القانوني لل فلاح . إذ كان على الفلاح وأسرته أن يتعهدوا بمنح السيد الاقطاعي حقوقه من الضرائب الزراعية العينية، بمعنى أن السيد الاقطاعي كان يحصل من هذه الأسرة على الخدمات والبالغ المستحقة عليهم . وفي حالات أخرى لم توجد مثل هذه الواجبات المالية المحددة . فإذا حدث وقسمت القرية بين ثلاث اقطاعيات فإنه في وقت الحصاد والجني يطلب كل صاحب اقطاعه نصيبه وحصته المقررة من المحصول ، وعندئذ يتم تقدير الضرائب الزراعية المستحقة على كل اقطاعه وذلك في جرن القرية، ثم بعد ذلك يتسلم مثلو السادة الاقطاعيين الصليبيين الحصص المقررة لسادتهم ، ومثل هذا يحثنا على الافتراض بأن تقدير الضرائب الزراعية على كل المحصول هو خير برهان على عدم وجود أملاك خاصة في القرية، كما يؤكّد أيضًا وجود الملكية المشتركة وهو النمط الذي وجد في فلسطين منذ فترة متأخرة وهو النمط الذي كان يعرف بأرض الشاع، وثمة أشكال مشابهة لهذا النمط من الأماكن المشتركة وجدت في مكان آخر (والتي كانت تعرف باسم زادراجا Zadruga ذات الأصل السلavic) . وهكذا فإنه يجب فهم هذه الحقيقة . وكانت توجد قرى مشتركة ، بيد أن المنطقة الزراعية كانت ملكية خالصة للعائلات التي تعمل في الزراعة . وكانت عملية تحصيل الضرائب يتبعها على الفور عملية الدفع والوفاء من جانب الفلاحين للمبالغ المالية المقررة عليهم . وكان رئيس القرية يقوم بهمزة تحصيل هذه المستحقات المالية المفروضة على الفلاحين، فهو الذي يحدد نسبة الضرائب وفقاً لمساحة الأرض الزراعية وحجم المحصول الذي يتتجه الفلاح ، وعندئذ كان مثلو السادة الاقطاعيين يعملون بعد من أجل تحصيل نسبة الحصص المستحقة لسادتهم .

وما يذكر أن الأراضي الزراعية في القرية كانت تقايس بوحدة قياس زراعية تعرف باسم الكاريوكا باللغة اللاتينية وكانت تعرف بـ Charrues في اللغة الفرنسية . فقد كانت وحدة مساحة الأرض الزراعية في أوروبا العصور الوسطى تقاس بمساحة الأرض التي تفلح بواسطة محركات ذي عجلات في فصل زراعي واحد . ويقيناً أن المصطلحات الأوروبية الخاصة بمساحة الأرض الزراعية لا يمكن تطبيقها في الأراضي الفلسطينية نظراً لاختلاف الظروف والأوضاع بين المنطقتين . فقد كان المحركات الفلسطينيين في العصور الوسطى يشبه المحركات يتركب من إطار خشبي، ومقبضين ، ونصل حديدي ، وكان هذا المحرك يقلب الأرض بشقة وصعوبة . إذ كان الغرض الرئيسي من عمل المحرك هو شق القشرة الأرضية العلوية وإعداد التربة لبذور البذور . لقد كان هذا المحرك يناسب التربة الخفيفة ويتوازن للمحافظة على رطوبة هذه التربة بصعوبة .

وقد ذكر متى الباريسى فى مؤلفه التاريخي الذى دونه فى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى أن هذا المحراث كان يجره ثور واحد وقد صوره هذا المؤرخ على خريطة وضعها لمدينة عكا. ومع ذلك فقد حافظت الروح الاستعمارية الصليبية على الكاريوكا كوحدة لقياس مساحة الأراضى الزراعية فى فلسطين وبلاد الشام وهى الروح التى فرضت أنكارها على مختلف الحقائق تماما.

وبالإضافة إلى الكاريوكا كوحدة لقياس مساحة الأراضى الزراعية كانت توجد وحدات أخرى لقياس الأراضى الزراعية، فكان يوجد المحراث aratrum وكانت هذه الوحدة تعادل مساحة الأرض الزراعية التى يحرثها محراث واحد أو مساحة الأرض التى يكفى لفلاحتها محراثان. ولم تختلف هذه الفكرة بشكل أساسى عن الكاروكا Carruca، وذلك لأن المحراث فى منطقة الشرق العربى الإسلامى كان يوصف بدقة بأنه الأرض المحروثة aratrum وكان هذا نوعاً من المحاريث استخدمت فى العصر القديمة. وكان ثمة نظام لقياس الأراضى الزراعية يتعلق بالدواوب التى تستخدم فى المجاز الأعمال الزراعية ، مثل «الأرض التى ي العمل فى فلاحتها اثنان من الشيران فى يوم واحد ». وفي امارة طرابلس الصليبية كانت توجد وحدات أوروبية لقياس مساحة الأرض الزراعية ، مثل الباربلييات Parilliata ذات الأصل البروفنسالى أو القطالونى * . وكانت توجد فى امارة طرابلس أيضاً وحدة لقياس مساحة الأرض الزراعية تعرف باسم كابالاريا Caballaria ، وهو اسم مغلوط آخر (حيث لم يرد ذكره فى النظام الاقطاعى النورمانى فى جزيرة صقلية) وفدي من وحدة قياس للأراضى الزراعية تسمى الكاريوكا البيزنطية Greek Carruca. وأخيراً كانت الأرض الزراعية تقاس وفقاً لكمية الحبوب اللازمة لفلاحتها ويندرها . وكان مثل هذه الإجرا ، عملياً وذلك لأنه كان يأخذ فى الاعتبار مدى ظروف التربة المحلية للأرض الزراعية ومدى خصوصيتها .

وما يذكر أن المعنى المعتمد والسائل لأرض المحراث كان عبارة عن وحدة الأرض المحروثة والتى كانت تعادل حجم الأرض التى تمتلكها أسرة واحدة من أسر الفلاحين . وهذا يعني مساحة الأرض التى تكفى لعائلة أسرة واحدة وتزرعها أسرة واحدة أيضاً . وهكذا فإن فكرة وحدة الكاريوكا كانت تعادل وحدة القياس الأوروبية التى ظلت تعرف باسم مانسو Mansus . والحقيقة أن الوثيقة الصليبية قد ذكرت أن الكاريوكا قد عرفها الصليبيون باسم ماسوس massus .

* الباربلياتا : وهو مقياس يشبه الفدان ، استخدم لقياس الأرض الصالحة للزراعة وكثير هذا المقياس فى المنطقة المجاورة لطرابلس .
المترجم .

كان المحراث Charrûa عبارة عن وحدة قياس للأراضي الزراعية وكانت هذه الوحدة تتفق والاحتياجات الحقيقة لحياة الفلاح. وكان حجم الأرض الزراعية الذي يكفى لاعادة الفلاح وأسرته يختلف من منطقة إلى أخرى وفقاً لدرجة خصوبة تربتها وحجم انتاجها ، وهكذا فإن مساحة الفدان العربي من الأرض الزراعية المستوية كانت تزيد عن ضعف مساحة الفدان من الأرض الزراعية في المناطق الجبلية في منطقة بيت المقدس. بيد أن الضرورات الإدارية قد فرضت ابتكار نوع من وحدة قياس زراعية رسمية حكومية للملكة الصليبية ألا وهي الكاريوكا ، وقد حفظت هذه الوحدة في سجلات المساحة وتحددت بشكل قاطع من أجل الأغراض الضرائب وذلك في التشريعات والقوانين الإدارية الصليبية. كانت الكاريوكا عبارة عن مساحة من الأرض طولها ٢٤ كرد وعرضها ١٦ كرد، والكرد يعادل ١٧ مرة قدر طول الرجل أي ١٠٢ قدماً . وهكذا فإنه إذ قدرنا أن ٦ أقدام رومانية تعادل طول الرجل، فإننا نستطيع أن نحسب مساحة الكاريوكا ومقدارها ، ووفقاً لهذه الحسابات فإن الكاريوكا كانت تعادل ٣٥ هكتاراً. لقد كانت الكاريوكا وحدة قياس زراعية حكومية ، وقدرت الضرائب في كل قرية على أساسها.

وما يذكر أن السنة الزراعية في المناطق الصليبية في فلسطين وبلاد الشام كانت تبدأ قبل فصل سقوط المطر، ولسوء الحظ كان الموسم الزراعي يبدأ في الأرض المقدسة في منتصف شهر نوفمبر . وكانت المحاصيل الشتوية هي المحاصيل الرئيسة . وعادة كان يتم حرش كل الأرض الزراعية ، لكي يتم إعداد جزء منها لزراعة المحاصيل الشتوية ، وجاء آخر من هذه الأرض لزراعة المحاصيل الصيفية وكانت الأرض التي أعدت لزراعة المحاصيل الشتوية يذر بها القمح والشعير. ويحتفظ بالجزءباقي من الأرض لزراعة المحاصيل البقلية ، مثل البسلة، والعدس، والنباتات البقلية، وكان الجزء الثالث من الأرض الزراعية يعرف في المصادر الصليبية باسم أرض الراحة، وكان هذا الجزء يظل محروشاً حتى يزرع بالمحاصيل الشتوية في العام التالي . وكانت الأرض المزروعة بالمحاصيل الشتوية تتبع محاصيل غير تقليدية في أثناء الموسم الزراعي الجارى، ويبدأ حصاد هذه المحاصيل في فصل الربيع قبل حصاد المحاصيل الصيفية .

فقد كانت الأرض تحرث وتترك محروضاً في فصل الخريف ثم تحرث مرة ثانية في فصل الربيع وعندئذ كان يتم زراعتها بالمحاصيل الصيفية. وقد جاء وصف هذه الأنشطة الزراعية في فصل الربيع كاملاً في المصادر الصليبية ذات الأصل الإيطالي وعرف هذا النشاط الزراعي في

المصادر الصليبية الإيطالية باسم maggiatica أي النشاط الزراعي الذي يتم في شهر مايو، وإذا عرفنا أن موسم النشاط الزراعي الفعلى في المناطق الصليبية في فلسطين وبلاد الشام كان يتم قبل شهر مايو أي في شهر مارس فإنه يتضح لنا أن هذه التسمية التي وردت في هذه المصادر الإيطالية كانت خاطئة ، ولم تكن المحاصيل الصيفية ذات أهمية اقتصادية ، بيد أن هذه المحاصيل كانت تحتاج إلى صيانة التربة والاهتمام بها ، وتنظيفها من الحشائش البرية الكثيفة . وكان نبات السمسم من المحاصيل المهمة، وكذلك البسلة الصغيرة ، ونوعين من حبة الدخن (وهما البيضا ، والصفرا)، والذرة السكرية. وكانت وفرة الأراضي الزراعية تجعل من الممكن زراعة مساحة واسعة من هذه الأرض بأقل جهد، وذلك عن طريق ترك قطع من الأرض المحروقة وهكذا كانت تزداد إنتاجية الأرض . وحقيقة الأمر أن الوثائق الصليبية تذكر لنا مقدار كيل البذور الذي تحتاجه أرض مساحتها محراث يعمل بأربع عجلات وهو (مقدار ١٢ مكيال Modii) وأربع مكيابل (٤ مكيال مودي Modii) من البذور لزراعة أرض مساحتها محراث بعجلة واحدة (أو لزراعة ٤ كاروكات من الأرض والتي تحرث بواسطة محراث بعجلة واحدة) . ومن الصعب تحديد مساحة الأرض الزراعية الفعلية بالنسبة للأرض المحروقة ، سواء التي تحرث بواسطة محراث واحد، أو بواسطة أكثر من محراث بعجلة واحدة أو بأربع عجلات .

وهكذا دورة المحاصيل الزراعية

السنة الزراعية	الفصل	الحقل ١	الحقل ٢
النصف الأول من السنة الزراعية الشتاء	محاصيل شتوية	مزروعات بقلية	مزروعات بقلية
النصف الثاني من السنة الزراعية الشتاء	محاصيل صيفية	أرض محروقة - محاصيل صيفية	أرض محروقة - محاصيل صيفية

وما يذكر أن إنتاجية الأرض لم تكن وفيرة . فالهكتار من الأرض الزراعية الذي يستخدم في زراعته كمية من بذور القمح قيمتها ٣٣ كجم أو كمية من الشعير قيمتها ٢٦ كجم من التقاوى كان يعطى محصولاً وقت الحصاد خمسة أو سبعة أمثال وزن هذه التقاوى التي استخدمت في الزراعة من القمح وعشرة أمثال أو ثلاثة عشر قدر وزن التقاوى من الشعير . أى أن إنتاجية الهكتار من القمح كانت تقدر بحوالى ١٥ كجم من القمح و ٢٠ كجم من الشعير .

والحقيقة التي تقول أن الأسرة في القرية كانت تمتلك أرضاً زراعية مساحتها واحد ونصف كاريوكا أو كاروكتين ، تشير إلى مشكلة رئيسة من مشاكل الاقتصاد الفلسطيني : فلم يكن هناك نقص في الأرض الزراعية ، ولكن النقص الحقيقي كان يمكن في الأيدي العاملة الزراعية . وتشير لنا الكثافة السكانية المنخفضة إلى سمة أخرى من سمات الاستيطان الصليبي الزراعي : فالعدد الكبير من المناطق الزراعية التي ذكرت في المصادر التاريخية كانت عبارة عن كفور ونجوع صغيرة وليس قرى . وتشير مئات الوثائق التاريخية التي تحت أيدينا إلى نقط محدد من نقاط المناطق الزراعية في فلسطين وبلاد الشام خلال حقبة السيادة الصليبية . فقد كانت قرية محاطة تقريباً بعدد من النجوع والكفور - فقد كانت هذه النجوع تحمل اسماءً صحيحة معروفة وكانت تتبع نوعاً معيناً من المحاصيل الزراعية ، وكانت هذه النجوع والكفور غير المأهولة بالسكان تذكر دائماً في الوثائق على أنها ضمن توابع القرية مثل أراضي المراعي التابعة للقرية ، أو الآبار أو البساتين التابعة للقرية . وكانت مثل هذه المنطقة غير المأهولة بالسكان (النبع) *gastina* والتي عرفت عند الصليبيين بهذا الاسم *gastina* معروفة في الغرب الأوروبي ، وكانت تعرف هناك باسم المنطقة غير المأهولة بالسكان . وقد عرفت مثل هذه المناطق في اللغة العربية باسم الخربة (أو الأرض مهجورة) . وبدل العدد الكبير لهذه المناطق الحالية من السكان على ظاهرة الريف المعلوّل في هذا القطر الفلسطيني ، وذلك بالمقارنة بالفترات التاريخية السابقة التي ازدهرت فيها هذه المناطق الريفية . وكانت هذه المناطق الريفية تستخدم كأراضٍ للمراعي بيد أنها كانت تستخدم في الزراعة المؤقتة وعندها كانت تترك محروثة . وكان الوضع القانوني لهذه المناطق الريفية تشبه أرض المشاع التي كانت معروفة في أوروبا من حيث الاستخدام الجماعي لأراضي هذه المناطق من جانب مجتمع القرية .

ومن المرجح أن الوضع الاقتصادي للمناطق الريفية الفلسطينية خلال حقبة السيادة الصليبية كان أفضل حالاً من الوضع الاقتصادي للمناطق الريفية الأوروبية المعاصرة ، وأفضل حالاً أيضاً

من مشيلاتها فى الأقطار الإسلامية المجاورة لها فى منطقة الشرق العربى الإسلامى. وتعليقًا على ما سبق ، يذكر لنا الرحالة المسلم ابن جبير الذى أتى إلى المناطق الصليبية فى بلاد الشام وفلسطين من بلاد الأندرس فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر الميلادى أن الفلاحين المسلمين الذين خضعوا للسيادة الصليبية كانوا يدفعون ضرائب أقل من نظرائهم الفلاحين الذين عاشوا فى المناطق التى خضعت للسيادة الإسلامية فى بلاد الشام. ويدرك أن السلطات الصليبية لم تتدخل فى شئون القرية بعد أن يدفع أهلها كل ما عليهم من التزامات وضرائب.

والواقع أن عدم وجود السخرة The Corvee فى المناطق الريفية الصليبية فى بلاد الشام جعل وضع الفلاحين الشوام أسعد حالاً من نظرائهم فى المالك الغربى الأوروبية المعاصرة ، ولم يستطع الصليبيون تطبيق نظام اقتصاد الضيعة فى فلسطين وببلاد الشام لاختراقهم فى خلق نظام سياسى ومعيشى أفضل من ذلك النظام الذى كان موجوداً فى هذه المناطق الخصبة . فلم تعرف المملكة الصليبية فى بيت المقدس نظام تقسيم الأرض الاقطاعية بين السيد الاقطاعى وبين مستأجريه من الفلاحين ، حيث كان السيد الاقطاعى هو الذى يستغل أملاكه فى منطقة نفوذه حيث كان يعمل فى فلاحتها مجموعة من الأقنان المجرودين فى الضيعة الاقطاعية بشكل الزامى ، ولم يحتفظ السيد الاقطاعى الصليبي بأرض يستغله لنفسه بشكل مباشر إذ كان فلاحو القرية يقومون بحراثة كل أراضى القرية . ومن ثم لم تكن هناك حاجة وضرورة لاجبار الفلاحين فى العمل فى زراعة الأرض خاصة بمتلكات السيد الاقطاعى ، وهكذا كانت السخرة شكلاً مقيتاً من أشكال نظام اقتصاد الضيعة ، وهى السخرة التى قلماً كان يطبقها السادة الاقطاعيون الصليبيون . فلم يفرض على الفلاح فى المناطق الصليبية فى فلسطين وببلاد الشام حتى تأدية التزام السخرة الأسبوعية وهو القيام بالعمل فى أرض السيد الاقطاعى ثلاثة أيام فى الأسبوع ، أو تأدية هذه الأعمال الزراعية فى أراضى السيد الاقطاعى فى أثناء ذروة الموسم الزراعية (البذار- المرث- الحصاد) .

وقد ذكرت السخرة The Corvee هنا وهناك ، بيد أن استخدامها وتطبيقاتها من جانب الحكم الصليبيين كان نادراً جداً وكانت هذه السخرة تمثل فى القيام بأعمال فعلية فى الحقول. فإذا حدث وطبقها السيد الاقطاعى فإنه كان يستخدمها بطريقة مفيدة إلى حد ما ، ولاسيما فى حالة زراعة قصب السكر ، وفي بساتين الزيتون، وفي بعض الحالات كانت هذه الخدمات الزراعية تؤدى نقداً بيد أن البديل النقدى الضئيل لهذه الخدمة التى تشمل السخرة كان يدل على عدم أهميتها .

كانت المبالغ الرئيسة المستحقة على الأموال الزراعية تعرف باسم ضريبة الأرض الزراعية Terraticum ، وكانت هذه الضريبة في الأصل تدفع عيناً وقت الحصاد والجني أى في نهاية السنة الزراعية والممسم الزراعي. وتشير المصادر الصليبية إلى هذه الضريبة الزراعية -Terrat- icum التي كان تفرض على فلاحي القرى. وكانت هذه الضريبة تشبه ضريبة المخرج التي فرضها المسلمون منذ فترة باكرة من ظهور الإسلام على أهل الذمة من اليهود والنصارى ثم فرضت هذه الضريبة بعد ذلك على ملاك الأراضي الزراعية سواء كانوا من أهل الذمة أو من المسلمين على السواء. ونقرأ في أحد الوثائق التاريخية الصليبية أن العشر الكنسية كانت تدفع من ضريبة المخرج التي يدفعها الفلاحون.

وما يذكر أن الضريبة الزراعية التي كان يدفعها الفلاحون في القرى للسلطات الصليبية كانت تقدر بثلث قيمة المحصول المنتج . ولم تكن هذه الضريبة ثقيلة الوطأة إذا ما قورنت بالضرائب الزراعية التي فرضت على الفلاحين في الغرب الأوروبي في نفس الحقبة الزمنية أو حتى بالمقارنة مع الضرائب الزراعية في الوقت الحالي . بيد أن هذه الضرائب كانت تزداد وتترتفع أحياناً في صورة دفع مبالغ مالية إضافية في شكل منع ، فمثلاً كان الملك الصليبي أمالريك (عموري) ، وفرسان التيوتون يتسلمون سنوياً كيلاً من القمح وكيلًا من الشعير عن كل كاريوكا من الأرض الزراعية في منطقة النفوذ الملكي في القدس ونابلس . وبالإضافة إلى الضريبة الزراعية السابقة ، كانت هناك ضرائب تفرض على فلاحي القرى مثل ضريبة الآثاراء أو الجباية Xenia أو exenia وكان هذا الاسم مصطلحاً بيزنطياً كريهاً وبغيضاً . وهذا المصطلح يعني في الأصل الهدايا والهبات . بيد أن هذا النوع من الالتزامات المالية كان يدفع بمناسبة الأعياد الدينية أو في مناسبات تتعلق بالتقويم الزراعي . وبالرغم من أن هذه الالتزامات المالية كانت تدفع في مناسبات محددة أى بشكل مؤقت ، فإنها كانت تقتل مورداً مالياً ثابتاً ولذا فإن رجال الدين ادعوا أحقيتهم في هذه الالتزامات فقد أقر الملك الصليبي بلدوين الرابع لوليام الصوري رئيس أساقفة كنيسة مدينة صور منحة عشر ضريبة الهبات والجباية هذه التي كانت تحصل من سيد تورون (بتين) الاقطاعي وذلك في خلال أعياد الميلاد ، وفي أيام المرافع Shrovetide (الأيام الثلاثة السابقة لأربعاء الرماد) وقبل يوم العصوم الكبير) وفي عيد الفصح Ester ، وكانت هذه الهبات عبارة عن دجاج Fowe وبيفن ، وجبن ، وخشب . ومرة ثانية وجدنا عدداً من الهبات والالتزامات فرضها فرسان التيوتون وكانت عبارة

عن دجاج ، وبيض ، وجبن . وذكرت احدى الوثائق التاريخية البندقية هذه الهبات الجبائية بأنها «الالتزامات وضرائب شخصية بيد أنها كانت تدفع عن كل كاريوكا من الأرض الزراعية ، فقد فرضت على كل كاريوكا دجاجة ، وعشر بيضات ، ونصف رطل من الجبن و١٢ بيضة لشراء حمولة من الخشب».

وبالإضافة إلى الضرائب التي كانت تفرض على الأراضي الزراعية كانت توجد ضرائب خاصة تفرض على أشجار الفاكهة ، وضرائب أخرى تفرض على أشجار الزيتون، وقدرت هذه الضريبة بثلث حجم عصير الزيتون المستخرج . وعلى أي حال ، فإن السادة الصليبيين قد فرضوا ضريبة السخرة على الفلاحين في بساتين الزيتون القريبة من مدينة صور، والتي كانت تختوي على أكثر من ألف شجرة ، وكذلك في مزارع قصب السكر. ونظرًا لعدم وجود منطقة نفوذ تخضع لنظام الضيوع الاقطاعية ، فإن فلاحي هذه المناطق كانوا يخضعون للعمل الإجباري، وتركز هذا العمل الإجباري في هذه المزارع .

ومن الالتزامات المالية الأخرى المفروضة على الفلاحين تأتي ضريبة النقل Portaqium ، وهو التزام مالي مقابل نقل الحبوب إلى الشون أو مقابل استخدام أجران درس المحصول ، وضريبة على خلايا عسل النحل وضرائب على الدواب والمواشي (الأغنام - الشيران - الجاموس). وكان السادة الصليبيون يمتلكون في مناطق أخرى الغابات أو الأراضي ذات الأشجار الخفيفة ، وعندئذ كان الفلاحون يدفعون ضريبة حق استغلال المراعي ، وحق جمع الأخشاب المستخدم في التدفئة والبناء ، ومزارع الأشجار المستخدم في صناعة أعمدة مزارع الكروم.

ومن السمات البارزة للأراضي الزراعية وجود «الكاريوكا الحرة» أو (الكاريوكا الفرنسية)، ولم يوجد تعريف مقنع للكاريوكا الحرة. ومن الواضح أن الكاريوكا الحرة كانت منطقة زراعية معفاة من تأدية الضرائب الزراعية ولا يمكن القول إن الأرضي الحرة كانت من مبتكرات التشريع الصليبي.

وعلى الرغم من توزيع قطع كبيرة من الأراضي الزراعية على الفلاحين فإن القرى الصليبية كانت صغيرة المساحة. ففي المناطق القريبة من مدينة صور، حيث وفرة الوثائق التاريخية ، كان معدل عدد الأسر يصل إلى عشرين أسرة . ومن خلال معرفة حجم الأرضي في القرى يتبين لنا أنه ليس ثمة اختلاف كبير بين القرى في المناطق الصليبية المختلفة . وعلى أثر وشاية ، فإن

أحد الموظفين الحكوميين البنادقة كتب إلى وطنه في البندقية يقول : «من المعلوم أن منطقة عسقلان كانت تضم ٧٢ قرية وأن أصغر هذه القرى كانت تضم حوالي ٢٠٠ نسمة بالإضافة إلى أن القرية الأصغر كانت تضم عشرين أسرة . والعدد الثاني وهو العشرين أسرة هو الذي كان يمثل معدل عدد العائلات في القرية . وعلاوة على ذلك ، فإننا أيضًا يمكننا التتحقق من أن العائلة المحلية لم تكن كثيرة العدد . إذ كان عدد أفراد الأسرة في القرية يتراوح ما بين ثلاثة أفراد أو أربعة أفراد ، وشمل هذا العدد الأطفال الذين يعيشون مع آبائهم ، وتؤكد لنا الحقائق السكانية المتاحة وجهة نظرنا بخصوص فط الاستيطان الصليبي الريفي في الفترة الباكرة من الوجود الصليبي ، هنا النمط الذي كان يتمثل في قلة عدد سكان القرية .

ويفسر لنا قلة عدد سكان القرى في المناطق الصليبية في فلسطين وبلاط الشام ميزة مهمة من مزايا الزراعة الصليبية . وإلى جانب المحاولات العديدة الصليبية من أجل استيطان المناطق الريفية عن طريق استقرار الفلاحين الصليبيين بها حاول السادة الصليبيون من علمانيين ورجال دين كنسين توسيع أملاكهم من الأراضي الزراعية وذلك عن طريق استخدام العمالة الزراعية الفريجية أو المحلية . وهذا يلقى الضوء على الموضوع المتعلق بدفع أو عدم دفع ضريبة العشر الكنسية . ويشكل عام فإن جميع السكان الصليبيين كانوا يدفعون ضريبة العشر الكنسية ، ولم يدفعها السكان المحليون من غير المسيحيين . وكان السيد الاقطاعي يدفع ضريبة العشر الكنسية من موارده ودخله ، وفي وقت مبكر من عام ١١٢٠ ، عقد مجمع كنسي في مدينة نابلس حضرة الملك الصليبي بلدوبن الثاني ، وأصدر هذا المجمع قراراً يلزم كل سكان المملكة الصليبية بدفع ضريبة العشر الكنسية . وقد ألغى من ضريبة العشر الهيئات الدينية العسكرية التي كانت تملك أراضي زراعية منذ فترة قريبة ، كما ألغى من هذه الضريبة أيضًا أراضي المنشآت الكنسية ، وبسبب هذه الاعفاءات الخاصة نشب نزاعات بين رجال الدين الكنيسين وبين الهيئات والمؤسسات التي فكتت بهذه الامتيازات ، ولذا كان من السوء الشديد أن تملك الهيئات الدينية العسكرية (الاستارية - الداوية - التيوتون) أرضاً اقطاعية مستحقة عليها ضريبة العشر الكنسية في المناطق الصليبية ، وكان الأمر يزداد سوءًا عندما تستغل هذه الهيئات الدينية العسكرية هذه الأراضي الزراعية التي بحوزتها لصالحها . فإذا حدث وأن قامت هذه الهيئات الدينية العسكرية بتأجير أراضيها لل耕耘ين مقابل الحصول على حصة من المحصول ، فإنه في هذه الحالة تفرض على هذه الهيئات الدينية العسكرية ضريبة العشر

الكنسية، وفي حالة استغلال الهيئة الدينية العسكرية لأراضيها الزراعية استغلالاً مباشراً فإن الأمر يختلف في هذه الحالة ويصبح من حقها رفض دفع ضريبة العشور الكنسية. وثمة سؤال يطرح نفسه وهو إلى أي مدى تسخطي الهيئات الدينية العسكرية، والمنشآت الكنسية أن تحصل على خدمة العمل الإجباري في أراضيها التي تستغلها استغلالاً مباشراً؟ لقد كان الشيء الممكن في هذا المجال هو الحصول على هذه الخدمة من الأفراد من غير أعضاء هذه الهيئات الدينية العسكرية ومن غير أعضاء المؤسسات الدينية الكنسية . فقد أقرت بعض النظم والقوانين امكانية استخدام الأخوة العلمانيين في استصلاح الأرض الزراعية ، بيد أن الاجراء العادي كان يتمثل في استخدام وتطبيق التنظيم الاقطاعي الأوروبي . وهذا يعني أن الأداة الاستعمارية الصليبية سوف تعدد وتهييء رأس المال (الأرض- التقاوى- النباتات- أدوات الزراعة) ويقوم الفلاحون بالأعمال الزراعية في هذه الأرض، وكانت المحاصيل تقسم وفقاً للنسبة الآتية (الثلث والثلثان) الثلث للفلاحين والثلثان للسيد الاقطاعي صاحب الأرض . وقد شعرت الكنيسة بأن هذه القسمة غير عادلة وأعلنت أن من حقها ضريبة العشور الكنسية مهما كانت أشخاص متملكى وحائزى الأراضى الزراعية وأشخاص المستوطنين واعتبرت الكنيسة أيضاً أن عدم دفع ضريبة العشور الكنسية المستحقة لها من قبل انتهاك امتيازاتها . ولكل نقدم صورة واضحة يجب علينا أن نتبع التزاع الذى نشب بين أسقف عكا وبين هيئة فرسان التيوتون ، فقد ادعى أسقف عكا أن مقدم هيئة فرسان التيوتون وأعضاء هذه الهيئة الدينية يجب عليهم أن يفرضوا ضريبة العشور الكنسية على فلاحيهم الذين تسلموا الأراضى الزراعية فى أسقفية عكا ويلزموهم بدفعها كاملاً غير منقوصة للكنيسة . وأن يدفع هؤلاء الفلاحون حصة من الفواكه التى ينتجونها وأن يحتفظوا لأنفسهم بجزء من هذا الانتاج لقاء عملهم أو لأى سبب آخر .

ومن ناحية أخرى فإن هيئة فرسان الداوية لم ترفض هذا المطلب فقط بل طالبت أن يعاد إليها مبلغ ضخم من المال يقدر بـ ٢٠٠٠٠٠ بيزنت . «فقد قال أعضاء هيئة فرسان التيوتون أنه بالنسبة لضريبة العشور الكنسية فإننا دفعنا للكنيسة عكا المزيد من الأموال ، وإننا لم نستثنى من دفع هذه ضريبة تلك الأرض التي تستغلها بجهودنا الشخصى وعلى نفقتنا الخاصة، وكذلك الأرض الجديدة (التي طالبنا بملكيتها من جديد) ، وقدمنا العلف للماشية ودفعنا ضريبة نقدية عن بساتين الفاكهة وأشياء أخرى» .

وتوصل الطرفان بعد طول خصام وشجار إلى حل مؤداه أن تلتزم هيئة فرسان التيوتون بدفع $\frac{1}{5}$ من قيمة العشر الكنسية عن كل الأراضي الزراعية التي بحوزتها سواء كانت هذه الأرض يمتلكها أعضاء هيئة فرسان التيوتون بشكل مباشر وعلى نفقتهم الخاصة أو كانت تستغل بواسطة فلاحين آخرين.

وهذه الحالة في حد ذاتها (وكان يوجد حالات كثيرة من هذا النمط) ثبتت أن قيام الفلاحين بتأدية الأعمال الزراعية أو بزراعة الأرض لحساب صاحبها مقابل حصته من غلال هذه الأرض كان يعزز موقف الفلاحين من حيث المطالبة بملكية الأرض خاصة في زراعة بساتين الكروم المربيحة.

وما يذكر أن الحقيقة التي توصلنا إليها لم تكننا من تقييم وتقدير دخل أسرة الفلاح. بيد أنه يمكننا التوصل إلى فكرة تتعلق بتقدير موارد الزراعة. فقد يتبيّن من خلال حالات كثيرة أن معدل دخل القرية من الانتاج الزراعي تتراوح ما بين ٣٠٠٠ - ٥٠٠٠ بيزن特. ومن الطبيعي أن موارد ودخل هذه القرى كانت أعلى من ذلك إما بسبب حجمها أو بسبب قريها من المراكز الحضرية. وثمة قرية كانت تباهي باسمها الرومانطيكي وهي قرية الدامور التي بيعت مقابل مبلغ ١٢,٠٠٠ بيزن特 كما بيعت قرية كفر قانا الشهير (قانا الجليل لقاء مبلغ ٢٤,٠٠٠ بيزن特)، وكان معدل دخل القرية السنوي يقدر بـ ٥٠٠ بيزن特. والواضح أن دخل اقطاع الفارس كان يقدر بـ ٥٠٠ بيزن特، وهي الاقطاعية التي تستحق عليها تقديم خدمة عسكرية قدرها فارس واحد. ومن ناحية أخرى، فإن هذا يوضح لنا القيمة النسبية للاستثمار في مجال الزراعة. وكان عائد هذا الاستثمار يتراوح ما بين ١٠-١٢٪، وكان عائد هذه الاستثمار أقل من عائد الاستثمار في مجال التجارة.

ومن خلال هذه المعلومات التي عرفناها عن الزراعة والتنظيم الريفي الصليبي في المملكة اللاتينية في بيت المقدس يمكننا التوصل إلى استنتاجات كثيرة بخصوص الظروف والأوضاع الاقتصادية التي كانت تميز عصر السيادة الصليبية في فلسطين وبلاد الشام. ولاشك أن فلسطين وبلاد الشام كانت أقل ازدهاراً اقتصادياً في القرنين الثاني عشر والثالث عشر من الميلاد إذا ما قورن بعصر السيادة البيزنطية لهذه المناطق. وخلال فترة السيادة العربية التي كانت فاصلة بين عصر السيادة البيزنطية وعصر السيادة الصليبية والتي استمرت ما يقرب من أربعة قرون شهدت هذه المناطق انهياراً حاداً في عدد القرى الصغيرة الأمر الذي أدى إلى تركز

النشاط العمراني في مناطق أكثر خصوبة في هذا القطر. وعلى أي حال ، فإن هذا التدهور في عدد القرى الصغيرة لم يكن حاداً بالصورة والشكل الذي أشارت إليه المصادر التاريخية لفترة السيادة العربية. فنجد أن مئات القرى التي كانت غير مسجلة في الدفاتر خلال فترة السيادة العربية قد سجلت ودونت في سجلات خلال فترة السيادة الصليبية. ومن الصعب يمكن التسليم بأن جميع هذه القرى كانت ذات نشأة جديدة، وكذلك يمكن الافتراض بأن هذه القرى العربية كانت موجودة باستمرار منذ العصر الروماني والعصر البيزنطي؛ وعندما نقارن بين أسماء هذه القرى الصليبية في بلاد الشام وفلسطين بثيلتها التي كانت موجودة في هذه المقاطعة خلال فترة السيادة المملوكية يتبيّن لنا أنه ليس ثمة أي اختلافات واضحة ، وكان التغير الذي يميز المدن عن القرى يتمثل في الحجم والمكانة إذ كانت المدينة أكبر حجماً من القرية وأكثر أهمية اقتصادية . فقد كانت مدن بلاد الشام وفلسطين محصنة ، وقد قام المسلمون مراراً بدمير حصون هذه المدن وتجريدها من وسائل الدفاع في أثناء القرن الثالث عشر الميلادي ، وذلك لحرمان الصليبيين من غزوها ثانية . ولم يؤثر تدمير حصون المدن في النمط القروي والريفي لهذه المناطق . ويعكّرنا الظن فقط بأن الانكماش في الانتاج الزراعي في القرية يرجع إلى قلة عدد الأسواق الحضرية ، وأصبح الريف في المناطق الصليبية في بلاد الشام وفلسطين يخضع لحكم الفرد . وعلى الرغم من أن الوضع السكاني الريفي قد تأثر بشكل ملحوظ في الفترة المملوكية ، فإن هذا الوضع الديموجراطي قد تردّى بشكل ملحوظ أيضاً خلال عصر السيادة العثمانية الذي استمر ما يقرب من أربعة قرون .

وعندما تحدد النمط العام للمناطق الريفية ، اكتشفنا تغييرات واضحة في النمط السكاني لهذه المناطق . ومن الواضح أن كل المناطق الريفية غير المأهولة بالسكان قد وجدت تقريباً في كل قرية هجرها سكانها . ويمكن الاستدلال على ذلك من خلال الحجم الكبير من الأرض الزراعية التي كانت تمتلكها وتحوزها الأسرة الواحدة في القرية. وربما لعب الغزو الصليبي دوراً مهمًا في حرمان الريف من سكانه ، فقد عرفنا أن عدداً من اللاجئين المسلمين قد غادروا فلسطين ليستقرّوا في مصر وبلاد الشام . ومن الصعب التيقن من أن هؤلاء اللاجئين كانوا نازحين من القرى أو من المدن المحتلة . وإذا أخذنا بعين الاعتبار التأثير الصليبي، فإن المرء لا يستطيع أن يعزّز مثل هذه التغييرات الكبيرة كليّة للغزو الصليبي وذلك لأنّ فترة الغزو الصليبي كانت قصيرة نسبياً ، إذ كان في إجمالها عشر سنوات تقريباً. وبالإضافة إلى ذلك ،

فإن الغزاة الصليبيين كان من مصلحتهم الاحتفاظ بالقرى وسكانها من الفلاحين ، حيث أن الوجود الصليبي كان يعتمد على وجود هذه القوة العاملة في مجال الانتاج الزراعي من الفلاحين في هذه القرى، وهكذا يمكن أن تعتبر أن مثل هذه التغييرات في النمط السكاني (الديموغرافي) قد أخذت تتشكل خطوطها بشكل بطيء خلال مدة طويلة تسبق زمنياً السيادة الصليبية في المناطق العربية.

وما يذكر أن الصليبيين لم يستقرروا في المناطق الريفية إذ كانت محاولات الاستعمار والاستيطان الصليبي تتضمن أساليبًا جديدة ومتطرفة ، بيد أن نطاق مجال هذا الاستيطان وهذا التطور كان ضيقاً وصغيراً ويجب أن تعتبر أن مثل هذا التطور كان هو الاستثناء وليس القاعدة . ومن المؤكد أن الجهد الاستعماري الصليبي لم يستطع أن يغير البنية العرقية (الاثنية) لسكان الريف من الفلاحين إذ كان الفلاح الصليبي والسيد الاقطاعي الصليبي بعيدين عن الصورة الريفية والقروية بسبب اقامتهم في المدن أو في قلائع معزولة. فقد كانت المدن هي المكان المفضل لاقامتهم ، وأيضاً القلعة المحلية التي كانت مكاناً استثنائياً لاقامتهم. وقد نوقشت أسباب ذلك آنفاً * . وهذه الحقيقة في حد ذاتها الخاصة والمثلثة في اقامة الصليبيين في المدن أو في القلاع المحلية كانت لها نتائجها غير المباشرة على المجتمع الصليبي على الصعيدين الاقتصادي والاجتماعي .

فقد أقام الصليبيون في منازل بالمدن، أو في خارج الامارة الاقطاعية . ففي المناطق الريفية التابعة لعكا على سبيل المثال كان السيد الاقطاعي الصليبي مثلاً للسيد الاقطاعي الذي يغيب عن أملاكه الريفية . إذ لم تكن هناك وسائل قوية مباشرة تربط بين السيد الاقطاعي الصليبي وبين أرضه . وكانت علاقة هذا السيد بأملاكه الريفية تمثل في حصوله على مورد للدخل المنظم من عائد هذه الأرض والاستغلال المنظم لها. ومن أجل هذا الاستغلال المنظم للأرض الزراعية اتبع السادة الاقطاعيون القسوة في استثمار هذه الأراضي الزراعية وهي القسوة التي جاءت متوافقة تماماً مع المصطلح الألماني *Raubwirtschaft* والذي يعني القسوة وعدم الرحمة ، ويمكن أن نعزّز هذه القسوة إلى شدة حرص السيد الاقطاعي الصليبي على حماية أرضه وحماية أتباعه الاقطاعيين من أجل مصلحته المستقبلية . ومن ناحية أخرى ، فإن

* كانت هذه الأساسية تتعلق بمسألة الأمن والطموح الاقتصادي والاجتماعي للصليبيين (الترجم) .

العلاقة التي كانت تربط بين السيد وتابعه الاقطاعي كانت ضعيفة وهشة، ومن الأمور التي ساهمت في تخفيف حدة استغلال الأتباع الاقطاعيين من جانب سيدهم الاقطاعي هو اشتراك هؤلاء الأتباع في المصلحة العامة والعلاقات الودية التي كانت تربط بين هؤلاء الأتباع . لقد كان السيد الاقطاعي الغائب عن أملاكه في المناطق الريفية هو المستثمر الأول والرئيسي للأرض الزراعية ، وكان غيابه أمراً ماثلاً للعيان حيث كان يقيم السيد الاقطاعي الصليبي خارج اقطاعيته لأنّه كان ينتمي إلى طبقة الغزاة ، ونظر الكثير من أفراد المجتمع القروي إلى السيد الاقطاعي باعتباره ظالماً ومستغلاً وهرطيقاً في وقت واحد . وعلى الرغم من أنّ الرحلة المسلم ابن جبير ذكر أنّ الفلاحين المسلمين الذين خضعوا لسيادة الصليبية كانوا أسعد حلاً من حيث الأحوال الاقتصادية والمعيشة من نظائهم الذين خضعوا لسيادة الإسلامية فإن ذلك لم يكن كافياً لإقامة علاقة ودية بين الفلاحين المسلمين وبين السيد الاقطاعي.

ويفسر لنا وضع المستأجر الاقطاعي أيضاً سمة مهمة من سمات النظام الريفي الصليبي، هذه السمة التي كانت تمثل في غياب السيد الاقطاعي عن أملاكه الاقطاعية وأيضاً اختفاء نظام السخرة Corvée ، وكان من المفید للسيد الاقطاعي الاشراف المباشر والمستمر لادارة أملاكه الاقطاعية . ويقول المثل السلافي أن «عين صاحب الفرس تسمنه» . وأثر غياب السيد الاقطاعي عن أملاكه سلباً على ادارة الاقطاعية وكذلك على بنيتها التحتية ، وتجعل من الصعب عليه الاستغلال المباشر لأملاكه الاقطاعية في منطقة نفوذه (الدومين) . لقد توصل الصليبيون إلى نتيجة منطقية واستسلموا لفقد الأرباح والفوائد التي كان يمكن أن يجعلها لهم تطبيق نظام الضيعة * الاقطاعية الذي كان مطبقاً في أوروبا . فكانت حصة السيد الاقطاعي من انتاج الأرض والقرى كان يقدر بثلث المحصول وكذلك نسبته من الفاكهة والخضروات ، ومنتجات الألبان، تزيد عن حاجة أسرة هذا السيد الاقطاعي . فكانت ممتلكاته في المدينة ومواردها المالية التجارية تثل مورداً إضافياً لموارده التقليدية . . وكان فائض الانتاج الزراعي لكتاب السادة الاقطاعيين يخزن في مستودعات توجد في قلعة السيد الاقطاعي، وكانت هذه الموارد الزائدة في الغالب تستخدم كاقطاع لبعض كستأجريه

* نظام الضيعة : لم يكن نظام الضيعة مطبقاً في فلسطين وبلاط الشام قبل العصر الصليبي، على الرغم من أنه كانت هناك الجاهات واضحة نحو هذا النظام .

وقد تسبب تطبيق التنظيم الاقطاعي في احداث هوة عميقة في العلاقات الزراعية، وثمة تجربة مشابهة حدثت في المجلتها الانجلوسكسونية التي خضعت للحكم النورمانى قبل الهجرة الصليبي بجيلاين تقريراً (المؤلف).

الاقطاعيين من المحاربين الفرسان وغير الفرسان. وهكذا كان استغلال الأرض على أساس غير نظام الضيافة يؤدي إلى ايجاد علاقة اقتصادية مرضية قاما بين السيد الاقطاعي وبين الفلاح المسلم، إذ كان الفلاح المسلم يضمن لنفسه مورداً للدخل يختلف من عام إلى عام وفقاً لظروف الفصل والموسم الزراعي؛ وكان الفلاح المسلم أكثر حرية وأقل خصوصاً للاستغلال من نظيره الذي كان يخضع للسيادة الإسلامية. ومن المؤكد أن الفلاح المسلم كان أقل حرية من نظيره الفلاح المسيحي في الغرب الأوروبي.

لقد كانت الزراعة هي الدعامة الأساسية الاقتصادية للوجود الصليبي، وكان النظام الريفي الذي أدخله الصليبيون هو الذي حدد شخصية وشكل المجتمع الاستعماري الصليبي. وكان الشكل النموذجي لهذا المجتمع يتمثل في طبقة المستأجرين الاقطاعيين وغياب السادة الاقطاعيين عن أملاكهم الريفية كما كانت هناك هوة سحيقة بين طبقة الغزاة الصليبيين وبين السكان الوطنيين المقهورين.

بـ- النقو

الواقع أنه عندما كانت تذكر كلمة الشرق (الليفانت) في العصور الوسطى وحتى وقت قريب في عصرنا الحالي فإن هذه الكلمة كانت تستحضر على الفور في الذهن صورة الأسواق الشرقية الكبيرة والمزدهرة ، والموانئ التجارية المزدحمة بكل أنواع التجارة والتجار القادمين إليها من كل أنحاء المعمرة . ولذا فإن هذا الأمر يقتضي منا إعادة تصور شكل المنشآت الصليبية التجارية في منطقة الشرق العربي الإسلامي. فقد كانت المملكة الصليبية في بيت المقدس تقع عند مفترق الطرق التي تربط بين القارات الثلاث أوروبا وأسيا وأفريقيا ، وقدر حدود هذه المملكة الصليبية أن تلعب دوراً رئيساً في حركة مرور التجارة العالمية . ولاشك أن صورة الأسواق العامرة الرائجة في منطقة الشرق العربي كانت حقيقة واقعة ويكتفى دليلاً على ذلك كثرة عدد المترددين من الرحالات والتجار على المدن والأراضي المقدسة في فلسطين وبلاط الشام. وعلى الرغم من ذلك فإن وضع ودور المنشآت الصليبية في العلاقات التجارية بين الشرق والغرب يحتاج مزيداً من التحديد الدقيق .

لقد كانت العملة البيزنطية الذهبية التي تعرف بالنوميسما أو الهيبيريون هي عملة التداول الوحيدة في التجارة العالمية وذلك خلال عصر الأضمحلال للأمبراطورية الرومانية

وكذلك خلال العصور الوسطى الباكرة أيضاً. إذ كانت النوميسما (الهيبريريون) عبارة عن قطعة نقود ذهبية تتميز بثبات قيمتها وجودة نوعيتها. ولذا كانت أداة رئيسية للتتبادل التجارى فى مناطق عالم البحر المتوسط وكان بمثابة أداة سلعية مهمة وجدت فى خزائن المالك الجermanية فى الغرب الأوروبي وأيضاً فى شمال أوروبا حيث المناطق الاسكندنافية ، ومن المؤكد أن هذه العملة الذهبية البيزنطية كانت بمثابة «دولار العصور الوسطى». وفي نهاية القرن السابع الميلادى انكسر احتكار النوميسما الذهبية البيزنطية فى التجارة العالمية حيث ظهر الدينار الذهبى الإسلامى، وعندئذ تم تداول هاتين العملاتين البيزنطية والإسلامية فى تجارة عالم البحر المتوسط وفي العالمين البيزنطى والإسلامى وامتد تداول هاتين العملاتين البيزنطية والإسلامية عبر أوروبا إلى مناطق البحر الأسود وطريق المحيط الهندى وطرق أوراسيا المؤدية إلى منطقة الشرق الأقصى.

وتحضر عن تأسيس مستوطنات صليبية على حدود الدولة البيزنطية وحدود الأقطار الإسلامية ظهور عملة ثالثة، وهى العملة التى ضربها الصليبيون تقليداً للعملات الإسلامية والتى عرفت باسم البيزنطى الصليبى. وكان الصليبيون يهدفون من وراء ضرب وسك هذه البيزنطيات إلى استخدامها فى التداول التجارى资料 مثل العملات الإسلامية والبيزنطية. واعتمدت المسكوكات الصليبية على امدادات الذهب التى كانت تأتى من الغرب الأوروبي وبالفعل راجت هذه العملات الصليبية فى التداول التجارى وفي الأسواق الإسلامية القريبة من حدود المملكة الصليبية. بيد أن هذا البيزنطى الصليبى لم يستطع وهو فى أوج ازدهاره أن يحقق كل هذه الظموحات الاقتصادية الصليبية التى كان يرنو إليها الصليبيون فى منطقة الشرق العربى. وحاول البيزنطى الصليبى أن يكون رمزاً لتكتيل سياسى صلبي ودولة صلبية فى الشرق وذلك من خلال التغلغل وسط النوميسما البيزنطى والدينار الإسلامي. وما يذكر أن اسم البيزنط نفسه يؤكذ الحقيقة التى ترى أن أول العملات الذهبية التى سكها الصليبيون فى فلسطين وبلاد الشام هي العملات البيزنطية، وكان هذا البيزنطى الصليبى مزوداً بنقوش عربية تشبه نقوش الدينار الإسلامي الفاطمى المضروب فى مصر ونظرًا للحساسية الدينية تم اضافة رمز الصليب + واحتلال الشالوث المقدس محل الكتابات التى تمجد الله ونبىه الكريم (محمد صلى الله عليه وسلم) ، وظللت هذه النقوش والكتابات تدون باللغة العربية. وعندما شرع الصليبيون فى سك عملاتهم لم يكن لديهم اتجاه إلى تقليد العملات الإسلامية، أو استخدام

قوالب سك العملات العربية في دور الضرب الملكية الصليبية، بيد أن الاعتبارات التجارية هي التي فرضت عليهم تقليد العملات الإسلامية وذلك حتى تحظى العملات الصليبية بالقبول والانتشار في التداول التجارى في أسواق منطقة الشرق العربي الإسلامي، وعلى الرغم من استخدام هذه العملات الصليبية في التداول التجارى فإنها أخفقت في الوصول إلى قوة العملات العالمية وإن كان البيزنطى الصليبي قد حظى بسمعة حسنة باعتباره أول عملة ذهبية صلبة يتم تداولها على نطاق واسع، وتم سكه في دور الضرب الصليبية قبل العملات الإيطالية الشهيرة مثل الدوكات والفلورين بحوالى مائة عام.

وتجدر الاشارة إلى أن عدد العملات الأجنبية المتداولة في أسواق المملكة الصليبية في بيت المقدس كانت أكثر من تلك التي كانت متداولة في مناطق الغرب الأوروبي الكاثوليكي. وعلى الرغم من تعدد دور ضرب العملات في كل أنحاء الغرب الأوروبي المسيحي ، فإن ثمة قيودا قد فرضت على دور الضرب هذه ويرجع ذلك إلى ندرة معدن الذهب كما أن المبالغ الكبيرة كان يصعب دفعها من العملات الذهبية، أو من العلما التحايسية ، أو في صورة سلعية. وبالإضافة إلى ذلك ، فإن حجم الأعمال التجارية لم يكن كبيراً إذ كان هذا الحجم التجارى يتعامل مع مراكز تجارية أخرى صغيرة نسبيا ، وهكذا فإن تداول العملات الذهبية في تلك المراكز التجارية الأوروبية كان أمراً شائعاً . وقد اختلف الوضع في المناطق الصليبية في فلسطين وبلاط الشام، ويرجع ذلك إلى تدفق العملات الأجنبية وتداولها في هذه المناطق الصليبية الذي كان يصاحب ارتياح التجار هذه المناطق وكذلك بسبب تدفق أعداد كبيرة من الحاجاج الأوروبيين من المراكز المسيحية الأوروبية الأربع . فقد استخدم أفراد وجندو الحملة الصليبية الأولى عملات أوروبية من بوأطيبيه، ومن شارتر ، ومن مينز ، ولوكا ، وفالنس ومن ميلجييه melgueit . إذ كشفت الخفائر الأثرية في مدينة طرابلس عن وجود ٣٥٠٠ قطعة نقد فضية وقطع من النقود المختلطة بمعدن خسيس ويرجع تاريخ هذه القطع النقدية إلى ما بعد عام ١٢٢١م، وهذه القطع النقدية كانت عبارة عن ١٧٠٠ قطعة نقد صليبية و ١٨٠٠ قطعة نقد فرنسية ، وباقى القطع تنتسب إلى أربع وعشرين مكاناً مختلفاً. وكشفت الخفائر الأثرية التي أجريت حديثاً عن خزانة نقود في مدينة بيت المقدس كانت منحة للداوية وكانت هذه الخزانة تضم نقوداً من شارتر . وكان هذا العدد الوفير من العملات الأوروبية الأجنبية يزداد تداولها في منطقة الشرق العربي الإسلامي، وهي العملات التي كانت تأتي بصحبة التجار الشرقيين ، وأيضاً التجار المسلمين

والتجار المسيحيين واليهود. وهذا يفسر لنا أهمية دور الصيارفة ، الذين أصبح لهم شوارع مخصصة في مدن مثل صور وعكا وبيت المقدس. فكان يوجد في مدينة بيت المقدس شارعان للصيارفة عند مدخل أسواق المدينة الرئيسة . وخصص هذان الشارعان للصيارفة الشوام والصلبيين على التوالي . وكان هذان الشارعان يمتدان من الجنوب إلى الشمال ، وإذا كان هذا التقسيم للشوارع قد ارتبط بفرض ضريبة مختلفة، فإن وجود شوارع مخصصة للصيارفة يرجع أساسا إلى طبيعة التخصيص لهذه الشوارع.

كانت العملات المحلية المتداولة تضم نقوداً ذهبية، وفضية ونحاسية*. وما يذكر أن حق ضرب النقود الصليبية وسکها كان احتكاراً ملكياً ، وذلك في منتصف أو أواخر عصر الملك بلدوبين الثاني، ومن المحتمل أن النبلاء الصليبيين قد حرموا من امتياز سك العملات في أثناء فترة حكم الملك بلدوبين الثالث وكانت عقوبة سك النبلاء للعملات هي مصادرة اقطاعاتهم. ومن الناحية الرسمية فإنه لا يمكن الغاء هذا الامتياز الملكي الخاص بحق سك النقود والعملات، وبالطبع لم يكن هذا الامتياز الملكي يحظى بقبول أي تابع اقطاعي في المملكة. ومن خلال المكتشفات الأثرية الموجودة يتبين لنا أن سك العملات في الإمارات الصليبية قد ظهر متأخراً جداً، ولاسيما بعد موقعة حطين الشهيرة . وكان استخدام عملات الإمارات الصليبية محدوداً ، وعلى الرغم من أن سك هذه العملات كانت عملية مربحة للسيد الاقطاعي في إمارته، فإنه بلاشك أن عملية ضرب النقود الصليبية هذه في الإمارات الصليبية يمكن أن تعزوها إلى أسباب اقتصادية تماماً. لقد كانت هذه العملات عبارة عن فئات مالية صغيرة ومن معدن خسيس وكان الغرض الأساسي من سك هذه العملات هو اعلان الاستقرار السياسي لللامارة.

لقد كان تداول العملات الذهبية الأجنبية في المملكة الصليبية أكثر أهمية، إذ كانت الهيبريرون البيزنطية أو الميخائيلية Michelois (وهي العملة البيزنطية التي ضربت في عهد الامبراطور البيزنطي ميخائيل السابع في بافلوجونيا) من أسبق العملات التي تم تداولها في

*اكتشف في مدينة عكا حديثاً قالب لاعداد أنابيب الرصاص، ومع أن النقود كانت تضرب من هذه الأنابيب الرصاصية فإنه من المنطقى أن تقبل ذلك الاقتراح الذي يرى أن هذه النقود ذات الأوزان الخفيفة التي وجدت في عكا ليس برهاناً على أن الصليبيين قد ضربوا نقوداً من الرصاص (المؤلف).

الملكة الصليبية في بيت المقدس. وتم تداول هذه العملات البيزنطية بشكل عام في امارة انطاكيه الصليبيه، وفي الجنوب في امارة طرابلس وفي مدينة بيت المقدس، كان الدينار الفاطمي أسبق في التداول من أية عملة أخرى . وبمرور الوقت ، ظهرت العملات الصليبية في التداول ، ويبدو أن الدينار الفاطمي كان قد ضرب في فترة مبكرة في دور سك العملات في مناطق الشمال. وكان الاجراء العادي أن يقوم الصليبيون بدفع ونقش الأسماء والرموز الصليبية على وجهى قطع العملات البيزنطية الموجودة لديهم. لقد سك الصليبيون عملاتهم الخاصة في فترة متأخرة ، في وقت غير محدد من القرن الثاني عشر الميلادي. وكما ذكرنا آننا فقد كانت العملات البيزنطية أسبق العملات المتداولة في بداية الوجود الصليبي ، بيد أنه لا يوجد سبيل لمعرفة ما إذا كان هذا البيزنط هو الأصل أم كان تقليدًا للدنانير الفاطمية الإسلامية . فقد ظهر البيزنط في ستينيات القرن الثاني عشر الميلادي ويبدو أنه كان شيئاً جديداً . والحقيقة أن ظهور العملات الذهبية الصليبية لم تستطع أن تتعوّق الدنانير الإسلامية من التداول. فقد استخدمت العملات الذهبية الصليبية والإسلامية في التداول التجاري وتقررت اسهام هذه العملات في هذا التداول في ضوء أنها نشاط الاقتصادي.

وما يذكر أن وزن الدينار الفاطمي القديم كان يبلغ ٤،٢٥ جرام من الذهب الخالص، إذ كان الدينار الفاطمي في الفترة الأخيرة والذي قلده الصليبيون أخف وزنا وأقل قيمة من حيث عيار المعدن النفيس، ومع ذلك فقد كان هذا الدينار الفاطمي الذي ضرب في فترة متأخرة يزيد في الوزن وفي العيار من تلك العملة التي قلدتها الصليبيون والتي كانت تعرف باسم البيزنط الإسلامي. وتراوح قطر البيزنط الإسلامي ما بين ٢٢ ، ٢٣ مم وزنه يتراوح ما بين ٣،٥ - ٣،٧ جرام (وكان الحد الأقصى للاختلاف يتراوح ما بين ١٥ ، ٢ ، ٤ جرام) . وكانت نسبة معدن الذهب فيه تتراوح ما بين ٥ ، ٦٥٪ - ٧٥٪ . لقد كان هذا البيزنط الصليبي المقلد للدينار الإسلامي أكثر غرابة وغير ملائم . فقد كانت العملات الصليبية في الفترة الباكرة تحمل الشكل والتقوش الظاهرة للنقود العربية، بيد أن هذا التقليد كان واضحًا لأى شخص لم تكن لديه معرفة واسعة باللغة العربية إذ كان يدرك أن النقش الذي يزين وجهي البيزنط الصليبي غير ذى معنى، ومع قليل من الاستثناءات ، فإن الحروف التي دونت على وجهي البيزنط لم تكن حروفًا عربية، إذ كانت ببساطة عبارة عن مجموعة من الشرط العمودية ، والدوائر وما شابه ذلك. ومن الصعب التعرف على دلالة وغرض هذه التقوش . ويكفي أن

نعالج مسألة العمال الأوروبيين الذين قاموا بعملية سك العملات الصليبية والذين كانوا يجهلون اللغة العربية المحلية . وهذه الظاهرة في مجملها مشيرة وأكثر أهمية، وذلك لأن دار ضرب المسكوكات والعملات في مدينة صور كانت ماتزال تعمل بنشاط قبل سقوط المدينة في يد الصليبيين في عام ١١٢٤ واحد ويبدو أن الغزاة الصليبيين قد استمروا في ضرب الدنانير الفاطمية واستخدموها في ذلك قوالب ضرب العملة الموجودة في المدن الإسلامية التي خضعت لسيطرتهم. وربما تم طرد الصناع المسلمين أو المسيحيين المحليين من هذه المدن وربما أنشأ الصليبيون دار ضرب مختلفة في مدينة القدس وهي الدار التي سكت هذه العملات الصليبية المقلدة والنفيرة في الوزن والقيمة. وفي الوقت المناسب ، وصلت العملات الصليبية المقلدة للدينار الإسلامي إلى نقطة بحيث أصبح من السهل قراءة الحروف والكلمات على وجهي العملة مثل تواريخ ومكان ضرب العملة وكانت بعض هذه النقود الصليبية تحمل على أوجهها صليبياً صغيراً + وحرفين لاتينيين هما B و T ، وهي الحروف التي كانت تشير إلى اسم الأمير الصليبي بوهمند (أو برتراند أمير طرابلس) أو إلى اسم تانكرد، أو كانت هذه الحروف تدل على دار الضرب في مدينة طرابلس، أو في صور أو في أنطاكية أو عكا*. وقد ظهر تقليد جديد للدينار الفاطمي في فترة متأخرة ، ومع ذلك فإنه لم يستطع أن يحل محل الدينار القديم الذي ضرب في فترة مبكرة . لقد كانت العملة الصليبية الجديدة (البيزنط الصليبي) تقليداً للدينار الأيوبي . ونظراً لاكتشاف عملة ذهبية واحدة متداولة كمنوج لهذا الدينار الأيوبي، فإنه يصعب قياس وتقدير أهميته في التداول . إذ كان قطره يبلغ ٢٢ مم وزنه خفيف يصل إلى حوالي ٣٠,٣١ جرام، وهو أخف من الدينار الفاطمي المقلد السابق. ولوحظ أن جزءاً من النقش طبع بشكل جيد على وجهي هذه العملة، على الرغم من أن الحروف العربية ذات الشكل الكوفي لم تتسخ جيداً : ولوحظ أيضاً أن جزءاً آخر من هذه النقوش التي تزين وجهي هذه العملة كانت واضحة ويسهل فهمها ويبدو أن الصانع في دار الضرب الصليبية لم يكن يعرف اللغة العربية.

* تجدر الإشارة إلى أن أحد المتخصصين البارزين يرى أن بعض النقود الصليبية المقلدة للدنانير الفاطمية لم تضرب على يد الصليبيين بل تم سكها في دور ضرب في جنوب أوروبا ولا يوجد ما يؤكّد صدق هذا الرأى من خلال الاكتشافات الأثرية للمسكوكات الصليبية (المؤلف).

وَثْمَة تغیر رئیسی حدث فی دار السک الصلیبیة فی عام ١٢٥٠ م فقد أعلن النائب البابوی یودی من شاتیورو Eudes de Chatearoux أنه من المخزی والمؤسف «أن تحمل البيزنطیات والدراخمات الصلیبیة التي سکھا الصلیبیین فی دور الضرب فی عکا و طرابلس اسم نبی الاسلام محمد (صلی الله علیه وسلم) . وتاریخ مولده بشکل واضح». وحرم البابا انوسنت الرابع تداول النقود الصلیبیة التي تحمل نقوشا اسلامیة . وأذعننت السلطات الصلیبیة لهذا الأمر البابوی قاماً . لقد ظلت النقوش العریبة تزین وجهی العملات الصلیبیة الجدیدة ، بید أن محتوى هذه النقوش أصبح مسیحیاً . وتم سک النقود الصلیبیة الذهبیة من هذا النوع لمدة ثمان سنوات (١٢٥١-١٢٥٧ م) . حيث أصبحت النقود الفضیة أكثر انتشاراً فی تلك الآونة ، وهی النقود الصلیبیة الفضیة التي كانت تقليداً للدرام الأیوبیة (وكان قطر الدرهم الفضی ٢٣ مم، وزنه ٢,٨٨ جرام) وكانت هذه العملات الفضیة الصلیبیة بطیئة التداول قصیرة العمر، وهکذا استطاع الصلیبیون التغلب علی الأوامر البابویة بالخدیعة أی بواسطة الابقاء علی النقوش العریبة ولكن بمحظی مسیحی لارضا البابویة من جانب وضمان قبولها فی التداول من جانب آخر. وأصبح البيزنطی الذہبی الصلیبی الجدید تقليداً للدینار الفاطمی من حيث الشکل الخارجی، ولكنه مزین بنقوش دائرة متحددة المركز (على عکس نمط النقوش الرباعیة التي كانت تزین النقود الأیوبیة)، وإن كانت الحروف النسخ قد استخدمت فی دور ضرب النقود فی أواخر العصر الأیوبی. إذ كان الصلیب البارز منقوشاً فی وسط البيزنط وكانت هذه النقوش التي تزین البيزنطی الذہبی الصلیبی تؤکد الأصل المیسیحی لهذه العملة. وكان يكتب على أحد وجهی البيزنطی الصلیبی باللغة العریبة عبارۃ : ضرب بعکا فی سنة ألف ومائتين وواحد وخمسين ١٢٥١ من میلاد المیسیح وقائمة التثلیث المیسیحیة وهي الآب والابن والروح القدس. وفي مركز البيزنط کانت تدین عبارۃ «الله واحد». وعلى الوجه الآخر كتبت عبارات میسیحیة مثل «نفتخر بصلب ربنا یسرع المیسیح الذي بد سلامتنا وحياتنا وقيامتنا وبه خلاصنا وسلامنا والغفران لنا».

وكان قطر البيزنطی الذہبی الصلیبی یبلغ ٢٣ مم ، يتراوح وزنه من ٢,٨٠ جرام- ٣,٦٣ جرام، وكانت توجد فئة نقديۃ من النصف دینار بلغ قطره ١٩ مم ووصل وزنه إلى ١,١٢ جرام. وَثْمَة عملة ذہبیة صلیبیة مجهولة دون على أحد وجهها فی المركز کلمة المیسیح المخلص ونقوش دائرة أيضاً تحمل كتابات مثل المیسیح المخلص الذي تحمل أوزار البشر Agnus Dei

Agnus Dei qui Tollit Peccata mundi و على الوجه الآخر نقشت كلمات مثل المسيح سيدنا ، المسيح مليكتنا ، المسيح قائدنا Christus Vincit Christus regnat Christus imperat ومن المحتمل أن هذا النوع من العملات والنقوش الصليبية كان ينتمي إلى نفس المجموعة الزمنية أى إلى أواخر القرن الثالث عشر الميلادي . وتراوح قطر هذه العينة من العملان الصليبيين ما بين ٣١ - ٢٠ مم كما أن الوزن الأساسي كان يتراوح ما بين ٥ - ٣ جرام .

٢،٦٢ جرام.*

لقد استخدم البيزنطى الذهبي الصليبيى فى التداول التجارى العالمى وكان أداة لدفع المبالغ الكبيرة . فى حين كانت المعاملات التجارية اليومية تستخدم النقود الفضية والنحاسية . وعلى الرغم من أن الصليبيين لم ينشروا صورة وجه أحد من ملوكهم على العملات والنقوش الذهبية فإن النقوش اللاتينية أو الفرنسية التى كانت بثابة رموز لتحديد الهوية أصبحت الأساس والقاعدة فى ضرب المسکوکات الفضية الصليبية . ولكن منذ أن تم تداول العملات الذهبية الفضية فى التجارة العالمية قام الصليبيون أيضا بسك العملات الفضية المقلدة للنقود الإسلامية . وكان مثل هذا الإجراء يجعل الريع والفائدة إلى الوطنين وسكان البلاد الأصليين من المسلمين والمسيحيين واليهود . فقد تم سك أولى العملات الفضية المقلدة بعد الغزو الصليبيى للمناطق العربية مباشرة ، حيث قام السكان المحليون بتدمير المستوطنات وهجروا أوطنهم ورفضوا القيام بأعمال الزراعة فى المنطاق والمستوطنات التى أسسها الصليبيون فى بلادهم ، كما أنهم منعوا الطعام عن الصليبيين . وظل السكان المحليون يتوقعون قيام المصريين والدماشقة باحتياج الملكة الصليبية والقضاء عليها وقذف الصليبيين وعملاتهم ومؤيديهم فى البحر** . وساهم هذا الاتجاه العدائى من جانب السكان الوطنين فى خلق معارضة قوية ضد قبول هذا النمط من العملات الصليبية المجهولة وذات المصير القلق غير المستقر .

* كان عدد قليل من البيزنطيات الصليبية تحمل نقش المسيح سيدنا Christus Vincit (المؤلف) .

** يسوق المؤلف عبادات مثل قذف الصليبيين فى البحر على يد المصريين وأهل دمشق لكنه يربط بين ماضى الوجود الصليبي وحاضر الوجود الصهيونى فى المنطق العربية ، واعتقد أنه جائى إلى هذا الأسلوب للتهكم والسخرية من القرى العربية التى كانت تهدى اسرائيل بقذفها فى البحر ولم يتم ذلك (المترجم) .

وما يذكر أن العملات الفضية الصليبية المقلدة لم تكن موزرحة ولذا فإننا نعرف شذرات قليلة عن أصل هذه الأنواع من العملات . واستمر ضرب الصليبيين للعملات الجديدة المقلدة طوال القرن الثالث عشر الميلادي والذى شهد تداول العملات الفضية فى التجارة وأصبح ضرب الصليبيين لهذه الأنواع من العملات أمراً تقليدياً . وكانت بعض العملات والنقود الصليبية الفضية المقلدة للعملات الإسلامية تأتى من الخارج وهذا أمر يستحق الاهتمام الخاص لدراسته . وكانت العملات التى اكتشفت فى منطقة الفيوم فى مصر والتى ترجع إلى العصر الأيوبى تضم فى معظمها النقود الصليبية الفضية المقلدة للدرهم الفضية الأيوبية، وهى الرداهم التى كانت مزينة بنقوش مسيحية بكتابات عربية . بيد أنه كان يوجد هناك أيضاً دار لسك وضرب العملات المولدة (التي تجمع أكثر من صنف من العملات) . فقد كانت النقوش العربية تشير إلى أن هذه العملات قد ضربت فى دمشق فى أثناء حكم الخليفة المستنصر بالله الفاطمى وخلال فترة حكم السلطان الصالح اسماعيل فى عام ١٢٥٣م (أو خلال خمسينات القرن الثالث عشر الميلادى أو خلال أواخر السنوات التسع من خمسينات القرن الثالث عشر الميلادى) . ويؤكد مثل هذا التاريخ الأصل الصليبي لهذه العملات ويمكن أن نلاحظ أيضاً الدعاء المقتنص وهو : « بسم الله الرحيم الرحيم » (اعلاء قدر النبي محمد) وكان هذا من الأمور الغبية لدى المسلمين والمسيحيين على السواء . وكانت أفضل العملات الصليبية الفضية المقلدة للدرهم الأيوبية والتى تحمل كتابات الأدعية تتضمن نفسها وذلك بسبب خطأ التواريخ التى تحدد حكم كل من الخليفة وسلطان دمشق اللذين قد توفيا من قبل.

وكانت العملة الفضية الصليبية تعرف باسم الدينار وكان هذا الدينار نسخة مطابقة للدرهم الإسلامي . وقد ورد في المصادر الصليبية كذلك وفي القائمة الحكومية لضرائب السوق أسماء هاتين العملاتين أو الدينار الصليبي الفضي والدرهم الإسلامي دون تمييز . وعلى الرغم من عثورنا على مكتشفات أثرية من الدنانير فإنه لا يمكن تحديد التاريخ الدقيق لسك مختلف العملات الصليبية المقلدة . ويمكن أن نعزى ذلك إلى حقيقة أن خمسة من الملوك الصليبيين كانوا يحملون اسم بلد貌ين ولذا فإن العملات التي تحمل اسم الملك بلد貌ين (الاسم الواحد لخمسة من الملوك) تجعل عملية التمييز وتحديد تاريخ الضرب أمراً عسيراً تماماً . وبالإضافة إلى ذلك، فإن العملات التي كانت تسك حديثاً لم تستطع أن تحل محل العملات والنقود التي سكت قبلها أو الأقدم منها وتلك اشكالية لم تجد حلأً ونصباً يقع على عاتق المؤرخين الآن . وتلك

قضية نية أكثر منها قضية اقتصادية، وذلك لوجود اختلاف طفيف في الحجم والوزن ومحنتي معدن الفضة بين العملات الفضية. فقد ضربت الدنانير الفضية الصليبية التي تحمل اسم الملك بدلوين في مدینتى صور وعكا (ومن المحتمل أيضاً في مدینة بيت المقدس) وكان هذا الدينار الصليبي الفضي يتراوح وزنه ما بين ٩ جرام - ٥ جرام. ونسبة معدن الفضة فيه تصل إلى نسبة ٣٤٪ (أى يحتوى على ٢,٨٥ جرام من الفضة الخامص).

وتحتاج إثباتاً عاماً يحدد العملات الملكية الصليبية الباكرة بفترة حكم الملك الصليبي بدلوين الثالث (١١٤٣-١١٦٣م)، وهو الملك الذي طبق التشريع والقانون المتعلق بالامتيازات الملكية الخاصة بحق سك العملات والنقد. وإذا تأكد صحة الرأي القائل بأن أول عملة صليبية سكت في عهد الملك الصليبي بدلوين الثالث (١١٤٣-١١٦٣م) فإن النقد والعملات الصليبية لم تضرب في عهد الملك الصليبي جودفري البويوني ولا في عهد خلفائه بدلوين الأول أو بدلوين الثاني أو قوله الأنجوي (فلم نشر على نقود ضربت باسم هؤلاء الملوك السابقين). وعلى الرغم من صحة فرضية عدم وجود عملات صليبية تحمل أسماء الملوك الصلي比ين السابقين. فإن الأمر اللافت للنظر هو أن الأربعين عاماً التي أعقبت الغزو الصليبي للمناطق العربية لم تشهد تداول عملات صليبية ملكية. وإذا كانت الموجودات والمكتشفات الأثرية النامية (العملات النقدية التي تكتشف خلال أعمال المحفائر الأثرية) تدحض صحة الافتراض السابق، فإنه يمكننا الاعتقاد بأن العملات والنقد الفاطمية هي التي كانت متداولة خلال هذه الحقبة الزمنية (وذلك لأن المزارات الصليبية كانت قد امتلأت بكثيّر من هذه العملات في أثناء الغزو الصليبي وأيضاً من عائد الضرائب التي فرضت على السكان المحليين) وهي النقود التي كانت تلبّي الاحتياجات الاقتصادية العاديّة. واضافة إلى ذلك فإن العملات الأوروبية التي أحضرها الحجاج والمهاجرون معهم ظلت في التداول في المملكة الصليبية خلال الأربعين عاماً الأولى من فترة وجودها. وظهرت العملات الصليبية في التداول خلال فترة استقرار المملكة الصليبية السياسي والاقتصادي في منتصف القرن الثاني عشر الميلادي.

ومن خلال الاكتشافات النامية أيضاً، يمكن التتحقق من أن دور الضرب الملكية الصليبية التي كانت تسك العملات والنقد في القرن الثالث عشر الميلادي قد أصيّب بالانهيار والاضمحلال إذا ما قورنت بدور الضرب الملكية في القرن الثاني عشر الميلادي. ويبدو أن الأزمة النقدية الكبرى قد حدثت في عهد الملك الصليبي عموري الثاني (١١٩٤-١١٩٧م)

وحاكم قبرص في الفترة من سنة ١١٩٧-١٢٠٥ م). إذ هبط معدل وزن الدينار الفضي الصليبي في هذه الفترة إلى النصف ، بمعنى أن وزنه وصل إلى ٥٥ جرام (وهذا اختلاف شديد ما بين ٢٩٠ جرام ، ٧٢١ جرام) وانخفض محتوى معدن الفضة فيه إلى الثلث ووصلت نسبة نقاوة المعدن فيه إلى ٣٪ ... الخ . فقد كان كل دينار فضي صليبي يحتوى على نصف وزنه فضة (إذ كان وزن لفضة في دينار الملك عموري الأول يصل إلى ٢٩٣ جرام ، وفي دينار الملك عموري الثاني بلغ وزن معدن الفضة فيه ١٦٢ جرام) . وقد نوّقش هذا الموضوع ، ومع أنه لم نصل إلى نتيجة حاسمة فإن دنانير الملك عموري الثاني الفضية قد ضربت لاستخدامها في جزيرة قبرص.

وكانت المسكوكات الصليبية التي حملت اسم الملك الصليبي جي لوزجانان هي أفضل المسكوكات (ومن المحتمل أن هذه النقود قد ضربت من أجل تداولها في قبرص) وكذلك النقود الصليبية التي ارتبطت باسم الملك الصليبي يوحنا دي بيرين وذلك بعد الغزو الصليبي لدمياط في أثناء الحملة الصليبية الخامسة. وكان وزن الدينار الفضي الصليبي يتراوح ما بين ٣ جرام إلى ٨ جرام وكان وزن معدن الفضة منخفضاً يصل ما بين ١٥٧ و ١٦٣ جرام . إذ كانت نسبة وزن الفضة الحالص في كل دينار يتراوح ما بين ٣٪ إلى ٢٢٪ .

وبالإضافة إلى الدنانير الفضية الصليبية ، عرف الصليبيون فئة مالية أصغر وهي نصف الدينار وعرفت هذه الفتة باسم أبول Obol (وكان قطر نصف الدينار الفضي يتراوح ما بين ١٣ مم إلى ١٥ مم ، وزنه يتراوح ما بين ٤٠ - ٥١ جرام) ، وكانت هذه الفتات المالية الصغيرة من أنصاف الدنانير والعملات النحاسية تشبه نقود مدينة واقليم بجوا Pugeois النادرة التي سكها هنري كونت شمباني في مدينة عكا*. وفي أوقات الأزمة الاقتصادية والسياسية وانهيار سلطة الحكومة المركزية الصليبية تم تداول قطع من النقود المجهولة . وعلى الرغم من أنه لا يوجد دليل يؤكد هذا ، فإنه من المحتمل أن هذه النقود مجهرة الهوية التي تم تداولها إبان الأزمة السياسية في المملكة الصليبية يرجع وجودها إلى زمن الحملة الصليبية الثالثة ، حيث كانت هذه العملات والنقود تحمل على أحد وجهها نقوشاً مثل «صورة الملك» ، و«برج داود» ، و«وضريح السيد المسيح» و«القديسة ايرينا» و«طريق الصليب».

* لقد اكتشف حديثاً قطعة نقدية فريدة من مسكوكات هنري الشامباني يميزها تصميم شرقي غريب ولا تتطلب النظر وتحتاج هذه القطعة النقدية لمزيد من الدراسة (المؤلف).

الواقع أن العملات الصليبية لم تكن مسكونات جيدة الصنع، ولم تضرب في دور سك متطرفة ، بيد أن ظهور هذه العملات كان انعكاساً للوضع الاقتصادي للملكة الصليبية في بيت المقدس . وتنافست دور سك العملات في الامارات الاقطاعية الصليبية مع دور الضرب الملكية من حيث المظهر البراق والرونق فقط دون الاهتمام بالقيمة أى وزن معدن الذهب أو الفضة في قطعة النقود أى من حيث الجودة وقيمة العيار. ويتسم تاريخ ظهور أول عملة ذهبية أو فضية صليبية بالغموض . والإبهام . ولم يستطع الأمراء الصليبيون الاقطاعيون في امارتهم أن يضروا نقوداً خاصة بهم في ظل فترة حكم الملوك الصليبيين الأقويا ، ولاسيما ملوك المملكة الصليبية الأولى وذلك لأن سك النقود كان امتيازاً واحتكاراً ملكياً ، ولم يجرؤ أحد من الأمراء الصليبيين أن يخرق هذا الاحتياط ، إذ كانت العقوبة القانونية لهذا الخرق هي مصادرة الاقطاعات دون الرجوع إلى المحكمة العليا . وبعد مرحلة الاضطراب التي حدثت في أثناء فترة حكم الصليبيين بلدوين الخامس وخلفائه بدأ النبلاء والأمراء الصليبيون في ضرب عملاتهم ونقوذهم الخاصة في امارتهم ، وكان هذا يمثل اغتصاباً واضحاً لامتياز وحق الملك الصليبيين ، وذلك لأن مثل هذا التصرف من جانب الأمراء كان لا يتفق مع قوانين المملكة الصليبية أو مع الامتيازات الملكية . وتؤكد المكتشفات الأثرية من النقود والعملات الصليبية وجود مثل هذه النقود التي ضربها الأمراء الصليبيون في امارتهم . وقد ثبت أيضاً أن مثل هذه العملات والنقود التي ضربت في الامارات الصليبية كانت تصنع من خليط من معادن مثل الذهب والفضة والنحاس ، ففي مدينة يافا (قام الأمير الصليبي جوتيير دي بيرين بسك عملة في يافا وذلك بعد عام ١٢٠٥م) ، وفي مدينة صور سكت عملات صليبية خلال فترة حكم ريجنالد (من المحتمل بعد عام ١١٨٧م) وهي النقود التي كانت مزودة بنقوش عبارة عن شعار غريب ولاقت للنظر على شكل سهم (وعلى الروجه الآخر للعملة كانت تكتب الكلمة ساجيتسا Sagitta التي تشير إلى الاسم العربي لمدينة صيدا أو الاسم الصليبي لها وهو سايبيتا Saiette) ، وسكت عملة بيروت تحت حكم يوحنا نائب سيد بيروت ١٢٣٦-١٢٠٥م) وتم ضرب عملات تورون تحت سيادة هموري الثالث ، وعملات مدينة صور وتورون تحت حكم فيليب دي مونتفرات ويوحنا دي مونتفرات ، سادة مدینتی صور وتورون (وذلك في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي) .

ج - التجارة العالمية

وعلى غرار السمات العديدة الأخرى للحروب الصليبية ، فإن الأهمية التجارية لفترة الحروب الصليبية كانت موضوع اختلاف بين المؤرخين في بعض المؤرخين يمدون هذه الفترة ويرون أن الحروب الصليبية قد لعبت دوراً مهماً في النشاط التجارى العالمى، فى حين يرى بعض المؤرخين عكس ذلك ويوجهون إليها القدر والذم. مع ذلك فإن بعض العلماء اعتقدوا أن الحروب الصليبية قد أعطت دفعه قوية للنشاط الاقتصادي والتتجارى العالمى ذلك النشاط الذى ميز أوروبا فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر من الميلاد، بينما يرى البعض الآخر عكس ذلك، وكان مزدئى هذا الرأى أن الحروب الصليبية لم تكن ذا تأثير على النشاط الاقتصادي العالمى وأن تطور هذا النشاط كان سيحدث حتى ولو لم تحدث الحروب الصليبية أى أنه كان تطوراً تلقائياً طبيعياً بفعل عوامل كثيرة غير الحروب الصليبية. ولذا يمكن القول إن البلوغ إلى استنتاجات نى هذا الصدد لا يتم دون جدل ونقاش طويل . وعلى الرغم من ذلك فقد تحددت بعض الخصوط العامة للتطور الاقتصادي العالمى وكذلك أصبح بقدورنا التعرف على ملامح دور المملكة الصليبية فى التجارة العالمية.

ومع أن الصليبيين أنسوا مستوطناتهم ومناطق نفوذهم في أقاليم مزدهرة اقتصادياً فإنهم لم يستطيعوا السيطرة على المراكز الاقتصادية الرئيسة في المنطقة العربية . فلم تصل مناطق نفوذهم إلى أبعد من المنخفض العميق الذي يفصل المناطق الساحلية عن المدن العربية الداخلية الكبرى مثل: دمشق، وحلب ، وبغداد. ففي الجنوب كانت شبه جزيرة سيناء بمثابة الحد الفاصل بين المملكة الصليبية وبين مصر. ولم يستطع الصليبيون الاستيلاء على القاهرة أو الإسكندرية. وكانت القدس عاصمة الدولة البيزنطية من المراكز الصناعية والتتجارى الكبيرة ، والتي سقطت تحت السيادة الصليبية في أعقاب الحملة الصليبية الرابعة، بيد أن حادث السقوط هذا لم يؤثر البتة على الواقع التجارى للمملكة الصليبية في بيت المقدس. فقد بسط الصليبيون سيادتهم على ثلاثة من أهم المراكز التجارية في المنطقة العربية وهي أنطاكية ، وطرابلس ، وصور . وظلت هذه المراكز التجارية السابقة تتمتع بمركز اقتصادي جيد حتى قبل الغزو الصليبي لها وتوافق اقتصاد هذه المدن الثلاث مع التبادل التجارى النشط مع المدن الداخلية الإسلامية مثل دمشق وبغداد ومع موانئ مصر عبر الطرق التجارية أو عبر الطريق البحري القديم، أو طريق القوافل عبر الأردن وشبه جزيرة سيناء.

لقد أفرز الغزو الصليبي لمنطقة الشرق العربي الإسلامي بشكل مباشر فطأً جديداً من العلاقات التجارية ، تلك العلاقات التي بدأت بين هذه المنطقة وأوروبا في القرن الحادى عشر الميلاد ، والتي لعب تجار مدينة أمالفي الإيطالية دوراً رئيساً فيها . وهذا لا يعني أن المشات والمؤسسات الاقتصادية قد غيرت وجه اقتصاد منطقة الشرق العربي تغييراً جذرياً (أى زاديكاليا) . فقد ظلت علاقات مصر التجارية مع بلاد الشام والعراق عبر طريق البحر الأحمر والم الخليج العربي الفارسي . ولم تختف التجارة البرية بل استمر نشاطها عبر طريق القوافل . وخلال أوقات السلم بين الطرفين الإسلامي والصليبي تعهد الحكام الصليبيون بحماية القوافل التجارية الإسلامية التي تصل إلى الأسواق الصليبية في بلاد الشام وفلسطين ، وذلك مقابل دفع التجار المسلمين رسوم المرور . وعلى الرغم من أهمية التجارة للسلطات الإسلامية والصليبية ، فإن حالة الحرب بين الطرفين كانت تعوق حركة التجارة بين الطرفين إذ كانت الرحلات التجارية البرية محفوفة بالمخاطر وتعطلت التجارة خلال فترات منقطعة .

ومن النتائج المباشرة للغزو الصليبي لمنطقة العربية هو تكيف الأنشطة التجارية على امتداد منطقة شرق البحر المتوسط مع احتياجات وامكانيات أوروبا . ومن هنا لعبت أوروبا دوراً ثانياً من حيث تصدير منتجاتها إلى الأسواق الشرقية - والأهم من ذلك - هو ايجاد منفذ لمنتجات المناطق الداخلية الإسلامية (والتي تشمل منتجات الأقطار الأفريقية ، والأقطار الإسلامية العربية ، والأقطار الواقعة في الشرق الأقصى) . وأصبحت آسيا في تلك الحقبة الصليبية بوابة تجارية إلى منطقة الغرب الأوروبي ، وهي البوابة التي كانت تمثل في موانئ شرق البحر المتوسط .

وطوال فترة الوجود الصليبي في المنطقة العربية والتي استمرت ما يقرب من قرنين من الزمان تعرضت الاحتياجات والامكانيات الأوروبية للتغيرات كبيرة . فقد أدى ازدياد الثراء والفنى إلى توسيع الأسواق في استيراد السلع والبضائع الأوروبية كما أدت حالة الثراء هذه إلى تيسير سبل الحياة واكتساب حياة الناس طعماً ومذاقاً جديداً فأصبحت الحياة أكثر سهولة وترفاً . وتحددت احتياجات الأفراد ومتطلباتهم الحياتية في ضوء القوة الشرائية لهم ومدى قبول المنتجات والسلع في أسواق الشرق .

وهكذا كان تكيف الاقتصاد الفلسطيني والشامي وتوافقه مع اقتصاد الغرب الأوروبي من أهم الأحداث الجديدة في الحقبة الصليبية . فقد كانت أوروبا الغربية أكثر اهتماماً بالصناعة من

المناطق الداخلية الإسلامية . ففي القرن العاشر الميلادي وصف الرحالة والجغرافي المسلم المقدس قائمة الطعام في المنطقة العربية في مصطلحات فضفاضة . وذكر المقدس أن الطعام فقد أهميته من حيث تصديره بسبب خطورة نقله من فلسطين إلى بلاد الشام، ومصر.

وخلاصة القول هو أن الصادرات الصليبية اعتمدت على ما تنتجه المراكز الانتاجية في المناطق الصليبية في بلاد الشام وفلسطين . وبالتالي ازدهرت طوائف الحرف اليدوية ، وكشفت الحفائر الأثرية عن وجود أوانى فخارية صليبية واشتهرت أدواتهم الحديدية ، وقليما كانت هذه الأدوات الصليبية الحديدية قاتلة موادا مهمة من مواد التصدير . وكانت الصادرات المحلية للشرق الصليبي تشمل النسوجات ، والزجاج ، والأصباغ ، والسكر ومشتقاته . وتعتبر النسوجات من أهم مواد التصدير . فقد ورثت مدینتنا أنطاكية وطرابلس التقليد البيزنطي الكلاسيكي في إنتاج وصناعة المنسوجات ، واحتفظتا بشهرتها في هذا المجال خلال فترة السيادة الإسلامية وأيضا خلال فترة الوجود الصليبي . وتذكر أحد المصادر التاريخية أنه كان يوجد في مدينة طرابلس حوالي ٤٠٠٠ أربعة آلاف نول لنسج الأقمشة الحريرية والصوفية . وشملت المنتجات الحريرية الأقمشة الفخمة والمطرزة بالذهب غاليا الثمن . وكانت أقمشة أنطاكية الحريرية والمطرزة ذات وضع خاص في الرسوم الجمركية في مينا ، عكا . ولم يكن حرير مدينة صور الأبيض أقل شهرة من حرير أنطاكية ، وكان الصناع الشوام المهرة في مجال هذه الصناعة يمثلون مصدراً من مصادر الدخل للحجى البندقى في مدينة صور . وتعتبر بيروت من المراكز الصناعية الأقل شهرة، إذ كانت تصدر المنسوجات القطنية والحريرية . وفي النهاية ، كانت أشجار التوت تزرع بالقرب من بيروت لكي تلبى حاجة تربية دود القز المنتج للحرير الطبيعي . وكانت المنسوجات القطنية أرخص الأقمشة، وكان القطن يصدر من المملكة الصليبية، حيث كان يزرع القطن في سهول عكا وطبرية . وكانت بعض المنسوجات الصوفية تجلب من شيفيلا Shefela بالقرب من رام الله .

ولدينا معرفة قليلة عن الصادرات الأخرى ذات الأهمية العظمى ، وهي الأصباغ . حيث تذكر قائمة الرسوم الجمركية لينا ، عكا الكثير من أنواع الصباغة التي كانت تصدر إلى الخارج، بيد أنه كان يوجد عدد قليل من المراكز الصناعية والمدن التي تخصصت في إنتاج هذه الأصباغ المحلية في المملكة الصليبية في بيت المقدس . فكان نبات النيلة يزرع في وادي نهر الأردن، كما كان نبات الفوة المستخدم في صناعة الأصباغ يزرع على ساحل نهر العاصي، في

حين كانت هناك أنواع من القار (البيترون) يجمع بالقرب من البحر الميت وظل البلسم يزرع حول منطقة أريحا في فلسطين . ولذا فإنه من المنطقى الاعتقاد بأن الصناعات المحلية لم تستهلك كل هذا الانتاج، وأصبح فائض هذا الانتاج المحلي يشكل مواداً أساسية من مواد التصدير إلى الخارج.

وتعتبر الصناعات الزجاجية من أهم صادرات المملكة الصليبية ، وهي الصناعات التي كانت تتجهها المصانع في مدينة صور، وحاز زجاج مدينة صور شهرة واسعة في أوروبا . وأنشأ البناية مصنعاً لصناعة الزجاج في مدينة صور . وحفظ لنا الزمن غودجين من الأكواب الزجاجية الملونة المصنعة في مدينة صور خلال الحقبة الصليبية، وكشفت هذه الأكواب الزجاجية عن مدى مهارة واتقان الصانع . ومن المحتمل أن هذا الصانع كان من اليهود الذين كانوا يقطنون مدينة صور، وفي الفترة الأخيرة من الوجود الصليبي كان الصانع الأوروبي ينقش صورة السيدة مريم العذراء على سطح الكوب الزجاجي ، بالإضافة إلى نقش لاتيني أيضاً يزين جدار هذا الكوب الزجاجي . وكان هناك نحت شائع من القيشاوني تزيينه رسوم غير واضحة . وثمة شك في أن القيشاوني المصنوع في المناطق الصليبية في بلاد الشام وفلسطين كان ضمن صادرات المملكة الصليبية . وثمة دليل يؤكد أن القيشاوني كان من واردات هذه المملكة وليس من صادراتها ، ومن المحتمل أن القيشاوني المستورد كان عبارة عن نوع جيد من الخزف ، وذلك لأنه كان يوجد هناك أيضاً زهريات ملونة مصنعة ضمن واردات المملكة الصليبية . وذكر لنا المؤرخ بيغولوتى Pegolotti نوعاً من التحف ذات اللون الأزرق المخضر والمصنعة في مدينة صور، كما ذكر لنا أيضاً الصباغة الارجوانية التي اشتهرت بها صور وذات الشهرة القديمة.

وكانت هناك بعض المأكولات والأطعمة المحلية تصدر إلى الخارج، ومن أشهرها أهمها زيت الزيتون ، وزيت السمسم الجيد . فقد استغل البناية مزارع وحدائق الزيتون الواقعة حول مدينة صور ومن المؤكد أن البناية كانوا يصدرون الزيتون وزيت الزيتون إلى الخارج . ولم يكن غريباً أن توجد حدائق ومزارع الزيتون بكثرة في قطر كان أهله وسكانه يدفعون الضرائب للحكام المسلمين في صورة زيت الزيتون وربما كان النبيذ ضمن صادرات المملكة الصليبية، إذ كانت صناعته تحظى باهتمام كبير من جانب الصليبيين منذ أن وطأت أقدامهم الأرضى العربية . ومن المؤكد أن السفن الأوربية التي كانت تأتي إلى الموانئ الصليبية كانت تتزود بكميات من النبيذ ، ولذا كان النبيذ ضمن صادرات المملكة الصليبية إلى مناطق الغرب الأوروبي . ووفقاً لما

ذكره المؤرخ بيجلوتوى Pegolotti فإن الأرز الشامي كان أيضاً من السلع التجارية خلال الحقبة الصليبية، وإن كان لم يذكر لنا مناطق زراعة في بلاد الشام.

وبينما كانت صادرات المملكة الصليبية من الزيوت والنبيذ تعتمد على الكم، وذلك لأن مثل هذه المنتجات كانت توجد بوفرة في جنوب أوروبا، فإن زراعة قصب السكر وصناعة السكر كان احتكاراً شرقياً احتكرته منطقة الشرق العربي الإسلامي. فقد تركزت مزارع قصب السكر ومعاصره حول مناطق صور، طبرية (وذكر بيجلوتوى السكر الذي كان يأتي من الكرك) وحول وادي نهر الأردن، وكانت هذه المناطق بثابة سوق واسع لهذه المنتجات. وكان قصب السكر يصدر إلى أوروبا في شكل شراب، أو في شكل بلورات سكر، أو في شكل مسحوق ، أو في شكل فطائر محسنة بالسكر. ووجد خام الحديد بالقرب من بيروت، وذكرت المصادر التاريخية أن الحديد المستخرج كان من الصعب تصديره إلى الخارج، بسبب حاجة المنشآت إليه واستخدامه في صناعة الأسلحة واستخدامه في مواد البناء.

وخلاصة القول أنه كان من الصعب تقييم كميات الحديد المستخرجة من المناطق الصليبية في بلاد الشام وذلك من وجهة النظر الاقتصادية . وقد ناقش أحد العلماء البارزين وهو يلهم هايد Heyd هذه الاشكالية . ووصل إلى نتيجة مؤداها : « أنه من خلال كل ما سبق يمكن أن يتبيّن لنا كيف كانت بلاد الشام غنية في صادراتها، بيد أننا بصراحة أمام مجال التفكير والتأمل والتخمين.

وعلى الرغم من القائمة المهمة لمنتجات المملكة الصليبية ، فإن مكانة وضع هذه المملكة في التجارة العالمية قد اعتمد بشكل جزئي على كونها منتجًا . وقادت المملكة بدور مهم في تجارة العبور (الترانسيت) ، إذ كانت بثابة مركز إمداد للسلع والبضائع الصناعية الأخرى التي كانت تصنع خارج حدودها ، وأيضاً كمنفذ لاستهلاك السلع والبضائع الأوروبية أو إعادة تصدير مثل هذه السلع الأوروبية إلى مناطق الشرق العربي الإسلامي.

كانت المملكة الصليبية في بيت المقدس بثابة سوق واسع لمنتجات الأوروبية ، وقد لعبت بالفعل دوراً مهماً في هذا المجال. فقد وصل عدد سكانها والإمارات التابعة لها خلال فترة الازدهار الاقتصادي التي مرت بها حوالي ٢٥٠،٠٠٠ نسمة (عدد سكان المملكة ١٢٠،٠٠٠ نسمة ، وعدد سكان إمارات طرابلس وأنطاكية والرها ١٢٠،٠٠٠ نسمة). ولاشك أن هؤلاء السكان كانوا من الزبائن المستهلكين لمنتجات الأوروبية . وكانت الأقمشة

والملاس المستوردة والسلع المصنعة تبلى احتياجات السكان التقليدية. والحقيقة أن مثل هذه الأصناف من المنتجات والمصنوعات الأوربية كالقلنسوات ، والمشروبات الروحية قلما كانت تجد رواجاً في الأسواق الإسلامية*. وكان الطابع الأوروبي لهذه المنتجات أبرز ما يميز المجتمع الاستيطاني الصليبي ، وظل هذا المجتمع الصليبي سوقا دائمة للمنتجات الأوربية.

والواقع أن السلع والبضائع الأوربية التي وصلت إلى منطقة الشرق العربي لم تخصص فقط للسكان الأوروبيين في المملكة الصليبية، بل استمر جزء كبير من هذه السلع الأوربية يأخذ طريقه صوب أسواق المدن الداخلية الإسلامية في منطقة الشرق العربي الإسلامي.

وعلى العكس من ذلك، فقد كانت حركة التجارة وتردد التجار المسلمين إلى الأسواق المحلية الأوربية ضعيفة. وثمة شك بسيط حول ما إذا كان التجار في المدن الساحلية قد نقلوا هذه المتاجر والسلع على متن السفن التجارية إلى جنوب أوروبا أو عبر جبال الألب. وعلى أية حال، ففي وقت مبكر من القرن الثاني عشر الميلادي أصبح التجار الإيطاليون والبروفنسال وسيطاء تجاريين بين الأقطار الإسلامية المتراصة الأطراف ، إذ قاموا بعملية التبادل التجاري بين مصر، وشمال أفريقيا وبين منطقة إسبانيا . وبالإضافة إلى أهمية المملكة الصليبية في تجارة العبور (الترانسيبت) فإن المستعمرات الصليبية في المنطقة العربية كانت بمثابة مركز إمداد مالي لمجموعة التجار الأوروبيين الذين يعملون داخل المراكز التجارية الداخلية في منطقة الشرق العربي الإسلامي ولاسيما في أسواق القدسية ، وأنطاكية ، وعكا والاسكندرية.

وعلى أية حال ، فقد لعبت المملكة الصليبية في بيت المقدس دوراً مهماً في التجارة العالمية، ولا يمكن لأحد أن ينكر أن الحروب الصليبية قد أحدثت تغيراً جذرياً (راديكالياً) في الوضع التجارى لمنطقة الحوض الشرقي للبحر المتوسط مقارنة لما كانت عليه هذه المنطقة خلال حقبة السيادة الإسلامية. وخلال فترة الوجود الصليبي في المنطقة العربية والتى استمرت ما يقرب من قرنين من الزمان ظلت هذه المنطقة الممتدة شرق البحر المتوسط تتبوأ مكاناً علياً

* ويمكن تفسير أسباب عدم رواج مثل هذه السلع الأوربية في الأقطار الإسلامية في ضوء حقيقة أن الدين الإسلامي يحرم شرب الخمر ويعتبره من الكبائر ، كما أن المسلمين لم يلبسو القلنسوات الأوربية، وإنما كانت العمامة اللباس المفضل لدى المسلمين (المترجم).

في الاقتصاد العالمي وظل هذا الوضع كذلك حتى انهار وتدحر في أعقاب السيادة المملوكيه لهذه المنطقة (خضعت هذه المناطق للسيادة المملوكيه حتى سقوط الدولة المملوكيه على يد العثمانيين عام ١٥١٧م). حيث خيم عليها التدهور الاقتصادي حتى وقتنا الحالي. وكان وضع الملكه الصليبيه في بيت المقدس باعتبارها مركزاً لتجارة العبور (الترانسيت) ومركز امداد مالي للتجار الأوروبيين يساعد في عملية تدفق المعادن النفيسة والعملات المتداولة إليها بشكل منتظم ، ويمكن أن نعزز ذلك بشكل كبير إلى وجود التجار الإيطاليين (البنادقة - الجنوية- البيازنة- الأمالفين) في هذه المناطق . فقد تحولت موانئ هذه الملكه الصليبيه إلى موان حره بسبب الاعفاءات التجارية (رسوم الميناء وضرائب الأسواق) التي حصل عليها التجار الإيطاليون في هذه الموانئ . لقد تسببت الامتيازات التجارية والاقليمية التي تتمتع بها تجارة الكومونات الإيطالية في اقطاع جزء كبير من موارد الدخل العام للمملكة الصليبيه . بيد أن هذه الامتيازات كانت بمثابة تعريض لهذه المدن الإيطالية التي قدمت العون العسكري والمادي للصليبيين : فقد كان التجار الإيطاليون والبروفنسال مجذبهم مثل هذه الامتيازات إلى المناطق الصليبيه كما جذبتهم أيضاً حالة استقرار الحكم الصليبي في هذه المناطق العربية التي احتلها الصليبيون . وما يذكر أن بعض منتجات الملكه الصليبيه لم تلق رواجاً في الموانئ والأسواق المصرية ، وبدرجة أقل أيضاً في أسواق أرمينيا وبيزنطة . وتميزت سلع وبضائع دمشق وبغداد بارتفاع أسعارها في أسواق المملكة الصليبيه وذلك بسبب تكاليف النقل الإضافية والمترادف . وكانت السلع التجارية التي تحقق أرباحاً وفيرة تشمل البهارات التي كانت تأتي من منطقة جنوب وشرق آسيا ، عن طريق الخليج العربي الفارسي إلى أسواق بغداد ودمشق، أو التي كانت إلى أسواق القاهرة أو الإسكندرية عبر طريق البحر الأحمر . وكانت الامتيازات التجارية التي منحها الصليبيون للتجار الأوروبيين قمنع تركيز تجارتكم في مصر، وهكذا استطاعت الكومونات التجارية الإيطالية أن تكفل للمملكة الصليبيه مستوى اقتصادياً عالياً تعجز مواردها وموقعها أن تتحقق لها.

وخلال فترة الوجود الصليبي في المنطقة العربية والتي استمرت ما يقرب من قرنين من الزمان مرت التجارة العالمية ببعض التغيرات المهمة من حيث حجمها وطبيعتها . وعلى الرغم من النشاط التجارى للمدن التجارية الأوروبية ، وهى البنديقية ، وجنا ، وبيزا ، ومرسيليا وبرشلونة - والتى لعبت ودوراً مهماً في التجارة العالمية- فإن صادرات وواردات هذه المراكز التجارية الأوروبية اتسمت بعدم التجانس . وربما كانت توجد هناك بين هذه المراكز الأوروبية فوارق محلية، بيد أن هذه المدن والمراكز التجارية الأوروبية لم تزود بعضها البعض بالسلع ولم

تزوّد أيضًا المراكز المجوّرة لها. فقد قام تجّار هذه المدن الأوروبيّة بتزويد أسواق أوروبا بمنتجات مماثلة. وكانت الظروف السياسيّة تساهم بقدر كبير في حركة الموانئ التجارّية واحادث تغييرات في طبيعة الحركة التجارّية في هذه الموانئ (على سبيل المثال تغيير النفوذ التجارّي البندقى في القسطنطينيّة بعد سقوطها في يد الصليبيّين في أعقاب الحملة الصليبيّة الرابعة، وأدت الظروف السياسيّة أيضًا إلى أبعاد كل من التجار الجنوبي والتجار البنادقة على التوالى من مدينة عكا وإعادة تأسيس منشآتهم التجارّية في مدينة صور أو في بيروت) ولكن لم تترك هذه الأحداث السياسيّة تأثيراً كبيرًا في حركة التجارة بشكل عام، وذلك لأنّ جموع المستهلكين والزبائن في المملكة الصليبيّة وفي المناطق الإسلاميّة الداخليّة في منطقة الشرق العربي الإسلامي هي التي كانت تقرّ حجم وطبيعة التجارة وفقاً لاحتياجاتها.

والحقيقة أنّ معلوماتنا عن امتيازات الكومونات التجارّية الإيطالية (البندقية - جنوا ، بيزا) والتي ترجع إلى المقدمة الزمنية للمملكة الصليبيّة الأولى (١١٨٧-١١٩١) قد استقناها وحصلنا عليها من خلال السجلات البحريّة الجنوبيّة التي دونها لنا جيوفانى Giovanni ، وأيضاً من خلال عدد قليل من السجلات البحريّة الأخرى. وتشير هذه السجلات السابقة إلى أنّ معظم الصفقات التجارّية في النصف الثاني من القرن الثاني عشر الميلادي قد تطلّبت استئناف وتتدفق المعادن النفيسة (كالذهب والفضة) من أوروبا إلى منطقة الشرق العربي الإسلامي. ولم يستطع الغرب الأوروبي في تلك الأوانة أن يصل إلى مرحلة التوازن بين صادراته ووارداته . إذ بات على الغرب الأوروبي أن يدفع أكثر بالعملة الصعبة لشراء السلع. وما قبل عن الحقيقة المتعلقة بحجم التبادل التجارّي بين الشرق والغرب في العصر الوسطي ليس بالضروري تطبيقه عمليًا على مراكز التجارّي في منطقة الشرق العربي الإسلامي. والسبب ، هو أن الغرب الأوروبي لم يعتمد عائداته التجارّي على التجارة مع مناطق الشرق العربي فحسب ، بل اعتمد هذا العائد التجارّي أيضًا على الأجور والمقابل المادي لنقل المهاجرين والحجاج المسيحيين من أوروبا إلى هذه المناطق الصليبيّة في بلاد الشام وفلسطين. وبالإضافة إلى ذلك ، وكما أوضحتناه آنفًا ، فقد استطاعت الأساطير الإيطالية أن تنشئ خطوط اتصال بين مختلف المراكز التجارّية الإسلاميّة بعضها مع بعض . وهكذا كانت واردات هذه المراكز التجارّية الإسلاميّة مثل مصدر دخل إضافي للتجار الأوروبيّين والإيطاليّين.

ويجب ألا نبالغ كثيراً في حجم تداول المعادن النفيسة في المعاملات التجارّية. فقد كانت المنتجات الأوروبيّة تباع في أسواق الشرق العربي الإسلامي منذ فترة باكرة جدًا . وكانت

المنسوجات والأقمشة رخيصة الثمن في منتصف القرن الثاني عشر الميلادي، وكانت هذه المنسوجات تشمل (المنسوجات القطنية أو الفستيان ، والمنسوجات الصوفية) بيد أن المنسوجات ذات اللون القرمزي والأخضر والتي كانت ترد من جنوب أوروبا كانت غالبية الشمن- وكانت السفن تنقل فراء الأرنب الوحشى ، والأخشاب والجلود من أوروبا إلى موانئ ، منطقة الشرق العربي الإسلامي . ولم تكن هذه المنتجات أشياءً جديدة طوال عام ١١٥٠ وليس هناك سبب يجعلنا نقبل الافتراض بأن مثل هذه المنتجات الأوروبية لم تصدر إلى الأسواق الشرقية قبل ذلك التاريخ بحوالى جيل أو أكثر، حيث أن هذا الافتراض يفتقر إلى ما يؤكده من خلال السجل البحري.

لقد أدت ندرة الوثائق التاريخية إلى افتراض بعض العلماء بأن التجارة بين أوروبا وبلاط الشام كانت ذات نفط محدد ، يتمثل في بيع الصادرات، أو استبدال المعادن النفيسة بالمنتجات والعملات المتداولة المحلية، وتدفق رؤوس الأموال إلى مصر. وينى هذا الافتراض على أساس حقيقة أن السجلات البحرية تذكر أن الصادرات الأوروبية كانت تتجه صوب أسواق بلاد الشام وليس إلى مصر، في حين تؤكد هذه الوثائق التاريخية (السجلات البحرية) تدفق صادرات ومنتجات مهمة من مصر إلى بلاد الشام، ويبعد أن هذا يمثل جانبًا واحدًا من جوانب الصورة المتعلقة بالموضوع . فلم يوضح هذا الجانب الأحادي من تفسير الظاهرة سبب رواج وقبول هذه المنتجات المصرية في أسواق بلاد الشام (كانت المنتجات المصرية من القطن والكتان أرخص من مشيلتها ، وأيضاً كانت الأنواع الجيدة من الشب توجد في مصر فقط). وربما نجد تفسيرًا لما تذكره لنا السجلات البحرية المربكة من خلال حقيقة أن الصادرات الأوروبية إلى مصر كانت محظمة، وفقاً الأوامر البابوية ، وكان خرق هذا المخطر البابوى بثابة اهانة للبابا والبابوية فى روما، وشملت قائمة السلع المحظوظ تصديرها إلى مصر، الأخشاب، وال الحديد ، والجلود والقار، وكانت كل هذه السلع من الأدوات التي تستخدم في صناعة الأسلحة والتي لم توجد في مصر، كما كانت هذه المواد ضرورية لبناء السفن. ومن المؤكد أن مثل هذه الصفقات التجارية لم تدون في سجل موثق *، على الرغم من أن معاهدة رسمية تجارية بخصوص هذه المواد المحظوظة كانت

* كان عدم تدوين مثل هذه السلع في السجل التجارى البحري للسفينة بثابة عملية هروب من دائرة المخظر البابوى، وكان بثابة تضليل للواقع ، إذ أن المصلحة التجارية حيث الكسب قد تطلب التعامل التجارى في هذه المواد المحظورة لأنها كانت تقلل مورداً مالياً كبيراً (المترجم) .

قد أبرمت بين بيزا ومصر. وهكذا فإن الصادرات الأوربية إلى مصر قد وفرت المال اللازم لعملية شراء المنتجات المصرية على وجه المهر أو الالزمة لاستيراد التاجر الأوربيين للبهارات من أسواق الشرق الأقصى. وكان الوضع مختلفاً بالنسبة للمناطق الصليبية في بلاد الشام. وعلى الرغم من تأكيد عملية استيراد المناطق الصليبية في بلاد الشام مواد البناء من أوروبا، فإن عملية الاستيراد هذه كانت قليلة الأهمية إذا ما قورنت بالواردات من الملابس والمواد التجارية الأخرى.

ويمكن التثبيت أيضاً من ذلك من خلال الحقائق التي ذكرها آنفاً لنا المؤثر العام الجنوبي جيوفانو Giovanni ، فقد ذكر جيوفانو مايريو عن ٣٣٥ معااهدة تجارية (من إجمالي ١٣٠٠ معااهدة) ، منها ١١٦ معااهدة تتعلق بايطاليا وصقلية ، ١٠٧ معااهدة واتفاق تجاري يتعلق بشمال أفريقيا، وجنوب فرنسا وأسبانيا، ومنها ١١٢ معااهدة تتعلق بمنطقة الشرق العربي الإسلامي. وكانت هذه المعاهدات التجارية الخاصة بمنطقة الشرق العربي الإسلامي عبارة عن ٥٨ معااهدة تتعلق بالاسكندرية ، و٤٤ بإندا تجاريًا يتعلّق ببلاد الشام، و٢٠ عقداً تجاريًا مع بيزنطة . وعندئذ كانت هناك رحلتان تجاريتان سنويتان من أوروبا إلى كل من الاسكندرية وببلاد الشام، بيد أن حجم الاستثمار الأوروبي في مجال التجارة يوضع صورة مختلفة تماماً: فقد بلغت الاستثمارات الجنوية في الاسكندرية ٣١٩٠٠ تسعة آلاف واحد وثلاثون جنيه استرليني؛ وكانت الاستثمارات الجنوية في بلاد الشام تصل إلى ١٠٠٧٥ جنيه استرليني ، وفي أسواق بيزنطة بلغت الاستثمارات الجنوية ٢٠٠٧ جنيه استرليني. وكان معدل الاستثمار في كل رحلة تجارية بحرية يبلغ ٣٠٠ جنيه استرليني ، فكان معدل استثمار الرحلة المتوجه إلى الاسكندرية يصل إلى ١٥٦ جنيه استرليني، ومائة جنيه استرليني للرحلة المتوجه إلى أسواق بيزنطة . وهكذا فإن رجحان وتفوق التجارة الجنوية مع الأسواق المصرية أمرًا ينافي الواقع التاريخي، وأن حجم الاستثمارات الجنوية في مجال التجارة مع بلاد الشام كان ضعف استثمارات الجنوية في مصر ، ولذا يمكن القول إن حجم الاستثمارات التجارية الجنوية في بلاد الشام كان يزيد عن حجم الاستثمارات الجنوية في كل من مصر وبيزنطة معاً. وهذا يمكن التثبت من أن المناطق الصليبية في بلاد الشام كانت تحتل مكانة بارزة في التجارة بين الغرب الأوروبي والشرق العربي الإسلامي. ويمكن تفسير الرحلات التجارية الأوربية المتعددة إلى مصر في ضوء حقيقة أن الصادرات الأوربية إلى بلاد الشام كانت تتميز بارتفاع سلعها وصغر حجم

هذه الصادرات، في حين كانت الصادرات الأوربية إلى مصر كبيرة الحجم، وتتطلب فضاء واسعاً ومستودعات ، وكذلك سفناً كبيرة لنقلها . ومن ثم تطلب هذه الصادرات إلى مصر قيام رحلات تجارية عديدة دون رفع أجمالي رؤوس الأموال المستثمرة.

وعندما نتابع السجلات الموئنة (والتي كان أغلبها سجلات جنوية) يمكن أن نقرّر حقيقة مؤداها أن النصف الثاني من القرن الثاني عشر الميلادي لم يشهد أي تغير ملحوظ في طبيعة تجارة الشرق. وكما ذكرنا من قبل ، فإنّ الإمارات الصليبية في بلاد الشام وفلسطين كانت تستورد أقمشة ونسوجات فخمة غالبة الشمن . وأحياناً نسمع عن أقمشة نيرونا التي كانت تصدر من أوروبا إلى المناطق الصليبية في بلاد الشام وفلسطين وكذلك إلى المناطق الإسلامية في بلاد الشام ، وكذلك تصدير السيوف الأوربية إلى بلاد الشام (على الرغم من شهرة سيفون دمشق والتي كانت أسعارها مرتفعة) ، بالإضافة إلى الفضة والعملات المتداولة. وثمة دليل يوضح أن منطقة جنوب فرنسا كانت تصدر إلى بلاد الشام النسوجات ، واللؤلؤ والذهب.

ويذكر السجل الرسمي الموثق العام أوبيرتو من ميركاثو *Oberto de mercato* أن عام ١١٨٤ شهد ١١٨ اتفاقية تجارية مع بلاد الشام بلغ مجموع استثماراتها ١١٠٩ جنيه استرليني. وفي عام ١١٨٦م، يذكر نفس الموثق العام ١٤ اتفاقاً تجارياً مع بلاد الشام يبلغ مجموع استثماراتها ٣٠٥٦ جنيه استرليني؛ وفي عام ١١٩٠م يذكر الموثق العام السابق أوبيرتو أن هذا العام شهد ٢٠ عقداً تجارياً وصل مجموع الاستثمارات فيها ٢٠٩١ جنيه استرليني . وقبل ذلك بعام واحد أى في عام ١١٨٩ ، وفي أحداث الحملة الصليبية الثالثة، يذكر لنا الموثق العام جيوجيليلمو كاسيني *Guglielmo Cassines* اثنين وأربعين عقداً تجارياً بقيمة إجمالية من الاستثمارات تبلغ ٦٣٨٧ جنيه استرليني . وما يذكر أن المبالغ الصغيرة في استثمارات العقود التجارية لعام ١١٩٠م لم تكن ذات أهمية (فقد تراوحت هذه الاستثمارات ما بين ٣-٢ ألف جنيه استرليني) ، وعلى الرغم من الاستثمارات التجارية وصلت في أحد الأعوام إلى مبالغ كبيرة (وصلت جملة الاستثمارات في هذا العام ما بين ٥٠٠٠-٧٠٠٠ جنيه استرليني) فإن هذه المبالغ المستثمرة في المجال التجاري مع بلاد الشام كانت ضئيلة.

وثمة سجل تجاري موثق يرجع إلى الربع الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي يتضمن واردات تأتي إلى أوروبا من بلاد الشام. ففي عام ١٢٣٣ أصدرت البندقية قانوناً يتعلّق بنظام الشحن البحري (القانون البحري). إذ كان يتم تنظيم حجم وزن البضائع والمتأجر وفقاً لحمولة

السفينة . وكانت السفينة التجارية تقطع مسافة تتراوح ما بين ٢٠٠-١٠٠٠ ميل وحمولتها تتراوح ما بين ١٢٠-١٥٠ قنطاراً . وكانت المنتجات والسلع المستوردة تقسم وتصنف وفق الوزن والحجم . إذ كان الصنف الأول من السلع المستوردة يشمل : القطن ، وغزل القطن ، والصوف الذى تصنع منه القلنسوات والعرقوسos Liquorice ، وقصب السكر ، ونبات خيري البر Lavender . وضم الصنف الثانى من السلع المستوردة الفلفل ، والفلفل الطويل ، والزنجبيل ginger ، وجزء الطيب nutmeg ، والقرنفل Claves ، وحب العروس Cubebs ، والأرز ، والسكر والسكر الناعم Sugar Castor ، والصمغ gum ، وصمغ اللك Lac . Cardamon ، والمر Myrrh والألوة aloe (الصبر) ، والبخور Frankincense ، وحب الهال Caphor ، والجداور المستخدمة فى صناعة العطور Zedoary ، والكافور Caphor ، وخشب الصندل San-dalwood ، الاهليج myrobalan ، والشمع Orpiment ، والرهج الأصفر indigo ، والنثأa و الشمع wax ، والنيلة المستخدمة فى صناعة الصباغة alum ، والشب indigo ، والزجاج والزاج Vitriol ، والصنفه emery ، والحرير الخام ، والأقمشة الحريرية ، وقماش البقر المستخدم فى تجلييد الكتب buckram . وكان الصنف الثالث من السلع المستوردة يضم : خشب البرازيل Brazilwood ، والكتان flax ، والقرفة Cinammon ، والكمون Cummin ، والبانسون an-ise ، والكاملت أو الخملة Camlot وهو نسيج من وبر الجمل ، والتابل المستخرج من قشرة جوزة الطيب الخارجى nuace .

وبعد خمسة عشر عاماً من الربيع الثانى من القرن الثالث عشر الميلادى أى فى عام ١٢٤٠ أعلن المؤتى العام المارسلى المدعى أماليك قائمة الصادرات الأوربية إلى بلاد الشام من السلع والبضائع الأوربية مقابل الواردات الأوربية التى كانت تشمل قائمة المنتجات الشرقية التى ذكرناها آنفاً . فقد كانت السفن التجارية تغادر مينا ، مرسيليا فى ربيع عام ١٢٤٨ وكان القديس اسبريت The Saint Esprit يعمل لدى ريموند صافن Raymond Suffren الذى استفاد من الخدمات التى كان يقدمها المؤتى العام المارسلى أماليك الذى ذكرناه آنفاً . وكانت سجلات هذا المؤتى العام المارسلى بتشابه قائمة بجرد محتويات السفينة من البضائع ، مع أن بعض العقود التجارية الأخرى المتعلقة بنفس الرحلة ربما قد أبرمت على يد مؤتى عام آخر . خلال الأربعين السابقة لمغادرة السفينة (٣١ مارس سنة ١٢٤٨ م) قام المؤتى العام المارسلى أماليك بتسجيل ١٥٠

عقد تجاري وهى العقود التى شملت ١٨٠ تاجراً ، ووُجد على متن السفينة ثلث عدد التجار السابقين أى ستون شخصاً ، بينما كان الثلثان (وهم المستثمرون) يبقون في مرسيليا . وكانت جملة المبالغ المستثمرة (أموال أو متاجر) تتراوح قيمتها ما بين ١٠ - ٥ جنيه مارسيللي (وكان هناك خمس حالات يبلغ الاستثمار فيها أقل من ١٠ جنيه استرليني؛ ٥٩ حالة يتراوح معدل الاستثمار فيها ما بين ١٠٠ - ٥٠ جنيه استرليني ، و٤٤ حالة وصل الاستثمار فيها ما بين ٠ - ٥٠ جنيه استرليني ، ٣٠ حالة وصل معدل الاستثمار فيها إلى أكثر من ١٠٠ جنيه استرليني). وكان من بين التجار المسافرين تاجر يدعى ببير بيلاجيو Pierre Bellaigue والذى تسلم مبلغاً من المال يقدر بـ ١٣٢٣ جنيه استرليني بموجب ثلاثة عشر عقداً تجارياً (وكان معدل الاستثمار فى كل اتفاقية تجارية يتراوح ما بين ٧٨ - ٢٣٠ جنيه استرليني). وكان يوجد أيضاً على متن السفينة بضائع لتجار محليين كأمانة، وخلط من العملات الشرقية والغربية، وهذه الأموال كانت تستخدم كقروض بحرية ، أو كانت تستخدم لشراء السلع وبضائع شتى ومتعددة بيد أن معظم هذه البضائع والسلع كانت عبارة عن الأقمشة. وقد حملت الأقمشة اسم المنطقة التى ترد منها فمثلاً أقمشة ومنسوجات شالون (ذات الألوان الأخضر والأزرق والأبيض) ، ومنسوجات ريس Reims وأنواع أخرى من الأقمشة تعرف باسم أقمشة تاراسكون Tarascon ، وأقمشة ناربون ، والأقمشة الصوفية من منطقة سان بون Saint Pons وآراس Arras ، وملابس وأقمشة من إقليم شمبانيا ، وملابس اللوفر ، والملابس المجلوسة من كامبرى فى إقليم سانت كونتين St. Quentin ، والملابس والأقمشة السوداء من ستانفورد Stanford فى إنجلترا ، والقماش الخشن الصوفى أو الكتان من شarter ، والأقمشة القرمزية اللون ، وأقمشة يبرس Ypres الحمراء اللون ، والأقمشة الحريرية ، وأقمشة أفينيون المطرزة بالخيوط الذهبية المجلوسة من جنوا ولوكا ، وخيوط الغزل من برجاندى ، وأقمشة دوى Douai ذات الشكل واللون البنى ، والقماش القطنى المصنوع فى باريس ، وأقمشة من ألمانيا . وكانت المواد التجارية الأخرى تشمل الزعفران ، والقصدير Tin ، والمرجان Coral ، والفضة النقية والفراء.

ولاشك أن قائمة السلع والبضائع المصدرة التى ذكرناها آنفًا تعتبر ذات أهمية كبيرة وتبرز أهميتها بشكل أكبر إذا حاولنا تحديد القيمة المادية لهذه المواد التجارية المصدرة . فقد كانت القيمة المادية للسلع والبضائع التى احتوتها حمولة سفينة القديس اسبريت Saint esprit تقدر

بحوالى ١١٠ جنديه من عمارات مرسيليا المداوله، وكانت قيمة متاجر مدينة ملجيده Mel gueil تبلغ ١١٠ جنديه مارسيلى، وكان نصيب مدينة تور من التجارة يقدر بـ ١٢٨ جنديه مارسيلى أيضاً * . وفي تلك الآونة أيضاً وخلال فترة قصيرة أعقبت الأول من شهر أبريل سنة ١٢٤٨ غادرت أكثر من ثمانى سفن تجارية مبناء مرسيليا فى طريقهم صوب أسواق الشرق.

والواقع أن التجار الجنوبي فقط هم الذين دونوا سجلات تجارية لمتاجرهم ولو بشكل جزئى وذلك منذ القرن الثانى عشر الميلادى، بيد أن بعض الدراسات التاريخية تشير إلى حقيقة مؤداتها، أن حجم الاستثمارات التجارية الجنوبي فى أسواق الشرق العربى فى بلاد الشام وفلسطين خلال فترة الثلاثين عاماً (ما بين عامى ١٣٦٢-١٢٣٣) باستثناء فترة الحرب التى نشببت بين الكومونات التجارية فى عكا ما بين عامى ١٢٥٦، ١٢٥٨) كانت كبيرة جداً. فقد وصلت الاستثمارات التجارية الجنوبي فى عام ١٢٥٣م إلى أكثر من ٥٠٠٠ جنديه استرليني . وظفرت جنوا وحدها بنصيب كبير فى التجارة مع الشرق تراوح ما بين ٤٠-٧٠٪ من حجم التجارة مع الشرق.

وثمة وثيقة صليبية فى مدينة عكا ترجع إلى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى تلقى المزيد من الضوء على حجم صادرات المملكة الصليبية فى بيت المقدس إلى الغرب الأوروبي. فقد قدر لبعض أصناف السلع التجارية التى كانت تفرض عليها ضرائب ورسوم أن تستخدم فى غزوين ركاب السفن والبخارية ولم يكن هناك ضرورة لإرسال مثل هذه السلع إلى أوروبا . فمثلاً كانت سلع التصدير إلى أوروبا تشمل السمك المملح المجلوب من مصر أو من الانتاج المحلى للمناطق الصليبية ، وأيضا الدواجن ، والدجاج الرومى ، والأرز ، والزيتون ، والهلميون asparagus ، والتفاح ، والكمثرى ، والسفرجل quince وكانت كل هذه الأصناف تصدر إلى أوروبا . ولاشك أن قائمة جرد السلع والبضائع المفروض عليها الرسوم الجمركية هي التي قد ذكرت مثل هذه الأصناف التي صدرت إلى الأسواق الأوروبية. ومن بين السلع المصنعة والتي كانت ضمن الصادرات ، الحرير، والقطن، وخيوط الغزل من دمشق ، والصمع ، والأقمشة الكتانية ، وقماش البقم السميك، والعاج، والأداني الخزفية المحلية، والدعامات والعارض الخشبية والمعدنية اللازمة لبناء السفن (وريما كانت هذه العوارض تصدر إلى مصر)، بالإضافة

* مما يذكر أن كل ١٠٠ قطعة من نقود مرسيليا كانت تساوى ٢٥ بيزنت صليبي. ولاشك أن هذا لا يعبر عن القيمة الحقيقية للعملة، بيد أن هذا يوضح أن القروض التي كانت تقدم للتجار كانت بفائدة عالية . (المؤلف).

إلى سروج الخيول والزنار . ومن الصادرات أيضا البصل (الذى كان يسمى كرات عسقلان الشهير) ، والتين الشوكى Prickly Pears والبلح، والسمسم، واللوز وما شابه ذلك من السلع التى كانت تصدر أو التى كان يتم تزويد السفن بها وهى السفن التى كانت تمر من ميناء عكا فى طريقها إلى أسواق أوروبا . وكانت البهارات والعطور والأصباغ قليل الجزء الأكبر من سلع الصادرات التجارية . والحقيقة أن البهارات المصدرة قد شملت العرقسوس liquorice، والشب ، والبخور ، وحب الهال Cardamon ، والنشادر ammoniae ، والرهج الأصفر- Orp- iment، ولب الكافور والقرفة Cinnamon، والصنفرا، والألوة aloe (المر) ، والقرنفل Clove، وجوزة الطيب nutmeg ، والمسك musk ، والبندق ، ومعظم أنواع السكر، ونبات الخزامي المستخدم في صناعة العطور lavender، والاهليج myrobalam والزنجبيل ginger، ونبات الخزامي aspic ، والقرنفل clove.

وتشير كل المصادر التاريخية التي ترجع إلى الفترة من منتصف القرن الثاني عشر إلى النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي إلى أهمية المملكة الصليبية في التجارة العالمية ودورها الذي لا يمكن إغفاله وتجاهله.

د- المينا التجارى

الواقع أن النشاط التجارى في أية مدينة بحرية يتركز بشكل أساسى في منطقتين مهمتين هما المينا والأسواق- أي منطقة المينا والأسواق. وكان شارع المينا يضم أحجزة وأدوات المينا التجارى، وأماكن لعرض السلع وبيعها، ومخازن ومستودعات للبضائع ، ومكاتب للجمارك ، ومبني لمحكمة المينا (محكمة السلسلة) التجارية. وكانت المدن التي تقع عند أطراف الطرق التجارية العالمية تضم المخانات وأماكن لاستراحة تجار القوافل البرية وكانت هذه المخانات تؤدى نفس مهمة المينا التجارى. وفي المينا كان التجار يدفعون الرسوم الجمركية المستحقة على متاجرهم، ثم تودع متاجرهم في المستودعات ، وبعد ذلك يذهب التجار إلى نزل خاصة بهم ليبيتوا ليلهم. وكان موظفو الجمرك في المينا من رجال الدين المسيحيين الوطنين الذين يعرفون اللغة العربية وكان رئيس الجمرك هو الذي يعين هؤلاء الموظفين في حين كان سيد المدينة هو الذين يعين رئيس الجمرك.*

* يشير ابن جبير إلى ديوان الجمرك في مينا عكا فيقول: «وحضرنا إلى الديوان، وهو بشابة خان مجهز=

كانت عملية انزال البضائع وتفريغها على الشاطئ ، من العمليات التجارية المعقدة في العصور الوسطى ، وذلك على خلاف الأسلوب الحديث في ضبط أعمال الجمارك في الوقت الحالى ، فقد كان موظفو الجمارك في الموانئ الصليبية يهتمون بالتجار ، ويفحصون الوضع القانوني للسفن التجارية وكذلك الوضع القانوني للناجر صاحب الرحلة التجارية . فعلى سبيل المثال كانت الأقمشة الكتانية التي تصل إلى ميناء عكا كوارادات يدفع عنها الرسوم الجمركية المستحقة وفقاً لكميتها وللامتيازات التي يتمتع بها الناجر المستورد . فقد اختلفت قيمة الرسوم الجمركية التي كان يدفعها التجار البنادقة والبيازنة والبنوية من ميناء إلى آخر ، أى كانت تختلف القيمة مثلاً من ميناء يافا إلى ميناء عكا ، ومن ميناء بيروت إلى ميناء صور . وعلى آية حال ، فإن هذه الرسوم الجمركية التي كان يدفعها هؤلاء التجار الإيطاليون كانت أقل كثيراً من الرسوم التي كانت تفرض على التجار الآخرين الذين لم يتمتعوا بامتيازات تجارية أو إقليمية . ومن ثم فإن أسعار السلع التجارية المستوردة كانت تختلف وفق الرسوم الجمركية التي فرضت عليها . وبالإضافة إلى ذلك ، فقد اختلفت رسوم الميناء التي كانت تدفعها السفن ، ولاشك أن هذه الرسوم كانت تؤثر في الأسعار النهائية للسلع والمنتجات المستوردة .

كانت السفن التجارية تدفع نوعين من الرسوم الجمركية ، النوع الأول هي ضريبة الوارد Tercirium والنوع الثاني هي ضريبة الرسو أو الوصول anchoragium وكانت الضريبة الأولى تقدر بثلث قيمة التكليف الناقل ، ولم يتضح ما إذا كانت هذه الضريبة الأولى تقدر بثلث قيمة النقل . وعلى الرغم من أن تكاليف النقل كانت مرتفعة ، فإن سلطات مرسيليا كانت تحصل من ربابنة السفن وأصحابها ثلث الرسوم التي كان يدفعها الحاج الأوروبيون الذين يرتدون الذهاب إلى الأرض المقدسة في فلسطين وببلاد الشام . ولاشك أن ضريبة الوصول هذه Ter ciarium كانت ضمن الاعفاءات التي تتمتع بها تجار الكومونات الإيطالية .

= ومعد لأن يكون محطة ومكاناً لاستراحة القرافل ، وقبل الدخول إلى بوابة الديوان وجدنا وصيف الديوان مفروشاً بالسجاد حيث مقعد ومكان جلوس سكرتارية الديوان وهو من المسيحيين ، ثم وجدنا المكاتب المحلاة والمزينة بالأثنيوس ويقطع ذهببة مشغولة ، وهؤلاء الموظفين يستخدمون اللغة العربية في الكتابة واللغة أى في الحديث ، وكان رئيس الديوان يسمى شهاب الدين (وهو رئيس الجمارك) ولم ير أى ناجر دون أن يراه هذا الشهاب (ابن جبير : الرحلة ، ص ٣٣١) (المترجم) .

لقد أدت ضريبة الوصول Terciarium إلى حدوث مشاحنات بين سلطات المدينة وبين تجار الكومونات الإيطالية الذين قطعوا بامتيازات واعفاءات تجارية في المدن الصليبية. ففي عام ١١٢٣م، عقدت معااهدة جديدة بين المحكم الصليبيين والبنادقة فرض على الجنوبي بموجبها دفع ضريبة على نقل الحجاج الأوروبيين المسيحيين الذين يأتون إلى الأرض المقدسة على متن سفن بندقية ، وكذلك على نقل الحجاج العاندين إلى أوطانهم على متن هذه السفن أيضا. ولقاء ذلك حصل البنادقة على مكافأة وتعويض سنوي يقدر بـ ٣٠٠ بيزنط من أسواق صور ثم بعد ذلك من أسواق عكا. وبعد ذلك مدة وجيزة ، وفي عام اعترض البنادقة على هذه الضريبة وأعلنوا أنهم سوف يدفعون ضريبة على عودة الحجاج الأوروبيين فقط إلى أوطانهم على متن سفنهم. ووُجدت هذه الضريبة أيضاً في أنطاكية وكانت بمثابة ضريبة ثالثة . وفي عام ١٢٠٠ منح الأمير الصليبي بوهمند امتيازاً للبيازنة خفضت هذه الضريبة بموجبه إلى ثلث قيمتها العادلة. وفي طرابلس أعنى الجنوبي من هذه الضريبة (ضريبة الحجيج أو ضريبة عودة الحجيج) والتي كان تشمل ضريبة نقل الحجاج .

كانت ضريبة الرسو وثيقة الصلة بضريبة نقل الحجاج والتي كانت في مثل هذه الحالات بمثابة ضريبة المينا . وثمة ضريبة أخرى استمدت اسمها من ذلك الفرض الذي دفعت من أجله وهي ضريبة القيراط Carates وقد ثبت أن هذه الضريبة كانت قيمتها $\frac{1}{24}$ من قيمة حمولة السفينة من السلع والبضائع .

وكانت المساومة على الرسوم الجمركية تبدأ عند دفع هاتين الضريبتين (ضريبة الحجاج وضريبة القيراط) بين التاجر وبين سلطات موظفى الجمرك فى المينا . وعندما يمعن القارئ فى الوقت الحالى فى حجم الامتيازات التى تقتصر بها مختلف الأجناس من التجار الأجانب فى مدينة عكا فإنه يتعجب كثيراً إذا شاهد أن أي تاجر من هؤلاء التجار يدفع الضرائب العادلة فى المينا أو فى أي مكان آخر . وهذا الوضع يذكرنا ببيع تذاكر القطار فى محطة سكة حديد فى إيطاليا ، أو فى بلاد اليونان أو فى فرنسا فى العصر الحالى . وهى العملية التى عادة يصاحبها الصخب والضجيج ، وذلك لأن الركاب المحليين كانوا فى العادة يحضورون إلى متجر بيع التذاكر ويصحبهم الوثائق التى تدل على اعفاءاتهم الكاملة أو الجزئية من أجرة الركوب أو التى تدل على تخفيض أجرة الركوب وهؤلاء الركاب إما جنوداً ، أو من رجال الشرطة ، أو من قدامى المعارين المعاقين أو من كبار موظفى المصلحة الذين اعتادوا الذهاب والإياب

بالقطار بدون أجر أى مجاناً. ويمكن مقارنة مثل هذا التفاوت في أجر تذاكر قطار السكة الحديد بعملية فرض الضرائب وتقديرها في العصور الوسطى حيث التفاوت أيضاً بسبب امتيازات التجار الإيطاليين، فقد كان هناك تجار يتمتعون باعفاءً كامل من الضرائب ، وبعض التجار كانوا يدفعون ضرائب مخفضة. كان كل تاجر يدعى حقه في هذه الامتيازات ، والتجار الذين لا يستطيعوا اثبات امتيازاتهم واعفاؤا لهم كانوا يحاولون بشتى الطرق اثبات ذلك تارة عن طريق القسم أو ثبوت النسب والجنسية وتارة أخرى عن طريق المخديعة الاحتيالية وقد قطع تجار المدن القريبة من مدينة جنوا بالامتيازات التي قطع بها تجار جنوا، فكان هناك تجار من توسكانيا يدعون أنهم من بيزا ، وتجار من إقليم البروفانس ادعوا أنهم من مرسيليا ، وتجار من كتلان ادعوا أنهم من برشلونة*. ونظراً لعدم وجود الأوراق المستندات التي تثبت هوية هؤلاء التجار فإن عملية تصنيف التجار ومعرفة مواطنهم الأصلية كانت صعبة التتحقق ولذا فإن عملية جمع وتحصيل الضرائب التجارية في المناطق التجارية الواقعة شرق البحر المتوسط كانت هي الأخرى عملاً بطيئاً وفذاً من جانب موظفي الجمارك . ولاعجب ، فقد كانت الكوميونات التجارية الإيطالية (البندية - جنوا - بيزا) ترسل المسئولين عن هذه الكوميونات إلى الميناء لتقديم المساعدة لبني جلدتهم من التجار، ومساعدتهم في اثبات هويتهم لدى موظفي الجمارك، وضمان حصول تجار هذه الكوميونات على امتياز الاعفاء . ولسوء الحظ فإن بعض هؤلاء التجار كانوا يدفعون رسوماً جمركية كاملة، في ميناء عكا، وكانت هذه الضريبة تعرف باسم ضريبة دخول الميناء ، وهذا الاسم في حد ذاته كان اسمًا مؤقتاً وعرضياً لهذه الضريبة . فقد كانت نسبة الرسوم الجمركية العادلة في ميناء عكا تصل إلى $\frac{1}{2} \text{ } \%$ من قيمة إجمالي المتاجر المنقوله.

وعلى الرغم من أن الاعفاءات الجمركية التي كان يتمتع بها تجار الكوميونات الإيطالية قد تحددت منذ وقت مبكر من الوجود الصليبي، فإن إجمالي هذه الاعفاءات قد وصل إلى نصف الرسوم المفروضة ، أي انخفضت الرسوم الجمركية. ففي أنطاكية دفع البناية رسوماً جمركية قدرها 5% على الكتان والملابس الحريرية ، و 7% على باقي البضائع الأخرى، بيد أن هذه

* كان الغرض من ادعاءات هؤلاء التجار هو الاستفادة من اعفاءات الكوميون الذي يدعون الاتمام إلى.

وعلى الرغم من صرامة الاجراءات، فإنها صعبة التنفيذ (المترجم).

الرسوم قد انخفضت في عام ١١٥٣م إلى ٤٪ و ٥٪ على التوالى . وفي نفس الوقت وفي عام ١١٥٤م دفع التجار البيازنة في أنطاكية نصف الرسوم الجمركية المقررة على دخول المينا ، والخروج منه ، والبيع والشراء ، ولكنهم قطعوا باعفاء كامل من الرسوم الجمركية في طرابلس في عام ١١٨٧م. وخلال العصر الراهن للملكة الصليبية قام الملك الصليبي عمرى باعتباره كونت يافا وعسقلان بتحفيض الرسوم الجمركية المستحقة على التجار البيازنة إلى النصف في كل من مينائى يافا وأنطاكية. وفي إطار سلسلة امتيازات الجنوية في طرابلس وجبيل ، وصور ، وأنطاكية ، ادعى الجنوية أنهم يتمتعون باعفاء كامل من كافة الرسوم الجمركية. ومهما يكن من أمر فإنه لدينا صورة مختلفة لتفاصيل هذه الامتيازات . ويجب أن نضع في ذهتناحقيقة أن هذه الاعفاءات الجمركية في المينا كانت بمثابة مرحلة أولى فقط من مراحل الدخول إلى أسواق المملكة الصليبية (كانت هذه الاعفاءات خاصة بالواردات وخاصة برسوم العبور أو الترانزيت) ، أو كانت كمرحلةأخيرة بالنسبة لل الصادرات . ولكل تقدير كل الرسوم الجمركية المفروضة على المتاجر والسلع تقييماً كاملاً فإنه يجب علينا أن نضيف تلك الرسوم والضرائب التي كانت تفرض على التجار عند بوابات المدينة وضريبة الأسواق . وفي بعض الحالات كان يتم اعفاء الكوميونات التجارية الإيطالية من هذه الرسوم الجمركية، وفي حالات أخرى كانت تخضع هذه الرسوم إلى النصف، وثمة مثال جيد لأجمالي الاعفاء الجمركي الذي قطع به التجار البنادية بموجب الامتياز الذي منحه لهم الأمير الصليبي كونراد مونترفات في عام ١١٩٢، أو الاعفاء الذي منحه لهم يوحنا الإبليني سيد بيروت في عام ١٢٢٩ . وهكذا وبالإضافة إلى الاعفاءات الجمركية في المينا فإنه قد تقرر بوضوح أن المتاجر التي تباع في أسواق بيروت سوف تعفى من الضرائب . وشملت قائمة السلع المغفاة من الضرائب: القطن ، والحرير ، والملابس الحريرية ، والفلفل ، والبخور ، والسكر ، وكل أنواع البهارات ، والنيلة المستخدمة في صناعة الأصياغ ، والصوف ، والملابس الصوفية ، والملابس الكتانية ، واللؤلؤ ، والأحجار الكريمة ، والأواني الزجاجية ، والصابون . وفي تلك الآونة أيضاً وفي عام ١٢٢٣ حصل الجنوية على امتيازات تجارية في مدينة بيروت ويمقتضي هذه الامتيازات أعني هؤلاء التجار الجنوية من كافة الرسوم المستحقة على القيشانى ، والنبيذ ، والزيوت . ومن ناحية أخرى، فإن البيازنة (ووفقاً للامتيازات التجارية التي حصلوا عليها في أعوام ١٢١٠ ، ١٢١٦ ، ١٢١٦م) دفعوا نصف الرسوم المستحقة على متاجرهم الشخصية في مينا ، أنطاكية . وبموجب الامتيازات التي منحها هنرى الشمباني للجنوية في صور بات على تجار جنوا دفع الرسوم الجمركية المستحقة

كاملة على الواردات التي يجلبها هؤلاء التجار من بلاد المغرب (البرير) ، ومصر ، ومن مناطق الشرق الإسلامي ، ومن أسواق القسطنطينية ، بيد أن تجارة المرور (الترانزيت) للجنوبية كانت معفاةً كاملاً من الرسوم الجمركية. وفي منتصف القرن الثالث عشر الميلادي تقع التجار البنادقة بنفس الوضع السابق في مدينة صور ، فقد كانت قيمة الرسوم المفروضة على السلع والبضائع المستوردة من دمشق أو من أي مركز إسلامي آخر تبلغ $\frac{9}{3} \%$ وكانت نفس النسبة تفرض على الواردات البندقية . وكانت التجار التي تنقل من مينا عكا إلى البندقية تفرض عليها رسوم جمركية قيمتها $\frac{4}{3} \%$ وتزداد هذه النسبة قليلاً لتصل إلى $\frac{5}{3} \%$ في حالة نقل التجار من البندقية إلى دمشق أو إلى منطقة إسلامية أخرى.

وعلى الرغم من تسليمنا بأن المينا ، كان يتعامل فقط مع الصادرات والواردات ، فإننا قد سمعنا أن الأمير الصليبي يوحنا دي بيرين Jean de brienne قد ألغى التجار الشوام الذين كانوا يقطنون إلى الملكي في مدينة صور من الرسوم الجمركية التي كانت تدفع في المينا - مما ألحق الضرر المادي بالبنادقة - وقد أدى هذا إلى انتقال التجار الشوام من إلى الخاص بهم في مدينة صور إلى إلى الملكي في مدينة بيت المقدس.

هـ- الفندق والأسوق المحلية

لقد قسم مؤرخ القرن الرابع عشر الميلادي الشهير فرانسيسكو بيوجولوتى Francesco Balducci Pegolotti وقد قسم مؤرخ القرن الرابع عشر الميلادي الشهير فرانسيسكو بيوجولوتى- Fondacin piu Lingue

Bazarro erabo in genovesco	الأسوق العربية في جنوا
----------------------------	------------------------

Fondacin piu Lingue	الفندق في بيولونجو
---------------------	--------------------

Fonda in Cipri	الفندق في قبرص
----------------	----------------

Alla in fiammingo	في فيامنجر
-------------------	------------

Sugo in Saracinesco	الرضاعة عند المسلمين
---------------------	----------------------

Fiera in Toscanae in piu linquaggi.	
-------------------------------------	--

Panichiero in grechesco	
-------------------------	--

والواقع أنه ثمة شعور عام بأن مؤسسة السوق مهما تعددت أسماها في اللغات العالمية المختلفة فإن السوق يعني رابطة ومكان لجتماع التجار وملتقى لهم لكن يمارسوا فيه أعمال

البيع والشراء. فالسوق مهما تعددت مسمياته فإنه سيظل المكان الذي تباع فيه المتاجر والبضائع في المدن الصغيرة والمدن الكبيرة والقلاع . وأيضا هو المكان الذي تباع فيه كل أنواع المأكولات وال حاجيات التي يحتاج إليها الإنسان في حياته اليومية ، وكذلك بيع وشراء الحبوب والدواجن. إذ كانت بعض الأسواق تعقد بصفة دائمة (الأسواق الدائمة) ، وبعض هذه الأسواق كانت تعقد في أوقات محددة من أيام الأسبوع أو الشهور أو السنة (الأسواق المؤقتة) . ومع ذلك ، فإن مؤسسة السوق بشكل عام اختلف دورها ونشاطها من مكان إلى آخر. وكان هناك خط فاصل بين الأسواق الدائمة والأسواق الموسمية. وقد أشار بيجولوتى Pegolotti إلى إحدى الخصائص الرئيسية التي تميز الأسواق الصليبية، معنى أن أبرز سمات الأسواق الصليبية هو ديمومتها أي أنها كانت أسواقا دائمة .

فقد كانت كل مدينة صليبية تضم مركزا تجاريا من أجل تلبية احتياجات السكان المحليين الحياتية. وكان هذا المركز يعرف باسم الفندق وأحيانا كانت منطقة الفندق عبارة عن رحبة واسعة Plathea أو شارع Rue ، وهذه تطابق كلمتى Piazza في اللغات الحديثة. لقد كان الفندق عبارة عن ميدان غير منتظم الشكل تحيط به المباني، ذات المراتضيّة بين المنازل التي تعلوها طوابق عليها في حين كانت الطوابق السفلية من هذه المنازل تستخدم كحوانيت مزودة بمصاطب تعرض فوقها البضائع والسلع ، في حين كانت الأدوار العليا من المنازل تخصص لإقامة وسكنى التجار أو كمخازن ومستودعات لتجار هؤلاء التجار الوافدين، وكانت بعض شوارع الأسواق مسقوفة لحماية روادها من حرارة الشمس أو من المطر. وسقف بعض هذه الشوارع بقمash متين يمكن فكه وتركيبه وفقا لحالة الطقس.

وفقا للنظام الشائع في الأسواق الأوروبية فإن هذه الأسواق الصليبية كانت تتخصص في بيع وشراء نوع معين من البضائع والمنتجات أي أنها كانت أسواقا نوعية وتلك سمة كانت تميز الأسواق الصليبية، وثمة سمة أخرى لهذه الأسواق وهي أنها أقيمت وفقا للأصل العرقي أو الدينى للتجار. وعلاوة على ذلك فإن التركيب السياسي للمدينة كان مسئولاً عن تعدد المراكز التجارية بها، ووُجِدَت هذه المراكز التجارية وفقا لتنوع القوى السياسية والاجتماعية بها.

كانت التجارة المحلية تتعامل مع المأكولات والأطعمة ومنتجات أرباب الحرف المحليين ، هذه المأكولات والأطعمة كانت تشمل : الحبوب، والزيوت ، والنبيذ، والخضروات (نظرا لحجمها الكبير واحتاجها إلى نقل) إذ كانت هذه الأطعمة والمأكولات تنقل من الشوارع الضيقة للأسواق

إلى أماكن أكثر اتساعاً . وهكذا فإن السوق في مدينة بيت المقدس كان عبارة عن ميدان فسيح يقع إلى الشمال مباشرة من البوابة الرئيسية للمدينة والقريبة من القلعة ، وكان هنا السوق مخصصاً لبيع الحبوب . وكان موقع هذا السوق يسهل عملية النقل وعملية تحصيل وجباية ضرائب السوق عند القلعة .

وما يذكر أن السوق كان يمثل المركز التجارى الثانى الضخم في مدينة بيت المقدس . وكانت البهارات والفاكهه من السلع الأصغر حجماً والأعلى سعراً ، وكان لها سوق خاص ضمن التقسيمات النوعية لهذا السوق، إذ كان سوق البهارات والأعشاب الطبية في مدينة بيت المقدس عبارة عن شارع مسقوف يعرف بشارع الأعشاب ، والذي كان يباع فيه كل أنواع البهارات والفاكهه . وكان شارع الأعشاب (سوق البهارات) يتقابل مع سوق السوق الذي ينبع صوب ساحة واسعة تعرف بسوق الدجاج الذي يعرض فيه كل أنواع الطيور والدجاج ، والبيض ، والجبن . وكانت التقسيمات الأخرى للسوق تشمل شارعاً يضم الطعام التي تتبع المأكولات والأطعمة المطهية وكذلك بيع الأقمشة . وهذه المنطقة الثانية من السوق والتي ضمت الطعام ومحلات بيع الأقمشة والتي ذكرناها آنفاً كانت تقع بالقرب من كنيسة الضريح المقدس عند ملتقى شارعي المدينة المقدسة الرئيسيين (وهما الشارعان الممتداان من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب وللذان يقسمان المدينة) . وكانت منطقة السوق الثالثة تقع بالقرب من منطقة المعبد ، حيث تجاور حائط المبكى . وهنا كان يوجد سوق الماشية (كان سوق الماشية في المنطقة الغربية يضم عدداً من الأغنام أكبر من عدد الشيران) والذي كان يوجد على مقرية من سلخانة ومدبقة المدينة .

ولاشك أن هذه المراكز التجارية (الأسواق) في المناطق العربية التي احتلها الصليبيون في بلاد الشام وفلسطين لم تكن وليدة الحقبة الصليبية ، ولكن هذه الأسواق كانت موجودة في هذه المناطق قبيل الحروب الصليبية ، وثمة سبب يجعلنا نفترض مثل هذا . ومن المحتمل أن المسيحيين الشرقيين قد احتفظوا بالتقاليد الطبوغرافية للمدينة العربية ونقلوا هذه الطبوغرافية إلى المستعمرين والمستوطنين الصليبيين الجدد . وكانت مثل هذه الواقع وتخفيطات المدينة ملائماً ومتيناً ومن ثم طبق الصليبيون هذا التخفيط في المدن التي احتلوها . وما زالت بعض هذه المدن تحتفظ بتحفظها حتى عصرنا الحالي .

وهكذا أنشى ، في مدينة بيت المقدس مراكز تجارية وأسواق وفق الاحتياجات الاقتصادية

فقط. ومع ذلك ، فقد كان الصيارة الشوام واللاتين يجلسون على طاولاتهم الخشبية الممتدة على جانبي السوق عند نهايته ، ويبدو أن التقسيم العرقي للسكان لم يؤثر البتة في عملية التسويق بشكل عام، وهكذا كان من البسيط تحصيل مختلف أنواع الضرائب في الأسواق .

ولم يكن تحصيل ضرائب السوق هو الشكل الأوحد فقط لتنظيم مؤسسة السوق . فقد كانت مدينة بيت المقدس مدينة داخلية ومن ثم فإن رسوم البوابات وضرائب السوق كانت كافية للسيطرة على حجم كافة التجار والسلع التي تصل إلى أسواق المدينة عبر البوابات . ونمةحقيقة مهمة مؤداها ، أنه بالرغم من وجود حى البطريرك المتمتع بالحكم الذاتى فى مدينة القدس ، فإنه لم تكن هناك منطقة فى المدينة تعمت باعفاء تجاري. فقد كانت الأسواق الصليبية فى مدينة القدس أسواقا ملكية . وكانت المؤسسات الكتيسية تتلك الكثير من الأماكن ، مثل الحوائط ، أو الطاولات الخشبية فى الأسواق ، أو أفران المدينة . وكانت هذه الأماكن تケفل مورداً مالياً لأصحابها من عائد الإيجارات بيد أن ذلك لم يعنى الناجر من دفع ضرائب السوق المستحقة على متاجره لسيد المدينة.

وقد وجد مثل هذا الوضع أيضاً في مدينة بيروت . فلم يمنع أبناء أسرة أبلين الصليبية امتيازات إقليمية لأى تاجر أجنبي، على الرغم من أنهم كانوا أكثر سخاءً في منحهم الامتيازات التجارية. وهنا نلقى الضوء مرة ثانية على سوق ينتمي إليه أمير صليبي تباع فيه بضائع وسلع مختلفة في الإمارة الصليبية كانت تخصص له مناطق محددة. ولا يمكن أن نعزّز وجود مثل هذه الأسواق في الإمارات الصليبية إلى حاجة المجتمع العادية وهو المجتمع الذي كان يضم أناساً جاءوا من أماكن شتى وعملوا في حرفة واحدة (وفي حالات كثيرة كان التجار أيضاً منتجين) ولكن وجود مثل هذه الأسواق كان وثيق الصلة بالاشراف الإداري الحكومي في الإمارة. فقد كان مراقب السوق ومعاونه . يمارسون سلطة الالشراف على الأسواق، عرف هذا المراقب باسم المحتسب . وكان من التزامات المحتسب الرقابة على الموازن والماكييل والمقاييس وفحصها والتأكد من دقتها من أجل تحقيق العدالة العامة، وأيضاً من أجل تحقيقفائدة للخزانة الحكومية للأمير الصليبي. كانت موارد الدخل للخزانة الملكية أو الأميرية الصليبية تشتمل نوعين مختلفين من الرسوم المستحقة على الأسواق الأول: هو ضرائب السوق المفروضة على التجار والتجار، والنوع الثاني هو المقابل المادي نظير استخدام المقاييس والموازن الحكومية في السوق. ومن الطبيعي أن الموازن والماكييل كانت تستخدم في تقدير نفع محدد

من المتاجر . ولهذا كان يائعوا مثل هذه المتاجر والسلع بثابة مجموعه واحدة . لقد كانت الموازين والمكاييل المستخدمة فى الأسواق احدى الأشكال الدائمة لامتيازات السوق التى تمنع بعض التجار الأجانب ، وكانت هذه الموازين والمكاييل تدون فى قائمة تشمل الاحتكارات الملكية أو الأميرية والتى كانت بثابة الحقوق المحرمة على الآخرين . فقد حددت احدى المعاهدات التى عقدت بين البنادقه والمحاكم الصليبيين امتيازات التجار البنادقه والتى شملت حرية استخدام الفرن ، والطاحونة والحمام ، والموازين وخاصة المكاييل ، ومكاييل السوائل (قفيز الحمر) المصنوع من الجلد المستخدمة فى تقدير النبيذ ، والزيوت ، وعسل النحل ، وذلك فى المدى البندقى . وكان يفرض على التجار استخدام المكاييل والموازين الملكية ، الأمر الذى يسر الاشراف الحكومى على التجار والأسواق ، كما كان التجار لهذه المعايير التجارية يدر دخلا للسلطات الصليبية من الرسوم التى كان يدفعها هؤلاء التجار .

وفي الغالب كانت هذه المقاييس والموازين والمكاييل الصليبية تختلف فى الشكل والقيمة عن الموازين والمكاييل العالمية ، وكان هذا الأمر مأولاً وعادياً بالنسبة للاحتكارات الحكومية الأخرى سوا الحكومة الملكية الصليبية أو السلطة الأميرية الصليبية . وهكذا فإن قائمة جرد السلع والبضائع التى تتعلق بمدينة صور توضح رسوم استخدام هذه الموازين والمكاييل الحكومية الصليبية والتى بلغت ما يقرب من ١٩٠٠ بيزنت سنوياً . فقد بلغت رسوم استخدام المكاييل (المكاييل الخاصة بالحبوب ، والنبيذ ، وزيت الزيتون) ٣١ بيزنت سنوياً . وسمعنا أن السلطات الصليبية كانت تحترك بيع الأدوات الموسيقية مثل: الطبول ، والسلامية Flageolet ، وألة الطمبور الموسيقية ووصل حتى هذا الاحتكار إلى مبلغ ٥٠٠ بيزنتا سنوياً ، وبلغت الالتزامات المفروضة على الجزائريين وبائعى لحم الخنزير مقابل استخدامهم للموازين الحكومية ٤٠٠ بيزنت سنوياً ، وفرض على باعة الزجاج مبلغ ٣٥ بيزنتا ، وعلى باعة زيت السمسم ١٦٠ بيزنتا ، وعلى باعة السمك ٧٠ بيزنتا سنوياً ، وعلى باعة الليمون ١٦٠ بيزنتا سنوياً ، وعلى باعة النبيذ ٢٢ بيزنتا ، وباعة اللبن ٢٠ بيزنتا سنوياً .

لقد اقترنرت عملية استخدام المكاييل والمقاييس الحكومية الصليبية بدفع مبالغ محددة نظير استخدام هذه المعايير التجارية وهكذا أصبحت هذه المعايير التجارية موضع امتياز تنهى الحكومة لمن تشاء من التجار . فقد حصل البنادقه فى مدينة صور على حق استخدام مكاييلهم وموازينهم الخاصة فى حالة تعاملهم التجارى مع أبناء جلدتهم أو عندما يبيعون متاجرهم

وسلعهم لتجار آخرين، في حين فرض عليهم استخدام المكاييل الملكية الصليبية عندما يشترون سلعاً ويصانع من التجار الآخرين . وفي مدينة صور منع كونراد مونتفرات في عام ١١٨٧م امتيازاً للتجار البيازنة . وفي بيروت منع يوحنا الإبليني امتيازاً للتجار الجنوية وكان هذا الامتياز عبارة عن تخفيض رسوم استخدام مكيال الجرة المستخدم في أسواق بيروت وهو عبارة عن دفع بيزنت واحد عن استخدام مكيال الجرة أو دفع مكياليين من الحبوب، بيد أن هذه الرسوم المستحقة نظير استخدام هذه المكاييل الصليبية كانت تزداد إلى الضعف في حالة الاستفادة عنها وكان مشرف الأسواق (المحتسب) الحكومي يفرض هذه الرسوم المرتفعة.

الواقع أن العوامل الاقتصادية والاجتماعية لم تكن هي العوامل الوحيدة التي ساهمت في تشكيل سمة المدينة الصليبية. بيد أن المظاهر الاقتصادية للامتيازات السياسية كان لها أهميتها الكبرى في تشكيل المدينة الصليبية. وهكذا فإن الامتيازات التجارية التي تمنع بها الكومونات التجارية الإيطالية وبعض التجار الأوروبيين الآخرين في مدينتين رئيسيتين من مدن الملكة الصليبية (صور - عكا) بصرف النظر عن العاصمة (القدس) قد خللت نمطاً مختلفاً ومعقداً من التنظيم التجاري. ووُجِد في مدينة صور حي للتجار البنادقية يتمتع بالحكم الذاتي، وكان هذا الحي يضم منطقة للسوق ، ووُجِد للبنادقية أيضاً فندق بجوار الفندق الملكي في مدينة صور . وكان لكل سوق من أسواق الكومونات في المدينة موازنه ومكاييله الخاصة به، وأيضاً مشرفيه والضرائب الخاصة به. وكان كل كوميون تجاري يفرض على سكان الحي الخاص به بعض المحظورات . وهذا يفسر لنا النتيجة التي تمخضت عن مبادرة يوحنا دي بربن الخاصة باعفاء السكان المحليين الشوام القاطنين الحي البندقى من الضرائب والتي تسببت في هجرة هؤلاء السكان من الحي البندقى إلى الحي الملكي.

وما يذكر أن الوضع في مدينة عكا كان أكثر تعقيداً . وعلى الرغم من أن الميناء في عكا ظل خاضعاً للسلطة الملكية فإن السوق الملكي في عكا قد اختفى نشاطه تدريجياً. ومن بين مئات الوثائق التاريخية التي تبحث في الشؤون التجارية في مدينة عكا نجد وثيقة واحدة فقط تشير إلى السوق الملكي (الفندق الملكي) ومع ذلك فإن هذه الوثيقة لم تحدد مكان هذا السوق بشكل دقيق. وهذا الغموض في تحديد مكان السوق الملكي في عكا لم يكن يعني أن المركز التجارى في المدينة غير مهم. ولكن يجب على المرء أن يفترض عكس ذلك تماماً أي يفترض أهمية السوق كمركز تجاري في مدينة مثل عكا كان يصل عدد سكانها في تلك الآونة إلى

حوالى ٣٠٠٠ نسمة في نهاية القرن الثاني عشر الميلادي وبعد هذا التاريخ بخمسين سنة وصل عدد سكانها إلى ضعف هذا العدد . وتشير عدم أهمية السوق الملكي الصليبي وتجاهله في مدينة عكا إلى الأهمية الملحوظة للأسوق الستة المستقلة التي مارست نشاطها التجارى في هذه المدينة . فقد كانت الأحياء الإيطالية (الحي البندقى - الحي الجنوبي - الحي البيزى) في مدينة عكا تضم أسواقاً وتبعهم في هذا المجال أيضاً التجار البروفنسال تحت ادارة تجارة مرسيليا . ويبدو أن الهيئات الدينية العسكرية (الداودية - الاستبارية - التيتون) كانت بها أسواقها الخاصة في تلك المدينة الملكية (عكا) ، وما يؤكد ذلك أن المؤرخ الشهير بيغولوت قد ذكر أن أعضاء هذه الهيئات الدينية العسكرية كان يستخدمون موازينهم ومكابيلهم الخاصة . ومن الطبيعي أن كل هذه الأسواق لم تكن تعرض كل أنواع السلع والبضائع ، ولذا فإنه من الناحية الوظيفية أيضاً لم تتدبر الأسواق المختلفة . بيد أن العامل الإداري الحكومي كان قوياً بحيث ساهم في تركيز الحياة الاقتصادية للمجتمع الصليبي في هذه المدينة . وفي هذا الإطار يجب علينا تصور وتخيل الرسوم الجمركية اللاقعة للنظر التي كانت تفرض في مينا عكا . ويصرف النظر عما إذا كان قد فرض على السكان من غير اللاتين الإقامة في حي خاص بهم أو فرض عليهم ممارسة النشاط التجارى في سوق خاص بهم ، فإنه من الواضح أن القانون الملكي الصليبي الخاص باعفاء التجار الشوام القاطنين الحي البندقى في عكا كان يهدف إلى تحصيل عائد مالى من الالتزامات والرسوم التي يدفعها هؤلاء السكان والتجار من غير اللاتين ، وكان هذا الإجراء يشهد بذلك الاجراء الذي اتخذه يوحنا دي بيرين في مينا صور .

والحقيقة أن أوجه الشبه بين المينا التجارى والسوق كانت دائمةً غير واضحة . ومن المسلم به أن المينا التجارى كان بمثابة السوق ولم يكن فقط مكاناً لتحصيل الرسوم الجمركية . إذ كان المينا تتجمع به الصادرات والواردات فقط ، بينما كان السوق يخصص للتجارة المحلية . والواقع أن هذا لم يتتأكد بشكل يقيني قاماً . وإذا كان النساجون الشوام قد حصلوا على اعفاء من دفع الرسوم الجمركية في مينا عكا بوجوب القانون الملكي الصليبي فإنهم مع ذلك كانوا يدفعون الرسوم وضرائب السوق في الحي البندقى في عكا ، وهكذا ساءت العلاقات بين سلطات الحي البندقى والنساجين الشوام وتعقدت الأمور بينهما بشكل كبير .

كان أبرز ما يميز الأسواق المحلية هو حجمها الصغير وديموتها (أسواق دائمة) . وإذا كان هذا يعكس التقليد الشرقي القديم واقتصاده التقديري ، فإن هذا أيضاً كان نتيجة للعوامل

السكانية (الديموغرافية) التي كانت تيز المجتمع الصليبي، يعني أن بنية هذا المجتمع كانت ذات شكل متحضر، فلم يستطع أفراد طبقة النبلاء الصليبيين الحصول على كل سبل رزقها ومعاشرها من عائدات أراضيهم الزراعية. وتلك حقيقة جزئية فقط إذ أن الذين لم يحصلوا على رزقهم كاملاً من عائدات أراضيهم وأملاكهم الزراعية هم عدد قليل من صغار الفرسان فقط. في حين كان الآخرون من صغار الفرسان يحصلون على اقطاعات نقدية، على الرغم من أن هذه الاقطاعات النقدية كانت تشمل أحياً الأوقاف الكنسية العينية - مثل القمح، والزيت، والنبيذ. ولذا كان معظم أفراد طبقة النبلاء الصليبيين يشترون احتياجاتهم من الطعام والكساء من أسواق المدينة. وقد شاركهم في ذلك أفراد طبقة البرجوازية وتجار الكومونات الإيطالية ، الذين حرموا من امتلاك الضياع الاقطاعية بوجوب القانون الاقطاعي الصليبي على الرغم من امتلاكهم الخدائق والبساتين . وهكذا يمكن القول إن السكان الصليبيين بشكل عام كانوا مستهلكين حيث اعتمدوا على الإمدادات الخارجية من الطعام دون الحاجة المباشرة إلى موارد دخلهم.

لقد كانت الزراعة في المناطق الصليبية تلبى احتياجات السكان الصليبيين من الطعام. والحقيقة أن عدم تطبيق نظام الضياعة في المناطق الزراعية في المناطق الصليبية في بلاد الشام وفلسطين وجود الاقطاعات النقدية والذي ساهم بقدر كبير في عدم تقسيم الاقطاعات والأراضي الزراعية قد أدى إلى وفرة الانتاج الزراعي لدى كل من طرف المجتمع الصليبي وهذا السادة الاقطاعيين والأتباع الاقطاعيين (النبلاء - الفلاحون) . إذ كان كبار النبلاء والlahون يختزنون كميات من الحبوب الزائدة عن احتياجاتهم (وذلك لمواجهة سنوات القحط أو سنوات الفيضان التي يقل فيها المحصول) . وبعد أن ينتهي النبلاء من ملا مخازنهم بالحبوب التي تكفى احتياجات عائلاتهم لمدة عام وبعد أن يحل موسم الزراعة الجديد، كانت عائلات الملك الصليبي والنبلاء يعرضون فائض منتجاتهم الزراعية للبيع في أسواق المدن الصليبية. وكان هذا الوضع أيضا ينطبق على المؤسسات الكنسية ، وذلك لأن المؤسسات الدينية الكنسية كانت تحوز أملاكاً اقطاعية ومتلكات كنسية عن طريق المنح والهبات . فقد كانت الموارد الكنسية وضريبة العشور تكفي لتلبية احتياجات جميع رجال الدين الكاثوليك في المملكة الصليبية ، وكانت مخازن الكنيسة الكاثوليكية في المملكة الصليبية تتلا بالحسبان والغلال ، في حين كان فائض هذا الانتاج يعرف طريقه إلى الأسواق. ويتردد المرء كثيراً في

التسليم بأن الهيئات الدينية العسكرية (الداوية- الاسبتارية- التيوتون) كان تخزن فائض انتاج أراضيها في القلاع لكي يكون بمقابلة مئونة احتياطية تكفي لمدة عام أو أكثر . وسبب هذا التردد هو أن أعضاء هذه الهيئات الدينية العسكرية كانوا يستوردون الحبوب المغذية من الرسوم الجمركية من أوروبا لكي تلبي احتياجاتهم من الطعام. إذ كان مقدمو هذه الهيئات الدينية العسكرية يحصلون على ايجارات نقدية تبلغ قيمتها $\frac{3}{4}$ أو $\frac{1}{2}$ قيمة المحصول الذي ينتجه الفلاح الذي يزرع الأرض التابعة لها . وعلى الرغم من أن السنوات العادلة لم تكن تشهد وفرة في الانتاج الزراعي فإن هذا كان يفرض عليهم أن يدخلوا الكمية الزائدة عن احتياجاتهم هم وأبنائهم . وإذا كانت المعاهدة التي عقدت بين الملك الصليبي وأمراء دمشق المسلمين بشأن أرض السواد التي تقع في الشمال الشرقي من دمشق قد اشترطت على أن يتقاسم الصليبيون والمسلمون انتاج هذه الأرض فيحصل الصليبيون ثلث المحصول، ويحصل أمراء دمشق على الثلث الثاني، في حين يحصل المزارعون على النصف الثالث، وهو الثلث الذي كان يجب أن يكفي اعاشرة الفلاحين المحليين الذين كانوا يزرعون هذه الأرض . وما ذكرناه آنفا لم يزد عن كونه دليلاً مادياً، بيد أن هذا الدليل المادي يشير إلى حقيقة أن أسرة الفلاح التي فقدت ثلث المحصول تستطيع أن تبيع $\frac{1}{4}$ كمية المحصول التي تحصل عليها . وكان من الطبيعي أن يتم تخزين الحبوب اللازمة لتقاوی الموسم الزراعي القادم أو الازمة لمواجهة الحاجة والعزف في أعوام القحط والجفاف وهلاك المحصول ، وكان هذا الإجراء الاحتياطي يصيب الفلاح بالفلاس . لقد كان على الفلاحين الحصول على حاجاتهم من التقاوي والحبوب اللازمة لموسم البذر والزراعة من سادتهم الاقطاعيين . وهذا اعتمد احتياجات المجتمع المضرى من الغذاء والطعام على ما تفله وتنتجه ضياع النباء والقرى التي لم تخضع لنظام وكان هذا يشكل اطار الصعوبات الاقتصادية التي واجهت الملكة الصليبية في عمرها الثاني . وباستثناء فترات قصيرة فإن الملكة الصليبية قد انحصرت وانكمشت في شريط ساحلى على شاطئ البحر المتوسط . وانكمشت مساحة الملكة إلى ثلث مساحتها السابقة (دون أن نضع في اعتبارنا مساحة النقب وهي المنطقة التي تقع خلف حبرون وذات المساحة الزراعية الصغيرة) وكذلك منطقة ما وراء نهر الأردن . والحقيقة أن الاحصائيات لم تكن كافية لكي تؤكد حجم مشكلة الطعام . والواقع أن تقلص مساحة الملكة الصليبية وفقدانها الكبير من المناطق في أعقاب معركة حطين الشهيرة قد أثر سلبياً على مناطق الزراعة في الملكة حيث تقلصت مساحة الأراضي الزراعية الخاضعة للسيادة الصليبية ، فالمعروف أن الملكة

الصلبية فقدت مدننا كثيرة مثل بيت المقدس ، وثلاث مدن صغيرة مثل نابلس ، وطبرية ، والنصارة . وعلى الرغم من استرداد صلاح الدين هذه المدن فإن شطراً من سكانها الصليبيين الذين بقوا على قيد الحياة هاجروا إلى مدينة صور حيث سمح لهم صلاح الدين بمقادرة هذه المدن والذهاب إلى صور ، وبعد الحملة الصليبية الثالثة توجه بعض السكان الصليبيين إلى مدن أخرى . وهكذا فإن المدن الساحلية لم تفقد سكانها الصليبيين . وبالإضافة إلى ذلك ، فإن هجرة السكان الصليبيين قد تركزت في هذه المراكز الحضرية فقط . واعتمد المجتمع الصليبي الأكبر تحضراً والذى ساءت أوضاعه في غذائه على ما ينتجه شريط ساحل ضيق من الأرض الزراعية . وظلت حاجة هذا المجتمع إلى الطعام مستمرة في حين تناقصت الإمدادات من الطعام بشكل كان ينبع بالكارثة . فلم يستطع كل من النبلاء الصليبيين والمؤسسات الكنسية أن تبيع منتجات أملاكهم الزراعية المتقلصة ، وثمة حقيقة واضحة تؤكد ذلك وتتمثل هذه الحقيقة في تلك الشكوك التي جأ بها الأمير الصليبي يوحنا دي بيرين سيد بيروت والذي لم يجد مورداً مالياً غير أملاكه في قبرص لكي يحصن مدينة بيروت . وقائماً كان السكان الصليبيون في المدن الساحلية يعتمدون في تلبية احتياجاتهم من الطعام على ما ينتجه أقاليمها السابقة التي خضعت للسيادة الإسلامية ، ولكنهم اعتمدوا بشكل أكبر على ما ينتجه الفلاحون المحليون في الشطر الشرقي من المملكة الذي كان خاضعاً للسيادة الإسلامية . والحقيقة أنها لم تستطع أن تحدد طبيعة العلاقات بين شطري المملكة الصليبية في عمرها الثاني ، بيد أنها تستطيع أن تسلم بشكل يقيني بأن هذه العلاقات كانت أكثر فتوراً عن سابقتها بين الشطرين في أثينا ، المملكة الصليبية في عمرها الأول . وبكفى دليلاً على ذلك ، أن المدن الصليبية في تلك الآونة قد اعتمدت في طعامها على الواردات التي كانت تأتي من كل من جزيرة قبرص ، أو من أرمينيا وأوروبا .



الفصل السابع عشر

الفنون

أ- العمارة الدينية

ب- أعمال النحت

ج- المنمنات وزخارف المخطوطات الذهبية والفضية

د- أعمال المزاييد والفصيñas، والرسومات والفنون الصفرى.

أ- العمارة الدينية

ومنذ سبعة قرون مضت كان على كل حاج أوربي يغادر وطنه إلى الأراضي المقدسة في فلسطين أن يشق طريقه من عكا صوب مدينة القدس أو صوب مدينة الناصرة وعندها كان الحاج المسيحي الأوربي يشعر بالطبيعة الغريبة ولاسيما عندما كان يجتاز القرى العربية الإسلامية في هذه المناطق ، بيد أن هذا الحاج عندما يصل إلى المدن كان يرى أشياء وأشكالاً مألوفة تذكره بوطنه حيث كانت القباب والمآذن العالية تغطي سماء الشرق . والحقيقة أن الأمور الغربية التي كان يجدها الحاج الأوربي كانت تمثل في دعاء المؤذن المتقطع من أجل تأدبة الصلاة في الكنائس وصوت هذا المؤذن العجيب الذي كان يختلط بصوت أجراس الكنائس . وعلى الرغم من أن المدن العربية كانت مسورة ومزودة بالحصون والقلاع القوية فإنها كانت تقسم إلى أشكال غريبة ، إذ كانت تضم الكنائس والأديرة والكنائس الصغيرة وهي الأشياء التي كانت تذكر الحاج الأوربي بوطنه وكل هذه المباني والمنشآت الدينية كانت من الأمور المألوفة لدى رجال الدين اللاتين حيث كانوا يؤدون طقوسهم الدينية اليومية بها.

وحتى الآن لم توجد فترة في التاريخ الطويل للأراضي المقدسة في فلسطين مثل هذا النشاط الواسع في البناء والتشييد مثلما شهدته حقبة الوجود الصليبي في فلسطين وبلاط الشام ، فلم يقم الإمبراطور الروماني هيرودوس بتشييد مبانٍ كنسية أكثر مما شيد خلال العصر الصليبي ويبعد أن الأسباب التي كانت وراء الحاجة الملحة لوجود مثل هذه البناءات والعمائر الدينية كانت معقدة وإن كانت حركة التدفق السكاني الواسعة من الغرب الأوربي إلى منطقة الشرق العربي الإسلامي في فلسطين وبلاط الشام هي التي حدّت بشكل أساسي مجال ونطاق حركة

التشييد والبناء الديني في هذه المناطق ، فلم تكن هناك حاجة كبيرة لتشييد المساكن الخاصة وذلك لقيام الصليبيين بطرد سكان مدن هذه المناطق ، هؤلاء السكان الذين هجروا مساكنهم وبيوتهم ، واستطاع الغزاة الصليبيون بصعوبة ملئ هذه المدن العربية الشاغرة التي هجرها سكانها في أثناء الغزو. وكانت المساكن العامة تمثل مشكلة مختلفة . فقد تحول عدد كبير من المساجد والقصور إلى كنائس وأماكن لإقامة طبقة النبلاء الصليبيين ، بيد أنه أصبح هناك حاجة متزايدة للبناء وذلك لأن المعارين الصليبيين والحجاج المستوطنين الجدد أرادوا أن يعيدوا تأسيس وطن جديد يشبه إلى حد ما وطنهم الأم في تلك المناطق المقدسة التي تحمل الذكريات الدينية المسيحية ، وفي حين كانت الكنائس ، والأديرة ، والقلاع والخصون بشابة هيكل خارجي لم ينافسها في التميز فبأن الشيء الملاحظ والمألوف هو ما احتوته هذه المباني من أعمال فن النحت والرسم والفصيحة ، هذه الأعمال الفنية التي أضفت على هذه المباني عناصر الأبهار والجمال وأصبح لها وظيفة جمالية بالإضافة إلى وظيفتها الدينية.

وكما ذكرنا في موضع آخر ، فقد ظلت التحصينات للمدن (المدن المحسنة) من الإنجازات البارزة في منطقة الشرق العربي الإسلامي (عالم ما وراء البحار) ، ولكننا سوف نركز على العمارة غير العسكرية أي العمارة الدينية . فقد كانت الكنائس والأديرة التي شيدت، أو التي سلبها الصليبيون من المسلمين كالمساجد التي حولها الصليبيون إلى كنائس تعكس الاحتياجات الروحية لهذا المجتمع الصليبي الجديد ، وكانت الخدمات الكنسية على رأس المطالب التي احتاجها السكان الصليبيون من الناحية الدينية، إذ كانت كل مستوطنة صلبيّة تتطلب بوجود كنيسة بها . وبالإضافة إلى ذلك فإن رجال الدين (الكهنوت) في المملكة الصليبية والتي كانت أعدادهم كبيرة نسبياً بالنسبة لقطر فقير في الموارد - الذين ارتبطوا بروطأة التقاليد والتاريخ فإنهم قد قسموا الأسقفيات والكنائس الكبرى (الكاتدرائيات) وفقاً للتقسيمات البيزنطية القديمة . وعلاوة ذلك ، فإن الهيئات الدينية العسكرية: الاسپيتارية ، والداوية ، وفرسان التيوتون ، وفرسان القديس لازاريوس كانت لهم كنائس خاصة بهم . وكانت الأحياء الإيطالية (الحي البندقى- الحي الجنوى- الحي البيزاوى) في المدن الصليبية تضم كنائس خاصة يديرها ويشرف عليها رجال دين تعينهم المدن الإيطالية الأم (البندقية - جنوا - بيزا) ولدينا قائمة طويلة بأسماء كنائس شيدت وفقاً لنمذجة الاستيطان الصليبي ، وشيد عدد كبير من الكنائس على أساس النظام المؤسستي المحدد للمملكة الصليبية . وبالإضافة إلى ذلك، فقد ظهر عدد كبير من المنشآت والمباني الكنسية ويمكن أن نعزّز ذلك إلى ما نسميه :

«جغرافية الأرض المقدسة» . ووفقا لما يقرره العهد القديم (التوراه) أو الأبوكريفا*، فإن كثيرة من الأماكن في فلسطين قد اكتسبت قداستها من جديد أي أعادت اكتساب قداستها وتباهت هذه الأماكن لكونها موقعاً وموضعاً لكنيسة صغيرة، وليس كنيسة كبيرة ، حيث بات على الحاجاج الاتقياء الاجتماع بها للصلة في هذه الموضع المقدسة لنيل الغفران الكنسي. وقامت الجماعات الدينية الكنسية من رجال الكنيسة ومقدمي الأديرة بتشييد مبان لهم في المملكة الصليبية ، وكانت الجماعات الديرية تضم: هيئة القدس بندكت الديرية، وهيئة الفرنسيسكان، والدومينikan ، وكان من بين هذه الجماعات والهيئات الديرية والتي كانت أحدث زمنياً في الوجود طائف ديرية جديدة مثل هيئة رهبان الكرمل الديرية، وهيئة رهبان الروح القدس، ودير راهبات (الثائيات) القديسة ماري المجدلية... الخ.

ومن الواضح أن عدد الكنائس التي شيدت خلال فترة الوجود الصليبي في بلاد الشام وفلسطين كانت أكثر من الاحتياجات والمطالب الدينية للسكان الصليبيين . وعلى الرغم من أننا لم نستطع احصاء إجمالي عدد المباني الكنسية ، فإن بعض الحقائق والبيانات قد زودتنا بصورة واضحة عن وفرة هذه المباني الكنسية . وقد وصل عدد المستوطنات الصليبية خلال العصر الظاهر للملكة الصليبية حوالي مائة مستوطنة. وشملت هذه المستوطنات الصليبية مدنًا، وقرى، وقلاعًا وحصونا صغيرة ، وأيضاً أديرة معزولة . وبالمقارنة ، فإننا نعرف يقيناً أن مدينة عكا وحدها كانت تضم أربعين كنيسة ، وكانت مدينة بيت المقدس تضم ثلاثين كنيسة ، واشتملت مدينة صور ست عشرة كنيسة . ولاشك ، أننا عرفنا أعداد هذه الكنائس (والتي لا يشمل الكنائس الصغيرة) من خلال حجج وصكوك هذه الفترة. ومن المؤكد أن هذا العدد يمثل جزءاً صغيراً فقط من إجمالي عدد الكنائس.

والواقع أن حجم وفخامة الكنائس الصليبية لم يتلام مع أعدادها . وكان مستوى هذه الكنائس الصليبية المعماري (باستثناء كنيسة أو كنيستين) متواضعاً إذا ما قورن بالمستوى المعماري والجمالي للكنائس الأوروبية المعاصرة لها. ويمكن القول إن كنيسة الضريح المقدس ، وكنيسة الميلاد ، وضريح السيد المسيح وهيكل سليمان قد تميزن جميعاً بالفخامة والأبهة

* الأبوكريفا : هي الأربعين عشر سفراً تلحق أعياناً (بالعهد القديم أو التوراة) من الكتاب المقدس) (الترجم).

المعاربة ؛ بيد أن هذه الكنائس التي ذكرناها آنفاً تيزت بالطابع المعماري الصليبي، في حين تيزت كنيسة الميلاد في بيت لحم بالطابع المعماري البيزنطي. وما يذكر أن ضريح السيد المسيح وهيكل سليمان قد شيدا مكان مسجد عمر والمسجد الأقصى. وكانت الكنائس التي شيدتها الصليبيون في طرابلس وطرطوس كبيرة ، بيد أن هذه الكنائس كانت تقع فيما وراء حدود المملكة الصليبية. ومن المحتمل أن كثرة بناء الكنائس قد قرر مصير مملكتها . وكانت الكنائس الكبرى في مدينة القدس، وفي نابلس وفي عكا (احتفظت كنيسة الصليب المقدس في عكا بشكل نهائي) ضخمة ومتألقة ، بيد أن نفس هذه المدن أيضاً كانت تضم كنائس صغيرة تقدم خدمات دينية، وكانت تضم أديرة أو جماعات دينية إيطالية . وكانت الرغبة في اظهار مكانة ومنزلة الكنائس المشيدة تساهم في خلق منافسة (وهي المنافسة التي استعرت بين الهيئات الدينية العسكرية) بين الاحتياجات الحقيقة لكل طائفة من الطوائف والهيئات الدينية تلك الاحتياجات التي قررت مصير وحددت حجم وفخامة كنائسها.

وما يذكر أن معظم المنشآت المعمارية الدينية الصليبية تنتهي زمنياً إلى القرن الثاني عشر الميلادي الذي شهد العصر الأول من عمر المملكة الصليبية. وشهد القرن الثالث عشر الميلادي اصلاح وترميم واسترداد عدد كبير من الكنائس في أعقاب إعادة تأسيس المملكة الصليبية في عمرها الثاني. وعلى الرغم من احكام الصليبيين قبضتهم وسيطرتهم على كل المدن البحرينية العربية في القرن الثالث عشر الميلادي فإنهم لم يشيدوا كنائس جديدة خلال هذه الفترة وربما شيدت كنائس جديدة في مدينة عكا التي كانت عاصمة للمملكة الصليبية في عمرها الثاني ومثال ذلك الكنيسة التي شيدت في ضاحية مونت موزارد الجديدة الواقعة وراء أسوار عكا القديمة.

والواقع أن فترة التشييد الحقيقي والواسع للكنائس والمباني ظلت ما يقرب من خمسين عاماً خلال القرن الثاني الميلادي. وباستثناء القلاع والتحصينات تم تشييد عدد قليل من المباني قبل عام ١١٢٥م وذلك خلال فترة خاضت فيها المملكة الصليبية الوليدة صراعاً وحرباً مستمرة ضد المسلمين من أجل البقاء. وخلال الربع الثاني فقط من القرن الثاني عشر الميلادي توفر المال والوقت لبناء المنشآت الكنسية وظل هذا النشاط لمدة ثلاثة أجيال حتى حللت النكبة الكبرى بالصلبيين في حطين عام ١١٨٧م.

وهكذا فإن العمارة الدينية والمدنية تنتهي بشكل كامل إلى فترة العمارة الرومانسية.

فقد ابتكرت العمارة القوطية الباكرة أشكالها العجيبة في أوروبا، بيد أن تأثيرها على العمارة الصليبية كان ضئيلاً. ومن المؤكد أن الفن المعماري القوطي قد برع تأثيره على الفن المعماري في القرن الثالث عشر الميلادي، وعندئذ كانت الحقبة الرئيسة للتوسيع المعماري الصليبي قد انقضت باستثناء بناء الحصون والقلاع. فقد وجد الفن المعماري الصليبي القوطي في قبرص بصورة أكبر عن وجوده في الأراضي المقدسة في فلسطين وبلاط الشام.

ومن المعروف أن طراز العمارة الرومانسيكية يدين كثيراً إلى عبقرية الشرق، حيث اشتهر هذا الطراز المعماري (الرومانسيك) معظم مقوماته ومعالمه البارزة من الفن المعماري البيزنطي، ثم من بعده من الفن المعماري الإسلامي. سواء كان هذا الطراز المعماري الرومانسيك قد عبر البحر المتوسط إلى منطقة الشرق العربي الإسلامي، أو تسرب إلى مناطق أخرى عبر جبال البرانس، فإن هذا الطراز المعماري قد تركز في فرنسا في القرن الحادى عشر الميلادى، حيث وجد في فرنسا مدرسة معمارية ذات خصائص مميزة واستطاعت هذه السمات والخصائص المميزة تجاوز حدود الفوارق والاختلافات الإقليمية. ويتمثل وجه الغرابة في أن المباني الصليبية الضخمة التي شيدت بأسلوب وطراز معماري قريب الشبه من الطراز بين المعماريين البيزنطي والإسلامي قلماً كانت تحمل لامعاً أسلوب وسمات هذين الطرازين. لقد جلب الطراز المعماري الصليبي الرومانسيكى برسومه وألوانه الشرقية بشكل مباشر من أوروبا، وبشكل خاص من أقاليم بروفانس وبرجاند. وقدل الصليبيون فقط الشكل المعماري المضلع لمسجد عمر، مع أن هذه المباني المقلدة كانت أقل قيمة فنية وتتضح هذه الحقيقة من خلال أن هذا المسجد أصبح مقراً لإقامة أعضاء هيئة فرسان الداوية.

وفي العادة، كانت أبعاد مبني الكنيسة الصليبية عبارة عن ٣٥ متراً طولاً (من المدخل إلى الجزء الناتئ من المبنى والذى كان على شكل نصف دائرة) و٢٠ متراً عرضاً وكانت النسبة بين الطول إلى العرض لكتنوسية ٢ : ١؛ فهي أقرب إلى شكل المربع، وإن كانت لم تصل إلى شكل كامل للمربع. وكان شكل هذه الكنائس الصليبية ينتمي إلى نمط الباسيليقا* الثلاثي، إذ كانت الكنيسة عبارة عن صحن وجناحين، وقلماً كانت الكنيسة الصليبية تضم

* النمط المعماري الباسيليقي: Basilica مبني رومانى مستطيل الشكل فى أحد طرفيه جزء ثالث على شكل نصف دائرة ومفصول عن مبني الكنيسة بواسطة صف من الأعمدة (المترجم).

صحن واحدا فقط. وما يذكر أيضا أن كل الكنائس الصليبية كانت تفتح أبوابها جهة الشرق، وكان صحن الكنيسة ينتهي عند الجزء الناتئ من مبني الكنيسة من جهة الشرق ، كما كانت هذه الأجزاء الناتئة من مبني الكنيسة تطوق صحن الكنيسة من الشمال إلى الجنوب . وفي بعض الكنائس كانت الأجزاء الجانبية الزائدة من الكنيسة كبيرة وضخمة مثل الأجزاء الجانبية الرئيسية وكانت هذه الأجزاء الزائدة والأجزاء الجانبية الرئيسية تتلاقي عند نقطة واحدة، وفي بعض الكنائس الأخرى كان خط الأجزاء الناتئة من الكنيسة صغيراً ومتصلقاً . وكان الجزء الناتئ المركزي المستطيل الشكل يواجه مذبح الكنيسة الرئيسي ؛ في حين كانت مذابع الكنيسة الأخرى توجد في الأجزاء الجانبية.

ولم تشتمل أية كنيسة صلبيّة مش مسقوفة باستثناء كنيسة الضريح المقدس. والحقيقة أن السور المستقيم المتدق صوب الشرق يعد من أحدى السمات البارزة للكنائس الصليبية، وكان هناك مفتاح غير مرئي يغلق الأجزاء الناتئة من مبني الكنيسة من الخارج . وما يذكر أيضا أن صحن الكنيسة كان ينفصل عن أجزائها الجانبية بواسطة صفين من الأعمدة الضخمة والتي كانت على شكل نصف دائرة وكانت هذه الأعمدة متقد من الشرق إلى الغرب على جانبي صحن الكنيسة ، بحيث تحمل هذه الأعمدة أقواس الصحن وأقواس الأجزاء الجانبية من المبني على تيجان هذه الأعمدة.

وعادة كان صحن الكنيسة على شكل جزء اسطواني معقود ينقسم إلى أروقة بواسطة أقواس أو أقبية ثابتة ذات شكل دائري. وكان هناك عدد قليل فقط من صحنون الكنائس مزودة بحلية معمارية مسقوفة عبارة عن ملتقى عقدتين . وكان هذا هو نظام الخليات التي تزين جناح الكنيسة. وزودت أسوار الأجزاء الجانبية الناتئة من الكنيسة بالعقود والخليات المعمارية المنسقوفة (وكلما كانت هذه الخليات مستندة على دعامة) والتي كانت تستند على الإفريزات المثبتة عند قمة تيجان أعمدة صحن الكنيسة. وكان أحد جناحي مبني الكنيسة يقطع كلا من صحن الكنيسة المنسقوفة الاسطواني الشكل والأجزاء الناتئة من المبني. والحقيقة أن الكنيسة الصليبية لم يكن لها أجنحة بارزة أو ناتئة . وكلما كان الشكل الصليبي من سمات تحظيط الكنائس المسيحية التي شيدت في أرض فلسطين حيث الأرض التي شهدت المسيح والصلب، ووُجد عدد قليل من الكنائس تشمل نتوءات بارزة في المبني ، وكان مكان حوفه المرتلين في الكنيسة Choir يوجد عند تقاطع جناحي مبني الكنيسة وكان صحن الكنيسة في الغالب على

شكل مربع . وكانت قبة الكنيسة توجد عند نقطة تقاطع جناحى الكنيسة . وفي العادة كانت هذه القبة تستند على دعامات مغلقة تتناسب مع شكلها الدائري وتتصل هذه الدعامات المغلقة بالفتحة المستطيلة التي توجد أسفل هذه القبة . وأحياناً كان يعلق بهذه القبة مشكاة ذات شكل مضلع أو دائري . وإلى جهة الشرق كانت قبة الكنيسة تلاصق وتحاور القبة النصفية للجزء الجانبي الثنائي الرئيسي .

وكانت الأجزاء الداخلية للكنيسة مضاءة بواسطة نوافذ ضيقة توجد في منور الكنيسة في أعلى الرواق الموجود في جناحى مبني الكنيسة . وكانت القبة أيضاً مزودة بفتحات حيث كانت توجد نافذة في القبة النصفية للأجزاء الجانبية الثنائية بالإضافة إلى نافذة أكبر توجد فوق الجزء الثنائي الرئيسي .

وكانت الكنائس الصليبية تطل على ميدان واسع ، وهذه الفكرة تعصدها حقيقة أن الجزء الشرقي من الكنيسة كان يحجب الأجزاء الثنائية نصف الدائرية القائمة وحدها والمنفصلة عن مبني الكنيسة بواسطة صف من الأعمدة على شكل نصف دائرة . وكانت الأجزاء الثنائية من مبني الكنيسة مطروقة باحکام بساحة منفرجة الزاوية، وهكذا كان يظهر سور مستقيم ملائق للأسوار الشمالية والجنوبية عند الزوايا والأركان اليمنى لمبني الكنيسة . وأحياناً كان هذا الانخفاض والمريض بارزاً بواسطة قبة حجرة المرتدين الكنسيين في جهة الأسوار الأسطوانية المضلعة والقوية مع دعامتين الحائط العمودية . ويبدو أن الكنائس الصليبية قد شيدت من أجل العبادة والدفاع أى لأغراض دينية وعسكرية معاً .

وتركتز قبة وصلابة مباني الكنيسة في المواجهة الغربية من المبني ، حيث يوجد المدخل الرئيسي . وباستثناء كنيسة الضريح المقدس في مدينة القدس ، لم تكن هناك وجهة كنيسة صليبية يمكن أن توصف بالفخامة . بيد أنه كان هناك استخدام منظم ومفيد للحلبات أو الزخارف المعمارية الخارجية ، تناسب تماماً المبني ، وكانت هذه الزخارف تتضمن على مبني الكنيسة الجمال والروعه . إذ كانت الأحجار تستخدم في البناء ، والمباني الكنسية بشكل ضئيل ، على الرغم من أن أدنى صنف من هذه المباني كان عبارة عن مبني ضخم مستطيل الشكل . وفي العادة كانت المواد الخام المستخدمة في البناء عبارة عن الحجر الجيري المائل إلى اللون الصارب إلى الصفرة أو إلى اللون البني الفاتح ، أو الحجر الرملي الضارب إلى الحمرة ، والذي يعطي دفناً للأماكن الواقعة خلف الأسوار الممتدة والمنتظمة . وكان تخطيط المبني والزخارف

الرقيقة أبدع ما يمكن . فقد كانت الخطوط المائلة والمتوازية والتى أبدعتها يد الصانع الصليبي من أبرز السمات المميزة للابداع الصليبي فى فن البناء ، فى القرنين الثاني عشر والثالث عشر من الميلاد . وكان النمط الآخر المميز للأحجار التى استخدمتها الصناع الصليبيون فى أعمال الزخارف المعمارية يتمثل فى الشكل المربع أو الشكل المستطيل لهذه الأحجار والمزودة بحافة صغيرة ، وكانت هذه الأحجار تستخدم بوضوح فى الخلبات المعمارية الناتجة أو البارزة ولم تستخدم هذه الخلبات تقريباً فى المبانى الكنسية ، ولكنها كانت تستخدم فى المبانى القوية فى العمارة العسكرية.

وتحتة نموذج مثالى فى القرن الثانى عشر الميلادى للكنيسة صلبيبة دير للراهبات تم بناؤها على الطراز الرومانسيك ، وهم دير بندكت للراهبات فى مدينة القدس ، وكنيسة القديسة هنا ، فقد كانت الواجهة الغربية من مبنى الكنيسة يتتصدرها سور مستطيل الشكل مكون من ثلاثة طوابق ، ومزود بصف مسطح مطوق من الشمال والجنوب بواسطة اثنين من الطوابق الجانبية . وكان الجزء المركزى من واجهة مبنى الكنيسة يؤدى إلى صحن الكنيسة والذى كان ينفصل عن الأسوار التى تغلق الأجزاء الجانبية الناتجة بواسطة دعامات مثبتة عمودية بارزة بشكل بسيط والتى تصل إلى قمة الطابق الثانى . ويتوسط الباب الرئيسي للكنيسة واجهة المبنى الفخمة . وكانت توجد ثلاثة أعمدة خلفية على شكل نصف مربع تشكل فتحة فى جدار الباب ، وهذه الفتاحة مسقوفة بواسطة لبنت عقود قوية . وما يذكر أن القبور والأقواس الخلفية غير مزخرفة وكان المنحنى الخارجى للعقب فقط هو الذى يحتوى على زخارف بسيطة على شكل معين . وكانت قلب القوصرة الفائز Tympanum (وهي الآن تحمل نقش صلاح الدين الاخاوس باحياه ذكرى تحويل الكنيسة إلى مدرسة) تقع أسفل لبنت العقود التى تستند بحاكم على معظم الأعمدة الداخلية .

ويعلو الباب الرئيسي للكنيسة صف واحد من المبانى أو أقل قليلاً ، وهو عبارة عن افريز أو كورنيش مستقيم مكون من أربعة خطوط مزينة ومزخرفة بالخلبى المعمارية ويعلوها حلبة معمارية مزينة برسوم على شكل بيضة وسهم وهذه الزخارف كانت من أبرز ما يميز الطابق الثانى . وكانت النافذة الرمحية واحدة من سلسلة النوافذ المستديرة عبر واجهة مبنى الكنيسة والأسوار الجانبية . وكانت الأسطح الحجرية المائلة للفتحة التى كانت توجد فى جدار باب الكنيسة تغلق بواسطة اثنين من الأعمدة القصيرة ، وتنفصل هذه الأسطح الحجرية قليلاً عن

الأسوار الخارجية وتنتهي عند تيجان الأعمدة المزودة بزخارف نباتية على شكل أزهار. وعند الموضع المستقيم الموجود على العمود الذي يستقر عليه القوس والذي يعلو تيجان الأعمدة كان يوجد قوس مزخرف بزینات عبارة عن ينابيع. وكان يعلو هذا القوس مجموعة من النقوش المزودة بالزخارف الورقية التي تؤكد فخامة وساطة زخارف النوافذ الرمحية.

وكانت النقوش والزخارف التي تزيّن الجزء الداخلي من الكنيسة والمصمتة على الطراز الرومانسي تتميز بالانسجام والتواافق. وعندما كان المرء يتحرك من المدخل الرئيسي للكنيسة إلى العمود الذي يطوق صحن الكنيسة فإنه كان يرى بعينيه مباشرة المنبع الموجود في المناج الرئيسي من المبنى . إذ كان صحن الكنيسة مزود بثلاثة من الطرقات المعصورة بين أعمدة ثلاث، وكانت أجنحة الكنيسة أيضاً تقسم إلى أقواس دائريّة تقرّباً هذه الأقواس التي كانت تستند على أعمدة بارزة. وهي الأعمدة التي كانت جزءاً من مجموعة الأعمدة الرباعية وذات الشكل الصليبي + المشتبة في سطح الأقواس ، وكانت الحنيات المعمارية الرباعية تزيّن كل عمود . وعند هذه الجهة كانت الأقواس تقسم صحن الكنيسة والأجنحة الجانبية المنصولة عن الصحن ، كما كانت الحنيات المعمارية تزيّن الأعمدة القصيرة لهذه الأجنحة الجانبية المنصولة. وكان جناح الكنيسة مميزاً تماماً بيد أنه لم يكن بارزاً ، وتتدلى مشكاة من سقف قاعة المرتلين الكنيسين Choir تغطيها قبة زجاجية صغيرة، وكانت قاعة المرتلين توجّد جهة الشرق في طريق نصف القبور الخاصة بالأجزاء الجانبية الثالثة من الكنيسة ، ووُجد هناك القليل من الزخارف والزینات. وكانت بعض السنادات الحجرية البارزة والناتحة من الأعمدة، والتي كانت تتمثل في تيجان الأعمدة البسيطة ذات التصميم الهندسي أو المزينة بزخارف نباتية على شكل أوراق تكسّب الأجزاء الداخلية من الكنيسة الروعة والجمال. ولاشك أن هذه الزخارف البسيطة المتقدة لم تستطع أن تقلل من الغرض الرئيسي لانشاء الكنيسة؛ وهو غرض تأدية الصلاة بها والتأمل الروحي. فقد كانت الاضاءة داخل الكنيسة ممتازة ، على الرغم من أن هذه الاضاءة كانت تظلم قليلاً عندما كانت النوافذ الزجاجية تلطخ بالتراب والغبار الذي يحجب الضوء. وكانت نوافذ الطابق الأول تسمح بدخول الضوء إلى أجنحة الكنيسة الثالثة حيث كان شعاع الضوء يمتد خلال الأقواس والأروقة ليصل إلى صحن الكنيسة. واستمدت حجرة جوقة المرتلين الكنيسين Choir ضوءها من الضوء المسلط والمنتشر من فتحات المشكارات المضيئة المتداولة من القبة. وأخيراً كانت هناك ثلات نوافذ تزود مكان المنبع الرئيسي في الكنيسة بالضوء في حين كانت هناك نوافذ خاصة تضيّ الأجزاء الجانبية الثالثة من الكنيسة. فقد كان الضوء مسلطاً على داخل

الكنيسة من اتجاهات مختلفة، ولم يكن ساطعاً ، بل كان دائماً خافتاً وضعيفاً ، الأمر الذي أدى إلى وجود نوع من الظل على الأعمدة ذات الشكل الصليبي، وأيضاً على عقود الأعمدة وعلى الأقواس، ومثل هذا يؤكد حقيقة مؤداها أن التصميم المعماري للكنائس الصليبية كان تصميماً صليبياً خالصاً. وبشكل لا إرادي ، يذكر أحد المؤرخين وهو بيجموی Péguy نقاً الأضواء التي كانت توجد داخل الكنيسة فيقول إن الكنيسة الصليبية لم تكن تدعى المسيحى إلى التأمل الروحى ولكنها كانت تدعوه وتحثه إلى الصلة.

لقد كان الدخول إلى مدينة بيت المقدس يتم عن طريق البوابة الغربية الرئيسية ، وهى « بوابة داود » (والتي تعرف اليوم باسم بوابة يافا) ، فكان الحاج المسيحي الأوروبي فى العصر الوسطى يمر على القلعة التى كانت تقع على يمينه وهى القلعة التى كان يجاورها القصر الملكى الصليبي. وعندما يتوجه الحاج شمالاً فإنه كان يصل إلى حى البطريرك بتصميمه المعماري الباسيليقى الفخم، وأيضاً كان الحاج يصل إلى كنيسة الضریع المقدس، التى تحظى بالقداسة العظمى والتجليل فى كل أنحاء العالم المسيحى. واليوم تتخذ كنيسة الضریع المقدس فى مدينة القدس شكلاً جميلاً يبهر العين وبليهم الخياال بدرجة تمكناً من تخيل وتصور مدى الفخامة والأبهة الشرقية فى تشييد الكنائس الكبرى (الكاتدرائيات) وهى احدى الكنائس التى شيدت فى منتصف القرن الثانى عشر الميلادى . وقبل تحسينات القرن الثامن عشر الميلادى والاصلاحات التى شهدتها هذه الكنيسة خلال هذه الحقبة الزمنية كانت هذه الكنيسة عبارة عن فناء متهدم يقع أمام البوابات الرئيسية، ومبانى مجاورة لها قبيحة المنظر، وبعض الاصلاحات الشاذة التى استخدمت فيها مواد خام غير ملائمة وصناعة البناء المتوسطة الجودة، والزخرفة الفنية الغربية غير المفهومة ، ولكن فى القرن الثامن عشر الميلادى شهدت كنيسة الضریع المقدس تحسينات واصلاحات معمارية أضفت عليها الروعة والجمال وأعادتها إلى سابق عهدها من حيث الفن المعماري الرومانسك الجميل الأمر الذى جعلها أثر مقدساً دينياً يتمتع بالروعة والفخامة والعظمة*. وهكذا فإن مثل هذه الفخامة والروعة التى اتسمت بها كنيسة الضریع المقدس هو ما كان يصبو إليه الصليبيون عند قيامهم باعادة تشييد وبناء هذه الكنيسة.

* ومنذ عام ١٩٥٣ تغيرت أشياء كثيرة إلى الأفضل. فقد أعيد تجديد كنيسة الضریع المقدس فى مدينة القدس بنفس التخطيط المعماري الذى كانت عليه من قبل أى خلال الفترة الصليبية وهو التصميم المعماري =

وفي أثناء أحداث الغزو الصليبي لهذه المناطق بقيت هناك كنيستان بيزنطيتان حول منطقة الضربي المقدس، وتم اصلاح هاتين الكنيستين عدة مرات خلال عصر السيادة الإسلامية (وتعرضت هاتان الكنيستان للتدمير في عهد الحاكم بأمر الله الفطمي في عام ١٠١٠م) وكانت هاتان الكنيستان البيزنطيتان من بقايا واطلال كنيسة صلب المسيح وكنيسة القيامة الدائرة (انسطاس)، وكانتا على مقربة من كنيسة المجلحة ، وكنيسة القديسة هيلانة، والغار الذي اكتشف فيه الحرب المقدسة أو الصليب المقدس. وتجلت براعة المهندس المعماري الصليبي في تصميم كل هذه المباني الكنسية التي وجدت في حرم مقدس واسع تحت سقف واحد يخدم الحجاج ، ووجودها في أماكن مقدسة شهدت ذكريات مسيحية مهمة مثل مكان صلب المسيح، ومكان دفنه ورفعه وارتقائه إلى السماء ومكان قيامته من بين الأموات. بالإضافة إلى ذلك، فقد كانت هناك مشكلة في اجتياز مكان لاقامة بطريرك الكنيسة اللاتينية في القدس ورجال الدين المسيحيين اللاتين الكاثوليك الذين أصبحوا بثابة هيئة وجماعة ديرية أوغسطينية ولاسيما بعد الاصلاحات الكنسية في عام ١١١٤م. بيد أننا لا نعرف أسماء هؤلاء المعماريين الصليبيين الذين وضعوا تصميمات هذه المباني الكنسية ولا نعرف على وجه اليقين متى وضعوا الركين الأساسي لهذه المباني. ومن المفترض أن تصميمات هذه المباني كان جاهزاً بحلول عام ١١٣٠، وأن مجمع هذه المباني أو المنشآت قد اكتمل بناؤه بحلول يوم الخامس عشر من شهر يوليه سنة ١١٤٩م حيث تم تدشين النظام المعماري الباسيليقي الجديد وحيث ذكرى العيد الخمسيني للغزو الصليبي للمناطق العربية.

ومن وجهة النظر الفنية، كان تصميم كنيسة الضربي المقدس على الطراز الباسيليقي الجديد يعد من أروع وأفخم الابتكارات المعمارية الكنسية، على الرغم من أن قصر البطريرك اللاتيني القائم في الجهة الغربية وكذلك الأديرة Cloisters ، وحجرات الطعام في الأديرة، وصالات المبني الملحق بالكنيسة، وحجرات نوم الرهبان في الأديرة الأوغسطينية، كانت كل هذه المباني لاتقل في الروعة الفنية عن جمال وروعة كنيسة الضربي المقدس ، ومن المعروف أن الطراز الباسيليقي

= الذي تم على يد اللاتين والذي اعتمد أساساً على الطراز المعماري الباسيليقي والذي كان أكثر انتشاراً في العصور الوسطى، وقد اتباع في الترميم نفس هذا الطراز ونجح المهندسون المعماريون والبناؤن في اظهار الأجزاء الأصلية للعمارة البيزنطية والصليبية في هذه الكنيسة، وهي الأجزاء التي كانت إلى وقت قريب مكسوة بطبقات سميكه من الجص ، وتم اصلاح هذه الأجزاء وترميمها (المؤلف) .

في البناء قد عرف قبل منتصف القرن الثاني عشر الميلادي وهكذا كان الطراز المعماري الباسيليقي في المملكة الصليبية معاصرًا لنفس الطراز المعماري في كل مدن شارتر وفيزاليد Vizelay في الغرب الأوروبي. وعلى الرغم من أن كنيسة الضريح المقدس التي شيدت على الطراز الباسيليقي والتي كانت تفتقر إلى الوحدة الفنية والإلهام الروحي فإنها كانت تحظى بالتقدير والتجليل من جانب المسيحيين الحاجاج. ففي المقام الأول، تم تشييد هذه الكنيسة في الأماكن التي شهدت ميلاد العقيدة المسيحية ومهدها الباكر، كما أنها كانت تضم مذبحاً تاريخياً يوضح التقلبات والتغيرات التي مرت بها الديانة المسيحية خلال مراحلها الزمنية والتاريخية. ويتمثل الدليل التاريخي القوى والداعم للديانة المسيحية في ذلك القبر اليهودي المفصول، وتقايا أعمال التجديد الباسيليقي التي قام بها الإمبراطور الروماني الشهير قسطنطين في القرن الرابع الميلادي، وأعمال النسيفساء البيزنطية التي أدخلها البيزنطيون إلى هذه الكنيسة منذ فترة سابقة للوجود الصليبي، وأيضاً في الداخل التي شيدتها الصليبيون خلال عصر السيادة الصليبية، وفي الصحنون وفن النحت، أي أن كل هذه الاضافات المعمارية والفنية تمثل أطواراً ومراحل تاريخية مرت بها هذه الكنيسة. والتحقق المجرد للتصميم الكامل لكنيسة الضريح القدس من الأمور العسيرة. إذ كان هذا التصميم يشتمل على تصميمات معمارية مندمجة مجلوبة من القسطنطينية والتي ترجع إلى القرنين الرابع والسادس من الميلادي والأخرى جلبها منهم القادمون الأوروبيون الجدد الذين وفدو على الأرض المقدسة في فلسطين وببلاد الشام، وقام بتنفيذ هذه التصميمات المعمارية المختلطة البناءون المحليون ونحاتو الأحجار. ومنذ البداية لم يقدر لهذا المزيج المعماري المختلط أن يتطور وأن يحافظ على نوع من الوحدة الفنية طوال مراحل التخطيط والتنفيذ. ومع ذلك، فقد جرت بعض المحاولات من أجل تحقيق ذلك، بيد أن نتائج هذه المحاولات كانت مخيّبة للأمال وكانت بعيدة عن الإبهار والتأثير.

وكان على الحاج الأوروبي الذي يغامر بالذهاب إلى شارع السعف في مدينة القدس أن يجد أمراً غريباً، وهو أن المدخل الرئيسي لكنيسة الضريح المقدس لم يقع جهة الغرب قبالة المنبع الرئيسي كما كان سائداً في كنائس الغرب الأوروبي آنذاك، حيث كان المدخل الرئيسي للكنيسة يقع جهة الغرب والذي كان يواجه المنبع الرئيسي للكنيسة. إذ كان الدخول إلى كنيسة الضريح المقدس يبدأ من جهة الجنوب، خلال ممر مفتوح ومسقوف يتکيء على خمسة أعمدة بيزنطية، وعبر ساحة واسعة كان الزائر يواجه مدخلين مزدوجين للحرم المقدس. وإلى جهة الجنوب كان

هناك جانب المدخل المنفصل الذي يقود الداخل إلى رواق المجلجنة. وكانت الصورة الظلية لمبنى الكنيسة عجيبة وتشبه التصميم التكعيبى. وفي مقدمة الجهة الشمالية لمبنى الكنيسة كان يظهر جرس الكنيسة المرتفع ذو الشكل المربع والذى تعلوه قبة عالية ناتئة. وكان يوجد خلف الجهة الشرقية من مبنى الكنيسة سقف غريب فوق القبر المقدس، مخروطى الشكل. وكان هذا السطح يعلو المبنى البيزنطى المستدير لهذه الكنيسة والذى شيده الامبراطور انسطناس . وعلى مسافة بعيدة من الشرق كانت توجد قبة فوق حجرة المرتلين الكنسيين الصليبيين ، وعلى نفس المسافة ، كانت توجد مشكاة وقبة صغيرة لكنيسة القديسة هيلانة والتى كان يمكن رؤيتها.

وكانت المواقع العليا المتعددة على السطح العالى للمبنى تميزها أجزاء رئيسيّة من العمارة ذات الطراز الباسيليقي. وكان الجانب الغربى من المبنى عبارة عن المبنى المستدير البيزنطى الذى يعلوه قبة . وقد ضم الطابق الأرضى ثمانية عشر عموداً منتظمـة فى شكل دائرة ، وهـى الأعمدة التي كانت بثابة دعامة يرتکز عليها رواق متـد عـبر مـسـافـة طـولـة . ووـجـدـ وـسـطـ هـذـهـ الأعمـدةـ مـبـنـىـ مـرـبـعـ صـغـيرـ يـعـلـوـ القـبـرـ المـقـدـسـ وـمـزـوـدـ بـمـدـخـلـ مـنـخـفـضـ يـؤـدـىـ إـلـىـ القـبـرـ الحـقـيقـىـ للـمـسـيـحـ، وـمـزـوـدـ أـيـضـاـ بـقـطـعـةـ حـجـرـيـةـ مـكـسـوـةـ بـالـرـخـامـ ، وـكـانـ قـبـتهاـ الصـغـيرـةـ تـفـتـحـ عـلـىـ السـطـحـ المـخـروـطـ لـلـمـبـنـىـ المـسـتـدـرـ الـبـيـزـنـطـىـ . وـخـلـفـ الرـوـاقـ المـقـتـرـ الدـائـرـىـ كانـ الزـائرـ يـتـجـهـ صـوبـ مـشـ مـسـقـوـفـ دـائـرـىـ يـتـفـرـعـ إـلـىـ ثـلـاثـ مـرـاتـ تـتـشـعـبـ جـهـةـ الـغـربـ وـالـشـمـالـ وـالـجـنـوبـ.

ولكى يلعن الصليبيون كنيسة القيامة القديمة بعشيلتها الجديدة قاموا بتدمير جزء من العقد الدائري الرابع . وقام البناءون الصليبيون بطمسم وازالة الجانب الشرقي لمبنى كنيسة القيامة وحلوا محله مبنى غير متقن الصنع ومزود بقوس نصر (قوس النصر) هذا القوس الذى يؤدى إلى المبنى الجديد. وكان الشرفة الداخلية فى مبنى الكنيسة المستدير يؤدى إلى صحن الكنيسة الذى يقع فى الجهة الشرقية من المبنى، حيث تحول الممشى المسقوف الخارجى للكنيسة إلى جهة الشمال وجهة الجنوب وامتد إلى المبانى البانوية الناتئة من المبنى الأصلى وذات الشكل الرباعى التى تطوق الصحن الرئيسى للكنيسة.

وهكذا أصبح الحرم المقدس من الجهة الشرقية كنيسة رومانسية . إذ كان جناح الكنيسة غير البارز يقطع وجناحى الكنيسة البارزين ، وعند نقطة التقاطع ، كانت تتدلى قبة فوق حجرة المرتلين الكنسيين . وهنا كان يظهر مكان املفوس *omphalos* الشهير الذى يميزه صليب فوق سطح مرصوف- وهذا المكان كان يمثل سرة العالم ومركزه وذلك وفقا لما ذكرته الجغرافية الدينية فى العصور الوسطى. فقد كان الذراع الشمالي من جناح الكنيسة ينتهي بسور تدعى أعمدة

ضخمة مع أعمدة شبه متداخلة ، حيث كان الدراج الطولى من المبنى والواقع جهة الجنوب ينبع على المداخل الكبيرة للحرم المقدس والنفاء الراسع. وكان صحن الكنيسة يتوجه جهة الشرق، وينتهى فى شكل نصف دائرة تحجب مذبح الكنيسة الرئيسي ، حيث كانت أجنحة الكنيسة تتتحول إلى بناء جديد ، هذا البناء الذى كان عبارة عن المش المسقوف الشرقي المزود بثلاث كنائس صغرى متفرقة.

ويبدو أن جرس الكنيسة لم يكن موجوداً فى التصميم الأصلى لبناء كنيسة الضريح المقدس، فقد شيد برج جرس الكنيسة فى فترة متأخرة ، وكان برج الكنيسة المربع والضخم والمكون من خمس طوابق عالية تدعى دعامات حائطية ، تسمح بنقل هوا قلعة العصور الوسطى ، وكان كل طابق من طوابق البرج يحتوى على صفين أو ثلاثة صفوف من النوافذ ، ويشتمل على أقواس معقودة وتستند هذه الأقواس على مجموعات من الأعمدة الصلبة. وكان لهذا البرج سطح مميز، ومزود برواق مربع الشكل يارز به شرفات وفتحات لاطلاق السهام، وكانت هذه الفتحات والشرفات تحيط بكل السقف العلوى . ومن هذا الرواق كانت تظهر فيه قبة بارزة بين عمودين ومزودة بعوارض بارزة تستند على عمود مثلث الشكل وكانت قمة هذا البرج تنتهى بفتحة لاطلاق السهام.

وتجدر الاشارة إلى أن هذا البرج يذكرنا بأبنية مشابهة له فى اقليم بروفانس بفرنسا وفي إسبانيا ، إذ كان بناء هذا البرج مميزاً عن باقى الأبنية الأخرى من حيث كونه أوربي الطابع المعمارى وأبعد ما يمكن عن الأصل المعمارى الشرقي - وثمة فكرة جديدة تخطر فى البال، ألا وهى أن هذا البرج لم يكن متتسقاً مع الوحدة المعمارية للحرم المقدس وكان أيضاً جزءاً محبوبياً عن المبنى الجنوبي للكنيسة ، ويحيط بالمدخل الرئيسي للكنيسة من ناحية اليسار.

ويشكل عام، فإن تصميم الطابق الأرضى للكنيسة على الطراز الباسيليقى كان على شكل مستطيل ، ومغلق عند كل نهاياته بواسطة نصف دوائر من الأعمدة، وكان الطول جهة الغرب يعادل ضعف العرض جهة الشرق، وكان طول هذا البناء يضم ثلاثة أجنحة من المبنى متعددة على الجانبين ، وكانت الأجنحة المتعددة فى الاتجاه الغربى أكثر طولاً من تلك المبانى التى أنشأها الصليبيون فى أثناء تجددهم للكنيسة، وكانت أجنحة الكنيسة الشرقية تتبع الطراز المعمارى الرومانسيقى؛ هذا الطراز الذى كان عبارة عن نصف دائرة مزودة بكنائس صغيرة ومذبح . ويتصدره مبنى رباعي الزوايا ومدخل يؤدى إلى مش مسقوف خلال قوس يستند على أربعة أعمدة.

لقد كانت كنيسة الضريح المقدس هي الاستثناء من حيث طرازها العادي المألوف ، فقد كان حجمها وشكلها ووحدة مبانيها القديمة وتركيبتها المعماري الجديد بثابة ابتكارات لم نجد مثيلا لها في أي مكان آخر . فلم يكن بناء كنيسة الميلاد في بيت لحم ، وهيكل سليمان (المسجد الأقصى) في بيت المقدس من عمل الصليبيين ، على الرغم من أنهم أعادوا بناء هذه الكنائس بشكل جزئي وجاء هذا التجديد والبناء وفقا لاحتياجات المجتمع الصليبي ، لقد كان بناء كنيسة الضريح المقدس على الطراز الباسيليقي الجازئ معمارياً فريداً ومميزاً . الواقع أن العنصر المعماري البيزنطي قد فرض نفسه على الرغم من أن البناء الجديد لهذه الكنيسة كان طراز غريباً تماماً ، وقد لخص أحد علماء العمارة الرومانية التأثيرات المعمارية التي تولت عند بناء هذه الكنيسة على مر الزمان فقال: إن المهندسين المعماريين في تولوز هم الذين صمموا تحظيط الكنيسة اللاتينية في بيت المقدس التي تضم قبر المسيح، بيد أن المهندسين المعماريين من أقليم نورماندي ومن أقليم لاندوك في فرنسا هم الذين قاموا بالتنفيذ المعماري . فقد قام مهندسو تولوز بتصميم الدور الأرضي وأروقة الكنيسة في حين ساهم المعماريون من شمال فرنسا في وضع التصميم المعماري للأعمدة والأسقف المعقود وشكل الجزء العلوي من قاعة المرتلين الكنيسيين . وعندئذ يُعزى إلى البطريرك فولك استبدال التأثير المعماري لمهندسي إكويتين بالتأثير المعماري لمهندسي ومعماري شمال فرنسا ونحن ندين لمهندسي شمال فرنسا بالتصميم المعماري لواجهة الكنيسة والقبة . وفي النهاية، استعاد مهندسو شمال فرنسا تأثيرهم المعماري بأن أضافوا إلى التصميم المعماري الواجهة التي ابتكرها معماريو إكويتين كما أضافوا عمارة الجرس في الكنيسة على الطراز المعماري الذي كان موجوداً في كنائس شمال فرنسا . ومن المحتمل أن بنائي ومعماري الشمال الفرنسي لم يشاركا في بناء كنيسة الضريح المقدس، بينما نجد أن مدرسة العمارة في تولوز هي التي ابتكرت تيجان الأعمدة في العمارة والأفريزات المعمارية (الكرانيش) ، وأن واجهة المبنى كانت من ابتداع أيدي البناء البروفنسال .

وبيينا أن ما أورده هذا العالم المعماري من تحليل ووصف الجوانب المعمارية والتأثيرات المعمارية في بناء كنيسة الضريح المقدس في مدينة القدس خلال الحقبة الصليبية من قبيل المبالغة ، وعلى الرغم من هذه المبالغة فإن ثمة حقيقة تقول إن فكرة امتزاج التأثيرات المعمارية الأوروبية ريها تكون صحيحة بشكل أساسى . فقد كان الغزاة الصليبيون يحتاجون إلى أشياء في

تلك المناطق المحتلة الجديدة تذكرهم بأوطانهم وتؤنس غربتهم ووجدوا ضالتهم في تلك المنشآت المعمارية التي شيدوها على نسق ما كان موجوداً في أوطانهم وذلك في مناطق غريبة غير ملائمة لاقامتهم ولذا كان عليهم إعادة صياغة هذه المناطق وفقاً لأذواقهم ولاسيما في مجال العمارة والانشاءات . وثمة وجهة نظر أخرى تقريراً عبر طرحها أحد العلماء فقال : إنه في مجال الفن المثالى المتقن ، والعمارة الدينية - أصبح الفن الاستعماري الصليبي في منطقة الشرق العربي الإسلامي موضوعاً لتفاخر الأوروبيين ، لكنه يتصادر أى رأى وأى قول يرى أن هذا الفن كان نتاجاً لتأثيرات فنية متعددة وأن هذا الفن ظل مخلصاً قدر الامكان للفن المعماري الذي كان شائعاً في الأقاليم الأوروبية آنذاك.

بـ- أعمال النحت

وما يذكر أنه على الرغم من تعدد غارات المسلمين الشديدة ضد الأسوار والمباني الصليبية في بلاد الشام وفلسطين ، فإن حجم الدمار والتدمير الذي أحivistه هذه الغارات كان ضئيلاً إذا ما قورن بحجم أعمال النحت التي تعرضت لهذا الدمار . فقد طمرت التماثيل تحت أنقاض الأسفار المنهارة والمباني المهدمة ولم يتم تدمير أعمال النحت الصليبية نهائياً . وأما التماثيل وأعمال النحت الصليبي التي نجت من مصائب الزمن تلقيتها يد الردى حيث قام المسلمون بتدمير هذه التماثيل أو ما شابه ذلك بسبب الموقف العقدي تحفاه عبادة الأصنام والأوثان وغضبهما لها ومحريها . وقليلًا ما نجد صورة تمثال لاتسان أو صورة مرسومة لأدمي بشكل كامل . ويمكن الحكم على هذه الانجازات المعمارية لمنطقة الشرق العربي الإسلامي خلال العصر الصليبي في مجال أعمال النحت والتصوير من خلال النماذج الفنية الباقيه من أعمال النحت ، ولذا يمكن أن نصل إلى نتيجة مؤداها أن الأعمال الفنية في المناطق الصليبية في فلسطين وببلاد الشام لم تستطع أن تخلق مدرسة أصلية لفن النحت؛ ومع ذلك ، كان يوجد مركز نشط للفن الرومانسيك تطور على يد أفراد وليس على يد مؤسسات . ودعنا نضيفحقيقة مؤداها أيضاً أن الفنانين الذين أجزوا أعمال النحت قلماً كانوا من أبناء هذه المناطق الصليبية . ويقيناً أن هؤلاء الفنانين كانوا من الأوروبيين ، الذين جاؤوا إلى هذه المناطق بتشجيع من السلطات الصليبية المحلية ، أو أن هؤلاء الفنانين قد جاؤوا إلى هذه المناطق الصليبية في بلاد الشام وفلسطين بصحبة الحجاج خلال مواسم الحج السنوية إلى فلسطين . وما يذكر أن الأعمال الفنية العادي مثل قطع الأحجار أو عمل غط النقش النباتية التي على شكل أزهار يتجلّى

فيها جودة عالية لفن النحت خلال المحبقة الصليبية . فقد كانت الكريانيش المنحوتة ، وأحجار العقود المعمارية وحوامل الأفريزات أو الكريانيش ، وتيجان الأعمدة المنحوتة بشكل دقيق من صنع الحرفيين المهرة الذين برعوا في الزخرفة، بيد أنه يجب على المرء أن يلاحظ ويشاهد العتبات التي تعلو مداخل كنيسة الضريح المقدس ، وأيضاً تيجان الأعمدة في كنيسة البشارية في مدينة الناصرة، وكل الكريانيش المعمارية الرئيسية التي تعلو كنيسة الضريح المقدس لكي يتحقق ويدرك أن كل هذه الأعمال الفنية لم تكن فقط من صنع وعمل يد أرباب الحرف ورؤساء الحرفيين بل كانت أيضاً من صنع عمال عشقوا علمهم وأحبوه .

لقد ارتبط مصير أعمال النحت الصليبية المهمة بالعنابة الإلهية ، فبينما تم تدمير جرس كنيسة الضريح المقدس والذي كان وجوده يمثل نقطة تطور واضحة في سياسة التسامح الديني الإسلامي في مدينة القدس خلال عصر السيادة الإسلامية في هذه المناطق فإن الكنيسة نفسها ومداخلها وعتبات مداخلها بقيت سليمة لم يمسها سوء . ومن حسن الحظ أن كنيسة البشارية في الناصرة قد احتفظت بتيجان أعمدتها سليمة دون أذى.

ويمكن أن نرجع الفضل لأسقف الناصرة في القرن الثاني عشر الميلادي، الذي أمر باخفاء تيجان أعمدة الكنيسة التي كانت على وشك التشطيف واقتalam البناء عشية هجوم صلاح الدين الأيوبي ضد المدينة . وقد اكتشفت تيجان أعمدة كنيسة الناصرة سليمة بعد سبعة قرون كاملة وذلك في بداية القرن العشرين، لقد كانت هذه التيجان المعمارية من أجمل وأروع نتاج الحقبة الصليبية فنياً . وتوجد الآن أشياء صغيرة وأجزاء من هذه التيجان في متحاف دمشق، والقسطنطينية (استانبول في تركيا) ، وفي متحاف مدينة القدس ، وفي متحف اللوفر بفرنسا، وتوجد بعض الرسومات أيضاً والتي ظلت باقية لمدة ثمانين عاماً مضت ولكنها الآن فقدت ، الأمر الذي يجعلنا نأسف ونحزن كثيراً لفقد وضياع مثل هذه الرسومات للأبد.

وفى وصف تال سوف نركز على ثلاثة ابتكارات صليبية رئيسية في مجال النحت وهما : العتبتين اللتين كانتا تعلو مداخل كنيسة الضريح المقدس ذات الطراز البابايليقى، وسلسلة تيجان الأعمدة المنحوتة في كنيسة البشارية في الناصرة، ففى حالة كنيسة الضريح المقدس لدينا اطاراً كاملاً، بمعنى أن واجهة مبنى الكنيسة كان يقع في نهاية الزراع الجنوبي من جناح الكنيسة ، وفي الناصرة لدينا تيجان أعمدة الكنيسة فقط والتي يتمنى أن نعيد تشييدها في مواضعها الأصلية . وعلى الرغم من أن وصف واجهة الكنيسة أمر يتعلق بالفن المعماري، فإننا نتعامل مع هذه الواجهة في سياق فن النحت وثمة ما يبرر ذلك.

وكما ذكرنا آنفا ، فإن المدخل الرئيسي للكنيسة كان يقع عبر فناء كبير واسع عند النهاية الجنوبية لجناح الكنيسة الذي ينتهي بواجهة من طابقين ومزود بمدخلين أو بوابتين في مستوى سطح الأرض ، وكان الطابق الثاني مزود بصفين من النوافذ وحول هذه الفتحات والنوافذ أظهر المهندسون المعماريون الصليبيون ، والنحاتون وقاوموا الأحجار مهاراتهم وعبرايتهم الفنية. فقد كانت أبواب الكنيسة تطابق النوافذ من حيث الحجم تقرباً وذلك عندما نقيسها عند النقوش المطيفة التي تزين المنحنى الخارجي للعقد المعماري . وبينما كانت البوابات الرئيسية للكنيسة توجد وسط المبني فإن النوافذ والفتحات العليا كانت تقرباً عبارة عن نوافذ رمحية (نوافذ عالية ضيقة تنتهي بعقد مستدق الطرف) ، تنحدر من تحت قوس داخلي إلى منتصف ارتفاع الأعمدة . وكان نفس الإطار الخارجي للنقوش المطيفة أبرز ما يميز الجزء الخارجي للنوافذ ، وكان هذا الإطار يتوجه قليلا صوب الأقواس والأروقة ، وكانت البوابات والنوافذ المنحدرة تحدث تناسقاً وشكلًا مهيباً لأنها كانت تنقسم إلى قسمين بواسطة كورنيش فخم وكانت الأعمدة التي تحمل النوافذ مزخرفة بنقوش معقدة الشكل .

وكانت البوابات المزدوجة للكنيسة منفصلة بواسطة من خمسة أعمدة كل عمود يستند على قاعدة ذات صليب ، ويعلو كل عمود تاج منقوش بشكل رائع وكان العمود الخارجي يقابل الأقواس المزخرفة بنقوش ، وارتبطت البوابتان بسلسلة من الوسادات المربعة في حين كان العمودان الداخلان يقابلان الأقواس التي تمثل إطار قلب القوصرة الفائز لكلا البوابتين ، وكان يوجد قلب قوصرة غاثراً بين هاتين البوابتين . ويدرك الرحالة الألماني ثيودوريتش الذي زار المناطق الصليبية في فلسطين وببلاد الشام عام ١١٧٢م هذا فيقول : وخارج بوابة كنيسة الضريح المقدس (المقطاه ببرونز وصلب) وفي الفضاء الموجود بين اثنين من الأبواب كان ينتصب تمثال للسيد المسيح في ثيابه الظاهر كما لو كان قد نهض لتوه بعد الموت ، بينما تقف ماري المجدلية التي انزلقت في مستنقع الرذيلة لتجشو تحت قدمي المسيح لتقبل قدميه ولكنها لم تستطع أن تلمس هذه الأقدام المقدسة . ويقدم السيد المسيح إليها قائمة تتضمن هذه العبارات باللغة اللاتينية «أيتها الإنسانية لماذا تذرفين الدموع وتبكين . ولماذا تسجدين من أجل الموت ، ولا تلمسينى لأنى لم أصعد بعد إلى ربى وعليك أن تنظرى إلى حبا من أجل أن تصبحى تائبة ومجلة *.

* يذكر الجليل يوحنا (٢٠) قصة مريم المجدلية مع السيد المسيح فيقول : « أما مريم فكانت واقفة عند التبر خارجاً تبكي ... وما قالت هذا التفت إلى الوراء فنظرت يسوع واقتفا قال لها يسوع « يا امرأة لماذا تبكين ؟ من تطلبين ؟ ... قال لها يسوع « لا تلمسيني لأنى لم أصعد بعد إلى أبي ... فجاءت مريم المجدلية وأخبرت التلاميذ أنها رأت الرب ، وأنه قال لها هذا . (الجليل يوحنا ٢٠)

ومن الصعب التتحقق من ما إذا كانت قطعة التمثال هذه التي كانت متصلة أو منفصلة عن أعمدة مداخل الكنيسة.

وكان المشاهد عند بداية تيجان الأعمدة يرى روعة الزخارف التي تزين هذه التيجان إذ كانت عبارة عن نقوش على شكل أوراق نباتية وحليات معمارية صغيرة تزين قمة هذه الأعمدة. وكانت النقوش المنحوتة بدقة والتي كانت على شكل أوراق تزين طرف العمود المربع الذي يستقر عليه طرف القوس كما يوجد فوق طرف هذا العمود أيضا خط من الحلزون المعمارية ذات النمط المحدب . كما كانت عين المشاهد ترى عتيتين من الرخام تعلو الأبواب وتعلو هاتين العتيتين زخرفة معمارية على شكل طبلة *Tympana*، مجوفة الآن، بيد أنها حاليا متائلة بالزخارف الفسيفسائية . وهاتان العتيتان Lintel مختلفتان في الشكل والوظيفة بشكل واضح . ولا يمكن تفسير مثل هذا التناقض وعدم التجانس المعماري ، إذ كان اضطراب الانسجام والتواافق في الزخرفة المعمارية المنحوتة أمراً شائعاً في البوابات . ومن الواضح أن الفنانين الذين أبدعوا أعمال النحت الزخرفية قد عالجوا موضوعات مختلفة قاماً إذ كانت هذه النقوش الزخرفية تتبع إلى مدرستين فنيتين مختلفتين . وكما يوجد في المدخل اليوم، وفي المدخل خلال الحقبة الصليبية ، فإن الاختلاف في الزخرفة المعمارية المنقوشة والمنحوتة كانت واضحة بشكل شاذ وغريب . وهناك ما يبحث الماء على التساؤل ، والسؤال الذي يطرح نفسه هو هل كان التصور الأصلي لمدخل وبوابات الكنيسة أن يكون الشكل ثلاثياً ولم تكن ذات شكل مزدوج ؟ والحقيقة أنه في مثل هذه الحالة كانت العتيتان التي تعلو واجهة البوابات مزينة بزخارف على شكل زهور وأوراق (الزخرفة العربية المعروفة بالأرابيسك) وهي الزخارف التي تشبه تماماً الزخارف المنحوتة التي تزين تيجان الأعمدة ، وتشبه أيضاً تلك الزخارف التي تزين الموضع التي يستقر عليها طرف القوس ، والنقوش التي تزين القنطرة أو جوانبها ، وكانت هذه الزخارف العربية (الأرابيسك) تشكل إطاراً متناسقاً للأجزاء لعتبرة البوابة الرئيسية المركبة المزينة بالرسوم . وثمة سؤال يطرح في هذا السياق وهو هل كان البرج الضخم لجرس الكنيسة المربع الشكل، والذي كان يوجد في الجهة الشمالية من واجهة الكنيسة يعوق تنفيذ مثل هذا التصميم ؟

والحقيقة أنه لا يمكن معرفة التاريخ الدقيق لبناء وتشييد هاتين العتيتين . فلم تتعلق هاتان العتيتان بشكل مباشر بالبناء والتشييد ، فقد نفذ تصميم هاتين العتيتين ما بين أعوام

١١٣م، وعام ١٨٧م وهو العام الذي أحرز فيه المسلمين بقيادة صلاح الدين النصر المُؤزر على الصليبيين في حطين . وكالعادة ، فإن أحد الرحالة من غير الصليبيين (الذى دون مشاهداته في كتاب أسماء وصف الأماكن المقدسة) كان مشغولاً بالأماكن المقدسة والزخارف التي تزين المباني في هذه الأماكن ، وقد أشار هذا الرحالة إلى وجود العتوبات التي تعلو واجهة البوابة.

كانت العتبة اليمنى ضئيلة الحجم ، وكانت عبارة عن بلاطة من الرخام رباعية الشكل ، وتمثل شكلًا منحوتا دائريًا يتنسق والأساق . وكان النمط الأساسي للزخارف والنقوش التي تزين أسفل متنصف الجهة الشمالية من العتبة عبارة عن فرع شجرة ضخمة يبرز منه مجموعة من أوراق النخيل . وكان هذا الغصن مزيّناً بخط موازٍ لثلاثي الأطراف وأوراق متعددة ، تتظاهر إلى شكل نصف دائرة تعلو كل امتداد وطول العتبة . وهكذا فإن العتبة كانت تمثل خمسة مستويات واضحة ، ثلاثة فوقها وأثنان تحتها . وكانت كل الأجزاء الثلاثة المستقلة التي تعلو الفرع الرئيسي مليئة بفروع ثلاثة وحلزونية ضيقة ، وكانت هذه الفروع عبارة عن فرع مرصع ومزينة ببراعات محاطة بخط مزدوج من الفتحات والثقوب الصغيرة . وكانت أطراف الساق الحلزونية مزودة بنقش على صورة زهرة نبات الخرشوف ينشأ عنها مجموعة من وريقات نباتية قصيرة وتظل موجودة وعالية في تعاقبها ، وكانت هذه زخرفة في شكل نقوش على صورة أوراق . وكانت الفروع النباتية الأصغر والأغصان الورقية تنتهي بالتقان في كل اتجاه .

وكان هناك اثنان من التماضيل العمودية على شكل صبيان ، ومقابل آخر في وضع أفقى ، وقد تشابكت أجسام هذه التماضيل مع الزخرفة الورقية الحلزونية الرئيسة ، والتي كانت تملأ الأجزاء الثلاثة المستقلة . وكانت الأجسام العارية للتتماثيل الآدمية (على شكل صبية) تواصل تقدمها في شكل حلزوني كما لو كانت هذه التتماثيل قد انتصبت في حركة دورانية . والحقيقة ، أن هذه التتماثيل الثلاثة كانت تعطي انطباعاً بحركة عجلات زهرية بطيئة .

ويبينما كانت اللوحات الأولى والأخيرة متناسقة ومختلفة بشكل أساسى في الاتجاه ، مع اتجاه العجلة (كانت اللوحة الشمالية في اتجاه ضد عقارب الساعة ، في حين كانت اللوحة اليمنى في اتجاه يتفق مع اتجاه عقارب الساعة) ، فإن اللوحة الوسطى كانت تمثل معظم الصور والأشكال الخاصة . وكان إطار اللوحة الوسطى التي كانت تقع في اتجاه عقارب الساعة مزيّناً بنقشة متسقلة حلزونية الشكل ، وكان التمثال العمودي الموجود جهة شمال اللوحة الوسطى يماطل التتماثيل الأخرى المقابلة له في اللوحات الأخرى ، بيد أن التمثال العمودي المنتصب جهة

اليمين كان مختلفاً . إذ كان هذا التمثال مزييناً بهم على شكل نبات حشيشة التنطرون Cendaur Sagillarius الآدمي من جسد التمثال قلماً كان يناسب ردب حيوان (ووُجِدَت نفس هذه الغرابة والخصوصية في نفس الكتب الصليبية الخاصة بالرسوم التوضيحية)؛ فقد كان التمثال نصف الآدمي يقبض على سهم، وكانت توجد سهام أسفل التمثال الذي نصفه إنسان والنصف الآخر طائر. فقد كان هذا التمثال له رأس امرأة وجسد طائر ، وهذا يذكر المرء بالنقوش والرسوم التي كانت على شكل كائنات أسطورية والتي كانت تزين بعض المخطوطات في العصور الوسطى.

وكانت اللوحات شبه الدائيرية الباقية تتبع نفس النمط وهو النمط الحلواني الثلاثي. وبدلاً من اتجاه الزخرفة الورقية إلى أسفل ، كانت هذه الزخرفة تتعزز إلى أعلى . وما يذكر أن التماثيل الآدمية الثلاثة التي كانت توجد في كل اللوحات السابقة قد استبدلت بطيور . وكان يوجد اثنان من الطيور على الأجزاء العليا من العجلة وواحد من الطيور عند أجزائها السفلية وكانت هذه الطيور تنقر بمنقارها ورق الزخارف المتقوشة . وكان فرع الشجرة الحلواني يملأ الفراغ المحصور بين الحلقات المعمارية الخمس الناقرة، وترتفع هذه الفروع النباتية إلى أعلى وتهبط إلى أسفل فتقسم هذا الفرع إلى نصفين .

وهذا يشير إلى أن فن النحت التولوزي المعاصر (الذي ينسب إلى مدينة تولوز بفرنسا) وفن النحت القبطي قد استخدم نفس النمط وهذا النوع من الزخرفة النباتية، والتي ترجع إلى العصور القديمة : حيث كان يجتمع العشاقي والطيور سورياً وسط مزارع الكروم . ومهما كانت أسبقية وأقدمية هذه العتوبات ، فإن العتبة كفن معماري تأصلت كواحدة من الأشكال المعمارية التي تأثرت بالطرز الوئي الكلاسيكي. وكان أسلوب قص شعر الصبية ذا أصل روماني، ولكن الغريب في الأمر هو أن الشعر كله كان يوضع في خصلة واحدة على العنق أو على الأكتاف . وعلى الرغم من أن الأجساد لم تكن دائماً صحيحة من وجهة نظر علم التشريح (وكان الفن البابلي يتمثل في إيماءة اليد اليسرى للتمثال الأول جهة اليمين؛ وكان الاصبع الأيمن من اليد الثانية تبرز وتشير)، ومن حيث الحركة كان وضع التمثال يتسم بالرشاقة مثلما كان الوضع في فن النحت الكلاسيكي القديم. ومن الملاحظ أيضاً ، أن الأشكال والصور البشرية في النحت لم تكن عارية ، ولم تخاطط طبيعتها الانسانية بشكل دقيق فقط ، بل كانت تخاطط من أجل غرض معين. وهذا ما أشارت إليه التماثيل الآدمية العمودية التي احترتها اللوحات الأولى والأخيرة.

وكما ذكرنا منذ قليل ، فإن العتبة الشمالية التي تعلو الأبواب كانت تختلف من حيث الطراز والذوق والموضوع . ولنذهب إلى براعة فن تصميم العتبة اليمني . فقد تميزت بنقوشها الورقية الملفوفة والتي تتسم بالتناسق والانسجام المعماري الفنى والفخامة والنظام ، والوضع الحر للأجسام العارية ، والذي استبدل بلوحة تفتقر إلى الحركة وكانت أقل اثارة وأقل إلهاما من العتبة اليمنى .

وكانت العتبة هذه تضم ست لوحات فنية تمثل القصص والحكايات الأسطورية المستوحات من حياة السيد المسيح (عليه السلام) ، والتي تتصل بشكل مباشر بمدينة بيت المقدس والأقاليم المجاورة لها . فقد حدثت قصة الأنجليل الباقية (العهدين القديم والمجديد أي التوراة والإنجيل) داخل حدود الضريح المقدس . وكانت الصور واللوحات تمثل تتابع وتسلسل تاريخي للأحداث المقدسة وإن كانت القصتان الأولى من الكتاب المقدس لم تجد تفسيرا - فقد كانت الحادثة الأولى من الكتاب المقدس تصف قيمة القدس من الموت على يد السيد المسيح ، والحادثة الثانية كانت تصف توسل ماريا المجدلية إلى السيد المسيح لكي يقوم بالمعجزة وكانت هذه اللوحات التي كانت تصور هاتين الحادثتين أفضل اللوحات من الناحية الفنية ، ويعتبر الفنان الذي أبدع هاتين اللوحتين والذي قام ببنحت كل أجزاء العتبة والتي استحثت بطراز موحد من الرواد والعباقرة . وتميزت بعض الصور في اللوحات الأولى والأخيرة بالتشابه إلى حد كبير .

وكما ذكرنا آنفا ، كانت اللوحة الأولى تصور قصة حادثة احياء القديس لازر ايوس من الموت ، وحدثت هذه المعجزة داخل منزل ، ووُجِدَ في شمال هذه اللوحة اطار العمود المزخرف ، وهو الذي يميز بداية اللوحة . وكان الرواق الثلاثي المقطر المتد من تاج العمود الذي يستند بشكل مهتز على العمود يمثل شكل مدينة . وكانت تعلو قمم الأروقة قباب تشبه نبات اليقطين Punkin . وقد تناسب خصر العقود Springers المعمارية مع المباني المهمة ، والتي كانت عبارة عن برج مربع من طابقين في الجهة الشمالية ، وبواحة ، وبرج دائري مستدير ، وقبة ، وعقدة عند القمة (والتي كانت تشبه الأبراج الصغيرة الواقعة عند برج داود الذي كان منقوشا على آخر قلعة ملوك مدينة بيت المقدس من اللاتين) .

لقد كانت الصور تنتظم في ثلاثة مجموعات عمودية تتطابق مع شكل الرواق الثلاثي الانحناء ، وعندما نتابع شكل الرواق الأيمن الشاهق الارتفاع ، نجد صورة للسيد المسيح ذات لحية . إذ كان السيد المسيح في هذه الصورة يرتدى ثياباً طويلاً وينتعل صندلًا في قدميه ، واحدى يديه تمسك كتاباً مفتوحاً ، في حين كانت اليد الأخرى تفتح البركة والغفران الصليبي .

وكان السيد المسيح أيضا يلبس فوق رأسه هالة القدس ويلوح بيديه من وراء كتفيه. وفي الاتجاه المقابل، كانت هناك أربع صور قلأ وترین الرواق الأول . فقد نهض القديس لازاريوس من الموت ، ووقف على قدميه ، يرتدي بدلة ضيقة ذات غطاء للرأس وعصابة رأس من النوع الذي يسهل فكه. وكان يوجد خلف صورة القديس صورة لشخصين آخرين ، أحدهما يمسك منديلًا ويضعه على أنفه وفمه ، وأمامه رجل يهدم بلاطة كانت تغطي القبر المقدس. وأخيرا كان يوجد وسط الرواق المتناظر ثلاثة أشخاص ، وكان الشخص الأكثر طولا يضع يده على أنفه وفمه بينما كانت يده اليمنى تقبض على عصا مزودة بحلية مدورة ، وكان الشخص التالي يؤخر يده كما لو كان يعبر عن دهشته للمعجزة التي قام بها السيد المسيح أمام عينيه ؛ وأخيرا نأتى إلى صورة مرسومة ومنقوشة بشكل رائع، وكانت عبارة عن رجل قصير القامة ممتليء الجسم يضع يده على عينيه. وفي مقابل هذه الصورة كانت هناك صورة مريم المجدلية التي تجشو عند قدمي السيد المسيح باكية ومتولسة من أجل التوبة وتقديم آيات الشكر له ، في حين كان يوجد شخص آخر يساعد في تحريك بلاطة القبر وفك أربطة الرجل الميت وتزع أكفانه.

لقد كان تكوين كل هذه الصور والنقش عملاً فنياً بارعاً، فقد شملت هذه اللوحة على عشر صورنظمت جيداً في ثلاثة مواضع منبسطة ، وعلى الرغم من أن الزخارف الورقية المنقوشة كانت أحياناً أمراً مرغوباً فنياً، فإن كل ما احتوته هذه اللوحة كان مثيراً للأعجاب ولاسيما الصور الآدمية التي تحيط بالسيد المسيح والذين كانوا يرتدون ملابس طويلة ذات طيات مثلثة الشكل أو ذات شكل أفقى؛ وكانت لهاهم (الحياة) أما مستقيمة أو متوجة ، وكانت هذه اللحى جديرة بالاحترام والمهابة . وكانت الصورة الأكثر أهمية عبارة عن صورتي الشخصيتين المرافقين للسيد المسيح والذين يحركون البلاطة الخاصة بالقبر المقدس. ومن الواضح أن هذين الشخصين كانوا من خدام المسيح، إذ أن البدل والملابس التي ارتدوها لم تكن تتدلّى حتى أقدامهم ، فكانت هذه البدل قصيرة تشبه بدلة العامل ، وهذه البدل القصيرة كانت تنتشر بوضوح في أعمال النحت والرسوم في العصور الوسطى الباكرة . وكان خدام المسيح يرتدون أيضاً أحذية في حين كان باقي مرافقيه يتعلّون صنادل في أقدامهم . وقد أبرزت هذه اللوحة أيضاً إيماءات توسل مريم المجدلية وتوسلات الرجال الذين تضرعوا للسيد المسيح من أجل قبول التوبة، والذين كانوا يخفون وجوههم وأنوفهم من جراء رائحة منفرة نفثة . والتفسير العادل لسبب إيماءات هؤلاء الرجال ووضع أيديهم على أنوفهم ووجوههم هو نفورهم من الرائحة

النتنة التي كانت تنبئ من جسد القديس لازاريوس عندما كان بين الأموات وقبل أن يحييه السيد المسيح بإذن الله . ولم يكن هذا التفسير مقنعاً بشكل كامل، فقد كانت هناك أحد الأشخاص يضع أصابعه فوق عينيه ، ويمكننا القول إن هذه الإيماءات للصور الآدمية في اللوحة كان تعبر في الواقع عن الأسى والحزن الذي كان يخيم على الجميع الذين حضروا معجزة المسيح في أحياء الموتى بإذن الله . وقد وجدت مثل هذه الإيماءات التي تلمس الأنف في بعض زخرفة المخطوطات والرسومات والتي تنسب إلى الملكة الصليبية في بيت المقدس، ويقيناً أن هذه الإيماءات المتعلقة بالأنف كانت تعبر عن الحزن والأسى.

وكانت اللوحة التالية على النقيض من الناحية الزمنية من اللوحة السابقة، إذ كانت تصور مريم العذلية وهي تسجد وتحشو أمام أقدام المسيح وجثو مارتًا أمام أقدام المسيح وتتوسلها من أجل أحياء لازاريوس من الموت . وكانت الصورة العالية للسيد المسيح والواقعة في منتصف اللوحة تقسم اللوحة إلى نصفين، ولم تكن صورة المسيح هذه (والتي تحظى رأسها وتهشم) أقل روعة وفخامة ، ولكنها لم تكن مناسبة قاماً لهذه اللوحة؛ فقد كان المسيح يجلس فوق كرٌ صغيرة يعلوها صليب ويمسك في يديه كتاباً مفتوحاً من زاوية صعبة . وكان شكل هذه الصورة أقرب إلى منظر صعود السيد المسيح إلى السماء بشكل أكثر من منظر أي شيء آخر . وإلى الشمال، خلف أبراج المدينة ، كان يوجد أربعة من الأشخاص من مدينة بيت حانون Bethany . وكان هؤلاء الأشخاص الأربع يسكنون عصى لكي يؤكدوا رحلتهم من بيت حانون لاستقبال السيد المسيح والترحيب به . وكان سمعان (سيمون) بطريرك مدينة بيت المقدس اللاتيني يمثل في شكل صورة رجل ذي عمامه على الطراز الشرقي، ولاشك أن اثنين من الحواريين كانوا يقفان أمام السيد المسيح ويسكان في أيديهما كتاباً.

وما يذكر أن التلف والضرر قد أصاب اللوحات الثلاث التالية، ولكن لحسن الحظ، تم اكتشاف الجزء المعقود من عتبة بوابة الكنيسة، وقد حفظ هذا الأثر التاريخي في متحف اللوفر في فرنسا، وكانت اللوحة التالية جهة الشمال من عتبة البوابة مقسمة إلى جزءين أفقين، كان الجزء العلوي يشمل صورة لمندوبى وتلاميذ المسيح وهما القديس بطرس والقديس يوحنا وهما يبحثان عن مكان للاحتفال فيه بعيد الفصح؛ وتشتمل الجزء الأسفل من الصورة ، على نقش على شكل سبع ورقات لحواريين الذين يعدون التقديل الذي يضىء مكان القريان . وعندها ، كانت اللوحة التالية تشتمل على صورة للسيد المسيح يقتطع حماراً وهو في طريقه إلى المجيء،

إلى مدينة بيت المقدس. وكانت اللوحة قبل الأخيرة تمثل صورة للسيد المسيح وهو يدخل مدينة القدس: حيث كانت الجموع تستقبله بالهتاف *، وكان بعض مستقبليه يتسلقون شجرة نخيل ، وشوهد البعض الآخر يتسلقون فروع الأشجار، أو كان الشخص يقف فوق كتف زميله من أجل النظر إلى موكب السيد المسيح في أثناء دخوله مدينة بيت المقدس وكان الجزء العلوي من البوابة المؤدية إلى مدينة القدس مزخرفة بالنقوس. فقد كانت مدينة القدس تمثل في صورة حرم مقدس مقبب (تعلوه قبة) ويوجد على جدار هذه القبة فتحات صغيرة بالإضافة إلى قبتين صغيرتين حول الأبراج الصغيرة ، هذه الأبراج التي تنتهي عند كؤوس القربان المقدس الصغيرة التي تحيط بها الشرفات المفرحة.

وكانت الصورة الأخيرة تمثل منظر العشاء الأخير **، وكانت الأروقة الثلاثية الموضحة في اللوحة الأولى في جهتها اليسرى والتي كانت تمثل المدينة المقدسة تنتهي عند عمود ضخم. وكانت قاعدة العمود التي بها أخدود يستند على قاعدة عمود مربعة الشكل وعلى عمود مجذول أو مضفر (ووجد هذا النوع من الأعمدة في قبور الملوك الصليبيين وفي بعض مبانיהם). وكانت اللوحة مقسمة أفقياً بواسطة منظر على شكل دائري وهو عبارة عن مائدة مغطاة بالقماش وتستند بطريقة غريبة على أرجل وركب حواري المسيح. وكان هؤلاء الحواريون العشرة، يجلسون حول هذه المائدة يتلفون حولها كما لو كانت هذه المائدة منتصبة في قاعة . وشوهد القديس يوحنا حليق الذقن مستلقاً على ظهره أمام السيد المسيح؛ ويقف الحواريون على يمين السيد المسيح، ولاشك أن هذه المناظر التي وجدت في الرسم في الصورة حتى ذكرى قيامة القديس لازاريوس من الموت على يد السيد المسيح باذن الله . ويظهر يهودا Zudas

* يذكر لأنجيل متى في ذكرى دخول السيد المسيح مدينة بيت المقدس فيقول «ولما قربوا من أورشليم وجاءوا إلى بيت فاجي عند جبل الزيتون ... والجماع الأكثر فرشوا ثيابهم في الطريق ، وأخرون قطعوا أغصاناً من الشجر وفرشوها في الطريق. والجماع الذين تقدموا والذين تبعوا كانوا يصرخون قائلاً: «أوصنا لابن داود تبارك الآتي باسم الرب أوصنا نى الأعلى». ولما دخل أورشليم ارتجت المدينة كلها قائلة من هذا ؟ قالت الجموع «هذا يسوع النبي الذي من ناصرة الجليل». (متى ٢٠ ، ٢١) .

** يعرف هذا العشاء في المسيحية باسم العشاء الرياني وهو طقس مهم في المسيحية ويرمز لذكرى مسيحية مهمة ترتبط بالسيد المسيح عليه السلام. ويدرك الأنجليل متى ٢١- ٢١ . هذه الحادثة المرتبطة وال المتعلقة بالعشاء الرياني فيقول : «وفيما هم يأكلون أخذ يسوع الخبز، وبارك وكسر وأعطى التلاميذ وقال: «خذوا كلوا هذا هو جسدي». وأخذ الكأس وشكر واعطاهما قائلاً : «اشربوا منها كلكم، لأن هذا هو دمي الذي للعهد الجديد الذي يظل من أجل كثيرين لمغفرة الخطايا ...». (النجيل متى - ٢١) .

على الجهة الأخرى من المائدة، وكان موقعه هذا ومكانه هو المكان المأثور له في فن العصور الوسطى. ومن الناحية الفنية، لم تكن هذه اللوحة أنجازاً فنياً عظيماً. وثمة فروذج آخر فقط من أعمال النحت الصليبي الذي حفظ بشكل جيد الآن، وهو تيجان الأعمدة الرومانسية والخاصة بكنيسة البشارة في الناصرة. وإذا كانت هذه التيجان تقلل أعمال النحت التي ابتكرها الصليبيون في الربيع الأخير من القرن الثاني عشر الميلادي، فإن المرء بقدوره أن يصل نتيجة واستنتاج مؤداه أن الملكة الصليبية في بيت المقدس لم تكن تفتقر إلى المبدعين والفنانين ولا إلى التحف الفنية.

ويستطيع أي زائر لهذه المناطق أن يرى هذه التيجان الخمس الجميلة من دراء زجاج خزانة الملابس المرتفعة المرجودة في حجرة حقيقة مظلمة وذلك في المتحف الذي تحفظ فيه آثار كنيسة البشارة في مدينة الناصرة. ومن غير المؤكد أن الطابع المميز لفن البناء الجديد لكنيسة البشارة في الناصرة في عصر النهضة الإيطالية قد قدر له أن يكون استمراً لفن النحت والعمارة في العصر الصليبي. فقد كان البناء الجديد لكنيسة البشارة يشمل في ساحتها الواسعة بقايا الكنيسة الصليبية، بينما كنيسة الضريح المقدس كانت أكبر كنيسة شيدت في الأرض المقدسة في فلسطين وبلاط الشام. فقد شيدت كنيسة البشارة في الناصرة على الطراز المعماري الباسيليقي بشكل ينافس الكنائس الأوروبية المعاصرة لها، فكان طولها ٢٤٨ قدماً وعرضها ٩٩ قدماً، وكانت تضم ثلاثة أجزاء من المباني الناتئة على شكل نصف دائرة، ويحصر فيما بينهما صحن الكنيسة والجناحين وهي أجزاء جانبية من الكنيسة مفصولة عن صحنها بواسطة أعمدة. وزوّدت هذه الكنيسة بستين عموداً وهي الأعمدة التي أضفت عليها الروعة والجمال وتفوقت فنياً على بعض الكنائس الصليبية الأخرى. كانت تيجان أعمده كنيسة البشارة في القاهرة تقع عند المدخل الغربي والذي يؤدي إلى مذبح الكنيسة عند النهاية الشرقية لمبني الكنيسة. وكان ارتفاع التاج الأكبر يفوق ارتفاع التيجان الأخرى بحوالى الثلث، ويبعد أن هذا التاج كان خاصاً بالعمود الأوسط المزود بالزخارف والنقوش، وكانت التقويمات المسطحة الثلاث. فقط مزينة ببنقوش وزخارف، وكانت تيجان الأعمدة الأخرى المشمنة الشكل تصنع اثنين من التقويمات المسطحة التي تتلائم مع الأعمدة التي تندمج في الأسوار، وأيضاً مع ستة من التقويمات المسطحة المنحوتة. واليوم حيث لا توجد التيجان فوق أعمدتها، فإنه يعتري الشخص شعوراً غريباً عند رؤيته لنموذج صغير لهذه التيجان من خلال مسرح العرائس، إذ تظهر فوق خشبة هذا المسرح قائلةً أدميةً من كل أنحاء العالم، ويفق حوالى ثمان وأربعون قثالاً منهم لكي يرووا حكاياتهم للناس.

لقد كانت السمة المميزة العامة لتيجان هذه الأعمدة تتمثل في ذلك الطوق العلوى المزود بالزخارف . وكان هذا الطوق العلوى عبارة عن خط من الأروقة مزخرف ومزين بحلبات معمارية محدبة ومدعم بممر مقطر ، وهذا القبو كان يمثل مدينة ، وكان هذا الرواق والمر المقطر الضيق والضئيل فى المساحة، بأعمدته وقبابه الدائرية يذكرنا بقناة جر وسحب المياه الرومانية، وكانت النقطة البارزة فى هذه الأروقة والمرات المقطرة (السطح) ترى من أعلى، إذ شخص المرء بصره إلى المبنى الموجود فى الركن، وكان يمكن رؤية بعض الأروقة والمرات المقببة المركبة عند مبنى جانبي آخر أو من خلال برج يعلوه . وكان البهو المقدس المركب يحل محله بهو مزدوج عند أكبر تاج عمود، هذا البهو المزدوج المزود عند نهايته على الجانبين بمواضع يستقر عليه طرف القوس الأفقى الشكل، ويستند على جانبيه اثنان من الأبنية مزودة بعاففة سقف مائل منحدر.

وكان هناك خط متواصل من المرات المقببة المشابهة تتدلى عند منطقة عالية فوق الأعمدة، وكانت هذه المرات متشابهة التصميم . ويعکن القول، إن مثل هذا كان يمثل اختلافا حادا للزخرفة المعمارية التي كانت تميز الأجزاء الثالثة نصف الدائرية لمباني الكنائس الصليبية والتي كانت تعرف باسم الكورنيش. Cornice، بيد أن الانطباع القوى والمؤثر كان يتمثل في ذلك. الطابع المميز لزخرفة قمة تاج كل عمود . وكان أسفل هذه الزخارف المتقدة توجد ثقوب وفتحات في هذه الأقواس المعمارية، وما تزال هذه الثقوب ترى جيدا بألوانها الحمراء والزرقاء حيث كان الفنان يضع تماثيل صغيرة منحوتة في هذه الثقوب بارتفاع ٨ سم .

ولم يتتوفر عنصر الحركة في هذه التماثيل الآدمية ، وهناك استثناءان أو ثلاثة، حيث كان النحات ينزع إلى الحركة عند نحته التماثيل الآدمية . كان عنصر الحركة في التمثال يبرز من خلال ترتيب القدمين، وأيضا من خلال انتفاخ الملابس التي تحركها الرياح بشكل أكبر من حركة ميل و مقابل الجسم . ولكن القاعدة في صنع التماثيل ونحتها هي أن التمثال كان يتم نحتها في أوضاع ساكنة متجمدة: وكانت هذه التماثيل لقديسين يحظون بالتبجيل والتعظيم من جانب المسيحيين اللاتين وعميق التفكير بآياتهم وأشاراتهم الواضحة . وكانت الفتحات والثقوب المسطحة والرأسيّة تعلو اكتافهم ويظهر البرج خلف رؤوسهم مثل أطباق الكنيسة الضخمة . الواقع أنه لم يوجد هناك شيء يدل على نقاط وصفاء أعمال النحت هذه وقلما كانت أعمال النحت الصليبي هذه تتسم بالتوسط المقنع . إذ كان يوجد في كل تاج عمود مادة لاصقة تثبته . وكان طلاء تاج العمود يتم بشكل متقن بنع كله تاج عمود اثنين من الرسومات

المنظورة المتنافرة التي تختلط سوياً لكي تخلق وضعاً فنياً غير حقيقي. وفي الوقت الذي كانت فيه المدينة المزودة بأقواس وقنطر ، والمزودة بثنتين البلاطات ، التي تصنع قوساً فوق الأعمدة والأسطح والتي كانت ترى من مكان عال حيث تظهر الأسقف المنحدرة المائلة والأقواس التدلية، فإن التماثيل الآدمية كانت تصنع على يد الفنانين كما لو كانت أشخاصاً ترفع أبصارها إلى أعلى. وعلى الرغم من أن رؤوس وأيدي وأرجل التماثيل لم تبرز من كتلة الحجر المنحوتة ، فإن المشاهد لها كان يتولد لديه انطباع بأن هذه التماثيل تميل أمام هذا المشاهد، ويتوارد لديه انطباع أيضاً مؤداه أن هذه الأعضاء تكون أقوى عندما ترتفع تيجان الأعمدة عن سطح الأرض بقدر يتراوح ما بين ستة ونصف إلى تسعه أقدام . وقد خلقت التقنيات المختلفة هذا الانطباع المثل في : تجويف عميق وقطع الجزء الأدنى من الفضاء خلف الرؤوس بينما يكون الجزء الأسفل من الجسم متلتصقاً بخلفية التمثال، مستخدماً سطح ناتئ م-curved بشكل حاد على الخلفية المتجمدة ليمثل هالة القدسية للقديسين، مبرزة الفتحات الدائرية العميقة عند ذيل الملابس ، والذي يستطيع المشاهد أن يراها من أسفل فقط.

لقد كانت موضوعات أعمال النحت تنحصر في تمثيل الحكايات والروايات المهمة لذلك الشخص المسيحي الذي يأتي للصلاة في الكنيسة، وتحكى للحجاج المتدينين الأنتياء القصة المقدسة . وكان تاج العمود الرئيسي الذي قدر له أن يزخرف العمود الواقع بين جناحي المدخل أو الواقع بين البوابات يمثل العقيدة المسيحية (أو الكنيسة) وكان هذا التاج على هيئة ملكة تقود قديساً أو حوارياً . وكان ثياب هذه الملكة عبارة عن قطع صغيرة منحوتة مصقوله ومزودة بطيات متعددة الأنواع حول منطقة الثدي (واحستره ، فقد كان القديسون الذكور يلبسون غطاء فضفاضاً من الجوخ ذي طيات على الرغم من أن الفنانين نحتوا قثاماً واحداً فقط ذا صدر مصقول) . وكانت صورة الملكة تمسك في يدها اليمنى عصا يعلوها صليب ، في حين كانت يدها اليسرى تصافح اليد اليمنى للقديس . وكان يعرض سبيل الملكة اثنان من الأرواح الحارسة المنحوتة بشكل جيد ورائع، وكانت الروح الحارسة الأولى تحمل سهماً في حين كانت الروح الحارسة الثانية تحمل ترساً ورمحًا . وأيضاً وجد خلف القديس اثنان من الأرواح الشريرة . ويمكن إضافة أن هذه الأرواح الشريرة كانت ترتدي نصف ملابسها وتظهر في صورة جهاز عضلي مزين بحلى معمارية، وكانت صورة هذه الأرواح الشريرة تتطقط أكثر بالحياة أكثر من صورة قثاماً آخر. وعلى الرغم من المصير البائس الذي أصاب هذا القديس الذي نكب بهذه الأرواح الشريرة، فإن هذا القديس كان يشتهر من أتباع هذه الملكة صاحبة السلطة .

وكان الموضوع العام الذي يخدمه تاج العمود الرئيسي أكثر ملامحة لمدخل هذه الكنيسة، وأيضاً أكثر ملامحة لأية كنيسة أخرى في العالم المسيحي. بيد أن موضوع تاج الأعمدة الأربع الأخرى كان ينقل شعوراً غريباً جداً. فقد كان موضع هذه التيجان الأربع المعمارية تتعلق على التوالى بالقديس توماس والسيد المسيح، والقديس بطرس ، وقصة السمك الاعجazi*، والقديس بطرس وطابيشا Tabitha ، وسفارة التبشير والسفارة المشكوك فى نسبتها إلى القديس بارثليميو إلى بلاد الهند؛ والرسالة المشكوك فى نسبتها إلى القديس متى إلى بلاد أثيوبيا ، والقديس جيمس والاشعار الرسمى بشيخوخته ووفاته. وهكذا فإن المقالة والرسالة الرئيسة كانت تتعلق بالحواريين أو بقصة رسالتهم التبشيرية، الأمر الأكثر غرابة هو أن تاج الأعمدة لكنيسة البشارة قد وجدت في مكانها التقليدى . ومن المؤكد أن الرسائل التبشيرية المسيحية لم تكن تشغله بالصلبيين بدرجة تكفل تدوين هذه الرسائل على بوابات ومداخل كنيسة البشارة في الناصرة . ويعکن الاعتقاد بأن هذه الصور المنقوشة والمنحوتة التي وجدت على واجهات مبني كنيسة البشارة كانت منحوتة وملونة، أو صنعت من الفسيفساء على العتبات أسفل وتحت قلب القوصرة الغائر Tympanum أو كانت تحفظ داخل جدران أروقة الكنيسة الكاتدرائية .

ويبدو أن وصفاً مختصراً لتيجان الأعمدة لكنيسة البشارة في الناصرة يصبح أكثر فائدة وكان التمثالان الرئيسيان في أول تاج عمود يواجهان المشاهد مباشرة، وكانتا عبارة عن تمثال للسيد المسيح وقتل للقديس توماس، وكان كل تمثال يتتصدر أحد الأجزاء الناثنة من مبني الكنيسة في وضع يشبه المشكاة، إذ كان السيد المسيح يرتدي غطاءً من الجوخ يغطي كتفه الأيسر والجزء الأسفل من جسمه، وترتفع يده اليمنى لتشير إلى القديس توماس الجريح الذي يقف بجواره . وكانت يده المرتفعة تبرز عبر خط التقسيم الذي يفرق شعره. وبسط القديس توماس يده اليسرى، والتي تساعده يده اليمنى في لمس الجرح. وكانت يده المنبسطة تبرز من خلال غطاء ثقيل من الجوخ ، في حين كانت اليد الأخرى تسك ذيل العباءة (ويبدو أن كل القديسين كانوا مشغولين تماماً بامساك ملابسهم). وكان رداء القديس توماس منقوشاً بأناقة

* ترتبط هذه القصة بالمعجزة التي حدثت على يد السيد المسيح عليه السلام، إذ استطاع إثبات أربعة آلاف رجل بأن قدم لهم سبع خبزات وتقليل من السمك. وقد ذكر الجليل متى ١٥ هذه الحادثة المقتسنة فيقول : «ثم انتقل يسوع من هناك وجاء إلى جانب بحر الجليل ، وصعد إلى الجبل وجلس هناك، فجاء إليه جموع كثيرة .. وأما يسوع فدعوا تلاميذه وقال «إني أشفق على الجمع... وأخذ السبع خبزات والسمك، وشكروكسر وأعطى تلاميذه والتلاميذ أعطوا الجميع، فأكل الجميع وشعروا». (الجليل متى ١٦-١٥) .

وجمال ، تلك النقوش التي أخذت شكل دواير وحلقات حول ملتقى أعضاء الجسم (الركب الأكعاف ، والمرافق elbows) .

وكانت نهايات لباس القديس مزخرفة بنقوش ، وتتدلى من عنقه قلادة على شكل المعين الهندسي ، كما كانت تتدلى خصلة من الشعر المعد خلف رأسه. ويرجع الفضل في ذلك إلى الأسلوب المميز للنحت الرومانسي في أنه جعل عظم الساق الأكبر للتمثال قصيرة، والأفخاذ ممتدة مستطيلة ، وجعل أيضاً قطعة قماش من الجوخ تضغط على ركبة تمثال القديس- وكان وضع أعضاء الجسم في حالة حركة ورغم ذلك لم تكن هذه الحركة متقدة، إذ كان التمثال يشبه شخصاً يغوص في الماء. وكانت تماثيل الحواريين الشمانية منتشرة في الكروات والفتحات التي توجد على جانبي النتوءات المسطحة لبني الكنيسة المزينة بالصور والرسومات. فقد كان تمثال القديس بطرس يمثل قصتين مختلفتين من قصص إرساليته التبشيرية، إذ كان هذا التمثال يرتفع فوق النتوءات المسطحة الثلاثة. فإذا شخص الإنسان ببصره جهة اليمين فإنه يرى صورة تمثل قصة السمك الإعجازي التي وردت في العهد الجديد (الإنجيل) . وكان النتوء المسطح الواقع جهة اليمين صغيراً وعلى شكل هلال وقد نقش عليه صورة قارب يحركه اثنان من الحواريين، كل واحد منها يقبض على دفة قارب مستديرة. وتتدفق الأمواج بقوة تحت القارب، وتصل إلى قارب آخر حيث كان القديس بطرس يمشي على الأمواج ويترجل فوق الماء. وكانت الصورة الثانية عبارة عن السيد المسيح يقف أمام حواريه. إذ كانت النتوءات المسطحة الثلاثة البارزة تعلوها صورة توضح قصة قيام طابشيا من الموت في مدينة يافا على يد القديس بطرس . حيث كان طابشيا مستلقياً على سرير خشبي (وكان أحد جوانب السرير مزودة بأقواس على شكل قناة يجر المياه ممتدة فوق الصور)، وهو شبه عار، يحاول أن ينهض وينفض عن نفسه غبار الموت بمساعدة أحد الشباب (ومن المحتمل أن يكون هذا الشاب هو القديس يوحنا) . وكانت عضلات يد طابشيا اليسري منهكة القرى ومجهدة تعبرها عن مجده إقامته من الموت بين الأحياء . وكان التمثال المنحوت معتملاً الصدر، وكان الحواريون يشغلون النتوء المسطح الأخير من تاج العمود.

وكان الطابقان من مبنى الكنيسة يشتراكان في قمة التاج التالية، وبالرغم من ذلك، فإننا لا نعرف على وجه اليقين بما إذا كان كل طابق يشمل ثلاث فتحات أو كوات أو أن أحد هذه الطوابق كان له اثنان من الفتحات والطابق الآخر كان له أربع فتحات . لقد كان الطابق الأول من المبني يحمل صورة توضح الإرسالية الدينية التي قام بها القديس بارثليمي parthilemeo

إلى بلاد الهند حيث قام هذا القديس بمعجزة هناك وهي إحياء ابن الملك بولونيوس من الموت. والمعجزة الخاصة بابنة الملك التي كانت تنتابها الهواجس التي يسببها شيطان رهيب يفتح فمه ليكشف عن أسنانه الرهيبة . لقد كانت هذه السيدة المذكورة تبحث عن القديس من أجل علاجها وتخليصها من هذا الكابوس . وكانت التنويمات المسطحة الأخرى تشمل صوراً ورسومات توضح القديس جيمس الشهيد. هذا القديس الذي بلغ شهرته عند كبير الكهنة في قصر الملك هيرودوس. وكان كل فرد من هذه الشخصيات المقدسة البارزة ترتدي عباءة مزخرفة وياقه مرصعة بيازار ومزخرفة أيضاً، بالإضافة إلى ارتداء غطاء للرأس غريب الشكل، وكان هذا الغطاء بوشاح مزدوج يتدلى خلف الرأس .

وثمة قديس آخر في طريقه إلى الموت يقوم بعمادة يوشيا Josia الناسخ على الرغم من أن يديه كانتا مربوطتين في عنقه بحبل متين. ويتابع الموت عندما يشهر الجلاد سيفه المسلول فوق عنق القديس الشهيد. وتظهر بعض الشخصيات مجهرولة الهوية في الكوه الأخيرة في الحائط يناقشون هذه الأحداث. ومن الغريب قاماً أن ارجل الجلاد كانت عارية حتى الركبتين ، وربما كان هذا الشكل أفضل أنواع الصور المنحوتة . وصور سيف الجلاد بشكل منحنى لكي يلائم المكان الصغير والقبو الصغير ، وكان وضع هذا التمثال أقرب إلى شكل راقص رشيق أو مبارز بالسيف رشيق أيضاً.

وكانت الصورة التي توجد على تاج العمود الأخير تمثل نقشاً للقديس متى بيد أن هذا النقش موضع شك في نسبته لهذا القديس . وهذا النقش السابق يصف رحلة القديس متى التنصيرية إلى بلاد أثيوبيا حيث استطاع هذا الحواري أن يشفى ابن ملك أجليس Eglippus من رعب السحرة المحليين، زاروس Zaroes ، وأرفاكساد Arphaxad . فقد تجمع الملك وابنه والسحرة بشكل أخذ ولا يت للنظر. وعندئذ تغير موضوع الكلام وتحول المنظر إلى صورة الملك وهو يرتدي تاج الملك الخيالي. وكان الملك يرنو إلى زواج ابنة اخته التي كانت تسمى أنيجيينا Iphigenia ، وعارض القديس متى هذا الزواج الباطل، وهنا سجدت أفيجيينا أمام قدمي القديس تلتمس منه الرضا وتستجدى بركتاته . ويظهر في الصورة أيضاً مجموعة من أربعة أشخاص ، اثنان منهم مجهرولو الهوية ، وواحد حليق اللحية ، والقديس يهزم اثنين من الأشرار، وكانت كل هذه الصور قلباً باقي التنويمات المسطحة المعصورة بين حزو ز الأعمدة.

لقد قيم بعض المؤرخين من أمثال انلارت Enlart، وديشامبس P. Deschamps أعمال النحت التي احتوتها كنيسة البشارية في الناصرة ووصفوها بأنها من أجمل أعمال النحت التي

أبدعاتها يد الفنان على الطراز الرومانسكي. ويبدو أن أعمال النحت هذه قد تأثرت بنماذج النحت البرجandi ويعض الزخرفة البرجandية والتى كانت وثيقة الصلة بزخارف أعمال النحت فى بيرى Berry . ولاشك أن أعمال النحت هذه كانت من إبداع فنان ونحات عظيم ، من نحاتى الغرب الأوربي . وظهرت هذه الصور والتماثيل فى شكل يمثل أنماطا فنية سامية وجدت فى مدارس فن النحت فى إقليم برجاندى . والشيء الأكثر غرابة هو أن أعمال النحت الخاصة بكنيسة البشارة فى الناصرة كانت ترتبط باسمة واحدة فقط من السمات التى تتعلق بالأرض المقدسة، وهى أن بعيرة طبرية كانت تظهر فى حاضرة القديس بطرس. فلم تكن المباني المسقوفة تشيد فوق أعمدة مسطحة كما أن هذه المباني لم تزود بالقباب الشرقية ، وكان أحد هذه الأسقف يشبه جزءاً من المأدبة الفسيفسائية التى ترجع إلى القرن السادس الميلادى ، بيد أن مثل هذا يعتبر وهمًا وخاليا خادعاً . وكانت هناك سقوف على شكل جملون ، وهى سقوف منحدرة جهة الشمال تقام على أعمدة تشبه الأعمدة الرومانية ويبدو أن أعمال النحت السابقة كانت مستوردة من أوروبا من حيث الفكرة والتنفيذ. فلم تكن فترة الإزدهار الاقتصادي التى عاشتها المملكة الصليبية فى بيت المقدس والتى استمرت ما يقرب من جيلين كافية لتدشين وخلق مركز فنى فى مدينة بيت المقدس. ففى مجال فن النحت ، وكل فروع الفنون الأخرى ظلت المملكة الصليبية بمثابة مستعمرة تتوجه بشكل طبيعى إلى استيراد أو تقليد الأنماط الفنية الشائعة فى الأقاليم الأوروبية المعاصرة.

جـ- المنمنمات وزخرفة المخطوطات بالنقوش الذهبية والنفضية والألوان الساطعة

يقول المثل الرومانى الدارج «إن مصير بقاء الكتب يرتبط بمصير وبقاء صاحبها habent sua Fata Libelli وهذا المثل يعكس بدقة المصير الذى آلت إليه الكتب والمخطوطات التى دونت فى المناطق الصليبية فى بلاد الشام وفلسطين ، فقد ضاعت وفقدت معظم الكتب التى أنتجها الصليبيون ، ولكن الذى يجلب السرور هو أن هذه الكتب والمخطوطات لم تفقد بشكل كامل . وما يذكر أن المكتبات الكبرى فى الغرب الأوربى ضمت بين جنباتها بعض الكتب التى تم اكتشافها وزخرفة بالنقوش التى تنتمى إلى المملكة اللاتينية فى بيت المقدس، ومن ثم، فإنه باستطاعتنا الآن وصف هذا النمط من الفن الخاص بزخرفة الكتب والمخطوطات ، والذى وجد بعد عملية الاكتشافات الأثرية منذ ما يقرب من عشر سنوات.*

* لقد ثفت الاكتشافات الأثرية لهذه الكتب والمخطوطات الصليبية فى ستينيات هذا القرن ونقلت هذه المخطوطات إلى المكتبات الكبرى فى أوروبا لحفظها . (المترجم) .

لقد تم العثور على عشرين كتاباً مزخرفاً بالنقوش وتنسب هذه الكتب جميعها إلى ملكة بيت المقدس اللاتينية منهم أربعة عشر كتاباً من الكتب الدينية المسيحية ، وهذه الكتب تشمل كتب المزمير، وكتب الأسرار المقدسة ، وكتب القدس الكنسي ، وكتب أسقفية ، وترجمات مقتبسة من العهد القديم (التوراة) ؛ ومنهم أيضاً ثلاثة كتب عبارة عن حوليات تاريخية عامة وثلاثة كتب عبارة عن حوليات تاريخية صليبية تنتهي إلى القرن الثالث عشر الميلادي. ويمكن القول إن هذه الكتب الصليبية التي حفظت من التلف والضياع تنتهي إلى مراكزين لنسخ وزخرفة الكتب والمخطوطات وهما: مركز النسخ في مدينة القدس ، ومركز النسخ الآخر في مدينة عكا في القرن الثالث عشر الميلادي. ومن المدهش حقاً أن أنطاكية التي كانت تعد أغنى المدن الصليبية وأكثرها ثروة لم يوجد بها مركز لنسخ الكتب وتزيينها ، على الرغم من أنها يحدونا الأمل في أن تظهر كتب صليبية نسخت في أنطاكيه كما هو الوضع بالنسبة للمؤلفات والكتب الصليبية التي نسخت في قبرص.

وتجدر الاشارة إلى أن معظم الكتب الصليبية التي حفظتها الأيام والسنوات لنا قد تم زخرفتها وتزيينها بشكل ينم عن الترف ، الأمر الذي يجعلنا نعتقد بأن مثل هذه الكتب كانت من مقتنيات الأشخاص الأثرياء في المجتمع. فقد كان البيت الملكي الصليبي الحاكم في بيت المقدس، وربما أيضاً في قبرص ، ينبع براءة التداول لهذه الكتب الصليبية المتقدمة الصنع، ومن العقول أيضاً أن الكتب الأخرى كانت تخصص لبيوت النبلاء في أوروبا. ويبعد أن المراكز الكنسية الأوروبية كانت تمتلك مثل هذه الثروات من الكتب المنسوخة ، ولكن حتى الآن لم نستطع تحديد هوية ونوعية هذه الكتب . فقد ساهمت الاكتشافات الأثرية الآن في امكانية تحديد نوعية هذه الكتب، وكانت معظم الرسومات والزخارف تنتهي إلى أماكن وأقاليم متعددة، وربما كانت هذه الرسومات ذات أصل صليبي . ونحن نشير هنا إلى مجموعة من الأيقونات الجميلة التي وجدناها في دير سانت كاترين في سيناء . ومنذ أن ظهرت أول دراسة قهيدية مثل هذا الفن في نسخ الكتب وزخرفتها، لم نتناول هذه الأيقونات في مناقشاتنا العلمية.

وجاء انطباعنا الأول من خلال زخارف هذه المخطوطات ولاسيما زخارف المخطوطات التي ترجع إلى القرن الثاني عشر الميلادي، وعلى الأخص المخطوطات البيزنطية . فقد نقل إلينا الناسخ البيزنطي صوراً كثيرة لقصة الكتاب المقدس والمتعلقة بصلب المسيح وصعوده إلى السماء. فتتعدد مخطوطات مزينة بالذهب والفضة، وتحتل هذه الزينات في رسوم وأشكال

كهنوتية ونقوش بيزنطية . وعلى أي حال، فإن التحليل التفصيلي لهذه المنمنمات يكشف عن أصل مختلف لها أي ليست ذات أصل بيزنطي . فقد قام أحد النساج الأوربيين بنسخ النص اللاتيني للأنجيل المقدسة، وكذلك نسخ كتب الأسرار المقدسة وكتب القدس الكنسى؛ إذ كان التقويم الكنسى أوربياً غريباً وتكشف هذه المنمنمات نفسها عن الأصل الأوربى لها، وتم نسخ هذه المنمنمات باتفاق على الطراز البيزنطية، فقد اعتبر النساج الذين نسخوا مخطوطاتهم أنها مقدسة تماماً، الأمر الذى جعلهم ينأون عن استخدام خيالهم الخاص بهم عند النسخ. وبالإضافة إلى ذلك، فإن ابداعاتهم الفنية ومهاراتهم فى مجال النسخ كانت متواضعة وفقيرة ، فلم تتجاوز هذه البراعة الفنية حدود خيالهم. وكانت كل التغيرات التى أجرتها هؤلاء النساج تؤدى إلى انخفاض مستوى فن النسخ، فقد كانت الصور والأشكال المرسوم فى اللوحة ، تتغير من حيث الوضع والإيماءة إذا انتقلت إلى لوحة أخرى، ولاشك أن مثل هذا كان نتيجة الرسم غير المتقن. وقد انتقلت إلى لوحة أخرى، ولاشك أن مثل هذا كان نتيجة الرسم غير المتقن. وقد أفضل النتائج عندما قلد النساخون النماذج الأصلية من المخطوطات المزخرفة.

وكانت أولى المخطوطات التي نسخت في حجرة النسخ الخاصة بكنيسة الضريح المقدس هي مخطوطة الملكة الصليبية ميليساند Melissande لكتاب المزامير «الذى يرجع إلى الفترة من عام ١١٣١-١١٤٣م. وكانت إحدى المنمنمات الجميلة لهذه المخطوطة تصور عيد زيارة السيدة مريم العذراء ، وتثلل السيدة العذراء وهى تعانق اليهابيث . وكانت ملابسهم المتداولة ورداً لهم الكهنوتى ومعاطفهم ذات النقوش المربعة والمصنوعة من الج FOX الراقى مثيرة للإعجاب والرعب. وكانت حركة الأجسام في الصورة تنقل إلى المشاهد توتراً مشيراً ، وقتل هذه الحركة في القبلة وفي العنق المحرق. وتساهم خلفية القماش الرفيعة في تزيين الملابس السوداء بطريقة تبرز مزايا هذه الزينة، في حين كانت الألوان الخفيفة للرسوم والخطوط السوداء تؤكد تلقائية عملية العناق، بيد أن منمنمة أخرى في نفس المخطوطة (مخطوطة الملكة ميليساند) ، والتي تصور تحلى مريم العذراء في الهيكل، كانت قد تجمدت وافتقرت إلى الحيوية الفنية والحركة. وكان رسم سقف المعبد هو الرسم الجيد فقط ، إذ كان هذا السقف على شكل بصلة أو قبة مزودة بطبقة صغيرة ترتكز على مبني دائري. وجاءت صورة الكاهن الأعظم وهو يصافح السيد المسيح بشكل فنى جيد حيث كان يدير ظهره إلى السيد مريم العذراء، بيد أن السيدة العذراء التي رسماها الفنان ، كانت غير راغبة في استعادة الطفل الوليد. فاليسع يبسط يديه لاستقبال أمه التي تعرض عنه. وأيضاً يحرك ابهام يده اليمنى إلى أسفل إشارة إلى رفضه واستهجانه، وربما كانت هذه اليد مشلولة لا تتحرك. ويظهر القديس يوسف النجار برجمه الحزين يدوس على القدم

الأمين للسيدة العذراء ، وكانت صورة السيدة العذراء جهة اليمين ومزودة بالخلية البيزنطية التي كانت على شكل درج لولبي. وتفتقر هذه الصورة إلى الحيوية. وقد أوضحتنا أن الفنان قد انحرف عن النموذج الفنى المثالى عندما صور السيد المسيح وهو يصافح الكاهن الأعلى عن طريق السيدة مريم العذراء . وقد ساهمت هذه المتناقضات فى خلق نمط فنى يفتقر إلى الجودة والإبداع، حيث أصبحت وقفة السيدة العذراء في الصورة مشوهة لأنه استبدل يديها بأشياء أخرى.

وفي الغالب ، كان رسام المنمنمات يستخدم أغاطا فنية مختلفة وهى الأنماط التى حاول أن يجمعها فى لوحة واحدة، ولم تكن النتيجة دائمًا مرضية فنيًا . وهكذا، ففى أثناء قيامه القديس لازاريوس من الموت على يد السيد المسيح ، كان كل شىء تقريبًا غير طبيعى ، إذ كان القبر يشبه منزلًا يقف القديس لازاريوس عند مدخله على قدميه ووجهه أكثر نضارة وحيوية. بيد أن الجزء الأكثر غرابة في اللوحة هو الصور الأخرى التي تشملها اللوحة . فقد رسمت القديسة مريم العذراء والقديسة مارثا في صورة قزمية ضئيلة عند أقدام المخلص (السيد المسيح) ، وظهرت صورة الخادمين في نفس الحجم؛ ومن الواضح أن بلاطة القبر كانت متوازية بشكل خطير لایلام القبر ويبعدوا أن أحد خدام المسيح وحواريه قد فر هاربًا من وطأة ثقل بلاطة القبر. وهكذا فإن زخرفة المنمنمات كانت أكثر غرابة وأقل تهذيبًا . ومن الواضح أن الفنان قد رسم صورًا من مختلف الأفاطن الفنية، بيد أن هذه الأنماط المختلفة لم تستطع أن تخلق وحدة فنية متألقة. وفي بعض الأحيان كانت المخطوطات التي تنسخ بشكل عادى تحتوى على لوحة أكثر جمالًا وروعة . فقد تم تصوير حادثة سعف يوم الأحد* حيث دخول المسيح إلى بيت المقدس فى شكل صورة رائعة الجمال . وهى الحادثة التي شهدت خروج أهالى مدينة القدس عبر بواباتها لاستقبال المسيح، وظهر هؤلاء القوم المستقبلون فوق الصورة التخطيطية للقبر المقدس (الهيكل). وظهرت في الصورة أيضًا شجرة النخيل التي تسلقها أحد الرجال

* يذكر أنجيل متى في الاصحاح الحادى والعشرين ذكرى حادثة دخول المسيح مدينة القدس واستقبال أهالى المدينة له فيقول : «... ولما قرروا من أورشليم وجاءوا إلى بيت فاحى عند جبل الزيتون حينئذ أرسل يسوع تلميذين، قائلاً لهم إذا دهبا إلى القرية التي أمامكم فللوقت تجدان أتانًا مربوطة وجعلها معها فعلاهما وأتياني بهما ... وأتيا بالأatan والجحش ووضعوا عليهما ثيابهما فجلس عليهمما والجمع الأكثر فرشوا ثيابهم في الطريق وآخرون قطعوا أغصانا من الشجر وفرشوها في الطريق، والجموع الذين تقدموا والذين تبعوا كانوا يصرخون ... ولما دخل أورشليم ارتجعت المدينة كلها؟ (أنجيل متى الاصحاح الحادى والعشرين ، ٢٧، ٢٨) . (المترجم) .

وكانت هذه الشجرة مزينة بزخارف شملتها كلها . وفي شمال اللوحة، كانت توجد الرأبة العالية الضخمة الخيالية التي قتلت جبل الزيتون ، وخلف هذا الجبل وجد معبد روماني مزود بتمثال لمعبود أو لشیعه أوریما كان هذا التمثال للسيد المسيح. إذ كان السيد المسيح يقتطع ظهر حمار بشكل جانبي ولذا كان يمكن رؤيته من ناحية الوجه، بيد أن هذا الحمار الذي كان بمتطهيه السيد المسيح قد صور وكأنه يطير في السماء ولم تلمس أقدامه الأرض، وهذه الصورة تذكرنا بقصة الالسرا والمعراج والرحلة الاعجازية الذي قام بها سيدنا محمد عليه السلام* على ظهر البراق وهو الحصان الأسطوري الخرافى .

ومما يذكر أن الفنان الذى رسم منمنمات كتاب المزامير الخاص بالملكة الصليبية ميليسند قد ترك نقشا بتوقيع اسمه وتبيين أن اسمه ديسيس Dessis . وقد كتب تحت أقدام المسيح عبارة مليكتنا Basilius . وعلى الرغم من أن كلمة بسييلوس التى تعنى ملك كانت يونانية، فإن هذه الكلمة كانت أكثر تداولا بين الصليبيين، والأمر الأكثر طرافة في بيزنطة هو التدريب الذى خدمه في احتراف هذه المهنة . أو ربما ترجم الفنان كلمة بسييلوس Basilius أى الملك أيضا . ومن الغريب أيضا أن الفنان الذى عمل في نسخ المخطوطات في حجرة النسخ في بيت المقدس في ثلثينات وأربعينات القرن الثاني عشر الميلادي وزميله الذى نحت عتبة واجهة وبوابة مبني كنيسة الضريح المقدس كانوا غير مدركين لنشاط كل منهما الآخر . وكانت بعض صور المنمنمات عبارة عن صورة للقديس لازاريوس في أثناء قيامته من الموت على يد المسيح ، وصورة دخول المسيح مدينة القدس وكذلك صورة العشاء الريانى، بيد أنه لم يكن هناك أدنى أثر لهذا الاتصال بين صورة العشاء الريانى وبين صورة دخول المسيح لمدينة القدس . وربما كانت هناك حالة من الغيرة المهنية ، بالرغم من أن الفنانين اللذين أنجزا نسخ كتاب المزامير الخاص بالملكة الصليبية ميليسند وتنفيذ عتبة مبني كنيسة الضريح المقدس لم يكونا معاصرین لبعضهما . وعلى أي حال ، فإنه من الواضح أن الرسام الذى رسم المنمنمة فى مدينة بيت المقدس لم يجرؤ على إدخال اللون الفنى المحلى فى فنادجه الفنية البيزنطية، باستثناء قبة المعبد - وكانت هذه القبة صغيرة على غرار قبة القبر المقدس أو قبة مسجد عمر - ولم توجد علاقة بين خلفية الصورة والمناظر المحيطة بها .

* كان لابد للمترجم أن يسوق تعبيراً يتفق مع ديانته الإسلامية ولذا بلأ إلى تعبيرات غير التي ذكرها المؤلف (المترجم) .

ومن الواضح تماماً أن عدداً كبيراً من الفنانين قد أبدعوا زخرفة مخطوطة الملكة ميليسند بالذهب والفضة والألوان الساطعة . وقام فنانون أقل خبرة بتنفيذ صور سلسلة القديسين المتعلقة بالابتهاles الكنسية . وهنا نكرر القول إن الرسام قد اتبع النماذج والطرز الفنية البيزنطية . ومن الناحية الفنية، كانت النسخات متoscلة الجودة ، وكانت هذه النماذج منتشرة التداول وثمة دليل يؤكد انخفاض مستوى الناسخ فنياً وثمة فنان آخر قد انهمك في نسخ مخطوطة الملكة ميليسند ، وقد قام برسم الصور التي وجدت في الصفحات الأولى المدونة بها الطقوس الدينية للنص . وكتب الحروف الأولى باللون الأسود علىواجهة المخطوطة المذهبة، في حين كتبت آية من الكتاب المقدس على باقي الصفحة بحروف ذهبية مزخرفة على قطع طويلة ضيقة من القماش، ويوضح تحليل هذه الزخارف والحراف أنها تدل على براعة فنية وأن هذا الفنان المبدع قد اشتغل بإداعه وإيهامه من معظم المصادر التي وجدت طريقها إلى الملكة الصليبيةأخيراً خلال مراحل التحول . وهكذا فإن حرف B الجميل هو أحد حروف كلمة Beau-tus ذات الأصل الانجليزي . وكان ينطلق من جذع الحرف كوكبة قوس في الجزء الأعلى ويظهر تنين يتسلق شجرة يقطف زهرة من الجزء الأسفل من الحرف . وكان المزيج الفني الفرنجي السكسوني يصل قمة وقوع الساق بأطر الحرف . وكانت كل هذه الرسومات الرومانسكية الجميلة تنتهي إلى شمال أوروبا ، حيث كانت إطارات الحرف مزخرفة برسومات زهرية، ويتصل بهذه الإطارات صورة نسر وطائر أسطوري في الإطار العلوي للحروف وصورة الملك داود وهو يعزف على القيثار ، وترجع كل هذه الرسومات والصور إلى المجلترا في القرن الثاني عشر الميلادي ولم تكن النماذج الفنية الإنجلزية هي مصادر الإلهام الوحيدة للفنانين المبدعين . إذ كانت وفرة الفن الرومانسي يشق طريقه صوب نمط فني منظم . وما يذكر أن الروح الكلاسيكية في فن نسخ المخطوطات هي التي جعلت مدينة القدس تتصل بحجرة نسخ المخطوطات في موانت كاسينو . وثمة نموذج آخر يدل على هذا التأثير المركب يتمثل في الحرف الأول من اسم السيد المسيح وهو حرف D . وكانت هناك صورة مشابهة تماماً للنماذج الفنية الإسلامية . فالحقيقة أن زوجين من المربعات المركبة  قد وجدت ضمن الزخارف التي كانت تزين المخطوطات الفاطمية في مصر الفاطمية . بيد أن هذا النموذج الفني لم يأت مباشرة من الشرق الإسلامي . فالمارد البحري (حصان خرافي ذو قائمتين أماميتين وجسد منته بذيل دلفين أو سمكة وجناحين) يقف في القمة على شمال الحرف وكذلك توجد حيوانات خرافية (الحيوان الخرافي له جسم وأرجل أسد وله جناحاً ومنقار نسر وأذنان) في شكل حروف أولية

مشابهة كانت من جنوب ايطاليا ، أو على الأرجح من خلال تأثير حجرة النسخ في مونت كاسينو . وترجع بعض المخطوطات المزخرفة إلى حجرة النسخ في بيت المقدس في القرن الثاني عشر الميلادي . بيد أن مزاياها الفنية تقل عن أهميتها التاريخية وهذا ما يدل على ندرة فن زخرفة المخطوطات في مملكة بيت المقدس اللاتينية .

وما يذكر أن تدوين أول نسخة من الكتاب المقدس (الإنجيل) في منطقة الشرق العربي الإسلامي قد تم قبل العصر الصليبي بمائة عام تقريباً ، وماتزال هذه النسخة تحتفظ في مكتبة الارسينال بباريس ، وتعرف هذه النسخة باسم الجبيل الارسينال . وكان هذا الكتاب الجميل عبارة عن مقططفات من الترجمة الفرنسية للعهد القديم (التوراه) والأسفار الأربعية عشر ، وقد احتوى هذا الكتاب على عشرين صفحة كاملة مزخرفة ومزينة ، وهي الصفحات التي ظلت تستخدم كغلاف لعنوان الكتب المقدسة المختلفة . ويمكن مقارنة فخامة نسخة الجبيل الارسينال بالنسخة الشهيرة للكتاب المقدس الذي يعرف باسم الجبيل موراليس ^٦ Moralise في باريس ومقارنتها أيضاً بصورة نسخة كتاب العهد القديم الموجود في مكتبة مورجان . وثمة دليل داخلي يشير إلى نسخ بعض المخطوطات في الأرض المقدسة في فلسطين في القرن الثالث عشر الميلادي ، وهو ذلك المجلد الفخم الذي أمر بنسخه الملك الفرنسي لويس التاسع في أثناء مدة إقامته في المملكة الصليبية في عكا والتي استغرقت أربعة أعوام (١٢٥٤-١٢٥٨) . والتنفيذ الفخم لنسخ هذا المجلد يذكينا بالكتب المقدسة التي نسخت في أوروبا في نفس الحقبة الزمنية . والحقيقة أنه كان يوجد اتصال مباشر بين تلك النسخ التي أعدت في أوروبا وتلك التي أعدت في منطقة الشرق العربي . ولاشك أن الفنان الذي نسخ وزخرف الإنجليل الفلسطيني والذي أنتج في حجرة النسخ في عكا قد استخدم النموذج الأولي في فن النسخ والزخرفة . ولم يستخدم هذا الفنان النمط البيزنطي من حيث استخدام الصور الفردية والصور الكاملة ، ولكنه اقتبس من النماذج الفنية في النسخ والزخرفة التي كانت سائدة في أوروبا ولاسيما فرنسا وهي النماذج التي كانت بشابة نماذج معدلة للفن البيزنطي .

وثمة مثالان ينقلان إلينا فخامة الجبيل الارسينال ، إذ كانت الصورة المواجهة لسفر المخروج تتكون من ست صور (وكان بعض الصور الكاملة من المنصات تحتوي أيضاً على اثنى عشر منظراً) رسمت في شكل حلقات نافرة دائيرية ومستديرة تملأ كل الصفحة . فقد كانت هذه الصور تصف مجلد القصص التي وردت في كتاب سفر المخروج ، بداية من عشر زوجة فرعون

على موسى الطفل الوليد وهو في اليم داخل الصندوق . فقد تدفقت مياه نهر النيل أمام قصر فرعون المنيف، حيث وجدت الأميرة (زوجة فرعون مصر) صندوقا يطفو فوق سطح الماء ويدخل هذا الصندوق يوجد طفل جميل ملفوف في قماش وهو موسى عليه السلام. فقد رسم هذا الطفل الوليد العاري والمبطع بشكل جيد . وهنا يلى هذه الصورة صورة شجيرة محترقة ويحيط بالرب أكاليل الناج، ويتجلى الرب في هذه الشجيرة في جبل حورب Horch . وكما صور موسى عليه السلام وهو يخلع نعليه عندما اعتلى سطح الجبل المقدس طوى في سينا، كما صور قطبيعه في شكل أربعة من الخراف ترعى الكلأ والعشب الأخضر. وشمة صورة مدهشة لجيش فرعون وهو يلقى حتفه غرقا في مياه البحر الأحمر ، حيث انشق البحر أمام فرعون وجشه، الذي كان يرتدي أفراده ورجاله خوذة متوجة بشعار، ويرتدون لباس الحرب. وظهر في صدر الصورة رسمًا لمركبة حربية يجرها اثنان من الخيول، أحدهما ينتظيه فارس محارب، وبعد بسرعة . ومن الملاحظ أن كل هذه المناظر قد رسمت بشكل جيد ومتقن ، ومن المحتمل أن هذه الصورة كانت تقليداً لصورة المركبة الحربية وهي في حالة سباق. وعلى أي حال، فإن صورة المركبة الحربية التي تعدو بسرعة كان تقليداً لنمط فني خاص، هذا النمط الفني الذي لم يتكملا بشكل جيد في كل هذه الصورة. إذ كان طقم الفرس (عدة وجوه الفرس) من الطراز القديم ولم يكن يشبه ما كان سائداً من أدوات وعدة الخيول في القرن الثالث عشر الميلادي، في حين كانت الخيول تسحب في الفضاء .

وكانت الصورة التالية تثل شعب بنى اسرائيل وهو يعبر مياه البحر الأحمر هروبا وفاراً من ملاحقة المصريين لهم. ويرتدى موسى عليه السلام بدلتة المكسوة بصفائح معدنية وهي البدلة التي تحركها الرياح من الخلف. وب يأتي بعده في الصورة آخره هارون، يمسك صندوقا . وب يأتي خلفهم القوم الذين آمنوا به، رجالا ، ونساءً يمسكون أطفالهم في أيديهم أو يحملونهم فوق ظهورهم . وهؤلاء جميعاً يمشون على أرض جامدة جافة وسط البحر بعد أن انشق البحر أمامهم ليصنع لهم طريقاً لعبوره، ورسمت الأسماك في خلفية الصورة تلك الصورة التي تمثل قصة العبور الاعجازي لموسى وقومه هرئاً من فرعون وبطشه.

وثمة رسم جميل وكان عبارة عن رسم نافر في أعلى الصورة يصور موسى وهو يتلقى من ربِّه كلمات ويطهر جبل الطور في سينا ، في وسط الصورة ، وهو الجبل الذي وقف عليه موسى يكلم ربِّه. ويطهر الرب في الصورة سابعاً في السماء يعطي الألواح إلى أنبياء بنى اسرائيل ووجهائهم. وكان شعب بنى اسرائيل يرتدون أغطية للرأس عجيبة تشبه القنصلسو الفريجية.

ومن السابق لأوانه تقييم الأهمية الفنية لتلك الزخارف والمنمنمات التي أبدعها الفنانون في المناطق الصليبية في بلاد الشام وفلسطين. وذلك لأن الموجودات الأثرية المادية من هذه الزخارف والمنمنمات قليلة جداً، في حين أن العلاقات والروابط الفنية بين الغرب الأوروبي والشرق العربي الإسلامي يحتاج إلى دراسة مستفيضة ومتعمقة . والواقع أن ثمة شك يدور حول نسب بعض المخطوطات إلى حجر النسخ الصليبية . ومع ذلك، فإنه يمكن رسم صورة عامة لهذا الموضوع . ويبدو أن كل الفنانين الذين عملوا في المملكة الصليبية كانوا من الأوروبيين، إذ استوطن بعض هؤلاء الفنانين في المناطق الصليبية في فلسطين وبلاد الشام ، وربما كان بعض الآخر منهم من الحجاج الذين عملوا في حجرة النسخ في كنيسة الضريح المقدس في القرن الثاني عشر الميلادي أو في حجرة النسخ في مدينة عكا . ويوضع النموذج الفني الذي حرص على إبراز الصليب المقدس ضمن مفرداته الفنية والذي ساد المملكة الصليبية في القرن الثالث عشر الميلاديحقيقة أن هذا الطراز الفني قد نقله الفنان الأوروبي من أوروبا إلى وطنه الجديد في منطقة الشرق العربي الإسلامي . ويبدو أن هؤلاء الفنانين الأوروبيين قد نقلوا معهم النماذج الفنية التي كانت سائدة في شمال فرنسا وفي إنجلترا النورمانية ، وفي إيطاليا وكانت هذه الأوطان الأوروبية السابقة مصدر الإلهام الفني لهؤلاء الفنانين. فقد وجد من بين المتعلمين ورجال الدين والأثرياء وأفراد الأسر الحاكمة من يرعى الفن ويشجعه في كيان سياسي جديد ولد نتيجة الغزو العسكري ووسط مجتمع من المحاربين الأنفاظ القساة . وهكذا تأثرت الفنون التي عرفتها المملكة اللاتينية في بيت المقدس بالتقاليد الفنية الأوروبية، وتأثرت أيضاً بمتطلبات المجتمع الجديد المتعلقة بالطقوس الدينية ، وكذلك برغبات السلطات الملكية الصليبية التي كانت ترعى الفن وتشجعه . وبينما ظلت أوروبا ذات تأثير كبير على الفن في المناطق الصليبية، فإن الفنانين الأوروبيين الذين أتوا إلى هذه المناطق وجدوا أنفسهم يعتمدون على النماذج الفنية البيزنطية . ومن المحتمل أن المخطوطات المزخرفة التي بحوزتنا قد أبدعها الفنانون بناءً على رغبة الملك الصليبي أو الأمير الصليبي في الإمارات الصليبية التابعة للمملكة الصليبية؛ وعلى الرغم من التأثير الفرنسي الشامل في كل أنواع الفنون في مملكة بيت المقدس اللاتينية والإمارات التابعة لها ، فإن الفن الملكي الرايع قد أبدع على الطراز البيزنطي. وهنا كان إعجاب الفنانين الأوروبيين بالنماذج الفنية البيزنطية وتقلیدها أمراً فوق نطاق جودة وميزة عملهم الفني الذي لا يرقى إليها أدنى شك. وأن حيازة المملكة ميليسندا كتاب المزامير المزود بالزخارف والمنمنمات البيزنطية يدل على الجودة والإتقان الذي تمعن به إبداع

الفنانين ، فإذا كانت الحقيقة هي أن كتاب المزامير هذا قد نسخ بأمر من الملكة ميليسندا Me-lissande (وهي الملكة التي كانت نصف أرمنية) فإن الشيء الطبيعي أن يكون الطراز الفنى لزخارف هذه المخطوطة بيزنطياً ، وكان نقش الفنان لاسمه وهو باسيللوس على هذه المخطوطة أمراً يتفق تماماً مع الزخارف البيزنطية لهذه المخطوطة، بيد أن هذا الاسم وهذا اللقب الذى تركه الفنان على المخطوطة فى شكل ترويع كان الهدف منه شهرة وذيع جيد لفنان ورسام معاصر لل فترة الصليبية ولم يتلق هذا الفنان تدريبه على المهنة فى فلسطين . وقد استطاعت مكتبة كنيسة الضریح المقدس منذ العصر البيزنطي وحتى الغزو الصليبي أن تقدم بعض النماذج الفنية من المخطوطات ، واصطبغت أنطاكيه بالصيغة الفنية البيزنطية حتى بعد الغزو الصليبي لها.

وقد تمخض عن تقليد هذا الطراز الفنى البيزنطى نتائج غير ملائمة، بيد أن هذا الطراز الفنى البيزنطى قد تغير فى نهاية القرن الثانى عشر الميلادى، ويشكل أكثر فى أثناء الفترة الثانية من عمر الملكة الصليبية والتى كانت عكا عاصمة لها. ونظراً لفقد وتلف بعض حلقات هذه السلسلة من الأعمال الفنية ، فإنه يمكن أن نفترض أنه بعد منتصف القرن الثانى عشر الميلادى فقط تلاشى سحر الفن البيزنطى وخفت بريقه مع انهيار القوة السياسية للمملكة الصليبية فى أعقاب موقعة حطين الشهيرة فى عام ١١٨٧ م . وإن كانت النماذج الفنية البيزنطية مازالت مستخدمة فى مجال النسخ ، بيد أن هذا الاستخدام جاء فى أضيق المحدود ومقيداً وكان يوجد عدد أقل من النسخ التى يقوم بنسخها ناسخون أقل مهارة فنية. ويجب أن نتردد قبل الافتراض بأن المدرسة الوطنية للزخرفة والرسم قد ظلت باقية فى الملكة الصليبية فى بيت المقدس . ومن المعقول أيضاً الافتراض بأن الفنانين والرسامين ظلوا يتواجدون إلى الملكة الصليبية من الخارج ، يحملون معهم الأنماط الفنية السائدة فى أوطانهم. وتأثير فن زخارف المخطوطات فى هذه الملكة الصليبية بالفن البيزنطى والإسلامى وذلك فى القرن الثالث عشر الميلادى ، بيد أن فحص هذه الزخارف وتحليلها فنياً يؤكّد حقيقة أن هذه التأثيرات جاءت عبر أوروبا . فقد تشكّلت هذه الفنون وتكاملت في كل من إنجلترا ، وفرنسا ، وإيطاليا ، ووصلت أخيراً إلى عكا. وثمة تأثير محدد وخاص ووضح في مخطوطة معينة وهذا التأثير يعكس رغبة الملك الصليبي الراعي لهذا الفن والذى أمر بنسخ هذه المخطوطة. وعلى الرغم من جهود كل العلما ، فإنه من الصعب أن نجد علاقة بين المكان الذي تم فيه النسخ وبين الزخرفة التي تزين المخطوطة. ويشكل استثنائى فإننا نجد جرس كنيسة الضریح المقدس واضحاً

في إحدى المنمنمات التي ترجع إلى القرن الثالث عشر الميلادي . وأحياناً كانت ترسم قبة المعبد أو مبني تعلوه قبة Rotunda وهو مبني الإمبراطور الروماني أنسطاس. بيد أن صور الزى الشرقي المزود بالصفائح المعدنية الواقعة والدروع والإيماءات كانت كلها زائفة. ونظراً لأن أوروبا كانت لديها فكرة محددة عن منطقة الشرق العربي فإن الفنان استطاع أن يقدم هذا التصور إلى الجمهور الذي يتلقى فنه لكي يقبله. وكان الفنان أفضل رسام في إبداع الأشكال الغربية في اللون والطراز بشكل أكبر من رسم الأزياء ، والمباني والمناطق الطبيعية المحيطة بها . وفي هذا السياق نذكر المنمنمات المميزة في بعض المخطوطات الفرنسية لأحد المؤرخين الصليبيين الكبار، وهو مخطوط كتاب المؤرخ وليم الصوري. فقد ولد وليم الصوري في مدينة القدس وتلقى علومه في فرنسا ، وعرف أوروبا والقدسية ، كما كان على دراية بالأراضي المقدسة في فلسطين حيث محل مولده. وكان مؤلفه التاريخي عبارة عن مصدر ثرى للمعلومات الجغرافية وكان وصفه للأحداث التاريخية عبارة عن صورة فعلية لما حدث بالضبط على أرض الواقع. وثمة سؤال يطرح نفسه وهو كيف يمكننا مقارنة المنمنمات والزخارف الفنية بما احتواه هذا المصدر التاريخي من أحداث تاريخية عجيبة ومدهشة وهو المؤلف الذي يعتبر من أفضل المصادر التاريخية المسيحية في القرن الثاني عشر الميلادي؟ فالممنمنات أيضاً لم تشر إلى مملكة بيت المقدس اللاتينية . فكانت الرسومات التي شملتها هذه المنمنمنات فرنسية ، وهي الرسومات التي قيض لها أن تأخذ مكانها وتستقر في منطقة الشرق العربي الإسلامي (منطقة ما وراء البحار Outremer).

ففي الزخارف التي أبدعها الرسامون والفنانون في المملكة الصليبية ولاسيما في العمارة الدينية وفي أعمال النحت نجد أيضاً التأثير الفرنسي. فقد أغمض الفنان عينيه عما يحيط به من فنون وأفاطر فنية أخرى. فقد تحرر من هيمنة الفن البيزنطي واتبع في خطواته وأعماله الفنية النماذج والأفاطر الفنية التي كانت سائدة في وطنه الأم. ويمكن القول إن الأرض المقدسة قلماً استطاعت أن تتطور فنًا ، ولكنها كانت تستطيع بسهولة أن تخلق فنًا محليًا ياثل الفن الأصلي الذي كان يفدي إليها من أوروبا من مراكز فنية مختلفة.

د- أعمال الفسيفساء (الموزايك) ، والرسومات ، والفنون الثانوية

لقد تآكلت واندثرت العمارة وأعمال النحت الصليبية بفعل الزمن، واستطاعت أحداث التاريخ أن تبده وتبعثر المخطوطات الصليبية المزخرفة ، كما أن الجهل والتعصب الديني الطائفي، والطائفية ، قد حكمت بالفناء على التراث الفني الشري للأعمال الفنية من الصور الجدارية الزيتية واللوحات الفسيفاسائية (الموزايك) . وما تبقى من هذه الأعمال الفنية السابقة يكفي ليلاً وبرهاناً على أن الفن البيزنطي كان ميراثاً مهماً طوال فترة الوجود الصليبي التي استمرت زهاء قرنين من الزمان . ويمكن تصور مثل هذه التراثات الفنية من خلال النماذج الباقية المكملة والتي ترتبط بأحداث تاريخية معاصرة . وليس هناك شيء أوضح من وصف مبعوث الإمبراطور الألماني (عام ١٢١٢م) إلى منطقة الشرق الصليبي لقصر الأمير الصليبي ابلين في بيروت والذي جاء فيه : «لقد رأينا أحد أبراج المدينة التي شيدت حديثاً ، ورأينا داخل أسوار المدينة قصراً منيفاً مزخرفاً بشكل بديع، وهو القصر الذي قصدت أن أصفه لك باختصار . إنه مبني قوياً متancock شيد في مكان مناسب تماماً، يقع البحر بسفنه التجارية عند أحد جانبيه، وعلى الجانب الآخر للقصر توجد المروج الخضراء ، وبساتين الفاكهة ، ومعظم المناطق الطبيعية الجميلة تحيط بالقصر . وقد لاحظت أرضية القصر مبلطة بالرخام الشفاف الذي يشبه الماء، الذي يحركه نسيم الهواء العليل . وقد صنع هذا الرخام رقيقاً ناعماً لدرجة أن أي شخص يدوس عليه يشعر وكأنه يخوض في الماء أو يمشي بচعوبة من فرض ملمسه الناعم، فلاتتعلق به أية شوائب عند المشي فوقه، كما يعجب المشاهد من الرسوم الرملية التي تزين هذا الرخام . وكانت أسوار القصر مكسوة تماماً بال بلاطات الرخاميكية التي يعلوها زهريات متعددة الأشكال ومزخرفة ومصنوعة بشكل بارع ، وكان سقف القصر مدهوناً بلون سماوي مناسب رائق، وهنا في القصر يستمتع الحال بنسيم عليل يتخيل جنباته، ويوجد بالقصر رسمياً كبيراً يصور دائرة البروج ، التي يظهر فيها الشمس ، والعام، والشهر ، والأيام ، والأسابيع ، وال ساعات ، والدقائق وكل هؤلاً يتحركون في دائرة البروج هذه . وعموماً فإن الشوام من المسيحيين، والمسلمين والبيزنطيين، كانوا يفتخرن دائمًا ببراعتهم في إعداد هذا العمل العجيب وابتکاره ، ووُجدت بركة مشيدة من الرخام المركب من قطع متعددة الألوان في وسط القصر، وكانت هذه الألوان تقتل عدداً لا يحصى من الأزهار المختلفة . وعندما يحاول المشاهد أن يرى هذه الألوان المتعددة ، فإنها تتلاشى وكأنها وهم . وكان يوجد في وسط القصر صورة

تنين، ينفث دخاناً في وجه الحيوانات المرسومة ، ويرى المشاهد نافورة مياه شفافة وبللورية تنشر المياه بشدة ووفرة بحيث ترتفع في الهواء، ثم بعد ذلك تجري مياه النافورة خلال فتحة منتظمة جميلة ، وفي وقت المطر يصبح الهواء رطباً وبارداً . وكان الماء المتذبذب بكثرة على جانبي البركة يصرف ويفرغ خلال فتحات صغيرة ، ويأتي الماء أيضاً بهمسه الهدائة ، التي توفر السكينة والهدوء والملائكة للجالس حول هذه البركة». واحسراه، فإنه لم يبق الآن أى أثر لهذا القصر لكي يصور لنا مدى الترف والرفاهية التي كانت تيز هذا القصر الصليبي في بيروت. وتشير البقايا المعمارية للمبنى المحلية إلى أن هذه المبنى قد شيدت من أجل أن تؤدي وظيفة معينة، فهي عبارة عن منازل صغيرة ، وشوارع وأسواق. وشملت بعض المباني المهمة الضخمة عدداً كبيراً من الكنائس ، واحتفظت كثيراً من هذه الكنائس بالزخارف الداخلية ، بيد أنه توجد هناك بقايا معمارية لم يبان فقيرة تعكس فنا معمارياً مبتكرًا رائعًا . والوصف الذي ذكره الحاج الألماني ثيودور بيش Theadrich الذي زار الأرض المقدسة في فلسطين (في عام ١١٧٢) يستحضر في الذهن فخامة وروعه الفنون الزخرفية في كنيسة الضربي المقدس في القرن الثاني عشر الميلادي . فقد ذكر هذا الرحالة أن «هذه الكنيسة احتوت على صورة ولوحة من الفسيفساء»، تصور يوسف النجار ونيقوديموس Nicodemus وقد وضعوا جسد المسيح في القبر، مع والدة التي وقفت في رفعة ثلاثة من النساء يحملن اسم مريم، وكانت هؤلاء النساء يحملن جرار العطر، ووقف ملاك سماوي فوق الضربي المقدس لكي يزيح الحجر بعيداً عن الضربي.

وكان سطح السور المحيط بالكنيسة يتألق بالصور الفسيفسائية فائقة الجمال، وهناك قبالة حجرة المرتلين الكنسيتين ترى صورة السيد المسيح وهو صبي ضمن صور هذه اللوحة الفسيفسائية ، وقد لونت صورة المسيح هذه بألوان متوجبة لامعة كما رسم صحن الكنيسة ، وكان وجه المسيح أكثر جمالاً ووسامة؛ وعلى يده اليسري تقف أمه العذراء، في حين يقف على يده اليمنى سيدنا جبريل كبير الملائكة لكي يلقى عليهما تحيته الطيبة المعروفة وهو «السلام عليك يا مريم سلاماً ملئه النعمة والبركة»؛ فالسيد المسيح مع الرب، الذي باررك وظهر لك بين نساء العالمين، وبارك نتاج حملك وجنين رحمك». وقد دونت هذه التحية الملائكية باللغتين اللاتينية واليونانية حول السيد المسيح نفسه. وكان الحواريون الاثنتي عشر يقفون على يمينه، وتم تصويرهم في شكل صف في نفس هذه الصورة الفسيفسائية ، وكل واحد من هؤلاء الحواريون يمسك في يديه كلام الرب في مجده المسيح ويشيرون إلى الأسرار المقدسة . ووسط

هؤلاء الحواريين والرسل وفي موضع منعزل مغمور في السور كان يجلس العاهل الملكي البيزنطي بزيه ولباسه الرسمي ، وهو امبراطور القسطنطينية وكان يقف خلف الحواريين كبير الملائكة المبارك ميخائيل يتألق في نظام مدهش عجيب . ووقف على يسار المسيح صاف مناثني عشر نبياً تتجه وجوههم جميعاً صوب هذا الصبي الجميل (السيد المسيح) يخاطبوا بتوقير واحترام ، ويحملون في أيديهم النبومات التي أوحى الله بها إلى السيد المسيح . ووسط صورة الأنبياء جلست أم الامبراطور الرومانى قسطنطين وهى الامبراطور هيلينا في مواجهة ابنها الامبراطور في نظام وترتيب رائع . وكانت بعض الصور الفسيفسائية ذات أصل بيزنطى ، على الرغم من أن هذه الصور قد تم تجديدها خلال فترة السيادة الصليبية ، وهذا ما تؤكد ذلك النقوش البيزنطية واللاتينية . وكانت هذه الصور الفسيفسائية تتنافس في الروعة والجمال مع الرسومات المقدسة . هذه الرسومات المقدسة التي كانت أقل انتشاراً وشهرة من الصور والرسومات الفسيفسائية . وبينما كانت الصور والرسومات الفسيفسائية مزينة بقبة بيزنطية ، فإن الصور الزيتية الجدارية كانت تزين الأقواس التي توجد في الجانب الشرقي من الكنيسة ، خلف حجرة المرتلين الكنيسين . ومرة ثانية نستشهد بقول الرحالة الألماني ثيودوريتش عندما زار الأرض المقدسة في فلسطين حاجاً في القرن الثاني عشر الميلادي فقد قال هذا الرحالة : «لقد خصص مذبح الكنيسة المرتفع لخلصنا (السيد المسيح) ، وبجوار هذا المذبح كان يوجد كرسي البطريرك ، الذي يتولى فوقه من قوس الحرم المقدسي صورة رائعة للسيدة مريم العذراء ، وصورة يوحنا المعمدان ، وصورة ثالثة للقديسة جبرائيل وعرিসها أشبين . وقد رسم في سقف الحرم المقدس صورة للسيد المسيح يحمل صليبه في يده اليسرى ، ويحمل في يده اليمنى صورة سيدنا آدم ، ويشخص بصره بشموخ وإعزاز إلى السماء ، رافعاً قدمه اليسرى يخطو خطوة واسعة عملاقة ، وتستند رجله اليمنى على الأرض كما لو كان يرتقي إلى السماء ، في حين كانت تقف حوله أمه العذراء ويوحنا المعمدان وكل الحواريين والرسل ». ويقول ثيودوريتش ذلك الحاج الألماني أيضاً : «ولم تقل كنيسة الجلجنة الصغيرة روعة في الزخرفة، إذ كانت أرضيتها مبلطة برباط جميل من كل الأنواع، وسقفها مزخرف بصورة الأنبياء والرسل ، وأعني داود، سليمان وإسحق ، وبعض الأنبياء الآخرين ، وكان هؤلاء الأنبياء جميعاً يحملون في أيديهم نصوصاً تشير إلى آلام المسيح وتعذيبه، وقد رسمت الأشكال والمناظر في شكل لوحة فسيفسائية رائعة الجمال ، كان يصعب رؤيتها بوضوح، لأن المكان الذي وضع فيها كان مظلماً بسبب المباني التي كانت تحيط به». وقد حفظ ما تبقى من هذه الصور الفسيفسائية

الوفيرة في كنيسة الميلاد ببيت لحم (ومع ذلك ترجد صورة للسيد المسيح وهو متألق في قبو كنيسة الميلاد) . لقد تم إنقاذ بقايا الصور الفسيفسائية التي كانت توجد في صحن الكنيسة وفي حجرة التراتيل الكنسية، وإذا لم تكن الصور الفسيفسائية التي أبدعتها المدرسة الفنية البيزنطية جيدة الصنع والإبداع فإنها كانت على الأقل بشاشة المشعل الذي أضاء الطريق أمام الزخارف التي انتشرت في أرجاء الكنائس الصليبية الكبرى. ومن حسن الحظ، أن النقوش البيزنطية والصلبيّة تزودنا بأسماء الفنانين الذين أبدعوا هذه الزخارف كما تزودنا أيضاً بأسماء وعهود الحكام الصليبيين والبيزنطيين الذين اهتموا بهذا الفن ، وأيضاً فترة النشاط الفني لكل حاكم من هؤلاء الحكام الذين رعوا هذا الفن. فقد مدح رسام الصور واللوحات الفسيفسائية الشهير إبراهام Ibrahim والذي كان مسيحيًا من بلاد الشام ولم يكن بيزنطياً الكرم والهبات التي تلقاها من الإمبراطور البيزنطي مانويل كوميني كلام الملك الصليبي عموري الذي شمله بعثياته ورعايته ، ومدح أيضًا الأسقف النورماني رالف Ralph أسقف كنيسة بيت لحم، وقد تزامن المدح وهذه الإشادة مع الوقت الذي أخذز فيه العمل الفني الذي أُسند إليه من جانب هؤلاء . وذلك في عام ١١٦٩م ، والحقيقة أن الأسماء السابقة الذكر تفسر لنا وتوضح الأسلوب الفني لهذا العمل، كما توضح المراكز الفنية التي تخصصت في إبداع مثل هذا الصور الفسيفسائية .

وتشمل لنا اللوحات والصور الفسيفسائية تاريخًا مختصرًا للعقيدة المسيحية ، كما أن هذه اللوحات والصور أيضاً تحفي ذكرى المجامع الكنسية المسكونية (العالمية) المهمة ومعظم المجامع الكنسية الأقلية التي عقدتها الكنيسة وقراراتها الملزمة. وقد أدمجت هذه الفكرة الرئيسية الخاصة بالمجامع الكنسية في خمس مجموعات مركبة من اللوحات ذات طراز فني واحد، وكانت هذه المجموعات الخمس من اللوحات تواجه بعضها الأخرى على الجانبين الشمالي والجنوبي لصحن الكنيسة ، وتشمل مجموعة اللوحات السفلية سلسلتين من نسب المسيح عليه السلام. وتأتي سلسلة النسب الأولى وفقاً لما ذكره أنجيل متى وإنجيل لوقا. ويعلو هذه اللوحات السابقة صورة المجامع الكنسية التي يعلوها كتابة على هيئة نقوش ورقية وزهرية. وقد وجدت الصور الفسيفسائية في مكان عال بالقرب من الشبابيك ، وامتلاً الفراغ بين هذه الصور وهذه اللوحات بصور الملائكة . وأخيراً ، فإن طوقا آخر من الزخارف النباتية كانت تعلو هذه الصور. ولم تعلق الصور الفسيفسائية على جدران صحن الكنيسة . وعرفنا من خلال

الوصف الذي ذكره أحد المعاصرين وأيضاً من خلال وصف أحد مؤرخي القرن السابع عشر الميلادي أن الحائط الغربي من صحن الكنيسة كان يشمل «شجرة نسب المسيح» وكانت أغصان هذه الشجرة عبارة عن رؤوس الأنبياء، وشمل صحن الكنيسة أيضاً الكتابات التي تنبئ بمجىء المسيح عليه السلام. وفي الجانب المقابل ، لاتزال أعمدة جناح الكنيسة تحفظ بالرسومات والزخارف الصليبية . وفي الجانب المقابل ، لاتزال أعمدة جناح الكنيسة تحفظ بالرسومات والزخارف الصليبية، وانتشرت صور فسيفسائية في الفراغ الذي يعلو هذه الرسومات وأيضاً في الجزء الناتئ النصف الدائري من مبني الكنيسة شبه المقبب ، ولا تزال هذه الأماكن تحفظ بهذه الصور الفسيفسائية ، وكانت اللوحات الفسيفسائية في هذا الجزء من الكنيسة تضم صوراً لأشخاص ينتهيون للعهد الجديد (الأنجيل) . وربما يساعدنا وصف بعض هذه اللوحات في تصور وتخيل نمطها الفني وبراعة الفنان الذي أبدعها ورسمها. لقد كانت اللوحات الفسيفسائية تصور المجامع الكنسية التي عقدتها الكنيسة المسيحية الكاثوليكية في روما مثل مجمع نيقية الأول الذي عقد في عام ٣٢٥ م، ومجمع القسطنطينية الأول في عام ٣٨١ م، ومجمع أفسوس في عام ٤٣١ م، ومجمع خلقدنية في عام ٤٥١ م، ومجمع القسطنطينية الثانية في عام ٥٥٣ م، ومجمع القسطنطينية الثالث عام ٦٨٠ م، ومجمع نيقية الثانية في عام ٧٨٧ م ، وكانت كل هذه اللوحات التي تصور المجامع الكنسية السابقة تشغل أحد حوائط الكنيسة ، في حين كان الحائط المقابل يشمل الصور التي تمثل المجامع الكنسية الاقليمية مثل : مجمع قرطاجة عام ٢٥٥ ، ومجمع اللاذقية في عام ٣٥٠ م، ومجمع Gangrae جانجرا في عام ٣٤٥ ، ومجمع سرديكا في عام ٣٤٣ م، ومجمع أنطاكية في عام ٢٧٢ م، ومجمع انكييرا Ancyra في عام ٣١٤ م .

لقد اتسمت هذه الصور التعليمية التي شملتها اللوحات الفسيفسائية بجمالها الفني المتواضع ، بيد أن الفنانين الذين رسموا هذه الصور أظهروا براعة ممتازة في مجال العمل الفني. وعلى أي حال، فإن موضوع هذه الصور الفنية لم يكن يتسم بالإلهام، وذلك لأن غرض هذه الصور كان تأكيد واقرار المبادئ الأساسية للدين المسيحي فقد كان هناك غلطان من الصور يمثلان هذه المجامع الكنسية، إذ كانت كل الصور التي تمثل المجامع المسكونية العالمية منتشرة على الحائط القبلي من المبني وكان الحائط عبارة عن رواق مزدوج يستند على ثلاثة أعمدة . واحتوى كل رواق مذبحاً أو مقرأة لثلاثة الكتب المقدسة، وكانت توجد فوق هذه المقرأة أو

المنضدة نص قرارات المجمع الكنسى ، فى حين كان يوجد على جانبى المذبح شمعدانات Candelabres أو مبادر ملاه . وكانت الصور التى تقلل المجامع الكنسية الإقليمية تعلق على الماءط البحرى (الشمالي) وكانت أكثر اتقانًا . والصور الفسيفسائية التى ماتزال حالتها جيدة والتى تقلل مجمع سرديكا ، تعطينا فكرة عامة عن باقى المجامع الكنسية الأخرى . وعلى الرغم من اختلاف الرسومات التخطيطية للكنائس أو المدن ، فإن هذه الرسومات كانت تتبع نفس النمط الفنى بشكل جوهري . وكان الجزء المتقطع مع الكنيسة ذات الصخون الثلاثة بشابة إطار خارجي للجزء المستقل من الكنيسة وللأعمدة الأربع التى تشير بوضوح إلى أجزاء المبنى . وانفصل الصحن وأجنحة الكنيسة عن الأجزاء شبه المقببة من الكنيسة . وكان نص التعاليم الكنسية يوجد أسفل الجزء الناتئ من الكنيسة الذى يقع في الوسط ، فى حين كان مكان أجنحة الكنيسة ملوءاً بزخارف على شكل شبه المعين الهندسى ، ويبعد أن هذه الزخارف كانت بشابة الحاجز الذى يفصل بين الأجزاء الناتئة من مبنى الكنيسة وبين أجنحة المبنى . وكانت حجرة جوقة المرتلين الكنسيين الخيالية تعلوها إسطوانة فوقها قبة وتحيط بها اثنان من الأبراج الصغيرة ، كل برج متوج بصلب ، وووجدت شمعدانات وقارورة مسطحة في الجزء العلوى من الأجزاء الجانبية من الكنيسة المزودة بباب صغيرة ، وهذه القارورات لاتشبه تلك القارورات الخاصة بالحجاج المسيحيين . وووجدت أيضاً زهريات داخل القباب الضيقه وزودت بزهور غير متقدنة الصنع .

وعلى أي حال ، فإن الصور التى تقلل المجامع الكنسية الأخرى كانت تتبع نفس النمط الفنى ، على الرغم من أن تفاصيل هذا النمط ربما كانت تختلف عن الأنماط الفنية الأخرى ، وكان الفراغ المحصور بين الجدارين يمتلاً بزخارف نباتية وزهرية متقدنة الصنع . وما يذكر أن النمط الفنى الأساسى كان عبارة عن شجرة خيالية غرست في زهرية ضخمة ، وظهر في أغصان هذه الشجرة أوراق نباتات . وأحياناً كان يحيط بمركز الزخارف النباتية هذه غطان من الزخارف النباتية الزهرية العمودية وت تكون هذه الزخارف من عدة زهريات مزودة بأوراق نباتات في شكل هندسى . وتمثل السمة الأساسية في أحد هذه الأنماط في أن الشارات التي كانت على شكل أجنحة ترفرف قد حل محلها أوراق نباتية في الصف الأعلى . وتذكرنا مثل هذه الأنماط بأحد الأنماط الفنية الزخرفية الذي كان منتشرًا في منطقة ما بين النهرين (الميزوپوتاميا) . وعلى الرغم من تشابه النمط الفنى لكل من اللوحات الفسيفسائية التي كانت تزين الماءط الشمالية والجنوبية للكنيسة ، فإن التفوق الفنى لللوحات الماءط الشمالى

كان واضحًا .. إذ كان زخارفها أكثر اتقانًا وثراً حيث استخدم الفنان المبدع عرق اللولو المتزوج الألوان (ألوان قوس قزح) لكي يضفي على الشكل رونقًا وتألقًا.

وكان بعض النصوص الخاصة بتاريخ العقيدة المسيحية والمدونة في اللوحات الفسيفسائية سمات مميزة غريبة. وإذا كانت نصوص المجامع الكنسية قد دونت باللغة اليونانية ، فإن نص قرارات مجمع نيقية الذي عقد في عام ٧٨٧م، قد دون باللغة اللاتينية . وكانت هذه أسباب فرض عقوبة الأنثيما (اللعنة) على الأباطرة البيزنطيين وبطريق القدسية ومراعاة لإحساس الشعب البيزنطي ، فإن نص قرارات المجمع السابق دون بلغة أجنبية . بيد أنه يجب أن نذكر أن قرارات المجمع المسكوني (العالمي) السابع لم يتقبلها الغرب الأوروبي بسهولة . وإلى حد ما ، فإن تدوين قرارات هذا المجمع باللغة اللاتينية كان احياءً لذكرى مجمع كنسي انحرف عن الروح العالمية المسكونية ، وهي الروح والتغيير الذي كان يميز اللوحات الفسيفسائية لكنيسة مدينة بيت لحم. فقد ظلت النقوش والكتابات المزدوجة البيزنطية واللاتينية سمة دائمة في سلسلة نسب السيد المسيح عليه السلام ، وأسماء الملائكة والقديسين ، والحراريين.

وتحت غط فني آخر لزخارف اللوحات الفسيفسائية الموجودة في كنيسة بيت لحم، واحتفظ هذا النمط بمفراداته الفنية بدرجة كافية لأن تعطينا فكرة عن باقي الأنماط الفنية التي اندرت وفقدت ، وأهم الأنماط الفنية المشيرة للشك هو ذلك النمط السائد في لوحات الذراع الشمالي من الكنيسة. وعلى الرغم من أن التركيب الفني لهذا النمط كان أكثر غموضا ، فإن الصور الفنية كانت في الواقع مفعمة بالخيالية وأكثر إثارة للمشاهد وللمتذوق . كان يشغل الجزء المركزي من الكنيسة صورة للسيد المسيح بالهالات النورانية التي تزين رأسه، إذ كانت هذه الصورة تتتصدر بوابات مزينة بألوان على شكل أجنحة . وتوجد على كل جانب من جانبي الكنيسة أروقة متناظرة ثلاثة تستند على أعمدة لها تيجان مزخرفة بشكال زخرفية على صورة أوراق نباتات وأزهار على النمط الفني الصليبي، وقد زينت أيضا قواعد الأعمدة المستديرة بزخارف من نفس النوع . ووُجِدَ على كل جانب أيضا صورة لمجموعة من خمسة أشخاص يمثلون الحراريين . ومن الجدير باللحظة ، أن الوضع الكلاسيكي لصورة أحد الحراريين الذين كانوا يقفون في أقصى اليمين كان جميلاً، ومن المحتمل أن يكون هذا الحراري الشاب الأمرد هو القديس يوحنا. وكانت الصورة التي توجد في الوسط (صورة السيد المسيح) تظهر عليها آثار توتر وقلق، حيث قام المسيح بتعرية جانبيه الأيمن ، وأمسك بيد القديس توماس المتداة، ودفع هذه اليد إلى جرح القديس توماس.

وفي وقت متزامن زينت كنيسة الميلاد في بيت لحم بنماذج الرسومات والزخارف المائطية الصليبية . وعرفت عينات أخرى قليلة فقط من الرسومات (في بيت قاج، وفي أبي جوش وطرابلس) ، وكانت هذه العينات بقايا هزلة لأحدى الفنون التي ازدهرت في مملكة بيت المقدس اللاتينية. فقد زينت الرسومات الصليبية الأعمدة المستديرة لكنيسة الميلاد في بيت لحم. واليوم أتلف كثيرون من هذه الرسومات ، بيد أن أعمال الترميم والتتجديد لهذه الرسومات التي أجريت بهاءة منذ سنوات قليلة استطاعت أن تعيد الصورة الأصلية لهذه الرسومات ، وكانت صور القديسين تغطي صفي الأعمدة المؤدية من المدخل إلى جناح الكنيسة هذه الأعمدة التي ازدانت تيجانها بزخارف نباتية وزهرية على النمطين البيزنطي والصليبي. وانتشرت على هذه الأعمدة اثنستان وثلاثون صورة مرسومة ذات طراز فني غريب. وانتشرت ثلاث وعشرون صورة من الصور المرسومة على الأحادي عشر عموداً المتداة على جانبي صحن الكنيسة (انتشرت على العمود الأخير الواقع جهة الشمال صورتان) ، وانتشرت ثمانى من الصور المرسومة على أعمدة الجزء الجانبي الواقع جهة الجنوب والمفصولة عن صحن الكنيسة (وهناك عمودان وجد عليهما رسومات مزدوجة) . ومن المتوقع أن أعمدة الجزء الجانبي الشمالي كانت تفتقد إلى الرسومات والصور.

وكانت الرسومات تغطي واجهة أعمدة صحن الكنيسة وكذلك جناح الكنيسة في أسفل الحافة الذهبية للوحة الفسيفسائية . وكان اللون الأزرق الفاتح هو اللون السائد تحت تيجان الأعمدة التي كانت محددة بحافة ذات لون أبيض وأحمر، وهي الحافة التي كانت بشاشة خلفية للجزء الأعلى من صورة أجسام القديسين. وكان للأطراف السفلية خلفية مختلفة، وربما كانت ذات لون أحمر قاتم ، وهو اللون الذي اختفى وتلاشى. ولم تكن الألوان التي احتفظت ببقائها تصنع من الزيت (ألوان زيتية) . ويمكن تحديد هوية القديسين بواسطة الكتابات والنقوش اللاتينية واليونانية التي توجد على جانبي صورة القديس ولاسيما بالقرب من هالات القدسية التي تعلو رأس القديس . وأحياناً كانت الأسماء تظهر على أوراق البردي التي يحملها القديسون في أيديهم، أو على هذه الأوراق التي كانت تعلق في أرجلهم.

وما يذكر أن القائمة الكاملة بأسماء القديسين أو وصفهم التفصيلي لم تكن ذات غرض ، ولذا فإننا سوف نركز على الصور ذات الأهمية الفنية والتاريخية .

وكانت القائمة الطويلة من عدد القديسين المنتشرة على صف الأعمدة التي تقع جهة الشمال

يقطّعها بشكل مفاجئ، رسم يصور السيدة مريم العذراء وهي ترضع ولدتها. ولم توجّد كتابة، كما أن مثل هذا الموضوع لا يحتاج إلى تعليقات. إذ كانت السيدة مريم العذراء ترتدي ثيابا طويلاً عبارة عن بدلة ذات لون أزرق داكن وفوقها شال وردي اللون يغطي رأسها وأكتافها. وتحمل طفلها المطوق بهالة مقدسة والملفوف على ذراعها الأيسر، في حين كانت يدها اليمنى تضفّط على ثديها الأيسر العاري لتُرضع ولدتها. وجاء رسم هذه الصورة متوسط الموجة، إذ كانت صورة السيد المسيح الوليد تتميّز بالرأس المنحرفة قليلاً والثابتة أو المتجمدة. وكانت طيات الملابس الجوهريّة تصنّع بشكل رديء. إذ كانت العناصر الزخرفيّة التي تزيّن ملابس السيد المسيح شاذة وغريبة، وكانت وسادة الكرس الذي يجلس عليه القديس مزينة بزخارف شبّهها بأوراق نبات الأهليلو كما أن البساط الذي نقشّ عليه العذراء بنعلها الأسود اللون كان هو الآخر مزيناً بزخارف نباتية.

ومن بين هؤلاء القديسين، كان القديس ستيفن St. Stephen الذي تلقى علاجاً متنقاً ووُجِدَتْ نقوش وكتابات لاتينية على جانبي رأس القديس الموجّه بالهالة المقدسة. وانتشرت النقوش البيزنطية مثل باقي النقوش الأخرى حول رسومات صور القديسين، ويمكن تمييز بعض هذه الحروف مثل (A.S.E) والحقيقة أن هذه الحروف لم تكن يونانية ولكنها كانت أنفوج بطابق الحروف اللاتينية. ويشير آخر دارس لفن الرسم، وهو ب. جوهاسز P. Juhasz إلى أن رأس القديس قد رسمت بطريقة خاصة. وإذا نظرنا إلى الصور الموضحة للقديسين من أسفل ، نجد أن القديس ينظر بطريقة تدل على الإزدرااء وعدم المبالاة ، وإذا نظرنا من أعلى ، نجد أن رأس القديس تنظر إلى الأمام تماماً نظرة محدقة . وكان القديس يرتدي بدلة طويلة جداً مزودة بقلادة فريدة وجميلة . وزودت نهايّات البدلة بأهداب وشرايب تعلو النعل الذي يلبسه القديس. وكان الشوب الكهنوتي الذي يرتديه القديس في أثناء القدس مشيراً للاعجاب والدهشة إذ كان مطرزاً بشكل أنيق رائع . وكانت القلادة وحاشية الشوب الكهنوتي والأكمام مزودة بأزار من اللؤلؤ وببعض الأحجار الكريمة . ووُجِدَتْ قطعتان ضيقتان من القماش مزخرفة بنقوش هندسية تؤكّدان أن مقدمة الشوب الكهنوتي كان مزخرفاً بنقوش وزخارف غالية . وشملت الرسومات البارزة صور الملائكة البيضاء اللون وهي تنشر أجصحتها ، وكانت الزهور الصغيرة تنتشر في الفراغات المربعة الشكل التي تتحصّر بين هذه الرسومات البارزة . إذ كان القديس يقبض بيده اليمنى على صليب مزود بزخارف زهرية ونباتية ، في حين كانت يده اليسرى المزودة بالذرعة (جزء من ثياب القدس) تحمل مجلداً أنيقاً.

ويمكن أن نستثنى من هذه السلسلة من الرسومات رسم صورة القديس اليشع Elizah والغريان السود. فقد دون رسم هذا القديس باللغة اليونانية، ودون بجانبه بيت شعر باللغة اللاتينية العافية والفجة. «فقد كان الغراب وبصحته أليفة يحضران الطعام كل يوم للقديس اليشع»، وعند مقابلة خلنيات الصورة الحالية من الرسوم كان يرى في خلفية الصورة القديس اليشع وهو جالس في حقل به زهور قريبة من نهر وجبل . ويرتدي القديس اليشع يرتدي بدلة زرقاء اللون وعباءة وردية اللون وقد توسطت صورة القديس اللوحة ، وشوهد القديس وهو يتکىء على ركبته بيده التي تستند عليها رأسه، التي تتجه صوب الغربين اللذين جاوا من أعلى في خط أفقى يحملان خبزا على شكل صليب .

وتعتبر صورة السيدة مريم العذراء وهي تحمل وليدتها والأشخاص الثلاثة الذين يصلون أمامها من الرسومات المهمة لأسباب عديدة: منها أن الرسم الذي يصور السيدة مريم العذراء وهي ترضع وليدتها وهو يعانقها يتسم بالجرودة والروعة، إذ كان وضع الطفل الوليد أكثر تلقائية وطبيعية، كما أن طية الجروح الناعمة للبدلة الزرقاء والعباءة ذات اللون الوردي اتسمت بالتلقائية أيضاً والجمال. وكان الأشخاص المصلون يقفون على جانبى صورة السيد مريم العذراء، وكانتا عبارة عن شاب يقف جهة الشمال، وبناتان تقفان جهة اليسين. وكانت معظم التقوش والكتابات باللغة اللاتينية . وتعلو رأس السيدة مريم العذراء كتابة صيغتها «أيها الابن انك كلمة الرب وإرادته ، وإنني أصلى من أجل رحمة الرب وشفقتكم إلى هؤلاء»، وعندئذ نأتى إلى إشارة مختصرة جداً لهذا التاريخ الذي تم فيه رسم هذه الصورة، فقد تبين لنا أن هذه الصورة رسمت في الخامس عشر من مايو عام ١١٣٠م، أي في عهد الملك الصليبيين بلدوين الثاني أي قبل أكثر من جيل من ظهور اللوحات الفسيفسائية ، التي أحيزت في عهد الملك عموري (أمالريك) . وكان يوجد أسفل الصورة بيت شعر لاتيني وهو «أن العذراء فتح السلوان للحزاني والمكلومين »، ووُجدت على جانبى الصورة حروف غامضة المعنى وهي حروف "W.A" ولاشك أن هذه الحروف هي المفروض الأولى من أسماء وتوقيعات الرسامين الذين أحيزوا هذا العمل الفني.

وينبغي أن نذكر اثنين من الرسومات والصور غير المتزمرة نظراً لأهميتها التاريخية ، وهي صور القديسين الملكية : وهي صورة الملك أولف Olef ملك النرويج والملك كانوت Cantute ملك الدنمارك . وكان الملوك يلبسون تيجاناً ملكية مستديرة ، وعباءات متسبة مبطنة بالفراء

ومثبتة بعضها مع بعض بواسطة مشبك على الجزء الأعلى من العباءة ، بالإضافة إلى أن يده اليمنى تتکىء على ترس قصير على شكل مستطيل وفى وسطه صليب مرصع بالجواهر ، فى حين كانت اليد اليمنى تمسك حرية.

ومن الواضح أن الرسومات المنتشرة على أعمدة كنيسة المهد فى بيت لحم لا يمكن تصوّرها كسلسلة واحدة . ومن المحتمل أن صور التدسيين والصيّدة مريم العذراء قد رسمت بتتكليف من الذين يقدمون الهبات للكنيسة . وحظيت عملية رسم صور قدسيّي الشرق والغرب وقدسيّي المناطق الإسكندرافية ، والنورمان والإيطاليين بالأولوية القومية . ويمكن أن تعزو مثل هذه الرسومات إلى فترة القرن الثاني عشر الميلادي ، على الرغم من أن بعض هذه الرسوم يرجع بدقة ووضوح إلى عام ١١٣٠ م . وكان الرسامون من الغرب الأوروبي ، بيد أن تقنيات هذه الرسوم كانت بيزنطية الأصل ، ومن المحتمل أن بعض هذه الرسومات قد نُفذت على يد رسامين مسيحيين محليين من بلاد الشام وهم الرسامون الذين اتبعوا التقاليد البيزنطية في رسوماتهم . وهكذا فإن كلا من الفنانين الذين أبدعوا هذه الرسومات وكذلك موضوع هذه الرسومات يعكسان التقاء التيارات الثقافية العالمية . وثمة بعض أمثلة وفاذج من هذه الرسومات توضح جودة الفنون الثانوية التي انتشرت في المملكة الصليبية . وقد اختلف عدد كبير من هذه الرسومات المتعلقة بالفنون الثانوية . ولاشك أن مثل هذا كان مصير عدد كبير من أعمال المشغولات الذهبية ، والتي قام بتصنيعها عدد كبير من الصناع عرقوا باسم الصائفيين - au rifaber . وتجدر الإشارة إلى أن ملابس رجال الدين الكنيسين الصليبيين المرصعة بالجواهر قد أحدثت صدمة في الغرب الأوروبي من فرط فخامتها وكانت هذه الملابس تمثل ميل النبلاء الصليبيين إلى تبني سلوك الترف والإسراف الشرقي . وعرفت بلاد الشام وفلسطين مهنة قطع الأحجار . وتزودنا أحجار القبور التي ما تزال باقية بنموج فني ملائم ، فأختام الملوك والنبلاء والمؤسسات والوجهاء تمثل فن النقش والخفر على المعدن ، دون الإشارة إلى عدد النقود والمسكوكات . وسواء بحثنا عن كفاءة الصناع أو مهارتهم ، فإننا لم نجد سوى القليل الذي يستحق التعليق . فقد ابعت التقوش الجنائزية ، والأختام والعملة الأنماط الفنية الغربية ، ويفينا أن هذه الأنماط الفنية الغربية كانت أقل جودة من الأنماط المعاصرة لها في الغرب الأوروبي . ففي مجال سك العملة والنقود - ولاسيما البيزنط الإسلامي الشهير ، يمكن أن نلمس تطورا تدريجياً في سك هذه العملات في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي وذلك إذا ما قورنت بذلك

المسكرات المقلدة التي ضربها الصليبيون في بداية القرن الثاني عشر الميلادي، ومن المحتمل أن هذا التطور قد تحقق على يد الصناع المحليين ، من المسلمين والمسيحيين، فقد أهمل الصليبيون حرفة فن سك العملات المربعة.

ويمكن القول إن القاشاني (السيراميك) الصليبي لم يكن جذابا وظهر هذا من خلال التمازج الباقي من هذا القاشاني. وما يذكر أن الصناع المحليين هم الذين قاموا بصناعة وزخرفة هذا القاشاني وقلما كان القاشاني الصليبي يختلف عن نظيره الذي أنتج وصنع في هذه المناطق خلال عصر السيادة الإسلامية السابق لعصر الوجود الصليبي والذي أنتج أيضا خلال الفترة اللاحقة ولاسيما في العصر المملوكي. ووُجد نفس النمط من القاشاني في كل من قبرص وصقلية، وفي المراكز الإسلامية في منطقة الشرق العربي الإسلامي. وثمة رموز مسيحية مثل شارات الصليب أو صور القديسين ، يشير إلى الأصل الصليبي لصناعة الأواني المصوولة اللامعة والتي ساد بينهما اللونان الأخضر والبني . بيد أنه لم تكن هناك تحف فنية- فلم تجد تحف فنية ترجع إلى العصر الصليبي - يمكن مقارنتها بالأواني والتحف الفنية الجميلة المتقدنة المعاصرة التي صنعت في مصر أو في بلاد الشام أو في بلاد فارس .

وبينيعى على المثقف أن يعرف أكثر عن صناعة الزجاج والمنسوجات في المناطق الصليبية في بلاد الشام وفلسطين، إذ كانت إمارة أنطاكية الصليبية تصدر المنسوجات ، في حين كانت مدينة صور من أعظم مراكز صناعة الزجاج خلال الفترة الصليبية. وتوجد اثنتان من العينات قد صنعت في مدينة صور في القرن الثالث عشر الميلادي، فقد رسم على أحد الألواح الزجاجية ذات اللون الأبيض صورة للسيدة العذراء. وبجوارها ابتهال ديني كتب باللغة اللاتينية ، وكانت الأكواب الزجاجية تظهر جودة صناعية فائقة، ووُجد عدد من هذه الأكواب نقش على سطحها شعار نبالة مجهول الهوية. وظهر النقش العاجي في أغلفة مجلد مزامير الملكة الصليبية ميليسندا ، ومن الواضح أن هذه الأغلفة كانت تعاصر تدوين نص كتاب المزامير هذا، وهذه التقوش يمكن أن ترجعها إلى ثلاثينيات القرن الثاني عشر الميلادي .

وفي إطار الزخارف النباتية والزهرية وال الهندسية ، وجدت ست صور على الغلاف العلوي لمجلد المزامير السابق، وقد اقتبست موضوعات هذه الصور من قصة الملك داود. وزين إطار هذا المجلد بزخارف نباتية على شكل أوراق شجرة الكرم. إذ كان ينبعق عنقودان من العنب من الحافة العليا للزهرين في الوسط في شكل هندسى متحابك ومتداخل . ووُجد على كل

جانب من جانبي الغلاف صورة سمكة لها ذيل مزخرف بزخارف زهرية وصورة لطائر ينقر في قاعدة الزهرية . وكانت سيقان الكروم تتد إلى الأركان في نقط زخرفي نباتي وتنحدر هذه السيقان في شكل حليات ولوبيية زهرية، ويتمركز اثنان من السيقان في نقاط زخرفية هندسية متتشابكة ثم يتدان إلى قاع الزهرية، في حين كانت هناك صور للطvier الناقرة تطرق الحليات اللولبية ذات التصميم الزخرفي الزهري، و يوجد حزام على شكل هندسي شبه المعين في داخل إطار المجلد، و يوجد أيضا شريط مزين بالخرز خارج حافة إطار غلاف هذا المجلد.

وقد نقشت ست صور تثلل حياة الملك داود في ست حليات نافرة مستديرة متصلة في شكل حلية محدبة وبكره ومزودة بمشابك على شكل زهور. وكانت الحلستان البارزتان العلوية تثلل الملك داود وهو يقود شعبه، ويقتل الأسد ويطارد دبًا. فالمملك داود بشعره الطويلة، وبدلته القصيرة المتدرية، يحمل في ذراعيه الأيمن حقيبة صغيرة، ويدوس على مخالب الأسد ويفتح فم الأسد بقوه (وهو يذكرنا أكثر بقصة شمشون القوى الجبار) . وقد شوهد دبٌ وحمل يهربان خوفاً، وتم إنقاذ رعية الملك داود من هذه الأخطار المحدقة بهم تماماً. ونقشت أسماء داود، وليو Leo ، واجنيس ، وأرسس Ursus وذلك في حروف حمراء اللون على ألواح صغيرة. وتم مسح هؤلاء جميعاً بالزيت المقدس يعد أن مسح القديس صموئيل الملك داود بالزيت المقدس . وظهر القديس صموئيل في شكل رجل كبير السن ذي لحية، وله شعر طويل ، ويرتدى بدلة وعباءة مقلوبة تصل إلى تحت الركبة ويسك في يده اليسرى رأس الملك داود بالزيت المقدس وهو يعثو على الأرض . وعلى الجانب الأيمن من الغلاف كانت توجد بوابة دون عليها نقوش مثل- Bthle hem التي تعنى بيت الرب ورسمت فوق البوابة صورة ليد الرب وهي قسك ذلك القرن المعرف (القارورة) الذي يتلأ بالزيت المقدس اللازم للتكريس. و يوجد في الصف الأوسط حلية نافرة جهة الشمال تثلل الملك داود وجوليات Goliath وهو يحاربان في ميدان مفتوح، ومثلت هذه المعركة بواسطة ثلاثة أغصان من أغصان الشجرة. إذ كان جوليات يرتدى سترة مزرودة ومدرعة، ويلبس خوذة مخروطية الشكل على رأسه، ويسك ترساً طويلاً من تروس القرن الثاني عشر، ويلوح بحربته من فوق رأس الملك داود. ووجدت لية متدرية من السقف، ويشهد المذبح وخizer التقى * داخل المعبد أو الهيكل. وكان يوجد شخص آخر خلف أبيميبلش Abimelech

* هو خizer القریان عند اليهود (المترجم) .

الذى كان يرتدى بدلة tunic وعباءة ذات غطاء للرأس وكان هذا الشخص يمسك فى يديه رقعة دون عليها اسم Dofg . وفي أسفل اللوحة جهة الشمال يظهر الملك داود ملتحيا، يرتدى التاج والعباءة الملكية، ويسجد أمام مذبح متوجع براق. ومن المحتمل أن الماحاط فى الخلفية كان يمثل الأرضية التى جلد عليها عراناح Arannah. وظهر فى الجزء العلوى ملاك سماوى يلوح بسيفه . وكان النبي يحمل أوراقا كتب عليها حروف (Ro) ، (ETA) (GAD) PH وترجمة هذه الكتابة هي أزميل أو عصا النبي، ويمسك لقاقة من الورق عليها نقش وكتابة عبارة عن no Construe Altore D (Omi) وترجمتها المسيح يوضع مكان المذبح. ووجد نعش فوق رأس الملك داود عبارة عن EGO PECCAVI وترجمتها أنا نقر بالائم ، وكانت آخر حلية ناقرة medallion تمثل داود نظام المزامير ، إذ كان يعزف على قيثارته ويمسك قضيبين فى يديه. وتقف على كتفه حمامـة، قتل الوحـى السماوى. ورسم الجزء الأعلى من جسم الملك داود من الأمام ، فى حين رسم الجزء الأسفل منه من الجهات الجانبية. ووقف الموسيقيون الملـكـيون على جانبي الصورة وهم ايتان Etan، وأديتون iditun، وعـسـاف Asaph ، وإيمـان Eiman . وكان هناك اثنـتان من الأدوات الموسيقية مختلفـتين في الشـكـل، الأولى عـبـارة عن آلة الجيتـار، والأخرى كانت آلة الكـمان. وزين سقف القصر الذى يجلس فيه الموسيـقيـون الملـكـيون بـزـخارـفـ وـحلـياتـ مـعـمارـيـةـ عـلـىـ شـكـلـ وـرـقـةـ ثـلـاثـيـةـ الـوـرـيقـاتـ. كما زـوـدـ هـذـاـ القـصـرـ بـنـصـةـ كـبـيرـةـ دـاخـلـهـ .

وكانت الفراغات المحصورة بين هذه الحلـياتـ الـبارـزةـ مليـثـةـ بالـصـورـ التـىـ تمـثلـ الـصراعـ بينـ الحـيـرـ وـالـشـرـ أـوـ بـيـنـ الرـبـ وـالـشـيـطـانـ . وـنـقـشـ فـيـ الـجـزـءـ الـأـعـلـىـ اـسـمـانـ لـسـيـدـتـينـ هـماـ بـونـيـتـاسـ Bonitas وـبـنـيـجـيـنـتـيـاسـ Pudicitia . وـوـجـدـ بـيـنـ هـاتـيـنـ الصـورـتـيـنـ لـهـاتـيـنـ الشـخـصـيـتـيـنـ صـورـةـ تعـبـرـ عـنـ عـبـارـةـ الـأـوـثـانـ، وـذـلـكـ فـيـ شـكـلـ اـمـرـأـةـ تـمـسـكـ رـايـةـ . وـوـجـدـ فـيـ الـجـزـءـ الـأـسـفـلـ منـ الصـورـةـ وـالـلـوـحـةـ صـورـةـ بـوـدـيـكـيـتـيـاـ Libido . وـهـؤـلـاءـ النـسـوـةـ جـمـيعـاـ قدـ اـرـتـدـيـنـ قـبـعـاتـ مـخـرـوـطـيـةـ ، وـمـلـابـسـ وـاسـعـةـ ذـاتـ أـكـمـامـ مـتـدـلـيـةـ ، وـلـبـسـواـ أـيـضـاـ حـزـاماـ حولـ وـسـطـهـنـ . وـفـيـ وـسـطـ الـلـوـحـةـ ظـهـرـتـ صـورـةـ هـيـوـمـلـيـتـيـاسـ Humilitas المتـوجـهـ ، وـوـصـيـفـتـهاـ التـىـ تـقـدـمـ لـهـاـ المسـاعـدةـ وـتـرـتـدـىـ ثـوـبـاـ ضـيـقـاـ ، وـتـسـاعـدـهـاـ عـنـدـمـاـ تـقـومـ بـقـطـعـ عـنـقـ سـوـرـيـبـاـ Superbia بـوـاسـطـةـ سـيفـ مـسـلـولـ . وـكـانـتـ هـذـهـ الـمـرـأـةـ تـمـثـلـ فـيـ صـورـةـ مـحـارـبـ يـرـتـدـىـ سـتـرـةـ الـحـربـ، وـيـتـشـقـ سـيـفاـ وـيـمـسـكـ تـرـسـاـ مـسـتـدـيرـاـ ، وـهـوـ الـمـحـارـبـ الـذـىـ سـقـطـ فـيـ حـفـرـةـ، وـإـلـىـ الـيـمـينـ، وـقـفـتـ

من اللوحة، تظهر صورة صوريتا Sobrietas وهى تحمل راية، وتهاجم لوكسيريا Luxuria بطريقة وحشية . وظهرت فى وسط الصورة فورتيتو Fortitudo وهى تعن أفاريتيا Av-aritia، التى تحمل فى يدها كيس نقود . وإلى اليمين كانت توجد كونكورديا Concordia وهى تشق رأس ديسكورديا Discordia . وأخيرا، وفى أسفل جزء من اللوحة تظهر صورة لثلاثة من الطاهرات الرحيمات وهن بياتيتيدو Beatitudia ولارجيتاس Largitas ، وليتيكيا Leticia .

وكان الغطاء الخلفى لمجلد المزامير الخاص بالملكة الصليبية ميليسندا يتبع نفس الترتيب العام من الزخارف والصور ، بيد أن الإطار المزخرف يختلف عن المحتويات الزخرفية للحلبات البارزة . وعلى الرغم من أن النمط الزخرفى النباتى كان هو الأساس فى زخرفة الإطار كما ظهر فى الغلاف العلوى، فإن النمط الزخرفى الأساس كان يتمثل فى شكل فرعين أساسين . وكان النمط الأول عبارة عن زخرفة مزدوجة من الزخارف النباتية والزهرية . وكانت الزخرفة الزهرية تزين الإطار العلوى والسفلى لغلاف مجلد المزامير ، ووُجدت ثلاثة أغصان زخرفية فى الجانب الأيمن ، وأربعة أغصان زخرفية أخرى فى الجانب الأيسر، فـى حين كان الفرع الثالث يملاً مدخل الزخرفة الورقية والزهرية، وامتلأت الفراغات بأوراق النباتات وعناقيد العنブ ، إذ كانت توجد أوراق نبات المشخاش وأوراق شجر الكروم ضمن الزخارف النباتية والزهرية . وكانت العادة أن يتم زخرفة الفراغات المتقطعة بالأحجار الكريمة . وفي أركان اللوحة، وجدت قيـارة مزينة بزخارف نباتية وزهرية وقد ارتبطت هذه الأركان فيما بينها بواسطة أحزمة وأطواق مستديرة ينبع عنها فروع رئيسة للحلبات التى على شكل أوراق الكروم.

وتحت ست من الحلبات البارزة ارتبطت مع بعضها البعض بواسطة أربطة من الجبال . وقد امتلأت هذه الحلبات بالأعمال الفنية التى تقلل أعمال الرحمة، وامتلأت هذه الحلبات بصور الحيوانات . ودونت أعمال الرحمة هذه باللغة اللاتينية ، وقتلـت هذه الأعمال فى الطعام والبرع والعطش أى تقديم الطعام والماء «للجائع والعطشان»، و«حسن الضيافة»، و«ال الحاجة إلى الكساء»، و«عيادة المريض»، و«زيارة المساجين».. وصور الشخص الذى يروزع أعمال الخير السابقة فى شكل أربع رسومات، وكان هذا الشخص فى كل صورة مرتديا الملابس الامبراطورية التى يرتديها الإمبراطور البيزنطى . ووُجدت صورة أيضا لرجل رقيق الحال يرتدى بدلة واسعة غير محكمة تشبه بدلة العامل اليدوى . ووُجد على كل جانب من جانبي غلاف

بدلة واسعة غير محكمة تشبه بدلة العامل اليدوى . ووُجِدَ على كل جانب من جانبي غلاف المجلد أربعة من الطيور . ولاشك أن هذه الصور كانت تشغل الفراغات الخالية من الصور، ووُجِدَ في الفراغات في وسط الغلاف اثنان من الحيوانات المتصارعة . ووُجِدَ أيضاً في أسفل الغلاف صورة طائر ضخم تحبّط به الكلمة هيرودس Herodias هذه الكلمة التي نقشت في الجزء الأعلى من غلاف مجلد المزامير.

وبالإضافة إلى العاج ، فإن الفنان استخدم في زخارفه للمخطوطات الأحجار الكريمة ، فقد صنع الفنان عيون صور الأشخاص من الأحجار الياقوتية اللون المضراة ، في حين كانت الزخارف الورقية والزهرية التي تزيّن حواف المخطوطات تتّألق بالألوان الفيروزية ، ومرصعة بالأحجار الكريمة وهي أحجار الجمشت الأرجوانية أو البنفسجية الشكل amethysts وبعض العقيق الأحمر.

والحقيقة أن زخارف غلاني كتاب المزامير الخاص بالملكة الصليبية ميليسندا كانت رائعة الجمال بشكل يتناسب مع مكانة وثراء هذه الملكة . كما أن الفكرة الرئيسة لهذا العمل الفني في الزخارف المتعلقة بصورة الملك داود ترجع في الأساس إلى العصر القديم ، ومن المؤكد أن هذا النمط الفني قد نال الإعجاب والتقدير في المملكة اللاتينية في بيت المقدس - تلك المملكة التي عرفت باسم مملكة داود - والواقع أن أحد الملوك الصليبيين قد ترج في مدينة بيت لحم* ، وكان تتويج الملوك الصليبيين في مدينة بيت لحم أمراً متكرراً بصورة أكبر عن التتويج في مدينة القدس . وكان لهيرودس اسم آخر هو فولكيا Fulcia وقد صور هذا الملك في شكل شخص يقلد السيد المسيح ويتابع خطواته . وفي نفس الوقت كانت هذه الصورة تشير إلى الملك الصليبي فولك ، زوج الملكة ميليسندا صاحبة هذا المخطوط . وبشكل عام فقد كانت محتويات هذه الصورة تتبع الموضوعات الفنية المعروفة ، مثل الصراع الأزلى بين الخير والشر ، واعتمدت هذه الموضوعات الفنية على قصيدة شعرية ترجع إلى القرن الرابع الميلادي وهي قصيدة الحكمة والتبصير .

* لقد رفض الملك بلدوبين الأول (١١١٨-١١٠٠) أن يتّرج ملكاً في بيت المقدس على يد رجال الكنيسة اللاتينية ، وأختار مدينة بيت لحم مكاناً لتتويجه وأعلن أنه قد تلقى الملك بنعمة من الله ، ولذا أعلن منذ الوهلة الأولى عدم خضوعه للبطيريك اللاتيني (المترجم) .

وأشارت النقوش نفسها إلى أصل هذا الفنان وموطنه ، على الرغم من أن ثمة اتفاق عام يؤكد أن هذا الفنان كان من أصل أوربي ، وعلى خلاف ما سبق ، فإن الملابس والأسلحة الخيالية التي ظهرت في المخطوطات ذات الزخارف الذهبية والتي تضمنتها زخرفة مخطوطة المزامير الخاصة بالملكة ميليسندا توضح أنواع هذه الملابس والأسلحة التي كانت شائعة في القرن الثاني عشر الميلادي ، كما أن هذه الدروع والملابس قد وجدت في أوروبا وفي المملكة الصليبية في بيت المقدس . وربما يعكس الامبراطور البيزنطي هذه الحقيقة إذ إن التعبير عن التزعع التي ذكرناها آنفا قد اتضحت وتبلورت في ميل بعض الحكماء الصليبيين إلى تقليد أعظم عاهم مسيحي . ولم نعرف كثيرا عن نوع الزخرفة التي كانت شائعة في كل من الشرق العربي الإسلامي والغرب الأوروبي على الرغم من ظهور التصميم الزخرفي الشرقي . ومن المحتمل أن الفنانين والرسامين الأوروبيين قد دلفوا إلى المناطق الصليبية في بلاد الشام وفلسطين من جنوب إيطاليا (وهي المنطقة التي كانت مجالا لانتشار الثقافة البيزنطية) وهم الذين نقشوا الزخارف على أغلفة مخطوط الملكة الصليبية ميليسندا .

وعندما نلقى نظرة على الفنون المختلفة التي مارسها الرسامون والفنانون في مملكة بيت المقدس الصليبية يتبين لنا صورة متكاملة لهذه الفنون المتعددة والمختلفة ، ويتبين لنا أيضا الاختلاف في درجة إتقان هذه الأعمال وإبداعها . فقد انتشر عدد كبير من الأغراض الفنية طوال فترة تزيد عن قرنين من الزمان ، وليس من السهل تقييم هذه الأغراض الفنية والإبداعات وأن هذا التقييم يتوقف على المصادفة ، ومع ذلك فإن بعض الآراء العامة المتعلقة بهذا التقييم يمكن أن تكون مقبولة .

ومن الواضح أن المناطق الصليبية في فلسطين وببلاد الشام لم تصب في يوم ما مركزا للإبداع الفني الأصيل . وثمة شك حول ما إذا كان الفنانون الذين ألمجعوا الأعمال الفنية التي حفظتها لنا الأيام ضمن السكان المستوطنين الدائمين في المملكة الصليبية ومن المحتمل أن هؤلاء الفنانين قد تربوا في أوروبا ، ونهلوا من المعارف الفنية الأوروبية ، ثم هاجروا إلى منطقة الشرق العربي ومارسوا هناك فنونهم وأبداعاتهم . ولم نعرف ما إذا كان هؤلاء الفنانون قد بقوا في هذه المناطق الصليبية أو تركوها وغادروها بعد فترة طويلة إلى أوطانهم في أوروبا . وفي بعض الأحوال لا نجد دليلاً أو برهاناً مقنعاً يؤكد نشأة مدارس الفنون المحلية في بلاد الشام وفلسطين ، وتعتمد عملية نسب المخطوطات المزخرفة بالذهب والنحاس بشكل أساسي إلى

مدينتى القدس وعكا على النشأة الزمنية لهذه الإبداعات الفنية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر من الميلاد، ولم تعتمد كثيراً على السمات والخصائص المميزة لهوية المكان الأصلي لهذه الإبداعات الفنية والتي ربما تكون حقيقة.

وثمة سؤال يطرح نفسه وهو إلى أي قطر يمكن أن تنسب زخرفة المخطوطات بالذهب والفضة والألوان الساطعة وكذلك فن النحت وعلى الواجهات الزخرفية للمنشآت العمارية؟ ولايمكن أن نعزّز مثل هذه الزخارف إلى مركز محدد في الغرب الأوروبي، فقد تركت أقاليم أوروبية مثل لأنجذوك وبروفانس وبرجانديا وشامبانى تأثيرها الفني على الرخام والأحجار في فلسطين، وفي نفس الوقت ، خلد البناءون الشرقيون التقاليد البيزنطية في فن النحت ولاسيما الفرع الفني غير المجازي.

وهكذا ، فإنه من الصعب بمكان تقييم الإبداع الفني بشكل عام في المملكة اللاتينية في بيت المقدس. ولايمكن تقييم الأغراض الفنية المختلفة في عبارات ومصطلحات محلية، بيد أنه فقط يمكن مقارنة هذه الإبداعات الفنية التي عرفتها المملكة الصليبية بالنماذج والإبداعات الفنية الأوروبية والبيزنطية المعاصرة لها. وبهذه الطريقة يمكن تحديد معيار المقارنة- مع بعض الاستثناءات القليلة (مثل رؤوس تيجان أعمدة كنيسة البشارة في الناصرة والمجلدات المزخرفة بالذهب والفضة والألوان الساطعة والتي أخرجت في مدينة عكا) ويمكن القول إن الإبداعات الفنية في المملكة الصليبية في بيت المقدس لم تصل إلى المستويات الراقية التي كانت عليها الفنون الأوروبية) أو البيزنطية المعاصرة والاستنتاج الواضح هو أن كبار الفنانين الأوروبيين في الفترة الصليبية لم يهاجروا إلى المملكة الصليبية في بيت المقدس وإنما الذين هاجروهم صغار الفنانين فقط.

وما يذكر أن منطقة الشرق العربي الإسلامي في فلسطين وبلاط الشام تركت تأثيرها على الصليبيين في مجال النشاط والإبداع الفني. فقد ظلت أعمال الفسيفساء فنا تنفرد به مناطق الشرق هذه وظل هذا الفن يتبع التقاليد الفنية البيزنطية والإسلامية. وليس لدينا أشياء مادية تساعدنا في دراسة التبادل الفني في مجال الفسيفساء بين الفن الشرقي والفن الغربي الأوروبي. وما وصفه لنا الحجاج المسيحيون الأوروبيون الذين زاروا هذه المناطق الصليبية وما بقى من هذا الفن في شكل لوحات كان شرقياً من حيث الفكرة والتنفيذ.

وي يكن أن نتبين التأثيرات الشرقية في مجال الفنون الثانوية Minor Arts مثل أعمال

القاشانى (السيراميك) وبعض جوانب العناصر الزخرفية فى المنشآت المعاصرة . وقلما كان يختلف القاشانى (الشبراميك) الصليبى عن نظيره العربى أو المملوكى من حيث الصناعة ، فقد عشر فى بعض الواقع التى أجريت فيها حفائر أثرية على أشكال وصور (رجال دين - صلبان ، بعض الرموز المسيحية الأخرى) ترجع إلى الحقبة الصليبية ، وتلك إشارة إلى حقيقة أن الصناع المحليين من المسيحيين والمسلمين قد قاموا بصناعة القاشانى ، وهم الصناع الذين مارسوا مهنتهم بالطريقة التقليدية ، بيد أنهم عندما تعهدوا بتقديم هذه المنتجات إلى زيان جدد ، كان عليهم أن يستجيبوا للمطالب الجديدة حيث استهلاك المجتمع الصليبى الجديد ، وذلك بانتاج أشكال ورموز إضافية تتفق وأذواق المجتمع الجديد .

وإذا كان الفن الشرقي فى صناعة القاشانى (السيراميك) قد ترك تأثيره على هذا الطراز من الفنون ، فإننا أيضا نجد أن الفن الشرقي قد ترك تأثيره أيضا على المقومات الزخرفية للمنشآت المعاصرة . ولم تكن هذه المقومات الزخرفية الشرقية بالقدر الكافى الذى يضفى على البناءات الصليبية الطابع الشرقي ، بيد أن هذا يشير إلى حقيقة أن بعض البناءين وكبار العمال كانوا من السكان المحليين الذين استخدمو مهاراتهم وبراعتهم الحرفية فى بناء المنشآت الصليبية التى نفذوها وفقا للتصميمات الهندسية التى وضعها لهم المهندسون الأوربيون . فقد قام البناءون والفنانون المحليون المسيحيون بتنفيذ وتحت تيجان الأعمدة وال Afrizas فى كنيسة الضريح المقدس ، وهم العمال الذين استمروا فى تنفيذ التقاليد الفنية البيزنطية الاقليمية .

وتبرهن الوثائق الفنية الموجودة على أنه حدث تطور حقيقى فى مجال البراعة الفنية لزخرفة المخطوطات بالذهب والفضة والألوان الساطعة ، بيد أنه لا توجد أشياء مادية من الأعمال الفنية لتقييم أعمال النحت والفصيوفاسائية والعمارة ، وهى الفنون التى وجدت فى المملكة الصليبية خلال مدة قصيرة لم تزد عن خمسين عاما . والتتطور فى حد ذاته من الأمور الشديدة ، وذلك لأن هذا التطور يوضح التحول من أسلوب فنى تعوزه الدقة والجودة - حتى فى مجال النسخ - إلى أسلوب فنى أكثر تحرراً ويتبع النماذج الفنية الأقل تقليدا . وفي نفس الوقت فإن أعمال النحت وزخرفة المخطوطات بالذهب والفضة والألوان الساطعة على حد سواء تتوضع سمة متصلة فى المجتمع الصليبى : إذ كانت مثل هذه الفنون غير ملائمة للذوق الأوربى ، على الرغم من وجود الأنماط الفنية الشرقية الممتازة التى اصطبغت باللون الشرقي المحلى . فالنحوت الذى قام بتحت تيجان الجميلة لكنيسة البشارة فى الناصرة استخدم الأحجار المحلية فى عمله

الفنى هذا، على الرغم من أنه لم يرسم الصور الظلية الشرقية المزودة بالقباب والأسقف المسطحة . وكان هذا النمط المعماري الفنى يتفق مع صورة المدن الأوربية والطريقة التقليدية فى نسخ صورة هذه المدن. وكانت زخرفة الكتب والمخطوطات بالذهب والفضة ظاهرة غريبة، إذ كانت هذه الزخارف تصوّر رسومات تتعلّق بالإنجيل في أرض الإنجيل (فلسطين) ، وقلما كان الفنان يحاول رسم المناظر التي تحبّط به في حياته اليومية، كما كان نادراً ما يستخدم الأغراض الفنية ذات الصلة بالعادات والتقاليد المحلية. وإذا كان الفنانون في القرن التاسع عشر الميلادي قد قبلوا الثياب العربية كملابس تلائم الأشخاص الذين يمثلون الإنجيل المقدس، فإن فنانى ورسامى فلسطين وبلاط الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين قد ذهبوا إلى أبعد من ذلك ميّث صوروا شخصياتهم ترتدي بعض الملابس غير شائعة الاستخدام في الأرض المقدسة. فقد رسم الفنانون الشرقيون الصور التي ترتدي القبعات الفرجوبية أو أغطية الرأس الغربية. وهذا يوضح كيف كان الفنانون والرسامون الأوربيون يقلدون الأنماط الفنية الشرقية. ويمكن تصوّر الأذواق والأفكار الأوربية سلفاً من خلال وضع صورة الشخص في وسط اللوحة.

والحقيقة أن ظروف وأحوال الفنان الأوربي كانت تشبه قاماً ظروف وأحوال كل المفكرين والمبدعين الآخرين. فلم يهاجر أغلبية المفكرين الأوروبيين من الشعراء، وعلماء اللاهوت ، والعلماء، والمؤرخين إلى الإمارات الصليبية في بلاد الشام وفلسطين أو الاستيطان والاستقرار فيها. فقد ذهب بعض هؤلاء المفكرين إلى هذه الأرض المقدسة من أجل تأدية الحج إلى المزارات المقدسة، وقد دونوا مشاهداتهم خلال رحلات الحج هذه في صورة ابdaعات أدبية (أدب الرحلات)، واهتم الشعراء في قصائدهم بالحج إلى فلسطين والأراضي المقدسة، واقتبسوا الأغراض الفنية الشعرية الجديدة من منطقة الشرق العربي الإسلامي، وعلى الرغم من أن الحروب الصليبية والأرض المقدسة أصبحت موضوعاً مهماً من الموضوعات الشعرية في الشعر الأوروبي المعاصر للفترة الصليبية ، فإن هذا الشعر قد اكتسب نوعاً مهنياً من الإثارة (العظات والنصائح من أجل الذهاب إلى الأرض المقدسة) ، ونادرًا ما أصبح الشعراء الوعاظ أرباب مهنة.

الفصل الثامن عشر

تراث الفترة الصليبية

أ- الحروب الصليبية كحركة استيطانية استعمارية

لقد بلغت أوروبا درجة النضج الحضاري في أواخر القرن الحادى عشر الميلادى. حيث التقت الخطوط التاريخية لفترة الخمسة عشر عام الثانية من الألفية الأولى في نقط حضاري كالذى نراه اليوم في الملامح والسمات الحضارية التي قيَّز عصرنا الحالي. وخلال الخمسة عشر عام التالية للقرن الحادى عشر تفجرت في أوروبا الطاقة والحيوية التي انتشرت في كل أنحاء المعمورة، حيث تفرقت شعوب العالم وأمتزجت مع بعضها البعض ، وانتشرت المؤسسات والثقافة.

وكانت الحروب الصليبية من الناحية التاريخية تتوسط الفترة التاريخية المحصورة ما بين انهيار الامبراطورية الرومانية وبين العصر العظيم للكشوف الجغرافية ، ومثلت نتائج الحروب الصليبية الملموسة في انتشار وتأسيس المستعمرات والمستوطنات الأوروبية فيما وراء الحدود الطبيعية لقارة أوروبا . ومن وجهة النظر التاريخية ، كانت الحروب الصليبية منهاجاً صريحاً للتوسيع الأوروبي الخارجي الذي كان ارهاصاً لحركات الاستعمار الأوروبي في العصر الحديث.

والواقع أن الاستيطان والاستعمار لم يكن ظاهرة حديثة . فقد وجدت نماذج كثيرة للمستوطنات في العالم في فترة ما قبل التاريخ المدون وأيضاً خلال عصور التاريخ القديم . ومن المحتمل أن الاستيطان كان نتيجة من نتائج السلام، أو الحرب أو الهجرة . وعندما أصبح عنصر الهجرة عاملًا مهمًا في تكوين حكومة ودولة جديدة فإن هذه الهجرة استطاعت أن تخلق ظاهرة استيطانية . وأحياناً كان مصطلح «الاستيطان» يستخدم بشكل شخصي وذلك بالنسبة للهجرات الجermanية في العصور الوسطى الباكرة، وهي الهجرة التي أطلق عليها المؤرخون الألمان اسم «هجرة الشعوب Völkerwanderung »، بيد أن هجرة هذه الشعوب الجermanية قد عرفت باسم غزوات البربرة (وعرف هذا الاسم في كل اللغات الرومانية).

وإلى أن حدثت الحروب الصليبية، كانت الحركات الاستيطانية التي تركت تأثيرها المهم والمستمر على الحضارة العالمية تتركز حول منطقة شرق البحر المتوسط ، وهي الحركات

الأقطار العالمية المتعدة على شواطئ البحر المتوسط. وهي الثقافة التي كانت تتطابق عملياً مع الشكل الجمهوري للدولة الرومانية . وكانت المحدودة المثالية للتقليد الاستيطاني في العصر القديم تأتي في نطاق تعبير جغرافي عرفه الرومان وهو كلمة «بحرنا *mare nostrum*» * وكان هذا التعبير الجغرافي يمثل وجهة النظر الأوربية ، التي رأت في الحضارات اليهودية، والمسيحية، والهellenistic والرومانية أنها تمثل المقومات الأساسية لدعائم الثقافة والحضارة الأوروبية. وعلى النقيض لما سبق ، فإن الصليبيين لم يجلبوا معهم التراث المشترك لعالم البحر المتوسط عندما حضروا إلى منطقة الشرق العربي الإسلامي؛ وعندئذ حمل الصليبيون معهم تراث وتقاليد الثقافة الأوروبية . فقد كان الصليبيون ينتسون إلى الفرع الغربي من الكنسية العالمية وهي كنيسة روما ، حيث تربوا على التقاليد الأوروبية، وعاشوا في عالم بنفس المفاهيم والاتجاهات الغربية الأوروبية، واعتمدوا في تصنيفهم الاجتماعي على نفس المفردات المنطقية العرقية والأيديولوجية. وليس من قبيل المصادفة أن يطلق المسلمون على الصليبيين الأوربيين اسم «الفرنجة» ، أو أن يطلق مؤلفو المؤليات التاريخية المسيحية هذا الاسم على الفرنسيين الذين اشتركوا في الحروب الصليبية باعتبارهم الغزاة الأوربيين في الشرق.

إذا كانت الحروب الصليبية تميز عن حركة التوسع الاستيطاني الاستعماري في منطقة البحر المتوسط في العصر القديم من حيث دورها في نشر كل الثقافة الأوروبية، فإن نفس الفكرة العامة تشكل الرابط بين هذه الحروب الصليبية وبين حركة الكشف الجغرافية العظيمة، وإذا كانت ثمة فجوة زمنية تقدر بألف عام تفصل بين الحركات الاستيطانية الاستعمارية اليونانية والرومانية وبين الحركة الاستيطانية الصليبية في أواخر القرن الحادى عشر الميلادى، فإنه كان يرجى تواصل واستمرارية بين الحروب الصليبية وبين اكتشاف جزر الكاناري واكتشاف نصف الكرة الغربي (الأمريكتين).

ويقع الحروب الصليبية يجب أن تترك جزئياً منطقة البحر المتوسط باعتبارها مركزاً استيطانياً - وذلك لأن الصليبيين حضروا من الشمال الأوروبي إلى ميدان جديد للصراع -

* أطلق الرومان على البحر المتوسط لقب «بحرنا» ولاسيما في أثناء فترة التوسع الروماني وامتداد حدود الامبراطورية الرومانية حيث كانت تشمل معظم أنحاء العالم ماعدا بلاد الصين والهند وفارس (المترجم) .

وعلى الرغم من رجحان وتفوق المناطق الواقعة ما وراء جبل الألب ، فإن مناطق البحر المتوسط قد لعبت دوراً مهماً في الحركة الاستيطانية الاستعمارية . ولم يرجع السبب فقط إلى تأثير مناطق البحر المتوسط المباشر بهذه الحركة الاستعمارية ، ولكن أيضاً لأن أمم وشعوب عالم البحر المتوسط قد امتصت وادخرت التراث الاستيطاني للحروب الصليبية، هذا التراث الذي كان بشارة حافظ وخطوة ناشطة في مستقبل المشاريع الاستيطانية . وعندما نُهْضُ بجانبًا من جوانب التاريخ الاستيطاني الصليبي نجد اختلافاً جوهريًا بين الذين شاركوا في الحملة الصليبية الأولى وبين كل المهاجرين الذين حضروا في أوقات تالية للحملة الصليبية الأولى ، سواء كانوا من الذين تم استدعاؤهم للمشاركة في الحروب الصليبية أو من غير الذين تم استدعاؤهم لهذا الأمر. ففي المقام الأول يجب أن نشير إلى السمة الجماهيرية للحملة الصليبية الأولى ، حيث غادر عشرات الآلاف من المحاربين الصليبيين أوطنهم وذويهم وتحركوا صوب أراض جديدة في منطقة الشرق العربي الإسلامي في فلسطين وبلاد الشام . ولم تكن مثل هذه الميزة والسمة الجماهيرية من سمات الحروب والحملات الصليبية التي تحركت تباعاً بعد الحملة الأولى أو من سمات الهجرات السلمية للأوربيين التي تقاطرت خلال فترات الهدنة التي تخللت الحملات العسكرية . والحقيقة الأكثر لفتاً للنظر هي أن الحملة الصليبية الأولى لم يتم لها الإعداد الكافي . ولم تكن هناك محاولات باكرة للغزو سبقت الحملة الصليبية الأولى ولو على نطاق ضيق فلم تكن هناك تجربة ، أو قائد طائرة ، أو رواد مغامرون يساهمون في تألق هذه المحاولة . وعلى حد تعبير المؤرخين الذين أخذتهم الدهشة، فإن الحملة الصليبية الأولى كانت بشارة هجرة جماعية من أوروبا ، ويبدو أن هذا التعبير أكثر صحة ومنطقية من ذلك التعبير الذي يطلق على الجماهير التي تحركت على أثر انفعال ديني عاطفي . ومثل هذا لا يتضمن حقيقة أن كل فرد من أفراد الحملة الصليبية الأولى كان يتحرك وفق إرادته وأماماه ورغباته الخاصة، وتطلعاته إلى الشراء أو إلى أي شكل آخر من اشباع الرغبات . ومع ذلك ، فإن المشاركين في الحملة الصليبية الأولى لم يتحركوا بفعل جملة هذه الآمال والرغبات المتوقعة أو بفعل أيديولوجيتها - والتي حركت مئات الآلاف من المشاركين - التي لم تستطع أن تخفي الرغبة الملحة لهؤلاء المشاركين في تحقيق مكاسب وأرباح دنيوية . وكذلك فإن كثيراً من هؤلاء المشاركين قلما كانوا يتخلون عن مصادر رزقهم العادلة- وإن لم تكن وفيرة - لكن يقتسموا غمار مغامرة مجهلة العاقد . ولم تختلف الحركات الاستيطانية الاستعمارية المستقبلية من حيث الجوهر عن الحملة الصليبية الأولى . وإذا كان بعض المشاركين في الحروب الصليبية يعرفون قليلاً عن أرض

الهجرة (الأراضي المقدسة في فلسطين وبلاط الشام)، فإنهم أيضاً كانوا على دراية بحجم المخاطر والأهوال والصعوبات التي سوف تواجه المغامرين الصليبيين. وهكذا فإن السمة الجماهيرية الغوغائية للحملة الصليبية الأولى* والتي تجلت في عدم الاستعداد الكافي والباعث كانت تختلف عن أي حركة توسيع واستيطان أخرى.

لقد كانت السمة الغوغائية للحملة الصليبية الأولى (الحملة الشعبية) ترتبط أساساً بمشكلة الإنسان الذي شارك فيها. إذ كانت عدم الأهمية النسبية المادية ذات تأثير على التركيب البشري لجموع المشاركين في هذه الحملة. فقد وجدت القوى والعوامل النموذجية في كل المشروعات والمغامرات الاستيطانية - بمعنى أن العامة والذين كانوا يعيشون على هامش المجتمع هم الذين قاموا ب مثل هذا الدور الرئيسي في التاريخ الاستيطاني - وقلما لعبت هذه القرى النموذجية دوراً حاسماً في أحداث الحملة الصليبية الأولى (حملة الفرسان). وإننا نفتقر إلى معرفة مدى سوء التوافق والانسجام الذي كان يميز هؤلاء المغامرين والمنبودين سواءً كانوا من القراءنة أو من اللصوص الذين يبتزون ويغتصبون أموال التجار، أو كانوا من المبشرين، أو من نبلاء المجتمع المنبرذين (البارونات اللصوص). وباعتراض الجميع، لم تكن جيوش الحملة الصليبية الأولى (الحملة الشعبية) جموعاً من القدسين. ومن المؤكد أن جموع المشاركين في الحملة الصليبية الأولى كانت تضم في صفوفها اللصوص، والقتلة، والزناة، والأبقين وال مجرمين والهاربين من العدالة، وأناساً من طبقة هامشية مشاكسنة في المجتمع. بيد أن هذا النوع من الجماهير لم يكونوا رواداً مكتشفين. إذ كانوا عبئاً ثقيلاً على عاتق أولئك الذين تحركوا بمحض إرادتهم، وعلى الرغم من أن هذه المغامرة والإقدام كانت تتفق مع الواقع حياتهم الخاصة، فإن إقدامهم على الخطوة الأولى للهجرة كانت رغمما عن إرادتهم بسبب واقعهم المحياتي البائس. لقد كانت الجموع الأساسية المشاركة في الحملة الصليبية الأولى جزءاً من المجتمع المستقر. فلم يكن هؤلاء الذين ذهبوا إلى الشرق من النبلاء، أو الفرسان، والرجال

* المصود بالحملة الصليبية الأولى الغوغائية هي الحملة الشعبية التي تحركت في ربيع عام ١٠٩٦ م والتي لم تتضمن عدداً كبيراً من الفرسان المحترفين، بل ضمت بين صفوفها أصنافاً كثيرة من البشر، الزناة، واللصوص، وال مجرمين، والفلاحين، والأقنان، وكان بطرس الناسك أبرز قادة هذه الحملة الشعبية. وقد انتهت هذه الحملة بالفشل النريع، حيث تبدلت دماء مقاتليها على رمال آسيا الصغرى على يد سيفون الأتراك السلاجقة (المترجم).

الأحرار أو رجال الدين والأقنان من المبودين في المجتمع، بل كانوا بثابة عينة تمثل جميع طبقات المجتمع الأوروبي آنذاك . ولم يكن قادة هذه الجموع الصليبية من الغزاة الذي يعظر عليهم اقتسام الغنائم ، ولكنهم كانوا يمثلون جزءاً تقليدياً من الكيان الأوروبي الذي تأسس في منطقة الشرق العربي.

وما يذكر أن الجموع الغفيرة من جيوش الحملة الصليبية الأولى قد زحفت وهي ترفع شعارات أيديولوجية ، وتمثل هذا الشعار الأيديولوجي الصليبي في تحرير الضريح المقدس وتخلصه من يد المسلمين الهراطقة. واستطاعت هذه الأيديولوجية وسط الحماسة الدينية المتاججة أن تخلق نوعاً من الهوس والجنون الذي لم يترك مجالاً أو فرصة لتدبير خطة سياسية أو اقتصادية واعية. وتذكر عدد كبير من المصادر التاريخية المعاصرة أن قادة الحملة الصليبية الأولى لم تكن لديهم خطة مسبقة لتحرير الضريح المقدس في المستقبل . ويعتبر صمت كل المصادر التاريخية عن ذكر أية خطة صلبيّة لدى الصليبيين في الحملة الأولى خير دليل على عدم صياغة الأهداف السياسية لهذه الحملة. ولا يمكن أن نتصور أى هدف سياسى لها يفوق هدف إنقاذ مسيحي الشرق. وحدث تغير كبير في سلوك ومزاج جيوش الحملة الصليبية الأولى طالما أنهم كانوا يسعون لتحقيق هذا الهدف . فقد استغرقت رحلة الزحف الصليبي صوب الشرق ما يقرب من ثلاثة سنوات. ومن ناحية القدرة البشرية، كان من الصعب على جيوش الحملة الصليبية الأولى الاحتفاظ بروح الحماس الدينى المتاجج لمدة ثلاثة سنوات متتالية. فقد ارتكب جنود الرب الكثير من الجرائم البشعة والانتهاكات المخزية فى أثناء زحفهم المقدس خلال أراضي منطقة آسيا الصغرى، كما ارتكب القادة الصليبيون أمثال بلدون وتانكرد مثل هذه الانتهاكات والجرائم فى أثناء زحفهم فى قليقىا حتى وصلوا فى النهاية إلى الراها . وبعد أن أحرز الصليبيون نصراً مؤزراً عند أنطاكيه ، ظهرت هناك حقيقة جديدة وواقع جديد تختلف عن المثال الذى رفعه الصليبيون ، حيث تفرقت قوات الحملة الصليبية الأولى (حملة الفرسان) ، وذهب كل قائد يبحث لنفسه عن مكاسب إقليمية فى المناطق المحبيطة بانطاكيه، يحتل القرى والمدن ، ويضمها إلى حوزته . وفي غضون ستة أشهر قضوا الصليبيون فى أنطاكيه تجلى الإفلات الأخلاقي والأيديولوجي الصليبي، وكشف زيف الدعاوى والشعارات التي رفعها رجال الدين الكاثوليك فى أوروبا: فقد نسى أو تناهى قادة الحملة الصليبية الأولى مدينة بيت المقدس والضريح المقدس؛ واقتتنع القادة الصليبيون بما حصلوا عليه من مكاسب دنيوية فى

أنطاكية وشمال بلاد الشام ولم يصروا على مواصلة الزحف صوب منطقة الشرق العربي في فلسطين وببلاد الشام لتحرير المقدسات المسيحية هناك. وعلى الرغم من تفجير بركان الأطماع الدنيوية الصليبية فإن القادة الصليبيين - باستثناء الأمير الصليبي بوهمند، الذي كان من أشهر مؤسس الكيان الصليبي - لم يفكروا بلغة سياسية واحدة. وكان جل تفكيرهم ينحصر في الحصول على الغنائم والأسلاب. وليس هناك أكثر دليل من «قانون الفزو» The Law of Conquest الذي أصبح منذ فترة باكرة جزءاً من تشريع الملكة الصليبية . ووفقاً لقانون الفزو هذا، فإن القائد الصليبي الذي يرفع رايته ويرفرف فوق أي موضع يتم غزوه في منطقة الشرق العربي، مثل منزل، أو فرن يصبح هذا الموضع ملكاً خالصاً لا ينزع عنه أحد. ومهما يكن من شيء، فإن الصيغة المضبوطة لهذا القانون والتي تحددت في إطار الأفكار الخاصة بالسلطة والهيكلية الاقطاعية (تسلسل الرتب والدرجات الاقطاعية) لهذه الفترة كانت ترى أن أية دعوى ترفع من أجل اثبات الملكية بين الفرد وبين المالك الحقيقي للضياعة تمثل باختصار تشجيعاً للفزور ودعامة قوية له. ويبدو أن هذا القانون كان دلالة على التحول من الشكل الديني للدولة الصليبية إلى الشكل السياسي .

والحقيقة أن مثل هذا التحول واجه معارضة قوية من جانب رجال الدين ومن بعض المتدينين. فقد حاولت العناصر المخلصة للتعهد الأصلي من الجموع الصليبية التي شاركت في الحملة الصليبية الأولى الوقوف والتصدى لهذه النزعة العلمانية الجديدة. وهدد هؤلاء المتعمسون من المتدينين الصليبيين بحرق المدن التي احتلها الصليبيون في منطقة أنطاكية إذا لم يواصل قادة هذه الحملة الزحف العسكري صوب مدينة بيت المقدس. وكان هذا التهديد إذا لم يواصل قادة ضاغطة على هؤلاء القادة ، حيث تحركت القوات الصليبية صوب الجنوب إلى فلسطين وببلاد الشام. بيد أن هذا التحرك كان مجرد نصر خاطف أحرزه صغار المحاربين الصليبيين المتعمسين دينياً. إذ حدث نزاع بين أصحاب الاراء الراديكالية من القادة الصليبيين وكان هذا أمراً حتمياً وحدث هذا الخلاف والصراع بين القادة الصليبيين قبيل احتلال مدينة القدس. ولكن ترى ما الذي جعل فريقاً من المشاركون في الحملة الصليبية الأولى ولاسيما الفقراء منهم الذين انحدروا من أوساط الفلاحين وصغار رجال الدين، ومن صغار الفرسان يعارضون قيام أي نوع من الحكومة في أنطاكية وذلك تحت تهديد الإرهاب والاغتيال؟! وقد تم إقناع القادة الصليبيين بصعوبة من أجل مواصلة الزحف لتحرير مدينة القدس . كان الفقراء من المشاركون الصليبيين المحاربين يتوقعون الارتقاء إلى مملكة الرب التي قدر لها الهبوط إلى جبل صهيون والأشياء

الاجتماعية المصاحبة لهذه المملكة الساوية ، فقد تحقق الحلم الإنساني الألفي بخصوص إقامة العدالة المطلقة : فالفقيه هو المختار والمصطفى لدى الرب ، وهو أول من يدخل إلى مملكة القدس الساوية . وخلال التنافس بين الحزبين المتصارعين الآخرين من القادة الصليبيين ، طالب قادة أحد هذين الحزبين بضرورة أولوية انتخاب ملك صليبي علماني للملكة الصليبية في حين نادى قادة الحزب الآخر بضرورة وأولوية انتخاب بطريرك لاتيني لكنيسة بيت المقدس ، ولم يعلق هذان الحزبان المتنافسان أفكاراً ثورية . إذ كان كل منهما يمثل الوضع القائم ، على الرغم من أنها لم يتفقا على أسبقية وحيوية أي الأمرين (اختيار الملك العلماني أم اختيار البطريرك اللاتيني) .

وبعد هذه المواجهة المضنية بين الحزبين المتصارعين تم انتخاب أحد قادة جيوش الحملة الصليبية الأولى وهو جودفري البويوني كأول حاكم علماني للملكة الصليبية الوليدة في بيت المقدس من أجل حماية الأراضي والأقاليم التي تم غزوها . وكان اختياره حاكماً بشابة مرحلة حاسمة ومنعطف مهم في تاريخ الحروب الصليبية ، وأيضاً كان هذا الاختيار يمثل نقطة مهمة في الأيديولوجية الصليبية : حيث ساهم قرار اختيار جودفري البويوني في إنشاء مملكة أوروبية ومجتمع أوربي في الأراضي المقدسة في فلسطين . وعلى أي حال ، فإن الفموض الذي اكتنف المجتمع الصليبي لم يتم الكشف عنه تماماً . واتخذ جودفري لنفسه لقب « حامي الضريح المقدس » ، وهو لقب غامض ، لم يشر إلى مهمة بذاتها فقط ، بل أيضاً كان هذا اللقب يؤكّد الدعاوى الصليبية الباكرة ، ولم يخلع جودفري على نفسه لقب « ملك » ، إذ لم يصل الكيان الصليبي في عهده إلى مستوى الدولة ، فلم يزد هذا الكيان السياسي عن كونه وديعة وأمانة بين يدي جودفري وظلت كذلك حتى آخر قرار مهم أصدره هذا الحاكم الأول . لقد تأكّد الولاء للماضي من خلال الشروط والالتزامات المادية التي تعهد بها جودفري البويوني ، حيث اعترف بتبنيته الاقطاعية للبطريرك اللاتيني وتعهد بأن يتنازل للبطريرك عن ملكية مدينة بيت المقدس ومدينة يافا . فقد كانت الالتزامات والتعهدات التي اضطلع بها جودفري من الشروط التقليدية الاقطاعية التي دونت في أحد المصادر التاريخية التي عرفت في أوروبا في ذلك الوقت . بيد أن هذه الشروط والقيود كانت تعبرها عن حقائق متداولة تختلف تماماً عن تلك الشروط المعروفة في قانون التبعية الاقطاعية المعروف في أوروبا آنذاك ، بمعنى أن أسس ونظم الأمور الدينية الأخرى قد صيغ بلغة الخضوع للكنيسة ، ومع ذلك فإن الرهن والدين الأيديولوجي الصليبي لم يف به الملوك الصلي比ون بشكل كامل .

وأخيراً لم يتم الوفاء الكامل بالدين الأيديولوجي الصليبي من جانب الملوك الصليبيين في نهاية عام ١١٠٠ م، أى بعد عام ونصف من احتلال مدينة بيت المقدس. فقد جاء بلدوبين الأول ليغلف أخيه جودفري البويوني الذي ودع دنياه في عام ١١٠٠ م في حكم المملكة الصليبية ، وتم تكريمه في كنيسة المهد في بيت لحم. ورفض بلدوبين الأول أن يطلق على نفسه لقب «حامى الضريح المقدس» ذلك اللقب الفضفاض الفاضل ، بل اتخذ لنفسه لقب «ملك بيت المقدس» . وبعد صراع بين المثال والواقع انتصر الواقع أخيراً على المثال الصليبي. إذ كان تحرير الضريح المقدس يعني تأسيس مملكة مسيحية في فلسطين . وكان الغزاوة الصليبيون مصدر القوة لمجتمع مواطنى هذه الدولة الصليبية الجديدة. وانتهت فكرة تحرير الضريح المقدس - دون تحطيم للأيام المقبلة- إلى إنشاء وقيام مستوطنة لاستقرار هؤلاء الذين حضروا إلى الأرض المقدسة من الصليبيين والذين سوف يحضرون إلى هذه المملكة الصليبية الوليدة في منطقة الشرق العربي الإسلامي.

واعتمد القرار المنطقى بانشاء المستوطنة الصليبية على طريقة واقعية لفهم المؤسسات والمجتمع البشرى، على الرغم من أن هذا القرار كان يحتاج إلى تفسير وتبرير. فقد تم إضفاء الشرعية على الغزو الصليبيى فى تناغم مع المنطق الدينى والأخلاقي لهذه الفترة . واستطاع البابا اريان الثانى Urban II وصف شرعية هذا الغزو ، ووضع التبرير الدينى لهذه الحركة الصليبية وذلك من خلال حق المسيحية الشرعى فى امتلاك أرض الميعاد* فى فلسطين ، بيد أننا نجد أن هذا المبرر البابوى الدينى للحروب الصليبية قد تطور بعد الاحتلال الصليبي لمدينة القدس. وأية ذلك، الموارى الخيالى الذى دار بين البطريرك اللاتينى فى بيت المقدس وبين السكان المسلمين فى مدينة قيسارية فى أثناء الحصار الصليبي لها فى عام ١١٠١ م . إذ قام البطريرك بتقديم نصائحه الإنجيلية لسكان مدينة قيسارية المسلمين وخاصة بتحريم الإنجيل لسفك الدماء والاستيلاء على أملاك الغير بالقوة . وعندما تحدى السكان المسلمين فى قيسارية حجة وموعةة البطريرك اللاتينى تحدث إليهم قائلاً : «والحقيقة أن ديننا المسيحي يحرم القتل

* يلجم المؤلف أحياناً إلى ذكر مفردات توراتية لخدمة الأغراض السياسية للصهيونية ، ولا ثبات الحق المزعوم لاسرتائيل فى فلسطين ، وتلك أمور اعتدنا رويتها مراتاً وتكراراً فى شايا هذا الكتاب، وذلك يمثل انحرافاً عن الموضوعية التاريخية لمؤرخ يهودي متخصص فى تاريخ الحروب الصليبية مثل يوشع برادر (المترجم).

والسرقة ويأمرنا ديننا ألا نرتكب هذا ولاذاك . بيد أن مدينة قيسارية ليست ملككم أيها المسلمين ، ولكنها كانت ملكاً للقديس بطرس الرسول ، وسوف تظل ملكاً له ، وأجدادكم قاموا بطرد القديس بطرس من مدینتھ بالقوة . وإذا أردنا نحن نواب القديس بطرس أن نسترد مدینتھ ، فإن ما نفعله من استرداد لأملاك القديس بطرس ليس من قبيل السرقة أو الاغتصاب لمدینتكم » .

وهكذا كان الغزو الصليبي لمدينة قيسارية شرعياً ، وظلت هذه الشرعية تفسر باستمرار من جانب رجال الدين اللاتين في المملكة الصليبية . وكان الغزو الصليبي وتأسيس المملكة الصليبية في بيت المقدس يوصف بأنه استرداد ، أو استعادة الأموال المسيحية من يد المسلمين ، وإعادتها إلى أصحابها الشرعيين .

وترددت نفس هذه الفكرة في التاريخ من أجل توحيد المملكة الصليبية الجديدة على أساس الصليب القديم . واستطاعت الأسرات المحاكمة المجلة في العصر القديم تشييد مملكة في هذه الأرض المقدسة ولم تكن هذه المملكة هي مملكة بيت المقدس فحسب ، بل كانت أيضاً « مملكة داود » ، وببساطة لم تكن هذه المملكة ذكرى توراتية ماضية ، ولكن كان هناك مبرر تاريخي (لها وللممالك الأخرى) لوجودها . وكان وجود كل هذه المالك قريب المنازل ، فقد كانت مدينة بيت المقدس تدفع إتاوة مالية للحكام المسلمين في العصور الوسطى وكانت هذه الإتاوات من التقاليد الراسخة للعصور الوسطى . وهكذا لم تكن الحروب الصليبية من وجهة النظر المسيحية حركة استعمارية أو استيطانية ، وذلك لأنها كانت عملاً بطولياً من أجل تحرير الأماكن المسيحية .

ونظراً للوضع الشرعى الذى آزر الأسرة المحاكمة الصليبية التي انحدر منها جودفري وأخوه بلدوبن الأول ، فإن بلدوبن الأول أعلن بسرعة برنامجه السياسي حيث أطلق على نفسه لقب « ملك مصر ». وعندما نظر ملياً في هذا اللقب ندرك على الفور أن الصليبيين قد مالوا إلى الواقع أكثر من ميلهم إلى المثال . وبعد سنوات أربع من حكم الملك الصليبي بلدوبن الأول قام هذا الملك بمنع الجنوبي ثلث مدينة القاهرة وثلث الأماكن والضياع الزراعية القريبة منها . وعندما تأسست المملكة الصليبية في بيت المقدس ، شيدت إمارتان مسيحيتان على أنقاض مناطق السيادة الإسلامية في كل من أسبانيا وصقلية . وكانت ثمة ظروف وأمور كثيرة مشتركة بين شبه الجزيرة الإيبيرية وصقلية وبين المنشآت المستوطنات الصليبية في منطقة الشرق العربي

الإسلامى، على الرغم من بعض الاختلافات التى كانت طفيفة وتأفة . فلم تستطع حقائق ووقائع الغزو المسيحي فى أسبانيا وصقلية أن تخلق نفس الأنماط الاستيطانية الصليبية. ولم تظهر الاختلافات الرئيسية بين التجربتين المسيحية فى أسبانيا وصقلية والصلبية فى منطقة الشرق العربى الإسلامى فى مجال الدوافع والأيديولوجية . حيث كان مصطلح الاسترداد الأسبانى Reconquista يشير إلى فكرة تحرير أو استرداد الأماكن والأقاليم المسيحية، وهى نفس الفكرة التى ظهرت واضحة فى الأرض المقدسة فى فلسطين وبلاط الشام . ويتبلور الاختلاف الرئيسى بين التجربتين الأسبانية والصقلية والصلبية فى الظروف الطبيعية والتاريخية.

ويبدو أن السمة والأمارة لعملية الغزو الاستيطانى فى أسبانيا وصقلية كانت تختلف بشكل رئيسي عن السمة المميزة لنمط الاستيطان الصليبي الذى كان سائداً فى منطقة الشرق العربى الإسلامى (منطقة ما وراء البحار) . ومن ناحية النمط الاستيطانى ، كانت المشروعات الاستيطانية الاستعمارية فى كل من أسبانيا وصقلية تتشابه فى مفردات كثيرة مع حركة الاستعمار والاستيطان الألمانى فى المناطق السلافية ومناطق البلطيق . وقد تبين لنا من خلال الأنماط والنمذج الاستيطانية الأسبانية والألمانية أن هذه المراكز التى تم احتلالها بعد الحملة العسكرية الاستعمارية ظلت تلعب دوراً رئيساً فى عملية الاستيطان بعد عملية الغزو التى تم تنفيذها . وكانت السمة الأمورية لحركة الاستيطان فى أسبانيا وصقلية تتبلور فى التوسع الذى تطلب نوعاً من التحضرات والقواعد الأمامية على حدود مع العدو . وهذا التوسع هو الذى حدد شكل وملامع الغزو والسيطرة فى المستقبل ، كما كانت هذه السمة الخاصة بالتوسيع ذات تأثير حاسم فى صياغة وتشكيل المجتمع الصليبي الجديد فى المناطق المحتلة حديثاً . وكان هناك باستمراً توجد منطقة داخلية بعيدة عن الساحل، وهى المنطقة التى كانت تيسّر عملية تدفق المهاجرين الأموريين إلى المناطق الداخلية من السكان . وبينما كان النصر الذى يحرزه الصليبيون يؤدى إلى إبادة السكان الوطنيين الأصليين على يد هؤلاء الغزاة الجدد ، كان هؤلاء الغزاة أيضاً يعمرون هذه المناطق المهجورة التى هجرها سكانها . وعلى الرغم من أن هؤلاء السكان الغزاة عاشوا تحت الحكم المسيحى، فإن التماسك الاجتماعى لهؤلاء السكان الصليبيين كان هشاً ضعيفاً أو منهاراً ، وبات من السهل استيعاب هذه المناطق لهؤلاء السكان الصليبيين ، ... الخ . وما يذكر أن النشاط التنصيرى والتكامل والدمج العنصرى من

السمات المتمايزة التي تميزت بها المجتمعات الاستيطانية في كل من الأندلس وصقلية عن غيرها من المستوطنات الصليبية في المناطق العربية المقدسة في فلسطين وبلاد الشام . وأصبحت الحقيقة التي تقول أن الصليبيين لم يتقدموا صوب المناطق المجاورة لمستوطناتهم في حين كانت حدودهم متقدمة باستمرار - كما كان الوضع في شبه الجزيرة الأيبيرية - عاملاً مهماً في تشكيل بناء الدولة والمجتمع الصليبي . وربما لو كانت هذه الحركة الاستيطانية الصليبية في عصر تكنولوجي قادر على اختصار المسافات أو زيادة المحمولات ، لأمكن إحداث تطور مختلف ، بيد أنه في نهاية القرن الحادى عشر كانت الظروف والأوضاع الطبيعية غير قادرة على تذليل العقبات التي حددت شكل وایقاع التطور .

والحقيقة زن طبيعة وظروف فترة الغزو الصليبي لم تكن أقل حسماً في تحديد شكل وایقاع التطور الاستيطاني . فمن أجل النجاح والظفر تحرك الصليبيون ببطء ، وانطلقوا يؤسسون ويشيدون قواudem في منطقة الشرق العربي . وعلى الرغم من ضآلة عدد قواتهم - والتي لم تستطع القوة البشرية التي جاءت من أوروبا سد هذا النقص - فإن هذه القرات الصليبية الضئيلة لم تنهار وظلت صامدة . وشيد الصليبيون قواudem وتحصيناتهم من المساعدات التي جلبت إليهم من أوروبا ، وتغلغلوا في هذه المناطق واحتلواها . وكان هذا النمط من الغزو يطلب قوة عسكرية ضخمة عند الهجوم العسكري الضارى . والحقيقة أن جموع المغاربين في صفوف الحملة الصليبية الأولى كانوا أكثر عدوانية ووحشية في ميدان القتال من أي جيش صليبي آخر اشتراك في المروء الصليبية . وبينما استمر الغزو الأسباني المسيحي للمناطق الإسلامية في الأندلس وكذلك الغزو لمناطق البلطيق لمدة أجيال عديدة ، فإن الجهد الصليبي في مجال الغزو لم يكن متنامياً ، إذ كان جهداً ضعيفاً ، ولم يتتصاعد هذا الجهد إلا في حادثة واحدة فقط* . فلم تتسع حدود المملكة الصليبية أو تتد إلأ بشكل قليل بعد ما يزيد عن عشر سنوات من تأسيسها . وهكذا وعلى النقيض مع الوضع الاستيطاني في إسبانيا ، فإن عملية الغزو

* تعتبر الحملة الصليبية الأولى هي الحملة الوحيدة التي حققت نجاحاً مطرداً في تاريخ المروء الصليبية ، إذ استطاع قادة هذه الحملة بعد نصرهم على المسلمين تأسيس الكيان الصليبي في المنطقة العربية ، وهي مملكة بيت المقدس والإمارات الصليبية التابعة لها . بينما تحرز باقى الحملات الصليبية الأخرى التالية أية نجاحات على الإطلاق ، وكانت اختلاقات متتالية (المترجم) .

الصليبي في حد ذاتها لم تستطع أن تساهم بشكل كبير في تشكيل مصادر واقدار ومستقبل المجتمع الصليبي الوليد. وقد تقرر وتحدد شكل الدولة والكيان الصليبي الجديد بعد الفزو مباشرةً . وكان الاختيار الصليبي ينحصر ما بين إقامة نقاط دفاعية محصنة - وبشكل أساسي في الموانئ البحريّة- بحيث تشكل مناطق صليبية محاطة بالأعداء ، من أجل الوصول إلى منافذ التجارة ومساهمة هذه المناطق في تصريف منتجات المناطق الداخلية ، والاختيار الثاني كان يتمثل في تكوين دولة في شكل مستوطنات يقطنها مجتمع من المهاجرين الأوروبيين. ولم يكن القرار الذي اتخذه الصليبيون في هذا الصدد موضع شك . فلم تتأسس الإمارات الصليبية على أساس الحسابات التجارية وكانت فكرة العوامل التجارية عديمة الأهمية داخل إطار المنطقة الأيديولوجية الصليبية . وهكذا فإنه يمكننا أن نصل استنتاج لما سبق مؤداه أن المستوطنات الصليبية الوليدة التي أقيمت في المستقبل لم تصل إلى غط المستوطنات الفينيقية أو غط المستوطنات القرطاجينية ، ولم تكن تشبه المستعمرات البرتغالية، أو الفرنسية ، أو الجهود الاستعمارية الإنجليزية في الهند والشرق الأدنى . والواقع أن المستوطنات والمستعمرات الصليبية كانت إرهاصاً للمستعمرات الإنجليزية والأسبانية في النصف الغربي من العالم (الأمريكتين) في العصر الحديث .

وطوال عصور التاريخ ، ظهرت حركة الاستيطان سواء كانت ذات غط تجاري أو استعماري، وذلك بفضل نشاط المراكز الاستعمارية . فقد استطاعت الدولة، أو المدينة الشركة أن تحرك القوة البشرية ورأس المال، في حين كان الإمام بالمعرفة العملية لهذا النشاط الاستعماري من العوامل الجوهرية للنجاح. وربما بدأ أو لم يبدأ أى مشروع استعماري بالحصول على امتيازات أو سلطات من المركز الاستعماري. ففي حالة الشركات الاستعمارية كانت أية شركة استعمارية تحصل على وضعها وامتيازاتها من خلال قوتها السياسية ونفوذها السياسي ولذا فإن حقها في منح الامتيازات كان أمراً ثانوياً . ومهما كان الوضع ، فإن قوة الدولة كانت تمثل عmad نجاح المشروع الاستعماري الذي سوف يتحرك آجلاً أو عاجلاً صوب الأقليم الذي يتم احتلاله حديثاً، وإنشاء مستعمرة فعلية ومعترف بها عن طريق ادعاء الدولة ببسط سيطرتها والحصول على الموارد الكامنة في هذا الأقليم المحتل . ولم تغب أو تختفي علاقات التبعية ، التي سوف تصاغ في شكل مؤسسات. وكانت أشكال التدخل الاستعماري تختلف ، بيد أن نزعة التدخل كانت شيئاً مألوفاً . وفي حركة الاستيطان الأوروبي، كانت إمكانية الاتصال غير المباشر بين

المستعمرات والدولة الأم أمراً محتملاً لكي يكفل هذا الاتصال السيطرة المحكمة على الأقاليم التي تم احتلالها حديثاً وذلك بدرجة أكثر من تلك المستوطنات الصليبية التي تأسست في منطقة الشرق العربي الإسلامي . ففي المستوطنات الصليبية، كانت قوة الدولة تعضد الحرب مثل المشروع الاستعماري الناجع في المستعمرات الأوروبية الذي كان بمثابة الخطوة الأولى في تعزيز المستعمرين والغزاة الأوروبيين . وفي حالة منع هذه المستعمرات شكلاً من أشكال الحكم الذاتي، فإن هذا الحكم الذاتي يكون متقلصاً وقد وجدت أدلة للسيطرة على هذه المستعمرات الأوروبية ، وكانت هذه الأداة تهدف إلى دمج هذه المستوطنة والمستعمرة داخل البناء السياسي للمركز الاستعماري . وحدث مثل هذا في المالك المختلفة في شبه الجزيرة الإيبيرية (البرتغال، كاستل ، أراغون) ، وفي الشرق الروسي وفي منطقة فرسان التيوتون في بروسيا . وكانت هذه الأوضاع مختلفة في عملية الاستيطان الصليبي في منطقة الشرق العربي الإسلامي (مناطق فيما وراء البحار)، إذ إن عملية الدمج الحقيقي لهذه المستوطنات مع المراكز الاستعمارية (المالك الأوروبية في غرب أوروبا) كانت أمراً عسيراً يصعب ت التنفيذ . وهنا نجد حالة من التبعية ، وهي الحالة التي أفرزت توترات وتنافس بين المركز الاستعماري في أوروبا وبين المستوطنة الصليبية التابعة له، حتى تعقدت العلاقات وروابط التبعية على يد المستوطنين . وطالما كانت توجد روابط التبعية التي أشرنا إليها سابقاً ، فإن المفترض أن يقوم المركز الاستعماري بالدفاع عن المستوطنة ، ولكن المدينة الأم كانت أشد حرضاً على التزود بما تحتاج إليه من الموارد من هذه المستوطنة . وبعد مدة من الزمن ، وعندما أصبحت المستوطنات والمستعمرات مجرد رهانات وضمانات في السياسات العالمية، فإن الاستراتيجية الاستعمارية والمكانة الدولية لم تكن أقل أهمية من مصادر الدخل والموارد المالية في إحداث الصراعات والمساومات بين القوى الاستعمارية.

وإذا نظرنا إلى جوانب وأوجه الحروب الصليبية باعتبارها حركة استيطانية استعمارية يتبيّن لنا أنها كانت حركة فريدة ذات أهمية خاصة . ويتمثل هذا التفرد الذي يميز الحركة الصليبية كحركة استيطانية في حقيقة أن المركز الاستعماري في أوروبا (الوطن الأم) لم يرفع دعوى بشأن حقوقه السياسية أو الاقتصادية في المستوطنات الصليبية التي سوف تتأسس في المستقبل ، وهكذا كان هناك انفصال بين هذه المستوطنات وبين الوطن الأم . لقد كان الرعاء الذي صب فيه الصليبيون أيديولوجيتهم ضحلاً . وعلى الرغم من المشاركة الأوروبية، فإن المجموعات والتجمعات الإقليمية والقومية اعتبرت نفسها مجموعات مسيحية أولاً - وليس

لديها مطالب سياسية أو اقتصادية في المملكة الصليبية. ومن الناحية النظرية ، كانت البابوية تستطيع أن تتقدم بهذه الادعاءات والمطالب، بيد أن مثل هذا كان موضع شك بقدر كبير وغير مؤكد . فإذا كان البطريرك اللاتيني دايمبرت Diambert قد طلب من الملك الصليبي جودفري البويوني أن يقدم الولاء والتبعية الإقطاعية له، فإن بابا روما هو الذي حث البطريرك اللاتيني على ذلك من أجل سمو الزعامة الكنسية ، والحقيقة أن هذا المطلب لم يتكرر مرة ثانية من البطريرك . وهكذا فإن الأيديولوجية الصليبية المسيحية المفسدة والمضللة قد سادت الحملة الصليبية الأولى- وهي الأيديولوجية التي قررت مصائر ومستقبل المستوطنات الصليبية ككيانات سياسية مستقلة لم ترتبط بأية علاقات من التبعية الحقيقة مع أي مركز من المراكز الاستعمارية في أوروبا. ولايمكن أن تعتبر الحملات الصليبية التي قام بها كل من ملوك فرنسا، أو ملوك إنجلترا ، أو أباطرة ألمانيا ، أو أمراء ودوقات بافاريا أو هنغاريا حملات قومية ، على الرغم من أي أفكار العصور الوسطى كانت تعتبر أية حملة يقوم بها أي ملك أوربي شأنًا يتعلق بالدولة . فقد كانت المساعدات المالية التي ترسلها أوروبا إلى المملكة الصليبية في بيت المقدس بغاية جزء من المجهود الحربي الأوروبي من أجل الحفاظ على الكيانات الصليبية . وشارك قادة الأقطار الأوروبية في الحملات الصليبية، وحاربوا من أجل المملكة ، وقدموا لها العون المادي والتأييد المعنوي في إطار قناعتهم الكاملة بأنهم يحاربون من أجل المسيحية.

ولاشك أن التعليم السابق الخاص بقناعة كل القادة الأوروبيين الكاملة بأنهم يحاربون من أجل المسيحية من خلال تقديمهم العون للكيان الصليبي في منطقة الشرق العربي لم يكن كاملاً، وذلك لأنه توجد ثلاثة حالات استثنائية ، اثنتان منهم ذات هدف خاص، وذلك لأن هذين الاستثنائيين يمثلان اتجاهات مختلفة وتصورات وأفكار مختلفة. ففي أثناء الحملة الصليبية الثالثة، كان هناك اتفاق بين الملك الفرنسي فيليب أغسطس وملك إنجلترا ريتشارد قلب الأسد من أجل تقسيم الأقاليم التي سيتم احتلالها في منطقة الشرق العربي في المستقبل فيما بينهما. وفي نفس الوقت، اتفقا العاهلان الأوروبيان على أن يتم احتلال الأماكن والأقاليم الجنوبية في المملكة الصليبية إذا لم يعترف الجنوبي بأحقية المملكة الصليبية في امتلاك هذه الأقاليم وهذه المتلكات . ومن الناحية العملية، كان يحدد نصيب من هذه الأماكن الجنوبية لصالح المملكة الصليبية . ويتم تسليم هذه الأماكن للملك بيت المقدس الصليبي ، بيد أن إرادة هذين العاهلين ومقترحاتهم كانت هي الخامسة بخصوص رد الحقوق للناج الملكي الصليبي الذي كان نصف شاغر.

وتحير الوضع في عام ١٢٢٥ حينما تزوج الإمبراطور الألماني فردريك الثاني الهوهنستاوفن من إيزابيل Isabel وريثة ملكة بيت المقدس الصليبيّة وابنه الملك الصليبي السابق جان دي بيرين Jean de Brienne . ولذا أضاف الإمبراطور الألماني إلى جملة ألقابه لقب «ملك بيت المقدس» ، واستطاع هذا التوحيد الشخصي للملكة الصليبية الذي قام به الإمبراطور الألماني فردريك الثاني أن يكتسب سمة عالمية زائفة وذلك لأن الظروف السياسية لم تستطع أن تمنع تطور هذه الوحدة الظاهرية للملكة الصليبية . وكما حدث ، فإن الإمبراطور فردريك الثاني الهوهنستاوفن لم يستطع زيارة ملكته في الشرق مرة ثانية ، وغاب عن حكم ملكته الجديدة ، الأمر الذي أدى إلى عودة النبلاء المحليين إلى حكم المملكة الصليبية ، حيث آل لوزجنان في قبرص . بيد أنه خلال فترة الحكم القصيرة لأسرة الهوهنستاوفن لمملكة بيت المقدس الصليبيّة يتبيّن لنا وجود عناصر جديدة في التجربة الاستعمارية الصليبية الأخيرة . لقد عجلت الحملة الصليبية (١٢٢٩-١٢٢٨م) التي قادها فردريك الثاني حدوث الصدام بين الإمبراطور وبين النبلاء الصليبيّين المحليين . وحاول الإمبراطور فردريك الثاني في حربه ضد اللومبارد التصرف وفق القانون الإمبراطوري ، بيد أن البارونات المحليين ألغوا العمل بهذا القانون مباشرة ، وأعلنوا بفطسة أنهم سوف يتم حكمهم وفق قوانينهم وعاداتهم وتقاليدهم الخاصة . وهكذا كانت الحادثة العرضية للصدام بين الصليبيّين من النبلاء المحليين وبين النفوذ الأجنبي (سلطة الإمبراطور فردريك الثاني) كافية لبدء محاولة فرض عادات وقوانين الوطن الأم في الأقاليم التي اكتسبتها هذه القوة الأجنبية (الإمبراطورية الألمانية) . وكانت هناك محاولة في فترة متأخرة من الوجود الصليبي لفرض قوانين وعادات «الوطن الأم» (الإمبراطورية الألمانية) هذه الدولة التي لم يكن لها مركز استعماري ولم تكن ظروفها السياسية تسمح لها بتنظيم حياة أبنائها في المستعمرات .

وكانت ثمة محاولة فقط في السنوات الأخيرة من عمر المملكة الصليبية وهي المحاولة التي تيزت بانحراف شديد في تاريخ الاستعمار ، بمعنى أنها أوجدت نمطاً خاصاً من العلاقة بين المستوطنات الصليبية وبين الغرب الأوروبي . وكان المثل لهذا النمط من الاستيطان واحداً من أكبر الشخصيات شهرة في القرن الثالث عشر من الميلاد وهو الجنوبي بنديتو زاكاريا Ben-Zaccaria edetto Zaccaria . ففي عام ١٢٨٧م، عندما نشبت ثورة في كونتيه طرابلس الصليبية ضد حاكمها الصليبي، اقترح بنديتو زاكاريا بمعروض جنوا عقد اتفاق أصبحت الكونتيه بموجبه جزءاً من جمهورية جنوة . فقد كان هذا التحول أكثر أهمية من أن وجدت الاحياء الإيطالية التي

قعت بالحكم الذاتي في المدن البحرينية في مملكة بيت المقدس الصليبية ، وكان هذا التحول يعني أن كبار مبعوثي الحكومات الإيطالية ولاسيما البوستا Podesta الذين أرسلوا إلى المناطق الصليبية هم الذين حكموا الدولة الصليبية . ولم تخرج هذه الفكرة إلى حيز التنفيذ حيث أدى السقوط الرشيك لطرابلس في يد المسلمين إلى منع تنفيذ هذه الفكرة بشكل أكبر في فترة تالية.

وبالنسبة لهذه الاستثناءات القليلة ، فإن المستوطنات والإمارات الصليبية كانت قتلة حالة استثنائية في التاريخ الاستعماري ، فقد ظلت هذه الإمارات الصليبية منذ قيامها وحتى سقوطها مستقلة تماماً . وكان خضوعها للبابوية خصوصاً روحياً فقط ، وعلى الرغم من أن تبعيتها الاقتصادية لم يتم صياغتها في شكل اتفاقيات سياسية متباينة . ومع أن السيادة الأقلية لم تنتقل إلى سلطة البابا في روما ، فإن مثل هذه الطموحات - التي لو تحققت لما أفلتت أو أزعجت المملكة الصليبية . والحقيقة أن البابوية يمكن أن تعتبرها «مركزاً إنجليزياً استعمارياً» ، فالبابوية هي التي تبنت صياغة وتطوير الأيديولوجية الصليبية ، وأصبح التأثير الروحي لهذه الأيديولوجية يمثل بذرة النشاط والدعائية الصليبية ، وفي النالب كان هذا التأثير الروحي بثابة الخزانة التي تمد كلاً من الحركة الصليبية والدولة . وإضافة إلى ذلك ، فإن البابوية كانت قتلة الفكر المسيحي الشاملة في الإمارات الصليبية في منطقة الشرق العربي الإسلامي.

لقد كان الاستقلال السياسي للإمارات الصليبية واقعاً ملحوظاً وحقيقة بارزة في التاريخ الاستعماري . وكانت هذه الحقيقة تحمل دلالات ذات معنى . فالاستقلال ربما يعني ترك الأمور وفقاً لرغبات وإرادة حاكم الإمارة الصليبية دون التدخل من السلطة المركزية للمملكة . ففي خلال فترة تكوين المستوطنة ، كانت حجم المساعدات التي يقدمها «الوطن الأم» أمراً جوهرياً من أجل تطور هذه المستوطنة ؛ وفي الفترة الأخيرة من الوجود الصليبي ، ربما أصبحت هذه المساعدات التي يقدمها «الوطن الأم» للمستوطنة كانت لها أهمية كبيرة في الحفاظ على وجودها إذا ما داهمها خطر من جراء التنافس بين المستعمرات الإيطالية أو إذا هددها تدخل أجنبي . وكان هذا مؤشراً يدل على الضعف الشديد والاعباء الذي كانت تعانيه المملكة الصليبية . فقد اعتمدت الإمارة الصليبية المستقلة في المقام الأول على قواتها العسكرية الخاصة . وكانت شرعية مطالبتها بالمساعدة الأوروبية نابعة من قوة وحيوية الفكرة الشاملة ، وهي الفكرة التي أدت إلى قيام وتأسيس المملكة الصليبية والتي كانت أحدى الثمرات الملحوظة لهذه الفكرة .

وهكذا فإنه في حالة عدم وجود الروابط السياسية المباشرة بين المستوطنة الصليبية «والوطن الأم»، فإن الدعم الممكن للamarat والمستوطنات الصليبية اعتمد على مصادر بعيدة تماماً عن مجال نفوذها . وتوقفت هذه المساعدات الأوروبية للمستوطنات الصليبية على مدى التطور الفكري في أوروبا.

لقد وجد صنفان من العلاقات التي تربط بين المملكة الصليبية وبين أوروبا المسيحية وهما، المادية والأيديولوجية ، فلم تعتمد مشاركة أوروبا في تمويل الحملات الصليبية على الحماس الديني المسيحي فقط، بل أيضاً اعتمد هذا التمويل على درجة ازدهار أوروبا الاقتصادي، وارتبطت عملية الهجرة والاستيطان الأوروبي في الأرض المقدسة في فلسطين وبلاد الشام بشكل مباشر بحجم هذا التمويل . وطالما أن الملوك الأوروبيين أو البابوية كانت تشعر بأن لديها مصلحة في المملكة الصليبية في بيت المقدس، فإن هذه القوى السياسية والروحية في أوروبا، بلأت إلى توجيه الجماهير الصليبية المقاتلة صوب الشرق العربي . وبعد انتهاء أحداث الحملة الصليبية الثالثة وبعد الفشل الذريع الذي حاصل بالحملة الصليبية الرابعة ، لم يعد هناك حملة صليبية كبيرة- على الرغم من أنها يمكن أن تخيل مثل هذه الحملة- استطاعت القوى السياسية والدينية في أوروبا أن تحدث حركة واسعة للجماهير ، باستثناء حملة الملك الفرنسي لويس التاسع (الحملة الصليبية السابعة) . ويلخص لنا شاعر الترويادور النصيبي Rutebeuf هذا الوضع قائلاً: «واحسرتاه أنطاكية ، واحسرتاه الأرض المقدسة، لقد جأر الصليبيون بـ الشكوى: فلم يعد جودفري البويوني بينهم، فانطفأت جذوة الحب في قلوب الصليبيين المسيحيين . ولم يهتم الشيخ أو الشباب بالغرب من أجل الرب».

ومن الملاحظ أن تفسير عوامل وأسباب انهيار النشاط الاستعماري الصليبي يخرج عن نطاق هذه الدراسة . ومهما يكن من أمر ، فإن ثمة حقيقة مؤداها أن هذا الانهيار، والتدهور للنشاط الاستيطاني الصليبي وضع نهاية للحملات الصليبية ولعملية الهجرة الأوروبية الآمنة إلى الأرض المقدسة . وظلت البابوية هي القوة الوحيدة فقط التي تؤازر وتناصر بأخلاق مملكة بيت المقدس اللاتينية . وكانت الإمبراطورية الرومانية (إمبراطورية شارلمان) المثل الرسمي الثاني للأيديولوجية المسيحية الشاملة وهي الإمبراطورية التي فقدت وخرست دعواها ومكانتها العالمية على أثر ظهور الملكيات الاقطاعية؛ إذ أنه بحلول منتصف القرن الثالث عشر الميلادي عانت البابوية الضعف بشكل واضح وقلما كانت تستطيع تقديم أي عنون ومساعدة للكيان الصليبي في منطقة الشرق العربي الإسلامي وهي المساعدات التي كان لها

أهمية عملية خلال فترة بابوية البابا انوسنت الثالث (١٢١٦-١١٩٩م) . لقد انهارت سلطة البابوية في الوقت الذي بات على الصليبيين مواجهة خطر داهم تمثل في القوة الإسلامية الموحدة بقيادة دولة سلاطين الماليك ، وعندئذ تخلت البابوية عن المملكة الصليبية تعانى الضعف وتواجه مصيرها البائس حيث أصبحت على وشك السقوط والانهيار . وكان ضعف سلطة البابوية يعني اختفاء إحدى القوى في الغرب الأوروبي التي اعتمدت عليها المملكة الصليبية في الحفاظ على وجودها . وهكذا يمكن القول ، إن الاستقلال السياسي للمستوطنات الصليبية في فلسطين وبلاط الشام لم يكن هو الوصفة الطبية التي يحتاج إليها المشروع الاستيطاني والاستعماري الصليبي .

بـ- الاستيطان والمستوطنون « التجربة الإيطالية »

لقد استطاع الجيل الأول من المهاجرين الصليبيين تأسيس مجتمع جديد ، عقب الفزو الصليبي لمنطقة الشرق الغربي الإسلامي، ومرور الوقت تشكل هذا المجتمع الصليبي على غرار النماذج التي جلبها الصليبيون معهم من أوروبا وبعد مدة من الزمن تكاملت موجات الهجرة الصليبية من أوروبا، دون صعوبة تذكر ، وذلك مع إطار وأشكال التماسك الاجتماعي القائم .

بيد أن النجاح الصليبي في مجال التنظيم الاجتماعي لم يكن متطابقاً مع التكامل المؤسساتي . ولم تكتمل عملية دمج النظم المؤسساتية ، إذ كان بعض الأفراد والجماعات الصليبية مثل الهيئات الدينية العسكرية (الداوية- الاستبارية- التيوتون) والذين قاما بدور جيد ومحدد في الدفاع عن المملكة الصليبية ، غير مندمجين مع بعضهم البعض بشكل أساسي . إذ كانت الهيئات الدينية العسكرية جزءاً من المستوطنة الصليبية ، وفي نفس الوقت لم تعرف هذه الهيئات الدينية العسكرية بالسيطرة السياسية لملكة بيت المقدس اللاتينية (على الرغم من أنهم لم يقوضوا هذه السلطة السياسية للملكة) . فلم يكن هناك رباط إقطاعي يربطهم بالملك الصليبي ولم يخضعوا لسيطرة المملكة الصليبية بكل معنى الكلمة .

وهكذا ظل الوضع السياسي للهيئات الدينية العسكرية في المملكة الصليبية غامضاً غير واضح ، في حين كانوا يشكلون كيانات سياسية مستقلة داخل إمارتى أنطاكيه وطرابلس الصليبيتين . واختلف الوضع السياسي للهيئات الدينية عن الوضع السياسي للكوميونات التجارية الإيطالية ، وهي الكوميونات التي تحدد وضعها السياسي بشكل قانوني في إطار المعاهدات التي عقدت بين الحكام الصليبيين (الملك ، أو البارونات الصليبيين في الفترة المتأخرة) وبين المدن الإيطالية والأوروبية الأم ((البنديقية - جنوا- بيزا- أمالفى- مرسيليا)).

ويفك وصف عملية استقرار أبناء الكوميونات الإيطالية في المناطق الصليبية في فلسطين وببلاد الشام بأنها عملية استيطانية مركبة ومتوازنة، بعيدة عن قوانين وتشريعات ومؤسسات الاستيطان الصليبي. ولم يكن الغرض من الاستيطان الإيطالي في هذه المناطق هو فرض السيادة السياسية على السكان المحليين ولكن الهدف الأساسي للاستيطان الإيطالي هو الاستغلال الاقتصادي في هذه الأقاليم الصليبية وغزو الأسواق الصليبية والإسلامية في بلاد الشام لتحقيق الأرباح الطائلة . وعندما تم الغزو الصليبي للمدن والاقاليم الإسلامية ، استقر الإيطاليون في هذه المدن ، ولم يكن هذا مألوفاً من قبل ، وحصل هؤلاء التجار الإيطاليون على منح وامتيازات عديدة في هذه المدن الصليبية في شكل أحياء خاصة بهم وضياع ريفية في هذه الأقاليم الإسلامية. فقد كان الهدف الرئيسي للمنشآت التجارية الإيطالية في المناطق الصليبية منذ فترة باكرة من الغزو الصليبي هو اتخاذ هذه المناطق الصليبية قاعدة وأساساً لنشاطهم السياسي والتجاري. وإذا كان الصليبيون قد حكموا واستغلوا هذه المناطق ، فإن الإيطاليون قدمو المساعدات السخية للصليبيين التي لم تكن على أنساق اقتصادية . وأصبح الإيطاليون مستقلين إلى حد ما بفضل الضياع الريفي والامتيازات التجارية والإقليمية التي حصلوا عليها في المناطق والمدن الصليبية- وإن كانوا لم يتمتعوا تماماً بالسلطة المطلقة في هذه المناطق . بيد أن هذه الممتلكات الريفية والحقوق العادلة ذات اعتبارات ثانوية ولكن الأكثر أهمية بالنسبة للإيطاليين هو الإطار التجانس للمملكة الصليبية والامتيازات التجارية والإقليمية التي حصلوا عليها في كل أنحاء الأقطار والمناطق في المملكة الصليبية ، وأيضاً الامتيازات التي حصل عليها الإيطاليون في الأقطار الصليبية المجاورة للمملكة.

لقد استخدم الإيطاليون المملكة الصليبية كقاعدة وأساس لعملياتهم التجارية، وكسوق تجاري لتصريف بضائعهم وكسوق لتصدير منتجاتهم الخام والمصنعة إلى أي مكان، حيث ساهمت الطرق التجارية الجيدة والعلاقات الودية في تحقيق الإيطاليين الكثير من الأرباح والفوائد.

ومن إحدى الميزات الفريدة الواضحة للحروب الصليبية- إذا نظرنا إليها كحركة استيطانية- هي أن الوجود الصليبي الاستيطاني والحركة الاستيطانية كانت على مستويين، وكان لكل حركة استيطانية أهدافها ، وأساليبها ، وسماتها والمحاذاتها الخاصة.

وعلى الرغم من وجود تشابه بين مفردات المشروعات الاستيطانية الصليبية، فإن النشاط

الاستيطانى الإيطالى للمدن الكبرى (البندقية ، جنوا ، ويبزا) كان يختلف فى أوجه كثيرة . فالكوميونات التجارية الأخرى مثل البروفنسال والقطالونيين قد أضيفوا إلى قائمة الأحياء التجارية المعاصرة الخواص والمتناهية فى المدن والأقاليم الصليبية فى منطقة الشرق العربى الإسلامى .

ولم يمكن أن نخوض كثيراً فى الحديث عن بواعث دوافع الإيطاليين للاشتراك فى الحروب الصليبية هذه الدوافع التى سوف تبرز لنا اختلافاً ذا معنى عن الاتجاه السائد لدوافع المروب الصليبية*. ومن الطبيعي أن قتل الدوافع المادية أهمية أكبر لدى هذه الكوميونات التجارية الإيطالية والبروفنسالية والقطالونية عنها لدى الجموع الصليبية التى شاركت فى الحروب الصليبية . وقد تأكّدت هذه الحقيقة من خلال صمت المصادر التاريخية البندقية، أو الجنوية ، أو البيزاوية عن ذكر أية تلميحات ، إلى التوقعات المسيحية**، وكان هذا الصمت أمراً مألوفاً فى كثير من الوثائق التاريخية لمورخى منطقة ما وراء جبال الألب خلال فترة الحروب الصليبية . بيد أن صمت هذه المصادر التاريخية لا يؤكد لنا غياب الدافع الدينى لدى الإيطاليين ، ولكنه يكشف لنا فقط - ودائماً كانت الفطرة من أهم سمات المصادر التاريخية الإيطالية - عدم الحماس الدينى القوى لدى الإيطاليين ، هذا الحماس الذى تأجّج بشكل قوى بفعل تأثير الایام بالخوارق والمعجزات والرؤى المقدسة المسيحية والغيبيات على المشاركيين الصليبيين ، ويدرك لنا المؤرخ الجنوى الشهير كافارو الكاسكينفلونى Caffara de Caschifeleone - أحد الذين شاركوا فى أحداث الحملات الصليبية الباكرة ضد الأرضى المقدسة فى فلسطين وبلاط الشام - أنه كان يوجد توازن غامض بين الطموحات الدينية وحب المال والكسب فى دوافع الإيطاليين . ومن نافلة القول الإشارة إلى أنه كان هناك شعور عجيب بسبب الصراع بين هؤلاء التجار

* لاشك أن الدوافع الاقتصادية والرغبة فى تحقيق الأرباح التجارية هي التي جعلت المدن الإيطالية (البندقية- جنوا- بيزا- أمالفى) تشارك بجدية في تقديم العون المادى والمسكوى للصلبيين ، وطبعية الأحوال أدت اختلاف المصالح الاقتصادية بين الكوميونات التجارية في المناطق الصليبية إلى التنافس فيما بينهم ، وشهدت شوارع عكا حروبا طويلاً بين الأحياء الإيطالية . (المترجم)

** الحقيقة أن القضية الصليبية لم تشغل بال التجار الإيطاليين على الاطلاق ، فالتجار يسمى إلى الربح أينما وجد ، وبمعنى أن تقول أن شعار البنادقة كان «فلنكن أولاً بنادقة ثم بعد ذلك مسيحيين كما أن العبد التجارى البندقى كان يبدأ عادة بفقرة لها دلالة وهى «بسم الريح وسم الرب» (المترجم) .

الإيطاليين أبناء الكوميونات التجارية من أجل الحصول على المكاسب الدينيسية والأرباح المالية، في الوقت الذي كانت تتراءاً عليهم الواجبات الدينية والديون السماوية الإلهية. وينظر البرت الآخنی Albert of Achen أحد المعاصرین الأحداث الحملة الصليبية والذى ينتسب إلى المناطق الواقعة عبر جبال الألب، أن كل الإيطاليين من البنادقة ، والجنوبية ، والأمالفيين ، والبيازنة ، الذين شاركوا في الحروب الصليبية، كانوا عبارة عن أناس شاركوا في هذه الحروب من أجل السلب والنهب، وأبحروا للبحث عن السرقة والنهب فكانوا كاللصوص والقراصنة المعديين.

وإذا أردنا التعرف على الأهمية التاريخية للتجربة الاستيطانية الإيطالية ، فإنه يجب علينا أن نحلل معظم خصائصها المدهشة والغريبة. ويجب أن تشمل هذه الخصائص ثلاثة أمور: تنظيم الحملات العسكرية الباكرة ، ومستوى علاقة هذه المستوطنات الإيطالية بأوطانهم الأم (البنديقية ، أوجنوا ، أوبيزا) ، ونظام الحكم والإدارة المتقد الذي طبقته المدن الأم هذه في إحكام سيطرتها على هذه المستوطنات .

ويتعلق الأمر الأول بالحملات الصليبية الباكرة التي شارك فيها الإيطاليون . ولاشك أن نظام تمويل الحملات العسكرية البحرية يختلف تماماً عن نظام تمويل الجيوش البرية التي شاركت في الحروب الصليبية . فقد كان المحارب الصليبي من النبلاء يستطيع أن يجمع المال والمساعدات المادية الأخرى كالمئون من الأقاليم الأوروبية الواقعة عبر جبال الألب ، وفي الغالب كان يرهن أملاكه وضياعه من أجل عملية أن يتlossen العون والمساعدة من خلال التحاقه ببقية المحاربين في حملة يقودها أحد القادة العسكريين الصليبيين الكبار، وقد حدث مثل هذا الأمر لأحد النبلاء، وهو تانكرد ، وظل هذا مصير الفارس العادي. بينما كانت عملية إعداد السفن الحربية ومعداتها من المشكلات الأساسية التي تواجه المدن البحرية عند تمويلها للحملات العسكرية البحرية، وذلك لأن هذه المتطلبات الحربية تحتاج إلى استثمار كبير وضخم لرأس المال في مغامرة عسكرية يكتنفها أحاطار وأهوال ، وخلال أقل من عشر سنوات تم تدشين أساطيل حربية قوية إيطالية وانطلقت هذه الأساطيل الإيطالية تعمل بسرعة في مجال الحرب.

ويقصد القضية المتعلقة بتمويل إعداد الأساطيل الحربية بعد اختلافات واضحة بين أساليب المدن الإيطالية لهذا التمويل ، فإذا كانت كل المدن التجارية الإيطالية في الفترة المتأخرة من الوجود الصليبي قد شاركت بشكل جزئي في عملية تمويل الأساطيل الحربية خلال أعمال

القرصنة الناجحة والسلب والنهب التي مارستها في منطقة الشرق العربي الإسلامي، فإن عملية التمويل هذه في الفترة الباكرة من الغزو الصليبي قد اختلفت من مدينة إيطالية إلى أخرى (مدن البندقية ، وجنوا ، وبيزا) فقد أطلقت جنوا أساطيلها الحربية في وقت مبكر من الحروب الصليبية- والتي شاركت في احتلال الصليبيين لمدينتي أنطاكية وبيت المقدس- في صورة مشروع دون مشاركة من جانب سلطات المدينة. بينما وجدنا سلطات المدينة أو قواتهم في كل من بيزا والبندقية قد تتدخل وتشارك في تمويل هذه الحملات العسكرية البحرية منذ البداية.

وسجل المؤرخ الجنوبي كافارو الكاسيكي فيللوني أسماء عشرة من النبلاء الجنوبيين الذين قادوا أول أسطول جنوبي شارك في الحروب الصليبية. وذكرنا أن هؤلاء القادة جاءوا على رأس اثنين عشرة سفينة حربية مجهزة وسفينة نقل تحمل على متنها من ثلاثة إلى أربعة آلاف محارب وبحارة. ولم نعرف ما إذا كان هؤلاء المحاربون قد تحملوا أجراً للنقل، ومن الممكن أن يكون هؤلاء الرجال المحاربون (على الرغم من أنهم لم يكونوا محترفين) قد ساهموا بأنفسهم في تحمل نفقاتهم . ومع ذلك، فإن إرسال أسطول حربي مثل هذا الأسطول الجنوبي كان يتطلب نفقات مالية باهظة . ولذا بات من الضروري أن يساهم قادة هذه الحملة العسكرية البحرية في تمويلها ، إذ كانوا يستثمرون أموالهم وأموال البعض الآخر من غير المشاركين بشكل مباشر في هذه الحملة. وعرف أسماء الكثير من أعضاء عائلات الفيكونتات وهم الأعضاء الذين كانوا يتقلدون مناصب ووظائف مرية ولاسيما الوظائف الخاصة بحماية الكنيسة . ومنذ فترة باكرة استثمر أعضاء هذه العائلات أموالهم في الأعمال التجارية ومن المؤكد أن هذه الاستثمارات قد تعددت لتشمل الاستثمار في مجال بناء السفن، ومن المحتمل أن السفن الجنوبية التي شاركت في بداية الحروب الصليبية قد تم تدشينها ما بين عامي ١٠٩٦ حيث وصلت دعوة البابا أريان الثاني إلى جنوا- وعام ١٠٩٧ ، وهو الموعد الذي تحدد لانطلاق الأسطول صوب الشرق، وإن كان هذا بعيد الاحتمال . وعلى الأرجح، فإن بعض هذه السفن قد شيدت منذ فترة باكرة عن التاريخ السابق، أي قبل عامي ١٠٩٦، ١٠٩٧ م وتم استخدامها في هذه الحملة الصليبية، وفي الوقت التالي للحملة العسكرية البحرية سمعنا مرة ثانية في عام ١٠٩٧ أن اثنتين من السفن الجنوبية كانتا ملكاً لأخوة أميرياتش Embriaci (الذين أصبحوا حكامًا لمدينة جبيل الصليبية) قد انطلقا صوب الشرق، وقد أعقبها في عام ١١٠٠ م قيام أربعة وعشرين سفينة

حربيّة، وأربع سفن نقل ملكاً لوليام أميرياتش William Embriaca تحمل على متنها ثمانية آلاف مقاتل، في طريقهم إلى منطقة الشرق العربي أيضاً، وفي عام ١١٠١ انطلقت ثمانى سفن شراعية كبيرة ذات مجاديف ، وثمانى سفن صغيرة (غلابى) ، وسفينة نقل صوب الشرق، أيضاً . وإذا افترضنا أن بعض هذه السفن الجنوبيّة قد استخدمت في حملات عسكريّة بحرية أخرى (وكانت بعض السفن مجردة من التجهيزات العسكريّة في الأراضي المقدسة مثل سفن أسرة أميرياتش ، التي اشتهرت سفينة جديدة من أجل رحلة العودة) ، فإنّ هذا يعني أن الاستثمار الجنوبي في مجال بناء السفن قد شهد نشاطاً ملحوظاً لم يسبق له مثيل من قبل . وكان يتم تمويل بناء السفن جزئياً من العائد المالي المرتفع وال سريع للاستثمارات الأوليّة، وأيضاً من عائد الأموال المتتجدد لطبقة التجار الجنوبيّين . ومن خلال معرفتنا لنطاق التجارة الجنوبي مع الشرق الصليبي في الفترة المتأخرة، فإنه يمكننا أن نفترض أن الاستثمارات التجاريّة الجنوبيّة في المناطق الصليبيّة لم تكن ضخمة ، ولكنها كانت تحقّق أرباحاً عالية. فقد تم استثمار مبالغ مالية كبيرة خلال هذه الفترة الصليبيّة وكان من المتوقع تحقيق عائد مالي كبير لهذه الاستثمارات . وقلما كان البحارة والركاب يقومون باستثمار أموالهم ، بيد أنّهم كانوا يتوقعون حصولهم على نصيب من غنائم الغزو والفرصنة .

ويكفي أن نعتبر الحملات العسكريّة البحريّة الجنوبيّة الباكرة من الناحية التنظيمية بثابة النماذج الأولى للشركات التجاريّة التي تأسست خارج أوروبا. لقد كان تمويل هذه الحملات البحريّة والأساطيل يتم من خلال أعضاء ومقاتلي هذه الحملات ، وزوّدت هذه الحملات بالمقاتلين البحارة وكان يتوقع عائد مالي لهذه الاستثمارات . ومن خلال الحملة الجنوبيّة في عام ١١٠١م - التي اشتهرت مع الملك الصليبي بلدون الأول في احتلال قيسارية- عرفنا بعض تفاصيل عملية تقسيم الغنائم والأسلاب ، وبعد احتلال قيسارية، قسمت الغنائم والأسلاب على النحو التالي : ١٠٪ للكنيسة ، ٥٪ لملوك السفن، وعندئذ حصل المشتركون على مكافأة وفقاً لرتبة ومكانة المقاتل، وأخيراً كان كل مشترك يحصل على ٤٨ قطعة من نقود بواتيه الفرنسيّة ورطلين من الفلفل . ويتقسيم الغنائم التي وصفناها بصيغة مقبولة وباعتبارها بثابة أموال قسمت على المشترkin من عائد وأرباح الاستثمارات فإن الشركة التجاريّة الجنوبيّة الأصلية الأولى كانت قد انتهت وتلاشت في عام ١١٠١م . وتطلبت العقود التجاريّة وحالات المضاربة والغامرات التجاريّة الجديدة وجود شركة تجاريّة جديدة، بيد أنّا لم

ندهش كثيراً إذا وجدنا أن بعض الأفراد والعائلات الجنوية قد قاموا بتمويل الأساطيل الجنوية بشكل متكرر . وبعد الغزو، استطاع عدد من العائلات الجنوية النبيلة وهي عائلات القناصل أن تمارس سياسة الاحتكار التجارى فى المناطق الصليبية فى فلسطين وبلاط الشام، إذ كان أعضاء هذه العائلات يعتلون المناصب المرموقة فى أوطنهم ، وهى وظيفة القناصل ، وكان هؤلاء الأعضاء يمثلون طبقة اристقراطية تجارية فى المدينة الأم (جنوا) .

وقد سلكت كل من بيزا والبنديقية طريقاً مختلفاً. إذ كان دايمبرت Daimbert قائد الحملة البحرية، وأسطول البيزى (حملة عام ١٠٩٩م) أكثر من رئيس أساقفة. فلم تقتصر أهمية دايمبرت فى بيزا لكونه يحتل منصباً كنسياً مرموقاً فى كنيسة المدينة فحسب، بل كان أيضاً يحتل منصباً وظيفياً مرموقاً فى الجمهورية التى تأسست حديثاً. وقبل أربعة وعشرين عاماً، وفي عام ١٠٨٥م، بُرِزَتْ أهمية دايمبرت فى تلك الوساطة التى قام بها لأنها، حرب أهلية نشبَتْ فى بيزا وكانت الأطراف المتصارعة تشمل ماركىيز توسكانى (الذى ضعف نفوذه وقوته)، والعائلات النبيلة التى أرادت الإطاحة بممثل الماركىيز فى المدينة والذى كان يحكم بيزا، وهو الفيكونت الذى انضم إلى الحزب الشعبى. وأخيراً تحولت بيزا إلى كوميون مستقل بموجب «معاهدة السلام» التى توسط دايمبرت فى إبرامها . وبعد عامين ، وفي عام ١٠٨٧م ظهر أول قناصلة بيزا، وعندئذ أصبح دايمبرت قائداً لأسطول بيزى يضم ١٢٠ سفينة ، وكان بشابة كاهن وقائد Rector et ductor وممثل الكوميون البيزى فى قيادة الجيوش الصليبية المتوجهة صوب الشرق العربى. وعلى عكس الوضع بالنسبة للأسطول الجنوى، كان الأسطول البيزى يلقى الرعاية من حكومة الكوميون. وهذا لايعنى أن كوميون بيزا قد تكفل بالتمويل الكامل للحملة والأسطول البيزى ، وكانت هذه السفن المائة والعشرين التى شملتها الأسطول البيزى ملكاً لكبار التجار البيازنة، على الرغم من أن بعض هذه السفن رها شيدتها مدينة بيزا، أو شيدتها كنيسة المدينة الغنية.

وكانت هذه المشاركة الرسمية لكوميون بيزا تشبه إلى حد ما صورة المشاركة الرسمية لمدينة البنديقية فى تمويل الأساطيل العربية، بيد أن المساعدة الرسمية للبنديقية واعداد الأساطيل كانت أكثر وضحاً . وكان الضمان البندى الحكومى للأسطول شكلياً، لأنها كانت ترتبط بعلاقات تجارية منذ فترة طويلة مع منطقة الشرق وخاصة مع البيزنطين وترجع هذه العلاقات التجارية إلى قرون سابقة للحروب الصليبية . ووصل الأسطول البندى إلى منطقة الشرق العربى فى

نفس الوقت الذى وصلت فيه الحملة الصليبية إلى أنطاكية واحتلالها واحتلال مدينة القدس. ويمكن تتبع إحدى المدونات التاريخية التى سجلت أحداث الحملة البندقية الباكرة التى بدأت فى صيف عام ١٠٩٩ ووصلت إلى الأرض المقدسة فى عام ١١٠٠ واحتلت مينا ، حيفا عديم الأهمية. فقد كتب الراهب ليدو Lido من غير قصد قصة هذه الحملة البندقية ، وكان الموضوع الأساسى فى هذه القصة هو نقل رفاة القديس نيكولا من الميرا إلى البندقية ، وهذه العملية التى كانت تعتبر من أهم الأعمال اللصوصية الدينية فى ذلك الوقت . واستعاد هذا الراهب المؤرخ جزءاً من روح المؤرخ الجنوى كافارو بالنسبة للجنوبية . ونستطيع تصور هذا الوضع من خلال الاقتباس المباشر من رواية هذا الراهب المؤرخ ليدو إذ يقول :

« وبعد سنوات ثلاثة من بداية الحملة الصليبية الأولى ، شارك الأسطول البندقى فى الحروب الصليبية بسبب الوضع المحسوس لمدينة البندقية . وبينما استخدم المشاركون الآخرون الخيول والفرسان فى هذه الحروب ، فإن البندقة كانوا أكثر ترسان فى الحروب البحرية من أية أمة أخرى ، فقد اعتادت البندقية احراز النصر فى الحروب ، والبندقة أكثر استعداداً ومتانة فى الانفاق على بنا ، سفن الأسطول من أجل خدمة « طريق الرب » وأعني المشاركة فى الحروب الصليبية . وأنهم قد زودوا هذه السفن بعدد كاف من المعابرين والعتاد العسكرى ، ولم يتضمن الشخص الذى سيقود الأسطول البندقى والجيش المعابر ، وقد تم اجماع رجال كنيسة القديس مارك على اختيار هنرى أسقف كاستيلانا ليكون كاهنا لهذا الأسطول ، واختار يوحنا John ، ابن الدورج البندقى ميخائيل ، وقام الاثنان بقيادة الجيش والأسطول البندقى . وعلى الرغم من أن هنرى أسقف كاستيلانا ويوحنا لم يكونا راغبين فى هذه القيادة ، فإنهم فى النهاية أذعنوا لأمر البطريرك وقبلوا هذه القيادة ، ويرجع الفضل فى ذلك إلى أمر الدورج البندقى وإلى صلوات رجال الدين والعلمانيين ».»

لقد كانت جمهورية البندقية ترعى وتتكلف أولى حملاتها إلى المناطق الصليبية فى فلسطين لقد كانت جمهورية البندقية ترعى وتتكلف أولى حملاتها إلى المناطق الصليبية فى فلسطين وببلاد الشام . وكان هنرى كونتارين Henry Contarenus أسقف كاستيلانا ابن الدورج دومينيكو كونتارين Domenico Contarenus ، ينتمى إلى طبقة البلاط المحاكمة فى المدينة مثل دايمبرت ، رئيس أساقفة بيزا ، قد خدم فى هذه الحملة ككاهن ، وتركزت قيادة الجيش والأسطول فى يد جيوفانى ميخائيل - ابن الدورج الحاكم فيتال ميخائيل Vial Michiel .

وعلاوة على ذلك ، فإن قيادة الدوج لهذه الحملة كانت قيادة شكلية. وما يذكر أن المعركة القصيرة الظافرة التي خاضها الأسطول البندقى ضد الأسطول البيزى فى جزيرة رودس (فى خريف ١٠٩٩) قد جعلت البندقة أكثر وعيًا وحدراً من أخطار الحرب فى شرق البحر المتوسط عن البيازنة أو الجنوية أو القادمين الصليبيين الجدد. وكانت السمة المميزة لحملة البندقة خليطاً من التقوى والوحشية والطمع ، ويشهد بذلك الظروف التى عاشهما البيازنة تحت سيطرة البندقة قبل أن يتحرروا من هذه السيطرة: فلم يعد البندقة يرتادون أسواق بيزنطة للأغراض التجارية مرة ثانية ، ولم يعد البندقة أيضاً يحاربون أخوانهم المسيحيين مرة ثانية فى المستقبل، ويات عليهم عبر البحر من أجل التقانى فى إنقاذ الضريح المقدس. وانتهت حملة البندقة - وفقاً للقتباس الذى استخلصناه من رواية الراهب ليدو Ledo - بانتصار مزدوج أحرزه البندقة ت مثل في الحج و النصر العسكري.

ولم تكن امتيازات والتزامات الكوميونات التجارية أقل أهمية بالنسبة لمستقبل الحركة الاستيطانية الاستعمارية الإيطالية ، فإننا نهتم كثيراً بالوضع القانونى لهذا النمط وكان عبارة عن فكرة خاصة للعلاقات المعقدة والمحكمة - والذى سوف يلعب دوراً رئيساً في تاريخ الاستيطان الإيطالى في المملكة الصليبية. فلم تكن هذه الامتيازات قناع (ولا حتى للجنوية) لجموعة الغزاة الإيطاليين ، المشاركين الحقيقيين في هذه الحملات العسكرية ، ولكن هذه الامتيازات كانت قناع إلى جماعة معينة وإلى الذين ينحدرون من سلالتهم من بعدهم. وكانت مثل هذه الامتيازات أمراً مألوفاً لدى المؤسسات الدينية (مثل الأديرة والهيئات الديرية) وأيضاً لدى المجموعات العرقية (مثل اليهود)، بيد أن هذه الامتيازات كانت تشكل فكرة جديدة بين المسيحيين العلمانيين . وحقيقة الأمر أن هذه الامتيازات كانت بمثابة مقدمة لعنصر جديد يدخل في بنية التشريعات القانونية لهذه الفترة، ومن المؤكد أن هذه الامتيازات كانت تحاكي النماذج والأفاطر الإقطاعية، بيد أنها كانت تقبل فقط وبشكل ضمنى فكرة التبعية الإقطاعية الجماعية، ولكن أبناء الكوميونات لم يعتبروا أنفسهم أanciaً تابعين للملكة الصليبية. وبالتجربة والخطأ ، ظلت المصلحة والمنفعة هي التي تؤثر في شكل ونمط هذه الامتيازات في المستقبل .

فإذا حدث وأن استمرت الامتيازات ، فإنه لا يمكن الفاؤها عندما تنحل الرابطة التي نظمت هذه الحملة العسكرية الصليبية . وكان هذا الأمر مهمًا بشكل خاص لجنوا ، والتي كانت

حملاتها العسكرية البحرية بمنأى عن رعاية الدولة الرسمي. وقد اتضح ظروف أحد الكوميونات الإيطالية التجارية الأخرى في شكل المنع التي أعطيت للبيازنة بموجب المعاهدة التي عقدت بين الطرفين البيزي والصليبي في أواخر عام ١١٨٨ وذلك في أعقاب النجاح الذي أحرزه الصليبيون للدفاع عن مدينة صور، فقد منع كونراد مونتفرات للبيازنة أملاكاً في مدینتی عكا وصور. كما أقرت وثيقة هذه المنحة التي أعطيت للبيازنة، بأن البيازنة إذا قسموا هذه الأماكن المنوحة لهم فيما بينهم بالتساوي، فإن هذه الامتيازات المنوحة لهم ستظل عموماً بها طالما استمرت رابطة كوميون بيزا في المناطق الصليبية . وبالإضافة إلى ذلك فإن هذه الهبة ستظل شرعية حتى بعد انحلال هذه الجماعة البيزاوية وسوف يتلذ كل عضو من أعضاء الرابطة البيزاوية نصيحة الملاك من هذه الممتلكات . ولم نعرف ما إذا كان هذا الشكل من الامتيازات قد منع في وقت مبكر من الوجود الصليبي، على الرغم من أن هذا الوضع كان أمراً ممكناً من الناحية النظرية. والحقيقة أن فكرة الاستحقاق الجماعي للامتيازات كانت هي الفكرة السائدة خلال الفترة الصليبية. وهكذا فإن الامتيازات الباكرة التي منحت للجنوية كانت هي الامتيازات التي منحها لهم الأمير الصليبي بوهمند في عام ١٠٩٨ م في مدينة أنطاكية ، وامتد هذا النمط من الامتيازات ليشمل القسم الذي فرض على الجنوية تأدبه لأمير أنطاكية الصليبي، والذي كان يؤديه أعضاء كوميون جنوا وكل هؤلاء الأسماء الجنوية التي ذكرناهم آنفاً، والذين سوف يعيشون في أنطاكية أو في أي مكان أو أية منطقة تخضع لسيادة بوهمند، والقادرين على تأدبه هذا القسم. وهكذا نشأ نوع من التبعية والرابطة بين الجنوية والأمير الصليبي بوهمند وكانت هذه الرابطة تشمل أي جنوبي سيأتى إلى منطقة نفوذه هذا الأمير الصليبي في المستقبل القريب أو البعيد . ويحلول عام ١١٠٤ م منح الملك الصليبي بلدوين الأول امتيازاً لكنيسة القديس لورانس الجنوية وهي كاتدرائية القديس لورانزو والتي سوف تلعب من الآن فصاعداً دوراً رئيساً في تاريخ المستوطنات الجنوية في منطقة الشرق العربي الإسلامي.

وإذا كانت الامتيازات التي منحها الحكام الصليبيون قد شملت الكنائس البيزاوية والبنديقية نظراً للدور المهم الذي قام به أساقتها في الحملات الصليبية الباكرة ، فإن الامتيازات التي منحت لكنيسة جنوا يؤكد هذا التفسير الماخص لمنع مثل هذه الامتيازات . فقد كان النبلاء التجار من الجنوية يبحثون لأنفسهم عن لقب من وراء الامتيازات التي اكتسبوها منذ بداية الوجود الصليبي. وكان الامتياز الفردي غير مطروح في مسألة امتيازات

الجنبية. إذ كان امتيازًا جماعيًّا وكان منح الامتيازات للكنيسة الجنوية أمرًا مقبولاً ظاهراً . وأصبح للهبة والمنحة التي تعطى لأية موسسة دينية مزايا وفوائد جمة واضحة الخ . إذ عضدت هذه المنح الامتيازات سلطة رجال الدين الذين ضمنوا للأمير الصليبي وفاس الإيطاليين بوعودهم في تقديم العون والمساعدة للصلبيين . ويجب أن تذكر دائمًا بأن الحملة الجنوية الباكرة جداً كانت تزامن مع حركة التطور التي شهدتها الكوميون والتي أفرزت كوميون جنوا . وعلى الأرجح أن أسقف جنوا قد لعب دوراً مؤثراً وفعلاً في حركة التطور هذه . وخلال فترة التكوير الحديثة لكوميون جنوا كانت الهبات والامتيازات الصليبية تقدم للجنوية وفتح لهم باسم الكنيسة الشهيرة للمدينة .

لقد طرحت السمة الجماعية للامتيازات الجنوية مشكلة ، وهي المشكلة التي قلما واجهها القادة الصليبيون من قبل، بمعنى أن الأطراف المتعاقدة الصليبي والجنوي قد حددوا الالتزامات والواجبات المتبادلة بينهما . فقد كان الاتفاق الذي يمنح بموجبه الامتيازات للجنوية يعرف باسم «معاهدة الأمان والسلام» وعرفت معااهدة امتيازات البيازنة باسم «معاهدة الوفاق والميثاق» . ولم يقدم الجنوية يمين الولاء والقسم الاقطاعي للحكام الصليبيين مقابل حصولهم على هذه الامتيازات ، بيد أن القسم الذي كان يؤديه الطرفان الجنوي والصليبي كان قسماً متبادلاً محدوداً موداه: لا يعتدى أى طرف على الآخر بالقتل أو بتر الأعضاء ، وألا يقوم أى طرف بسجن أى عضو من أعضاء الطرف الآخر، وألا يصدر أى طرف أملاك الطرف الآخر . وكان مثل هذا القسم يمثل شعاراً سياسياً للمعااهدة التي تبرم بين دول ، كانت ما تزال تطفح بروح الفروسيَّة*. وفي أواخر عام ١١٥٦ اتفق بلد़وين الرابع والبيازنة على وقف أعمال العنف المتبادلة بينهما . وتمرر الوقت تغير هذا القسم وأصبح قسماً يتسم بزيادة من الفروسيَّة والشرف والكياسة ، فقد اتسم على الأقل بالتزامات ذات أهمية . وفي عام ١١٦٩ أقسم الجنوية لبدهمندا أمير أنطاكيَّة الصليبي قسماً موداه: أنهم سوف يقدمون له العون والمساعدة، وسوف يحافظون على كرامته وشرفه ومجده كثيراً، وأن يبذلوا قصارى جهدهم للدفاع عن إماراته وممتلكاته، وأنهم سوف يحافظون على كل الممتلكات الصليبية ضد أى اعتداء يهددها . وما يذكر أن القسم الذي كان يؤديه الإيطاليون للحكام الصليبيين في الفترة الباكرة من الوجود الصليبي كان يتسم بالخشونة والصرامة (ويمكن تفسير هذه الخشونة والصرامة في ضوء ظروف

* كان مثل هذا القسم مألوفاً في الجنوب الفرنسي خلال الحقبة الصليبية . (المؤلف) .

التوتر الصليبي في بداية هذا الوجود الصليبي) وظل كذلك ولاسيما في أواخر عام ١١٩٣ م حينما طلب هنري كونت شامبني حاكم المملكة الصليبية من قناصل وأبناء كوميون بيزا أن يقسموا له بأنهم سوف يحافظون على شرفه وحياته وأرضه ضد أي اعتداء طالما أنهم يعيشون في رحاب مملكته ومنطقة نفوذه.

وتمثلت السمة الخاصة التي ميزت المعاهدات الباكرة بين الكوميونات التجارية الإيطالية وبين الحكام الصليبيين في ذلك الأسلوب الذي جأ إليه الحكام الصليبيون لسن قوانين خاصة تستخدم في فض المنازعات بين الكوميونات الإيطالية وبين الملك الصليبي. وكان من العسير الاعتماد على القوانين الإقطاعية الموجودة لتسوية مثل هذه النزاعات وهي القوانين الخاصة التي كانت ضرورية في إبرام المعاهدات المحددة. وهكذا فإن بلدوبين الأول (عام ٤١٠ م) كان قد ألزم نفسه بأن يفى بطلبات الجنوية الذين يجأرون إليه بالشكوى بعد ثلاثة أيام من تقديم مطلبهم ورفع دعواهم؛ والتزم أيضاً برتراند Bertrand أمير طرابلس الصليبي بنفس التعهد تجاه الجنوية بعد رفع الدعوى بخمسة عشر يوماً فقط. ومع ذلك، لم يذكر أى إجراء للتقاضي بهذا الخصوص، الأمر الذي يجعل من العسير أن نتصور حدوث إقامة العدالة بشكل عادي ومتأنف. وربما كان هذا واضحاً بشكل أكبر في طبيعة التحكيم أكثر منه في إجراءات التقاضي. وفي فترة متأخرة حاول الحكام الصليبيون إعداد مثل هذه القضايا في صياغات عادلة، وهكذا فإن بوهمند الذي منح الجنوية امتيازاً في أنطاكية (في عام ١١٦٩) قد وعد بالنظر في شكاوى الجنوية خلال أربعين يوماً بعد رفع الدعوى (وهي المدة العادلة المحددة للنظر في القضايا الإقطاعية)، وفي حالة حدوث ما يعرقل هذا التقاضي (هذه العوائق والعقبات التي كانت متماثلة مع الإجراء الصليبي) فإنه كانت تد فترة ومدة التقاضي والنظر في الدعوى المقدمة خلال خمسة عشر يوماً تالية للمدة المحددة، وعندئذ كان هذا الإجراء الذي يتخذ بعد هذه المدة يتفق مع قوانين وأعراف المحكمة الصليبية في أنطاكية.

وكان الوضع الجديد المتمثل في امتيازات جماعية من ناحية وإقامة وتدشين مملكة صلبيّة من ناحية أخرى، يفسر لنا هذه المعاهدات والاتفاقيات بين الحكام الصليبيين وبين الكوميونات التجارية الإيطالية. لقد كانت هذه المعاهدات جزءاً من التجربة الاستعمارية الجديدة، إذ كانت المعاهدة بشابة التلاقي الأولى بين الطرفين الصليبي والإيطالي، حيث عرف كل طرف من طرف المعاهدة (الصليبي والإيطالي) اختصاصاته في ضوء شروط وبنود هذه المعاهدات، ولم تتضمن

الفائدة الممكنة لهذه المعاهدات ولم تتضح أيضًا المطالب والدعوى المضادة لكل طرف من الأطراف المتنافسة . فقد حصل أبناء الكوميونات الإيطالية التجارية على كل الامتيازات الرئيسية في الربع الأول من القرن الثاني عشر الميلادي ، وتزامنت هذه الامتيازات مع حالة التوسيع الصليبي الأولى وتأسيس الكيان الصليبي الجديد . وهنا ، نصل إلى مرحلة جديدة للتطور ، هذه المرحلة التي تمثلت فكرتها الرئيسية في تحديد الوضع القانوني للمكتسبات التي حققها الكوميونات الإيطالية وجهًا لوجه مع حكام المملكة الصليبية ومكانة أبناء هذه الكوميونات لدى المدن الإيطالية الأم .

وتحت سؤال يطرح نفسه وهو ما هي مصلحة المدن الإيطالية الأم في مستعمراتها الموجدة في المناطق الصليبية في بلاد الشام وفلسطين ؟ وهل كان من المتوقع أن تحصل هذه المدن الأم على موارد مالية مباشرة أو مزايا وفوائد مباشرة من ممتلكاتهم في هذه المناطق الصليبية ؟ فالحقيقة أن الكوميونات الإيطالية حصلت على أحيا ، خاصة بها في المدن البحرية المهمة في المملكة الصليبية في بيت المقدس . واشتملت هذه الأحياء الإيطالية الخاصة على ممتلكات حقيقة للكوميون وفى بعض الأحيان كانت تضم هذه الأحياء الإيطالية موارد مالية محددة من مصادر الدخل المختلفة لصالح الكوميون . ولم تشر الوثائق التاريخية إلى ما إذا كان أي دخل مالي من الموارد المالية المختلف في المستعمرة قد ذهب إلى المدن الأم . فقد كان أبناء الكوميونات الإيطالية والسكان الآخرون الذين يقطنون حتى الإيطالي يدفعون إيجارات مقابل إقامتهم في البيوت والمساكن التابعة للكوميون أو كانوا يدفعون ضريبة اقطاعية a Cens (مبلغ مالي رمزي اعتقاداً بالتبعية) مقابل تملکهم للممتلكات التابعة للكوميون . وادخرت بعض المنازل والبيوت لأغراض خاصة ، وهي المنازل التي كان يأجرها مواطنو الكوميون في أثناء رحلة السفر إلى منطقة الشرق العربي . ولم تكن منشآت الكوميون ذات المنفعة العامة مثل الأفران ، والمسالخ ، والحمامات تحظى بالأعفاء الصليبي فقط ، بل أصبحت هذه المنشآت احتكاراً خاصاً للكوميون . وكانت هناك موارد مالية إضافية أخرى تجلب من عائد الرسوم المالية التي تفرض على المتقاضين من مواطني حتى الكوميون والتي كان يدفعها أيضاً سكان حتى الإيطالي من غير الإيطاليين في بعض القضايا المحددة .

وكانت هذه المبالغ المالية من رسوم القضايا وإيجارات المنازل في حتى الإيطالي ذات أهمية كبيرة للكوميون . وكان من الطبيعي أن يخصص جزء من هذه الموارد المالية للاتفاق على الإدارة

المحلية، وذلك في صورة مرتبات للموظفين ، والإنفاق على الكنائس الكبرى. وكان هناك حاجة للمال ليكفل سيطرة قوية للسلطات المحلية . وأحيانا ، كانت أموال الخزانة المحلية تستخدم لدفع النفقات الخارجية . فعلى سبيل المثال، أمر الدوّج البندقى ماجيور كونسيجليو Maggiore Consiglio ممثلاً في الأراضي المقدسة أن يرسلوا المال إلى موظفيه في أرمينيا .

وبالتالي هناك حاجة إلى المال أيضاً خلال فترة الصراع بين أبناء الكوميونات الإيطالية في الأحياء الإيطالية في المدن الصليبية في القرن الثالث عشر الميلادي وذلك لبناء الأسوار والاستحكامات الدفاعية حول هذه الأحياء ، وإنفاق منها على شراء المعدات العسكرية واستئجار المقاتلين للدفاع عن هذه الأحياء ضد هجمات بعضهم البعض، ومن المؤكد أن مثل هذه النفقات كانت تفوق الموارد المحلية للمستوطنات الإيطالية. ولكلثة النفقات المحلية الباهضة ، فإننا نشك في حقيقة إرسال أية مبالغ مهمة إلى المدن الأم.

ومن المنطقى الافتراض بأن المنفعة الذاتية الرئيسة للمدينة الأم لم تتحقق من خلال الموارد المالية التي تحصل من مستعمراتها في منطقة الشرق العربي، بيد أن هذه المصلحة كانت تتحقق بشكل أكيد في فتح آفاق تجارية ومصرفية أمام مواطنى هذه المدن الإيطالية . وكان العائد الحقيقى للمدينة الأم يحصل من طبقة التجار الأثرياء في الوطن الأم، التي ازدهرت أعمالهم التجارية في مستعمراتها في المناطق الصليبية.

وعلى الرغم من الاختلاف الواضح لأغراض العلاقات بين المدن الأم ومستعمراتها الشرقية ، فإن هذه العلاقات قد تطورت في كل مكان من المناطق الصليبية في خطوط متشابهة . وفي العادة ، كان هذا يعني تنظيم هذه العلاقات عن طريق إنشاء آلية حكومية للإشراف على هذه المستوطنات ، وأصبحت هذه الظاهرة ذات أهمية قصوى في تاريخ الاستيطان . وكانت المستوطنات الإيطالية في المملكة اللاتينية في بيت المقدس ترتبط أساساً بالمدينة الأم. بيد أن هذه الرابطة كانت ذات درجات مختلفة ومعان مختلفة أيضاً. وهكذا فإن مدينة جبيل التي كانت تابعة لكوميون جنوا ظل يطلق على جزء منها اسم جنوا فيما وراء البحار حتى بعد أن خرجت هذه المدينة عن السيادة الجنوية في منتصف القرن الثاني عشر الميلادي . ونجد مرة ثانية أن ثلث مدينة صور الذي كان تابعاً للسيطرة البندقية لم يتمتع بالحكم الذاتي فحسب، بل كان البندقية يتمتعون أيضاً بمركز ووضع سياسي مرموق في المملكة الصليبية لدرجة أنهم اعتبروا هذا الجزء البندقى في مدينة صور بمثابة جزء من البندقية ومثل هذا النفوذ السياسي للبنادقة

والحكم الذاتي الذي مارسوه في القطاع البندقى في مدينة صور لم يكن يطبق عملياً في الأحياء المبنية والبيزية في كل مكان من المدن الصليبية، وليس من قبيل المبالغة إذا قلنا إنه بمرور الوقت تولد اتجاه عام من التطور أدى إلى رفع مكانة وقدر المستوطنات الإيطالية ليس فحسب في مجال التمتع بالحكم الذاتي في الأحياء الإيطالية في المدن الصليبية ، بل كانت أيضاً هذه المستوطنات عبارة عن كيانات منفصلة سياسياً عن المدن الأم.

والحقيقة أننا لم نعرف أو نتبين كيف استطاعت المدن الإيطالية الأم أن تتولى سلطة الإشراف على مكتسبات مواطنها في الخارج. وربما لم تطرح مثل هذه القضايا أمام كوميون بيزا وكوميون البندقية ، وذلك بسبب حملاتهم العسكرية المعاونة للصليبيين التي حظيت برعاية الدولة منذ البداية . وبالنسبة لكوميون جنوا لم تحظ العملات العسكرية الجنوية برعاية الدولة. وعلى أي حال، فإنه ليس هناك داع لافتراض بأن تدخل المدينة الأم في شؤون المستوطنات كان يلقى التفوي والاستياء والمعارضة من جانب كل من السلطات الصليبية والمستوطنين الإيطاليين . واهتم المستوطنون الإيطاليون اهتماماً كبيراً باقامة علاقات مباشرة مع المدينة الأم- مصدر القوى والدعم الفعال- وكانت المدينة الأم تجني الفائدة من وراء هذه العلاقات في شكل حماية نفوذها السياسي في هذه المستوطنات.

ولكي تضمن المدينة الأم تطور مستعمراتها في الخارج بات عليها أن تضطلع بمهام الإدارة في هذه المستوطنات . لقد كان النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادي بمثابة فترة التجريب والتجربة في مجال الاستيطان، وتميزت هذه الفترة التجريبية باتجاهين وزراعتين: تمثل الاتجاه الأول في استخدام الأنماط الإدارية الإقطاعية المعروفة جيداً، مثل منح الإقطاعات، والاتجاه الثاني قلل في إدخال واستحداث نظام بيروقراطي (وظيفي) في الإدارة في المستوطنات الإيطالية في منطقة الشرق العربي الإسلامي (مناطق ما وراء البحار) وكان مشروع الاستيطان الجنوبي هو المشروع الرائد خلال هذه المرحلة التجريبية.

كانت جنوا أول من قامت بتعيين موظفين لحماية أملاكها الجديدة وامتيازاتها في المناطق الصليبية وعرف هؤلاء الموظفون باسم الحكام وكان رئيس أساقفة كنيسة القديس لورانس الجنوبي هو أول الموظفين الذي تم تعيينه في منصب وظيفي. وكانت الخطوات التالية عبارة عن محاولة لاستخدام الآلية الإدارية الإقطاعية ، فقد كانت مدينة جبيل أولى الممتلكات التي حصل عليها الجنوبي في الإمارات الصليبية وهي مدينة جبال التوراتية (وهي مدينة بيلوس

التي عرفت في العصر البيزنطي)، وعرفها الصليبيون باسم جبيل. فقد حصل الجنوية على ثلث هذه المدينة بوجب الامتياز الأول الذي حصلوا عليه من الحكام الصليبيين . بيد أنه في عام ١١٠٩ حصل الجنوية على كل المدينة ملكا لهم ، وكانت هذه هي المرة الأولى التي يصبح فيها مالك غير اقطاعي يتملك مدينة صليبية كاملة. وقامت جنوا بنع هذه المدينة كاقطاع لنبلاء أسرة أميرياتش الجنوية ، الذين أصبحوا أقصلا إقطاعيين لكوميون جنوا ، وفي نفس الوقت أصبحوا أقصلا إقطاعيين لكونت طرابلس الصليبي . ومن الناحية القانونية ، كان كونت طرابلس الصليبي هو السيد الإقطاعي الأعلى لأفراد أسرة أميرياتش الجنوية المحاكمة في جبيل، بيد أن نبلاء أسرة أميرياتش سادة جبيل كانوا في نفس الوقت كما ذكرنا آنفاً أقصلاً إقطاعيين لكوميون جنوا له لكنيسة جنوا . ولا يمكن تفسير هذه العلاقة الإقطاعية على أنها ولاء وتبعية إقطاعية حقيقة للكونت الصليبي بالمعنى الإقطاعي أو أنها علاقة إقطاعية صغرى (صفار الأقصال) للكوميون . ومن الناحية النظرية كان على نبلاء أسرة أميرياتش المحاكمة في جبيل أن يقدموا اثنين من القسم الإقطاعي لاثنين مختلفين من كبار السادة الإقطاعيين مقابل قلتهم لمدينة جبيل ، والساسة الإقطاعيين هما كوميون جنوا والكونت الصليبي . وكان من جبيل للجنوية ومنهم أيضاً الممتلكات الأخرى في صورة إقطاع في المناطق الصليبية في فلسطين وببلاد الشام يتم وفق شروط متبادلة محددة للغاية. ولم نعرف شروط هذه المنح قبل منتصف القرن الثاني عشر الميلادي، بيد أنه في عام ١١٥٤ وهو عام الأزمة التي أعقبت فشل الأسطول الجنوئي في غرب البحر المتوسط - قام كوميون جنوا بالزام أعضاء أسرة أميرياتش التي تشرف على ممتلكات الكوميون في أنطاكية بدفع بعض المبالغ المالية لمدة الثمانية والعشرين عاماً القادمة وهي عبارة عن ٨٠ ثمانين من الجنيهات الجنوية تدفع للكوميون سنويًا طوال المدة السابقة مقابل أملاكه في جبيل واللاذقية ، ومبلغ ٢٧٠ بيزنط تدفع للديج كنيسة القديس لورانس في جنوا مقابل أملاكه في طرابلس ، ومبلغ ٥ جنيه جنوئي مقابل أملاكه في عكا (وأصبح على أعضاء أسرة أميرياتش أن تدفع ١٠٠ جنيه جنوئي لمدة السنوات الأربع القادمة).

وكان تقليد سلطة الحكم في جبيل أمراً سياسياً . فقد تسلم وليم أميرياتش من كوميون جنوا من خلال برمان عام « راية حريرية كرمز لتقليله منصب الحاكم للأماكن التي ذكرناها آنفاً » حتى انتهاء المدة المحددة لحكمه . فقد اعتبر الحكام الجنوية هذا التقليد محدد المدة، ولذا كانوا يطلبون دائمًا تجديد هذا التقليد في نهاية المدة المحددة. ولذا وعد وليم أميرياتش - Wil iam Embriaco بأنه « سوف يستمر في حكم هذه الأماكن السابقة وفقاً لإرادة قناصل جنوا

حتى تنتهي المدة المحددة لحكمه لهذه المناطق». ويبدو أن دفع الأموال المتفق عليها لكوميون جنوا قد استمر حتى عام ١١٦٨م، بيد أنه في عام ١١٧٩م تلص وليم أميرياتش من دفع هذه المبالغ المقررة للكوميون ، وفي عام ١١٨٦م تلص أيضاً من دفع هذه المقررات المالية للبابا أريان الثالث الذي هدد بفرض عقوبة الحرمان الكنسي عليه ومصادرة إقطاعاته ، بيد أن هذه التهديدات البابوية لم تصبح ذات طائل . فقد خسر كوميون جنوا مدينة جبيل وأصبح إقطاعاته لأعضاء أسرة أميرياتش ، وهي الأسرة التي حكمتها مقابل تأدية خدمة اقطاعية لكونت طرابلس الصليبي . وظلت هناك بعض الروابط والعلاقات بين جنوا ومستعمراتها الخارجية في المناطق الصليبية في بلاد الشام وفلسطين في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي وذلك بسبب وجود المستوطنين الجنوبيين في جبيل ، بيد أنه لم تقم علاقات أساسية بين هذه المستوطنة الجنوبية في جبيل وبين جنوا . والحقيقة أن تحرر أسرة أميرياتش من العلاقة الاقطاعية التي تربطها بكوميون جنوا لم يشمل كل الممتلكات الجنوبية . وخلال الحملة الصليبية الثالثة قدمت جنوا مساعدات ضخمة للدفاع عن مدينة صور وقامت بنقل الجيوش الصليبية على متن سفنها (وكان لنقل الجيوش الصليبية اعتبارات مهمة) ، ولذا استطاع كوميون جنوا أن يسترد امتيازاته وممتلكاته خارج مدينة جبيل.

لقد أخفقت التجربة العملية للحفاظ على الامتيازات والممتلكات الاستيطانية الإيطالية من خلال الإدارة الإقطاعية وانتهت هذه التجربة بكارثة . وعرف هذا الدرس ووعي جيداً ولم يتكرر مرة ثانية في المملكة الصليبية . فلم تحاول بيزا تطبيق مثل هذا النظام الإقطاعي في مستوطناتها الخارجية في المناطق الصليبية في حين طبقتها البندقية جزئياً بحكمه ودرایة . وعندما عقدت معاهدة سنة ١٢٣١م، التي منحت للبندقية ثلاث مدن صور الصليبية قام الملك الصليبي بـلدون الثاني في عام ١٢٥١م باقرار هذه المعاهدة ، واشترطت هذه المعاهدة أن يقدم الكوميون البندقى في المستقبل ثلاثة من الفرسان المحاربين لرئيس الملك الصليبي كخدمة اقطاعية عسكرية . وعندئذ منح الجنوبية جزءاً من ممتلكاتهم للنبيـل البندقى رولاند كونتارين Roland Contarenus وألزمـوه بتقديم هذه الالتزامات العسكرية المستحقة للملك الصليبي . وتجاوزـت هذه الأـملاك المنـحة للبنـدقـة قيمة الخـدـمة العسكريـة المستـحـقة عـلـيـها . فـكـانـتـ هـذـهـ المـمـتـلـكـاتـ وـالأـمـلـاـكـ الـبـنـدـقـيـةـ عـبـارـةـ عـنـ ١٢ـ١ـ قـرـيـةـ كـامـلـةـ (ـمـنـ اـجـمـالـيـ ٢١ـ قـرـيـةـ)ـ وـكـانـ لـلـكـومـيـوـنـ أـمـلـاـكـ فـيـ هـذـهـ الـقـرـىـ .ـ وـكـانـتـ هـنـاكـ أـسـرـةـ نـبـيـلـةـ حـاـكـمـةـ بـنـدـقـيـةـ وـهـيـ أـسـرـةـ بـاـنـتـالـيـوـنـ Pantaleon تـسـلـمـتـ اـقـطـاعـاتـ مـنـ الـكـومـيـوـنـ الـبـنـدـقـيـةـ مـقـابـلـ خـدـمـاتـ غـيـرـ مـعـرـوفـةـ عـلـيـ وـجـهـ

الدقة. وهكذا تم تقسيم أكثر من نصف الممتلكات الريفية لكوميون البندقية . وفي تلك الأونة استطاع البناية التمرس على مصاعب الادارة وأخطارها من خلال المؤسسات الاقطاعية ، فقد أوصت أرملة رولاندكونتارين Ronland Contarenus السيدة جويد Guide بأملاكها ونفسها مباشرة إلى الملك الصليبي (بعد عام ١١٦٤) هذا الملك الذي أحق هذه الممتلكات بالإرث الاقطاعي الملكي وضمها إلى الأملك الملكية.

وكانت المسافة البعيدة بين المستوطنة الإيطالية والمدينة الأم يجعل من الاشراف والسيطرة الاقطاعية على هذه المستوطنة أمراً صعباً . وأصبح من مصلحة كل من كونت طرابلس الصليبي والملك الصليبي في بيت المقدس خرق هذه الامتيازات التي منحوها لأعضاء وأبناء الكوميونات الإيطالية بسخاء، وذلك من خلال قنوات إقطاعية محفوفة بالمخاطر . ومن هنا بات من المنطقى أن يعتمد تطوير أي نظام ادارى آخر على أسس ببروقراطية . والحقيقة أن نواة النظام الادارى للمستوطنات الإيطالية في المملكة الصليبية قد تأسست بعد المنح والامتيازات الباكرة التي اعطيت للكوميونات الإيطالية في المناطق الصليبية، ولاسيما بعد أن عاد المشاركون في الحملات الصليبية العسكرية إلى أوطانهم في أوروبا . وكان لقب الموظف الأول المهم في هذا النظام الادارى الباكر غير واضح وغير معروف * . وبعد مدة عرف هذا اللقب باسم الفيسكونت Viscount وهو اللقب الذي أثيرت حوله الكثير من القضايا حول أصله. وباستثناء البندقية، عرف هذا اللقب في كل المستوطنات الإيطالية في المملكة الصليبية في بيت المقدس. بيد أن هذا اللقب أيضاً وجد في الآلية الادارية للملكة الصليبية ، ولم يكن هذا المنصب الوظيفي الحكومي في الجهاز الاداري الصليبي وراثياً، فقد وجد هذا المنصب أولاً في الجهاز الادارى في المدن الملكية الصليبية ، ثم عرف بعد ذلك في المدن التابعة للامارات الصليبية . إذ كان الفيسكونت يرأس المحكمة البرجوازية . وهكذا يمكن أن نسب هذا اللقب (الفيسكونت) إلى الأصل الإيطالي أو هل يمكننا أن نفترض بأن الإيطاليين قد أخذوا هذا اللقب ونقلوه عن النظام الإداري الصليبي؟ ومن سوء الحظ أن كل المصادر التاريخية لم توضح هذا ، ومهما كان الحال، فإن لقب فيسكونت Vicecome قد وجد في جنوا في ذلك الوقت وكان لهذا اللقب دلالته الاقطاعية المحددة. إذ كان الفيسكونت سيداً اقطاعياً أعلى في مدينة

* ظل لقب الفيسكونت Viceomes لأول مرة في كونتية طرابلس بعد الاحتلال الصليبي لمدينة جبيل ، واحتفظ الكونت الصليبي لنفسه بشاشي هذه المدينة (المؤلف).

جنوا وفي كونتادو Contado . وظل أعضاء أسرة القنصل (الذين ينحدرون من نسل القنصل يسدون Ydo منذ القرن العاشر الميلادي) يمارسون سلطتهم السياسية الواسعة في جنوا حتى نهاية القرن الثاني عشر الميلادي، وجاء عدد كبير من قناصل الكوميون الجنوبي من فروع مختلفة من هذه الأسرة (عائلة القنصل يدو Ydo)، على الرغم من أن الوظيفة الاقطاعية القديمة لم تكن قد أنشئت . ومع تأسيس الكوميون أصبح القناصل هم كبار الموظفين الإداريين. وإذا اعتبرنا أن لقب «القنصل» كان ذا أصل جنوبي، فإننا سوف نصطدم بظاهرة غريبة ، وهي نقل مؤسسة ونظام إداري جنوبي إلى منطقة الشرق العربي، في الوقت الذي انهار هذا النظام واختفى في المدينة الأم (جنوا) . ويبدو أن هذا النظام الإداري (نظام القنصل) كان غريباً ، وسوف نجد ظاهرة مشابهة في تطور الإدارة الجنوية في الفترة الأخيرة في المستوطنات الجنوية الخارجية التي كانت توجد في المملكة الصليبية والإمارات التابعة لها . ومهما كان الأصل الإيطالي للقب فيسكونت الذي عرف في النظام الإداري في المستوطنات الإيطالية في المناطق الصليبية (وهو اللقب الذي اكتسبه البروفنسال والقطالونيون) ، فإن كوميون بيزا في الربع الثالث من القرن الثاني عشر الميلادي هو أول من أدخل لقب القنصل في الجهاز الإداري في عام ١١٧٩ م، وبعدها أدخل باقي الكوميونات الإيطالية هذا اللقب إلى الجهاز الإداري في مستوطناتهم الخارجية في المناطق الصليبية كموظفي جديد . وأصبح الفيسكونت موظفاً تابعاً للقنصل في إطار تسلسل الدرجات الوظيفية الإدارية ، على الرغم من أنه أحياناً كان لقب الفيسكونت مقرضاً بلقب القنصل الجديد . ولم يكن التغيير في اللقب الوظيفي الإداري من قبيل المصادفة ولكن كان يشير هذا التغيير إلى تنامي أهمية المستوطنات الإيطالية الخارجية لدى المدن الإيطالية الأم . وتطابق لقب «القنصل» مع لقب أعلى موظف في الجمهورية البندقية الاسترقاطية . وما يذكر أن البندقية فقط هي التي تجنبت هذا اللقب ولم تدخله في جهازها الإداري ، بيد أن اهتمامها الخاص بأملاكها ومتلكاتها في مستوطناتها الخارجية قد ظهر جلياً من خلال تعينها موظف كبير يحكم هذه المستوطنة وعرف هذا الموظف الكبير باسم البایل bailus .

وفي أثناء العصر الثاني من المملكة اللاتينية في بيت المقدس (١٢٩١-١١٨٧ م) ، تم إشراف وسيطرة الكوميونات الإيطالية على مستوطناتها الخارجية بشكل أفضل، أو ربما أحكمت هذه المدن الأم (البندقية- جنوا- بيزا- أمالفي) سيطرتها تماماً على هذه المستوطنات . وحاولت كل هذه الكوميونات الإيطالية إقامة تمثيل مركزي لها في مستوطناتها في منطقة الشرق العربي . ووجد مثلاً هذه الكوميونات في مدینتى عكا وصور . وهكذا أصبح البایل

البندقى يمثل أعلى سلطة ادارية للمستوطنات البندقية في بلاد الشام ، بحيث يخضع تحت سعادته الموظفون المحليون البندقية ، وعرف الموظف المحلي البندقى الأدنى باسم الفيسكونت. وأنشأ جنوا وبيزا نظاماً إدارياً مميزاً ومهماً ، وكان هذا النظام عبارة عن اثنين من القناصل العموميين ، وأحياناً كان هؤلاء الموظفون يعرفون باسم «قناصل فنيسكونتات بلاد الشام» وكان صغار الموظفين يعرفون بنفس هذه الألقاب ، بيد أن اختصاصات صغار الموظفين كانت محددة في ضوء تعليمات وأوامر القنصل المقيم في المدن المهمة مثل عكا ، أو بيروت ، أو صور . وبدأت بيزا نظامها الإداري باثنين من القناصيل في عام (١١٩٢م) مثل جنوا ، ولكنها أضافت قنصلاً ثالثاً وبعد ذلك أضافت قنصلات مرتين ثانية ، وكان يعرف باسم «قنصل كوميوني البيازنة في عكا وكل المستوطنات البيزنطية في بلاد الشام». واتسم هذا النظام الإداري الذي أدخله كوميوني بيزا بالكفاءة والفعالية ، ولكن من المحتمل أن هذا النظام الإداري البيزاوى كان نظاماً للسيطرة المتبدلة . وثمة نظام إداري غريب سوف نذكره وهو الاتحاد الفيدرالي لكوميونى البروفنسال والقطالونيين في مدينة صور وذلك في شكل ستة أو سبعة من القناصل ومحكمة عامة ، برأسها فنيسكونت . وكان لكوميونى مرسيليا ومونبيليه اثنان من القناصل يقيمان في مدينة عكا . وكان يتم تنظيم إجراء تعيين هؤلاء الموظفين وتحديد اختصاصاتهم في هذه المستوطنات الإيطالية الخارجية الموجودة في المناطق الصليبية في فلسطين وببلاد الشام . وهكذا فإن الدوّج البندقى ماجيور كونسيجليو Maggior Consiglio كان يناقش أدق تفاصيل موضوع اختيار البايل bailo البندقى واحتياصاته ونشاطه في المستوطنات البندقية في المملكة الصليبية. إذ كان يتم اختيار البايل البندقى ومستشاريه في مدينة البندقية وفيها أيضاً كان يتقرر وحيلهم إلى هذه المستوطنات لتسلم وظائفهم المرتقبة (وكان هؤلاء يعرفون باسم السادة) وتسلم التعليمات والأوامر المهمة التي كان يصدرها الدوّج البندقى ماجيور كونسيجليو من وقت آخر وهي التعليمات والقرارات المهمة التي كانت ترسل إلى المستوطنات البندقية في المناطق الصليبية في بلاد الشام وفلسطين. وكان يعمل تحت تصرف البايل البندقى بشكل مباشر جندي مشاه Sergeant له حراسته وحامل للدرع Squire بالإضافة إلى كاتب حكومي رسمي Official notary . فقد كان البايل البندقى ومستشاروه يمثلون المدينة الأم (البندقية) في علاقاتها مع المستوطنين وعلاقاتها أيضاً مع السلطات الصليبية . وهكذا استطاعت المدينة الأم أن تبسيط سعادتها على مستوطناتها الخارجية من خلال هذه البايل ومستشاريه ، وذلك عن طريق الأوامر والقرارات التفصيلية المهمة التي كانت

تصدر من المدينة الأم. ومن ناحية أخرى، فإن البايل البندقى مارسيجليو زورزى Marsiglio Ziorzi قد تمع بحرية المشاركة فى القضايا السياسية المهمة فى المملكة الصليبية، على الرغم من أن هذا الدور الذى لعبه هذا البايل البندقى رها كان فى إطار التعليمات الصادرة له من الدوچ البندقى ماجيور كونسيجليو. وكما كان الوضع بالنسبة لموظفى الكوميون، وكان البايل مستشاروه والكاتب الرسمى يتقاضون مرتبات شهرية*، وقد توفرت لهم نفقات ومحضات مالية سخية . وكان هناك اثنان من الموظفين التابعين يساعدون البايل فى ادارة أملاك الكوميون وهما الحاجبين أو أمناء الخزانة والمال (Chamberlain). ومن اختصاصات هذين الموظفين الاشراف على أملاك الكوميون المستأجرة ، وتحصيل هذه الایجارات وارسالها إلى خزانة الكوميون (Caesilla Communis) ، وحفظ دفاتر الحسابات (quaterna). وما يذكر أن البايل ومساعدوه . قد اعتادوا فحص دفاتر الحسابات هذه وكذلك زيارة الأملال الكوميونية . وكانت رئاسة البايل البندقى لمحكمة البنادقة فى المحى البندقى المتمتع بالحكم الذاتى لاتقل أهمية عن اختصاصاته الأخرى. وهى المحكمة التى كان يعهد إليها النظر فى جزء من القضايا العامة فى المملكة الصليبية . وفي الغالب، كانت محكمة البنادقة تعقد للنظر فى المنازعات التى تنشب بين كل سكان المحى البندقى (بما فيهم سكان المحى من غير البنادقة). وبالإضافة إلى ذلك، كانت من اختصاصاتها أيضا تسجيل العقود التجارية التى تبرم بين التجار البنادقة . وكان تسجيل هذه العقود يتم فى حضور البايل البندقى وتحت اشرافه ، ويشهد عليها مستشاروه . واتسم اشراف البايل على هذه المحكمة بالقوة والصرامة . وحرم على البايل البندقى نقل متاجر خاصة به عند ذهابه إلى منطقة الشرق العربي لاستلام عمله، على الرغم من أنه لم يتضح لنا ما إذا كان البايل البندقى قد حرم من ممارسة التجارة فى أثناء وظيفته . وفي محاولة لمنع التحييز والمحابة لم يكن يسمح للبايل البندقى نقل أى أملاك كوميونية أو التنازل عنها لأى فرد من أفراد عائلته بالبيع أو الهبة ، والأمر اللافت للنظر هو

* كان البايل البندقى يتقاضى راتبا سنريا قدره ١٤٠٠ بيزنت، وهو ما يعادل تقريراً لقطاعات ثلاثة من الفرسان؛ وكان الجندي المشاه Sergeant يتتقاضى راتباً شهرياً قدره ٢٥ بيزنت وثوبين من القماش ، وذلك وفقاً لقرار أصدر رفى عام ١٢٧٠م. ففى عام ١٢٧٦ تقرر أن يتتقاضى الجندي المشاه المرافق للبايل ١٢ بيزنت شهرياً بالإضافة إلى ٣ بيزنتات للنفقات . وحصل هؤلاء الموظفين على نفقات النقل : فكان البايل يتتقاضى ٤ دينار بندقى و ١ دينار بندقى مقابل نقل حصانه (المؤلف).

كيف استطاع ماجيور كونسيجيلا وهو يجلس في البندقية أن يتدخل لتسوية الأعمال التجارية اليومية في مستوطنته ، على الرغم من أن بعض الأوامر والتعليمات الصادرة من البندقية تعتبر جزءاً من السياسة العامة والتي كانت تطبق في المستوطنات الإيطالية في الملكية الصليبية. ففي عام ١٢٦٢م أصدرت البندقية قراراً يلزم عشرين شخصاً من كبار الأثرياء، البرجوازية البندقية الذين يقيمون في مدينة عكا بأن يكتروا داخل أسوار وبوابات الحى البندقى في عكا لمدة عام كامل على الأقل. وقبل ذلك بعام وفي سنة (١٢٧١م) كان المجلس التشريعى البندقى قد تخلى عن قراراته وأعطى لليهود (والذين كانوا من سكان الحى البندقى السابقين أو كانوا يستقرن فيه قبل الوجود البندقى ، والذين كانوا يخضعون لمحكمة البندقية) حق الاقامة والسكنى داخل الحى البندقى. وأصدرت الأوامر للمستوطنين البندقية في الحى البندقى بعدم تأجير بيوتهم ومنازلهم ودكاكينهم وحوانيتهم في عكا حتى يتم تأجير بيوت ودكاكين ومساكن الكوميون وذلك لتأكد نفوذ وسلطان الكوميون وحماية مصالحها في هذه المستوطنات . وفي نفس الوقت أصدر الدوّل البندقى قوانين وقرارات ذات طبيعة سياسية وتجارية للبازيل البندقى وكلفه بتنفيذها. وأهم هذه القرارات هو قرار يحظر على التجار البندقية نقل السلع الاستراتيجية مثل الحديد والأخشاب من أوروبا وتصديرها إلى الأسواق الإسلامية دون تصريح خاص من البازيل البندقى. وكان الهدف من هذا القرار هو وقف عملية تهريب هذه المواد التجارية الاستراتيجية (الحديد والأخشاب) الالزمة للبناء إلى الأقطار الإسلامية وثمة قرار آخر أصدرته السلطات البندقية يمنع الاستيراد من الأسواق الإسلامية في الشرق العربي مالم تكن أملاك وبضائع بندقية.

ووجد مثل هذا التشريع الخاص بحظر تصدير واستيراد بعض السلع إلى الأسواق الإسلامية أيضاً في كوميون بيزا. وتجدر الإشارة إلى أن القنصل البيزى في عكا وفي كل أنحاء بلاد الشام وأيضاً مستشاريه الاثنين والكاتب كان كل هؤلاء يتم اختيارهم عن طريق الاقتراع السرى الذى يجرى تحت إشراف ماجيور كونسيجيلا وذلك فى حضور اثنين من الرهبان الفرنسيسكان واثنين من الرهبان الدومينيكان فى كاتدرائية المدينة ، وكان الأشخاص الذين يقع عليهم الاختيار يتقلدون وظائفهم طوال حياتهم ، وكانت عملية اختيار هؤلاء الموظفين هذه، تعنى أن كل قنصل جديد كان عليه أن يصطحب معه طاقماً إدارياً جديداً وكاملاً من الأشخاص. وكان جميع هؤلاء الموظفين يتتقاضون مرتبات وهى المرتبات التي كانت تعرف باسم

الاقطاعات، ومن المحتمل أن هذه المرتبات والأجور كانت تدفع من الموارد المالية المحلية للمستوطننة . وتجدر الإشارة إلى أن مستشاري القنصل ، كان أحدهما محاميا Lawer iuris peritus والآخر كان تاجرًا ثريا مشهوراً (Publicus mercator) . لقد كانت التشريعات البيزنطية تؤكد وتشدد على أهمية الحفاظ على امتيازات البيازنة وحق التمتع بالحكم الذاتي، وهكذا كانت هذه التشريعات تفرض غرامة مالية ثقيلة الوطأة على القنصل إذا سمح لأى شخص من غير البيازنة التمتع بامتيازات الاعفاءات الجمركية في ميناء عكا.

ولكي نعقد مقارنة بين هذا التشريع البيزنطي وبين غيره من التشريعات الأخرى يجب علينا أن نحلل التشريع الشبيه له في مرسيليا ، وهو التشريع الذي حظى بالاهتمام ليس فقط بسبب أنه يتعامل مع كوميون غير إيطالي ، ولكن أيضًا ترجع أهميته إلى أن المارسيلين الذين جاؤوا إلى المملكة الصليبية في فترة متأخرة قد قنعوا بقليل من الامتيازات . وهكذا كانت إدارة وتنظيم كوميون مرسيليا لمستوطناتها في المناطق الصليبية في بلاد الشام وفلسطين يمثل مرحلة أولية إلى حد كبير، وهو التنظيم الذي كان يوجد في الكوميونات الإيطالية قبل الحقبة الصليبية بائنة عام على الأقل، فلم يكن للمارسيلين قنصل - وتؤكد ذلك القرارات البلدية المحلية المارسيلية - فإذا تواجد في المدينة الصليبية عشرين من المستوطنين من مرسيليا ، فإنهم كانوا يتذبذبون من بينهم قنصلًا يقوم بمهام واحتياصات هذه الوظيفة . وبالنسبة للمدن التي كان يتواجد بها أعداد كبيرة من أهالي مرسيليا فإن السلطات المارسيلية المحلية كانت تخدار القنصل المارسيلي ومستشاريه ، وكانتلجنة اختيار هؤلاء الموظفين تضم رئيس أساقفة كنيسة مرسيليا ، وعمدة المدينة ، ورؤساء النقابات . وعلى الرغم من أن القنصل المارسيلي المنتخب كان قنصلًا رسميا ، فإن مكانته اختلفت عن وضع زملائه البيازنة والبنادقة . إذ كان هذا القنصل المارسيلي في الأصل تاجراً يعمل في تجارة الشرق ، وهو من فقط الرجال الذين حرموا من هذه الوظيفة في البنديقية . بيد أن كوميون مرسيليا كانت تحظر هذه الوظيفة (قنصل) على أي شخص يتمتع بامتياز ووضع شخص في بلاد الشام، كما كانت تحظر وظيفة القنصل المارسيلي أيضاً على أصحاب وقادة السفن. وإذا رفض شخص هذا المنصب فإنه يقع تحت طائلة عقوبة الغرامة المالية الباهظة . ومن احتياصات القنصل المارسيلي ومستشاريه وجهازه الإداري حماية امتيازات الكوميون ، وحماية الأعمال التجارية للتجار المارسيلين، وأيضاً النظر في القضايا وتسوية المنازعات بين الأفراد ، وتسجيل الصكوك والعقود التجارية. وامتدت سلطات القنصل المارسيلي أيضاً إلى فرض الفرامات المالية على المستوطنين

المارسيلين ، بيد أن الكاهن ورئيس الأساقفة المارسيلي كان في استطاعته أن يلغى هذه الفرامة . لقد كان القنصل بشكل عام مسئولين عن حفظ سجلات ودفاتر المحكمة واسندت هذه المهمة إلى كاتب المحكمة ، وإذا تغيب هذا الكاتب تعهد هذه المهمة إلى كاتب السفينة . وعندما كان يعود القنصل وموظفوه إلى مرسيليا فإن هذه السجلات والدفاتر تودع في خزانة المحكمة . ويبدو أن الموظفين المارسيلين لم يتغاضوا مرتبتات . ولكنهم كانوا يتقاسمون في نصف الفرامات المالية مع سلطات مرسيليا * . وكانت هناك وظيفة إدارية مهمة في الجهاز الإداري في المستوطنات الإيطالية في المملكة الصليبية في بلاد الشام وفلسطين وهي تلك الوظيفة التي كان يتقلدها رئيس الفندق (الفندaci) Fondaco ، وشريكه الذي كان يعرف باسم محصل أجرة الشحن والنقل nabelinus ** . ويبدو أن الفندaci ومحصل أجرة الشحن والنقل كانوا من المستقررين الدائمين في المستوطنة ، وعلى الرغم من أنهما كانوا تحت سيادة وحكم القنصل ، فإن هؤلاء الموظفين (الفندaci ومحصل أجرة الشحن والنقل) كانوا يتقلدون وظائفهم في شكل منحة من رئيس أساقفة كنيسة مرسيليا ، حيث كانوا يؤدون القسم الخاص بهذه الوظيفة .

جـ- المجتمع الاستيطاني

لقد تخلص عن الحملة الصليبية الأولى احتلال الصليبيين مناطق عديدة في منطقة الشرق العربي الإسلامي في بلاد الشام وفلسطين، وإنشاء هيكل طبيعي من الأرض امتدًا بمحاجات بشرية أوربية نزحت إلى هذه المناطق ، ولاسيما الفرنج الفرنسيين وتأسست الإمارات الصليبية ونشأ مجتمع صليبي جديد، وإذا كان الغزو الصليبي الحقيقي الفعلى عبارة عن عملية قصيرة جداً فإن عملية التنظيم السياسي والاجتماعي للمجتمع الصليبي الجديد استغرقت جيلين حتى أصبح هذا التنظيم وهذه المؤسسات قادرة على ممارسة وظيفتها بكفاءة ، واقتدار .

* كان القنصل المارسيلي يتغاضى عشر القيمة في القضايا التي تعادل قيمتها أكثر من ١٠ بيزنات وذلك من الخاسر، وثلث القيمة في القضايا التي قيمتها تعادل أقل من ١٠ بيزنات من الطرف الذي يخسر هذه القضية. (المؤلف) .

** لم يتضمن أصل الكلمة nabelinus وربما تكون هذه الكلمة مأخوذة عن الكلمة nabulum التي تعنى أجرة الشحن أو النقل ، ولذا يمكن ترجمة هذه الكلمة بأنها محصل أجرة النقل والشحن (المؤلف) .

ولم يكن تطور الأنماط السياسية والاجتماعية لهذا المجتمع الصليبي من قبيل المصادفة، وبداية لا يمكن أن تخيل أيضاً أن البناء الاجتماعي لهذا المجتمع الصليبي كان متواصلاً. ومع ذلك، فإن الدولة أو المجتمع لم ينتهي ببرنامجاً سياسياً، إذ كان رجال الدين الأوروبيين الكاثوليك لديهم القوة الكافية للتغلب على الخلاف المستعر الناشب بين الأطراف المنافسة. وتركز السكان الصليبيون في الأرضي العربية وفقاً لمجموعاتهم الكبرى وأصولهم العرقية والثقافية، فاستقر النورمان في أنطاكيه وتركز البروفنسالي في طرابلس. وكان سكان المملكة الصليبية خليطاً من الصليبيين الأوروبيين، بيد أن العنصر السكاني السائد في هذه المملكة كان نازحاً من الشمال الفرنسي، وساعد هذا التمركز السكاني الصليبي في الداخل على التكامل السكاني، على الرغم من أن هذا التمركز السكاني الصليبي الداخلي قد أدى إلى تدهور بعض الكيانات العرقية أو الثقافية الأخرى.

وأستطيع المهاجرون الصليبيون أن ينقلوا إلى مجتمعهم الجديد في بلاد الشام وفلسطين تقاليدهم وعاداتهم الأوروبية. ومهما تعددت العناصر الاجتماعية الأوروبية التي استقرت في هذه المناطق الصليبية في منطقة الشرق العربي الإسلامي في أعقاب الحملة الصليبية الأولى والفترات التالية لها، فإن هذه العناصر الصليبية استطاعت أن تتشكل، غطاءً من المجتمع الأوروبي. واستطاع الحراك الاجتماعي الذي كان من أبرز سمات الأقطار الأوروبية التي نزح منها هؤلاء السكان الصليبيون أن يرفع الرتب الاجتماعية وأن يلاً الثغرات والفجوات التي وجدت بين هؤلاء السكان المستقرين. وكانت إحدى الملامح المهمة للبناء الاجتماعي الصليبي تختلف عن ملامح البناء الاجتماعي في الأقطار الأوروبية التي نزح منها السكان الصليبيون. إذ كان المجتمع الصليبي مجتمعاً إقطاعياً فقط، ولم يعرف هذا المجتمع الصليبي الأوروبي التقنية أو العبودية*. ولم تعرف الرتب الاجتماعية في المجتمع الصليبي أي خط من التبعية القانونية أو الاقتصادية. وعلى الرغم من تدرج الرتب الاجتماعية في المجتمع

* لم تعرف العبودية أو القبضة في مجتمع الفرنجة في منطقة الشرق العربي. وإن كانت قد وجدت بشكل قليل جداً بسبب وقوع الأسرى في أثناء الحروب بين الطرفين الإسلامي والصليبي، وهم الأسرى الذين انحدروا إلى مرتبة العبيد، وتم استغلالهم في مجال بناء وتشييد التحصينات والقلعات. وقامت الهيئات الدينية العسكرية باستغلال هؤلاء الأسرى واستخدامهم كصناع وأرباب حرف .

الصليبي، فإن هذا المجتمع كان مجتمع أحرار، يتمتع أعضاؤه من الصليبيين بمكانة ووضع قانوني أرقى من أي وضع قانوني يتمتع به السكان المحليون الذين يعيشون وسط هذا المجتمع الصليبي. ولم تحدد لنا النظريات الاجتماعية هذا الاختلاف الجدير باللاحظة : هذا الاختلاف الذي اعتمد على منطق الأيديولوجية الصليبية ، هذه الأيديولوجية التي منحت الحرية لكل الجموع الصليبية المشاركة في الحروب الصليبية ولاسيما المحاربين من غير الأحرار أي الاقنان والعبيد وال فلاجين غير الأحرار. فالقーン الذي يظفر في الوصول إلى المملكة الصليبية يصبح حراً بشكل تلقائي ولا يمكن لأحد أن يحبط من قدره أو يحوله إلى نظام العبودية أو القنية، وهو النظام الذي لم يكن موجوداً في المملكة الصليبية. وهكذا أقام المستعمرون الجدد مجتمعهم الصليبي المخاص وتم اعفائهم من القنية أو العبودية . ومارس السكان المحليون المقهورون أعمال الزراعة وفلاحة الأرض ، واستطاع هذا المجتمع الجديد أن يبتكر فطا ونظاماً للتعايش مع السكان المحليين . ومن الناحية النظرية ، كانت هناك ثلاثة حلول اجتماعية ممكنة هي :

أولاً : مجتمع لاتيني مسيحي صرف على نحو محصور ، ثانياً : أو مجتمع مختلط من الأوروبيين الغربيين والشرقين المحليين (المسلمين والمسيحيين) ، ثالثاً : أو مجتمع خليط من البيزنطيين والمسيحيين الشرقيين. وكانت الإمكانية الاجتماعية الأولى تعنى حدوث عملية احلال صليبي وطرد السكان المحليين ، وكانت عملية الإحلال الصليبي تتم من خلال المستوطنين المهاجرين الذين يحلون محل السكان المحليين وخلق مجتمع قابل للنمو حيث استطاع القادمون الأوروبيون الجدد القيام بكل المهام الاقتصادية والوظائف الاجتماعية ... الخ . إذ كان الفلاح ، والتاجر ، والصانع ، والموظف - المحكومين والحكام - من بين السكان الأوروبيين المستوطنين . وكان المجتمع الآخر - وهو المجتمع المختلط من الأوروبيين والشرقين المحليين (المسلمين والمسيحيين) . يعني الحفاظ على السكان المحليين واستعبادهم ، واستخدامهم كمصدر للدخل وذلك عن طريق استخدام النفوذ السياسي والعسكري على السكان المحليين.

= ونعرف أيضاً أن هؤلاء العبيد (أسرى الحرب) لم يعملوا في مجال الزراعة ، على الرغم من أنهم أحياناً كانوا يستخدمون في الأعمال المنزلية. وفي الغالب كانت المصادر الصليبية تخلط بين هؤلاء الأسرى (العبيد) وبين صغار الاقنان . (المؤلف) .

والحقيقة أن الواقع الديموغرافي (السكاني) هو الذي كان يقرر أحد هذين الاختيارين والنوعين من المجتمعات . وتقدير المصادر التاريخية عدد الصليبيين المحاربين الذين حاصروا مدينة بيت المقدس (في يولية ١٠٩٩ م) بحوالى عشرين ألفا . وكان عدد أفراد هذا الجيش الصليبي كبيراً ، واستطاع هذا العدد أن يصبح عاملاً مهماً في احتلال الأرض المقدسة في فلسطين وبلاد الشام والاستقرار بها . وبعد شهور قليلة - وفي نهاية عام ١٠٩٩ م - تضائل عدد الصليبيين بشكل خطير وتقلص إلى مئات من الأسر والفرسان والعامرة . فلم تكن الأرض التي استقر بها الصليبيون في المنطقة العربية خالية من السكان أو مأهولة بها . وهنا لما الصليبيون إلى طرد وابعاد السكان المحليين (كما حدث في المدن العربية التي احتلها الصليبيون قبل عام ١١١٠ م) وأصبح هذا الطرد والإبعاد للسكان المحليين سلوكاً صليبياً عملياً ، إذ تقاطرت موجات من الأوروبيين المهاجرين إلى هذه المناطق ، وأصبح لديهم الاستعداد النفسي للاستقرار الدائم في هذه المدن والمناطق الجديدة التي احتلها الصليبيون في منطقة الشرق العربي الإسلامي والعمل كفلاحين . بيد أن مهنة الزراعة والفلاحة لم تكن من المهن التي تروق للصليبيين في أي وقت من أوقات الوجود الصليبي منذ البداية والنهاية . فقد كانت المدن والقرى الفلسطينية مأهولة بالسكان المحليين ، الذين قاموا بزراعة الأرض ولا سيما هؤلاء الفلاحين المحليين الذين يقطنون القرى المحيطة بالمدن . وانتشرت قبائل البدو الرحيل على امتداد حواف الحدود بين الأقطار الإسلامية ومناطق السيادة الصليبية . ومن ناحية أخرى ، فإن الفرسان الصليبيين لم يكن يتخيّلوا أبداً أنهم سوف يمارسون مهنة الزراعة في المناطق الصليبية . وإذا كانت حياتهم السابقة في مجتمعاتهم الأوروبي وتدريباتهم على الفروسية تعدّهم لهمة الحرب فقط دون سواها من المهن الأخرى ، فإنهم اعتمدوا في حياتهم وكسب أرزاقهم على الإيجارات النقدية وأعمال السخرة التي فرضت على الفلاحين ومستأجري الأرض الزراعية في مجتمع زراعي . وعلى الرغم من أن الصليبيين من غير النبلاء كانوا في الأغلب ينتمون إلى طبقة الفلاحين فإن هؤلاء لم يصبحوا أقناناً حتى ولو استمر هذا الصليبي غير النبيل هذا لم يرغب في أن يصبح فلاحاً مستأجراً . وبالإضافة إلى ذلك ، فإن معظم المهاجرين الأوروبيين إلى المملكة الصليبية قد أجبروا على الإقامة في المدن الصليبية لاعتبارات سكانية (ديموغرافية) وأمنية . وعلى الرغم من أن الصليبيين قد طردوا السكان المحليين من المدن ، فإنه كان من المستحيل الاستغناء عن السكان المحليين في القرى حيث مراكز الانتاج الزراعي .

لقد ساهمت الظروف السابقة في أن تفرض على الصليبيين نمطاً واضحاً من المعايشة مع السكان المحليين : فلم يعتزم الصليبيون لأن يكونوا منتجين للمحاصيل الزراعية الغذائية ، أو منتجين لأى نوع آخر من الشروء، إذ أنهم اعتبروا أنفسهم طبقة حاكمة، تستغل السكان المحليين اقتصادياً . ولذا أصبح لزاماً على السكان المحليين انتاج الغذا ، للصليبيين عن طريق الضغط السياسي والعسكري الصليبي عليهم. وهكذا أصبحت العلاقة بين الحكام الصليبيين الغزاوة وبين السكان المحليين منذ بداية الوجود الصليبي علاقة نهبية بين مستغل صليبي وسكان محليين تعرضوا للابتزاز والاستغلال .

ولم تكن مثل هذه العلاقة النهبية بين الحكام والمحكومين أمراً غريباً في المناطق التي احتلتها أوروبا في نفس الفترة المعاصرة . وتمثل السمة التي كانت تميز الحركة الاستيطانية الصليبية فيحقيقة أن الأفكار العامة التي قُبضت بشكل مباشر عن الفزو الصليبي ظلت مستمرة وباقية طوال فترة الوجود الصليبي التي استمرت زهاء قرنين من الزمان. وكان الوضع الاستيطاني هدفاً حتمياً من أهداف الغزاوة الصليبية من أجل استمرارية اطار التعايش بين الصليبيين وبين السكان المحليين . وأصبح الأساس الاقتصادي لسياسة الاستيطان عقيدة الأيديولوجية الاجتماعية والدينية للصليبيين . وهنا أخفقت كل محاولات إبعاد السكان المحليين عن القرى ويات على المجتمع الصليبي استيعاب هذه الطاقات المنتجة التي تقوم بزراعة الأرضي وهي الطاقات التي أصبح لها ضرورة قصوى على المستوى الاقتصادي والغذائى للمجتمع الصليبي اللاتينى .

لقد قدر للصليبيين أن ينشئوا مجتمعاً صليبياً مزدوجاً . وكان استخدام مصطلحات مثل الغزاوة ، والمقهورين ، والمستغلين ، والذين تعرضوا لهذا الاستغلال مناسباً تماماً ويتافق مع الواقع الاجتماعي ، ولكن ندرك المعنى الفعلى لهذه المصطلحات يجب علينا أن نذهب إلى نقطة أبعد من دلالاتها الاقتصادية إلى حد بعيد. ومن المرجع ، أن الاستغلال الصليبي للسكان المحليين كان أقل قسوة وحدة من الاستغلال والابتزاز الذي تعرض له هؤلاء السكان على يد الحكام المسلمين خلال فترة السيادة الإسلامية لهذه المناطق ، وأيضاً أقل قسوة وحدة من المعاملة التي لاقاها الفلاحون المحليون في الأقطار الإسلامية المجاورة للملكة الصليبية. وكثيراً ما فقد الفلاح المحلي أملاكه ومتلكاته منذ زمن طويل، وتحول إلى فلاح تابع لأحد كبار مالك الأرضية الزراعية المسلمين ، أو تابع لأحد تجار المدينة الأثرياء ، أو تابع لهيئة دينية

اسلامية وهى «الأوقاف الإسلامية». وكما ذكرنا آنفا فقد كان الفلاح المحلي يعاني من استغلال وظلم الحكام المسلمين من الناحية الاقتصادية ، هذا الاستغلال الذى كان يفوق استغلال وظلم الحكام الصليبيين له. ولم تكن المملكة الصليبية الجديدة أكثر ظلماً وتعسفاً للسكان المحليين، باستثناء المضايقات والمشاق الطارئة المتعلقة بالحرب أو المتعلقة باستبداد السادة المحليين الصليبيين التي تعرض لها هؤلاء السكان . بيد أن الدور الاستغلالى والاستبدادى الذى قام به الحكام الصليبيون كان يهدف إلى إنشاء إطار كامل للعلاقات بين الحكام الصليبيين والحاكمين من السكان المحليين . وكانت الجماعة المحلية التي عانت من قسوة وجور واستغلال الحكام المسلمين تمثل جزءاً من نفس المجتمع الإسلامي- إذ كانت قسوة وصرامة الحكم الإسلامي تمثل معتقداً مهماً من معتقدات المجتمع الإسلامي- وبالإضافة إلى ذلك، فإن الفلاح المسلم كان ينتهي إلى نفس الكيان الثقافي الذي ينتهي إليه الحاكم المسلم المستغل والجائز. إذ كان على هذا الفلاح المسلم أن يتقبل ويرضى بقدر ونصيبه في هذه الحياة الدنيا ويزمن دون استياء أو قنوط بهذا القدر ، وذلك أشبه بما كان يحدث للقون في أوروبا العصور الوسطى، أو أصبح على هذا المسلم أن يعتبر استغلال وظلم حكامه المسلمين له بمثابة عقاب دنيوي لذنبه وأثامه التي اقترفها في حياته الدنيا . وعلى الرغم من أن الفكرة الاجتماعية المتداولة وتعاليم الدين الإسلامي كانت تدين وترفض قسوة وجبروت كبار ملاك الأرض الزراعيين من المسلمين والحكام الجائزين ، فإنه لم يكن هناك شعور من جانب هؤلاء الجائزين بالخزي من هذه القسوة ولكن تناهى شعور الاستياء والسخط لدى السكان المحليين بسبب الظلم الاجتماعي والاقتصادي الذي لحق بهم. وكان نفس الاستغلال الذي لحق بالسكان المحليين على يد الحكام الصليبيين يعني شيئاً مختلفاً . إذ أن الاستياء والنفور من جانب السكان المحليين لم يكن ذات صبغة اقتصادية ، بل كان ذات صبغة دينية. إذ كان الشعور بالخزي والإذلال الذي انتاب السكان المحليين بسبب خضوع السكان المسلمين لحكام صليبيين مسيحيين يختلفون معهم في العقيدة ، ومن الواضح أن هؤلاء السكان المحليين المسلمين اعتبروا مثل هذا الخضوع أمراً لا يرضي عنده الله سبحانه وتعالى. فقد كان الحاكم الصليبي المستغل غريباً ، وعدواً للإسلام ، ومدمراً للدين الإسلامي. الأمر الذي أدى إلى وجود هوة سحيقة ومأذق من الصعب تقبل من المستحيل اجتيازه ، هذه الهوة التي كان يمكن علاجها عن طريق المعاملة اللينة من جانب الحكام الصليبيين تجاه السكان المحليين.

وهكذا لم يحظ الحكم الصليبي بقبول السكان المحليين على المستويين الأيديولوجي والواقعي العملي. فلم يحدث اندماج بين هؤلاء السكان المحليين وبين الصليبيين وأصبحت عملية التقارب وال العلاقات الودية بين الطرفين الصليبي والإسلامي أمراً عسيراً ، حيث رفض كل طرف الطرف الآخر. لقد كان استمرار الوضع الاستيطانى الصليبي ذا أهمية قصوى وثمة سؤال وهو لماذا استمد الوضع الاستيطانى الصليبي ؟ لماذا لم يتغير هذا الوضع الاستيطانى طوال فترة الوجود الصليبي التى استمرت قرنين من الزمان ؟ تلك أسئلة يمكن أن تنبول بخاطر الباحث ، واعتقد أن السبب الواضح لهذا يتمثل فى اعتماد الغزاة الصليبيين على السكان المحليين المقهورين اقتصادياً ولاسيما فى غذائهم اليومى. وأصبح هذا المطلب وهذه الحاجة تمثل أهمية لدى الصليبيين تفوق سيادتهم السياسية على هؤلاء السكان. ونظراً لأن الصليبيين قد انتهوا سياسة كانت ترمى إلى نبذ ورفض عملية التقارب بين السكان المحليين والصليبيين فإن هذه السياسة استطاعت أن تفوض أساس النظام القائم وأن تحبط محاولات الاندماج الاجتماعى بين السكان المحليين وبين السكان الصليبيين. وكان الاختلاف الأيديولوجي بين الفرنجية وغير الفرنجية عقيدة الغزاة الصليبيين. بيد أن هذا الاختلاف لم يكن من الضروري أن يحدث وضعاً اجتماعياً ثابتاً لا يقبل التغيير . ولاشك أن العنصر البشري فقط هو الذي فرض هذه الاستمرارية للوضع الاستيطانى الصليبي . فلم يكن الغزاة الصليبيون هم فقط الذين جنوا وقطعوا الشمار الدائمة للفزو بل شاركهم في ذلك أيضاً ذرياتهم وجموع المهاجرين الأوروبيين الذين تقاطروا إلى هذه المناطق الصليبية في المستقبل . واعتمدت مشاركة هؤلاء المهاجرين الأوروبيين على أساس انتتمانهم لهذا التراث المسيحي والعقيدة المسيحية الكاثوليكية ، ومن وجهة النظر الصليبية الكاملة اعتمدت هذه المشاركة أيضاً على أساس الصفة المشتركة للتتراث اللاتيني الذي يجمع بين هؤلاء المهاجرين الأوروبيين.

ويعکن أن يؤدى بنا هذا السبب إلى الافتراض بأن مسلم محلى قد ارتد عن ديانته واعتنق المسيحية ، سوف يحصل على كافة حقوق المواطننة في المجتمع الصليبي. والحقيقة أن قانون مملكة بيت المقدس اللاتينية كان يدعم مثل هذا . بيد أن أعداداً كبيرة من المسلمين الشوام المقهورين لم يتحولوا إلى الديانة المسيحية . ومن المؤكد أن عملية الارتداد إلى الديانة المسيحية بين المسلمين كانت تتم بشكل فردى ولم تكن ظاهرة جماعية. وكان يمكن استيعاب

المجتمع الصليبي لم يتحول إلى المسيحية من المسلمين. ومن المعروف أن الشخص الذي يعتقد دينًا جديداً لم يقطع صلته فقط بديانته السابقة وبأرباب هذه الديانة من أخوانه في الدين بل كان أيضًا يلتجأ إلى تعلم لغة أخيه الجدد في الدين وأعني لغة الصليبيين وهي اللغة الفرنسية، وأيضاً المذهب الكاثوليكي، والاندماج الاجتماعي في أية طبقة اجتماعية من طبقات المجتمع المسيحي الصليبي الجديد (طبقة النبلاء أو طبقة البرجوازية). وكان من الممكن حدوث مثل ذلك إذا اعتبر المجتمع الصليبي هذا الارتداد إلى الدين المسيحي (التنصير) وسط المسلمين المحليين هدفاً جديراً بالأهمية وذا قيمة ، واعلان النشاط التنصيري المناسب في هذه المناطق ، سواء في المجال الدين أو الثقافي أو الاثنين معاً . وتكون المخصوصية التي تيزن المملكة اللاتينية في بيت المقدس في حقيقة أن المجتمع الصليبي لم يكن مجتمعاً تنصيرياً ولم يقم الصليبيون بأى نشاط تنصيري. لقد كانت الأسس والعوامل التي قامت عليها السيادة الصليبية في المناطق العربية تعارض مثل هذه الجهد التنصيرية. وينبع جاك الفيتري *Jacque de Vitry* أسقف كنيسة عكا في الربع الأول من القرن الثالث عشر البلادي باللائمة القاسية على الصليبيين الذين أهملوا النشاط التنصيري. وكان يرى هنا الأسقف الأوروبي أيضاً أن تقديم موعظة دينه تخدم العقيدة المسيحية للمنشقين المسيحيين، والهرطقة ، وال المسلمين ، لهى من الأمور الأكثر أهمية وخطورة عن أي شيء آخر . بيد أن دهشة جاك الفيتري أسقف عكا واستهجانه لسلوك الصليبيين قد وجدت معارضة- وكان هذه الدهشة متناقضة في جميع الأحوال - من جانب الصليبيين في المملكة اللاتينية ا فقد كان الصليبيون يعدون أنفسهم للحرب والموت من أجل عقيدتهم المسيحية، وليس من أجل القيام بهمزة التنصير.

ومن الناحية النظرية ، يمكن أن تخيل وضعًا مختلفاً . وثمة سؤال يطرح نفسه وهو هل كان من الممكن المحافظة على النظام الاقتصادي والاجتماعي للمجتمع الصليبي بعد عملية تحول المسلمين إلى الديانة المسيحية؟ وبعد كل هذا ، فإن أي قنـ *Serf* أوربي كان مسيحيًا مثل سيده ، وعندئذ بدأ يظهر في أوروبا نمطاً من القنـية . وكانت امكانية التحول إلى الديانة المسيحية دون تغير في الوضع الاجتماعي أمرًا غير عملي على أرض الواقع . وعلى أي حال، فقد افتقرت ظروف التنصير والتحول إلى الديانة المسيحية خلال فترة الوجود الصليبي في بلاد الشام وفلسطين إلى استيعاب البواعث والحوافز المادية.

وفي هذا السياق ، كان وضع المسيحيين الشرقيين أكثر أهمية حيث قام هؤلاء المسيحيون الشرقيون بتقديم العون للنظام الاستيطاني الصليبي. وهنا لم يعتبر الصليبيون المسيحيين الشرقيين عدوا لهم، بل تعاملوا معهم على أنهم طائفة مسيحية تختلف فقط في المذهب مع الصليبيين (الكاثوليك) . وبالإضافة إلى ذلك، فإن الأيديولوجية التي رفعها الصليبيون في أثناء الحملة الصليبية الأولى كانت ترفع شعاراً براقاً هو تحرير المسيحيين الشرقيين من ظلم ونير الحكم المسلمين . وهنا كان المسيحيون الشرقيون يشكلون جماعة مسيحية كبيرة، وهي الجماعة التي حافظت على أماكن اقامتهم وأقاليمهم . وكان المسيحيون الشرقيون الذين لا يحتاجون إلى عملية الارتداد - كما كان الوضع بالنسبة للمسلمين - قادرين على الاندماج والوحدة في البنية السياسية للمجتمع الصليبي الأوروبي . ولم يحدث مثل هذا الاندماج على أرض الواقع، وتركت هذه الجماعات المسيحية الشرقية خارج نطاق المجتمع الصليبي المنتصر والظافر.

وفي القرن الثالث عشر الميلادي بذلت الهيئات الدينية المتسلولة (التي كانت تعيش على الصدقات) جهوداً مضنية من أجل القيام بالنشاط التنصيري في المناطق الصليبية في بلاد الشام وفلسطين ، وتوحيد الكنيسة المسيحية العالمية . وخلال مدة ما توصلت هذه الهيئات الدينية المتسلولة إلى اتفاق مع الطوائف المسيحية الشرقية مثل : المارون ، والأرمن ، واليعاقبة ، والنمساطرة . وباستثناء المارون ، لم يتم إنجاز أي شيء في هذا السبيل . فقد انقسمت الكنائس الشرقية وتفرعت على أساس إقليمي ، ومارست جماعاتها الدينية سياسات مستقلة ومنفصلة . وفي الغالب ، كانت هذه الطوائف الدينية الشرقية تعارض زعماءها الرسميين لأسباب نفعية ، ومن وقت آخر حاول أساقفة هذه الطوائف الدينية الوصول إلى اتفاق مع كنيسة روما على أسس مشابهة تتعلق بالوحدة.

بيد أن معارضة رجال الدين الصليبيين للسياسة الجديدة لكنيسة روما كانت ذات أهمية . ففي القرن الثالث عشر الميلادي ، حاول رجال الدين الصليبيون فرض الرتب الكنسية اللاتينية (الهيكلية اللاتينية) على الكنائس المحلية ، وهي المحاولة التي جردت أساقفة الكنائس البيزنطية من رتبهم الكنسية ، وجعلت كبار أساقفتهم أساقفة مساعدين للأساقفة اللاتين . بيد أن هذه المحاولة باعدت بالفشل من الناحية العملية . وبحلول القرن الثالث عشر الميلادي ، ظهرت أفكار جديدة في كنيسة روما ، واستطاعت هذه الأفكار أن تفرز صياغات دينية جديدة

يمكن قبولها - على الأقل على المستوى الفعلى - وتهدف إلى اعتراف المسيحيين الشرقيين بسيادة البابوية وسمو كنيسة روما، جنبا إلى جنب مع قبول الاستقلال الذاتي للكنائس المحلية الشرقية . وكان هذا يعني أن هذا التحول في سياسة كنيسة روما قد تم على أساس عرقي وليس على أساس عقدي ديني، وتحول المسيحيون البيزنطيون إلى طاعة رجال الدين اللاتين الكاثوليك في المناطق الصليبية . وأخفقت كل محاولات التبعية هذه ، بداية من الكنيسة الأرمنية في القرن الثاني عشر الميلادي، وتبعها الكنائس البيزنطية ، وكنائس اليعاقبة والملكانيين. ومهما كانت السياسة العامة لبابوات روما الكاثوليك ، فإن رجال الدين الصليبيين لم يكونوا راغبين في في الوحدة مع هذه الكنائس المحلية الشرقية على مستوى كبار رجال الدين (القمة) ، وهي الوحدة التي سوف تبقى على الانشقاق المذهبى بين الكنائس . فإذا كانت هناك وحدة كنسية- فـى صورة غموض الوحدة والاندماج العلمانى- فإنها كانت تعنى اندماجا كاملا بين الكنائس وهىمنة مطلقة لرجال الدين الصليبيين على هذه الكنائس ، ومثل هذه الوحدة تكون من وجهة النظر الصليبية.

وهكذا لم يحدث الاندماج الدينى بين الكنائس المسيحية المحلية والكنائس الصليبية الكاثوليكية ، ويعزو السبب فى ذلك إلى أن رجال الدين الصليبيين قد أرادوا فرض هذا الاندماج الدينى وفقاً لشروطهم الخاصة . وعلى المستوى الدينى والكنسى ، ورفض المسيحيون الشرقيون هذا الاندماج ، وهو الاندماج الذى لم يحدث فى إطار الدولة والمجتمع . ومن المؤكد أن وضع المسيحيين المحليين الشرقيين كان أفضل حالاً من المسلمين ، أو اليهود أو السامرة . وعلى الرغم من تفضيل الصليبيين للمسيحيين المحليين دون الطوائف الدينية الأخرى على المستوى العملى، فإن قانون المملكة الصليبية - بشكل أساسى- لم ينحهم أى امتياز أو أى وضع يختلف عن باقى السكان المحليين. وهكذا فإن الحقيقة التى تقول إن المملكة اللاتينية فى بيت المقدس لم تقم بأى دور تنصيرى* (هذا الدور الذى يشبه ما قام به الرجل الأبيض فى أوروبا فى العصر الحديث) ، قد أدت إلى حرمان هذه المملكة الصليبية من العصاد الروحى والدينى لوجودها ، باستثناء قيامها بدور الحارس والمحامى للأماكن المقدسة المسيحية . فلم يكن للملكة الصليبية أى ثقل دينى، باستثناء تبعية كنيستها للكنيسة الكاثوليكية العالمية فى روما. إذ كان وضع الأرض المقدسة فى فلسطين وبلاد الشام جزءاً شرعياً من التراث

* الواقع أن عدم قيام الصليبيين بأى نشاط تنصيرى فى منطقة الشرق العربى الإسلامى ينفى الأسس الدينية للحركة الصليبية (المترجم).

المسيحي، وهذا يعني ببساطة أن امتلاك هذه الأرض يعد أمراً مشروعًا للمسيحيين الكاثوليك . فلم يحول الصليبيون هذه المناطق العربية إلى قطر مسيحي ، بل قاموا بغرس مجتمع مسيحي للعيش في فلسطين ليكون بمثابة عامل من عوامل الهيمنة والسيطرة الصليبية على بلاد الشام وفلسطين ويمكن أن تعتبر عدم التحول هذا بمثابة إفلات أيديولوجي للداعوي الدينية التي رفعها الصليبيون من أجل السيطرة على الأرض المقدسة . فلم يقم الصليبيون بطرد سكان هذه المناطق العربية التي خضعت لسيطرتهم ولم يندمج الصليبيون اجتماعياً مع المسيحيين المحليين من أهالي هذه المناطق . لقد كانت المملكة اللاتينية في بيت المقدس مملكة أرضية من وجهة النظر العلمانية ، لا تتمتع بمكانة خاصة بصرف النظر عن الحقيقة القائلة بأن هذه المملكة شيدت في أعقاب الغزو الصليبي للأراضي المقدسة في فلسطين وببلاد الشام . وكان الصليبيون بعد الحملة الصليبية الأولى ينشدونبقاء المملكة الصليبية وضمان وجودها .

لقد ناقشنا أشكاليات خلق مجتمع مندمج من وجهة نظر الفزاعة الصليبية . وفي هذا السياق ، ربما تعنى كلمة اندماج أشياء كثيرة ، مثل تحول إلى العقيدة المسيحية ، واستيعاب إجمالي وقبول متدرج للمجتمع المقهور في إطار الدولة والمجتمع الصليبي . ومن الواضح ، أن هذا الاندماج الاجتماعي بين المجتمعين الإسلامي والصليبي لم يعتمد على الصليبيين فقط ، بل كان يتوقف أيضاً على رغبة أولئك الذين سيضمهم هذا المجتمع الصليبي الجديد وأعني السكان المحليين ، وكذلك على رغبة هؤلاء السكان المحليين في هجر تراثهم الثقافي والحضاري . فالاندماج الاجتماعي والوحدة كان من الممكن تحقيقه في مجتمع ليس متعدد الأجناس والأعراق ، وعلى الرغم من عدم هجر السكان المحليين لتراثهم الثقافي والحضاري ، فإن عناصر التقاليد والأعراف المنبودة ظلت تؤثر على المجتمع الجديد . وبصرف النظر عن الصياغة الواضحة لسياسة الاندماج الاجتماعي ، فإن نجاح هذه السياسة كان يعتمد أساساً على عاملين: أولاً ثقة السكان المحليين المقهورين في التفوق الحضاري للفزاعة الصليبية وتفوق مؤسساتهم . والعامل الثاني هو تخلى السكان المحليين عن ثقافتهم وحضارتهم - وذلك عن طريق تفكيكهم الاجتماعي وتغيير فط حياتهم . الواقع أن هذا لم يحدث بالنسبة للسكان المحليين في بلاد الشام وفلسطين . إذ كان هؤلاء السكان يشكلون مجتمعاً مترابطاً غرست جذوره في هذه الأرضي منذ قرون عديدة ، ولم يكونوا قبائل متفرقة متاثرة أو قبائل بدوية دائمة التنقل والترحال على الحدود يمكن تفسخ قواها الاجتماعية وتعرضها للتأثيرات الخارجية . فقد ترك الصليبيون السكان المحليين حسب رغباتهم ، طالما أنهم يدفعون الضرائب

المقررة عليهم للسلطات الصليبية . إذ كان عدم إدخال نظام الضياعة المعروف في أوروبا في المناطق الصليبية والاحتفاظ بنظام مجتمع القرية بروسانه وشيوخه التقليديين يعني أن الصليبيين قد نهجوها منذ البداية سياسة عدم التدخل في النظام الاجتماعي التقليدي الذي كان موجوداً من قبل في بلاد الشام وفلسطين . ولم يحاول الصليبيون تحطيم الأشكال والأفاط التقليدية للحياة الاجتماعية للسكان المحليين.

وعلى النقيض من ذلك، فإن السكان المحليين الشوام كانوا يحتقرن الغزارة الصليبية ويضمرون لهم الحقد والكراهة . فقد أشار الفارس والمؤرخ أسامة بن منقذ في مذكراته التي دونها في القرن الثاني عشر الميلادي والتي تعرف باسم «الاعتبار» إلى النظام القضائي الفرنسي كما صور لنا طباع الفرنجة عن قرب، وانتقد واحتقر طباع وسلوكيات وتصرفات الصليبيين دون مواربة أو خشية ، وهذا لا يعني أن ابن منقذ قد رفض إجمالى سلوكياتهم . فقد أعجب أسامة بن منقذ بشجاعة الفرنج العسكرية وامتدح فروسيتهم . وهذا لا يقلل من حقيقة أن أسامة بن منقذ كان ينظر إلى الصليبيين باعتبارهم برأبهة متخلفين حضارياً، وأنهم يتميزون بالقوة الجسمانية كما كان يحتقر دياناتهم المسيحية ويبخل عليهم صفة الكفر والشرك بالله، كما احتقر أيضاً استخدام الشعوذة والخرافات في علاجهم الطبي لبعض المرضى منهم وهي الطرق البدائية في الطب ، وأيضاً انتقد نظمهم القضائية البدائية ، والإجراءات المتعلقة بمحاكمهم لفض النزاعات بينهم ، وهي الوسائل البدائية الغريبة في إقامة البنية. وكانت مذكرات أسامة بن منقذ المعروفة باسم «الاعتبار» تقتل شهادة أحد أفراد الاستقرارية العربية الإسلامية المخالصة ، وقلما يمكن مقارنتها بطبقة الفلاحين الفلسطينية . ومع ذلك، فإن ما ذكره أسامة بن منقذ عن الفرنجة الصليبيين قد وجد استجابة سريعة- على الرغم من أن المعلومات التي أوردها في مذكراته كانت صحيحة وأقل تحريفاً- وسط الطبقة الدنيا من السكان المحليين الشوام . وبعيداً عن احتقار السكان المحليين للصليبيين ، فإن هؤلاء السكان المحليين الشوام اعتبروا أنفسهم أكثر تفوقاً حضارياً من هؤلاء الغزارة الصليبيين.

ويغض النظر عن إقرار وتأييد انتقاد الصليبيين الذي جاء على لسان ابن منقذ في مذكراته، فإنه لا شك أن بداية القرن الثاني عشر الميلادي كانت تمثل مرحلة باكرة من الاحتلال الحضاري الملحوظ بين الشرق العربي الإسلامي والغرب الأوروبي الكاثوليكي وهو الاحتلال الذي استمر ما يقرب من قرنين من الزمان ، وتركت الحضارة العربية الإسلامية تأثيرها الواضح والملحوظ على الحضارة الأوروبية في العصور الوسطى بشكل يفوق تأثير أي حضارة عالمية

أخرى ، كالمحضارة الرومانية والجرمانية الكلاسيكية القديمة السالفة . فقد شهدت الدولة الإسلامية تطويراً في مجال الفكر، والأدب، والفن، والحضارة المادية، والإنجازات التكنولوجية ، والمعارف الطبيعية، والخبرة الجغرافية- إذا تجاوزنا عن النمط المذهب وظروف الحياة المترفة التي عاشتها الطبقات الشريرة في الدولة الإسلامية- وذلك في الوقت الذي كانت فيه أوروبا تعيش في مستوى حضاري أقل من العالم الإسلامي بكثير. وكان من النادر ادراك الصليبيين لزايا الحضارة العربية الإسلامية في الشرق وإنجازاتها . فمن الناحية الحضارية والثقافية لم يساهم الصليبيون إلا بالنذر البسيط لتدني مستواهم الحضاري، في حين كان المجتمع الإسلامي - على الرغم من حالة التفكك السياسي التي أصابته - كان ما يزال يحتفظ ببعض مقومات قوته وجوده، ولم يكن من السهل تفككه أو انهيار على أثر صدمة وهزة استعمارية خارجية حتى لو افترضنا أن مثل هذه الهزيمة والصدمة كانت مقصودة بشكل قوي . ولم يحدث اندماج اجتماعي أو سياسي بين المجتمعين المتنافرين الإسلامي والصليبي، ولم يبق هناك شكل محدد لهذين المجتمعين الإسلامي والصليبي، فقد كانت المشاعر النفسية والاجتماعية لهذين المجتمعين تخلق اتجاهها عدائياً إزاء بعضهما الآخر، وكتب الكثير عن حالة الاستشراق الحضاري The Orientalization Or Levantization أي يبني المجتمع الصليبي التقاليدي والقيم الشرقية . ومن الصعب أن نغفل الشعور بأن الكثير من هذه الاستنتاجات والنتائج كانت تصطبغ بالصبغة التحررية للعلماء المغالين في التفكير (العلماء والمؤرخين الرومانسيكيين) ففي بعض الحالات حدث استشراق مرغوب فيه ، وكانت هناك محاولة مقصودة لتطبيق سياسة الاستشراق في المستوطنات الأوروبية في مناطق شمال أفريقيا والشرق الأدنى .

ففي غضون عشرة أجيال أي مدة مائة عام وهي فترة الوجود الطبيعي للمجتمع الصليبي في المنطقة العربية استطاعت البيئة العربية الشرقية بلاشك أن تترك تأثيرها الواضح على المستوطنات الصليبية في منطقة الشرق العربي الإسلامي. بيد أن هذه الحقائق يمكن تصوّرها في وضعها الصحيح. فتعبير الاستشراق الحضاري الذي كان ينطبق على الصليبيين يتعارض مع التعبير الحديث لهذه الكلمة والذي يعني نبذ السلوك المحلي كعملية ناجحة لهذا الاستشراق. وخلال القرن الثاني عشر الميلادي لم ينتقص من قدر الأوربيين الصليبيين الذي عاش في منطقة الشرق العربي لكونه مستشرقاً . وعلى العكس من ذلك ، فإن الاستشراق كان يعني للأوربيين الوصول إلى مستوى حضاري وثقافي أعلى من نظيره في الغرب الأوروبي. فالدマاثة ورقة

الطباع الإسلامية في مواجهة القسوة والغلظة التي ميزت المجتمع الصليبي، والرافاهية والترف في المجتمع الإسلامي في مواجهة قسوة الحياة في المجتمع الصليبي وسعة الأفق في الحضارة الإسلامية التي كانت تناسب مناطق السيادة الإسلامية مقابل الجهل وضيق الأفق الأوروبي الصليبي، وتعتمد دراسة كل هذه الأشياء، أساساً على الكتاب المقدس (المهدىين القديم والجديد أو التوراة والإنجيل)، وعلى كتابات آباء الكنيسة التي كانت تصور هذه السمة الغربية، وهكذا فإن مثل هذه التناقضات في معالم كل من المضارعين الإسلاميين والأوربيين كانت مثل تهديداً لعقلية الاستشراق الحضاري بين الصليبيين وذلك للتفاوت الحضاري بين المجتمعين.

وقد ذكرنا المعنى الموضوعي لمصطلح «الاستشراق»، ووصلنا إلى رأي مستقل بشكل متزامن، بيد أن مصطلح الاستشراق وما يحمل من معنى كان يتعارض مع تطور الأوروبيين المعاصرين في منطقة الغرب الأوروبي، والذين عالجوها هذا الأمر ونظروا إليها بقياس مختلف. واعتمدت نظرية الأوروبيين على صحة دياناتهم المسيحية دون الإسلام، وأن جنسهم هو الأرقى بين الأجناس البشرية، بغض النظر عن التطور الحضاري في العالم العربي الإسلامي. فقد اعتقدوا أن الاستشراق يعني التخلي المرذول المحتقر ويعني أيضاً التردد المذموم، وعدم الكرامة، والاعتقاد في تأملات وأفكار سخيفة، وتستر على جريمة شرعاً، نفذتها قوى الشر البشري، وأن الاستشراق أيضاً يتعارض مع الحقائق التي أورث بها الأنجليل المقدسة، ويعکن الاستشهاد بكثير من النصوص التي أوردها المؤرخون اللاتين لكنه تصور هذا الاتجاه. ومن أبرز هذه النصوص التي ثقل الاتجاه المعارض للتزعنة الاستشرافية مجموعة الخطب اللاذعة الشهيرة التي ألقاها جاك الفيتري Jacque de Vitry أسقف كنيسة عكا في القرن الثالث عشر الميلادي، والذي كان أحد شهود العيان*. فالاستشراق بمعناه الحالى المذموم يعني أن المؤسسات الصليبية كانت تناسب تماماً تلك المناطق العربية التي نشأت فيها. ومن الواضح أن

* ولاشك أن الأوروبيين كانوا يجهلون الأوضاع الحضارية في منطقة الشرق العربي الإسلامي. فنجد المحاج الألماني ثيودور بيتش Theoderich الذي زار الأماكن المقدسة في فلسطين في عام ١١٧٢ م يذكر لنا وصفاً تفصيلياً لكل الأماكن المقدسة التي زارها في أثناء رحلة الحج دون أن يذكر أية معلومات عن نمط حياة السكان المحليين. ويضيف الرحالة الألماني فورنزيرج Würzburg الذي زار الأماكن المقدسة في فلسطين في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي في الفصل الأخير من مؤلفه بأنه قد أغفل عن ذكر ووصف الكثير من الكنائس الصغيرة التي وجدت هناك وهي الكنائس التي حظيت باهتمام ورعاية كل شعوب المنطقة على اختلاف أجناسهم (المؤلف).

الاتجاهات المزددة لسياسة الاستشراق كانت ترتبط أساساً بالطبقة الدنيا من المجتمع الصليبي ولم يكن اتجاهها عاماً بين باقي طبقات المجتمع الصليبي.

وعلى الرغم من مزايا وفوائد سياسة الاستشراق وتشجيع البيئة العربية التي وجد فيها الصليبيون، فإن الاستشراق بين المجتمع الصليبي كان محدوداً بسبب الاتجاه الصليبي الرئيسي الرافض له. وما تشير إليه النصوص التاريخية والمصادر التاريخية العديدة من احتكاك حضاري بين الصليبي وبنته الجديدة في منطقة يلقى ظللاً فاتحة على صورة هذا الاحتكاك ويشوهها . ويصبح تصنيف هذه الاحتكاك الحضاري بين الصليبيين وبين منطقة الشرق العربي أمراً ممكناً وذا معنى ، إذا استطعنا أن نقف على تفاصيل التفاعل الاجتماعي المستمر بين الصليبيين في المناطق التي كانت تتمتع بالحكم الذاتي في المملكة اللاتينية .

ولاشك فإن معظم الاحتكاك الحضاري بين الصليبيين وبين الحضارة العربية الإسلامية كان على مستوى المضاراة المادية . ومهما كان شكل علاقة المستوطن الصليبي بالمواطن المحلي، فإن هذه العلاقة لم تستطع أن تخفي روح الصراع والعداء والمواجهة الطويلة بينهما ولاسيما في أثناء الحروب العسكرية بين الطرفين الإسلامي والصليبي . فقد تكيف الصليبيون مع مظاهر الترف الشرقي . وحتى المتعمسين الدينيين من الصليبيين لم يستطعوا إنكار أفضلية وأريحية الحياة في الشرق، وإن كان الرهبان قد انقدوا حياة الترف التي عاشها الصليبيون في الشرق. وقد أشار أحد الرهبان الأوربيين الذين جاءوا من وراء جبال الألب وهو لودولف فون سيخيم Ludolph Non Suchem إلى هذه المعارضة وهذا الانتقاد قائلاً: «إن شوارع مدينة عكا نظيفة إلى حد بعيد، وقد شيدت منازلها المرتفعة من الحجر المنحوت ، وزينت منازل عكا بالنواوف الزجاجية والرسومات الملونة الرائعة ، ولم تكن هذه القصور والمنازل في عكا لتوفير السكن فقط، بل أيضاً كانت من أجل توفير الرفاهية والسعادة ولم يشهد العالم أجمع مثل جمال وفخامة قصور مدينة عكا».

وكانت شوارع عكا تفرش بالسجاد والفرش في أثناء المناسبات الدينية، وقد زينت هذه الفرش والسجاد بخيوط ذهبية وفضية . وسوف يتذكر المرء المستودعات الست الكبيرة التي شيدت في مدينة صور. وكذلك قصر أمراء بيروت الصليبيين الذي وصفناه آنفاً وذلك لكي ندرك على الفور أن الصليبيين كانوا أكثر إقبالاً على النمط الترفي للحياة الذي لسوه في الشرق. لقد قبل الصليبيون وارتضوا نفط المنازل ذات السقوف المسطحة ، والتي كانت ملائمة ومفيدة لظروف الشرق الاقتصادية والاجتماعية، إذ كانت نوافذ هذه المنازل ضيقة ذات واجهات

زجاجية مزخرفة ، وكانت المنازل تشييد من الأحجار ، تلك الأحجار التي كانت بثابة مادة عازلة ضد الحر والبرد . وهنا اكتملت ثورة التغيير في البناء لدى الصليبيين ومع ذلك فإنه يمكن تحديد مجال هذا التغيير كما أن هذا البيان يمكن أن يكون وافيا بالغرض . وقد ذكرنا من قبل أن الصليبيين قد أعرضوا عن الإقامة في القرى والمناطق في منطقة الشرق العربي الإسلامي وأثروا السكنى والإقامة في المدن لأسباب أمنية*. وحتى هذه المدن التي قام بها الصليبيون لم تكن من تشيدهم، وباستثناء مدينة عكا - التي أضافوا فيها سكنا لهم - لم يضف الصليبيون أحياً جديدة لهم في المدن التي أقاموا بها بل أنهم سكنا منازل المسلمين بعد طردهم منها في أعقاب الفزو الصليبي لهذه المدن العربية . وهكذا فإن تصميم آية مدينة صليبية من حيث الأسواق والمنازل قد جاء وفق النمط الإسلامي مالم تكن هذه المدينة ذات أصل قديم . ومن المفترض أن الصليبيين قد شيدوا منازل جديدة على النمط المحلي في هذه المدن لطبقة العامة منهم .

وإذا انتقلنا من شكل المنزل إلى شكل القصر الصليبي - ما لم يكن هذا القصر مقرا لإقامة الحاكم المسلم المحلي السابق - فإننا نجد أن هذا القصر الصليبي كان تقليدا للقصر الشرقي مثلما كان الوضع في القصر الصليبي في بيروت ، حيث امتزجت فيه العناصر المعمارية الإسلامية والبيزنطية . وما يذكر أن المقارنة بين الأبراج والمحصون التي شيدت في أوروبا العصور الوسطى في القرن الثاني عشر الميلادي وبين الأبراج الإسلامية المعاصرة لها لا تحتاج إلى تفسير إضافي للتشابه بينهما . ولاشك فقد تخلى الصليبي عن تصوره وفكرته التقليدية عن تلك المساكن المناسبة للفارس والنبيل . وكانت المزايا الفنية والتقنية لنمط وشكل البيوت في الشرق عظيماً ييد أن التعصب الأهوج اللاعقلاني من جانب الصليبيين قد منعهم من تبني هذا النمط الشرقي في بناء الدور .

لقد كانت العمارة العسكرية والدينية الصليبية بمنأى عن التأثير الشرقي ، فالقباب التي كانت تعلو الكنائس الشرقية قبل الوجود الصليبي أو التي كانت تعلو المساجد قلما كان

* آخر الصليبيين الإقامة في المدن بدلا من القرى ل توفير الأمان والأمان لهم في المدن حيث وجود الحامية الصليبية وجود المحسنة والقلع والأسوار التي كانت من أبرز سمات المدن التي سكناها الصليبيون في المنطقة العربية الإسلامية . كما أن شعورهم كأقلية سكانية ولد فيهم الخوف من الإقامة في القرى خشية اعتداء السكان المحليين عليهم . بالإضافة إلى أن الصليبيين لم يعملوا في الزراعة إذ كانوا يعتبرون أنفسهم محاربين فقط . (المترجم) .

الصلبيون يستخدمونها في مبابينهم الجديدة. فقد شيدت الكنائس الصليبية في فترة باكرة وفقاً للنمط المعماري الرومانسي من حيث التخطيط والمظهر الخارجي ، ورُبما ظهرت الزخرفة الشرقية على افريز أو عمود معماري، وهذا خير شاهد على حقيقة أن البنائين المحليين الشرقيين قد شاركوا في تشييد مثل هذه المنشآت والمباني الصليبية . وكانت الأعمدة المعمارية التي تُنسب إلى كورنثية والتي تتسم بالطابع البيزنطي في العصر الباكر بثابة الومضة الأخيرة للفن المعماري المحلي الذي كان مازال معروفاً لدى الفنانين المسيحيين الشوام. وربما تحولت المذكورة بسهولة إلى برج الكنيسة، بيد أن الصليبيين عندما شيدوا أبراج كنيسة الضريح المقدس اقتبسوا النمط المعماري لهذه الأبراج من النمط المعماري الموجود في جنوب فرنسا آنذاك.

فالاقتباسات المعمارية المحلية لم يتحول الكنائس والأديرة الصليبية إلى النمط الشرقي ، ولم يندمج النمطان المعماريان الشرقي والغربي معاً في بناء هذه المنشآت الدينية الصليبية. واستطاع الغرب الأوروبي أن يفرض طرازه المعماري الفنى المجازي، وعندما عجز المعماريون الغربيون عن ابتكار أنماط معمارية جديدة فإن هذا العجز المجازي قد فرض عليهم قبول وتبني العناصر المعمارية المحلية التي كانت أكثر ملائمة . ومن المحتمل أن العمارة العسكرية الصليبية قد تأثرت كثيراً بالعناصر المعمارية الشرقية ، وفي الغالب كان استيعاب العمارة العسكرية الصليبية للعناصر الشرقية استجابة للتحدي الإسلامي والمواجهة الإسلامية . بيد أن النماذج المتبقية من الأجزاء الداخلية من الكنائس الصليبية كانت أوربية الطابع من حيث الفكرة والتنفيذ . ويتمثل هذا الطابع الأوروبي في سرادب كنيسة القديس يوحنا في مدين عكا (ومن المحتمل أن هذا السرادب كان مخصصاً لحجرة طعام فرسان الاستمارية) ، وكذلك الجزء الداخلي من الصالة الكبيرة في قلعة الحاج، وحجرات قلعة مونتفورت Montfort المخصصة لفرسان التيوتون ، وحجرات قلعة الاستمارية في بيت جبرين ، والبوابة الرئيسية لقلعة قيسارية. واليوم تدل بقايا هذه الآثار السابقة على التأثير الأوروبي المعماري بصورة أكثر عن الفترة السابقة التي كانت فيها هذه المنشآت مأهولة بالسكان الصليبيين حيث كانت أسفف هذه القصور والقلاع مغطاة بالسجادات والفرش الشرقية . وكان الحكام الصليبيون أكثر ميلاً إلى الترف والأبهة وتمثل ذلك في حجرات الاستقبال الملتحقة بقلاعهم ، وكانوا أكثر ميلاً وشفقاً باستخدام الزخارف المعمارية الشرقية الإسلامية ، والعودة إلى النمط الرومانسي الفرنسي في العمارة أو النمط المعماري القوطي.

وظهر التأثير الشرقي أيضاً على المجتمع الصليبي بصورة كبيرة في مجال الطعام والملابس. فقد استطاع في الطهي الشرقي أن يفتح عالماً جديداً من حيث المذاق والرائحة أمام المستوطنين الصليبيين؛ فقد ظهرت الفاكهة ، والتوابل ، والبهارات التي لم يعرفها الصليبيون من قبل. وعلى أي حال، لم تضف المناطق العربية في فلسطين وبلاط الشام الكثير إلى المائدة الصليبية من حيث طريقة طهي اللحم أو طهي لحم الغزال . إذ كانت الشروة الحيوانية في القطر الفلسطيني فقيرة إذا ما قورنت بحجم الشروة الحيوانية في أوروبا . واستطاع في الطهي الشرقي غزو المستوطنات الصليبية ، وتسرب السرور والرضا إلى المطبخ الصليبي بسبب تزاوج الصليبيين بسيدات بيزنطيات وأرمنيات على مستوى الملوك والأمراء، أو بسبب تزاوج أفراد الطبقة الدنيا من الصليبيين بنساء من الأرمن أو من الشوام اللاتي تحولن إلى النصرانية* ، ومن الأهمية بمكان أن نشير إلى عادة الطهي في المطاعم العامة في المدن الصليبية ، ولاسيما مدينة بيت المقدس. ووُجِدَت مثل هذه العادة وهي طهي الطعام خارج البيوت في مدن الشرق العربي الإسلامي قبل الوجود الصليبي ، وبعد الغزو الصليبي كانت على هذه المطاعم أن تزود الحجاج المسيحيين بالطعام ، هؤلاء الحجاج الذين لم يختلفوا كثيراً عن السياح في عصرنا الحالي. ولئن نعرف انتساب أحد الأوربيين علينا تتبع ما قاله الحاج ثيتمار Thietmar في عام ١٢١٧ عن السوق أو البazar الشرقي حيث قال: «وأهل دمشق أكثر بهجة مثل مدinetهم . فهم يصنعون مختلف الأطعمة الشهية التي لم تخطر على بال إنسان قط، ويتنفسون في صنع أصناف كثيرة من المأكولات وقد رأيت عشرين صنفاً من الخبز أو أكثر، وتذوقت بعض هذه الأصناف من الخبز. ونادرًا ما كان الدمشقة يصنعون طعامهم في منازلهم، وذلك لأنه جرت العادة أن يتم طهي الأطعمة في سوق عام يسمى سوق الطهي، وكانت هذه المأكولات والأطعمة المطهية يحملها العمال حول المدينة لبيعها**.

* كان ارتداد بعض المسلمين الشوام إلى النصرانية يمثل حالة فردية في أضيق نطاق، واعتُقد أن هذا التحول إلى النصرانية كان بفعل الضغط الصليبي والقمع وقد أشار المؤرخ اللاتيني الشهير فوشيه الشارترى إلى ذلك (المترجم) .

** كان من أهم أسواق مدينة بيت المقدس خلال الحقبة الصليبية سوق الطعام المطهي وقد خصص شارع لهذا السوق ، وكان هذا السوق يعرف باسم شارع المكسيبات Malquisinat (المترجم) .

وفي مدن مثل بيت المقدس وعكا - وربما أيضاً في مدينة صور - كان الوسطاء في تجارة هذه المأكولات المطهية من المسيحيين المحليين الأصليين، ويمكن أن نعزّز ذلك إلى إبادة السكان المسلمين في هذه المدن التي سقطت في يد الصليبيين في أعقاب الفزو، كما أن المسلمين قد حرموا من العودة إلى بيت المقدس والاستقرار بها وأصبح محظوظاً عليهم الإقامة بها. وهنا وجد المستوطن الصليبي لأول مرة البهارات والتواابل بكميات كبيرة . وظل الصليبيون لأجيال عديدة يحصلون على السكر والشراب الحلو (بسبب مذاقه الجميل وسعره المعقول) وكانوا يحصلون على هذا الشراب الحلو مباشرة عن طريق مص قصب السكر العجيب أو على شكل عصير قصب حلو. ففي أثناء الحملة الصليبية الأولى، لم يجد فولك الشارترى *Folk of Chartres* كلمات كافية لكي يصف نبات قصب السكر العجيب عندما رأه لأول مرة، إذ قال لقد وجدت الكثير من الأشياء العجيبة المدهشة. وكما نرى اليوم فقد استخدمت نباتات كثيرة من البهارات والتواابل ، وكانت هذه النباتات العطرية تنمو في أراض بعيدة ويمكن الحصول عليه بسعر رخيص . ولم يتجاوز المؤرخ خوانفيلي (مؤرخ سيرة الملك لويس التاسع ملك فرنسا) الحقيقة عندما يقول إن بهارات وتواابل بلاد الشام وفلسطين تأتي مباشرة من الفردوس (الجنة) ، وفي ذلك يقول جوانفيلي: وعلى جانبى نهر النيل فى مصر كانت توجد البهارات والتواابل ، التي يشحنها التجار فى مراكب تسير فى عرض النهر ، وعندما ينبلج الصباح ، كان هؤلاء التجار يعرضون بضائعهم من التواابل والبهارات للبيع. وكانت هناك أنواع من التواابل تباع بالوزن مثل الزنجبيل ، والرواند ، والصبر، وأعشاب القرفة . وقد قيل إن بهارات مناطق بلاد الشام وفلسطين كانت تأتي من الجنة الأرضية إن الرياح تصطدم بأسفل أشجار هذه النباتات العطرية في الفردوس ، مثلما تساعد هذه الرياح في جفاف أغصان الأشجار في غاباتنا في أوروبا ، وما تحمله السفن من هذه البهارات والتواابل يقوم التجار ببيعه بالوزن.

والواقع أن ما كتبه المؤرخ اللاتيني جوانفيلي يرجع إلى النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي ، وهو الوقت الذي استطاعت فيه السفن التجارية الإيطالية والبروفنسالية أن تتنفس وتصل إلى أسواق شامبني المحلية، ولم تكن هذه البهارات غريبة على الأسواق المحلية الأوروبية.

ومن السهل قبول أسباب متعددة الطعام ونكهته الجيدة التي يتم طهيها في المطعم والمطابخ العامة. إذ كان السكر أو عسل النحل يستخدم في صنع الشراب الحلو أو في حشو الفطائر

الشرقية. ويرع السكان المحليون في بلاد الشام وفلسطين خلال الحقبة الصليبية في صناعة المخللات من الليمون والبرتقال والنارنج وذلك لكي يؤكل مع لحم الدجاج والسمك والأطعمة الأخرى، وهي المخللات التي كانت تكسب الأكل طعماً ومذاقاً شهياً . وكانت الأغذية المحفوظة من الكحشري والبرتقال والموز ذات الطعم الحلو، تشبه المربى الصافية وعسل النحل المستخلص من أقراص العسل، واستطاعت كل هذه الأنواع من الأطعمة أن تضاف إلى قائمة الأطعمة الدسمة في شمال فرنسا . ولم يعد المطبخ الصليبي يستخدم الزيد أو دهن الخنزير في طهي الطعام ، وإنما استخدم زيت الزيتون . إذا كان إنتاج الزيتون في المناطق الصليبية وفييراً . لقد استطاع الصليبيون إحياء المجد القديم للقطر الفلسطيني ، من حيث تصنيع النبيذ (الخمور) من الكروم المحلي ، وذلك الإنتاج الذي تقلص في أثناء فترة السيادة الإسلامية في هذه المناطق وذلك لأن الإسلام يحرم شرب الخمر وتصنيعه . وكان التين ، والرمان ، والزيتون والأرز ، والمنطة والبسلة (التي كانت تستخدم كطعم شهي) ، وكذلك الفاكهة العجيبة المنتجة في دمشق في كل فصول السنة والثلوج التي تغطي قمة جبل حرمون والتي تستخدم في صناعة الشراب المخلو المثلج (الشريات) ، كانت كل هذه المنتجات الجديدة بالنسبة للصليبيين ، تظهر منطقة الشرق العربي في أبهى صورة . لقد استطاع التأثير الشرقي في مجال الأطعمة والتذوق أن يتغلب على العرف والتقاليد الأوروبي . وعلى الرغم من استخدام الموائد والكراسي في منطقة الشرق العربي الإسلامي بشكل معتاد ، فإن الفرسان الصليبيين الذين ولدوا في المنطقة العربية قد تعلموا طريقة جلوس القرفصاء في أثناء تناولهم الطعام . وكانت الأطعمة الشرقية تناسب مناخ المنطقة العربية التي احتلها الصليبيون وذلك بشكل أكبر من الأطعمة الأوروبية ، وتعلم الصليبيون في هذه البيئة الجديدة تناول كميات أقل من الطعام . فلم تتفق الشهية والرغبة الجامحة للأكل لدى أهل شمال فرنسا مع ظروف المناخ الشرقي والبيئة الشرقية الجديدة التي عاش فيها الصليبيون . وارتقت نسبه الوفيات بين الصليبيين . وما حدث للمستوطنين من عدم توافق نفسي في هذه البيئة الجديدة ظل قدرًا مشتركاً لجميع الصليبيين الجدد طوال فترة الوجود الصليبي في المنطقة العربية التي استمرت قرنين من الزمان . إذ ساعد المناخ الفلسطيني في إهلاك المئات والآلاف من الصليبيين .

وإذا كان الصليبيون قد أثروا وقبلوا الطعام الشرقي فإنهم تعرفوا أيضاً على عادات ارتداء الملابس الشرقية الفاخرة . فقد كانت الكوفية التي يرتديها الأمير الصليبي تانكرد (وهي نوع من غطاء الرأس) والتي تظهر على أحد وجهي عملته ونقوده تلقى اهتماماً كبيراً ، بيد أن

عزوه هذه الكوفية إلى الاستشراق المضارى للصلبيين يعد أمراً مبالغ فيه. فقد كان الأمير تانكره يتحدث اللغة العربية ، والتى تعلمتها فى جنوب ايطاليا ، مثل رفيقه وابن وطنه ريتشارد من برينكيبيت Richard de Principatu الأمر الذى جعله يستجيب لرسم الكوفية العربية على وجهى عملته . ومهما كان الوضع، فإنه كان من الناحية العملية أن يفطى المرء رأسه بخوذة مبطنة بقماش تقيه حرارة مناخ بلاد الشام . ولاشك أن النبلاء الصليبيين استخدمو الملابس المحريرية، واستخدموا القماش الشرقي المطرد غالى الشمن وذلك فى أثناء الاحتفالات الدينية. وهنا نجد جوانفيل قد اشتري مخملاً صوفياً وحريراً للملكة الفرنسية مرجريت أم الملك لويس التاسع، وهو المعلم الذى سجدت أمامه الملكة احتراماً وتقديساً، واتخذته ضمن الذخائر المقدسة. لقد كانت الإمارات الصليبية بشابة حجر الزاوية والمحطة الرئيسة لانتقال المنسوجات والأقمشة الشرقية بأنواعها المختلفة إلى أسواق أوروبا، وهى الأقمشة التى كانت تحتاج إليها طبقة النبلاء ورجال الدين الكنسيين على السواء ، وكان يمكن للأوربيين تجنب وتفادي الاحتكار البيزنطي لتصدير الأقمشة غالى الشمن من خلال اتصالهم المباشر بأسواق مصر، ودمشق وبغداد، وأيضاً بالاعتماد على بعض الصناعات المحلية فى بلاد الشام . واستخدمت النساء الشرقيات اللاتى تتمنى إلى بيوت الأمرا، والحكام الأصياغ فى شعرهن المستعار (الباروكات) . كما استخدمن العطور وأدوات الزينة، وهى الأدوات التى لم يعرفها النبلاء الصليبيون ولا رجال الكنيسة . وعلى الرغم من أن الصليبيين قد أقرروا هذه العادات المحلية الشرقية فى مجال المأكل واللبس على نطاق واسع، فإننا اكتشفنا وجود بعض العوائق والاتجاه المضاد لتبني الصليبيين الأنماط المعمارية الشرقية .

ولاشك أن المملكة الصليبية قد تعمت بامتياز سن القوانين الرسمية لكونها أول دولة مسيحية فى الخارج . ففى وقت مبكر من عام ١١٢٠م، هدد أعضاء المجلس الكنسى الذى عقد فى نابلس بفرض عقوبة السجن الملكية على كل مسلم يرتدى زياً صليبياً ، وجاء هذا التحريم والتحظر من جانب واحد، إذ لم تكن هناك ضرورة وحاجة لفرض هذا التحريم على الصليبيين من ارتداء الملابس الإسلامية . وجاء هذا الحظر بهدف وضع حد لأى اختلاط ممكن بين السكان الصليبيين والسكان المحليين. وكان تورط الصليبي فى ارتداء الملابس المحلية الإسلامية يعد ضرباً من ضروب الفسق والاتحالف ، وهكذا يمكن القول إن اقرار الصليبيين للأقمشة والملابس الشرقية لايعنى أنهم تقبلوا الزى الذى كان يرتديه المسلمين المحليون . ومن خلال صمت المصادر التاريخية الأوربية عن هذا الموضوع تتضح لنا موجة النقد التى كان

يتعرض لها الصليبيون الذين حاولوا تقليد الأزياء الشرقية الإسلامية ، ويمكن أن نستنتج أيضاً أن الصليبيين اتبعوا طراز وأشكال الملابس الأوروبية . وكان من المخزي أيضاً أن يرتدي المسيحيون الشوام نفس الملابس الفاخرة التي يرتديها المسلمين الشوام ماعداً ذلك النمط المحدد من الخزام أو الزنار الصوفي (والذى كان يعرف في المصادر الصليبية باسم زنار وحزام المسيحية) . وفي الغالب كان الصليبيون يقتلون المسيحيين الشوام ظناً منهم أنهم من المسلمين لأنهم كانوا يرتدون الملابس الإسلامية الفاخرة ويطلقون لحاظهم متشبهين بال المسلمين إذ كان الزي، هو الذي يحدد هوية الشخص الصليبي أو غير الصليبي . وعلى سبيل المثال ، لم ترتدي النساء الصليبيات السراويل ولم يكن السروال جزءاً من ملابسهن ، على الرغم من أنها قد عرفنا أن بعض الأزواج ، من أبناء الطبقات الدنيا في المجتمع الصليبي قد فرضاً على زوجاتهم ارتداء الحجاب ، كما أن أفراد طبقة النبلاء الصليبية كانوا يحصلون على معظم الملابس الشرقية غالباً الثمن من الحكام المسلمين على سبيل الهبة أو الهدية . ولاشك في أن الرأي العام الصليبي كان يعارض ارتداء الصليبيين الملابس الشرقية . فقد حاول هنري الشامي إقامة علاقات ودية مع صلاح الدين الأيوبي فبعث إليه الرسالة التالية :

«تعرف يا سيدي أن استخدام ولبس الزي الإسلامي الذي يرتديه المسلمين من التنك والعمامة أمر يلحق بنا المخزي والعار ولكنني سوف أرتدي هذه الملابس توطيداً لصداقتنا وتجيلاً لشخصك».

ونظراً لأن الزي كان يرتبط بشكل مباشر بالملحظ المادي للشخص ، فإننا لا ندري إذا عرفنا أن الصليبيين قد لبسوا الزي الأوروبي واتبعوا التقاليد الأوروبية في الملابس والأزياء . الواقع أن المحاربين الصليبيين في الحملة الصليبية الأولى كانوا يطلقون لحاظهم . وعندما طلب الملك بلدويون الأول بعض الأموال التي يحتاج إليها بشكل ملح هدد حماده (والد زوجته) الأرماني بأنه سوف يزيل لحيته إذا لم يدفع له هذه الديون المستحقة عليه . وعلى أي حال ، فقد اختفت عملية إطلاق اللحى بين السكان الصليبيين بحلول منتصف القرن الثاني عشر الميلادي . وقتل أسماء الصليبيين الذين أطلقوا لحاظهم والذين ورد ذكرهم في المصادر التاريخية حالة استثنائية . وبنهاية القرن الثاني عشر الميلادي يذكر لنا المؤرخ والشاعر المسلم أسامة بن منقذ إشارات عن أحد النبلاء الصليبيين ، إذ يذكر هذا المؤرخ المسلم أن هذا النبيل الصليبي كان ضخم الجسم حليق الذقن ، وفقط للنمط السادس في أوروبا الوطن الأم .

وما يذكر أن ثمة عوائق واضحة عرقلت عملية تأثير الطوائف الراهبانية ورجال الكنيسة والهيئات الدينية العسكرية بالملابس المحلية الشرقية، ولم نستطع استخلاص بعض الاستنتاجات من وراء هذه الحقيقة لأننا تعامل هنا مع عادات شكلية مألوفة في أوروبا وفي منطقة الشرق الصليبي. فالعباءات الصوفية البيضاء التي كان يرتديها أعضاء الهيئات الدينية العسكرية قد تأثرت بعض الشيء بملابس والأزياء الشرقية إذ كان شكلها يشبه الباءة التي يرتديها المسلمون، والتي أثرت حالياً على شكل العباءة البيضاء المزودة ببغطا، الرأس المنتشرة في معظم شمال أفريقيا ولاسيما في بلاد المغرب العربي. ولاشك أن هذا النوع من العباءات يلائم المناخ الحار في هذه المناطق.

ويتمثل المجال الثالث من مجالات الاشتراك المضارى بين المجتمعين الإسلامي والصليبي في مجال اللغة. فقد تخيل البعض أن إدخال بعض الكلمات والمصطلحات العربية إلى اللغات الأوروبية دليلاً على الاستشراق المضارى للمجتمع الصليبي. الأمر الذي جعل بعض المؤرخين المسيحيين اللاتين يشيرون إلى أن بعض الصليبيين قد عرفوا اللغة العربية. وتؤكد بعض المصادر التاريخية عكس هذا الاستنتاج الخاص بعمرانة الصليبيين باللغة العربية. إذ إن الكلمات والمصطلحات العربية التي دخلت إلى اللغات الأوروبية والتي ذكرتها المصادر الصليبية لم تزد عنأربعين كلمة، وكان ثلث هذه الكلمات والفردات العربية التي دخلت في اللغات الأوروبية تخصص للتعامل مع المسلمين ولاسيما في الحياة العامة والتعامل اليومي بين المسلمين والصلبيين، ومن أهم هذه المفردات العربية، كلمات مثل القاضى، والرئيس والمملوك، والترجمان، والفقير، ولفظة المحمية (وهي مشتقة من كلمة محمد)، وأيضاً كلمة مسجد وكلمة خليفة، وكلمة محمد. وفي النهاية تحولت مهمة الترجمان إلى وظيفة رسمية في الجهاز الإداري الصليبي، وتحول إلى نوع من الإقطاع الزراعي، وفقدت أهمية الترجمان في قيامه بدور المترجم بين السيد الإقطاعى وبين فلاحيه من المسلمين لاختلاف اللغة بينهما. وكانت بعض الكلمات والفردات العربية مشتقة من بعض المصطلحات التجارية والزراعية، مثل كلمة المعاصرة- التي تستخدم في عصر الزيوت والنبيذ، وكلمة الجرة Jar التي كانت عبارة عن وعاء ومكيال للمواد السائلة، وكلمة قنبطار، وكلمة الرطل، والكلمات المعبرة عن الموارizin المتداولة في منطقة الشرق العربي الإسلامي مثل الغرار، ووحدات العملة مثل الروبية، والمصطلحات الخاصة بالرسوم الجمركية والضرائب مثل المزاج والمجزية، ومكتب الجمرك الذي كان يعرف باسم الديوان (مكان تكميس التجارة)، ووحدات العملة والنقد.

الإسلامية مثل الدرهم . وكلمة المحتسب وهو الموظف الذي كان يشرف على الأسواق، وأسماء أماكن وصول التجار مثل كلمة الرباط، وسوق البز وهو سوق الأقمشة ، وسوق الديلك (سوق الطيور) ، وكلمة الفندق ، والذي كان عبارة عن سوق صغير*.

وتحتة كلمات عربية محلية، مثل كلمة سمس، وكلمة السكر، والأقمشة مثل قماش الساميت Samite وقماش البلداخين Baldachin ، وقماش الدمشق ، وقماش الوير أو المخمل Camlet ، وقماش المسلمين Muslin، وأسماء الأسلحة مثل الرمح والقوس Shield . وظهرت مفردات وأسماء عربية في اللغات الأوروبية مثل البرميل لخزن المياه، والقافلة Caravan وهي سفينة النقل الموسمية، وكلمة ارسينال Arsenal (دار صناعة واصلاح السفن).

وظهرت بعض الكلمات العربية المقتبسة من الفارسية مثل كلمة اليزك والتي تعنى وحدة الجيش أو السرية، وكلمة الخليج التي تعنى القناة ، وكلمة التابوت، وكلمات أخرى مثل مسكنين التي تعنى الرجل الفقير ، وكذلك الكلمات المتعلقة بالأدوات الموسيقية مثل آلة النقاراء (الطلبة، والتباشة ، والسلامية) .

وتحتة أسماء جغرافية ذات أصل شرقي تم تداولها بين الصليبيين مثل كلمة كفر التي تعنى القرية، وكلمة بيت التي تعنى منزلًا، وكلمة عين التي تعنى مصدر مياه، وأحياناً كان يتم تداول كلمة جبل أيضاً ، على الرغم من أن كلمة كفر قد أصبحت في اللغة اللاتينية الصليبية

* الواقع أن الباحث يلحظ كثرة الأنماط العربية المستخدمة حتى اليوم في كثير من اللغات الغربية الأوروبية. فعدد الأنماط العربية في اللغتين الأسبانية والبرتغالية أضخم مما يتصوره العقل. وقد عمل المستشرق دوزي معجمًا للألفاظ ذات الأصل العربي الشائعة في هاتين اللغتين ، كذلك تركت اللغة العربية أمراً واضحاً في فرنسا- لاسيما في جنوب فرنسا- حتى أن لهجات السائدة في أفرن Auvergne وليموزان Limousin محسنة بالكلمات العربية ، كما أن أسماء الأعلام فيها ذات مسحة عربية واضحة . أما اللغة الانجليزية ففيها وحدها ما يقرب من ألف كلمة مشتقة من أصل عربي، منها حوالي مائتين وستين كلمة من الكلمات الشائعة الكثيرة الاستخدام في الحياة اليومية وقد قسم أحد العلماء الأوربيين هذه الكلمات تقسيمًا موضوعيًّا ، فعنها ما هو خاص بأسماء الحيوانات والطيور، ومنها ما يرتبط بالفلكلور والكتاب المقدس والنبات أو بالأقمشة والملابس، أو بالأكل والشرب- هذا عدا الاصطلاحات الخاصة بالطب والموسيقى والموسيقى والموسيقى والموسيقى . (سعید عاشور : المدينة الإسلامية ، الانجلو المصرية ، الطبعة الثانية ١٩٨٢م، ص ٨٤-٨٥) (المترجم) .

باسم Casale ، حيث كانت هذه القرية الصليبية تحمل اسم مالكها وصاحبها الصليبي ، مثل قرية روبرت Casale Roberti وجد أيضاً كلمة أودية والتي عرفت في اللاتينية Vallis .

والحقيقة أن اقتباس اللغة الأوروبية لعدد قليل من الكلمات والمفردات العربية طوال ما يقرب من قرنين من الزمان قلماً يثبت أن اللغة العربية قد تركت تأثيراً كبيراً على الصليبيين . وبالمقارنة بين اللغتين الأسبانية والإيطالية وبين اللغة الفرنسية من حيث اقتباس المفردات العربية ، نجد أن عدداً قليلاً من الكلمات والمفردات العربية قد دخلت مفردات اللغة الفرنسية الصليبية . وعلى الرغم من احتمال تداول عدد كبير من مفردات اللغة العربية واستخدامها في أسواق بيت المقدس ، وعكا ، وصور ، فإن هذه الكلمات لم تجد طريقها إلى المصادر التاريخية المكتوبة .

وعندئذ يمكن القول إن معرفة الصليبيين باللغة العربية لم تكن شائعة على نطاق واسع . وهكذا كانت هناك حاجة لوجود مترجمين حكوميين في المجتمع الصليبي ، وأيضاً ذلك أنه كانت هناك إشارة خاصة لأسماء الصليبيين الذين تحدثوا اللغة العربية في المصادر الغربية والشرقية . وإذا كان المخوس الصليبي الذي اتهم بالتواطؤ مع المسلمين في عام ١١٤٦ م قد أرسل مرة ثانية على رأس بعثة صليبية نظراً لإلمامه ومعرفته باللغة العربية لغة المسلمين وعاداتهم فإن هذا لا يكفي دليلاً على أن معرفة الصليبيين كانت شائعة بل كانت نادرة . والواقع أن تقليد الصليبيين للنقوش العربية منذ الفترة الباكرة من وجودهم يؤكّد جهلهم باللغة العربية .

لقد تعلم الصليبيون اللغة العربية لأسباب عديدة ، منها حاجة بعض أفراد الطبقات الدنيا من الصليبيين لهذه المفردات والكلمات العربية لاستخدامها في حياتهم اليومية أو على الأقل للتتحدث بها في السوق ومارسة التجارة للحصول على الربح المادي ، بيد أنه كان هناك اتجاه عام مختلف يسود بين أبناء الطبقات العليا من المجتمع الصليبي وهو الاتجاه الذي يعارض تعلم الصليبيين للغة العربية . ففي منتصف القرن الثاني عشر الميلادي كان وليم الصوري * أحد

* يعد وليم الصوري من أبرز مؤرخي العصور الوسطى ، ومن أشهر مؤرخي الحروب الصليبية . وقد اختلف المؤرخون في تحديد نسبة مولده . ويرى المؤرخ الإنجليزي بيورى أن وليم الصوري قد ولد في عام ١١٢٧ في مدينة بيت المقدس . ويرى البعض الآخر أنه ولد في سنة ١١٣٠ م، وأياً كان تاريخ مولده ، فالمنتبع لأحداث عمره ، يرى أنه عاش أكثر من نصف قرن من الزمان صرف الشطر الأخير من عمره طالباً للعلم سواء في مملكة بيت المقدس الصليبية أو في فرنسا وإيطاليا ، ومنكباً على الدراسات اللاهوتية ، ومشرياً على =

الشخصيات الصليبية البارزة في المملكة الصليبية يتقن اللغة العربية قراءة وكتابة. وهو المؤرخ اللاتيني الذي كتب عن التاريخ الباكر للعالم الإسلامي ومن سوء الحظ أن هذا العمل التاريخي قد فقد وضع ولم يعثر عليه خلفاؤه من بعده، وفي الربع الثالث من القرن الثالث عشر الميلادي، كان وليم الصوري على دراية تامة باللغة العربية، يتحدث بها بشكل جيد، وقد كتب وصفاً مختصراً لكيفية نشر الإسلام وكان هذا الوصف الذي كتبه وليم الصوري لأغراض تصويرية. وقد تعلم أحد الرهبان الدومينيكان المدعى يف البريتون Yve le Breton اللغة العربية من أجل تيسير مهمته ونشاطه التصويري. وابتعدت أحد قادة هيئة فرسان الداوية والذي كان يعرف باسم ليون كازالير Lion Cazalier من مدينة صفد (في عام ١٢٦٦ م) إلى السلطان المملوكي الشهير الظاهر بيبرس لأنه كان يتقن اللغة العربية. وتحدث باللغة العربية أيضاً أحد أفراد النبلاء الصليبيين وهو نيكولاوس Nicholas من عكا والذي كان قد تعلماها على يد أحد الفرسان الصليبيين وهو فيليب مينبيف Philip Mainebeuf من عكا، بينما أحد أعضاء العائلات الاستقراطية الصليبية الذين ولدوا في المملكة الصليبية في بيت المقدس وهو همفري Humphrey كان يعرف اللغة العربية، وهو الشخص الذي قام بهمهمة الترجمة بين الملك الإنجليزي ريتشارد قلب الأسد وبين الملك العادل الأيوبي عند أرسوف وأيضاً بين الملك العادل وبين الأمير الصليبي بلدويں الابليني. ولاشك أن الصليبيين كانوا يكتسبون معرفة بعض المفردات والكلمات العربية من خلال التعامل المتكرر مع المجتمع الإسلامي على الرغم من أن هذه التعاملات كانت قليلة ونادرة. إذ إن علاقات التآخي والود مع المسلمين كانت تجذب معارضه ونفوراً من جانب الصليبيين. ويكفي أن نتذكر موقف الصليبيين تجاه الامبراطور الألماني فردرิก الثاني (على الرغم من عدم استقرار ظروف المملكة الصليبية)، وهو الموقف العدائى المعروف في كل مكان آنذاك. وثمة قصة صداقة بين ريجنالد منصور Reginald Bulunyas and Marakiyah Mansue ابن كونستانبل أنطاكية وبين أمير بلنياس* ومرقية**.

= ديوان الرسائل في بلاط الامبراطور البيزنطي امانويل كومين، بالإضافة إلى أنه ارتفى المناصب الدينية وصار رئيس أساقفة مدينة صور. كما أنه حظى بمكانة مرموقة لدى الملك الصليبي عموري، وترك لنا كتاباً تاريخياً مهماً عن تاريخ المملكة الصليبية في بيت المقدس (المترجم).

* بلنياس : كورة ومدينة صغيرة ومحصن على البحر وبعلها مسيط باسم الحكيم بلنياس صاحب الطلسات (ياقوت الحموي: معجم البلدان (دار صادر ، بيروت ١٩٩٥) ، ج ١ ص ٤٨٩).

** مرقية : قلعة حصينة في سواحل حمص ، كانت خربت فجددها معاوية ورتب فيها الجند وأقطع لهم القطائع. (ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ١٠٩).

ال المسلم ، والذى قضى أياماً فى ضيافة أصدقائه المسلمين فى حدائق وساتين هذا الحاكم المسلم ومن ثم فقد دعا أصدقائه المسلمين لزيارة قلعته . بيد أن قصة الصدقة هذه كان يتخللها أيضاً قصة الصليبي المتعمس الغير الذى طرد المسلمين.

والواقع أن التأثيرات العميقة لعدم الاندماج الاجتماعى أو السياسى بين المجتمعين الإسلامى والصليبي ، وسياسة التفرقة العنصرية التى اتبעה الصليبيون ، لم تقتصر تأثيراتها فقط على مجال الهيئة الاجتماعية والسياسية للصلبيين ، بل انعکس تأثيراتها أيضاً على مجال الاتجاه الفكري الصليبي ، وخلق حواجز فى وجه الاتصال والعلاقات الثقافية بين المجتمعين الإسلامى والصليبي . وربما كانت سياسة عدم الاندماج الاجتماعى بين المجتمعين الإسلامى والصليبي إحدى العوامل المهمة والرئيسية المسئولة عن فشل مملكة بيت المقدس اللاتينية فى القيام بدور الوسيط الثقافى والفكري بين منطقة الشرق العربى الإسلامى وبين الغرب الأوروبي المسيحى . ولاشك أن حالة الحرب الدائمة التى عاشتها هذه المملكة الصليبية هي التى وقفت حجر عثرة أمام هذه المملكة الصليبية للقيام بهذا الدور ، ولاستطيع أن نؤكد تماماً وجهة النظر التى تنهى باللائمة على السمة العسكرية للمستوطنات الصليبية باعتبارها عائقاً أمام التأثير والتأثر الفكري بين الحضارة الإسلامية والحضارة الأوروبية الغربية ، لقد كان الصليبيون توافقين لدراسة اللغة العربية وتعلمها ، ودراسة الثقافة والدين الإسلامي ، وقد استطاعوا ذلك ، مثل وليم الصورى ، أسقف مدينة صور الذى أتقن اللغة العربية ، وكذلك بعض العلماء الأقل شهرة ، مثل بيزان ستيفن Pisan Stephen من أنطاكية ، والذى كان أحد خريجي جامعة سالرنو ، وهو العالم الذى قام فى عام ١٢٧م بترجمة المؤلفات والكتب الطبية للعالم المسلم على بن عباس (فى القرن العاشر الميلادى) ، كما قام أيضاً بترجمة بعض المؤلفات الفلسفية العربية . وكان هناك فيليب الطرابلسي ، أحد رجال الدين الذين عملوا تحت سيادة جي من فالنس Guy de Valence وكان فيليب هذا أسقاً فى كنيسة طرابلس ، وقد قام فى عام ١٢٥٠م بترجمة كتاب أرسطو المشهور المعروف باسم سر الأسرار Secretum Se-cretorum . ونذكر أيضاً أمالريك الأسبانى ، الذى قام فى منتصف القرن الثانى عشر الميلادى بترجمة بعض أجزاء واسفار العهد القديم (التوراه) إلى اللغة الإسبانية واستكملت هذه الترجمة على يد أحد الرحالة الذين زاروا فلسطين ، وقد اهديت هذه هذه الترجمة لريمنوند رئيس أساقفة توليدو Toledo ، مؤسس مركز الترجمة الكبير فى المدينة ومن الملاحظ أن

أمالريلك هذا كان على دراية تامة بالنسخة العربية للكتاب . المقدس ولديه دراية ومعرفة أيضا باللغتين العربية والأرامية . واعتمدت الترجمة الأسبانية الباكرة للعهد القديم (الشواره) في الأساس على الأصل العبرى للكتاب المقدس بصورة أكثر من الترجمة اللاتينية . وببقى السؤال الرئيسى الغريب وهو لماذا لم يتضمن التراث المعرفى الصليبيى المعرفة الجغرافية الإسلامية المهمة ؟ ولاشك ، فإن الصليبيين الذين كانوا يقطنون مدنًا مثل أنطاكية وبيت المقدس ، كانوا في حاجة إلى اكتساب كنوز المعرفة الشرقية الإسلامية الموجودة في هذه المدن . فقد تسلم المؤرخ الصليبي وليم الصورى من الملك الصليبي عمرى (أمالريلك) المصادر التاريخية العربية بسبب فقده لوثائق وكتب الأمراء المسلمين الشرقيين ، وكان من بين هذه الكتب التاريخية والحواليات الشرقية حولية يوطيخيوس الاسكندرى Eutychius of Alexandria (والمعروف باسم سعيد بن البطريرق) . وكان ثيودور Theodorus فيلسوف الامبراطور فردرريك الثانى ومستشاره الثقافى من أهل أنطاكية الذين يتقنون اللغة العربية . وخدم عدد كبير من الأطباء الشوام المحليين في بلاط الأمراء الصليبيين سواء كان هؤلاء الأطباء يقيمون في أقاليم ومدن المملكة الصليبية أو في الأقطار العربية المجاورة لها . وأهدى بعض العلماء المسلمين الشرقيين للملك الصليبي عمرى (أمالريلك) كتابا في علم التجسيم والتنبؤ . والسؤال الذي يطرح نفسه هو ألم يكن التأثير الصليبي بالثقافة الإسلامية متاحا ومت可能存在 ، بيد أن هذا الأمر كان يعتمد على درجة قبول الصليبيين والمجتمع الصليبي لكنوز الحضارة العربية الإسلامية . والعلوم الإسلامية ، وكانت استجابة هذا المجتمع الصليبي للمعارف الإسلامية سلبية إلى حد ما .

وتحت سؤال أيضا يطرح نفسه وهو هل يمكن القول بأن السمة العسكرية والتجارية للمنشآت والمستوطنات الصليبية كانت الأساس والسبب لجمود الانجازات الروحية والفكرية للصليبيين في منطقة الشرق العربي الإسلامي ؟ الواقع أننا لا يمكن الاعتقاد بأن مثل هذا السبب يقدم إجابة مقنعة لهذا السؤال . فإذا كانت هناك حاجة للبراهين التي تؤكد مثل هذا الرأى فإنه يجب الإشارة إلى الحروب الإسلامية الصليبية كان يتخللها فترات سلام وهدن بين الطرفين المتحاربين الإسلامي والصليبي وخلال فترات السلم والهدن هذه كانت القوافل التجارية تنتقل بين الطرفين عبر الطرق التجارية المعتمدة . وتردد عدد من العلماء المسلمين لزيارة فلسطين وبلاط الشام وقام عدد من العلماء المسيحيين المحليين بزيارة المدن الصليبية . ولاشك ، فقد كانت هناك احتصالات للاتصال الثقافي والفكري بين الجانبين الإسلامي والصليبي ، حتى خلال الظروف

الراهنة التي عاشتها هذه المملكة الصليبية وإن كانت هذه الاتصالات الثقافية والفكرية بين الجانبين الإسلامي والصليبي أقل من مثيلتها بين هذين الجانبين في صقلية أو في منطقة أسبانيا التي لم تهدأ الحروب فيها بين المسلمين والمسيحيين الأسبان. فقد انتقلت بعض المعارف والعلوم الإسلامية من إسبانيا إلى الغرب الأوروبي، وترجمت بعض المقالات والمعارف العربية الأدبية إلى اللغة اللاتينية وانتقلت بدورها إلى الثقافة والأدب الأوروبية . ومن المعتمل أن أناشيد الفقراء Chansons des Chetifs قد دونت في أسطوائية . ولم يهتم الصليبيون بترجمة مثل هذه الأعمال الأدبية . وحضر عدد من العلماء الأوروبيين لزيارة منطقة الشرق العربي الإسلامي من أجل جمع هذه الأعمال الأدبية المحلية ونقلها إلى أوروبا ، والاقتباس من هذه القصص الشرقية الخرافية . ومن الطبيعي أن يسلك بعض هؤلاء العلماء الأوروبيين سلوكاً يشبه سلوك السياح في الوقت الحالي. ويقول أحد الحجاج الأوروبيين الذي زاروا المناطق الصليبية في منطقة الشرق العربي في عام ١٢١٧م وهو ثيتمار Thietmar بكل شجاعة وثقة : « لقد مكثت في دمشق ستة أيام كاملة ، واستطعت خلال هذه المدة القصيرة التعرف على تعاليم الدين الإسلامي ونقط حياة المسلمين . وقد عرفت خلال هذه الاقامة القصيرة تلك الرذيلة التي انتشرت بين المسلمين آنذاك وهي اللواط والشذوذ الجنسي ، وهي الرذيلة التي هددت مستقبل كيان العالم الإسلامي والحضارة الإسلامية ، وقد شاهدت أيضاً مدى تقاعس المسلمين عن تأدبة واجب المهماد وعن تأدبة واجباتهم المادية وعدم اصفائهم للدعوة علماء الدين في المساجد من أجل الاستعداد للجهاد الإسلامي ! ومن هذا يمكن أن نستنتج دون عجب : بأن حياة المسلمين كانت غير مألوفة وغريبة وأن قانونهم الأخلاقي والعقيدى قد اعتراه الفساد».

لقد توقف الشرط الأساسي لفتح الصليبيين وقبولهم للثقافة والأدب الإسلامية على مدى تقديرهم الأهمية والقيمة النفعية لتلك المجزئات الثقافية والأدبية لأعدائهم . وثمة عامل منفعة (كان العامل المادي من العوامل التي تحظى باهتمام الصليبيين) يمكن أن نتخيله في المجال الثقافي غير المادي . فعلى سبيل المثال، لم يكن الدافع الذي حفز الصليبيين لدراسة القرآن الكريم والعقيدة الإسلامية ضرورة من ضرورة الفضول الإنساني، ولكنه كان أساساً من أجل تزويد الصليبيين بأدوات وأسلحة الجدل الديني التي تستخدم في النشاط التنصيري . وعلى الرغم من أن مثل هذه التطورات الثقافية كانت أمراً متداولاً في الغرب الأوروبي الكاثوليكي ، فإن الإمارات الصليبية لم تعبأ كثيراً بمثل هذه التطورات الثقافية . وعلى الرغم

من الشجاعة والفروسية التي اشتهر بها المغارب الصليبي ، فإن المسلمين كانوا يطلقون على الصليبيين لقب القوم الملاعين . ومع هذا فإن المسلمين لم يستطيعوا أن يخفوا إعجابهم بفروسية وشجاعة المغارب الصليبي . وتولد هذا الإعجاب فقط عندما اقترنت الملكة الصليبية في بيت المقدس من التدهور والسقوط الذي رفع من قدر الدين الإسلامي ورفعت من قدر المسلمين إلى الذروة ، بيد أن هذا التقدير والتقييم الصحيح للدين الإسلامي وأخلاقياته لم يتشكل داخل الوسط والمحيط الصليبي تماماً ، ولكن تشكل على يد أعضاء البعثات التنصيرية من الأوروبيين ، الذين حضروا إلى منطقة الشرق العربي الإسلامي بقصد التعرف إلى تفاصيل عقيدة وسلوكيات أعدائهم وخصومهم المسلمين . وظل ولیام الطرابلس William of Tripoli يشغل اهتمامه بالدين الإسلامي واهتم أيضاً بكيفية استخدام بعض معتقدات المسلمين لنشر المسيحية ، بيد أنه بعد جيل كامل من وفاة ولیام الطرابلسي استطاع ریکولدو من مونت کروس Riccoldo de Monte Croce أن يسجل ويدون تقريراً كاملاً متجانساً عن الإسلام والمسلمين*. ولكن المجتمع الصليبي ظل غير مفتتح للثقافة والمعارف الإسلامية.

ومن المحق أن عدم استجابة الصليبيين للثقافة والأدب العربية الإسلامية لم تكن نتيجة التعصب الأعمى ضد المسلمين . ومهما كانت العيوب والتهم التي الصقت بالصليبيين ، فإنهم لم يكونوا متتعصبين بالمرة . وأية ذلك أن مساجد المسلمين ظلت قائمة في المدن التي احتلها الصليبيون ، وظلت الحرية الدينية جزءاً من البناء السياسي للكيان الصليبي ، بيد أن تحررهم العقل (الليبرالية) في أمور التسامح الدينى قد أدى إلى استهجانهم لفكرة الازدواج الثقافي

* نصح ولیم الطرابلسي احدى البعثات التنصيرية الأوروبية باستخدام بعض المعتقدات المسيحية التي تتفق وتعاليم الدين الإسلامي من أجل اقناع المسلمين وتحويلهم إلى النصرانية . ودون ریکولدو Riccoldo تقريراً متعلقاً عن الطوائف المسيحية الشرقية وأبدى إعجابه بال المسلمين . وقد استهل تقريره بوصف مسهب لأخلاقيات المسلمين قائلاً : « واستقبلنا المسلمين في بغداد في مدارسهم وفي أديرة المدينة ومعابدها باحترام وترحاب كاستقبال ملائكة الرب ، واستقبلنا المسلمين في بغداد في منازلهم ، وتعلمنا هناك تعاليم الدين الإسلامي وسلوكيات عادات المسلمين . وقد انهينا في تعلم ومعرفة واقتنان سلوكيات التعاليم الإسلامية النادرة . وباختصار ، فإننا نشير هنا إلى أفعال المسلمين المتقدمة التي أدت إلى ارتياح المسلمين أكثر من تزكيتهم . ولكن نعرف الكثير عن سلوكيات المسلمين وعاداتهم يجب أن نشعر على سلوكيات المسلمين من خلال صلاتهم وأعمالهم التقوية ، وأعمال العطف على الفقراء واحترام الأديان السماوية الثلاثة . (المؤلف) .

في المستوطنات الصليبية أو دخالها إلى أية مستوطنة صلبيّة انتشرت بها بعض الآداب والثقافة الأوروبيّة . فالشاعر الألماني فريدانك Freidank ، والذى كان أحد الذين شاركوا في حملة الامبراطور الألماني فرديريك الثاني الهو亨شتاوفن يتحدث بايجاز بلينغ عن مدينة عكا قائلاً: «والذى لفت نظرى في مدينة عكا ، هو أنه لم يكن هناك فرق أو تقييز بين المسيحي والمسلم فيها ... وجميع سكان هذه المدينة من الشباب أو الشيرخ يتحدثون اللغة العربيّة . وبالنسبة لسكان مدينة عكا ، فإن المسلمين يعادل اثنين من المسيحيين أو أكثر (في مجال الديمة) ». وخلاصة القول ، فإننا لا يمكن أن ننكر تأثير الظروف السياسيّة غير المواتية للملكية الصليبية ، بالإضافة إلى عوامل أخرى مهمة والتي كانت وراء عدم تقبل المجتمع الصليبي للثقافة العربيّة الإسلاميّة . وهكذا أخفقت المستوطنات الصليبية في المنطقة العربيّة في أن تلعب دوراً كبيراً في نقل الثقافة والحضارة الإسلاميّة إلى الغرب الأوروبي الكاثوليكي . وعلى الرغم من أن الصليبيين لم يكن لديهم برنامج لنقل الثقافة العربيّة وسمة الحروب الصليبية في هذه المناطق الأوروبيّ ، فإن الغزو الصليبي السريع للمناطق العربيّة وسمة الحروب الصليبية في هذه المناطق (فيما وراء البحار) لم تكن تحظى بالانتشار ، وتركزت نتائج هذه الحروب الصليبية في خلق وضع أوربي خاص ، وهو الوضع والموقف الأوروبي الذي كان مسؤولاً عن الشخصية والسمة الثقافية للمستوطنات الصليبية في بلاد الشام وفلسطين . ونشير إلى الفكرة العامة الخاصة بـ «المحدود أو التخوم» كما وجدت في إسبانيا ، وصقلية ، والشرق السوفيتي . ففي كل الحركات الاستيطانية الأوروبيّة ، لعبت «المحدود أو التخوم» دوراً مهما في مستقبل المستوطنات المختلفة . فلم تكن «التخوم» حدّاً عسكرياً فقط ، بل كانت أيضاً بُشارة منطقة مواجهة جبهة بين الأطراف المتحاربة ، وكانت «التخوم» أيضاً مجالاً للاتصالات المتعددة بين الشعوب والحضارات والثقافات . وكانت معرفة العدو غير مناطق المحدود والت疆وم هذه والتي ظلت عشرات السنين تلعب دوراً مهماً في التوسيع الاستيطاني والاستعماري . إذ كان من السهل التعرف على مزايا وعيوب . أو قوة وضعف الأعداء والخصوم وتحديد أدوات هذه التحديات وذلك من خلال عمليات الاستطلاع من مناطق المحدود والت疆وم . وكانت منطقة المحدود هذه تشهد تماذجاً حضارياً وثقافياً بين الطرفين المتحاربين الإسلامي والصلبي . وهكذا فقد حدث في مناطق المحدود والت疆وم انصرافاً حضارياً وثقافياً بين المسلمين والصلبيين في إسبانيا على الرغم من الاتجاهات العدائية المتأصلة التي كانت تقف في وجه مثل هذا الانصراف والتمايز الحضاري . وخلال مرحلة التوسيع الاستيطاني التالية ، اكتسب الصليبيون معرفة بعدهم

الإسلامي ، وتقبلوا أيضاً النظام الاجتماعي والثقافي الإسلامي. وبالإضافة إلى ذلك، فإن ثقافة المستعمر قد تأثرت جزئياً بثقافة عدوه المسلم، وكان الفرق الواضح في المستوى الحضاري والثقافي بين الطرفين الإسلامي والصليبي من الأمور التي تفتح لنا طريقاً مستنيراً نحو فهم الموضوع . وكانت مثل هذه المناطق المحدودة تتسع في المساحة بسبب عمليات الغزو وما يقتطع من أرض العدو يتتحول بشكل طبيعي إلى «منطقة حدود». وإذا لم يهجر السكان الأصليون هذه المناطق ، فإن هذه المناطق تستطيع بسهولة القيام بدور مؤثر في عملية واحادث التأثير الثقافي والحضاري المتتبادل بين المجتمعين المحلي والاستيطاني . وسوف يعتمد دور منطقة الحدود أو التخوم في إحداث التأثير الثقافي المتتبادل بشكل كبير على التوسيع المتعدد والمقطوع خلال الفترة الفاصلة السابقة. ففي بداية إنشاء المستوطنات الصليبية في المنطقة العربية (فيما وراء البحار) لم تكن هناك مناطق حدود فاصلة بين الصليبيين وبين المسلمين ، حيث كانت التحصينات التي شيدت خلال الفترات التاريخية السابقة للوجود الصليبي تقوم بهمة منطقة الحدود بين المسلمين وبين الصليبيين.

والواقع أن المستوطنات الصليبية في المنطقة العربية التي تخوضت عن الحملة الصليبية كانت تفتقر إلى ظروف مناطق الحدود والتخوم التي أشرنا إليها من قبل. فلم تكن هناك تخوم شائعة أو منطقة اتصال بين المسلمين وبين الصليبيين، ولم يتعارف الطرفان المتصارعان الإسلامي والصليبي على حضارة وثقافة أحدهما الآخر. وبات لدى كل طرف من الطرفين فكرة خاطئة عن الطرف الآخر، وهي الفكرة المتعلقة بخصائص وسمات كل مجتمع من المجتمعين ، وغطط الحياة، والعقبة، والثقافة ، والعلوم لدى كل طرف ، وفي الغالب ظلت هذه الفكرة أسيرة الأوهام والخرافات والشعودة. وهكذا فإن الحماسة الدينية والتعصب الديني المقيت الذي ميز محاربي الحملة الصليبية الأولى قد أحدث اتجاهًا عنيداً وعائقاً أمام التأثير الثقافي المتتبادل بين المجتمعين الإسلامي والصليبي. إذ كانت فترة الغزو الصليبي قصيرة في حد ذاتها ، وقصيرة أيضاً أمام الصليبيين لكي يحولوا تحصيناتهم إلى منطقة حدود بالمعنى الاصطلاحي الذي وصفناه آنفاً. فقد استطاع الصليبيون خلال الجيل الأول من الغزو السيطرة على المدن العربية، التي كانت تمثل مراكز الثقافة الإسلامية الكبرى ، و تعرض المثقفون المسلمين في هذه المدن لأعمال القمع والقتل على يد الصليبيين. ولم تعد صنوفة المفكرين والمثقفين المسلمين (وأيضاً المفكرين المسيحيين الشوام) للإقامة مرة ثانية في مدن المملكة الصليبية التي هجروها فراراً

من قمع الصليبيين واضطهادهم . وهكذا انحصرت الاتصالات بين الشرق العربي والغرب الأوروبي على المستوى العسكري والتجاري ، وقامت التجارة بينهما في أسواق الاقطار المجاورة للملكة الصليبية ، بيد أن مستوى الاتصالات بينهما في مجال الثقافة والفكر كانت نادرة . ولم تستطع رحلات الحج أو الزيارة إلى المناطق الإسلامية المجاورة أن تلأ هذه الفجوة الخاصة بضاللة التأثير الثقافي والفكري بين الشرق العربي الإسلامي والغرب الأوروبي الكاثوليكي . وخلال الفترة الأخيرة لم يكن أعضاءبعثات التنصيرية من بين الصليبيين الذين ولدوا في بلاد الشام والذين كانوا يعرفون باسم «البولان» ، بيد أن أشهر أعضاء هذهبعثات التنصيرية وهو ريكولاس من جبل كروس Riccolus de Monte Croce كان أوربياً الأصل . وفي نفس الوقت تأثرت أوربا بالحضارة العربية الإسلامية من خلال المعابر الثقافية والحضارية في إسبانيا وصقلية .

وبإضافة إلى ذلك ، فإن المستوى الثقافي المتواضع للملكة اللاتينية في بيت المقدس يفسر لنا تساؤلاً يقول لماذا لم تصبح المستوطنات الصليبية في المنطقة العربية مركزاً للتبادل الثقافي والحضاري بين الشرق العربي الإسلامي والغرب الأوروبي الكاثوليكي . والحقيقة أنه ليس من الصواب الافتراض بأن هذه المستوطنات الصليبية ظلت في حالة حرب دائمة ضد المسلمين وأن قعقة السيف أخرست وكبتت كل الأصوات الأخرى . بيد أن الملكة اللاتينية في بيت المقدس لم تصبح مركزاً للنشاط الثقافي والفكري ، وظلت بثابة مركز لنشر الحضارة والثقافة الأوربية المحلية والهامشية . فقد ضمت هذه الملكة الصليبية مدارس أبوروشية ، وديرية وكاتدرائية - ولم ترك هذه المدارس رصيداً ثقافياً مهما . فلم يكن هناك في الملكة الصليبية مراكز للترجمة ، ولم يتأسس فيها جامعة في أي عصر من عصورها التاريخية . ولما كان أي جيل صليبي يعتقد في أهمية أن ينقل خبرته إلى الأجيال التالية فإنه كان يكتفى بهذه الأجيال أن تهتم بالحياة اليومية ، وتقليد الجيل السابق في مجال الفروسية والسلوكيات الخاصة بالعلاقات والمعاملات التجارية والتقنية . ولم يكن من قبيل المصادفة أن يقبل أبناء aristocratie الصليبية على دراسة القانون ، والأعراف والعادات الأوربية . وبإضافة إلى ذلك ، فإن القانون كان يمثل حجر الزاوية بالنسبة لامتيازات أفراد هذه الطبقة aristocratie الصليبية ، ولذابات من الطبيعي أن يحظى القانون باهتمام أبناء هذه الطبقة وأصبح عنصراً تقليدياً يجب المحافظة عليه . ومع شيوخ وانتشار هذه الطبقة aristocratie في أوروبا وفي

مستعمراتها الشرقية، فإن أي قطر أوربي لم يسمى، استخدام قوانين الامتيازات هذه مثلاً حدث في المستوطنات الصليبية في منطقة الشرق العربي. فقد أطلق أحد مشرعى القانون في العصور الوسطى العظام لقب المجادلين Silbenstecher- hairsplitter على القضاة الصليبيين في المملكة اللاتينية وكان هذا هو الجانب المهم فقط في الحياة الفكرية التي وجدت في المملكة اللاتينية.

وكان عدم وجود أية مدرسة في المملكة اللاتينية بالمعنى المتداول للكلمة في العصور الوسطى لا يرمز فقط للمستوى الفكري لهذه المملكة ، ولكن غياب المدارس في المملكة اللاتينية يلعب دوراً حاسماً في سياق حديثنا الذي يتعلّق بالتأثير الثقافي والحضاري المتبادل بين الشرق العربي والغرب الأوروبي في العصور الوسطى ودور المستوطنات الصليبية كمعبّر من معابر الثقافة والحضارة الإسلامية إلى أوروبا. وكان نقل الثقافة والحضارة الإسلامية إلى أوروبا خلال الفترة الصليبية أمراً نادراً مما يؤكّد أن هذا النشاط الثقافي في المملكة اللاتينية كان نشطاً فردياً أحادياً أي لم تشجعه مؤسسة حكومية . وكانت إمكانية انتشار معارف أحد العلماء أمراً محدوداً وأصبحت مدة حياة هذه المعرفة في دنيا الثقافة قصيرة الأجل نسبياً. وعلى الرغم من أن أي مركز ثقافي، أو كلية ، أو جامعة ، أو أية مدرسة خاصة لاتستطيع باستمرار أن تكفل وجود مستوى عالٍ من الفكر والثقافة، فإن وجود مثل هذه المؤسسات التعليمية تصبح بثابة مستودعات للثقافة والمعرفة والعلوم . والحقيقة التي تقول إن المملكة اللاتينية لم تشهد جامعات مثل جامعتي سالرنو وتوليدو Toledo تفسر لنا افتقار هذه المملكة اللاتينية إلى آلية للحفاظ على الثقافة والعلوم الإسلامية التي اكتسبها الجيل السابق ونقلها إلى أوروبا.

وفي النهاية كانت هناك حروب صليبية متتالية ، تكراراً للنمط الأول الذي كانت عليه الحملة الصليبية الأولى. والحقيقة أن تدفق تيار الحجاج الأوروبيين المستمر إلى المملكة اللاتينية في بيت المقدس في أثناء القرن الثاني عشر الميلادي ، ولا سيما في أثناء الحملات الصليبية الصليبية الكبرى، كان قد أحدث مذيباً روحانياً حلّ معضلة النماذج والاحتلال الثقافي والفكري بين الشرق الإسلامي والغرب الأوروبي الكاثوليكي ، ولم تستطع المستوطنات الصليبية أن تكون شبكة ثقافية لاستيعاب هذه الموجات من القادمين الصليبيين الجدد. إذ كانت كل حملة صليبية جديدة أو كل موجة من الهجرة الأوروبية بثابة تعزيز للعنصر الأوروبي في هذه

المملكة اللاتينية وكفلت استمرار قوة هذه الدولة الصليبية وأهميتها السياسية. وهذا يمكن أن يفسر لنا ظهور أصوات من الصليبيين المستنيرين في القرن الثالث عشر الميلادي تعطى قدراً كبيراً للإسلام. ففي القرن الثالث عشر الميلادي، ضعف تيار الهجرة الأوروبية إلى المناطق والمستوطنات الصليبية إلى أن توقف تيار الهجرة الأوروبية نهائياً واختفت الحملات الصليبية الكبرى أيضاً. وكما اثبتت التجارب، فإن المجتمعات تتأثر ببعضها البعض في مناطق الاتصالات الطبيعية والواضحة بينهما. وهذه المجتمعات عادة تختار ما يناسب نظامها الفكري والعاطفي. وما يذكر أن أفراد الطبقات الاجتماعية الراقية والمهمة في أي مجتمع تعد أكثر ميلاً إلى الانجذاب صوب الثقافة الأجنبية الراقية والمتطرفة.

ويبدو أن مثل هذه العملية الانتقائية من الاقتباس والاستيعابالجزئي للثقافة الأجنبية كانت تمثل أمراً فاسداً ومشيناً لدى الكثير من القادمين الأوروبيين الجدد، وأيضاً لدى بعض المؤرخين في العصر الحديث. الواقع أن بعض المؤرخين قد اعتبروا مثل هذا الاتجاه الصليبي من جانب أبناء الطبقات الراقية بمثابة حقيقة يقينية، لبدايات الانصهار والاندماج الشعافي والاجتماعي بين المجتمعين الإسلامي والصليبي، وهي الظاهرة التي لم تتحقق بين هذين المجتمعين على أرض الواقع والتي لم يتصور الصليبيون تحقيقها من الناحية العملية. ويمكن أن نتلمس قدرًا كبيراً من الحقيقة من خلال الملاحظة التي أبدتها أحد المشقين المسلمين وهوأسامه بن منقذ الذي يقول : «إن الفرنج جنس ملعون ، والذين لم يندمجو إلا مع جنسهم». وكما توقعنا ، فإن الاتجاه الصليبي لرفض الاندماج الاجتماعي مع المجتمع الإسلامي كان قرياً وسط القادمين الصليبيين الجدد ، والذين حضروا بصحبة الحملات الصليبية الكبرى، وأيضاً وسط الحجاج أو صغار المهاجرين ، وبصورة أشدوا أقوى وسط الصليبيين المقيمين في المناطق الصليبية في بلاد الشام وفلسطين. ولنقتبس هذا المعنى من قول أسامه بن منقذ حيث يقول :

«ومن الإفرنج قوم قد تبدلوا أو عاشروا المسلمين فهم أصلح من الغربي البعيد العهد ببلادهم ولكنهم شاذ لا يقايس عليه» . والعبارات الأولى والثانية واضحتان بيدأن هذا الكلام كان أوضح من كلامه السابق. ونفهم من شهادة أسامه بن منقذ ورأيه في الصليبيين أنه كان يوجد في المملكة اللاتينية أغلبية دائمة من القادمين الجدد ، وما قاله ابن منقذ في هذا الصدد من الصعب إثباته أو دحضه. وعلى أية حال ، فإنه من الممكن الافتراض بأن القرن الثاني عشر الميلادي، كان يمثل الفترة التي شهدت توافد أعداد كبيرة من المهاجرين الأوروبيين بشكل

مستمر إلى المناطق الصليبية، وكان هذا القرن يمثل حقيقة الوضع الذي ذكره أسامة بن منقذ والتعلق بوجود أغلبية دائمة من القادمين الأوروبيين الجدد في المملكة اللاتينية. وكان هذا المؤرخ والفارس المسلم (أسامة بن منقذ) يرى بشكل وبآخر أن كل المجتمع الصليبي بشكل عام قد اعتاد عدم الاندماج الثقافي والاجتماعي مع المجتمع الإسلامي.

وظهرت بعض المناطق الصليبية في بلاد الشام وفلسطين ببنائي عن تأثير الثقافة والحضارة الإسلامية المحلية، وظهرت ثقافة هذه المستوطنات الصليبية ذات طابع أوربي قاماً. وكانت هذه المناطق الصليبية تقلل سلسلة كاملة من المؤسسات الاجتماعية ونظام الحكم والإدارة السياسية، والتصنيف الطبقي وقواعد السلوك للطبقات المختلفة للمجتمع الصليبي. فقد كانت المؤسسات القضائية والإجراءات القانونية في المملكة الصليبية أوربية الطابع وكان هذا يعني خلق مجتمع أوربي أبدى في هذه المناطق الصليبية. وعلى الرغم من تغير بعض مظاهر الثقافة والحضارة المادية ، فإن المجالات الدينية ، والفكرية ، والفنية ، والاجتماعية والسياسية في المملكة الصليبية لم تتأثر بهذا التغيير والتحول ، وقلما كان مثل هذا التأثير يصل إلى هذه المجالات المتعددة طوال فترة الوجود الصليبي والتي استمرت ما يقرب من قرنين من الزمان.

ولاشك فقد تمخض عن وجود مثل هذه العوائق والمحواجز والقيود التي منعت التأثير الحضاري المتبادل بين الشرق العربي والغرب الأوروبي نتائج بعيدة المدى. وثمة سؤال يطرح نفسه وهو هل أدت سياسة عدم الاندماج الصليبي هذه في المنطقة العربية إلى تأثير، علاقة الصليبيين بتراثهم الأوروبي بدرجة معينة ؟ فالواقع أن كل مؤسسات الصليبيين السياسية والاجتماعية ، ونظامهم العسكري وبعض مظاهر إبداعاتهم الفنية كانت تصطحب بصبغة تقليدية قوية. وعلى الرغم من الاتصالات المستمرة للمناطق الصليبية مع الغرب الأوروبي ، والتي ولدت عند الصليبيين شعوراً بأنهم جزء من أوروبا ، فإن الصليبيين كرهوا أن يصبحوا تابعين لهؤلاء الأوروبيين الذين حضروا إلى الأراضي المقدسة في الفترة الأخيرة والذين نقلوا معهم التطورات الأوروبية. فقد أظهر الصليبيون السمات والخصائص الأوروبية التي ترجع إلى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى. ومن المحتمل أن هذه السمات والخصائص الأوروبية التقليدية المتأصلة التي أظهرها الصليبيون كانت نتيجة عدة عوامل . ففي المقام الأول ، كان العامل الأول يتمثل في شعور الصليبيين بأنهم يمثلون مجتمعًا استيطانياً صغيراً وخلق هذا الشعور لديهم فكرة عاطفية وحاجة لاتباع النظام الأوروبي القائم، الذي يتفق مع أعراف وعادات أجدادهم في أوطانهم

الأوربية . وكان يمكن تحول وتعديل مثل هذا الاتجاه الصليبي المعادى للتأثير الشرقي فى المجال الثقافى بذلك إذا كان العنصر الحضارى الإسلامى الدخيل قوىً سائداً بحيث يستطيع أن يعضد العلاقات العاطفية القائمة عن طريق نزعة أخرى ترمى إلى الولاء والإخلاص للدولة الصليبية . ولاشك أن صفة المجتمع كانت وراء هذا التحول فى الموقف الصليبي إزاء التأثير بالشقاقة الإسلامية، ولاسيما طبقة المفكرين والعلماء ، الذين كانوا أقل قنوطاً وجزواً وأكثر فهماً للأمور، والذين كانت تحدوهم الرغبة أيضاً قطع علاقاتهم بأوطانهم فى أوروبا . الواقع أن مثل هذه العوامل التى تشجع مثل هذا التحول فى الاتجاه الصليبي للإسلام والانفصال عن أوروبا لم تتوافر فى مملكة بيت المقدس اللاتينية . فمنذ بداية الوجود الصليبي فى المنطقة العربية كان التأثير资料 فى عالماً حاسماً فى البناء السياسى والحضارى للمملكة اللاتينية، وأصبح هذا التأثير الفرنسي عنصراً سائداً ومهيمناً على كل العناصر الحضاريه الأخرى فى المجتمع الصليبي . وأخيراً، نؤكد على الغياب الكلى لصفوة المثقفة من العلماء والمفكرين فى هذه المملكة الصليبية.

وظهر اتجاه صليبي آخر يؤيد عملية الاندماج الاجتماعى والثقافى مع المجتمع الإسلامي فى منطقة الشرق العربى الإسلامى ، ولعب هذا الاتجاه الجديد دوراً مهماً، وإن لم يكن قد تخلص نهائياً من الملامح والمقومات القائمة للمجتمع الصليبي . فالمجتمع الصليبي الذى أقر الحواجز والعقبات أمام الاندماج الدينى والاجتماعى وتبين الشقاقة والحضارة الإسلامية كان لابد أن يعتمد على تراثه الحضارى الأوروبي الغربى لكي يعوض وجوده . وأصبح التراث الحضارى الأوروبي مقدساً فى جوهره وفى عناصره الجذرية الأساسية . وكان الاستحياء والنفور الصليبي من الأفكار الجديدة خير دليل على تحجر وجمود التراث الصليبي فى هذه المناطق الصليبية، وهى الأفكار التى كان ينظر إليها على أنها تقتل باكرة مراحل التحول بكل معنى الكلمة . وكان يتبع هذه المرحلة تمجيد الماضى وتقديسه وعلى الرغم من أننا لم نستطع نبذ ورفض كل العوامل التى هيمنت على النزعة الصليبية الخاصة برفض الثقافة والحضارة العربية الإسلامية، فإن التراث الصليبي الأصلى قد شهد تطورات جديدة . وهكذا فإن تمجيد تراث الماضى والارتباط بالتقالييد والنظم الموروثة وأهميته لمجتمع وليد فى دولة فى حالة نمو وتطور، يصرفنا إلى الأهمية غير المنظورة لمبادئه، وقواعد أساسية تتطور على مفارقة تاريخية.

رقم الإيداع ٢٠٠١/٤٩٣٥

الترقيم الدولي ٠ - ٣٢٢ - ٥٥٤ - ٩٧٧ I.S.B.N.

دار روتايرنت للطباعة ت : ٧٩٥٢٣٦٢ - ٧٩٥٠٦٩٤

مهندس / يوسف عز
٥٣ شارع نبيار - باب الهرق



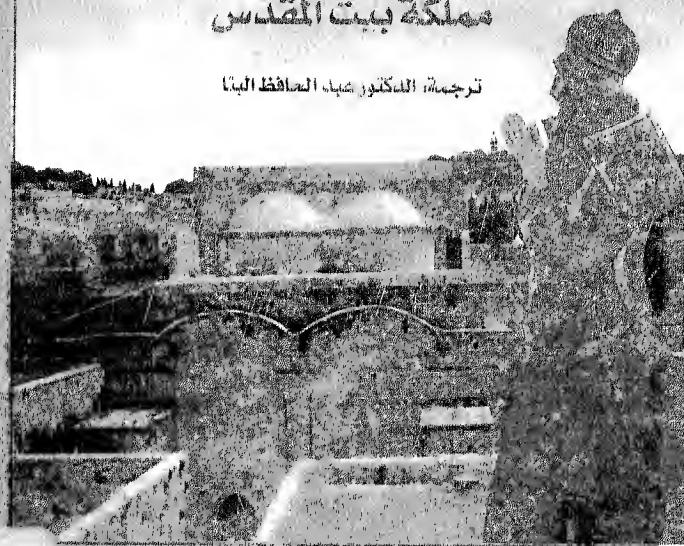
مكتبة الإسكندرية



الاستهلال الصالحة في الحج

حملة بيت المقدس

ترجمة الدكتور عبد العاظم البابا



Bibliotheca Alexandrina



0354151



للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية

FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES